

مركز الدراسات العربي - الأوروبي
باريس



تيودور هانف

لبنان

تعايش في زمن الحرب

من انهيار دولة الى انبعاث أمة

نقله عن الألمانية

موريس صليباً

لبنان

تعايش في زمن الحرب

تيودور هاتف

لبنان

تعايش في زمن الحرب

من انهيار الدولة الى اتبعات الأمة

نقله عن الألمانية

موريس صليبيا

مركز الدراسات العربي - الأوروبي
باريس

الطبعة الأولى ١٩٩٣

© حقوق الطبع محفوظة ولا يجوز الاقتباس أو النقل إلا بأذن خطي من الناشر.

مركز الدراسات العربي الاوروبي - باريس

Centre d'Etudes Euro - Arabe

23 rue de Washington 75008 PARIS

تخليداً لذكرى

ميشال آلاز

مروان بحيري

يوحنا مارون

مالكولم كار

ميشال سورا

رياض يونس

تقديم

ان هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي اليوم ليس بحاجة الى تقديم مفصل، لأن النص هو الذي يقدم نفسه ويفصح عن فرادته العلمية النادرة. وما هذه الكلمة التي نذكرها هنا بعجالة إلا للتذكير ببعض المزايا التي يختص بها هذا البحث منهجياً ومضموناً وكثافة في المعلومات تجعل منه كتاباً رائداً في ميدان التأريخ السياسي الاجتماعي الحديث لواحدة من اهم الازمات التي اجتازها العالم العربي المعاصر.

ان ما اصطلح على تسميته بـ «الازمة اللبنانية»، اي تلك الحرب التي حُوت الى حرب اهلية بعد اندلاعها عام ١٩٧٥، هي في الحقيقة ازمة محورية في التاريخ الحديث للشرق الاوسط. انها كانت القلب الذي تكاثفت داخله العديد من المعطيات التي اجتازتها المنطقة منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى اللحظة الراهنة. ازمة تشكل المخاض والانفجارات التي ظلت كامنة خلال القرن العشرين حتى تجسدت بكل ابعادها داخل الحرب اللبنانية. ان هذه الحرب ليست صنيعة نفسها، بل جاءت نتيجة حتمية لتطورات سابقة لم يتم حسمها داخل المنطقة لا على صعيد السلطات السياسية، ولا على صعيد المجتمع العربي الذي رغم تشكيلته الداخلية التعددية، درج على الاستمرارية في حقبة من التعايش السلمي الذي تُهمشُ وفقه كل الاختلافات الطائفية او العرقية من اجل خصوصية حضارية عامة كان دوماً يستطيع ان يعيش داخل سياقها ويمنح شيئاً ثقافياً وفكرياً للعالم.

لقد كُتِبَ الكثير عن لبنان وفي كل اللغات سيما منذ ١٩٧٥ (تاريخ اندلاع الازمة)، حتى ان الحجم الهائل للكتابات جعلت احد المؤرخين يقول «لو فرشنا اوراق الكتب والابحاث التي تناولت الازمة اللبنانية على ارض لبنان بكل مساحتها لغطت هذه المساحة». ولذا يجدر التساؤل: ما الذي يتميز به كتاب جديد عن هذا الموضوع؟ وهنا يبرز التميز الفريد لهذه الموسوعة المعنونة «لبنان: تعايش في زمن الحرب»، انه كتاب لا يغني تماماً عن كل ما كُتِبَ سابقاً حول الموضوع فحسب، بل ويغلق هذا الموضوع لعشرات السنوات القادمة، هذا مع انه سيكون مرجعاً اولياً واساسياً لكل دراسة يمكن لها ان تكتب عن لبنان او عن الشرق الاوسط مستقبلاً.

لقد امضى المؤلف البروفسور «تيودور هانف» اكثر من ستة عشر عاماً في تأليف هذا

الكتاب: يستجوب الشخصيات السياسية والعسكرية اللبنانية والاقليمية، ويحلل كل ما تكتبه الصحف اللبنانية والعربية والاجنبية، ويقوم بتحقيقات واستفتاءات ميدانية على الارض بين الطوائف والطبقات الاجتماعية خاصة العمالية منها، اضافة الى دراسة متعمقة للتاريخ اللبناني وتاريخ الشرق الاوسط، ويخضع كل ذلك بالتالي الى منهجية لا ينفصل فيها التاريخ السياسي عن البنية الاجتماعية. منهجية هي نتاج خصب للعقلانية الالمانية الصارمة عندما تدرس مجتمعنا العربي وتاريخنا الحديث وفق منظور علمي موضوعي ومقاييس شمولية قد يقفل عنها الباحث العربي.

هناك خصوصيتان يتميز بهما الكتاب: الاولى هي انه اعتبر الازمة اللبنانية الحلقة الجوهرية داخل سلسلة يشكّلها تاريخ الشرق الاوسط الحديث، وهي ازمة ليست راهنة بل تمتد جذورها الى القرن التاسع عشر. ثم من خلال هذه الازمة يمكن التأريخ لمنطقة الشرق الاوسط برمتها بكل الفيضانات العنيفة التي اجتاحتها سياسياً وعسكرياً.

وهناك خصوصية اخرى هي ان «تيودور هانف» لم يفصل ما هو سياسي عما هو مجتمعي. فان الارضية السوسولوجية للمجتمعات العربية، بكل دينامياتها البنوية الداخلية تحضر في الكتاب كمسببات منطقية تطرح بالضرورة البنى الفوقية الخاصة بتطور الاحداث السياسية، او باختبار الصيغ الدستورية للسلطات، او التمهصلات التطبيقية والايديولوجية للقوى والاحزاب السياسية الشاخصة على الساحة.

منظور شامل للتاريخ العربي الحديث، وهو في حركيته المعاصرة المتداخلة عضواً في عناصرها الضمنية المتعددة. هذا المنظور الشامل يأتي عبر، ومن خلال الأزمة اللبنانية، لأجل طرح قياس تأملي نهائي حول مسار الشرق الاوسط ومستقبلته.

ان مركز الدراسات العربي - الاوروبي عند اصداره الآن للترجمة العربية لهذا الكتاب الموسوعي، فإنه يأخذ بذلك مبادرة مباشرة بعد صدور ترجمته الانكليزية، ويسبق صدور ترجمته الفرنسية التي هي في طور الاعداد. وبهذا يسد المركز فراغاً كبيراً داخل المكتبة العربية، ويقدم عملاً علمياً دقيقاً سواء للباحث المتخصص، او للقارئ داخل العالم العربي، في مجالي التاريخ المعاصر والسوسولوجيا السياسية.

د. صالح بكر الطيّار

مستشار قانوني

رئيس مركز الدراسات العربي - الاوروبي

كلمة شكر

خلال اعداد هذا الكتاب وجمع مواده والقيام بالابحاث والتحقيقات الميدانية، تلقى المؤلف الكثير من النصح والمساعدة.

الزملاء والاصدقاء، بطرس لبكي، انطوان مسرة، وسليم نصر، وقروا له، عبر المناقشات الطويلة وفي فترات متعددة، الكثير من المعلومات والتوجيهات. لبكي ومسرة سمحا له بالاعتماد على دراساتهما غير المنشورة، كما ساعداه في اختيار المصادر والوثائق العربية. اما سليم نصر فقد قام بالاختبارات التجريبية للاستمارات، كما شارك مع المؤلف في اعداد تقنيات ووسائل الاستقصاء.

كذلك سهل له ابراهيم شبلي، وأوجين مخلوف، وموسى ماوز، ونبيل نصر الله، المقابلات واللقاءات مع الفعاليات السياسية والعسكرية.

شخصيات قيادية في لبنان والدول المجاورة له، تكرمت بجزء من وقتها الثمين لمقابلته والنقاش معه. ذكر بعضهم في هذا الكتاب، وفضل البعض الآخر عدم الاشارة الى اسمه.

فضلاً عن ذلك، قامت "باترا باورله"، و"غردا فيرداغ"، بتحليل نتائج الاستمارات، و"الزا بوشمان" و"ارينيه دياس" و"هلا ديكونف"، و"بياتريكس هوخشتاين"، و"جاكوب روزل"، بمراجعة دقيقة للمخطوط، و"اريبارت زيغلر" بعملية التوثيق. كذلك قامت "انجلا هارمان" بتدوين محاضر عدد كبير من المقابلات في لبنان، كما اشرفت مع "الاميرة شتراخفيتز" على اعداد المخطوط. وقامت ايضا "كريستل فايلاند" برسم الخرائط، و"زيغرون دوزاك" بتحضير النصوص للطباعة.

اما تمويل الاقامة في لبنان للبحث والدراسات والتحقيقات الميدانية والمقابلات، فقد وفرتها "الجمعية الالمانية للابحاث"، و "المعهد الالمانى للابحاث التربوية الدولية"، و "دائرة العمل الكاثوليكي للتنمية والسلام". في لبنان استفاد المؤلف من حسن ضيافة "انجلا وغرهولد آرنس"، ومن التسهيلات التي قدمها له مدراء "المعهد الالمانى للدراسات الشرقية" كل من "اولريش هيرمان"، "غارنوت روتتر"، و"انطون هاينز".

لذلك يطيب له التعبير عن امتنانه واعترافه بفضل هؤلاء الزملاء والمعاونين والمشجعين، الذين لولا تعاونهم الصادق، لما تمكن من انجاز هذا الكتاب. كما يتحمل بمفرده كامل المسؤولية عن النواقص او الاخطاء الواردة فيه.

ويتوجه بالشكر ايضاً الى الزملاء اللبنانيين الذين قاموا بالتحقيقات الميدانية في ظل ظروف الحرب الصعبة. كما يوجّه شكرًا خاصاً الى أن ماري، ودومينيك، و فيرينا، لفهمهم وتشجيعهم ومحبتهم.

تيودور هانف

جرى نقل هذا الكتاب من الأصل الألماني الى العربية مع بذل الجهد للحفاظ على دقة ومضمون النص الأصلي، دون أي تصرف أو تغيير. كما أنّ الآراء والمواقف الواردة فيه لا تمثل بالضرورة آراء ومواقف المترجم أو الناشر.

محتويات الكتاب

هل هناك شعب اضافي في الشرق؟

ملاحظات تمهيدية حول جذور النزاع في لبنان

الفصل الأول - تسوية النزاعات والأزمات في الدول التعددية..... ٢٥

- ١- تكاثر الدول التعددية في القرن العشرين..... ٢٥
- ٢- تكامل ام تعايش؟ تغيير في توقعات العلوم الاجتماعية..... ٢٩
- ٣- محاولات التفسير الثقافية والاقتصادية..... ٣٤
- ٤- طرائق الدمج : الربط بين التحليل الاقتصادي والثقافي..... ٣٩
- ٥- نشوء النزاع اثناء عملية الدمج..... ٤٤
- ٦- اشكال تسوية النزاعات وايدولوجيتها..... ٤٦
- ٧- ايدولوجيات التجمعات واستراتيجيتها..... ٥٦
- ٨- الحرب الأهلية وتسوية النزاع..... ٦٢
- ٩- الدول التعددية والأزمات الدولية..... ٦٤
- ١٠- النموذج اللبناني..... ٦٥

الفصل الثاني - النموذج اللبناني : تعايش ما قبل الحرب..... ٧١

- ١- التعايش عبر التاريخ..... ٧٣
- ٢- الميثاق الوطني ونظام النسبة..... ١٠٠
- ٣- الأحزاب، العائلات، والزعماء : تمثيل المصالح قبل الحرب..... ١٠٣
- ٤- النزاعات حول توزيع السلطة..... ١١٦
- ٥- الطبقة والطائفة والنزاعات الاقتصادية..... ١٢٩
- ٦- السيادة الخارجية كنزاع حول الهوية..... ١٤٦
- ٧- استخدام التعايش وسوء استخدامه..... ١٥٠
- ٨- مجالات النزاع واستراتيجيات الطوائف..... ١٧٠

الفصل الثالث - من اطراف الرياح الى وسط العاصفة

في نزاع الشرق الاوسط : عناصر النزاع غير اللبنانية..... ١٨٣

- ١- الصراع العربي الاسرائيلي محور السياسة العربية..... ١٨٦
- ٢- الحركة القومية الفلسطينية..... ١٩٠
- ٣- أزمة القومية العربية وبقطة الأصولية الاسلامية..... ١٩٦
- ٤- محاولات تسوية نزاع الشرق الاوسط والازمات الداخلية..... ٢٠١
- ٥- نهاية حياد ضعيف المناعة..... ٢٠٦
- ٦- ارض بديلة للمعركة من اجل فلسطين..... ٢٢٣

الفصل الرابع - حرب مع وجوه عديدة..... ٢٢٩

- ١- فرقاء النزاع وتطوره ١٩٧٥ - ١٩٨٨..... ٢٢٩
- ٢- فرقاء النزاع واسيادهم..... ٢٣١
- ٣- حرب على جبهات عديدة..... ٢٤٦
- ٤- حرب بين الفلسطينيين والاحزاب المسيحية..... ٢٥٧
- ٥- تحويل النزاع الى حرب اهلية..... ٢٦٠
- ٦ - التدخل السوري ضد مبادرات التقسيم..... ٢٦٥
- ٧- جبهة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية ضد الجبهة اللبنانية..... ٢٦٧
- ٨- التدخل السوري ضد الفلسطينيين والحركة الوطنية..... ٢٧١
- ٩- مواصلة الحرب في جنوب لبنان بين الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين..... ٢٨٣
- ١٠- اسرائيل تغزو جنوب لبنان..... ٢٨٥
- ١١- نزاع السوريين والجبهة اللبنانية..... ٢٨٨
- ١٢- حرب اهلية بين المسيحيين..... ٢٩٣
- ١٣- حرب سورية ضد الجبهة اللبنانية..... ٢٩٧
- ١٤- حروب صغيرة..... ٣٠١
- ١٥- حرب شيعية - فلسطينية..... ٣٠٤
- ١٦- الجبهة اللبنانية ومحاولات توسعها..... ٣٠٧
- ١٧- حرب الأربعة عشر يوماً الاسرائيلية - الفلسطينية..... ٣١٤
- ١٨- حروب صغيرة قديمة وجديدة..... ٣١٥
- ١٩- حرب اسرائيلية - فلسطينية..... ٣١٩
- ٢٠- حرب باردة حول لبنان..... ٣٢٧

- ٢١- حرب اهلية بين الدروز والقوات اللبنانية..... ٣٣٩
- ٢٢- انتفاضة شيعية ضد اسرائيل ومقاطعة الحكم..... ٣٤٣
- ٢٣- حرب ضد الاتفاق الاسرائيلي - اللبناني..... ٣٤٧
- ٢٤- حرب اهلية بين الفلسطينيين في لبنان..... ٣٦٠
- ٢٥- محاولات التقارب والحروب الصغيرة..... ٣٦٢
- ٢٦- انتفاضة داخل القوات اللبنانية وحرب اهلية شرق صيدا..... ٣٦٦
- ٢٧- "حرب المخيمات" أمل ضد الفلسطينيين..... ٣٧١
- ٢٨- حرب بين حركة أمل وميليشيا الدروز..... ٣٧٣
- ٢٩- حرب اهلية حول زحلة وطرابلس..... ٣٧٤
- ٣٠- الصراع حول اتفاق الميليشيات في دمشق..... ٣٧٥
- ٣١- حرب المخيمات في بيروت وصيدا..... ٣٨٢
- ٣٢- حرب في بيروت الغربية بين حركة أمل والقوى اليسارية..... ٣٨٤
- ٣٣- حرب اهلية شيعية : حركة أمل ضد حزب الله..... ٣٨٦
- ٣٤- حرب اهلية بين الفصائل الفلسطينية..... ٣٨٩
- ٣٥- حرب باردة حول الدولة اللبنانية..... ٣٩٠
- ٣٦- حرب صغيرة حول "الحزام الأمني"..... ٣٩٣

الفصل الخامس - عنف دون انتصار

- ٣٩٥..... اشكال الحرب، كلفتها، عواقبها
- ١- الرعب ظاهرة يومية..... ٣٩٦
- ٢- من تعبئة الفئات الشعبية الي تسلط المرتزقة..... ٤٠٥
- ٣- الميليشيات والجيش في هدنة غير مستقرة..... ٤١١
- ٤- جمارك الدم..... ٤١٧
- ٥- الهرب والتهجير..... ٤٢٢
- ٦- نزوح وهجرة اليد العاملة..... ٤٢٩
- ٧- اقتصاد الحرب..... ٤٣٢
- ٨- الحياة اليومية اثناء الحرب..... ٤٤١
- ٩- استقرار الرعب..... ٤٤٤

الفصل السادس - الثعالب والذئاب

- تصورات السياسيين ورؤساء الميليشيات عن النزاع.....٤٤٧
- ١- تصورات المشكلة ما قبل الحرب٤٤٨
- ٢- تصورات اسباب الحرب٤٦٠
- ٣- اسباب الحرب في نظر "الحمام" اللبنانيين٤٨٢
- ٤- "نحن" و "الآخرون"٤٩١
- ٥- مساومة او انتصار؟٥١١

الفصل السابع - تعايش في زمن الحرب

- مواقف وآراء العمال اللبنانيين (١٩٨١ - ١٩٨٧)٥٢٧
- ١- امكانية مقارنة نتائج التحقيقات الميدانية٥٣١
- ٢- تحقيقات عام ١٩٨٧٥٣٦
- ٣- المواقف النفسية والاجتماعية٥٥٧
- ٤- الخلفية الاقتصادية والارتياح المهني٥٦٤
- ٥- الاقتصاد والمجتمع٥٧٩
- ٦- الدين، والعائلة، والطائفة٥٨٥
- ٧- النظام السياسي٥٩٦
- ٨- الاتجاهات السياسية٦٠٣
- ٩- الدين والسياسة٦٢٦
- ١٠- صيغ تسوية النزاع٦٣٥
- ١١- حظوظ التعايش٦٥٤
- ١٢- تعايش في ظل اوضاع شديدة التآزم٦٦٣

الفصل الثامن - موجز عن تكوين النزاع واستمراره٦٧٥

- ١- لبنانيون ضد لبنانيين٦٧٨
- ٢- عسكرة النزاع٦٨٣
- ٣- تدخلات دون انتصار٦٨٤
- ٤- تطورات تحول لدى فقاء النزاع اللبنانيين٦٨٧
- ٥- تصورات خاطئة لمصالح الحلفاء الخارجيين٦٨٨
- ٦- اهداف الجيران العرب٦٨٩

٦٩٢ نهاية ديمقراطية التوافق بسبب فشل النخبة والأزمة الدولية.

الفصل التاسع - انهيار الدولة

٦٩٣ الطريق نحو التبعية (١٩٩٠ - ١٩٩٨)

- ٦٩٣ ١- لبنان دون رئيس
- ٦٩٩ ٢- العماد ميشال عون ومحاولة إعادة بناء الدولة
- ٧٠٠ ٣- قصف مدفعي وحصارات
- ٧٠٢ ٤- المتفجرون على النزاع
- ٧٠٧ ٥- الوسطاء
- ٧١٢ ٦- مؤتمر الطائف أو فرصة الثعالب
- ٧٢١ ٧- انتخاب رئيس واغتياله
- ٧٢٦ ٨- حليف لسورية كرئيس لبناني
- ٧٣٠ ٩- حرب بين الجيش والمليشيات في المنطقة المسيحية
- ٧٣٤ ١٠- فقدان المصداقية
- ٧٣٦ ١١- فرق تسد

الفصل العاشر - الجمهورية الثانية ورأس "جانوس"

٧٤١ انتهاك السيادة (١٩٩٠ - ١٩٩٢)

- ٧٤٢ ١- في ظل النزاع الكويتي - العراقي
- ٧٤٤ ٢- تعديل الدستور
- ٧٤٥ ٣- اسقاط العماد عون
- ٧٤٨ ٤- تحرير بيروت من المليشيات
- ٧٤٩ ٥- حكومة وحدة وطنية
- ٧٥١ ٦- نزع سلاح المليشيات
- ٧٥٤ ٧- "معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق" مع سوريا
- ٧٥٦ ٨- تعديل قانون الانتخابات التشريعية وتعيين النواب
- ٧٥٧ ٩- تجريد منظمة التحرير من السلاح
- ٧٦٠ ١٠- تحريف اتفاق الطائف
- ٧٦٣ ١١- انتخابات مزورة
- ٧٦٨ ١٢- انتخابات أقلية من المقترعين
- ٧٧٢ ١٣- تطور نحو التبعية

الفصل الحادي عشر - انبعاث أمة

- ٧٧٧..... خاتمة وتوقعات
- ٧٧٨..... ١- حركات السلام والوحدة.
- ٧٨١..... ٢- أسس لتوافق جديد
- ٧٨٣..... ٣- هل لبنان أمة تتبع متأخرة جدا؟
- ٧٨٥..... ٤- الجار ومستقبله الغامض
- ٧٨٧..... ٥- "كثبان من الرمال المتحركة"

الملاحق

- ٧٨٩..... المصادر الأجنبية
- ٨٠٣..... المصادر العربية
- ٨٠٤..... استمارة التحقيق
- ٨١٢..... فهرس جغرافي
- ٨١٧..... فهرس الأسماء
- ٨٢٣..... فهرس الموضوعات

هل هناك شعب إضافي في الشرق؟

ملاحظات تمهيدية حول جذور النزاع في لبنان

نظام اللعبة:

لكل لاعب كرسي ماعدا واحد منهم. عندما تعزف الموسيقى، يسير اللاعبون جنباً إلى جنب حول الكراسي. وعندما تتوقف، يسرع كل لاعب ويجلس على أقرب كرسي منه. أما الذي لا يحصل على كرسي، فيُفصل تلقائياً. هذه هي "لعبة طريق القدس".

هل يوجد في الشرق بلد أقل أم شعب أكثر؟

شارل مالك

تمرّ طريق القدس عبر قمم جبال لبنان وعبرجونيّه.

أبو أياد

على الشواطئ الشرقية من البحر الأبيض المتوسط، تُمارس، منذ بعض العقود، "لعبة طريق القدس"، بطرق وأساليب تثير الدهشة والرعب. فعندما تتوقف موسيقى التحريك الديبلوماسي، ينفجر حالاً الصراع المسلح حول الكراسي. توقفت هذه الموسيقى للمرة الأولى عام ١٩٤٨ ثم توقفت لاحقاً عدة مرات عام ١٩٥٦، ١٩٧٦، ١٩٧٣، ١٩٧٥. وقد توقفت في المرة الأخيرة عام ١٩٨٢.

في الجولة الاولى، دار الصراع حول الكرسي الفلسطيني. ومنذ عام ١٩٧٥، يدور هذا الصراع حول الكرسي اللبناني. وبما ان الأمر ليس لعبة على الاطلاق، فلم يحترم اي من الفرقاء نظامها. لذلك لم يقبل اي لاعب بفصله، ولم يبد احد اي استعداد لتقاسم كرسيه مع آخر.

جلس الاسرائيليون على كرسي الفلسطينيين. وهؤلاء حاولوا الجلوس على كرسي اللبنانيين كمرحلة في "طريقهم الى القدس"، كما يدعون، او كبديل عن كرسيتهم التي فقدوها. وكذلك تخوف بعض اللبنانيين، خاصة المسيحيون منهم.

قبل عام ١٩٧٥ تقاسم المسيحيون والمسلمون الكرسي اللبناني بنوع من التفاهم والانسجام. ومنذ ذلك الحين حاربوا بضراوة حول كل شبر من ارض لبنان، خوفا من ان يبعد احدهم نهائيا عن مكانه.

لقد استدعي او انتدب عدد من الوسطاء للتحكيم في النزاع. فلم يتخذ اي منهم موقفا حاديا، بل بالعكس اسهموا كلهم في تعميق الخلافات، كما دفعوا مختلف الفرقاء الى مواصلة الصراع بحزم وعناد بغية تأمين مكان لهم مهما بلغ الثمن.

اذا ما فقد احد الفرقاء كرسيه، يعرف انه سيصبح تحت سيطرة قوة خارجية، او سيهجّر من ارضه، او سيعيش في مخيمات اللاجئين او سيهاجر، او سيصفي جسديا. فالخوف اذا من ان يصبح احدهم الخاسر النهائي، تحول الى دافع قوي وراء التحرك السياسي في البلدان المعنية بـ "لعبة طريق القدس".

اما المتفرجون على هذه "اللعبة"، فقد حاذرهم الخوف ايضا. الدول الكبرى تخوفت من المس بمناطق نفوذها. والدول المتوسطة تخوفت ايضا من تعرض مصالحها الاقتصادية للخطر. ولكن فرقاء النزاع المباشرين تخوفوا في كل الحالات، سواء كانوا في وضع قوي او في وضع ضعيف، سواء بدا تخوفهم مبررا في نظر المتفرجين ام لا.

الخوف كان القوة المحركة للسياسة الاسرائيلية. فالناجون من اضطهاد النازية، والهازيون من الدول العربية، والمهاجرون الى اسرائيل بدافع الاقتتاع الصهيوني، يرون في الدولة اليهودية على ارض فلسطين الضمانة الوحيدة والاكيدة ضد اي مذبحة جديدة، وضد اي حياة يسودها التمييز العرقي او الديني.

الخوف كان القوة المحركة للسياسة السورية. للمرة الاولى في تاريخ سوريا تسلم زمام السلطة افراد من الاقلية العلوية. فبعد سنوات من الحرمان الاقتصادي والاجتماعي تسنى للعلويين التمتع بملذات الحكم. فالخوف من فقدان السلطة، والعودة مجددا الى التسكع في دياجير الهامشية وقلة الاعتبار، دفعهم الى اقامة نظام اكثر

شدة واستقراراً من الانظمة التي عرفتھا سوريا سابقاً. وكذلك الخوف من انتقام الاكثرية المحكومة حالياً والمغلوب على امرھا، دفع بالاقليّة الحاكمة الى التصلب والتشديد في المحافظة على تمسكها بالسلطة. فالقوة والبطش اصبحا سلاح النظام داخل سوريا الذي لايتوانى اطلاقاً عن سفك الدماء لردع اية محاولة تمرد او عصيان. وهذا ما حصل عام ١٩٨٢ عندما قام الاخوان المسلمون بحركة تمرد في مدينة حماه، رابع اكبر مدن سورية. لم يتردد الحكم السوري آنذاك عن استخدام الدبابات والمدفعية الثقيلة والطيران لتدمير قسم كبير من هذه المدينة وسحق التمرد، وقتل آلاف الاشخاص من السكان. هذه الشراسة يستخدمها النظام السوري ايضاً في الخارج عند الضرورة. فالطموح الى ممارسة دور رائد على مستوى السياسة العربية، من خلال السيطرة على لبنان وعلى المنظمات الفلسطينية، تعتبره القيادة السورية الحالية عاملاً جوهرياً في استراتيجية الحفاظ على المجموعة الشعبية التي تمثلها. ان فقدان سوريا لدورها الاقليمي، او اي حد من نفوذ السلطة الحالية على سوريا وحدها فقط، يعتبر تمهيداً لفقدان السلطة حتى داخل سوريا بالذات.

الخوف كان القوة المحركة للسياسة الفلسطينية. بعد عقدين من الزمن بدت الارادة السياسية لدى العرب الذين هربوا او هجروا من فلسطين مشلولة كلياً. في مخيمات اللاجئين التي اقيمت في البلدان المجاورة سيطرت حالة من اللامبالاة والخمول. فالذي طمح الى الثروة وكسب العلم، ترك حياة المخيم، وبذل جهداً حثيثاً لتحقيق حياة افضل سواء في الدول العربية او في الخارج. اما سياسة فلسطين والقضية الفلسطينية، فقد بقيتا حكرًا على الدول العربية. ولكن بعد هزيمة حرب الايام الستة عام ١٩٦٧، واحتلال اسرائيل لكل الاراضي الفلسطينية، وموجة التهجير التي رافقتها، تفجر الوعي والشعور القومي لدى الفلسطينيين. ولكن الاقتناع بعدم الاتكال منذ الآن فصاعداً على الدول العربية، وزوال كل امل بذلك كان المحرك المذهل والدافع القوي لانبعاث حركة المقاومة الفلسطينية. وهذا ما أدى فعلاً الى تعبئة وتعزيز الفكر القومي بين الفلسطينيين. فاي شك او تشكيك بوجود شعب فلسطيني اضمحل نهائياً عبر هذا الوعي المتفجر وهذا التحرك النشط. فتهديد وجود جماعة من البشر فجر بقوة شعورا وطنياً لم يماثله في العالم الثالث الا الوعي السياسي المشترك لدى الشعب الاسود في جنوب افريقيا.

لقد اثارت نقطة المقاومة الفلسطينية في الوقت ذاته تعريضها للخطر. فقد قابلتها اسرائيل، ذات القوة العسكرية المتفوقة، بعمليات هجومية ودفاعية لم تستهدف قواعد الفلسطينيين فحسب، بل الدول المستضيفة للاجئين الفلسطينيين ايضاً. لذلك، ورغم تأييدها للقضية الفلسطينية، اضطرت هذه الدول، حفاظاً على امنها وسيادتها، الى

وضع حد لحرية حركة المقاومة. فالذي ذكر الاسرائيليين باحداث "مسّادا"، حصل فعلا للفلسطينيين في "ايلول الاسود"، وهذا ماتخوف الفلسطينيون من الوقوع به في لبنان الذي تحول واصبح آخر معقل لهم. فالخوف من تعرضهم لكارثة جديدة بفقدان قوتهم العسكرية والسياسية، دون ان لا يكون سوى البحر وراءهم، دفعهم الى مثل هذا التصرف في لبنان.

الخوف كان ايضاً القوة المحركة لنضال المسيحيين اللبنانيين. مثلما حدث مع الاردنيين، تخوّف المسيحيون اللبنانيون، كما تخوف عدد كبير من مواطنيهم المسلمين، من الغارات الانتقامية الاسرائيلية رداً على العمليات العسكرية التي يمارسها الفلسطينيون انطلاقاً من الاراضي اللبنانية. ولكن لخوف مسيحيي لبنان ابعاد عميقة. لبنان هو، بالنسبة لهم البلد الوحيد في العالم العربي، حيث لايعتبر المسيحي، واقعا اوقانونا، مواطناً من الدرجة الثانية. في لبنان يتساوى المسيحيون مع المواطنين من الطوائف الاخرى. ولكن اضافة اكثر من نصف مليون فلسطيني مسلم الى لبنان، سيحدث تغييرا ليس لصالحهم، كما يتخوفون، خلافاً كبيراً في التوازن القائم بينهم وبين المسلمين. كما أن وجود قوات فلسطينية مسلحة على ارض لبنان، لاسلطة ولا رقابة للحكم اللبناني عليها، سيزرع اسس ومقومات الدولة الوحيدة ذات النظام الديمقراطي الليبرالي في الشرق العربي.

من هذا المنطلق يمكن ادراك عقدة خوف وعزم المسيحيين على تثبيت ذاتيتهم في لبنان الحديث، والتي تبررها خلفيات الاحداث التاريخية التي عاشتها الاقليات غير المسلمة في ظل الحكم الاسلامي. فالمفهوم الاسلامي التقليدي لايفرق اطلاقاً بين الامور الدينية والعلمانية، اي لايقبل بفصل الدين عن الدولة. كما ان الواجب الديني يحتم على كل مسلم فرض سلطة الاسلام حيث ما امكن. والشرعية الاسلامية ينبغي ان تفرض. وعلى المسلم ان يحكم. وشعب الدولة هو الشعب المسلم، اي جماعة المؤمنين. اما اتباع الديانات الكتابية، كالمسيحيين واليهود، فيعاملون كقناة يسمح لها بالعيش في ظل "حماية" الدولة الاسلامية، اذا قبلوا بالخضوع لها. وليست هناك امكانية لمساواتهم بالمسلمين. هذا وترتفع اصوات غالباً في لبنان كما في دول عربية اخرى، لتذكر بهذه الشريعة وتطالب بتطبيقها. وهذا ما يذكر المسيحيين بانظمة عديدة كانت تطبق عليهم سابقاً كـ "ذميّين". وهذا يعني نزع الحق عنهم بحمل السلاح والشهادة في المحاكم ضد اي مسلم، وركب الاجصنة. كما فرض عليهم، في وقت من الاوقات، لباس معين، يسمح بتمييزهم سريعاً. قد يبدو ذلك من مخلفات الماضي وبعيد التحقيق في عصرنا الحاضر. ولكن ما يغذي الخوف لدى المسيحيين اللبنانيين من تكاثر عدد المسلمين هو ما يأتي ايضاً من وراء الحدود. ففي كل الدول العربية

الأخرى، يعتبر الإسلام بموجب الدستور، دين الدولة، أو على الأقل، كما هي الحال في سوريا، دين رئيس الدولة. كما ان اعتناق الإسلام مسموح به، انما الكفر به والارتداد عنه فمحرم. وبالتالي يحق للمسلم الزواج من امرأة مسيحية أو يهودية، بينما لا يحق للمسيحي أو لليهودي الزواج من امرأة مسلمة. وهكذا لن يستطيع المسيحيون اطلاقاً التأثير عددياً على الاكثريّة في المجتمع.

ان وضعهم الاقتصادي يعتبر افضل من اوضاع غيرهم، كما هي الحال عادة بالنسبة للأقليات المحصورة. واما دورهم السياسي، فيهمش حتى وان كانوا في وضع عددي قوي، كما هي حال الاقباط في مصر.

اذاء، فلا الاحداث التاريخية ولا اوضاع الاقليات في بعض البلدان العربية، يمكن ان تقنع المسيحيين اللبنانيين بقبول وضعهم كأقلية في مجتمع تحكمه اكثرية مسلمة. لذلك يتمسكون ببلد كلبان، حيث تمكنوا منذ أكثر من قرن، من تقرير مصيرهم. اما الشعارات المنتشرة بينهم، مثل، "ترفض العيش كذميّين" أو "لا للتقبيط" (أي لا للعيش مثل الاقباط في مصر)، فهي تعبير صارخ عن خوفهم العميق من مستقبل قد يتحولون فيه الى اقلية.

الخوف اخيراً كان القوة المحركة للطوائف الاسلامية ايضاً في لبنان. ان المسلمين السنة لايتخوفون من الفلسطينيين الذين هم باكثريتهم من السنة، بل يعود خوفهم على مايبودو، الى فقدانهم البطيء للسلطة. فقد كان اهل السنة، حتى نهاية الامبراطورية العثمانية يشكلون الاكثريّة المطلقة والسلطة الحاكمة. اما في الجمهورية اللبنانية، فقد تحولوا الى اقلية بين اقلّيات، حتى وان تسنى لهم حتى الان ممارسة مسؤولية كبيرة في حكم هذا البلد.

فمنذ اندلاع الحرب، التي شاركوا فيها هامشياً فقط، تحول السنة، في ظل الطائفة الشيعية المسلمة التي تتجاوزهم عدداً وتتفوق عليهم نضالاً، الى اقلية عددية، حتى في عرين معقلهم في غرب بيروت.

اما قوة المسلمين الشيعة فقد نمت كثيراً دون ريب، كما ازداد ايضاً خوفهم. لقد وقعوا، في جنوب لبنان كما في ضاحية بيروت الجنوبية التي اصبحت مركزهم الرئيسي، في فخ بين مطرقة الاسرائيليين وسندان الفلسطينيين. فأكثر من ربع مليون نسمة من الشيعة اضطروا الى الهرب من منازلهم، ومازال عدد كبير منهم يتحمل عبء المواجهة مع اسرائيل وانعكاساتها.

وبالنسبة للدروز، اقل طوائف المسلمين عدداً، لم يعترهم الخوف فقط، بل شعروا في عام ١٩٨٣ بالتهديد المميت اثناء الهجوم الذي شنته عليهم الميليشيات المسيحية

في جبل الشوف، اي في عرين معقلهم. آنذاك اضطر اكثر من نصف الدروز الذين بلغوا سن الرشد الى حمل السلاح دفاعا عن منطقتهم. فقد انتصروا على تلك الميليشيات، بقتل عدد كبير من عناصرها، وتهجير كل السكان المسيحيين تقريبا من منطقة الشوف. وهكذا تمكنوا من توسيع رقعة "كرسيهم" في لبنان. ولكن نظرا لعددهم الضئيل وضعف امكانياتهم لاسكان عدد كاف من جماعتهم في المناطق التي وقعت تحت سيطرتهم، اخذوا منذ ذلك الحين يشعرون بالخوف على فقدان ماغنموا به.

تعرف النزاعات عادة عوامل ودوافع محركة عديدة، كالمصالح الاقتصادية وما يعاكسها، المثل والطموحات، الاطماع والهيمنة، القناعات، والحسد، الخ.. ولكن تحليلها يحتم البحث في كل هذه العوامل، كما يفرض التعمق بمعانيها وابعادها. اما عامل الخوف فلا يعطى عادة الاهمية التي يستحقها. فهو يدفع، في النزاعات المبررة او غير المبررة وبقدر واسع جدا، الى تأزيم وتصعيد المواقف، وتشديد التقاوم في الاتجاهات، والابتعاد عن التوصل الى اتفاقات وتسويات ممكنة.

في الشرق الاوسط حاليا، عاشت وتعيش فئات عديدة حالة من الذعر والخوف على وجودها ومصيرها لاسباب واقعية. هذه الاسباب بالذات تكمن وراء الخوف لدى الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين. الاولون يريدون استرجاع وطن لهم، والآخرين عدم فقدان وطنهم. لذلك تحاول كل فئة من الفئات تقرير مصيرها. وكما اشير سابقا، الخوف لا يحرك الفئات المهددة او الضعيفة نسبيا فقط، بل ايضا الفئات ذات النفوذ القوي. كذلك الخوف هو ايضا عامل هام وراء السياسة الاسرائيلية، كما هو وراء السياسة السورية. فعندما يندلع اي نزاع مسلح، يعتري الخوف كل من يشارك في النزاع او يتعرض له. ففي النزاع اللبناني لا توجد فئة من الناس لا تخاف على وجودها ومستقبلها. فالسنة والشعبة والدروز يخافون على مصيرهم مثلما يخاف المسيحيون والفلسطينيون.

ان النزاع الذي حصل في السنوات الاخيرة في لبنان يمكن ادراكه فقط من خلال خلفيات عامل الخوف الذي يشعر به كل شريك في "لعبة طريق القدس"، اذا لم يبق له كرسي يجلس عليها. ان ما حصل في لبنان كان بالدرجة الاولى حربا بديلة حول فلسطين. ثم تحول الى نزاع حول وجود وبقاء مختلف الطوائف اللبنانية وما زال. ولكن الحرب البديلة التي مارسها غير اللبنانيين، او اللبنانيون انفسهم، هي ايضا حرب اهلية.

لايستهدف هذا الكتاب تحليل الصراع من اجل فلسطين، بل قضية النزاع وتسويته في لبنان. كيف كانت تسوى النزاعات سلميا في لبنان قبل الحرب؟ كيف

يفسر تحويل هذا البلد الى ساحة حرب بديلة، وبالوقت ذاته، الى ساحة حرب اهلية؟ كيف ينظر اللبنانيون، القيادات السياسية والعسكرية من جهة، والمواطنون العاديون من جهة اخرى، الى ما يحصل في بلدهم؟ ماذا يتمنون؟ ماذا يريدون؟ وهل توجد بعد امكانيات لاعادة بناء التعايش اللبناني؟

تجدر الاشارة الى ان بعض الاسباب التي ادت الى نزاعات داخلية بين اللبنانيين لم تكن مقنعة، بل اسهمت في تحويل لبنان الى ساحة حرب.

لذلك ينبغي توضيح "لعبة الأمم"، بانها ليست لعبة الامم على طريق القدس فقط، بل هي ايضا "لعبة الطوائف اللبنانية" التي يمكن ان تكون ايضا مميتة، اذ يتجاوز فيها عدد المغلوبين على المنتصرين.

الفصل الأول

تسوية النزاعات والأزمات في الدول التعددية

شكلت في مطلع هذا القرن دول كبيرة تعددية، مثل امبراطورية آل هابسبورغ وروسيا القيصرية والامبراطورية العثمانية، جزءا هاما من النظام الدولي. عاشت هذه الدول مشكلة سياسية متشابهة تتلخص في كيفية ايجاد صيغة للعيش المشترك بين شعوب مختلفة الاصول الاثنية والدينية، ومتعددة اللغات، ومتباينة الهويات، انبثقت عن التنوع والمعطيات القائمة. فقد اعيد تكرارا ومرارا البحث والتشكيك في شرعية الصيغ القائمة على واقع شمولي وديني في ضوء مفاهيم ومبادئ القومية الحديثة التي عرفت نجاحا كبيرا ابان الثورة الفرنسية وبعدها.

عرفت هذه القومية اتجاهين : الاول "سياسي - ذاتي" كما حدده "هانز كوهن"، والثاني، "موضوعي - ثقافي". يمثل الاول هدفا يطمح الى تحقيقه، ويشكل الثاني مفهوما محتما يفرض نفسه تلقائيا . فالقومية السياسية - الذاتية تستند الى قرار فردي يهدف الى تعميمه على الأمة. وهذا ما يفترض ارادة جماعية، اذ ينشأ وينمو ويحافظ عليه "عبر استفتاء يومي" كما يقول "ارنست رينان". اما القومية الموضوعية - الثقافية فتعتبر الأمة وكأنها امر مصيري فرضه القدر، وليس قرارا فرديا اتخذ بالاستناد الى التكوين الاثني او الى عامل اللغة او الثقافة. فمن الممكن تكوين أمة ذات مفهوم قومي سياسي - ذاتي، كما ان دولة ذات نظام سياسي مركزي، وارااض محددة، وشعب واحد، تستطيع بناء أمة. أما أمة ذات مفهوم موضوعي ثقافي فلا يمكن خلقها. فهي موجودة بحكم الامر الواقع، وتستطيع ان تسهم في بناء دولة.

١ - تكاثر الدول التعددية في القرن العشرين

تبيّن ان هذين المفهومين القوميين يشكلان عامل انفجار قوي جدا للدول الكبيرة التعددية. فقد ضعف كثيرا عدد من هذه القوميات خلال الحرب العالمية الاولى، كما

انهارت اثنتان منها في نهاية تلك الحرب^١. فقد اقرت الاتفاقات التي عقدت في احدى ضواحي باريس حدود الدول التي اقيمت على انقاض امبراطورية آل هابسبروغ والامبراطورية العثمانية. كما عمدت الدول الحليفة المنتصرة الى تقسيم اوربا الوسطى والجنوبية الشرقية، الى دول ذات أمم "موضوعية - ثقافية".

ولكن لم ينجح هذا الاجراء الا جزئيا فقط. فعملية "جمع" الشعوب والجماعات المتعددة اللغات والاديان، خلال قرون من التعايش المشترك، في امبراطورية عالمية، جعلت من المستحيل رسم حدود وفق معايير "موضوعية". فالدول الجديدة ضمت كلها تقريبا اقلية قومية كبيرة، وفقا لمنطق القومية المحتم، اي فئات وجماعات انضمامية وانفصالية. كانت كل منها تشكل امة وباستطاعتها ان تتحول الى دولة. ولكن الاقلية لم تكن راضية عن هذا التقسيم. فسرعان ما بدأت الاكثريات الحاكمة اهمال تحول المفهوم القومي من طابعه المحتم والمفروض الى طابع ارادي ذاتي. فكان على الاقلية ان تتخلى نهائيا عن خصائصها الذاتية وان تندمج كليا في بيئة الاكثرية. فبدلا من "سجن جماعي للشعوب" في امبراطورية آل هابسبروغ، حل مكانه عدد من "السجون الصغيرة لهذه الشعوب"^٢.

في المناطق الشرقية من الامبراطورية العثمانية فرضت القوات الحليفة المنتصرة سياسة اضعف تماسكا بكثير من سياستها في جنوب شرق اوربا. فمذ القرن التاسع عشر نشأت في تلك المناطق حركة قومية ذات منحى ثقافي - موضوعي، الا وهي القومية العربية^٣. ففي سبيل كسب العرب في الصراع ضد العثمانيين وارضائهم وعدت بريطانيا بتقديم الدعم لاقامة دولة عربية كبيرة بين النيل والفرات. وفي ذات الوقت تقريبا تعهدت بريطانيا بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، كما اتفقت مع فرنسا على تقاسم النفوذ في المنطقة باسرها. ولكن سرعان ما اندثر حلم الامبراطورية العربية عندما سحقت القوات الفرنسية عام ١٩٢٠ جيش الامير فيصل

١- Kernal H. KARPAT. The Ottoman Ethnic and Confessional Legacy in the Middle East, in: Milton

J. ESMAN and Itamar RABINOVICH (Eds.), Ethnicity, Pluralism, and the State in the Middle East. Ithaca and London 1988 p. 35 - 53

وعن الامبراطورية النمساوية - المجرية، راجع:

Adolph FISCHHOF, Österreich und die Bürgerschaften seines Bestandes, Wien 1869

٢- John COAKLEY, National Territories and Cultural Frontiers: Conflicts of principle in the formation of States in Europe, in: West European Politics, 5 (1982) p. 34-49

٣- Bassam TIBI, Vom Gottesreich zum Nationalstaat. Islam und Panarabischer Nationalismus, Frankfurt 1987;

Theodor HANF, Arabismus und Islamismus, in: Heinrich August WINKLER (Ed.), Nationalismus in der Welt von heute, Göttingen 1982, p. 157 - 176

في ميسلون واحتلت دمشق. على اثر ذلك سقط الشرق العربي تحت نفوذ السيطرة البريطانية والفرنسية كقوى منتدبة من قبل "عصبة الأمم". واهيمنت، حسب رغبة الدول المنتدبة، دول جديدة مثل فلسطين وشرق الاردن الذي فصل عنها فيما بعد، والعراق، ووضعت تحت سلطة الانتداب البريطاني، كما وضع لبنان وسوريا تحت سلطة الانتداب الفرنسي. وجاء رسم حدود هذه الدول اعتباريا، اذ لم تضم امما ذات منحى قومي ذاتي - سياسي او ذات منحى قومي موضوعي - ثقافي.

لم تقم اية دولة موحدة للعرب بل انشئت دول عربية متعددة، ضمت كل منها طوائف دينية، او فئات شعبية، كانت قد شكلت في ظل الحكم العثماني مجتمعات شبه قومية تتمتع بنوع من الحكم الذاتي. ورغم دمج هذه الجماعات - مثلما حصل لشعوب شرق أوروبا - في "خليط" معقد، لم تتحول اية من الدول الجديدة الى دولة لهذه الفئة او تلك. وهكذا تبين ان شروط انبعث شعور قومي عفوي كانت وهمية للغاية. فالذين كانوا يطمحون الى انشاء دولة عربية كبيرة كان عددهم ضعيفا، وبالتالي عاجزا عن تحقيق ذلك. والذين بالمقابل كانوا يطمحون الى بناء دولة لفئة معينة من الشعب، او لطائفة دينية، كان عددهم كبيرا ولكن توزيعهم "الخاطئ" لم يسمح لهم بذلك.

أتت نتائج اندثار دولتين كبيرتين تعدديتين بعد الحرب العالمية الاولى متشابهة كثيرا، سواء في أوروبا او في الشرق. فقد حل مكانها عدد كبير من الدول الصغيرة المتعددة الشعوب او الفئات السكانية مع خلافات حول الحدود، ومناقشات ونزاعات حول الهيمنة والتسلط. وفي الوقت نفسه، برزت فيها ذات المشكلة في السياسة الداخلية المركزية التي زعزعت الامبراطورية القديمة. وتتلخص هذه المشكلة بتسوية النزاعات بين الشعوب والاثنيات والطوائف الدينية المتواجدة في دولة واحدة. وهكذا كلما تصاغر حجم الدولة، كانت تسوية النزاعات تتعثر فيها أكثر مما تتسهل.

ادرك المسؤولون عن انشاء هذه الدول الجديدة تماما هذه المعضلة. ففي اتفاقات "سايكس بيكو"، كما في معاهدات الانتداب، لحظت بنود لحماية الاقليات، استرعت بعض الانتباه والاهتمام في عهد "عصبة الأمم".

ولكن تبدل هذا الوضع في نهاية الحرب العالمية الثانية بعد ما حلت "منظمة الأمم المتحدة" مكان "عصبة الأمم" التي حملت سابقا راية الانتصار العالمي لمفهوم القومية ذات المنحى الذاتي - السياسي. منذ ذلك الحين، اخذ ينظر الى الامم، وكذلك الى الشعوب، وكأنها ملك لسكان الدولة المقيمين فيها، سواء ساد بينهم تجانس ثقافي ام لا، او عبروا عن الرغبة بذلك ام لا. واذا لم يشكل سكان دولة ما امة، ينبغي ان

تنشأ لهم أمة. وهكذا أصبح "بناء أمة" خلال ثلاثة عقود من الزمن تقريبا، الشعار المعياري الرئيسي لجمعية الدول العالمية.

لهذا الأمر اسباب عديدة. فقد اراد الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الثانية تجنب اسباب الاضطرابات التي حصلت في مرحلة ما بين الحربين، وعدم الاستقرار الحاصل في الدول الناشئة حديثا، كما اتجهوا نحو قيام "اوضاع اكثر وضوحا". فاحداث السنة الاخيرة من الحرب التي شهدت هرب وتهجير الملايين من الناس في اوربا الوسطى والشرقية، دفعت الى الاهتمام بانشاء دول لشعوب اكثر تجانسا وانسجاما من الحال السابقة. وهكذا لم يتبق للاقليات الا الضغط الشديد على نفسها للاندماج في محيطها والالتزام بالتخلي نهائيا عن خصائصها ومميزات هويتها. اما فيما يتعلق بضمان حقوق الاقليات، فلم تؤيد ذلك اية اكثرية في منظمة الامم المتحدة.

فالانتصار العالمي للمفهوم القومي الارادي حصل خاصة نتيجة تحرير بعض المناطق في افريقيا وآسيا من الاستعمار. فالحدود التي رسمها المستعمر، جاءت تقريبا في كل مكان اكثر تعسفية من الحدود التي جرى رسمها في اعقاب اندثار امبراطورية آل هابسبورغ والامبراطورية العثمانية. فقد تم غالبا رسم الحدود دون الاخذ بعين الاعتبار للمعطيات الثقافية والسياسية التي كانت قائمة قبل الاستعمار. فكان التركيز على مصالح سلطات الاستعمار التنافسية في كل الحالات اهم من التركيز على مصالح الشعوب المستعمرة. فقد قسّمت الحدود التي رسمها المستعمر شعوبا كانت خلال قرون طويلة من الزمن متماسكة وموحدة. كما فرضت في الوقت نفسه على شعوب متخاصمة العيش معا في دولة واحدة. وعند حلول ساعة التحرير من الاستعمار، لم تنشأ سلطات الاستعمار اعادة النظر في الكيانات التي انشأتها وفق

٤- يبرز ذلك "فان دان بارغ" من وجهة نظر اليونسكو فيقول: "اليونسكو تستتكر كل نوع من التمييز الجماعي سواء اكان قائما على اُسس عرقية او إثنية. كما تستتكر حتما كل دمج قسري للمجموعات الإثنية، ولكنها توافق ضمناً على كل سياسة تشجع على الدمج عبر وسائل بعيدة عن كل الزام جبري. هذا الخط الايديولوجي يوافق معظم الدول الاعضاء. فالولايات المتحدة الاميركية كانت شديدة الاندماجية. ودول اوربا الغربية كانت في صدد اعطاء الحرية لمستعمراتها، بينما تحكمها أنظمة مركزية اندماجية. والبلدان الشيوعية التي كانت تسعى وتطالب بحقوق المجتمعات الوطنية بالاستقلال الثقافي الذاتي، كانت تجسد الأنظمة الأكثر مركزية. وبالنسبة لما يسمى بالأمم الجديدة، كانت طبقاتها الحاكمة ملتزمة، اقله كلامياً، باليديولوجية "التكامل القومي" الذي يعني القضاء على التنوع الانثي الداخلي. فالْيونسكو كانت، بالاختصار، في الخمسينات ومطلع الستينات، المتحدث الدولي عن ايديولوجية التخفيف من اشكال التمييز العرقي والاثني معاً". راجع: Pierre Van den BERGHE, The Present State of Comparative Race and Ethnic Studies, in Jan BARTING a.o.(Eds.), Problems in International Comparative Research in the Social Sciences, Oxford and New York 1979, p.23-24

المعطيات "الموضوعية الثقافية". وبالتالي، لم يهتم بهذا الأمر الا عدد قليل جدا من زعماء حركات التحرير. فقد تركزت قوميتهم بالدرجة الاولى على التحرر من سلطات الاستعمار وعلى التحرر الاقتصادي. اما الخصائص المرتبطة بالاصول الاثنية والدينية واللغوية، فقد استخدمها المستعمر في سياسته المعروفة والقائمة على مبدأ "فرق تسد"، واستغلها فقط في اطار الصراع حول حق تقرير المصير واختيار النظم الاقتصادية. وهكذا برز اتفاق صريح بين الحكام السابقين والحكام الجدد - وان كان ذلك لاسباب مختلفة - حول عدم المسّ اطلاقا بالحدود التي رسمها الاستعمار. وبعد الاستقلال تبين ان البنى الاستعمارية للدولة هي اقوى بكثير مما كانت عليه سابقا. فالخوف من اندلاع ممكن لسلسلة من ردّات الفعل هنا وهناك في سبيل اعادة النظر بالحدود التي رسمها الاستعمار، ادى الى تثبيتها رسميا، كما حصل مثلا في ميثاق منظمة الدول الافريقية.

اما نتيجة المؤتمرات الاستعمارية، كمؤتمر برلين عام ١٨٨٥، ومؤتمرات ما بعد الاستعمار، كمؤتمر "اديس ابابا"، فكانت قيام عدد كبير من الدول التعددية^٥. وفي منتصف عقد الستينات لم تعد الدول التعددية في نظر النظام العالمي أمرا شاذًا، بل أصبحت قاعدة^٦.

٢ - تكامل أم تعايش؟ تغيير في توقعات العلوم الاجتماعية

في منتصف الستينات لم تعد كلمة "الدولة التعددية" تعتبر من المفردات السياسية او العلمية. ولم يعد بإمكان اكثرية الدول ان تظهر كمجتمع متجانس ثقافيا. فالتعايش بين جماعات من اصول اثنية ودينية ولغوية مختلفة اصبح مشكلة رئيسية في كثير من هذه الدول. الا ان معظم السياسيين والعلماء فضلوا التزام الصمت تغاضيا عن واقع الحال وتجاهلا للمشكلات.

كان لموقف السياسيين ما يبرره، اذ رأوا معظم الاحيان بذلك قوة تفجير تستطيع - بعد نجاح الصراع المشترك في سبيل تقرير المصير - اشارة تنافس وتضارب في المصالح بين فئات مختلفة. ولكنهم أملوا في التخفيف من حدة هذا التوجه فكانوا اكثر

Alfred LOBBAN, The Nation-State and National Self-Determination, New York 1969

-٥

استنتج "والكر كونر" عام ١٩٧٢، بان ٩٪ من الدول القائمة متجانسة اثنيا، و٢٨٪ تتألف من اكثريات تابعة لتجمع واحد يضم اكثر من ثلاثة ارباع السكان. وفي ٢٣٪ من مجموع الحالات تمثل الاكثرية نسبة تتراوح بين نصف السكان وثلاثة ارباعه. وفي ٣٠٪ منها، اي القسم الاكبر من الدول، لا تشكل اية فئة اكثرية راجع:

Alfred LOBBAN, Nation-Building or Nation-Destroying. in: World Politics, 24(1972)3, p.320

اقتناعا بالقضاء على هذه المشكلة عبر سياسة تهدف فعلا الى بناء الامة. فعندما كانوا يتحدثون عن ذلك، كان اقتناعهم بالقوة الاصطناعية للمفهوم المعياري للقومية الارادية قويا . لقد حاربوا حتى الآن الدولة ولكن ينبغي عليهم الان انشاء امة.

أما التيارات السائدة في علم الاجتماع فكانت تصب كلها، وخلال فترة طويلة من الزمن، في مفهوم معياري يهدف الى تقوية "فاعلية الافكار والمفاهيم"^٧. فتوجه العلوم الاجتماعية في هذا المنظار يمكن التحقق منه عبر المصطلحات التعبيرية الكثيرة الانتشار. فمنها ما دلّ على نزعة اوروبية قوية ومركزة، اذ كثر الكلام، فيما يتعلق باوروبا، عن الشعوب والامم والجنسيات والاقليات القومية. وبالنسبة لافريقيا او آسيا، تركّز الحديث على القبائل وخصائصها. ولكن من ناحية اخرى، استخدمت بعض التعابير على نحو مُحَقَّر. فالتضامن الاثني اصبح "قبلي"، والتكاتف الاقليمي او المحلي "انعزالا"، والتمائل مع جماعة دينية اعتبر نزعة طائفية او "تعصبية". فقد اشار اختيار مثل هذه التعابير الى مفاهيم معيارية. فبين الدولة والامة من جهة، - وقد اعطيا مفهوما واحدا- والفرد من جهة اخرى، لم يبق اي مكان للوحدة الاجتماعية الوسيطة. وفي حال توفره كان في احسن الاحوال يصنف في عداد "عقبات التنمية" غير الحديثة الآيلة الى زوال بعض الظواهر التي ينبغي مكافحتها والقضاء عليها نهائيا . قامت هذه المفاهيم المعيارية بمعظمها على الاقتناع بشمولية "نماذج التنمية الغربية"، اي ان المجتمعات التقليدية يحتم عليها بالتالي ان تتطور نحو العصرية، سواء حصل ذلك عبر عملية العقلنة التي تحدث عنها "ماكس فاير"، او عبر الانتقال من الجماعة الى المجتمع حسب نظرية "فيردينان تونيس"، او بواسطة مكنسة الثورة الرائعة التي نادى بها "كارل ماركس"، ضمن حركة تاريخية قوية تسيّر في اتجاه واحد كل اقطار العالم. فنشأت دول قومية موحدة، كمرحلة انتقالية نحو مجتمع عالمي، تعتبر مرحلة نهائية او حتمية لهذه الحركة. اما الحاسم في الامر، وهذا ما أستنتج غالبا، ولا بد من الأمل به والعمل على تحقيقه، فهو ان الواقع التصوري اصبح مقياسا للعمل والسلوك.

٧- من الدراسات المهمة في هذا المجال:

Gabriel ALMOND and James S.COLEMAN, The Politics of the Developing Areas, Princeton 1960; Gabriel ALMOND and G.Bingham POWELL, Comparative Politics: A developmental approach, Boston 1966; Gabriel ALMOND and Sidney VERBA, The Civic Culture, Princeton 1963; David E. APTER, The Politics of Modernization, Chicago 1965; Karl W. DEUTSCH and William FOLTZ (Eds.), Nation-building, New York 1966; S.N. EISENSTADT, Modernization: Protest and change, Englewood Cliffs, N.J.1966; Lucian BYE, Aspects of Political Development, Boston 1966; Edward SHILS, Political Development in the New States, The Hague 1965.

استطاع مؤسسو علم الاجتماع التشديد كثيرا على التصور الذي انبثق واصبح خلال ثلاثة عقود من الزمن "المبدأ السائد"، الذي جسّد مفهوما تقدميا علمانيا اكثر مما برز كمفهوم تقدمي قائم على معرفة علمية اكيدة. فالنماذج المثالية التي طلع بها "فابر" كمحور تنسيقي للافتراضات التي تسهل دراسة وتحليل المجتمعات الواقعية، اعتبرت تكهنات خيالية. ويلاحظ ايضا ان "تونيس" او "ماركس" لم يحملا مفهوما للمجتمع طابع "دولة - أمة" متجانسة ثقافيا. فالذي عزز هذا التأويل الموجه من طرف واحد كان الوضع الذي تطورت في اطاره العلوم الاجتماعية، وكذلك مرافقه من تخل مؤقت عن المعطيات التاريخية الكبيرة. لقد نشأت العلوم الاجتماعية في مجتمعات غربية متجانسة نسبيا في وقت كان ينعم فيه مفهوم "الدولة - الأمة" بتوافق شامل. وقد بلغ هذا المفهوم ذروته في الولايات المتحدة بعد الحرب. اما في بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا، فكان التركيز في اواخر القرن التاسع عشر وفي النصف الاول من القرن العشرين، على "المسألة الاجتماعية" كمشكلة مجتمعية رئيسية، اي العلاقات والنزاعات بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية. وقد اعطى علماء الاجتماع هذا الموضوع اهتماما كبيرا. ولكن مشكلات الدول التعددية في اوروبا الوسطى والشرقية والجنوبية الشرقية، حيث كانت تتداخل مشكلات القوميات والجنسيات مع المشكلات الاجتماعية، بقيت على هامش اهتمامات العلوم الاجتماعية في اوروبا.

وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية عندما تحولت الولايات المتحدة الى مركز للابحاث المجتمعية، احتلت المسائل المتعلقة باندماج المهاجرين في بلدان الاغتراب مركز الصدارة في اهتمامات علماء الاجتماع^٨. فمن الاغراء الذي اثارته قوة الاندماج في المجتمع الاميريكي، برز نموذج الولايات المتحدة "كأول أمة جديدة" تختلط فيها العناصر التكننية والمعيارية. فعندما تتجح في الولايات المتحدة امكانية دمج شعوب متعددة الاصول والثقافات والمعتقدات في أمة واحدة، فلماذا لا تتجح اذا هذه الامكانية في أمة جديدة اخرى؟ هكذا اخذ البحث العلمي عن مفهوم "بناء الأمة" منحى تفاؤليا نظرا الى تماثله مع الاختبار الاميريكي. ولكن لم يعط هذا البحث اهتماما كافيا للخلافات والتباينات الاساسية بين الامم "الأولى" والامم الجديدة الاخرى. فالى بلد الاغتراب هاجر اناس بدافع الحاجة المادية او هربا من القهر والاستبداد. وكانوا على اهبة الاستعداد لمحو آثار بلدهم من حياتهم والتخلي عن هويتهم القديمة، ليصبحوا مواطنين اميريكيين. وفي المقابل، يعيش اناس في دول جديدة أخرى، عليهم ان يبقوا فيها، ويريدون ان يعيشوا حيث هم، وكما هم، عازمين

على البقاء حيث كان آبائهم.

إذا كانت للبقاء خصوصية تختلف عن الآخرين، فإن أولادهم أيضاً يريدون العيش أو الاحتفاظ بهذه الخصوصية المتباينة مع الآخرين. المشكلة المجتمعية الرئيسية ليست إذا اندماج هذه الفئات القائمة فحسب، بل تعايشها مع بعضها أيضاً^٩.

منذ منتصف عقد الستينات تكاثرت الدراسات التجريبية في مجتمعات الدول الجديدة. وجاءت نتائجها لتزرع القناعات بالنجاح الاكيد ل"بناء الأمة"^{١٠}. بالإضافة الى نتائج هذه الابحاث، جاءت احداث أخرى لتشكك بالمفهوم السائد منذ مدة طويلة. فقد مزقت حروب اهلية عدداً كبيراً من الدول الجديدة. لم تتدلع هذه الحروب بين طبقات اجتماعية، بل بين فئات اثنية او دينية او لغوية. وكذلك سادت في دول أخرى توترات شديدة بين مثل هذه الفئات. اضافة الى ذلك، وحتى في الدول "القديمة" القائمة في العالم الغربي، انبعثت من جديد وبحدة، نزاعات قديمة تناساها الزمن^{١١}. حتى الولايات المتحدة عرفت بروز تيارات اثنية جديدة في صميم بوتقة الانصهار التي قامت عليها^{١٢}. وكذلك الاحداث التي نشبت مؤخراً في دول البلطيق وفي ارمينيا وجورجيا واذربيجان، تشير بكل وضوح الى ان "المسألة القومية" لم تحل بعد نهائياً. اما المنطقة الوحيدة، التي خرجت حتى الآن عن القاعدة، لعدم

Milton J. ESMAN, Two Dimensions of Ethnic Politics: Defense of Homelands, immigrant rights, -٩

in: Ethnic and Racial Studies, 8(1985)3, p.438-440.

"كارل ف. دويتش" اشار باكراً جداً الى هذه الفروقات عندما كتب عام ١٩٦٢: "نحن نعرف تجريبياً ان نسبة الاندماج بين السكان الذين أقتلعوا من جذورهم، مثل المهاجرين الوافدين الى اميركا، هي مرتفعة جداً اكثر من نسبة الاندماج بين سكان القرى القريبة من الارض والمبعدين عنها"

K.W.DEUTSCH, Nationalism and Social Communication: An inquiry into the foundations of nationality, Cambridge, Mass., 2d. ed., 1962, p.126.

وكان ذات المؤلف قد اشار عام ١٩٩١ الى ان عملية التعبئة الاجتماعية في الدول المتجانسة تستطيع ان تؤدي الى تثبيت الوحدة الوطنية، وفي الدول ذات المجموعات اللغوية والثقافية المختلفة، الى اعباء، وحتى الى القضاء على هذه الوحدة. راجع:

K.W.DEUTSCH, Social Mobilization and Political Development, in American Political Science Review, 55(1961)3, p.501

ان اول دراسة احدث تأثيراً واسعاً جرى التعبير فيها عن هذا الاتجاه كانت دراسة "روبرت أمرسون": -١٠

Rupert EMERSON, From Empire to Nation. The rise to self assertion of Asian and African peoples, Cambridge, Mass., Harvard Univ. Press 1960; Walker CONNER, Self-determination:

The new phase, in: World Politics, XX(1967), p.30-53.

Milton J. ESMAN, Ethnic Conflict in the Western World, Ithaca, N.Y. 1977. -١١

Nathan GLAZER and Daniel MOYNIHAN, Beyond the Melting Pot, Cambridge, Mass., 1963; -١٢

Harry H. BASH, Sociology, Race and Ethnicity. A critique of American ideological intrusions upon sociological theory, New York 1979.

حصول أي نزاع اثني فيها، كما يقول "بيار فان داربارغ"، فهي اميركا اللاتينية.

شددت دائماً المنطلقات والقناعات لدى علماء الاجتماع، على أن الأحداث الجديدة أو المؤلمة عبر التاريخ جعلت البحث عن حالات النزاع وكيفية تسوية النزاعات بين فئات متباينة ثقافياً داخل دولة ما، من المواضيع التي لا يمكن تجاهلها. في عام ١٩٧٢ وصف "صموئيل ب هونتغتون" النزاع بين الفئات الاجتماعية، بعكس المناقشات الثورية الاجتماعية، بأنها النزاع المجتمعي الأكثر سيادة اليوم، كما توقع تزايداً في حدته وتكاثره^{١٣}. وفي الفترة اللاحقة اشتد تزايد الاهتمام بدراسة الانظمة السياسية حيث تقوم نزاعات بين جماعات اثنية أو دينية أو لغوية مختلفة أو تتعايش، أو تتمكن من اختيار بعضها^{١٤}.

فالمواضيع التي تركزت عليها ابحاث علماء الانتولوجيا والانتروبولوجيا اصبحت ايضاً من المواضيع الهامة التي أخذ يعالجها ايضاً علماء الاجتماع والسياسة، وكذلك تبدلت المصطلحات. فقد حلت مكان العبارات القاطعة والعنيفة عبارات أكثر حياداً وتوجيهاً نحو الفائدة التحليلية. تكاثر الكلام عن مجتمعات مقسمة، مجزأة، أو متعددة. استخدمت في الدراسات الانكلوسكسونية عبارة أكثر شمولية وانتشاراً، وهي "الاثنية"، ويقصد بها ليس اصلاً مشتركاً فحسب، بل ايضاً لغة مشتركة، أو ديناً مشتركاً، أو خصائص مشتركة ذات هوية ثقافية. فالفئات الاثنية في هذا المعنى هي الشعوب والمجتمعات الاثنية، والطوائف الدينية، أي تلك المجتمعات التي تتميز عن غيرها بخصائص ثقافية قليلة أو كثيرة^{١٥}. وعبارة "الدولة المتعددة الاثنيات" تعني كذلك الاكتشاف من جديد، وأن في وقت متأخر، لدولة متعددة الفئات أو الشعوب

١٣ Samuel HUNTINGTON, Forward to Eric A. NORDLINGER, Conflict Regulation in Divided Societies, Occasional papers in International Affairs, No.29, Cambridge, Mass. 1972.

١٤ معلومات موجزة ومفيدة عن الآراء التعليمية ومستوى الأبحاث يمكن استخلاصها من الدراسات التالية:

Donald L.HOROWITZ, Ethnic Groups in Conflict, Berkeley 1985; Joseph ROTSCCHILD, Ethnopolitics. A conceptual framework, New York 1981; G. Carter BENTLEY, Theoretical Perspectives on Ethnicity and Nationality, in: Sage Race Relations Abstracts, 8(1983)2,P.1-53; Crawford YOUNG, The Politics of Cultural Pluralism, Madison,Wisc. 1976.

وفي اللغة الألمانية نشر "توماس شافلر" دراسة وثائقية مفيدة بعنوان:

Thomas SCHEFFLER, Ethnisch-religiöse Konflikte und gesellschaftliche Integration im Vorderen und Mittleren Orient. Literaturbericht. Berlin 1982.

وقد نشر ايضاً "ملتون ج. اسمان" دراسة عرض فيها المشكلة بوضوح عنوانها:

Milton J. ESMAN, The Management of Communal Conflict, in: Public Policy, 21(1973), p.49-78

١٥ "دونالد ل. هوروفيتز"، المصدر المذكور ص ٣٥، كتب في هذا الصدد: "... تشمل الإثنية المجموعات التي تتميز عن بعضها باللون واللغة والدين. كما تشمل ايضاً القبائل والاعراق والقوميات والطبقات المغلقة، لأن الحاجة تقضي بالخلوص الى "مفهوم للإثنية من إلى حد ما".

عبر علم الاجتماع الحديث.

٣ - محاولات التفسير الثقافية والاقتصادية

لم يواكب اكتشاف المشكلة من جديد، بمفهوم توافقي حول تفسيرها وتقدير معناها. فقد تباين الاتجاه بين مدرستين فكريتين متناقضتين تماماً. الأولى، ذات اتجاه ثقافي محض، والثانية، ذات اتجاه اقتصادي.

ينتمي إلى المدرسة الفكرية الثقافية عدد كبير من العلماء وقد نشأت هي بالذات من الأقليات. فوجدت نفسها خلال مدة طويلة من الزمن في وضع هامشي إزاء الآراء التعليمية السائدة. ولكنها ما لبثت أن اكتسبت أهمية وتقديراً مع تزايد المفاهيم غير المتوقعة للأحداث "الاثنية"^{١٦}. فهي تنطلق من مبدأ الموالاة للفئة الشعبية أو الاثنية، أو الدينية أو اللغوية، باعتباره "أولياً"^{١٧}، وذا تأثير فاعل في سلوك البشر

١٦- ان عبارة "ثقافة" في الرومانسية الألمانية ذات النزعة الهدرية (نسبة إلى "هردر") اثرت في البداية كثيراً على الأنثروبولوجيا التي اعتبرت "الثقافة" كشكل للحياة وحيد من نوعه، وكل من مكمل يجسده كل شعب، ولكن لا يمكن نقله. راجع في هذا الصدد المؤلفات التالية:

Bronislaw MALINOWSKI, A Scientific Theory of Culture and other Essays, Chape Hill 1944;
Ruth BENEDICT, Patterns of Culture, London 1961; Mary DOUGLAS, Purity and Danger,
London 1966; E.E.EVANS-PRITCHARD, Oracles and Magic Among the Azande, Oxford 1937.

١٧- ادخل مفهوم "الأولوية" في البداية إلى علم السوسولوجيا "لوارد هيلس" في مقاله:
Edouard HILLS, Primordial, Personal, Sacred, and Civic Ties, in: British Journal of Sociology,
8(1957), p.130-145

فقد استنتج هذا الكاتب بأنه لم يعط في دراساته وأبحاثه الأولى الأهمية الكافية لتأثير الروابط "الأولوية" على عوامل القرية، والوطن، والدين. هذه الروابط تتميز عبر "حال من التضامن المكثف والمتكامل، والقوة المكرمة، والأرهاب، والشغب، والمنحرمات".

Clifford GEERTZ, The Integrative Revolution: Primordial Sentiments and Civil Politics in the New States, in: Old Societies and New States. The quest for modernity in Asia and Africa, London 1963; H. ISAACS (Idols of the Tribe, New York 1975),

تحدث هذا الأخير عن "الهوية الأساسية للمجموعة". وقد انتقد "و. كونتر" في مؤلفه المذكور سابقاً، صفحة ٣٤١، بأن النزاع الاثني تنسب إليه معظم الأحيان وبطريقة سطحية الفروقات اللغوية والدينية والعرقية أو التفاوت الاقتصادي. "ولكن ما يندرج اسماً في مثل هذا النزاع هو اختلاف الهوية الأساسية الذي يبرز في الظاهرة المرضية المزمنة هم - نحن". وفي مقال آخر له:

A Nation Is a Nation, is a State, is an Ethnic Group, is a... in: Ethnic and Racial Studies 1(1978)4, p.377-400

يشير إلى أن "رابطاً حسيماً يشعر به عبر تقسيم اعلامي وغير بنيوي للإنسانية، وهو أكثر عمقاً وقوة من الروابط التي تشدها إلى بنية دولة قائمة وشرعية، يجد الناس ذاتهم فيها" (ص ٣٧٧). ونجد اتجاهات النظرية الثقافية أيضاً لدى:

أكثر من أي عامل آخر. فالروابط الأولية، المجذرة في التاريخ، والمتوارثة عبر التربية العائلية، والمثبتة غالباً بمفاهيم عقائدية، تشكل ثوابت واقعية قائمة، يمكن تجاهلها غالباً، فلا تبرز إلا قليلاً أو نادراً. ولكنها سرعان ما تقفز بقوة إلى الواجهة عندما تدعو الحاجة. أما المدرسة الاقتصادية، فقد أخذت بطريقة مبسطة جداً، اتجاهين مختلفين: الأول، انبثق من نظريات التحديث، والثاني، من الفكر الماركسي. اعتبر كلاهما الظواهر الثقافية غير أولية وغير ثابتة إطلاقاً، وإنها معرضة سريعاً وبقوة للتغيير. كذلك اعتبروا الثقافة والخصائص الثقافية بأنها وسائل فقط، يجري التمسك بها، طالما برزت حاجة إليها، أو طالما يمكن الاستفادة منها. فمفاهيم النظريات الحديثة تنطلق من التصنيع المتنامي وتقدم الاتصالات والتمدد باعتبارها عوامل تسهم بقوة في تكامل الأفراد والفئات الاجتماعية المتعددة والمتباينة الأصول. ويمكن لهذه العملية أن تسير ببطء شديد في بعض المجتمعات أكثر من غيرها، كما يمكن أن تثير ردات فعل معاكسة. أما المجتمعات المتداخلة أو الوسيطة، فيمكن أن تحدد زمنياً عملية انتقالها من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث. الطريق محددة والهدف واضح. فالخصائص المتوارثة ستزول عاجلاً أم آجلاً، كما ستسقط الحواجز التقليدية. ثم تنشأ الدول القومية الحديثة متكاملة. فضلاً عن ذلك، تصنف "الخصائص الاتنية" في منظار نظريات التحديث كظواهر عابرة، من حيث اعتبارها في المفهوم الماركسي، كوسيلة محضة بهدف إخفاء التناقضات الاقتصادية الأساسية، أو "كإدراك خاطيء" يمنع البشر، في أي طبقة اجتماعية كانت، من التعرف على مصالحهم الاقتصادية، كما يحول دون تعاونهم وتكاملهم مع الآخرين الذين يعيشون مثلهم في ذات الأوضاع^{١٨}.

Emmerich K.FRANCIS, *Interethnic Relations*, New York 1976 and Charles F.KEYES, *Towards a New Formulation of the Concept of the Ethnic Groups*, in: *Ethnicity* 3(1976), p.202-213.

١٨- لوجز بوضوح الموقف الكلاسيكي الماركسي الكاتبان "روزات" و"بارترا"، فكتباً: "النظرية الماركسية تفيد بأن الصراع الطبقي هو في الانظمة الاجتماعية حيث المحرك الحقيقي للتطور التاريخي. فالتمرين النظري والفكري، مثل النقاش حول العرق والعنصرية، يمكن أن يحدد بوضوح أكثر أو أقل، مرحلة واحدة فقط من العملية حيث تقوم وتشرف على إدارة البناء الأيديولوجي للسيطرة والهيمنة البورجوازية". راجع:

G. ROZAT & R. BARTRA, *Racism and Capitalism*, in: *Sociological Theories: Race and Colonization*, Paris 1980, p. 287. H.M.BARON, *Racial Domination in Advanced Capitalism: A theory of nationalism and divisions in the labor market*, in: R.C. EDWARDS a.o.(Eds.), *Labor Market Segmentation*, Lexington Mass. 1975, p.173-216; Michael BURAWOY, *Race, Class and Colonialism*, in: *Social and Economic Studies*, 23(1974), p.521-560; Bernhard MAGUBANE, *The Political Economy of Race and Class in South Africa*, New York 1979; Harold WOLPE, *The White Working Class in South Africa*, in: *Economy and Society*, 5(1976), p.197-240; Oliver C.

وبينما تعتبر المدرسة الثقافية الفئات الشعبية أو الاثنية أو الدينية أو اللغوية وأقماً قائماً بحد ذاته في التاريخ أو يتكون عبر التاريخ، فإن المدرسة الاقتصادية تنظر إليه كظاهرة انتقالية أو عارضة. فالأولى تعطيه تفسيراً مطلقاً والثانية تفسيراً نسبياً، للدلالة على ضعف أهميته بالنظر إلى التوقعات التاريخية الكبيرة. ولكن التاريخ والواقع الحديث للدول التعددية يثيران الشك في صحة التفسيرات الثقافية أو الاقتصادية المحضة^{١٩}.

يجد اتباع المدرسة الثقافية صعوبات عديدة في تفسير الحثييات التي لاتدفع في بعض الحالات إلى تضامن بين الفئات ذات الأصل المشترك، والمعتقد الديني الواحد، أو اللغة الواحدة؛ ولكن لاتسمح بذلك في حالات أخرى. في جنوب إفريقيا، يلعب عامل الأصل دوراً كبيراً. أما في البرازيل فلا أهمية له. في أيرلندا الشمالية،

COX, Caste, Class and Race: A study in social dynamics, New York 1948.

١٩- سواء لدى المفكرين الليبراليين أو الماركسيين تكونت، بالاستناد إلى هذا الريب، مدارس "تعديلية أو تحريفية" حاولت الأخذ بعين الاعتبار وباهتمام أشد وقائع الدول التعددية. بالنسبة لليبراليين، أخذ بنوع خاص بعامل المنافسة. يستطيع الأشخاص الاختيار بين أشكال الهوية الاقتصادية والثقافية، كما تستطيع أكثر مجموعات المصالح المختلفة العمل في مجال المنافسة السياسية. وكذلك لا توجد معايير "موضوعية" لتكوين المجموعات. فعندما يحدد أناس أنفسهم كمجموعة، عندئذ يشكلون مجموعة ويستطيعون العمل سياسياً باسمها. أماهدف التناقض فهو مراقبة الموارد، خاصة تلك التي تشرف عليها الهيئات الرسمية. راجع:

Abner COHEN, Two-dimensional Man. An Essay on the anthropology of power and symbolism in complex society, Berkeley 1974; Leo A. DESPRES (Ed.), Ethnicity and Resource Competition in Plural Societies, The Haye 1975; Alvin RABUSHKA, A Theory of Racial Harmony, Columbia 1974.

وهناك دراسات ليبرالية "انحرفت" قليلاً عن المفهوم الثقافي، مثل:

Michael BANTON, Race Relations, London 1967; Philip MASON, Race Relations, London 1970; idem, Patterns of Dominance, London 1970.

ولا بد من الإشارة إلى الدراسة النيوماركسية التالية:

Immanuel WALLERSTEIN, Social Conflict in Post-Independence Black Africa: The concepts of race and state-groups reconsidered, in: E. CAMPBELL (Ed.), Racial Tensions and National Identity, Nashville, Tenn. 1972, p.207-226.

بالنسبة إلى "فالرشتاين"، تعتبر المجموعات المحددة ثقافياً، مجموعات ذات نظام بالمعنى الذي حدده "قابر" والتي تجد نفسها في تناقض سياسي. وهناك دراسة أخرى هامة أيضاً عن "الاستعمار الداخلي"، بقلم "مايكل هشتنر"، تركز على أن القضية الجوهرية هي تقسيم العمل بين المجموعات الثقافية كنتيجة للتصنيع الرأسمالي، حيث ألحق ضرر بمناطق معينة ومجموعات ثقافية معينة. وتشارك هذه الدراسة دراسات نيوماركسية أخرى، تأخذ من جهة بعين الاعتبار قوة التعقيد لدى المجتمعات الاثنية، إلا أنها من جهة أخرى تعيد كل ذلك إلى النزاعات الطبقة. راجع: Michael HECHTER, Internal Colonialism: The

Celtic fringe in British national development 1536-1966. London 1975.

يلعب الانتماء الديني دوراً كبيراً، بينما يتراجع هذا الدور كثيراً في هولندا. في بلجيكا وكندا، مازالت الخصائص اللغوية تؤثر في الوحدة السياسية، بينما زال أثرها في سويسرا. هناك عوامل كثيرة تشير الى ان الخصائص تستخدم فقط للتمييز ولإثارة وعي الفئات الاجتماعية عندما يرتبط ذلك بمصالح معينة، سواء ارتبطت هذه المصالح بتقاسم الأموال والخيرات، أو الاعتبار والامتيازات، أو السلطة. ولكن هذا يعني ان الظواهر الثقافية، وان كانت "أولية"، ليست رغم دورها المحدود، وعياً ذاتياً قائماً لدى الفئات الاجتماعية. فهذه الفئات تنشأ، ويمكن تدعيمها وتقويتها، كما يمكن التلاعب بها وتحريكها، ولكنها تستطيع أيضاً ان تحل نفسها^{٢٠}. اذا ما تمكن التاريخ من كشف شيء، فهو يبين بكل تأكيد على ان الشعوب والفئات الاثنية لم تخرج من يد الله وليست بالتالي ابدية، ولكنها تستطيع ان تنشأ و تضمحل أيضاً.

فأصحاب النظريات الاقتصادية، أو نظريات التحديث، بذلوا في الواقع جهوداً لتفسير عدم صحة عدد كبير من التكهّنات. فعمليات التحديث، لم تخف في امكان عديدة من التباينات بين الفئات المتعددة، بل دعمتها وزادت من حدتها. فالتمدن السريع وقيام المدن الكبرى^{٢١} ساعدا على جمع اناس من اصول مختلفة. يتعرفون على بعضهم البعض، ولكن لا يقدرون بعضهم بعضاً. التباينات في طرق العيش والمسلوك التي يمكن التسامح بها بكل سهولة ضمن حدود اجتماعية ومكانية، تشير احياناً، عند التقارب والاتصال الدائم، السخط والتباعد. كما يؤدي العيش سوياً بنوع خاص الى التنافس أيضاً. لم يتنبه اصحاب النظريات الاقتصادية غالباً الى ان التنافس في مجتمع متعدد الفئات ليس قضية تتعلق فقط بفرد، ولا تبقى مسألة خاصة بفئة مهنية أو طبقة اجتماعية فحسب، بل تتحول أيضاً وبسهولة الى تنافس بين الفئات الاثنية والدينية واللغوية^{٢٢}. فالتنافس الخارجي بين الفئات يتطلب تضامناً داخلياً بينها، كما يرتبط نجاح الفرد بالمستوى الاجتماعي للفئة التي ينتمي اليها. ويسهم تقدم العلم بجعل التباينات الثقافية أكثر بروزاً. ولكن المتقنين يستطيعون

٢٠- Fredrik BARTH (Ed.), Ethnic groups and Boundaries. The social organization of culture difference, Boston 1969; and N.M.SRINIVAS, Caste in Modern India and other Essays, London

1962; Idem, Social Change in Modern India, Berkeley 1967

٢١- "من الغرابة ان اصحاب نظريات التمدن لم يستخلصوا عبراً تجريبية من وقائع الانظمة السياسية في المدن. فقد شددوا على ان العمليات السياسية، حتى في اكبر المدن، تثير مشاكل بالنسبة للتنظيم الاثني السياسي واستراتيجياته. وفي الحقيقة، النزاعات الاثنية هي اكثر تفجراً في المدن منها في المناطق الريفية. فاحداث المدن، مثل الجزائر، وبلغاست، وبيروت، وبروكسل، والقس، ولوس انجلس، وسويتو، تعزز هذه الملاحظة". راجع: Jeffrey A. ROSS, Urban development and the Politics of Ethnicity: A

conceptual approach, in: Ethnic and Racial Studies, 5(1982)4, p.441.

٢٢- باستثناء مايسمى بالمدارس "التحليلية" و"التحريفية" المشار اليها في الحاشية ١٩.

التعبير عن التقاليد المختلفة، وطرق التفكير، وأشكال خصوصيات المجموعة، بطريقة أوضح أو في اتجاه متناقض^{٢٣}.

وبالاختصار، يمكن القول بأن وسائل الاتصال، والتمدن، والتعليم، لا تسهم غالباً في تخفيف حدة التناقضات فحسب، بل وفي تضخيمها وتأزيمها أيضاً. تأثير الوعي دون أن تسهم في عملية التكامل. وليس من النادر أن تؤثر عملية التحديث، التي تعلق أهمية كبيرة على الخصوصيات الثقافية، الوعي وتحسيس الفئات، وتسيئها.

يبدو أن حركة التضامن، وبالتالي التعبئة السياسية، هي أكثر بساطة وسهولة، إذا ما قامت على أسس معطيات متوافرة ومعروفة، بدلاً من القيام على أسس الخصائص الجديدة أو التي ينبغي اكتسابها. يمكن استخدام عناصر العرق، والدين، واللغة، بسهولة أكثر من استخدام عناصر أخرى، مثل، الفئة المهنية، أو الطبقة الاجتماعية، أو الأيديولوجية السياسية^{٢٤}.

فتكوين وعي طبقي يتجاوز وعي التجمعات صعب جداً ولا يعود ذلك فقط إلى ما يقوله أصحاب النظريات الثقافية، بأن الدم هو أكثر كثافة - أي أقوى - من ماء المصلحة المادية، بل أيضاً، لأن المصالح الاقتصادية تبدو، عبر تضامن المجموعة الشعبية، أكثر أهمية مما هي عبر تضامن طبقة اجتماعية متجانسة تضم أفراداً من كل المجموعات. فالإنسان مثلاً يتضامن مع رئيس له ينتمي إلى مجموعته الاثنية أكثر مما يتضامن مع زميل له ينتمي إلى مجموعة أخرى. أما الأيديولوجيات التي تتمسك بها المجموعات، فحظها قليل، طالما ارتبطت وتداخلت المصالح الفردية والجماعية بعضها ببعض. ولكن الأيديولوجيات المرتبطة مباشرة بالمجموعات هي

٢٣- "...المدن المتنامية بسرعة يتسارع إليها المثقفون وأصحاب الطموحات العلمية. وبنسبة المنافسة بحثاً عن العمل والمأوى تثار الخصومات القديمة العهد، وتبرز الفروقات الثقافية التي لم تكن تلاحظ سابقاً كما لم تكن تؤثر الاهتمام... فعلى هذه الحلبة الجديدة حيث مازالت تقف مجموعة اثنية لها هويتها وتاريخها الخاص، يأمل القامدون الجدد بإيجاد مركز أو نفوذ لهم، غير متوفر في ظل وجود مجموعة مسيطرة".
راجع: Anthony D. SMITH, Towards a Theory of Ethnic Separatism, in: Ethnic and Racial Studies, 2(1979)1, p.30

٢٤- هذا ما أبرزه بنوع خاص "بيير ل. فان دان بيرغ". هذه المجموعات هي "امتداد لعبارة القرابة، وتتميز أكثر بأولويتها وشموليتها عن كل التجمعات القائمة على المصالح المجزأة مثل الجمعيات المهنية والاتحادات العمالية والأحزاب السياسية، أو بشكل أوسع، الطبقة. فالعلاقة بين الطبقة من جهة، والاثنية والعرق من جهة أخرى معقدة، لأن درجة الترابط بين خطوط التباين والانتماء المختلفة أساساً تتنوع من حالة إلى أخرى. ولكن بصورة عامة يستطيع الناس أن ينتظموا بسهولة عبر الروابط الاثنية والعرقية أكثر بكثير من الاعتماد على الروابط الطبقة".

Pierre L. Van Den BERGHE, The Present State of Comparative Race and Ethnic Studies, op. cit. p.34.

بالتالي أكثر جذباً. ولربما كان هذا الأمر "ادراكاً خاطئاً". ولكن نظراً لعدم توضيح هذا التصنيف وتفسيره بشكل كافٍ، فإن الواقع يسمح بالتأكيد على أن الناس في الدول التعددية والمجموعات كانت عبر التاريخ، وما زالت في الوقت الحاضر تثار وتُهيج عبر "ادراك خاطيء" أكثر من أثارها وتُهيجها عبر "ادراك حقيقي". وبالتالي تتقائل وتموت من أجله.

٤ - طرائق الدمج: ربط التحليل الاقتصادي والاجتماعي

دفع افلاس التفسيرات، وفقاً لطروحات المدرستين الثقافية والاقتصادية الى طرح سؤال اساسي حول عدم صحة وصلاحيّة اي شكل من التحليل ذي بعد واحد لدراسة الدول والمجتمعات التعددية والمجموعات البشرية^{٢٥}.

في تحليل العلاقات والنزاعات الدولية يمكن أن تكون مراقبة الدول، كل واحدة بجانب الأخرى، هي الأهم، رغم أن ذلك يطرح أيضاً تساؤلات بالنظر الى التباينات في القوة الاقتصادية، والسياسية، داخل النظام العالمي والكثير التشابك. وفي تحليل الدول والمجتمعات المتجانسة ثقافياً، قد يكون السؤال عن كيفية تصنيف وتوزيع الفئات والطبقات الاجتماعية هو الأهم، رغم أن السؤال هنا يستحق أيضاً الاهتمام لمعرفة مدى مصداقية هذا التجانس. ولكن بالنسبة للدول غير المتجانسة ثقافياً، لا يبدو ذلك مستحباً فقط بل ضرورياً أيضاً، بالإضافة الى طرح السؤال حول كيفية توزيع الفئات الاجتماعية، جنباً الى جنب، أو طبقاً، الى فئة عليا وفئة سفلى^{٢٦}.

٢٥- ان العلاقة بين الطبقة والعناصر الاثنية هي معقدة للغاية، ومن الصعب تفسيرها عبر تبسيط نظريات الحتمية الاقتصادية والثقافية. راجع:

James MCKAY, An Exploratory Synthesis of Primordial and Mobilizationist Approaches to Ethnic Phenomena, in: Ethnic and Racial Studies, 5(1982)4, p.400.

٢٦- هذه المسألة هي أساسية بالنسبة لمدرسة "التعديدين الجدد" كما اشار الى ذلك "سمي سموها" في مقال عنوانه:

Sammy SMOOHA, Pluralism and Conflict: A theoretical exploration, in: Plural Societies, 6(1975)3, p.69-89.

راجع أيضاً "ج. س. فورنيغال"

J.S. FURNIVAL, Colonial Policy and Practice. A comparative study of Burma and Netherlands India, New York 1956; idem, Netherlands India. A study of plural economy, Cambridge 1939.

وصف هذا الأخير المجتمع التعددي بأنه، "بالمعنى الحضري خليط من الشعوب، لأنهم يختلطون ولا يندمجون. كل مجموعة تتمسك بدينها وبتقافتها وبلغتها وبقوانينها. يلتقون كأفراد ولكن في السوق فقط أثناء البيع والشراء. هناك مجتمع تعددي مع فصائل مختلفة من المجموعة تعيش جنباً الى جنب ولكنها منفصلة عن بعضها، في إطار ذي وحدة سياسية".

لقد اقتبس علم الاجتماع احدى أهم مصطلحاته من علم الجيولوجيا، أي علم الطبقات الأرضية. فمن السهولة بمكان متابعة ذلك بطريقة القياس. لا يعتبر كل مشهد طبيعي مسطحاً. ولا توجد في المناطق الجبلية طبقات فقط، بل أيضاً ثغرات، وجبال، وتلال قرب بعضها بعض، تتميز بكل وضوح. وتوجد أيضاً مناطق طبيعية متشابهة كثيراً في شكلها، كما توجد بينها تناقضات عديدة.

ينطبق هذا الأمر على المجتمعات البشرية، خاصة المجتمعات غير "المسطحة"، أي المتجانسة ثقافياً. يستطيع أي وصف أن يعطي فقط صورة مطابقة تبحث في الطبقات، وكذلك في الفجوات والنتوءات، ولا تركز فقط على التباينات الأفقية أو العمودية من جانب واحد، بل تبحث عن تحليل المعطيات الاجتماعية في ضوء

استند إلى هذه الدراسة لاحقاً عالم الأنثروبولوجيا الجامليكي "م. ج. سميث" وزاد عليها ليجعلها نموذجاً مثالياً لفهم المجتمعات المعقدة بالنزاعات، حيث تسيطر فئة على أخرى وتستغلها.

M.G.SMITH, Institutional and Political Conditions of Pluralism, in: Leo KUPER and M.G.SMITH (Eds.), The Plural Society in the British West Indies, Berkeley 1965.

في منتصف الستينات أعاد "سميث" النظر تماماً بهذه الدراسة. ولأخذ منذ ذلك الحين يحاول فهم المجتمعات المعقدة في إطار بعدين: من جهة الفروقات الثقافية والتناقضات، ومن جهة أخرى الثقافات الاجتماعي والاقتصادي. "... هذان النوعان من الانقسام... لا يجوز الصاق أحدهما بالآخر، ولا تفضيل أحدهما على الآخر، بل ينبغي معالجتهما سوياً في سبيل التوفيق بينهما".

ومن جهته "فان دين بيرغ"، في المرجع المذكور أوضح جيداً بأن مفهوم الاثنية لا يمكن إطلاقاً دمجه بمفهوم الطبقة: "رغم أن الاثنية تلازم وتحتّم جزئياً موقع الطبقة، فإن الطبقة تتكون أيضاً من عدد من العوامل غير الاثنية. وبالمقابل توجد جوانب عديدة للاثنية مستقلة عن علاقاتها بالسلطة والانتاج الذي يشكل نظام الطبقة. فمن الناحية التحليلية إذاً ينبغي إدراك العلاقة الخاصة بين الطبقة والاثنية، وذلك للاحتفاظ بتمييز واضح بين الظاهرتين".

يتفق الليباراليون الجدد مع الماركسيين الجدد حول أهمية الفروقات الاجتماعية والاقتصادية، ولكنهم لا يعلقون أهمية أساسية أولوية على العناصر الاقتصادية. فهم بالتالي أقل تشديداً على المفهوم الحتمي. ويتفقون أيضاً مع "التعديليين" أو "التحريفيين" الليباراليين، في التشديد على عنصر التنافس بين مجموعات ثقافية أو اقتصادية معينة. ولكنهم لا يعتبرون المجموعات الثقافية بأنها ذات طابع طوعي محض. وبعبارة "فردريك بارث" (المرجع المذكور)، يبين "فان دان بيرغ" (المرجع المذكور ص ٢٧)، على أن قيام مجموعات لثنية يحتاج إلى عوامل موضوعية وذاتية معاً. العنصر الذاتي هو "مفهوم وإدراك للتمييز بين (هم وإنحن)"، وهو ضروري لتكوين مجموعة لثنية. ولكن هذه المفاهيم الذاتية لا تنمو عشوائياً. فهي تتبلور حول مجموعة من الخصائص الموضوعية التي تتحول إلى مؤشرات للانصهار أو للرفض. أما الميزة الدائمة والمشاركة بين المجموعات الاثنية، فهي بنظر "فان دان بيرغ"، أصلها الطبيعي. يولد المرء فيها، وينمو بين أفرادها، ويتزوج عادة من أحدها. "يعيشون ضمن عائلات" (ذات المرجع). هذا ما يميزهم عن المجموعات الأخرى التي تشارك في عملية التنافس السياسي. فالأصل المشترك الواقعي أو الصوري يسهم في توسيع دائرة العائلة وفي بث شعور "الأخوة" بين المجموعة الاثنية بأكملها. إلى جانب هذه المدرسة والمفكرين الذين تشير إليهم، هناك عدد كبير من العلماء الذين يؤيدون هذا الاتجاه خاصة علماء السوسيولوجيا. ويصف "فان دان بيرغ" هذه المدرسة بـ "الليبارالية الراديكالية" (المرجع المذكور ص ٢٧)، مع تمييز لها عن الليباراليين من جهة، وعن الماركسيين الجدد من جهة أخرى.

البعدين الثقافي والاقتصادي.

تتميز التحاليل الجيولوجية والمجتمعية تماماً عن بعضها في اتجاه معين. يستطيع عالم الجيولوجيا الإكتفاء بقياس ووصف وقائع "موضوعية"، وفقاً لمعايير ثابتة متفق عليها بين أهل الاختصاص، مثل المتر، والمتر المكعب، والكيلوات، والاطنان. ويعطي أيضاً أسماءاً لنوعية الأرض والحجارة. وهذا ما يفعله أيضاً الاختصاصي في العلوم الاجتماعية. فيقوم بقياس ووصف توزيع الفئات الاجتماعية وفقاً لمعايير متفق عليها تقريباً، وبلاستناد إلى مستوى الدخل، والثقافة، والاعتبار، أو بالاستناد إلى كيفية دمج هذه المعايير. وهكذا يستطيع إعطاء صورة سكونية ثابتة عن المجتمع. ولكن المجتمعات هي نادراً ما تكون جامدة، وغير متحركة. فإذا أراد البحث في العلاقات بين الفئات الاجتماعية، فلا بد له مسبقاً من توضيح ما إذا كان تحديده للفئة مقبولا، أو إذا كان يقبله الآخرون أيضاً. فالأحكام عن العلاقات الاجتماعية وبالتالي السياسية، بين الفئات الاجتماعية المحددة "موضوعياً"، تكون ذات مغزى عندما يقبل اتباع هذه الفئة بتصنيفهم هكذا، وباعتبار بعض الخصائص أمراً مشتركاً يميزها عن غيرها، أي أنهم كمجموعة اجتماعية، يعتبرون ذلك أمراً طبيعياً.

إن ما يصلح للفئات الاجتماعية الاقتصادية، يصلح أيضاً وبقدر أكبر للفئات الثقافية. يوجد عدد غير محدود من المعايير "الموضوعية" التي يمكن بموجبها تصنيف الناس ثقافياً. لكن حتى تلك المعايير التي تحدد بموجبها غالباً المجموعات "الذاتية" كالأصل الإثني، أو الدين، أو اللغة، فلا تصلح دائماً، وبطريقة تلقائية، كما تشير إلى ذلك سابقاً. إن أية فئة من الناس، تتوفر فيها، حسب مفهوم "كوهن"، كل المعايير التي يمكن ملاحظتها وتطبيقها على أمة "موضوعية - ثقافية"، لا تؤلف أمة، إذا لم ينشأ بين أفرادها حسّ قومي وفقاً لهذه المعايير. وكذلك تحتاج هذه الأمة إلى إرادة القرار - أي إرادة الوعي أو الحسّ القومي - كي تصبح موضوعاً يتفاعل اجتماعياً وسياسياً.

أخذ "كارل ماركس" بعين الاعتبار هذا الوضع في تمييزه بين "الطبقة بذاتها" و"الطبقة لذاتها". الأولى هي موضوعية، أما الثانية فتتبعث عبر الوعي الطبقي. يبدو من المفيد تطبيق هذا التمييز أيضاً في تحليل مجموعات الشعوب المتباينة ثقافياً. يمكن تجزئة أي مجتمع ثقافياً بطرق مختلفة. ويمكن لهذه التجزئة أن لا تترك نتائج سياسية، طالما لم ينبعث منها أي شعور بالوعي الذاتي. لذلك يبدو مفيداً، في تحليل الدول أو المجتمعات المتعددة الشعوب، أو المجموعات البشرية، أن يطبق قياساً هذا التمييز الماركسي، فيميز بين "المجموعات الثقافية بذاتها" و"المجموعات الثقافية

لذاتها^{٢٧}.

ان "الشعوب"، او "المجموعات الشعبية" او الدينية او اللغوية، التي تأخذ، داخل دولة ما، شكل "مجموعة ثقافية لذاتها"، سيشار إليها فيما يلي، وفقاً لما جاء في أهم المراجع العلمية، بكلمة "تجمعات" او "طوائف"^{٢٨}. وكذلك الدول التي تضم عدداً من هذه التجمعات، التي ليست فقط "مجموعات ثقافية بذاتها"، سيشار إليها كما هي الحال حتى الآن بعبارة "الدول التعددية".

فالأنظمة المجتمعية والسياسية في الدول التعددية، كما تعرف هنا، يمكن الكشف عن حقيقتها الكاملة فقط، عندما تدرس وتحلل من جهة في بعدها الاقوي، اي في بنيتها القوية والطبقية الاجتماعية والاقتصادية، ومن جهة أخرى، في بعدها

٢٧- المصطلح في هذا المجال هو بحد ذاته مشكلة، وذلك لعدم وجود اي توافق رسمي حوله. فحتى الان كانت تستخدم عبارة "دولة متعددة الشعوب" او "دولة متعددة المجموعات". العبارة الاولى هي عبارة قائمة تاريخياً ولكنها لا تشمل كل الحالات، خاصة تلك التي تضم في هويتها عناصر ثقافية مدركة، ولكنها لا تصف ذاتها كـ "شعوب". والعبارة الثانية لا تميز بين المجموعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. اما عبارة "مجموعة قوميات" التي تميز المجموعات من حيث حبسها وشعورها القومي، والتي لا تمتلك اية دولة خاصة بها، فانها تنطبق تاريخياً على اوروبا الوسطى والشرقية. وعبارة "مجموعة اثنية" التي تعرف انتشاراً واسعاً في الابحاث الانكولوساكسونية، رغم استخدامها للدلالة في اطار واسع على عدد كبير من معالم التمييز الثقافية، هي غير كافية للتعبير عن "المجموعات لذاتها" الدينية واللغوية. وهناك عبارة اخرى تستخدم في مناطق لغوية عديدة هي عبارة "طائفة"، التي تشير الى مجموعة شعبية او دينية او لغوية، تتمتع بوعي وبادراك بانها "مجموعة لذاتها". ففي الدراسات العديدة عن الشرق الاوسط تستخدم عادة هذه العبارة للدلالة على المجموعات الدينية. فقد حددت محكمة العدل الدولية في ٣١ تموز/يوليه/١٩٣٠ "الطائفة" بما يلي: "معيار مفهوم الطائفة هو وجود مجموعة من الاشخاص تعيش في بلد او في منطقة معينة، تتميز بعامل العرق، او الدين، او اللغة، او التقاليد الخاصة بها، والتي تتحد بشعور من التضامن بهدف الحفاظ على تقاليدها، وصيانة طقوسها، وتأمين التعليم والتربية لاولادها وفقاً لخصائص عرقها، وللتعاون والتضامن المتبادل". راجع: *Résumé mensuel des travaux de la Société des Nations*, vol.10, No.7, Juillet 1930, p.219.

اعتمد هذا التحديد "بيير روندو" في دراسته عن المجموعات الدينية في لبنان، ويبدو له "... ذا قيمة عامة نوعاً يميز بصورة واضحة جدا الجانب الاجتماعي للمجموعة". راجع: Pierre RONDOT, *Les institutions politiques au Liban*, Paris 1947, p.22. في المصطلح السياسي اللبناني تسمى المجموعة الدينية "طائفة" بالمعنى الذي استخدمه وشار اليه روندو.

٢٨- شدد ماكس فاير" على معني الادراكات الحسية. ان معياراً مميزاً يؤدي طبيعياً الى تحديد مجموعة او طائفة فقط عندما تشعر ذاتياً بان لها معالم مشتركة. ويشير الى ان المجموعات القائمة على الاصل هي غالباً ذات طبيعة خيالية، وان الادراك الحسي بالانتماء الى مجموعة "يتلّى عادة بصورة اولية عبر مصير سياسي مشترك، وليس بصورة اولية بفعل [الاصل]". والتمييز الدقيق هو بالتالي "نتاج أيضاً بطريقة اصطناعية عن الجماعة السياسية". راجع: Max Weber, *Wirtschaft und Gesellschaft*. Grundriss der verstehenden Soziologie, 5.rev. Auflage, 1.Halbbd., Tübingen 1976, p.238-241.

العامودي، أي في تقسيمها وتوزيعها إلى تجمعات، وبالتالي عبر ترابط بعضها. فكل تجمع في دولة تعددية يصنف اجتماعيا واقتصاديا. ويمكن لهذا التصنيف ان يحصل بطريقة متوازنة في كل التجمعات. كما يمكن ان يحصل ايضا بطريقة غير متساوية حتى أقصى التطرف، اذ يشكل تجمع ما الفئة العليا فقط، وتجمع آخر الفئة السفلى. ففي سبيل الترابط والتحديد بين الفئات والطبقات، والأجزاء أو التجمعات، استخدمت هنا عبارة "الدمج"^{٢٩}. في الحالة الأولى يمكن الحديث عن دمج متساوٍ، وفي الثانية عن دمج غير متساوٍ.

توفر هذه المقارنة المثالية وسيلة لتنسيق في سبيل تصنيف التجمعات التي يتم بحثها ودرسها بطريقة تجريبية. فبدلاً من اتخاذ موقف سابق للتجربة، لتحديد ما اذا كانت العوامل الثقافية، أو الاقتصادية، هي الهدف الرئيسي الذي ينبغي تقييمه، يمكن البحث بطريقة تجريبية لمعرفة مدى تماثل المجموعات الثقافية، والفئات المهنية بالطبقات الاجتماعية، ولمعرفة اذا كان شكلا التضامن بين المجموعات يندثران كل على حدة، أو ينهاران سوياً. فالمجتمعات التعددية والتي يمكن التعرف عليها أنياً، لا يطبق عليها أي من هذين الشكليين. فسويسرا مثلاً، هي نموذج للدمج المتساوي، كما ان جنوب افريقيا شكلت بالمقابل نموذجاً للدمج غير المتساوي في منتصف هذا القرن. وفي معظم الحالات الأخرى، تبدو طرق الدمج أكثر تعقيداً. ولذا يبدو من المفيد بحثها بكثير من الدقة والموضوعية.

٢٩- ادخل "م.ج. سميث" عبارة "اندماج" في الأبحاث الاجتماعية. استخدمها أولاً للتعبير بنوع خاص عن حالات "التكامل التبايني" والتي يفهم منها السيطرة السياسية والاقتصادية لمجموعة على أخرى. وقد اعطاها لاحقاً مدلولاً أوسع، فميز أربعة أنواع مختلفة من الاندماج: "الاندماج التبايني" أو "التسلسلي"، و"المتبادل"، و"المعقد"، وهو مزيج بين الشكليين الأولين، أو مع الشكل الرابع، أي الاندماج "الشمولي". راجع: M.G. SMITH, The Nature of Variety of Plural Units. Unedited manuscript. Yale Univ., New Haven 1982, p.10.

ولكن يبدو ان هذا الاصطلاح لايفيد الا بصورة محدودة فقط. "الاندماج الشمولي" هو عبارة جديدة تطبق على دولة متكاملة، ولا علاقة لها إطلاقاً بالأبحاث المتعلقة بالدول التعددية أو المتعددة الشعوب. فالدولة التي تتميز بهذا الشكل من الاندماج لم تعد تعددية. "الاندماج المعقد" هو شكل معظم حالات الاندماج الواقعية، لأن الاندماج "التبايني" الصرف، أو "التعادي" الصرف، لايمكن الا ان يكون نادراً. لذلك سيعتمد فيما يلي الى تحديد نموذجين مثاليين، يمكن الاستناد اليهما عبر البحث التجريبي لتوضيح كيف يكون الاندماج التبايني أو التعادي حالة خاصة. وللتشديد على الطابع النموذجي المثالي لهاتين العبارتين، نستبدل عبارة "تبايني" بـ "غير متساو"، وعبارة "تعادي" بـ "متساو". وقد استخدم تمييزاً مشابهاً أيضاً "تورنالد ل. هوروفيتز" في المصدر المذكور سابقاً ص ٢٢ - ٢٤. فتحدث عن "مجموعات اثنية مندرجة وغير مندرجة". ولكن هذه الصيغة تبدو ضعيفة المدلول بالمقارنة مع مفهوم "سميث" للاندماج. من النادر كذلك ان تصنف مجموعات اثنية في درجة عليا أو سفلى، لأن "الدرجة" يمكن ان تكون فقط ذات قيمة متوسطة، ولأن الطبقات والفئات يمكن ملاحظتها وفي معظم المجموعات الاثنية وان بأشكال مختلفة.

٥ - نشوء النزاع اثناء تطور عملية الدمج

يشار غالباً الى تماثل العلاقات بين تجمعات او طوائف في دولة تعددية وتلك بين دولتين في النظام العالمي. في الحقيقة يتشابه كثيراً الوعي الذاتي لدى التجمعات بالوعي الذاتي لدى الدول - الأمم^{٣٠}. يمكن ان تقارن أيضاً القوة او عدم القوة، الثروة او الفقر لدى تجمعات، مع تباينات متشابهة بين الدول.

ولكن ما يميّز فعلاً دولة تعددية في النظام الدولي، هو وجود دولة مشتركة لكل التجمعات. الدولة هي الدامج الكبير. فالذي يسيّر دفتها، يقرّر بصورة جوهرية عملية توزيع السلطة وبالتالي توزيع الثروة بين الطبقات كما بين التجمعات^{٣١}. يحصل في كل دولة توزيع او تقاسم للسلطة والثروة بين الطبقات. ولكن في دولة تعددية يأخذ الصراع حول توزيع الثروة وتقاسمها بين التجمعات، دوراً هاماً ودقيقاً للغاية. يتعلق هذا الدور بالحفاظ او بتغيير طرق معينة من الدمج.

كيف يتحول هذا الصراع الى نزاع؟

هناك افتراض واسع الانتشار يشير الى احتمال اندلاع نزاع عندما يحصل دمج غير متساو إطلاقاً^{٣٢}. يبدو هذا الافتراض في بداية الامر ممكناً. فعندما ترتبط

٣٠- جاء في كتاب "مايكل س. هيسون" عن لبنان في ص ٩: "الطوائف شبه القومية ملزمة بحكم وضعها ان تتصرف وكأنها دول في محيط دولي". وفي مكان اخر، ص ٣٤، كتب: "التخويف المتبادل والفعاليات ذات النفوذ المخرب ولكن المتساوي نسبياً، تسهم في خلق هذبة دائمة غير مريحة".

Michael HUDSON, The Precarious Republic. Political Modernization in Lebanon. New York 1968.

٣١- "مراقبة الدولة، ومراقبة دولة، واعفاء البعض من المراقبة، هي من بين الاهداف الرئيسية للنزاع الاثني". راجع "ونالد ل. هوروفيتز"، المرجع المذكور ص ٥. وقد كتب أيضاً: "ليس الوسط حكماً محايداً للنزاعات الناشئة في مكان آخر. بالعكس الوسط هو نفسه الدائرة الاساسية للتنافس" (ذات المرجع ص ٤٠).

٣٢- Michael HECHTER, op. cit. p.43 and Christopher Pagley, Racism and Pluralism: A dimensional analysis of forty-eight countries, in: Race 13(1972)3, p.347-354. Sammy Smoocha, op. cit. p.82.

هذا الأخير يُحذّر بالمقابل من هذا التعميم، فيشير الى انه في الحالات ذات الاندماج غير المتساوي، كما كان الحال في اسبرطة القديمة وفي مناطق استخدام الرقيق في افريقيا الشمالية، وفي النظام القبلي الهندي، وفي المراحل الزمنية الاولى من حكم المستعمرات، كانت تسود سيطرة مستقرة بصورة عامة، يقطع النظر عن الانعكاسات للظرفية. "ان الهوية في الثقافة والبنية والسلطة عميقة لدرجة انه لا يمكن قيام اي تحد فعلي ازاء المجموعة الحاكمة". ويشير أيضاً الى حالة معاكسة، أي العلاقات بين البيض والسود في الولايات المتحدة، فيقول: "لقد بلغ السكان السود درجة عالية من التقدم الاقتصادي والاجتماعي حتى وصلوا الى مستوى أصبح فيه التفاوت بين انجازات الطبقة والتميز المفروض، امراً لا يحتمل، وبالتالي

الثروة أو الفقر بفتة إثنية أو دينية أو لغوية، عندئذ يمكن ان تشتد النزاعات الاجتماعية عبر التباعد الثقافي، والتباعد الثقافي عبر النزاعات الاجتماعية. ان تحليلاً مقارناً لمجتمعات تعددية تشير الى عدم مصداقية وصحة هذا الافتراض. كذلك يشار ايضاً الى ان المجتمعات التي تعرف دمجا متساوياً واضحاً تبرز تجانسا بين مختلف تجمعاتها، وان التوتر الذي قد يحصل من حين الى آخر هو ضعيف بطبيعته. بالمقابل تبين ان المجتمعات ذات الدمج غير المتساو، مثل نظام الائتلات المغلقة في الهند، او نظام التمييز العنصري الذي ساد مدة طويلة من الزمن في جنوب افريقيا، عرفت استقراراً غير عادي وقدرة على مقاومة الأزمات. فالتصنيف الاجتماعي المتطرف فوقياً او تحتياً، يعطسي في هذه الحالات طابعاً شرعياً واستقرارياً عبر ادراكات حسية تتعلق بالتفوق أو بالتخلف الثقافي.

اما نشوء الأزمات فيلاحظ بالدرجة الأولى في تلك المجتمعات حيث يخفف التحول الاقتصادي من التباينات الاجتماعية التي كانت قائمة سابقاً او يضعف المستوى الاجتماعي الذي كان متقارباً او متشابهاً سابقاً بين التجمعات لمصلحة هذا الفريق وعلى حساب الفريق الآخر. وبالاختصار، تنشأ الأزمات عندما يطرأ تعديل على طريقة الدمج.

يبرز هنا ظاهرياً تشابه مع ما لاحظته الابحاث المتعلقة بالحركات الثورية في المجتمعات المتجانسة. فلا تتدلع الثورات عادة اذا كانت اللامساواة الاجتماعية متطرفة^{٣٣}، ولكنها تتدلع اكثر عندما يستطيع المتضررون الحد من اضعاف التباعد الاقتصادي بينهم وبين المستفيدين، او عند ما يشعر المستفيدون واصحاب الامتيازات بانهم مهددون في ترقيعهم الاجتماعي. وفي الحالتين، لا يمكن القول بان غير المستفيدين بالمطلق، بل بالنسبة، هم الذين يشعلون نار الأزمة الثورية. فظاهرة الأزمة الناتجة عن الحرمان النسبي^{٣٤} لا يمكن ملاحظتها لدى الافراد او الفئات، او

٣٣- تحول الى هدف لحركة الحقوق المدنية" (ذات المصدر ص ٨٣).
أطلق "توكفيل" صيغة كلاسيكية: "... يقال ان الفرنسيين، كلما تحسن حالهم، كانوا يجدون صعوبة في تحمل وضعهم... وهكذا لم تحصل الثورة دائماً عندما يتطور الوضع من سيء الى أسوأ. ان الشعب الذي يتحمل القوانين الأكثر قسوة دون تدمير، وكأنه لا يشعر بقساوتها، سرعان ما يثور للقضاء عليها حين يشعر بان عيبتها قد خف".

Alexis de TOCQUEVILLE, Der Staat und die Revolution, Hamburg 1969, p.153.
James C. DAVIES, Toward a Theory of Revolution, In: American Sociological Review, 27(1962), p.5-19. ٣٤-

اشار في هذا الصدد الى ان "كارل ماركس" وصف ظاهرة دلت لاحقاً على انها تعبر عن حالة الحرمان النسبي: "النمو السريع في رأس المال الانتاجي يفرض في نفس الوقت نمواً سريعاً في الثروة والتراف والحاجات الاجتماعية والاستهلاك الذي يصبح متوفراً للرجل العامل بالمقارنة مع مستوى التنمية في

الطبقات فقط، بل لدى التجمعات او الطوائف أيضاً. في هذه الحالة، تعتبر امكانية نشوء الأزمة اكثر احتمالاً منها لدى المجتمعات المتجانسة. فبينما ينبغي تكوين شعور طبقي للتحرك لدى الفئات المحرومة اقتصادياً، فإن الشعور الذاتي لدى التجمعات هو اكثر تحركاً واسرع اثارة، ان لم يكن قائماً بسبب معايير التماثل المعروفة. فالتفوق او التخلف الجماعي لدى التجمعات او اية ظاهرة اجتماعية، تأخذ هذا الشكل، تؤدي الى تغيير في بنية المجموعات كلها^{٣٥}. فالوضع الاقتصادي

المجتمع. حاجتنا وامكانية التمتع والاستهلاك هي انعكاس للمجتمع، ... لانتقيسها بالأشياء التي ترمز الى لشباعتها. انها ذات طبيعة نسبية"

Karl MARX & Friedrich ENGELS, Werke, Band 6, Ost-Berlin 1959, p.412.

أشار الى نظرية الحرمان النسبي أيضاً "تاد روبرت غور" في مؤلفه

Ted Robert GURR, Why Men Rebel, Princeton, N.Y.1970.

هذه الظاهرة لا تبرز شيئاً بالنسبة للدول المتعددة الشعوب. ولكن بالاستناد الى تعابيرها الرئيسية، فهي تشير بوضوح الى امكانية تطبيقها في هذه الحالة أيضاً. مشاعر الحرمان تشمل حسب قوله أيضاً "الرفاه والسلطة والوضع الداخلي"، وكذلك "القيم الجماعية" الملحوظة بنوع خاص للمجتمعات التعددية. "التدبير المعياري للعنف" هو اكثر سلطة لدى ايدولوجيات المجموعات القائمة. وكذلك "المراقبة القسرية المنشقة" تستطيع ان تبرز بسهولة اكثر، عندما تتوفر منظمات لمجموعات ذات هيكليات قائمة. الرموز القائمة لتحديد المجموعات تسهل اكثر تحديد "اهداف العنف"، والعمل على "المشاركة في اعمال العنف". والعنف الواقعي يؤدي حسب "تاد روبرت غور" الى تدعيم وتثبيت رموز المجموعات، التي اندلع باسمها. "تعدد وسائل الاعلام وامكانياتها"، التي تشكل برأيه عاملاً حاسماً في النزاع، هي عادة في الدول التعددية اكثر تأثيراً وفعالية منها في الدول المتجانسة. راجع: Anthon OBERSCHALL, Social Conflict and Social Movements, Englewood Cliffs, 1973.

يفسر هذا الباحث في الصفحة ١١٩ لماذا تعتبر التعبئة الاجتماعية أكثر سهولة في الدول التعددية. يعتبر الشروط القليلة مثل "الاهداف والمواضيع المشتركة للتخاضم مسؤولة عن المظالم والمصائب والالام، والتي تتفاقم في بعض الحالات عبر مشاعر اكثر عمقا تتصل بالحرمان الجماعي، والمصلحة الجماعية، والمصير المشترك... لذلك كل مقاومة مدعومة، او كل احتجاج مبني على قاعدة منظمة وياشراف قيادة مترابطة، تشكل امراً ضرورياً أيضاً... فالمجموعة يمكن ان تتكامل وتنظم وفقاً لاسس تقليدية حيائية قائمة على عنصر القرابة او القرية او على تنظيم اثني او قبلي... فالخصائص البنيوية التي تسهل التعبئة في اطار حركات الاحتجاج، يتم توفرها او الحصول عليها عندما لا يكون المجتمع منظماً بشكل رفيع فقط، بل مجزأاً".

"... تستطيع الاوضاع الشاذة ان تزعزع نظاماً طبقياً. فاعضاء الفئة الدنيا ضمن مجموعة يتألق فيها اعضاء الى اعلى المراتب يهدون لسطورة التكابر والتفوق. ونمو نخبة داخل فئة متفوقة، يخلق أجلاً أم عاجلاً طموحات نحو الترقى والتحريك والاعتراف تتفاقم مع النظام الطبقي القائم"

Donald L. HOROWITZ, op.cit. p.25-26.

هذا ما يتفق مع الاستنتاج التجريبي الذي يكشف عن ان النزاع الاكثر عنفاً وقساوة يحدث بين الاشخاص الذين ينتمون الى مجتمعات مختلفة، ولكن أيضاً الى ذات الطبقات الاجتماعية المتماثلة. راجع:

James JUPP, Ceylon and Malaysia, in: Adrian LEFTWICH (Ed.), South Africa. Economic Growth and Political Change. With comparative studies of Chile, Sri Lanka and Malaysia, London and New York 1974, p.187-211.

والسياسي لهذا التجمع يعتبر متنافراً مع شعور هذا التجمع بالتقييم الذاتي. إضافة الى ذلك، ينشأ الى جانب الشعور بالحرمان الاقتصادي شعور بالحرمان الثقافي. فكرة فئة اتنية او دينية او لغوية من الناس تعتبر عرضة للانتهاك^{٣٦}. وبنتيجة هذا الحرمان النسبي الرمزي، تتفاقم حدة الاستعداد للنزاع من منطلق الفروقات الاقتصادية بين التجمعات المختلفة.

مقابل الافتراض الذي يعتمده اصحاب نظريات التحديث، هناك عمليات التحديث التي تنمي الشعور بالحرمان الاقتصادي والثقافي، وبالتالي تسبب النزاعات بين التجمعات. وكذلك يسهل تنامي وسائل الإتصال المقارنات، ويجعل من غير المحتمل، ان لا تعطى الاهمية لعدم المساواة الواقعية، او التي يمكن الشعور بها. فالانخراط المتنامي في السوق العالمية، والنمو الاقتصادي السريع، وما ينتج من نزوح ريفي، وتمدين، تؤدي كلها الى نشوء تباين في القوة الاقتصادية، فيحصل تفوق او تخلف لدى هذا او ذاك التجمع^{٣٧}. فالمجموعات التي تتأثر سلباً بسبب التقلب الاقتصادي تتحول الى قوة ضغط محتملة تتشكل عادة من القرويين والمزارعين الذين تعرضوا للفقر، وقد نزحوا الى المدن، واضطروا الى ممارسة اعمال حقيرة، وقبول اجور ضئيلة، نظراً لعدم اهليتهم المهنية. وتضم ايضا الحرفيين اليدويين الذين فقدت مهنتهم اهميتها^{٣٨}، وخريجي المدارس المتوسطة والعالية الذين لا يجدون عملاً يتوافق مع تطلعاتهم وطموحاتهم^{٣٩}. تميل هذه الفئات بالذات عادة ليس الى تحليل فشلهم كافراد نظراً لعدم الاهلية الشخصية، او الظروف الموضوعية، بل الى التمييز الواقعي او المشتبه به، ضد التجمع الذي ينتمون اليه. فربط الشعور بالحرمان الاقتصادي والثقافي الرمزي يولد خاصة شعوراً بالمرارة.

يشير هذا الربط ايضاً الى ان الادراك الحسي لدمج غير متساو في تجمع ينتمي اليه الفرد، يعطي شعوراً بدوام هذا الوضع طويلاً حتى بعد التخفيف من هذا الغبن، او حتى بعد زواله نهائياً. فالفجوة الزمنية، الممثلة بالتفرج وراء الادراكات الحسية

٣٦- "ماكس فاير" ابرز وشدد على المعنى الخاص لمشاعر "الشرف والكرامة". راجع: المصدر المذكور ص ٢٣٦.

٣٧- تستطيع التنمية الاقتصادية ان تزيد بصورة بارزة عدد الخاسرين". راجع: Mancur OLSEN, Rapid Growth as a Destabilizing Force, in: Journal of Economic History, 23(1963), p.529-552.

٣٨- راجع "انطوني اوبرشال"، المصدر المذكور ص ٤١-٤٢. لا ينتمي العمال في المجتمعات الصناعية الجديدة والثابتة وظائفهم عادة الى هذه المجموعة، عندما لا تؤدي الازمات الاقتصادية الى انخفاض كبير في الاجور او الى تسريح العمال.

٣٩- راجع في هذا الصدد الفصل الثاني.

للتغييرات الواقعية، لا تشكل الا نادراً احدى اكبر المشكلات لنجاح السياسة الاصلاحية للتوازن الاجتماعي بين التجمعات. وحتى الاصلاحات الناجحة نسبياً لا تؤخذ غالباً على محمل الجد^{٤٠}.

تحاول القيادات السياسية لكل التجمعات في الدول التعددية التعبير باستمرار عن الشعور بالحرمان، لدى انصارها، لتكسب شعبية او لتحافظ عليها. وغالباً ما تتخلى هذه القيادات عن هذه المحاولة. في البداية يعبر غالباً خطياً وبطريقة مبرمجة عن الادراكات الحسية شبه الغامضة عن هذا الحرمان، كما يضح تفسيرها بالاستناد الى نظريات ايديولوجية. اما القياديون السياسيون، الذين يعطون الافضالية للاعتبارات الواقعية ويؤيدونها، فيعرضون انفسهم للخطر، اذ يتمكن بالنتيجة الخطباء الراديكاليون من أخذ مكانهم. وهكذا تتأزم الاوضاع، عندما تهدد ما يُسمى "بالنخبة المتعطسة"^{٤١} مواقف "النخبة المعتدلة"، وتأخذ مكانها.

يتوقع حصول تفاقم شديد في الازمات عادة، عندما يحصل تراجع او فشل بعد بذل جهود كثيرة لإحلال نوع من الدمج المتساوي بين التجمعات، وعندما تخيب الآمال في الحد أو التخفيف من اللامساواة. وهكذا يبدو بوضوح قيام اشكال من الضغوط الراديكالية والمنظمة ايديولوجياً^{٤٢}.

ان التغيير الاجتماعي والاقتصادي السريع، كالنزوح من الريف، أو قيام مجموعات معارضة في الاحياء الجديدة من المدن، أو تواتر التعبير الايديولوجي عن الشعور بالحرمان من قبل بعض المفكرين، أو بروز قيادات شعبية راديكالية، تعتبر كلها ظواهر قائمة حتى في المجتمعات المتجانسة. ولكنها تأخذ اشكالا اخرى في الدول التعددية. فالتغيير الاجتماعي والاقتصادي قد يحصل بدرجات مختلفة، أو على مدى زمني قريب أو بعيد.

٤٠ - غالباً ما يبرز ذلك في النتائج المتأخرة: "... انه لمن الصعب جداً ضمان الفترة الانتقالية بين البدء بتطبيق سياسات جديدة وقطف ثمارها المتوقعة". راجع "نطوني اوبرشال" المصدر المذكور ص ٧٠.

٤١ - ادخل هذه الصيغة "فال لوروين". Val LORWIN راجع: Hans DAALDER, The Consociational Democracy Theme, in: World Politics, 26(1974) p. 612.

٤٢ - الدمج بين التحسن الاقتصادي على المدى البعيد وخيبة الأمل على المدى القصير هو بنظر "هاري اكشتاين"، شيء نموذجي في حالة الازمات. راجع: Harry ECKSTEIN, Internal War. Problems and Approaches. London 1964, p.143.

"الثورات هي بالتالي الأكثر احتمالاً عندما تسيطر فترة قصيرة وصعبة من الركود أو الانحسار الاقتصادي مكان مرحلة مستمرة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية الواقعية". راجع: James C. DAVIES, op. cit. p. 400.

يمكن تطبيق هذه النظرية بصورة مماثلة على الازمات التي تقع بين المجموعات أو الطوائف.

في الاحياء الجديدة من المدن يستطيع النازحون من الريف الاندماج مع السكان الاصليين، ولكنهم سرعان ما يتكتلون وفقاً لاصولهم الجغرافية وانتماءاتهم الطائفية. فلا تنشأ مجموعة واحدة معارضة فحسب، بل مجموعات عديدة ايضاً تستخدم اكثر من شكل ايدولوجي للضغط والتعبير عن سخطها وامتعضها. وفي كل تجمع يحاول الراديكاليون ابعاد القادة السياسيين المعتدلين عن الساحة. وبالتالي توضع المطالب الاجتماعية في الاطار الثقافي - الرمزي لمختلف التجمعات^{٤٣}.

فالأحداث المجتمعية التي تسبب في المجتمعات المتجانسة اضطرابات اجتماعية، وتغييراً في النخبة الحاكمة، واصلاحات راديكالية في البنية، تستطيع في ظل هذه الاوضاع الاقتصادية ان تشعل نيران حرب اهلية في الدول التعددية. الثورات الاجتماعية تنتهي عادة بالهزيمة او بالانتصار. اما الحروب الاهلية بين التجمعات الاثنية او الدينية او الطائفية فتنتهي غالباً دون غالب او مغلوب. تحصل الثورات وتنتهي عادة في وقت قصير. اما الحروب الاهلية فتستمر معظم الاحيان وقتاً طويلاً.

يتعرض اصحاب النفوذ في المجتمعات المتجانسة لفقدان نفوذهم. اما في الحروب الاهلية فتتعرض التجمعات المغبونة للخطر، فتستعبد او تضطر الى فقدان هويتها، ان لم تفقد وجودها.

٦ - أشكال تسوية النزاعات وايدولوجياتها

لا ريب اذاً على الاطلاق ان يكون اندلاع النزاع اكثر احتمالاً في الدول التعددية منه في الدول المتجانسة. لذلك يتفق عدد كبير من العلماء في الاعتقاد بأن الدول التعددية محكوم عليها بعدم الاستقرار، وبأن تسوية النزاعات يمكن ان تحصل فقط بالحد من تكاثر التجمعات المتباينة، او بادراج نظام حكم غير ديمقراطي، اي بسيطرة تجمع ما على تجمع آخر^{٤٤}. مقابل هذا التشاؤم في التفكير، يعطي بعض المفكرين امثلة عن عدد من الدول، حيث ينظم التعايش بين تجمعات متباينة في اطار تسويات مؤسسية تسمح بالوصول الى استقرار ديمقراطي^{٤٥}.

٤٣ - تستطيع هذه الاخيرة فرض ذاتها بشدة: "في بعض النزاعات حول المصالح الاقتصادية، يستطيع كل حزب ان يحصل على قطعة من الجبنة، دون ان يحصل اي حزب على الجبنة بكاملها. ولكن الرموز والمبادئ في مختلف اشكالها هي سلع لا تجزأ". راجع: "انطوني اوبرشال"، المرجع المذكور ص ٥٠.

٤٤ - Alvin RABUSHKA & Kenneth A. SHEPSLE, Politics in Plural Societies. A theory of Democratic Instability, Columbus, Ohio, 1972.

٤٥ - Aren LIJPHART, Democracy in Plural Societies. A comparative exploration. New Haven and

ولاشك في ان المتشائمين يقدمون بعضاً من البراهين المقنعة. فدراسة اشكال مختلفة لتسوية النزاع في اثنتين وثلاثين حالة تاريخية او معاصرة^{٤٦}، في اوروبا وافريقيا وآسيا، كشفت عن أن اكثر من ربع هذه الحالات هي في نزاع مسلح يدوم بعضها منذ أكثر من قرن. كما ان عدم التسوية قد يتحول الى حالة تستمر بعض الوقت نسبياً. وهناك ربع آخر من هذه الحالات تفرض فيها تسوية للنزاع من طرف واحد، فتسيطر فئة على أخرى في جو من الاستقرار او عدم الاستقرار. وقد يحصل الاستقرار في الدول حيث تشكل الفئة الحاكمة اكثرية ساحقة، او يستخدم العنف في سبيل الاحتفاظ بالسلطة. ولكن استخدام العنف لا يشكل اي ضمان للاستقرار، لا بل يخلق عنفاً معاكساً. ففي حوالي خمس الحالات التي جرى بحثها، سوي النزاع بتقسيم البلاد. ولكن التقسيم السلمي حصل فقط حيث تعيش التجمعات في مناطق جغرافية منفصلة. في المقابل، حصل التقسيم في ساحة المعارك بعد الخسائر الجسيمة التي انتهت بالقتل والنهب والتهجير.

وفي الخمس الاخير من هذه الحالات حصل اعتراف متبادل في مجال التعايش بين تجمعات مختلفة، وبالتالي جرت تسويات، ولكن فقط بعد احداث دامية.

هذه الاحداث هي مخيبة للأمل. لقد تكاثرت النزاعات الطويلة والمريرة دون الوصول الى تسوية. فالسيطرة على السلطة من قبل تجمع ما يسبب كلفة اجتماعية عالية، كما انها نادرة الاستقرار. تحصل التسويات عبر محادثات ومناقشات في نصف هذه الحالات فقط. وقد تؤدي نتيجتها الى التقسيم والاعتراف المتبادل، لان التعايش السلمي مستحيل. وفي معظم الحالات التي يحصل فيها تعايش عبر التسويات والمساومات، يكون ذلك نتيجة نزاع دموي.

في مثل هذه الحالات كيف ينظر "المتشائمون الى الديمقراطية؟" الانظمة الديمقراطية هي اقلية في الدول القائمة حالياً، لا في فئة الدول المتعددة الشعوب فقط، بل ايضاً في فئة الدول المتجانسة ثقافياً. ولا حاجة للجدل حول هذا الامر، ولكنه معز على الاقل. ان قسماً من المفكرين، من "ذوي الاتجاه التفاولي إزاء الديمقراطية"، خاصة اصحاب نظريات التحديث والعصرنة، يأملون في نهاية المطاف بان التكامل الاجتماعي قد يزيل خصوصيات التجمعات او الطوائف، ويسمح بالتالي ببناء الامم. ولكن هذا الامر، كما اشرنا، يتعلق بأمل يصعب تثبيته او

London 1977, p. 1

Theodor HANF, The Prospects of Accomodation in Communal Conflicts: A comparative study,
in: Peter A. D RING a.o.(Eds.), Bildung In sozio-ökonomischer Sicht, Köln und Wien 1989, p.
331-332.

-٤٦

التأكد منه بطريقة تجريبية.

يبقى التفكير بتكاثر هذا الشكل أو ذاك لتسوية النزاع. فلا يعني شيئاً كثيراً بالنظر الى الاحتمالات ولا شيئاً قليلاً بالنسبة لامكانية تطبيق شكل معين في حالة معينة.

فوجود اشكال سلمية وديمقراطية للتسوية في الدول التعددية، يشير بوضوح الى ضرورة عدم استبعادها، كما يحصل وان نادراً.

هنا يطرح السؤال نفسه بالحاح حول وجود ارتباط بين اشكال معينة لتسوية النزاعات من جهة، ومواقف ايديولوجية معينة تتصل بمشكلة الدول التعددية^{٤٧} من جهة اخرى.

يفرض تعدد مثل هذه المواقف الاكتفاء بابراز عدد محدود منها يعبر عن مضمونها الاساسي. ففي حالات قليلة فقط يُعبر عن مشكلة السلطة في الدول التعددية بطريقة محض اجتماعية داروينية، اي تبرير سلطة تجمع ما بشكل أو بآخر كي يستمر في الاحتفاظ بالحكم. ففي معظم الدول التعددية يدور الحوار الايديولوجي حول ماهية التجمع، واذا كان مثل هذا التجمع موجوداً فعلاً، او اذا كان لابد من تكوينه.

تبرز في هذا النقاش ثلاثة اتجاهات ايديولوجية. الاول يمكن التعبير عنه بكل دقة بكلمة "يعقوبية"، اي النظرة الديمقراطية المتطورة التي نادى بها اليعقوبيون خلال الثورة الفرنسية. في ذلك الوقت صاغ نادي اليعقوبيين مبدأ المساواة بشكله الاكثر صفاء وراдикаلية. فالمساواة لايفهم منها فقط المساواة الاجتماعية، بل ايضاً المساواة الثقافية. لذا ينبغي القضاء ليس على الاختلافات الطبقية او المرتبطة بالملكية فحسب، بل على الاختلافات الثقافية ايضاً. فقد حدث نداء ثوري مثلاً المواطنين في مدينة "ستراسبورغ" على الابتعاد والتخلي عن الازياء الالمانية لان قلوبهن فرنسية^{٤٨}. فالابتعاد عن المساواة الاجتماعية في اعقاب الثورة الفرنسية لم يمس المساواة الثقافية. ينبغي ان تكون الجمهورية "واحدة لا تتجزأ"، ذات سلطة مركزية، ولغة واحدة، ومحررة من اية خصوصية. فقد وضع نظام تعليمي موحد كي يقضى نهائياً على لغات الاقليات ولهجاتها. من الوجهة السلبية، تعني اليعقوبية القضاء

٤٧- يفهم من عبارة "ايديولوجيا" فيما يلي "الصيغة المنظمة والشاملة لتوجيه عام للسياسات" راجع: Gabriel A. ALMOND, Comparative Political Systems, in: The Journal of Politics, 18(1956); p.397.

وهي اكثر ارتباطاً بالسياسة ازاء المشاكل الرئيسية للدول التعددية.
٤٨- "اعلان عن ممثلي الشعب. يطلب الى مواطنات ستراسبورغ التخلي عن الازياء الالمانية، لان قلوبهن فرنسية. صدر في ستراسبورغ في ٢٥ برومير من العام الثاني للجمهورية الواحدة غير المجزأة...
التوقيع سان جوست و لابر". Saint Just & Lebar.

على كل مايقف في طريق الوحدة السياسية والثقافية. اما من الوجهة الايجابية، فهي تهدف الى خلق جمهورية واحدة وموحدة عبر عمل الارادة ونشاط الدولة. في القرن العشرين تحولت اليقوبية الى اهم سلعة سياسية تصدرها اوروبا، وقد عرفت ماركتها المسجلة باسم "بناء الأمة". فكلما تقلص التجانس في الواقع الاجتماعي، اصبح اكثر انجذابا للقيام، باسم الراية اليقوبية، بحملات صليبية ضد القبالية والخصوصية والطائفية والانعزالية. وهكذا تحولت اليقوبية في تنوعاتها المختلفة الى الايديولوجية التي ينبغي بموجبها قيادة الدول في العالم الثالث.

الاتجاه الثاني هو اثاره وتعبئة هويات التجمعات او الطوائف. بالاستناد الى الاصل او التاريخ او اللغة او الدين او الثقافة، يحصل تردد في قبول الانتظام والدمج الثقافي، وتبرز ارادة البقاء في الحالة القائمة، وعزم في الحفاظ على مصالح التجمع في اطار اكبر للدولة.

ان تعبئة هويات التجمعات هو رد جدلي على نظرية اليقوبية. فكما اقتبست في القرن التاسع عشر القومية الموضوعية - الحتمية في اوروبا قوتها من الانتفاضة ضد اليقوبية التي اراد "تأبليون" تصديرها، اصبحت اليوم غالبا ايديولوجية لمعارضة اليقوبية الارادية - الذاتية التي ينادي بها بعض القادة السياسيين الجدد. فتعبئة المتضررين والمهمشين تبرز غالبا في شكل اثاره وتعبئة مشاعر تجمع ضد تجمع آخر، يعتبر مستقيدا او مميزا، او بكل بساطة ضد مايسمى ببورجوازية الدولة صاحبة النفوذ والتي يبرر موقفها بمفهوم يعقوبي غامض، ولكنه يعيش لذاته اكثر مما يعيش للدولة.

اما الاتجاه الثالث فيمكن وصفه بالقومية التوفيقية^{٤٩}. يهدف هذا الاتجاه ايضا الى بناء أمة ولكن بطريقة تتنافى مع الطرق اليقوبية القائلة بالقضاء على كل الوقائع الاجتماعية والثقافية القائمة. بدلا من ذلك، يعتبر هذا الاتجاه التجمعات القائمة والنامية كأسس قوية لبناء أمة تعددية. يعود بروز هذا الاتجاه الى سببين. الاول، هو عدم واقعية الامل بالقضاء بسهولة على التجمعات القائمة، او صعوبة القضاء عليها بسبب الكلفة الاجتماعية المرتبطة بذلك والمرفوضة، مثل الاستئصال، وانعدام

٤٩- يتحدث "ملتون ج. اسمان" في الصفحة ٥٨ وما يليها عن "التكامل التلغيفي" (Synkretischer Integration) كسياسة تعمل لزوال هويات التجمعات او الطوائف القائمة لصالح هوية جديدة قومية مشتركة بين الجميع. راجع: Milton J. ESMAN, The Management of Communal Conflict, p. 58f. نستخدم فيما يلي عبارة "تلغيف" بمعناها الاصلي، اي "اتحاد فريقين متخاصمين ضد فريق آخر"، وبالتالي "كمجموعة قائمة سرية". كذلك يفهم من القومية التلغيفية هنا وحدة قومية جديدة مكونة من اجزاء مختلفة ومنفصلة عن الخارج، اي "وحدة في التعدد".

الاستقرار، والقضاء على المقاييس الاجتماعية والادبية.

ويعود السبب الثاني الى واقع المجتمعات حيث لايسود اي تفريق بين التجمعات فحسب، بل عيش مشترك وعمل مشترك ايضاً. فاية تعبئة راديكالية للتجمعات ستتجاوز ذلك، وتدفع الى تمزيق المجتمع عبر نقل السكان وتهجيرهم، وتؤدي بالتالي الى نتائج وخيمة لايمكن توقعها. فاستناداً الى هذا الواقع لا تريد القومية التوفيقية لا وحدة ولا تعدداً باي ثمن، بل وحدة في التعددية.

لهذه القومية التوفيقية اشكال عديدة. برزت في الاطار السياسي الدستوري بشكل نموذجين مختلفين. احدهما يبحث عن التجمعات القائمة ليضعها في اطار مؤسساتي، ولينظم طريقة تعايشها. تؤخذ هوية التجمع سياسياً بعين الاعتبار، ويحاول ادخالها في اتحاد التجمعات التي تشكل أمة متعددة ومتنوعة. يعرف هذا النموذج في اللغة السياسية السويسرية بـ "ديمقراطية التوافق". وكذلك وصفها احدى مدارس العلوم السياسية بكلمة "التوافقية"^{٥٠}.

تجدر الإشارة هنا الى ان نظرية "لينين" عن الجنسية، القائمة اقله على الاصل

٥٠- عبارة "ديمقراطية التوافق" (Konkordanzdemokratie) هي من المصطلحات السياسية المألوفة في سويسرا. ادخلها في علم السياسة المقارن "جرهارد لاهمبروخ" الذي وصف ذات النظام في البداية بـ "ديمقراطية التماسك". راجع مؤلفه:

Gerhard LEHMBRUCH, Proporzdemokratie: Politisches System und politische Kultur in der Schweiz und in Österreich, Tübingen 1967; Konkordanzdemokratie im politischen System der Schweiz, in: Politische Vierteljahresschrift, 9(1968), p.443-459.

وكذلك تحدث "اراند ليجبهارت" في البداية عن "التكليف" في مؤلفه

Arend LIJBHART, The Politics of Accommodation. Pluralism and Democracy in the Netherlands, 2d ed., Berkeley 1975.

أخذ مفهوم عبارة "Consociation" عن "يوهانس التهوسيوس" Johannes ALTHUSIUS، ومعناها الحرفي "المشاركة في المصير"، وقد بنى عليها نظرية أكثر شمولية. راجع مؤلفه:

Democracy in Plural Societies, op.cit. and Power sharing in South Africa, Berkeley 1985.

في المؤلف الأخير يناقش "اراند ليجبهارت" بالتفصيل ردود الفعل الانتقادية على نظريته. فبينما يشدد "لاهمبروخ" على معنى المفهوم السياسي الذي نشأ تاريخياً بالنسبة للتعايش الديمقراطي التوافقي، يركز "ليجبهارت" على الآليات الدستورية الملائمة لذلك. ويشدد ايضاً على ضرورة فهم نظريته ليس فقط من الجانب التحليلي فحسب، بل من الجانب المعياري ايضاً. في ظل اوضاع المجتمعات التعددية لا يوجد واقعاً الا خيار واحد، وهو ديمقراطية المشاركة في المصير او لا ديمقراطية. النموذج الاساسي لديمقراطية التوافق هو تسوية النزاعات في الدول ذات الطوائف المختلفة، ليس عبر قرار الاكثرية - الذي لا يمكن ان يكون في مثل هذه المجتمعات الا قراراً انحيازياً لصالح المجموعة الاكثر عدداً -، بل عبر اتفاق بين المجموعات، قائم على مشاركة كل المجموعات في السلطة، وبالتالي عبر تسويات دائمة. ديمقراطية التوافق تعني اذا الاعتراف بوجود تجمعات او طوائف مختلفة ذات توجهات سياسية خاصة بها.

العرقى واللغوى، استوتحت قاعدة مشابهة، اذ يحق لكل تجماع ان يفصل عن التجمعات الاخرى، رغم ان "لينين" لم ينظر الى ذلك بطيبة خاطر، بل تمنى دولة مشتركة مع استقلالية ذاتية لكل الاجزاء دون فصل او ابعاد اية اقلية قومية^{٥١}.

يهدف النموذج التوفيقى الثانى الى الحد من تسييس هوية التجمعات. فهو ينظم التنوع الثقافى، ويعززه بهدف استبعاد الحرمان الثقافى - الرمزي، وتمكين بناء وحدة الدولة سياسيا. تعود الصياغة النظرية البالغة الاهتمام لهذا النموذج الى الفلكيين الماركسيين "أوتو باور"^{٥٢} و "كارل رينر"^{٥٣}، اللذين اقترحا في مطلع القرن العشرين بالنسبة لامبراطورية آل هابسبورغ المؤلفة من "خليط" من التجمعات، ان تنشأ الى جانب الوحدات السياسية القائمة على اساس مبدأ الاراضى، مؤسسات ثقافية مستقلة اداريا تقوم على اساس المبدأ الشخصى، الذى يعطى لكل انسان اينما كان مقر سكنه، الحق في ان ينتمى، حسب اختياره الشخصى، الى اي تجمع ثقافى. فنزع الطابع السياسى عن اللغة والثقافة والتربية، يسهل، حسب رأى هذين الفلكيين، بناء قوى سياسية متداخلة الثقافات على اساس المصالح الموضوعية للطبقات^{٥٤}.

Wladimir I. LENIN, Über die nationale und die koloniale nationale Frage, Ostberlin 1960. -٥١
كتب "لينين" من جهته: "نحن مع اليقويين وضد الجيرونديين" (ص ١١٥)؛ وقد عارض "الثقافة القومية لاصحاب الاملاك والاكليروس والبرجوازية" (ص ١٤١)؛ كما ايد "ثقافة عالمية للعمال" (ص ٩٣). وهذا يعنى ينظره "ان لا امتياز لاية أمة، او لاية لغة، ولا لاي استثناء مهما كان محدوداً. ولا لاي ظلم مهما كان ضئيلاً يسمح بممارسته ضد اية اقلية قومية" (ص ٣٩). "تعطينا سويسرا وبلجيكا والنرويج، ودول اخرى، مثالا على كيفية تعامل الأمم الحرة مع بعضها في ظل اوضاع ديمقراطية حقيقية، وعن الذى يفرق بينها سلمياً" (ص ٩٢). ويستهدف عبر الاشارة الاخيرة ابراز كيفية استقلال النرويج عن السويد عام ١٩٠٣. "ليس هدفنا فصل الدول عن بعضها، بل ضمان فعلى لمساواتها عبر ديمقراطية كاملة والتوصل ايضا الى تعايش سلمى (تسبياً) كما هو الحال في سويسرا" (ص ١٣٣ - ١٣٤). ولم يكن "فان دان بارغ" على خطأ عندما استنتج قائلاً: "نموذج مبدأ المشاركة في المصير... لا يتنافى مع ديمقراطية الشعب. ان عدداً من الدول الاشتراكية تطور نحو نماذج من الدساتير السياسية القائمة على المشاركة في المصير. انها دساتير تعترف رسمياً وشرعياً بالاثنية كأساس للتنظيم السياسى والتمثيل الشعبى وللاندماج داخل دولة متعددة الجنسيات تحكمها نخبة تكنوقراطية وبيروقراطية متعددة الاثنيات". راجع:

Pierre L. VAN DEN BERGHE, The Ethnic Phenomenon, New York & Oxford 1981, p. 191

Otto BAUER, Die Nationalitätenfrage und die Sozialdemokratie, Wien 1924. -٥٢

Rudolph SPRINGER (pseud. Karl RENNEN), Der Kampf der österreichischen Nationen um den Staat, Leipzig und Wien 1902; Karl RENNEN, Der Selbstbestimmungsrecht der Nationen, in besonderer Anwendung auf Österreich, Leipzig und Wien 1918. -٥٣

عبر موقف "لينين" الصارم، وكذلك بسبب انهيار امبراطورية آل هابسبورغ، غاب هذا النوع من التفكير في دياجير النسيان حتى تسنى في وقت حديث جداً للنقاش الماركسي من اعطائه بعض الاهمية. راجع:

Wladimir I. LENIN, Über die "national-kulturelle" Autonomie.

في ذات المصدر ص ١١٨ - ١٢٢، لم يرد "لينين" بنوع خاص ان يسمع شيئاً عن مهمة المراقبة المركزية على نظام التعليم، ولكنه شدد، كما اشير سابقاً، على الحفاظ على تدريس اللغة الام.

هل يمكن ملاحظة اي ارتباط بين هذه الاشكال المعينة لتسوية النزاع في الدول التعددية وهذه الاتجاهات الايديولوجية الثلاثة؟

في النزاعات التي تسوى بواسطة السيطرة المستقرة، يميل التجمع الحاكم الى اعتبار الامة متجانسة بكل بساطة والى التكرار لوجود تجمعات اخرى. هذا ما هو حاصل مثلاً مع الاكراد في تركيا، حيث يلقبون بـ "اتراك الجبل". وكذلك بالنسبة للاقلية الحاكمة في "بوروندي"، تعتبر التباينات الاثنية اختراعاً استعمارياً.

وهكذا تبدو الحال ايضاً في بعض الانظمة ذات السيطرة غير المستقرة. فلا يوجد مثلاً اي حكم عربي، مثل الحكم السوري، ينادي بحماس رائع بالقومية العربية. ولكن هذا الحكم يرفض الادعاء القائل بان هذا البلد تحكمه اقلية، ويتهم المعارضة بانها تعمل على اثاره النعرات الطائفية البغيضة. وكذلك الحكم الملكي الاردني يعتبر نفسه سلطة حيادية لا تميز بين اردنيين من اصل فلسطيني او اردنيين من شرق الاردن. وتعترف حكومة "الكامبيرون" و "التشاد"، قبل تغييرها او بعده، والتي تنجح في اِصال مجموعة اثنية او دينية الى الحكم، بايديولوجية ذات مفهوم يعقوبي صرف. كما ترفض بشدة اتهامها بتفضيل تجمع معين على آخر. وحدها اسرائيل تخلت عن اية ايديولوجية تكاملية، بالاستناد الى حق ديني بالارض، ولكن لا تطبق ذلك على السكان غير اليهود. لابد من التساؤل هنا عن ماهو الافضل لاسرائيل: هل التخلي عن جزء من الارض بسبب السكان ام الاحتفاظ بالارض كلها رغم وجود السكان؟

تجدر الاشارة هنا الى ان معظم حالات النزاع المصحوبة بالعنف لا تحصل في الدول حيث تقوم حركات تعبئة تنافسية بين التجمعات، بل حيث تقوم مجموعات ذات مفهوم يعقوبي للمجتمع مقابل مجموعات ذات مفهوم ايديولوجي مجتمعي يرتبط بالاثنية او الدين او اللغة. فالتمسك بالمفهوم اليقوبي يخبيء غالباً طموح السيطرة لدى مجموعة ما. فالامهريون الذين كانوا سابقاً امبراطوريين، واصبحوا بعد ذلك ماركسيين، حاربوا الثوار الاريتريين وثور "اوروموس" باسم "اثيوبيا الموحدة". وكذلك باسم الدولة الواحدة غير المجزأة تحارب القوى الحاكمة في "بورما" شعوبها الجبلية غير البوذية، و "سري لانكا" شعب "التمول"، والعراق الفئات الكردية، والسودان السكان السود المسيحيين والاحيائيين، و "اوغندا" المجموعات القبلية الاخرى، و "الفيلبين" الاقلية المسلمة في جنوب البلاد. وفي ايرلندا الشمالية، يتمسك كل من البروتستانت والكاثوليك بالمبدأ اليقوبي: الاولون بالمملكة المتحدة غير المجزأة، والاخرون بجمهورية ايرلندية واحدة.

فايديولوجيته اليقوبية هي ذات مضمون سياسي، ولكن لاعلاقة لها باللغة والقومية.

تعتبر حالات التقسيم هذه بصورة واضحة عن الاقتناع باستحالة فرض السيطرة أو التعايش.

يلاحظ أخيراً في كل هذه الحالات حيث يقوم تعايش بين التجمعات، وجود إيديولوجيات من النوع التوفيقي. إذا ماسبق الاتفاق والتوافق نزاع مسلح، يقوم تنظيم مؤسساتي سياسي يحترم تعدد التجمعات كما حصل في سويسرا مثلاً. وتجدر الإشارة هنا إلى حالة تاريخية قديمة، وهي معاهدة "ويستفاليا"^{٥٥} في عهد الامبراطورية الرومانية التي جرى إبرامها بعد حرب أهلية أدت إلى تسويات دائمة للتعايش.

تجدر الإشارة كذلك إلى أن الدول التعددية ذات الإيديولوجيات القومية التوفيقية، اعترفت بالتباينات الثقافية، سواء حصل تنظيم مؤسساتي لتجمعاتها أم لا. فهولندا مثلاً تبنت نظاماً سياسياً مركزياً، ولكنها أبقت قطاع التربية والاعلام لـ "الأعمدة" أي التجمعات التي يتألف منها سكانها، أي البروتستانت والكاثوليك والليبراليون والاشتراكيون. وكذلك تبنت سويسرا اللامركزية في قطاع التربية. فلا يحق فيها لاية فئة من السكان التدخل في نظام تربوية فئة أخرى. وألقت بلجكا أيضاً مسؤولية التربية والثقافة على عاتق مؤسسات المجموعات اللغوية الثلاث. وفي كندا تقدم مساعدات مالية لدعم جهود المهاجرين كي يحافظوا على "تراثهم اللغوي". وفي اندونيسيا تقرر عدم فرض اللغة الجافانية (نسبة إلى جزيرة جافا)، لغة الأكثرية، كلغة رسمية في البلاد، بل جرى تبني لغة "الباهانا" التي يفرض تعلمها كلغة ثانية على كل المواطنين. وبالاختصار يعتبر نزاع الطابع السياسي عن الثغرات الثقافية عبر الاعتراف بها، وسيلة رئيسية للحد من النزاعات بين التجمعات المختلفة.

وبالاجمال يمكن التأكد من أن النماذج المثالية الثلاثة لإيديولوجية إضفاء الشرعية في الدول التعددية، ترتبط بطريقة وثيقة جداً بقواعد معينة لتسوية النزاعات. لماذا يبدو الأمر هكذا؟ يمكن الحصول على الجواب، أو استشفافه، من المواقف المتباينة في طرح المشكلات، ومن مجموعات المصالح المعنية.

٧ - إيديولوجيات التجمعات واستراتيجياتها

تدور السياسة في الدول التعددية، كالسياسة عامة، حول توزيع السلطة والرفاهية. توجد في كل نظام سياسي مؤسسات مختلفة مهمتها التوسط بين المواطنين ومركز

٥٥ - راجع في هذا المصدر: Günter BARUDIO, Der Deutsche Krieg 1618-1648, Frankfurt 1985, p. 572ff.

السلطة السياسية كالأحزاب وتجمعات المصالح والنقابات وغيرها. ولكن تتميز هذه العملية السياسية في الدول المتعددة السكان عن تلك العملية في الدول المتجانسة. فالتجمعات ومؤسساتها السياسية تشكل فيها أهم وكالات التوسط، طالما لم تنجح بعد عملية نزع طابع التسييس عنها. وبالعكس الأحزاب السياسية أو النقابات في المجتمعات المتجانسة التي يستطيع المواطن الاختيار بينها بكل حرية، فينتهي إليها أم لا، فإن العضوية في التجمعات تحصل بشكل شبه آني عبر الولادة والوراثة والتربية.

فالمؤسسات الوسيطة والعضوية في التجمعات هي من الأهمية بمكان بالنسبة للوصول إلى الوظائف التي يطمح إليها الأعضاء. وهذا ما يبرز باجلى صوره في نظام توزيع الوظائف على الانتصار تماما كما يحصل في بعض الأنظمة الديمقراطية الغربية، حيث يجري حالا، بعد انتصار أحزاب المعارضة في الانتخابات، تبادل الوظائف على مستوى الحكومة والإدارة، وغالبا أيضا على مستوى مؤسسات الدولة. وكذلك في أنظمة الدول التعددية يحصل وضع اليد على الوظائف الأكثر تأثيرا ونفعا ماديا، وبالتالي إبعاد الآخرين عنها، بموجب مقاييس تقليدية. وبكلام آخر، يوفر انتصار سياسة تجمع ما ربحا سهلا. فهناك امتيازات يحصل عليها الإنسان بحكم عضويته في هذا التجمع أو انتسابه إليه. وطبعاً العكس صحيح أيضاً. ففشل تجمع ما أو وضعه السلطوي غير الملائم يسبب لأعضائه وانصاره اضطراباً عديدة وحرماناً. تتبدل مصلحة التجمعات في تمسكها بزمam السلطة جوهرياً بالنسبة لمرحلة من التنمية الاقتصادية. وتبرز عادة هذه المصلحة بقوة على مستوى القيادات الأكثر استفادة. أما الخاسر الأكبر فهي الفئات الدنيا في التجمعات السلطوية. فالمراكز ذات الامتيازات النسبية لا تصل إليها القيادات بفضل مؤهلاتها أو جهودها الذاتية، بل بفعل انتمائها إلى هذا التجمع. فهؤلاء القادة هم بكل بساطة أكثر المستفيدين من سياسة تتركز على تعبئة التجمعات وإثارة موضوع هويتها. وهذا ما يذكر بتحديد "جون بول سارتر" للنزعة المعادية للسامية بأنها "رأس مال الرجل الصغير". فالتفوق الناجح لفئات من التجمعات المتضررة يشكل مجموعة ثالثة لها مصلحة كبيرة في التعبئة. فرغم المؤهلات والجهود يشعر ممثلوها بتهديد تفوقهم بالنسبة إلى معايير غير مكتوبة. لذلك يميلون إلى المطالبة بتحسين وضع تجمعهم أو طائفتهم بالغاء النظام الذي يقوم على الانتماء إلى طائفة أو تجمع ما^{٥٦}.

٥٦- "في فرنسا، وفي القرن الثامن عشر بدأت الجامعات تخرج جامعيين أكثر مما يمكن استيعابه في مجال العمل البيروقراطي والمهن الحرة... لقد كان الوضع سيئاً بالنسبة للخريجين الذين ينتمون إلى مجموعة الأكثرية الأثنية الآتية من الطبقة المتوسطة. وكما كان الأمر أكثر سوءاً بالنسبة للمهنيين الطموحين الذين

ان ما يطبق على هذه المجموعات المعارضة الثلاث، يمكن تطبيقه ايضاً ودون اي تردد، على مجموع السكان. يعتبر بعض المفكرين الدول التعددية مجتمعات يطبق فيها مبدأ "هوبس" اي "الانسان ذئب لأخيه الانسان"، اي ان كل تجمع يعتبر التجمع الآخر قطيعاً من الذئاب. لذلك يعتقد "اراند ليجبهارت"^{٥٧} بان مجموعة من النخبة المتقنين بين القادة المتسامحين والمعتدلين تستطيع حمل الجماهير ذوي النزعات العدائية والتعصبية، والحساسيات المغرضة، على قبول تعايش بين التجمعات. وهكذا يطرح السؤال التالي بكل بساطة: كيف يبرز بين الجماهير قادة متسامحون ومنفتحون على الآخرين؟

كيف يحصل ذلك؟ في الواقع، تشير معطيات تجريبية بانه حتى في المجتمعات الكثيرة الاستقطاب يبرز لدى الاكثية الكبيرة من السكان ادراك حسي ذاتي للمصالح المشتركة تتجاوز مصالح التجمعات، وبالتالي تبرز ارادة اساسية للتعايش.^{٥٨} وتشير امور كثيرة اخرى الى ان التجمعات الجماهيرية هي مسؤولة عن تعبئة واثارة المشاعر وتصعيد حدة التوتر اكثر من تلك المجموعات التي ترتبط مصالحها بمصالح معينة، مثل مجموعة القيادات، ومجموعة الطامحين لدى التجمعات المتضررة، وكذلك فئة من التجمعات المستفيدة من الامتيازات والتي تشعر بانها مهددة من قبل الذين يحاولون كسب او فقدان شيء بفضل طموحهم. من مصلحة هذه الفئات ان تجمع بين مصالحها والمصالح العامة لتجمعاتها. لذلك تحاول خلق كتل يضم معظم ما يسمى "بالمقاولين الإثنيين"، اي القوة الفاعلة داخل التجمع.

ان تماثل الفئات التي لها مصلحة في إثارة هوية التجمع وتضامنه ليس سوى مؤشر يعبر عن الاسباب الاقتصادية والتاريخية الكائنة وراء هذه التعبئة. لذلك يبرز اثر التعبئة في عملية التحديث والتطوير، لدى هذه الفئات وعبرها. ويلاحظ في كل

ينتمون الى مجموعات الاقليات الاثنية والأتين من مناطق الاطراف... كان لموضوع تذرهم واحتجاجهم طابع نفسي بقدر ما كان اقتصادياً، وثقافياً بقدر ما كان سياسياً. لم يكن الامر يتعلق بكل بساطة بفشل ايجاد عمل او وظيفة حكومية، هو الذي يؤثر الاستياء والتذمر، بل كان فشلاً بسبب الحصول على مركز او كرامة تتلائم مع المستويات التعليمية، وان يحظى، بدلاً من ذلك، على مركز متدن او على عمل لا يحتاج غالباً الى كفاءات مهنية يتنافى تماماً مع الشهادات المهنية المتوفرة". راجع:

Anthony D. SMITH, op. cit. p. 29.

Arend LJPHART, Democracy in Plural Societies, op.cit.

—٥٧

Gerhard LEHMBRUCH, A Non-Comparative Pattern of Conflict Management in Liberal Democracies: The case of Switzerland, Austria and Lebanon. In the Seventh World Congress of the International Political Science Association. Brussels 1967, p.7; Theodor HANF, Heribert WEILAND und Gerda VIERDAG, Südafrika: Friedlicher Wandel ? Möglichkeiten demokratischer Konfliktregelung. Eine empirische Untersuchung. München und Mainz 1978, p.418ff.

—٥٨

الدول ذات النزاعات بين التجمعات بانها (اي التجمعات) كانت "سابقاً" تتفق جيداً مع بعضها. وفي الواقع، كانت المجتمعات، قبل ان ينفذ اليها العمل الصناعي والبيروقراطي، أقل عرضة للنزاعات. فالفئات السكانية الريفية عاشت مع بعضها بسلام حقيقي خلال قرون طويلة: "باستطاعتهم العيش بطريقة أخرى، ولكن دون ان يسببوا لنا اي ازعاج". فحركة تكاثر العمل البيروقراطي، والتصنيع، والتمدين، والمواصلات، أفرزت مجالاً واسعاً لتنافس شديد حول وظائف جديدة. فقد وجد المتنافسون دعماً وتأييداً بالدرجة الأولى من قبل افراد اسرهم واصلهم الجغرافي، وتجمعهم. اما القادة السياسيون الذين لم يعد لهم اي دور او سلطة في ادارة مجتمع تقليدي، فاضطروا الى ممارسة وتأدية خدمات جديدة، مثل التوسط لايجاد اراض ومساكن لانصارهم في احياء المدن الجديدة، او ايجاد عمل لكوادر واصحاب المؤهلات والطموحات، او مساعدة الموظفين للترفع في سلم الوظائف. ويفرض عليهم النجاح في هذه المهام الجديدة توسيع دائرة انصارهم وكسب تأييدهم السياسي. فالشعور التجمعي الذي كان قائماً قبل حركة التصنيع، كان مقتصرأ فقط على الإطار العائلي الكبير، او العشيرة، او التكتلات الاقليمية العائلية. اما السياسة الحديثة للتجمعات فتفرض تكتلات اوسع. فبقدر ما تكبر دائرة التجمع، بقدر ذلك تزداد امكانيات النجاح. وعندما يصبح التجمع كبيراً وقوياً، عندئذ يصبح بالامكان تجنب التمييز وفقاً لمعايير "تقليدية" والبلوغ الى كسب مكانة رفيعة في السياسة العامة. وهكذا يقوي التحديث بعض القيادات ويدعم تماثلها مع التجمع، اذ يبرزه في حالات عديدة بالاستناد الى مصالح خيالية او وهمية.

وكلما حصل تطوير وتحديث في النظام السياسي، يضعف دور الدولة كوكالة لتوزيع المغايم. فتوزيع السلطة يصبح اكثر اهمية، لان السلطة او انعدامها، تعني غنى او فقراً اكثر. وهذا ما يؤدي الى تسييس التجمعات.

هكذا تبرز تعبئة التجمعات بطريقة عقلانية ترتبط بالمصالح، كما يبرز ايضا، وبالطريقة نفسها، اختيار المواقف الايديولوجية في الصراع حول السلطة في الدول التعددية، رغم وجود بعض الاستثناءات النادرة. فاذا ما بحثنا في هوية الايديولوجية التي يختارها هذا التجمع او ذاك، وفي ظل اي اوضاع يحصل ذلك، يتضح لنا الطابع العقلاني لهذه الايديولوجية ومبرر استخدامها. هنا يحصل عادة تعبير منطقي عن استراتيجية يتم اختيارها وتسمح بملاحقة جيدة للحفاظ على مصالح هذا التجمع او ذاك. لذلك لا يجوز الاعتقاد بان انصار ايديولوجية معينة مقتنعون بها فعلاً، ولكن اقتناعهم يتفق فقط مع مصالحهم الذاتية^{٥٩}.

٥٩ - "يبدو ان السياسي عندما يقول: نقوا بهذه النظرية لانها تخدم مصلحتي، يثير الاستهزاء به فقط ولايقنع

هناك فرق اساسي بين مختلف الدول التعددية من حيث التأثير على اختيار الاستراتيجيات وايدولوجيات التجمعات فيها. فاما ان تكون في هذه الدول اكثريات واضحة واقلية، ام لا. في الحالة الاولى، تميل التجمعات سواء الى المفهوم اليقوبي، او الى اثاره مصالحها، وفقاً لحجم قوتها. وفي الحالة الثانية تبرز ايضا ذات الاستراتيجيات، ولكن اختيار القومية التوفيقية هو بالمقابل الاكثر شيوعاً. لذلك ينبغي بحث هاتين الحالتين بشكل دقيق.

الاستراتيجيات العقائدية في الدول ذات الاكثريات والاقليات الواضحة

إثارة التجمع	اليقوبية	
+	-	الاكثرية الحاكمة
-	+	الاقلية الحاكمة
-	+	الاكثرية المحكومة
+	-	اقلية كبيرة محكومة
-	+	اقلية صغيرة محكومة

الاكثريات الحاكمة تستطيع ان تحكم بالاعتماد على التأييد التام من قبل تجمعها. فمن خلال ابعاد الاقلية عن مشاركتها بالسلطة تستفيد الاكثرية من المكاسب حتى اقصى الحدود.

اما الاقلية الحاكمة فتفضل بالمقابل عدم البروز كأنظمة اقلية. هنا تبدو الايدولوجية اليقوبية اكثر تلاؤماً عبر حجب او تأمين الامتيازات والمكاسب المختلفة لتجمع ما. اليقوبية تتجنب الحرمان الرمزي للأكثرية، وتحاول بالتالي اضعاف وتخفيف قوة المعارضة.

ان الاكثريات المحكومة تعبر عادة عن مصالحها مستخدمة الايدولوجية

أحدًا. عليه فعلاً ان يعتمد على مبادئ معينة يمكن لسماعه ان يوافقوه عليها... ومعظم الاحيان يقع بنوع خاص نفسه ذلك الذي يريد اقناع الآخرين. وأكثر من ذلك، فعندما يبتعد بصورة عامة عن مصالحه الذاتية، عندئذ يرى في النهاية انه يعمل ويطمح لتحقيق خير الآخرين". راجع:

Vilfredo PARETO, Allgemeine Soziologie, Tübingen 1955. p. 54.

اليقوبية. فلا تطالب مثلاً بابدال سيطرة فئة بأخرى، بل بنظام جديد لا يميّز إطلاقاً بين مختلف الفئات. فإذا ما اختارت أكثرية محكومة استراتيجية إثارة وتعبئة تجمعها، تضطر عندئذ الأقلية الحاكمة الى الاختيار فقط بين الاستسلام أو التصلب. ولكن التصلب يفرض عليها استخدام جميع الوسائل للتمسك بالسلطة. فالنظرة اليقوبية الى المساواة المستقبلية، تعطي بالمقابل للأقلية آفاقاً مستقبلية تعبر عنها كهدف ينبغي تحقيقه، وهذا ما يبرر استمرارها في الحكم.

إن الاقلية الكبيرة المحكومة تستخدم عادة أسلوب إثارة تجمعاتها، ولكن حظها في الوصول الى تقاسم السلطة مع الاكثرية ضئيل جداً. فعندما تحسّن طريقة تنظيمها واسلوب إثارة تجمعاتها، يصبح بإمكانها تشكيل قوة ضغط فاعلة، لا يمكن بدونها اتخاذ اي قرار. وبالنتيجة، تضطر الاكثرية الى التخلي عن بعض امتيازاتها، كي تكسب موافقة وتأييد الأقلية.

أخيراً الاقلية الصغيرة تفضل بكل وضوح اختيار مبدأ اليقوبية. "إذا عجزت عن التغلب عليهم، اتبعهم". هكذا يلخص ويبرر سبب هذا الاختيار.

بالنسبة اذاً للأكثرية، كما للأقلية، هناك مواقف أساسية واضحة تتلخص بتقييم عقلائي لمصالحها كأساس لإختيار استراتيجيتها وايدولوجيتها. ولكن عندما تكون تصرفات الأكثرية، وتصرفات السلطة إزاء التجمعات قليلة الوضوح، وهذه هي حال العديد من الدول التعددية، يصعب الاختيار كثيراً، لأن اليقوبية أو إثارة التجمعات هي مليئة بالمخاطر لكل الفئات. فاليقوبية يمكن ان تتحول بسرعة الى المطالبة بمساواة وهمية فقط، بينما يمكن لانتفاضة اي تجمع تحقيق اهدافه، أو تعرضه للفشل أيضاً.

فالتجمعات التي تنادي بتحقيق اهداف يقوبية، تكون عادة الأقوى نسبياً، أو تعتقد ذلك. فالمبدأ اليقوبي لديموقراطية الأكثرية يعتبر المبدأ الذي تطالب به أكثرية تجمعها. فالتجمعات التي لا تعتبر نفسها أكثرية ولا تعتقد بانها تستطيع ان تتحول الى أكثرية، تبحث عن تجنب خطر ابعادها عن المشاركة بالسلطة، وذلك عبر مطالبتها بوضع اطار دستوري أو مؤسسي يضمن مشاركة كل التجمعات في الحكم. فالأقلية الصغيرة في الدول حيث لا توجد أكثرية واضحة تعارض عادة مثل هذا التنظيم لتوزيع السلطة، لأنها ترى خطراً كبيراً لها في قيام نظام يقوبي. فالوظيفة المستخدمة كوسيلة في المواقف الايدولوجية المتنافسة تبدو بنوع خاص واضحة، عندما تفرض الانقلابات أو التغييرات الديموقراطية على التجمعات ان تغتير سلباً أم إيجاباً مواقفها الايدولوجية.

٨ - الحرب الاهلية وتسوية النزاع

في حالات عديدة ينشأ نزاع مسلح نتيجة حسابات خاطئة تتعلق بتحقيق المطالب^{٦٠}. في هذه الحالات، تتشابه سياسة حكم التجمعات كثيراً مع سياسة حكم الامم الكلاسيكية التي سبقت العصر النووي. يحصل عادة نزاع مسلح في بداية البحث عن اشكال لتسوية النزاع، تكون مقبولة من قبل كل الفئات بعد تفاوض حولها. فالحروب بين الدول تنتهي دائماً بانتصار واضح لأحدها. وكذلك الحروب الاهلية نادراً ما تنتهي بانتصار فريق على آخر. ولكن الحروب الاهلية في الدول التعددية، حيث لا تشكل فئة ما اكثرية واضحة، يكون حظها كبيراً دائماً بالانتهاء دون غالب او مغلوب.

وهذا يرتبط بالتالي بإمكانية الخروج من المأزق. فالاتفاقات حول التعايش هي شديدة الاحتمال، عندما ترى كل التجمعات انه لم يحرز احد منها نجاحاً واضحاً على الآخر، ولكنه ليس ضعيفاً كثيراً كي يبقى مغلوباً باستمرار.

كما ان استمرار حالة الامر الواقع لا تشكل ضماناً للسلام. فلو كان الحال هكذا، لما استمر عدد كبير من الحروب الاهلية سنوات، لابل قروناً، دون الوصول الى قرار حاسم. فعلى الفرقاء المعنيين ان يدركوا قبل كل شيء بأنهم ليسوا في وضع يؤهلهم لتحقيق اهدافهم المادية والايديولوجية. قد يعرف مثل هذا النزاع نهاية، عندما يتفق كل افرقاء النزاع، على اقتسام خيرات البلاد ومكاسبها، مهما كانت نسبية، وعلى القبول بالخصائص المتباينة لمختلف التجمعات، وعلى التخلي خاصة عن كل مفهوم عقائدي، أيًا كان شكله. ومن البديهي في مثل هذه النزاعات، ان يكون ايجاد تسويات للمسائل المادية اسهل بكثير من ايجاد تسويات للمسائل الايديولوجية - الرمزية. ووضح دليل في هذا المجال هو في معظم الاحيان، اتباع سياسة الارض المحروقة. فلاريد ان مثل هذه السياسة بعيدة جداً عن العقلانية، خاصة اذا كانت تستهدف مصالح اقتصادية محضة. فهي تمارس غالباً من قبل تجمعات تشعر بحق او بدون حق، بانها مهددة في وجودها. فعندما يسيطر خوف على الوجود، يبرز التدمير الكامل للبلاد كأمر عقلائي - وهذا شكل من اشكال الحروب الاهلية الهادفة الى توسيع وفرض حالة من الارهاب الشامل.

في هذه الحال تصبح التسويات ممكنة عندما يتم الاتفاق على الضمانات

٦٠ - "يفتقر الفريقان الى معلومات كاملة واكيدة عن كل منهما، يمتلك كل واحد مفاهيم خاطئة عن نقاط القوة والضعف لدى الآخر". راجع: Anthony OBERSHALL, op. cit. p. 25.

الايديولوجية الرمزية الى جانب الاتفاق على الضمانات المادية، اي عندما يشعر جميع الفرقاء بان وجودهم لم يعد مهددا اطلاقاً.

هذه هي لحظة البلوغ الى ايديولوجيات قومية توفيقية، بعيدة جداً عن روح العقيدة اليعقوبية الغوغائية، وعن اي شكل يتعلق بايديولوجية خاصة يطالب بها احد الفرقاء. وهذه هي ايضاً لحظة المفاهيم القومية التي تقبل بوجود وباستمرار التناقضات، والافكار الراهنة. انها لحظة اعتماد التعددية، التي يزول معها الشعور باحتكار احد الفرقاء للسلطة والرخاء والرفاهية.

تسمح بعض النماذج بتوضيح هذا المنحى. فاتفاق "واستقاليا" مثلاً، جاء ليضمن للكاتوليك، واللوثرانيين، والاصلاحيين، ذات الحقوق في الامبراطورية. وكذلك في سويسرا، سهّلت "الصيغة السحرية" قبل اندلاع الحرب، حكماً مشتركاً للبلاد من قبل الكاثوليك والبروتستانت الذين يتحدثون الفرنسية او الإيطالية او الألمانية او الروماندية.

قد تعتبر مثل هذه الحلول نوعاً من الازدلال بنظر اليعقوبيين او المطالبين بايديولوجيات معينة فقط. ولكن لم يتعلم المعنيون مباشرة بالأمر تفضيل مثل هذا الازدلال على ويلات الحرب فقط، بل رأوا فيه ايضاً، ومع مرور الزمن، ليس شراً اخف، بل موقفاً ينبثق من ثروة وتراث امتهم.

كيف يمكن التوصل الى مثل هذه الحلول والتسويات دون اللجوء الى اعتماد العنف والحرب الأهلية، اي ايجاد الفرص لتسوية وقائية للنزاع؟

تسمح الاحداث التاريخية والمعاصرة فقط باستنتاج يشير الى ضالة هذه الفرص. فنادر ما تتعلم الشعوب والتجمعات من تاريخ الآخرين. تتعلم فقط عبر تاريخها ومنه. ومن المؤسف ان تاريخ الدول التعددية هو بمعظمه ملطخ بالدماء.

ولكن بكل تأكيد، هناك استثناءات. في بلجكا وهولندا، لم يطلق مواطنو احدى التجمعات النار اطلاقاً على احد من التجمعات الاخرى. ولكن النزاعات في هاتين الدولتين لم تعرف ذات الحجم وذات الحدة. وهنا يمكن التساؤل اذا لم تكن النتائج المماثلة ممكنة ايضاً حتى في ظل اوضاع اكثر صعوبة وتعقيداً.

ولكن عدداً من الحالات في دول اخرى يشير الى انه ليس من المحتم اللجوء الى اوضاع تستدعي حرباً كي يحصل اتفاق على تسويات سياسية، تؤدي الى تجاهل الاقليات او الى التمييز بينها. في الهند، ورواندا، واندونيسيا، وكندا، اعتمدت التجمعات ذات الاكثريّة العرقية سياسة تعايش بينها وبين الاقليات. لم يكن هذا السلوك السياسي نتيجة التزام، بل اجراءً حكيماً يشير الى رؤية بعيدة النظر لدى المسؤولين. ان نموذج هذه الدول يدل بوضوح على ان الاحتمال التجريبي لا ينبغي

ان يفرض، بأي شكل من الاشكال، الزاماً تاريخياً محتملاً.

٩ - الدول التعددية والازمات الدولية

عندما تعجز احدى الدول التعددية عن ايجاد تسوية لنزاعها الداخلي، يزداد خطر تفاقم هذا النزاع عبر التدخلات الخارجية. تبدو هنا "المسألة الشرقية" في القرن التاسع عشر، نموذجاً كلاسيكياً لهذا الوضع. فقد تحولت الامبراطورية العثمانية الى "رجل البوسفور المريض"، وذلك بسبب نشوء القوميات الشعبية في البلقان، وبسبب حركات التحرر لدى التجمعات الدينية، وبسبب بروز "الوعي القومي عند العرب" في المنطقة الشرق اوسطية من الامبراطورية. في تلك الاثناء تدخلت الدول الكبرى وضغطت على الحكم العثماني لاجراء اصلاحات داخل الامبراطورية. ولكنها في الوقت ذاته اسهمت عبر سياسة البحث عن مصالحها الذاتية في تحطيم هذه الامبراطورية تدريجياً. فروسيا القيصرية بحثت عن منفذ لها الى البحر المتوسط، وناصرت كقوة ارتوذوكسية، حركات التحرر في البلقان. وبريطانيا العظمى ارادت ان تؤمن لذاتها الطريق البحري الى الهند، فاحتلت مصر وناصرت في النهاية "الانتفاضة في الصحراء". وفرنسا من جهتها، بنت موقفها كقوة تقليدية لحماية الاقليات المسيحية كي تؤمن مكاناً ونفوذاً لها في الشرق. وهكذا فعلت دول اوروبية اخرى. وفي اواخر القرن التاسع عشر اخذت المصالح الاقتصادية في الشرق تثير اهتمام اوروبا وتطلعاتها المستقبلية. فتحول فعلياً سفراء "القوى الكبرى" في القسطنطينية، وقناصلها في مختلف اجزاء الامبراطورية، الى شبه اوصياء. ثم جاءت الحرب العالمية الاولى فحطمت الامبراطورية العثمانية وسمحت للدول الكبرى بتأمين غنائمها.

تدعو النزاعات الداخلية دائماً الى تدخلات خارجية^{٦١}. ونظراً لحصول نزاعات في الدول التعددية من حين الى آخر، فقد اصبح التدخل المباشر وغير المباشر امراً مألوفاً او قاعدة. ويسهل هذا التدخل بنوع خاص عندما تكون التجمعات اكثر من وطنية، اي عندما تكون لها علاقة معينة مع شعوب في دول اخرى، فيتخطى تضامنها حدود الدولة التي تعيش فيها. فحركات الانضماميين والانفصاليين المدعومة من الخارج ليست قليلة. فالدول الطامحة الى ممارسة هيمنة اقليمية، تبحث عن انصار لها بين التجمعات الموجودة في الدول التعددية كي تنفذ بواسطتها

٦١- راجع في هذا الصدد: Karl W. DEUTSCH, External Involvement in Internal War, in: Harry ECKSTEIN, op. cit., p.100-110; Gerhard LEHMBRUCH, Consociational Democracy in the International System, in: European Journal of Political Research, 3(1975)4, p.377-391.

سياسيتها. وغالباً ما تلعب هذه الدول، وفي الوقت ذاته، دور مضرر النار والاطفائي معاً. تبادر الى اطلاق شرارة الازمة والنزاع، كي تكسب، كحكم في النهاية، اكبر تأثير ونفوذ ممكن.

ولكن الدعم الخارجي تبحث عنه غالباً تجمعات او طوائف متنافسة. وهذه التجربة مغربة، لانها تعني التعويض عبر المساعدة الخارجية عن الضعف الداخلي. فاذا ما وجدت التجمعات المختلفة دعماً لدى قوى خارجية متنوعة، تتحول عندئذ الازمة من داخلية الى دولية.

في الربع الأخير من هذا القرن كانت الدول الكبرى تميل الى تجنب المجابهات المباشرة، خارج مراكز نفوذها الجغرافية. ولكن تستثنى فقط الحالات حيث يشكل تغيير التوازن القائم خطراً على مصالحها. في مثل هذه الحال تفضل التدخل بطريقة غير مباشرة عبر "ممثلها" الداخليين او الاقليميين. فعندما تدعم الدول الكبرى القوى الاقليمية المتنافسة والتي تحاول الهيمنة، يتطور عندئذ النزاع نحو التآزيم والاستمرارية. وهكذا يمكن الحفاظ على التوازن الاقليمي والدولي عبر اطالة النزاع الداخلي وتغذيته في الدول التعددية المعنية.

كيف يحصل ذلك؟ يجري عادة الحؤول دون انتصار فريق او هزيمة اي فريق من خلال تأمين استمرارية النزاع عبر الدعم المستمر المقدم الى اطراف النزاع. ففي المناطق الهامة اقتصادياً واستراتيجياً، يهدد دوام النزاع تحويله الى حالة نموذجية، كما هو الحال في جنوب افريقيا والسودان والقرن الافريقي، والشرق الاوسط، والخليج، وافغانستان. اما "التكاليف" المادية والبشرية للحفاظ على التوازن الدولي فتدفعها الشعوب المعنية.

فكلما جرى تصعيد النزاعات العسكرية في هذه المناطق يزداد سريعا خطر تطور الصراعات العسكرية المحلية الى مجابهات شاملة. فعندما كانت تتصارع الشعوب والتجمعات في "تركيا البعيدة"، لم يستبعد اطلاقاً تعريض سلام الرحلات الى الشرق للخطر. وكذلك الدول غير الاقليمية التي لاعلاقة لها مباشرة بالنزاع، تجد بفعل مصالحها، مبرراً لالاسهام في الحفاظ على السلام الشامل، اذ يحصل في مثل هذه الحالات توازن جديد في المصالح ومساومات وتحالفات جديدة.

١٠ - لبنان حالة نموذجية

يشكل لبنان موضوعاً لدراسة تجريبية حول مشكلة التعايش في دولة تعددية، وذلك لسببين. فهو يضم بين سكانه من جهة، تجمعات اثنية، ومن جهة أخرى

تجمعاتٍ او طوائف دينية. فخلال اكثر من ثلاثة عقود من الزمن اعتبر هذا البلد نموذجاً لتعايش ناجح وسلمي وديمقراطي. وكان لبنان احدى الدول القليلة خارج اوروبا حيث نجحت فيها ديمقراطية التوافق. ولكن منذ اكثر من عقد ونيف من الزمن تحول هذا البلد الى ارهاب نموذج مزقه الحرب المميتة، حتى بدأ التحذير اليوم من "لبننة" النزاعات في دول تعددية اخرى. فالتعايش السابق، والنزاع الحاضر، يشكلان معا موضوعاً نموذجياً للبحث يحتاج كل منهما في الواقع الى تفسير. كيف ولماذا كان "النموذج اللبناني" قائماً قبل الحرب؟ بماذا تعثر؟ هل تعثر بسبب ضعفه الذاتي او بسبب القوى غير اللبنانية، التي كانت اقوى منه؟ كيف إنجر هذا البلد من الضفة التي كانت تصل اليها رياح نزاع الشرق الاوسط الى وسط العاصفة في هذا النزاع؟ من حارب في لبنان ولماذا؟ كيف تطورت الاشتباكات وما كانت نتائجها؟

للجواب على كل هذه التساؤلات يمكن الاستعانة بعدد من الدراسات الوافرة. فابحاث "كافانينغ"^{٦٢}، و"بندر"^{٦٣} و"هيدسون"^{٦٤}، في الستينات تحلل وتفسر التعايش اللبناني في اسعد اشكاله وحالاته. ومؤلفات "خوري"^{٦٥} و"خلف"^{٦٦} و"دوبار"^{٦٧} و"تصر"^{٦٨}، تقدم وصفاً وتحليلاً للتغيرات المجتمعية التي حصلت في لبنان قبل سنوات الحرب. اما مؤلفا "بيضون"^{٦٨} و"الصليبي"^{٦٩} فيوضحا الايديولوجيات التاريخية التي تؤثر في الادراكات الحسية الذاتية لدى مختلف التجمعات او الطوائف اللبنانية، والتي تسهم في اثارها. وقد ركزت ابحاث "بركات"^{٧٠} و"مسرة"^{٧١} على امكانية واهلية التأقلم والاصلاح في النظام اللبناني المجتمعي والسياسي. وكذلك دراسة "شاميل"^{٧٢} التي استندت الى تحقيقات تجريبية قام بها المؤلف في مطلع السبعينات، اشارت بوضوح الى تصعيد التوتر في الاوضاع الاجتماعية والسياسية.

-
- Wilhelm KEWENIG, Die Koexistenz der Religionsgemeinschaften im Libanon. Berlin 1965. -٦٢
Leonard BINDER (Ed.), Politics in Lebanon, New York 1966 -٦٣
Michael HUDSON, op. cit. -٦٤
Fuad I. KHURI, From Village to Suburb. Chicago and London 1975. -٦٥
Samir KHALAF, Lebanon's Predicament, New York 1987. -٦٦
Claude DUBAR & Salim NASR, Les classes sociales au Liban. Paris 1976. -٦٧
Ahmed BEYDOUN, Identité confessionnelle et temps social chez les libanais contemporains. Beyrouth 1984. -٦٨
Kamal SALIBI, A House of Many Mansions. The history of Lebanon reconsidered. London 1988. -٦٩
Halim BARAKAT, Lebanon in Strife. Student preludes to the civil war. Modern Middle East Series No.2. Univ. of Texas, Austin & London 1977. -٧٠
Antoine N. MESSARRA, La structure sociale du Parlement libanais, Beyrouth 1977. -٧١
Yves SCHEMEIL, Sociologie du système politique libanais. Thèse, Grenoble 1976. -٧٢

بالإضافة إلى ذلك بحث وحلل ودرس "كوادرنا" ٧٣ التجمعات المسيحية، و"جوهنسون" ٧٤ درس التجمعات السنية، و"تورتون" ٧٥ و"ريك" ٧٦ التجمعات الشيعية، في مرحلة ما قبل الحرب، وخلال السنوات الأولى منها. كما نشر كل من "شاموسي" ٧٧ و"غوريا" ٧٨ و"كوهلر" ٧٩ و"الصليبي" ٨٠ و"شتر" ٨١، دراسات عن مرحلة ما قبل الحرب ومراحلها الأولى. وكذلك نشر "خالدي" ٨٢ عام ١٩٧٩ و"راينوفيتش" ٨٣ عام ١٩٨٥ و"بيكارد" ٨٤ عام ١٩٨٨، دراسات شاملة وزاخرة بالمعلومات ودقيقة وموضوعية عن حرب لبنان. وقد نشر كذلك "مسرة" ٨٥ بحثاً عن حظوظ استمرارية النظام اللبناني بعد كل الأحداث التي حصلت.

أما الذي لا أثر له إطلاقاً في الدراسات المتوفرة عن النزاع في لبنان، - وكذلك في الدراسات عن النزاعات بصورة عامة - فهي الدراسات حول ما يفكر به ويتمناه ويريد أطراف النزاع والمشاركون فيه. ماهي التطورات الحسية للقادة السياسيين والعسكريين عن أسباب النزاع وعن تطوره وعن إمكانية تسويته؟ وماذا يفكر المواطنون العاديون اللبنانيون بهذه الأمور؟

لأسباب عديدة جديرة بالاهتمام، برزت ضرورة بحث كل هذه المسائل. فكما أشير سابقاً لا يتعلق الأمر بمعطيات "موضوعية" حول تحول الخلافات بين الطوائف

-
- Michael KUDERNA, Christliche Gruppen im Libanon. Kampf um Ideologie und Herrschaft in einer unfertigen Nation, Wiesbaden 1983. -٧٣
- Michael HUDSON, Class and Client in Beirut. The Sunni Muslim Community and the Lebanese state 1840-1985. London 1986. -٧٤
- Augustus Richard NORTON, Amal and the Shi'a. Struggle for the soul of Lebanon. Austin 1987. -٧٥
- Andreas RIECK, Die Shiiten und der Kampf um den Libanon. Politische Chronik 1958-1988, Hamburg 1989. -٧٦
- René CHAMUSSY, Chronique d'une guerre. Liban 1975-1977. En postface: Les doutes de l'après-guerre II. Paris 1978. -٧٧
- Wade R. GORIA, Sovereignty and Leadership in Lebanon 1943-1976. London 1985. -٧٨
- Wolfgang KÖHLER, Die Vorgeschichte des Krieges im Libanon. Wiesbaden 1980. -٧٩
- Kamal SALIBI, Crossroads to Civil War, Lebanon 1958-1976. New York 1976. -٨٠
- David T. SCHILLER, Der Bürgerkrieg im Libanon. Entstehung, Verlauf, Hintergründe. München 1979. -٨١
- Walid KHALIDI, Conflict and Violence in Lebanon: Confrontation in the Middle East. Cambridge, Mass., Center of International Affairs, Harvard University 1979. -٨٢
- Itamar RABINOVITCH, The War for Lebanon, 1970-1983. Ithaca & London 1984. -٨٣
- Elizababeth PICARD, Liban, état de discorde. Des fondations aux guerres fratricides. Paris 1988. -٨٤
- Antoine N. MESSARRA, Le modèle politique libanais et sa survie. Essai sur la classification et l'aménagement d'un système consociatif, Beyrouth 1983. -٨٥

او التجمعات الى نزاعات، او حول كيفية تطوير قوة النزاع، بل يتعلق في الواقع بمعطيات "ذاتية"، اي حول التصورات^{٨٦} التي تكونت لدى المعنيين. ماهي اسباب النزاع كما يراها المشاركون فيه والمعنيون به؟ والى اي حد يشعرون بجسامتها وخطورتها؟ حول السؤال بنوع خاص عن تسوية ممكنة للنزاع، جاءت التصورات بالغة الاهمية. لذلك ينظر الى هذا الامر بالنسبة للنزاعات الداخلية في الدول التعددية بمنتهى الاهتمام والجدية.

تحاول هذه الدراسة سد هذه الثغرات عبر تحقيقات تجريبية ميدانية. وعلى اساسها يطرح السؤال من جديد حول امكانيات تسوية النزاع. وكذلك تحاول هذه الدراسة الاسهام في توضيح المسائل العامة حول التصورات والمواقف في المجتمعات التي تعيش اوضاع الحرب، خاصة بعد استقرار وتبدل هذه التصورات والمواقف بتأثير احداث منظرقة ومرعبة.

استخدم في هذه الدراسة نوعان من الاستطلاع التجريبي. اولاً، جرى تسجيل تصورات القوى القيادية السياسية والعسكرية عبر مقابلات شخصية قام بها المؤلف. فقد ركز الاسئلة وفقاً لخطوة موجهة جزئياً من قبله، وكذلك عبر مقابلات جرى تسجيل مضمونها حرفياً.

كذلك طرحت اسئلة على ٤٦٠ شخصية، جرى اختيارها بمساعدة صحفيين وعلماء اجتماع لبنانيين وفقاً لمواقفهم الشخصية من الاحداث وطرق تحليلهم لها ونظراً لدورهم المؤثر فيها. فهم يمثلون جميع الاتجاهات من حيث المبادئ الاساسية اللبنانية السياسية وعسكريا. وكذلك جرى استقصاء اهم الاتجاهات لدى حركة التحرير الفلسطينية. وقد استكمل البحث بمقابلات جرت مع سياسيين وعسكريين ودبلوماسيين سوريين واسرائيليين واميركيين كانت لهم علاقة مباشرة بالقضية اللبنانية.

هناك ١٧ سياسياً لبنانياً مارسوا منذ مدة طويلة مهمات قيادية، جرى استجوابهم

٨٦- "الكر كونتر" اوجز باختصار: "عندما تحلل الاوضاع الاجتماعية السياسية، لا يقال في النهاية ماهو الوضع، بل مايعتقد به الشعب". راجع:

Walker CONNER, Ethnonational versus other Forms of Group Identity: The problem of terminology. Paper presented to the Conference on Pluralism, Mai 1977, p.6

ويعتبر "جفري أ.روس" ان "الخطوة ظاهرة عقلانية تماماً عندما يسأل عن مفهوم الاثنية اصحابها بالذات". المصدر المذكور ص ٤٤٣، وكذلك ايضاً: P. VAN DEN BERGHE, Pluralism, In John J.

HONIGMANN (Ed.), Handbook of Social and Cultural Anthropology, Chicago 1974, p.959-977.

"وبما ان الاثنية ليست فقط وظيفة تباينات ثقافية موضوعية، فمن المهم ايضاً الاخذ بعين الاعتبار الادراكات الذاتية للتباينات الثقافية من قبل اعضاء مختلف المجموعات". ذات المرجع ص ٥٤.

في المرة الاولى عام ١٩٦٠، والثانية عام ١٩٧١، والثالثة عام ١٩٧٩، والرابعة عام ١٩٨٥. وهذا ماسمح بإمكانية تحليل مقارن لمواقفهم السياسية.

ثانياً، جرت مقابلات وتحقيقات مع الفئات العمالية اللبنانية عام ١٩٨١، ١٩٨٤، ١٩٨٦، ١٩٨٧. فقد سمحت كلها بتكوين ادلة حسية حول تصورات اللبنانيين ومواقفهم وآرائهم السياسية.

لقد سمحت نتائج هذه التحقيقات والمقابلات والاستقصاءات بابرار امكانيات تسوية للنزاع بين اللبنانيين. وهذا الامر لم تشر اليه، كما لم تعره اي اهتمام التحليلات والدراسات والابحاث الكثيرة السابقة.

قد تشير احياناً عناوين الكتب والمؤلفات بوضوح الى مضمونها. قبل الحرب نشرت مؤلفات تصف لبنان عبر عناوينها كـ "جمهورية مؤقتة"^{٨٧} او "أمة غير ممكنة"^{٨٨}.

ومنذ اندلاع الحرب صدرت مؤلفات اخرى تحمل عناوين مثل "موت بلد"^{٨٩} او "صليب على لبنان"^{٩٠} او "دولة الفتنة"^{٩١}. ولكن هذا الكتاب عنوانه "تعايش في زمن الحرب". لماذا؟ هذا ما سيكشف عنه النقاب ويجب عليه مضمون هذا المؤلف.

Michael C. HUDSON, op.cit. -٨٧

Leila M.T. MEO, Lebanon. Improbable nation. A study in political development. Bloomington 1965. -٨٨

John BULLOCH, Death of a Country. The Civil War in Lebanon. London 1977. -٨٩

Jean-Pierre PERONCEL-HUGOZ, Une croix sur le Liban. Paris 1984. -٩٠

Elizabeth PICARD, op.cit. -٩١

الفصل الثاني

النموذج اللبناني

تعايش ما قبل الحرب

"التسامح في الحرية الاجتماعية الذي يناقض الحكم الاستبدادي المطلق يشير الى ضرورة ايجاد تصحيح في الخلافات الوطنية. وهذا مالا تستطيع أية قوة توفيره فعلاً. فتعايش أمم متعددة في دولة واحدة هو اختبار، كما هو ايضاً افضل ضمان لحياتها".

اللورد "أكتون" ١٨٦٢

"لابد من التشديد حتماً على أن يرأس اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد بالتسلسل: روسي، اوكراني، جيورجي، الخ."
فلاديمير إ. لينين : "مذكرة الى المكتب السياسي" ١٩٢٢/١٠/٦

"يقدم لبنان أمثلة عديدة من المعوقات التي تنشأ إزاء التغيير الاجتماعي والتجديد، اذا كان لابد من الحفاظ على التوازن القائم بين الفئات. ولكن لا يوجد اي سبب للاعتقاد بان الانظمة السياسية في الدول العربية المجاورة هي اكثر فعالية".

"جرهارد لامبروخ" ١٩٦٧

"يقع لبنان في أقصى غرب بلدان الشرق - انه جبل يسقط في البحر".^١ "بيير روندو"، احد ابرز المدركين لواقع لبنان، عبر بهذه الصورة عن تطور هذا البلد تاريخياً واجتماعياً. "لبنان البلد المتعدد التعاريج مع المنافذ الصعبة والوعرة، يشكل

ملجاً لكل الأقليات والمضطهدين. جباله العالية وأوديته المقفرة تسهل الحفاظ على المجموعات القبلية والدينية وكل مميزاتها وخصائصها الأصلية. ولكن حجم أراضي هذا البلد وضرورة الدفاع عنها يفرض على المجموعات المختلفة التضامن والتعاون فيما بينها... الانفتاح على البحر سبب، سلبي أو إيجاباً، تدخلات خارجية كثيرة. ان قرب موقع هذا البلد من الغرب، يدعم تأثير الحضارة الغربية فيه، ويسهم في تطور العلم والتربية وفي انبعاث افكار جديدة... ولكن تبقى التقاليد في هذا البلد كبيرة. في الواقع يبرز فيه تكاتف وتضامن عائلي رائع^٢.

وبطريقة مشابهة يرى "قلهام كافانينغ" في المعطيات الجغرافية مفتاحاً لفهم وإدراك الخطوط الكبرى للتاريخ اللبناني^٣. وقد رأى أيضاً كمال صليبي ان الجغرافية هي في بعض الحالات مهمة مثل التاريخ. فساكن المدن اللبنانية الحديثة يتشابهون مع الفينيقيين القدماء لكونهم "يعيشون في ذات المدن، القائمة على ذات الشواطئ المتوسطية، ويعملون في ذات البلد وفي المناخ نفسه"^٤.

هذا البلد هو اليوم اصغر بلدان الشرق الاوسط. يبلغ طوله ٢١٠ كلم من الشمال والى الجنوب. ويتراوح عرضه ما بين ٣٠ و ٩٠ كلم. المنطقة الخصبة المجاورة للشواطئ يبلغ معدل عرضها ٧ كلم، و يصل الى ١٠ كلم في منطقة عكار الشمالية. تقع على الشاطئ كبرى المدن : طرابلس في الشمال، والعاصمة بيروت في الوسط تقريباً، وتقوم على شبه جزيرة، وصيدا "صيدون التاريخية"، وصور في الجنوب. وراء الشريط الساحلي تقوم سلسلة جبال لبنان البالغ طولها ١٦٠ كلم، كما يصل ارتفاع بعض قممها حتى ٣٠٠٠ م في الشمال، ثم ينخفض ارتفاع هذه السلسلة من الجبال تدريجياً، حتى تغيب نهائياً في هضبات الجليل. تقطع الجبال انهار تصب كلها في البحر المتوسط. وتعتبرها اودية عميقة ترتبط ببعضها في المناطق الساحلية اكثر من ارتباطها ببعضها في المناطق الجبلية. في اتجاه الشرق تسقط الجبال، بطريقة شبه عامودية، في سهل البقاع الذي كان يعرف باهراءات سوريا في العهد الروماني... يبلغ طول هذا السهل ١٦٠ كلم ويتراوح عرضه ما بين ثمانية و ١٢ كلم فقط. اهم المراكز في هذه المنطقة، مدينة زحلة الواقعة في سفح الجبل، وشتورا في الوسط، وبعبك في الشمال. يمر في وسط هذا السهل نهر اللباني الذي يصب جنوب سلسلة الجبال في البحر المتوسط. وتقع شرقي البقاع سلسلة جبال لبنان الشرقية الفقيرة بالمياه والقليلة السكان. تنتهي هذه السلسلة في الجنوب بجبل حرمون الذي يشكل اعلى قمة فيها.

٢- ذات المرجع

٣- Wilhelm KEWENIG، ذات المرجع، ص ١

٤- كمال صليبي، A House of Many Mansions ص ١٧٨

لايتمتع هذا البلد بثروات طبيعية، ولكن تقوم أنشطة زراعية في سهوله الخصبة، وفي المناطق الجبلية التي تسقط فيها الامطار. اما اهم ثروات لبنان فهي، من جهة، موقعه على ملتقى تقاطع ثلاث قارات، وهذا ما سمح بنوع خاص للعاصمة بيروت ان تتحول الى مركز هام للتجارة والتراخيص، ومن جهة ثانية، جماله الذي كان يستقطب قبل الحرب عشرات الآلاف من السياح من اوروبا، وخاصة من العالم العربي. المناخ المتوسطي على الشاطئ، مناخ الجبال الطري في فصل الصيف، الهواء الناشف في منطقة البقاع، الانهار الغزيرة بالمياه، سفوح الجبال التي تكسوها الثلوج طيلة اشهر عديدة في السنة، كلها مآثر سحرت عبر العصور الرحالة والشعراء، وخاصة اللبنانيين انفسهم. بالنسبة لجمال لبنان وطريقة العيش فيه، كان اللبنانيون من كل المناطق والفئات ومازالوا شوفيين اي مترمطين وطنيين، وذلك لأسباب معروفة ومبررة. فلذة المطبخ اللبناني والمشروبات الكحولية اللبنانية والضيافة والبشاشة، تضيء كلها طابعا جذابا لحلاوة العيش، التي لايمكن ايجادها في مكان آخر. لذلك يقول اللبنانيون من مختلف الديانات والطوائف بأن الله هو لبناني.

ولكن هذا الاقتناع لم يمنعهم من تفضيل بعض الامور المرتبطة بمكان جغرافي آخر في العالم واعتبارها الافضل والاجمل في بلدهم. فلا يجدون في اي مكان آخر زيتونا طيبا مثل زيتون لبنان، ولا عرقا انقى واشهى من عرق لبنان، والبشر اكثر سخاء وشجاعة وعفوانا من سكانه. ويفهم من ذلك ان كل فئة تعتبر نفسها احب اولاد الله، وان الآخرين هم انصاف اولاده. ان بلدا ينتج اكثر من ٣٦٠ نوعا من الجبنة يصعب حكمه، كما كان يقول الجنرال "شارل ديغول"، وبالتالي يصعب اكثر فاكثر حكم بلد يتجاوز فيه عدد انواع الزيتون عدد مدنه وقراه.

لايتفق اللبنانيون حكماً حول كيف كان بلدهم، وكيف هو الآن وهل هو قاتم وموجود، وكيف يبدو لهم، ومن يحكمه، وهل ينبغي تغييره وكيف. فيما يلي، ستحل كل هذه النقاط وسيطرح السؤال: كيف حصل ذلك رغم التعايش السلمي، وكيف استمر مدة من الزمن؟

١ - التعايش عبر التاريخ

تحاول كل حركة وطنية وكل فئة ان تضع نفسها في صلب التاريخ. فما حصل تاريخيا، يجب تبريره. ولكن ماذا يتمنى المرء؟ ان الدول التعددية ليس لها في الغالب تاريخا مكتوبا واحدا، بل عدة تواريخ. في لبنان هناك تاريخ الاديان والهرطقات والانقسامات التي انبثقت عنها ومنها، وتاريخ الطوائف الدينية القديمة والحديثة، التي تعتبر الدولة اللبنانية في هذا العصر منتهى امنياتها، وكذلك تاريخ

الذين يعتبرون هذه الدولة خطأ تاريخياً أو فذلكة تاريخية، أو مرحلة انتقالية على طريق قيام دولة كبرى يطمحون إليها، كسوريا الكبرى، أو دولة عربية، أو جمهورية اسلامية. اما القوميون اللبنانيون الذين هم غالباً وليس دائماً، من المسيحيين، فيحاولون تقديم البراهين على ان لبنان كان ومازال موجوداً منذ اقدم العصور. ويتمسكون باستقلاله الجديد وخصوصياته. ولكن القوميون العرب -الذين هم غالباً وليس دائماً، من المسلمين-، فيميلون بالمقابل الى اعتبار تاريخ الارض اللبنانية الحالية كفصل من تاريخ الامة العربية الاسلامية. ولكن يبقى الخلاف حول متى اطلق اسم "لبنان"، وعلى اي قسم من البلد. وإذا كانت هذه الفئة أو تلك من الفئات الحالية كانت أمة في الماضي، وإذا كانت قد قامت في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر امارات مستقلة ذاتياً، وإذا كانت "لبنانية"، وإذا كان يمكن وصف النزاعات الدموية التي حصلت في القرن التاسع عشر كحروب دولية أو كصراع طبقي، وإذا كانت الدولة اللبنانية الحالية نتيجة طموح السيطرة الاستعمارية أو وليدة ارادة قوى سياسية داخلية. ولكن تعترض قراءة الماضي صعوبات جمة نظراً الى ان الوثائق لا تسمح حتى الآن بابرار حقيقة واضحة عن بعض المراحل التاريخية. ولكن بالمقابل يسهل الامر عندما نرى بعض المؤرخين اللبنانيين الحاليين يحاولون القاء نظرة نقدية على كتب التاريخ مهما كان مصدرها^٥.

ففي سبيل فهم لبنان اليوم، يكفي ابراز المعطيات والوقائع والاحداث التي لاخلاف عليها تاريخياً. فهي تكفي لتوضيح كيفية نشوء الطوائف الدينية ولقائها ببعضها، وتكوين العلاقات بينها.

ان الاراضي التي يتألف منها لبنان الحالي شهدت عبر حقب التاريخ، مجيء ورحيل عدد من الحكام. فقبل القرن السادس ميلادي، ازدهرت على شواطئه المدن الفينيقية المستقلة التي سيطرت على التجارة في البحر المتوسط. ووسعت علاقاتها التجارية حتى بحر الشمال. وقد انتهى دورها بعد الفتح الفارسي الذي تغلب عليه الاسكندر الكبير في القرن الرابع قبل الميلاد. ثم دخل لبنان تحت حكم الامبراطورية اليونانية السلوقية حتى تاريخ انتقاله الى حكم الامبراطورية الرومانية في القرن الاول قبل الميلاد. وبعد انقسام الامبراطورية بين روما وبيزنطية، اي روما

٥- احمد بيضون، ذات المرجع. كذلك كمال صليبي، المرجع السابق والمقال

L'Histoire libanaise, histoire de vanité, in L'Orient, 25.5. 1965.

يؤيد المؤلف نظرة بيضون عن دراسات صليبي، عندما يقول: "لم يختر اي موقف معاصر من الحدث المروى، ولم يقف في صفوف اي جيش قروسطي... لم يتمثل مع الممالك أو الشيعية أو الموارنة أو الدروز. وبالمناسبة لم يتردد عن تحطيم "ثوابت" جماعية دافع عنها بغيرة قصوى، ففي سبيل تكوين قصة "أهلية" من هذا الطراز، كان لابد من انتظار رجل بروتستانتى ذي تربية انكلو سكسونية لخوض المعركة!" احمد بيضون، المرجع المذكور، ص ١١٠-١١١

الشرقية، بقي لبنان حتى عام ٦٤١ تحت السيطرة البيزنطية. ومن القرن السابع حتى نهاية الحرب العالمية الاولى، عاش لبنان الحالي تحت سيطرة الامبراطوريات الاسلامية المختلفة، باستثناء القرن الثالث عشر خلال قيام امبراطورية الفرنجة، ابان الحملات الصليبية، على شواطئ البحر المتوسط الشرقية. واطول فترة من السيطرة الاجنبية عرفها لبنان كانت السيطرة العثمانية التي بدأت عام ١٥١٦.

خلال الحكم العثماني تكونت الطوائف المسيحية المختلفة والموجودة اليوم في لبنان، كما نشأت في ظل الحكم الاسلامي الاموي والفاطمي، الطوائف الاسلامية الحالية. وفي الحالتين نشأت في البداية هرطقات، اي اقتناعات ايمانية مختلفة، وانقسامات، اي خلافات حول شرعية القيادة الدينية.

المسيحية كانت دين الامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب. وكانت موحدة وفقاً لقانون الإيمان الذي أقر في مجمع نيقية عام ٣٢٥. ولكن في مجمع أفسس الذي عقد عام ٤٣١، انقسمت لأول مرة اتجاهات المسيحيين. فتعاليم نسطورس الذي تنكر لطبيعة المسيح الالهية، رفضت وأستكرت، ولكن اتباعه رحلوا الى شمال سوريا وبلاد فارس. وأخذوا يبشرون بتعاليمه في القرن الثالث من جنوب شبه الجزيرة العربية حتى الصين. اما المسيحيين النساطرة او النسطوريين فقد وقعوا في القرن الرابع عشر ضحية الغزو المغولي، فلم يبق منهم الا تجمعات صغيرة، مثل الأشوريين الذين يعيشون حتى اليوم في جنوب شرق تركيا، وفي شمال العراق وايران. ومنذ الثلاثينات من هذا القرن، بدأ لاجئون آشوريون من هذه الدول يهاجرون الى بيروت وزحلة. اما الاختلاف الثاني الذي خلف أثراً كبيراً على تطور الأوضاع الحديثة في الشرق الاوسط، فقد حصل عام ٤٥١ في مجمع خلقيدونية، اذ أقر خلاله بان للمسيح طبيعتان إلهية وإنسانية. وهذا ماعارضه المونوفيزيون الذين يعترفون فقط بطبيعة المسيح الالهية. وهكذا اعترف مسيحيو ارمينيا، ومصر والقسم الاكبر من مسيحيي سوريا بتعاليم المونوفيزيين، وشكلوا الكنائس المعروفة اليوم مثل كنيسة الارمن الغريغوريين، وكنيسة الإقباط، وكنيسة السريان اليعاقبة. ولكن الخلفيات الحقيقية لهذا الانقسام كانت غالباً ذا طابع قومي. وجاءت في الواقع تعبيراً عن رغبة تحرير النزعة القومية التي أخذت تنشأ في الشرق الاوسط، والتي بالتالي، وان ظاهرياً، تحررت من النزعة الهلينية. فهذه الكنائس الثلاث المونوفيزية، اندمجت، بنوع خاص، في ظل الحكم الاسلامي، تماماً مع المجموعات الشعبية

الآخري. فتقاسمت معها التاريخ والثقافة واللغة^٧. ان قسماً كبيراً من الارمن الغريغوريين وقسماً من السريان اليعلقية، يعيشون اليوم في لبنان. وخلال المجمع السادس الذي عقد في عام ٦٨٠، نشأ خلاف عقائدي آخر. فقامت أقلية تقول بطبيعتين في المسيح، ولكن بارادة واحدة. فحكم عليها كهرطقة "مونوتالية" اي وحدانية. فحسب بعض المؤرخين، كان من اتباع هذا التعليم فئة تسمى بالموارنة، عرفت بهذا الاسم نسبة الى الراهب "مارو" الذي توفي حوالي عام ٤١٠ في ضواحي انطاكية. ولكن الموارنة انفسهم ينكرون ذلك^٨. وهناك خلاف آخر ايضا حول تاريخ هجرة الموارنة الى شمال لبنان. فالمصادر التاريخية تتأرجح بين نهاية القرن السابع والقرن الحادي عشر. ولكن من الثابت ان الموارنة ابرزوا خضوعهم لبابا روما عام ١١٨٢. وفي العام ١٥١٠ وصف البابا لاوون العاشر الطائفة المارونية في براءة عنوانها "وردة بين الأشواك" بأنها الوردة الحقيقية بين اشواك الهرطقة والملحدين. وهؤلاء الموارنة يشكلون اليوم في لبنان مع بعض التحفظ، الطائفة المسيحية الأكثر عدداً.

اما اتباع كنيسة الامبراطورية الرومانية الشرقية فيصفون انفسهم منذ مجمع خلقيدونية بالارثوذكس اي الدين المستقيم. ويصفون انفسهم أيضاً بالملكيين اي انصار الملك او القيصر. وهم موجودون في كل اقطار الشرق الاوسط العربي كما يشكلون في لبنان ثاني اكبر تجمع مسيحي من حيث العدد.

كل هذه الطوائف الدينية المسيحية^٩ هي اذا اقدم من الاسلام. حتى الطائفة المارونية هي على الاقل قديمة بقديم الاسلام. وفي عصور ما قبل الاسلام، كانت تقوم علاقات بين مختلف التجمعات الدينية والقبلية والشعبية. وكل شيء يشير الى ان الخروج عن دين الامبراطورية لم يكن أخيراً معللاً بابرار المفارقات القائمة مع

٧- ذات المرجع

٨- Joseph DEBS, Perpétuelle orthodoxie des Maronites, Arras 1896; Idem, Les Maronites du Liban, Paris 1875; Pierre DIB, L'Eglise maronite, Paris 1930;

وقد انتقد كل هذه الدراسات كمال صليبي في مؤلفه المذكور، ص ٨٧ وما يليها هناك دراسات شاملة زاخرة بالمعلومات، نذكر منها:

٩- Pierre RONDOT, Les chrétiens d'Orient, Paris 1955; Albert H. HOURANI, Minorities in the Arab World, London 1947; Robert Brenton BETTS, Christians in the Arab East. A political study, Athen 1975; L.C. BIEGEL, Minderheden in het Midden-Oosten. Hun betenkenis als politieke factor in de Arabische wereld, Deventer 1972; Raymond ETTTEL-DORF, Catholic Churches in the Middle East, New York 1955.

واللحصول على لمحة سريعة وحقيقية تراجع دراساتنا:

Theodor HANF, Die christlichen Gemeinschaften im gesellschaftlichen Wandel des arabischen Vorderen Orients, in: Orient, 22 (1981)1, p.29-49.

الفئات الثقافية الهلينية التي كانت مسيطرة في الامبراطورية الرومانية الشرقية، بل أيضاً المفارقات الدينية.

وبدوره عرف الاسلام، مثل المسيحية، خلاقات مماثلة. فالانقسام الاول والاهم نشأ حول مسألة خلافة النبي محمد. ان علياً، صهر النبي، الذي فشل ثلاث مرات بالفوز بالخلافة، لم ينجح في المرة الرابعة، ولكنه بعد خمس سنوات تم اغتياله عام ٦٦١. فالشيعة، اي انصار علي، شددوا وتمسكوا بابقاء الخلافة ضمن عائلة النبي. وهذا ما رفضته اكثرية المسلمين، التي اعتبرت نفسها من المؤمنين بالسنة، اي بتقليد النبي وخلفائه الأولين. ثم انقسم الشيعة الى عدة فرق ومجموعات. وقد عرفت احداها "بالشيعة السابعة" التي اعترفت بخلافة الحسين ابن علي، كإمام. كان اسماعيل الامام السابع، الذي "اختفى"، او غيب في مكان مجهول. وجاء بعده أئمة ايضاً "مختبئون" او مغيبون. وقد اعتبر الفاطميون الذين حكموا تونس ثم مصر خلفاء لاسماعيل. واحد هؤلاء كان "الحاكم" (٩٩٦-١٠٢١) الذي وصفه "دريزي"، احد اقرب انصاره بأنه آخر تجسد لله في التاريخ، وسيعود بانتصار عظيم عندما يحين الوقت. اما انصار هذا التعليم الجديد فقد عرفوا "بالدروز"، نسبة الى درزي. فاضطهدوا من قبل السنة واعتبروا ضالين عن الإيمان، فالتجأوا الى المنطقة الجبلية الواقعة حول جبل حرمون والى المنطقة الجنوبية من سلسلة جبال لبنان.

وهناك تجمع يفوقهم عدداً يعرف بـ "الشيعة الاثني عشرية". بالنسبة لهؤلاء ليس الامام السابع بل الثاني عشر هو الذي اختفى او غيب. وحسب معتقدتهم، فإن الظلم سيبقى قائماً في العالم حتى يعود الامام المغيّب. ويشكل اليوم الشيعة الاثني عشرية، اي الشيعة، الطائفة الاسلامية الاكثر عدداً في لبنان.

ان المؤرخين مازالوا يختلفون حول تحديد تاريخي دقيق لاعتناق هذا التجمع هذا المعتقد او ذاك، وكذلك حول تاريخ استقراره في لبنان. ولكن يبدو بحكم المؤكد ان اهم الطوائف الدينية المعروفة اليوم في لبنان كانت موجودة فيه في القرن الحادي عشر^{١١}: الدروز في الجنوب، الموارنة في اطراف المنطقة الجبلية الشمالية، الشيعة في التلال الجنوبية وفي البقاع وفي منطقة كسروان الجبلية. كما كان يقطن في المدن الساحلية، السنة، والملكيون، اي اتباع الدين الذي كان مسيطراً في المنطقة قبل وبعد الفتح الاسلامي لآسيا الصغرى بين ٦٣٥ و ٦٣٧.

١٠- B. CARRA DE VAUX, "Druzes", in: H.A.R. GIBB und J.H. KRAMERS (Eds), Shorter Encyclopedia of Islam, Leyden 1953, p.94; David BRYER, The Origins of the Druze Religion, in: Der Islam, 52 (1975), p. 47-84 und 53 (1976), p. 4-27; Werner SCHMUCKER, Krise und Erneuerung im libanesischen Drusentum, Bonn 1979.

١١- كمال صليبي، المرجع المذكور، ص ١٢-١٣

أقر الفتح الإسلامي المنتصر قوانين ثابتة للتعامل مع غير المؤمنين بالاسلام ومع المنشقين عنه^{١٢}. بالنسبة للمسيحيين واليهود، فرض عليهم الخضوع والاذعان للدولة الإسلامية، ولكن سمح لهم بممارسة معتقداتهم والاحتفاظ بقوانينهم الشخصية وبسلطاتهم الدينية. وقد فرضت عليهم أيضاً ضرائب أي جزية لضمان حمايتهم، إلا أنهم أعفوا من الخدمة العسكرية. هذا التسامح كان مرتبطاً بالاذلال ولكن غالباً مع امكانيات التفوق الاقتصادي. كذلك كان بإمكان المسيحيين واليهود التحرر من هذه الحماية وهذه القوانين، إذا ما اعتنقوا الدين الإسلامي. وقد اختار هذه الامكانية عدد كبير من السكان الأصليين في المناطق التي دخلت تحت الفتح الإسلامي. وتجدر الإشارة إلى أن الضغط لاعتناق الاسلام لم يمارس عادة، وذلك لأن الحكام كانوا يهتمون بجباية الضرائب أكثر من اهتمامهم باعتناق الدين.

بالنسبة للتجمعات الإسلامية المنشقة، كان وضعها القانوني اسوأ من وضع المسيحيين واليهود، نظراً لعدم الاعتراف بهم. لم تفرض عليهم ضرائب، ولكن سمح لهم بالانخراط في الجيش. ولكن الدروز والشيعية ردوا على ذلك باتباع نظام "التستر" أو "التكتم"، أي نظام "النقية". فعند الحاجة مثلاً يعترف المرء بأنه سني، ولكنه يبقى محافظاً على معتقداته وعاداته الخاصة.

كان المسيحيون والطوائف الإسلامية المنشقة يلجأون للسكن في المناطق النائية، بعيداً عن السيطرة السنية. وهذا صحيح بالنسبة لعدة مناطق جبلية، وليس فقط بالنسبة للمناطق الجبلية اللبنانية، حيث استطاعت هذه التجمعات، العيش باستقلالية ذاتية نسبية وباحتكاك محدود مع الخارج. فالمنطقة الجبلية تحولت، كما يقول المؤرخ اللبناني حبيب كوراني، "إلى أرض المنشقين في كل الأزمات، وعن كل الديانات"^{١٣}.

وعندما كانت تتجاوز استقلالية الأمر الواقع لهؤلاء المنشقين حدوداً معينة في نظر السلطات المركزية، أي مثلاً، عندما لا يدفعون الضرائب المفروضة عليهم بانتظام، أو يهددون الطرق التجارية الهامة، كانوا يقمعون بعنف شديد. هكذا قام الحكام الفاطميون في أواخر القرن الثالث عشر وفي مطلع القرن الرابع عشر بعدة حملات عسكرية ضد الشيعة في كسروان، وطردوهم نهائياً من تلك المنطقة. وفي

D.B. Mc DONALD, "Dhimma", in: H.A.R. GIBB und J.H.KRAMERS (Eds.), op. cit p.75f; Louis GARDET, La Cité Musulmane, Paris 1954, p.344-349; Majid KHADDURI, War and Peace in the Law of Islam, Baltimore 1955; Muhammad ASSAD, The Principle of State and Government in Islam, Berkeley & Los Angeles; Emile TYAN, Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam, Paris 1938; Antoine FATTAL, Le statut légal des Non-Musulmans en pays d'Islam, Beyrouth 1958.

Haïb KURANI, Lebanon, Educational Reform, in: Yearbook of Education, London 1949.

ظل الاحتلال العثماني تعرض الدروز في القرن السادس عشر في جبل الشوف لعدة حملات عسكرية. فكلما ازدادت حرية سكان الجبال في تنظيم اوضاعهم الخاصة، كان يزداد غضب الحكام عليهم. وهذا ما كان يدفع بالسلطة المركزية في الامبراطورية الاسلامية السنية الى عدم التسامح بذلك. فكانت تفرض ضرائب جديدة وجزية اكثر.

لقد اقام الحكم العثماني نوعين مختلفين لممارسة السلطة في مختلف اجزاء الامبراطورية. الحالة الطبيعية كانت الحكم المباشر، اي ممارسة العثمانيين للسلطة بمساعدة الجيش والادارة المدنية. فالنظام الاسلامي القديم المعروف بـ "نظام الحماية" تحول الى "نظام الملل"^{١٤}. والملة هي الامة غير الاسلامية التي تخضع لسلطة الباب العالي، ولكنها تدير شؤونها بنفسها. كانت هذه الملل تختار رؤساءها الذين كانوا يحتاجون الى اعتراف السلطان بهم. لم تكن الملل منظمة وفقا لحدود جغرافية، بل استنادا الى الانتماء الطائفي الديني بقطع النظر عن مكان الاقامة. فالمسيحيون واليهود في الامبراطورية العثمانية كانوا يخضعون مثل المسلمين للسلطات العثمانية المحلية فيما يتعلق بالشؤون الضرائبية والجزائية. اما شؤون الزواج والارث والتربية والتعليم والمسائل الدينية، فكانت متروكة للسلطات الدينية في كل طائفة. هذه الاستقلالية شبه الذاتية للملل جعلت ايضا من الحكم العثماني، بالنسبة للمسيحيين واليهود، حكما غير مباشر جزئيا.

بالمقابل، اكتفى الحكم العثماني باعطاء حكم كامل غير مباشر لعدد من المناطق البعيدة والمأهولة من قبل تجمعات طائفية متجانسة، خاصة في المناطق الجبلية. قد يعود ذلك الى نقص في الاهتمام بهذه المناطق بطريقة مباشرة، او الى التكلفة الباهظة الضرورية لتأمين ذلك. لذلك كلف الحكم العثماني الوجهاء الاوفياء له ادارة شؤون العدل والضرائب. وكان الامر الحاسم في اختيار هؤلاء الحكام المحليين يرتبط بمدى نفوذهم وفاعليتهم في جباية الضرائب. وكذلك في المناطق التي كانت خاضعة لادارة الحكم المباشر كانت عملية جباية الضرائب تأخذ شكل عقد ايجار، اذ كان المكلف يتعهد للسلطة العليا بدفع كمية معينة من المال، وما يجمعه علاوة عن ذلك، كان يعود الى دخله الشخصي. ولكن في المناطق ذات الحكم غير المباشر، كان على المكلف ان يمارس اضافة الى جباية الضرائب، تأمين احترام القانون والنظام. لذلك كانت توكل اليه مسؤولية منطقة كبيرة حيث يستطيع الاستعانة

S. Benjamin BRAUDE & Bernard LEWIS, Christians and Jews in the Ottoman Empire. The functioning of a plural society, 2 vol., New York & London 1982; Karl BINSWANGER, Untersuchungen zum Status der Nichtmuslime im Osmanischen Reich des 16. Jahrhunderts. Mit einer Neudefinition des Begriffs "Dimma", München 1977. -١٤

بمعاونين ثانويين لادارتها. وفي كل مكان كانت تعطى هذه الحقوق والمسؤوليات لمدة سنة واحدة، يمكن تجديدها او وقفها. وهنا كان الحاكم يحاول استغلال وفاء المكلفين بجباية الضرائب، عندما يرى ان الكمية غير كافية. وهذا ماكان يدفعه الى تكليف آخرين بهذه المهمة. وبصورة عامة كان هذا النظام رفيع الشأن في مجال المراقبة غير المباشرة، لانه كان يوفر للدولة مدخولا كبيرا دون الحاجة الى اي اتفاق يذكر.

كانت الاراضي اللبنانية الحالية تخضع في العهد العثماني للحكام، او لمن يقوم مكانهم. وكان هؤلاء يقيمون في دمشق او في صيدا او في طرابلس، وفي المرحلة الاخيرة، في بيروت ايضا. ولكن الحكم المباشر كان بالاجمال قائما في المدن الساحلية. فالموارنة والدروز والشيعية خضعوا فقط للحكم غير المباشر. كان عليهم ان يدفعوا الضرائب، وان يديروا بالتالي شؤونهم بانفسهم.

ومنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، برز في مناطق الجبل نظام حكم ونظام اجتماعي، يمكن وصفه بـ "الاقطاعية" التي تشبه، وان بطريقة غير صحيحة، النظام الاقطاعي الذي كان قائما في اوربا خلال القرون الوسطى. فلم يقم هذا النظام على ملكية الاراضي الواسعة، بل على حق جباية الضرائب^{١٥}.

كان كبار جباة الضرائب من افراد العائلات البارزة الدرزية ثم السنية والمارونية. كانوا يتحالفون مع زعماء عائلات اخرى لجمع الضرائب. كما كان هؤلاء غالبا من ذات العائلات. وهذا مادفع الى تكوين فئة من الاعيان.

لم تكن هذه الوظائف وراثية، ولكن استطاعت عائلات الاعيان بفضل مداخيلها، توسيع ممتلكاتها. وقد اصبحت غالبا كبيرة وشاسعة ولم يعد بإمكانها استثمارها الا لقاء دفع اجور، او غالبا، بترك قسم من المحاصيل الى المزارعين الشركاء الذين يشتغلونها. فجباة الضرائب لم تكن لهم اية حقوق تؤهلهم لكسب صفة النبل وراثه. كان تأثيرهم كبيرا بحكم الوظيفة التي كانوا يمارسونها فقط. وكانت المحافظة على هذا التأثير مرتبطة بمدى امكانية جباية الضرائب دون اثاره المشاكل مع المكلفين بدفع الضرائب.

نشأت "السياسة" في جبل لبنان في القرنين السابع عشر والثامن عشر عبر

١٥- راجع الدراسات الكلاسيكية التالية:

Dominique CHEVALLIER, La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe, Paris 1971, p.80ff; Zvi Yehuda HERSHLAG, Introduction to the Modern Economic History of the Middle East, Leiden 1964, p. 9 ff.; Toufic TOUMA, Paysans et Institutions féodales chez les druzes et les maronites du Liban du XVIIe siècle à 1914, Beyrouth 1971.

محاولات المكلفين بجباية الضرائب لتوسيع اطار مناطق عملهم، ولابقائها حكرا على عائلاتهم، وكذلك عبر المحاولات المماثلة لجباة الضرائب الثانويين في المناطق الصغيرة حفاظا على نفوذهم عبر الوظائف الموكله اليهم.

نجح امير الدروز فخر الدين الثاني (١٥٩٠-١٦٣٥) لأول مرة في ضمّ كل المناطق التابعة اليوم للبنان، ومناطق أخرى خارجة عنه، الى إمارته^{١٦}. لقب "بأمير الجبل"، وحاول، في وقت من الاوقات وبنجاح، ان يحكم كعاهل مستقل. فتح البلاد للتجارة مع أوروبا، وعقد اتفاقاً مع "آل ميديسيس" امراء "فلورنسا"، وانشأ جيشاً، وبنى قلاعاً وحصونا. ولكن سرعان ما استاء الباب العالي من تعاضم واتساع نفوذ هذا الأمير، فارسله الى المنفى لعدة سنوات، ثم سمح له بالعودة الى إمارته. ولكن بعد محاولته ثانية لتوسيع إطار إمارته ونفوذه، حوّر عسكرياً، وأسر ثم أعدم شنقا. اما مهمة المسؤول الأعلى عن جباية الضرائب في منطقة جبل لبنان فتركها العثمانيون الى اتباع عائلته، اي آل معن، حتى انقراض هذه الأسرة عام ١٦٩٧. خلفهم بعد ذلك حتى عام ١٨٤٠ أمراء من آل شهاب. وقد برز بينهم الأمير بشير الثاني الذي نجح، مثل الأمير فخر الدين الثاني، في توسيع حدود إمارته. فضمّ اليها بعض المناطق الساحلية وسهل البقاع. وهذا ما أثار مجدداً غضب العثمانيين. فاقتادوا هذا الأمير عام ١٨٢١ الى المنفى. وهكذا كانت استقلالية الجبل خلال حكم المعنيين والشهابيين ذات طابع نسبي عال^{١٧}. فقد شملت الادارة المحلية، والأمن الداخلي والقضاء. ولكن لم يكن هناك تسامح فيما يتعلق بقيام علاقات خارجية مستقلة او بتوسيع جغرافي خارج الجبل. بالمقابل لم يحصل اطلاقاً اي إشكال حول حق فرض الضرائب وجبايتها.

تميّز عهد الأمراء بعدد من المؤشرات التي أثّرت فعلياً على مستقبل تكوين لبنان اجتماعياً وسياسياً. تثبّت مركز أسر الأعيان الذين كلفوا بجباية الضرائب. كما اضطر الامراء الى التحالف معهم في سبيل تثبيت مراكزهم. وما زال بعض هذه العائلات يلعب دوراً سياسياً حتى يومنا هذا. لقد مارس الأعيان سلطتهم في مناطق جغرافية معينة، حيث لم يكن الانتماء الى اية طائفة دينية يلعب دوراً بالنسبة لهم او بالنسبة للمكلفين باسمهم بجباية الضرائب او بالنسبة للمواطنين. فلم يطبق اطلاقاً

١٦- ان الأحداث والمعطيات والأسماء المتعلقة بالتاريخ اللبناني لم تُفسّر بالتفصيل هنا في الحواشي. اما عرض الأحداث فيستند على الدراسات التالية:

Philip Hitti, Lebanon in History. From the earliest times to the present, 3d ed., London 1967;
Adel Ismail, Histoire du Liban du XVIIe siècle à nos jours, 2 vol., Paris 1955; Kamal S. Salibi, The Modern History of Lebanon, London 1977 (reprint); Idem., A House of Many Mansions, op. cit.

١٧- ذات المرجع ص ١٠٩

المبدأ القائل: "تدين بدين الملك"، (Cuius regio, eius religio) بل العكس . ففي عدة حالات، اعتنق هؤلاء الأعيان ديانة أكثرية مواطنهم. فتحوّلت مثلاً أسرة أبي اللع الدرزية وأسرة شهاب السنية إلى الطائفة المارونية. كان هذا الارتداد من معتقد إلى آخر من أهم المؤشرات التي سهّلت في ذلك الوقت ترقّي الموارد الاجتماعية وسياسياً.

وكما كان الحال لدى الموارد، كانت تقوم أيضاً لدى الدروز والشيعية بنية اجتماعية شبيهة بالقبلية، حيث كانت العائلات الكبيرة والعشائر تفرض الوحدة الاجتماعية. ولكن تميّز الموارد عن غيرهم بنوع خاص، بفضل وجود كنيسة منظمة لديهم ذات ارتباطات دولية^{١٨}.

في السابق وخلال عهد الصليبيين تمكن الموارد من الاتحاد الكامل مع الكنيسة الرومانية - أو حسب نظرهم - من إعادة تثبيت هذا الاتحاد. إلا أن هذه العلاقات الفعلية قطعت مجدداً بعد اندثار مملكة الفرنجة. ولكن بعد احتلال الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ القسطنطينية، ومع بداية الإصلاح الروماني المعاكس، بدأت أوروبا الكاثوليكية مجدداً تهتم بكنيسة الشرق الوحيدة، التي لم تتفصل عنها لا عقائدياً ولا إدارياً. فقد أرسل الرهبان الفرنسيون واليسوعيون إلى لبنان، كما ذهب رجال الدين الموارد إلى روما للحصول على التعليم والتدريب. ففي عام ١٥٨٢ أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر المعهد الماروني في روما^{١٩}. وتمكن خريجوه بعد عودتهم من تأسيس عدة مدارس في لبنان. وهذا ما أسهم في إرساء بداية تطوّر مذهل في حقل التربية والتعليم^{٢٠}. وفي عام ١٥٩٦ عقد أول مجمع ماروني في قنوبين، جرى خلاله إقرار تنظيم كنسي حديث. وفي عام ١٧٣٦ عقد مجمع ثان في دير اللوزية، وكان التطوّر قد قطع شوطاً بعيداً وعرف تقدماً ملموساً داخل الكنيسة المارونية. فتقرر تثبيته في إطار القانون الكنسي، خاصة من حيث إلزام كل رعية بإنشاء مدرسة لها. وفي عام ١٧٨٩ أسس البطريرك الماروني في عين ورقة أول مؤسسة للتعليم العالي. وهكذا ارتبط تطوّر التعليم بتطوّر الموارد في المجالين الديمغرافي والاقتصادي، وهذا ما حدا بالموارد الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية في شمال لبنان، إلى الانتقال رويداً رويداً نحو الجنوب. في القرن السادس عشر انتشروا في منطقة كسروان بعد أن هجر الفاطميون الشيعة منها. ومنذ عهد المعنيين تمكنوا

-
- ١٨- Iliya F. HARIK, *Politics and Change in a Traditional Society: Lebanon, 1711-1845*, راجع Princeton 1968.
- ١٩- Pierre RAPHAEL, *Le rôle du Collège Maronite Romain dans l'orientalisme aux XVIIe et XVIIIe siècles*, Beyrouth 1950.
- ٢٠- Theodor HANF, *Erziehungswesen in Gesellschaft und Politik des Libanon*, Blefeld 1969, راجع p. 62ff.

بدعوة من أعيان الدروز من الانتقال الى جبل الشوف والإقامة فيه. وكان الأمراء الدروز قد اكتشفوا اهتمام عدد من الشركات الأوروبية بتجارة الحرير، الامر الذي دفعهم الى تعزيز الإهتمام به ايضا وزيادة انتاجه. فبرزت حاجتهم الى يد عاملة أكثر مما كان متوفرا لديهم. عندئذٍ وهب الاعيان الدروز اراض الى الرهبانيات المارونية شرط ان يبحثوا لهم عن مزارعين في منطقة الشمال للعمل في انتاج الحرير. ومع تطوّر هذا الانتاج تطوّر قطاع الخدمات والنقل والتسليف، وقطاعات اقتصادية أخرى، عمل فيها الموارد بنجاح مرموق.

وفي القرن الثامن عشر هاجرت طوائف مسيحية أخرى الى لبنان. في عام ١٧٢٤ اتحد قسم من الملكيين^{٢١} مع الكنيسة الرومانية، وتبعهم عام ١٧٤٠ قسم آخر من الارمن. فقد أخذ هؤلاء اسم "الروم الكاثوليك" او "الارمن الكاثوليك" خاصة في شمال سوريا، حيث انفصلوا عن جماعاتهم التي بقيت "ارثوذكسية"، الامر الذي أدى الى عداا واضطهاد بينهم. و دفع بالكثيرين منهم الى اللجوء الى لبنان.

الطوائف "الكاثوليكية" اي المتحدة مع روما، خاصة الموارد، حصلت ليس فقط على تأييد ودعم من الكنيسة الرومانية فحسب، بل من الدولة الفرنسية ايضا^{٢٢}. فالنظام المعروف بالامتيازات الاجنبية^{٢٣}، اي الاتفاقيات التي عقدت بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا، اعطت هذه الأخيرة منذ عام ١٧٤٠، حق الاهتمام بالمواطنين الكاثوليك في الامبراطورية العثمانية. في ظلّ هذه الحماية، بدأت رهبانيات مسيحية عديدة بتأسيس مدارس حديثة في لبنان. وهذا ما اعطى دون ريب دفعا قويا للنشاط التربوي الذي كانت تقوم به الجمعيات الوطنية.

في اواخر القرن الثامن عشر، تحول الموارد الى طائفة ناجحة ذات ادراك ذاتي وطموح واسع، او كما قال كمال صليبي، الى طائفة "ذات قصة نجاح فريد من نوعه في تاريخ المسيحيين القاطنين في العالم الإسلامي"^{٢٤}. اما عنصرا هذا النجاح، وهما الديناميكية الداخلية والتأثيرات الخارجية، فقد احدثا بالمقابل، خلال القرن التاسع عشر، اضطرابات أليمة في تاريخ جبل لبنان السياسي والاجتماعي.

بدأت القوى الاجنبية من جانبها تنظر الى تواجد عدة طوائف دينية مع بعضها وتستغلها كإمكانية للتأثير وممارسة النفوذ داخل الامبراطورية العثمانية^{٢٥}. أقامت

-
- ٢١ - Cyrille CHARON, *Histoires des Patriarcats Melkites*, 2 vol., Rome 1910-1911.
- ٢٢ - René RISTELHUEBER, *Les traditions françaises au Liban*, Paris 1918; François CHARLES ROUX, *La France et les chrétiens d'Orient*, Paris 1939.
- ٢٣ - Basile HOMSY, *Les capitulations et la protection des chrétiens au Proche-Orient*, Paris 1956.
- ٢٤ - راجع كمال صليبي، المرجع المذكور، ص ١٠٦.
- ٢٥ - Alfred SCHLICHT, *The Role of Foreign Powers in the History of Lebanon and Syria from 1799 to*

فرنسا مثلاً علاقات قوية مع الموارنة. وروسيا حَمَت الروم الارثوذكس غير المتحدين مع روما. ورعت الامبراطورية النمساوية طائفة الروم الكاثوليك المتحدين مع روما. بالمقابل سعت بريطانيا العظمى الى التدخل والتأثير عبر اقامة علاقات مع الدروز. ولكن النزاع الدموي بين الباب العالي ومحمد علي والي مصر بين عام ١٨٣١ و ١٨٤٠ ترك المجال واسعا للتدخل الاجنبي المباشر. فوقفت فرنسا إلى جانب مصر، كما ساندت روسيا والنمسا وخاصة بريطانيا العظمى الباب العالي. ولكن هذا النزاع الدولي أدى ولأول مرة الى توتر شديد في جبل لبنان بين الموارنة والدروز، اذ وقف الامير بشير الشهابي الثاني الى جانب مصر، بينما ناصر قادة الدروز الدولة العثمانية. في البداية حققت القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا عدة انتصارات. فاحتلت سوريا بكاملها وواصلت زحفها حتى منطقة الأناضول. في تلك الأثناء، ادخل ابراهيم باشا عدة اصلاحات أساسية^{٢٦}. فلم ينشئ ادارة مدنية فاعلة فقط، بل الغى ايضاً كل الأنظمة التي تتعلق بالمواطنين غير المسلمين. فأعطى ذات الحقوق للمسيحيين كما للمسلمين. وارتبطت المساواة في الحقوق بالمساواة في الواجبات، ومن بينها الخدمة العسكرية. ولكن الضرائب العالية التي فرضت لتمويل الحرب، وخاصة الدعاوات المتكررة للتعبئة العسكرية، دفعت بالسكان الى مناهضة ابراهيم باشا والامير بشير الذي كان يسانده. ففي عام ١٨٣٨ ثار الدروز في منطقة حوران السورية وفي جنوب لبنان ضد السيطرة المصرية. ولكن ابراهيم باشا حطم هذه الانتفاضة بالعنف وسفك الدماء، مستخدماً القوات المارونية. وكان ذلك بهدف القضاء على العلاقات بين الطوائف اللبنانية. وقد ادى القمع المتكرر الى تأزيم الوضع، اذ اضطر عدد من الاعيان الدروز الى الذهاب الى المنفى وبيع ممتلكاتهم في الشوف الى المسيحيين. ولكن التعايش الذي كان قائماً حتى ذلك الوقت في جنوب الجبل دون اية مشكلة، اخذ يندثر بسبب تلك الأحداث التي أثارت المرارة لدى الدروز.

في تلك الأثناء، تزايد الإشمئزاز والامتناع من حكم ابراهيم باشا ومن الامير بشير ليس فقط من جانب الدروز، بل ايضاً من جانب الشيعة وقسم من المسيحيين. وقد أسهمت التدخلات الاجنبية ايضاً في تأزيم الامور والاضاع. ارادت مصر ارغام الباب العالي عام ١٨٤٠ على توقيع اتفاق يضمن لها السيطرة على سوريا. ولكن القوى الاوروبية، باستثناء فرنسا، رفضت ذلك. عندئذ قصفت البوارج الحربية البريطانية والنمساوية مدينة بيروت، وانزلت قواتها في جونه، مدعومة من قبل

1861, in: Journal of Asian History, 14 (1980)2, p. 97-126; Joseph HAJJAR, L'Europe et les destinées du Proche-Orient (1815-1848), Paris 1970.

Samir KHALAF, Persistence and Change in 19th Century Lebanon, Beirut 1979, p. 45ff.

الوحدات التركيبية. وفي تشرين الأول من العام ١٨٤٠ تمّ القضاء على الجيش المصري، كما نفى الأمير بشير الثاني الى مالطه.

عين الباب العالي خلفاً لهذا الأخير الأمير بشير الشهابي الثالث الذي لم ينجح هو أيضاً في إعادة الهدوء والاستقرار الى الجبل. ففي المرحلة الأخيرة من الحكم المصري، كان المسيحيون مثل المسلمين، والأعيان مثل الفلاحين، متفقين على رفض نظام كان يفرض على البلاد عبثاً ثقيلاً بفعل الضرائب والخدمة العسكرية. أما التوترات التي نشأت آنذاك بين الطوائف فلم تزل مع نهاية هذا النظام. فقد عاد الأعيان الدروز من المنفى وطالبوا بإعادة ممتلكاتهم التي اضطروا الى بيعها، أو تلك التي صودرت. كما طالبوا أيضاً باستعادة حقوقهم كجباة للضرائب وكحكام اداريين. ولكن العديد من الموارد، وليس فقط رجال الدين بينهم، الذين كانوا قد تأثروا بالأفكار الأوروبية الجمهورية وبفعالية الإدارة المصرية، رفضوا كل عودة الى نظام حكم الأعيان السابق، وطالبوا بالغاء "الامتيازات الإقطاعية". لم يستهدفوا فقط منع إعادة الدروز الى مناصبهم السابقة، بل أيضاً نزع السلطة عن الأعيان المسيحيين. وكما كان الأمر يتعلق أولاً بسلطة الأعيان الدروز، فلم تحصل مشاجرات بين هؤلاء الأعيان وخصومهم، بل بين الدروز والموارنة. ففي عام ١٨٤١ قام الدروز بهجوم مسلح على مدينة دير القمر التي كانت تسكنها أكثرية مارونية، وعلى مدينة زحلة ذات الأكثرية السكانية من الروم الكاثوليك. ولكن زحلة صمدت بوجههم بفضل المسيحيين وبمعاونة الشيعة في البقاع، بينما تمكن الدروز من احتلال دير القمر، والقبض على الأمير بشير الثالث في قصر بيت الدين واعتقاله. عندئذ تدخلت السلطات العثمانية وأقالت الأمير بشير الثالث، وأرسلته الى المنفى. ثم أعلن سقوط حكم الإمارة، وعين حاكم غير لبناني. وبسبب الخلاف الدرزي-الماروني خلال سنوات قليلة فقط، انتهى نظام الحكم العثماني غير المباشر، وانتهى معه استقلال نسبي في الجبل دام حوالي قرنين ونصف من الزمن تقريباً.

ولكن لم توافق الطوائف في جبل لبنان ولا الدول الكبرى التي تحالفت ضد إبراهيم باشا، على هذا الحال. فالمعارضة الداخلية والتدخل الأوروبي أرغما الباب العالي على القبول باقتراح قدمه الأمير "مترنيخ"، والقاضي بإنشاء قائممقاميتين في الجبل، يعين على القائمقامية الشمالية حاكم ماروني، وعلى القائمقامية الجنوبية حاكم درزي. ولكن هذا النظام الجديد لم يمه المشكلة، نظراً الى وجود عدد كبير من الدروز في القائمقامية الشمالية، والى أكثرية مسيحية في القائمقامية الجنوبية. ففي عام ١٨٤٥ اندلعت بين القائمقاميتين اضطرابات شبيهة بالحرب الأهلية. وهذا ما دعى الدول الكبرى الى محادثات مع الحكم العثماني، أقر على أثرها شكيب افندي،

وزير الخارجية التركي، نظاماً جديداً، يقضي بإنشاء مجلس استشاري لمساعدة الحاكمين. تشكل هذا المجلس من سني، وماروني، ودرزي، وارتوذكسي، وكاثوليكي. ونظراً لعدم اعتراف الباب العالي بالشريعة، اعتبر العضو السني في المجلس ممثلاً عنهم أيضاً. وقد كان "نظام شكيب افندي" نتائج هامة. فللمرة الأولى في تاريخ الجبل، أقيمت مؤسسة تتألف من ممثلين عن الطوائف الدينية.

انبط بالمجلسين حق اتخاذ القرارات المتعلقة بتحديد الضرائب وجبايتها. وقد شكل هذا الإجراء في "نظام شكيب افندي" ضربة قاسية على الأعيان الذين كانوا يتمسكون بنفوذ اكتسبوه بفضل جبايتهم الضرائب سابقاً. فالاكليروس الماروني، وقد كان بمعظمه من عائلات الفلاحين، ساند ترشيح اناس من عامة الشعب ضد الاعيان واصحاب الاملاك الكبيرة. وقد تدعم هذا الاتجاه بعد انتخاب المطران بولس مسعد، الذي لم يكن من احدى أسر الأعيان، بطريقاً على الموارد. وهكذا نشأت فئة قيادية سياسية جديدة نظمت طبقة الفلاحين وطالبت بتوزيع جديد لحصص المحاصيل الزراعية، وبالتالي بتغيير في ملكية الأراضي. وبالنتيجة حصلت عام ١٨٥٨ في القانمقامية الشمالية، خاصة في منطقة كسروان، انتفاضة مفتوحة ضد الاعيان والاقطاعيين واصحاب الملكيات الكبيرة. وقد تحولت الى ما يسمى فعلاً بثورة الفلاحين^{٢٧}. وسرعان ما تحققت بعض اهدافها. فطرد الحاكم، وخلع الاعيان من وظائفهم، وصودرت املاك، كما وزعت الاراضي على الفلاحين.

وفي عام ١٨٥٩ انتقلت ثورة الفلاحين الى القانمقامية الجنوبية، حيث انتفض الفلاحون الموارد والأجراء المياومين ضد الاعيان الدروز وكبار الملاكين. ولكن سرعان ما اخذت هذه الانتفاضة طابعاً آخر. في كسروان، كانت ثورة اجتماعية، حيث انتفض المورد ضد المورد. اما في المنطقة الجنوبية فقد نجح الاعيان الدروز في تحويل حركة الفلاحين واعطائها طابع حرب بين طائفتين دينيتين. فالفلاحون المورد سواء في كسروان او في الشوف جاؤوا كلهم من منطقة لبنان الشمالي. فلم يكن لهم اي ارتباط تقليدي بالاعيان. ولكن الفلاحين والمياومين الدروز كانوا يعيشون دون انقطاع في بيئة تقليدية تضم الملاكين الكبار والعشائريين. ففضلوا تحمل مختلف الأعباء برعاية اعيانهم، وذلك بحكم ارتباطهم الشعوري بهم؛ فلم يكن هؤلاء بالنسبة لهم اعياناً وملاكين كباراً فقط، بل وبنوع خاص شيوخاً

٢٧- راجع هنا: Malcolm H. KERR, Lebanon in the Last Years of Feudalism, 1840-1868, Beirut 1959;

(ترجمة مع تعليق على تقرير عن تلك الفترة الزمنية لأنطوان حكيم العقيقي ووثائق أخرى).

Yehoshua PORATH, The Peasant Revolt of 1858-61 in Kisrawan, In: Asian and African Studies

Journal, 2 (1966), p. 77-157; V. LUTSKY, Modern History of the Arab Countries, Moskau 1969, p. 126

139; Gustav-Adolf KRIENER, Geschichte der Evangelischen Gemeinde zu Beirut, Beirut 1958,

p. 15-20.

ورؤساء عشائر أيضاً^{٢٨}. وهكذا أخذت هذه الاعتبارات افضلية على المساواة في المصالح الاقتصادية التي نادى بها الفلاحون الموارنة. فالثورة الاجتماعية التي بدأت واخذت في الجنوب طابع حرب بين الموارنة والدروز، تحولت الى حرب أهلية عامة ذات طابع ديني. ساند السنة والشيعية فئة الدروز، بينما وقفت طائفتا الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس الى جانب الموارنة. حصلت معارك عديدة ليس في الجبل فحسب، بل في البقاع وجنوب البلاد ايضاً. في شمال الجبل تمكنت ثورة الفلاحين المسيحيين من تحقيق اهدافها. ولكن في الجنوب والبقاع انتصر الدروز بدعم من القوات العثمانية. وبالنتيجة تعرض المسيحيون الى مذابح دموية^{٢٩}. كذلك انتقلت شرارة الحرب الدينية ايضاً الى دمشق. فالمسلمون هناك الذين استاءوا جداً من قرار ابراهيم باشا القاضي بمساواة المسيحيين بالمسلمين، والذي وافقت عليه الحكومة العثمانية عام ٢٠١٨٥٦، ومن تفوق المسيحيين في المجال الاقتصادي، احرقوا الحي المسيحي في المدينة، وقتلوا الآلاف من سكانه. هذه الأحداث دفعت بفرنسا الى التدخل، بعد موافقة بريطانيا، وبروسيا، والنمسا، وإيطاليا^{٣٠}. وبفضل تدخل القوات الفرنسية، جرى انقاذ المسيحيين الذين نجوا من المذابح. فاحداث عام ١٨٦٠ تركت أهم أثر مؤلم في الحياة الاجتماعية والسياسية في لبنان. فقد صبغ الحذر والخوف والحدق المواقف المتبادلة. اما الخوف بنوع خاص من تكرار تلك الاحداث، فدفع بالطوائف المسيحية الى البحث عن الحماية لدى الدول الاوروبية.

وفي عام ١٨٦١، توصل ممثلو هذه الدول في مفاوضاتهم مع الباب العالي الى اقرار نظام سياسي جديد، يقوم على انشاء اقليم عثماني مستقل في "لبنان الصغير"^{٣١}،

٢٨- "... كان الأعيان يديرون دائماً شؤون الدروز؛ بينما كان يمارس هذه المهمة لدى المسيحيين الممثلون المنتخبون، بتشجيع من ميادئ المساواة..."، حسب ما ذكر بطرس ليكي:

Boutros LABAKI, Rapports de force intercommunautaires et genèse des conflits internes au Liban. Beitrag zum Kongreß des European Consortium for Political Research, Freiburg im Breisgau 1983, p. 10.

٢٩- Samir KHALAF, Persistence and Change in the 19th Century Lebanon, op. cit, p. 64 ff.

٣٠- كتب كارل ماكس الممتعض من هذا التحول الذي اخذته تلك الثورة الاجتماعية: "هل تخلت أوروبا عن امتياز حماية اخوتها في الإيمان؟ لقد تخلت عن ذلك لانها كانت تعتمد على تطبيق "حتى هومايون" الصادر في ١٨ شباط، لأنها اعتقدت بان الإصلاحات التي وعد بها والإصلاحات التي نفذت هي ذاتها... هذه الانتفاضة كان لا بدّ منها، عندما نعلم بان وضع المسيحيين لم يتحسن، بل بالعكس زاد سوءاً" (١٩٦٠/٨/٢٥)

٣١- Karl MARX und Friedrich ENGELS, Werke, Bd. 15, Berlin 1961, p. 148 f.

٣١- Selim BAZ (Ed.), Pièces diplomatiques relatives aux événements de 1960 au Liban, Beyrouth 1978.

٣٢- حول الأمور التالية يراجع:

Samir KHALAF, Persistence and change in the 19th Century Lebanon, op. cit. p. 83-121;

يضم الجبل والمنطقة الساحلية الواقعة في شمال وجنوب مدينة بيروت، ولكن دون هذه المدينة. وقد اخذت الدول الكبرى على عاتقها ضمان هذه المنطقة. فنقرر تعيين حاكم مسيحي غير لبناني على "لبنان الصغير"، وانشاء مجلس ممثلين يتألف من ممثلين عن كل الطوائف. في البداية، كان هذا التمثيل متساوياً بقطع النظر عن نسبة عددها^{٣٣}. ولكن في عام ١٨٦٤ أصبح تمثيلاً نسبياً. وهكذا عرف هذا النظام تغييراً أساسياً. فترك جانباً عدد الطوائف، وبالتالي جرى التخلي مبدئياً عن المساواة في دورها السياسي، وأخذ بالاعتبار عدد الأفراد. فالنظام التمثيلي أخذ يستند الى معايير ديمغرافية، الامر الذي اعطى هذا التغيير لاحقاً بعداً سياسياً هاماً جداً.

في تلك الفترة جرى تشريع لانجازات الثورة الاجتماعية، وألغيت امتيازات أسر الأعيان. وانيط بادرار الضرائب مهمة دفع رواتب موظفي الحاكم. وقام مجلس الممثلين بتحديد حجم الضرائب. وكانت الموازنة المقررة تؤدي غالباً الى خلافات مع الحاكم. وهذا ما دفع الى نشوء تقليد برلماني ديمقراطي قوي. وكنتيجة لعمل الحكام اصحاب القدرات، كان بالإمكان بناء ادارة فاعلة وقادرة ايضاً. هذا ما سمح باعتبار لبنان الصغير، حتى الحرب العالمية الأولى، احد اقاليم الامبراطورية العثمانية الأفضل ادارة وتنظيماً.

في الواقع، انفتح هذا البلد أكثر من السابق على التأثير الثقافي الغربي. تأسست فيه عدة مدارس أجنبية. وقد تحولت بسرعة جامعتان - الجامعة الاميريكية البروتستانتية في بيروت وجامعة القديس يوسف لليسوعيين - الى مؤسستين رائدتين للتعليم العالي في الشرق الأوسط^{٣٤}. ففضل الحريات المدنية تحول لبنان الصغير الى مركز يجتذب إليه الكتاب والادباء من المنطقة كلها. فحركة "النهضة"، اي حركة انبعاث اللغة العربية وآدابها، انطلقت من بيروت ومن لبنان الصغير^{٣٥} حيث نشأت تيارات تمثل الافكار الجمهورية الليبرالية والعلمانية التي تتنافى مع نظام دولة

والدراسة الأكثر المأماً بهذه المرحلة نشرها "سبانولو":

John P. SPAGNOLO, France and Ottoman Lebanon, 1861-1914, London 1977.

٣٣- "اربعة موارنة، ثلاثة دروز، اثنان من الروم الارثوذكس، وواحد من الروم الكاثوليك، وواحد من السنة، وواحد من الشيعة. وقد علق على ذلك "جون ب سبانولو" في كتابه المذكور ص ٨٩-٩٠: "النتيجة النهائية... كانت نظاماً دستورياً ذا أهمية أساسية وطد الحياة السياسية في جبل لبنان خلال العقود الزمنية التالية. فضمنت الحفاظ على امكانية العيش السياسي لكل فئة، بقطع النظر عن عددها، جرى دمجها مع الاعتراف بتسلسل الأهمية بالاستناد الى القوة العددية والاقتصادية والاجتماعية لكل منها".

John P. SPAGNOLO, Constitutional change in Mount Lebanon: 1861-1864, in: Middle Eastern Studies, 7 (1971)1, p. 25-48.

Theodor HANF, Erziehungswesen in Gesellschaft und Politik des Libanon, op. cit, p. 66 ff. ٣٤-

Albert HOURANI, Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939, London 1962; Carl ٣٥-

BROCKELMANN, Geschichte der arabischen Literatur, Leiden 1942, p. 420.

العثمانيين التعددية والنيوقراطية، رغم كل الاصلاحات المحدثة. فنشأت هكذا القومية اللبنانية، الى جانب قومية سورية وأخرى عربية^{٣٦}.

اما التطور الاقتصادي والاجتماعي في لبنان الصغير فقد أخذ اتجاهًا أقلّ ايجابية. فقد اسهمت الثورة الاجتماعية وما نتج عنها من تشريعات في بروز طبقة ريفية صغيرة، ولكنها كانت حرة في قسم من الجبل. وهذا ما شكّل ظاهرة فريدة من نوعها في الشرق الأوسط بأسره. الا ان تزايد عدد السكان باطراد، نظراً الى تطور التعليم وتحسين الأوضاع الصحية، أدّى الى تضائل الاراضي الزراعية. فارتفع عدد الفلاحين الذين اضطروا بغية تأمين عيشهم، الى تحويل انتاجهم اكثر فأكثر نحو التصدير. فتربية دود القزّ لانتاج الحرير الخام اصبحت الزراعة الوحيدة التي استقطبت نصف اليد العاملة. وقد بلغ معدل انتاجها اكثر من ٦٠٪ من مجموع الانتاج الزراعي. ولكن هيمنة رأس المال الفرنسي في هذا القطاع كان لها تأثير واسع على طريقة استثمار الانتاج. كان يصنع منه محلياً ١٥٪ فقط، والباقي كان يصدر كمواد أولية او كمواد نصف مصنعة^{٣٧}. آنذاك لم تبرز الحاجة الى بناء مصانع محلية بسبب الرسوم الجمركية الضعيفة وامتيازات الاستيراد، التي فرضتها الدول الأوروبية على الامبراطورية العثمانية ذات الديون المرتفعة. ولكن في الثمانينات من القرن التاسع عشر انخفضت اسعار المواد الأولية للحرير في السوق العالمية، بسبب الزيادة المرتفعة في الانتاج الياباني^{٣٨}. وهذا ما أدّى في لبنان الى ركود اقتصادي مزمن ذي نتائج وخيمة، كان اخطرها الهجرة المتزايدة لعائلات الفلاحين. فبين ١٨٦١ و ١٩١٤ بلغ تقدير الذين هاجروا اكثر من ثلث سكان لبنان الصغير^{٣٩}. وهكذا جرى تخفيف من اعباء نتائج الازمة الاقتصادية، خاصة ان المهاجرين كانوا يسهمون كثيراً في اعالة أسرهم التي بقيت في البلاد. ولكن الجانب السلبي لهذه الهجرة كان ايضا بالغ الأهمية. فالى جانب الفلاحين الذين افقرّوا بسبب الازمة الاقتصادية وسلّكوا طريق الهجرة، غادر البلاد ايضاً عدد كبير من الفعاليات المؤهلة، خاصة الأطباء والمهندسون، والتجار، والصحافيون. توجّهت "هجرة الادمغة" هذه بنوع خاص الى مصر. ويعود الفضل الكبير في تحديث هذا البلد

George ANTONIUS, The Arab Awakening, New York 1946. -٣٦

Boutros LABAKI, Introduction à l'histoire économique du Liban. Soie et commerce extérieur en fin de période ottomane (1840-1914), Beyrouth 1984. -٣٧

Paul SABA, The Creation of the Lebanese Economy-Economic growth in the nineteenth and early twentieth centuries, in: Roger OWEN (Ed.), Essays on the Crisis in Lebanon, London 1976, p. 1-22. -٣٨

Elie SAFA, L'émigration libanaise, Beyrouth 1960; Rlad YOUNES, Die libanesische internationale Migrationsbewegung. Eine Literaturstudie, Freiburg 1976. -٣٩

المضيف الى الخدمات التي قدّمها له هؤلاء المهاجرون ذوو الكفاءات العالية^{٤٠}.

ورغم الانحسار الاقتصادي، حصل في ذلك الوقت في لبنان الصغير تقدم اقتصادي جدير بالاهتمام. فقد جرى تحسين البنية التحتية، خاصة بناء الطرق وإنشاء خط سكك الحديد بين بيروت ودمشق، وكذلك توسيع وتحديث مرفأ بيروت. في ظل أنظمة مختلفة، نمت بيروت ومعها لبنان الصغير في ارتباط وثيق اقتصادياً واجتماعياً، الامر الذي جعل من بيروت عاصمة الأمر الواقع^{٤١}. ازداد عدد سكانها بسرعة، خاصة بسبب هجرة اللاجئين المسيحيين من الشوف، وعلى أثر أحداث ١٨٦٠، من الشام أيضاً. فبينما بلغ عدد سكان بيروت في مطلع القرن التاسع ٦٠٠٠ نسمة، وعام ١٨٦١ حوالي ٤٦٠٠٠، ارتفع هذا العدد عام ١٩١٤ الى ٢٠٠،٠٠٠ تقريباً. في تلك الاثناء عرفت المدينة بنية تحتية حديثة، مثل تأمين مياه الشفة، والاضاءة بواسطة الكاز، والترامواي، وخدمات البريد والبرق. كذلك انشئت فيها مستشفيات عديدة ومدارس، ومطابع ودور نشر. وتجدر الإشارة الى ان المدينة تحولت أيضاً الى مركز لعدد كبير من المؤسسات الصناعية والتجارية. وبمعكس الحال التي كانت سائدة في مدن الشرق الأوسط الأخرى، لم تكن هذه المؤسسات ملكاً للأجانب، بل للسكان المحليين. ونظراً لارتفاع معدل الربح^{٤٢}، نشأت طبقة ميسورة من ارباب العمل، كانوا بمعظمهم من المسيحيين^{٤٣}، خاصة من الروم الارثوذكس ومن الروم الكاثوليك. وللمرة الأولى أخذت العلاقات بين الطوائف الدينية تتميز بطابع الفروقات الاجتماعية، دون بروز فروقات تذكر في الاوضاع الحياتية بين الفلاحين والعمال^{٤٤}، الى اية طائفة انتموا. فالمميزات الاجتماعية برزت بالتالي بسرعة عبر تقليد طبقة ارباب العمل للملابس ولنوعية الحياة الأوروبية. وهذا ما لحقت به فوراً طبقة الموظفين والتجار الصغار. ولم تلبث أيضاً البورجوازية المسلمة في بيروت ان لحقت بهذا الركب، وان بنوع من الحذر والدراية.

٤٠ - فيليب حّي، المرجع المذكور، ص ٤٧٤

٤١ - Leila Tarazi FAWAS, Merchants and Migrants in Nineteenth-Century Beirut, Cambridge & London 1983.

٤٢ - Boutros LABAKI, Introduction à l'histoire économique du Liban, op. cit., p. 371,

احتسب ليكي زيادة القيمة في صناعة الحرير التي بلغت ٣٧٪ لصالح التجار.

٤٣ - Boutros LABAKI, Rapports de force intercommunautaires et genèse des conflits internes au Liban, op. cit., p. 14.

يشير الكاتب الى ان المسيحيين كانوا اكثر تمثيلاً، بالنسبة لعددهم، بين اصحاب المصارف، ومصدري الحرير والتجار. كما كان معظم الأطباء والصيادلة من المسيحيين.

٤٤ - كانت الطبقة العمالية تتألف من اكثر من ٨٠ ٪ من المسيحيين (١٩١٢)، واكثرية منهم من الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك. كما كانوا يلعبون دوراً رئيسياً فاعلاً في مختلف القطاعات الاقتصادية الحديثة وعلى كل المستويات الاجتماعية.

في تلك الفترة، حصلت مناقشات ثقافية تمكنت من لعب دور الى جانب التباينات الاجتماعية. فقد أشارت بعض التقارير عن الاوضاع في بيروت في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الى وجود عدد من العصابات، والى أحداث أدت الى تقاتل بين المسيحيين والمسلمين. ولكن عكس ما كان يحدث سابقاً، كان المواطنون خاصة القياديون من الفريقين يبذلون جهوداً حثيثة لتحاسي الانزلاق في متاهات تؤدي الى أحداث عدائية دامية.

اما الحرب العالمية الأولى فقد أدت الى سقوط الامبراطورية العثمانية، وبالنتيجة الى انشاء الجمهورية اللبنانية في حدودها الحالية^{٤٥}. ولكن رحيل العثمانيين رافقه زرع الرعب في قلوب اللبنانيين. في عام ١٩١٤ الغي الحكم الذاتي في الجبل وبيروت، واعلنت الأحكام العرفية، واخضع البلد بكامله لسلطة الحاكم العسكري. وكانت سنوات الحرب سنوات جوع وقهر للبنانيين. فالدوات الفكرية والجمعيات السياسية في بيروت والجبل التي بدأت قبل اندلاع الحرب تبحث وتناقش مخططات مختلفة لمستقبل الشرق العربي، القي القبض على روادها ونكل بهم، كما اعدم شتقاً أهم اعضاء تلك الجمعيات عام ١٩١٥ و١٩١٦^{٤٦}. ولكن بعد دخول القوات الفرنسية عام ١٩١٩ تكثفت هذه المناقشات^{٤٧}. وتركز البحث على ثلاثة مواضيع، هي: الوحدة العربية، الدولة السورية، واستقلال لبنان. فالوحدة العربية في إطار مملكة يرأسها الامير فيصل بدت ممكنة التحقيق، بعدما تمكن هذا الأمير من الدخول الى دمشق. وقد أيدت ذلك القوى السياسية الاسلامية، وكذلك بعض الاعيان من الروم الارثوذكس. اما سوريا الكبرى فقد طالب بها بعض المفكرين من ذوي الاتجاه العلماني^{٤٨}، الذين كانوا يعتبرون ان سوريا الكبرى تضم اراضي دولة سوريا الحالية ولبنان وفلسطين، وليس الحجاز. ولكنهم رفضوا سلطة الأمير فيصل، لأن السوريين

٤٥- عن هذه المرحلة، راجع: Stephen H. LONGRIGG, Syria and Lebanon under French Mandate, London 1958; Eugénie E. ABOUCHIDID, Thirty Years of Lebanon and Syria (1917-1947), Beirut 1948; Albert HOURANI, Syria and Lebanon. A political essay, 3d ed., London 1954; Nicola Abdo ZIADEH, Syria and Lebanon, Beirut 1968; Walter Z. LAQUEUR, Communism and Nationalism in the Middle East, London 1956.

٤٦- Nagib DAHDAH, Evolution historique du Liban, 3. ed., Beyrouth 1967, p. 225 ff.

٤٧- Meir ZAMIR, The Formation of Modern Lebanon, London u.a. 1985. p.38 ff.

٤٨- أهم ممثلي هذا التيار هم شكري غانم و جورج سمنه. وقد تأثرا كثيراً بكتابات الراهب اليسوعي البلجيكي "هنري لامنس". راجع: George SAMNE, La Syrie, Paris 1920. وقد كتب شكري غانم مقدمة لهذا الكتاب.

Henri LAMMENS, L'évolution historique de la nationalité syrienne Alexandrie 1919. وجدت فكرة سوريا الكبرى وقعاً قوياً جداً لدى المثقفين القيايين من الجاليين اللبنانية والسورية في مصر.

المتفقين رفضوا حكم البدو. فنظراً إلى طابعه العلماني، وجد هذا الاتجاه تأييداً لدى الاقليات من مختلف الطوائف. اما فكرة استقلال لبنان فقد وجدت دعماً فاعلاً من قبل اعضاء مجلس المستشارين في لبنان الصغير من جهة، ولدى السلطة الروحية المارونية من جهة أخرى. فقد اعتبر ذلك تأييداً من قبل القوى السياسية التي كانت منظمة جيداً في السابق. ولكن برزت بين القوميين اللبنانيين مدرستان. الأولى ارادت في الواقع العودة الى لبنان الصغير كدولة مستقلة، بعد ضم مدينة بيروت إليه. اما الثانية فاستهدفت بالمقابل "لبنان الكبير" المؤلف من المناطق التي ضمها الى إمارته كل من الاميرين فخر الدين وبشير الثاني، واعتبرت هذه الحدود "تاريخية"، اي دولة لا تضم بيروت والجبل فحسب، بل أيضاً طرابلس وسهل عكار شمالاً، وسهل البقاع شرقاً، وجبل عامل جنوباً^{٤٩}. المدرسة الأولى شددت على ان دولة صغيرة، ذات اكثرية مسيحية واسعة، تستطيع خدمة مصالح المسيحيين بصورة افضل، بينما اعتقدت المدرسة الثانية، بان المسيحيين - وخاصة الموارنة - هم في وضع قوي كافٍ يسمح لهم بممارسة تأثيرهم. فقد أخذت هذه المدرسة تروج رؤيتها لدى الموارنة، ومن ثم لدى الحكومة الفرنسية التي كانت تتأرجح في البداية بين الصيغتين. ونظراً لرفض فرنسا القاطع اقامة مملكة للأمير فيصل من جهة، ونظراً من جهة ثانية لبروز اكثرية مارونية، وقد كانت "الجماعة الوحيدة التي عرفت بدقة ماذا تريد"^{٥٠}، فقد حصلت تعبئة قوية في هذا الاتجاه^{٥١}. وبعد تفويض فرنسا كدولة مندوبة على سوريا ولبنان من قبل جمعية الأمم، اعلن الجنرال غورو في اول ايلول عام ١٩٢٠ انشاء دولة "لبنان الكبير".

فضل القوميون اللبنانيون نيل الاستقلال، وذلك بقبول وضع لبنان الكبير تحت الانتداب أولاً، مع وعد بتحقيق الاستقلال التام^{٥٢} لاحقاً. فضلوا ذلك بدلاً من عدم

٤٩- بدأت فكرة "لبنان الكبير" تنتشر بقوة منذ مطلع هذا القرن بين المفكرين اللبنانيين في باريس، ونيويورك، والقاهرة. وقد تشكلت بلوغ خاص خلال سنوات الحرب قوى ضاغطة على الحكومات في تلك الدول.

٥٠- كمال صليبي، المرجع المذكور، ص ٢٥

٥١- انطلقت المبادرة عندما قامت بعثة من رجال الدين المسيحيين برئاسة البطريرك الياس الحويك بالسفر الى مؤتمر السلام في باريس، حيث فاض الحويك أيضاً باسم المجلس التمثيلي.

٥٢- المادة ٢٢ من شريعة عصبة الأمم ميزت بين ثلاثة انواع من أشكال الانتداب.

الانتداب C (الذي طبق على جنوب غرب افريقيا وبعض مناطق الباسيفيك الجنوبية)، يعطي الدول المنتدبة حق ادارة هذه المناطق كجزء من اراضيها.

والانتداب B (الذي طبق على توغو، و"الكاميرون" وافريقيا الشرقية الالمانية سابقاً)، يعطي الدول المنتدبة حق ادارة هذه المناطق مثل المستعمرات، ولكن تحت اشراف عصبة الأمم. اما الانتداب A فقد لاحظ للدول التي كانت تابعة سابقاً للامبراطورية العثمانية التي "بلغت مستوى من التنمية يسمح بالاعتراف بها مؤقتاً، كأهم مستقلة، ولكنها ما زالت بحاجة الى مساعدة ادارية من قبل قوة انتداب كي تتمكن من ادارة شؤونها بنفسها".

تحقيق انشاء دولة لبنان الكبير اطلاقاً. بالنسبة لهم، وبالأخص بالنسبة للموارنة، كان تأسيس هذه الدولة ختاماً لتاريخهم الطويل في البحث عن الحرية والاستقلال. لم يرحّب كثيراً بالانتداب الفرنسي، ولكن قبل به نظراً للهدف الكبير الذي يمكن تحقيقه من خلاله.

بالنسبة لأكثرية المسلمين اللبنانيين شكّل لهم هذا الأمر، أي ضمهم الى الدولة الجديدة ووضعهم تحت سلطة الانتداب الفرنسي، "صدمة حقيقية"^{٥٣}. فالدولة الاسلامية الكبيرة والأخيرة انهارت تحت ضربات الدول الأوروبية، بعد ان اضعفتها خلال القرون الماضية، وجعلتها مرتبطة بها اقتصادياً، "واشتركت في حكمها" مراراً. وكمسلمين عرب لم يشعروا ابداً بالارتياح الى سيطرة الأتراك في بلادهم. كانوا يفضلون قيام دولة عثمانية فدرالية، او بالأحرى قيام دولة اسلامية عربية جديدة، او كأقلية قيام دولة كبيرة علمانية للعرب، او على الأقل للسوريين العرب. ولكن لم يرغبوا اطلاقاً، بقيام دولة لبنانية، يتحولون فيها، لأول مرة في تاريخهم، ليس الى شعب الدولة فحسب، بل، وفي أسوأ الاحوال، الى أقلية، وفي افضل الاحوال، الى أقلية بين اقلّيات. فدخولهم تحت سلطة الانتداب الفرنسي كان يعني بالنسبة لهم، اضافة الى فقدان النفوذ والسلطة، إهانة كبيرة لشعورهم بالأهمية الذاتية.

لقد اظهروا مقاومة في البداية، اذ قاموا باعتداءات متواصلة خاصة على القرى المسيحية في جنوب لبنان. ولم تتوقف الا بعد وصول القوات الفرنسية^{٥٤}. ولكن المقاومة المدنية^{٥٥} دامت مدة اطول، اذ رفض عدد كبير من المسلمين تسجيل اشارة "لبناني" على اوراقهم الشخصية الثبوتية. قاطعوا ايضاً عملية التعداد السكاني الذي حصل عام ١٩٢١، والانتخابات عام ١٩٢١ و ١٩٢٥، التي نظمت لاختيار مجلس لبناني جديد للشورى. فاعيانهم، وفي مقدمتهم رجال الدين والقضاة والمختير وكبار الملاكين عقدوا مؤتمرات في عام ١٩٢٣ و ١٩٢٦ و ١٩٢٨ و ١٩٣٦، طالبوا خلالها بحق الاختيار الذاتي بالانضمام الى سوريا. كذلك امتنع خريجو المدارس والجامعات المسلمون عن الالتحاق بنظام الموظفين الحكومي، كي لا يتحولوا الى متعاونين مع العدو.

اتّسمت الدولة الجديدة منذ البداية بتناقضات عميقة حول شرعيتها. بالإضافة الى

٥٣- Salim NASR, L'Islam politique et l'Etat libanais (1920-1975), In: Olivier CARRE (Ed.), L'Islam et l'Etat dans le monde d'aujourd'hui, Paris 1982, p. 33.

٥٤- انها ذات القرى التي شكلت منذ عام ١٩٧٨ نواة لميليشيات الرائد سعد حدّاد المتعاون مع إسرائيل، وبعده العماد انطوان لحد.

٥٥- راجع هنا سليم نصر، المرجع المذكور، ص ٣٤-٣٥

ذلك كانت التناقضات الاقتصادية والاجتماعية كبيرة بين المناطق التي كانت سابقاً تشكل لبنان الصغير، والمناطق التي ضمت اليه من جديد. فبيروت كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجبل الذي يحيط بها. ولكن طرابلس وصيدا، وفيهما مرفأان، كانا يرتبطان اقتصادياً بمنطقة خلفية سورية، شعرتا باضعاف دورهما. وكذلك فصل سكان البقاع عن الشام وسكان جنوب لبنان عن حيفا. في لبنان الصغير، وخاصة في المناطق ذات الاكثريّة المسيحية، كانت تقوم طبقة من المزارعين والفلاحين المستقلين، بينما في المناطق الشرقية والجنوبية كانت تعيش طبقة من الأجراء المزارعين المرتبطين مباشرة بكبار ملاكي الاراضي الزراعية. وتجدر ايضاً الإشارة الى انه منذ عام ١٨٦١ اسهم نظام التربية والتعليم في تحقيق تقدم كبير في منطقة لبنان الصغير. بينما بقي نظام التعليم في الشمال والشرق والجنوب، اي في المناطق التي كانت خاضعة مباشرة للحكم العثماني، في حالة يرثى لها حتى عام ١٩٢٠. فالمؤسسات الصناعية كانت عملياً متوفرة فقط في بيروت والمنطقة الوسطى من الجبل، كما كانت حالة الاتصالات والبنية التحتية متقدمة ومتطورة في لبنان الصغير بالمقارنة مع المناطق التي ضمت اليه. وبالاختصار، كانت الدولة الجديدة من حيث الوضع الاجتماعي والاقتصادي نموذجاً كلاسيكياً بين وسط البلاد والمناطق النائية الحدودية.

فالمسيحيون، وخاصة الموارنة، ارادوا لبنان الكبير. ولكن منذ انشائه، طرح التساؤل حول امكانياتهم لإعطائه الشكل الذي يريدون. في لبنان الصغير كانوا يشكلون ٨٥٪ من مجموع السكان، والموارنة، أكثر من ٦٠٪. حتى مدينة بيروت كانت تضم اكثريّة مسيحية تتجاوز ثلثي عدد سكانها. ولكن بما ان المسلمين كانوا يشكلون في المناطق الجديدة حوالي ثلثي السكان، فلم يعد المسيحيون يشكلون في لبنان الكبير الا اكثريّة ضئيلة فقط، وذلك بفضل هجرة الأرمن من قيليقيا الى لبنان في مطلع العشرينات. وبينما كان لبنان الصغير يضم مسيحيين ودروزا تعايشوا مدة طويلة من الزمن سوية، رغم الاحداث المريعة التي عرفها تاريخهما، فان لبنان الكبير جلب معه مشكلة تنظيم تعايش مناطق ذات تطوّر تاريخي متباين تعيش فيها مجموعتان دينيتان متساويتان تقريباً، بالإضافة الى عدد كبير من الطوائف الدينية المتفرقة، والتي لا تستطيع اطلاقاً تأليف أية أكثرية.

نظراً لتعقيد هذه الانطلاقة في البداية، تجدر الإشارة الى روعة التفاوض والثقة

٥٦ - عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى كان يوجد في المناطق الواقعة تحت السيطرة العثمانية والتي أصبحت لاحقاً مناطق لبنانية، ١٢٥ مدرسة ابتدائية وثلاث مدارس ثانوية فقط. ولم تكن لغة التعليم فيها العربية بل التركية. كان يرتادها بصورة رئيسية اولاد الموظفين والعسكريين الاتراك واقلية من التلامذة اولاد الطبقة السنيّة العليا التي كانت تقطن في المدن وذات الاتجاه والميول التركية القوية. راجع

Theodor HANF, Erziehungswesen in Gesellschaft und Politik des Libanon, op. cit. p. 72.

بالنفس التي دفعت بالقيادات المسيحية الى بناء الدولة الجديدة. يعود ذلك الى الثقة وعملية التطور الديناميكية التي حولت لبنان الصغير الى نموذج يحتذى به في الشرق من جهة. ومن جهة ثانية، كان الأمل كبيراً بمساعدة سلطة الانتداب الفرنسية^{٥٧}. في الواقع كان المسيحيون اللبنانيون حتى قبل الانتداب منفتحين على الثقافة الأوروبية وبنوع خاص على الثقافة الفرنسية. فاللغة الفرنسية كانت قد اصبحت والى حد بعيد لغتهم الاجنبية الأولى. وقد سعت عائلات كثيرة الى اتقان اللغتين الغربية والفرنسية. ولم يضعف ذلك اطلاقاً مهمة الثقافة الشرقية، بل العكس. فعدد من رواد النهضة الادبية العربية في القرن التاسع عشر كانوا يجيدون اللغتين^{٥٨}، وينظرون الى العلاقة مع أوروبا كحافز يدعم الثقافة الذاتية، وليس كتهديد كما كان يعتقد عدد غير من المسلمين. "وبما ان الغرب مسيحي لم يعتبر المسيحيون اللبنانيون الغرب غريباً عنهم. في الواقع كانوا يشعرون بنوع من التشابه والتماثل معه. كانوا يميلون الى اعتبار ثقافة أوروبا كتقافتهم الخاصة. كانوا يتماثلون بالغرب بعفوية، دون الحاجة الى الاعتذار"^{٥٩}. لم يشكل التحديث بنظرهم اية صدمة، بل تقدماً. فقبول فكرة المساواة الجمهورية كانت فاعلة في نشوء ثورة الفلاحين وفي القضاء على الامتيازات التقليدية. تاريخ لبنان الصغير أشار الى ان الحريات المدنية تستطيع ان تؤدي الى حياة افضل. فاحداث القرن التاسع عشر، وارتباطها بقوة الغرب السياسية لم تشكل لهم اي تهديد بل اعتبروها ضماناً لأمنهم.

وبالرغم من رغبة القادة المسيحيين في لبنان عام ١٩٢٠ بالحصول حلاً على الاستقلال التام، الا انهم قبلوا بتشكر وامتنان مساعدة القوة المنتدبة في بناء دولتهم الجديدة. في الوقت نفسه، كانوا يدركون تماماً ضرورة الحفاظ على خصوصيات بلادهم ومؤسساته تجاه الحكام والموظفين الفرنسيين غير المدركين والملمين كفاية بوقائع وحساسيات المجتمعات الشرقية. فقد تم الترحيب بإقامة جهاز حكومي واداري حديث وتنظيم شؤون العدل وفقاً للنموذج الفرنسي، وكذلك انشاء نظام تربوي حكومي، ووضع مناهج تعليمية، وقرار امتحانات رسمية تخضع لها كل المؤسسات التعليمية، بما فيها المدارس الخاصة التابعة للطوائف الدينية. اما فيما يتعلق بالحقوق الأساسية للطوائف، التي اكتسبت على مر القرون، فلم يشأ السياسيون اللبنانيون مسها اطلاقاً، بعكس التصورات اليعقوبية التي كان يطلقها عدد كبير من الاداريين في جهاز الانتداب الفرنسي. وهكذا نجح القادة اللبنانيون خلال المفاوضات المتعلقة

٥٧- راجع Daniel LERNER, The Passing of Traditional Society. Modernizing the Middle East, Glencoe 1958, p. 170 ff.

٥٨- Carl BROCKELMANN, op. cit. p. 420.

٥٩- Kamal S. SALIBI, The Personality of Lebanon in Relation to the Modern World, In: Leonard BINDER (ed.), op. cit., p. 263ff.

بمهام الانتداب في الحفاظ على هذه الحقوق^{٦٠}. وهذا ما أدّى بالتالي الى المساواة بين كل الطوائف. فالشيعة الذين كانوا يعاملون في العهد العثماني كسُنة، تم الاعتراف بهم عام ١٩٢٦ كطائفة مستقلة^{٦١}.

ان أهم القرارات الدستورية السياسية التي اتخذت في عهد الانتداب تميّزت بطابع التسوية بين المفاهيم اليعقوبية لدولة مركزية من جهة، وبين الاعتراف بواقع سياسي لعدد من التجمعات المستقلة والتمايز من جهة أخرى. فأول قرار اتخذ عام ١٩٢٢ كان بشأن نظام الاقتراع لمجلس الممثلين، اي المجلس النيابي فيما بعد. جاء في قانون الانتخاب آنذاك ان كل نائب يمثل الأمة كلها. وقد حدّد أيضاً في هذا القانون توزيع مقاعد النواب بالتساوي وفقاً لحجم كل طائفة^{٦٢}. ونظراً لتكوين كل دائرة انتخابية، جرى تخصيص مقاعد لمختلف الطوائف. إلا ان النواب يُنتخبون من كل المواطنين بقطع النظر عن انتمائهم الطائفي. فمجلس الممثلين، الذي قام في الوقت نفسه بدور مجلس كلف بوضع دستور للبلاد، قرر بصراحة تامة الاحتفاظ بقانون الانتخاب هذا، كما برّر الأسباب الموجبة في بيان صدر عنه، مشيراً الى ان التخلي عن التمثيل النسبي للطوائف سيعرض التوازن في البلاد للخطر، وسيثير فئة ضد أخرى. وهذا ما سيؤدي الى بروز العداوات والاضطرابات. فلابدّ اذا لمجلس النواب ان يعكس صورة البلد الذي يتألف سكانه من طوائف ذات معتقدات دينية وعادات وتقاليد معيّنة، علماً ان هذه الطوائف تلعب في لبنان وما زالت دور الاحزاب السياسية^{٦٣}. سيجري الحديث لاحقاً عن نتائج هذه الصيغة الاقتراعية.

اما القرار الثاني المهم، فكان إقرار دستور للجمهورية اللبنانية، بقي حتى عام ١٩٩٠ ساري المفعول، رغم بعض التعديلات. تشابه هذا الدستور بكثير من

٦٠- المادة السادسة من شرعة الانتداب: "على الدولة المنتدبة ان تقيم... نظاماً قضائياً يؤمن للسكان الأصليين كما للأجانب الضمانة الكاملة لحقوقهم. واحترام نظام الأحوال الشخصية لمختلف الشعوب ومصالحها الدينية ينبغي تأمليه كاملاً". LeMandate for Syria and Lebanon, 24 July 1922, in: League of

Nations Official Journal, August 1922, p. 1013-1017.

٦١- Pierre RONDOT, Les Institutions politiques du Liban, op. cit., 66.

٦٢- راجع القرار رقم ١٣٠٧ بتاريخ العشر من آذار ١٩٢٢

"Il est établi un quotient électoral qui s'obtient en divisant le total de la population électorale par le nombre des membres du conseil administratif à élire. Dans chaque municipe et Sandjak un siège au moins est attribué à tout rite comportant le quotient électoral... Aucun rite ne peut avoir, pour l'ensemble des circonscriptions de l'Etat, ni plus ni moins de représentants que le nombre auquel lui donne le chiffre total de ses ressortissants dans l'Etat, divisé par le quotient électoral."

٦٣- تقرير اللجنة الدستورية برئاسة شبل دمّوس، ذكره Pierre RONDOT, Les Institutions politiques du Liban, op. cit., p. 80

توجهاته الرئيسية مع دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة^{٦٤}: أي جمهورية برلمانية تلحظ دوراً قوياً لرئيسها^{٦٥}.

في المادة الأولى حُدِّدَ لبنان كدولة موحدة - أي "جمهورية واحدة لا تتجزأ". كما تضمن هذا الدستور تحديداً دقيقاً واضحاً لحدود لبنان الجغرافية، مشدداً على عدم إمكانية فصل أي قسم عنه، وكان هذا فعل إيمان "بلبنان الكبير". ومع تحديد الدولة بمفاهيم متأثرة باليعقوبية وتركيز السلطة بيد رئيس الجمهورية، وُضعت في الدستور ضمانات لتأمين حقوق الطوائف. فالمادة التاسعة لم تضمن حرية الفكر وحق الحرية الدينية فحسب، بل قانون الأحوال الشخصية لكل طائفة أيضاً. وكذلك اعطيت المادة العاشرة الطوائف الحق في أن تكون لها مؤسساتها التربوية الخاصة، وإن يكن ذلك تحت إشراف الدولة.

يستنتج من قانون الانتخاب، ومن بعض مواد الدستور، بأن واضعيها أرادوا تثبيت لبنان الكبير بأي ثمن كان، كما شددوا بالتالي، داخل الدولة الجديدة، على احترام مصالح كل الطوائف. في هذا الإطار ومع تثبيت المؤسسات السياسية والإدارية بدأ يتراجع الرفض المطلق للدولة من قبل أقلية المسلمين، وأخذ القبول بالأمر الواقع يتنامى ويتزايد. فاعترف المسلمون بالمساواة التي لحقت بهم بسبب مقاطعتهم في الاشتراك في جهاز الخدمة العامة. وقد رأوا أيضاً أن سياسة الدولة تخدم مصالحهم. فالبنية التحتية والخدمات العامة في المناطق الجديدة أخذت تنمو وتتطور، وأحياناً كانت تعطى لهم أفضلية معينة^{٦٦}. وقد برز ذلك بوضوح كلي في قطاع التعليم. فالنظام التربوي الذي وُضع في عهد الانتداب جرى تخطيطه وفقاً لمعايير تعويضية. وقد جاء لصالح المناطق الجديدة التي كانت محرومة من وجود بنية تربوية سابقاً. وفي الواقع، جاءت المدارس الرسمية بغالبيتها وكأنها مدارس للمسلمين فقط.

وهناك عامل آخر أسهم في تغيير موقف المسلمين من الدولة اللبنانية، ألا وهو التغيير في موقف القوميين العرب في الدول الحديثة الأخرى في الشرق^{٦٧}. فهدف وحدة الدولة وُضع جانباً مقابل الوصول إلى انسحاب قوات الانتداب والحصول على الاستقلال الكامل. وفي سبيل تحقيق ذلك في لبنان، كان من الضروري الوصول إلى توافق مع القوى السياسية لدى الطوائف المسيحية.

وهكذا بدأ المسلمون اللبنانيون يستغلون الفرصة التي سمحت لهم بالاشتراك

٦٤- أشار بعض الكتبة إلى تشابه بين الدستورين المصري والبلجيكي آنذاك.

٦٥- حول هذا الموضوع سيجري التوقف أيضاً لاحقاً.

٦٦- راجع سليم نصر، المرجع المذكور، ص ٣٧

٦٧- ذات المرجع

الفعلي في تولي شؤون الدولة اللبنانية^{٦٨}. فاشتركوا في التعداد السكاني الذي حصل عام ١٩٣٢، والذي كشفت نتائجه بان المسيحيين لا يشكلون الا اكثرية ضئيلة جداً. وفي ذات السنة ترشح لأول مرة مسلم لمنصب رئاسة الجمهورية. ومنذ عام ١٩٣٤ اخذ المسلمون اللبنانيون يشاركون تماماً في السياسة. ومنذ ذلك الحين اعطي منصب رئاسة الوزراء الى سياسي من السنة. وقد تمّ التراجع عن مقاطعة الادارة الرسمية. وهذا ما دفع بالمسلمين الى تبوؤ المناصب الادارية العائدة اليهم وفقاً لمبدأ النسبة العددية لكل طائفة.

وفي الطوائف المسيحية حصل استقطاب حول اتجاهين سياسيين مختلفين. تنظم الاتجاه الأول ضمن إطار حزب "الحركة الوطنية" بزعامة أميل اده. كان هذا الحزب قد اخذ موقفاً متحفظاً من فكرة انشاء لبنان الكبير، لأنه كان يعتبر لبنان بالدرجة الأولى موطناً لمسيحيي الشرق. اما الاتجاه الثاني الذي تمثل في الحزب الدستوري بزعامة بشاره الخوري، فقد اراد ان يكسب مشاركة كاملة من قبل المسلمين في حكم الدولة الجديدة، وذلك بإقامة تحالف مسيحي-مسلم واسع على أسس قوية. فبينما كان حزب الكتلة الوطنية يتمنى اطالة عهد الانتداب الفرنسي، طالب الحزب الدستوري باعلان الاستقلال الكامل سريعاً. هذا كان موقف البورجوازية المسيحية والمسلمة في المدن التي اكتشفت بان مصالحها طابع مشترك كبير. فالتجار المسيحيون مثلهم مثل التجار المسلمين، تركز اهتمامهم على تعزيز اعمالهم التجارية مع محيطهم العربي، حتى مع الدول التي كانت تحت الانتداب البريطاني. وهذا ما كان يقاومه الانتداب الفرنسي. فكانوا في الواقع ومنذ وقت طويل يتعاونون سوية في ميدان التجارة، وهذا ما دفعهم ايضا الى التعاون السياسي.

في عام ١٩٣٦، عقد آخر مؤتمر اسلامي، جرى خلاله ايضاً المطالبة مرة أخرى بضم المناطق الحدودية الى سوريا. وفي ذات السنة حصل اتفاق بين انصار ثلاثة اتجاهات قومية كانت تنافس بعضها منذ القرن التاسع عشر، وانتظمت في تنظيمات مناضلة. فالقوميون اللبنانيون المناضلون شكلوا حزب الكتائب اللبنانية، وانصار القومية السورية شكلوا "الحزب القومي السوري"، وكذلك القوميون العرب المناضلون شكلوا حزب النجادة^{٦٩}. ولم تتمكن هذه المنظمات الثلاث من تعبئة عدد كبير من انصارها. فبينما كانوا يقومون بتدريبات شبه عسكرية وباستعراضات في الشوارع، مطالبين كل منهم باستقلال معين، ويشتبكون احياناً مع الجنود السانغاليين التابعين لسلطة الانتداب، بدأت في مساكن البورجوازية في بيروت مناقشات مكثفة

٦٨- راجع حول هذا الموضوع Najla ATIYAH, The Attitude of the Lebanese Sunnis Toward the State of Lebanon, Ph. D. Thesis, London University 1973

٦٩- حول هذه المنظمات برأى فيما بعد.

ومفاوضات بين الأعيان والنواب والزعماء من طائفتي السنة والموازنة، يدعمهم غالباً مصرفيون وتجار كبار ينتمون الى طائفتي الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك. وكان هؤلاء من ممثلي الطوائف والطبقات التي كانت لها مصلحة كبيرة في تعاون ناجح بين المسيحيين والمسلمين. وهنا دارت الامور حول "تسوية تاريخية" كبيرة لا أكثر ولا أقل، على حد قول سليم نصر^{٧٠}. اما أهم المتحدثين باسم هذا الاتجاه فكان رياض الصلح وبشاره الخوري، السياسيان الأكثر شعبية لدى السنة والموارنة. ومن الوسطاء والادمغة السياسية المخططة، برز بنوع خاص هنري فرعون، وميشال شبحا، وهما اصحاب مصارف، الأول من الروم الكاثوليك، والثاني من الكلدان. اما ميشال شبحا فكان منذ بداية العشرينات رائد مدرسة فكرية وصفها بطرس لبكي^{٧١} "بالكونفيغالية" اي "التعايشية"، لكونها استهدفت تعايش فئات مختلفة متنوعة او نشوء نوع من القومية اللبنانية التوفيقية.

ميشال شبحا^{٧٢}، احد رواد الدستور، رأى مصير لبنان مرتبطاً بشعبه كما يرتبط بجغرافيته: "التعددية هي قدرنا". فالتعايش له طابع داخلي وطابع خارجي. فالتعايش الداخلي لا يمكن ان ينجح الا عبر ضمان شروط حرة. والتعايش الخارجي لا أمل به الا بالتعاون مع العرب، خاصة مع سوريا. وتبين بحكم الضرورة، وفي سبيل الاستمرار الاقتصادي، ان يحصل تعاون ايضا مع كل الدول. والى جانب الحفاظ على الثقافة اللبنانية-العربية لابد من تعزيز تعدد اللغات. يستطيع لبنان ان يصمد عندما لا يمارس تجارة السلع وتأمين الخدمات فحسب، بل تجارة الفكر ايضا. وهذا ممكن فقط عندما تؤمن في البلد حرية الفكر وتعدديته. ان قومية تقوم على تعايش داخلي هي الصيغة اللبنانية ذات "المحبة الذاتية الجماعية".

اما صهره هنري فرعون فقد عبّر عن هذه الافكار في شعار مبسّط: "من الممكن ان لا يكون كل المواطنين "لبنانيين بالقلب" (Libanais de coeur)، ولكن تستطيع السياسة الحكيمة ان تجعل منهم على الأقل "لبنانيين بالعقل او بالمصلحة" (Libanais de raison)^{٧٣}

أخيراً، وفي عام ١٩٤٣، جرى تثبيت هذه المبادئ في اطار "التسوية التاريخية" التي عرفت بالميثاق الوطني.

-
- ٧٠- راجع سليم نصر، المرجع المذكور، ص ٣٧.
 ٧١- Boutros LABAKI, Rapports de force Intercommunautaires et genèse des conflits internes au Liban, op. cit.
 ٧٢- راجع Michel CHIHA, Visage et présence du Liban, Beyrou 1964.
 ٧٣- من مقابلة مع المؤلف، ١٩٧٩

٢ - الميثاق الوطني ونظام النسبة

أدت الحرب العالمية الأولى الى نهاية الامبراطورية العثمانية. وجلبت الحرب العالمية الثانية نهاية لسلطة الانتداب^٧. في حزيران ١٩٤١، احتلت القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة التي كانت تابعة لحكومة "فيشي" مناطق الانتداب، سوريا ولبنان. وتحت الضغط البريطاني أعلن الجنرال "كاترو" بتكليف من الجنرال "ديغول" استقلال لبنان في ٢٦ تشرين الثاني عام ١٩٤١. ولكن السلطات الفرنسية استخدمت كل الوسائل الممكنة لتأخير تنفيذ هذا الإعلان. وهكذا، وبطريقة غير مباشرة، قدموا خدمة جلى للبنانيين فتكاتفوا وتضامنوا اكثر من اي وقت مضى. فانتخابات ١٩٤٣ أدت الى فوز ساحق للقوى السياسية التي طالبت بتحقيق سريع وفوري للاستقلال. انتخب بشاره الخوري رئيساً للجمهورية. كما كلف رياض الصلح بتشكيل الوزارة، التي ضمت ممثلين عن الموارد، والسنة، والشيعه، والروم الارثوذكس، والروم الكاثوليك والدروز. وفي الثامن من تشرين الثاني ١٩٤٣، قرر مجلس النواب بالإجماع عدداً من التعديلات الدستورية، خاصة إلغاء المواد المتعلقة بالانتداب، والتركيز على تدعيم استقلال لبنان. ولكن ردّة الفعل الفرنسية لم تتسم بالحكمة والروية. في الحادي عشر من تشرين الثاني، ألقي القبض على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وثلاثة وزراء من الحكومة الجديدة، وتم اعتقالهم. وهذا ما أدى الى انتفاضة شديدة من قبل اللبنانيين. فالمنظمات المناضلة في سبيل القومية اللبنانية والقومية العربية، اي الكتائب والنجادة، شكلت قيادة مشتركة، وأعلنت اضراباً عاماً مفتوحاً في سائر أنحاء البلاد، ونظمت المظاهرات الشعبية. وفي الجبل، شكل وزيران نجياً من الاعتقال، حكومة طوارئ قررت استبدال العلم المثلث الألوان بعلم احمر وابيض واحمر، تنصده شجرة الارز، كعلم وطني. فأمام الانتفاضة الشعبية اللبنانية من جهة، وإزاء الضغوط البريطانية والإمبريكية من جهة ثانية، اضطرت الحكومة الفرنسية التي اتخذت في الجزائر مركزاً لها، ان ترضخ للأمر الواقع. فأطلق في الثاني والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٣ سراح رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والوزراء، وعادوا الى بيروت حيث استقبل موكبهم بمظاهرات الفرح والابتهاج. منذ ذلك التاريخ، تحول يوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني الى عيد وطني. بعد عودتهما الى بيروت ألقي الرئيس بشاره الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح، خطابات عديدة عبّراً فيها عن الاتجاهات الأساسية التي حصل تفاوض حولها منذ عام ١٩٣٦، والآلية الى تثبيت أسس العمل المشترك.

٧٤- عن أحداث الاستقلال راجع مذكرات بعض الذين شاركوا فيها:

Camille CHAMOUN, Crise au Moyen-Orient, Paris 1963; Georges CATROUX, Dans la bataille de la Méditerranée, Paris 1949; Georges CHARAF, Communautés et pouvoir au Liban, Beyrouth 1981, p. 235-251. بشاره الخوري، حقائق لبنانية، ٢ أجزاء، بيروت ١٩٦٠.

ونظراً لعدم تثبيت هذه الأسس خطياً، اتفق على تسمية ذلك الاتفاق "الميثاق الوطني"، أو باتفاق الجنتلمان^{٧٥}.

اعتمد الميثاق عدداً من التنازلات والضمانات، تتعلق بصيغة التسوية حول هوية البلاد وتوزيع السلطة بين الطوائف. بموجب هذه التسوية، يتمتع المسيحيون عن طلب الحماية من الدول الغربية. وبالمقابل يتمتع المسلمون عن المطالبة بالوحدة مع سوريا أو مع أي اتحاد عربي. فلبنان ينبغي أن يكون "لا شرقاً ولا غرباً"، بل بلداً مستقلاً تماماً. ينبغي على لبنان أن يحافظ على ارتباطاته الثقافية والروحية مع الغرب، وأن يتعاون بطريقة وثيقة مع كل الدول العربية، طالما اعترفت هذه الدول بسيادته. بالنسبة للخلافات العربية، على لبنان أن لا يتدخل فيها إطلاقاً. فقد حُدد كبلد "ذي وجه عربي ولغة عربية"، وكجزء من العالم العربي، ولكن "ذو طابع خاص". على كل الطوائف أن تشارك في ممارسة السلطة، كما تعطى الطوائف الكبرى الوظائف الرئيسية في الدولة: رئاسة الجمهورية للموارنة، ورئاسة الحكومة للسنة^{٧٦}. بالنسبة لتوزيع الحقائق في الوزارة والوظائف في الإدارات العامة، حددت المادة ٩٥ من الدستور التي عدلت في الثامن من تشرين الثاني ١٩٤٣، في أن يكون هذا التوزيع "بصفة مؤقتة"، وسعياً نحو العدالة والتجانس، كما ينبغي أن تمثل الطوائف بطريقة متوازنة في الوظائف العامة وفي تشكيل الحكومة، ولكن دون أن يمس ذلك بمصالح الدولة.

"رينيه عجوري"، العالم السياسي اللبناني، الذي كان أحد المعلقين السياسيين الأكثر تأثيراً خلال سنوات طويلة، وصف الميثاق الوطني بأنه "تعبير غير مكتوب لارادة الأقليات اللبنانية المختلفة، في العيش سوية في إطار دولة مستقلة وذات سيادة"^{٧٧}. تجسدت هذه الإرادة في تسوية تتطلب تنازلات في القضايا السياسية الرئيسية من كل الفئات. وقد وُصف ذلك غالباً "بالدستور غير المكتوب". ولكن في الواقع، حجّم هذا الميثاق إطار العمل السياسي، أكثر مما يسمح به الدستور. هناك أمور يتساهل بها الدستور، ولكنها تتعارض مع مبادئ الميثاق الوطني. يعتبر الميثاق عن مضمون هوية البلد، ويحدد التوجيهات المتعلقة بالسياسة الخارجية، والمبادئ الأساسية لتوزيع السلطة. أما الدستور الذي يتسم بفلسفة يعقوبية، ويقرر سلطة الأكثرية فقد أعطى لبنان عبر الربط بين الدستور وقانون الانتخاب والميثاق الوطني نظاماً توفيقياً واضحاً. فلم يعد يحكم من قبل أكثرية بسيطة، بل دائماً من

٧٥- راجع Fahim I. QUBAIN, Crisis in Lebanon, Washington 1961, p. 17f.

٧٦- أوضح كميل شمعون بدقة، في المرجع المذكور، ص ١١٨: تعود رئاسة الجمهورية إلى المسيحيين ورئاسة الحكومة إلى المسلمين. وفيما يتعلق بمجلس النواب يقبل الجميع النسبة الحالية أي ستة مقاعد للمسيحيين مقابل خمسة للمسلمين.

٧٧- راجع L'Orient, 6.4.1957

قبل تحالف كبير. فكل الطوائف الكبيرة تتمتع واقعياً بحق النقض أو الفيتو. فنشكيل الحكومة وتوزيع الوظائف العامة يحصلان بموجب المادة ٩٥ من الدستور حسب نظام النسبة. المادتان التاسعة والعاشرتان تضمنان لكل الطوائف استقلالية ثقافية. وفي إطار أشكال أخرى من الحكم يسمح بها الدستور، اسهم الميثاق في إقامة واقع دستوري ديمقراطي توفيقى: فالقرارات الهامة لا يمكن ان تؤخذ بأكثرية بسيطة، بل استناداً الى تسوية واجماع.

ان صياغة الميثاق الذي جاء نتيجة تسويات، تسمح باجتهادات وتفسيرات وافرة. لذلك تحولت السياسة في لبنان المستقل الى مناقشات حول تفسير الميثاق، حتى غدا في النهاية عرضة للشك. في البداية كان موضوع النقاش، ربط الميثاق بنظام نسبي متصلب في الدولة والادارة. في اللغة السياسية كانت تستخدم غالباً كلمة "ميثاق" وكلمة "نسبة" كمرادف. ولكن في الواقع، لم تكن هاتان العبارتان بالنسبة لرواد الميثاق متشابهتين اطلاقاً. ولابد في هذه الحال من الإشارة الى ضرورة التمييز بينهما من الناحية التحليلية. في الميثاق تم الإتفاق على مبدأ توزيع السلطة. اما نظام النسبة، وهو أقدم بكثير من الميثاق، فكان، كما قال معظم الذين شاركوا في اعداد الميثاق، بنظر الدستور، صيغة انتقالية، كما اعتبر امراً مؤقتاً. فهنري فرعون الذي شارك في المفاوضات، عبّر عن ذلك بوضوح: "لقد فسّر الميثاق بكثير من المتصلب. فالنوزيع الطائفي في مهام الحكم وفي الوظائف الادارية لا ينبغي ان يبقى قائماً حتى الأبد. لقد أقر بصورة مؤقتة، ولا علاقة له بالميثاق. كان ينبغي ان يكون مرناً اكثر مما هو في الواقع"^{٧٨}.

ولكن في اطار المصالح السياسية لم يطبق نظام النسبة بمرونة اطلاقاً، بل بتصلب متزايد. لم يُكتف بتطبيق هذا النظام على وظائف الحكم بل طُبّق على كل الوظائف الادارية. فأى تغيير او ترقى اصبح مرتبطاً بالسياسة. فبينما شكّل الميثاق في الحقيقة تسوية تاريخية كبيرة، فقد ضيّق التمسك بنظام النسبة المتصلب مجال التسويات اليومية الصغيرة التي تطالب بها أيضاً الانظمة التوفيقية.

وتجدر الإشارة الى ان الميثاق لم يتحدّث اطلاقاً عن المسائل الاقتصادية والاجتماعية. قد يعود ذلك الى حالة الاقتصاد اللبناني خلال الحرب العالمية الثانية، بعكس ما كانت في الحرب العالمية الأولى. حتى قبل الحرب وجدت المنتجات الزراعية والصناعية اللبنانية سوقاً لها في الدول المجاورة، وباقي المناطق الشرقية. وقد اسهمت الحرب في الحد من منافسة الاسواق العالمية. فتراجع كثيراً حجم الاستيراد الى المنطقة^{٧٩}. كما اضطر الحلفاء الى تموين جيوشهم من السوق المحلي

٧٨- من مقابلة مع المؤلف في ١٠/٥/١٩٧٩

٧٩- Boutros LABAKI, L'économie politique du Liban Indépendant 1943-1975, Paper presented راجع

ودفع الأكلاف الكبيرة. وهذا ما سمح للقطاع التجاري اللبناني بتحقيق أرباح لا بأس بها. في هذا القطاع التجاري^{٨٠}، برز إبطال الميثاق الوطني ورواده الذين اعتبروا الليبرالية الاقتصادية الداخلية والخارجية والتدخل المحدود للدولة في السياسة الاقتصادية أمراً طبيعياً. وهذا ما أوجزه ميشال شياح بقوله: "قوانين متحفظة، وإدارة تهتم فقط بالأمور الأساسية: قليل من الإجراءات القانونية، وآفاق ممكنة واسعة"^{٨١}.

بالإضافة إلى ربط الميثاق بصيغة النسبة المتصلبة، فإنه عكس أيضاً غياب كل اهتمام بالشأن الاجتماعي. فقد جاء الميثاق ثمرة الأوضاع المجتمعية القائمة في ذلك الوقت. فلم يؤخذ إطلاقاً بعين الاعتبار عمداً أو سهواً التغيير الديمغرافي أو المجتمعي. وتشير معطيات عديدة إلى أنه لحظ بوعي وروية الاهتمام فقط ببعض المبادئ الأساسية، أي تثبيت التعايش، واشتراك كل الطوائف في السلطة، والاستقلال في إطار تعاون وثيق مع العالم العربي. ولكن كان من المفترض أن تكون صيغة هذه المبادئ الأساسية "مرنة". وما يشير إلى ذلك هو عدم التعبير عنها ووضعها وتثبيتها بشكل مكتوب. وقد أشار في الواقع تاريخ لبنان المستقل حتى مرحلة الحرب إلى أن مبادئ الميثاق كانت أقل عرضة للإشكال من نظام النسبة القائم. فالتعرض للميثاق كان يحصل في أغلب الحالات عندما كان يشبه ويقارن تماماً بنظام النسبة، نظراً للاعتقاد بعدم إمكانية التغيير في هذا النظام دون القضاء أيضاً على الميثاق.

تركزت الخلافات السياسية في لبنان المستقل، كما في كل دولة، على توزيع السلطة السياسية والاقتصادية. وكما في كل دولة تعددية، على هوية الدولة. ولكنها برزت في لبنان بصورة شاملة في الخلافات والإشكالات حول الميثاق ونظام النسبة.

٣ - الأحزاب، والعائلات، والأعيان: وتمثيل المصالح قبل الحرب

من شارك في لبنان ما قبل الحرب في العمل للوصول إلى السلطة السياسية؟
الأحزاب السياسية التي تعتبر في الأنظمة الديمقراطية الليبرالية، المنظمات

to the Colloquium "Consensus and Conflict in Lebanon 1830-1975", Centre for Lebanese Studies, Oxford, September 1987, p. 2-3.

٨٠- عن المقالين المسيحيين، راجع: Boutros LABAKI, Introduction à l'histoire économique du Liban, op. cit., p. 46, 50, 55, 113-115.

وعن المقالين المسلمين، ذات المرجع ص ٣٩٢، ٤٠١-٤٠٣.

وعن البورجوازية الإسلامية، راجع Michael JOHNSON, op. cit. p. 25-26.

٨١- Michel CHIHA, op. cit. p. 122.

الطبيعية لتمثيل المصالح السياسية، لم تلعب من عام ١٩٠٣ حتى عام ١٩٧٥ إلا دوراً محدوداً فقط^{٨٢}.

لقد تشكلت ثلاثة احزاب ذات عقائد سياسية، كانت ترفض الانتماء الى طائفة ما كمعيار سياسي، وتربط الاهداف والتصورات السياسية المجتمعية بمفاهيم قومية مختلفة. هذه الاحزاب هي: الحزب الشيوعي اللبناني، الحزب القومي السوري، وحزب البعث. تشكل انصارها من طوائف مختلفة. الحزب الشيوعي اللبناني هو أقدم الأحزاب السياسية^{٨٣}. في منتصف عقد العشرينات، بدأ هذا الحزب يمارس بعض النشاطات. برزت أهميته وللمرة الأولى بعد عام ١٩٣٦ عندما تسلمت الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا، وللمرة ثانية بعد الحرب العالمية الثانية. وتعزز دوره بفضل تزايد أهمية الاتحاد السوفياتي في الشرق، وللمرة الثالثة في العقد الذي سبق اندلاع الحرب في لبنان. فقد مُنح هذا الحزب مراراً خلال الانتداب الفرنسي كما منع أيضاً خلال الاستقلال، ثم سمح له بالعمل. تمتع الشيوعيون في لبنان بحرية عمل كبيرة نسبياً، حتى في الاوقات التي كان ممنوعاً فيها. فجريدتهم، "النداء" وهي الجريدة الشيوعية الوحيدة في الشرق، استطاعت ان تصدر بحرية خلال عدة عقود. لقد التزم الحزب الشيوعي بقوة في اطار النقابات، وتمتع في بعض المنظمات النقابية بقاعدة متينة^{٨٤}.

في عهد الانتداب قام حزب شيوعي مشترك في سوريا ولبنان. ولكن في بداية عام ١٩٤٤، تأسس الحزب الشيوعي اللبناني آخذاً بالاعتبار استقلال لبنان التام. في عام ١٩٥٩ اعترف باستقلال هذا البلد، ولكنه ظلّ يطالب دائماً بسياسة تضامن مع كل جهود العرب المناهضة للإستعمار. أخذ هذا الحزب دائماً اتجاهاً مماثلاً للحزب الشيوعي السوفياتي. ولكن منذ بدء السبعينات برزت منظمة مناهضة له، عُرِفَتْ "بمنظمة العمل الشيوعي في لبنان". أسسها قوميون عرب اعتنقوا الافكار الماركسية الجديدة في اواخر عقد الستينات، وبدأت المناقشة مع الحزب الشيوعي اللبناني

٨٢- عن نظام الاحزاب اللبنانية، راجع: Lucien GEORGE und Toufic MOKDESSI, Les partis politiques, Beyrouth 1959; Labib ZUWIYYA YAMAK, Party Politics in the Lebanese Political System, in Leonard BINDER (Ed) op. cit., p. 143-166; Michael W. SULEIMAN, Political Parties in Lebanon, Ithaca, N. Y. 1967.

٨٣- عن الحزب الشيوعي اللبناني، راجع: Walter Z. LAQUEUR, op. cit., p. 42 ff., 117, 141-146, 161 ff., 327-341.

Jacques COULAND, Le Mouvement Syndical au Liban 1919-1946. Son évolution pendant le mandat français de l'occupation à l'évaluation et au code travail, Paris 1970.

٨٤- كانت تقليدياً تبرز قوة الشيوعيين في قطاع المطابع والبناء والتجارة. ومنذ عقد الستينات اخذوا يجتنبون اليهم عدداً لا بأس به من المثقفين في البلاد.

لاستقطاب عدد من اللبنانيين اصحاب الميول العلمانية والمفتحين على التراث الفكري اليساري . في البداية، كان معظم انصار الحزب الشيوعي من الارمن، ولكن في مرحلة لاحقة، شكل اللبنانيون الأكثرية. وقد برز بين قادته عدد كبير من طائفة الروم الارثوذكس. قبل اندلاع الحرب، نجح الحزب الشيوعي اللبناني في استقطاب عدد كبير من الشيعة اللبنانيين. وهكذا حصل ايضا بالنسبة لمنظمة العمل الشيوعي، فقد كانت قيادتها مختلطة من كل الطوائف، إلا ان قاعدتها اقتصررت الى حد كبير على الاوساط الشيعية.

الحزب القومي السوري أسسه عام ١٩٣٤ انطون سعادة، الذي كان مدرّساً ومن طائفة الروم الارثوذكس. بعد ان عاش مدة طويلة في البرازيل عاد الى لبنان وبدأ يحاضر في الجامعة الاميركية في بيروت، ويبحث عن انصار ومؤيدين لمفهوم أمة سورية كبيرة. اخذ يناهض في ذات الوقت وبشدة العروبة والقومية اللبنانية. العروبة هي، حسب قوله، مبهمة، وليست بالنهاية الاقناعاً اسلامياً. وكذلك القومية اللبنانية ليست في الواقع الا انعزالية دينية. ولكن الأمة السورية الكبيرة هي، بنظره، واقع جغرافي ذي طبيعة جغرافية، وتاريخية، وإتنية، وثقافية، ينبغي تجسيدها في دولة مستقلة. "سوريا الكبرى" تشكل، بالنسبة للحزب القومي السوري، "الهلال الخصيب"، اي العراق، سوريا، لبنان، وفلسطين. نظم سعادة الحزب بطريقة سلطوية أمرة، كما انشأ منذ البداية منظمات شبه عسكرية. لذا لم يكن من المدهش اطلاقاً ان يحفل تاريخ هذا الحزب باضطرابات كثيرة. لقد بقي القبض على سعادة واعدم بعد محاكمة سريعة ومريبة. ولكن بعد سنتين من اغتياله، انتقم له انصاره. فاغتالوا رياض الصلح، رئيس الوزراء اللبناني. ان الاتجاه لاستخدام العنف المسلح لم يكن داخل الحزب موضوع جدل اطلاقاً، بل لعب غالباً دوراً في الازمات التي تعرضت لها قيادة الحزب، وفي الانقسامات التي حصلت داخل الحزب أيضاً. في بداية السبعينات برزت تيارات أخرى فكرية متباينة حول التوجيه السياسي المجتمعي للحزب. فبينما شدد قسم من القيادة والاعضاء على الاحتفاظ بالطابع السلطوي ذي النزعة والاسلوب الفاشي الذي عرفه الحزب في اوائل عهده، انفتح قسم آخر على افكار ومبادئ التيارات السياسية اليسارية. ولكن بالرغم من كل التيارات الانقسامية، كان اعضاء الحزب يعودون مجدداً للإتفاق مع بعضهم بفضل الانجذاب والولع بالمفهوم القومي من قبل هؤلاء اللبنانيين الذين لا يقبلون، حسب رؤيتهم، لبنانا تسيطر عليه عروبة السنة، ولا لبنانا تسيطر عليه لبنانية الموارنة. فسوريا الكبرى توفر لهم الفرص الكبرى لإقامة دولة حديثة بعيدة بنوع خاص عن كل طابع ديني. من بين الاعضاء البارزين نجد، كما هي الحال مع الحزب الشيوعي، عدداً كبيراً من طائفة الروم الارثوذكس، كما انضم اليهم لاحقاً عددٌ من الشيعة، وافراد من طوائف أخرى لم يروا اية امكانية تطوّر سياسي في نظام النسبة اللبناني. وقد

تحوّل الحزب بنوع خاص إلى حزب للمثقفين من ذوي الاتجاه العلماني، ليس في لبنان فحسب، بل أيضاً في بلدان الهلال الخصيب الأخرى، أي إلى حزب للمثقفين العلمانيين الذين اعتبروا الماركسية مفهوماً غريباً عن المنطقة^{٨٥}.

أما حزب البعث^{٨٦}، فهو تنظيم يربط العروبة المتكاملة مع المفاهيم السياسية المجتمعية ذات الطابع التدخلّي من قبل الدولة. أسس هذا الحزب عام ١٩٤٠ في سوريا المدرّس الارثوذكسي ميشال عفلق والمحامي السني صلاح البيطار. طالب هذا الحزب بدولة علمانية، ولكنه اعتبر الدين، خاصة الإسلام، جزءاً هاماً جداً من الثقافة العربية. عرف لبنان هذا الحزب منذ عام ١٩٥١. انضمّ إليه أولاً بعض السنة في طرابلس، ثم انتشر فيما بعد بين الشيعة الذين يقطنون المدن. حزب البعث هو حزب "قومي"، منظم على المستوى العربي الشامل، ويؤلف داخل الدولة القائمة ما يسمّى بالقيادات القطرية، ولكن منذ انقسامه في منتصف الستينات، بعد تسلمه الحكم في كل من سوريا والعراق، انقسم الحزب أيضاً في لبنان إلى حزبين أحدهما موالٍ لسوريا والآخر للعراق.

هذه الأحزاب الثلاثة ذات البرامج القائمة على مفاهيم عقائدية، لم تلعب في مرحلة ما قبل الحرب في لبنان إلا دوراً محدوداً، ولكنها اكتسبت انصاراً ومحازبين يتحلون بروح نضالية عالية. لقد تعرضت كل من هذه الأحزاب لصراعات عقائدية وتوجيهية ولانقسامات مريرة. ولكنها بقيت مهمشة في حياة لبنان البرلمانية. فالحزب الشيوعي لم ينجح إطلاقاً في الحصول على مقعد نيابي واحد، علماً أن تدخلات جهاز الدولة المعادي كثيراً للشيوعية لعبت في هذا المجال دوراً لا يستهان به^{٨٧}. والحزب القومي السوري نجح في الحصول على مقعد في إحدى الدوائر الانتخابية حيث ناصرت عائلات كبيرة مرشح الحزب^{٨٨}. أما حزب البعث فقد حصل على مقعد نيابي في طرابلس من ١٩٧٢ وحتى ١٩٩٢. شغل هذا المقعد طبيب نو شعبي واسع^{٨٩}، تمكن بالفوز بفضل انشطته الاجتماعية التي لا ترتبط إطلاقاً ببرنامجه حزبه.

٨٥- راجع Labib ZUWIYYA YAMAK, The Syrian Social Nationalist Party: An ideological analysis, Cambridge, Mass., 1966.

٨٦- Adeed I. DAWISHA, The Transnational Party in Regional Politics: The Arab Ba'th Party, in: Asian Affairs, 61 (1974)1, p. 23-31. Olivier CARRE, Le mouvement idéologique ba'thiste, in: André RAYMOND (Ed.), La Syrie d'aujourd'hui, Paris 1980, p. 185-224.

٨٧- في عام ١٩٧٢ فشل مرشح الحزب الشيوعي، حبيب سعاده، وهو من أصل شيعي، في دائرة مرجعيون الانتخابية بفارق ضئيل جداً في الأصوات.

٨٨- كان أسد الأشقر من الحزب القومي السوري الاجتماعي نائباً عن المتن ١٩٥٧-١٩٦٠.

٨٩- الدكتور عبد المجيد الرافعي.

لم يعزز قانون الانتخاب اللبناني كثيراً الأحزاب، كما سنرى ذلك فيما بعد. في هذا المجال لابد من القول بأن الأحزاب مثل الحزب الشيوعي، والحزب القومي، وحزب البعث، كانت قبل الحرب تتأهض التوجيهات الأساسية لدى الناخبين اللبنانيين، الذين كانت ترتبط مصالحهم، لا في البرامج العلمانية، بل في التوجيهات الأساسية التقليدية للطوائف الدينية. وهذه التوجيهات كانت تعبر عنها وتمثلها الأحزاب التالية: الكتائب، والنجادة، والحزب التقدمي الاشتراكي.

حزب الكتائب^{٩٠}، وقد اضيف الى اسمه "حزب لبنان الديمقراطي الاجتماعي"، نشأ عام ١٩٣٦ كمُنظمة للشباب. وتحول عام ١٩٤٣ الى حزب سياسي. عقيدته استقلال لبنان التام وغير المشروط. في هذا الإطار، شارك الحزب في النضال ضد الانتداب الفرنسي. ومنذ عام ١٩٤٣، يشكل الخصم اللدود لكل التيارات ذات القومية السورية والعربية. قبل الحرب، كان هذا الحزب، مع بعض التحفظ، أكبر الأحزاب عدداً وفضلها تنظيمياً في لبنان. ومثل الحزب القومي، ضمّ حزب الكتائب في الأربعينات ميليشيا شبه عسكرية أيضاً. يعتبر هذا الحزب نفسه منفتحاً على كل اللبنانيين، الى اية طائفة انتموا، ولكن معظم اعضائه هم من الموارنة، ومعظمهم من بيروت، وضواحيها الشرقية، وكسروان، كما ينتمون الى الطبقة المتوسطة والعمالية. في الستينات ناضل الحزب بالتزام كلي في سبيل تحسين السياسة الاجتماعية، كما لعب دوراً بارزاً في وضع وقرار معظم التشريعات الاجتماعية اللبنانية. ويمكن وصف الكتائب بحزب شعبي للقوميين اللبنانيين، اكثرية اعضائه من الموارنة^{٩١}.

يقابل هذا الحزب في الطائفة السنية حزب النجادة، الذي نشأ أيضاً كمُنظمة للشبيبة وتحول الى حزب للقومية العربية. يشدد هذا الحزب، خلافاً لحزب البعث، على الارتباط الوثيق بين العروبة والإسلام. قاعدته الاقليمية تقتصر على بيروت فقط. وانصاره هم من فئة المواطنين العاديين والعمال السنة.

اما الحزب التقدمي الاشتراكي^{٩٢} فقد تأسس عام ١٩٤٩. طالب بدولة علمانية

٩٠- راجع هنا بنوع خاص: John P. ENTELIS, Pluralism and Party Transformation in Lebanon - Al Kata'ib 1936-1970, Leiden 1974; Frank STOKES, The Supervillants: The Lebanese Kata'ib Party as a Builder, Surrogate and Defender of the State, in: Middle Eastern Studies, 11 (1975)3, p. 215-236.

٩١- يربط البر حوراني الطابع الشعبي لحزب الكتائب بالتقليد الشعبي لثورة الفلاحين الموارنة في القرن التاسع عشر، التي تمثلت بطانيوس شاهين ويوسف كرم: "في ناحية ما، يمكن اعتبار الكتائب اليوم ورثة طبيعيين لهذا التقليد".

Albert HOURANI, Ideologies of the Mountain and the City, in: Roger OWEN (Ed.), op. cit. p. 37.

٩٢- راجع Kamal JOUMBLATT, La démocratie économique, Cénacle libanais, Beirut 1950; La démocratie sociale, Cénacle libanais, Beirut 1953.

للبنان مستقل، ومرتبطة بالعالم العربي. برنامجها الاجتماعي يشبه برنامج حزب الكتائب. وتعاوننا معا في عقد الستينات في مجال السياسة الاجتماعية. نجح هذا الحزب في كسب عدد من المتقنين من مختلف الطوائف، كما هي حال الحزب القومي السوري. جذب هؤلاء اليه نظراً لجمعه بين العلمانية والمفهوم التقدمي المرن. اما ناخبوه فهم باغليبتهم من الدرور في جبل الشوف، المعقل التقليدي لعائلة آل جنبلاط^{١٣}.

يتسم الحزب التقدمي الاشتراكي، بعكس كل الاحزاب الأخرى، بميزة مضاعفة: يمثل من جهة حزباً صغيراً ذا برنامج تندمج فيه اتجاهات عديدة، من حيث الانتماء الطائفي، ويقتصر من جهة أخرى على دائرة انتخابية تقليدية تتمحور حول عائلة درزية تعتبر من كبار الملاكين.

هناك تنظيمان سياسيان آخران يتمتعان بالنز اليسير من بنية الاحزاب السياسية الحديثة. لهما انصار تقليديون ومراكز ادارية. انهما تجمعات انتخابية تتمحور حول عائلات وشخصيات سياسية، وهما: "الكتلة الوطنية" بزعامه ريمون اده، وحزب الوطنيين الاحرار بزعامه كميل شمعون. كلاهما يمثلان القومية اللبنانية، مثل الكتائب، وانصارهما هم بمعظمهم من الموارنة. ولكن بعكس الطابع الشعبي الذي يتسم به حزب الكتائب، فحزب الكتلة الوطنية هو اكثر ليبرالية، وحزب الاحرار يشدد بالمقابل على طابع محافظ للبنانية المارونية.

تجدر الإشارة ايضاً الى احزاب منظمة اخرى تمثل طائفة معينة سواء من حيث افرادها او من حيث برنامجها، ألا وهي الاحزاب الارمنية: حزب الطاشناق، وحزب الهانتشاق، وحزب رمغافار. نشأت هذه الاحزاب في ارمينيا. في لبنان برز بنوع خاص حزب الطاشناق، الذي يتحالف دائماً في الانتخابات مع الكتائب. تسنى لكل الأحزاب التي ترتبط بطائفة وتمثل توجهاتها الأساسية، الوصول الى مجلس النواب اللبناني بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٢^{١٤}. فالكتائب حصلت بين ستة وتسعة مقاعد، النجادة على مقعد عام ١٩٦٠، وعلى مقعد عام ١٩٦٨، وكذلك الحزب التقدمي الاشتراكي كان يحصل منذ عام ١٩٦٠ على خمسة او ستة مقاعد. اما تمثيل الكتلة الوطنية فكان يتأرجح بين ثلاثة وستة نواب، وحزب الاحرار بين خمسة واحد عشر نائباً، بينما كان حزب الطاشناق يحصل دائماً على اربعة مقاعد. ولكن لوحظ ان كل هذه الاحزاب في مجلس النواب اللبناني، ما قبل الحرب، لم تمثل بأكثر من ثلث

١٣- Kamal JOUMBLATT, La démocratie économique, Cénacle libanais, Beirut 1950; La démocratie sociale, Cénacle libanais, Beirut 1953.

١٤- Antoine N. MESSARRA, La structure sociale du parlement libanais ولتحليل أكثر تفصيلاً، راجع (1920-1976), op. cit., p. 59 ff., 79.

عدد النواب.

هذا يدل على ان ثلثي البرلمانيين هم من الأعيان غير المرتبطين بأحزاب، ويعرفون "بالزعماء" في اللغة السياسية اللبنانية^{٩٥}. هؤلاء الزعماء كانوا يشكلون ما قبل الحرب أهم الوسطاء بين الافراد والدولة، لا يهتمون فقط بمصالح ناخبهم السياسية فحسب، بل بمجمل مصالح زبائنهم، من حيث تمثيلهم لدى السلطات لفض النزاعات، وتأمين العمل والقروض لهم وتسهيل اعمالهم التجارية.

يمكن ادراك هذه الفئة من السياسيين في ضوء خصوصيات المجتمع اللبناني وتطوره. تشكل العائلات الكبيرة والعشائر حتى اليوم في لبنان، وبنظر عدد كبير من المواطنين، اهم مؤسسة اجتماعية. فرغم التطور الحديث والتحديث الاقتصادي، لم تفقد هاتان الفئتان دورهما اطلاقاً، بل تأقلمت مع المعطيات الجديدة^{٩٦}، لا بل تزايد نفوذها في بعض الميادين. في ضواحي المدن الجديدة، يلاحظ وجود تجمع للأقارب الذين نزحوا من ذات القرية الى المدينة. كما كان يلاحظ ان ٤٠٪ من اللبنانيين كانوا يعيشون قبل الحرب على بعد ربع ساعة سيرا على الأقدام من اقاربهم. فتكاثر الاتصالات الشخصية بين افراد العائلات الكبيرة، هو "امر يصعب تصوره بالنسبة للمفاهيم الغربية"^{٩٧}. في لبنان يحصل اتصال شبه يومي بين شخص ووالديه واجداده، كما مع اولاده المتزوجين، وكذلك مع ابناء اخوته واخواته، واعمامه وعماته. العائلة الكبيرة تشكل ليس فقط الإطار المكثف للاتصالات والعلاقات الشخصية فحسب، بل ايضاً حلقة من المنافع الاقتصادية. فاهم المؤسسات الاقتصادية في لبنان هي مؤسسات عائلية. وهذا ينطبق ايضاً على الشركات المساهمة، التي تأخذ في معظم الحالات شكلاً حديثاً، يسمح لملكية العائلة الكبيرة بالصمود والتطور. وبما ان الاتحاد العائلي كبير جداً، فلا تبرز الا نادراً مشكلة ايجاد كوادر مؤهلة للمهام الفنية والادارية الهامة، عكس ما يحصل احياناً في مؤسسات مماثلة في المجتمعات

٩٥ - عن نظام الزبائن والانتصار، راجع: Ernest GELLNER & John WATERBURY (Eds.), Patrons and

Clients in Mediterranean Societies, London 1977.

وعن زعماء لبنان، راجع: Arnold HOTTINGER, Zuama in Historical Perspective, in:

Leonard BINDER (Ed.), op. cit., p. 85-105; Samih K. FARSON, op. cit., Vol. II, p. 306.

وهناك تحليل موجز عن نظام الزبائن والحمية. راجع: Hisham SHARABI, Neopatriarchy, A theory

of distorted change in Arab Society, New York & Oxford 1988, p. 45 ff.

٩٦ - راجع Fuad I. KHURI, op. cit. & Sectarian Loyalty among Rural Migrants in Two Lebanese

Suburbs: A stage between family and national allegiance, in: Richard ANTOUN and Iliya F.

HARIK (Ed.), Rural Politics and Social Change in the Middle East, Bloomington und London

1972, p. 198-213.

٩٧ - Samih K. FARSON, op. cit., p. 306.

الغربية^{٩٨}. فالتجمع العائلي هو مؤسسة تسليف مالي رفيعة الشأن. لذلك يمول غالباً هذا التجمع مثلاً للدراسات التي يتابعها افراده او اولادهم، او التجهيزات الضرورية للعيادات الطبية، او مكاتب المهندسين، او يؤمن قروضاً للذين يريدون فتح مؤسسات تجارية. هذه العلاقات الاقتصادية على مستوى التجمعات العائلية تتواصل ايضاً مع افراد العائلة المغتربين، وذلك لعدة أجيال. فرأس المال الذي يؤمنه المقيمون في الوطن يسمح للمغتربين بالانطلاق في اعمال تجارية. وعندما تتجح هذه الأعمال - وهذا هو الحال غالباً - يعود رأس المال مجدداً الى الوطن، خاصة في زمن المحن والأزمات. فالاهتمام بالمسنين هو بالنسبة لاتحاد العائلات واجب طبيعي. بالاختصار، يمكن القول بان دوام وجود العائلات الكبيرة التقليدية لا يرتبط فقط بالانتماء والشعور برابط القربى، بل بمصلحة اقتصادية متينة ايضاً.

فبقدر ما يكون هذا التضامن قوياً وحجم العائلة كبيراً، بقدر ذلك تتوفر الشروط لنجاحها الاقتصادي. منذ نهاية القرن الماضي بدأت الاتحادات العائلية بالظهور^{٩٩}، واسهمت في تدعيم الاتصالات حتى بين العائلات الكبيرة ذات القرابة البعيدة. بعض المؤسسات العائلية تهتم بالمسنين. ويمتلك البعض فيها عدداً كبيراً من المدارس الخاصة. فعندما يتأكد زعيم عائلة ما من ان اقرباءه يقترعون في الانتخابات وفق تعليماته، يتحول إلى ما يسمى "بالمفتاح الانتخابي"، باعتبار انه يستطيع ان يقدم لأي مرشح عدداً معيناً من الأصوات، وبالتالي يضمن لنفسه ولأفراد العائلة التي يمثلها الخدمات التي يمكن ان يوفرها لهم هذا المرشح في حال فوزه في الانتخابات.

كانت "المعارك الانتخابية" في لبنان ما قبل الحرب تدور ليس فقط حول النشاط الذي يمارسه المرشح لدى الناخبين في دائرته، بل حول المفاوضات التي تحصل لكسب تأييد المفاتيح الانتخابية، بغية الحصول بواسطتها على عدد كبير من اصوات الناخبين. يحصل اذا التأييد السياسي عبر تبادل الخدمات المتنوعة، التي يستطيع ان يقدمها عضو في مجلس البلدية او نائب في المجلس، مثل التوسط للحصول على عقود من الدولة، او المساعدة في تعيين الموظفين او في ترقيةهم، او الحصول على رخصة بناء او ما شابه. فالزعيم ليس فقط ممثلاً لمصلحة سياسية معينة، بل لمصالح اكثر شمولية، لا تتعلق فقط بالأفراد، بل بكل الاتحادات العائلية ايضاً. فالأعيان يقفون على رأس فصائل معقدة من الزبائن والانتصار ذات عقلية تجارية او اقتصادية كبيرة، تعمل وتسير وفق قوانين السوق، اي قانون المعاملة بالمثل: "سلف تسلف". البداية سياسية، والنهاية سياسية واقتصاد وثقافة.

٩٨- "يشكل اعضاء مجموعة وراثية عدداً كافياً لتوزيع المسؤوليات بينهم في سبيل ادارة مؤسساتهم".

راجع: Samir KHALAF, Lebanon's Predicament, op. cit., p. 150.

٩٩ المصدر المذكور ص ١٦١-١٨٤.

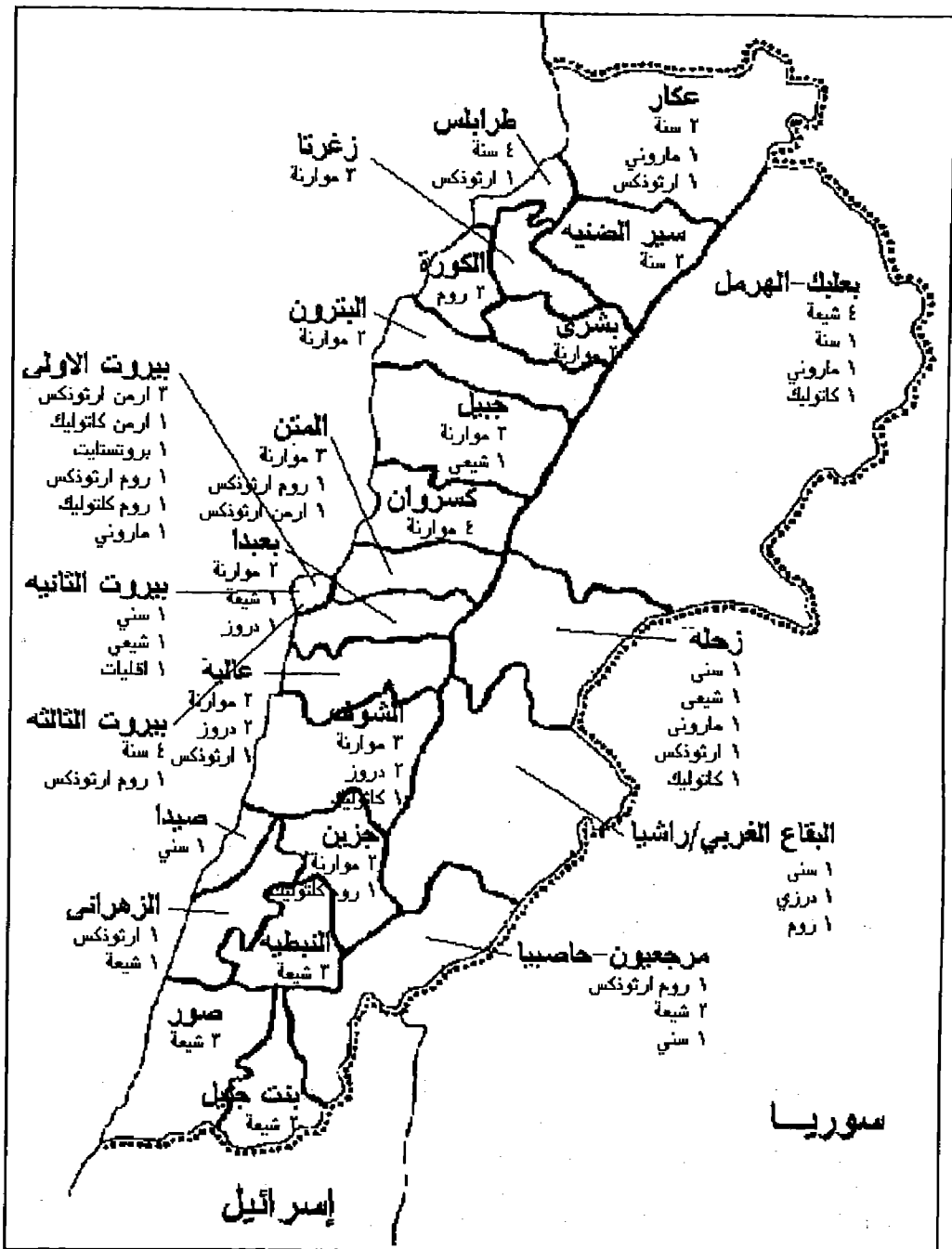
هنا نتضح الصعوبات الكبيرة التي كانت تعترض المرشحين الذين يقدمون برنامج عمل سياسي عقائدي، فلا يتمكنون من الفوز على منافسيهم من الزعماء التقليديين. فهم يتحدثون عن أمور ذات طابع مجرد أكثر مما يتحدثون عن أمور ذات طابع واقعي. الأمور المجردة قد تثير إعجاب الأفراد، ولكن نادراً ما ترضي اتحادات المصالح القائمة على أسس عائلية^{١٠٠}. قد تتجح السياسة التي تركز على مفهوم ايديولوجي عندما يتبناها وينطلق بها ممثل إحدى العائلات النافذة من الزعماء. فابن جنبلاط مثلاً الذي يمثل أرثاً سياسياً عائلياً قديماً، يستطيع ان يتحدث اليوم كسياسي محافظ، وغداً كسياسي ليبرالي، وبعد غد كسياسي اشتراكي. في كل الأحوال يستطيع ان يستند الى اصوات زبائنه وانصاره طالما لا يهمل ولا يسيء الى مصالحهم.

تنتمي العائلات الكبيرة دائماً الى ذات الطائفة الدينية. لقد تكاثرت خلال السنوات الاخيرة الزواج بين مختلف الطوائف المسيحية، رغم انه حتى عام ١٩٧٠ لم يتجاوز العشرة بالمائة^{١٠١}. اما الزواج بين المسلمين والمسيحيين فلا قيمة له عددياً، نظراً لاقتصاره على بعض الفئات ذات الدخل الكبير والفئات المثقفة. ليست الطائفة الدينية واتحادات العائلات بالتالي فئتين متنافستين بل ذات توجيه اجتماعي متماثل. قد تتنافس العائلات الكبيرة سياسياً داخل الطائفة ولكن اهدافها في المسائل السياسية الأساسية في البلاد متشابهة. لا تستطيع أية عائلة ان تسمح لنفسها سياسياً بتجاوز انتمائها وامانتها للطائفة. لذلك تبرز استمرارية وجود العائلات الكبيرة وعملها الاقتصادي كأساس لاستمرارية الطوائف التي هي تنظيمات اجتماعية وسياسية. هنا يبرز أيضاً دور الزعماء التقليديين الذين يعلقون أهمية كبيرة على مواقف طوائفهم المعبر عنها بأسلوب معتدل وزاخر بالتسويات. فمصلحتهم متماثلة، خاصة المشاركة في ممارسة الحكم والامتيازات الناتجة عنها لمصلحتهم ولصالح انصارهم. ويدور الأمر فقط حول الحصول، أكثر أو أقل، على نوع من النفوذ والامتيازات. ففي المفاوضات المستمرة حول التسويات بين مصالح الأشخاص، وتجمعات الأنصار، والمناطق، والطوائف، يظهر الفن التقليدي لدولة الأعيان أو الزعماء اللبنانيين.

١٠٠ - "... العائلات التي تتسم بمفهوم او يميل سياسي تآبي الاتحاق بالاحزاب الايديولوجية. وعلى سبيل المثال، الاحزاب السياسية الايديولوجية، مثل حزب البعث، والاحزاب القومية السورية، والاحزاب القومية، يبدو انها تتوجه الى فئات الشعب الشابة، ونصف متعلمة، وغير المتزوجة. كثير من اعضاء الاحزاب يتخلون عنها بعد الزواج". راجع: Fouad I. KHURI, From Village to Suburb, op. cit. p. 200.

١٠١ - Salim NASR, Les formes de regroupement traditionnel (familles, confessions, communautés régionales) dans la société de Beyrouth, in: Dominique CHEVALLIER (Ed.), L'Espace social de la ville arabe, Paris 1979, p. 169.

الدوائر الانتخابية حتى عام ١٩٩٢



من خصائص قانون الانتخاب اللبناني انه أسهم خلال مدة طويلة من الزمن في تسهيل انتخاب المرشحين المعتدلين والمستعدين لقبول التسويات^{١٠٢}. في معظم الدوائر الانتخابية هناك مقاعد مخصصة لطوائف مختلفة. وكل ناخب، الى أية طائفة انتمى، يستطيع ان يبدلي بصوته لمن يشاء^{١٠٣}. وعلى كل مرشح بالتالي ان يحصل على اصوات، ليس فقط من ناخبي طائفته، بل من ناخبي الطوائف الأخرى أيضاً، اذا اراد فعلاً ان يفوز بمقعد نيابي. وحسب التقليد كانت تؤلف لوائح من المرشحين من مختلف الطوائف. ومن مصلحة كل مرشح ان يسعى لدى مفاتيحه الانتخابية كي يعطوا الضوء الأخضر لانصارهم للإدلاء باصواتهم لصالح اللائحة التي يشترك فيها. فالنواب الذي يفوزون على لائحة واحدة يشكلون غالباً، وبقطع النظر عن انتمائهم الطائفي، "كتلاً" اقليمية في مجلس النواب، وبالتالي نوعاً من التحالفات بين الطوائف. وكذلك تشكل طريقة تأليف الحكومة سبباً آخرًا للإعتدال السياسي. فنظرًا الى تأليف الحكومة بموجب التوزيع النسبي على الطوائف، يتجة النواب في معارضته عادة، وهو يصبو أيضاً الى الاستيزار، ليس ضد وزير من غير طائفته، بل ضد وزير من طائفته بالذات. بالاختصار، كانت محركات ودوافع العمل النيابي في لبنان ما قبل الحرب ترتبط كثيراً بالتنافس داخل الطوائف وبالتعاون بينها. وبالتالي لم تكن الصراعات حول توزيع السلطة بين الطوائف تحصل عادة في مجلس النواب. فالقرارات النيابية لا تؤخذ إلا نادراً بموجب الانتماء الطائفي او الديني.

ولكن هناك، كما ذكر سابقاً، مصالح أساسية وخلافات في الرأي بين الطوائف حول تفسير الميثاق الوطني والمشاركة في السلطة. وكما ان هذه المواضيع تناقش من قبل الاعيان والزعماء بطريقة غير علنية وبتحفظ، فان التعبير عنها يبرز أكثر فأكثر في المؤسسات غير البرلمانية، اي في بعض التنظيمات او المؤسسات التابعة للطوائف، كما في الحركات والاحزاب السياسية.

١٠٢- Pierre RONDOT, Quelques réflexions sur les structures du Liban, in: Orient 2 (1958)6, p. 28f.; idem, Expériences du collège unique dans le système représentatif libanais, in: Revue Française de Sciences Politiques, 7(1957), p. 67ff.

١٠٣- "إلييا ف. حريق" يعطي مثلاً واضحاً في هذا الإطار: "هناك مقعدان في دائرة الزهراني الانتخابية. أحدهما للشبيعة والآخر للروم الكاثوليك. وكل ناخب، سواء كان شيعياً، سنياً، مارونياً، أرثوذكسياً أو من طائفة أخرى، يستطيع ان يصوت لشيعي وكاثوليكي، وليس لمرشحين من الطوائف الأخرى. في ظل هذه الانزامية الشرعية يتنافس المرشحون الشيعة ضد بعضهم وكذلك يفعل المرشحون الكاثوليك. وهذا ما يجعل المناقشة بين اعضاء الطائفة الواحدة وليس بين الطوائف..." راجع:

Iliya F. HARIK, Lebanon, in: Jacob LANDAU u., (Ed.), Electoral Politics In the Middle East. Issues, voters and elites, London 1980, p. 152.

ان رؤساء الطوائف الروحيين - اي بطاركة الكنائس المسيحية، ومفتي السنة، ومنذ عام ١٩٦٧ إمام الشيعة، وشيخ عقل الدروز - يأخذون مواقف علنية معينة عندما يرون ان مصالح طوائفهم مهددة بطريقة أو بأخرى. فالتعليق أو التذكير بالمصالح يحصل عادة في المناسبات أو في "المؤتمرات" التي يدعى إليها الرؤساء الروحيون والأعيان - وهذا شكل من أشكال التظاهرات السياسية الإسلامية - وينظمها عادة أعضاء جمعية "المقاصد الخيرية الإسلامية"، أو "الرابطة المارونية"، وهي اتحاد مصالح شبه سياسي، أو "مجلس الروم الأرثوذكس"، وهو منظمة يجري انتخابها، أو أي تجمع مماثل. ومنذ الاستقلال، انشأت كل الطوائف أجهزتها ومؤسساتها وطوّرتها، كالمدارس والجامعات، والجمعيات الخيرية، ومؤسسات الاستشفاء، ومنظمات الشباب والطلبة، وكذلك الأجهزة الإعلامية^{١٠٤}، فممثلو هذه المؤسسات، لا يعبرون بتحفظ، مثل الأعيان، عن قضايا النزاعات كما عن الصراعات العقائدية. بالعكس، بقدر ما يعبرون بشدة عن المواقف والمطالب، بقدر ذلك يمارسون تأثيراً أقوى على الأعيان^{١٠٥}.

ينطبق هذا النموذج بصورة مماثلة على الأحزاب السياسية. فحتى عام ١٩٦٠، كانت الأحزاب تعمل وتمارس نشاطها خارج المجلس النيابي. كانت تعتبر راديكالياً عن مواقفها، إذ لم يكن لها أية مسؤولية حكومية. ففي انتخابات عام ١٩٦٠، رُفِعَ عدد النواب من ٦٦ إلى ٩٩، وذلك لتأمين دخول السياسيين الراديكاليين من مختلف الفئات إلى مجلس النواب. وهكذا، انشئت عشرات الدوائر الانتخابية، حيث تشكل بعض الطوائف الأكثرية المطلقة، فلا يحتاج مرشحوها إطلاقاً إلى كسب تأييد الناخبين من طوائف أخرى. فحصل بالنتيجة تحول بارز في المهام التي كان يمارسها الآخرون، الأمر الذي أدى بالزعماء إلى ضرورة استخدام لغة أكثر حدة في التعبير بغض عن المواقف الأساسية لطوائفهم. وكذلك استخدمت الأحزاب السياسية في مجالات عديدة أساليب الاتصالات والعلاقات مع الأنصار والمؤيدين التي كان يستخدمها الزعماء. وهكذا تحولت الأحزاب إلى زعماء بالتكامل، خاصة في مجال تمثيل مصالح الفئات المتوسطة والصغرى والضعيفة التي تقيم في المدن. فالذي لم يتمكن من الاستفادة من سوق السياسة التقليدية، وجد لدى الأحزاب بعض الحماية. وقد نشأ في الأحياء الجديدة التي تكونت بسرعة في ضواحي المدن نوع من المنافسة بين السكان القدامى الذين يواصلون دعم وتأييد الأعيان التقليديين، وبين القادمين

١٠٤ - راجع في هذا الصدد Boutros LABAKI, *From Extended Family to the Community Lebanon*, Centre for Lebanese Studies, Oxford (In print). Antoine N. MESSARRA, *Le modèle politique libanais et sa survie. Essai sur la classification et l'aménagement d'un système consociatif*, op. cit., p. 335.

١٠٥ - "عندما تتحول كل طائفة في حالة الأزمات إلى برلمان مصغر، يتضح أن الطوائف لا تشعر بتمثيلها فعلياً في مجلس النواب". ذات المرجع، ص ٣٣٧.

الجدد الذين اهتمت بهم واحتضنتهم الأحزاب السياسية^{١٠٦}.

تركزت هذه التغييرات في التمثيل السياسي للمصالح أثراً مختلفاً لدى الطوائف^{١٠٧}. برز هذا التغيير بنوع خاص لدى المواردنة. فنجحت احزابهم، خاصة في بيروت وفي المناطق الشرقية الشمالية من العاصمة، في مناهضة الزعماء. ولكن لدى السنة، تمكن الزعماء الأعيان من الحفاظ على مراكزهم، إذ ان نجاح حزب النجادة، وحزب البعث، والتجمعات الناصرية الصغيرة بقي محدوداً في الانتخابات، وانعكس ثمن ذلك في ميل الزعماء نحو تطرف كلامي. لدى الارثوذكس والروم الكاثوليك، تمكن الزعماء الأعيان من المحافظة على مراكزهم، رغم ان رواد الاحزاب غير البرلمانية خرجوا كلهم من طائفة الروم الارثوذكس. ولدى فئة من الدروز، رفع القادة التقليديون راية الاشتراكية دون ان يؤثر ذلك سلباً على الانتخابات، بينما الفئة الأخرى المرتبطة بالزعامة التقليدية لم تتأثر بذلك إطلاقاً. ولكن التطور الأكثر تعقيداً حصل لدى الشيعة. في الجنوب والبقاع حافظ كبار الملاكين على مراكزهم التقليدية، بينما انتمى عدد كبير من الشيعة الذين نزحوا الى بيروت منذ نهاية الستينات، الى الحزب الشيوعي، او الى حزب البعث او الى الحزب القومي السوري. وبما انه لا يحق لهؤلاء النازحين التصويت في بيروت، بل في المناطق التي نزحوا عنها، تبين ان الأكثرية الشعبية التي كان الزعماء التقليديون يحصلون عليها، اخذت تتضاءل. ومنذ نهاية الستينات بذل الرئيس الروحي للشيعة، الإمام موسى الصدر، جهوداً تكلفت ببعض النجاح للدفاع عن مصالح طائفته، سواء ضد الزعماء او ضد الأحزاب العلمانية. وهكذا تمكن من الفوز في الانتخابات النيابية عام ١٩٧٢ مرشحون حصلوا على تأييده.

خلال الستينات وفي مطلع السبعينات برز لدى كل الطوائف الكبيرة اتجاه ذو منحنى شعبي صرف، في طريقة تمثيل المصالح، اي تمثيل مصالح كل طائفة على حدة. فالدروز بحثوا عن مصالحهم عبر تأييدهم لسياسة علمانية. ووجدوا انصاراً ومؤيدين لهم لدى الاحزاب العلمانية خارج مجلس النواب. وقد تبين ان هذا الاتجاه يتنافى نوعاً ما مع اتجاه الأعيان المعتدلين، الذين تمكنوا في آخر انتخاب جرى قبل الحرب من الحصول على ثلثي مقاعد المجلس النيابي. ولكنهم اضطروا فيما بعد الى الانغماس في عملية استقطاب المواقف السياسية^{١٠٨}.

Fuad I. KHURI, *Sectarian Loyalty among Rural Migrants in Two Lebanese Suburbs*, op.cit. -١٠٦
p.207-210

Antoine N/ MESSARRA, *La structure sociale du parlement libanais*, op.cit. p.59ff -١٠٧

-١٠٨ "في ضوء هذه النظرة الى القوى السياسية تبرز عبثية تصنيف السياسة اللبنانية بين "اليمن" و"اليسار" او بين "اليمن المسيحي" و"اليسار المسلم". هناك فئة يسارية صغيرة تضم اتباعاً مختلفين ومتوعين في اصلهم او في انتمائهم الديني، ومعظم قائلتها من المسيحيين. كما كانت فئة هامشية قبل الحرب. من بين

٤ - النزاعات حول توزيع السلطة

عند تأسيس لبنان الصغير، لُحِظَ في البداية توزيع ممثلي مجلس الشورى بالتساوي على الطوائف الدينية، بقطع النظر عن كثافتها العددية. ولكن في عام ١٨٦٤، تقرر توزيع عدد الممثلين وفقاً لعدد السكان في كل طائفة واعتماداً على مبدأ النسبة. في لبنان الصغير، حصل تنفيذ ذلك بالاستناد الى اكثرية واضحة دون احداث اية مشكلة. ولكن منذ تأسيس لبنان الكبير، زالت تماماً تلك الاكثرية الواضحة. فعندما اراد لأول مرة زعيم سني عام ١٩٣٢ تقديم ترشيحه لرئاسة الجمهورية، برزت معارضة ضد هذا الترشيح بالاستناد خاصة الى براهيم احصائية تتعلق بعدد افراد كل طائفة. وهكذا اتسم الاحصاء الشعبي لعام ١٩٣٢ بهذا النوع من الخلاف السياسي^{١٠٩}.

في الأنظمة النسبية يعطى التعداد السكاني طابعاً سياسياً هاماً. وهذا ما يبرز بوضوح في لبنان. فالتعداد السكاني، الذي لا يأخذ بعين الاعتبار الإلتواء الى دين معين او طائفة معينة، يسمح باستخلاص النتائج المرتبطة بعدد سكان كل طائفة بحكم التوزيع الجغرافي للطوائف. كل احصاء في لبنان يستهدف اذاً، بطريقة مباشرة او غير مباشرة، احصاء عدد السكان وفقاً للطوائف، والبحث عن الاكثرية، وبالتالي عن مسألة توزيع السلطة.

بعد عام ١٩٣٢ لم يحصل اي تعداد سكاني في لبنان. فكل المعطيات السكانية اللاحقة هي تقديرات استندت على نتائج احصاء عام ١٩٣٢. فالتقديرات التي اوردها بعض الباحثين اللبنانيين لا تخلو من الاعتبارات الذاتية. فقد قدر باحث مسيحي عام ١٩٧٣ نسبة عدد المسيحيين ب ٥٥,١ ٪، بينما جاء تقدير باحث مسلم، عام ١٩٧٥، ب ٣١,٩ ٪^{١١٠}. وقد علق السوسيولوجي سليم نصر على هذه

القوى السياسية القائمة هناك حزب الكتائب، وهو اقوى حزب مسيحي يمكن تصنيفه "يسارياً"، ومعظم المنظمات والتنظيمات الاسلامية تصنف "يمينية". "... فدون الغوص بعيداً في دنيا الخيال، يمكن وصف النزاع القائم كنزاع بين ايديولوجيات اجتماعية متنافسة من النوع الحديث الذي يصنف بصورة عامة "اليمن" ضد "اليسار". ولكنه من الافضل اعتباره صراعاً عقيماً يهدف الى كسب النفوذ بين جبهتين طائفتين". راجع: Kamal S. SALIBI, "Right" and "left" in Lebanon, In: Gustav STEIN & Udo

STEINBACH (Ed.), The Contemporary Middle Eastern Scene, Opladen 1979, p.102.

Pierre RONDOT, Les institutions politiques du Liban, op.cit. p.20 -١٠٩

Edmond RABBATH, La formation historique du Liban politique et constitutionnel.. Essai de synthèse. Beyrouth 1973, p.5 -١١٠

كمال حسن، لبنان الازمة، في "الطليلة" ن ١١ (١٩٧٥) ٢، ص ٥٢، ذكره سليم نصر (راجع الحاشية التالية) -١١١

الارقام بقوله: "لا توجد في الوقت الحاضر اية احصاءات طائفية علمية وموضوعية"^{١١٢}. ومن الصعب التشكيك بصحة ما جاء على لسان هذا الأخير.

ولكن يبدو من المفيد مقارنة تقديرات بعض الباحثين الذين لا علاقة لهم بالنزاع الديمغرافي-السياسي في لبنان، مع نتائج تعداد عام ١٩٣٢، بهدف الحصول على تصوّر تقريبي يساهم في استنتاج حجم المسائل التي كانت موضوع خلاف بين مختلف الأطراف.

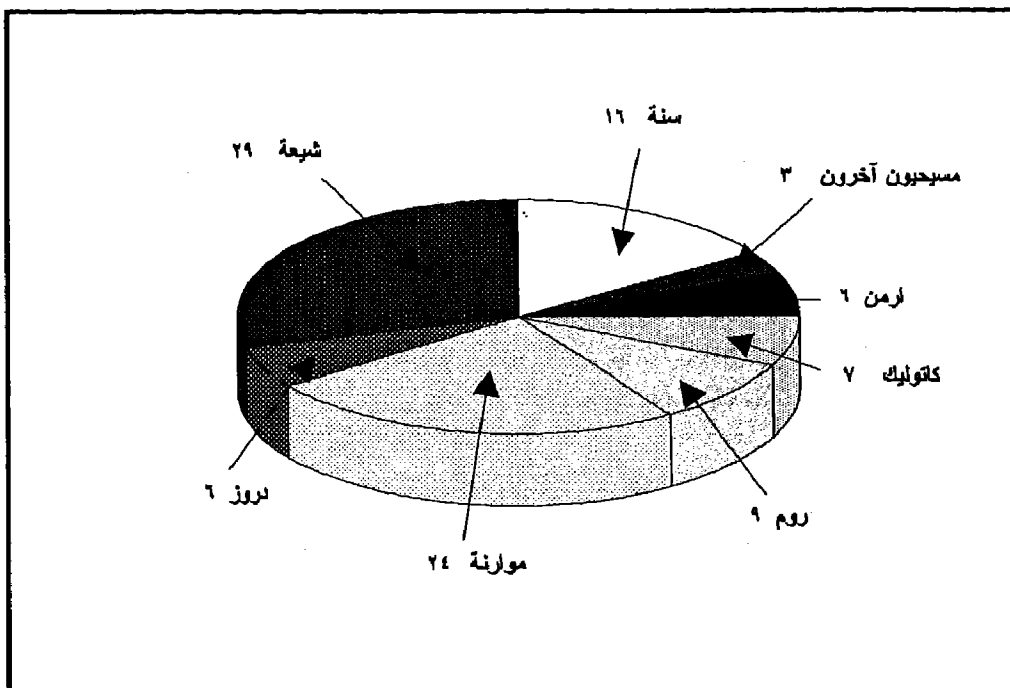
في عام ١٩٢٠، اي عند تأسيس الدولة، اعطى بعض التقديرات "جورج سمنه"، وهو باحث كان يؤيد دولة ذات قومية سورية اكثر من تأييده دولة ذات قومية لبنانية^{١١٣}. فقد أبرز في تقديراته أكثرية مسيحية كبيرة. ولا يمكن استبعاد تأثير ذلك على تشجيع المتخاصمين آنذاك للقبول بلبنان الكبير.

يستخلص من تعداد السكان لعام ١٩٣٢ نوعان من النتائج الهامة: من جهة عدد اللبنانيين المقيمين في لبنان، ومن جهة أخرى، عدد المسجلين في السجلات الرسمية، سواء كانوا مقيمين ام لا^{١١٤}. في عام ١٩٤٣، اي عام الاستقلال، نشرت تفاصيل عن المواطنين المسجلين^{١١٥}.

بالنسبة لعام ١٩٥٣، وقد نشرها لأول مرة الباحث الجغرافي الديني، "كلوس بيتر هارتمان"^{١١٦} (Klaus Peter Hartmann) . مشيراً ايضاً الى تقديرات عدد السكان المقيمين في عام ١٩٧٣^{١١٧}.

-
- ١١٢- Salim NASR, Pour éclairer la guerre civile au Liban. Jalons pour une position des rapports entre confessions et société libanaise, in: Jean BAUBEROT (Ed.), Palestine et Liban. Promesses et mensonges de l'Occident, Paris 1977, p.148
- ١١٣- جورج سمنه في مؤلفه المذكور، ص ٢٨٥، يضيف سكان وادي النصارى، الموجود اليوم في سوريا. وقد حذفت هنا.
- ١١٤- لا تشمل المعطيات الأخيرة هؤلاء المختبرين اللبنانيين، الذين لا يحملون بعد الجنسية اللبنانية. راجع: Pierre RONDOT, Les institutions politiques du Liban, op.cit. p.28f.
- ١١٥- Conseil Supérieur des Intérêts communs, Recueil des statistiques de la Syrie et du Liban, Beyrouth 1942, p.18; Pierre RONDOT, Les institutions politiques du Liban, op.cit. p.29.
- ١١٦- Klaus-Peter HARTMANN, op. cit. p.126.
- ١١٧- ذات المرجع. يعتمد "هارتمان" في هذا التقدير على تقارير صحفية لبنانية وعلى تحقيقاته الشخصية.

الطوائف الدينية تقديرات هارتمان ١٩٧٣ (المقيمون فقط)



المعطيات بالنسبة المئوية

اعتبر "هارتمان" هذه التقديرات "تقريبية"، كما اعتبر أكبر عامل لعدم صحة تقدير عدد الشيعة، الذي يتراوح بين ستمائة ألف وتسعمائة ألف نسمة. ولكنه اعتقد بان عدد ثمان مائة ألف نسمة هو رقم واقعي. ويعطي هذا المصدر الصورة التالية ١١٨.

النسبة المئوية لتوزيع السكان حسب الطوائف التعداد السكاني

١١٨ - جرى احتسابها بالنسبة المئوية.

المقيمون تقدير ١٩٧٣	المسجلون ١٩٥٣	المسجلون ١٩٤٣	المواطنون المسجلون ١٩٣٢	المواطنون المقيمون ١٩٣٢	تقدير ١٩٢٠	
٢٤	٣٠	٢٩	٣٠	٢٩	٣٥	الموارنة
٩	١١	١٠	١١	١٠	١٧	الروم الارثوذكس
٧	٦	٦	٦	٦	٨	الروم الكاثوليك
٦	٦	٦	٤	٤	—	الارمن
٣	٢	٢	١	١	١	الاقليات المسيحية
٤٩	٥٥	٥٣	٥٢	٥٠	٦١	مجموع المسيحيين
١٦	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	١٩	السنّة
٢٩	١٨	١٩	١٨	٢٠	١٣	الشيعة
٦	٦	٦	٧	٦	٧	الدروز
٥١	٤٤	٤٦	٤٧	٤٩	٣٩	مجموع المسلمين
—	١	١	١	١	—	متفرقون

انطلاقاً من تقديرات السكان عام ١٩٢٠، واستناداً الى التعداد السكاني عام ١٩٣٢، وعدد المسجلين، وتقديرات "هارتمان"، يمكن استخلاص نتيجتين رئيسيتين: أولاً، لا تشكل اية طائفة اكثرية مطلقة: ثانياً، لا يشكل الموارنة ولا الشيعة ثلث مجموع السكان. بالإضافة الى ذلك، يبدو ان الأكرية، سواء كانت مسيحية او اسلامية، كانت ضعيفة قبل الحرب.

يستنتج أيضاً عدد من الباحثين ان ارتفاع معدل نسبة الولادات لدى المسلمين، وخاصة لدى الشيعة، قلب الموازين. فمكان الأكرية المسيحية الضئيلة التي برزت في تعداد السكان عام ١٩٣٢، حلت اليوم اكرية مسلمة^{١١٩}. كشف ذلك تحقيق جمعية تنظيم الأسرة اللبنانية عام ١٩٧١، الذي اشار الى الفروقات الكبيرة في معدل

١١٩ - Fahim I. QUBAIN, op.cit. p.7; Jacques NANTET, Histoire du Liban, Paris 1963, راجع p.304. وهناك كتبة آخرون أشاروا الى اكرية مسلمة بنسبة ٦٠٪. راجع: Thierry DESJARDINS, Le martyre du Liban, Paris 1976, p.55-56; Pierre VALLAUD, Le Liban au bout du fusil. Avant-propos de Jean LACOUTURE, Paris 1976, p.52. استند الاخيران على ارقام واسعة الانتشار فقط دون التحقق منها.

الخصوبة لدى الطوائف^{١٢٠}. وقد امكن التثبت من هذه الفروقات لاحقاً عبر تحقیقات محدودة^{١٢١}. ويطرح السؤال هنا لمعرفة الى اي مدى يؤثر ذلك على تغيير التوزيع السكاني. ترتبط هذه التقديرات من جهة، بمعرفة متى استخدمت نسبة الخصوبة التي تم استنتاجها عام ١٩٧١ لاعطاء تقديرات عالية، وماهي القاعدة التي اعتمد عليها، من جهة أخرى، يبرز تساؤل حول ما اذا كانت هناك مساواة بين معدل الولادات ومعدل البقاء في الحياة. يستند "هارتمان" الى معدل ضعيف للوفيات لدى المواليد والاطفال لدى المسيحيين^{١٢٢}، وكذلك "بتس"^{١٢٣}. وهناك عامل تشكيك آخر هو الهجرة والعودة من الهجرة. فبينما كان المسيحيون وحدهم يهاجرون سابقاً، ارتفعت نسبة المهاجرين من المسلمين كثيراً خلال العقود الأخيرة، كما عاد عدد كبير من المهاجرين المسيحيين الى وطنهم في عقد الستينات، خاصة ان عدد العائدين من مصر كان كبيراً، بعد اجراءات التأمين التي اتخذها الرئيس عبد الناصر. فانطلاقاً من هذه المعطيات يستنتج "بتس" بان المسيحيين كانوا حتى اندلاع الحرب يشكلون أكثرية مطلقة^{١٢٤}.

من الممكن ان يكون هذا الاحتمال صحيحاً او خاطئاً. فلا الاستقصاءات عن معدل الخصوبة، او معدل الوفيات، ولا تقديرات الهجرة، يمكن ان تحل مكان معطيات التعداد السكاني، ولكن ما يمكن التثبت والتأكد منه، هو ان مؤشرات عديدة تدل على عدم التغيير المذهل في بنية التوزيع النسبي للطوائف اللبنانية في مرحلة ما قبل الحرب. كما يدل بعضها على عدم وجود اية أكثرية واضحة. ونظراً لضعف هذا الوضوح، قامت منذ عام ١٩٣٢ باستمرار مناقشات سياسية حول من يمكن اعتباره "لبنانياً"، لأن الاكثرية ترتبط بذلك، الجانب الإسلامي يطالب باعطاء الجنسية اللبنانية الى المجموعات التي تعيش في البلاد منذ مدة طويلة اي الاكراد والبدو المسلمون. والجانب المسيحي يطالب ايضا باعطاء الجنسية الى المسيحيين الذين هجروا الدول الشرقية ولجأوا الى لبنان، مثل الاشوريين، واليعاقبة والكلدان الذين قدموا من تركيا والعراق، والموارنة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك القادمين

- ١٢٠ - Association Libanaise du Planning Familial, La Famille au Liban, Beyrouth 1971.
في هذا التقرير تعتبر نسبة تكاثر الشيعة ٣,٦٪، والسنة ٢,٨٪، والموارنة وباقي الطوائف الكاثوليكية ٢,١٪، والروم الارثوذكس ١,٣٪، والدروز ١,٧٪. حُلّ هذه المعطيات جوزف شاميه. راجع Joseph CHAMIE, Religious Fertility Differentials in Lebanon, Ph.D.Diss. Univ. of Michigan 1976.
- ١٢١ - مثلاً، راجع نتائج تحقیقات الفصل السادس
- ١٢٢ - Klaus-Peter HARTMANN, op.cit. p.160
- ١٢٣ - روبرت باتس في المصدر المذكور، ص ٨٥، استخلص ما يلي: "النسبة الواقعية للولادات عند المسيحيين والمسلمين هي متشابهة فعلاً اذا ما اخذنا فقط الباقيين على قيد الحياة من الاطفال والاولاد".
- ١٢٤ - ذات المصدر. هذا الاستخلاص هو من الاهمية بمكان، نظراً الى ان "باتس" في تحقیقه وابحاثه عن الاقليات المسيحية في الشرق كان حذراً للغاية من التقديرات الذاتية ذات الطابع الكمي.

من سوريا^{١٢٥}. ولكن بقيت مسألة المغتربين اللبنانيين نقطة الخلاف الرئيسية. فبينما يرفض الجانب الاسلامي المتطرف ذلك، يطالب الجانب المسيحي المتطرف بأخذ المغتربين اللبنانيين بعين الاعتبار. ونظراً لعدم الاتفاق على بعض الأسس المشتركة، لم يحصل منذ أكثر من نصف قرن أي تعداد سكاني في لبنان. وهكذا استمر الجدل وفقاً لنموذج ثابت: يطالب السياسيون المسلمون ومؤسساتهم بتعداد سكاني. ويوافق السياسيون المسيحيون وإقاربهم على ذلك شرط اشراك المهاجرين اللبنانيين في التعداد. وهكذا يدور الجميع في دائرة مفرغة^{١٢٦}. وفي غياب أي تعداد سكاني جديد تستطع كل فئة الادعاء بأنها تشكل الأكثرية، واستطراداً تطالب بحقوق مماثلة بالنسبة للمشاركة في السلطة والحكم.

استهدفت هذه المطالب بنوع خاص أربع مؤسسات: المجلس النيابي، ورئاسة الجمهورية، ورئاسة الحكومة، والادارة العامة.

في المجلس النيابي توزعت المقاعد منذ عام ١٩٤٣ على أساس ستة مقاعد للمسيحيين مقابل خمسة للمسلمين^{١٢٧}. فأكثريّة مسيحية من ٥٤,٥٪ بموجب التعداد السكاني لعام ١٩٣٢ لم تعد واضحة إلا بصعوبة كبيرة. ولكن هذا الواقع البرلماني كان يدور فقط حول أكثرية رمزية. فقانون الانتخابات السابق كان يسمح بانتخاب نواب مسلمين في دوائر انتخابية ذات أكثرية مسيحية، كما يسمح بصورة أوضح بانتخاب نواب مسيحيين في دوائر انتخابية ذات أكثرية مسلمة^{١٢٨}. ففي الانتخابات البرلمانية التي جرت قبل الحرب عام ١٩٧٢، تمّ انتخاب اثني عشر نائباً مسيحياً على لوائح يهيمن عليها سياسيون مسلمون، وتقترح لها أكثرية شعبية مسلمة. بينما تمّ انتخاب خمسة مسلمين على لوائح ترتبط بقياديين مسيحيين. من حيث الانتماء السياسي، كان الجانب المسلم في المجلس النيابي يضمّ ٥٢ بدلاً ٤٥ مقعداً فقط، والجانب المسيحي ٤٧ مقابل ٥٤ مقعداً، كما كان يلحظ قانون الانتخاب. وهذا

١٢٥- في عهد الرئيس شمعون (١٩٥٢-١٩٥٨) حصل قسم من المسيحيين العائدين من المهجر وقسم من المسيحيين الفلسطينيين على الجنسية اللبنانية، باعتبار أنهم من اصل لبناني.

١٢٦- تجدر الإشارة الى انه لم تقدم أية فئة عل المطالبة بشمل المغتربين اللبنانيين في الاحصاء الشعبي، خاصة الذين يحملون الجنسية اللبنانية، كما يحصل في معظم الدول. فما يمكن استنتاجه من احصاء عام ١٩٣٢ والمعطيات اللاحقة، يشير الى ان الفروقات بين المواطنين المسجلين والمقيمين لا تبرز إلا نسباً مئوية ضئيلة فقط. ولذلك تتخوف إحدى الجهات بأنها لم تشكل بعد الاكثرية، كما تتخوف الجهة الاخرى من انها لم تعد تشكل اية اكثرية.

١٢٧- بالمقابل كان عدد المقاعد في المجلس النيابي قائماً دائماً على اساس ضربه بالرقم ١١: ٤٤، ٥٥، ٦٦، ومنذ عام ١٩٦٠ كان دائماً ٩٩ (وقد جرى تعديله في اتفاق الطائف واصبح ١٠٨، راجع الفصل التاسع لاحقاً).

١٢٨- راجع فيما يلي: Ilya F. HARIK, Lebanon, p.153; idem, Thze Economic and Social Factors in the Lebanese Crisis, in: Journal of Arab Affairs, 1(1982)2, p/229.

الأمر يؤكد ما أشير إليه سابقاً. فالقرارات التي كانت تتخذ لم تكن لها علاقة بمعايير الانتماء الطائفي، كما ان التحالفات النيابية كانت تتغير باستمرار. لذلك لا تبدو "الأكثرية المسلمة" بموجب الارتباط باللوائح الانتخابية أكثر أهمية من "الأكثرية المسيحية" القائمة على أساس قاعدة ٦ مقابل ٥ مقاعد، كما كان وارداً في قانون الانتخاب. رغم كل ذلك تمسك السياسيون المسيحيون بعناد بهذه الأكثرية الرمزية في مجلس النواب، كما طالب زملائهم المسلمون بتعديل ذلك نظراً لتبطل المعطيات الديموغرافية.

ولكن الهدف السياسي الأكثر واقعية كان بسبب الاختلافات في السلطة على مستوى رئاسة الدولة. فالدستور كان يعطي رئيس الجمهورية سلطات غير اعتيادية، كما يعطي رئيس الحكومة صلاحيات أقل منها بكثير. بموجب الدستور كان يحق لرئيس الجمهورية تعيين وإقالة الوزراء، يمن فيهم رئيس الوزراء. ويتمتع بحق نقض وإساع لقرارات مجلس النواب. ولا يستطيع هذا الأخير الاعتراض على هذا الحق إلا إذا صوتت فقط أكثرية مطلقة من النواب ضده. وكان يحق أيضاً لرئيس الجمهورية وبموافقة الحكومة حل مجلس النواب. ولكن الواقع الدستوري كان يخالف ذلك تماماً. فمحاولة كل رؤساء الجمهورية منذ عام ١٩٤٣ ممارسة صلاحياتهم بكاملها، أنت دائماً إلى قيام ازمات سياسية، مما اضطرهم الى التراجع عن مواقفهم. في عام ١٩٥٢ اضطر الرئيس بشاره الخوري الى الاستقالة، لأن معظم السياسيين المسلمين البارزين رفضوا قبول تشكيل الحكومة. بالمقابل كان نظام الحكم يمارس دائماً في لبنان دون صعوبات تذكر، عندما يختار رئيس جمهورية قوي شخصية قوية رئيساً للوزراء. وهكذا فرض الأمر الواقع قيام نظام ثنائي أي "دومفير" (Duumvirat) ماروني-سني^{١٢٩}. ومنذ عام ١٩٥٨، ازدادت صلاحيات رئيس الوزراء في مجال الممارسة السياسية، فاخذ يشارك رئيس الجمهورية في تشكيل الحكومة. كما ان القوانين والقرارات لا تدخل حيز التنفيذ دون ان يوقع عليها الوزراء المختصون ثم رئيس الحكومة ثم رئيس الجمهورية. وهذا الأمر ليس فقط ذا أهمية بالنسبة لتعيين الموظفين والضباط. فالدستور كان يخول رئيس الجمهورية بذلك، ولكن الممارسة الواقعية لم تكن تحصل إلا على أساس النسوية والتوافق فقط^{١٣٠}.

١٢٩ - كل شيء يحصل غالباً وكان الطائفتين الكبيرتين في الدولة راضيتين عن رؤية رؤسائها يعملان سوية على رأس الدولة. في نظر عدد كبير من اللبنانيين، الثنائي المسيحي المسلم على رأس الدولة يحقق توازناً مرضياً عملياً، حتى وإن لم تكن صلاحيات كل منهما ممكنة التشابه بقية مع بعضها". راجع:

Pierre RONDOT, Quelques réflexions sur les structures du Liban, op.cit. p.35.

١٣٠ - حتى منصب رئيس مجلس النواب الذي كرس منذ عام ١٩٤٧ للشبيعة، زادت أهميته كثيراً. منذ عام ١٩٦٤ اخذ صاحبه يمارس تأثيراً متزايداً في انتخابات رئاسة الجمهورية.

وبالرغم من هذا التطور الهام في الواقع الدستوري، بقي عدم التوازن قائماً بسبب الثنائية على رأس الدولة. لان رئيس الجمهورية كان يستطيع دائماً استبدال رئيس حكومة بآخر. ولكن منذ عام ١٩٤٣ لم يحصل ذلك اطلاقاً، باستثناء "تكسية" واحدة حصلت بين عام ١٩٧٠ و ١٩٧٦. فتعيين رئيس حكومة ضعيف سياسياً او غير شعبي، يثير دائماً سخط السنة، ويطرح مجدداً مسألة المشاركة في الحكم على رأس الدولة. ومن جانب آخر يبرز لدى الموارنة شعور بعدم الرضى بسبب تزايد سلطة رئيس الوزراء. ومنذ عام ١٩٥٨ تطور الوضع حتى تحول رئيس الجمهورية حكماً يقف على الحياد في المسائل المتعلقة بالطوائف، بينما يستغل رئيس الحكومة منصبه لتعزيز مصالح طائفته. لذلك تمسك الرأي السياسي الماروني بالاجماع على ان يبقى رغم ذلك منصب رئاسة الجمهورية للموارنة.

وفي ضوء مكانة واهمية هذين المنصبين على رأس الدولة تبرز بوضوح اهمية هذا الرمز. فتجول السلطة الفعلية لصالح رئيس الحكومة آثار مرارة الموارنة دون ان يرضي السنة. فالموارنة يعتبرون إسناد رئاسة الجمهورية الى ماروني ضماناً، بينما يعتبرها السنة امتيازاً رغم انها في افضل الاحوال تبقى محدودة الأبعاد بالنسبة للفريقين.

اما الطوائف الأخرى فقد بدأت قبل الحرب تعبّر عن امتعاضها وعدم الرضى عن ثنائية الحكم الماروني-السني، بفعل ابعادها عن قمة الدولة. في الجانب الشيعي، ازداد الاقتناع بان الشيعة اصبحوا اكبر الطوائف اللبنانية عدداً - او على الأقل اكبر الطوائف الإسلامية. لذلك ارتفعت من جانبهم اصوات المطالبة والضغط المتواصل لتعديل نظام توزيع السلطات او لإلغائها تماماً. وكذلك اخذ السياسيون الدروز، بدعم كامل من قبل الاحزاب اليسارية العلمانية، يطالبون بالغاء الربط بين منصب رئاسة الجمهورية ومنصب رئاسة الحكومة. وقد اقترحوا، كحل وسط، اقامة نظام دوري لهذين المنصبين، الأول بين الطوائف المسيحية، والثاني بين الطوائف الإسلامية^{١٣٢}. وقد اسهمت بالفعل هذه المطالب في استقرار النظام القائم. فالسياسيون السنة الكبار، رغم رغبتهم بمنصب رئيس الجمهورية لفترة قصيرة، يفضلون الاحتفاظ باستمرار بمنصب رئيس الحكومة، بدلاً من ابعادهم عن المنصبين لفترات من وقت الى آخر. وبرزت ايضاً مسألة توزيع المقاعد بين الطوائف في مجلس النواب. فالمصالح المتباينة تتجمد بسبب التناقض المتبادل كما يحصل في مسألة توزيع السلطة على رأس الدولة. في الحاليين يبقى النزاع حول مسألة اعطاء الأهمية للطوائف. اما في

١٣١- عيّن بشارة الخوري ٩، وكميل شمعون ٥، وفؤاد شهاب ٤، وشارل حلو ٣، وسليمان فرنجي ٦، والياس سركيس ٢، وامين الجميل ٢ ايضاً، كرؤساء حكومة.

١٣٢- اخذت هذه المعلومات من احد السياسيين القيايين في الحزب التقدمي الاشتراكي عام ١٩٧٩.

الحالة الثانية، فيحصل تحويل السلطة بين المنصبين بصورة غير منظورة. وهذا التحول يجعل من عدم التوازن الجزئي بالنسبة للموارنة هيمنة رمزية، مثلما هي قائمة منذ مدة طويلة. فالنزاعات حول رموز الحكم يمكن ان تكون شديدة مثل النزاعات حول الحكم ذاته.

اما المؤسسة التي دار حولها جدل قليل جداً فهي الحكومة، حيث لا تبرز اطلاقاً اية هيمنة رمزية^{١٣٣}. فهي تتشكل باستمرار من عدد متساو بين المسيحيين والمسلمين. ولكن لا بد من الاشارة الى ثلاثة اتجاهات في تطورها من حيث تشكيل الحكومة وطريقة عملها. فمع تزايد عدد المقاعد في مجلس النواب، يزداد عدد الوزراء، وذلك للحصول على تأييد عدد كافٍ من الكتل البرلمانية في ممارسة الحكومة لمسؤولياتها. وقد تراجعت تقاليد اسناد حقائب وزارية الى وزراء يمثلون طوائف معينة^{١٣٤}، كما طالبت مدة دوام الحكومات. ويلاحظ ان اية حكومة لم تسقط بسبب حجب الثقة عنها. فهي تستقيل عندما تنشأ تحالفات برلمانية جديدة. وكما يبدو الوضع على مستوى الحكومة، كذلك يبرز على مستوى المعارضة. هناك نوع من المساواة. لا يستطيع اي نائب ان يصبح وزيراً الا اذا حل مكان وزير من طائفته. وبما ان عدد النواب المسلمين كان اقل من عدد النواب المسيحيين، ولكن هذا العدد يتساوى في الحكومة. فان حظ النواب المسلمين بتسلم حقائب وزارية كان اوفر قليلاً من حظ النواب المسيحيين. وهكذا كانت تعكس الحكومة بصورة مصغرة تكوين المجلس النيابي، ولكن مع تصحيح بالغ الأهمية. فمجلس النواب كان يستند الى مبدأ النسبة بين المسيحيين والمسلمين المعترض عليه. والحكومة كانت وما تزال تستند الى مبدأ التعادل، الذي لا خلاف حوله.

اما المؤسسة الأكثر إثارة للنزاعات، فكانت الادارة الحكومية. هنا لم يقم النزاع حول الرموز فقط، بل ايضاً حول المنافع من نظام يرتبط مباشرة بالأُنصار، اي حول سلطة ترتبط مباشرة بتوزيع الغنائم. ان مقاطعة ادارات الدولة طيلة خمسة عشر عاماً من قبل المسلمين في عهد الانتداب أدت منذ البداية الى نشوء اختلال كبير في التوازن، اذ اسندت مسؤولية ادارات الدولة بمعظمها الى المسيحيين. وهذا الأمر بقي قائماً حتى ما بعد الاستقلال. فالموظفون الشباب الذين تسلموا اعمالهم في النصف الاول من الثلاثينات، لم يبلغوا سن التقاعد الا في السبعينات.

اما بالنسبة للوظائف الادارية العالية، مثل المدراء العامون، ورؤساء الأقسام، والمحافظون، والدبلوماسيون، فقد تطور توزيعهم حتى عام ١٩٥٨ كما يلي:

١٣٣- راجع هنا Elie SALEM, Cabinet Politics in Lebanon, in: The Middle East Journal, 21(1967)4, p.488-502.

١٣٤- ذات المرجع ص ٥٠٠

النسبة المئوية لتوزيع الوظائف العامة العليا على الطوائف

١٣٧١٩٥٨	١٣٦١٩٥٥	١٣٥١٩٤٦	
٣٨	٤٠	٣٩	الموارنة
١٢	١٢	١٩	الروم الارثوذكس
١١	٩	٣	الروم الكاثوليك
٢٦	٢٧	٢٩	السنة
٦	٤	٣	الشيعة
٦	٧	٦	الدروز

فخلال تلك السنوات كان الموارنة والروم الكاثوليك الأكثر تمثيلاً في هذه الوظائف، وكذلك أيضاً السنة، حتى "على حساب الشيعة"^{١٣٨}. أما السبب الرئيسي لضعف التمثيل الشيعي فيعزى بنوع خاص الى المستوى الثقافي. ففي سبيل تسلم منصب في الوظائف العليا لم يكن لدى الشيعة في بداية الستينات عدد كافٍ من خريجي الجامعات، خاصة من المجازين في الحقوق^{١٣٩}.

أما بالنسبة للوظائف المتوسطة والدنيا، حيث لا يشترط توفر مؤهلات جامعية، فكان الإخلال في التوازن محدوداً جداً. ففي عام ١٩٤٢، بلغ عدد الموظفين من الطوائف الإسلامية نسبة ٤٩٪، ومن بينهم ١٩،٥٪ من الشيعة. هذا وكان يقبض الموظفون المسلمون فقط ٤١٪ من مجموع رواتب الموظفين. وهذا مؤشر آخر

١٣٥- Ralph E. CROW, Religious Sectarianism in the Lebanese Political System, in: The Journal of Politics, 24(1962)3, p.519.

١٣٦- Hallm F. FAYYAD, The Effects of Sectarianism on the Lebanese Administration, p. 71; Wilhelm KEWENIG, op.cit., p.83.

١٣٧- ذات المرجع ص ٨٣.

١٣٨- ذات المرجع ص ٨٤.

١٣٩- في عام ١٩٦١ كان ربع عدد الطلاب الجامعيين اللبنانيين من المسلمين. من بينهم ١٠٪ من الشيعة. وفي جامعة القديس يوسف التي كانت وحدها حتى عام ١٩٦٠ تضم كلية للحقوق، كانت نسبة الطلاب المسلمين ١٠٪، وفي الجامعة الأميركية ٢٥٪ تقريباً.

لضعف تمثيلهم في الوظائف العالية وذوي الرواتب المرتفعة^{١٤٠}.

وبما ان المستوى الثقافي الجامعي لدى الطوائف الإسلامية ظلّ متدنياً - وهكذا بقي الحال حتى نهاية الستينات -، كان النواب المسلمون، واحزابهم السياسية ومؤسساتهم اكثر المتشددين والمتحمسين لاحترام نظام النسبة ومبدأ الكوتا، استناداً الى المادة ٩٥ من الدستور الداعية الى توزيع مناصب الوظائف الحكومية على الطوائف. اما السياسيون المسيحيون واحزابهم ومؤسساتهم فكانوا نظراً للتقدم العلمي لدى افراد طوائفهم، يطالبون بضرورة تعيين الموظفين استناداً الى معايير الأهلية. وكانوا يرجعون في هذا المجال الى المادة ١٢ من الدستور التي تشدد على المساواة بين كل المواطنين اللبنانيين في الدخول الى الخدمة المدنية، اي الوظائف العامة، استناداً الى معايير الاختيار على أساس الاستحقاق والمؤهلات. وهكذا برز مبدأ الكوتا والتشديد على العدل الجماعي ضد مبدأ الأهلية والعدل الفردي. وقد جاء التمسك بهذين المبدئين للحفاظ على مصالح معينة لبعض الفئات.

لقد تبين ان نظام النسبة هو الأقوى. ففي الإصلاح الإداري الذي اجري عام ١٩٥٢/٥٣ تقرر اختيار افضل المرشحين من حيث الأهلية لملء الوظائف العامة عبر مباراة رسمية. ولكن عدل هذا القرار عام ١٩٥٥ بسبب ضغوط سياسية قومية، وقد أدى ذلك الى التمسك بمبدأ المباراة، ولكن دون اختيار افضل المتبارين. وهكذا "اصبح ممكناً الاختيار بين العناصر الناجحة في المباراة، الذين ينتمون الى الطوائف الدينية التي ينبغي الاختيار منها، دون ان يلحق هذا الاختيار شكلياً اي ضرر بمصالح الدولة - ودون المسّ بالمادة ١٢ من الدستور"^{١٤١}.

وفي عام ١٩٥٨ اعلن الرئيس فؤاد شهاب التطبيق الحرفي لمبدأ التعادل: يعين مقابل كل موظف مسيحي موظف مسلم. وهذا ما تمّ انجازه خلال سنوات قليلة، ولكن ذلك لم يكن ممكناً الا بالتوسيع الكمي لجهاز الموظفين. وقد كان من المحتم ان يحدث انتكاس في مستوى المؤهلات خلال مدة من الزمن. ولكن الرئيس شهاب كان مقتنعاً بضرورة وبأهمية القضاء على عدم التوازن، آخذاً بعين الاعتبار مشكلات الأهلية المؤقتة^{١٤٢}. فتطبيق "مبدأ ستة ستة مكررة" ارضى الطوائف الاسلامية لعدة

١٤٠ - Halim F. FAYYAD The Effects of Secterianism on the Lebanese Administration

ذكره Wilhelm KEWENIG في مؤلفه المذكور ص ٨٥، ومعلقاً على ما جاء على لسانه بقوله: "بعكس الفك الذي يلاحظ أساساً ازاء الاحصائيات مهما كان مصدرها، فان موجز المعطيات الواردة اعلاه (اي الارقام المشار اليها في النص والمأخوذة من هذا المصدر، ت. هانف)، لا ريب فيها، لأن كلاً من الموظفين والمستخدمين المشار اليهم جرى تحديدهم باسمائهم ومن حيث انتمائهم الى طائفة دينية معينة".

١٤١ - "قولهام كافانيك" (Wilhelm KEWENIG)، المرجع المذكور، ص ٩٦-٩٨

١٤٢ - مقابلة اجراها المؤلف مع وزير العدل، فؤاد بطرس، عام ١٩٦٠.

سنوات، اذ لم يبرز من قبلها اي مطلب هام في الشؤون الداخلية^{١٤٣}.

ولكن بعد مرور عقد من الزمن، برزت مجدداً وبشدة مسألة المشاركة في الحكم على المستوى الاداري. تركز موضوع الجدل هذه المرة على عدد من الوظائف الرسمية التي كانت، رغم المعادلة العامة في كل المستويات الادارية، تعتبر من الوظائف التي "تعود الى" الطائفة المارونية. وهي في جزء منها وظائف هامة، مثل القيادة العليا للجيش، ادارة الاستخبارات في الجيش، وادارة الأمن الداخلي، وحاكمة مصرف لبنان، ورئاسة مجلس الشورى. ولكن لهذه الوظائف مغزى معنوي، أكثر منه سياسي^{١٤٤}. وكما كان الحال في موضوع الجدل حول منصب رئاسة الجمهورية، تبرز هنا مواقف الموارد التي تعتبر التمسك بهذه الوظائف "كضمانة" ضرورية للمسيحيين، بينما يقول المسلمون بان هذه الحجج هي امتيازات لا مبرر لها. ولكن الموقفين يفتقران الى زخم مقنع. فقط القيادة العسكرية والأمنية يمكن اعتبارها ضماناً - ولكن جزئياً - للحفاظ على الأمن المسيحي. من جهة أخرى، يمكن اعتبار التمسك بمبدأ المعادلة في الوظائف الأخرى التي يحتفظ بها الموارد بانها سطحية، كما لا يمكن اعتبارها امتيازاً.

ان الحملات ضد ما يسمّى "بالامتيازات" لا تمثل أكثر من كلام استهلاكي شعبي يستهدف مطلباً آخر، يطالب به الجانب الإسلامي باستمرار منذ نهاية الستينات، ألا وهو الغاء نظام الحصص والنظام النسبي في الجهاز الاداري كما في السياسة. فنظام الحصص او الكوتا، في الادارة كان بالنسبة للطوائف الإسلامية ملائماً، طالما لم تكن تتوفر لديها مؤهلات وخبرات عالية من جهة، وطالما كانت تعطى لها او تستحدث لها وظائف جديدة من جهة أخرى. وفي اواخر الستينات بلغ المسلمون ذات المستوى مثل المسيحيين في التعليم العالي، كما انهم شكلوا في عام ١٩٧٢/٧٣ أكثرية بلغت ٥٣٪ من الطلاب^{١٤٥}. لقد حصل هذا التقدم المذهل في المستوى العلمي عبر بناء الجامعة اللبنانية. وقد ساعدت كلية الحقوق فيها في منح شهادات تخول حاملها الانخراط في السلك الاداري. في عام ١٩٦٥/٦٦ بلغت نسبة الطلاب المسلمين ٦٤٪ من طلاب كلية الحقوق^{١٤٦}. وبعد ثماني سنوات، اي في عام ١٩٧٤،

١٤٣- Marwan HAMADE, L'Islam libanais du Nassérisme à la participation, in: Travaux et Jours

53(1974), p. 7.

١٤٤- مثلاً، رئاسة الجامعة اللبنانية الرسمية، رئاسة محكمة الاستئناف، رئاسة محكمة الاستئناف العسكرية،

الخ ...

١٤٥- Boutros LABAKI, Rapports de force intercommunautaire et genèse de conflits internes au Liban,

op. cit. p. 33.

١٤٦- ذات المصدر، ص ٢٢

بلغ عدد المرشحين المسلمين للوظائف الادارية العليا ٦٤٪١٤٧. ولكن في تلك الأثناء كان الجهاز الاداري قد اكتمل من العدد المخصص للمسلمين. اما المتخرجون من التعليم العالي من ذوي التطلعات والطموحات الكبيرة التي تعززت بمقتضى الاتجاه الذي برز في الحقل العام منذ عام ١٩٥٨، فقد اندفعوا نحو سوق العمل الذي لم يعدوا له، خاصة حاملي الإجازة في الحقوق^{١٤٨}. فاتجهت عندئذ كل الآمال نحو فتح المجال مجدداً في حقل الخدمة المدنية. فبرزت المطالبة بالغاء نظام الحصص و"الامتيازات"، وبالتالي الغاء طابع النسبة في الدولة، فقامت بالتالي مظاهرات طلابية ضد البرلمانيين - الذين وُصِفوا "بالتسعة والتسعين حرامي" - ولكن امكانيات هؤلاء كانت تصطدم دائماً بالامكانيات الاقتصادية المحدودة. لم تكن المظاهرات الطلابية في البداية مرتبطة بطائفة ما. فالطلاب المسيحيون أيضاً شعروا أيضاً بخطر تحولهم الى طبقة البروليتاريا الأكاديمية. فالشعور الأساسي المشترك استهدف تحقيق دولة ومجتمع أكثر حداثة، يسمح بإيجاد حلول للمشاكل المستقبلية. فالتيغير السياسي الذي اصطبغ بشعور مكثف، ولكن مغلف بهدف مشترك مبهم من قبل طلاب كل الطوائف، اندثر في بداية السبعينات. فانضم قسم من الطلاب الى الأحزاب اليسارية، كما أيد قسم كبير منهم المطالب الكلاسيكية للإسلام السياسي، مثل الإحصاء السكاني، والغاء المبدأ النسبي سياسياً وإدارياً. وهنا تأرجح الجانب المسيحي في الحركة الطلابية بين الإتجاه التقدمي والعودة الى المواقف السياسية لطوائفهم.

بقيت النزاعات حول تقاسم السلطة السياسية والإدارية هي ذاتها من حيث الجوهر منذ بدء الاستقلال وحتى اندلاع الحرب. فتركزت مواضعها على التعداد السكاني وشروط تنفيذه، على توزيع المقاعد في مجلس النواب حسب الطوائف، تقاسم السلطة بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة، وتوزيع الوظائف العامة. فتقاسم السلطة الواقعي لم يعدل جوهرياً. فقد نشأت على رأس الدولة ثنائية حكم متساوية فعلياً، وان لم يكن ذلك بطريقة صريحة^{١٤٩}. وعلى مستوى الوظائف العامة، حل مكان الأكثرية المسيحية التي كانت قائمة في البداية، مبدأ المساواة والتوازن. وما بقي، لم يكن سوى "الهيمنة الرمزية" للمسيحيين، خاصة الموارد. فالدفاع عن هذه "الهيمنة" باعتبارها "ضمانات"، والتهجم عليها باعتبارها "امتيازات" شكلا خلال عقد من الزمن

١٤٧- الدرجة الثالثة (مستوى الإجازة)، ذات المصدر، ص ٢٠.

١٤٨- كان حظهم كمحامين محدوداً، لأن مكاتب المحاماة القائمة كانت تختار أفضل الخريجين المؤهلين من جامعة القديس يوسف.. اما العمل في القطاع الخاص فقد كان متوفراً للقانونيين. ولكن نظراً لتوفر العمل التجاري الدولي، كانت الشركات تعلق أهمية خاصة على الكوادر الذين يتقنون لغات عديدة، إلا أن إتقان اللغات الأجنبية، لم يكن في تلك الفترة يلقى اهتماماً زائداً في الجامعة اللبنانية.

١٤٩- سيجري التطرق لهذا الموضوع لاحقاً.

مادة للمجادلات والمناقشات وفي مجلس النواب وخارجه بنوع خاص. وبقطع النظر عن ذلك جرى التوصل الى ايجاد تسويات وتوافق في اطار المؤسسات. لقد حصل انتقال بطيء من حالة اللاتوازن الذي كان قائماً في البداية الى حالة توازن فعلية. فالنظام اللبناني في مجال تسوية النزاعات الداخلية ابرز خلال ثلاثة عقود من الزمن مرونة، وبالتالي أهلية في التكيف الى حد بعيد. فالتمسك "بضمانات" والمطالبة بالغاء "الامتيازات" لم تكن سوى مطالب أولية تطرح اثناء التفاوض بهدف الحصول على حصة اكبر في السلطة والمنافع الناتجة عنها. اما توقف هذا المفاوضات عام ١٩٧٥ فلا يعود الى آليات السوق السياسي، بل الى نزاعات ذات طبيعة أخرى.

٥ - الطبقة، والطائفة، والنزاعات الاقتصادية

دفع غياب المعطيات عن التعداد السكاني ليس فقط الى "الفانتازيا" السياسية، بل ايضا الى "الفانتازيا" التحليلية الاجتماعية، اذ ارتبطت نتائج التحليل عادة مع الاقتناعات السياسية للمحللين. في منتصف السبعينات، قبل وبعد اندلاع الحرب، صدر عدد من الابحاث التي وصفت الطبقات الاجتماعية والطوائف بانها متماثلة الى حد بعيد، وفسرت النزاعات بين الطوائف بأنها صراع طبقي^{١٥٠}. كان هذا المفهوم بطبيعته مثيراً ومهيجاً للحساسيات، استخدمته بعض وسائل الإعلام وواجهت به المواضيع المعقدة بتصريحات مبسطة. فالكليشه التي وصفت "المسيحيين بالأثرياء" و"المسلمين بالفقراء" نجحت الى حد ما في حملات اعلانية ودعائية يبدو ان فصولها لم تنته بعد.

ابتعد بعض الباحثين تماماً عن هذه الكليشه. فحلت الاقتناعات مكان التعداد السكاني، كما جمعت معطيات من مصادر عدة غير كاملة، ولكنها موثوقة، وتم استكمالها عبر تحقيقات شخصية، كما جرى تفسيرها مع كثير من الحذر. هذا ما برز خاصة في ابحاث "كلود دوبار" و"سليم نصر"، و"بطرس لبكي"^{١٥١}. من خلال هذه الابحاث جرى الكشف عن اخطاء هامة حول طريقة التماثل بين الطبقات والطوائف، وحول التغييرات في طريقة التماثل في مرحلة ما قبل الحرب.

١٥٠- سليمان تقي الدين، التطور التاريخي للمشكلة اللبنانية، بيروت ١٩٧٧، ص ٩٦ م. الصلح، المارونية السياسية، سيرة ذاتية، بيروت ١٩٧٨؛ ه. جابر، السلطة والتوازن في لبنان، في: شؤون فلسطينية، ٥١/٥٠ بيروت، دون تاريخ؛ وقد انتقده: ياسين الحافظ، قراءة نقدية لبعض طروحات الحرب في لبنان، في: لبنان الديمقراطي العربي العلماني، ٨، بيروت (١٩٨١)، ص ١-٤٥؛ راجع أيضاً:

Samir KASSIR, L'affirmation des chiites libanais, in: Le Monde Diplomatique, Mai 1985, p.12.
Claude DUBAR & Salim NASR, op.cit.; Boutros LABAKI, Structuration communautaire, rapports de forces entre minorités et guerres au Liban, in: Guerres mondiales et conflits contemporains, 151(1981), p.43-70.

عندما انشئت الجمهورية اللبنانية في حدودها الحالية عام ١٩٢٠، أدى ضمّ المناطق الحدودية الى لبنان الصغير في نظام اقتصادي وحكومي، بطريقة شبه آلية، الى اندماج غير متساوٍ. وبما ان سكان المناطق الجديدة كانوا من طوائف دينية متباينة، حصل أيضاً عدم توازن بين الطوائف. في لبنان الصغير، كانت هناك اكثرية من صغار الفلاحين والمزارعين المستقلين. اما في المناطق الحدودية فكانت الاراضي خاصة في المرحلة الاخيرة من الحكم العثماني قد انتقلت ملكيتها الى كبار الملاكين. في لبنان الصغير وفي بيروت نشأت طبقة بورجوازية من التجار، كما فاقمت وتطورت صناعة الحرير، وبرزت المهن الحرة. فالتقدم العلمي الذي عرفه المسيحيون مدة طويلة من الزمن، مكنهم من تبوؤ المناصب العالية في عدة ميادين^{١٥٢}. ثمانون بالمئة من التجار تقريباً، ومصدرو الحرير، واصحاب المصارف، وكذلك اكثر من ستين بالمئة من المستوردين واصحاب شركات النقل البحري في بيروت، وحتى ٩٢ بالمائة من مصنعي الحرير، كانوا مسيحيين^{١٥٣}. وكذلك في ميدان الحرف اليدوية احتلّ المسيحيون موقع الصدارة. في عام ١٨٨٩ كان كل صانعي الاحذية في بيروت من المسيحيين، وكذلك الخياطون والنجارون وحتى اكثر من نصف الحدادين. وبين عمال المصانع شكل المسيحيون عشية الحرب العالمية الاولى، وعلى معظم اراضي لبنان الحالي، نسبة ٨٣ بالمائة^{١٥٤}.

استناداً الى هذه الارقام برز عدم توازن واضح. فمجتمع الطوائف المسيحية شكّل القسم الاكبر من بورجوازية التجار والصناعيين والمهن الحرة، كما شكّل المسيحيون اكثرية الحرفيين والعمال. والفلاحون منهم كانوا يعملون مستقلين^{١٥٥}. فالامر لم يكن يدور حول طبقة، بل حول مجتمع مكثف التاريخ مع طبقات متباينة.

تطبّق هذه الصورة ايضاً على الطوائف الاسلامية. لقد كان المسلمون يشكلون قبل الحرب العالمية الاولى ٤٣ بالمائة من التجار على كافة اراضي لبنان الكبير، و٢٩ بالمائة من المستوردين، و٤٠ بالمائة من العاملين في حقل التأمين، وبعض اصحاب المصارف - خاصة في مدينة طرابلس - وبعض الحرفيين. وكذلك الاكثرية الكبيرة من كبار ملاكي الاراضي في شمال البلاد وشرقه وجنوبه كانوا من المسلمين، وبالتالي كل الاجراء العاملين لديهم والمرتبطين بهم. فالتباين الطبقي كان اذاً اكثر بروزاً لدى المسلمين منه لدى المسيحيين.

هذه الاوضاع غير المتساوية التي كانت قائمة عند تأسيس الدولة، كانت نتيجة

-
- ١٥٢ - ذات المصدر، ص ٥٤
 - ١٥٣ - ذات المصدر، ص ٥٤
 - ١٥٤ - ذات المصدر، ص ٥٥
 - ١٥٥ - ذات المصدر، ص ٥٤ وما يليها.

تطوّر تاريخي مختلف تماماً بين لبنان الصغير والمناطق الحدودية التي ضمت اليه، فقد خلف ذلك أثراً كبيراً ولمدة طويلة، رغم السياسة التي اتبعت في عهد الانتداب للحّد من هذه الفجوة بين المناطق، وبالتالي بين الطوائف الدينية^{١٥٦}. فقد أنشأت السلطات الفرنسية نظاماً تعليمياً رسمياً بإشراف الدولة، خاصة في المناطق البعيدة التي ضمت الى لبنان الصغير. وقد استفاد من هذا النظام أكثر من ٨٠٪ من التلامذة المسلمين. ولكن رغم هذه الاجراءات، بقيت الفروقات كبيرة عشية نيل الاستقلال؛ في عام ١٩٤١، بلغت نسبة الاولاد المسيحيين ٢٧ بالمائة فقط، وبقي الاجحاف قائماً خاصة لدى الشيعة والاولاد الإناث في الطوائف الاسلامية^{١٥٧}.

بعد الاستقلال اتبعت سياسة التوازن الاجتماعي والاقتصادي بين المناطق والطوائف، وذلك تحت الضغط المتصاعد من قبل المسلمين المشاركين في الميثاق الوطني. فوسائلهم كانت التسوية النسبية في الادارة الرسمية، والبنية التحتية والسياسة التربوية.

اما مرحلة السياسة الأكثر حسماً في مجال تعزيز التوازن الاقتصادي والاجتماعي فقد تمّ التركيز عليها في عهد الرئيس فؤاد شهاب الذي كلف عام ١٩٥٩ المنظمة الفرنسية للتخطيط الانمائي المعروفة بمنظمة "ايرفد"، برئاسة الراهب الدومينيكاني الاب "لويس-جوزيف لوبرا"، بدراسة شاملة عن التنمية في البلاد. وفي تقريره شدّد "لوبرا" على ان "الفروقات في مستوى العيش بين المناطق والطبقات الاجتماعية كبيرة جداً، وانها تحتاج الى بذل جهود كبيرة للقضاء عليها"^{١٥٨}. وقد أدت هذه الدراسة الى تنفيذ عدد من المشاريع الانمائية الهامة في مجال الكهرباء، والرّي، وشقّ الطرقات في المناطق المتخلفة. وفي الوقت نفسه، جرى اِصال شبكات الهاتف والكهرباء الى جميع المناطق النائية، كم جرى تحسين اِبنية المؤسسات الصحية. وقد تمّ تنفيذ قسم من هذه المشاريع رغم معارضة كبار ملاكي الاراضي الشيعة في الجنوب والسنة في الشمال. فهؤلاء كانوا يخشون من اضعاف نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي بسبب هذه المشاريع وبسبب تزايد نفوذ الدولة عبرها^{١٥٩}. في عهد الرئيس شهاب جرى تعزيز نظام التعليم الرسمي بطريقة مذهلة، خاصة فيما يتعلق بالمدارس الثانوية والمهنية، والجامعة اللبنانية. وقد برزت

١٥٦ - ذات المصدر، ص ٥٦؛ راجع أيضاً

Theodor HANF, Erziehungswesen in Gesellschaft und Politik des Libanon, op.cit. p.74-84.

١٥٧ - République Française, Rapport sur la situation en Syrie et au Liban à la Commission de Tutelle de la Société des Nations, Paris 1926-1939, Tableaux

Le rapport du Père Lebret, in: Le Commerce du Levant, 1(1960)3, p.25. ١٥٨

Herwig LECHLEITNER, Konfessionsgruppen und Wirtschaftsleben im Libanon, in: Geographische Rundschau, 24(1972)6, p.215. ١٥٩

نتائج هذه السياسة في المعطيات الواقعية التي استتجت عام ١٩٧٤، إذ هبط مستوى الامية الى ١٤ بالمائة لدى المسلمين والى ١١ بالمائة لدى المسيحيين^{١٦٠}. وفي التعليم الثانوي والجامعي بلغ عدد المسلمين والمسيحيين ذات المستوى تقريبا، ففوق المسيحيين العلمي تميّز، منذ ذلك الحين، ببعض الجوانب النوعية في مؤسساتهم التربوية، خاصة في مجال تعلّم اللغات الاجنبية. ماهو اذا تأثير هذه السياسة الحكومية المتوازنة على الاندماج بين الطبقات والطوائف؟

في عام ١٩٦٠ جرى وصف ارتباط الطوائف بالطبقات كما يلي^{١٦١}: الطبقة الادنى تتألف من العمال الموسميّين وبعض الفرص السانحة. يشكّل هؤلاء نوعاً من البروليتاريا الدنيا، ويتألفون بغالبيتهم من غير اللبنانيين، الذين لا يحملون تصاريح رسمية تسمح لهم بالعمل، كالفلسطينيين، والاكراد، والعوليين، والسوريين. في المناطق الحدودية، تتألف اكثرية السكان من العمال الزراعيين والشركاء المرتبطين بملأكي الاراضي الزراعية. هؤلاء لم يساعدهم الحظ لتحسين اوضاعهم الاقتصادية. لذلك بدأوا منذ عام ١٩٦٠ بالنزوح الى المدن، حيث عرفوا مستوى عيش افضل قليلا من السابق. وقد زادوا في اعداد البروليتاريا الدنيا في المدن. وكان معظم افراد طبقة العمال الزراعيين من المسلمين، وخاصة الشيعة. اما في المدن فكانت طبقة العاملين في الصناعة، والحرف اليدوية، وقطاع البناء والخدمات، في حال افضل من حال العمال الزراعيين. ولكنها كانت تعيش في اوضاع صعبة جداً، خاصة بالنسبة للعاملين في قطاع الخدمات الصغيرة. انذاك لم يكن اكثر من ١٢ بالمائة فقط من العمال منتظمين نقابياً، وهذا ما كان يضعف مواقفهم في المفاوضات مع الحكومة وارباب العمل. شكل السنة اكثرية في قطاعات الحرف اليدوية، والبناء والخدمات. جاء بعدهم العمال من الارمن والموارنة.

وبينما كانت الطبقات المشار اليها اعلاه تؤلف تقريباً نصف الفئة العمالية من السكان، كانت الفئة المتوسطة تؤلف القسم الاكبر من النصف الآخر. فضمت المستخدمين في المؤسسات الخاصة، والموظفين، وصغار المزارعين والتجار والصناعيين، بالاضافة الى بعض العاملين في قطاع المهن الحرة. تميّزت هذه الطبقة بدخلها المتوسط، واستقلالها في العمل، وامكانياتها في ممارسة عدة مهن. فاذا ما استثيت فئة الموظفين، فان الطبقة المتوسطة كانت تتألف باكثريتها من المسيحيين. ومن خصائص فئة الطبقة المتوسطة المقيمة في المناطق الجبلية،

Yves SCHEMEIL, op.cit. p.68. Tableau 8. -١٦٠

Theodor HANF, Erziehungswesen in Gesellschaft und >Politik des Libanon, op. cit. p.31-38; -١٦١

Georges HAKIM, The Economic Basis of Lebanese Polity, In: Leonard BINDER (Ed.) op.cit. p.60;

Ralph E. CROW, Interest Groups in the Lebanese Political Process, Beirut 1962, p.16; Rapport de l'IRFED, Beyrouth & Paris 1962, Documents I-1-13, 36 et 38

ارتباطها بممارسة أنشطة زراعية - مثل زراعة الخضر والأشجار المثمرة - بالإضافة الى ممارسة نشاط مقاولي او وظيفي في المدينة. وفر هذا الارتباط بالطبقة الزراعي لفئة كبيرة من الطبقة المتوسطة قسماً كبيراً من الاستقلالية. اما الطبقة العليا، وعددها محدود جداً، فتألفت من كبار ملاكي الاراضي، من الصناعيين وكبار التجار. اما من حيث انتمائها الطائفي، فكانت خليطاً من كل الطوائف. ولكن برزت اكثرية مسلمة بين كبار ملاكي الاراضي، واكثرية مسيحية بين الصناعيين.

في مطلع الستينات كانت المصالح الاقتصادية بالنسبة للطبقة المتوسطة والطبقة العليا متشابهة تقريباً. كانت الفئتان تدعم السياسة الاقتصادية القائمة والمتميزة بمبدأ التساهل والتهاون المتطرف، واعطاء الافضلية للضرائب غير المباشرة، وانعدام التشريع الاجتماعي. ولكن تناقضات المصالح الاقتصادية تحولت الى "قشل" عبر الطوائف. فأكثرية المسيحيين وقفت الى جانب الطبقة المتوسطة والطبقة العالية، كما وقفت اكثرية من المسلمين الى جانب طبقة العمال والمزارعين. وبما ان اكثرية الزعماء السياسيين المسلمين ينتمون الى الطبقة العليا، فلم يجد العمال خلال مدة طويلة اية فئة تمثل مصالحهم وتدافع عنهم.

كانت الفروقات في الدخل في مطلع الستينات عالية^{١٦٢}. فقد كشف تقرير بعثة "ايرفد" عن التوزيع التالي^{١٦٣}:

الفئة	متوسط دخل العائلة باللييرة اللبنانية	النسبة المئوية لمجموع السكان	حصة كل فئة في الانتاج الوطني %
البؤساء	١,٠٠٠	٨,٨	١,٥
الفقيرة	٢,٠٠٠	٤١,٢	١٦,٣
المتوسطة	٣,٥٠٠	٣٢,٥	٢٢,٢
الميسورة	١١,٠٠٠	١٤,٠	٢٨,٠
الغنية	٤٠,٠٠٠	٤,٥	٣٢,٠

١٦٢ - "فيليكس بوكارت (Felix PAUKERT) قام بدراسة "منظمة العمل الدولية" عن التفاوت في المداخل في ٥٦ بلداً في الستينات. فقد تنوع المؤشر بين ٠,٢٦ (كوريا الجنوبية) و٠,٦٤ (الغابون). وبلغ المؤشر بالنسبة للبنان ٠,٥٥ قريباً جداً من المؤشر بالنسبة لفرنسا ٠,٥٠، اي ان التباينات بين البلدين كانت مقاربة كثيراً. راجع: Fernand SANAN, Notes sur la répartition du revenu au Liban, in:

L'Economie des Pays Arabes, étude mensuelle, 20(1977)222, p.9-15.

١٦٣ - République Libanaise, Ministère du Plan, Mission IRFED-Liban 1960-61, Beyrouth, p/93.

خلال العامين ١٩٧٣ و ١٩٧٤ قام السوسيولوجي الفرنسي "ايف شاميل" (Ives Schemeil) بتحقيقات ميدانية سمحت باستنتاج تعديل كبير في توزيع الدخل^{١٦٤}.

١٩٧٣

النسبة المئوية من مجموع السكان	معدل الدخل بالعملة اللبنانية
٢٣,٥	٢,٠٠٠
٢٨,١	٣,٠٠٠
٢٥,٩	٦,١٥٠
٢٢,٢	٨,٠٠٠

١٩٧٤

النسبة المئوية من مجموع السكان	معدل الدخل بالعملة اللبنانية
٢٠,٣	١,٨٥٠
٣٦,٧	٢,٧٥٠
٢٣,٤	٥,٥٠٠
١٩,٥	٧,٣٥٠

تسمح المقارنة مع ارقام عام ١٩٦٠ باستنتاج ارتفاع واضح في دخل الفئات المتوسطة، وانخفاض في دخل الفئات العليا بين ١٩٧٣ و ١٩٧٤.

ويبرز مؤشر آخر عن تعادل جزئي للفروقات السابقة في دراسة قام بها عام ١٩٧٠ "ريموند دالبرات" (Raymond Delprat)، الذي اشرف سابقاً على دراسة

١٦٤- اعتمد بطرس لبكي على نتائج تحقيقات "شاميل" المتعلقة بأسعار عام ١٩٦٠ وذلك لتسهيل امكانية مقارنة متقاربة. Yves SCHEMEIL, op.cit. p.22; Boutros LABAKI, Structuration communautaire, rapports de force entre minorités et guerres au Liban, op.cit. p.64.

بعثة "إيرفد"، استخدم مؤشراً شاملاً عن "توعية الحياة"، يتألف من عدة رسائل، أهمها: الصحة والنظافة، الاقتصاد والتقنية، السكن، الوضع المدرسي، المستوى الثقافي والاجتماعي^{١٦٥}.

المنطقة المحافظة	مؤشر نوعية الحياة عام ١٩٦٠	مؤشر نوعية الحياة عام ١٩٧٠	النسبة المئوية للتطور
بيروت وجبل لبنان	٢,٢٤	٢,٥٩	١٥,٦
الشمال	٢,١٣	٢,٥٢	٤٠,٠
الجنوب	١,٥٣	٢,٢٠	٤٣,٨
البقاع	١,٤٧	٢,٠٠	٣٦,١
معدل مجموع المحافظات	١,٦٩	٢,٢٣	٣٢,٠

استناداً الى كل هذه المعطيات، استخلص بطرس لبكي بان "المناطق الحدودية في لبنان التي تتألف من اكثرية مسلمة، عرفت تقدماً واسعاً جداً، خاصة جنوب لبنان، حيث تبلغ نسبة السكان المسلمين فيه ٧٠٪. لقد عرف الجنوب تحسناً في مستوى الحياة بلغت نسبة ٤٤ بالمائة بين عام ١٩٦٠ و ١٩٧٠^{١٦٦}.

إذاً، لا يمكن التشكيك اطلاقاً منذ عام ١٩٦٠ بانخفاض نسبة الفروقات في الدخل، وفي مستوى الحياة بين المناطق. وهذا يعود بالتأكيد وفي قسمه الاكبر الى سياسة الدولة. وقد اسهمت في ذلك عناصر اخرى، فقد تطور الاقتصاد اللبناني كثيراً منذ عام ١٩٦٠. وحصل تطور كبير في القطاع الزراعي، الذي كان يستخدم عام ١٩٥٩ نصف الطبقة العمالية، وعام ١٩٦٥ ثلثها، وعام ١٩٧٠ خمسها تقريباً^{١٦٧}. حتى المزارعون الصغار المستقلون بدأوا يمارسون أنشطة جانبية. كذلك باع عدد كبير من كبار الملاكين اراضيهم الى المقاولين، وغالباً الى الاثرياء العائدين من بلدان الاغتراب الذين مارسوا عمليات استثمار الاراضي الزراعية وتوجيهها نحو

١٦٥ - Raymond DELPARET, LIBAN: L'évolution du niveau de vie en milieu rural 1960-1970, Beyrouth 1970.

هذا التقرير غير منشور، ذكره بطرس لبكي، المصدر المذكور ص ٦٥.

١٦٦ - ذات المصدر.

١٦٧ - Claude DUBAR & Salim NASR, op.cit. p.93

التصدير. وهكذا فقد، خاصة في منطقة عكار، وفي لبنان الجنوبي، عدد كبير من الشركاء والعمال الزراعيين دخلهم، واضطروا الى النزوح الى المدن. في عام ١٩٦٠ اضطر لبنان الى استيراد ٤٠ بالمائة من حاجاته الغذائية^{١٦٨}. وقطاع الخدمات، الذين كان دائما قويا، نمت امكانيته اكثر فاكثرت. فقد شكل وحده عام ١٩٦٠ نسبة ٦٢ بالمائة من الدخل الوطني، و عام ١٩٦٠ حوالي ٧٠ بالمائة^{١٦٩}. كذلك القطاع المصرفي عرف ازدهارا واسعا نظرا لتدفق الرساميل من الدول العربية الاخرى وازدهار صناعة النفط. ولكن لم تستفد المؤسسات المصرفية اللبنانية الا من خمس العمليات. بينما استفادت من القسم الاكبر فروع المؤسسات المصرفية الاجنبية. وهكذا تحول لبنان الى بلد وسيط للتبادل بين الدول الغربية والعالم العربي. ٧٠ بالمائة من الاستيراد كان مصدره الدول الغربية، و ٢٠ بالمائة من الصادرات كان باتجاه العالم العربي^{١٧٠}. والقطاع السياحي تطور بسرعة. ٨٠ بالمائة من السياح كانوا يأتون من العالم العربي. وهكذا تحول لبنان ما قبل الحرب الى بلد الخدمات فقط. اما قطاع الصناعة فقد عرف ايضا تقدما كبيرا. ارتفعت نسبة هذا التقدم من ٥ بالمائة في الخمسينات الى ١٠ بالمائة في الستينات ومن ١١ الى ١٢ بالمائة في السنوات الاولى من السبعينات^{١٧١}. فقد سيطرت دائما المؤسسات الصغيرة التي بلغ عددها ١٠٧٠٠ مؤسسة. كانت تضم كل منها اقل من ٢٥ عامل. فقط ثلاث مائة مؤسسة كانت تضم اكثر من هذا العدد من العمال والمستخدمين. ولكن في بعض القطاعات الاساسية، حصل نوع من التجمع والتركيز.

كان الميزان التجاري في عجز دائم قبل عام ١٩٦٠. ولكن كان يعوّض ايجابيا بفضل "المداخيل غير المنظورة" الكثيفة، مثل الارباح في التجارة الثلاثية الاتجاه، وتحويلات المغتربين وغيرها. بعد ذلك تحسن مستوى الميزان التجاري بصورة واضحة. فعام ١٩٦٧ كانت تغطي الصادرات ربع الواردات، و عام ١٩٧١ تلتها تقريبا و عام ١٩٧٣ نصفها^{١٧٢}.

عرفت مدينة بيروت بنوع خاص ازدهارا مذهلا وغير طبيعي في السوق العقاري. فمالكو الاراضي في المدن كسبوا ثروات ضخمة او اصبحوا اصحاب دخل كبير من الايجارات. والى جانب ظاهرة الهجرة القديمة الى ما وراء البحار، برزت هجرة العمل المؤقت، نحو دول الخليج العربي، التي وفرت ايضا مصادر دخل جديدة. وبالمقابل تحول لبنان الى بلد يستورد اليد العاملة. فقد جاء اليه مئات

١٦٨ - ذات المصدر، ص ٩٧.

١٦٩ - ذات المصدر، ص ٩٧.

١٧٠ - ذات المصدر، ص ٧٥.

١٧١ - ذات المصدر، ص ٧٦.

١٧٢ - ذات المصدر، ص ٧٤.

الآلاف من العمّال السوريين^{١٧٣}.

كيف اثّرت هذه التقلبات الاقتصادية على بنية الطبقات وعلى الاندماج الاقتصادي للطوائف؟

بتكليف من وزارة التصميم أجرى "كلود دوبار" و"سليم نصر" عام ١٩٧٠ دراسة ميدانية عن الطبقة العمالية. وقد توصلا من خلالها الى بعض النتائج عن توزيع الطبقات والفئات^{١٧٤}، والملخصة في الجدول التالي:

١٧٣- ذات المصدر، ص ١١١.

١٧٤- ذات المصدر، ص ١١٣.

النسبة المئوية للعاملين	الفئات الاجتماعية	الطبقات
١,٧	رؤساء المؤسسات التجارية	بورجوازية الصناعيين والتجار (الملاكون، اصحاب الدخل الثابت، الحرف غير اليدوية، ممارسو أنشطة من ذوي الكفاءات)
١,٩	رؤساء المؤسسات الصناعية والخدمات	
٣,٦		
١,٤	المهن الحرة	اليورجوازية الصغيرة المستقلة (الملاكون، اصحاب الدخل غير الثابت، أنشطة ذوي الكفاءات)
٨,٥	التجار، والعاملون المستقلون في قطاع الخدمات	
١١,٧	الحرفيون	
١٢,٥	المزراعون المستقلون	
٣٤,١		
٠,٨	كبار الموظفين والمستخدمين	مستخدمو الطبقة المتوسطة (غير الملاكين، الأنشطة الثابتة غير اليديوية)
٧,٨	الموظفون والمستخدمون المتوسطون بما فيهم المدرسون	
١٠,٠	المستخدمون في قطاع التجارة والخدمات	
٧,٩	المستخدمون في المكاتب	
٢٦,٥		
٨,٤	العمال الثابتون خارج القطاع الزراعي	البروليتاريا (غير الملاكين، الأنشطة الثابتة غير اليديوية التي لا تحتاج الى كثير من المؤهلات)
١٣,٧	العمال اليوميون (المياومين) خارج القطاع الزراعي	
٢٢,١		
٥,٨	العمال الزراعيون والشركاء	البروليتاريا الدنيا (غير الملاكين، الأنشطة غير الثابتة، اليديوية، الأنشطة التي لا تحتاج الى مؤهلات)
٣,٩	العاملون غير الثابتين في قطاع الخدمات	
٣,٠	العاطلون عن العمل والباحثون عنه	
١٣,٧		

من المؤسف ان دراسة وزارة التصميم هذه لم تتضمن اية معطيات عن الانتماء الطائفي. ولكن توجد بعض الدراسات والمعطيات بالنسبة لقسم من الفئات الاجتماعية، والتي تسمح بتصنيف اتجاها. ان ما يقارب ثلث اصحاب المصارف، وربع اصحاب الشركات التجارية، وشركات التأمين والنقل هم مسلمون^{١٧٥}. بين المؤسسات الصناعية الكبيرة البالغ عددها ٢٥، هناك سبعة مؤسسات يشرف عليها مسلمون وسبع عشرة مؤسسة يشرف عليها مسيحيون. وفي معظم الحالات يساهم، وان بطريقة محدودة، شركاء من الطوائف الاخرى^{١٧٦}. ان اكثرية المؤسسات الزراعية التجارية الجديدة يدير شؤونها مسلمون. اما البورجوازية الصناعية والتجارية فتتوزع بصورة عامة بين الثلثين من المسيحيين والثلث من المسلمين. ولكن الامر يتعسر كثيراً في توزيع الطبقة المتوسطة على الطوائف او على التجمعات الدينية. فالموظفون والمستخدمون في القطاع الرسمي إقتربوا من المناصفة والتساوي بين المسيحيين والمسلمين. في المهن الحرة شكل المسلمون الثلث تقريباً^{١٧٧}. الا ان معطيات اكثر دقة يمكن اقتباسها من دراسة مفصلة اجراها "مرلان وسليم نصر" عام ١٩٧٤ عن الطبقة العمالية في القطاع الصناعي. كشفت هذه الدراسة عن نسبة ٤٥ بالمائة من المسيحيين، خاصة موارد وارمن، و٥٥ بالمائة من المسلمين، وتجاوزت نسبت الشيعة بينهم ٣٧ بالمائة. هذه النتائج حطمت "التشجيع الاسطوري القائم"، والقاتل بان المسيحيين يشكلون القسم الاكبر من طبقة البورجوازية والطبقة المتوسطة، كما يتقدم وجودهم في طبقة البروليتاريا. وان المسلمين من جهة اخرى يشكلون الاكثرية الساحقة من الطبقات الشعبية والعمالية. "باستطاعتنا ان نكذب وندحض الفرضية الايديولوجية... وان ثبت بان طبقة البروليتاريا في القطاع الصناعي هي دون اي ريب طبقة متعددة الاديان والطوائف"^{١٧٨}. ولكن المسيحيين هم اكثر تمثيلاً بين العمال اصحاب الكفاءات المهنية، والمسلمين هم اكثر تمثيلاً بين العمال نصف المؤهلين. وفي طبقة البروليتاريا الدنيا، يتألف العدد الاكبر من العمال الزراعيين والمباومين الشيعة في جنوب وشرق البلاد، وتتألف ايضاً من الموارد الذين لا يمتلكون شيئاً ومن اتباع الطوائف المسيحية الاخرى، مثل الاشوريين واليعاقبة، الذين لا يعملون في قطاع الخدمات ولكنهم دون وظيفة ثابتة. وهذا الحال ينطبق على الحرفيين الارمن والعمال

-
- Boutros LABAKI, Structuration communautaire, rapports de force entre minorités et guerre au Liban, op.cit. p.66 -١٧٥
- Claude DUBAR & Salim NASR, op.cit. p.84 -١٧٦
- Boutros LABAKI, Structuration communautaire, rapports de force entre minorités et guerre au Liban, op.cit. p.66 -١٧٧
- Marlène & Salim NASR, Morphologie sociale de la banlieue-est de Beyrouth, in: Maghreb Machrek (1976)73, p.87 -١٧٨

العاديين في مؤسسات التصليح وصيانة الآليات الميكانيكية^{١٧٩}.

وهكذا اذا ما جمعنا حصص المسيحيين والمسلمين المتقاربة والمعروفة في طبقة البورجوازية الصناعية والتجارية^{١٨٠}، وفي فئة الموظفين والمستخدمين، كما في طبقة البروليتاريا، تبين لنا ايضاً ان هذه الحصص هي ايضاً متقاربة بين المجموعتين الدينتين على مستوى الطبقة المتوسطة. استنادا الى ذلك حصل تقدير عام لتوزيع الطبقات على الطوائف في مطلع السبعينات حسب الجدول التالي:

مجموع السكان %	مسلمون %	مسيحيون %	
٣,٦	٢	٤	البورجوازية الصناعية والتجارية
٦٠,٦	٥٦	٦٧	الطبقة المتوسطة
٢٢,١	٢٣	٢١	البروليتاريا
١٣,٧	١٩	٨	البروليتاريا الدنيا
١٠٠	١٠٠	١٠٠	

حتى في حال حدوث خطأ في هذه التقديرات، هناك نتيجتان لا يمكن الجدل حولهما. فكلما التجمعين الدينيين هما متشعبي الفئات. يشير هذا التشعب الى تشابهات كبيرة. فلا ريب اذن عندما يجري الحديث بافراط عن تماثل متساو، الا ان

١٧٩- Claude DUBAR & Salim NASR, op. cit. p.90.

١٨٠- Georges CORM, Géopolitique du conflit libanais. Etude historique et sociologique, Paris: راجع: 1986, p.170f.u

تحدثت عن البورجوازية معلقاً على انه قبل عام ١٩٧٥ "كانت الثروات الكبيرة مركزة بكثرة بين ايدي الإقطاعية للشيعية، وكبار الملاكين العقاريين في المدن ومعظمهم من السنة، ولكن ايضاً من الروم الارثوذكس الذين يمتلكون مركزاً مرموقاً في حقول التجارة والصناعة والمال..." ومقابل ذلك، يشير جورج قرم الى بروز "طبقة متوسطة حقيقية واسعة النطاق" لدى الموارنة، تقوم على التفوق العلمي اكثر مما تقوم على الملكية. ولكنها تكشف ايضاً عن بروز فئة كبيرة من الطبقة الريفية المحرومة، التي اسهمت خلال العقود الاخيرة، عبر النزوح من الريف الى المدن، في تكوين "فئة شعبية مدنيّة حقيقية". فالطبقة المارونية المتوسطة "كانت عنصراً محكماً للازدهار اللبناني في مطلع هذا القرن، ولكنها لم تكن إطلاقاً ممثلة للقوة الاقتصادية الحقيقية في البلاد، الموجودة لدى الطوائف الأخرى..."

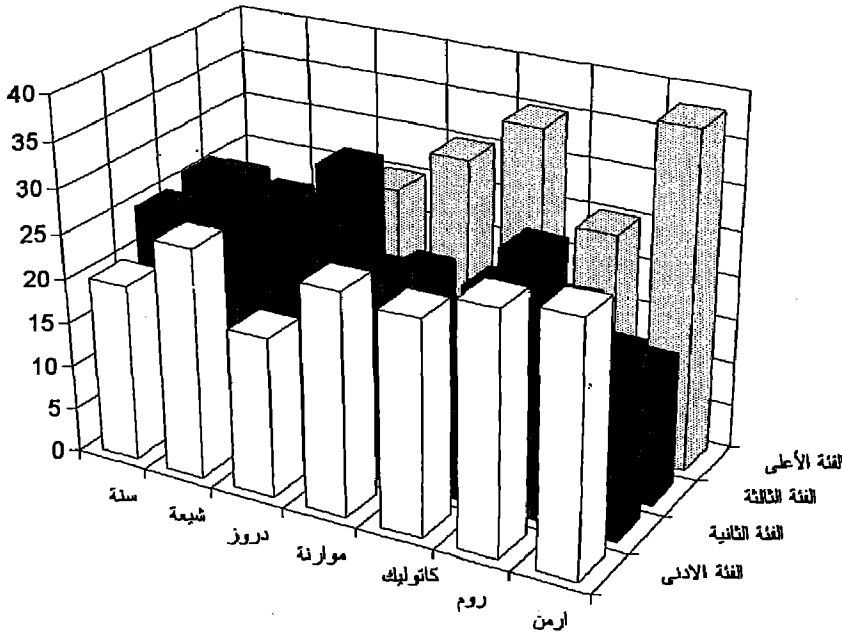
"اللامساواة ما زالت قائمة ضمن حدود ضيقة". ويبرز هذا الواقع بنوع خاص. فبعد المقارنة مع الواقع الذي كان قائماً عند اعلان لبنان الكبير بحدوده الحالية، وانطلاقاً من الفروقات التي تعود الى التطور التاريخي الذي اشير اليه سابقاً، يمكن القول بأن التعادل الاجتماعي والاقتصادي بين الطوائف بلغ مستوى وتقدماً مذهلاً خلال نصف قرن فقط.

لقد سمحت مقارنة البنية التطبيقية للمجموعتين الدينيتين الكبيرتين بالكشف عن الفروقات داخل كل من المجموعتين، وبتوضيح "الفروقات الزمنية" للتطور الاقتصادي والاجتماعي لكل من الطوائف. ففي القرن السابق كانت الطوائف المسيحية في المدن، اي الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس، اول الفئات التي مارست الانشطة الاقتصادية الحديثة وطوّرتها^{١٨١}. وقد جاءت بعدها الطائفة السنية المقيمة في المدن. وخلال العقود الاخيرة تمكن مجدداً سكان المدن القدامى من قطف ثمار ارتفاع قيمة الممتلكات العقارية. ان اعلى العقارات في بيروت في السبعينات والسبعينات كان يمتلكها السنة. وهذا ما سمح للعديد منهم بانجاز تفوّق سريع. فابناء الحرفيين وصغار التجار اصبحوا اطباء ومهندسين ومحامين. وآخرون اخذوا يكسبون دخلاً كبيراً من الايجارات العقارية. والارمن بعد لجوئهم الى لبنان استقروا بمعظمهم في بيروت وضواحيها. الا انهم تمكنوا ايضا من تأسيس مقرّ ريفي لهم في عنجر في محافظة البقاع. والموارنة لم يأتوا الى مدينة بيروت الا في اوائل هذا القرن، كما انتقلوا اليها بكثرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. اما آخر الذين بدأوا بالنزوح الى المدن فهم الشيعة، اذ أخذوا ينزحون عن الريف في الخمسينات^{١٨٢}. وقد كانوا يعيشون تحت رحمة كبار الملاكين الزراعيين، ومستواهم العلمي كان الاكثر تخلفاً. كما كانوا اكثر الطوائف حاجة الى العلم والتنمية. وهكذا شكل النازحون الجدد الى المدن من الموارنة ومن الشيعة القسم الاكبر من الطبقة العمالية في القطاع الصناعي. كما شكل سكان الشيعة الذين كانوا آخر النازحين الى المدن، بالاضافة الى الذين بقوا في مناطقهم الريفية، القسم الاكبر من طبقة البروليتاريا الدنيا.

١٨١- راجع Leila TARAZI FAWAZ, op. cit. p.85f

١٨٢- في عام ١٩٢٠ كان يعيش حوالي الف وخمسة مائة نسمة من الشيعة في بيروت. ولم يشيّد اول مسجد لهم الا في الاربعينات. راجع: المصدر السابق، ص ٥٠ و ١٥٥

الطوائف الدينية وفقاً لفئات الدخل



المصدر: تحقيقات قام بها المؤلف؛ راجع الفصل السابع.

انطلاقاً من هذه الأوضاع والمعطيات، لم يعد مستغرباً إطلاقاً ان يلعب الشيعة دوراً رئيسياً في كل النزاعات الاجتماعية التي نشبت منذ منتصف الستينات. فبينما كان السنة يطرحون مسألة إعادة النظر في الوضع السياسي القائم، ويركزون في مطالبهم الاقتصادية على مسألة الحصص في الوظائف العمومية، كان الشيعة من جانبهم يركزون بالدرجة الاولى على وضعهم الاقتصادي. فقد عبّروا خلال مدة طويلة عن هذه الأوضاع، لا كشريحة ولا كأعضاء ينتمون إلى طائفة أو مذهب، بل كسكان مناطق محرومة، وكعمال زراعيين وشركاء يستغلهم كبار الملاكين، وكعمال في القطاع الصناعي من ذوي الاجور المتدنية، وكأجراء دون اي ضمان اجتماعي. لذلك اخذوا ينتسبون الى الاحزاب والحركات السياسية التي لا تمثل مصالح خاصة لطائفة ما، بل ذات برامج اجتماعية واقتصادية، مثل حزب البعث، والحزب القومي السوري، والحزب الشيوعي وكل الحركات المنفصلة عنها، اي الاحزاب والحركات

اليسارية العلمانية. وحتى عندما قامت المؤسسات الدينية للطائفة الشيعية، بسبب قلقها على تأثير حركات "الاحادية" على افرادها، بمحاولة تعبئة وتنظيم الشيعة كطائفة، تصدرت المطالب الاقتصادية جل اهتمامها. فقد تأسس عام ١٩٦٧ المجلس الشيعي الاعلى، كما برز عام ١٩٦٩ على رأسه الامام موسى الصدر كرئيس ديني ديناميكي. اسس هذا الامام "حركة المحرومين" للشيعة، ولكن ايضا لكل اللبنانيين الآخرين، الذين يشعرون ايضا بالحرمان. فلم يتحدث عن الاجحاف في الحصص والمناصب في الحكومة والادارة، بل ركز على مشاريع الري، والسدود، والمدارس، والمستشفيات، واسعار الدخان^{١٨٣}.

ففي النزاعات الاجتماعية التي حصلت في السنوات الاخيرة قبل اندلاع الحرب، انضم عدد كبير من الشيعة الى جانب الذين كانوا يطالبون بالتغييرات الاقتصادية، من نقابات وحركات المزارعين او الاحزاب اليسارية. ولكن الامر كان يتعلق بالدرجة الاولى بالتعبئة الاجتماعية، وليس بطائفة، رغم انها تحولت جزئيا في بداية السبعينات بتأثير من الامام موسى الصدر، الى حركة للطائفة الشيعية. الا انها بقيت في الواقع حركة اجتماعية.

الحركات الاجتماعية التي قامت منذ منتصف الستينات، وجدت انصاراً لها ليس فقط لدى الشيعة فحسب، بل ايضا لدى كل الذين انعكست على مستواهم المعيشي عمليات التضخم الاقتصادي المتكررة، خاصة السنة في عكار، والموارنة في المنطقة الخلفية من البلاد. فالجهود الرسمية التي بذلت في سبيل تنمية وتطوير المناطق الحدودية عرفت نتائج غير مرتقبة. لقد تأمنت في الواقع البنى التحتية فيها، ولكن لم يواكب ذلك اي استثمار اقتصادي، وبالتالي لم يتوفر فيها اي عمل جديد. فالمدارس الجديدة خرجت حاملي شهادات لم يتمكنوا من ايجاد اي عمل الا في المدن فقط^{١٨٤}. والطرق الجديدة سهلت المواصلات، الا انها تحولت الى ظاهرة انتقالية دفعت بالتالي الى النزوح النهائي عن الريف. ان فئة من السكان تلقت تعليماً افضل لم يكن بوسعها بعد ذلك القبول بشروط الشركاء الزراعيين المفروضة عليهم مثل الفوائد المالية العالية، ولا القبول كذلك بأجور متدنية كان يتمسك بها كبار

١٨٣ - "النهار"، ٧ و ١١ كانون الأول ١٩٣٧. راجع أيضاً : Francis GRIMBLAT, La communauté chiite libanaise et le mouvement national palestinien 1967-1986, in: Guerres mondiales et conflits contemporains, 1512-1988, p.74f; Marwan HAMADE, op.cit. p.10; Monika POHLSCHÖBERLEIN, Die schiitische Gemeinschaft des Südlibanon innerhalb des libanesischen konfessionellen System, Berlin 1975; Salim NASR, Mobilisation communautaire et symbolique religieuse: L'imam Sadre et les chi'ites du Liban (1970-1975), in: Olivier CARRE (Ed.), Radicalismes islamiques, Paris 1985.
Yves SCHEMEIL, op.cit. p.17ff ١٨٤

الملاكين الزراعيين. في جنوب البلاد كما في شماله بدأت هذه الفئة ترفض تدريجياً شروط الاعيان، الذين يستغلونها، كما رفضت تأييدهم السياسي. فقد نزح السكان الريفيون الأكثر فقراً ودينامية الى المدن حيث برز في مطلع السبعينات عرض مفرط للعمالة في كل المستويات المهنية^{١٨٥}. ولكن قطاع البيروقراطية الحكومية وقطاع الخدمات اللذين عرفا نمواً واسعاً في الستينات، كانت مناصب الاطر فيها قد اكتملت تماماً. وقد سمح هذا العرض الفائض في سوق العمالة لارباب العمل بالتمسك باجور منخفضة. وهكذا لم يجد عدد كبير من خريجي المدارس الثانوية والجامعات اي عمل يتوافق مع مؤهلاتهم. فالمطالبة بالغاء نظام الحصص المتساوية في القطاع العام وبتوفير العمل فيه، أصبحت مطلباً شعبياً. وقد تحول سريعاً الى انتقاد اساسي للنظام السياسي القائم، لان الدولة لم تتمكن من ايجاد حلول للمشكلات الاقتصادية. وبما ان الدولة كانت "طائفية"، تكررت المطالبة بالغاء الطائفية. ولكن لم يكن المقصود الغاء نظام التعادل اللبناني. فقد وجد هذا الجدل القياسي صدراً وتأييداً واسعاً خاصة لدى المثقفين. وبقطع النظر عن توجهه المنطقي، برز ايضا عنصر اساسي جرى التمسك به والتشديد عليه. فقانون الانتخابات اللبناني ونظام الحكم وضعاً كي يسمح بايصال سياسيين الى مجلسي النواب والى الحكومة، لديهم الكثير من الكفاءات، خاصة الاعتدال السياسي والاهلية في ايجاد التسويات. ولكن ادراك المشكلات الاجتماعية والانفتاح نحو التجديد لم يردا اطلاقاً في معجم هذه الكفاءات. فئة القيايين السياسيين، مسلمين كانوا ام مسيحيين، كانت تتألف بمعظمها من ابناء الطبقات العليا الميسورة. فرغم جدالهم الطويل حول توزيع السلطة، الا ان مصالحهم الاقتصادية كانت بمعظمها متشابهة ومطابقة مع بعضها. ولكن النظام الليبرالي الحر تماماً كان يخدم هذه المصالح رغم اجراءات الحكومة الهادفة الى تصحيحه اجتماعياً. وقد كانوا على استعداد تام للحد من المبادئ الليبرالية عندما يساعد ذلك في المحافظة على مصالح فئتهم. فليبنان ما قبل الحرب لم يعرف اي اقتصاد سليم في السوق، بل اتفاقات بين المنتجين المعروفة بنظام الكارتل، واتحادات الاحتكار في سوق الاستيراد، وكذلك في اقسام عديدة من حقول الانتاج. وقد كان المنفعون منها السياسيون والفئات المرتبطة بهم^{١٨٦}. اما بالنسبة للمعضلات الاقتصادية والاجتماعية التي لحقت بالطبقة العمالية والفئات المتوسطة الجديدة التي اخذت تتكاثر في قطاع الصناعة والخدمات، فلم يبدد السياسيون اي اهتمام بهم، كما لم يهتموا اطلاقاً

١٨٥ - Claude DUBAR & Salim NASR, op. cit. p.325

١٨٦ - Salim NASR, The Crisis of Lebanese Capitalism, in: Merip Reports 73(1978), p.5f; Antoine BASILE, Contraintes et perspectives de l'économie libanaise, in: Joseph ABOU JAOUDE & al. La Nouvelle société libanaise dans la perspective des Fa'aliyat (decision makers) des communautés chrétiennes, Tome 3, Etudes et Rapports, Kaslik 1984, p.271.

بالاستياء الناشب لدى السكان الزراعيين.

في مطلع السبعينات، تكاثرت وتفاقت كثيراً النزاعات الاجتماعية. وتجدر الملاحظة الى ان التنغيم الطائفي لم يكن بارزاً فيها. ولكن الامور لم تكن تدور حول النزاعات بين الطوائف بل بين الفئات والمصالح الاجتماعية والاقتصادية^{١٨٧}. في منطقة عكار انتفض الشركاء والعمال الزراعيون السنة ضد الملاكين السنة ايضا. وكذلك مزارعو الدخان في جنوب البلاد احتجوا ضد ملاكي الاراضي من الشيعة، والتجار الوسطاء، وضد سياسة شركة التبغ الحكومية التي تحتكر صناعة الدخان. وقد اضرب العمال السنة والشيعة خلال اسابيع عديدة ضد عائلة سنية صاحبة شركة غندور للمواد الغذائية. وكذلك قام صراع وجدل عنيف بين اتحادات التجار والمستوردين، وهم خليط من كل الطوائف، وبين اتحاد الصناعيين حول مسائل الحماية الجمركية واجراءات الحماية الاخرى. اما نقابات المعلمين، والحركات الطلابية، وبنوع خاص النقابات العمالية، فتألفت عناصرها من كل الطوائف^{١٨٨}. وكذلك ايضا بالنسبة لاتحادات المقاولين. فالنقابات اللبنانية مارست على مستوى القيادات نظاما من التوازن بين الطوائف، غير مثبت شكليا، ولكنه مرن وفعال. وبين عامي ١٩٦١ او ١٩٧٥ ارتفع عدد المنتسبين الى النقابات من ١٢ الى ٢٤ بالمائة تقريبا من مجموع المستخدمين.

وبالاختصار يستنتج ما يلي:

بين قيام الدولة واندلاع الحرب حصل خفض كبير للفروقات التي كانت قائمة في البداية بين الطبقات والطوائف. وقد لعبت السياسة الرسمية دورا هاما في هذا المجال، خاصة منذ عام ١٩٦٠. ولكن الوضع الاجتماعي للطائفة الشيعية بقي في حالة من التخلف، رغم الحد الملموس في الفروقات. لذلك مارس الشيعة دورا هاما في كل الحركات والمظاهرات الاجتماعية. فالنزاع الاجتماعي في الستينات والسبعينات لم يرق بين الطوائف بل بين الفئات، والطبقات ومجموعات المصالح. لقد تميز بقساوة شديدة، اذ توقف العمل في بعض المصانع وجرى احتلال وقامت المظاهرات المرخص وغير المرخص بها، وجرى تسريح عمال، وحصلت انتقامات اقتصادية، وغالبا مواجهات مع الشرطة وقوى الامن. وعلى كل حال لم تختلف

—١٨٧ Claude DIBAR & Salim NASR, op.cit. p.271

—١٨٨ Theodor HANG & Salim NASR, Gewerkschaftliche Konkordanz im Libanon Bestimmungsfaktoren gewerkschaftlicher Einheit in einer kulturell und politisch fragmentierten Gesellschaft. Eine empirische Untersuchung. Forschungsbericht des Deutschen Instituts für Internationale Pädagogische Forschung, Frankfurt am Main 1982; Raymond DELPRAT, Blocages économiques et crise sociale au Liban, In: Etudes des Cahiers de l'Orient Contemporain, 2(1969), p.12.

اشكال النزاع الاجتماعي اطلاقاً عن الاشكال التي يمكن ملاحظتها في المجتمعات المتجانسة عند حدوث ازيمات اقتصادية. ولكن لم تمر المظاهرات ولا الانتفاضات دون نتيجة ايجابية. لقد فرض علي ارباب العمل رفع اجور العمال وتحسين اوضاع العمل. وكذلك وضعت الدولة حداً لامكانية تسريح العمال بطريقة تعسفية، كما رفع مراراً مستوى الحد الأدنى للاجور^{١٨٩}. وباختصار، بدأ لبنان يتحول الى مجتمع تأخذ فيه النزاعات الطبقيّة المتزايدة وزناً اكبر من التناقضات بين الطوائف، كما تبين ان النزاعات الطبقيّة رغم حدتها وشدتها يمكن تسويتها سلمياً. "التحديث دون ثورة" كان التشخيص الذي اطلقه احد علماء الاجتماع اللبنانيين المعروفين^{١٩٠}.

٦ - السياسة الخارجية كنزاع حول الهوية

اوجد الميثاق الوطني صيغ تسوية تتعلق بهوية لبنان القومية من جهة، وتتعلق بالخطوط العريضة للسياسة الخارجية من جهة ثانية، وبقي هذان الامران مبهمين، وموضوعاً قابلاً للتفسير والاجتهادات. لقد ابرز الميثاق الوطني بنوع خاص اشكالات حول السياسة الخارجية، التي كانت تعيد دائماً مسألة الهوية الى صميم الجدل السياسي.

في العقد الاول بعد الاستقلال، اثيرت مسألة الاتحاد الاقتصادي مع سوريا، كارت خلفه الانتداب^{١٩١}، فحرب السياسيين المسلمون بالحفاظ على هذا الاتحاد لسببين:

الاول، لانه يعكس مطلب الوحدة مع سوريا والذي كانوا يأملون به سابقاً. والثاني لاسباب اقتصادية ثابتة، نظراً الى ان معظم المناطق الاسلامية في البقاع وعكار، وكذلك مرفأ طرابلس كانت متداخلة سابقاً مع المناطق الخلفية لحدودها، اي مع المناطق السورية. ولكن الاكثريّة المسيحية رفضت الربط الاقتصادي مع سوريا، لاعتبارات اساسية، من جهة حفاظاً على احترام السيادة اللبنانية كاملة، ومن جهة ثانية المصلحة الاقتصادية. فقطاع الخدمات اللبناني لا يمكن ان يستفيد كثيراً من ايجابيات الميول السورية الى فرض نظام الحماية^{١٩٢}.

وبطريقة مماثلة تباعدت المفاهيم حول مهام الجامعة العربية التي تأسست عام

Raymond DELPRAT, op.cit. p.8 - ١٨٩

Elie Salem, Modernization without Revolution. Lebanon's experience, Bloomington 1973. - ١٩٠

١٩١ - فيما يلي، عندما يجري الحديث ببساطة عن "المسلمين" و"المسيحيين"، يكون ذلك للإشارة فقط الى السياسيين الذين يمثلون الاكثريتين في هذه او تلك المجموعة الدينية.

Cahiers de l'Orient Contemporain 1950, p.91 ff et p.219 - ١٩٢

١٩٤٤. فقد حصل ترحيب من قبل الجانب المسلم الذي اعتبر الجامعة أقل من منظمة تجمع بين الدول ولكن أكثر من بداية لعملية تكامل لاحقة. ولكن السياسيين المسيحيين كانوا على استعداد للتعاون بين الدول داخل الجامعة. إلا أنهم رفضوا كلّ تخلّ عن السيادة وكلّ صلاحية للجامعة تتجاوز الدولة^{١٩٣}.

وكما حصل تناقض وخلاف حول صيغ التعاون مع العالم العربي، كذلك حصل خلاف وتناقض حول العلاقات مع الغرب أيضاً. فقد رأى المسيحيون مثلاً في برنامج النقطة الرابعة الأميركي مساعدة اقتصادية تستحق الترحيب، ولكن اعتبرها بالمقابل المسلمون حلفاً عسكرياً مقنعاً. كذلك تضاربت المواقف حول ما عرف بمشروع ايزنهاور. فبينما اعتبره المسيحيون ضماناً لاستقلال لبنان وحماية ضد كل تدخّل، نظر إليه المسلمون كصيغة جديدة للحماية الاجنبية التي تخلى عنها المسيحيون بموجب الميثاق الوطني^{١٩٤}.

أخيراً لابدّ من الإشارة الى موضوع تكاثر الجدل حوله، ألا وهو الحياد اللبناني في النزاعات العربية الذي كان من مسلمات الميثاق الوطني. في "الحرب العربية الباردة" منتصف الخمسينات، انقسم العالم العربي بين فريق موالٍ للغرب وفريق محايد بزعامة مصر الناصرية. تمنّت اكثرية من المسيحيين في لبنان اتباع سياسة حياد تامة بين الفريقين، إلا أن قسماً من المسيحيين اظهر تعاطفاً مفتوحاً مع الجانب المؤيد للغرب. وبالمقابل رأى المسلمون أن الدولة العربية المؤيدة للغرب لم تتخذ أي موقف عربي صميم. لذلك لم يبق هناك أي مبرر لاتخاذ موقف حيادي بالنسبة للسيادة العربية. ومن الضروري أن يقف لبنان الى جانب مصر^{١٩٥}.

بلغ الجدل حول السياسة الخارجية ذروته لأول مرة عام ١٩٥٨ حول مسألة العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة التي تألفت من اتحاد بين سوريا ومصر. لعبت هذه المسألة دوراً حاسماً في اندلاع الحرب الاهلية عام ١٩٥٨، رغم وجود اسباب سياسية داخلية أخرى كانت مهمة أيضاً^{١٩٦}. فبينما اصر انصار رئيس الجمهورية آنذاك، كميل شمعون، على احتفاظ لبنان بحرية تصرف كاملة وطلب مساعدة الولايات المتحدة ضد الضغوط المصرية-السورية، طالبت اكثرية المسلمين بتضامن كلي مع سياسة عبد الناصر. كما طالبت اقلية منهم بالانضمام المفتوح الى دولة الوحدة. ولكن الحرب الاهلية لم تؤد الى انتصار أي من الفريقين. فبعد الاحداث الدامية التي عصفت بالبلاد لم يبق أي مخرج امام اللبنانيين الا العودة الى

١٩٣- Cahiers de l'Orient Contemporain 1945, p.244ff; 1946, p.226

١٩٤- L'Orient, 13-20.8.1951; 26.11.1951

١٩٥- L'Orient, 19.3. et 14.4.1955

١٩٦- راجع في هذا الصدد لاحقاً.

الميثاق الوطني. وهكذا بعد عام ١٩٥٨ مُورس حياد تام في مجال السياسة الخارجية^{١٩٧}.

ولكن سرعان ما تعرّض التوافق حول السياسة الخارجية مجدداً لبعض الاهتزاز بسبب الحرب الاسرائيلية-العربية عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣. فبينما طالب السياسيون المسلمون ومعهم الرأي العام المسلم بمشاركة لبنان في الحرب الى جانب الدول العربية، رفض المسيحيون ذلك تماماً متذرعين بضعف الجيش اللبناني وبالتخوف من الاذى الكبير الذي سيلحق بلبنان من جراء ذلك^{١٩٨}.

وفي الحالين لم يحصل تصعيد في المواقف لان الحربين عرفتاً نهاية سريعة.

ولكن التناقض الاكبر في السياسة الخارجية بدأ في منتصف الستينات، ودار حول السؤال "هل ينبغي على لبنان ان يسمح للفدائيين الفلسطينيين بالقيام بعمليات مسلحة ضد اسرائيل انطلاقاً من الاراضي اللبنانية؟"

لم يعرف هذا الموضوع اي اجماع اسلامي او مسيحي. تلخص الموقف السائد لدى المسلمين اللبنانيين بضرورة التضامن الكامل مع الفلسطينيين مهما بلغ الثمن. ولكن المسيحيين شددوا على ضرورة دعم حركة التحرير الفلسطينية سياسياً فقط، وطالبوا بمنع العمليات العسكرية الفلسطينية، وباستخدام القوة لمنع ذلك اذا اقتضت الحاجة^{١٩٩}. وقد تحول هذا الخلاف بالذات الى مسألة مصيرية للبنان. فخلافاً لكل النزاعات السابقة، تركّز الموضوع هنا لاعلى العلاقات مع البلدان والدول الاخرى، بل على العلاقات مع شعب يعيش القسم الاكبر منه على ارض لبنان بالذات. وهكذا لم يعد هناك مكان للفصل بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية.

في النزاع حول المسألة الفلسطينية، لم يعد الجدل أمراً غامضاً، بل تحول واقعياً الى موضوع هوية اللبنانيين. فقسم منهم لم يرَ انطلاقاً اي تناقض بين الهوية اللبنانية والهوية العربية الاسلامية. بينما القسم الآخر اراد هوية لبنانية ولبناناً لبنانياً فقط.

١٩٧- "يمكن النظر الى لبنان السياسي اليوم، كبلد يبرز أقل اهانة ممكنة تجاه عبد الناصر، مع مواصلته بالاحتفاظ على اكبر قدر ممكن من طابعه الخاص". راجع: Kamal S. SALIBI, Lebanon since the Crises of 1958, in: The World Today, 17(1961)1, p.42.

١٩٨- في عام ١٩٦٧ اعطى رشيد كرامي، رئيس الحكومة، أمراً الى قائد الجيش اميل البستاني، للقيام بهجوم في سبيل تخفيف الضغط الشديد على الجيش السوري، ولكن البستاني رفض الانصياع له، وقد طلب الى السفيرين الاميركي والبريطاني مغادرة لبنان، ولكن لم تقطع العلاقات الدبلوماسية نظراً للضغط الذي مارسه السياسيون المسيحيون. راجع: Wad R. GORIA, op.cit.p.88f. وفي عام ١٩٧٣ برزت ايضا خلافات مشابهة في الرأي. ولكن تمّ التوصل الى تسوية قضت بوضع لبنان محطة الرادار الموجودة على قمة جبل الباروك بتصريف سوريا، ذات المصدر، ص ١٦٠.

١٩٩- سيجري التطرق لاحقاً وبالتفصيل الى تطور هذا الخلاف وتصعيده.

هذا الخلاف حول الهوية كان قائماً منذ بداية تأسيس الدولة حتى نهاية حالة التعايش السلمي. في مرحلة ما قبل الحرب، اثير هذا الموضوع غالباً من زاوية مختلف المفاهيم القومية، اي من وجهة نظر القومية السورية او العربية او اللبنانية فقط. فانصار القومية السورية رفضوا جزءاً من صيغة تسوية عام ١٩٤٣ اي "الطابع المميز" للبنان. كما رفض انصار القومية اللبنانية فكرة "وجه لبنان العربي". هذا ولم تغب في اي وقت صيغ التعبير المتطرف لاي من الفريقين. ففي الثالث من تشرين اول عام ١٩٤٧، ودون الربط باي حدث او ازمة معينة، وزعت منشائر في بيروت، عنوانها: "نحن عرب! اتبعنا ام ارحل عنا". وفي اليوم التالي اصدر حزب الكتائب بياناً جاء فيه: "نحن لبنانيون، نحن لبنانيون فقط. وسنبقى هكذا. آبائنا واجدادنا عرفوا كل انواع الاحتلال. واستمروا صامدين... ولن نفعل عكس ذلك. سنتابع الصراع بالافكار، ما دام ذلك ممكناً، ولكن اذا اقتضى الامر، سنحارب ايضاً بالسلاح".^{٢٠٠} بين هذين الاتجاهين المتطرفين، لم يبق اي مكان للمساومة. وفي مقال اشتهر فيما بعد بقلم جورج نقاش، احد المثقفين والصحفيين الرواد من جيل الاستقلال، برز الشك في احترام مسلمات الميثاق الوطني عبر اوضع التعابير:

"ارست المسيحية والاسلام علاقتهم على رفض مزدوج فاي وحدة تستطيع ان تخرج من هذه الصيغة؟ ان ما لا يريده نصف اللبنانيين، يبرز بكل وضوح. وما لا يريده النصف الآخر، يبرز ايضاً بكل وضوح... فلبنان الذي انشئ لنا هو وطن يتألف من ركيزتين... بسبب الخوف يفرض عليه ان يريد ما يكون، وبسبب هذه الارادة ان لا يكون شيئاً. وهكذا يتعرض لخطر ان لا يكون شيئاً... ان الدولة ليست مجموعة من فريقين عاجزين، ونفيان لا يصنعان اطلاقاً" ^{٢٠١}.

وبعد اثنتي عشرة سنة، دحض احد السياسيين السنة الكبار، رئيس الوزراء صائب سلام، هذا التحليل التشاؤمي، مشيراً الى ان الطوائف اللبنانية تتمتع بكثير من العوامل المشتركة: الايمان بالله واحد، واختبار تاريخ مشترك، وعيش كفاح مشترك في سبيل الاستقلال، وخاصة الواجبات المشتركة في الزمن الحاضر. لذلك ينبغي التسليم نهائياً "لبنان واحد، لا لبنانان" ^{٢٠٢}.

كتب جورج نقاش مقاله في وقت كانت تبرز فيه الازمات الاولى بعد الاستقلال. اما صائب سلام فتحدث بعد ان تجاوز البلد اول حرب اهلية وعاد الى مبدأ التعايش. فالصيغة اللبنانية للتعايش عرفت مراحل عسيرة ويسيرة، ابرز فيها المتشاورمون والمتفائلون براهينهم. متى، وكيف، وفي ظل اي اوضاع نجحت او فشلت هذه

-
- L'Orient, 7.10.1947 - ٢٠٠
 - L'Orient, 10.3.1949 - ٢٠١
 - L'Orient, 18.4.1961 - ٢٠٢

الصيغة؟ هذا ما سنتوقف عنده فيما يلي.

٧ - استخدام التعايش وسوء استخدامه

الى اي حد "يصنع الرجال التاريخ" او يرتبطون باوضاع مجتمعية؟ هذه هي احدي مسائل الجدل المستمر في علمي التاريخ والاجتماع. فاذا لم يعتبر التاريخ محتما لاحداث، يجدر عندئذ السؤال حول كيفية خلق اطار تحرك للفعاليات السياسية. ولكن لا بد من السؤال ايضا عن كيفية استفادتهم منه. ان تاريخ لبنان بين ١٩٤٣ و١٩٧٥ يشير من جهة الى ان حدود سلطة السياسيين اللبنانيين كانت مرتبطة بصورة مختلفة جدا، سواء بالاوضاع الاقتصادية او بالاوضاع السياسية التي كانت تفرض عبر المحاور الاقليمية او الدولية. ويشير من جهة اخرى الى ان السلطة السياسية اللبنانية اضطرت الى التكيف بطريقة مختلفة جدا داخل هذه الحدود.

تواكب عهد الرئيس الاول بعد الاستقلال (١٩٤٣-١٩٥٢) مع وضع سياسي خارجي ضعيف التأثير على النظام اللبناني. في عام ١٩٤٥ انضم لبنان الى جامعة الدول العربية، وفي ذات الوقت عبرت الدول العربية في بروتوكول الاسكندرية عن ضمانها لاستقلال لبنان ٢٠٣.

وفي عام ١٩٤٧ تم جلاء آخر الجنود الفرنسيين عن لبنان. وحتى عام ١٩٤٥ عرف الرئيس بشارة الخوري في شخص رياض الصلح حليفا متساويا له كرئيس حكومة. حكما البلاد سوياً "كشريكان" في الحكم كما تم الاتفاق بينهما عام ١٩٤٣. لقد بدلا غالبا الوزراء كي يوفرا، من حين الى آخر لكل الاعيان السياسيين المتمتع بنشوة الحكم. اما الذي لم يشأ التخلي عن التمتع بنشوة الحكم فكان بشارة الخوري نفسه عندما أشرفت ولايته على النهاية. فعائلته، وخاصة اخوه سليم، واصدقاؤه السياسيون اتهموا باستمرار باستغلال مراكزهم بغية الاثراء الشخصي القائم على تقديم الخدمات لانصارهم، والمحاباة في التوظيف والفساد. في الانتخابات التشريعية التي جرت عام ١٩٤٧ تمكن الرئيس بشارة الخوري من تأمين اكثرية واسعة له عبر تزوير في الانتخابات بمساعدة المتحالفين معه من الموظفين ورجال الامن. وهذا ما سمح للمجلس النيابي عام ١٩٤٨ بتعديل الدستور الذي يحدد ولاية رئيس الجمهورية بست سنوات غير قابلة للتجديد، وباعادة انتخاب بشارة الخوري. كما اغتصمت الحكومة فرصة اعطائها سلطات استثنائية لاعلان حالة الطوارئ، بسبب الحرب الفلسطينية الاولى، كي تمنع اصدار الصحف المعارضة وتخويف السياسيين بالتوقيف والسجن. هذا وقد جرى عام ١٩٥١ اغتيال رياض الصلح على يد احد

اعضاء الحزب القومي السوري خلال زيارة رسمية كان يقوم بها الى الاردن، الأمر الذي أفقد بشاره الخوري أهم حليف سياسي له. فشعبية رياض الصلح الواسعة أسهمت كثيراً في ضمان موقع بشاره الخوري رغم كل الانتقادات. ولكنه اضطر عام ١٩٥٢ الى التخلي عن السلطة على اثر ما سمي "بثورة ماء الورد"، اذ استقال رئيس الوزارة سامي الصلح ورفض كل الزعماء السنة تشكيل حكومة جديدة. كذلك كشف اضراب عام شمل البلاد برمتها بان الرئيس لم يعد يلقي اي دعم من قبل المواطنين. وقد رفض الجيش بقيادة اللواء فؤاد شهاب، التدخل لفك الاضراب، فلم يكن بوسع بشاره الخوري الا الاستقالة. وهكذا خلال النصف الثاني من عهده برز الجانب السلبي المتأصل منذ مدة طويلة في لبنان، اي ادارة زمام الحكم "كمزرعة عائلية"، كما قيل انذاك، من خلال انتخابات مزورة والتلاعب في الدستور بهدف تجديد ولاية الرئيس. ولكن النصف الاول من عهده برهن على امكانية حكم لبنان عندما يكون على رأسه اشخاص يسود بينهم التعاون والثقة المتبادلة وتعترف بهم طوائفهم، ويعتبرون انفسهم متساوين^{٢٠٤}.

خلف بشاره الخوري من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٨ كميل شمعون الذي تزعم وقاد مع الأمير اليرزي كمال جنبلاط قوى المعارضة^{٢٠٥}. عرف شمعون في بداية عهده تأييداً واسعاً من جانب المسلمين، خاصة انه دافع عن القضية الفلسطينية عندما كان سفيراً لبلاده في الامم المتحدة بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٩. كما ان الازدهار الاقتصادي الذي عرفه لبنان في بداية عهده، دعم موقفه وزاد من شعبيته. وقد وصف شمعون نفسه "كرجل جاء لتحديث البلد"^{٢٠٦}. فركز على تطوير الاقتصاد عبر تدعيم وتحسين قطاع الخدمات، خاصة القطاع المصرفي. فاقّر نظام سرية المصارف التامة، الذي جعل من لبنان مركزاً جذاباً لاستقبال الرساميل من الدول المجاورة ذات الانظمة الاشتراكية. ولكنه اراد ايضاً "تحديث" نظام الحكم اللبناني، اذ اعلن مكافحة "الاقطاعية السياسية"، اي الاعيان والزعماء التقليديين، ومال الى استنفاد كل الحقوق والصلاحيات الدستورية المعطاة لرئيس الجمهورية. فقد حاول اضعاف مركز الاعيان والزعماء من خلال تغيير نظام الانتخابات، وذلك بانشاء عدد من الدوائر الانتخابية الصغيرة مكان عدد كبير من الدوائر الانتخابية الكبيرة، حيث كانت تتمتع لوائح الزعماء التقليديين باكثرية أكيدة. وهكذا لم يبق لهم اي معقل شعبي واسع. اضافة الى ذلك، اعلن موقفه الواضح مع بعض المرشحين للانتخابات

٢٠٤- عن عهد بشاره الخوري، راجع Michael C. HUDSON, The precarious Republic, op.cit. p.264ff

(سيرة حياته)، وفي ص ٢٢ (سيرة رياض الصلح).

٢٠٥- راجع ايضاً Wade R. GORJA المصدر المذكور، ص ٣٥-٤٨ وعن كمال جنبلاط ص ٣٠ وما يليها.

٢٠٦- راجع Pierre RONDOT, Les nouveaux problèmes de l'Etat Libanais, in: Revue Française de

Sciences Politiques, 2(1954), p.320ff

أو ضدهم.

وهكذا فقد عدد من السياسيين المعروفين مقاعدهم في مجلس النواب، واصبحوا من خصوم الرئيس شمعون الذي اختار سامي الصلح رئيساً للحكومة رغم ان شعبية هذا الاخير لم تكن قوية لدى الطائفة السنية مثل ابن عمه رياض الصلح. كما كان موقفه ضعيفاً ازاء رئيس الجمهورية. وهكذا لم يكن مدهشاً ان تصدر في عهده نشرة بعنوان "لبنان المسلم اليوم" ٢٠٧ تهجمت لأول مرة بشدة على الوضع اللبناني القائم، وإشير فيها الى ان المسيحيين لا يشكلون اية اكثرية، والحاجة تدعو حالاً الى تعداد سكاني، والرئيس يحتكر كل السلطة. كما ان رئيسي الحكومة ومجلس النواب هما صورا شكلية. وتتمتع معظم المناطق المسيحية بالافضلية، كما تقدم المساعدات الى المدارس الخاصة المسيحية من قبل الحكومة، وتهمل بالتالي المدارس الخاصة الاسلامية.

وكذلك تمثيل المسلمين ما زال ضعيفاً في الوظائف العامة، خاصة في الجيش، وقوى الامن الداخلي، والجمارك، والقضاء، حيث يسيطر المسيحيون تماماً. وبالنسبة لقانون الاجارات فهو يحظر زيادتها على الابنية القديمة، وهي بمعظمها للمسلمين، ويسمح بفرض اجارات عالية على الابنية الحديثة التي يملك معظمها المسيحيون "المركنتليون".

في الواقع هناك خلط كبير بين الحقيقة وعكسها. فقد اشارت هذه النشرة بان هناك اجماع اسلامي في الرأي لا يطالب بتعديل توزيع السلطة فحسب، بل باعادة توزيع الثروة الاقتصادية بين الطوائف ايضاً. وهكذا صودرت هذه النشرة، وطرد مترجموها من البلاد. فالآراء الواردة فيها لقيت لدى المسلمين عامة والفئة السنية المتوسطة خاصة صدقاً وترحيباً واسعاً كما اضعفت شعبية رئيس الجمهورية. وقد ترافق الاستياء الداخلي مع التغيير الحاصل في المحيط العربي. فالولايات المتحدة كانت تحاول، في سبيل وضع حد للنفوذ السوفيياتي في المنطقة، اقامة حلف بغداد ٢٠٨، كشريك في الشرق الاوسط، للحلف الاطلسي الشمالي والجنوبي. انضم اليه، الى جانب تركيا وباكستان، العراق الذي كانت ترعاه الاسرة الهاشمية. وقد جرت محاولات لضم دول عربية اخرى الى هذا الحلف. ولكن الخصم الرئيسي المعارض له كان عبد الناصر الذي لم ير اي مبرر له، خاصة انه لا يستهدف دولة ليست عدوة للعرب، بل سيربط هذا الحلف دولاً عربية مع الدول الغربية التي تؤيد

٢٠٧- نشرت هذه الدراسة مجدداً جامعة بيروت العربية عام ١٩٧٦.

٢٠٨- راجع Fritz STEPPAT, Die arabischen Staaten zwischen Ost und West, in: Arnold BERGSTRAESSER und Wilhelm CORNIDES (eds.), Die Internationale Politik 1955. Eine Einführung in das Geschehen der Gegenwart, München 1958, p.619ff.

اسرائيل، العدو الرئيسي للعرب. لقد ايدت سوريا موقف عبد الناصر وعارضته المملكة العربية السعودية. وفي لبنان، ايد بيار الجميل، رئيس الكتائب اللبنانية، انضمام لبنان الى هذا الحلف، نظرا "لاستحالة الحياد في الوضع الدولي القائم" ٢٠٩. اما رئيس الجمهورية، كميل شمعون، فلم يعلن بوضوح عن تأييده لذلك. الا ان كل السياسيين المسلمين، وكذلك الرئيس السابق بشارة الخوري، والبطريرك الماروني، عارضوا ذلك بكل وضوح. وفي تشرين الثاني من عام ١٩٥٦ حصل هجوم على مصر من قبل الجيوش الاسرائيلية والبريطانية والفرنسية. على اثر ذلك عقد مؤتمر قمة عربي في بيروت، رفض خلاله الرئيس شمعون، بمفرده، قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا. وهذا ما دفع بعبد الله اليافي الى تقديم استقالة الحكومة التي كان يرأسها. عندئذ عين الرئيس شمعون مكانه سامي الصلح الذي لم يكن يحظى بتأييد أكثرية المسلمين. كما عين وزيرا للخارجية، شارل مالك، الذي كان معروفا، كاستاذ فلسفة في الجامعة الاميريكية في بيروت، بتأييده المتطرف للسياسة الاميريكية. وفي آذار ١٩٥٦، انضم لبنان الى معاهدة ايزنهاور التي كانت تهدف الى تعزيز التعاون ضد التخريب، والى الحصول على مساعدات اقتصادية اميريكية. وهكذا دخل شمعون في مجابهة مفتوحة مع عبد الناصر، في وقت كان الرئيس المصري قد تحول، بعد انتصاره السياسي في حرب السويس، الى بطل العالم العربي، وبنوع خاص بالنسبة للمسلمين اللبنانيين. ولكن بالنسبة للمسيحيين اللبنانيين تحول شمعون ايضا الى بطل، اذ واصل، كرئيس، حكم البلاد دون اي اعتبار للمعارضة، وتمسك بالحفاظ على العلاقات التقليدية مع الغرب. وهذا ما كان يرفضه "العرب" دائما. وقد حول شمعون الانتخابات البرلمانية عام ١٩٥٧ الى نوع من الاستفتاء حول سياسته الخارجية. فلم يكرّر الاخطاء التي مارسها سلفه بشارة الخوري، ولكنه اقر تقسيما للدوائر الانتخابية لا يتوافق مع مصالح المعارضة. في بيروت مثلا، أدى هذا التقسيم الى ابراز اكثريات مسيحية شبه واضحة. اضافة الى ذلك، وجدت "المفاتيح الانتخابية" نفسها في وضع حرج يفرض عليها الاختيار بين استرضاء الرئيس او معارضته. وقد أدت النتائج الى فشل المعارضة بطريقة لم يكن يتوقعها حتى انصار الرئيس. فقد جنبلاط ٢١٠ مقعده في الشوف، والاسعد في الجنوب، واليافي وسلام في بيروت. لم تكن تلك النتائج ممكنة لو لم يُقرّ توزيع جديد

L'Orient, 17.3.1955 - ٢٠٩

٢١٠ - يقول كمال صليبي في كتابه: Crossroads to Civil War، ص ١٢ وما يليها: "بما ان انصار كميل شمعون السياسيين كانوا اكثر عددا من انصار جنبلاط في الشوف، كان من الصعب على هذا الاخير ان يكسب الانتخابات في دائرة انتخابية خليطة دينيا، ضد العرقلة التي سببها شمعون. في عام ١٩٥٧، كان على جنبلاط، الذي كان على خلاف حاد مع الرئيس، ان يقوم بحملة انتخابية، ولكن فقد مقعده في مجلس النواب، الأمر الذي أغضب الدروز الجنبلاطيين الذين اعتبروا منذ ذلك الحين شمعون عدوهم اللدود".

للدوائر الانتخابية. وهذا ما زاد في عدد معارضي الرئيس بين السياسيين النافذين. وفي وقت لاحق، حاول انصار شمعون تعديل الدستور كي تصبح اعادة انتخابه ممكنة. ولكن الرئيس لم يكشف عن هذه النية، لابل نفاها على الاطلاق. في تلك الاثناء، قامت الجمهورية العربية المتحدة في بداية عام ١٩٥٨. فاثارت من جهة قلق الرئيس شمعون وعدد كبير من المسيحيين اللبنانيين، ومن جهة اخرى ترحيبا واسعا لدى المعارضة. أحدث ذلك توتراً كبيراً في البلاد أدى الى انتفاضة مفتوحة ضد الحكم في شهر ايار ١٩٥٨. وقف اثناءها الى جانب الحكم معظم المناطق المسيحية في جبل لبنان وشرق بيروت المنطقة الخلفية المحيطة بها. وبرزت المعارضة في غرب بيروت، وجنوب جبل لبنان، وفي المناطق الحدودية. ولكن تلك الانتفاضة لم تتحول الى حرب اهلية اسلامية - مسيحية، لان عدداً من القادة المسيحيين، مثل البطريرك الماروني وانصار عائلة فرنجية من المواردنة في الشمال وقفوا الى جانب المعارضة. وقد قام آخرون بتشكيل "قوة ثالثة"، من بينهم هنري فرعون الذي اراد التمسك والحفاظ على الميثاق الوطني ومنع اعادة انتخاب كميل شمعون.

حارب حزب الكتائب والحزب القومي السوري - الذي حارب للمرة الاولى والوحيدة في تاريخه في ذات الجبهة مثل الكتائب - الى جانب انصار شمعون في الشوف، وقوى الامن الداخلي. والى المعارضة انضم انصار صائب سلام في غرب بيروت، ورشيد كرامي في طرابلس، وسليمان فرنجيه في شمال البلاد، وانصار كمال جنبلاط في الشوف. وكانوا قد حصلوا على السلاح من سوريا. اما الجيش اللبناني بقيادة الجنرال فؤاد شهاب، فقد اتخذ موقفاً حيادياً من تلك الاحداث الدامية، واكتفى بردع تدفق الاسلحة من سوريا الى المعارضة.

وفي الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ أدى انقلاب عسكري الى اسقاط النظام الملكي في العراق ، الأمر الذي أدى الى تنامي تعزيز التيار العربي وزيادة شعبية الرئيس عبد الناصر وتأييد سياسته. عندئذ لم يعد بوسع الرئيس شمعون الا الطلب من الولايات المتحدة للتدخل عسكرياً لحماية استقلال لبنان. فانزلت القوات

٢١١- الدراسة المستفيضة في هذا المجال هي دراسة قهيم ١. قوين" المصدر المذكور. راجع ايضاً :

Malcolm H. KERR, in: Middle East Journal, 16(1962)1, p.96 F

وتجدر الاشارة ايضاً الى عرض وتحليل احد المشاركين الرئيسيين: "كميل شمعون"، المصدر المذكور، وتعليق. Michael C. HUDSON, in: Middle East Journal, 18(1964)2, p.245ff. راجع ايضاً

Jean-Pierre ALEM, Troubles insurrectionnels au Liban, in: Orient, 2(1958)6, p.37-47; Arnold HOTTINGER, Zu'ama' and Parties in the Lebanese Crisis of 1958, op.cit.

وهناك دراسة جديدة باللغة الالهية، من المؤسف انها لم تنشر بعد، من اعداد "تواف سلام" بعنوان L'insurrection de 1958 au Liban, Thèse. Paris 1979.

الاميريكية في الخامس عشر من تموز على الشواطئ اللبنانية. ولكن الحكومة الاميريكية التي ادركت سريعا التعقيد في الوضع الداخلي اللبناني لم تسمح لقواتها بالتدخل في الحرب الاهلية القائمة. ونظرا لعدم تفوق اي من الفريقين عسكريا على الاخر، حصل اتفاق، عبر الوساطة الاميريكية غير المعلنة، على انتخاب فؤاد شهاب، رئيسا جديدا للبنان.

وهكذا انتهت ولاية شمعون مثلما انتهت ولاية سلفه بشاره الخوري بوضع مأساوي. فقد كرّر، وان بطرق أكثر اناقة ودبلوماسية، ذات المحاولات التي مارسها بشاره الخوري، عبر التلاعب بالانتخابات، كي يسهل عملية اعادة انتخابه، ولكنه تعرض مثله الى فشل ذريع. فقد أخذ نمط حكمه طابعا رئاسيا وفقا لحرفية الدستور أكثر من طابع الحكم الثنائي (الدوومفيرة) بموجب روح الميثاق الوطني. فلم يجد اي شخص مثل رياض الصلح، كما انه لم يبحث عن اي شخص من هذا المعيار. وهكذا ازداد شعور المسلمين بالاجحاف الملحق بهم اقتصاديا وسياسيا من قبل رئيس ماروني قوي. وفي الحقيقة، عرف عهد الرئيس شمعون اوضاعا سياسية خارجية صعبة جدا أكثر من الاوضاع التي عاشها العهد السابق. فمع قيام الجمهورية العربية المتحدة وصل عبد الناصر الى حدود لبنان. وبالتالي عرف المسلمون اللبنانيون موجة من الاغتيال بالنهج الناصري. الا ان ايا من السياسيين المسلمين لم يطالب بانضمام لبنان الى هذا الاتحاد. ولكن جرى التشديد على التضامن مع الدولة العربية الجديدة. اما الرئيس شمعون ووزير خارجيته، شارل مالك، فقد شددوا على سياسة خارجية موالية للغرب، وذلك عبر الكلام والرموز أكثر من اتخاذها اجراءات سياسية ملموسة. فالعلاقات الدبلوماسية مع الدولتين الاوروبيتين اللتين اشتركتا مع اسرائيل في حرب السويس، اعتبرت بادرة عدم تضامن مع العالم العربي بكامله. كما وصِفَ القبول بمعاهدة ايزنهاور ابتعادا عن توجه الاكثرية العربية. وهذان الموقفان لا يتلاءمان اطلاقا مع روح الميثاق الوطني. فالثوار من جهة حصلوا على مساعدات عسكرية من سوريا، كما حصل جنبلاط على دعم عسكري من دروز سوريا. ومن جهة ثانية، طلب شمعون تدخل الجيش الاميركي. وهكذا أساء كل من الفريقين الى مبادئ الميثاق الوطني بصورة جلية. ولكن الاميركيين هم الذين احترموا هذا الميثاق عبر اسهامهم في اعادة التوازن. فتحول الرئيس شمعون الى السياسي الأكثر كرها من قبل المسلمين والاكثر اشارة للاعجاب والتقدير من قبل المسيحيين. جاول حكم لبنان، وكأنه بلد متجانس، باكثرية ضئيلة. لم يخالف اطلاقا الدستور، ولكنه استغل كل الحقوق والواجبات الواردة فيه لممارسة الحكم. انتهك المبدأ القائل بان بلدا مثل لبنان لا يمكن ان يحكم فقط بدعم من نصف سكانه، كما انتهك المبدأ الذي قام على اساسه الميثاق الوطني.

أدرجت الحكومة الأولى التي شكلت في عهد الرئيس شهاب سريعاً هذا الاختبار. فلم يعين رئيس الوزراء الجديد، رشيد كرامي، أي وزير في الحكومة من أنصار شمعون، بل وزراء من المعارضة السابقة ومن "القوة الثالثة" فقط. وفي بيانه الحكومي، أعلن عن أن المناضلين الذين شاركوه في الثورة ضد العهد السابق "سيقطفون ثمار الثورة". وهذا ما أدى إلى اندلاع "ثورة مضادة" قام بها حزب الكتائب وأنصار شمعون^{٢١٢}. فالمناطق اللبنانية التي أيدت العهد السابق، رفضت العهد الجديد، دون أن يتمكن أي فريق من فرض رأيه. وبعد شهر من الاشتباكات المسلحة، تم الاتفاق على أن لبنان لا يمكن أن يحكم فقط من قبل حكومة تمثل النصف الآخر من سكانه. فاتفق عندئذ رشيد كرامي وبيار الجميل، اللذان كانا متخاصمين في الحرب الأهلية، على تأليف "حكومة إنقاذ وطني"، يمثل فيها كل فريق بالتساوي. وهكذا انتهت الحرب بعد مرور نصف سنة على اندلاع اشتباكات، أدت إلى مقتل أكثر من ٢٥٠٠ شخص، بشعار "لا غالب ولا مغلوب"، وعودة لبنان إلى روح الميثاق الوطني. اتبع الرئيس شهاب سياسة تختلف تماماً عن سياسة سلفيه^{٢١٣}. فمثلاً فعل بشارة الخوري، عين شهاب رئيساً للوزراء يحظى بدعم قوي من قبل طائفته، ولكنه، خلافاً لبشاره الخوري، عمد إلى بناء جهاز حكومي قوي جداً لا يتأثر بالتدخلات وبالعوامل الخارجية. ومثل كميل شمعون، لم يهتم بطبقة الأعيان التقليدية. فكان يصفهم دائماً "بأكلة الجينة". ولكنه لم يحاول مثل سلفه إبعادهم عن مجلس النواب، بل استدعى عدداً كبيراً منهم لتحمل المسؤولية السياسية معه. فقد قرر سياسة تنمية اجتماعية أشرف على تنفيذها شخصياً، بمعزل عن التدخلات السياسية اليومية، بغية إقامة توازن اقتصادي جديد بين الطوائف.

شكل شهاب فريق عمل حوله ضمّ تقنوقراطيين وضباطاً، تمكن بفضلهم من إنشاء إدارات مستقلة إلى جانب الوزارات، كمجلس للتصميم، وإدارة للأنماء، ومصلحة لاستثمار مياه الليطاني، ومجلس للخدمة المدنية، ومجلس للأبحاث. أما مركز القرار والحكم فكان مديرية رئاسة الجمهورية برئاسة الياس سركيس، والمكتب الثاني، أي جهاز الاستخبارات العسكري. كان فؤاد شهاب، كرجل عسكري، قد أشرف على بناء الجيش اللبناني منذ الاستقلال، وأشرف على إدارته كمؤسسة مهنية غير سياسية، لا ترتبط بأية طائفة، أو باتجاه سياسي أو أشخاص، بل بالدولة فقط. ففي الأزمات السياسية مثل أزمة عام ١٩٥٢، وكذلك في الحرب الأهلية عام ١٩٥٨، لم يسمح للجيش بالتدخل إطلاقاً. وهكذا حاول أيضاً بناء جهاز

٢١٢ - راجع "الثورة المضادة وبرز بيار الجميل" في Wade R. GORJA المرجع المذكور، ص ٤٤ وما يليها.

٢١٣ - راجع Georges NACCACHE, Un nouveau style: Le Chéhabisme, Beyrouth 1961; Michael C. HUDSON, The Precarious Republic, op.cit. p.297ff; Wade R. GLORIA, op.cit. p.58ff; Kamal S.

SALIBI, Corssroads to Civil War, op.cit., p.18ff.

اداري حيادي سياسياً. في هذا المجال وجد عدداً من المعاونين من اصحاب الكفاءات الذين كانوا يوافقونه الرأي ويشاركونه الرؤيا، للعمل على اقامة "ثورة من فوق" ذات طابع تقنوقراطي وبصورة تدريجية. ففي سبيل ارضاء الزعماء والاعيان التقليديين، رفع عدد المقاعد في المجلس النيابي من ٦٦ الى ٩٩ نائباً. وكذلك زاد عدد الحقائق الوزارية كي يسمح لأكبر عدد ممكن من ممثلي الكتل البرلمانية بالمشاركة في الحكومة. في معظم الحكومات التي شكلت في عهده، شارك فيها نواة من السياسيين الذين اسبهموا في اعداد وتنفيذ السياسة الشهابية وأثروا فيها ايضاً: مثل رئيس الوزراء، "والثنائي" الجديد، بيار الجميل رئيس حزب الكتائب، وكمال جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي.

كان الجميل وجنبلاط يمثلان اتجاهات مختلفة جداً بشأن سياسة لبنان الخارجية ومسائل عديدة اخرى. الا انهما اتفقا على دعم سياسة شهاب الاجتماعية والاقتصادية. فنتائج هذه السياسة أدت عبر المناقشات والحوار الى دمج الطبقات والطوائف معاً. فأقر مبدأ التساوي في الوظائف العامة وتكثيف الجهود لتحقيق التنمية في المناطق التي كانت مهملة او متخلفة سابقاً. لم تلق هذه السياسة اجماعاً شاملاً. فقسم من المسيحيين اتهم الرئيس باتباع سياسة "التمييز الايجابي" لصالح المسلمين. كما كان يلقب في بعض اللقاءات الاجتماعية بـ "محمد شهاب" ٢١٤. وكذلك استاء من هذه السياسة قسم من الزعماء والاعيان. فقد اعيد انتخابهم في المجلس النيابي، الا ان امكانية الاشراف وتقديم الخدمات لأنصارهم تقلصت، لان الادارة العامة، وبنوع خاص المصالح الجديدة المستقلة، باشرت بتقديم الخدمات العامة دون حاجة الى التوسط الذي كان يمارسه الزعماء. اما بورجوازية التجار فلم تكن مرتاحة كثيراً الى بعض اجراءات الحماية التي اتخذت لصالح تعزيز منتجات الصناعة الوطنية. وكذلك رأى الاعيان المسلمون في غرب بيروت ان مدينتهم اخذت تهمل لصالح المناطق الخلفية من البلاد.

لم تواجه الادارة الشهابية هذا الانتقاد بالبراهين السياسية بل بسياسة حذرة استهدفت اضعاف خصومها عبر اجهزة المكتب الثاني. فالاستخبارات العسكرية نجحت في التعاون والتمويل والمراقبة والتلاعب مع قسم كبير من "الاجهزة" السياسية التابعة للزعماء والاعيان، مثل المجموعات الشبيهة بالميليشيات، وعصابات الشوارع، واتحادات القرى والاحياء، ومنظمات الشباب السياسية، الخ... وقد تمكن

٢١٤ - "... الاختبار الاصلاحى والتتموي للرئيس لشهاب... حورب بشكل واسع من قبل النخبة السياسية المسيحية التي رفضت تورطه التسلطي ولكن ايضاً نتائجها التي تعيد النظر في بعض البنى التقليدية".
راجع: Salim NASR, l'Islam politique et l'Etat libanais, op. cit. p.39.
وكذلك تحدث كمال س. صليبي عن "معارضة حزينة وعقيمة تماماً"، المرجع المذكور ص ٣.

المنافسون السياسيون الأكثر عداءاً للشهابية من بناء صفوفهم كما جرى تعزيز رصيدهم الشعبي.

وبالاختصار، يمكن القول بأن نظام الانصار والزبائن جرى القضاء عليه باسم المصلحة العليا عبر استخدام وسائل الانصار والزبائن. أما اللبنانيون من ذوي الاتجاهات الليبرالية فقد تذرّوا من النمط التسلسلي لجهاز الدولة، كما عبّروا عن تخوفهم من امكانية تحويل لبنان الى دكتاتورية عسكرية مقنعة. ولكن هذه الادعاءات كانت دون ريب مبالغ فيها. فلا فؤاد شهاب ولا معاونوه كانت لهم ميول دكتاتورية، بل كانت لهم تصورات حيّة للاخطار التي كانت تهدد لبنان، والقناعة بأن دولة قوية تحتاج، في سبيل تجنب هذه الاخطار والتصدي لها، الى "القليل من سلطة الدولة"، الأمر الذي يعتبره المواطنون اللبنانيون بالضروري والكافي.

في نهاية عام ١٩٦١ تجاوز لبنان في الواقع اختباراً عسيراً لاستقراره. فقد حاول الحزب القومي السوري القيام بانقلاب ضد الحكم. ولكن الجيش تمكن خلال يومين من القضاء على الأجهزة التي قامت بهذه المحاولة. ومنذ ذلك الحين حصلت مراقبة شديدة على كل المجموعات الراديكالية. وقد طبق ذلك حتى على الفلسطينيين في لبنان^{٢١٥}. في عام ١٩٦٠ صرّح شهاب الى وفد من الفلسطينيين، بأنهم أصبحوا تجمعا قوياً، يستطيع منع الدولة من مراقبته. ولكن هذا الوضع قد يتطور الى مأساة: "فاما ان نقهركم ونسيطر عليكم ونتحوّل الى قاهرين، واما ان نبقي دون تحرك ونتحوّل الى مقيهورين... ولكن هذا يعني سفك دم العساكر اللبنانيين الذين يفضلون ان يكونوا قاهرين لا مقيهورين"^{٢١٦}.

بالنسبة للسياسة الخارجية ورث شهاب عام ١٩٥٨ وضعاً صعباً للغاية. فبعد جلاء القوات الاميركية تحسّن الوضع قليلاً مع الجمهورية العربية المتحدة. إلا ان الموقف الاساسي من العروبة ذات الاتجاه الناصري بقي مبهماً. في هذا الاطار، جرى لقاء قمة في آذار ١٩٥٩ بين عبد الناصر وشهاب على الحدود السورية اللبنانية، أكد خلاله هذا الأخير بأن لبنان سيتبع سياسة تضامن ثابتة مع العالم العربي. وقد عبّر عبد الناصر من جهته عن اعترافه باستقلال لبنان وسلامة اراضيهِ. اسهم كثيراً رفض عبد الناصر الرسمي كل مشروع لضمّ لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة بهدف تبديد مخاوف المسيحيين اللبنانيين وازالة التوتر في العلاقات بين الطوائف اللبنانية. وهكذا كان بالامكان وصف سياسة شهاب الخارجية ومقارنتها بسياسة فنلندا آنذاك تجاه الاتحاد السوفياتي في مرحلة بعد الحرب. فلم يمارس لبنان اي نشاط، ولم يتخذ اي موقف من شأنه اثاره استياء

٢١٥ - ذات المصدر، ص ١٠

٢١٦ - Wade R. GLORIA, op. cit. p.72

الجمهورية العربية المتحدة. وبذلك تمكن من استعادة استقراره الداخلي وحرية.

وفي نهاية ولاية الرئيس شهاب حصل لأول مرة في لبنان انتقال السلطة من رئيس إلى آخر بطريقة سلمية وهادئة. في الواقع، مورست آنذاك ضغوطات كثيرة على الرئيس شهاب للبقاء في الحكم بعد توفر امكانية تعديل الدستور، بفضل الاكثرية النيابية في المجلس. ولكن رغم تدغده، مثل اسلافه، بهذه الامكانية، لم يكن مستعداً للقبول، الا اذا حصل اجماع تام في المجلس النيابي لتعديل الدستور. ولكن في غياب هذا الاجماع، فضل الرئيس شهاب عدم ترشيح نفسه لولاية ثانية.

يمكن الحكم على نتائج ولاية الرئيس شهاب بانها كانت مثيرة للاعجاب والتقدير. لقد نجح في اعادة الهدوء والسلام الى البلاد بعد حرب اهلية. وباستثناء الحركة الانقلابية التي حاول الحزب القومي السوري القيام بها، فقد عاش لبنان ست سنوات دون اضطرابات داخلية وتوترات جسيمة، أخذت المشاركة في الحكم على رأس الدولة خلال ولايته أشكالاً جديدة. ترك فؤاد شهاب الى رئيس الحكومة صلاحيات في المسائل السياسية اليومية اكثر من اسلافه. وبرز رئيس الوزراء بقوة اكثر الى الواجهة، بينما مارس رئيس الجمهورية دور الحكم. اما تمثيل الطوائف فمورس داخل الحكومة اكثر مما مورس عبر رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة. ولكن رئيس الجمهورية احتفظ لنفسه بالاشراف على سياسة الامن الداخلي وعلى المبادئ الرئيسية التي تنفذ بموجبها السياسة الاجتماعية والتنمية التي رحب بها كثيراً الجانب المسلم، والتي كانت قد تكاملت مع السياسة الامنية. فالرئيس شهاب كان اول رئيس لبناني يؤمن بان المشاركة في الحكم بموجب الميثاق الوطني يمكن احترامها فقط عندما تكتمل بميثاق اقتصادي واجتماعي. وقد وضع لذلك الاسس الرئيسية. فالعودة الى سياسة خارجية متضامنة مع العرب خففت كثيراً من التوترات بين مختلف الاشكال والصيغ المتضاربة بشأن الهوية الوطنية. لقد ظلت قائمة، ولكنها كانت تجد دائماً تسويات ممكنة.

تجدر الإشارة ايضاً الى ان تقوية جهاز الدولة والانشطة السياسية الجديدة لجهاز الاستخبارات العسكرية، اسهمت الى حد كبير في تدعيم السيادة اللبنانية. فالسلطة التي انيطت بهذا الجهاز، أسوء استخداماتها كثيراً في السياسة الداخلية خلال ولاية فؤاد شهاب. ولكنها تحولت في عهد خلفه الى موضوع جدال رئيسي دارت حوله تناقضات كثيرة في السياسة الداخلية.

بعد فؤاد شهاب انتخب شارل حلو رئيساً للجمهورية. لم يكن حلو رجلاً عسكرياً، بل اديباً، اي كان الرئيس الاكثر علماً وثقافة بين الذين عرفهم لبنان. لقد انتمى عام ١٩٥٨ الى "القوة الثالثة". وهذا ما يشير من خلال مزاجه الى كونه رجل التوازن والاعتدال. فلم يكن يتمتع بأي شعبية سياسية، بل كان مرشح الاكثرية النيابية التي

كانت تفضل إعادة انتخاب فؤاد شهاب، ولكنه كان يتمتع بسلطة محدودة على المؤسسة التي بناها شهاب، ألا وهي الجيش. فقد حاول رسّامو الكاريكاتور في الصحف اللبنانية إبرازه كرجل دين نظراً إلى طابعه السلمي المميز^{٢١٧}. ولكنه لم ينج من نيران التوترات الشديدة سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية.

خلال السنوات الأخيرة من عهد الرئيس شهاب، قام تحالف معارض ضمّ كل الذين استبعدوا عن الحكم، وإن لأسباب مختلفة. من بين هؤلاء كان كميل شمعون الذي بقي في نظر عدد كبير من الموارد المحافظين رئيسهم "الحقيقي". ولكن شهاب أبعد لأسباب تتعلق بالسياسة الخارجية. وكذلك ريمون ادّه^{٢١٨} الذي برز في "حكومة الانقاذ الوطني"، عام ١٩٥٨ كوزير ناجح جداً للداخلية. ولكنه استقال من الحكومة نظراً لاستيائه وامتناعه من تعاظم الدور السياسي الذي كان يمارسه المكتب الثاني العسكري. أما الزعيم سياسي البيروت، صائب سلام^{٢١٩} الذي عُيّن عام ١٩٦٠ رئيساً للوزراء، فقد اختلف مع فؤاد شهاب لأسباب غير سياسية^{٢٢٠}. فهؤلاء السياسيون الثلاثة عارضوا وجود المكتب الثاني وتصرفاته. فقد فشل شمعون واده في الانتخابات النيابية التي كانت تؤكد فوزهما في المناطق التي ترشحا فيها، ولكن في الظروف العادية. ولكنهما اتهما المكتب الثاني بالعمل على إسقاطهما. وقد يكون هذا الأمر صحيحاً. أما صائب سلام، فقد استاء من الإدارة الشهابية التي سعت إلى إضعاف وتشيت شعبيته في غرب بيروت^{٢٢١}، وليس إلى إضعاف الميليشيا فقط التي كانت تابعة له عام ١٩٥٨. فبعد وصول شارل حلو إلى سدة الرئاسة تحول المكتب الثاني إلى مؤسسة شبه مستقلة أكثر مما كان في عهد فؤاد شهاب. فتكاثرت اتهامات الفساد ضد هذه المؤسسة التي سعت إلى تقويض شعبية الزعماء. أما نشاطها السياسي فلم يستطع الرئيس الجديد مراقبته إلا جزئياً. عندئذ اتفق شمعون واده وسلام على معارضة ما سمّاه الشهابيون "بالاقتصاد المخطط"، وذلك من منظور البورجوازية المسيحية والسنية المقيمة في العاصمة، والتي لم تكن تعلق أهمية كبيرة على مطالب المناطق الريفية الشيعية. خلال السنوات الأولى من عهد شارل حلو لم تتمكن هذه المعارضة المشتتة - لأن سلام الذي كان أحد المتمردين الرئيسيين عام ١٩٥٨، وشمعون، لم يرغباً إطلاقاً بالعمل سوية - من إضعاف التحالف الشهابي

٢١٧ - ذكر بعض الأمثلة. Michael C. HUDSON, op.cit.

٢١٨ - وصف كمال س. صليبي في كتابه Crossroads to Civil War, op.cit. p. 7

ريمون ادّه "كسياسي ليبرالي من مدرسة "جفرسون" وكومون ثابت بسياسة البرلمانية المفتوحة". راجع

سيرة حياته المفصلة في مؤلف Wade R. GLORIA, op.cit. p.60ff

٢١٩ - عن صائب سلام، راجع، المصدر السابق، ص ٦٣ وما يليها

٢٢٠ - Kamal S. SALIBI, op.cit. p.11

٢٢١ - سهل المكتب الثاني وأيد منافسيه عبد الله اليافي وعثمان الدنا. راجع Wade R. GORIA, op.cit. p.67

الواسع، والذي كان يتمتع بتأييد ودعم رئيس الحكومة رشيد كرامي و"الثنائي" الجميل وجنبلاط.

هذا الثنائي الذي عاش متفقاً ومتضامناً في الرأي حول السياسة الشهابية المتعلقة بالانتمية والتي أخذت شكل نوع من "التحالف الاجتماعي"، انهيار عام ١٩٦٧ بسبب الاختلاف العميق بينهما حول الموقف من الفلسطينيين. فقبل حرب الأيام الستة بقليل أخذ جنبلاط يطالب بدعم الصراع الفلسطيني المسلح انطلاقاً من لبنان، مبتعداً بذلك نهائياً عن التوافق الشهابي حول السياسة الخارجية. وكذلك بدأت تصورات السياسة الاجتماعية تتبدل منذ حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. فابتعد تدريجياً عن السياسة الاصلاحية ذات النهج الشهابي. كما طالب بتعديلات جزرية للنظام اللبناني وتقرّب كثيراً من الاحزاب السياسية اليسارية، كحزبي البعث والشيوعي^{٢٢٢}. اما بيار الجميل فلم يقبل بذلك اطلاقاً، بل طالب بمراقبة الفلسطينيين بهدف تجنّب لبنان الاضرار التي ستلحق به من جراء عمليات اسرائيل الانتقامية. وكذلك اعتبر مواقف جنبلاط والقوى السياسية التي تحالف معها غير لبنانية ومدمرة.

عندئذ انضمّ بيار الجميل وحزبه الى حزب الوطنيين الاحرار برئاسة كميل شمعون وحزب الكتلة الوطنية برئاسة ريمون اده، والقوا ما سُمّي ب"الحلف الثلاثي". فلم يكن للشهابيين الذين شكّلوا في مجلس النواب برئاسة رشيد كرامي^{٢٢٣} "الجبهة الديموقراطية البرلمانية"، الا اتخاذ جانب الدفاع. فالكتلة اليسارية الجديدة بزعامه جنبلاط طالبت باصلاحات راديكالية وبدعم غير مشروط للفلسطينيين. ولكن بيار الجميل الذي ظلّ يؤيد متابعة سياسة الاصلاح الشهابية، اعتبر الموقف الحازم الذي اتخذه شمعون واده من الفلسطينيين بانه بالغ الاهمية.

اما صائب سلام وزعماء مسلمون آخرون فقد أيدوا الفلسطينيين كي لا يتركوا المجال لجنبلاط لتزعم الحركة العروبية. الا ان اتفاقهم مع اده وشمعون تركّز بدرجة اولى على اضعاف النهج الشهابي وخاصة جهاز الاستخبارات العسكري. وهكذا لم يحصل اتفاق او توافق حول السياسة المجتمعية والخارجية، بل اتفاق هنا ومعارضة هناك. اما الرئيس شارل حلو الذي حاول تفهم توجهات مختلف الفرقاء، فقد مال، مع تضاعف الجدل حول المسألة الفلسطينية، اكثر فاكثر الى عدم الابتعاد عن مواقف حلف الزعماء المواردنة الثلاثة. وهكذا تعرضت الشهابية عام ١٩٦٨ دون فؤاد شهاب الى أزمة سياسية عسيرة.

في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٦٨ حصل "الحلف الثلاثي" على نتائج مرموقة،

٢٢٢- سيجري التطرق الى هذا الموضوع لاحقاً

٢٢٣- عن رشيد كرامي، راجع المصدر المذكور، ص ٦٨ وملايها

تشابهت مع النتائج التي حصلت عليها الحركة الشهابية. على اثر ذلك، شكّل جنبلاط كتلته النيابية الخاصة واستخدمها لترجيح كفة الميزان كما يشاء. ومنذ ذلك الحين أصبح حكم لبنان صعباً للغاية^{٢٢٤}. فعندما حصلت عام ١٩٦٨ ولأول مرة اشتباكات بين الجيش اللبناني والفلسطينيين، استقال حلاً رئيس الحكومة رشيد كرامي، وبقيت البلاد مدة طويلة دون حكومة. فالتسوية المؤقتة مع الفلسطينيين - رغم انعدام قيمتها كما دلت الاحداث لاحقاً - لم يفاوض حولها السياسيون، بل تمّ الاتفاق عليها من قبل قائد الجيش، اللواء اميل البستاني، بإشراف الرئيس عبد الناصر في القاهرة. وقد وافق مجلس النواب على ما سُمّي بـ "اتفاق القاهرة" دون الاطلاع على نصّه. وبينما كانت البلاد ترزح منذ عام ١٩٥٨ تحت عبء اصعب أزمة عرفتها، كان القادة السياسيون منشغلين بنوع خاص بسياسة الحكم الداخلي، ألا وهي انتخاب رئيس جديد للجمهورية عام ١٩٧٠. فالشهابيون عقدوا آمالاً كبيرة على ترشيح فؤاد شهاب الذي أصبح من الممكن اعادة انتخابه دون تعديل الدستور بعد مرور ست سنوات على انتهاء ولايته السابقة. وقد تمتت جبهة الحلف الثلاثي ان يترشح احد قادتها. اما الزعماء الاعيان المسيحيون والمسلمون مثل سلام، وفرنجه، وكذلك كامل الاسعد^{٢٢٥} الذي كان ذا نفوذ كبير في جنوب لبنان الشيعي، كما كان رئيس تكتل نيابي هام، فرفضوا ترشيح فؤاد شهاب وأي مرشح شهابي. اخيراً رفض شهاب تقديم ترشيحه. فلم يشأ ان ينتخب باكثرية ضئيلة، ولا ان يخاطر بمغامرة تعرضه للفشل. عندئذ اتفق انصاره على ترشيح الياس سركيس، احد اكثر المقربين منه سابقاً وحاكم المصرف المركزي آنذاك. وفي الجبهة المعادية للشهابية، حصلت عملية شدة حبال طويلة، تحول خلالها صائب سلام في النهاية الى "صانع الرؤساء". فلم يقبل بتأييد شمعون او الجميل، لأنهما خاصما عام ١٩٥٨. ولم تكن له اية مأخذ شخصية او سياسية ضد ريمون إده، ولكن بما انه ابن اميل إده، احد رؤساء الجمهورية الذي تعاون في عهد الانتداب الى اقصى الحدود مع فرنسا، تبين له ان الرأي العام الاسلامي لن يقبل به. اخيراً اتفق مع جبهة "الحلف الثلاثي" على ترشيح سليمان فرنجه^{٢٢٦}.

وهكذا لم يبق اي مجال لمرشحين آخرين. فالياس سركيس^{٢٢٧} من عائلة وضيعة. كانت والدته تعمل في البيوت لتعيل أسرتها. اما فرنجه^{٢٢٨} فينتمي الى عائلة من كبار ملاكي الاراضي الزراعية في زغرتا في شمال لبنان الماروني. اشتغل

٢٢٤ - راجع في هذا الصدد: Proche-Orient Chrétien (1966)p.253; (1967)p.97-99, 341f

٢٢٥ - عن كامل الاسعد، راجع Wade R. GORIA, op.cit. p.73ff

٢٢٦ - مقابلة المؤلف مع المشاركين، ١٩٧١، ١٩٧٩

٢٢٧ - راجع Wade R. GORIA, op.cit. p.120f

٢٢٨ - ذات المصدر، ص ١٢٣ وما يليها.

سركيس كموظف صغير كي يتمكن من تمويل دراسته. اما فرنجييه فقد ورث عن ابيه الذي انتخب عام ١٩٢٢ نائباً في البرلمان. سركيس "اكتشفه" فؤاد شهاب كموظف ذي كفاءة ونظيف يرفض الرشوة. اما فرنجييه فقد مارس المهام السياسية في عائلته، بعد ان تعرض اخوه الاكبر، حميد، الذي كان نائباً ووزيراً مدة طويلة، الى شلل جانبي. سركيس كان فنياً اي تقنوقراطياً، ذا خبرة واسعة في القضايا الاقتصادية والسياسية. اما فرنجييه فكان نموذجاً للزعيم الريفي، ولكن وبصورة خاصة، كان سركيس يمثل النهج الشهابي الداعي الى دولة قوية والى سياسة اجتماعية متعادلة، بينما كان فرنجييه يتطلع الى السياسة اللبنانية وكأنها قضية العائلات الكبيرة و"تخبثها الطبيعة"، التي تأخذ على عاتقها، "في اطار اشتراكية طبيعية"، تحسين اوضاع انصارها ومؤيديها^{٢٢٩}. وهكذا جسّد كلاهما بطريقة نموذجية مجالات القوة والضعف في لبنان حديث او تقليدي.

اثناء عملية الاقتراع حصل فرنجييه على صوت واحد اكثر من سركيس واصبح رئيساً. اما قرار الفصل فعاد الى جنبلاط الذي صوت لفرنجييه. ولكن اثيرت تفسيرات عديدة حول اسباب هذا الاقتراع. فجنبلاط كان لسنوات عديدة اجد دعائم النهج الشهابي، ولكنه اختار هذه الفرصة لتفكيك هذا النهج وتحطيمه نهائياً. ويعود سبب ذلك دون شك الى الغطرسية الاجتماعية. كان جنبلاط يكنّ لشهاب الاحترام، خاصة بسبب اصله ونسبه: "كان شهاب رئيساً اقلّ ممّا كان اميراً بلباس لواء". ولكن هذا الاحترام قلما كان يعبر عنه تجاه معاوني وانصار شهاب. "انا لست صديقاً كبيراً لسليمان فرنجييه. ولكنه على الاقل يمثل شيئاً، بينما السيد سركيس ليس سوى موظف كبير في الدولة فقط"^{٢٣٠}. ولكن الاسباب التي دعت جنبلاط الى هذا السلوك هي دون شك اكثر تعقيداً. فمنذ عام ١٩٦٧ اخذ يهدف الى ابعاد من اصلاح النظام اللبناني. كان يريد نظاماً آخر. فبصفته آخر وزير للداخلية في عهد شارل حلو وقبل الانتخابات الرئاسية بقليل من الوقت، اصدر عدداً من التراخيص لاجزاب سياسية يسارية كانت محظورة رسمياً سابقاً، خاصة تلك الاجزاب التي حاول اقامة علاقات وثيقة معها. اضافة الى ذلك، نصّب نفسه ناطقاً رئيسياً باسم القضية الفلسطينية داخل النظام اللبناني. فالقوى الجديدة المتحالفة مع جنبلاط، كانت، كما اشير اعلاه، مراقبة بقوة خلال مدة طويلة من الزمن من قبل اجهزة الحكم الشهابية. فمن مصلحة هذا التحالف الجديد ان لا يُنتخب رئيس شهابي قوي وحازم يعمل على اعادة تدعيم هذه الاجهزة، بل بالعكس، كان لابدّ من اضعافها مهما بلغ الثمن. وهذا ما كان يُنتظر من سليمان فرنجييه، الرجل التقليدي المحافظ.

٢٢٩- مقابلة المؤلف مع سليمان فرنجييه، ١٩٧٩

٢٣٠- مقابلة المؤلف مع كمال جنبلاط، ١٩٧١

وفي الواقع لم يخيب فرنجيه ما كان ينتظره المحافظون والليبيراليون او اليساريون اعداء النهج الشهابي. فقد عين صائب سلام رئيساً للحكومة. واول عمل مذهب اقدمت عليه الحكومة الجديدة كان القضاء تماماً على المكتب الثاني. فجرى توقيف عدد من كبار الضباط، وصدرت احكام تقضي بسجن خمسة منهم بتهمة تزوير الانتخابات، وسوء استخدام الاموال العامة، ومخالفات قوانين الجيش. ولكنهم تمكنوا من الهرب الى سوريا وطلب اللجوء السياسي فيها. وقد تبع ذلك تغيير واسع جداً في اجهزة الادارة المدنية. فالليبيراليون امثال ريمون إده، رحبوا كثيراً بذلك: "لقد أنقذت الجمهورية باكثرية صوت واحد، وأعيدت الحرية الى نصابها"^{٢٣١}. نعم اعادة الحرية هي دون شك امر صحيح. فحرية الرأي والصحافة لم تبلغ اطلاقاً اي حد اكثر مما بلغته في عهد فرنجيه. والانتخابات البرلمانية عام ١٩٧٢ كانت انزله واصدق انتخابات في التاريخ اللبناني. فمجلس النواب الذي انتخب عام ١٩٧٢ بقي قائماً حتى عام ١٩٩٢. ولكن الجوانب السلبية في عهد فرنجيه برزت في عودة ازدهار عقلية الزبائنية التقليدية، وفي وضع حد لسياسة التنمية التي كانت مستهدفة سابقاً. فالمشاريع التنموية الكبيرة فقدت اهميتها، كما فقدت المصالح المستقلة التي أنشئت في العهد الشهابي تأثيرها وفاعليتها، في البداية شكل صائب سلام حكومة من الشباب التقنوقراط الليبراليين. وكان معظمهم مثله من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت. وعندما حاول هؤلاء تنفيذ بعض المشاريع الاصلاحية، خاصة الحد من بعض الاحتكارات القائمة، تعرضت الحكومة للانقسام والفشل في وقت قصير جداً. استقال احد الوزراء لانه قرر زيادة الضرائب على استيراد السلع من الكماليات بعد ان اضطر الى سحب قراره. ثم استقال وزير ثان لانه اراد تنظيم سوق الادوية. وتبعهما وزيران آخران بسبب فشلهما في دعم وتحسين اوضاع التعليم الرسمي^{٢٣٢}. ثم شكل سلام حكومة ثانية من الاعيان، الذين لا يخطر ببالهم اطلاقاً انتهاج مثل هذه السياسة.

تشابهت السنوات الاولى من عهد فرنجيه مع السنوات الاولى من عهد بشارة الخوري. فقد كان رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة شخصيتين قويتين تتمتعان بشعبية وتأيد واسع من قبل طائفتيهما. ترك الاول للثاني حرية عمل وتصرف واسعة. وكانت لكليهما وجهة نظر متشابهة حول مجتمع لبنان وسياسته، اي وجهة نظر ليبرالية محافظة تتلخص بمبدأ "عيش ودع الغير يعيش ايضاً".

لم يجد اي منهما انزعاجاً من ظاهرة انتفاع اصدقائهما وانصارهما من مكاسب السلطة. في هذا المجال لم يكن فرنجيه قليل التحفظ. فقد عين مواطناً من الشمال

٢٣١ - مقابلة المؤلف مع ريمون إده، ١٩٧١

٢٣٢ - Wade R. GORIA, op.cit. p.128f راجع

كان صديقاً شخصياً له، قائداً للجيش، كما عيّن ولده طوني وزيراً للبريد والبرق والهاتف. ومثل هذه الظاهرة لم تحصل قط حتى في عهد بشارة الخوري. ولم يستغرب أو يندعش احد من تكاثر الاتهامات في مجال الرشوة والفساد. فقد علق على ذلك احد كبار الدبلوماسيين الاميركيين بنوع من السخرية بقوله: "كان من المعروف سابقاً ان الرئيس اللبناني يبدأ عادة بالتهب قبيل نهاية ولايته ولكن ما يحدث الآن هو ان سلب الدولة بدأ بمنهجية منتظمة منذ بداية هذا العهد" ٢٣٣. وقد عرف هذا الحكم نوعاً من التطرف، كما شاركت فئات كبيرة من الشعب اللبناني في التعبير عن تهكمها وسخطها واستيائها.

اراد القيمون على رأس الدولة ممارسة الحكم كما مورس في عهد بشارة الخوري ورياض الصلح. ولكن ردة الفعل الشعبية لم تكن متشابهة. في مطلع السبعينات أخذت تتفاقم في البلاد الازمات الاقتصادية والاجتماعية. وزاد في شدتها ومرارتها الوضع الذي عقب مرحلة طويلة من التحسن الاقتصادي والاجتماعي ٢٣٤. فسنوات عهد النهج الشهابي اسهمت كثيراً في الحد من الفروقات من حيث المداخل ومستوى العيش، سواء بين الفئات او بين المناطق والطوائف. فقد اندلعت الازمات في بداية السبعينات بفعل عوامل موضوعية مثل التضخم المالي ونمو سوق العمل، وبسبب خيبة الامل من نتائج تصرفات الحكم الذي تجاهل المشاكل الاجتماعية. ففي سلسلة من النزاعات الاجتماعية والعمالية أعطيت الاوامر لقوى الامن الداخلي لقمع المظاهرات بقسوة. عندئذ زاد اقتناع مزارعي التبغ والعمال الزراعيين والصناعيين بان الدولة تقف بكل وسائلها الى جانب ارباب العمل والإثرياء. فشلت حكومة الوزراء التقنوقراط في حكومة سلام الاولى كان مثلاً واضحاً وخير تعبير عن هذا الموقف. وبالاختصار، كان وضع لبنان في مطلع السبعينات يشير الى انهيار ذريع للأمال والطموحات التي عقدها اللبنانيون في بداية العهد. كما اخذت المؤشرات تلوح وتندثر بقرب اندلاع الثورات. وكشفت الابحاث التي قام بها "سامايل" (Schemeil) ٢٣٥ عام ١٩٧٣ بان ٧٠٪ من اللبنانيين كانوا يفضلون الديمقراطية على الدكتاتورية العسكرية او على الثورة. لكن ١٤٪ كانوا يفضلون قيام حكم عسكري او تغيير ثوري. ومن بينهم ٢٠٪ من السنة و٢٥٪ من الشيعة كما ان معظم العاطلين عن العمل وخريجي المدارس والجامعات عبروا آنذاك عن ميولهم الثورية ٢٣٦. وكذلك جاءت نسبة الذين رفضوا النظام اللبناني القائم مرتفعة بين

- ٢٣٣ - مقابلة المؤلف مع احد الدبلوماسيين الاميركيين، ١٩٧١
٢٣٤ - راجع في هذا الصدد ما عثر عنه المزارعون اللبنانيون في Thom SICKING, *Dépérissement d'un village libanais*, in: *Travaux et Jours*, 47(1973), p.8
٢٣٥ - Yves SCHEMEIL، المصدر المذكور، ص ١٠٠ و ١٠٤
٢٣٦ - كان ربع الطلاب غير راضين عن الدولة، راجع: Nashat NASR and Monte PALMER, *Alienation*

الطلاب، إذ أيد منهم ٦٠ ٪ الاحزاب اليسارية^{٢٣٧}. ولا شك في ان المواقف الراديكالية لدى الطلاب وخاصة لدى المتقنين العاطلين عن العمل لم تكن ظاهرة غير مألوفة.

فقد رأى المراقب عبر ذلك مؤشرات "فشل المتقنين"^{٢٣٨} التي تمهد غالباً لتطورات ثورية. ولكن في حالات عديدة أخرى قد تزول هذه المؤشرات سريعاً اذا ما حصل تغيير في سوق العمل.

وكان في لبنان في مطلع السبعينات رجل نجح في التعبير عن خيبة الامل والمرارة نتيجة للسياسة الاقتصادية والاجتماعية التي عقيت النهج الشهابي، وقد نجح ايضا في تنظيم وتوعية المتقنين ومجموعات كبيرة من السكان. هذا الرجل كان كمال جنبلاط الذي كان يتمتع بوضع فريد من نوعه. من جهة كان ينتمي الى صميم هيئة "الاستبلاشمنت" السياسية اللبنانية. يستطيع الاعتماد على قسم كبير من افراد طائفته الدرزية، بقطع النظر، عن تأييدهم لأرائه السياسية ام لا. ومن جهة ثانية كان هذا الرجل ايضا في حال تسمح له بفضل برامجه السياسية، بان يكسب عددا كبيرا من الانصار من خارج قاعدته الشعبية المتمثلة بطائفة صغيرة. وهذا ما حاول ان يمارسه منذ عام ١٩٤٩ عبر الحزب التقدمي الاشتراكي، وان بنجاح محدود فقط. ولكنه منذ منتصف الستينات طور برنامجا سياسيا الذي استهدف لبنانا آخر، تقوم فيه مكان دولة الميثاق الوطني جمهورية علمانية موحدة دون امتيازات وتقاسم حصص بين الطوائف. وكان الاصلاح الاداري ذي النهج الشهابي، طالب باعادة بناء الدولة عبر تنظيم جماهير الشعب. وبالاختصار، اعتنق امير الدروز بمفاهيمه هذه، مذهب اليعقوبية، فتحالفه مع الاحزاب اليسارية القائمة استند من جهة على مشاركتهم في هذه المفاهيم اليعقوبية، ومن جهة ثانية، على ان هذه الاحزاب التي كانت تعمل سابقا على هامش الوضع السياسي في لبنان، وجدت في هذا الرجل محاميا قويا ومدافعا عنها. فهو الذي استطاع ان يشرع وجودها ويدعمه. وبعد حرب الايام الستة، وتزايد نفوذ حركة التحرير الفلسطينية، قام جنبلاط بخطوة حازمة وفاعلة، اذ قدم نفسه ايضا الى المنظمات الفلسطينية كحليف ومحام لها. بالنسبة للفلسطينيين شكلت هذه المبادرة فرصة سانحة فريدة من نوعها، اذ وجدوا فيها تماثلا في الرأي مع سياسي ذي وزن كبير على الساحة اللبنانية ومع الاحزاب اليسارية

and Political Participation in Lebanon, in: International Journal of Middle East Studies, 8(1977), p.514.

٢٣٧ - ٧٠،٨ ٪ مع الحزب التقدمي الاشتراكي، ١٨،٦ ٪ مع الحزب القومي السوري، ١٢،٩ ٪ مع الحزب الشيوعي، و ٢١،٤ ٪ مع التجمعات والتنظيمات اليسارية المختلفة، راجع: Theodor HANF, Le

comportement politique des étudiants libanais, in: Travaux et Jours, 46(1973), p.18.

٢٣٨ - راجع BRINTON, The Anatomy of Revolution, New York 1938

التي يرأسها وينطق باسمها. وهذا ما أكسب جنبلاط حليفاً يمتلك قوى وتنظيمات مسلحة، تستطيع ان توفر للاحزاب والحركات اليسارية اللبنانية، في الوقت الضروري، السلاح والتدريب العسكري.

لم يكن ذلك ممكناً قبل عام ١٩٧٠. ولكن الغاء المكتب الثاني من قبل فرنجييه وسلام، شرّع الابواب الموصدة امام المجموعات والحركات السياسية اللبنانية للتسلح المكثف، كما اصبحت مراقبتها من قبل الدولة ضعيفة ومحدودة. وقد ادركت المنظمات الفلسطينية كيفية استغلال هذه الفرصة. فلم تساعد المجموعات المتحالفة مع جنبلاط فحسب، بل نجحت ايضاً في "استقطاب" عدد كبير من المنظمات والمجموعات التي كانت سابقاً تمول وتوجه وتراقب من قبل جهاز الاستخبارات، خاصة عصابات الشوارع والاحياء في المدن ومعظم افرادها، الذين كانوا سابقاً حراساً للزعماء ومساعدين في الانتخابات، ولكنهم كانوا يشكلون ايضاً عصابات للسرقة والسلب والنهب. هكذا تبني عدد كبير من هذه المجموعات شعارات سياسية، وتلقى اسلحة ومساعدات مالية. وبالتالي اكتسبت هذه المجموعات ما يسمى بالكرامة الثورية^{٢٣٩}.

ومثلما حصل في المنطقة الاسلامية من بيروت، مع تلك المجموعات والعصابات التي كانت تابعة سابقاً للزعماء والاعيان، وبعدها للمكتب الثاني، واخيراً للمنظمات الفلسطينية، كذلك حصل شيء مماثل في المنطقة المسيحية من العاصمة.

فبعدما إدركت الاحزاب المسيحية الكبيرة عام ١٩٦٩، بان الجيش اللبناني لم يعد أهلاً وقادراً لمراقبة الفلسطينيين والسيطرة عليهم عسكرياً، بدأت هي ايضاً عمليات التسلح. باستثناء حزب الكتلة الوطنية، الذي يتزعمه ريمون إدّه، أنشأ كل حزب ميليشيا له. كان للكتائب منذ تأسيسها وحدات صغيرة من الميليشيات، بدأ تسليحها وتدريبها، كما جرى دعمها من قبل بعض فصائل الجيش اللبناني^{٢٤٠}.

وهناك ظاهرة اخرى مذهلة برزت ايضاً، وهي عملية التسلح والتدريب التي قامت بها حركة المحرومين، التي اسسها الامام موسى الصدر بهدف تحرير الطائفة الشيعية في الجنوب والبقاع من السيطرة السياسية التي يمارسها عليها كبار ملاكي الاراضي الشيعية من جهة، وبغية وضع حدّ لاتضمام عدد كبير من أبناء الطائفة الشيعية الى الاحزاب اليسارية غير الدينية من جهة أخرى. لم يستهدف الامام موسى الصدر الغاء النظام اللبناني، بل تحسين وتعزيز وضع طائفته داخل هذا النظام. فخلال حفل شعبي دعا اليه في آذار ١٩٧٤ في بعلبك، أعلن بكل صراحة: "السلاح

٢٣٩- راجع في هذا الصدد التحليل المفصل في: Michael JOHNSON, op. cit. p.175ff.

٢٤٠- سيجري التطرق لهذا الموضوع لاحقاً.

هو زينة الرجال، ونحن مع هذا السلاح"^{٢٤١}. لم يكن هذا الكلام مجرد خطاب طنان. فقد حصل ، بعد ذلك بسنة، انفجار كبير في مخيم للتدريب تابع له في بعلبك. على اثر ذلك اعلن الامام الصدر ، بان هذا المخيم كان لتدريب ميليشيا حركة "أمل" التي تعتبر الجناح العسكري "لحركة المحرومين". اما السلاح والتدريب فقد وفره لهم الفلسطينيون. ولكن "حركة أمل" بقيت، كما سيُبين لاحقاً، حركة سياسية مستقلة^{٢٤٢}.

في هذا الاطار العام من السباق نحو العسكرية والتسلح، بقي الزعماء التقليديون للطائفة السنية خارج الحلبة. فلم تكن لصائب سلام او لرشيد كرامي اية ميليشيات سوى بعض الحراس الشخصيين. فخلال التوتر الذي اخذ ينشب ابتداء من عام ١٩٧٣ بين الاحزاب المسيحية من جهة، والفلسطينيين من جهة أخرى، وجد الزعماء السنة انفسهم في مأزق حرج للغاية^{٢٤٣}. فقد اتخذ انصارهم موقفاً مؤيداً للفلسطينيين، كما اتخذوا عام ١٩٥٨ موقفاً مؤيداً للناصرية. فشجاعة الفدائيين الفلسطينيين التي أخذت تبرز للعيان حيث فشلت الجيوش العربية، - معيدة للعرب كرامتهم- أثارت اعجاب اكثرية المسلمين اللبنانيين وتأييدهم. فاحتلت اسطورة الفدائي المجهول، ذات المكانة التي كان يحتلها جمال عبد الناصر.

ادرك السياسيون السنة الاخطار التي ستسببها منظمات الفدائيين الفلسطينيين للبنان مثلاً ادركها زملاؤهم المسيحيون. فبين مطالب الاحزاب المسيحية باضعاف الفلسطينيين سياسياً، ومطالب جن بلاط الداعية الى تأييدهم ودعمهم المطلق، قدّم السياسيون السنة عروضاً للتسوية، كالتسويق بين الجيش اللبناني والفدائيين. ولكن هذه التسوية التي يصعب تحقيقها، لم ترض اطلاقاً انصارهم. لذلك انجرفوا اكثر فاكتر نحو الخط المتمثل بتحويل جن بلاط الى زعيم "حقيقي" ينطق باسم المسلمين. في هذا الاطار اسهم سليمان فرنجية في تصعيد الازمة. فكما فعل كميل شمعون عام ١٩٥٦، لم يعين فرنجية ايضاً عام ١٩٧٣، الزعيم السنّي الأكثر شعبية، رئيساً للحكومة، بل بحث عن شخصية اضعف واكثر استعداداً للتعاون معه^{٢٤٤}. ولكن لم

٢٤١- Michael JOHNSON، المصدر المذكور، ص ١٧١ وما يليها. وعن موسى الصدر، راجع:

Wade R. GORIA، المصدر المذكور، ص ١٦٢ وما يليها.

٢٤٢- Fouad AJAMI, The Vanished Imam: Musa al-Sadr and the Shia of Lebanon, London 1986, p.168ff; Francis GRIMBLAT, op. cit. p.72ff

٢٤٣- "منذ عام ١٩٦٩، بدأت القيادات والبورجوازية الاسلامية اللبنانية التقليدية تعبر عن قلقها بالنسبة لحركات الفدائيين... ولكن هذه القيادة كانت سياسياً أسيرة الجماهير التي كانت تعتمد على تأييدها... في المنطقة الاسلامية من بيروت كانت منظمات الفدائيين قد بدأت تفرض سلطتها ونفوذها..." راجع:

Kamal S. SALIBI, Crossroads to Civil War, op.cit. p.54

٢٤٤- "... كان سليمان فرنجية مرتاحاً لرؤية زعيم، مثل أمين الحافظ او نقي الدين الصلح، يفكر الى قاعدة شعبية وطنية واسعة" راجع Wade R. GORIA، المصدر المذكور، ص ١٦٩.

تكن النتيجة افضل مما حصل قديماً. فقد شعرت الطائفة السنية بأسرها بالاهانة بسبب اضعاف سلطتها ومكانتها. ولم يبق امام زعمائها الا محاولة الانضمام والتأييد لمطالب كمال جنبلاط الراديكالية. وهكذا نجح جنبلاط اخيراً، ومرة اخرى، بتوسيع حلقة حلف المعارضة او حلف الثورة. فإلى جانب الاحزاب اليسارية والقوى الفلسطينية انضم أيضاً اليه الاسلام السياسي^{٢٤٥}.

بدأ عهد سليمان فرنجية بإطلاق الرصاص ابتهاجاً بما اعتبره كثير من اللبنانيين اعادة تثبيت لبنان الطيب القديم. ولكنه انتهى بإطلاق مدافع الحرب. في الواقع، احترم فرنجية الميثاق الوطني، فلم يعمد اخيراً الى تعيين رؤساء حكومة من الوزن الضعيف، لو لم يفقد كل امل بالتعاون مع رشيد كرامي او صائب سلام، بسبب انتهاج سياسة متماسكة تجاه الفلسطينيين، دون ان يحاول اطلاقاً اضعاف منصب رئيس الحكومة او موقع الطائفة السنية. ولكن عمد فرنجية الى تفويض السياسة الاجتماعية وجهاز الدولة ذي النهج الشهابي. قام بذلك باتفاق تام مع شركائه من الزعماء المسلمين.

لقد ارادوا جميعاً استعادة نفوذهم الذي جرّدهم منه فؤاد شهاب تدريجياً، دون ان يستدرك احدٌ منهم الذبول والانكسارات المترتبة على ذلك. فالسياسيون الذين أيدوا فرنجية عام ١٩٧٠ كانوا براغماتيين، ومتسامحين نوعاً ما، ومستعدين للتسويات والمساومات. ولكن لم يكن لهم اي حسّ او ادراك لمسيرة التطور الاقتصادي والاجتماعي الجديد. فمن خلال القضاء على بدايات ازدهار الدولة، اسهموا في تصعيد تفاقم الازمة الاجتماعية التي نتج عنها تراجع في تأييد فئات واسعة من السكان للنظام اللبناني، عكس ما كان مطلوباً و ضرورياً. لم يأخذوا بعين الاعتبار والجّد اهمية الحركات السياسية اليسارية التي لم تكن قد اندمجت بعد في النظام اللبناني. كما اعتقدوا بان هذه الطريقة قد تساعد على اضعافها والقضاء عليها. لم يشأ عدد كبير منهم الاعتقاد بان جنبلاط، كشريك لهم وزعيم من مستواهم، يعني جدّياً ما يقول. فنتائج اضعاف الدولة، خاصة القضاء على المكتب الثاني، لم يلحظها احدٌ منهم، باستثناء جنبلاط. لم يستدرك احدٌ منهم قوة المنظمات الفلسطينية واهمية نفوذها المتزايد في لبنان، كما لم يتمنّ احدٌ ذلك. ولكن عندما برزت هذه القوة، حاول البعض منهم استغلالها لصالحه، جنبلاط اولاً، ثم معظم السياسيين السنة.

اما فرنجية فلم يهمل، مثل شمعون، التضامن العربي. لقد اظهر كل استعداد لمساعدة الفلسطينيين وللدفاع سياسياً عن قضيتهم انطلاقاً من لبنان. دافع فعلاً عام

٢٤٥- هكذا وقت لاول مرة في تاريخ البرلمان اللبناني كتلتان دينيتان ضد بعضهما بعض. حتى في عام ١٩٥٨ لم يحصل ذلك. ذات المصدر، ص ١٧٠.

١٩٧٤ عن قضيتهم امام الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة^{٢٤٦}. ولكنه لم يكن مستعداً لجعل لبنان، كبلد وحيد في العالم العربي، منطلقاً لعمليات الفدائيين الفلسطينيين ضد اسرائيل. ولكن جنبلاط طالب بتضامن غير مشروط مع الفلسطينيين. وهذا ما لم يقدمه اي بلد عربي آخر. في هذا المضمار، خرج جنبلاط وليس فرنجييه عن روح الميثاق الوطني وخالفه. ولم يخف ذلك اطلاقاً، بل طالب بالغاءه.

ومنذ عام ١٩٧٥، لم يعد الامر يدور في لبنان حول المشاركة في الحكم، بل حول الحكم كله. بين عام ١٩٤٣ و١٩٧٥ حصلت نزاعات عديدة، وكانت احداها مسلحة، ولكن ام تكن مشابهة اطلاقاً لما حصل في البلاد منذ عام ١٩٧٥. فالنموذج اللبناني، اي تعايش الطوائف، سار احياناً بصورة جيّدة، وغالباً باعتدال، و احياناً بصورة سيئة. فقد لعب المسؤولون الذين تولوا الحكم، عبر نوعيتهم ومزاجهم وطموحهم، دوراً هاماً في تحويل هذا النموذج الى "الافضل" او الى "الاسوأ". كما اسهمت في ذلك اوضاع وظروف خارجية ملائمة او معاكسة. ولكن هذه الاخيرة اخذت منذ عام ١٩٧٧ تتغير باستمرار، كما سيبيّن لاحقاً. وقبل ذلك، لابد من التوقف عند ابراز اهمية مختلف مواضيع النزاع في لبنان ما قبل الحرب، مثل النزاع حول المشاركة في الحكم، والوضع الاقتصادي والاجتماعي، والهوية القومية.

٨ - مجالات النزاع واستراتيجيات الطوائف

منذ حصول لبنان على الاستقلال وحتى مطلع السبعينات، كانت النزاعات تتركز باستمرار تقريباً على المشاركة في السلطة. وهذا ما عولج في عهد الرئيس فؤاد شهاب سعياً للتخفيف من حدته. كانت النزاعات تنشأ دائماً حول الحصول على عدد أكثر أو أقل في الوظائف، والمقاعد، والصلاحيات قبل السبعينات، ولكن لم يتطرق النزاع اطلاقاً الى موضوع اكتساب السلطة كلها. ومنذ ذلك الحين، برزت مسألة مبدأ المشاركة في الحكم، اي ميزة لبنان بنظامه التوافقي، واصبحت موضوع نزاع وخلاف. فالانتقال من الخلافات حول الحصول على أكثر أو أقل، الى الصراع حول كل شيء أو لا شيء، جرى تفسيره وعرضه بطرق مختلفة. نقول احدى الطروحات بان تفاقم الصراع يعود الى ان النزاعات الظاهرة لدى الطبقة السياسية التقليدية، هي وليدة الطابع الاقتصادي الاساسي للتناقضات القائمة في البلد: وهذا الامر يتلخص

٢٤٦- في تلك المناسبة حصل تنافر حاد بين الرئيس فرنجييه والحكومة الاميركية. فقد قامت الجمارك بتفتيش حقائب الرئيس مستخدمة الكلاب التي تشم روائح المخدرات. ومنذ ذلك الحين لم يعد فرنجييه يقدر الولايات المتحدة بصورة خاصة.

نزاع بين الاثرياء والفقراء.

كذلك برز طرح آخر تركّز على النزاع بين قومية لبنانية يتمسك بها المسيحيون بصورة عامة، وقومية عربية يتمسك بها المسلمون بدرجة أولى، أي النزاع حول الهوية.

اضافة الى ذلك، اثير طرح ثالث شدّد على النزاع بصورة عامة بين مفاهيم دولة تقليدية "طائفية"، ومفاهيم دولة حديثة، علمانية، يتكامل فيها المنحى الاجتماعي والمنحى السياسي: وهو نزاع بين سياسة حديثة وسياسة تسبق التحديث.

ماهي الفائدة التي تكشف عنها هذه المطروحات لتوضيح النزاعات في لبنان ما قبل الحرب؟

لا بدّ من القول انّ الخلافات ذات الطابع الاقتصادي لعبت في الواقع دوراً هاماً خلال سنوات عديدة. لقد جرى التخفيف من شدّتها وتفاقمها عبر السياسة الشهابية التي استهدفت التوازن الاجتماعي، الا انها عادت الى التآزم بعد توقّفها في المرحلة التي عيّنت النهج الشهابي. كانت الفروقات الفعلية في المداخل ومستويات العيش بين الطوائف قد خفت وبدأت بالزوال. كما ان التماثل بين الطبقات والطوائف اخذ ينمو نحو المساواة.

ولكن عندما اخذ يضعف الاتجاه نحو تنمية وتطوير اوسع لهذه المساواة، برز بقوة الشعور بالحرمان النسبي، اقله حسب التعبير السياسي. في البداية، تركّز الحديث على التناقض بين الغني والفقير، ثم تحوّل تدريجياً فتركّز على "المسيحيين الاثرياء والمسلمين الفقراء". وحتى في مسألة توزيع الوظائف الحكومية حسب الحصص، وخاصة في مجال الجدل حول "الامتيازات" و"الضمانات"، سيطرت قضية حرمان طوائف مقابل قضية حرمان فئات او طبقات. وهكذا لم يعد بالامكان تفسير وشرح الازمات الاجتماعية في مطلع السبعينات بطريقة واضحة، لان المشاركين فيها كانوا يعتبرون انفسهم ممثلين لطوائف معيّنة محرومة او مفضلة على غيرها. ولكن في المنظمات النقابية كما في حركات الاضراب الكبيرة، لم يأخذ التركيز على المشاكل الاجتماعية لدى الفئات الاجتماعية والاقتصادية، الطابع الذي عبرت عنه الطوائف. وقد تبين ان النزاعات الطبقية تغلبت على النزاعات الطائفية.

ولكن عشية اندلاع شرارة نار الحرب، وانشاء مظاهرة صيادي الاسماك التي حصلت في صيدا في مطلع عام ١٩٧٥، تجاوز الاعتراض الاجتماعي والتعبير السياسي حدّه، وأعطى طابع الانتماء الطائفي. في بداية الحرب، لم يطلق الفقراء النار على الأغنياء، بل وبالدرجة الأولى، الفقراء المسلمون على الفقراء المسيحيين، كما سيبتين ذلك لاحقاً. وهناك امور عديدة تشير الى ان النزاع الاقتصادي في

الاربيعينات وفي الخمسينات كان نزاعاً بدرجة اولى بين الطوائف، ولكن في الستينات ومطلع السبعينات اعتبر اكثر فاكثراً صراعاً طبقياً "غير طائفي" وفي منتصف السبعينات اعيد وصفه بنزاع بين الطوائف. وقد بلغ هذا النزاع ذروته عندما جرى ، بعد مرحلة من تضيق هذه الفروقات الاجتماعية بين فئات الدخل وتحقيق المساواة المتزايدة، تفكيك السياسة التي دفعت الي ذلك، وعلى الاثر تفاقم الشعور بالحرمان النسبي لدى الطبقات الدنيا، وكذلك ايضاً لدى الطوائف الاسلامية كطوائف. هذا ما ينطبق الى حد بعيد على الشيعة اكثر مما ينطبق على السنة. ففي المطالب والبرامج التي كان يقدمها السياسيون السنة ومؤسساتهم، اشير غالباً الى المواضيع الاقتصادية بصورة هامشية فقط، وبعبارة عامة. اما المطالب الشيعة التي صدرت عن المجلس الشيعي الاعلى، فتركزت بالمقابل على برنامج اقتصادي فقط، مثل اعادة توزيع الوظائف العامة وفقاً لحجم كل طائفة، وتنفيذ مشروع الليطاني، ومشروع الرّي في البقاع الغربي، وبناء المدارس والمستوصفات، ورفع اسعار محاصيل الدخان وتطوير المناطق "المنسية"^{٢٤٧}. ويمكن ايجاز الوضع بان الشعور بالحرمان النسبي قد ازداد في مطلع السبعينات لدى كل الفئات الدنيا، ثم تحول الى شعور بالحرمان خاصة لدى الطائفة الشيعية^{٢٤٨}.

اما النزاع بين القومية العربية والقومية اللبنانية فقد كان قائماً في الواقع منذ تأسيس الدولة. ولا بد هنا من تفسير كلّ منهما. فالقومية العربية اخذت في بدايتها طابعاً ليبرالياً وعلمانياً، وقد لعب افراد من الاقليات الاثنية والدينية دوراً هاماً في نشوئها وانتشارها، نظراً الى ان قومية علمانية يمكن ان توفر لهم امكانية الاعتراف بالمساواة، الامر الذي يصعب الحصول عليه في النظام التيقراطي الاسلامي. وبعد نهاية الامبراطورية العثمانية ووضع الشرق تحت سلطة دول اجنبية غير اسلامية حصل تطور بارز. ففي الجدل مع الغرب الذي اعتبر مسيحياً، برزت القومية العربية وكأنها تعبئة للجماهير غير السنّة على اساس عدم الفصل بين العروبة

٢٤٧- راجع: مروان حماده، المصدر المذكور، ص ١٠. لم تضم لائحة المطالب الشيعة اي شيء لم يكن ملحوظاً في البرنامج الشهابي.

٢٤٨- يشكل تطور الطائفة الشيعية حالة نموذجية لبروز الحرمان النسبي.
"... فبينما كان الشيعة في الاربعينات طائفة هامشية، ريفية بنسبة ٧٥٪، ومن الاميين، تترعهم نخبة "قطاعية"، منقسمة على بعضها ومتخلفة، تحولوا في الستينات الى طائفة مدنيّة بنسبة اكثر من ثلثي عددهم... تترعها نخبة مثقفة نشطة جداً، ونخبة اقتصادية طموحة (تتألف من معتبرين علانين)، ونخبة سياسية مضادة موزعة على مختلف الاحزاب الماركسية او القومية العربية، وحركة سياسية خاصة يترعها قائد شعبي ذو نفوذ فاعل، الامام موسى الصدر". راجع: سليم نصر، L'Islam politique et l'Etat Libanais، المصدر المذكور، ص ٣٩. قبع هذا الترقّي بدأ الشعور بقوة اكثر بالحركات، وزاد كذلك التعبير عنه.

والاسلام، بينما غابت عن الانظار الافكار والاتجاهات العلمانية^{٢٤٩}. فالأقليات غير الاسلامية برزت بالتالي في مقدمة مؤسسي الحركات السياسية اليسارية، التي تمسكت بالعروبة العلمانية. اما المسيحيون اللبنانيون، الذين شاركوا والتزموا بقوة في المراحل الاولى لنشوء القومية العربية، شرعوا بعد حين ينظرون الى العروبة وكأنها أسلمة جديدة. فتحولوا بغالبيتهم نحو قومية لبنانية محضة.

وبالمقابل، لم يجد المسلمون اللبنانيون اية صعوبة في اعتبار انفسهم قوميين عرب. ولكن تبين بالنسبة للفئات السننية الدنيا بان العروبة هي "شعور بالتضامن الاسلامي". ولم تكن القومية العربية، بنظر هذه الطبقات، أكثر من اسم آخر للاسلام^{٢٥٠}.

ان مظاهرات الابتهاج الكبيرة في لبنان، التي طالبت بالانضمام الى المملكة العربية في نهاية الحرب العالمية الاولى، والانتماء الى الناصرية، والتضامن مع حركة التحرير الفلسطينية كان انصارها ودعاتها بمعظمهم من السنة. فالقومية العربية كانت دائماً بالنسبة لهذه الطائفة أكثر اجتذاباً، خاصة عندما يتزعمها قادة من صفوفها. اما بالنسبة للقومية اللبنانية فلم يختلف أمرها عن ذلك كثيراً. فلبنان بصيغته الحاضرة، اراده الموارد، وارانوه حسب تصوراتهم. وقد حصل جدل بين الموارنة عند تأسيس دولة لبنان حول اذا ما كان لبنان الكبير يمكن ان يكون مارونياً كفاية، او ان لبنان الصغير لا يمكن الاعتماد عليه مارونياً. فاعتمدوا في النهاية على لبنان الكبير، مثلما فعل، في نفس الوقت تقريباً، الشيكيون والصرب مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وكذلك مع يوغسلافيا. ولكن عندما اخذ الخطر يهددهم، نظراً لعدم تجاوب لبنان الكبير مع تصوراتهم، بدأ البعض منهم يفكر بالعودة الى لبنان الصغير، وحتى الى لبنان أصغر.

فقد اتهم القوميون اللبنانيون المسلمين بولائهم المزدوج: ولاء للبنان، وولاء للعالم العربي الاسلامي. وهذا ما حصل دون ريب. ولكن الاشكال المتطرفة للقومية اللبنانية ابرزت أيضاً نوعاً من الانتماء المزدوج: انتماء للبنان الحاضر، "طالما

٢٤٩- الانسان العربي المسلم العادي لا يدرك انتماءه، من جهة، الى كونه في الجماعة العربية، ومن جهة اخرى، في الجماعة الاسلامية، ولكن يدرك انتماءه الى جماعة "عربية-اسلامية" متكاملة وواحدة، لا يميز فيها بوضوح العناصر العربية من العناصر الاسلامية، راجع: Albert H. HOURANI, Syria and Lebanon, op.cit. p.103; Kamal S. SALIBI, Lebanon and the Middle Eastern Question, Oxford 1988, p.9. منذ البداية كانت تبرز خلافات في الطريقة التي كان ينظر فيها المسيحيون والمسلمون الى العروبة. بالنسبة للمسيحيين، كانت العروبة (او القومية العربية) تجسد هوية قومية علمانية محضة منفصلة ومميزة عن الاسلام، وتعتبر قاعدة تقليدية للحياة السياسية العربية. وبالنسبة للمسلمين، كانت ادراكاً لهوية طبيعية تبقى مندمجة بطريقة ما مع الاسلام، دون اعتبار طابعها العلماني النظري.

٢٥٠- Kamal S. SALIBI, A House of Many Mansions, op.cit. p.49 f

يمشي الحال"، وانتماء للبنان مسيحي صغير، لان البلاد ككل لم تعد تسير وفق تصوّراتهم^{٢٥١}. بالاختصار يمكن القول: ان التيار الرئيسي للقومية العربية في لبنان، وكذلك التيار الرئيسي للقومية اللبنانية، هما أقلّ "عروبة" و"لبنانية" وليساً سوى شعارات كلامية تميّز بالتالي الشعور الطائفي السني والماروني.

اما تماثل الطوائف الاخرى مع احدى هاتين القوميتين فكان قليل الوضوح. فالشيعة والدروز شاركوا بطريقة محدودة ابتهاج السنة بالمشاريع الحدودية العربية. فهم يتمسكون بلبنان كوطن مقبول به، ولكن دون ان تفرض عليهم قومية لبنانية تبعدهم كثيراً عن العالم العربي، او عن العالم الاسلامي الواسع. وكذلك اتخذت طوائف الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك والارمن مواقف ايجابية من لبنان. ولكن هذه الطوائف، الموجودة ايضاً في دول عربية أخرى غير لبنان، لم تجد أية فائدة في عزل لبنان عن هذه الدول، وبالتالي في العودة الى لبنان مسيحي صغير. اضافة الى ذلك، برزت لدى الروم الارثوذكس فئات عديدة تفضل دولة سوريا الكبرى على دولة لبنان الحالي. ولم تكن بالتالي أقلّ تأييداً لقومية عربية علمانية خالصة. وكذلك يشير تكوين اجهزة القيادة في كل الاحزاب والحركات اليسارية في لبنان الى ان القومية العربية ليست بنظرهم اسلامية بل تقدمية علمانية. فاليسار اللبناني هو بمعظمه ذو اتجاه علماني، ولم يبدِ اي اتجاه عروبي واضح. فالحزب الشيوعي عاش مثلاً مرحلة طويلة من الجدل الداخلي حول ضرورة تركيز الجهد السياسي على لبنان او على منطقة اكبر منه. وكذلك ركز الحزب التقدمي الاشتراكي دائماً على التضامن مع العرب. ولكن الامر بالنسبة لهذا الحزب، ولزعيمه جنبلاط، كان يدور قبل كل شيء حول السلطة في لبنان.

يستنتج هنا بان النزاعات بين القوميتين العربية واللبنانية كانت قائمة دائماً، ولكن دون امكانية تأثير على السياسة اللبنانية. ويشير الى ذلك وجود اكثر من سياسية في كل الطوائف منذ عام ١٩٤٣، تعترف بالميثاق الوطني، وتبتعد عن التركيز او التمسك بمبادئ هذه القومية او تلك.

ان تاريخ لبنان منذ الاستقلال وحتى الحرب، ينبغي -وقبل كل شيء- ان يفسّر كنزاع بين افكار الدولة التوفيقية القائمة على التوافق بين الطوائف من جهة، والصيغ القومية الخاصة التي تستخدم كشعارات لمصالح بعض الطوائف من جهة اخرى. ففكرة الدولة التوفيقية المعبر عنها في الميثاق الوطني تبرز بالتالي، دون ريب، في النزاع مع فكرة لبنان العلماني المتكامل اجتماعياً، دون حصص او نسب،

٢٥١- راجع Fouad E. BOUSTANY, Le problème du Liban, 2e éd. Kaslik 1978, p.37 "الحل الوحيد الممكن يقوم على تدويل المسألة اللبنانية والعودة الى صيغة لبنان القديم، والحياد المضمون من قبل سلطة منظمة الامم المتحدة".

اي لبنان ذو النزعة اليعقوبية. ولهذا النزاع تاريخ طويل أيضاً^{٢٥٢}.

فخلال عهد الانتداب حاول حكام وموظفون فرنسيون علمنة قانون الاحوال الشخصية جزئياً، عملاً بواقع المنطق اليعقوبي. فالتكامل الاجتماعي الشامل، اي ذوبان الطوائف في امة واحدة، لن يكون ممكناً إلا عندما يصبح الزواج "ممكناً" قانونياً بين اتباع مختلف الطوائف. ولكن القانون الاسلامي يسمح للمسلمين بالزواج من نساء مسيحيات او يهوديات، ولا يسمح للنساء المسلمات بالزواج من مسيحيين أو يهود. وهذا ما يشير الى وجود طريق واحد للتكامل، لا يسير الا في اتجاه واحد فقط. وقد اصدرت سلطة الانتداب عام ١٩٣٦ قراراً، يوفر امكانية انشاء "مجتمع مدني"^{٢٥٣}. ولكن تنفيذه فشل بسبب معارضة القادة الدينيين. وكذلك فشلت المحاولة الهادفة الى تمكين المواطنين اللبنانيين من الاختيار بين قانون الاحوال الشخصية لطوائفهم، وبين قانون مدني للاحوال الشخصية. وبالتالي لم يكن ممكناً اقرار الزواج المدني. وحتى اليوم لا يعترف بالزواج المدني للمواطنين اللبنانيين الا اذا عقد خارج لبنان.

من هم اللبنانيون اليعقوبيون؟ يمكن ان نجدهم بين العلمانيين الملتزمين في الاحزاب اليسارية كما نجدهم أيضاً في حزب الكتائب^{٢٥٤}. فاليسار يريد دولة علمانية ومجتمعاً علمانياً. وحزب الكتائب اصبح منذ الستينات يقبل بدولة علمانية شرط علمنة المجتمع، أي تهيئة الاوضاع القانونية لتكامل لا يكون فقط من جانب واحد. كان موقف اليسار ضعيفاً حتى السبعينات. اما موقف الكتائب فقد فسّر غالباً بأنه تكتيك محض. فانصاره يطالبون فقط بالعلمنة الشاملة، لانهم يعرفون سلفاً بانها غير مقبولة من جانب المسلمين. وبهذه الطريقة يبقى الحفاظ على الوضع الراهن قائماً بالنسبة لتقاسم السلطة بين الطوائف. ويمكن بالتالي تبرير استمراريته. وهذا التفسير

٢٥٢- راجع: Issam KHALIFE, A la recherche d'une politique ou d'un concept de sécularisation dans le Liban multiconfessionnel, 1958-1975, Thèse, Paris 1982; Jürgen STOLDT, Das Scheitern einer politischen Modernisierung: Säkularisierungsinitiativen im Libanon 1920-1976, Magisterarbeit, Univ. Freiburg i.Br., 1986; Theodor HANF, The Political Secularization Issue in Lebanon, in: The Annual Review of the Social Sciences of Religion, 5(1981), p. 225-253.

٢٥٣- جاء في المادة ١٤ من القانون ٦٠ الصادر في ١٣ اذار ١٩٣٦: "تنظم الطوائف الحق العام وتدير بحرية مصالحها ضمن حدود التشريع المدني". كان يطبق هذا القانون على سوريا ولبنان. وبعد احتجاج شديد من قبل الطوائف الاسلامية نظراً لتعارض هذا القانون مع القرآن، غلّق تطبيقه على الطوائف الاسلامية. وهكذا لم يوضع حتى اليوم اي قانون مدني للاحوال الشخصية. راجع: Stephen H. LONGRIGG ص ٢٣٥ وما يليها.

٢٥٤- طالب بيار الجميل منذ عام ١٩٥٣ بتحويل لبنان الى دولة علمانية، ويقانون مدني للاحوال الشخصية، راجع: Kemal H. KARPAT, Political and social Thought in the Contemporary Middle East, London 1968, p.112.

ليس صائباً كثيراً كما سيبين البحث التجريبي لاحقاً، والذي يشير الى ان قسماً كبيراً من المسيحيين اللبنانيين، وبالتالي انصار حزب الكتائب، هم مستعدون لتطبيق العلمنة الشاملة. و لكن لم تكن مسألة العلمنة الشاملة في لبنان ما قبل الحرب موضوعاً تركزت حوله جهود سياسية جدية.

تبدلت النظرة الى هذه القضية بعد بدء العمليات العسكرية. فخلال العامين ١٩٧٥ و ١٩٧١ حصلت المناقشات والمجادلات الأكثر أهمية ومرارة حول الطابع السياسي والمجتمعي للبنان المستقبلي^{٢٥٥}. كشفت هذه المفاوضات عن المشكلات الواقعية لهوية لبنان، أكثر من أي موقف سياسي سابق.

في أيار ١٩٧٦ اصدر الحزب التقدمي الاشتراكي بياناً هاماً جاء فيه:

"١- ان هوية لبنان كانت ومازالت اهم مشكلة، قامت حولها الازمات المتتالية...

٢- ان الطائفية حالت دون بناء هوية موحدة في لبنان، وبسببها نشأت جنسيتان مع وضعين طائفيين: القومية اللبنانية المارونية المسيحية والقومية العربية الاسلامية، وترتبط هاتان القوميتان بالانتماء الطائفي وليس بالانتماء الوطني.

٣- نظراً لضرورة توحيد هاتين القوميتين القائمتين على النزاع، يسيطر صراع دائم حول الهوية القومية، وينفجر تقريباً من حين الى آخر...

٤- ان القومية العربية في لبنان بقيت نداءً صارخاً للحركات الانعزالية الاسلامية حتى الستينيات، حتى اعطاها التيار الناصري طابع الصراع وربطها بشعار التحرر من الامبريالية.

٥- لم تبرز الناصرية المعنى المجتمعي للقومية العربية بل معناها السياسي. وهذا ما منع الناصرية من تجاوز الاطار الاجتماعي للطائفية.

٦- تحاول العلمانية الغاء الطائفية، التي هي سبب التمزق والانقسام المجتمعي القائم في لبنان. العلمانية ستحاول القضاء على هذا الارتباط المزدوج، أي الانتماء الى الطائفة أولاً، ثم الانتماء الى الامة ثانياً، وخلق امكانية لاقامة رابط مشترك، وهو الارتباط بالامة فقط.

٧- وبما ان العلمانية هي نقيض الطائفية التي هي اهم الخصائص الاجتماعية في لبنان، فهي ملزمة بان تقيم مكانها مفهوماً سياسياً ومجتمعياً جديداً للقومية العربية يصبو الى ما يلي:

٢٥٥- هناك عرض مستفيض للخلافات اللبنانية الداخلية، وبراهين حول هذا الجدل في

Johannes REISSNER, 'Säkularisierung des Libanon? Äusserungen von Muslimen zum neuen Schlagwort 'Almana'', in: Orient, 17(1976)3, p.13-37.

- أ- ابعاد الطابع الطائفي الخيالي والشعوري عن العروبة، والذي اضفي عليها عبر "الشارع" الاسلامي والطروحات القومية الرومنسية كالبعث والناصرية.
- ب- ابعاد عقدة الخوف من نفوس المسيحيين، لان المفهوم الجديد للعروبة سيصبح الرابط القومي والثقافي الذي يتجاوب مع الحاجات الاقتصادية والسياسية للمجتمع اللبناني.
- ج- تمهيد الطريق لاحقاً للبنان، كي يصبح جزءاً من الدولة العربية المتحدة التي ينبغي ان تقوم على أسس الديمقراطية والعلمانية.
- ٨- العروبة المعلنة تختلف نوعياً عن العروبة الاسلامية في النقاط التالية: وحدة المصالح الاقتصادية، وحدة اللغة، وحدة التاريخ والمصير، ووجود عدو مشترك (اسرائيل، الامبريالية، الرجعية العربية).
- ٩- العلمانية هي الوسيلة لتحويل العروبة الى هوية قومية موحدة يشترك فيها كل المواطنين اللبنانيين، وليس فئة أو مجموعة طائفية، وابعاد غيرها.
- ١٠- العلمانية ليست فقط مجموعة من القوانين. لا تهدف فقط الى الغاء النظام الطائفي اللبناني، والغاء الطائفية في الوظائف الحكومية، وقرار الزواج المدني، وتعديل قانون الارث الخ... بل هي ايضا اعادة بوتقة ثقافة المجتمع وبنائها على ثقافة العقل والعلم...^{٢٥٦}
- من الصعب جداً التشكيك في هذا الكلام. انه تعبير عن قومية خالصة، عقلانية، ويعقوبية. هذا الكلام الصادر عن كمال جنبلاط وحزبه كان جذياً. فهو يعني في نطاق التطبيق السياسي علمنة شاملة، اي الغاء المحاكم المذهبية لكل الطوائف الدينية، وقرار قانون مدني للزواج والعائلة والارث، والغاء نظام النسبة الطائفية في تقاسم المناصب السياسية، وتوزيع الوظائف في الادارة المدنية بحيث تصبح بمتناول اي مواطن، والغاء ذكر "الانتماء الطائفي" في تذاكر الهوية. وقد اعلن موافقته وتأييده لهذا البرنامج - كما حصل سابقاً- اليسار وبعض الاحزاب المسيحية. وقد تبين أيضاً بأن فكرة العلمنة يمكن ان يقبلها المسلمون الذين لا ينتمون الى الاحزاب اليسارية. فاتحاد طلبة جمعية المقاصد الاسلامية آنذاك اعلن قبوله لمفهوم العلمنة الشاملة، بما في ذلك قبول قانون مدني للاحوال الشخصية^{٢٥٧}.
- ولكن هذا ما أثار غضب رجال الدين في الطائفتين السنية والشيعية. فتخوفوا من ان تتجاوزهم ديناميكية اليسار المتعلم. عندئذ لم يكن يوسع مجلس العلماء المسلمين

Islamic Law and Change in Arab Society, Cemam Reports, 1976, Vol.4, Beirut 1978, p.93f -٢٥٦

Islamic Law and Change in Arab Society, Cemam Reports, 1975, Vol.3, Beirut 1976, p.81-86 -٢٥٧

الأصداق بيان بالغ الأهمية^{٢٥٨}، برزت فيه بوضوح كلى إشارات الخوف على زوال الهوية الإسلامية.

"ماذا يمكن أن يكون هدف المطالبة بالعلمنة سوى السماح بالزواج لابنة مسلمة من غير مسلم؟ فالذين هم وراء هذا النداء والمطالبة بالعلمنة ليس أمهم غير ذلك، أي إزالة الشخصية الإسلامية في لبنان عبر زواج المسلمة من غير مسلم... فنشوء جيل من آباء مسيحيين وأمّهات مسلمات يهدف إلى أحداث تمزيق في الروابط العائلية الإسلامية... وهذه هي مقدمة لافساد أصالة الأجيال الإسلامية في العالم العربي المجاور، وليس فقط في لبنان. هذا هو الحاجز الوحيد والآخر الذي يُستهدف القضاء عليه، الحاجز الذي يحمي مسلمي لبنان من خطر الانحلال والتفتت والتضليل. وهذا ما يهددهم عبر الضغط المتنامي والمستمر والمتمثل بالعلمنة الغربية والماركسية".

وقد صرح العلماء بأنهم لا يعارضون إطلاقاً مطالب القيادات المارونية والدرزية إذا أرادوا علمنة قانون الأحوال الشخصية لطوائفهم، إذا بقي هذا المطلب مقتصرًا على ذلك. "ولكن المجلس يعارض تطبيق العلمنة على الجميع". وقد أطلق أخيراً نداءً دعا فيه "لجنة شاملة لأعضائه بهدف مجابهة هذا الخطر الجدي بكل الوسائل". ثم استنتج: "لا مكان للعلمنة في حياة المسلم، أما أن يقوم المسلم دون العلمانية، أو العلمانية دون الإسلام".

وقد ذهب مجلس العلماء المسلمين إلى أبعد من ذلك. فطالب اتحاد طلبة جمعية المقاصد توضيح موقفه "والتمسك بالإسلام والابتعاد عن أي مبدأ أو اتجاه آخر". كما حذر كل المرشحين لانتخابات رئاسة الجمهورية من التزامهم بالعلمنة، وابلغهم بأن المسلمين "الذين ينتمون إلى حزب واحد، هو حزب الله"، سيحافظون على قوانين دينهم بكل الوسائل. وفي هجوم معاكس طالب أيضاً بمنع الاعتراف بالزواج المدني الذي يعقد في الخارج.

لقد أظهر هذا الجدل بكل وضوح مدى اختلاف اليسار مع التيار الإسلامي اللبناني. وقد عُبّت ذلك مفاوضات طويلة كشفت عن عدم رغبة أي من الفريقين بالتخلي عن الفريق الآخر.

وقد حصلت أخيراً، بفضل الوساطة الفلسطينية، تسوية تركّزت فقط على ما يسمى "بالعلمنة السياسية" التي استهدفت إلغاء نظام النسبة الطائفية في الدولة وفي الوظائف العامة. أما المطالبة بتطبيق العلمنة في مجالات أخرى فقد تركت جانباً، بصورة مؤقتة حسب تفسير التيار اليساري، وبصورة مبدئية، حسب تفسير الجانب

٢٥٨- يراجع بيان مجلس العلماء في لبنان، في "الأخبار" ٢٥ آذار ١٩٧٦، ص ٣

الاسلامي.

ولكن قراءة عميقة لهذا الاتفاق، تشير الى انه لم يؤد اطلاقاً الى اية "تسوية". فاليسار تخطى بكل بساطة عن مطلبه الرئيسي. فالعلمنة التي تشمل فقط المؤسسات السياسية وادارة الدولة ليست سوى صيغة جديدة للمطلب التقليدي للاسلام السياسي اللبناني المتعلق بتوزيع جديد للسلطة. فقد رأى المسيحيون في ذلك انذاراً ومطالبة لهم بقبول مصيرهم كأقلية في دولة يسيطر عليها الاسلام. وهذا ما أعلنوا رفضه.

اما الكلمة الاخيرة حول هذا الجدل فهي خطاب للرئيس السوري حافظ الاسد الذي ألقاه في العشرين من شهر تموز عام ١٩٧٦. وكان كمال جنبلاط قد ناقش معه موضوع العلمنة.

"قلت له (اي لجنبلاط) بان الكتائب يرحّبون جداً بالعلمنة: فعندما زارتنا القيادة الكتائبية برئاسة الشيخ بيار الجميل، سألته شخصياً عن هذا الموضوع، فأجاب فقط "لا اقبل باي بديل عن العلمنة. اني اصرّ واتمسك بدولة علمانية في لبنان".

ناقشت هذه القضية مع المسلمين، مع موسى الصدر وبعض رؤساء الحكومات ورؤساء المجلس النيابي، فرفضوا جميعاً، لان الامر يمسّ جوهر الاسلام. فمسلّموا لبنان هم الذين لا يريدون أية علمنة، وليس العكس... الكتائب يتمسكون بالعلمنة، وكمال جنبلاط يتمسك ايضا بالعلمنة^{٢٥٩}.

سمح النقاش عام ١٩٧٦ بتوضيح الخطوط الرئيسية في استراتيجيات الطوائف اللبنانية. برزت القوميتان العربية واللبنانية كإيديولوجيتين استراتيجيتين لبعض الطوائف، كما برزت العلمنة كإيديولوجية استراتيجية لطوائف أخرى-او لذات الطوائف، وفق شروط مختلفة. فالإيديولوجيات مهمة للتعبير بطريقة "عصرية" عن مصالح الطوائف. حتى وان كان انصارها مقتنعين بها، فذلك لا يغيّر شيئاً في هذه المهمة. فهي تتبدل وتتغير بكل وضوح عندما لا تعود تصلح لخدمة مصالح هذه الطائفة او تلك.

بالنسبة للطائفة المارونية، تعتبر القومية اللبنانية إيديولوجية وظيفية، طالما أمنت لها تفوقاً محدوداً او اهمية رمزية فقط، وطالما احتفظت بأكثرية سياسية تجاه باقي الطوائف المسيحية. فاذا ما رأى الموارنة انفسهم في خطر اذا لم يتمكنوا من التمسك بهذا الموقف، تبرز امامهم إيديولوجيتان استراتيجيتان: فاما العودة الى جزء من لبنان عبر التقسيم، او اعتماد استراتيجية يعقوبية ذات إيديولوجية علمانية. ففي لبنان

٢٥٩ - ترجمة انكليزية لخطاب حافظ اسد، نشرت في Itamar RABINOVITCH, op.cit. p.201-236 راجع ايضاً ذات المصدر، ص ٢١٨.

معلمين تماماً، يستطيعون الاعتماد على توفير الامكانية لهم كجماعة قوية وديناميكية للاحتفاظ بموقع ريادي.

اما الطائفة السنية فتستخدم بالتناوب، من جهة، استراتيجية الاتحاد مع دول عربية اخرى عبر ايدولوجية القومية العربية التي تخولها لتصبح تلقائياً الاكثرية المطلقة، او من جهة اخرى، استراتيجية المطالبة بمشاركة جديدة في الحكم داخل لبنان، عبر ايدولوجية "العلمنة السياسية". اما المبرر الوحيد لمعارضتها النظام اللبناني القائم، فهو أخذ مكان الطائفة المارنية.

بالنسبة للطائفة الشيعية، فقد اتبعت في لبنان ما قبل الحرب استراتيجية ذات ايدولوجية طائفية دينية. استهدفت الحصول على جزء أكبر ومواز لحجمها في السلطة وموارد البلاد، عبر تنظيم وتعبئة افضل. نظراً لكونها افقر الطوائف، لم تبرز في البداية مطالب سياسية بل اقتصادية. ولكن في وقت متأخر، وبعد سنوات طويلة من الحرب، وقناعات متنامية بانها اكبر طائفة في لبنان، حاول الشيعة أيضاً استخدام مطلب "العلمنة السياسية" للمشاركة في الحكم.

اما الطوائف الصغيرة فكان لها الخيار بين استراتيجية تربطها بطائفة اكبر منها في مجموعتها الدينية والتأثير بقدر المستطاع على ايدولوجيتها، وبين اعتماد استراتيجيات يعقوبية مختلفة. الخيار الاول اعتمدته طائفة الروم الكاثوليك. فأيدت الموارد، ولكنها حاولت ان تجعل ايدولوجيتها ملزمة ومقبولة من قبل الفئات الاخرى. وقد اتبع قسم من طائفة الروم الارثوذكس هذا الطريق، بينما اختار قسم آخر يعقوبية سوريا الكبرى او يعقوبية القومية العربية، مضيفين اليها طابعاً علمانياً محضاً. لان العلمانية وحدها تستطيع تأمين المساواة بين الجميع. ولكن الطابع الوظيفي لاستراتيجية يعقوبية برز بكل جلاء ووضوح لدى الدروز بزعامة كمال جنبلاط. فباعتباره الرجل السياسي الاكثر ديناميكية وذكاء وحنكة في لبنان، استطاع ان يفكر فقط بنظام علماني يسمح له بالوصول الى رأس السلطة. وهذا ما كان يطمح اليه فعلاً. ولذلك سعى وجاهد في سبيل اقرار مثل هذا النظام.

ان ما حصل في لبنان ما قبل الحرب كان، قبل كل شيء، من جانب كل الطوائف، اعتماد تطبيق هادئ لهذه الاستراتيجيات. كان الجميع يدرك استبعاد واستحالة ذلك. وان تنفيذ اية استراتيجية لا يمكن ان يحصل الا بالعنف، وبكلفة باهظة جداً. لذلك عمد الجميع الى تحسين نسبي لوضعهم القائم ضمن النظام اللبناني. فلبنان ما قبل الحرب قام على تخويف وتخويف معاكس لاستراتيجيات معاكسة. وقد دفع هذا التخويف معظم السياسيين المسؤولين الى الاقتناع بان الحصول على جزء من الجبنة هو افضل من الحصول على جبنة كاملة، وان فاسدة. فاستناداً الى هذه القناعة نشأ الميثاق الوطني، واستراتيجية المشاركة في الحكم.

وفي الوقت نفسه، برز نوع من الايديولوجية القومية التوافقية. فالمرحلة الأكثر نجاحاً للنموذج اللبناني كانت المرحلة الشهابية. فقد أدرك فؤاد شهاب جيداً، وأكثر من أسلافه، بأن هذا النموذج يمكن تطبيقه فقط عندما يتم توزيع الجبنة السياسية والاقتصادية بالتساوي بين الجميع.

وفي عهود أخرى طبق النموذج بطريقة سلبية، ولكنه بقي قائماً. فقد تمت تسوية النزاعات اللبنانية بالطرق السلمية. ولكن تسوية النزاعات انهارت عندما حاول احد الفرقاء او احدى الطوائف، استخدام استراتيجيتها لا للحصول على مغنم او مكاسب نسبية، بل للحصول على كل شيء. ولم يكن ذلك ممكناً الا اذا تحالف فرقاء لبنانيون مع فرقاء غير لبنانيين. وهذا ما حصل لأول مرة عام ١٩٥٨. ولكن آنذاك حالف الحظ لبنان، لان فريقين خارجيين ابطلا مفعول قوتهما في لبنان، وتمتعا بالحكمة والروية، كي لا يتصارعا عسكرياً في هذا البلد. وهكذا عاد الاستقرار والتوازن اليه، وان باضرار محدودة. ثم تكررت هذه الظاهرة عام ١٩٧٥. ولكن هذه المرة كان الفريق الخارجي داخل البلاد، وكانت له مصلحة ذاتية في كسب حلفاء لبنانيين الى جانبه وليس العكس. فتحالف جنبلاط مع الفلسطينيين كي يحقق مشروعه في لبنان جديد ويلعب فيه الدور الذي طالما طمح اليه طويلاً. وتمكن ايضاً من وضع السياسيين السنة في مأزق جعلهم يبحثون عن حلفاء بين الفلسطينيين. وبهذه الطريقة نجح جنبلاط في تكوين تحالف قوي جداً. فاعتبر النصر ممكناً. الا انه اخطأ في الحساب، لان الفريق الآخر كان في وضع ايضاً يسمح له بالبحث والاعتماد على حليف خارجي. وبالعكس ما حصل عام ١٩٥٨، فقد كان هذه المرة للطرف الخارجيين مصلحة في اشعال حروب بديلة، عبر حلفاء لبنانيين، على ارض لبنان. فلولاً الاطراف الخارجيين لما استطاع الاطراف اللبنانيون اشعال نار الحرب ومواصلتها، ولا الحصول على السلاح بشكل لا مثيل له. ولكن لم يكن ذلك ممكناً ايضاً لو لم يكن قسم من اللبنانيين مستعداً للمشاركة في هذه الحرب.

وبالاختصار، عرف "النموذج اللبناني"، اي لبنان الميثاق الوطني، بصورة عامة، مرحلة من الزمن لم تكن خالية اطلاقاً من الامراض، ولكنها كانت بالاجمال مرحلة سعيدة. لبنان هذا لم يمت، ولكنه أغتيل. ولا يمكن الصاق التهمة بالمغдор، ولكن لا يمكن ايضاً تبرئته من المشاركة في اغتيال نفسه.

الفصل الثالث

من اطراف الرياح الى وسط العاصفة في نزاع

الشرق الاوسط

عناصر النزاع غير اللبنانية

"انه لأمر بديهي، وفي مجال واحد فقط، ان يكون نظام النسبة اقل فاعلية. وهذا المجال هو السياسة الخارجية".

غرهارد لامبروخ، ١٩٦٧

"أفكر اليوم بأسف شديد بهؤلاء المتقنين الذين بنوا في جزء مضطرب من العالم مجتمعا ديمقراطيا، تحترم فيه ديانات مختلفة بعضها بعضا. ولكن محاولاتهم لم تكال طويلا بالنجاح. فالاطماع التي نشبت في هذه البقعة من العالم، كانت قوية لدرجة أن النظم الدستورية الدقيقة لم تتمكن من احتوائها. فكما حاول الفلسطينيون فعله في الاردن، قاموا الآن بتدمير التوازن الدقيق في لبنان. وقبل أن تؤدي عملية السلام الى أية نتيجة، كان قد جرى تمزيق لبنان إربا إربا.

وفيما أخط هذه الاسطر، تبحث كل المجموعات والقوى في البلد المحكوم عليه بالضعف، عن أحلامها التي لا يمكن تحقيقها، وتخلق بالتالي وضعاً معقدا للغاية".

هنري كيسنجر، مذكرات ١٩٧٣ - ١٩٧٤

"... إن تسوية سريعة للمسألة الفلسطينية... كانت الوسيلة الوحيدة التي تمكن الجمهورية اللبنانية من تجنب رؤية النزاع العربي - الاسرائيلي يُحلّ على حساب لبنان بشكل أو بآخر".

كمال صليبي، ١٩٧٦

لبنان ليس جزيرة، بل ينتمي جغرافيا وثقافيا وسياسيا الى منطقة تقع بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي، بين جبال طوروس والصحراء العربية، حيث تتواصل عملية تضارب المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والايديولوجية. عرفت هذه المنطقة، عبر تاريخها، في عهد الرومان والبيزنطيين والامويين والأتراك، مراحل طويلة من السيطرة الهائلة. ولكن كلما كانت تتهاجر احدى الامبراطوريات الكبيرة، او تقهر، أو تزول، كانت تحصل غالبا أزمات واضطرابات عنيفة. "قأزمة الشرق الاوسط" الحالية هي، من وجهات عديدة، استمرارا للمسألة الشرقية، التي نشأت في القرن التاسع عشر. في البداية، تبين أن فقدان الأتراك للسلطة والنفوذ دفع في الوقت نفسه بقوى غير إقليمية وبقوى سياسية محلية، للسعي الى الهيمنة مكانهم. فالنزاعات التي اندلعت بسبب ذلك، ما زالت قائمة حتى اليوم، وما زالت الهيمنة الإقليمية أيضا مصدرا للنزاع. فالصراعات المسلحة الحالية هي، حسب قول جورج قرم، "حروب وراثية للامبراطورية العثمانية".^١

تشير نماذج الصراعات في القرنين التاسع عشر والعشرين الى مشابهاة قوية. في القرن الماضي تصادمت المصالح البريطانية والروسية مع بعضها. فمنذ اقرار وثيقة "بيتس..."، برزت سياسة بريطانية تهدف الى تأمين الطريق البحري الى الهند. وكذلك منذ المحاولة للسيطرة على الشواطئ الاوكرانية في البحر الأسود عام ١٧٩٢، بدأت امبراطورية القيصر تبحث عن منفذ لها على البحر الابيض المتوسط. وهكذا بحثت انكلترة وروسيا وقوى أوروبية أخرى أيضا عن حلفاء لها في المنطقة. ففي البلقان شجّعوا القوميات المحلية، وفي الشرق دعموا أقبليات مختلفة. الأحداث الدامية في لبنان بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ لم تكن دوافعها محلية فقط، بل تفجرت أيضا بفعل المنافسات بين الدول الكبرى. فمحاولة محمد علي، والي مصر، توسيع إطار نفوذه من النيل الى جبال طوروس، فشلت بحكم المقاومة البريطانية. وبينما أخذت في البلقان تنشأ دول قومية مستقلة لخلافة الامبراطورية العثمانية، بحثت قوى أوروبية عن كيفية تنصيب ذاتها خلفاء لها في الشرق. هذا ما نجحت فيه قوتان منها، وهما بريطانيا العظمى وفرنسا، في نهاية الحرب العالمية الأولى. لقد تمكنتا من الحصول على انتداب من قبل عصبة الأمم، الأمر الذي سمح لهما بإنشاء هيمنة خارجية حوالي أكثر من عقدين من الزمن، على منطقة الشرق. تسهل ذلك بفعل الثورة الروسية، التي عزلت روسيا سياسيا ودبلوماسيا في أوروبا كما في الشرق. ولكن تحالف الدول الغربية مع الإتحاد السوفياتي ضد هتلر، والإنتصار عليه عام ١٩٤٥ أسهم في إنهاء هذه العزلة. ومنذ ذلك الحين بدأت تبرز بوضوح وتشابه ملامح محاولات سيطرة الدول الكبرى، مع ما حصل في القرن التاسع عشر.

ومثلما فعلت روسيا القيصرية حاول أيضا الاتحاد السوفياتي كسب نفوذ في منطقة البحر الابيض المتوسط. وهذا ما قاومته في البداية بريطانيا، ثم ابتداء من أزمة السويس عام ١٩٥٦، وبدرجة متصاعدة، الولايات المتحدة الاميركية، التي بدأت منذ زمن الحرب العالمية الثانية، بأخذ دور بريطانيا في الشرق، ولكن ليس لتأمين الطريق البحري الى الهند، بل لتأمين مصالح الغرب البترولية في منطقة الخليج.

وكما كان الحال في الماضي، تحاول ايضا اليوم الدول الكبرى ايجاد حلفاء لها في المنطقة. مثلما طمحت الامبراطورية العثمانية سابقا الى الحفاظ على سيادتها واستقلالها، وسلامة اراضيها، عبر اتباع سياسة محايدة ودقيقة للغاية، كذلك تحاول اليوم دول المنطقة، عبر اعتماد أشكال مختلفة من الحياد، وباسم حرية مجموعة جغرافية، ان تكسب أكثر فأكثر حرية ذاتية في التصرف والعمل ازاء الدول الكبرى.

في هذا الإطار، برزت إحدى الدوافع الرئيسية للقومية العربية، أي إنشاء وحدة سياسية قوية، تسمح بقطع الطريق أمام تدخلات الدول الكبرى، ووضع حد نهائي "للمسألة الشرقية" الدائمة في القرن التاسع عشر، و"لأزمة الشرق الاوسط" في القرن العشرين.

ولكنها لم تنجح حتى الآن في تحقيق ذلك. والعكس هو الأصح. في نهاية عقد الثمانينات تبين أن العالم العربي كان أكثر تفككا من أي وقت مضى. فباسم العروبة بقيت شرعية الدول التي أنشأتها الدول الكبرى ضعيفة وعرضة للانهار. ولكن باسم العروبة ايضا تعيش هذه الدول في نزاع مستمر حول الهيمنة. فالدول التي تطمح الى الهيمنة على دول أخرى هي خاصة مصر، وسوريا، والعراق، وكذلك المملكة العربية السعودية وان بطريقة أكثر حذرا وأقل بروزا. ففي الدول الثلاث الأولى، حصل تعديل للنظام السياسي عدة مرات منذ عام ١٩٤٥، دون حصول أي تغيير في طموح القيادات. فهدف كل دولة، وكذلك مبدأ الوحدة العربية لم يعترض أحد عليهما، ولكنهما انهارا أمام طموحات القيادات السياسية. فنظرا لعدم قدرة أية دولة من فرض طموح قياداتها باستمرار على الآخرين، دون أن تقبل وتحترم شرعية وجود الدول القائمة، فقد بقيت مسألة ما بعد الامبراطورية العثمانية مطروحة ومثيرة لجدل دائم. وما زال قائما على قدم وساق حول قبول العالم العربي بتلك الدولة، التي أنشئت في الشرق عند نهاية السيطرة الأوروبية عليه، أي إسرائيل. هذه الدولة ما زالت تعتبر من قبل معظم العرب، ومنذ تأسيسها وحتى الآن، كجسم غريب عن المنطقة، وككيان خلقه الغرب - ومع تفوق إسرائيل العسكري في الشرق - كظاهرة بارزة لعودة السيطرة الأجنبية. فعلاقات العالم العربي بالدول الكبرى، وعلاقات الدول العربية بين بعضها، والصراعات السياسية ايضا داخل هذه الدول، ترتبط منذ

قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، بمسألة السياسة التي ينبغي اعتمادها تجاه إسرائيل.

١ - الصراع العربي الإسرائيلي محور السياسة العربية

منذ سنوات عديدة - وخاصة من جانب غير العرب - برز اقتناع مفاده أن الشرق العربي سيبقى ممزقا ومعرضا للأزمات، حتى في غياب النزاع العربي الاسرائيلي. وهذا ما أشارت إليه حرب الخليج^٢. فضلا عن ذلك، ورغم صعوبة الأخذ بهذا الطرح، لا يمكن التشكيك إطلاقا في اعتبار القضية الفلسطينية جوهر السياسة العربية، والتي ستبقى، إن حقا أو خطأ، مرتبطة بالطرح المشار إليه^٣.

يبرز هذا الواقع أولا في السياسة تجاه الدول الكبرى. فالاتحاد السوفياتي^٤، أسهم في تأسيس دولة إسرائيل، والتزم منذ ذلك الحين، في المطالبة بالاعتراف بوجودها ضمن حدود آمنة. ولكنه طالب أيضا ومرارا بالاعتراف بحقوق الفلسطينيين، كما عارض كل توسع جغرافي لإسرائيل. وكذلك دعم الدول العربية باستمرار عبر مدها بالأسلحة، عندما كان يضعف موقفها تجاه إسرائيل. أما الولايات المتحدة^٥، فقد سعت دائما لإيجاد حل سلمي للنزاع العربي-الإسرائيلي، كما حالت في كل الحروب

٢- مثل هذا الطرح في لبنان بشير الجميل: "المسألة الشرقية الحقيقية أصبحت واضحة. من يسيطر على الطرق المؤدية إلى منابع البترول؟ لقد تبين بسرعة عبر حرب الخليج أن المسألة الفلسطينية لم تعد تحظى بالأهمية محدودة جدا داخل المسألة الشرقية الشاملة. من يهتم بعد اليوم بالفلسطينيين؟" من مقابلة مع المؤلف، عام ١٩٨٠.

٣- راجع في هذا الصدد: Walter Z. LAQUEUR (Ed.), The Israel-Arab Reader, A documentary history of the Middle East conflict, New York 1969; Idem, Confrontation - The Middle East War and World Politics, London 1974; David HIRST, The Gun and the Olive Branch. The Roots of violence in the Middle East, London 1977; Hisham SHARABI, Palestine and Israel: The lethal dilemma, New York 1969; Trenor Nevitt DUPUY, Elusive Victory: The Arab-Israeli Wars, from 1947 to 1974, Indianapolis 1977; Ronald D. MCLAURIN, Mohammed MUGHISUDDIN and Abraham R. WAGNER, Foreign Policy Making in the Middle East. Domestic influences on policy in Egypt, Iraq, Israel, and Syria, New York 1977.

٤- Wolfgang BERNER, Die Nah- und Mittelostpolitik der UdSSR, in: Udo STEINBACH und Rüdiger ROBERT (Eds), Der Nahe und Mittlere Osten. Politik, Gesellschaft, Wirtschaft, Geschichte, Kultur, 2 Bde., Opladen 1988, p.771-788.

٥- William B. Quandt, Decade of Decisions. American policy toward the Arab-Israeli conflict, 1967-1976, Berkeley 1977; Harold H. SAUNDERS, The Other Walls. The politics of the Arab-Israeli peace process, Washington 1985; Christian HACKE, Amerikanische Nahostpolitik. Kontinuität und Wandel von Nixon bis Reagan, Bonn 1985; Haim SHAKED and Itamar RABINOVICH (Eds), The Middle East and the United States, New Brunswick 1980.

الاسرائيلية العربية، عام ١٩٥٦ و١٩٧٣، ومجددا عام ١٩٨٢، دون ترك إسرائيل تستغل انتصارها وتفوقها العسكري، رغم أنها أكبر مصدر للسلاح وأهم الداعمين لها إقتصاديا. حاولت الولايات المتحدة مرارا وتكرارا عرض تحالفها مع دول عربية، منذ حلف بغداد وحتى إتفاق ريجن الاستراتيجي. ولكنها لم تنجح في إقامة تحالف دائم مع أية دولة عربية، رغم المساعدات المستمرة التي تقدمها الى حكومات عربية مؤيدة للغرب. ومنذ سقوط النظام الملكي الهاشمي في بغداد، لم تعد تجرؤ اية دولة عربية عقد اي اتفاق، وان صوري، مع "صديق العدو". ولكن الاتحاد السوفياتي بقي في تحالفه مع العرب محدود النجاح والفعالية. فقد تضامن بقوة مع مصر في عهد جمال عبد الناصر، ولكنه تلقى أيضا أقوى صفة من قبل هذا البلد، عندما قرر أنور السادات عام ١٩٧٢ الغاء معاهدة الصداقة معه. الا أنه ظل مرتبطا بمعاهدة صداقة مع كل من سوريا والعراق، ولكن بنودها المتعلقة بقضايا الدفاع المشترك، لم تكن واضحة اطلاقا.

أُتِست علاقات الدول العربية بالدولتين الكبيرين بكثير من الازدواجية. لقد كان بالامكان الاعتماد على تأييد الاتحاد السوفياتي في النزاع العربي الاسرائيلي، ولكن بقي هذا التأييد محدودا. لربما يكون قد ساعد على تجنب انهزامات أليمة جدا، الا أنه لم يسهم في تحقيق اي نصر. أما تأييد الولايات المتحدة لاسرائيل، فظل الحاجز الرئيسي للتقارب العربي الاميريكي. ولكنها ظلت ومازالت الدولة الوحيدة التي تستطيع ممارسة ضغط هادىء على اسرائيل، وحثها، اذا اقتضى الأمر، على الجلوس حول طاولة المفاوضات. وهكذا ارتبطت درجات التقارب والابتعاد بين الدول العربية والدول الكبرى بالتقديرات المختلفة حول السؤال التالي: ماذا كانت تستطيع هذه الدولة الكبرى، او تلك، أن تقدم من دعم وتأييد للدول العربية في نزاعها مع إسرائيل، وماذا كانت تريد فعلا أن تقدم؟

فالاتحاد السوفياتي أعلن مرارا وتكرارا عن تمسكه بحل شامل لمشكلة الشرق الاوسط في إطار مؤتمر دولي يشارك فيه. اما الولايات المتحدة فقد حاولت دائما، وبطريقة تتسم بنوع من الليونة، الابتعاد عن هذا الأسلوب، ولكنها كانت دائما تؤيد عملية المفاوضات والسلام برعايتها، دون مشاركة الاتحاد السوفياتي. وهكذا برزت منافسة الدولتين الكبيرين في موقفهما من أزمة الشرق الاوسط: الولايات المتحدة سعت الى اظهار نفسها بأنها تمتلك وحدها فقط مفتاح الحل، كما كان الاتحاد السوفياتي يشير دائما الى استحالة الحل بدونها.

أما العلاقات بين الدول العربية ذاتها فكانت ايضا وبدون شك تتميز باطماع الهيمنة على بعضها بعض. برزت هذه الاطماع دائما بهدف تسهيل الطريق الافضل للوصول الى موقف عربي يتسم بالقوة، من أجل إسهام العرب في فرض حل ملائم

للقضية الفلسطينية. ينطبق هذا الامر أيضا بدرجة عالية جدا على طموحات القيادة من السياسيين او الاحزاب داخل كل دولة عربية. فبعد حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨، أُلقت القيادات السياسية الجديدة مسؤولية الفشل على قيادات الدول العربية وعلى غياب الوحدة بينهم^٦. في تلك السنة، أبعدت عن الحكم تلك الفئة من البورجوازية العليا التي كانت تمثل الديمقراطية في سوريا. كما شهد عام ١٩٥٨ سقوط الملك فيصل في العراق، ولكن عبر حمام من الدم. أما في الاردن، فلم ينجح النظام الملكي الهاشمي في تثبيت وجوده الا بفضل الاعتماد على جيوش البدو وعلى المساعدة البريطانية^٧. اما الهزيمة الجديدة التي عرفها العالم العربي في حرب السويس عام ١٩٥٦، فقد اقنعت الكثيرين من القوميين العرب بضرورة جمع كل القوى العربية وتوحيدها في دولة واحدة. فشخصية جمال عبد الناصر القيادية، واعتباره المنتصر، وان جزئيا، في حرب السويس، جعلت منه بطل الشعب^٨. فعندما كان يتكلم او يلقي خطبا، كان السير في الشوارع يتوقف غالبا في دمشق، وبغداد، وبيروت، كما في القاهرة. هذا ولفترة طويلة من الزمن بقيت التيارات المستقلة في الحركة القومية العربية، مثل البعث الذي نشأ في الثلاثينات، او الحركة القومية العربية التي أسسها جورج حبش عام ١٩٤٨، تعتبر جمال عبد الناصر كافور أو بسمارك العرب. "لقد اقترب الشرق عام ١٩٥٨ كثيرا من الحدث الذي حصل في أوروبا عام ١٨٧١"، هكذا كان يروج آنذاك ساطع الحصري، أهم رواد العروبة^٩. فحزب البعث دفع سوريا الى الاتحاد مع مصر بقيادة عبد الناصر. وقد أشيع في تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ بأن العراق ولبنان سينضمان الى هذا الاتحاد. ولكن ما لبث أن أقل سريعا نجم العروبة. لأن الخصوصيات العربية كانت أقوى بكثير مما كان يعتقد المراقبون الخارجيون، ومما كان يأمل به معظم القوميين. لقد تمكن مثلا الملك حسين ونظامه من الصمود تجاه تلك الهجمة الوحشية. اما لبنان فقد اتبع في عهد فؤاد شهاب السياسة الناصرية الخارجية، وهذا ما سهل الحفاظ على استقلاله. وفي العراق أيد العماد قاسم التيار الناصري في حكومة الثورة. وفي عام ١٩٦١ وضع الانقلاب العسكري في سوريا بقيادة ضباط من أصل بورجوازي محافظ، حداً نهائيا للاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة. وهكذا سبب عام ١٩٦١ خيبة أمل

٦- من بين مجموعة المصادر، نذكر هنا بنوع خاص مؤلف جمال عبد الناصر، "فلسفة الثورة".

٧- راجع: Arnold HOTTINGER, How the Arab Bourgeoisie Lost Power, In: Journal of Contemporary History, 3(1968), p.111-128; Idem, An Eye-Witness Report on Iraq, In: Swiss Review of World Affairs, 9(1959), p.12-16; Miles COPELAND, The Game of Nations. The amorality of power politics, London 1969, p.28-46; Anwar SADAT, Revolt on the Nile, London 1957; B. SCHWADRAN, Jordan: A State of Tension, New York 1959

٨- راجع: George E. KIRK, Contemporary Arab Politics. A concise history, London 1961, p.149f.

٩- راجع: Bassam TIBI, Vom Gottesreich zum Nationalstaat, op.cit. الفصلان الثالث والرابع.

ثانية بعد عام ١٩٤٨، للقومية العربية في صراعها مع إسرائيل. فقد فشل تماماً بناء دولة موحدة، قوية، قادرة على تنفيذ سياسة المجابهة. ومنذ ذلك الحين، بدأ القوميون العرب يتساءلون عن مدى توفر المعطيات الاجتماعية الضرورية لقيام وحدة حكومية في دولة واحدة. وقد تبين ظاهرياً بأن ذلك ممكن فقط، بعد القضاء على "الأنظمة الرجعية" من النوع البورجوازي أو الملكي. فبرزت القناعة بأن السبيل إلى الوحدة وإلى إمكانية المجابهة مع مصر لن يتحقق إلا بالتغيير الراديكالي للمجتمع العربي. في عام ١٩٦٢ أعلن عبد الناصر "الثورة الشاملة" التي ينبغي أن تؤدي إلى "مجتمع اشتراكي تعاوني ديمقراطي"^{١٠}. وفي عام ١٩٦٣، نجح حزب البعث اثر انقلاب عسكري بتسلم الحكم في كل من سوريا والعراق. وكان يطمح، مثل عبد الناصر، إلى تحقيق "اشتراكية عربية"^{١١}. وقد اتسمت كل من اشتراكية عبد الناصر واشتراكية حزب البعث بطابع شعبي أكثر من اتسامها بطابع ماركسي. لم يقبل جمال عبد الناصر بفكرة ديكتاتورية البروليتاريا، ولكنه تمنى، أكثر من مرة، القضاء على الصراعات الطبقية عبر التعاون بين العمال والمزارعين والرأسمال القومي. وكذلك برزت "تصورات تجانسية" مماثلة في نظريات البعث. ولكن في الواقع، أقصر نشاط عبد الناصر وحزب البعث على تنفيذ ما سُمي بالاصلاح الزراعي، وتأميم المؤسسات الصناعية الهامة، والقطاع المصرفي، واخضاع المجتمع بكامله لإدارة مركزية حازمة، عبر عملية تحديث تشرف عليها الدولة. اعتبر هذا التحديث، بالإضافة إلى العمل في سبيل تحقيق الوحدة العربية، شرطاً أساسياً للتعبئة في سبيل المواجهة المحتملة مع إسرائيل. ولكن جاءت المواجهة الثالثة في وقت لم تكن تتوقعه الدول العربية. فقد استغلت إسرائيل عام ١٩٦٧ التهديد الذي أطلقه عبد الناصر في إحدى خطبه "الحربية" كي تنزل هزيمة سريعة وواسعة النطاق في كل من مصر وسوريا والأردن في حرب الأيام الستة.

أحدثت تلك الكارثة في الشرق العربي صدمة أقوى بكثير من مأساة حرب ١٩٤٨، ومن انهيار الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠. وأكثر من أي وقت مضى، أخذ شبح الصراع العربي الاسرائيلي يحتل صميم السياسة العربية. دفعت تلك الكارثة إلى نشوء ثلاث حركات سياسية مختلفة، ولكن متضاربة وغير قابلة للتوحيد أو التنسيق بينها، أدت نزاعاتها إلى السيطرة على السياسة العربية: نشوء الحركة القومية الفلسطينية، تعاظم قوة التيار الاسلامي الاصولي، واختلاف الدول العربية حول المبادرات الجديدة التي طرحتها الدول الكبرى لحل نزاع الشرق

١٠- راجع: Fritz STEPPAT, Nassers Revolution, In: Europa-Archiv, 17(1962), p.163.

١١- راجع: Friedmann BÜTTNER, Der Islam und die Entfaltung der arabischen politischen Ideen, in: Karl KAISER und Udo STEINBACH(Eds), Deutsch-Arabische Beziehungen, München 1981, p.36.

الايوسط. فيما يلي سنلقي الضوء على هذه التطورات الثلاثة بهدف توضيح كيفية جرّ لبنان الى صراعاتها.

٢ - الحركة القومية الفلسطينية^{١٢}

في عام ١٩٤٨، اتكل عرب فلسطين كليا على جيوش الدول العربية في تلك الحرب التي انتهت باحتلال دولة اسرائيل الجديدة لاراض أكثر مما اعترفت لها به الدول العربية، وفقا لقرار التقسيم الصادر عن منظمة الامم المتحدة. على أثر ذلك هرب أكثر من نصف مليون عربي فلسطيني من البلاد، او جرى تهجيرهم قسرا، واحتل الاردن الضفة الغربية والقدس الشرقية، وتسلمت مصر ادارة قطاع غزة. أما معظم اللاجئين والمشردين والمهجرين فقد جرى ايواؤهم في مخيمات في الدول العربية المجاورة، مع الأمل بعودتهم قريبا الى ديارهم. امام تلك الكارثة بدأت مجموعات صغيرة من المثقفين تشكك بادارة وطاقة الدول العربية لتسهيل عودة المشردين الى فلسطين. فنشأت عام ١٩٤٨ في الجامعة الاميريكية في بيروت "الحركة القومية العربية" بزعامة جورج حبش. وفي عام ١٩٥٦، اجتمع في قطاع غزة كل من ياسر عرفات وصلاح خلف (ابوأياد) وخليل الوزير (ابو جهاد)، وأسسوا معا "حركة التحرير القومية الفلسطينية" - فتح، على مثال حركة التحرير الجزائرية، كما استوحوا مفهومها العقائدي من مفهوم حزب البعث السوري. أخذت حركة فتح بنوع خاص تقاليد المجتمع المسلم في فلسطين القديمة. لذلك انضم اليها في البداية المسلمون السنة. اما اهدافها فكانت في غاية البساطة: تحرير فلسطين أولا، وكل أمر آخر يمكن اقراره فيما بعد. أما "الحركة القومية العربية" فاعتقدت بالمقابل ومنذ البداية، بأن تحقيق ذلك يفرض بالضرورة، قبل كل شيء القضاء على

١٢- راجع في هذا الصدد بنوع خاص: John W. AMOS II, Palestinian Resistance: Organization of a Nationalist Movement, New York 1980; Moshe MA'OZ(Ed.), Palestinian Arab Politics, Jerusalem 1975; William W. QUANDT, Fuad JABER, Ann Moseley LESCH, The Politics of Palestinian Nationalism, Berkeley 1973; Walid W. KAZZIHA, Palestine in the Arab Dilemma, London 1979; Edgar O'BALLANCE, Arab Guerilla Power, 1967-1972, London 1974; Bard O'NEILL, Revolutionary Warfare in the Middle East, Israelis versus Fedayeen, Colorado 1974; David PRYCE-JONES, The Face of Defeat, Palestinian Refugees and Guerillas, London 1974; Aaron David MILLER, The PLO and the Politics of Survival, New York 1983; Paul A. JUREIDINI and William E. HAZEN, The Palestinian Movement in Politics, Lexington, Mass. 1976; Ehud YAARI, Strike Terror, The story of Fatah, New York 1970; David Thomas SCHILLER, Palästina zwischen Terrorismus und Diplomatie. Die paramilitärische palästinensische Nationalbewegung von 1918 bis 1981, München 1982; Shamil SHARAF, Die Palästinenser, Geschichte der Entstehung eines nationalen Bewusstseins, Wien 1983.

الانظمة العربية الرجعية. لذلك تحالفت دون اي تحفظ مع الناصرية، ولكن ما لبثت ان ابتعدت عنها عام ١٩٦١ بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة. وهذا ما جعلها تسام المفهوم العروبي الخالص، وتعتمد على الماركسية. فرأى جورج حبش واصدقاؤه أنه من غير الممكن اجراء أي تغيير في فلسطين الا باحداث تغيير جذري في المجتمع العربي، اي التحرير عبر الثورة. وقد تبين لهم ان الثورة في الدول العربية هي مهمة جدا بقدر ما هي مهمة بالنسبة لفلسطين^{١٣}.

كانت كل من المنظمين في البداية صغيرة الحجم. الا أن الوقع الذي احدثته لدى الفلسطينيين وفي الدول العربية، أثار في النصف الاول من الستينات، اهتمام بعض الحكومات العربية. فمولت سوريا منظمة فتح ودعمت تدريب المتطوعين المنضمين اليها. ومن جهته، حاول عبد الناصر مواصلة السيطرة على حركة الفدائيين الناشئة. فدعم تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عبر الجامعة العربية. وفي اول مؤتمر وطني فلسطيني عقد عام ١٩٦٤ في القدس، انتخب المحامي احمد الشقيري، حليف مصر، أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية. في ذلك المؤتمر تقرر انشاء "جيش التحرير الفلسطيني" الذي تألف من فصائل عادية انضمت الى فصائل عسكرية في كل من مصر وسوريا والعراق. وقد جرى اختيار افراده من شبيبة المخيمات الفلسطينية، ولكن باشراف وادارة قيادات جيوش تلك الدول. وفي عام ١٩٦٥ بدأت منظمة فتح، بمعزل عن منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني، أولى عملياتها العسكرية انطلاقا من سوريا، وعبر التسلل الى الاراضي الاردنية. ولكن رغم تأييد سوريا لفتح، كانت هذه المنظمة تسعى من جهتها الى الاحتفاظ بمراقبة وتوجيه العمليات العسكرية الفلسطينية غير العادية. لذلك اتخذ مؤتمر حزب البعث المنعقد عام ١٩٦٦ قرارا بانشاء منظمة فدائية خاصة تعرف باسم "الصاعقة" بقيادة زهير محسن، أحد الضباط الفلسطينيين في الجيش السوري. وهكذا برز منذ البداية انقسام بين الفلسطينيين ما زال قائما حتى اليوم، ويتمحور بين الاستقلالية الفلسطينية واستخدام المنظمات الفلسطينية من قبل الدول العربية.

شكلت حرب الايام الستة، بالنسبة للعالم العربي عامة وللفلسطينيين خاصة، نقطة تحول كبيرة^{١٤}، بعد ان احتلت اسرائيل شبه جزيرة سيناء المصرية، ومرتفعات الجولان السورية، وقطاع غزة والضفة الغربية، اي بعد ان اصبحت كل فلسطين

١٣- راجع: Robert Anton MERTZ, Why George Habbash Turned Marxist, in: MidEast Magazine, 10(1970), p.31-36; Walid W.KAZZIHA, Revolutionary Transformation in the Arab World.

Habbash and his comrades from nationalism to Marxism, London 1975.

١٤- Bassam TIBI, Naher Osten - Nach dem Sechs-Tage-Krieg 1967 begann eine neue Epoche. Die regionalen und internationalen Folgen eines militärischen Konflikts, in: Beiträge zur Konfliktforschung, 17(1987)4, p.69-98.

تحت الاحتلال الاسرائيلي. ففشل الجيوش العربية الذريع أزال من امام اسرائيل كل خوف من نجاح حروب كلاسيكية ضدها. على أثر تلك الحرب انهارت تماما معنويات قيادات الدول العربية، كما برز فراغ في الحكم في الشرق العربي. ومرة أخرى هرب عشرات الالوف من الفلسطينيين او سُردوا او هُجروا. فايمن الفلسطينيين بانقاذ قضيتهم من قبل الدول العربية، والذي كان قد ضُغف بعد حربي ١٩٤٨ و ١٩٥٦، تبخر الآن نهائيا. إلا ان هذا الواقع المأساوي ادى الى انبعاث قومية فلسطينية مستقلة، أخذت اشكالا متعددة^{١٥}. فمنذ ذلك الحين، ظلّ الفلسطينيون يعتبرون انفسهم عربا، والعالم العربي مسؤولا عن القضية الفلسطينية، ولكنهم اعتبروا انفسهم اولا كفلسطينيين، اي الشعب العربي الوحيد الذي أصبح ضحية النزاع العربي الاسرائيلي. كما رأوا انفسهم، منذ ذلك الحين، ملزمين بأخذ زمام أمورهم بأنفسهم. لم يكن هذا القرار رفضا للارتباط الكلي بقرارات الحكومات العربية، بل "قرارا فلسطينيا" مستقلا ينبغي العمل على تحقيقه تنظيميا ومؤسساتيا. كان هذا هو بالفعل هدف الحركة الفلسطينية. فعلى الفلسطينيين من الآن فصاعدا، ان يحاربوا باستقلالية تامة في سبيل فلسطين. كما ان الحكومات العربية لم تكن بوضع يؤهلها لمعارضة الارادة الفلسطينية الجديدة. ففي شباط ١٩٦٨ انتخب ياسر عرفات مكان احمد الشقيري، رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي تحولت الى حركة قومية فلسطينية تستند الى حق مضاعف: القومية الفلسطينية والقومية العربية. كذلك طالب أعضاؤها، كفلسطينيين، بحق اتخاذ كل قرار يتعلق بهم. وكعرب، طالبوا بحق تأييد كل العرب لهم، وخاصة بحق استخدام كل ارض عربية، في اية دولة، للنضال في سبيل تحرير فلسطين، ودون اي عائق. هذا المطلب الأخير، وضعها منذ عام ١٩٦٧ في نزاع مريع مع المصلحة العليا للدولة التي ارادوا استخدام اراضيها العربية لممارسة أنشطتهم العسكرية. تبين في البداية ان النضال الشعبي المسلح للتحرير هو امر ممكن في فلسطين بالذات، حيث يعيش أكثر من مليون فلسطيني في ظل الاحتلال الاسرائيلي. فكل حركة تمرد، على نمط ما حصل في الجزائر، او في فيتنام، كانت ممكنة. وفي حزيران ١٩٦٧ نقلت حركة فتح مقرها الرئيسي الى الضفة الغربية من الاردن، وحاولت تنظيم حركة مقاومة سرية هناك. وفي أيلول من ذات العام، فشلت في تنظيم اضراب عام في الاراضي المحتلة لأن الجيش

١٥- قبل عام ١٩٦٧، عاش الفلسطينيون المحرومون من دولة، عربا أحرارا، أوكلوا قضيتهم الى قيادة الجامعة العربية.... خلال عشرين من الزمن الحق بهم اخوانهم العرب، بسبب خلافاتهم وصراعاتهم، اهانات عديدة... وهذا ما أثار لديهم حسا عميقا بهوية قومية خاصة... وهكذا تحول الفلسطينيون الى شعب ذي هوية خاصة ومميزة... ونظرا لعدم امتلاكهم أرضا تسمح لهم بتنظيم انفسهم كدولة فلسطينية ذات سيادة، لم يبق أمامهم سوى تنظيم انفسهم، كثورة ذات سيادة، في ظل منظمة التحرير الفلسطينية". راجع:

Kamal S. SALIBI, Lebanon and the Middle Eastern Question, op.cit. p.13f.

الاسرائيلي تمكن بفضل الوثائق الاردنية التي جرى وضع اليد عليها خلال الحرب، من توقيف عدد كبير من القوميين الفلسطينيين. وهذا ما زرع الرعب لدى السكان وردعهم عن تقديم اية مساعدة للفدائيين. فلم يتمكنوا من التحرك كسمك في المياه، ولكن "سمكة الفدائي كانت تسبح على اليابسة"^{١٦}. في نهاية عام ١٩٦٧ اضطر ياسر عرفات وقيادته الى الانسحاب من الاراضي المحتلة. ولكن بعد مرور عشرين سنة على ذلك، اندلعت انتفاضة فلسطينية جديدة، استخدم فيها التمرد المدني، والمظاهرات غير المسلحة والاضرابات المفتوحة، ووضعت الاحتلال الاسرائيلي في مأزق حرج للغاية. وما زالت هذه الانتفاضة قائمة.

وفي بداية عام ١٩٦٨ اضطرت منظمة التحرير الفلسطينية الى استخدام شكل آخر من الكفاح المسلح، الا وهو القيام بعمليات فدائية انطلاقاً من قواعد لها في البلدان المجاورة. وهذا ما دفع بالنتيجة الى عمليات اسرائيلية انتقامية ضد هذه البلدان. في البداية لاقت هذه العمليات الفدائية، رغم الغارات الانتقامية، تأييداً، خاصة في الاردن. ففي آذار ١٩٦٨ جرى التصدي ببسالة "لغارة اسرائيلية تأديبية" ضد الفلسطينيين في وادي الاردن، من قبل الفدائيين الفلسطينيين والجيش الاردني، انتهت بخسائر جسيمة لدى الجانبين. ولكن "معركة الكرامة" هذه اعطت معنويات عالية للفلسطينيين انفسهم. وكذلك عززت علاقاتهم بالدول العربية. "كانت هذه المرة الاولى التي شعرنا فيها بطعم النصر في افواهنا"، كما قال احد القادة الفلسطينيين. "رغم خسارتنا الجسيمة لأكثر من ٦٠٪ من المقاتلين حققت لنا تلك المعركة انتصاراً، اذ، للمرة الاولى، لم يهرب العرب امام العدو. لذلك تبين لنا ولأول مرة ايضا بأنه من الممكن الانتصار على الجنود الاسرائيليين المتعجرفين. وهكذا تحولت "الكرامة"^{١٧} الى اسطورة في تاريخ الحركة الفلسطينية، واعطتها دفعا جديداً من حيث الثقة بالذات. ولكنها دفعت بالقيادة الاردنية الى التفكير ملياً بالخطر الذي ستسببه عمليات الكومندوس الفلسطينية، اي جرّ الاردن الى حرب كلاسيكية مع اسرائيل، دون ان يكون الاردن على استعداد لها. لذلك حاولت القيادة الاردنية السيطرة على العمل الفدائي. وقبل بروز اي استقرار او تفاهم، اتضحت معالم التهديد الجديد لاستقلالية الحركة الفلسطينية. كما جاءت ردة الفعل عليه من قبل مختلف الفصائل متباينة. فالمنظمة كانت تتألف في نهاية الستينات من حوالي عشرين تنظيماً مختلفاً. كان أقواها وأهمها حركة فتح. وفي عام ١٩٦٧ تحولت "الحركة القومية العربية" بقيادة جورج حبش التي كانت تتألف من تنظيمين

David Thomas SCHILLER, Entstehung und Verlauf des libanesischen Bürgerkriegs, -١٦

Diplomarbeit, 1978, Otto-Suhr-Institut 1978, p.93.

-١٧ من مقابلة مع عصام سرطاوي، عام ١٩٧٩

صغيرين، الى ما يسمّى "بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" (يشار اليها في هذا البحث باسم الجبهة الشعبية). وفي عام ١٩٦٨ انفصلت عنها "الجبهة الشعبية - القيادة العامة" بقيادة احمد جبريل، وعام ١٩٦٩ "الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" (يشار اليها هنا باسم "الجبهة الديمقراطية) بقيادة نايف حواتمة. وفي سبيل منافسة منظمة الصاعقة المؤيدة لسوريا، انشأت الحكومة العراقية "جبهة التحرير العربية"، كحركة فلسطينية فدائية مرتبطة بحكومة عربية أخرى. اما "الجبهة الشعبية - القيادة العامة" فقد ارتبطت بالحكومة السورية، دون ان تصبح اداة بيدها، كما هو حال منظمة الصاعقة. من بين المنظمات غير المرتبطة بحكومات عربية، برزت الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية كمنظمتين منافستين لحركة فتح التي بقيت في الواقع حركة قومية محافظة ذات طابع اسلامي سني. اما مصدر تمويلها الرئيسي فكان المملكة العربية السعودية. ارادت حركة فتح تحقيق استقلالية فلسطينية، ولكنها أظهرت استعدادا للتعاون والتسسيق وتقديم التنازلات للحكومات القائمة، بما فيها الحكومة الاردنية. اما الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية فكان انصارهما من الاقليات الدينية - حبش هو من طائفة الروم الارثوذكس ونايف حواتمة من طائفة الروم الكاثوليك - ومن المسلمين العلمانيين. قامت الجبهة الشعبية على عقيدة ماركسية مستقلة، والجبهة الديمقراطية على عقيدة اكثر تشددا. اضافة الى ذلك، لم تكن الجبهة الديمقراطية تمثل صراعا غير مشروط مع اسرائيل فحسب، بل ثورة ضد الانظمة الرجعية والبورجوازية في العالم العربي ايضا، خاصة في الاردن، ولاحقا في لبنان.

أما ياسر عرفات، فقد حاول ان يجمع ويوحد مختلف الاتجاهات في منظمة التحرير الفلسطينية، الحرة وغير المرتبطة بأية دولة، وذات الاتجاه القومي البورجوازي او الثوري. وهذا ما أدخل حركة فتح في نزاعات كانت بغنى عنها. كان أولها في الاردن. فخلال العامين ١٩٦٨ و ١٩٦٩ تكاثرت الغارات الاسرائيلية الانتقامية ضد هذا البلد، وهذا ما دفع بحوالي أكثر من مائة الف من المزارعين وسكان المخيمات الى الهرب من وادي الاردن الى داخل البلاد. ولكن المنظمات الفلسطينية عززت مراكزها القيادية، وقواعدها التدريبية، ومخيمات اللاجئين، وحوادثها، خلال فترة قصيرة من الزمن، الى دولة داخل الدولة^{١٨}. وقد دعت الجبهة الشعبية الجبهة الديمقراطية الى القضاء على الملك حسين. وفي تشرين الثاني عام ١٩٦٨ حصلت الاشتباكات الاولى بين الفلسطينيين والجيش الاردني. فنشأ بين سكان شرقي الاردن الأصليين ولدى قبائل البدو الموالين للأسر الهاشمية والذين يشكلون

١٨ - في شمال البلاد فقدت الحكومة الاردنية وقواتها الامنية السيطرة على عدد من القرى والمناطق. وقد أعلنت مدينة إربد "هاتوي الشرق الأوسط".

القسم الأكبر من الجيش الاردني، امتعاض واسع من الفدائيين الفلسطينيين الذين سمحوا لانفسهم بممارسة كل انواع التجاوزات. وهكذا انفجرت أزمة مفتوحة في أيلول سبتمبر ١٩٧٠، بعدما خطف كوماندوس من الجبهة الشعبية ثلاث طائرات من الخطوط الدولية الى مطار الزرقاء في شرق الاردن. على أثر ذلك، استتكر عرفات ومنظمة الصاعقة هذا العمل. وقرر الملك حسين وضع حد نهائي للوجود المسلح الفلسطيني في الاردن^{١٩}. فخلال تسعة أيام قام سلاح المدفعية الاردني بقصف قواعد الفلسطينيين ومخيماتهم، كما دمر جيش البدو كل وحدات الكومندوس الفلسطينية. فقتل خلال تلك المعارك حوالي عشرة آلاف مقاتل حسب احصاءات منظمة التحرير الفلسطينية، وجرى ملاحقة الناجين من الموت حتى الى ما وراء الحدود السورية^{٢٠}.

اما ما بقي من الوحدات الفلسطينية بالاضافة الى عدد كبير من المدنيين، فجرى ترحيلهم من سوريا الى لبنان. فعام ١٩٦٧ قامت اسرائيل بضرب المقاومة الفلسطينية على ارضها بالذات. ومجزرة أيلول الاسود عام ١٩٧٠ وضعت حدا نهائيا للقيام بعمليات كومندوس انطلاقا من الاردن. وسوريا من جهتها سيطرت بحزم وقوة على "فلسطينيها"، ولم تسمح بأي عمليات عسكرية انطلاقا من اراضيها. وهكذا بقي لبنان البلد الوحيد الذي يستطيع الفلسطينيون استخدامه لكفاحهم المسلح.

١٩- راجع William B. QUANDT, Lebanon 1958, and Jordan 1970, in: Barry M. BLECHMAN and Stephen S. KAPLAN (Eds), Force without War. The use of the armed forces as a political instrument, Washington 1978, p.222-288.

٢٠- أهتت الحكومة السورية بالأمر وتدارست عملية التدخل لصالح الفلسطينيين. فقد أكتفت، خوفا من التهديدات الإسرائيلية، بارسال لواء حطين من جيش التحرير الفلسطيني ولواء سوري من اللبابات، مكون ايضا من وحدات فلسطينية. ولكن قام سلاح الجو الاردني وسلاح المدرعات بالتصدي لهم والحق الخسائر الفادحة بهم، في منطقة إربد.

٣ - أزمة القومية العربية ويقتلة الاصولية الاسلامية^{٢١}

الازمة السياسية والفكرية والاخلاقية التي عصقت بالشرق العربي بعد هزيمة حرب حزيران، لم تدفع الى نشوء الحركة القومية الفلسطينية فحسب، بل ايضا الى بروز حركة احتجاج ذات طابع ديني في عدد كبير من الدول العربية. فالحركات الدينية الراديكالية كانت دائما موجودة في العالم العربي، كما أن التيارات الحديثة القومية، مثل التيار الناصري والبعثي، رفضت دائما الماركسية "كايدولوجية ملحدة"، "غريبة عن العقيدة العربية"، ولكنها كحركة علمانية واضحة، لم تتوقف قط عن التصدي بكل امكاناتها للحركات التي تستهدف اعادة بناء الدولة على أسس تيوقراطية. فعبد الناصر، من جانبه، القى في السجن الآلاف من انصار الاخوان المسلمين، كما قتل منهم المئات. فقد حصل، خلال تدعيم العروبة الاشتراكية في مصر وسوريا والعراق، تهميش قوي للحركات الاسلامية، كما اضطهدت وحوربت اكثر من اي وقت مضى. فقد ساعد التأييد الشعبي الجارف لعبد الناصر^{٢٢} الذي فرض نفسه وقوته السياسية على هذا الاساس، كما سمحت القوى المنظمة والسلطة العسكرية لحكومات البعث، بالتصدي للإسلاميين بعنف او بعدم مجابتهم اطلاقا. ولكن القومية العربية المعلنة كانت تتمتع بتأييد جماهيري فقط، طالما كانت تحرز بعض النجاح والانتصار. الا ان الامور كانت تسير كما سبق ذكره، الى عدم التمييز بين العروبة والاسلام بالنسبة للشعوب العربية، رغم محاولة الزعماء السياسيين الدائمة للفصل بينهما بحذر وفطنة. لذلك ظل الاسلام، كقوة سياسية، في خانة الاحتياط، كي يبرز بقوة الى الواجهة عندما تشتد الازمة.

لم تؤد هزيمة عام ١٩٦٧، كما حصل في أزمت سابقة، الى تغيير في القيادات والانظمة فحسب، بل ايضا الى أزمة في المفهوم الشامل للقومية العربية^{٢٣}.

٢١- راجع هنا بنوع خاص: Bassam TIBI, Vom Gottesreich zum Nationalstaat, op.cit.; idem, Die Krise des modernen Islams. Eine vorindustrielle Kultur im wissenschaftlich-technischen Zeitalter, München 1981; idem, Der Islam und das Problem der kulturellen Bewältigung sozialen Wandels, Frankfurt am Main 1985.

وعن أزمة العالم العرب بعد عام ١٩٦٧، راجع: Fouad AJAMI, The Arab Predicament: Arab political thought and practice since 1967, Cambridge 1987; Udo STEINBACH, Ideengeschichte im Zeichen von Kolonialismus, Unabhängigkeitsbewegung und Modernisierung, in: Udo STEINBACH und Rüdiger ROBERT(Eds), op.cit. Bd.1, p.164-167 & 175-182; Detlev KHALED, Islam und politischer Extremismus: Einführung und Dokumentation, Hamburg 1985; Werner ENDE und Udo STEINBACH(Eds), Der Islam in der Gegenwart, München 1984.

٢٢- راجع: Amos PERLMUTTER, Egypt. The pretorian State, New Brunswick 1974.

٢٣- راجع: Fritz STEPPAT, Internationale Politik am Mittelmeer, in: Karl CARSTENS u.a.(Eds), Die internationale Politik 1966-67, München 1973, p.207-305; Idem, Der Mitteloskonflikt nach dem

لقد تبين ان مفهوم الامة العربية هو وسيلة فاعلة رائعة لتعبئة الجماهير واثارة مشاعرهما. الا انه لم يستخدم في توجيه هذه المشاعر في العمل السياسي والتطوير الدائم للبنى الحكومية والمجتمعية. ورغم هذا الطموح، يمكن القول بانه في افضل الحالات، احرز نصف نجاح في مقاومة النفوذ الاقتصادي والسياسي للقوى الاجنبية، وفي البحث عن حل لمشاكل التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ولكن الشعور بالشكل الاصطناعي للدول العربية التي رسم الاستعمار حدودها، ظل قائما. فقد برزت، منذ ذلك الحين، مقاومة كبيرة ضد كل محاولات توحيد هذه الدول، وقد تبين ان هذه المحاولات كانت تخبيء مؤشرات تهدف الى الهيمنة^{٢٤}، وهذا ما جعل الآخرين يتراجعون، كما ان اي طامح الى الهيمنة لم يكن بوسعه فرض رأيه ونفسه بالقوة. ومنذ فشل عبد الناصر نشأت أنظمة عربية استهدفت، عبر انتمائها الى افلاك معقدة وكثيرة التركيز، اسقاط كل حلف بطرد الحلف الآخر. وهناك تفسير آخر لهذه الظاهرة لا بد من الكشف عنه. فرغم الطابع الاصطناعي لحدود كل من هذه الدول، فان التباينات التاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية كشفت عن ان هذه الدول تقوم على خصوصيات مميزة. فالعودة الى ماض زاهر بالاحداث التاريخية المجيدة اثارت في كل من دمشق وبغداد والقاهرة انعكاسات مختلفة، وذلك بسبب التنكير بعهود الامويين، والعباسيين، والفاطميين. وقد أعطى كل عهد ميزات رفيعة اندرجت في ايديولوجيات تاريخية. كما اسهم في ابراز كل مدينة او عاصمة وكأنها المعقل الرئيسي الشرعي للعالم العربي. كذلك أدخل الاسهام المتميز لكل دولة في اشكال الحياة والاقتصاد التقليدية والمعاكسة للتقاليد في العالم العربي، اي الحياة البدوية، والزراعة في المناطق المحيطة بضفاف الانهار الكبيرة، والمدن التجارية - هيكلية اجتماعية جديدة متباينة. وهذا ما جعل الوحدة صعبة للغاية بسبب الخوف من الهيمنة^{٢٥}. لم يبرز هذا الامر فقط في فشل الجمهورية العربية المتحدة. ففي السنوات المتعاقبة برزت ايضا بقوة التباينات الاقتصادية. فالدول الفقيرة والكثيرة السكان وقفت في وجه الدول الغنية والقليلة السكان.

ولكن الى جانب خصوصيات كل دولة، كشفت الخصوصيات^{٢٦} الاثنية - الدينية

Krieg von 1967, in: Karl KAISER u.a. (Eds), Die internationale Politik 1968-69 München 1974, p.227-284.

René AGGIOURI, Les problèmes actuels du Proche-Orient, Beyrouth 1960. راجع: -٢٤

Muhsin MAHDI, Die geistigen und sozialen Wandlungen im Nahen Osten, Freiburg im Breisgau 1961. راجع: -٢٥

Ronald D. MCLAURIN (Ed.), The Political Role of Minority Groups in the Middle East, New York 1979; Nikolaos VANDAM, The Struggle for Power in Syria. Secterianism, regionalism and tribalism in politics, 1961-1978, London 1979; idem, Middle Eastern Political Clichés: راجع: -٢٦

عن كونها قوة حيوية مذهلة. وهذا الامر لم يلاحظ في لبنان فقط. في العراق مثلاً تمسك بزمام الحكم اقلية سنية، وفي سوريا اقلية علوية. أما الاقليات المسيحية في كل من مصر والاردن وسوريا والعراق، وكذلك داخل الحركات الفلسطينية، فتلعب أدواراً مختلفة تماماً، تتأرجح بين الاستسلام الأعمى في التعاون مع المجموعة الأقوى، وبين العمل الثوري الايديولوجي. وهكذا تبين ان المجموعة السنية القوية في المنطقة تتحمل مسؤولية ابراز خصوصيات كل دولة، عبر "الحق المكتسب" في القيادة السياسية والادارية. وتجدر الإشارة أيضاً الى السبب الأهم ألا وهو ابتعاد القومية العربية ذات البعد عن هدفها التوحيدي، كما كانت بعد الحربين العالميتين، وأكثر مما كانت تبدو عليه عام ١٩٥٨.

فالوضع الاقتصادي لم يعرف تحسناً ملموساً، لأن تطبيق "الاشتراكية العربية"، جاء مخيّباً للآمال. في مصر فشلت تماماً محاولة تطبيق الاقتصاد الحكومي ذي الادارة المركزية. وسياسة التعليم ذات النوايا الطيبة التي تضمن وظيفة في الادارة العامة لكل خريج من الجامعة لا يجد عملاً، احدثت تضخماً رهيباً في القطاع العام. وهذا ما أضعف كثيراً المردود والانتاج الفعلي في العمل. كما أن اجراءات المراقبة الشديدة قضت تماماً على الفساد الذي كان قائماً في السابق، الا أنها شلت كل مبادرة اقتصادية جديدة. وهكذا تحولت مصر في عهد جمال عبد الناصر الى مجتمع تسوده هيبة السلطة، ولكنه ضعيف الانتاجية^{٢٧}، كما ظلّ مجتمعاً طبقياً استبدلت فيه الطبقة البورجوازية العالية القديمة "بالطبقة الجديدة" المكوّنة من البورجوازية الصغيرة الادارية، التي تعيش للدولة ومن الدولة أيضاً، ولكنها تراقب وسائل الانتاج. فعندما حاول انور السادات بعد تسلمه الحكم وضع حدّ لهذا التردّي، كمؤشر لما سُمّي "بالانفتاح الليبرالي"، برز بكل وضوح الطابع الاقتصادي الطفيلي للطبقة الجديدة بابشع مظاهره، دون ان تتمكن سياسة المفهوم الاقتصادي الحرّ من تحقيق اية انجازات كبيرة تستحق الذكر. وفي الدولتين العربيتين الآخرين في الشرق العربي حيث جرى تطبيق سياسة اشتراكية، اي سوريا والعراق، لم يلجأ لا الى سياسة النقش، ولا الى تحرير العمل الاقتصادي، كما حصل في مصر. ولكن برزت فيهما

"Takriti" and "Sunni rule" in Iraq; "Alawi Rule" in Syria. A critical appraisal, in: Orient, 21(1980), p.42-47; Moshe MA'OZ and Avner YANIV (Eds), Syria under Assad. Domestic constraints and regional risks, London 1986; Theodor HANF, Die christlichen Gemeinschaften im gesellschaftlichen Wandel des arabischen Vorderen Orients, op.cit.; Erhard FRANZ, Religiöse und periphere Minderheiten, in: Udo STEINBACH und Rüdiger ROBERT (Eds), op.cit., Bd.1, p.67-78.

W. WYM, Nasser of Egypt. The search for dignity, Cambridge, Mass. 1959; راجع: Hrair R. DEKMEJIAN, Egypt under Nasser. A study in political dynamics, New York 1971; Anouar ABDEL-MALEK, Egypte, société militaire, Paris 1962.

كنتيجة للإشترابية العربية، طبقات حكومية، حصلت على امتيازاتها النسبية من جماهير الشعب الذي غيّر سياده دون أن يغيّر عقلية السلطة. فالتغيير في المجتمع العربي الذي أمل به رواد الاشتراكية العربية، كانت نتيجته بأفضل الحالات هذا النوع من التطبيق.

فقبل الكشف عن النتائج الهزيلة التي أفرزها حل المشكلة في إطار القومية العربية، من الممكن ادراك واستدراك حجم الازمة غداة حرب الايام الستة. فالهزيمة العسكرية أبرزت بكل وضوح القلق السياسي والتخلف الإقتصادي في الشرق العربي. عندها تساءلت الطبقة المثقفة عن الأسباب وتكاثرت التفسيرات المتباينة والمتضاربة. فاتخذت أقلية صغيرة منها منحى راديكاليا متطرفا، وبحث فئة أخرى عن حلول عبر التاريخ والماضي. وكما هي الحال في الازمات الشديدة، بحث الأفراد وكذلك الشعب عن تعزية لهم باللجوء الى الدين. وهذه ظاهرة تعتبر غالبا طبيعية. وهكذا اعتبر أيضا بعض العرب المسلمين العودة والتمسك بالاسلام امرا طبيعيا، وبالتالي معقولا، خاصة بعد الفشل الظاهري للقومية العربية ذات "نزعة العلمانية". وكما أن الهزيمة سببتها دولة، لا تعتبر استمرارا للوجود الغربي في الشرق فحسب، بل ينظر اليها أيضا ككيان يهودي تيوقراطي. وهذا ما زاد في الطين بلة، ودفع بالامور من سييء الى أسوأ. فقد رأى العرب العلمانيون في الطابع اليهودي للدولة الإسرائيلية مؤشرا واضحا للرجعية والتخلف. ولكن هذه الدولة "الرجعية" أبرزت في الواقع تفوقها. وهنا تبدلت الآية وانعكس التوجه الاستراتيجي. فبرز الايمان والاقتناع بأن اضفاء الطابع الاسلامي على هيكلية الحكم العربي سيسهل وحده فقط البلوغ الى التفوق. وعلى الكيان الصهيوني، ينبغي الرد "بصهيئة" من الطراز الاسلامي.

في السنوات التي عقت ١٩٦٧ نشأت تقريبا في كل العالم العربي حركات سياسية جديدة بقيادة زعماء جدد، أخذت تهدد الانظمة القائمة. كانت تصوراتها بسيطة للغاية، فاجتذبت الفئات الحائرة والتائهة والمشككة^{٢٨}. وهكذا عاد المجتمع

٢٨- بالنسبة لمجموعة من النصوص الأساسية، راجع العدد الخاص في المجلة التي تصدر كل أربعة أشهر في باريس، بعنوان "سؤال" L'Islamisme aujourd'hui, Paris 1985 (SOU'AL).
راجع أيضا: Hamied N. ANSARI, The Islamic Militants in Egyptian Politics, in: International Journal of Middle East Studies, 16(1984), p.123-144; Alexander S. CUDSI & Ali E. Hillal DESSOUKI (Eds), Islam and Power, London 1981; Ibrahim SA'AD ED-DIN, Anatomy of Egypt's Militant Islamic Groups, Paper, Middle East Studies Association, Washington, November 1980; Gilles KEPEL, Le prophète et pharaon. Les mouvements Islamistes dans l'Egypte contemporaine, Paris 1984; Susan E. MARSHALL, Paradoxes of Change: Culture crisis, Islamic revival, and the reactivation of patriarchy, In: Journal of Asian and African Studies, 19

وسقط في حالة من الضلال والانحطاط والفساد شبيهة بحالة ما قبل الاسلام. فالسياسيون في كل مكان ضلوا وابتعدوا عن الايمان الصحيح. والمسلم المؤمن لا يستطيع ان يعيش كفرد في دولة يتاح فيها حرية المعتقد. ولكن عليه أن يسعى بكل ما أوتي به من قوة لفرض إطار سياسي لجماعة المؤمنين بموجب القرآن والشرائع، وحسب أقوال النبي واعماله. وعلى القيادات السياسية ان تلتزم بتطبيق هذا النظام الاسلامي، وإلا عليها ان ترحل طوعا أو كرها. أما كوادر هذه الحركات فكانوا من الطبقات المتوسطة الجديدة الدنيا التي برزت في زمن الانهيار الاقتصادي والازمات القومية الظاهرة. كما ينتمي انصارها ومؤيدوها الى طبقات زراعية او من المدن الصغيرة، يصعب عليهم تحمل الاوضاع المعيشية التي تضعف شخصية الانسان ومعنوياته في المدن الكبرى.

لم تتجح حتى الآن اي من هذه الحركات في الوصول الى تسلّم الحكم في دولة عربية. فقط في السودان تمكن الاخوان المسلمون من الاشتراك في الحكومة. وفي أمكنة أخرى، برزت الاصولية الاسلامية كإيديولوجية معارضة فاعلة. في مصر مثلا، قام انصارها باعتداءات متعددة على القادة السياسيين، كما دعوا الى مظاهرات وانتفاضات. وكذلك حصل في سوريا وفي المملكة العربية السعودية. وفي عام ١٩٧٩ نجح الاصوليون الاسلاميون في الوصول الى الحكم في ايران، ولكن ليس دون مساعدة منظمة التحرير الفلسطينية التي درّبت الاصوليين الايرانيين سابقا في قواعدا في لبنان. وانطلاقا من ايران انعكس الانتصار الساحق للأصولية الإسلامية الشيعية على العالم العربي بأسره^{٢٩}. فالعراق أشعل النار في الخليج كحرب وقائية ضد التهديد الاسلامي الاصولي الآتي من ايران. ولكن قبل اندلاع حرب الخليج ومنذ عام ١٩٧٩، كانت تتقاتل في ضواحي بيروت فئات من الشيعة اللبنانيين المؤيدين لإيران مع فلسطينيين مؤيدين للعراق. وفي عام ١٩٨٢ سمحت سوريا العلمانية لحراس الثورة الايرانيين بالمشاركة في المعارك ضد اسرائيل في لبنان وتأسيس حزب لهم عُرف باسم "حزب الله"، في الوقت الذي كانت فيه سوريا نفسها تضيق الخناق بيد من حديد على جماعة الاخوان المسلمين في اراضيها. أما لبنان فكان قد تحول مباشرة وتدرجيا بعد حرب الايام الستة الى أرض معركة للنزاع العربي الاسرائيلي. وبعد خمسة عشر عاما جاءت اليه أيضا الاصولية الاسلامية الايرانية لتفرض نفوذها ولتدخل في النزاع الدائر بين اللبنانيين. وهذا ما سيجري الحديث عنه لاحقا.

(1984)1-2, p.1-17; Johannes REISSNER, Die militant-Islamischen Gruppen, in: Werner ENDE und Udo STEINBACGH (Eds), op.cit. p.470-486

Bassma KODMANI-DARWISH, L'Iran, nouvel acteur fort au Liban?, in: Liban: espoirs et -٢٩
réalités, Paris 1987, p.153-164.

ومن سخرية القدر، يلاحظ أن منظمة التحرير الفلسطينية التي أيدت كقوة سياسية وحيدة في الستينات، الأصولية الإسلامية الإيرانية، قد دخلت، منذ بداية الانتفاضة في الأراضي المحتلة عام ١٩٨٧، في تنافس شديد مع الأصولية الإسلامية الفلسطينية الجديدة. وبالتالي لوحظت أيضا ظاهرة بروز الأصولية الإسلامية وتفوقها حيثما بدأ انهيار القومية العربية، كما هي الحال اليوم في فلسطين.

٤- محاولات تسوية نزاع الشرق الأوسط والأزمات العربية الداخلية^{٣٠}

الرفض التام كان أول رد فعل للدول العربية على الانتصار الاسرائيلي في حرب الأيام الستة. ففي مؤتمر القمة العربي الذي عقد في الخرطوم في آب ١٩٦٧ اتخذ قرار بالرفض، مثلث اللاءات: لا للإعتراف بدولة اسرائيل، لا للمفاوضات، ولا للسلام. ولكن اسرائيل خرجت من تلك الحرب كقوة عسكرية كبيرة في المنطقة، لم يسمح حجم انتصارها للعرب اطلاقا بقبول هذا الواقع. فامام هذا الجو المتفجر الناجم عن الاذلال، والكرامة المجروحة والسخط من الهزيمة، لم يكن بوسع أية حكومة عربية القبول بالأمر الواقع، وبالتالي الدخول في مفاوضات. ومن جهة أخرى، برز في إسرائيل شعور جديد بالتفوق لم يسمح بالتفكير اطلاقا بتقديم مشروع سلام ممكن مع العدو المنهزم. ولم تستهدف المؤشرات السياسية تسوية، بل استمرارية النزاع.

كانت الدول الكبرى تدرك جيدا أن وضع النزاع المستمر والمتزايد في الشرق الاوسط هو فتيل قابل للإنفجار في أية لحظة. وكل حرب في الشرق الاوسط تشكل خطرا يمكن ان تؤدي الى مواجهة مباشرة بينها.

فبعد حصول اتفاق حول وقف اطلاق النار دأبت الجهود الاميركية والسوفياتية في البحث عن تسوية النزاع، وما زالت هذه المساعي تتواصل حتى اليوم بأشكال متنوعة. فقد كشفت عن أنها صعبة للغاية وذلك لأسباب مختلفة، فالتصورات التي مكنت الدولتان الكبيرتان من الوصول اليها، لم تتوافق الا جزئيا مع بعضها، نظرا لارتباط كل منها بمصالح هذه الدولة او تلك في المنطقة، وقد تبين بنوع خاص ان مشاريع السلام وامكانيات التسوية التي توصلت الى إعدادها الولايات المتحدة كانت تتبدل باستمرار، سواء بعد تغيير رؤساء الجمهورية أو خلال عهودهم. ومن جهة

٣٠- راجع: Udo STEINBACH, Israelisch-arabischer Konflikt, in: Udo STEINBACH und Rüdiger ROBERT (Eds), op.cit., Bd.1, p.639-661; Fred J. KHOURI, The Arab-Israeli Conflict, in: P.Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (Ed.), Lebanon in Crisis/ Participants and issues, Syracuse 1979, p.161-177; William B. QUANDT, A Decade of Decisions, op.cit.; Harold H. SAUNDERS, op.cit.; Henry KISSINGER, Memolren 1973-1974, 2 vol., München 1982, p. 923ff on Lebanon.

أخرى، تبين أن لا إسرائيل ولا الدول العربية كانت تعتبر نفسها من الدول المرتبطة تماماً بالدول الكبرى. فرغم كونها مرتبطة بتأييدها ودعمها، لم يكن ممكناً التوقع بأن هذه الدولة كانت تتحرك باستقلال واضح. فلا ترفض اقتراحات الدول الكبرى فقط، بل كانت تشعل نار الحرب ضد ارادتها، كما حصل عام ١٩٧٣ وعام ١٩٨٢.

يعتبر تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية وأكتسابها أهمية بالغة بعد عام ١٩٦٧ عاملاً جديداً دخل في صميم اللعبة. فالدول العربية لم يعد بإمكانها التحدث وحدها باسم الفلسطينيين، الذين أصبحوا يتحدثون أيضاً باسمهم بالذات. وإسرائيل من جهتها كانت تبدي دائماً إستعداداً للتفاوض مع الدول العربية وترفض كل تفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية وبقية تلك طويلاً. وهكذا بدأ رفض المفاوضات من جانب واحد عام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ من قبل الدول العربية، حتى تحول إلى رفض مضاعف من قبل الجانبين. فإسرائيل كانت تريد إجراء مفاوضات فقط دون منظمة التحرير الفلسطينية. أما الدول العربية، ومنذ عام ١٩٦٧، فلم تكن تريدها إلا بمشاركة المنظمة فقط.

فكلما قُدمت اقتراحات للتسوية أكثر واقعية، كان يطلب بصورة أوضح تنازلات ومساومات من الجانبين. وهذا ما كان يشير، في نزاع تتداخل فيه جهات عدة، إلى وجود مصالح وآراء متضاربة حول مدى وإمكانية مغامرة تقديم التنازلات. فالخاسر أكثر من اللازم، في حال إطالة الأزمات، كان أكثر استعداداً لتقديم تنازلات من الذي سيخسر قليلاً أو لا شيء. ولكن الخاسر الأكبر كانت الدول المجاورة مباشرة لإسرائيل، والتي لا يمكن تعريضها لخطر أي نزاع عسكري جديد. مصر كانت إحدى هذه الدول، وكانت تدرك جيداً مكاسبها الكثيرة بعد استعادة شبه جزيرة سيناء الغنية بآبار النفط. أما الخاسر قليلاً فكانت الدول البعيدة حصراً أو مجازاً، عن خطوط النار، مثل ليبيا واليمن (الجنوبي). ولكن الذين لن يخسروا شيئاً، هم الذين كانوا سابقاً أكبر الخاسرين، أي فلسطينيو المنفى ومنظماتهم، وبنوع خاص، منظمة التحرير الفلسطينية.

فكلما كانت توقعات مفاوضات السلام تقترب من الجدّة، كانت حدّة الاختلافات في الرأي تزداد في العالم العربي. فالإنقسام الذي عرفته الدول العربية في الخمسينات والستينات بسبب صراعها المرتبط بالهيمنة، زادها تقسيماً وتمزقاً في السبعينات بسبب الخلافات حول عمليات السلام.

في تشرين الثاني عام ١٩٦٧ أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم ٢٤٢، الداعي إلى انسحاب الجيش الإسرائيلي من الأراضي المحتلة^{٣١}، وإنهاء حالة

٣١- بين نصّي القرار الفرنسي والإنكليزي - وكلاماً صالحان - يبرز الفرق بالنسبة لانسحاب القوات

الحرب، واحترام سيادة واستقلال اراضي كل الدول في المنطقة، وحققها بالعيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها. إضافة الى ذلك، طالب هذا القرار "بحل عادل لمشكلة اللاجئين". فقد وافقت إسرائيل، ومصر، والأردن، ولبنان على هذا القرار، ولكن رفضته سوريا والقيادات الفلسطينية، لأنه ذكر الفلسطينيين كلاجئين فقط، وطالبت بالاعتراف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني.

أما منظمة التحرير الفلسطينية فكانت لها أهداف أبعد من ذلك. فلم تعد تطالب، كما في زمن احمد الشقيري، بتدمير "الكيان الصهيوني"، بل أخذت تطالب بشدة، ومنذ عام ١٩٧٠ بصورة رسمية، باقامة "دولة ديمقراطية علمانية" على كامل أرض فلسطين، يعيش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون كمواطنين متساويين في الحقوق والواجبات. ولكن هذا المفهوم يعني بالنسبة لإسرائيل زوال الدولة اليهودية ويسقط كل قيمة للحوار والمفاوضات. وهكذا بقي القرار ٢٤٢ دون نتيجة. أما بالنسبة للعمليات الفدائية الفلسطينية فكانت إسرائيل ترد عليها سريعا بعمليات انتقامية قاسية. فضلا عن ذلك، أبعد الصراع الأردني الفلسطيني الذي حصل عام ١٩٧٠ عن إسرائيل كل قلق واضطراب على حدودها الطويلة مع بلد عربي.

بعد "أيلول الأسود"، انشأت منظمة فتح منظمة سرية تحمل ذات الاسم، مثلما كان الحال سابقا مع الجبهة الشعبية، وأخذت تمارس أعمال عنف وإرهاب في العالم كله، مثل اغتيال وصفي التل، رئيس الوزراء الأردني عام ١٩٧١، ومقتل الرياضيين الإسرائيليين خلال دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ في ايلول ١٩٧٢، واغتيال الدبلوماسيين الأميركيين في الخرطوم في آذار ١٩٧٣. وهكذا لم تعد قضية المفاوضات تدرج على جدول الأعمال. ولكن تبدل الامر تماما بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣، الذي فوجئت به إسرائيل من قبل مصر وسوريا^{٣٢}. آنذاك نجحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في فرض وقف اطلاق النار، ولكن بعد أن استعادت إسرائيل تفوقها العسكري، وإن بثمن باهظ جدا. فالجيشان العربيان حاربا ببسالة رائعة. كما نجحت القوات المصرية في عبور قناة السويس. ومثلما كانت "معركة الكرامة" رمزا للفلسطينيين، تحولت حرب أكتوبر أيضا الى رمز للدول العربية، وذلك انه رغم بروز إسرائيل في النهاية بأنها الأقوى، الا أن اسطورة تفوقها الشامل انهارت، واستعادت الجيوش العربية شيئا من كرامتها. ولكن حرب

الإسرائيلية "من الأراضي المحتلة" (from territories occupied)، وهذا لا يعني حكما من كل الأراضي، وبالفرنسية. (des territoires occupés)، ويعني بوضوح من كل الأراضي.

٣٢- راجع: Walter A. LAQUEUR, Confrontation - The Middle East war and world politics, op.cit.: Chaim HERZOG, The War of Atonement, London 1975; Ze'ev SCHIFF, October Earthquake: Yom Kippur, 1973, Tel Aviv 1974; Laurence C. WHETTEN, The Canal War: Four-power conflict in the Middle East, Cambridge, Js. 1974.

تشرين لم تشكل أية إشارة لتصاعد محتمل للنزاع، بل لعبة دموية مهدت لمفاوضات جدية. وهذا الامر لم يتعلق فقط بالدول الكبرى التي كانت تخشى مجددا مجابهة مباشرة بينها^{٣٣}، بل أيضا بالدول العربية. فمصر بنوع خاص كانت منهكة بسبب الحرب. فقد تحملت عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ العبء الرئيسي للحرب. وحتى صيف ١٩٧٠ كانت تواصل حرب استنزاف على قناة السويس كبذبتها خسائر جسيمة. وكذلك النفقات العسكرية أدت الى شل اقتصادها الضعيف أصلا. أما الرئيس أنور السادات الذي خلف عبد الناصر عام ١٩٧٠، فقد تخوف من تطور راديكالي داخل البلاد، اذا ما طلب من الشعب مواصلة تقديم تضحيات أكثر. ومن جهة أخرى سمحت له هالة الكرامة التي أكتسبها من الحرب، باجراء مفاوضات دون خسارة ماء الوجه. ففي كانون الاول عام ١٩٧٣ عقد مؤتمر في جنيف دعت اليه الأمم المتحدة، وشارك فيه كل من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، وإسرائيل، ومصر، والاردن. لم تحضر سوريا الى جنيف ولم تدع منظمة التحرير الفلسطينية الى هذا المؤتمر الذي لم يسفر عن أية نتائج واقعية. الا انه مهد السبيل للدبلوماسية المكوكة التي مارسها لاحقا وزير خارجية الولايات المتحدة، هنري كيسنجر. في كانون الثاني عام ١٩٧٤ احرز كيسنجر أول نجاح، انتهى بعقد اتفاق فك الارتباط بين القوات الاسرائيلية والمصرية في سيناء، والمعروف باتفاق سيناء الاول. وبينما كان كيسنجر يقوم برحلاته المكوكة بين القدس والقاهرة، نشبت حرب استنزاف في مرتفعات الجولان بين اسرائيل وسوريا. وهذا ما دفع كيسنجر أيضا في نيسان ١٩٧٤ الى القيام برحلات مكوكة بين القدس ودمشق. وهكذا حصل ايضا توقيع على اتفاق فصل بين القوات السورية والاسرائيلية.

هذه كانت بلا ريب نجاحات دبلوماسية بالغة الاهمية، ولكن نتائجها انعكست شؤما على لبنان^{٣٤}. فعلى حدود ثلاثة بلدان مع إسرائيل، وحتى في المناطق المحتلة، انتهت الحرب فعلا. ثم طرد الفدائيون الفلسطينيون من الاردن الذي لم يعد يريد القيام بأي حرب. وبين القوات المصرية والإسرائيلية، حاصرت وحدات خاصة دولية، خاصة أميركية، لحفظ السلام. وأرسلت وحدات تابعة للأمم المتحدة للفصل بين القوات السورية والاسرائيلية. وهكذا لم تعد الحرب ممكنة ولم يحصل منذ ذلك الحين اي نزاع مسلح على تلك الحدود. ولكن لم يعقب اجراء فصل القوات اي سلام

٣٣- راجع: Robert O. FREEDMAN, Soviet Policy Toward the Middle East since 1970, New York 1978; Galia GOLAN, Yom Kippur and After. The Soviet Union and the Middle East crisis, Cambridge 1977.

٣٤- راجع: Melhem CHAOUl, Le dispositif de la guerre au Liban, fonction de réduction, in: Fondation Libanaise pour la Paix Civile Permanente (Ed.), Le Droit à la Mémoire, Beyrouth 1988, p. 39-60.

عام. فلم ينفذ القرار ٢٤٢ ولا استدعي الفلسطينيون لأية مفاوضات. وهكذا بقي لبّ النزاع، أي القضية الفلسطينية، دون حل إطلاقاً.

لم يبق للفلسطينيين شيء آخر. لم يريدوا الاستسلام التام، بل محاولة "الجلوس على طاولة المفاوضات"، كما نجحت بذلك سوريا ومصر بعد حرب تشرين. ولكن لم يبق لهم إلا امكانية واحدة للتحرك، أي الحدود اللبنانية-الاسرائيلية. فبعد اتفاق الجولان أصبح لبنان المركز الجغرافي الرئيسي للنزاع الشرق الاوسط.

لم تخطر منظمة التحرير الفلسطينية الحل العسكري فقط، بل قررت منظمة فتح في آذار ١٩٧٤ التخلي نهائياً عن مفهوم "الدولة الديمقراطية العلمانية على كامل أرض فلسطين"، مبدية بذلك استعدادها للمشاركة في أي مؤتمر للسلام، شرط ان تتناقص خلاله الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني. كما أعلنت نيّتها في اقامة سلطة قومية فلسطينية على كل قسم من أرض فلسطين يحرر او يترك، والوصول الى تحقيق هذا الهدف "بصورة رئيسية" عبر الكفاح المسلح. في البداية وافقت المنظمات الفلسطينية الراديكالية على هذا القرار، لأنها لم تدرك حالاً معنى وأبعاد هذه الصفقة. فنصّ القرار يعني ان منظمة فتح تتخلى عن مطالبها بكل فلسطين، وتقبل بدولة فلسطينية على جزء من الارض، وستناضل في سبيل ذلك، اذا لم يحصل ذلك سلمياً. ولكن عندما توضحت معالم الاتجاه السياسي لمنظمة فتح، أقامت ليبيا، والعراق، والجمهورية العربية، والجمهورية الشعبية القيادة العامة، وجمهورية التحرير الموالية للعراق، "جبهة رفض" مشتركة ضد هذا الهدف الجديد.

فضلاً عن ذلك، تقرّر في مؤتمر القمة العربي الذي عقد في الرباط في تشرين الأول عام ١٩٧٤، اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، ويعود اليها الحق في التفاوض حول مستقبل الاراضي المحتلة. وحتى الاردن وافق على هذا القرار. وهذا ما أتاح المجال امام ياسر عرفات لالقاء خطاب أمام الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة، طالب فيه إسرائيل بالاخترار بين السلاح وغصن الزيتون، أي بين الحرب والسلام.

ولكن غصن الزيتون الذي يعني دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، لم يلق أي صدى إيجابي لدى الاكثريّة الساحقة من القوى السياسية في إسرائيل. أما الحركة الفلسطينية، التي تؤيد بغالبيتها منظمة فتح، والحركات التي تشكل جبهة الرفض، فلم يبق امامها خيار سوى حمل السلاح - ولكن في لبنان بصورة رئيسية.

٥ - نهاية حياد ضعيف المناعة

دأب اللبنانيون على وصف بلدهم "بسويسرا الشرق الاوسط". في الواقع، ومن خلال النظرة الاولى، تبدو هناك مشابهاة كثيرة بين البلدين: كلاهما صغير المساحة، تكثر فيهما الجبال، لا توجد فيهما ثروات طبيعية، ولكنهما يتمتعان بنوع من الرخاء، وان بقدر كثير التباين، بفضل القطاع المصرفي والتجارة والسياحة. يضم كلاهما تجمعات شعبية ودينية مختلفة، تمكنت عبر تاريخها من إيجاد تسوية لتعايشها ضمن صيغة ما يُسمى بديمقراطية التوافق. وكلاهما ارتضى أطرا قانونية دستورية تضمن للمواطنين حرية الرأي والصحافة، وتسمح بممارسة سياسة حياد خارجية، سويسرا بموجب القانون، ولبنان بحكم الأمر الواقع. ولكن يوجد بينهما اختلافان جوهريان ايضا، وهما المحيط الاقليمي، وضمان الحياد بقوة عسكرية خاصة.

قلبان يجد ذاته منذ زمن بعيد في محيط لا يسمح له اطلاقا بتشبيهه بسويسرا. منذ بداية الخمسينات، عاش هذا البلد النظام الديمقراطي البرلماني الوحيد في الشرق العربي. فما إن بدأت سوريا ومصر والعراق في الستينات اختباراتهما في النظام الاشتراكي، حتى أخذ لبنان يستقطب الرساميل العربية الهاربة بفضل حرية الاتصالات والمواصلات، وسرية المصارف وامكانيات الاستثمار فيه. فالمقاولون السوريون الذين سئموا وعانوا من اجراءات الدولة التعسفية، لعبوا دورا فاعلا جدا في ازدهار الصناعة اللبنانية. كذلك عاد عشرات الآلاف من المغتربين اللبنانيين الى وطنهم، بعدما أضعف عبد الناصر إمكانياتهم الاقتصادية عبر سياسة التأميم في مصر. كما جاء مئات الآلاف من السوريين الى لبنان وأخذوا يكسبون كعمال موسميين او عادييين أجورا منخفضة، ولكنها في عملة صعبة. نتيجة لذلك، أخذ قادة الدول المجاورة ينظرون الى لبنان كبلد يثير الشبهات بسبب نظامه الرأسمالي، والى ازدهاره النسبي، بمزيج من الحسد والغضب. ولكن استيائهم ازداد أكثر فأكثر بسبب حرية الرأي والصحافة فيه. فالذين كانوا يفقدون مراكزهم في أي بلد عربي بسبب الصراع حول السلطة، كانوا يجدون منفي سياسيا لهم في لبنان. وكذلك الأحزاب السياسية المحظورة في كل العالم العربي كانت تتمكن من عقد مؤتمراتها في بيروت، حيث كان المثقفون العرب، من كل جانب واتجاه، يلتقون، ويناقشون كل النظريات والمفاهيم السياسية والاجتماعية في ضوء الأصولية الإسلامية والشيعية، كما يحضرون الخطط لتسلم السلطة مستقبلا في بلدانهم. وكذلك كان الطلاب والعلماء يأتون من الشرق كله لتلقي العلم والعمل في جامعات ومعاهد بيروت، التي كانت "تحتكر" تعددية الآراء والحرية الأكاديمية. في هذه المدينة كان ينشر عدد من الكتب أكثر بكثير مما كان ينشر في المنطقة كلها، ومن بينها كتب كان محظور

نشرها في اي مكان آخر. وكانت تصدر بنوع خاص في بيروت بين ثمانين ومائة صحيفة يومية زاخرة بالانباء والتعليقات والآراء التي كانت تقمعها الرقابة في كل من القاهرة ودمشق وبغداد، اذا لم يلق في السجن اصحابها. حتى الانظمة العربية كانت تستخدم وتستغل حرية الصحافة في لبنان لمصلحتها. فكل نظام كان يمول صحيفة، كي يعبر عن آرائه واهدافه الخاصة. وهكذا كان لبنان ما قبل الحرب المسرح الفكري والسياسي للعالم العربي، استفاد منه كل بلد، ولكن لم يكن أحد من البلدان المجاورة يعطيه حق قدره. فكانت كلها تعتبر هذه الحرية تخريبا. ففي محيط جغرافي تسوده انظمة سياسية تسلطية، كان لبنان يشكل لها نوعا من الاستفزاز، ولكن لم يكن له أي صديق بينها.

وفي محيط مشابه وجدت سويسرا نفسها في ذروة تسلط الفاشية والنازية. ولكن في سبيل مواجهة الاخطار الممكنة، انتهجت دائما سياسة الحياد المسلح، باقرارها واجب الخدمة العسكرية، والتدريب العسكري المستمر، واقامة نظام دفاع وتحصين تحت الارض، بالاضافة الى دعم صناعة انتاج الاسلحة. لقد تبجح كثيرا الموظفون النازيون بقولهم ان فريقا صغيرا من شبيبة هنتر يستطيع في فترة وجيزة، احتلال سويسرا وضمها الى "الرايخ" الهتلري. ولكن اجراءات الدفاع التي اتخذتها سويسرا، منعت قوات "الرايخ الثالث" حتى من التفكير بمهاجمتها.

في هذا المجال، اتبع لبنان سياسة أمنية مسالمة. لم يعرف إطلاقا الخدمة العسكرية. كان جيشه يتألف من خمسة عشر الفا من الجنود. ولم يكن سلاحه يضم أكثر من مائة دبابة ومائة وخمسين مدفعا مضادا للطيران. وسلاح طيرانه كان يتألف من ٢٤ طائرة، وسلاح البحرية من خمس خافرات صغيرة للشواطيء^{٣٥}. كان الجيش يضم أكثرية ضئيلة من الجنود المسلمين، وأكثرية من الشيعة. وبين الضباط كان عدد المسيحيين يتراوح بين ٦٠ و ٦٥ بالمئة، كنتيجة لعهد الانتداب. من بين ٣٧ ضابطا برتب عالية، كان هناك ١٨ من المسلمين. صغر حجم الجيش يعود الى سببين. الأول هو ارادة الحفاظ حتى في الجيش، على التوازن بين الطوائف، والثاني، الاقتناع الذي كان سائدا بأن ضعف لبنان عسكريا كان أفضل سياسة أمنية له. بالاضافة الى ذلك، لم تكن مهنة العسكري في لبنان ما قبل الحرب، امرا جذابا. فالمرشحون للانخراط في سلك الجيش كانوا بمعظمهم من الشيعة ومن المناطق الحدودية المتخلفة اقتصاديا. اما الجنود الموارنة فهم تقريبا من بعض القرى النائية سواء في عكار او في الجنوب. وكذلك الجنود السنة كانوا يأتون ايضا من عكار، المنطقة الوحيدة التي تضم مزارعين سنة. اما سكان المدن فنادرا ما كانوا يختارون الخدمة في الجيش، نظرا لتوفر امكانيات عمل أفضل أمامهم خارج

٣٥ - من مقابلات مع كبار الضباط اللبنانيين، عام ١٩٧٩ و ١٩٨٠

المؤسسة العسكرية، ولأن معظم تكتات الجيش كانت تقع في المناطق الحدودية من البلاد. الحفاظ على التوازن لم يترك أمام القيادة العسكرية سوى حل واحد فقط، يتلخص بقبول كل المتقدمين للخدمة من المسيحيين، والسنة، وإضافة العدد الباقي من الشيعة لإكمال حصة المسلمين. وبوضوح أكثر كانت قوة الجيش العددية ترتبط دائما بعدد المتطوعين المسيحيين. أما الامكانية الوحيدة الأخرى فكانت اقرار الخدمة العسكرية الإلزامية. ولكن أكثرية السياسيين لم تكن تعيرها أي اهتمام لأسباب متباينة، منها التخوف من محاولة جيش قوي الاقتداء بما يحصل في معظم الدول العربية ولعب دور سياسي. ازداد هذا التخوف خاصة في عهد النهج الشهابي. وكذلك ساد الرأي القائل بأن جيشا كبيرا يكلف غالبا جدا، ولبنان لا يحتاج الا لجيش رمزي. وهذا يعود الى اقتناع بعض المسؤولين بأنه ليس من مصلحة اية دولة أن تهاجم لبنان، وإن ضعف جيشه لا يثير تخوفات أحد، ولا يشكل أي خطر عليه. وقد دافع بقوة عن هذا المفهوم بيار الجميل وحزب الكتائب، عبر رفع الشعار المعروف: "قوتنا في ضعفنا". مقابل ذلك حذر فؤاد شهاب قائلا: "في الواقع، الجيش يكلف غالبا، ولكن الثمن قد يكون مرتفعا كثيرا، إن لم يكن هناك جيش قوي"^{٣٦}. وهكذا اكتفي بجيش صغير ولكن كان مستوى تدريبه رفيعا. اعتمد عليه في مراقبة التخريب الداخلي والسيطرة على العناصر المخربة بواسطة جهاز الاستخبارات العسكري وتجنب الاخطار الخارجية بالوسائل السياسية. ولكن كما اشير سابقا، جرى اضعاف المكتب الثاني في بداية السبعينات، رغم أن التهديد المباشر أخذ في تلك الأونة، يتسلل الى داخله. فكانت رغبة الاكثرية المعارضة للشهابية بوضع حد للتدخلات السياسية من قبل هذه المؤسسة، أقوى من خوفها على الأذى الذي سيحصل من خلال القضاء عليها أو اضعافها. وعندما تبين ان البلاد انزلت في خطر الدخول والارتباط بنزاع الشرق الاوسط، وفقدان حيادها، كان هذا الحياد قد فقد مناعته.

سياسيا كان يبدو هذا الحياد مضمونا. فالجيش اللبناني شارك في أول حرب فلسطينية عام ١٩٤٨ ضد اسرائيل ولكنه لم يعرف آنذاك لا انتصارات كبيرة ولا هزائم. على أثرها وقع لبنان مع دولة اسرائيل الجديدة اتفاق هدنة يلزم الجانبين باحترام الحدود بينهما، وقد بقيت حتى منتصف الستينات الأكثر هدوءا بين اسرائيل وبلد مجاور لها. ولذا كان لبنان يعتبر في اسرائيل "الجار الأقل عداوة لها". فالدول العربية كانت متفقة على ان لا يشارك لبنان في أي نزاع عسكري مع اسرائيل. وقد جرى التعبير بوضوح عن ذلك في مؤتمر القمة العربي الذي عقد في القاهرة عام ١٩٦٤. وكذلك تقرر في مؤتمر القمة المنعقد في الخرطوم عام ١٩٦٧، بأن يمارس

٣٦- من تعليقات أحد العاملين المقربين السابقين من الرئيس شهاب.

النشاط الفدائي الفلسطيني انطلاقاً من مصر، وسوريا والاردن، ليس من لبنان.

لم يكن حياد الأمر الواقع هذا قائماً على الوَدِّ والتعاطف تجاه إسرائيل. فأكثرية السياسيين اللبنانيين، وكذلك الرأي العام، كانوا ينظرون الى إسرائيل بحذر شديد وخوف واشمئزاز. فقد جاء الى لبنان بعد احداث ١٩٤٧ و ١٩٤٨ أكثر من مائة ألف فلسطيني. اندمجت اقلية منهم في المجتمع اللبناني، ولكن بقيت أكثريتهم تعيش في المخيمات في ضواحي المدن مُشكلة باستمرار شهادة واضحة للظلم الذي اقترفه شعب مجاور. وكذلك الخوف من مطامع إسرائيل التوسعية واحتلالها لجنوب لبنان كان واسع الانتشار، إذ كان يكرر دائماً التذكير بنوايا إسرائيل للسيطرة على مياه الليطاني. بنت إسرائيل وجودها على الانتماء الديني ورفض كل تعايش، بينما يقوم لبنان على تعايش طوائف دينية مختلفة. فبعض رواد الفكر المسيحيين، امثال ميشال شيحا^{٣٧} ورينيه عجوري^{٣٨}، كانوا يشددون على أن وجود لبنان يعكس، ويدحض المفهوم الاسرائيلي غير المبرر والقائل باستحالة تعايش مجموعات دينية مختلفة في دولة واحدة، وإن لاسرائيل مصلحة في تدمير النموذج اللبناني. وعندما توصلت الحركة الفلسطينية الى الاتفاق حول مفهوم دولة علمانية وديمقراطية في فلسطين يعيش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون، لاقى ذلك ترحيباً وارتياحاً كبيراً في لبنان. ومما لا شك فيه ان السياسيين اللبنانيين الذين دافعوا منذ عام ١٩٤٨ عن القضية الفلسطينية في كل المحافل الدولية، فعلوا ذلك بمعظمهم عن اقتناع عميق. وحتى في الخطاب الذي القاه الرئيس سليمان فرنجية امام الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة في خريف عام ١٩٧٤، عرض فيه النموذج اللبناني كمثال لفلسطين.

كان هناك اجماع في الرأي اللبناني لوضع كل امكانيات البلاد في تصرف الأنشطة السياسية للمقاومة الفلسطينية. ولكن الأرواح انقلبت على ذاتها عندما أخذت المنظمات الفلسطينية تسعى الى استخدام لبنان كمطلق لعمليات الكومندوس العسكرية^{٣٩}. فبين عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٧ تكاثرت الاشتباكات بين الفدائيين والجيش اللبناني. وطالبت الحكومة السورية بالسماح للفلسطينيين بممارسة العمل الفدائي انطلاقاً من لبنان، بينما كانت تحظر عليهم ذلك انطلاقاً من اراضيها^{٤٠}. ولكن

٣٧- Michel CHIHA, op. cit. p.124ff

٣٨- René AGGIOURI, Le conflit de Palestine dans le jeu des puissances, Beyrouth 1968.

٣٩- في عام ١٩٦٤ القى المكتب الثاني القبض لأول مرة على الفدائيين، قيل أن يتمكنوا من تنفيذ عملية كانوا يحضرون لها. وفي عام ١٩٦٥ توفي أحد المقاتلين الفلسطينيين في أحد السجون اللبنانية، ومن المحتمل أن تكون هذه الوفاة قد حصلت على أثر معاملة سيئة له. وبعدها قامت لأول مرة مظاهرات تطالب بحرية العمل الفدائي للفلسطينيين. وفي ذات السنة، أعقل ياسر عرفات وبعض معاونيه المقربين خلال اربعين يوماً، بحجة أنهم بسبب نشاطات حركة فتح، سيَجْرُون لبنان الى نزاع مع إسرائيل.

٤٠- وفي عام ١٩٦٦ القى الجيش السوري القبض على ياسر عرفات، ثم أطلق سراحه مقابل تعهده باحترام

الحدود اللبنانية السورية لم تكن مراقبة باعداد كافية من الجيش اللبناني وقوى الأمن، خاصة في المناطق الجبلية الشرقية الجنوبية من البلاد^{٤١}.

فحتى حرب الأيام الستة كان هناك بالدرجة الأولى نوع من "ممر ترانزيت" لـكومندوس الفدائيين كانوا يأتون من سوريا، ويتسللون الى إسرائيل. وهذا ما كان يحصل غالباً، فيقصفون بقذائف الكاتيوشا المستوطنات الاسرائيلية عبر الحدود اللبنانية الاسرائيلية، قبل ان يعودوا الى سوريا. وقد تبدل هذا الوضع عام ١٩٦٨ بعد القضاء على المقاومة الفلسطينية في الاراضي المحتلة ذاتها. اذ بدأت بعد ذلك منظمة التحرير الفلسطينية بانشاء قواعد في الاردن وسوريا لفصائل الفدائيين ولتدريبهم على التسلّل الى جنوب شرق لبنان، كما باشرت بتجنيد وتدريب فدائيين جدد في مخيمات اللاجئين في لبنان. وفي ربيع ١٩٦٨ بدأت حلقة العنف على الحدود. فبعد اطلاق الفلسطينيين قذائف على مستوطنة اسرائيلية قريبة من الحدود، ردّ الاسرائيليون عليه بقصف وتدمير عدة قرى لبنانية. تمّ عقب كل ذلك اشتباك بالمدفعية بين الجيشين اللبناني والاسرائيلي. ولكن في صيف وخريف ١٩٦٨ تكاثرت عدد الفلسطينيين المسلحين في منطقة العرقوب الجبلية، التي أطلق عليها فيما بعد اسم "فتح لاند". وكانت تنقل اليها الامدادات الفلسطينية انطلاقاً من سوريا عبر طريق جبلية، أطلق عليها - اسوة "بطريق هوتشي منه" - اسم "طريق عرفات". ثم تكاثرت الهجومات والهجمات المضادة، وبدأت وحدات من الجيش الاسرائيلي تقصف ليس فقط القواعد الفلسطينية، بل توجه ضربات مباشرة الى الاراضي اللبنانية. وقد أدى تصعيد المعارك والاشتباكات على الحدود الى اول موجة هرب لسكان القرى الجنوبية.

وفي ٢٦ كانون الأول عام ١٩٦٨ خطف الفلسطينيون طائرة من شركة العال في أثينا، أدت الى ردّ اسرائيلي عنيف بعد أيام قليلة. فقد حطّت وحدة من الطائرات الاسرائيلية المجوقة على مدرج مطار بيروت، ودمّرت ثلاث عشرة طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الاوسط اللبنانية وفجّرت خزاناً للوقود. وكان هدف تلك العملية دفع الحكومة اللبنانية والجيش اللبناني الى الحاق ضربة بالفدائيين الفلسطينيين. ولكن ما أثارته اسرائيل اولا من خلال هذا الهجوم على أهداف مدنية،

لوامر قيادة الجيش.

٤١- يستند العرض التالي بصورة عامة على ما نشر في الصحافة اللبنانية. المعطيات والاحداث حسب التسلسل الزمني كما وردت في Fiches du Monde Arabe, Beyrouth/Lamaka وفي Middle East Reporter (Beirut)، وفي غيرها من الدوريات، لم يجر التحقق منها. أما العرض المفصل للعلاقات اللبنانية - الفلسطينية - الاسرائيلية، فنجدّه لدى Wade R. GORIA, op.cit. p.88-172; Wolfgang KÖHLER, op.cit.; Kamal S. SALIBI, Crossroads to Civil War; op.cit.

كان موجة غضب واشمئزاز من اعمالها، وتضامنا مع الفلسطينيين^{٤٢}. ففي مطلع عام ١٩٦٩ حاول الجيش اللبناني الوصول الى تحقيق انسحاب الفدائيين من المنطقة الحدودية، بغية إزالة كل حجة امام اسرائيل تبرر هجماتها الانتقامية. ولكن قاوم الفلسطينيون ذلك، عبر إشتباكات يومية بينهم وبين الجيش اللبناني الذي عجز عن تحقيق هدفه. ثم عبرت وحدات قوات منظمة الصاعقة الحدود السورية اللبنانية بهدف مساندة المجموعات الفدائية المحاصرة في لبنان. وهكذا أخذت المنظمات الفلسطينية، تدريجيا تراقب وتسيطر على مخيمات اللاجئين، التي طردت منها قوات الامن الداخلي اللبنانية. ولكنها حصلت بنوع خاص على تأييد سياسي من قبل بعض القوى السياسية اللبنانية. فكمال جنبلاط مثلاً دعا الى مظاهرات ضخمة في بيروت، وطرابلس، وصور. وفي نيسان حاولت وحدات من الامن الداخلي اللبناني، التصدي لمسيرة انطلقت من مخيم عين الحلوة الفلسطيني باتجاه صيدا، فأدى ذلك الى اطلاق النار بين وحدات من الفدائيين والجيش اللبناني. وفي بيروت والبقاع ايضا حصلت اشتباكات مماثلة. وفي الرابع والعشرين من نيسان أعلنت حالة الطوارئ، اذ دعا رشيد كرامي على أثرها بأن على لبنان المحافظة على سيادته والدفاع عنها. ولكن تهجم كمال جنبلاط عليه بشدة وحمله مسؤولية قمع المظاهرات، معتبراً كل عرقلة لعمل الفدائيين الفلسطينيين، "خدمة لمصلحة العدو الاسرائيلي فقط". وهكذا بدا لأول مرة التحالف بين الفلسطينيين واليسار اللبناني قويا وفاعلا. فالجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش هي التي كانت تثير الاشتباكات مع الجيش وقوى الامن الداخلي، وكان كمال جنبلاط هو الذي يمارس ضغطا على السياسيين المسلمين ويحول دون تأييدهم الصريح لمصالح الدولة اللبنانية وتمثيلها امام الرأي العام الذي تأثر كثيرا بفعل الهجوم الاسرائيلي على المطار.

وفي السادس من ايار ١٩٦٩ وفي خطاب متلفز الى اللبنانيين أعلن الرئيس شارل حلو بأن لبنان يستطيع تأييد القضية العادلة لتحرير فلسطين فقط عندما تبقى سيادته مصانة وأمنه محترماً^{٤٣}. على أثر ذلك حظي الرئيس والجيش بدعم وتأييد من قبل السياسيين، المسيحيين فقط. وكان قد عارضهما جنبلاط والجبهة اليسارية بشدة. أما رئيس الوزراء رشيد كرامي، الذي لم يعد يجرؤ على الدفاع عن سياسة الرئيس وتصرف الجيش، فاضطر الى تقديم استقالته. بعد ذلك حاول السياسيون السنة الكبار ايجاد حل وسط يقوم على صيغة "التنسيق"، دون أن يكون لأحدهم الجراءة والاستعداد لممارسة مسؤوليات الحكم في ذلك الوقت. وهكذا بقيت البلاد

٤٢ - قدم عبدالله اليافي، رئيس الحكومة، استقالته، وشكل رشيد كرامي حكومة جديدة، معلناً سياسة حوار وتنسيق مع الفلسطينيين.

٤٣ - راجع: Pierre RONDOT, Le Liban devant la résistance palestinienne, in: Revue de la Défense Nationale, 25(1969), p.1410-1432.

اشهرا طويلة دون حكومة، اذ بين الخيارين الممكنين - أي منع الفلسطينيين فعلا من القيام بعمليات فدائية انطلاقا من لبنان، او توفير الحرية لهم وتحميل البلاد نتائجها - لم يعد المجال ممكنا لأية مساومة. ومن جهتها، لم تتوان اسرائيل عن صب الزيت على النار اللبنانية - الفلسطينية. فقد قام سلاحها الجوي لأول مرة في آب وأيلول بغارات قصف خلالها مدينة حاصبيا وعددا من القرى في جنوب لبنان.

وفي منتصف تشرين الأول، قررت قيادة الجيش على مسؤوليتها الخاصة، إعادة احترام السيادة اللبنانية. بدأت بعملية تهدف الى قطع خط الامدادات للفلسطينيين مع سوريا. نجحت في البداية. ولكن، وبعد أيام قليلة، تمركزت قوات سورية على الحدود. وبعد مرور أربعة أيام، هاجمت قوات الصاعقة ووحدات من جيش التحرير الفلسطيني المراكز اللبنانية الحدودية في وسط البقاع وفي شماله. ثم حاولت المنظمات الفلسطينية فك الحصار عن الفدائيين الذين يحاصره الجيش في منطقة "فتح لاند"، عبر فتح جبهات أخرى، كقطع الطريق الرئيسي بين بيروت وطرابلس^{٤٤}.

وفي الفترة اللاحقة احتلت وحدات من جيش التحرير الفلسطيني عددا من القرى في البقاع وهاجمت - بمساعدة وحدات من سلاح المدفعية السورية - مدينة راشيا. ولكن الجيش نجح في صد الهجوم على تلك البلدة. وفي نهاية شهر تشرين الأول اتضح تماما بأن الجيش لم يعد قادرا على القيام بعمليات رادعة ضد الفلسطينيين في منطقة العرقوب، والحفاظ على الأمن والهدوء في المدن وحماية المناطق الحدودية ضد الوحدات النظامية لحركة التحرير الفلسطينية المتدفقة من سوريا. وفي النهاية، برز أيضا خطر اندلاع حرب مع سوريا.

في هذا الإطار تكاثرت الضغوط السياسية الشديدة من جانب كل الدول العربية تقريبا. "فالأنظمة العربية الراديكالية ... استكرت محاولات الجيش اللبناني الهادفة الى تصفية حركة الفدائيين الفلسطينيين في لبنان. وحتى الانظمة العربية المحافظة بدأت، بضغط من منظمة التحرير الفلسطينية، بالمطالبة بوجود حركة الفدائيين في لبنان في ظل مراقبة محدودة جدا، واعتبار ذلك حقا طبيعيا للشعب الفلسطيني كي يمارس نضاله المسلح، وان ذلك لا يتنافى ضرورة مع سيادة الدول العربية، التي أصبحت حكما بلدانا مضيضة لهم"^{٤٥}. وهكذا لم يبق أي أثر للقرار الذي اتخذ في مؤتمر قمة عربي سابق، استثنى لبنان حرفيا من استخدام أراضي كمنطلق للعمليات العسكرية. وسوريا بالذات سعت في الحصول على حرية عمل للفلسطينيين في

٤٤ - في طرابلس بالذات، احتلت مجموعة من "حركة ٢٤ تشرين" بقيادة فاروق المقدم، أحد منافسي كرامي، عدة مراكز للشرطة والقلعة الأثرية.

٤٥ - Kamal S. SALIBI, Crossroads to Civil War, op.cit., p.42.

لبنان، ولكنها حجبته عنهم تماما على أراضيها.

بين الأول والثالث من شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٩ جرت بين ياسر عرفات وقائد الجيش اللبناني، العماد إميل البستاني مفاوضات في القاهرة، بإشراف وزير الحرب والخارجية المصري. وكانت نتيجة هذه المفاوضات ذلك الاتفاق الذي عرف "باتفاق القاهرة". فقد اعطي بموجبه الحق لمنظمات العمل الفدائي الفلسطيني بإقامة وحدات مسلحة في مخيمات اللاجئين والاهتمام بها وإنشاء مراكز مراقبة في المنطقة الحدودية. كما تلتزم السلطات اللبنانية بتسهيل الامدادات وانتقال وحدات الكومندوس الى الحدود الاسرائيلية بالاتفاق مع الجيش اللبناني. وقد التزمت المنظمات الفلسطينية بتأمين نظام وحداتها وعدم التدخل في الشؤون اللبنانية. اخيرا تمارس وتدعم السيادة اللبنانية على كل المخيمات والقواعد.

ولكن في الواقع تجاوز اتفاق القاهرة مجالات واسعة من هذه السيادة. فقد انتقلت بحكم الواقع سلطة الاشراف على المخيمات والقواعد الى منظمة التحرير الفلسطينية، التي أصبحت تتصرف بعد ذلك "كدولة داخل دولة". فتمتعت بالسلطة على اراض معينة وانفردت بالسيطرة عليها. مارست حق تطويع المقاتلين وتدريبهم، واستيراد الاسلحة من سوريا. أما حق المرور الى الحدود الاسرائيلية فيشير الى أن الدولة الفلسطينية، داخل الدولة اللبنانية، تستطيع أيضا القيام بحرب مستقلة. وهكذا منح لبنان منظمة التحرير الفلسطينية حقوقا أكثر مما فعله أي بلد عربي آخر^{٤٦}.

تضمن اتفاق القاهرة بجوهره ما حصل عليه الفلسطينيون في الواقع سابقا. لقد وافق مجلس النواب اللبناني عليه، دون ان يطلع احد من النواب على نصه الحقيقي، استنادا الى ما اتفق عليه في القاهرة لإبقاء الاتفاق سريا. فقط النائب ريمون اده صوت ضد هذا الاتفاق، وانصاع الآخرون للأمر الواقع. بموجب هذا الاتفاق، "أضيفت الشرعية على الحضور الفلسطيني المسلح في لبنان، بهدف تنظيمه، واحترام السيادة اللبنانية، وذلك سعيا الى استيعاب الأزمة"^{٤٧}.

ولكن كما كان متوقعا، بدت عملية استيعاب الأزمة مستحيلة. فقد تألفت بالواقع حكومة برئاسة كرامي، وعين فيها كمال جنبلاط وزيرا للداخلية، الذي اعتبر أهم مدافع عن منظمة التحرير الفلسطينية داخل الحكم اللبناني. فقد حاول ايجاد اتفاقات عملية مع المنظمة: فنقرر أن تكون القواعد الفلسطينية بعيدة أقله كيلومترا واحدا عن المناطق المأهولة وذلك لتجنب السكان انعكاسات ومضاعفات الغارات الإنتقامية.

٤٦ - راجع نص اتفاق القاهرة في: Walid KHADDURI (Ed.), International Documents on Palestine, Beirut 1969; Camille CHAMOUN, Crise au Liban, Beyrouth 1977.
٤٧ - John K. COOLEY, The Palestinians, in: P. Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (Eds), op.cit., p.30f.

وفي المخيمات - ولذا ذات الاسباب - لم يكن مسموحا باجراء التدريب العسكري. وفي أيار ١٩٧٠ حظرت الحكومة على منظمة التحرير اطلاق الصواريخ من الاراضي اللبنانية، وزرع الالغام في الحقول، وخاصة عدم حمل السلاح في المدن والقرى، فقبلت منظمة فتح والصاعقة بهذه التعليمات، ولكن رفضتها الجبهة الشعبية، التي رفضت ايضا الاعتراف باتفاق القاهرة. فالأمر الذي تقبل به منظمة فلسطينية مثلا كانت ترفضه منظمات أخرى. احترم الاتفاق مدة من الزمن. ولكن ما لبث ان غاب عن الازهان، اذ ان الفدائيين الفلسطينيين شعروا، بعد النتيجة غير الحاسمة في النزاع مع الجيش اللبناني، بقوتهم ونفوذهم. وقد تثبت ذلك في اتفاق القاهرة. فالشباب الذين عانوا سنوات طويلة حياة المخيمات، على هامش المجتمع اللبناني الذي كان ينظر اليهم نظرة شفقة أو إحتقار، أخذوا يحملون الآن اسلحة، ويشعرون بتفوقهم، ويتصرفون بكبرياء وخطورة. كانت مخيمات اللاجئين تقع كلها على مداخل المدن اللبنانية، حيث كانت وحدات مسلحة من منظمة التحرير الفلسطينية تقيم حواجز، توقف او تخطف اللبنانيين او الاجانب بحجة انهم يشكلون خطرا على الثورة الفلسطينية. ولكن نظرا لتعدد واستقلالية المنظمات الفلسطينية لم يكن من الواضح معرفة هوية المسؤول عن هذا الاعتداء او ذاك. فلا الموظفون الكبار ولا السلطات العسكرية اللبنانية كانوا بوضع يسمح لهم بالكشف عن كل ما يحدث، حتى ولا الأولاد في الباصات المدرسية. لذلك عبر معظم اللبنانيين عن امتعاضهم واستنكارهم لهذا التصرف الصادر عن الفلسطينيين. وقد زادت بنوع خاص حالة من القلق بين السكان المسيحيين الذين استأثروا جدا من اتفاق القاهرة واعتبروه نوعا من الاستسلام. فعندما تعجز الدولة عن تأمين الحماية لمواطنيها، يضطر المرء الى الدفاع عن نفسه بنفسه. لذلك أخذ حزب الكتائب يدرّب وحدات شبه عسكرية تابعة له، كما بدأ حزب الوطنيين الاحرار بانشاء "ميليشيا النمر"، وشرع آل فرنجية في زغرنا بتسليح مئات الشباب بقيادة طوني فرنجية. وكذلك أنشأ معروف سعد، أهم زعيم سياسي سني في صيدا، مجموعة مسلحة خاصة به. وفي شهر آذار ١٩٧٠ حصلت لأول مرة اشتباكات مسلحة بين الفلسطينيين ومجموعات مسلحة تابعة للأحزاب المسيحية، فخلال مرور موكب فلسطيني ينقل فدائيا فلسطينيا قتيلا، لدفنه في دمشق، جرى تبادل النار معه في قرية الكخالة المارونية، أدى الى سقوط عشرة قتلى من الفلسطينيين. أما تفاصيل الحادثة، فاختلفت كثيرا بين الفريقين، كما تبين في التحقيق. قال الفلسطينيون، أنهم وقعوا في كمين نصب لهم مسبقا وبغاية. أما سكان الكخالة فحملوا الفلسطينيين مسؤولية الهجوم على البلدة واطلاق الرصاص على الاهالي عشوائيا. ومن المحتمل وجود تفسير ثالث، اي أن الفلسطينيين عبروا القرية بسياراتهم وأطلقوا النار في الهواء بهدف إندثار الاهالي وإثارتهم وإرعابهم، الأمر الذي دعا أهل البلدة الى الشعور بالخوف والقلق من هجوم مسلح يستهدفهم. فرددوا

على إطلاق الرصاص بالمثل. وبعد مرور مدة وجيزة على هذه الحادثة كانت تقع معارك شبه يومية بين الفلسطينيين وميليشيات الكتائب، خاصة بين مخيم تل الزعتر الفلسطيني والبلدات المجاورة، وبنوع خاص بلدة الدكوانة المارونية. وفي ٢٥ آذار ١٩٧٠، حُطِف بشير الجميل، الابن الأصغر لرئيس حزب الكتائب من قبل الفلسطينيين، وأوقف ثماني ساعات في مخيم تل الزعتر. ولم يطلق سراحه الا بعد تدخل جنبلات وعرفات، ولكن المعارك لم تتوقف، فكانت تتجدد من وقت الى آخر، حتى تدخل وزير الخارجية المصري وتوصل الى إيقافها.

اما نتائج اتفاق القاهرة فلم تكن زيادة التوتر بين الفلسطينيين واللبنانيين - وبنوع خاص المسيحيين منهم - بل أدى الى التصعيد المكثف في العمليات العسكرية ضد اسرائيل وبالتالي الى تزايد الغارات الانتقامية الاسرائيلية^{٤٨}. وقد شقت بعض الفصائل السورية طريقا عبر منطقة العرقوب لتسهيل وصول وحدات الكومندوس الى الحدود. ولكن الاسرائيليين شيدوا بالمقابل تحصينات دفاعية على الاراضي اللبنانية وشقوا أيضا طريقا للوصول الى الحدود. وهكذا تحولت أطراف جنوب لبنان تدريجيا الى ساحة حرب. وهذا ما دفع مجددا الى قيام حركة نزوح لسكان المنطقة الحدودية. وفي بعض القرى التي اقام فيها المقاتلون الفلسطينيون مراكزهم، حاول الأهالي صدهم وإبعادهم، ولكن دون جدوى^{٤٩}.

ثم اندلعت أحداث أيلول الأسود الدامية في الاردن عام ١٩٧٠، فأدت، أكثر من اتفاق القاهرة، الى اشتباكات ونزاعات عسكرية على الحدود كما في داخل البلاد. أما قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التي طردت من الاردن، فقد اتخذت مقرا لها في بيروت. وقد لحق بها الى لبنان المقاتلون^{٥٠} الذين نجوا من القتال وآلاف الفلسطينيين المدنيين الذين لم تتوفر اية احصاءات دقيقة عن عددهم. أما تقديرات مجموع عدد الفلسطينيين في لبنان بعد عام ١٩٧٠ فكانت تتراوح بين مائتي الف ونصف مليون نسمة تقريبا. وفي مطلق الأحوال ازداد بعد مأساة الاردن، عدد الفلسطينيين المؤهلين للقتال في لبنان، كما ازداد عدد الفلسطينيين بصورة عامة. وبالتالي تعززت قاعدة تجنيد المقاتلين التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية.

شكلت بيروت من وجهات عديدة قاعدة مثالية لمنظمة التحرير الفلسطينية^{٥١}. ففي

٤٨ - في أيار ١٩٧٠، و على أثر الاعتداء على قرية شمنة، رد الجيش الاسرائيلي باعتداء على الأراضي اللبنانية. حصل اشتباك مع الجيش اللبناني الذي تكبد خسائر جسيمة. وفي ذات الشهر قامت الجبهة الشعبية باعتداء على باص مدرسي اسرائيلي.

٤٩ - بدأ المكتب الثاني بتشكيل حرس للقرى في الجنوب وبتسليح عناصره. ولكن بعد إنتخاب سليمان فرنجية رئيسا في آب ١٩٧٠ جرى الحد سريعا من صلاحيات المكتب الثاني، كما أشير أعلاه.

٥٠ - لم تحاول حكومة صائب سلام الجديدة منع سوريا من إبعادهم.

٥١ - وصف الوارد وسعيد بيروت كبديل عن فلسطين، و "المرحلة اللبنانية في تاريخ الحركة القومية

المخيمات الكبيرة الواقعة على شواطئ لبنان تسنى لها الاستفادة من الاراضي التي تشرف عليها، والتي اعترف لها، بموجب اتفاق القاهرة، بأنها اراض لا سلطة للدولة اللبنانية عليها. كذلك وفرت أجهزة الاتصالات المتقدمة في لبنان خدمات عديدة لأنشطة المنظمة الدبلوماسية والإعلامية. وقد وجدت بين اللبنانيين حلفاء صادقين، أمثال كمال جنبلاط والاحزاب اليسارية، وجموعا غفيرة من المؤيدين لها بين المسلمين. وعلى مستوى القيادة حصل جدال ونقاش مكثف حول النتائج التي ينبغي استخلاصها من أحداث الاردن. وقد توصلوا الى نتيجة مفادها حاجة المنظمة الى أكبر تأييد ممكن وواسع بين سكان البلد المضيف. فالأحزاب الصغيرة لم تكن كافية في هذا المجال، كما أعتبر السياسيون التقليديون في الطوائف الاسلامية، رغم تأييدهم المبدئي للقضية الفلسطينية، فئة لا يمكن الاعتماد عليها، في حال اندلاع نزاع بين المصالح الفلسطينية واللبنانية. لذلك سعت كل منظمة فلسطينية الى توثيق علاقاتها بالأحزاب اللبنانية المتأخية معها: الجبهة الشعبية مع منظمة العمل الشيوعي في لبنان، والجبهة الديمقراطية مع الحزب الشيوعي، والصاعقة مع حزب البعث المؤيد لسوريا، والجبهة العربية للتحرير مع حزب البعث المؤيد للعراق. وقد بدأت حركة فتح باقامة شبكة من المتعاونين معها تضم مجموعات من سكان الأحياء في المدن، الذين كانوا سابقا من أنصار الزعماء المسلمين، والذين استخدمهم المكتب الثاني، كما أشير سابقا. ولكن أهم وسيلة أسهمت في تعزيز وتوسيع دائرة انصار منظمة التحرير الفلسطينية كانت دون شك الدعم المالي. فالتحويلات المالية التي كانت تصل اليها من الدول العربية المصدرة للنفط وفرت للمنظمة وسائل دعم كافية. وهكذا سعت الى توسيع دائرة أنصارها ومؤيديها في مختلف مناطق البلاد. وفي طرابلس مثلا، أيدت معارضي رشيد كرامي، كي مارست ضغطا عليه. وفي صيدا خطفت زعيم السنة فيها، معروف سعد، وابنه مصطفى. ثم أفرج عنهما بعدما أعلنوا عن استعدادهما لتأييد القضية الفلسطينية دون تحفظ. وقد جرى تخويف سكان بعض القرى الشيعية الذين اظهروا امتعاضا من تصرفات الفلسطينيين. وفي بيروت الغربية نجحت المنظمة في السيطرة على الخلايا السرية والتغلغل بين أعضائها مستخدمة وسائل وطرق فاعلة جدا، وأهمها تقديم الدعم المالي وممارسة الضغوط عبر تسليح الفئات والمجموعات المتعاونة معها. وفي كل مناطق لبنان، حيث كان للمنظمة حضور مباشر او عبر حلفائها، كانت تسود شريعة القوة. فالذي لم يكن يؤيد القضية الفلسطينية عن اقتناع، كان يؤيدها شكلا لأسباب عديدة، أقله في سبيل مصلحته وحفاظا على حياته. وفي كل الأحوال لم يكن أحد يجرو على التعبير عن رأيه علنا. أما المجموعات اللبنانية المتحالفة مع المنظمة فكانت مرتبطة بها من

الفلسطينية"، "كأول مرحلة استقلالية حقيقية في التاريخ القومي الفلسطيني". راجع: Edward W. SAID,

Palestinians in the Aftermath of Beirut, In: Journal of Palestine Studies, 12(1983)2, p. 5,8.

حيث التمويل أو التسليح. وهكذا كان كل نزاع بين الفلسطينيين والدولة اللبنانية أو مجموعات لبنانية أخرى يتحول، بفضل القوى المتحالفة معها، الى نزاع لبناني داخلي.

كان لسياسة التحالفات التي اتبعتها المنظمات الفلسطينية تأثير جانبي هام. فأكثر "الحلفاء" اقتناعا كانت الاحزاب اليسارية. فزادت قوتها وتعاظم نفوذها بفضل حصولها على الاسلحة والتدريب، وقد تجاوز ذلك وجودها السياسي في البلاد. فاقامة العلاقات الوثيقة بين اليسار اللبناني والفلسطيني كانت لها اهداف واستراتيجيات تجاوزت أكثر مما كانت تطمح اليه منظمة التحرير، وبنوع خاص منظمة فتح. فكانت تطمح الى احداث تغيير مجتمعي وسياسي في لبنان كما في العالم العربي بأسره. أما حركة فتح فكانت تهدف بالدرجة الأولى الى تدعيم مواقعها التي حققتها في لبنان واستخدامها في النضال من أجل فلسطين. ولكن تطرف المنظمات الفلسطينية واللبنانية الراديكالية جرّت الحركة الفلسطينية الى نزاعات لم تكن تراغب فيها أكثرية الفلسطينيين إطلاقاً.

بعد أيلول الاسود بأشهر قليلة، مال ميزان القوى في لبنان كثيراً لصالح الفلسطينيين. فأصبح بمقدورهم تناسي اتفاق القاهرة ومضمونه. ولم يعد بإمكان أحد ردعهم عن التدخل بالشؤون اللبنانية الداخلية، والمحظر عليهم في الاتفاق. ولكنهم ومن خلال حلفائهم، تحولوا تدريجياً الى عنصر جوهري في السياسة اللبنانية. وهكذا تمكنوا دون اي عائق من ممارسة حربهم الصغيرة وتوسيعها على الحدود الاسرائيلية والقيام انطلاقاً من بيروت بأنشطتهم على المستوى العالمي ضد الاهداف الاسرائيلية. لذلك لقت الحكومة الاسرائيلية، بعد الاعتداء الذي قامت به فصائل الكومندوس الياباني، بالتعاون مع المنظمة، على مطار اللد في اسرائيل في أيار ١٩٧١، المسؤولية الكاملة على الحكومة اللبنانية. كما حملتها المسؤولية عن كل ما تقوم به المنظمة من أنشطة، لأن مركزها وقواعدها في لبنان. وقد ازدادت بعد ذلك عمليات الانتقام الاسرائيلية كثيراً^{٥٢}. ففي أيلول عام ١٩٧٢ صدّ الجيش اللبناني مدة ٤٨ ساعة هجوماً اسرائيلياً. ولم تتسحب القوات الاسرائيلية الا بعد تدميرها بعض الجسور والقرى. فالسكان الشيعة في الجنوب الذين كانوا في البداية يعارضون المقاتلين الفلسطينيين لحقت بهم وبممتلكاتهم خسائر فادحة بسبب الغارات الاسرائيلية، حملوا الحكومة اللبنانية مسؤولية عدم تحركها والدفاع عنهم. وفي الواقع

٥٢- على أثر عملية "اللد"، قام الاسرائيليون بغارات جوية وبحرية وأرضية ليس فقط على مخيم الفلسطينيين في الرشيدية فحسب، بل أيضاً على بلدات لبنانية مثل حاصبيا، ودير العشائر، وتبنين، حيث قتل حوالي ١٥٠ شخصاً. وبعد الاعتداء في ميونخ عام ١٩٧٢، لم يهاجم مخيم نهر البارد فقط، بل أيضاً مدينة راشيا وعدة قرى في جنوب لبنان.

طلبت الحكومة من المنظمة عدم تعريض السكان للخطر. قبل عرفات بذلك وقرر "تجميد" العمليات. ولكن رفض جورج حبش وأحمد جبريل التقيّد واحترام هذا الوعد تماما. وفي نهاية عام ١٩٧٢، قررت إسرائيل العمل على ارغام لبنان للقضاء على الفلسطينيين. فمع بداية عام ١٩٧٣ جرى تصعيد العمليات الاسرائيلية. فأغارت وحدات مجوقلة من سلاح الطيران ووحدات من البحرية على مخيمين فلسطينيين قرب مدينة طرابلس. وفي العاشر من نيسان جاءت وحدات كومندوس اسرائيلية عبر البحر الى صيدا وبيروت وهاجمت عددا من الأهداف المختلفة. ومن أهم تلك العمليات كان الدخول الى مساكن ثلاثة من القادة الفلسطينيين البارزين واغتيالهم. وقد تمكن المهاجمون من العودة الى مراكزهم قبل ابلاغ الجيش اللبناني بالأمر. ومثل الغارة الاسرائيلية على مطار بيروت عام ١٩٦٨، أثارت ايضا "مسألة الهجوم بسيارات مستأجرة" - كانت وحدات الكومندوس الاسرائيلية تستخدم في عملياتها في بيروت سيارات مستأجرة من قبل عملاء لها موجودين في بيروت - موجة من الاستكثار والامتناع حتى بين اللبنانيين غير المؤيدين للفلسطينيين. فبينما كانت المظاهرات العنيفة تملأ شوارع بيروت، طالب رئيس الوزارة صائب سلام بإقالة قائد الجيش العماد غانم. ولكن عدم موافقة رئيس الجمهورية على ذلك دفعت برئيس الوزارة الى الاستقالة. وقد استغلت الجبهة الشعبية بقيادة حبش هذه الفرصة لتصعيد الاشتباكات مع الجيش^{٥٣}. وفي الثاني من أيار هاجم الجيش المخيمات الفلسطينية في بيروت، مما أدى الى معارك طاحنة^{٥٤}. فقامت القوات الجيش التي جرى تحجيرها وابتدأها مرات عديدة سابقا، قررت فرض وجودها بالقوة. فألقت القبض على مئات الفلسطينيين خارج المخيمات، خاصة أعضاء الجبهة الشعبية. وعندما قصف مطار بيروت بالصواريخ انطلقا من مخيم برج البراجنة، تدخل سلاح الطيران وقصف هذا المخيم. وهكذا جرت المنظمات الفلسطينية الى مازق حرج. ولكن جرى انقاذها، بفضل دعم الدول العربية لها، وخاصة سوريا. فقد عبرت وحدات من منظمة الصاعقة ومن جيش التحرير الفلسطيني الحدود اللبنانية - السورية واحتلت قسما من جنوب البقاع. كما أن الحكومة السورية اتهمت لبنان بالمشاركة في مؤامرة دولية هدفها تصفية المقاومة الفلسطينية. فأغلقت حدودها أمام مرور المسافرين ونقل البضائع، ممارسة بذلك ضغطا اقتصاديا قاسيا على تجارة

٥٣- في ١٤ أيار فجرت مستودعات الوقود في مصفاة الزهراني قرب صيدا. وفي ٣٠ نيسان أوقفت عناصر من منظمة فتح في المطار كانوا يحاولون نقل حقائب مليئة بالمتفجرات الى أوروبا. وفي اليوم التالي القي القبض على خمس فدائيين من الجبهة الديمقراطية بالقرب من السفارة الاميركية. وفي أول أيار خطفت الجبهة الديمقراطية ثلاثة جنود لبنانيين، واتخذتهم كرهائن حتى اطلاق سراح الفلسطينيين المحتجزين.

٥٤- جرى قطع معظم طرق المواصلات بين بيروت الشرقية والمنطقة الخلفية بسبب الاشتباكات حول مخيمات الضواحي الشرقية.

الترانزيت في لبنان.

وبعد أسبوعين من المعارك الطاحنة، حصل تآزيم سياسي مأساوي في قصر الرئاسة. فكان على الرئيس سليمان فرنجية ان يتنقل بطريقة مكوكية بين قاعتين: - في الأولى كان يجلس سفراء مبعوثون من الدول العربية يطالبونه باطلاق الأوامر لوقف النار، وفي الثانية، كان ضباط الجيش يطالبونه باعطائهم مهلة يوم أو يومين، لإنهاء العملية. ولكن فرنجية رضح اخيرا لضغوط الدول العربية، فأمر بوقف المعارك في الثامن عشر من أيار. على اثر ذلك حصل اتفاق في فندق ملكارت في غرب بيروت أعيد فيه تثبيت مضمون إتفاق القاهرة. فوافق الفلسطينيون على عدم القيام بأي عمليات عبر الحدود مع إسرائيل، وتشكلت لجنة مشتركة من الجيش ومن القيادات الفلسطينية الموحدة لمناقشة ومعالجة كل المسائل العالقة.

أحرز اتفاق ملكارت^{٥٥}، على الورق، تحسنا بسيطا في اتجاه احترام مصالح الدولة اللبنانية، بفعل تفوق الجيش نسبيا. ولكنه بقي دون مفعول على الأرض مثل اتفاق القاهرة. فالفرقان كانا يدركان تماما بأن موضوع الخلاف الأساسي بين منطق الكفاح الفلسطيني ضد اسرائيل والمصلحة العليا للدولة اللبنانية لا يمكن التوفيق بينهما. فبعد الخروج غير الحاسم من "الشوط الأول" عام ١٩٦٩ ومن "الشوط الثاني" عام ١٩٧٣، ساد الاقتناع بحتمية "الشوط الثالث".

عندئذ بدأ زعماء الاحزاب المسيحية يدركون الخطر الكبير الذي لم يقدروا حجمه وابعاده خلال مناوراتهم السياسية عام ١٩٦٩ قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية. فقد اعتقدوا انهم بانتخاب فرنجية، يأتون برئيس "قوي" بعد الرئيس شارل حلو "الضعيف"، كي يضع حداً للنفوذ الفلسطيني. ولكنهم اضطروا الى الرضوخ اذ استنتجوا أنه في الوقت الحاسم، ورغم الاوضاع العسكرية الملائمة - كان الرئيس فرنجية ضعيفا مثل الرئيس حلو قبله. وقد تبين لهم وللمرة الثانية بأن السياسيين المسلمين القيايين لم يكونوا على استعداد لتحمل مسؤولية الحكومة في مجابهاتها مع الفلسطينيين. لذلك ساد الاقتناع بينهم بأن قوة الدولة لا تستطيع فرض احترام السيادة اللبنانية ومصالح لبنان. وهكذا بدأوا بتسليح ميليشياتهم وتدريبها أكثر فأكثر. فاشترؤا الأسلحة من الاتحاد السوفياتي وبلغكا وبلغاريا، كما تلقوا اسلحة من الاردن ومن السعودية. كذلك حصلوا على دعم من قبل الضباط المسيحيين في الجيش اللبناني، الذين شعروا بمرارة شديدة بسبب حؤول القيادة السياسية عام ١٩٧٣ دون الاستفادة من قدرات الجيش العسكرية التي كانت متوفرة لديه آنذاك، والسماح بالتالي لرجحان ميزان القوى لصالح الفلسطينيين. وهكذا كانت الاسلحة تطلب وتستورد باسم الجيش،

٥٥- راجع النص في: Camille CHAMOUN, Crise au Liban, op.cit., p.175-184.

وكانت الميليشيات تدفع ثمنها وتستولي عليها، كما كان العسكريون المسيحيون يقومون بتدريب الميليشيات. ومن جهة أخرى، "كانت القيادات الفلسطينية مقتنعة تماما بأن السلطات اللبنانية لن تعرف الاستقرار والهدوء قبل أن تتمكن من تصفيتهم نهائيا. وقد ثبت هذا الاقتناع لديهم حلفاؤهم اللبنانيون الراديكاليون"^{٥٦}. في تلك الأونة تملكت الاحزاب المسيحية عقدة تصوّر قيام الفلسطينيين واليسار اللبناني بانقلاب سياسي وتسلم الحكم، كما ساد لدى الفلسطينيين الخوف من تكرار مذبحه في لبنان شبيهة بمذبحه أيلول الأسود.

فالوضع الذي كان يقض مضجع المسيحيين، اعتبره كمال جنبلاط والاحزاب المتحالفة معه فرصة ملائمة لم يكن بالامكان توفرها، لولا الوجود الفلسطيني المسلح على أرض لبنان. وكذلك السياسيون المسلمون المحافظون الذين كانوا يتمتعون هزيمة منظمة التحرير عام ١٩٧٣، قبلوا، ليس فقط بسبب اضعاف قواعدها السياسية بفعل سياسة التحالف الفلسطينية، بالأمر الواقع، بل حاولوا ايضا استغلاله لخدمة مصالحها. فلكني لا يشعر الرأي العام الإسلامي بانخسافهم وضعفهم أمام جنبلاط وحلفائه، شكل صائب سلام والمفتي حسن خالد وآخرون جبهة سنية، وضمّتوا أهدافها المطالب الاسلاميه المتمثلة بالشعار الجديد، "المشاركة". وفي ذات الوقت، شعر الإمام موسى الصدر بقلق بسبب انخراط الشيعة في ميليشيات الاحزاب اليسارية، فعمد الى تأسيس ميليشيا خاصة، قامت حركة فتح بتسليحها وتدريبها.

وبالاختصار، كان جنبلاط والحلف اليساري يأملان بسرعة اندلاع "الشوط الثالث" للمعارك، كي يستولوا على الحكم. بينما كان معظم القادة المسلمون يفكرون بالإيجابيات بالنسبة لمصلحتهم، اذا وقع الشوط الثالث. وفي الوقت نفسه، توقعوا موافقة الطوائف المسيحية على تعديلات أساسية واسعة في مسألة المشاركة في الحكم والمنافع الاقتصادية، كي يتجنبوا المعارك والاشتباكات المقبلة. وهكذا انقسم لبنان الى ثلاث جبهات سياسية يميّزها عن بعضها عمليا موقفها من القضية الفلسطينية، فاقترنت السياسة اللبنانية على مسألة ردّات الفعل حول نزاع الشرق الاوسط الذي تركّز منذ ذلك الحين في لبنان وتمحور حوله. ثم اندلعت حرب تشرين عام ١٩٧٣ دون أن يشارك فيها لبنان. ولكن خلال تلك الحرب دمّرت إسرائيل أجهزة الرادار على جبل الباروك، التي كانت الحكومة اللبنانية قد وضعتها بتصرف سوريا. وفي كانون الثاني عام ١٩٧٤، عادت إسرائيل مجددا الى ممارسة غاراتها على جنوب لبنان، مما أدّى ايضا الى موجة جديدة من نزوح السكان نحو بيروت. وفي أيار جرى توقيع اتفاق فصل القوات بين سوريا واسرائيل. ولبنان الذي تحمل منذ عام ١٩٧٠ العبء الأكبر للمجابهات الاسرائيلية الفلسطينية، اصبح منذ

تلك الفترة محكوما عليه بتحمل هذا العبء منفردا. وفي صيف عام ١٩٧٤ زادت شدة هذه المجابهة. فبينما كانت الجبهة السورية تنعم بهدوء تام، أعلنت منظمة الصاعقة المدعومة من سوريا، وهذا ما يعرفه كل إنسان، بأن المنظمات الفلسطينية لا تقبل إطلاقا بحظر النشاط المسلح انطلاقا من جنوب لبنان. لم يكن ذلك سوى إعلان عن سقوط اتفاق ملكارث. ومن جانبه طالب جنبلات بنزع سلاح الميليشيات المسيحية، ولكنه لم يطالب إطلاقا بنزع سلاح المنظمات الفلسطينية. وفي تشرين الأول وكانون الأول، سقطت مجددا القنابل الإسرائيلية على بلدات في جنوب لبنان وعلى مخيم شاتيلا في بيروت. ومرة أخرى دفع الوضع في لبنان الى تفاقم النزاعات العربية حول السياسة التي ينبغي اعتمادها تجاه اسرائيل. في نهاية تشرين الأول قرّر مؤتمر القمة العربي المنعقد في الرباط - الى جانب الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للفلسطينيين - عدم عقد أي اتفاق آخر منفصل مع إسرائيل. ولكن في تشرين الثاني أعلن أنور السادات استعداد له عقد اتفاق ثان لفصل القوات في سيناء (عرف باتفاق سيناء رقم ٢). لم يثر ذلك مشاعر جبهة الرفض فحسب، بل أثار بنوع خاص غضب سوريا واستياءها أيضا. عندئذ لم يكن للسادات الا فكّ التضامن الذي كان قائما مع سوريا في حرب تشرين والعمل في سبيل مصلحة مصر فقط. وهكذا لم يبق للفلسطينيين ولدول جبهة الرفض البعيدة عن حدود اسرائيل، ولكن أيضا لسوريا، الا العمل على ازعاج التقارب الإسرائيلي المصري في مكان واحد ممكن، ألا وهو لبنان.

في كانون الأول ١٩٧٤ وجه بيار الجميل الى الرئيس فرنجية مذكرة عبّر فيها عن قلقه بسبب امكانية تحويل لبنان، بفعل سياسة جبهة الرفض، الى فلسطين ثانية. وفي السابع من كانون الثاني ١٩٧٥ التقى الرئيسان السوري واللبناني، الأسد وفرنجية، في شتورا. في هذا اللقاء، قدّم الرئيس الأسد وعدا بالدفاع عن لبنان. وبنتيجة ذلك فقد لبنان كل منفعة كان يستفيد منها عبر سياسة الحياد للإحتفاظ بدرجة تسمح له بحماية سيادته الخارجية^{٥٧}. أما سيادته الداخلية فكان قد فقدتها منذ عام ١٩٦٩.

وبعد مرور اسبوع على هذا اللقاء دمّرت القوات الاسرائيلية قرية كفرشوبا الحدودية. وفي شهر كانون الثاني أيضا هاجمت وحدات من منظمتين في جبهة الرفض - الجبهة الشعبية وجبهة التحرير العربية - قوات الجيش اللبناني في مناطق عديدة، ومن بينها ثكنة صور. وفي آذار ١٩٧٥، وقع حادث أليم في صيدا، تداخلت فيه لأول مرة اضطرابات اجتماعية داخلية وتهجم فلسطيني ضد الحكومة اللبنانية. سبق ذلك إعطاء رخصة لشركة يابانية باسم "بروتاين" لصيد السمك في عمق

البحر، وكانت قد قررت إقامة مركزها في مدينة صيدا، كما عرضت رئاسة مجلس إدارتها على كميل شمعون. ولكن صيادي الأسماك على الشواطئ شعروا بتهديد مصيرهم ووجودهم الاقتصادي من قبل هذه الشركة. فنظموا مظاهرة ضخمة ضد الحكومة، شارك فيها عدد كبير من الفلسطينيين. خلال تلك المظاهرة، أصيب النائب معروف سعد بطلقات نارية، دون أن تعرف إطلاقا هوية مطلقها. عندئذ، دعا جنبلاط إلى إضراب عام ضد الحكومة. وبعد وفاة معروف سعد متأثرا بجراحه، تظاهر مجددا في صيدا اللبنانيون والفلسطينيون، ولكن هذه المرة ضد الجيش، كما أنهم المكتب الثاني بتدبير عملية اغتيال معروف سعد. أثناء تلك المظاهرة قطعت الطريق بين صيدا وصور. وعندما حاول الجيش فتحها، أطلق النار عليه مدنيون مسلحون، كان بينهم عدد من الفلسطينيين. وأسفر ذلك الحادث عن مقتل خمسة جنود واحد عشر مدنيا. عندئذ لم يوجه كمال جنبلاط وحده التهمة إلى الجيش، بل كل الزعماء المسلمين المحافظين أيضا. وأخذوا يطالبون بإعادة تنظيم قيادته. على الأثر، حصلت مظاهرتان في بيروت: واحدة في غربها ضد الجيش، وأخرى في شرقها تأييدا له. وهذا ما دفع إلى اتهام الجيش تحوله إلى وسيلة في خدمة نصف سكان لبنان، أي المسيحيين. وهكذا، ولأول مرة، وقف الفلسطينيون، وجنبلاط، والأحزاب المتحالفة معه، وكذلك مجموعة القادة السنة، وإن لأسباب مختلفة، ضد الجيش "المسيحي" وأحزاب الطوائف المسيحية. فمسألة شركة بروتاين، منحت الفلسطينيين فرصة لتحقيق أوسع تحالف كان يمكن أنشاؤه في لبنان. وهناك حلف آخر أهم كان بإمكانهم أنشاؤه خارج البلاد. فعندما أعلن السادات إعادة فتح قناة السويس أمام الملاحة العالمية، قبلت سوريا عرض عرفات بتشكيل قيادة عليا مشتركة سورية - فلسطينية. وكان ذلك الهدف الرئيسي لجهود حافظ الأسد، الرامية إلى تكوين "جبهة شرقية"، تعويضا عن انفصال مصر الفعلي من المجابهة ضد إسرائيل. كانت سوريا تأمل عبر قيام قيادة عليا في الوصول إلى ممارسة تأثير أكبر على المنظمات الفلسطينية وبالتالي إلى كسب وزن سياسي أقوى في لبنان، خاصة عبر جبهة شرقية فاعلة لا يمكن أن تقوم إلا في هذا البلد فقط. ولكن سوريا كانت تتخوف من استقرار إسرائيل لها بهجوم عبر جنوب لبنان وسهل البقاع بعد انسحاب مصر من أي تحالف حربي واستبعاد قيام جبهتين للحرب^{٥٨}. فما كانت تطمح إليه سوريا هو تحكمها بالتوتر مع إسرائيل، لتبرهن على أن أية تسوية للسلام في

٥٨ - وصف "إيتامار رابينوفيتش" لبنان كمحمية سورية. راجع: Itamar RABINOVITCH, The Limits of Military Power: Syria's role, in: Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (Eds), op.cit. p. 57. وكذلك حيث قال: "يمثل لبنان، دون أي شك، أكبر خطر ممكن على نظام أسد. باللغة الجيوستراتيجية، لبنان هو باب مفتوح على سوريا لأنه يجاور كل المنطقة الغربية منها، حيث يوجد مركزها العسكري، والسياسي، والاقتصادي، أي عاصمتها، دمشق، وتجمعها الصناعي الرئيسي في حمص".

نزاع الشرق الأوسط لا يمكن أن يحصل دون سوريا أو ضد سوريا.

لم تكن المفاوضات الاسرائيلية المصرية لتوقيع اتفاق ثان حول سيناء سوى نهاية الآمال التي برزت في مؤتمر جنيف عام ١٩٧٣ بشأن التسوية الشاملة لنزاع الشرق الأوسط. فقد تخوف الفلسطينيون أكثر من أي وقت مضى، من أن يتضمن سيناريو التسويات الثنائية "حلا" مماثلا لوجودهم في لبنان يذكر بأحداث عام ١٩٧٠ في الاردن. وقد أثارت هذه المفاوضات أيضا لدى المسيحيين اللبنانيين تخوفا من أن تحل القضية الفلسطينية عبر توطين دائم للفلسطينيين في لبنان، وتحويل بلدهم الى وطن بديل لهم. وقد عبّر عن هذا الاقتناع السياسيون المتخصصون مع بعضهم، أمثال سليمان فرنجية، وريمون إده. اعتبروا التوطين هو ما تصبو اليه الولايات المتحدة، وخاصة هنري كيسنجر بالذات. فلا الفلسطينيون ولا المسيحيون اللبنانيون كانوا يريدون تحقيق ذلك. فبينما كان الأولون يرفضون، كان الآخرون، الجيش اللبناني والمليشيات المسيحية، يستعدّون، لمجابهة "الخطة الأميركية" بمعركة نهائية. كما كانوا مقتنعين أيضا بأن الفلسطينيين، والأحزاب اليسارية اللبنانية والمسلمين، يعملون في إطار تنفيذ "المخطط الأميركي" - حسب مفهومه من قبل المسيحيين - للمعركة، بهدف إقامة دولة فلسطينية لبنانية، ذات أكثرية مسلمة.

كانت تدرك الفتتان وتتخوف من هجوم أحدهما على الأخرى. فيوم الأحد الواقع في الثالث عشر من نيسان عام ١٩٧٥، حصل حادث أليم اعتبره الفريقان بداية المعارك. وهكذا ومع إعادة فتح قناة السويس في الخامس من حزيران عام ١٩٧٥، كان لبنان قد غرق في خضم حرب ضروس.

٦ - أرض بديلة للمعركة من أجل فلسطين

ابتداء من عام ١٩٧٥، لم يعد لبنان وطنا بديلا للفلسطينيين، بل تحول الى ساحة المعركة لحرب بديلة من أجل فلسطين. فحتى عام ١٩٦٧، بقي هذا البلد في ظلّ رياح نزاع الشرق الأوسط، وكان بإمكانه تحقيق منافع عديدة منه. ولكن بعد هزيمة حرب الأيام الستة، برزت حركة المقاومة الفلسطينية كقوة سياسية وعسكرية مستقلة. وفي الوقت نفسه، بذلت الدول العربية جهودا مكثفة لمراقبتها واستخدامها لاهدافها الذاتية. جرى تضيق اطار نشاطها تدريجيا. سحقت مجموعات الفدائيين في الأراضي المحتلة سريعا من قبل إسرائيل. وكانت سوريا تراقبهم بحزم وشدة على أراضيها. كما طردوا نهائيا عام ١٩٧٠ من الأراضي الاردنية. ولم يبق لهم الا لبنان ملجأ وقاعدة لعملياتهم. ولكن المحاولات التي قام بها لبنان للسيطرة على منظمة التحرير فشلت عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٣ بفعل الضغوط التي مورست على

الحكم اللبناني من قبل الدول العربية، وبنوع خاص من قبل سوريا. فمبادرات الدول الكبرى التي نشطت بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ أسهمت في تفاقم وتأزيم التوتر في لبنان، حيث كان وجود منظمة التحرير يدفع الى التخفيف أو التصعيد من حدة النزاع بمساعدة كل الفرقاء أصحاب العلاقة.

ونظرا للمصالح الخاصة المتنوعة، لم تجد الدولة اللبنانية دعما أو تأييدا لها لدى أية قوة خارجية. فكل الدول كانت ترى بداية أنهيار الحياد اللبناني ذي المناعة الضعيفة. كما أسهم بعضها في تردي هذه الأوضاع.

لم يبرز آنذاك أي مؤشر على أن الولايات المتحدة وضعت "مخططا" للبنان يفرض على الفلسطينيين، كما على المسيحيين. فمنذ عام ١٩٦٩، لم تر الولايات المتحدة أية امكانية للسيطرة الفعلية على الفلسطينيين من قبل الدولة اللبنانية. فالتحول عن البحث في إيجاد حل شامل لنزاع الشرق الأوسط، والانتقال الى سياسة الخطى الصغيرة وبالتالي الى سياسة الاتفاقات الثنائية بين إسرائيل والدول العربية، التي أطلقها هنري كيسنجر، أدت الى سلام الأمر الواقع مع سوريا ومصر، ولكنها زادت في خطر نشوب الحرب في لبنان. فقد انطلق كيسنجر بسياسة تهدف خطوة خطوة الى الحد من خطر اندلاع حرب جديدة وكبيرة في الشرق الأوسط. كما اعتبر مصير الفلسطينيين ولبنان أمرا مؤسفا ولكن أهميته ضعيفة ومحدودة. وكما عرض تجاه أميركا اللاتينية سياسة "التجاهل الايجابي"، اظهر تعاطفا تجاه لبنان ولكنه مارس تجاهه "التجاهل" فقط دون الايجاب. فمن منظور السياسة الاميركية التي وضع كيسنجر خطوطها العريضة، كان على لبنان لعب دور فقط في حال حصول حرب يتجاوزها. أما لبنان كبلد بحد ذاته، فلم يكن يشكل أي دور أو أهمية بالنسبة للسياسة الاميركية^{٥٩}.

وهذا الأمر انطبق ايضا على الاتحاد السوفياتي، الذي كان يطالب باستمرار بحل شامل لنزاع الشرق الأوسط من شأنه أيضا تسهيل الوضع في لبنان فقط. ولكن نظرا لصعوبة هذا الامر، كان الاتحاد السوفياتي يدعم سوريا، التي عارضت اقرار حلول جزئية ثنائية برعاية اميركية^{٦٠}. وفي ذات الاتجاه، كان الاتحاد السوفياتي يدعم

٥٩- "لم يكن لبنان يعتبر عاملا مهما في إطار الجهود الاميركية لاحتلال السلام بين إسرائيل والدول العربية بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣". راجع: Robert W. STOOKEY, The United States, in: P. Edward HALEY & Lewis W. SNIDER (Eds), op.cit., p. 229. قال: "الولايات المتحدة تتصور سياسة في إطار واسع واقليمي، يلعب لبنان دورا محدودا جدا فيه، هذا اذا ترك له دور". راجع: Edward E. AZAR & Kate SHNAYERSON, United States - Lebanese Relations: A pocketful of paradoxes, in: Edward E. AZAR and al. (Eds), The Emergence of a New Lebanon. Fantasy or reality? New York 1984, p.220.

٦٠- James F. COLLINS, The Soviet Union, in: O.Edward HALEY & al.(Eds), op.cit., p. 209 & 211.

أحيانا منظمة التحرير واليسار اللبناني مباشرة، وبصورة غير مباشرة، عبر سوريا. ولكن لبنان بحد ذاته كان يمثل، في المفهوم الستاليني، تقسيمات تتجاوز الحد الأدنى، ولا تؤهله ليكون في وضع يستحق الأهمية.

أما إسرائيل فقد أهتمت بلبنان بحكم تحوله الى قاعدة لمنظمة التحرير الفلسطينية. فسياسة الرد العنيف على العمليات الفلسطينية^{٦١}، سواء انطلقت من الاراضي اللبنانية او حصلت في أي مكان من العالم، تبرزها دائما إسرائيل، بتحميلها الدولة اللبنانية مسؤولية السيطرة على الفلسطينيين. كذلك لم يكن يعلم أحد أكثر وأفضل من الحكومات الإسرائيلية، بعدم أهلية وقدرة لبنان على ذلك. ولكن إسرائيل كانت تبدي ارتياحا ايضا لتزايد أعمال العنف بين الفلسطينيين واللبنانيين لأنها تحدّ من ممارسة عمليات العنف ضدها وعلى حدودها^{٦٢}. الا أن شراسة الغارات الإسرائيلية الإنتقامية كانت تتجاوز بكثير حجم عمليات الكومندوس الفلسطينية المحدودة. فبدلا من احترام مبدأ "العين بالعين والسن بالسن"، مارست إسرائيل في لبنان مبدأ التفوق في استخدام الوسائل العسكرية والتطرف في ممارسة العنف.

وفي سوريا لم تبد أية حكومة من حكوماتها أي تعاطف مع لبنان. فكان من غير المرغوب فيه أن يقوم هذا البلد كدولة مستقلة فعلا، حسب رأي معظم السياسيين السوريين. فسوريا لم تبد أي تقدير اطلاقا لنظام لبنان الديمقراطي الليبرالي ولا لاقتصاده الفوضوي، رغم نجاحه الكبير بالمقارنة مع اقتصادها، ولا لعدم مشاركته في أية معركة عربية حول فلسطين. فمُنذ عام ١٩٦٧ وسوريا تعمل كل ما بوسعها لتحويل لبنان الى أرض مواجهة. وقد وجدت تدرجيا لذتها وسرورها في تحريك هذه المواجهة بقدر الامكان على حساب لبنان. ثم جاء النزاع الفلسطيني اللبناني ليعطي الحكومة السورية ذريعة وامكانية ممارسة تأثيرها ونفوذها على الحركة الفلسطينية من جهة، وعلى أوضاع الحكم الداخلي في لبنان من جهة أخرى. استغلت سوريا هذه الامكانية بحنكة ودهاء ووفقا لحساب مصالحها الخاصة، مستخدمة بذلك وسائل محدودة ولكن دون أي احترام للمصالح اللبنانية.

أما الدول العربية الأخرى، فقد أنفقت منذ عام ١٩٦٩ على تأييد ودعم حرية

٦١- Yehoshafat HARKABI, Arab Strategies and Israel's Response, New York 1977

٦٢- "... إن سياسة إسرائيل الهادفة الى تحميل الحكومة اللبنانية مسؤولية الاعتداءات الفلسطينية انطلاقا من الأراضي اللبنانية، كشفت على أنها غير عملية، كما أسهمت في زيادة التوترات التي أدت الى الحرب الأهلية". راجع: Lewis S. SNIDER & al., Israel, in: P. Edward HALEY & Lewis S. SNIDER (Eds), op. cit., p. 101.

.... وقد أضيف: فبدلا من مساعدة الحكومة، أدت الغارات الاسرائيلية وضرباتها الإنتقامية الى إيهيار الحياة السياسية المنظمة في لبنان، من خلال تعريض قوات الجيش للخطر، واستقطاب السياسة اللبنانية، وزيادة عدد اللاجئين الذين لا مأوى لهم". ذات المصدر، ص ١٠٧.

عمل منظمة التحرير الفلسطينية وتحويل لبنان الى أرض مواجهة رئيسية. فحول جبهة الرفض والتصدي، وبنوع خاص ليبيا والعراق، كانت تقدم الى المنظمات الفلسطينية المال والسلاح. أما المملكة العربية السعودية فكانت تحتقر المنظمات العلمانية اليسارية، الفلسطينية واللبنانية. وتدعم بالتالي السياسيين المسلمين التقليديين وحركة فتح، ولكن ايضا، جزئيا الميليشيات المسيحية. فقط الاردن، كان منذ اندلاع النزاع مع المنظمة عام ١٩٦٨، يقدم للميليشيات المسيحية مساعدة عسكرية محدودة تقتصر على السلاح. ومثل الدول الكبرى كانت ايضا معظم الدول العربية تهتم بدرجة أولى بالفلسطينيين وبدورهم في نزاع الشرق الاوسط، سواء من حيث التعاطف معهم، او من حيث الارتياح الناتج عن ارتباك المنظمات الفلسطينية بالمشاكل والنزاعات المعقدة في لبنان، والتي لا تترك لها المجال لحدوث شغب واضطرابات في الدول الأخرى. ولكن لبنان بحد ذاته، هذا البلد الأصغر، والأكثر فريدة من نوعه وضعفا بين "البلدان العربية الشقيقة"، لم يشكل بنظرها اية أهمية.

وبالنسبة للمنظمات الفلسطينية، لم تكن تفضل اختيار لبنان مكانا لها، بل الاردن. ولكن لبنان أصبح بحكم الأمر الواقع وبكل بساطة آخر معقل لهم^{٦٣}. فقد استغلت نقاط الضعف فيه بلا رحمة ولا شفقة. فحسب مفهومها، كل الدول العربية ملزمة بتقديم التضحيات للقضية الفلسطينية - لأنها قضية كل العرب. ولكنها لم تجد أي مانع في فرض ذلك على لبنان وحده. فبعد الكارثة التي ألمت بهم في الاردن، رأوا من الضرورة كسب تأييد قسم من سكان البلد المضيف. اقدموا على ذلك عبر تحالفهم مع اليسار اللبناني والطوائف الاسلامية اللبنانية، وجعلوها مرتبطة بهم، كما أصبحوا هم جزئيا مرتبطين بهم. وهكذا أثاروا عداوة معظم الطوائف المسيحية اللبنانية لهم. وكما سنرى لاحقا، تبين أن ما استخلصه الفلسطينيون من الكارثة التي لحقت بهم في الاردن، لم يكن مفيدا لهم كثيرا. فقد انجروا الى الكارثة اللبنانية، وجروا اللبنانيين معهم الى الكارثة ايضا. أما لبنان فقد وقع في هذه الكارثة بسبب اخطاء الطبقة السياسية. فالسياسة الاجتماعية التعيسة التي اتبعت، جاءت في وقت غير ملائم. فدفعت بسبب العوامل الخارجية، الى تفاقم خطر التوترات الاجتماعية. وقد لعب الزعماء السياسيون في كل الطوائف دورهم التقليدي في الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ، في وقت كانت النار قد نشبت داخل البيت اللبناني. فلم يقدر أحد منهم الأخطار الخارجية حق قدرها، فتمسكوا بحياد لا مناعة له في منطقة تعج بالسلاح، وأضعفوا سلطة الدولة ووسائلها المحدودة، في الوقت الذي كانت بأشد الحاجة اليها. لقد أعطوا برهانا ساطعا عن ضعف أهليتهم لصيانة ديمقراطية التوافق والحفاظ عليها في إطار علاقاتهم الخارجية. ولكن يمكن الرهان والتساؤل أيضا، عما اذا كان

لبنان، سيتحول الى مركز نزاع الشرق الاوسط، حتى وإن لم يرتكب زعماءه تلك الأخطاء. فالأمور كانت تشير - حتى ولو تسنى له حكم أفضل ومتجانس - الى حتمية إنجرافه في هذا النزاع بحكم موقعه الجغرافي. لأن لبنان المسلم سيقف كله تقريبا الى جانب الدول العربية الأخرى. ومن الممكن وقوف لبنان المسيحي الى الجانب الآخر، وذلك دون خوف من تغيير داخلي في توازن الحكم. ولكن يمكن الرهان ايضا على أن حربا أهلية كانت ستتشب حتى وإن لم يكن للبنان أية علاقة بنزاع الشرق الاوسط. في التاريخ تبرز مسائل وافتراضات حول أحداث معينة، لا حلجة ولا مغزى لأي اهتمام بها.

لم يعرف لبنان في سنوات ما قبل الحرب حكما جيدا، أقله في مجال السياسة الأمنية. فالتطورات التي حصلت في المنطقة، سواء الحروب او الجهود في سبيل السلام، انعكست دائما سلبا عليه. فمنذ عام ١٩٦٨، وتمارس حرب فلسطينية إسرائيلية على الأراضي اللبنانية دون توقف. في عام ١٩٦٩ و ١٩٧٣ نشبت نزاعات عنيفة مسلحة يمكن وصفها بحرب بديلة من أجل فلسطين. ولكن لم تحصل في تلك الأثناء اي حرب أهلية داخلية. حتى عندما اندلعت الحرب، وقد اتفق على تحديد تاريخ اندلاعها في ١٣ نيسان عام ١٩٧٥، مرتّ شهور عديدة بعدها، قبل أن تتحول الحرب فعلا الى حرب أهلية بالمعنى الحصري. ولكن السوابق التاريخية تشير الى أن الحرب الأهلية ليست الا ظاهرة عارضة في نزاع الشرق الأوسط.

الفصل الرابع

حرب مع وجوه عديدة

لا حظ لبعض البلدان بجيرانهم ولبنان هو احد هذه البلدان. ولكن لا يمكن تغيير ذلك.

وليام ب كواندت

Au lieu de "tout le monde dehors", le Liban se retrouvera avec "tout le monde dedans".

انطوان فتال

"نظر الزعماء اللبنانيون في وقت ما الى الهيمنة، وغالباً بدعم من الخارج، حينما كان الوضع السياسي يدعو الى التوازن. وقد دفع الطموح الى الهيمنة الى استخدام العنف. وهذا ما اضعف دور الذين يتقنون في لبنان فن الكسب والمتاجرة، ودعم دور الذين يعرفون كيف تستخدم البندقية وهم على استعداد للموت".

وليام ب كواندت

"بكل أسف، لا بد من الاستنتاج بان العدالة لا تتحكم في مسار التاريخ، بل شريعة الغاب"

الياس سالم

١ - اطراف النزاع وتطوره (١٩٧٥-١٩٨٨)

"في معظم الحروب الداخلية تختلط بدرجات مختلفة عناصر الحرب الاهلية وعناصر التدخل الخارجي. فعندما تتوفر لدى فرقاء النزاع الاسباب الداخلية، والتعبئة، والامكانيات، يصبح الحديث ممكناً عن حرب اهلية حقيقية او عن ثورة

داخلية. وعندما يُستخدم الأشخاص، وتُستغل الدوافع، والاموال والامكانات الاخرى، كوسائل رئيسية في الصراع بين اطراف النزاع، يصبح الحديث عن "حرب بالنيابة"، اي عن نزاع دولي بين قوتين خارجيتين. وينقل النزاع الى ارض بلد ثالث، آخذاً شكل صراع حول مشكلة داخلية فيه. يستغل في هذا النزاع جزء من الوسائل والامكانات والاراضي المتوفرة - ان لم تكن كلها - بغية الوصول الى اهداف واستراتيجيات خارجية. وقد تبدو في الواقع اهداف هذه القوى الخارجية متطابقة تماماً مع اهداف أهم اطراف النزاع الداخليين^١.

خلال كل مراحل حرب لبنان اختلطت مع بعضها عناصر الحرب الاهلية والحرب بالنيابة. ولكن ما هي درجة هذا الاختلاط؟

هذا ما سنحاول الكشف عنه. اما مسألة توقيت الصراعات والاشتباكات بين فرقاء النزاع الخارجيين او الداخليين فهي مقياس ذو مغزى بالغ الاهمية. حتى عندما كانت تحصل نزاعات متزامنة بين فرقاء مختلفين، كان يفرض ادهم على تلك المرحلة الزمنية طابعه المميز.

كشفت حرب لبنان عن مشابهاة عديدة مع حرب الثلاثين سنة، التي تمثل برأي "كارل دويتش" نموذجاً كلاسيكياً لتداخل النزاعات الداخلية والخارجية التي يصعب التمييز بينها او فصلها عن بعضها. فقد أخذت حرب الثلاثين سنة، في بعض مراحلها، شكل حرب بالنيابة بين فرنسا واسبانيا. فدمت الاولى الفريق البروتستانتي، والثانية الفريق الكاثوليكي في نزاع كان قد بدأ كصراع ديني في الامبراطورية الرومانية. في نهاية المطاف، بقي التوزيع الديني في المانيا، وفي اوروبا، دون تغيير يذكر. حصل تخريب ودمار شاسع في المانيا، وقتل ثلث سكانها. وعرفت اسبانيا هزيمة سياسية كبيرة، ولكنها لم تدمر. اما فرنسا فقد خرجت مزدهرة من الحرب، كما وصفت مؤرخوها القرن السابع عشر "بالقرن العظيم في التاريخ الفرنسي"^٢. فمقاييس التشابه التاريخية ليست كاملة اطلاقاً. في لبنان لم تبدأ الحرب كنزاع بين مجموعات دينية، بل حوّلت الى ذلك. واذا كانت احدى الدول المجاورة ستشهد ازدهاراً خلال "قرن عظيم من الزمن"، فهذا امر ما زال في حالة الانتظار. وبالتالي بدت نماذج النزاع في لبنان والشرق في نهاية القرن العشرين اكثر تعقيداً من النزاعات في المانيا واوروبا في منتصف القرن السابع عشر. ففرقاء النزاع الداخليين هم مثل الخارجيين اكثر عدداً، وتغيير التحالفات اكثر تواتراً، ولكن وجه الشبه بين الجانبين هو المزج المنفرد لحسابات توازن القوى بصورة يدركها

١- Karl W. DEUTSCH, External involvement in Internal War, in: Harry Eckstein (Ed.), op. cit., p. 102.

٢- ذات المصدر، ص ١٠٣

جيداً اللاعبون الخارجيون، مع درجة الخوف العضوي ذي الطابع الديني من قبل عناصر اللعبة في الداخل. ويبرز الشبه أيضاً في فقدان الزعماء السياسيين والدينيين التقليديين السلطة والنفوذ لصالح زعماء المرتزقة.

٢ - اطراف النزاع وزعمائهم

تقوم السياسة في الشرق الاوسط بدرجة بارزة جداً على الاشخاص. فالاحزاب، وكذلك الميليشيات، تشكل حسب المفهوم الغربي نوعاً من الأيقنة (Iconographie) المفرطة، إذ ان ملامح السلطة والزعامة تبرز عبر الصور والرسوم العديدة للزعماء أكثر مما تبرز عبر البيارق او الازياء الموحدة. الولاء السياسي هو ولاء للأشخاص بدرجة أولى وللمنظمات او البرامج بدرجة ثانية.

اما سياسة الدول الكبرى^٣ فتبدو لكثير من العرب مقلقة، لانها تفرض حالها وكأنها مجهولة. يتحدث الناس عن الولايات المتحدة، وعن الاتحاد السوفياتي، غالباً عن "أجهزة حواسيبهم الآلية" التي تدير وتوجه سياسة الدول الكبرى، كما كان يتخيل بعض اللبنانيين، حتى المدركين لتطورات الاحداث السياسية. فلم تكن تذكر الا نادراً اسماء السياسيين السوفيات، نظراً للموقف الثابت والمستمر لسياسة الاتحاد السوفياتي في الشرق الاوسط. اما السياسة الاميركية فكان ينظر اليها من خلال الاشخاص. مثلاً، تردّد غالباً اسم هنري كيسنجر، الذي يبدو، رغم ابتعاده عن العمل السياسي منذ سنوات عديدة، وكأنه المسيطر الدائم على توجيه السياسة الخارجية في بلاده. فاليه كانت تنسب - وان بحق - عملية توجيه بعض التطورات، التي دفعت مصر الى الخروج والانسحاب من الجبهة العربية، - او بغير حق - عملية اعداد "المؤامرة" ضد لبنان. فمصلحة الدول الكبرى في لبنان تعطى أهمية كبيرة من قبل معظم السياسيين اللبنانيين، خاصة مصلحة الولايات المتحدة، التي لا يمكن لها الا ان تكون قد اعدت مخططات خاصة بكل منطقة من مناطق العالم. تقررها وتنفذها مباشرة، او تعمل على تنفيذها من خلال عناصر أو قوى داخلية في كل منطقة او بلد. فالولايات المتحدة لم تبدأ بلعب دور هام في لبنان الا بعد مرور سبع سنوات على اندلاع الحرب فيه. ولكن لم يكن ذلك عن سابق تصور وتصميم. وعندما تبين لها ان هذا الدور صعب، انسحبت من حلبة الصراع، كي تهتم بمعركة الانتخابات الرئاسية القادمة آنذاك. ومثلما كان الحال قبل الحرب، بقيت الدول الكبرى أيضاً

٣- عن دور اطراف النزاع غير اللبنانيين، راجع دراسة ملحم شاول المقتضبة، والمذكورة سابقاً، بالإضافة الى: P. Edward HALEY and Lewis S. SNIDER (Eds), op. cit.: Bassma KODMANI-DARWISH, op. cit.; BENASSAR (Pseudonyme de Gabriel MENASSA), Anatomie d'une guerre et d'une occupation. Evénements du Liban de 1975 à 1978, Paris 1978.

خلال الحرب تدعم فرقاء النزاع، ولكن بطريقة غير مباشرة فقط، من خلال دعمها وتأييدها لممثليها الاقليميين. فتدفعهم احيانا الى ضبط النفس، وتسعى في كل الاحوال الى تجنب حصول صدام مباشر، بين اسرائيل وسوريا.

تحولت اسرائيل الى احدى أهم اطراف النزاع في لبنان، منذ ان بدأت حركة المقاومة الفلسطينية بعملياتها الفدائية انطلاقاً منه. فمُنذ أكثر من عشرين سنة تقريباً، لم يمر اسبوع دون حصول اشتباكات او غارات عسكرية ضد أهداف على الاراضي اللبنانية بهدف دفع الدولة اللبنانية الى ضرب الفلسطينيين وسحق قواتهم العسكرية. ولكن النتيجة تحولت ودفعت بالفلسطينيين الى تثبيت طاقتهم العسكرية في لبنان. وكذلك منذ عام ١٩٧٦، دفعت بالسوريين الى تثبيت قواتهم العسكرية في لبنان أيضاً. فالى جانب العمليات العسكرية الاسرائيلية المباشرة، كانت تقدم اسرائيل الاسلحة وامكانيات التدريب الى اهم اعداء الفلسطينيين في لبنان، اي الى الميليشيات المسيحية. فقط حكومة الليكود برئاسة "بيغن" ذهبت بعيداً، بضغط من وزير الدفاع "ارئيل شارون"، الى ممارسة سياسة طموحة بالنسبة للبنان. فبعد التوقيع على اتفاق سلام مع مصر، اعتقدت الحكومة الاسرائيلية، في عام ١٩٨٢، بإمكانية القضاء على أصغر جبهة حرب لها مع بلد عربي، من خلال سحق منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان وفرض حكومة موالية لها فيه. ولكن عندما فشلت هذه السياسة واضطر شارون الى الاستقالة، عادت اسرائيل الى سياستها السابقة، اي الى الهاء العرب في لبنان بالخلافات الداخلية.

وسوريا بدورها تحولت الى أهم منافس اقليمي لاسرائيل سواء في الشرق الأوسط او في لبنان، وخاصة منذ ابتعاد مصر عن ساحة الصراع. وهكذا مثلاً اتسمت سياسة اسرائيل تجاه لبنان بطابع سياسة أشخاص، منذ عهد بيغن وشارون، كذلك اتسمت سياسة سوريا في لبنان الى حد كبير جداً بسياسة شخص واحد، ألا وهو حافظ الأسد. بدأ هذا الرجل عام ١٩٦٦ مشاركته في السلطة، ولكنه منذ عام ١٩٧٠

٤- حول سياسة اسرائيل تجاه لبنان، راجع: Itamar RABINOVITCH, The War for Lebanon, op.cit.; Ze'ev SCHIFF and Ehud YA'ARI, Israel's Lebanon War, London and Sydney 1984; John BULLOCH, Final Conflict. The War In the Lebanon, London 1983; Yair EVRON, War and Intervention in Lebanon. The Israel-Syrian deterrence dialogue, Baltimore 1987; Avner YANIV, Dilemmas of Security. Politics, Strategy and the Israeli experience in Lebanon, New York and Oxford 1987.

٥- راجع هنا: Nikolas VAN DAM, The Struggle for Power in Syria, op.cit.; Moshe MA'OZ and Avner YANIV (Eds), op. cit.; Adeed DAWISHA, Syria and the Lebanese crisis, London and Basingstoke 1980; Annie LAURENT et Antoine BASBOUS, Guerres secrètes au Liban, Paris 1987; Idem, Le Liban et son voisinage, Thèse, Paris 1986.

حتى اليوم يحتكرها وحده. فقد عاش عهود عدد من الرؤساء الاميركيين من نيكسون الى كلينتون، والامناء العاميين للحزب الشيوعي من بريجنيف الى غورباتشوف، والرؤساء المصريين من عبد الناصر الى مبارك، ورؤساء الحكومات الاسرائيلية من غولدا مائير الى شامير ورايين. هذا البقاء غير المألوف مدة طويلة من الزمن في الحكم في منطقة الشرق الاوسط - فقط الملك حسين حكم مدة أطول - ارتبط ايضا بطابع الاستقرار غير المألوف والمثابرة في متابعة اهداف السياسة الخارجية. حافظ أسد هو اول رئيس سوري، ينتمي الى أقلية منشقة عن الاسلام، اي الى طائفة العلويين. فهو لاء، كالدروز، اخذوا، منذ منتصف الخمسينات، يبحثون عن تفوق اجتماعي وسياسي، خاصة في مؤسستين، ألا وهما: الجيش وحزب البعث. فالجيش يوفر لأولاد المزارعين والطبقة الصغيرة في المقاطعات السورية فرصة جيّدة للتقدم الاجتماعي. وحزب البعث يجتذب أتباع الاقليات بفضل عقيدته العلمانية. في عام ١٩٦٣، وعلى اثر انقلاب سياسي، تسلم حزب البعث الحكم في سوريا. وفي عام ١٩٦٦، سيطر على الحكم الجناح العسكري، وبنوع خاص العلويون والدروز. وفي عام ١٩٧٠، فرض حافظ أسد نفسه ضد خصمه - العلوي ايضا - صلاح جديد. ففي اجهزة الحكم، يعتمد هذا الرجل، أي أسد، الى حد بعيد على افراد طائفته الذين يشكلون وحدات خاصة مسلحة ومدرّبة تدريباً متفوقاً ومميّزاً، بالاضافة الى اعتماده على وحدة من المدرّعات تربط باستمرار في دمشق، واجهزة الاستخبارات تتألف بمعظمها من العلويين. وقد عيّن في مختلف المراكز الحساسة اعضاء من أسرته. وهكذا لم يعد مستغرباً على الاطلاق، ان توجه له المعارضة تهمة إضفاء "الطابع العلوي" على النظام، وذلك لتعبئة الأكثرية السنية في سوريا ضده وضد الاقلية المنشقة عن الاسلام التي يمثلها. ولكن حافظ أسد قاوم دائماً هذا النوع من الاتهامات بسياسة يعقوبية. فلم يترك المجال لاحد اطلاقاً كي يزايد عليه في اطار العلمانية والقومية العربية. فهو لا يعمل لسياسة علوية اطلاقاً، بل لسياسة سوريا الكبرى العربية^٦. العقيدة البعثية الارثوذكسية تقول بوجود دول

٦- راجع بنوع خاص: Gudrun KRÄMER, Arabismus und Nationalstaatlichkeit: Syrien als nahöstliche Regionalmacht, Ebenhausen (Stiftung Wissenschaft und Politik) 1987. ذكر كريم بقرادوني أقوالاً مميّزة عن لسان حافظ أسد: تختلف سوريا عن كل الدول العربية الأخرى... نحن نجسد دعوة القومية العربية وكل ما هو عربي هو نحن. نحن نتميز بقومية عربية تكملية. لا يمكن تصوّر أية وحدة عربية دون سوريا، ولا أي حرب دونها كذلك. فلو كانت لنا حدود مشتركة مع مصر، لدخل اليها حتما جيشنا بعد زيارة السادات الى القدس... سوريا هي عقدة المشكلة ومفتاح الحل في الشرق الأوسط. راجع كريم بقرادوني، السلام المفقود - عهد الياس سركيس (١٩٧٦ - ١٩٨٢)، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤، ص ٧٨. وعن شخصية أسد يراجع: Patrick SEALE, Assad of Syria. The struggle for the Middle East. London 1988.

عربية مختلفة، ولكن بشعب عربي واحد فقط. فالسوريون واللبنانيون، وكذلك الفلسطينيون أيضاً، ينتمون بالنتيجة الى ذات الشعب. فأى مبدأ يشدد على أمن الدولة، بمعزل عن الفلسطينيين، سواء في سوريا، او في لبنان، هو مرفوض تماماً. اسرائيل هي العدو الرئيسي وهكذا تبدو سياسة حافظ أسد منذ عام ١٩٧٠ واقعية. فالمواجهات العسكرية التي لا يمكن كسب شيء منها، لا يعيرها اي اهتمام. بالاشتراك مع مصر، قام حافظ أسد عام ١٩٧٣ بحرب تشرين التي كشفت لأول مرة عن ان القوات العربية بلغت تقريباً مستوى متوازياً من الامكانيات. ومنذ ذلك الحين يشدد دائماً على ضرورة بلوغ العالم العربي توازناً عسكرياً مع اسرائيل قبل الوصول الى مفاوضات جدية حول فلسطين. والدليل على ذلك -عكس موقف جبهة الرفض والتصدي- يبرز في عدم رفضه المبدئي للحلول التي يجري التفاوض حولها. فقبل مثلاً باتفاق فصل القوات على جبهة الجولان، ولكنه بالتالي لا يأمل خيراً على الاطلاق من الخطى نحو السلام التي تترك المشكلة الفلسطينية دون حل، اي انه يرفض سياسة السادات. وهكذا جرى عزل سوريا عبر اتفاق سيناء الثاني، وبنوع خاص عبر اتفاق كامب دافيد. فقد ضعف وزنها كثيراً تجاه اسرائيل. واصبح الفلسطينيون في لبنان، ولبنان بالذات، اكثر اهمية بنظره. وكما أشير سابقاً، لقد عمل حافظ أسد كل ما بوسعه حتى عام ١٩٧٥، كي يحول لبنان الى ارض مجابهة مع اسرائيل، ولم يكن ذلك فقط عبر الحصار الاقتصادي الذي دام أشهراً عديدة عام ١٩٧٣، والذي بقي قائماً حتى بعد ان توصلت الحكومة اللبنانية الى اتفاق ملكارت مع الفلسطينيين. لقد كان على لبنان ان يقبل بهيمنة سوريا في "الجبهة الشرقية" ضد اسرائيل، وكذلك أيضاً بهيمنتها على الفلسطينيين، كما اضطر هؤلاء الى قبول هيمنة الحكم السوري عليهم داخل سوريا. على كل حال، لم يكن حافظ أسد مستعداً للمخاطرة بجره الى حرب مع اسرائيل يفعل نشاط الفلسطينيين غير الخاضعين لارادته، خاصة في وقت لم يكن يعتبره مناسباً أو ملائماً. وبالمقابل، كان الفلسطينيون^٧ الخاضعون لمشيئته يعبرون بوضوح تام، عن ان السلام غير ممكن دون سوريا، كما كانوا يشددون على ضرورة تعزيز ودعم الموقف السوري في المفاوضات. وبالاختصار، لم تعمل سوريا لتسهيل سيطرة الدولة اللبنانية على منظمة التحرير ولا لمساعدة منظمة التحرير في السيطرة على الدولة اللبنانية، بل عملت لفرض سيطرتها ونفوذها على الفريقين عبر "توازن الضعف" في لبنان. وسبباً لاحقاً كيف سعت سوريا منذ عام ١٩٧٥ الى تحقيق هذا الهدف بمثابة كبيرة وعناد شديد. فقد لعب حافظ أسد ذلك الدور الذي لعبه الكردينال ريشاليو في

٧- السيطرة السورية على الحركة الفلسطينية كانت في البداية مطلب منظمة الصاعقة ووحدات جيش التحرير الفلسطيني. ولكن الهدف من ذلك كان وضع يد سوريا على المنظمات الرئيسية، التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

حرب الثلاثين سنة، اي دور السياسي البارد، صاحب النفوذ السياسي، والإكثر نجاحاً حتى الآن. ولكن السؤال حول ما اذا كان النجاح النهائي سيحالفه دائماً، وما زال حتى الآن مطروحاً.

الى جانب سوريا، تدخلت كل من ليبيا، ومصر، والعراق، في النزاع في لبنان، ولكن بدور محدود. برزت ليبيا كالمساعد الرئيسي للمنظمات الفلسطينية المشاركة في جبهة الرفض، ولبعض الميليشيات اللبنانية أيضاً. وحاولت بالتالي التوسط في النزاعات بين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية. اما مصر السادات، التي استاءت من معارضة سوريا لسياسة السلام، فأيدت في النزاع اللبناني الاحزاب المعارضة لسياسة سوريا، الميليشيات المسيحية أولاً، ثم الفلسطينيين، وذلك كي تبتعد تماماً، بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد عن الساحة اللبنانية. ومن جهة أخرى كان نظام البعث العراقي في نزاع مريب منذ الستينات مع البعث السوري. فقيادة الحزب التي يضطهدها حزب البعث في سوريا، تقيم حتى اليوم في العراق. وحتى بداية الحرب الإيرانية-العراقية كان العراق يؤيد اعداء سوريا في لبنان. ومنذ اعلان وقف اطلاق النار في حرب الخليج عام ١٩٨٨، عادت هذه السياسة الى سابق عهدها.

اما المنظمات الفلسطينية^٨ وبرامجها المجتمعية والسياسية المختلفة، فقد كانت سبب اندلاع النزاع في لبنان، وبالتالي اهم عنصر في هذا النزاع.

حاولت اسرائيل سحقها. وقد سعت القوى السياسية اللبنانية، خاصة الاحزاب السياسية المسيحية، الى اضعافها عسكرياً ونزع سلاحها. كما سعت سوريا الى السيطرة عليها. اتسمت علاقاتها مع إسرائيل كما مع المجموعات اللبنانية القومية، بالعداء المفتوح. فاسرائيل كانت دائماً العدو الرئيسي، والقوميون اللبنانيون هم في افضل الحالات "انعزاليون"، يحاولون بصراعهم المشترك التوصل من العرب، كما يوصفون في اسوأ الحالات بالمتعاونين مع دولة العدو. اما علاقاتها مع سوريا فهي اكثر تعقيداً. من جهة كانت سوريا اهم حليف لها، وحاميها، والدولة التي تمددها بالسلاح والذخيرة. ومن جهة أخرى، شكلت سوريا اخطر تهديد لاستقلالية السياسة الفلسطينية. ففي مراحل مختلفة من الحرب وقف احيانا الفلسطينيون والسوريون معاً في خندق واحد، كما وقفوا احيانا أخرى ضد بعضهم. وفي النهاية حصل صراع مريب أدى الى معارك طاحنة بين الفلسطينيين انفسهم، نتيجة لخلافهم حول مسألة علاقاتهم مع سوريا. وكذلك العلاقات بين مختلف المنظمات الفلسطينية لم تكن بسيطة اطلاقاً. فمنظمة الصاعقة أيدت دون اي تحفظ السياسة السورية، وجبهة التحرير العربية أيدت السياسة العراقية. اما الجبهتان الشعبية والديمقراطية فكانتا

٨- في هذا الصدد، راجع: الوارد و. سعيد، المصدر المذكور.

تتمتعان بتأييدٍ لبيبي. فقد رفضتا دائماً، وبصورة قاطعة، المفاوضات حول قيام دولة فلسطينية على جزء من ارض فلسطين. ففي السنوات الاولى من الحرب شددتا اواصر التحالف الوثيق مع المنظمات اليسارية اللبنانية. اما هدفهما المعلن فكان الثورة في لبنان واقامة نظام تقدمي مناضل كخطوة اولى على طريق اعادة التغيير الجذري في العالم العربي بكامله. اما منظمة فتح، اقوى المنظمات الفلسطينية، فكانت بالفعل اكثر اعتدالا في اهدافها سواء بالنسبة لفلسطين كما بالنسبة للبنان. قبل اندلاع حرب لبنان، قامت بخطوة هامة هدفها المطالبة بدولة علمانية على كامل الاراضي الفلسطينية، كما قبلت باقامة دولة فلسطينية على جزء من اراضي فلسطين. وعندما اعلنت رفضها "لسياسة الخطى الصغيرة" وللاتفاقات الثنائية مع اسرائيل، لم تفعل ذلك لانها تعارض مبدئياً الحلول التي يمكن ان تؤدي اليها المفاوضات. كانت راضية تماماً عن المواقف والمكتسبات التي حققتها في لبنان في منتصف السبعينات والتي مكنتها من اظهار قوتها العسكرية على الحدود الاسرائيلية. وقد اعتقدت انها بذلك تستطيع، في اطار استقلالها التام عن الحكومة اللبنانية المستضعفة، دعم أنشطتها السياسية والدبلوماسية، التي بلغت ذروة النجاح عام ١٩٧٤ في مؤتمر القمة العربي، وفي خطاب عرفات الذي لقيه امام الجمعية العامة للامم المتحدة. ولكن هذا الكسب المبدئي والمعنوي، بقطع النظر عن مركز نفوذها في لبنان، لم يعطها اطلاقاً اية حصانة تجاه محاولة القيام بانقلاب في لبنان بهدف تشكيل حكومة لا تساندها شكلياً فحسب، بل تدعمها عملياً من خلال تشكيل حكومة ترتبط بها مباشرة. ففي السنوات الاولى من الحرب، تأرجحت حركة فتح، ومعها القيادة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، بين سياسة الدفاع عما احرزته من قوة ونفوذ، وبين الدعم الفعلي الذي يمكن الحصول عليه من خلال تغيير السلطة في لبنان.

انضوت مختلف المنظمات الفلسطينية، رغم تنوعها وتبايناتها، تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية^٩، التي تضم مجلساً شبيهاً بمجلس النواب، وهو المجلس القومي الفلسطيني، ولجنة تنفيذية مشتركة. وفي كليهما، تتمتع حركة فتح بالاكثارية التي سعت دائماً، وخلال سنوات عديدة، الى اتخاذ القرارات بشأن القضايا الهامة بالاعتماد على مبدأ التوافق بغية الحفاظ على وحدة الحركة الفلسطينية. ولكن لمبدأ التوافق في الدول القائمة، طابع محافظ، يفرض تقديم تنازلات للأقليات المتشددة. اما

٩- عن منظمة التحرير، راجع بنوع خاص: Rainer BÜREN, Ein palästinensischer Teilstaat? Zur internen, regionalen und internationalen Dimension der Palästinafrage, Baden-Baden 1982; Naveed AHMED, The Lebanese Crisis: The role of the PLO, In: Pakistan Horizon, 29(1976), p.31-46; Dunia NAHAS, L'évolution des organisations palestiniennes, in: Travaux et Jours, 52(1974), p.77-99.

بالنسبة لمنظمة التحرير، فقد اخذ هذا المبدأ طابعاً جذرياً، لان الاقليات المناضلة تستطيع أيضاً ان تعمل باستقلال خاص عن الاكثرية، كما تميل الاقليات المعتدلة الى القبول بالتنازلات التي ترفضها الاقليات المناضلة. وهذا ما كان معتمداً. وهناك تأثير مشابه برز في تحالف منظمة التحرير الفلسطينية مع منظمات اليسار اللبنانية. ففي مراحل حاسمة من الحرب اضطرت منظمة التحرير الى تأييد رغبات حلفائها بطريقة لا تتفق تماماً مع عملها لمصلحتها الذاتية.

ولكن السياسة الفلسطينية كانت تعتبر الى حد بعيد ايضاً سياسة مرتبطة بشخص واحد فقط. فمنذ عام ١٩٦٨ وحتى الآن، ورغم كل المآسي والهزائم التي حلت بالفلسطينيين، بقي ياسر عرفات الرجل الاقوى داخل المنظمة. يبدو من الصعب جداً بنظر الرأي العام الغربي فهم او ادراك قوة السحر التي يجسدها عرفات ويمارسها بدون شك على شعبه، سواء على الذين صمدوا وبقوا في فلسطين، او على الذين يعيشون في المنفى، على الفئة المثقفة، او على الطبقة العادية البسيطة. ويعود الفضل بذلك الى ترابط المزايا التي لا يمكن غالباً جمعها والحفاظ عليها. فعرفات ناضل منذ أكثر من نصف قرن دون ارتكاب اي خطأ في سبيل قضيته. فبينما لم يصحُ عبد الناصر اطلاقاً من هزيمة عام ١٩٦٧، كان ياسر عرفات دائماً يخرج ويعود بثقة وشجاعة الى الواجهة، رغم الضربات والمآسي الاليمة والمدمرة التي انزلت بالفلسطينيين. ففي علاقاته مع شعبه، يتصرف بكثير من العطف والحنان وبمشاركة جذابة، تبرزه كقائد جدير بالثقة والاحترام، حتى وان كانت مواقفه وسياسته صعبة الادراك من قبل انصاره. اما علاقته مع السياسيين فتتسم بالمرونة التي تتجاوز حدود الوقاحة. ولا يعتبر هذا الموقف غير مألوف في اطار الاوضاع السياسية القائمة في الشرق الأوسط. فعرفات يعانق الاصدقاء مثلما يعانق الأعداء. يُطمئن اليوم هذا وغداً ذلك، عندما يعتبر ذلك ضرورياً لخدمة قضيته. "السياسة في الشرق الأوسط هي مثل مشهد من الرمال المتحركة، فلا يعرف أحد اتجاهها. فالذي يريد البلوغ الى هدفه، يستطيع ان يسير في خط مستقيم او على طرق متعرجة. ولكن لا يسمح له بالمرور تحت كثيب من الرمال"^{١٠}. فعلى ملاحظة ابداء احد اعدائه، بانه أكبر كذاب في الشرق، أجاب عرفات: "ان أكون أكبر كذاب في المنطقة، هذا امر لا اعرفه. ولكن اذا كان من الضروري القضاء على بعض الناس في سبيل قضيتي، فلماذا لا أكذب لتحقيق ذلك؟". كل شيء يشير الى انه لولا المرونة التي يتحلى بها عرفات، لكانت منظمة التحرير الفلسطينية قد وقعت منذ زمن طويل في فخ صراعات الهيمنة العربية. ولكنها تمكنت من الصمود بفضل الاستعداد الذي تبديه اكثرية الفلسطينيين لتأييد ياسر عرفات واعطائه الثقة، رغم تحولاته السياسية التي

تبدو محيرة ايضاً. فزعامة السياسية لا نزاع عليها، وقيادة فتح متجانسة.

في منظمة التحرير يمثل جورج حبش وحده تياراً سياسياً معاكساً، ويستقطب حوله عدداً كبيراً من الأنصار. ولكن انتماء حبش دينياً الى طائفة الروم الارثوذكس الاقلية، لا تسمح له بإزاحة عرفات عن مركز الزعامة الفلسطينية، رغم ان الانتماء الطائفي لا يلعب دوراً كبيراً داخل منظمة التحرير. فتأثير هذه الظاهرة محدود جداً بالمقارنة مع النظام السياسي اللبناني. وكذلك زعماء الفصائل الفلسطينية الاخرى المرتبطة بأنظمة عربية معينة لا يشكلون اية منافسة تذكر لزعيم منظمة التحرير. وكل محاولة من هذا النوع لإبعاد عرفات عن هذه الزعامة، كانت تفشل وتنتهي في حمام من الدم بين الفصائل الفلسطينية.

ان تكاثر اعداد هذه الفصائل، وقواتها المسلحة ومصالحها المتباينة، أدى غالباً، ورغم الاكثريّة الواضحة التي تمثلها حركة فتح، الى عدم تمكن منظمة التحرير من اتخاذ قرار سياسي بالاجماع، او على الاقل في حالات عديدة، من تنسيق اعمالها العسكرية.

الاحزاب والمنظمات اللبنانية المتحالفة مع الفلسطينيين تجمعت وشكلت بزعامة كمال جنبلاط ما يسمى "بالحركة الوطنية" التي تألفت كما اشير سابقاً، من الاحزاب اليسارية اللبنانية، مثل الحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة جنبلاط، وحزب البعث المؤيد لسوريا، وحزب البعث المؤيد للعراق، والحزب الشيوعي اللبناني، ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان، والحزب القومي السوري الاجتماعي، وقد ضم هذا الاخير، منذ مدة طويلة، ميليشيا عسكرية مدربة ومنظمة شاركت منذ البداية في الحرب. اما الحزب التقدمي الاشتراكي فقد انشأ ميليشيا في جبل الشوف الدرزي. كانت تعمل في البداية على حماية القرى، الا انها، ابتداءً من عام ١٩٧٨، تحولت الى قوات ضاربة. وحزب البعث المؤيد لسوريا يرتبط مباشرة بمنظمة الصاعقة، وكذلك يرتبط حزب البعث المؤيد للعراق بجهة التحرير العربية. وقد تحالف الحزب الشيوعي مع الجبهة الديمقراطية، ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان مع الجبهة الشعبية بزعامة جورج حبش. من الناحية العسكرية، جرى دمج الاحزاب اللبنانية الاربعة مع المنظمات الفلسطينية. اضافة الى ذلك، ضمت الحركة الوطنية عدداً من المنظمات الصغيرة التي كانت قائمة على تقليد السياسة الناصرية، مثل المنظمة الشعبية الناصرية في صيدا بزعامة مصطفى سعد، نجل النائب معروف سعد الذي اغتيل عام ١٩٧٣، و"حركة ٢٤ تشرين" في طرابلس بزعامة فاروق المقدّم، احد منافسي رشيد كرامي محلياً. وكانت تقوم في بيروت أكثر من اربع منظمات

ناصرية^{١١}، أهمها حركة الناصريين المستقلين وميليشياتها المعروفة باسم "المرابطون"، التي لعبت دوراً في الحرب بزعامة إبراهيم قليلات الذي كان عام ١٩٥٨ أحد افراد الميليشيا التابعة لصائب سلام، ثم "استخدمه" المكتب الثاني في العهد الشهابي. ولكنه تحالف مع حركة فتح بعد عام ١٩٧٠ واصبح احد الزعماء الشعبيين لدى الستة. فقد مدّت حركة فتح المرابطون بالسلاح، وأمنت لهم التدريب والتمويل^{١٢}، وجعلتهم أهمّ قوة لبنانية حليفة وضاربة تابعة لها.

التحالفات التي كُشِف عنها بين المنظمات المنضوية تحت اسم الحركة الوطنية والفصائل الفلسطينية، أبرزت قوة الترابط بين فرقاء النزاع في لبنان والفلسطينيين^{١٣}. فالتمويل الضخم الذي كانت تؤمنه لهم منظمة التحرير، والسلاح الذي كانت تمدّهم به، دعم بقوة، خاصة بالنسبة للمرابطون، هذا الارتباط الوثيق، وبالأخص في المجال العسكري^{١٤}. كان هذا الوضع قائماً في المراحل الاولى من الحرب، ولكن تمكنت فيما بعد بعض الاحزاب والميليشيات من الحصول على دعم من بعض الدول العربية.

برزت الاهمية السياسية للحركة الوطنية في بداية الحرب بفعل تفوقها العسكري، وبفضل شخصية كمال جنبلاط بالذات^{١٥}، الذي نجح في انشاء تحالف بين فئات

١١- التنظيم الناصري / اتحاد قوى الشعب العامل (كمال شاتولا ونجاح واكيم)؛ الاتحاد العربي الاشتراكي (كمال يونس)؛ التنظيم الناصري - الحركة التصحيحية (عصام عرب)؛ الناصريون المستقلون (إبراهيم قليلات).

١٢- ما هو الدور الذي لعبه التمويل في انشاء الميليشيات؟ هذا ما يكشف عنه وجود حوالي ٤٠٪ من المقاتلين الشيعة في تنظيم "المرابطون" ذي التوجيه السياسي "السني"، وذلك لأن أجور ومرتبّات الميليشيات كانت تجتذب الشيعة أكثر من السنة.

١٣- Selim Accaoui & Magida Salman, Comprendre le Liban, Paris 1976
جاء في هذا الكتاب من وجهة نظر اليسار: "... تلعب المقاومة الفلسطينية دوراً عسكرياً متفوقاً... لا يمكن اتخاذ أي قرار عسكري هام دون موافقة مختلف المنظمات الفلسطينية عليه" (ص ٣٩) "... ترتبط المنظمات اللبنانية واقعيًا بالمقاومة الفلسطينية" (ص ٤٦).

١٤- "سياسة عدم التدخل التي اتبعتها حركة فتح، قادت الى تدعيم منظمة لبنانية غير عسكرية ولكنها موجهة مباشرة من قبل الفلسطينيين. انها منظمة "المرابطون" التي شاركت في معارك المناطق "الساخنة" من بيروت. وفي المعارك الحاسمة كان مقاتلو حركة فتح ينضمون الى صفوف المرابطون ويحاربون تحت غطاء سياسي لبناني، وذلك للحفاظ على "الطابع" اللبناني الخاص للنزاع. ذات المرجع ص ٥٢.

١٥- راجع سيرة حياته : Philippe LAPOUSTERLE, Kamal JOUMBLATT, Pour le Liban, Paris 1978.
وقد وصفه ايضا بالتفصيل كريم بقرادوني في مؤلفه المذكور، ص ١٥ وما يليها. عن الحركة الوطنية، راجع: Aziz AL-AZMEH, The Progressive Forces, in: Roger OWEN (Ed.), op.cit., p. 59-72.
Merip Report No.61: "The Lebanese National Movement" يضمّ هذا التقرير مقابلات مع فؤاز طرابلسي (من منظمة العمل الشيوعي في لبنان)، وعبدالله سيدي (من الحزب القومي السوري الاجتماعي)، بالإضافة الى برنامج جبهة الوطنيين المسيحيين.

متنافرة. فجمع اليسار المتمثل بالحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان، كما جمع اليسار القومي المتمثل بالبعث، والناصرين ذوي المفاهيم الغامضة، والفاشييين من انصار الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي تحول الى اليسار. وقد شكل من كل هؤلاء فريقاً قوياً رمى بكل ثقله في بداية الحرب الأهلية. فجنبلاط كان الشخصية الأكثر تعقيداً في لبنان. فدوره الوراثةي كزعيم لأكثر عشيرة درزية، آمن له تأييداً غير مشروط من قبل طائفة صغيرة ولكنها متضامنة كثيراً. وفي الوقت ذاته، كان نظام الميثاق الوطني يسد الطريق على زعيم الدروز الى مناصب الدولة العليا، التي كان يطمح اليها^{١٦}. لقد تأثر هذا الرجل بتيارات فكرية مختلفة. فتربيته المسيحية جعلته خلال مدة طويلة من الزمن يميل الى الدين المسيحي. وقراءاته الواسعة جعلته أكثر اطلاعاً ومعرفة بالمفاهيم البريطانية والفرنسية حول اشتراكية الديمقراطية، وأعجابه بعبد الناصر جعله يتحول - ولكن باعتدال - الى القومية العربية، واكتشافه للروحانية الهندية دفعته الى الممارسات التأملية. برز جنبلاط في عهد فؤاد شهاب كرجل اصلاح ملتزم، الا انه اعتبر لاحقاً الحركة الاصلاحية الشهابية غير كافية، وطالب بالثورة، ولكن برنامج الحركة الوطنية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي بقي من حيث المضمون مليئاً بالتناقضات. فقد اكتفى فقط بطرح بعض الآراء الممهدة لقيام دولة اشتراكية. فصاحب الاملاك الكبيرة والصناعي كان يقود الاضرابات والمظاهرات العمالية. وحامل جائزة لينين كان يترك الفلاحين يأتون لتقبيل يديه. والاشتراكي الارستقراطي كان يتحدث باحتقار عن البورجوازية. فعبر كل التناقضات التي كان يجسدها ويفضلها، نجح جنبلاط في تكوين حركة سياسية لم تكن تطمح الى احداث تغييرات في توزيع السلطة اللبنانية، بل الى قيام جمهورية علمانية لا علاقة لها بالطوائف الدينية. ولم يكن هناك اي شك على الاطلاق بطموحه الى رئاسة هذه الجمهورية. لذلك بدا له التحالف مع الفلسطينيين وقواتهم المسلحة، فرصة تاريخية فريدة من نوعها. لم يحاول الاستفادة منها فحسب، بل عمل كل ما بوسعه ايضا كي يدير دفتها ويوجهها كما يشاء.

ولكن كمال جنبلاط قُتل عام ١٩٧٧. فخلفه ابنه وليد، لا كزعيم للدروز فحسب، بل ايضا كرئيس للحزب التقدمي الاشتراكي والحركة الوطنية. وهذا الامر لا يعبر كثيراً عن علاقة الأب بالابن، بل الكثير الكثير عن الضعف الشخصي والسياسي "لليسار" اللبناني، الذي لم يستطع التخلي عن أفراد أسرة جنبلاط. فالابن الذي لم يبرز في البداية كرجل سياسي، كما لم يمارس سابقاً اية مهنة، تحول سريعاً الى زعيم سياسي نافذ وقوي. وليد ليس مثيل ابيه ذلك الرجل الكئيب، المليئ برسائلته الشخصية، بل هو ذلك الزعيم الذي يحل الامور بهدوء وبساطة، ميال الى السخرية

١٦- وزير للداخلية، وقّع بصفته "حاكم لبنان الإداري"، وهي تسمية لوظيفة من اختراعه الحر.

والتهكم الذاتي، ولكنه أيضاً مدرك لقوة زعامته السياسية على طائفته وحزبه وميليشياته التي أصبحت فيما بعد أقوى مما كانت عليه في بداية الحرب، وكذلك على ما تبقى من الحركة الوطنية.

قبل اندلاع الحرب، كانت تنتمي "حركة المحرومين" الشيعية وميليشيا "أمل" ١٧ إلى الحركة الوطنية. ولكن ما إن نشبت الحرب حتى قرّرت قيادتها اتخاذ موقف محايد. إلا أنها، في مراحل متأخرة من الحرب، تحولت عسكرياً وسياسياً إلى فريق رئيسي في النزاع. ومنذ أواخر عام ١٩٧٩، أصبحت أهم منظمة للطائفة الشيعية. أسسها عام ١٩٧٠ الإمام موسى الصدر^{١٨} الذي كان رجل دين من أصل لبناني ولكنه ولد وترعرع وتلقى علومه في إيران، قبل أن يأتي إلى لبنان عام ١٩٦٠ حيث بدأ بتنظيم الطائفة الشيعية دينياً واجتماعياً وسياسياً^{١٩}. توصل عام ١٩٦٧ ولأول مرة إلى إنشاء مؤسسة قيادية دينية مركزية لطائفته، عُرفت بالمجلس الشيعي الأعلى. وفي عام ١٩٦٩ انتخب رئيساً لهذا المجلس. وقد أسس بالإشتراك مع المطران غريغوار حدّاد، أحد أساقفة طائفة الروم الكاثوليك، "الحركة الاجتماعية"، كمنظمة للمساعدة الذاتية تعمل بين السكان المزارعين في الجنوب اللبناني. وفي نهاية الستينات بدأ يشجّع ويدعم المرشحين الشيعة للانتخابات البرلمانية، المنفتحين على تنمية العمل السياسي والاجتماعي ضد الزعماء التقليديين وكبار الملاكين. ولكنه في الوقت نفسه، سعى إلى التصديّ ضد تحول السكان الشيعة وانضمامهم إلى الأحزاب اليسارية^{٢٠}، وفي سبيل تدعيم وتعزيز طائفته بذل جهوداً واسعة لاقامة علاقات دولية، خاصة مع إيران مسقط رأسه، ولكن أيضاً مع القيادة العلوية في سوريا^{٢١}. في مجال السياسة اللبنانية، اتخذ موسى الصدر موقفاً واضحاً مؤيداً للإصلاح،

١٧- Augustus Richard NORTON, op. cit.; Jean AUCAGNE, L'imam Moussa Sadr et la communauté chiite, in: Travaux et Jours, 53(1974), p. 31-51.

١٨- Fouad AJAMI, The Vanished Imam, op. cit.; Werner ENDE, Imam Musa es-SADR, in: Orient, 14(1973)3, p. 103.

١٩- لقد حصل في هذا المجال على تأييد البيروقراطية الشهابية التي كانت تأمل بدعم الحركات الاجتماعية الجديدة لتنمية مناطق الاطراف.

٢٠- تتوزع الجماهير العاملة المتنقلة بين احزاب اليسار والمقاومة من جهة، وحركة المحرومين من جهة أخرى... لقد قوّضت حركة الإمام الصدر تطوّر الأحزاب اليسارية في الوقت الذي كانت تفكر بالاستفادة من وجود الثورة الفلسطينية ومن تراكم المشاكل الاجتماعية لتدعيم مواقفها". راجع: Fadia KIWAN, Stratification sociale et identification politique à Bourg el-Barajneh, in: L'Afrique et l'Asie Modernes, 115(1977)4, p.26.

٢١- في المجلس الشيعي الأعلى أعلن الإمام موسى الصدر عن اقتناع علمي ثابت بأن العلويين هم مسلمون شيعة مستقيموا الإيمان. وبذلك دعم موقف الرئيس حافظ الأسد، لأنه حسب الدستور السوري ينبغي أن يكون الرئيس مسلماً، بينما يرفض الزعماء السنة غالباً القول بأن العلويين هم فعلاً مسلمين. راجع: Wade R. GORIA, op. cit., p. 204.

فطالب لطائفته بحصة تناسب حجمها في السلطة، كما في توزيع الدخل الوطني. وكما أشير سابقاً، تركزت المطالب الشيوعية بالدرجة الأولى على الأهداف الاقتصادية والاجتماعية.

كان موسى الصدر شخصية فذة للغاية، يتمتع بهبة لذهنية وبطاقة سحرية جذابة. عرف فيه الشيعة اللبنانيون، لأول مرة، زعيماً جديراً بالاحترام والتقدير. لذلك جاءت الصدمة كبيرة جداً عندما فقد، دون أن يترك أي أثر له، خلال زيارة قام بها الى ليبيا في ايلول عام ١٩٧٨. ان ما حصل له، لم يستطع احد بعد تفسيره بطريقة مقنعة. ومنذ ذلك الحين، تحول هذا الامام، داخل الطائفة الشيعية، الى اسطورة دينية وسياسية دمجت مع التعاليم الشيوعية التقليدية المرتبطة "بالامام المغيب".

خلف الإمام موسى الصدر ثلاثة أشخاص، الأول، في المجال الديني، وهو الشيخ محمد شمس الدين، نائب رئيس المجلس الشيعي الاعلى - علماً بأنه تقرر عدم انتخاب أي رئيس لهذا المجلس، طالما لم يوضّح بعد مصير الإمام الصدر. والآخران هما حسين الحسيني، وهو سليل عائلة قديمة من الطبقة السياسية المتوسطة، والثاني هو نبيه برّي. في البداية اسندت الى الاول زعامة حركة أمل. وقد انتخب رئيساً لمجلس النواب عام ١٩٨٦. اما الثاني، أي نبيه برّي، فقد تسلم رئاسة حركة أمل عام ١٩٨٠، وأصبح فيما بعد احد السياسيين اللبنانيين الأكثر نفوذاً. يمثل برّي الطبقة الشيعية الجديدة المتوسطة. ولد من أب مهاجر في سيراليون. درس الحقوق. وجمع ثروة لا بأس بها في افريقيا الغربية والولايات المتحدة، قبل أن يعود الى لبنان ليصبح أقرب المتعاونين مع الإمام موسى الصدر. ففي عهد الحسيني وبرّي تحولت حركة أمل الى اكبر وأوسع منظمة شيعية شعبية، دخلت في النزاع المسلح عام ١٩٧٩، أي بعد مرور أربع سنوات على اندلاع الحرب، ولكن ضد الفلسطينيين. وشاركت في السنوات اللاحقة في عدة معارك ومجابهات أخرى، ثم دخلت في صميم المجابهات الداخلية على الأراضي اللبنانية، بحكم تشديدها على المطالب التي كانت تنادي بها الحركة الوطنية في بداية الحرب، أي اعادة النظر تماماً في النظام اللبناني وتطبيق نظام ديمقراطية الأكثرية.

اما اعداء الوجود المسلح للمنظمات الفلسطينية وكذلك معارضو تغيير نظام الحكم والسلطة في البلاد، فكانوا منذ اندلاع الحرب، وبالدرجة الأولى، الاحزاب والتجمعات المسيحية المناضلة، وقد عُرف تحالفهم، منذ عام ١٩٧٦، بالـ **الجبهة اللبنانية**^{٢٣}، التي ضمّت حزبي الكتائب والوطنيين الأحرار. وقد تحالف معها في

٢٢- عن نبيه برّي، راجع: Detlev KHALED, Nabih Berri, in: Orient 26(1985), p.141-146.

٢٣- هذا التحالف سمّي في البداية "جبهة الكفور"، تيمناً باسم المكان الذي لجأ اليه رئيس الجمهورية، ثم باسم "جبهة الحرية والناس"، وأخيراً "الجبهة اللبنانية". والتسمية الأخيرة هي التي تستخدم هنا فقط.

سنوات الحرب الأولى تنظيم المردة، وهو ميليشيا تابعة لرئيس الجمهورية الأسبق، سليمان فرنجي، في منطقة شمال لبنان المسيحية الجبلية، وتنظيمان آخران صغيران هما "حركة التنظيم"، و"حرّاس الأرز".

مثل حزب الكتائب، كما أشير سابقاً، وفي الازمة الهادئة، جزءاً صغيراً من المسيحيين اللبنانيين فقط، رغم انه كان في الستينات الحزب الأفضل تنظيمياً والأكثر عدداً. في السياسة البرلمانية كان هذا الحزب يعمل لصالح الأكثرية الكبيرة من المسيحيين، خاصة الذين لا علاقة لهم بالزعماء التقليديين غير المرتبطين بالأحزاب. ولكن في الأزمنة العصية أخذ حزب الكتائب أهمية بارزة، خاصة في الحرب الأهلية عام ١٩٥٨. ان عدداً كبيراً من المواطنين المسيحيين، الذين في الظروف العادية لا يتعاطفون كثيراً لا مع النظام الحزبي الصارم، ولا مع شعبية حزب الكتائب، يندفعون دائماً نحو هذا الحزب، عندما يشعرون بالخطر الذي يهدد لبنان عامة والطوائف المسيحية خاصة. تبرز هذه الثقة في زمن الازمات، لان هذا الحزب ضمّ منذ تأسيسه منظمة شبه عسكرية. وكان يعتقد الكثيرون بإمكانية الاعتماد عليها، خاصة عندما تعجز اجهزة الدولة عن الدفاع عنهم وحمايتهم.

فبعد المجابهتين بين الجيش والمنظمات الفلسطينية عام ١٩٦٩ و١٩٧٣، بدأت أيضاً قوة سياسية أخرى من اللبنانيين المسيحيين بممارسة أنشطة عسكرية. فقد انشأ حزب الوطنيين الأحرار ميليشيا النمرور. وفي منطقة زغرتا، وهي عرين اسرة آل فرنجي، لم يكن لهذين الحزبين الكبيرين اي وجود بارز. فنأسست هناك حركة المردة كنوع من التنظيم المحلي للدفاع الذاتي. وكذلك أسس عام ١٩٧٣ عدد من المتقنين المسيحيين الذين شككوا بالنوعية العسكرية لميليشيات الاحزاب، حركة "التنظيم"، وهي كناية عن تجمع لا يشكل قوة مقاتلة منفصلة، بل منظمة لتدريب الفدائيين بمساعدة العسكريين المؤيدين لها، الامر الذي سمح لها بتأمين التدريب العسكري الأساسي لمئات الشباب، اضافة الى ذلك، نشأت أيضاً حركة "حرّاس الأرز"^{٢٤}، كتجمع هامشي، هدفه "تحرير لبنان من الأجانب"، متخذاً طابع الشعارات البلاغية الراديكالية.

اما القيادة السياسية للجبهة اللبنانية فكانت بدرجة أولى في يد زعمي حزب الكتائب والوطنيين الأحرار، اي بيار الجميل وكميل شمعون. وقد انضم الى مجلس الجبهة أيضاً ثلاثة "عقال"، وهم: المؤرخ جواد بولس، والمستشرق (اي الاختصاصي بالحضارة العربية والاسلامية) فؤاد افرام البستاني، الذي كان رئيساً للجامعة اللبنانية سابقاً، والفيلسوف شارل مالك، الذي كان وزيراً للخارجية في عهد

٢٤- زعيم حرّاس الأرز هو الرائد السابق لتيان صقر، المعروف بأبو أرز. أما "الرئيس الايديولوجي" المرشد لهذه المجموعة فقد كان لفترة من الزمن الشاعر سعيد عقل.

رئاسة كميل شمعون. ومن الأعضاء الآخرين في هذه الجبهة، رئيس عام الرهبانية اللبنانية المارونية، الأبّاتي شربل قسيس، ثم الأبّاتي بولس نعمان، الذي خلفه^{٢٥}. لم يكن تأثير المثقفين ورجال الدين على أعضاء الجبهة اللبنانية ضعيفاً، كما سنرى ذلك لاحقاً، خاصة في صياغة مواقفه الأساسية.

تميّز زعيما الجبهة اللبنانية بالتناقض في شخصيتهما. كان بيار الجميل دائماً نموذج الشخصية المثالية المعارضة "للاعبي البوكر" السياسيين الماهرين والمرنين في السياسة اللبنانية التقليدية. كان ذا جرأة واضحة، مستقيم الرأي حتى التصلب، متعال تماماً عن الرشوة والفساد. جسّد القومية اللبنانية الصامتة التي لا تقبل أية مساومة. فلا قيمة للمصلحة اطلاقاً بنظره عندما يتعلق الأمر بالمبادئ. لقد خاصم كل من حاول اعادة النظر في الاستقلال اللبناني، من الفرنسيين في عهد الانتداب، الى القوميين انصار سوريا الكبرى، او انصار الأنشولوس، اي دعاة الانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة، الى المنظمات الفلسطينية والمتحالفين معها. ومن جهة ثانية ارتبط بعاطفة قوية ومتينة بالميثاق الوطني، كما كان دائم الاستعداد للمحافظة على التوازن مع لبنان المسلم بهدف سلامة الدولة وسيادتها.

اما كميل شمعون^{٢٦} فقد كان، رغم تقدمه في السن، بارعاً وانيقاً، رجل الصالونات وسيد التركيبات السياسية، وغير بعيد عن الصفقات التجارية الناجحة، مرناً الى درجة عالية، ومغامراً حتى التهور والمجازفة. فعندما كان رئيساً للجمهورية أثار ضده قسماً كبيراً من الزعماء السياسيين، وبنوع خاص عداوة رفيقه السياسي كمال جنبلاط. وعندما كان سفيراً في الامم المتحدة دافع كمحام ببراعة عن القضية الفلسطينية. ولكنه أثار لاحقاً، ودون اي سبب، خصومة عبد الناصر. لم يهتم اطلاقاً لزيادة او لقلة عدد خصومه. لم يكن حذراً مثل بيار الجميل في الافادة من المساعدة الاسرائيلية، بل كان أكثر ميلاً بعد اندلاع الحرب، لاستقلال فكرة تقسيم لبنان كتهديد سياسي. فمع التصلب الذي كان يتسم به بيار الجميل والمرونة التي كان يتحلّى بها كميل شمعون، كان الأول اقرب الى "الحمايم"، والثاني اقرب الى "الصقور"، عندما يتعلق بالقرارات الحاسمة.

٢٥- السلطة الكنسية المارونية برئاسة البطريرك خريش اتخذت خلال الحرب موقفاً سياسياً متحفظاً للغاية، وذلك كي تتجنب اعطاء النزاعات طابع الحرب الدينية. أما الرهبانية المارونية الأكثر نفوذاً فكان لها موقف آخر. فقد رأت في الحرب تهديداً لوجود المسيحيين في لبنان، واعتبرت نفسها ملتزمة سياسياً واجتماعياً. ولكن في منتصف الثمانينات تخلت الرهبانية عن العمل السياسي بضغط من الفاتيكان.

٢٦- نشر كميل شمعون خلال سنتي الحرب الأولى كتابين من مذكراته: Camille CHAMOUN, Crise au Liban & Mémoires et Souvenirs, Beyrouth 1979.

علّق كريم بقرائوني بطريقة ذات مغزى بليغ عن شخصية كل من بيار الجميل وكميل شمعون في مؤلفه المذكور، ص ٩٨ وما يليها.

التقى الاثنان مع تصلب وعناد سليمان فرنجية الرجل الثالث في ثالوث كبار زعماء مسيحي لبنان. كان فرنجيه أكثر من أي سياسي مسيحي، يتمسك وحتى اللحظة الأخيرة من حياته بحق الموارد بمنصب رئاسة الجمهورية وبصلاحيات هذا المنصب. كان يختلف عن الجميل وشمعون، من حيث ثقته بالرئيس حافظ الأسد القائمة منذ زمن طويل على صداقة شخصية. كما كان يرفض رفضاً قاطعاً كل تعاون مع إسرائيل. إلا أن هذه التباينات أدت خلال السنة الثانية بعد اندلاع الحرب الى تباعد بينه وبين الجبهة اللبنانية. أما التمزق والانقسامات المريرة في داخل الصف المسيحي، فقد حصل عندما بدأت ميليشيا الكتائب تعمل على توحيد كل الميليشيات المسيحية تحت رايتها، الأمر الذي أدى الى نزاعات دموية داخل صفوف المسيحيين أسفرت عن انشاء الميليشيا الموحدة والتي عرفت باسم "القوات اللبنانية" ٢٧، واعتماد سياسة مستقلة أقوى بإشراف القيادة السياسية للجبهة اللبنانية. دفع كل ذلك في النهاية الى سيطرة القوات اللبنانية سياسياً على المعقل المسيحي في لبنان.

نفذ هذه العملية بشير الجميل الابن الأصغر لبيار الجميل. في سن الثالثة والعشرين قاد بشير بعض وحدات ميليشيا الكتائب في أول اصطدامات حصلت مع الفدائيين الفلسطينيين عام ١٩٧٠. وفي عام ١٩٧٦ تسلم قيادة هذه الميليشيا بعد مصرع قائدها. أما شقيقه الأكبر أمين فقد انتخب نائباً، وبرز كرجل سياسي منفتح ومحب للحوار والتسويات، مكتسباً بذلك صورة زعيم عسكري. في هذا الوقت كان بشير منغمساً في الجانب المرير الذي يهدد مصير لبنان. كان سياسياً يمثل جيلاً جديداً من الزعماء العسكريين. "في الوقت الذي يدرك فيه اللبنانيون بأن ٢+٢ تعطي ٤، وليس شيئاً آخر، عندئذ نستطيع بناء بلد جديد" ٢٨. في الواقع، وفي إطار ثقافة التسويات السياسية التقليدية في لبنان، لم تكن ٢+٢ تعطي ٤ إلا نادراً، بل أكثر أو أقل - لأن كل شيء كان قابلاً للمساومات والمتاجرة. ولكن بشير الجميل كان يلقي مسؤولية كل المشاكل على نظام التسويات والنسبة تماماً مثلما كان يقول خصومه في الأحزاب اليسارية. فكلمة الميثاق الوطني أصبحت بالنسبة له كلمة اهانة وتجديف. كان، مثل كمال جنبلاط، يؤمن بقومية يعقوبية خالصة، ولكن مع تصورات ومفاهيم مختلفة بالنسبة لمن تكون له الكلمة الفاصلة في لبنان اليعقوبي. لقد تحول بشير الى معبود الجيل الجديد من المسيحيين الذين لم يتسن لهم التعرف على صيغة التعايش القديمة ولا الوقت الكافي للتأمل بقيمتها.

٢٧- راجع: Lewis S. SNIDER, The Lebanese Forces: Wartime origins and political significance, in: Edward E. AZAR a.al.(Eds), op. cit., p. 117-161

٢٨- من مقابلة مع المؤلف عام ١٩٨٠، وقد ذكر كريم بقرادوني في مؤلفه المذكور، ص ٢٥٤ قول شمعون: "بشير رجل مستقيم ومؤمن مثل أبيه، ولكنه لا يأخذ الإنجيل بحرفيته".

اما النزعة اليعقوبية لدى كمال جنبلاط فكانت حاسمة في تحويلها الى حرب اهلية. ولكن الحرب افرزت ايضا يعقوبيين جددًا، من بشير الجميل الى نبيه بري. اما فرقاء النزاع اللبنانيين الآخرين، فلم يتغيروا. ولكن زعماءهم اصبحوا اكثر تصلبًا وأقل استعدادًا للتسويات مما كانوا عليه في بداية الحرب.

اما بالنسبة لأكثرية السياسيين اللبنانيين المنتخبين، فلا يمكن توزيعهم ولا تصنيفهم مع فرقاء النزاع الذين أشير اليهم حتى الآن. فمعظم الزعماء الموارنة والسنة والشيعية، وبصورة أكثر، الزعماء الارثوذكس والكاثوليك، ابدوا قليلا أو كثيرا من التعاطف والتفهم مع مختلف اطراف النزاع، لربما بهدف الإفادة من نتائج الحرب. ولكنهم لم يقبلوا بواقع الحرب اطلاقًا، اقتناعًا منهم باستحالة انتصار هذا الفريق أو ذاك، وبتفاهة التضحيات وبطلان قيمتها. لقد حاولوا، بعد كل وقف لإطلاق النار، استعادة نشاطهم لايجاد الحلول والتسويات. حاول مثلا كل من رشيد كرامي وصائب سلام وريمون اده دائما، العمل والسعي لتجنب اندلاع معارك جديدة، والعودة مجددا الى صيغة التعايش. هذا وقد لاقى عدد من النواب المنتخبين عام ١٩٧٢ حتفهم، كما قتل رشيد كرامي، وهاجر صائب سلام الى جنيف، وريمون اده الى باريس، "ولم تعد للمواطن اية قيمة، بسبب وجود المقاتلين" ٢٩ في لبنان، منذ عام ١٩٧٥.

٣ - حرب على جبهات عديدة

عند اندلاع الحرب كان انصار اطراف النزاع وفصائلهم المسلحة موزعين بطريقة معقدة في كل البلاد. كان الفلسطينيون يعيشون في الشمال والشرق والجنوب، كما كانوا في بيروت. اما الطرفان الرئيسيان الاخران، اي الحركة الوطنية والجبهة اللبنانية، فكانت مراكز انصارهم في المناطق المسلمة والمسيحية: المسيحيون في المناطق الجبلية الشمالية وفي وسط لبنان، والمسلمون في المناطق التي ضمت الى لبنان الصغير عام ١٩٢٠. وفي كل اجزاء لبنان، كانت توجد "مجموعات سكانية دخيلة" ٣٠، تعطي طابعا فسيفسائيا قويا لتوزيع الطوائف الجغرافي. ففي الاحياء الشرقية للطريق التي تبدأ في وسط بيروت وتتجه نحو دمشق، كانت تعيش اكثرية مسيحية. وفي الاحياء الواقعة في غرب تلك الطريق اكثرية مسلمة. ولكن لم يضم اي جزء من المدينة مجموعة سكانية متجانسة. الا ان التوزيع الجغرافي للفلسطينيين والطوائف اللبنانية على ارض لبنان، فرض الى حد

٢٩- Friedrich SCHILLER, Wallenstein. Ein dramatisches Gedicht. Prolog, Stuttgart und Tübingen

1834, p. 325.

٣٠- Pierre RONDOT, Les institutions politiques du Liban, op. cit., p.27.

بعيد تحديد جبهات الحرب العديدة التي نشأت بحكم "الحدود" العديدة القائمة بين المناطق المأهولة بمجموعات سكانية مختلفة.

فوجود "جزر سكانية دخيلة" فرض معطيات معينة على نتائج المعارك. استخدم اطراف النزاع غالباً سكان هذه "الجزر" بصورة جماعية كرهائن بهدف ممارسة ضغط على الفريق الآخر، او هجروهم من منازلهم في سبيل توطيد مناطق نفوذهم واعطائها طابعاً ديمغرافياً متجانساً. في سبيل فهم مسار الحرب والاشكال المعينة للنزاع، لا بد من القاء نظرة على التوزيع الفسيفسائي للسكان الفلسطينيين واللبنانيين.

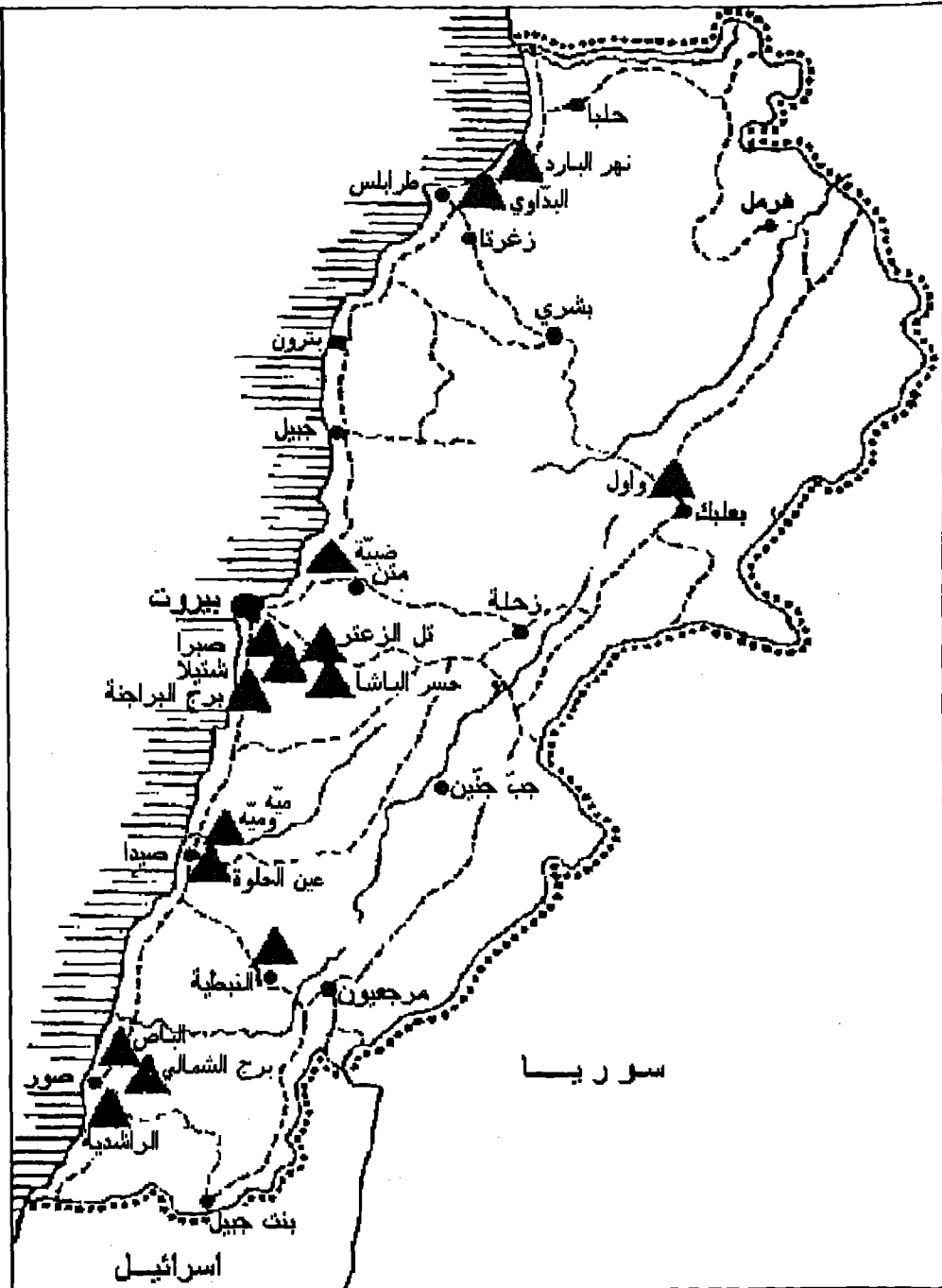
عام ١٩٤٨ اقيمت مخيمات للاجئين الفلسطينيين في ضواحي المدن. اما عدد الفلسطينيين القاطنين خارج هذه المخيمات، اي في الاحياء السكنية اللبنانية، فقدر بحوالي ٣٠٪، وكان يقيم نصفهم في بيروت^{٣١}. الا ان المخيمات التي اعتبرت وفقاً لاتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ ذات حصانة خاصة بالفلسطينيين، تحولت الى قواعد رئيسية للمنظمات الفلسطينية^{٣٢}. لقد انشئ مخيمان كبيران شمال طرابلس بالقرب من الطريق العام المؤدية الى سوريا، مخيم نهر البارد حيث كان يعيش حوالي ١٣٠٠٠ نسمة هربوا من شمال فلسطين، ورفضت سوريا استقبالهم، ومخيم البذاوي المجاور له حيث كان يعيش حوالي سبعة آلاف نسمة. في هذين المخيمين كانت تقوم قواعد عسكرية للجبهتين الشعبية والديمقراطية، وحركة فتح. وبالقرب من بعلبك، شمال البقاع، يقع مخيم واول، وفيه كان يعيش حوالي اربعة آلاف نسمة تقريباً، تشرف على تدريب عناصره الجبهة الشعبية. وفي الجنوب يحيط بمدينة النبطية عدد وافر من المخيمات السكنية الصغيرة، التي كانت غالباً عرضة للغارات الاسرائيلية، نظراً لقرب موقعها، على بعد ١٤ كلم، من الحدود مع اسرائيل. وفي ضواحي مدينة صور الجنوبية، البعيدة مسافة عشرين كلم عن الحدود تقع ثلاثة مخيمات: الراشدية ويضم حوالي ١٣٠٠٠ نسمة، وبرج الشمالي ويضم تسعة آلاف نسمة، وبرج البص ويضم ٤٥٠٠ نسمة، ومعظمهم من شمال فلسطين^{٣٣}. اما مخيم الراشدية فكان يعتبر بنوع خاص المعقل الرئيسي للمنظمات الفدائية. ولكن أكبر مخيمات الفلسطينيين كان في بداية الحرب مخيم عين الحلوة، الواقع جنوب شرق مدينة صيدا، والذي يضم حوالي ٢٥٠٠٠ نسمة، وكذلك مخيم المية ومية الذي يضم حوالي الفين نسمة. يضاف الى ذلك حوالي عشرين الف نسمة من الفلسطينيين

٣١- راجع تقديرات John K. COOLEY، المرجع المذكور، ص ٢٤، وكذلك Selim NASR, Les formes de regroupement traditionnel dans la société de Beyrouth, op. cit., p. 148f.

٣٢- حول ما يلي راجع John K. COOLEY، المرجع المذكور، ص ٢٥ وما يتبعها. الإحصاءات المذكورة هي نفسها المسجلة رسمياً في منظمة الاونروا. ولكن مع تنفق اللاجئين في السبعينات، ارتفع عدد الفلسطينيين كثيراً.

٣٣- جاء سكان مخيم البص الاصليون من حيفا وعكا، و كان معظمهم من المسيحيين.

المخيمات الفلسطينية في لبنان عام ١٩٧٥



يسكنون في مدينة صيدا نفسها. وهكذا كانت تشكل منطقة صيدا اهمّ معقل للفلسطينيين خارج بيروت^{٣٤}.

اما المخيمات في ضواحي بيروت، فقد انشئت مع قيام حدود الضواحي الجديدة. فنمت وتداخلت مع بعضها، في جنوب المدينة. على طول الطريق المؤدي الى مطار بيروت الدولي، يقع مخيم برج البراجنة، الذي كان يضم عام ١٩٧٥ حوالي عشرين ألف نسمة، وفي جنوب غرب بيروت يقع مخيم شاتيلا المتصل بحي صبرا، وكان يضم حوالي خمسة عشر ألف نسمة. كان مخيم شاتيلا المقر الرئيسي للجبهة الشعبية، وحي صبرا لمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي الجنوب الشرقي لطريق بيروت - دمشق كان يقع مخيم تل الزعتر الذي ضمّ حوالي عشرين ألف نسمة، وبجواره مخيم جسر الباشا، الذي ضمّ حوالي ثلاثة آلاف نسمة. وكذلك كان يعيش عدد كبير من الفلسطينيين في منطقة النبعة في ضاحية بيروت الشمالية، وفي منطقة الكرنتينا الواقعة على الشاطئ^{٣٥}. وفي الشمال الشرقي من بيروت، على الطريق المؤدية الى جونيه، يقع اخيراً مخيم ضبيّه الذي يضمّ حوالي ثلاثة آلاف نسمة، معظمهم من المسيحيين.

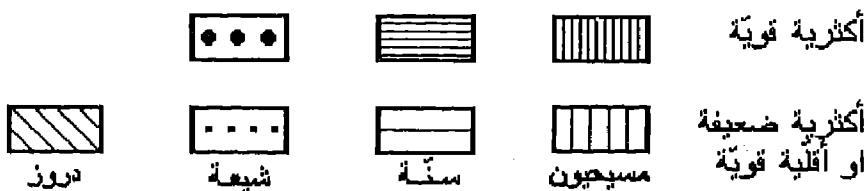
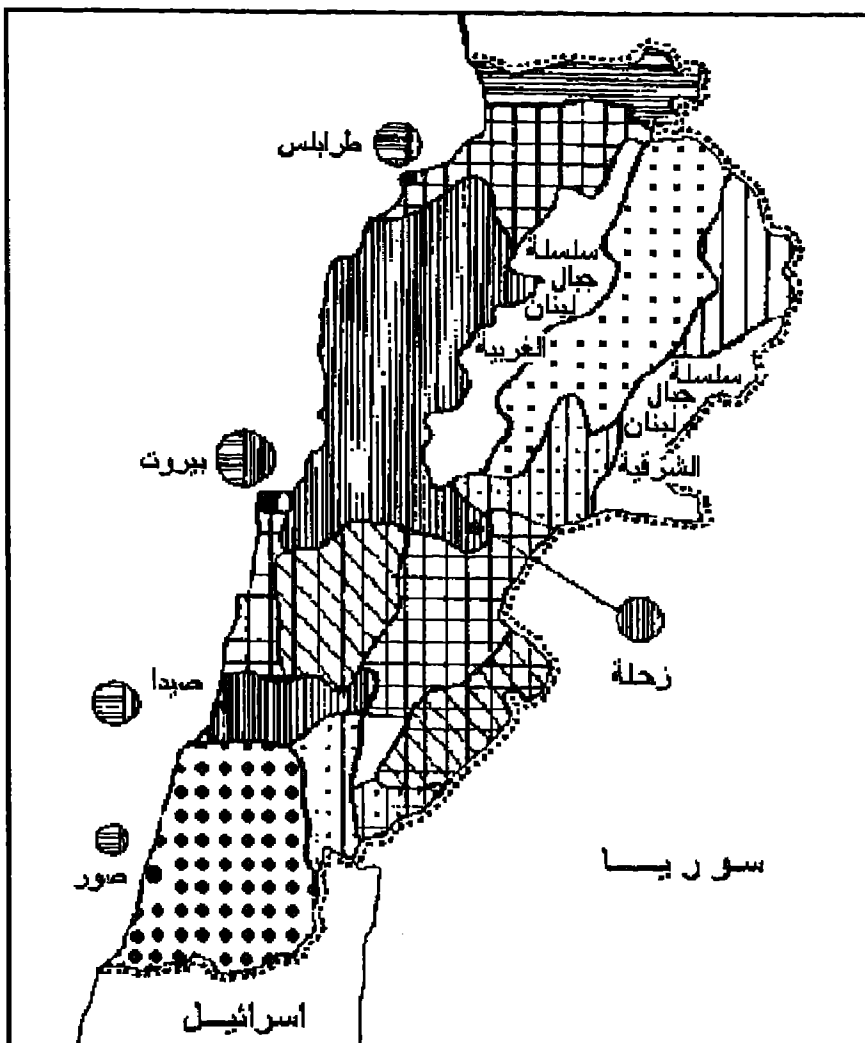
مع مطلع السبعينات بدأ تجهيز عدد من المجتمعات بتحصينات عسكرية وخنادق ودهاليز تحت الارض، خاصة مخيم تل الزعتر الذي حولته المنظمات الفلسطينية الى حصن منيع، يضم شبكة متطورة من الدهاليز والمستودعات تحت الارض والمعازل المحصنة والخنادق المخصصة للحماية^{٣٦}.

عند انشاء هذا المخيم عام ١٩٤٨ لم يكن احد يتصور ان هذا المكان سيتحول لاحقاً الى مركز عسكري هام. فمنذ اول تصادم لبناني-فلسطيني عام ١٩٦٩، بدأت تبرز بوضوح الاهمية العسكرية لهذا المخيم. فبعد تجهيزه وتحصينه، كان بإمكان سكانه تهديد العاصمة اللبنانية في اي وقت. فمدينة بيروت كانت محاطة بالتجمعات الفلسطينية. احدها كان يسيطر على الطريق المؤدية الى مطار بيروت، والمخيمات الواقعة شرق بيروت، كانت تهدد كل الاتصالات بين شرق العاصمة والمنطقة الخلفية المسيحية. ولم تكن تبعد المخيمات في غرب بيروت عن مخيم تل الزعتر الا كيلو مترات قليلة. فأى حصار كامل لبيروت الشرقية كان ممكناً وسهلاً جداً لو تمكنت المخيمات من التنسيق والاتصال ببعضها.

٣٤ - معظم سكّان المخيمات في لبنان هم من المناطق التي أصبحت تابعة لاسرائيل منذ عام ١٩٤٨. فلا يستطيعون القول الأقلّ بأنهم من جزء من دولة فلسطينية او من الاراضي التي احتلت عام ١٩٦٧. وهذا ما يفسّر ميل معظم سكان المخيمات الى الحلول الراديكالية وليس الى حلول المساومات. راجع: Elizabeth STEMER-PICARD, Le Liban et la résistance palestinienne, in: Revue Française de Sciences Politiques, 25(1975)1, p.22.

٣٥ - منطقة الكرنتينا هي المنطقة حيث كان مركز المحجر الصحي التابع لمرفأ بيروت.
٣٦ - كانت ترابض في هذا المخيم أيضاً وحدة سلاح مضاد للطائرات تابعة للجيش السوري.

المناطق السكنية للطوائف الدينية قبل الحرب



المصدر:

Wirth, Zur Sozialgeographie der Religionsgemeinschaften im Orient; in: Erdkunde 14 (1965) 4, Beilage XII.

تتألف الفسيفساء الجغرافية للطوائف الدينية في لبنان من أجزاء كبيرة مختلفة. فالشيعة يشكلون أكثريات كثيفة في جنوب البلاد وفي شمال البقاع. السنة يسيطرون في المدن الساحلية: طرابلس، صيدا، وصور. والأكثرية المسيحية تتواجد في المناطق الجبلية الممتدة من الشمال وحتى طريق بيروت-دمشق، وفي المناطق الساحلية الموازية لها. وهناك منطقة مسيحية أيضاً في جزين في جنوب الجبل، شرقي صيدا. وفي منطقتي عالية والشوف، يشكل المسيحيون نصف السكان، والدروز والسنة النصف الآخر. وفي منطقة عكار الشمالية يتوزع السكان بين المسيحيين والسنة مناصفة تقريباً. وفي جنوب شرقي البلاد يشكل كل من المسيحيين والدروز والشيعة ثلث السكان تقريباً. أخيراً، كانت توجد في بعض المناطق السكانية المكثفة "جزر صغيرة من الطوائف"، مثلاً، بعض القرى الشيعية في بلاد جبيل، وقرى الروم الكاثوليك في شمال البقاع، والقرى المارونية في أقصى الجنوب على الحدود اللبنانية-الإسرائيلية. وبصورة عامة، يمكن الاستنتاج بأن السكان المسيحيين هم أكثر انتشاراً في البلاد من المسلمين. في معقلهم الرئيسي كان يعيش في بداية الحرب أقل من نصف عددهم الاجمالي. ويقع عدد من مدنها المتوسطة وبلداتهم الكبيرة خارج معقلهم الرئيسي، مثل جزين، ودير القمر في الشوف، وزحلة في البقاع، والقيّات في عكار، بالإضافة الى عدد كبير من القرى. أما "الجزر" فكانت بمعظمها مسيحية، ولذا كان من الصعب جداً الدفاع عنها عسكرياً، الأمر الذي جعلها هدافاً نموذجية سمح باستخدام سكانها "كرهائن جماعية".

كانت العاصمة بيروت المسرح الرئيسي لأحداث الحرب في مختلف مراحلها^{٣٧}. تضاعف عدد سكانها خلال السنوات الخمس عشرة التي سبقت الحرب. في عام ١٩٧٥ كان يسكن نصف عدد اللبنانيين تقريباً في بيروت الكبرى، لأن الطاقة الاقتصادية فيها كانت توفر العمل ليس فقط للبنانيين فحسب، بل أيضاً لعدد كبير من الاجانب، من بينهم الأكراد بنسبة ٢٠٪، والفلسطينيين ٦٪، والعمال السوريين ٢٥٪. وبالإجمال كان حوالي ٤٥٪ من سكان المدينة من غير اللبنانيين. تحولت بيروت ليس فقط الى مدينة متعددة الطوائف الدينية فحسب، بل الى مدينة متعددة الشعوب أيضاً. أما حدود امكانية هذه المدينة القادرة بصورة خارقة على تسهيل التكامل والدمج بين سكانها، فلم يتم البلوغ إليها فقط، بل تجاوزتها، ولكن ليس في اطارها الاقتصادي، بل في اطارها الاجتماعي والسياسي. في المجال الاقتصادي كانت مدينة بيروت بوتقة للانصهار. لقد برز سابقاً في

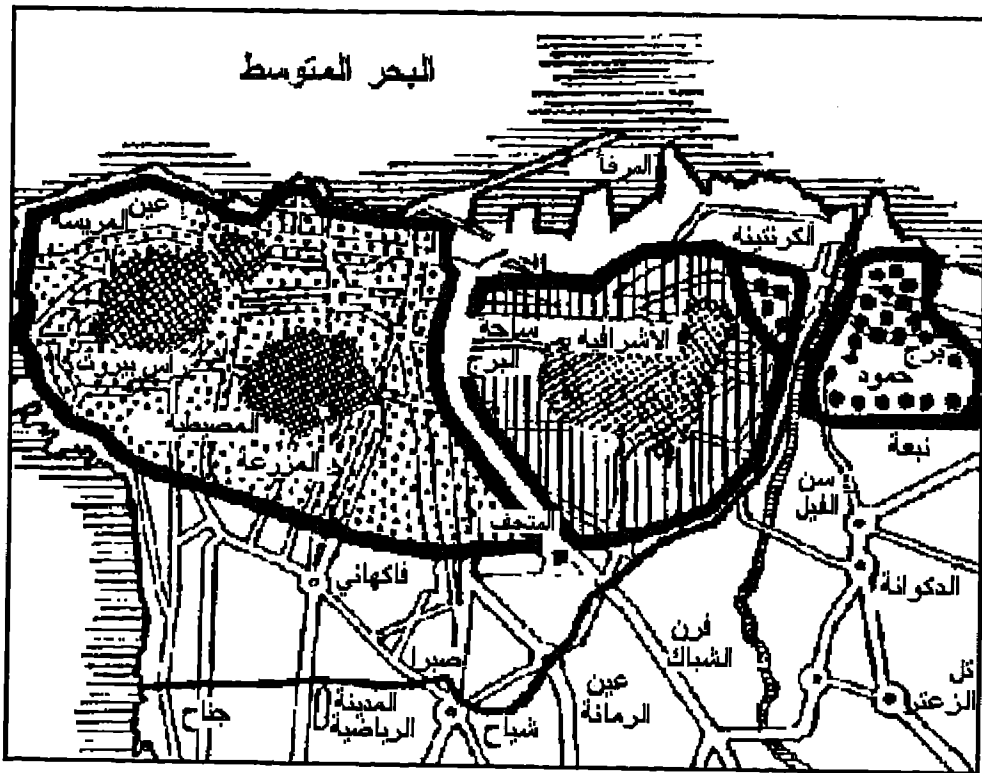
٣٧- حول ما يتبع راجع: Salim NASR, Les formes de regroupement traditionnel dans la société de Beyrouth, op. cit.; André BOURGEY, Beyrouth, ville éclatée, in: Hérodote 17(1980)1, p.5-30; Theodor HANF, Beirut. Konflikt und Koexistenz in einer geteilten Stadt, in: Geographische Rundschau, 37(1985)9, p.454-461.

القطاعات الاقتصادية المهنية القديمة، نوع من الاختصاص لكل طائفة. السنة مثلا تميزوا في انتاج المواد الغذائية، والروم الارثوذكس في صناعة النسيج. وفي وقت لاحق بحثت الطوائف المهاجرة عن مكان وعن عمل لها، فامتهن الارمن مثلا صناعة الذهب، وتصلح الآليات، والموارنة التجارة الدولية المثلثة، والشيعية التجارة مع افريقيا وصناعة الألبسة. وكلما زادت الحاجة في قطاعات المهن والاقتصاد الحديثة الى مؤهلات تقنية ومتينة، كان التصنيف المهني ذو الطابع الطائفي يزول بسرعة. ففي الحقول المالية والمهن الحرة، وكذلك في صفوف الطبقة العالية، نجد المسيحيين الى جانب المسلمين معا. ولكن اذا كانت هناك تخصصات قائمة، فذلك يعود فقط الى مدة الإقامة في المدينة. فالعمال في القطاع الصناعي هم باكثرية من الموارنة والشيعية الذين نزحوا الى بيروت في الستينات، بينما السنة والارثوذكس والكاثوليك الذين كانوا يقيمون سابقا في المدينة، استمروا في ممارسة مهن أكثر جذبا لهم. وقد أدى ارتفاع قيمة الاراضي والعقارات التي يملكها بالدرجة الأولى البيروتيون، الى تحسين كبير في أوضاعهم الاقتصادية. فالتفاوت الاجتماعي لا يبرز كثيرا بين المسيحيين والمسلمين اجمالا، بل بين سكان المدينة الاصليين والنازحين الفقراء اليها.

وبرزت ايضا صورة أخرى مختلفة بالنسبة لسكان المدينة الاجانب. اقتصاديا وجد قسم من الفلسطينيين، طريقهم الى عالم البورجوازية اللبنانية، ولكن تحول أكثر من نصفهم الى طبقة البروليتاريا الضعيفة جدا، وكذلك معظم الأكراد والعمال السوريين، الذين كانوا بمعظمهم يعملون في قطاع البناء، وشق الطرقات، وفي الصناعات الصغيرة، دون أي ضمان اجتماعي او رعاية طبية، ودون اية حقوق نقابية. فبين المجتمع اللبناني الكثير التباين والذي كان يعتبر سابقا طبقة متوسطة، كانت تعيش ايضا في العاصمة مجموعة كبيرة من الفقراء الذين لا يستطيعون، كلاجئين او كأجانب، الارتفاع اجتماعيا. كانوا قبل الحرب يجدون عملا في مختلف القطاعات الاقتصادية، كما كان يُرحَّب بهم. ولكن نظرا لتنامي وتحسن سبل العيش لقسم كبير من اللبنانيين، لم يعد ممكنا ان يبقى هؤلاء الفقراء في وضع يجعلهم يرضون عن مصيرهم. فمشكلة بيروت الاجتماعية كانت الى حد كبير مشكلة الأجانب القاطنين فيها.

فطالما كانت حيوية الاقتصاد قائمة، كان سكان المدينة، الى اية فئة انتموا، يعملون سوية في حياتهم المهنية. ولكن لم تبرز بالمقابل اية قوة دفع مشابهة في مجال التقارب المجتمعي، لا بين الأجانب ولا بين اللبنانيين. فكل انسان كان يعمل مع الآخر، ويعيش الى جانبه. ولكن لم يندمج معه، بل كان يسكن منفصلا في احياء طائفته.

الطوائف الدينية في بيروت عام ١٩٤٥



سنة



موارنة



روم ارثوذكس



أرمن

حدود بيروت
الادارية

ينطبق ذلك أولاً على سكان بيروت الأقدمين. فالسنة كانوا يسكنون في اجزاء المدينة القديمة غرب طريق بيروت-دمشق، الذي يمرّ في وسط المدينة. وكان الروم الارثوذكس يسكنون في احياء صغيرة في غرب المدينة. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر اخذوا يسكنون على تلة الأشرفية الواقعة شرق طريق بيروت-دمشق. وكذلك كان النازحون الجدد يعيشون منفصلين عن بعضهم. في مطلع القرن العشرين استقرّ الموارنة في شرق بيروت حول منطقة الأشرفية الارثوذكسية. وعندما وصل الأرمن النازحون، أنشأوا حيّاً خاصاً بهم شمال الأشرفية في منطقة نهر بيروت. اما الشيعة الاوائل الذين جاءوا الى بيروت فاستقروا مباشرة في المنطقة الواقعة غرب طريق بيروت-دمشق.

ومنذ الخمسينات عندما بدأ تزايد نزوح الموارنة والشيعة من الريف الى المدينة، نشأت أيضاً احياء جديدة حول بيروت القديمة، وتوزعت ايضاً حسب الطوائف. في شرق العاصمة وجنوب شرقها استقرّ المسيحيون، وفي جنوب غربها المسلمون. وكل القرى المارونية التي كانت قائمة بالقرب من المطار احيطت بأحياء سكنية للشيعة، وتحولت بالتالي الى "جزر". وقد نشأت ايضاً "جزيرة" شيعية بين الموارنة والأرمن في منطقة النبعة شمال شرق العاصمة. وداخل الضواحي الجديدة نشأت ايضاً مناطق سكنية ترتبط مباشرة بمناطق السكان الاصلية وبقرائهم. فالمجمّعات القروية القديمة وجدت نفسها من جديد في بيروت او في ضواحيها. واجمالياً يمكن القول بان بيروت القديمة كانت مدينة السنة والارثوذكس، بينما بيروت الجديدة مدينة الموارنة والشيعة. ولكن هذه المدينة كانت متعددة الشعوب. وهناك استثناء يستحق الذكر. في غرب المدينة القديمة، وفي احياء القنطاري والحمراء ورأس بيروت، كان يعيش مسيحيون ومسلمون، لبنانيون وأجانب، من المثقفين والبورجوازيين الذين كانت تقوم بينهم روابط جيدة، ويرسلون اولادهم الى ذات المدارس، ويزورون ذات المسارح، ويتناقشون حول الكتب الجديدة، ويتجاوزون حدود الطوائف في الزواج المختلط بينهم. وقد كان عدد لا بأس به من اللبنانيين ينظر الى تلك الأحياء كنموذج للبلدان المستقبل.



ولكن الى جانب بيروت القديمة والجديدة هناك أيضاً بيروت ثلاثة، وهي اقل اندماجاً من الأولى والثانية. انها بيروت المخيمات والاجانب. فبين الضواحي الجديدة وعلى جانبها قامت مخيمات الفلسطينيين. فالخيم واكوخ التتك زالت لتقوم مكانها ابنية من الإسمنت. المخيمات تتشابه كثيراً مع الضواحي الجديدة، ولكنها مازالت تأخذ طابع احياء البؤس. فمخيمات صبرا وشاتيلا، وبرج البراجنة، وجسر الباشا، ونل الزعتر، شكلت مع المناطق السكنية الجديدة مثل الشياح، وعين الرمانة، والدكوانة، وسن الفيل، والنبعة، احياءاً مرتبطة بها وحياءاً منفصلة عنها، "حزام بؤس" فعلي حول العاصمة بيروت^{٢٨}.

هنا كانت كثافة السكان مرتفعة جداً، وكانت تتألف من الفلسطينيين والأكراد، والعمال الموسميّين السوريين، واللاجئين الشيعة من الجنوب، الذين لم يجدوا اي مسكن في المدينة، فعاشوا هنا معاً في ظل اوضاع صعبة وفقيرة^{٢٩}.

في بيروت ما قبل الحرب، زادت نسبة الاندماج بوضوح انطلاقاً من وسط المدينة حتى ضواحيها. فالمنطقة التجارية واسواقها، والمصارف كانت مكاناً يسود فيها التعاون والتعقل الاقتصادي. اما الأحياء السكنية فكانت تتسم بالتفرقة والتمييز، وخاصة الأحياء الجديدة أكثر من الأحياء القديمة. فبينما كان البيروتيون القدامى يعرفون ويعيشون نوعاً من التعايش، جاء سكان الضواحي الجديدة من قرى متجانسة الى احياء سكنية متجانسة أيضاً. "قالآخرون"، الذين كانوا أيضاً ينافسونهم في حقل العمل، انزروا عنهم بشدة، وتفوقوا على انفسهم، بينما كان البيروتيون

٢٨- اشار توفيق خلف الى أن للضواحي الجديدة ولحزام البؤس قواسم اجتماعية مشابهة: "... لقد قام حزام آخر الى جانب "حزام البؤس" ... يسكنه الموارنة في سنّ الفيل، والحديث، والدكوانة، وكرم الزيتون، والسيوفي، وفرن الشباك، وعين الرمانة، وحرارة حريك. سكن في هذه المناطق لئاس نزحوا عن قراهم بحثاً عن عمل في بيروت، فكانوا ضحايا وضع اقتصادي سرعان ما حول لبنان كله الى "حزام بؤس" حول بيروت". راجع: Toufic KHALAF, The Phalange and the Maronite Community: From Lebanonism to Maronitism, in: Roger OWEN (Ed.), op. cit., p. 43

٢٩- تضاعف عدد سكان المخيمات خلال ربع قرن. لم يبلغ ثلثا سكانها سنّ العشرين من العمر. ٦٠٪ من المساكن كانت تفترق الى الماء، و٣٥٪ منها الى الكهرباء. بلغت نسبة الأمية بين السكان ٦٠٪، ونسبة التعليم حوالي ٦٤٪. كان معظم سكان المخيمات من العمال المساعدين غير المؤهلين في قطاع الصناعة والزراعة والخدمات، ومعظمهم دون عمل ثابت. وبينما تسنّى للزعماء التقليديين السيطرة على سكان المخيمات خلال فترة طويلة، برز في مطلع السبعينات تغيير واضح في هذا المجال: "...لقد تفوق زعماء القدامى في المخيمات في استطلاعات الرأي على كل الزعماء السابقين... اسهموا في تحرير الفلسطينيين من سنوات الاحباط والبؤس والحرمان، وكشفوا لهم عن الطريق التي تؤهلهم ليصبحوا اسباب مصيرهم". راجع: Bassem SERHAN, Palestinian Refugee Camp Life in Lebanon, in: Journal of Palestine Studies, 4(1975)2, p. 106; Rosemary SAYEGH, The Struggle for Survival. The economic conditions of Palestinian camp residents in Lebanon, in: Journal of Palestine Studies, 7(1978)2, p. 101-119.

القدامي قد تعلموا العيش مع مختلف الفروقات. فالرجل الغني من طائفتهم كان أقرب اليهم من فقير ينتمي الى طائفة أخرى. الأولون كانوا على الأقل يعرفون من هو هذا الرجل، وفي النهاية، كانوا كلهم لبنانيين. وجدوا كلهم عملاً، وعرفوا تفوقاً اجتماعياً واقتصادياً. ولكن سكان حزام البؤس بالمقابل لم يشاركوا مثل سكان بيروت القدامي والجدد الا هامشياً فقط بالازدهار الاقتصادي. فوسط المدينة مع مطاعمه الأنيقة ومتاجرهِ التي كانت تعرض كل منتوجات الغرب - وبأسعار خيالية - كان عالماً غريباً ومعادياً لهم. فالفلسطينيون لم يقبلوا بلبنان تبرز فيه الحياة الجميلة، بدلاً من ان يساعدهم على تحرير وطنهم. وكذلك اللاجئون الشيعة، لم يكن بوسعهم ان يفهموا كيف يسيطر البذخ والتبذير في بيروت، بينما لا تعمل الدولة شيئاً لحماية قراهم. اما السوريون فكانوا يأتون الى بيروت فقط لوقت معيّن. ولكن بالنسبة للجميع كانت بيروت الغنية والكوسموبوليتية رمزا "للتغريب" غير العربي و"للانحطاط".

وهكذا كانت بيروت ما قبل الحرب مقسّمة كثيراً. ومع اندلاع الحرب انهارت هذه المدينة بسرعة. فامكنة التقسيم كانت من جهة المخيمات واحياء البؤس، ومن جهة ثانية، الحدود بين المناطق السكنية المسيحية والمسلمة. في وسط المدينة تواصل النشاط التجاري عدة شهور، بينما كانت الاشتباكات تحصل في الضواحي. ولكن لم يطل الوقت حتى انهارت بيروت القديمة في شرقها وغربها.

٤ - حرب بين الفلسطينيين والاحزاب المسيحية٤٠

حصل اطلاق اول رصاصة في حرب لبنان في ١٣ شباط ١٩٧٥. يومها كان بيار الجميل يشارك في تدشين كنيسة جديدة في ضاحية عين الرمانة المارونية. أثناء الاحتفال، أطلقت من سيارة مرّت في ذلك المكان عيارات نارية على زوّار الكنيسة، عرف لاحقاً بعد التحقيق بان مطلقي النار كانوا عناصر من الجبهة الديمقراطية، الامر الذي أدّى الى سقوط عدد من القتلى ومن بينهم احد حراس رئيس حزب الكتائب. وبعد ساعات قليلة، عبرت حافلة في ذات الحي، ترفع الاعلام الفلسطينية، وفيها مقاتلون من جبهة التحرير العربية، كانوا في طريق عودتهم من احتفال بمناسبة مرور عام على الهجوم الفلسطيني على قرية شمونة، من غرب بيروت الى

٤٠ - يستند العرض التالي لمراحل الحرب (١٩٧٥ - ١٩٨٨) بمعظمه على تحليل الصحافة اللبنانية. المعطيات والأحداث التي أُشير إليها وفقاً لتسلسلها الزمني، لم يجر التوقف عندها بالتفصيل. يمكن العودة الى تحليل مفصلة عن أحداث سنتي الحرب الأولى في مؤلفات كل من John BULLOCH، ووليد خالدي، وRené CHAMUSSY، وWade R. GORIA وDavid Thomas SCHILLER، وغيرهم. وعن أحداث الحرب حتى عام ١٩٨٥، راجع: Itamar RABINOVITCH, The War for Lebanon, op. cit.

تل الزعتر^{٤١}. ولكن ميليشيات حزب الكتائب، التي كانت في حالة استنفار قصوى بسبب ما حصل في الصباح، فتحت النار على الحافلة. فقتل ٢٧ فلسطينياً، وجرح عدد كبير أيضاً.

هل كان ذلك إثارة من هذا الجانب أو ذاك، أو من جانب ثالث؟ اتهم أبو أياد لاحقاً^{٤٢} المكتب الثاني في الجيش اللبناني، بأنه كان وراء التخطيط لهذا الحادث. ولكن في البداية حصلت اتهامات بين الفلسطينيين والكتائب. تحدث عرفات عن عصابات الكتائب، التي تعمل لصالح إسرائيل وبتحريض منها. كما اتهم بيار الجميل "العناصر غير المنضبطة والمتطرفة" في المقاومة الفلسطينية وحملهم المسؤولية. وفي مطلق الأحوال، كان الفريقان مقتنعين منذ مدة طويلة بأن كل منهما ضالع في مؤامرة وعلى أهبة الاستعداد للقتال.

وفي مساء ذلك اليوم، نشبت معارك طاحنة بين مخيمات الفلسطينيين والأحياء الشيعية حيث كانت تتواجد منظمات فلسطينية أو حلفاء لها، وبين الضواحي المسيحية المجاورة لها^{٤٣}. ودامت عدة أيام دون انقطاع. قام خلالها الفلسطينيون بهجوم فاحتلوا "الجزر" المسيحية الأولى: حارة حريك، والحي المسيحي في الشياح الذي أحرق، وجرى تهجير القسم الأكبر من السكان. من الجانب الفلسطيني، كانت المنظمات المنضوية في جبهة الرفض والتصدي الأكثر نشاطاً. وكذلك حصلت اصطدامات واشتباكات في طرابلس وصيدا وصور.

عندئذ، أعلن كمال جنبلاط تضامنه التام مع الفلسطينيين، وطالب بمقاطعة شاملة لحزب الكتائب، الأمر الذي أثار موجة من التضامن من قبل المسيحيين مع هذا الحزب. أبدى بيار الجميل موقفاً مسالماً وسلم إلى العدالة اثنين من المقاتلين الكتائب الذين شاركوا في حادث عين الرمانة. كما طالب بالتضامن مع كميل شمعون بانزال الجيش لانتهاء القتال. ولكن عندما رفض رئيس الوزراء رشيد الصلح، القريب جداً من كمال جنبلاط، هذا المطلب، استقال من الحكومة الوزراء المقربون من حزب الكتائب، وتبعهم أربعة وزراء مسيحيين آخرين. فاضطر بالنتيجة رشيد الصلح إلى تقديم استقالة حكومته^{٤٤}. عندئذ اعتقد رئيس الجمهورية سليمان فرنجية بإمكانية تشكيل حكومة عسكرية قوية برئاسة العماد نور الدين الرفاعي، الذي كان ضابطاً

٤١- حتى اليوم لم تعرف الأسباب التي دفعت هذا الباص للمرور في عين الرمانة، الحي المعروف بعدائه للمنظمات الفلسطينية، مع العلم أن وسائل النقل الفلسطينية كانت تتجنب المرور في هذه المنطقة عندما تنتقل بين المخيمات الواقعة في ضواحي بيروت الشرقية وتلك الواقعة في ضواحي بيروت الغربية.

٤٢- من مقابلة مع المؤلف عام ١٩٧٩

٤٣- تل الزعتر ضد الدكوانه والمكلس، الشياح ضد عين الرمانة، النبعة ضد سن الفيل. ومن الكرنيتنا كانت تقصف الطريق بين الأشرفية والشمال.

٤٤- في جلسة برلمانية صاخبة اتهم الصلح حزب الكتائب وحملهم مسؤولية اندلاع المعارك ومواصلتها.

سنيًا متقاعدا. ولكن سرعان ما اضطر الى تقديم استقالته بعد ايام معدودة على تأليف حكومته بسبب معارضة الزعماء المسلمين له. وعلى اثر ذلك كلف رشيد كرامي بتأليف حكومة جديدة، فوجد صعوبات جمّة في تأليفها بسبب الفيتو الذي وضعه كمال جنبلاط ضد اشراك الكتائب في الحكومة من جهة، وبسبب امتناع معظم السياسيين المسيحيين عن المشاركة في الحكومة دون الكتائب من جهة اخرى.

وبينما كان كرامي يواصل مشاوراته لتشكيل الحكومة، توسعت دائرة المعارك. ففي طرابلس هُجّر المسيحيون من احد الأحياء السكنية، وقام مقاتلون فلسطينيون بهجوم على مدينة زغرتا، مسقط رأس الرئيس فرنجية. كما هاجمت وحدات من حركة فتح ومنظمة الصاعقة يدعمها مقاتلون من الحزب القومي السوري والحزب الشيوعي بلدة القاع في شمال البقاع التي ينتمي سكانها الى طائفة الروم الكاثوليك. وعندما فشل هذا الهجوم، دمّروا شبكة المياه التي تغذي البلدة، وقضوا بالتالي على بنية الوجود الاقتصادي لسكان القاع الذين كانوا يعيشون بصورة رئيسية من زراعة الفواكه. وقد شاركت ايضا قبيلة شيعية من الجوار في ذلك الهجوم على القاع. عندئذ اعتصم في احد المساجد الإمام موسى الصدر، الذي تحفظ كثيراً حول مشاركة الشيعة في المعارك التي حصلت في منطقة النبعة، وانقطع عن الطعام احتجاجاً على الحرب. ولكن الذي سكب الزيت على النار كان كمال جنبلاط. فاتهم الكتائب بالتعامل مع اسرائيل واجهزة الاستخبارات الاميركية، كما طالب بالغاء الميثاق الوطني.

بعد مرور شهرين على اندلاع الحرب اخذت تبرز نزاعات كثيرة التباين. حصلت الاشتباكات العسكرية بدرجة اولى بين الفلسطينيين وميليشيات الاحزاب المسيحية، كما بقيت خلالها مشاركة حلفاء الفلسطينيين من اللبنانيين هامشية. وفي حالات عديدة تشابهت هذه الاشتباكات بمثلاتها عام ١٩٦٩ و ١٩٧٣. ولكن هذه المرة لم يكن الجيش خصم الفلسطينيين، بل المقاتلون المسيحيين. ومثلما حصل عام ١٩٦٩ و عام ١٩٧٣، تضافرت جهود وساطات الدول العربية، خاصة سوريا ومصر، والمملكة العربية السعودية، والجامعة العربية. في حزيران من تلك السنة التقى عرفات بالرئيس فرنجية، بغية وضع حد للمعارك. وفي كل مرة كان كمال جنبلاط يتدخل لصالح الفلسطينيين. ولكن هذه المرة لم يتدخل لتسوية النزاع الفلسطيني اللبناني بل للمطالبة بتغيير جذري للنظام السياسي اللبناني. اما الزعماء التقليديون للطوائف اللبنانية فقد سعوا الى اعادة الحياة والفعالية لهذا النظام.

وفي نهاية حزيران، نجح كرامي في تشكيل حكومة جديدة. فتصالح مع كميل شمعون، الذي لم يكن قد التقى به او تحدّث معه منذ احداث عام ١٩٥٨، وعيّنه وزيرا للداخلية. وهكذا وجد حلاً لمشكلة المقاطعة السياسية ضد الكتائب التي طالب

بها جنبلاط. اما السياسيون المسلمون فلم يوافقوا على هذه المقاطعة، ولكن لم يتجرأ أحد على المشاركة في الحكومة الى جانب الكتائب. وفي هذا الحزب بالذات صُرف النظر عن المشاركة في الحكومة، باعتبار كميل شمعون يمثل كفاية. وقد جاءت حكومة كرامي هذه دليلاً جديداً على ارادة التعايش، اذ ان ثلاثة من وزرائها كانوا اعضاء في الحكومة التي قادت لبنان عام ١٩٤٣ الى الميثاق الوطني والاستقلال^{٤٥}. فمنح مجلس النواب الثقة الى هذه الحكومة بأكثرية ٨٣ صوتاً، وامتناع ١٦ نائباً من مؤيدي جنبلاط. وهكذا جرى التوصل الى وقف اطلاق النار في اول تموز بعد تشكيل الحكومة.

٥ - تحويل النزاع الى حرب أهلية

لم يدم وقف اطلاق النار الا شهرين فقط . في تموز وآب اشتدت حدة التوتر بين الدول العربية حول المسألة الفلسطينية، فعاود كيسنجر رحلاته المكوكية بين اسرائيل ومصر، كما أقرّ اتفاق سيناء رقم ٢ في اول ايلول. وهكذا وجد الاردن وسوريا حالهما بوضع صعب نظراً لانفراد مصر في خيارها المستقل. فحصل تقارب بينهما. كما طالبت سوريا منظمة التحرير بالتنسيق معها. وعرفت من جهته، طالب الفلسطينيون بالتصدي للمصالح الاميركية في الشرق الاوسط. اما الاقتناع بوجود مؤامرة فقد زاد سواء لدى الفلسطينيين او لدى المسيحيين اللبنانيين. وبقدر ما كان يتباعد الأمل بتسوية القضية الفلسطينية، كان الخوف يتزايد لدى الأولين من محاولة تصفيتهم، ولدى الآخرين من محاولة الفلسطينيين الإستيلاء بالقوة على الحكم في لبنان.

خلال هدنة الصيف استعدّ كل من الفريقين للمعركة المقبلة التي كانت محتمة. فجنّدت المنظمات الفلسطينية حلفاءها اللبنانيين اكثر فأكثر. ودرّبت الميليشيات المسيحية بسرعة قصوى مقاتلين جدد، كما تدرّب عدد كبير منهم في اسرائيل. ومرة اخرى عاد كمال جنبلاط الى معزوفته وركز على مطالبته بتغيير النظام السياسي اللبناني، اي الغاء نظام النسبة السياسي، وتغيير قانون الانتخاب، واعادة تنظيم الجيش، واعطاء الجنسية اللبنانية الى الأكراد والبدو المقيمين في لبنان. وبالاختصار وضع برنامجاً لتغيير نظام الحكم.

بالنسبة لأكثرية المسيحيين اللبنانيين كان هذا البرنامج امراً غير مقبول. فالأشهر الأولى من الحرب كشفت لهم بوضوح، بانه من الصعب عليهم كسب الصراعات

٤٥- باستثناء كميل شمعون، مثل الشيعة عادل عسيران والدروز الأمير مجيد ارسلان، كما مثل الروم الكاثوليك فيليب نقلا ، والارثوذكس الناشر الليبرالي غسان تويني.

المسلّحة مع الفلسطينيين، الذين كانوا يشكلون نسبة ثلاثة مقابل اثنين، كما ان الأسلحة المتوفرة لديهم كانت أقلّ نوعية. كذلك الامل بانزال الجيش او باقحامه في المعارك اخذ يزول. على حدود معقلهم الرئيسي عرفت الجبهات استقراراً، ولكن "الجزر" خارج مناطقهم وقعت في مأزق خطر. وكذلك مطالب كمال جنبلاط التي لم يعارضها السياسيون المسلمون، زادت في تخوفهم، لأنهم لم يعودوا في حالة مجابهة مع الفلسطينيين فحسب، بل أيضاً مع اكثرية المسلمين اللبنانيين. وعندما حصل انفجار رهيب في احد مخيمات التدريب في البقاع، تبين ان الإمام موسى الصدر كان يدرّب ميليشيات شيعية خاصة، الأمر الذي زاد في تخوفهم. وعلى أثر ذلك، تكاثرت التصريحات حول استبدال الحكم بحكومة لصالح الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين، أي التحوّل في الإتجاه نحو تقسيم البلاد. ولربما كانت تصريحات جنبلاط في هذا المجال ذات هدف تكتيكي. فعلى مطالبته بالغاء نظام الميثاق الوطني جاء الردّ المسيحي المهذّب بالتقسيم. فتغيّر النظام لم يكن الا مؤشراً لحرب اهلية. كما ان جنبلاط أثار منذ نشوب الحرب نوعاً من الحرب الأهلية الكلامية. والتهديد بالتقسيم كان أيضاً نوعاً آخر من الحرب الاهلية. ولكن لم يكن ممكناً الاكتفاء بحرب اهلية كلامية.

في نهاية شهر آب، حصل خلاف لا علاقة له بالسياسة اطلاقاً في أحد محلات الفلبيرز في زحلة، فتحوّل الى اشتباكات بين مسيحيين من هذه المدينة وشيعة من القرى المجاورة. وقد جاء مقاتلون فلسطينيون لنصرة الشيعة. اما حصيلة المعارك فكانت كبيرة بين صفوف الفريقين. وعلى اثرها تفاقمت حدّة التوترات الاجتماعية. فالاراضي الزراعية الواسعة التي يملكها المسيحيون من زحلة في وسط البقاع، كانت قد كلفتهم اموالاً كبيرة لاستصلاحها، وصيانتها، واستغلالها. فقام المقاتلون الفلسطينيون والشيعة بتدمير حوالي ٨٠٪ من الآبار الارتوازية وإنشاءات الرّي فيها، خلال ايام قليلة معدودة. وبعد فترة قصيرة، حصل أيضاً حادث مشابه بين طرابلس وزغرتا، ادى الى احداث عدائية بسبب خلاف على المرور في الطريق. عندئذ خطف مسلمون من طرابلس بعض المواطنين الموارنة من زغرتا، الأمر الذي دفع أحد المقاتلين من هذه الأخيرة، وكان قد فقد شقيقه في معارك سابقة، الى توقيف حافلة من الركاب على طريق بيروت- طرابلس، فأطلق عليها النار ثاراً لأخيه، فقتل ١٢ راكباً مسلماً في تلك الحافلة. عندئذ انفجرت الحرب في كل المنطقة الشمالية من لبنان. فهاجم مقاتلون مسلمون وفلسطينيون مدينة زغرتا مستخدمين سلاح المدفعية وقاذفات الصواريخ، كما احرقت ودمّرت المحلات التجارية التي يملكها المسيحيون في طرابلس. وفي عكار قام السنة بهجومات على القرى المسيحية، فاحتلوا القرية المارونية بيت ملات، وقتلوا معظم سكانها. عندئذ هربت اكثرية المسيحيين من عكار الى المنطقة الرئيسية التي يسكنها المسيحيون. وهكذا

ولأول مرة فُرض بالقوة لون طائفي واحد على منطقة كان يعرف سكانها اختلاطاً من كل الطوائف، كذلك جرى تهجير أعداد كبيرة من مسيحيي طرابلس، ومن بينهم السكان الأصليون من الروم الارثوذكس الذين لم يشاركوا إطلاقاً في المعارك.

وعندما تصاعدت حدة المعارك بين طرابلس وزغرتا، توصل الرئيس كرامي، وهو من طرابلس، والرئيس فرنجييه، وهو من زغرتا، الى اتفاق يقضي بتكليف الجيش اللبناني الفصل بين المقاتلين^{٤٦}. فقد نجح الجيش في اقامة منطقة عازلة بين المدينتين. ولكن ما ان هدأت الحال قليلاً في الشمال، حتى اندلعت مجدداً الحرب في بيروت^{٤٧}. ولكن هذه المرة لم تنحصر الحرب في ضواحي المدينة واطرافها وفي المخيمات. فقد عمد انصار حزب الكتائب الى اشعال النار في الوسط التجاري من المدينة القديمة، كما دمره تماماً. وقد كان هذا العمل الحربي ذا مدلول سياسي رمزي واسع. في هذه المنطقة كان المسيحيون والمسلمون يعملون سوياً في متاجرهم. هنا كانت تبرز بكل وضوح المصالح الاقتصادية المشتركة، التي كانت تجمع الطوائف في لبنان. فتدمير الوسط التجاري يعني ان الميليشيات لم تأخذ بعين الاعتبار هذه المصلحة المشتركة، ولا المصالح الاقتصادية لطوائفها، عندما تبيّن ان المصير السياسي هو عرضة للخطر على حدّ قول زعمائها، كشفوا عن اعتمادهم ممارسة سياسة "الارض المحروقة" بدلاً من تقديم تنازلات سياسية، كانت تبدو لهم كعملية استسلام مجانية. وبعد منتصف ايلول ١٩٧٥ لم يبق هناك اي شك بان الاحزاب المسيحية وميليشياتها كانت تنتظر الى الحرب كصراع من اجل وجودهم. فأعلن بيار الجميل بان المسيحيين هم في صدد فقدان ايمانهم بنظام التعايش اللبناني. عندئذ ابدى النظام السوري قلقه بصدد ميل المسيحيين المتنامي نحو تفضيل فكرة تقسيم البلاد. فالبلد الذي لا يستطيع تسوية الخلافات والتوترات بين طوائفه الدينية الا بتقسيمه الى مناطق جغرافية طائفية، يصبح نموذجاً خطيراً ومثلاً لا يمكن الاقتداء به. ولكن تخوّفت القيادة السورية بنوع خاص، من تحول جزء من الدولة اللبنانية الى دولة مسيحية حليفة لاسرائيل، بينما يتحول الجزء الآخر الذي يسيطر عليه الفلسطينيون والمسلمون الى دولة ذات ديناميكية ثورية يمكن ان تجرّ سوريا الى صراع مع اسرائيل. عندئذ انتقل وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام الى بيروت وحاول التوسط لتشكيل "لجنة حوار وطني"، يتمثل فيها الزعماء السياسيون المعتدلون والمناضلون من الطوائف المسيحية والاسلامية.

٤٦ - في سبيل الحصول على رضى رشيد كرامي، وافق سليمان فرنجية على اقالة قائد الجيش، اسكندر غانم، أحد المقرّبين جداً منه، وتعيين حنا سعيد، المعروف بحيائه السياسي مكانه.

٤٧ - دعا جنبلاط الى اضراب عام ضد تدخل الجيش. ولكن نظراً الى رفض النقابات المشاركة في هذا الإضراب والى معارضة معظم السياسيين المسلمين له، اضطر أخيراً الى العودة عن هذه الدعوة.

وخلال أسابيع، وبعد أن تحولت الحرب بين الفلسطينيين والميليشيات المسيحية الى حرب اهلية بين اللبنانيين، اخذت تتأقش كل مسائل الخلاف الرئيسية المتعلقة بالتعايش اللبناني بجدية ولكن أيضاً بدقة كبيرة، فطرح كل المشاكل بوضوح، كما برزت معارضة حول مسائل متباينة. طالب شمعون والجميل بانتهاء الحرب ثم البحث جدياً بالاصلاحات، بينما أصر جنبلاط بالمقابل على مطالبه الرئيسية لاصلاح الدولة. اما صائب سلام وريمون اده، اللذان لم يكونا طرفاً في الحرب، بل كانا يمثلان تيارات فكرية واتجاهات سياسية معتدلة لدى السنة والموارنة، فطالباً باستقالة الرئيس سليمان فرنجيه، الذي حملاه مسؤولية جرّ البلاد الى حرب اهلية. وقد شدّد سلام على ان جنبلاط غير مخول اطلاقاً للتحدث باسم الطوائف الإسلامية. كما حمل ريمون اده بيار الجميل مسؤولية قتل مواطنين مسلمين ابرياء، واصفا اياه بـ "حفار قبور لبنان". ولكن الجميل ردّ على اده، بان لبنان يدمّر بسبب الذين اسهموا بشلّ قوة الجيش. وفي وسط المناقشات داخل لجنة الحوار طرحت القضايا المتعلقة بهوية لبنان وبطابع النظام السياسي. فطالب عبد الله اليافي، وهو رئيس وزراء سابق، بتحديد لبنان دستورياً كـ "بلد عربي مستقل". وعليه ردّ حزب الكتائب وحلفاؤه، بانه طالما تتماثل العروبة والإسلام، فلا يستطيع لبنان ان يحدّد نفسه كبلد عربي. وهكذا طرحت من جديد المسألة الحاسمة، المتعلقة بالعلمنة^{٤٨}، فاعلن حزب الكتائب بقبول الغاء مبدأ النسبة السياسية للطوائف شرط تطبيق علمنة كاملة للدولة، وبنوع خاص تشريع قانون علماني للأحوال الشخصية، وذلك لتمكين الانصهار الاجتماعي التام. فقبل جنبلاط والاحزاب اليسارية بذلك، ولكن السياسيين المسلمين عارضوا العلمنة الشاملة لانها تتناقض مع الاسلام. عندئذ اقترح، ادمون رباط، الذي كان استاذاً للحقوق، وممثلاً للأقلية السريانية الارثوذكسية في لجنة الحوار، تسوية تدعو الى اقرار قانون مدني اختياري للأحوال الشخصية. ولكن هذا الاقتراح رُفض ايضاً من قبل الممثلين المسلمين في اللجنة. اما جنبلاط والاحزاب اليسارية الذين كانوا يستهدفون بدرجة اولى تغيير نظام الحكم، فقبلوا أخيراً بصيغة تسوية تدعو الى نوع من العلمنة "السياسية"، التي لم تعتبر علمنة اطلاقاً بالنسبة للمسيحيين. ولكن جنبلاط رأى ان الزعماء المسلمين يقبلون بتغيير طفيف وليس بتعديل جذري للنظام، اي بتعديل الميثاق الوطني لصالحهم، كما اتضح ذلك لاحقاً.

اما لجنة الحوار فقد اندثرت دون احرار اية نتيجة. في نهاية تشرين الأول قام رشيد كرامي بمحاولة بائسة في سبيل فرض تسوية. فصرّح بانه سيبقى في السراي، مركز رئيس الوزراء، حتى يصل الحوار الى نتائج ملموسة. وبعد عدة أيام، لم يأت لزيارته من كل اعضاء لجنة الحوار، الا الوزير الارثوذكسي غسان التويني. ولكن

في تلك الاثناء، انفجرت المعارك من جديد في زحلّه وعلى جبهات عديدة في بيروت. ولأول مرة برز المرابطون بقوة كفريقي في النزاع، خاصة في وسط المدينة. أما المنظمات الفلسطينية التي ابدت ارتياحاً لتحويل النزاع الى حرب اهلية، واهتماماً قليلاً بالاشتباكات العسكرية في وسط المدينة، فابتعدت عن ساحة الصراع مكتفية بتقديم العون والدعم اللوجستي بصورة علنية او خفية الى المرابطون، الذين اشتركوا في معارك طاحنة ضد الكتائب في منطقة الفنادق وعلى شواطئ بيروت الغربية وفي منطقة القنطاري، الحي الذي كانت تسكنه فئات مختلطة من كل الطوائف.

وبينما توقف عمل لجنة الحوار دون البلوغ الى اية نتيجة وعادت الاشتباكات مجدداً الى بيروت، بدأت جهود الوساطات الاقليمية والدولية تبذل لايحاد تسوية ما. حاولت السعودية ومصر والكويت عقد مؤتمر حول لبنان في القاهرة، ولكن سوريا ومنظمة التحرير والرئيس فرنجه، عارضوا فكرة "تعريب" الازمة اللبنانية. حاول فرنجه وكرامي بالاشتراك مع الحكومة السورية ايجاد حل يرضي المسلمين دون ان يرفضه المسيحيون. فسعى الى تعديل طفيف في الميثاق الوطني، وذلك بدعم وتأيد من الوسطاء الدوليين، خاصة الكردينال برتولي، المبعوث البابوي، وكوف دي مورفيل، مبعوث الحكومة الفرنسية ووزير خارجية فرنسا سابقاً. عندئذ اعلن فرنجه وكرامي عن ان اتفاقاً مرضياً سيتم الكشف عنه قريباً. وفي السادس من كانون الأول لبيّ بيار الجميل دعوة الرئيس حافظ أسد لزيارة دمشق كي يتفاوض معه حول امكانية وضع ميثاق وطني جديد.

ولكن بين فريقي النزاع كانت هناك فئات غير راضية عن هذا التطور، بل كانت تأمل بامكانية فرض مطالبها المتضاربة تماماً: فلا زعماء الميليشيات المسلمة والمسيحية ولا المنظمات الفلسطينية وجدت ايجابيات ترضيها في التسوية الحاصلة بين الزعماء المحافظين السنة والموارنة. فوصفوها "بالتأخي القبلي"، على حد قول كمال جنبلاط. وقبل يوم من زيارة بيار الجميل الى دمشق، بدأت وحدات فلسطينية اتخذت قواعد لها في مدينة عاليه، بقصف بلدة الكحالة المارونية بالمدفعية الثقيلة. فردّت الميليشيات المسيحية على ذلك بقتل حوالي مئتي مسلم غير مسلح في بيروت، معظمهم من عمال المرفأ والمستخدمين. وبعد مرور يومين على ما سمي "بالسبت الاسود" قام المرابطون بهجوم كبير على مواقع الكتائب في وسط المدينة وفي منطقة الفنادق^{٤٩}، فدفعوا ميليشيا الكتائب حتى ساحة الشهداء في وسط المدينة وطردوهم من فندق فينيسيا والسان جورج، حيث تمرکز المقاتلون المسيحيون. على أثر ذلك

٤٩- اعلان الزعماء الفلسطينيين لاحقاً بأنهم دفعوا المرابطون الى هذا الهجوم بهدف إثارة عملية انتقامية ضد المسيحيين المدنيين المقيمين في بيروت الغربية (من مقابلة مع المؤلف).

تكاثرت في شرق بيروت وغربها عمليات القتل والخطف على الهوية.

٦ - التدخل السوري ضد مبادرات التقسيم

في كانون الثاني بدأت الميليشيات المسيحية بهجوم على "الجزر السكانية الدخيلة" في مناطقهم، فطردوا سكان قرية شيعية تقع قرب انطلياس شمال بيروت، كانت تضم مجموعة قوية من انصار الحزب الشيعي، وكذلك جماعة من البدو، كانت قد استقرت على تلة شرقي العاصمة. وفي الوقت نفسه احتل المقاتلون الفلسطينيون قرية تلعبايا المسيحية في البقاع وطردوا سكانها. وكان قد حصل هكذا هجوم وهكذا تهجير سابقاً في قرى مسيحية مماثلة. وعندما تصرفّت الميليشيات المسيحية بهذا الشكل أيضاً، بدأت الحكومة السورية تشكّ كثيراً بعملية التحضير لتقسيم البلاد التي كان يتكاثر الحديث عنها، والتي ستمنع تنفيذ صيغة التسوية التي تطمح إليها سوريا. لذلك قررت ليس فقط الحد من تقديم المساعدة العسكرية للفلسطينيين والحركة الوطنية فحسب، بل التدخل عبر وحدات من جيش التحرير الفلسطيني بقيادة ضباط سوريين، وبارسال وحدات من الجيش السوري. وبالفعل عبر في العشرين من كانون الأول ثلاثة آلاف من جنود لواء اليرموك التابع لجيش التحرير الفلسطيني الحدود اللبنانية، وحاصروا مدينة زحلة، التي قصفوها من المواقع السورية بنيران المدفعية.

ولكن الميليشيات المسيحية واصلت هجوماتها في بيروت. في مطلع كانون الثاني هاجمت مخيم الفلسطينيين في جسر الباشا وتل الزعتر. وقد شارك في الهجوم، بأمر من وزير الداخلية، كميل شمعون، عناصر من قوى الأمن الداخلي. عندئذ حاول مقاتلون فلسطينيون من مخيمات بيروت الغربية القيام بهجوم ضد منطقة الحازمية المسيحية الواقعة بين برج البراجنة وتل الزعتر. وفي الرابع عشر من كانون الثاني احتلت الميليشيات المسيحية مخيم الفلسطينيين في ضبيه. وفي التاسع عشر من ذات الشهر، اقتحمت احياء المسلخ والكرنتينا، فلم يُعتقل أحد، بل قتل المئات من المدنيين، وهُجر الباقون الى غرب بيروت. وانتقاماً لذلك اقتحمت المنظمات الفلسطينية عدداً من القرى المسيحية الواقعة في عكار وفي البقاع، الأمر الذي دفع بسكانها الى اطلاق نداء الاغاثة الى سوريا التي لبّت حالا وجاءت لنجدتهم^{٥٠}. كذلك دعمت فصائل عديدة من منظمة الصاعقة وجيش التحرير

٥٠- في خطاب أذيع في ٢٠ تموز ١٩٧٦ من راديو دمشق أعلن الرئيس حافظ الأسد بالتفصيل عن الظروف التي دفعته الى اتخاذ قرار التدخل: "في أحد الأيام تهاوت جبهة الأحزاب في لبنان وكذلك جبهة المقاومة الفلسطينية. وصلوا الى حال لم يعد يسمح لهم بالوقوف على أرجلهم. فتوجّهوا إلينا بندايات الإغاثة. هكذا حاولنا وبذلنا جهوداً كبيرة. وفي أحد الأيام - أذكر ذلك اليوم، كان في منتصف كانون الثاني - اتصل

الفلسطيني مقاتلي منظمة التحرير في محاصرة البلدتين المسيحيتين الدامور والجية الواقعتين جنوب بيروت. فسقطتا في العشرين من كانون الثاني، كما سقطت بعد ذلك محلة السعديات القريبة من الدامور حيث كان يقع منزل كميل شمعون^{٥١}. على الأثر جرى إجلاء قسم من السكان، ومن بينهم كميل شمعون بالذات، بواسطة الطوافات الجوية والمراكب البحرية. أما الذين لم يتمكنوا من الهرب فقد وقعوا ضحايا مجزرة رهيبة، لا تشبه إطلاقاً ما حصل في محلة الكرنتينا.

في الأسابيع الأولى من شهر كانون الثاني صرح عبد الحليم خدام وزير الخارجية السوري بأن سوريا لن تتسامح إطلاقاً بتقسيم لبنان. وإذا ما تمت المحاولة، فستضم سوريا كل لبنان إليها، كما كان تاريخياً. فالتدخل السوري تحت غطاء عسكري لجيش التحرير الفلسطيني اجبر زعماء الأحزاب المسيحية على قبول تسوية بإشراف سوريا. عندئذ فكت ميليشياتها الحصار عن مخيم تل الزعتر. وفي السابع من شباط سافر فرنجه وكرامي إلى دمشق حيث توصلوا إلى اتفاق نهائي حول ميثاق وطني جديد تمّ الاعلان عنه في ١٤ شباط عام ١٩٧٦.

أما مضمون اتفاق دمشق^{٥٢} فيتلخص بما يلي:

بي وزير الخارجية وأعلمني بأن اتصالاً هاتفياً جرى معه من "قمة عرمون". أنا لا أعرف بيروت جيداً، ولكني أعرف أن في عرمون يقع منزل المفتي، وهناك تعقد الاجتماعات بين المفتي والإمام، ورؤساء الحكومات، وشخصيات إسلامية أخرى، وبعض زعماء الأحزاب، بمن فيهم كمال جنبلاط. اتصلوا بوزير الخارجية وطلبوا إليه بالحاح أن يطلب مني الاتصال بالرئيس سليمان فرنجه، وذلك لوقف القتال، لأن الوضع كان سيئاً للغاية... وبعد ربع ساعة قال بأنهم اتصلوا به مجدداً وأعلموه بأن الحال تسوء أكثر فأكثر وأن بعض الأحياء سقطت، وأن مسلحي الكتائب يهاجمون البيوت وكل شيء يسقط أمامهم... لقد اندثرت جداً من مثل هذا الطلب، لأنني أعلم... أن المقاومة والأحزاب الوطنية، وليس فقط حزبي الكتائب والوطنيين الأحرار - يمتلكون من الأسلحة ما لا يمتلكه الجيش، وأن المقاومة والأحزاب الوطنية لديها من الأسلحة والخبرة أكثر مما لدى حزبي الكتائب والأحرار والجيش معاً. والجيش اللبناني لم يتدخل في المعركة... في الواقع وصلتنا تقارير عن سقوط المسلخ والكرنتينا، ومحللات أخرى. عندئذ قالوا، إذا لم تقوموا باتصال سريع، فإن حزب الكتائب سيجتاح بيروت الغربية. والطريق مفتوحة أمامهم... عندئذ قلت لهم "يا حرام على المنطقة الغربية"... اتصلت بالرئيس فرنجه... واتفقنا أخيراً على وقف لإطلاق النار... بعد ذلك، جاعتنا تقارير تشير إلى تصعيد القتال وأن الأمور سائرة من سييء إلى أسوأ... فبدأت بالتفكير بما يمكن فعله. بذلنا جهوداً سياسية. أرسلنا أسلحة وخبرة... وذلك لم يكن كافياً لانقاذ الوضع. عندئذ لم يعد لنا أي خيار سوى التدخل باسم جيش التحرير الفلسطيني... اتصل بي الرئيس سليمان فرنجه... وقال لي: إن القوات السورية تدخل إلى لبنان... فقلت له: إن موقفنا من الفلسطينيين ثابت، وطالما يتعلق الأمر بهم، فإن خطوطاً حمراء لا يسمح لأحد بتجاوزها. النص الكامل لهذا الخطاب نشره.

Itamar RABINOVITCH, The War for Lebanon, op. cit., p. 201-236.

٥١- قامت قوات الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني بهجوم مشترك في شمال البلاد على منطقة زغرنا التي

دافع عنها جنود لبنانيون وميليشيا المردة، كما الحقوا بالمهاجمين خسائر فادحة في الأرواح.

٥٢- نشر مقتطفات من الترجمة الإنكليزية لهذا الاتفاق وليد خالدي في مؤلفه المذكور، ص ١٨٩ - ١٩١.

يبقى رئيس الجمهورية كما كان حتى الآن، مارونياً، ورئيس الوزراء سنياً، ورئيس مجلس النواب شيعياً. في مجلس النواب يلغى توزيع المقاعد وفق قاعدة ٦ مقابل ٥، وتتوزع بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين. يجري انتخاب رئيس الوزراء بأكثرية عادية من قبل مجلس النواب. كل القوانين تحتاج الى موافقة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء كي تصبح نافذة. نظام الوظائف العامة يبقى قائماً فقط لموظفي الفئة الأولى. ويعمل على وضع تشريع جديد للتجنيس.

بالنسبة لوضع الفلسطينيين في لبنان جرى الاتفاق على العودة الى تطبيق اتفاقي القاهرة وملكارت. وهذه القرارات لم تستهدف تغييراً في السلطة، بل إعادة توزيع محدود لها بين الطوائف. ولكنها اعطت للسنة موقعاً أقوى من حيث تقوية مركز رئيس الوزارة. فثنائية الحكم التي كانت قائمة بحكم الأمر الواقع كرسّت دستورياً، عبر انتخاب رئيس الحكومة من قبل مجلس النواب واعطائه استقلالية اكبر واوسع تجاه رئيس الجمهورية. وكذلك المناصفة في عدد نواب المجلس بين المسيحيين والمسلمين جاءت لتشدّد ايضاً على رمزية التوازن. اما الضمانة للمسيحيين فبقيت في اطار المساواة مع المسلمين في السلطة التشريعية والتنفيذية وفي الوظائف ذات الطابع السياسي، بالاضافة الى ضمانة اخرى تتمثل بعدم تغيير بنية الجيش. اما النجاح الجزئي الذي احرز بالنسبة للفلسطينيين فتركز على تقوية الاتفاقات السابقة التي ضمنت سوريا تطبيقها.

أشار موجز هذا الاتفاق الى اعطاء الطائفة السنية سلطة ومعنوية اكثر، والى تنازل المسيحيين عن صلاحيات لا تشكل خطراً على وضعهم كطوائف غريبة عن مركز القرار. ولكن، من خلال تدخلها السريع وغير المباشر، احرزت الحكومة السورية تسوية، وأمنت لنفسها دور الحكم في لبنان.

٧ - منظمة التحرير والحركة الوطنية ضد الجبهة اللبنانية

أمن اتفاق دمشق بالدرجة الأولى ارتياحاً ورضى لدى السياسيين المسلمين الذين لم يشاركوا في الحرب والذين اعتقدوا انهم لن يقطفوا شيئاً من ثمارها. والفريق الذي رضي به ايضاً كان فريق المسيحيين المناضلين. ولكن فريقين آخرين في النزاع المسلح شعروا بنوع من الخيبة، وهما المنظمات الفلسطينية وحلفاؤهم اللبنانيون في الحركة الوطنية. بالنسبة للفلسطينيين، تعني العودة الى تطبيق اتفاقي القاهرة وملكارت، الحد من حرية تحركهم الواسع، الذي اكتسبوه منذ عام ١٩٧٣، وخاصة منذ اندلاع الحرب. وهكذا اخذت حركة فتح تشكل بنوايا سوريا التي بدأت تخطط، مع تصاعد قوة منظمة التحرير اكثر مما كان ممكناً حتى الآن، للسيطرة على قيادتها السياسية. فقد انتشرت الإشاعات بان سوريا تسعى الى استبدال ياسر

عرفات على رأس منظمة التحرير بزهير محسن رئيس منظمة الصاعقة. وكذلك اخذت المنظمات التابعة لجهة الرفض والتصدي ترئاب بنوايا الحكومة السورية حول الدخول بطريقة او بأخرى في عملية السلام التي تقودها الولايات المتحدة، على غرار ما حدث في اتفاق فصل القوات في الجولان.

وبالنسبة لليسار اللبناني شكّل اتفاق دمشق صدمة كبيرة أيضاً. فبدلاً من علمنة الدولة، او على الأقل "العلمنة السياسية"، جرى توزيع السلطة في المناصب العليا- وقد كان ذلك في السابق إمرأ قائماً ومتعارفاً عليه - وثبت دستورياً. اعتبروا هذا الاجراء تخلفاً وليس تقدماً. فتقوية مقام رئيس الوزراء ادى الى ارتياح كبير لدى الزعماء المسلمين التقليديين الذين كانوا قد تحفظوا حول كل الاتجاهات اليسارية في لجنة الحوار. فقد اعتقد مقاتلو الحركة الوطنية بان مشاركتهم في القتال اثمرت فقط في تقوية مركز رئيس الوزارة تجاه رئيس الجمهورية، واكساب بعض الزعماء التقليديين مقاعد نيابية. ولكن الذي خاب أمله أكثر من أي إنسان، كان كمال جنبلاط الذي كان يرى نفسه على الطريق التي ستؤدي به الى قمة جمهورية جديدة. وقد وجد نفسه الآن كما في السابق في دور ممثل لطائفة صغيرة لن يحصل، وحتى في افضل الحالات، الا على حقبة وزارية. وشعر كمواطن مدرك لاهمية استقلال بلاده بكثير من الاحباط والعار. تبين له بان الصيغة اللبنانية الجديدة فرضتها عملياً سوريا. فبعد اعطاء نفسه فرصة عشرة ايام للتفكير، رفض اتفاق دمشق^{٥٣}.

لم يبق امام معارضي هذا الاتفاق الا فرصة الحؤول دون تطبيقه، وذلك بالعمل على تقسيم الجيش اللبناني. حتى الآن لم يكن الجيش قد شارك في العمليات العسكرية، لان رئيس الوزارة كان يعارض ذلك. وكانت القيادات المسيحية تطالب دائماً باستخدامه، وابرأه "كجيش مسيحي" اقوى من اي وقت مضى. وقد كانت المهام الصعبة التي كلف بها الجيش حتى الآن قد نفذت على مضض، كاقامة منطقة عازلة بين طرابلس وزغرتا، والفصل بين المقاتلين في منطقة الفنادق وفي حصار الدامور، وذلك دون تحديد اهداف واضحة له. لقد كان كرامى يتخوف، مثلما كان يتخوف ايضاً قائد الجيش، حنا سعيد، من انقسام في الجيش في حال تكليفه بمهام امنية. وفي الواقع حصل هذا الانقسام دون اقحام الجيش. ففي كانون الثاني ١٩٧٦ تمرد احد الضباط السنة، احمد الخطيب، الذي كان في موقع عسكري في جنوب لبنان، معلناً تأسيس "جيش لبنان العربي". فانضم اليه عدة مئات من الجنود

٥٣- يبدو أن جنبلاط كان يأمل بالحصول أقله على تسوية تسمح بأن يعود منصب رئاسة الجمهورية لأي عضو من الطوائف المسيحية، ورئاسة الحكومة لأي عضو من الطوائف الإسلامية. وهكذا اذا لم يحظ بمنصب رئاسة الجمهورية، فيستطيع أقله تسلم منصب رئيس الحكومة. (أورد هذه المعلومات أحد كبار ممثلي الحزب التقدمي الاشتراكي). وبصورة مماثلة تحدث ريمون أدع عن سقوط لبنان تحت "الانتداب السوري".

المسلمين^{٥٤}. ترددت قيادة الجيش في قمع هذا التمرد. إلا أن المنظمات الفلسطينية التي كانت تتخوف دائماً من تكليف الجيش بالتصدي لها، رحبت بالخطيب كبطل، ومدته بالمساعدات المالية واللوجستية. ولكن نشاط الخطيب بقي محدوداً، حتى برز حدث آخر. ففي الحادي عشر من آذار احتل قائد موقع بيروت، البريغادير عزيز الأحذب، محطة الراديو والتلفزيون في بيروت، وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً مؤقتاً للبنان، وطالب الرئيس فرنجيه بالاستقالة، كما دعا المجلس النيابي إلى انتخاب رئيس جديد^{٥٥}. ولكن فرنجيه رفض حالاً "تحويله إلى كبش المحرقة في هذه الحرب"، ومغادرة قصر الرئاسة قبل نهاية ولايته الدستورية، "حتى وإن كان في تابوت". ولكن أكثرية من النواب وقّعوا على عريضة تطالبه باستقالته المسبقة. أما كميل شمعون الذي عرف وضعاً مماثلاً عام ١٩٥٨، وبيار الجميل، وإيضاً حافظ أسد، فشجعوه على البقاء والصمود. وقد تبين سريعاً بأن الأحذب لم يكن يتمتع بتأييد عسكري فعلي. فأحمد الخطيب أعلن تأييده للأحذب، ولكنه استغلّ بنوع خاص الفوضى القائمة في جهاز التلغزة الحكومية، كي يحتلّ مع انصاره الثكنات العسكرية الواقعة في المناطق الحدودية. فخلال أيام معدودة ارتفع عدد "جيش لبنان العربي" إلى أكثر من ألف جندي، تمكنوا بنوع خاص من وضع اليد على جزء كبير من سلاح الجيش الثقيل^{٥٦}. عندئذ لم يكن للجنود المسيحيين الموجودين في الثكنات التي احتلها الخطيب إلا الهرب إلى الثكنات الواقعة في المناطق^{٥٧} المسيحية أو العودة إلى منازلهم. فبعد مرور ثلاثة أيام على محاولة البريغادير الأحذب، وجد الخطيب نفسه مع جنبلاط، الذي رأى الفرصة مؤاتية لتحقيق أهدافه رغم اتفاق دمشق، والبلوغ إلى تغيير جذري في النظام اللبناني عبر انتصار عسكري. فنجح في كسب تأييد قيادة منظمة التحرير للاشتراك في هجوم واسع ضد المنطقة المسيحية الرئيسية^{٥٨}.

٥٤- أبلغ سلاح الطيران اللبناني القيادة العليا بأن الخطيب يتجه مع رطل من خمس عشرة شاحنة ومصفحتين من ثكنة كوكبا في اتجاه حاصبيا-المصنع، ولكنه لم يتلق أية أوامر بالتصدي له.

٥٥- اعتقد عدد من المراقبين أن حركة فتح هي التي شجعت الأحذب على القيام بحركة انقلابية، إن لم تكن هي التي وجهته من بعيد. ولكن بعض الضباط المسيحيين، نفوا هذه الامكانية تماماً باعتبار أن الأحذب هو من عائلة سنيّة عريقة من طرابلس، وهو شهابي التفكير والنهج، ولا يعقل بأن يقبل أو يعمل على تقسيم الجيش (من مقابلة مع المؤلف).

٥٦- كانت هناك أسلحة ثقيلة في ثكنات الأطراف التي انضم جنودها إلى حركة أحمد الخطيب: صور (المصفحات)، النبطية (المغاوير)، مرجعيون (مشاة ومدفعية)، صيدا (مشاة، مصفحات ومدفعية)، طرابلس (مصفحات ومدفعية)، بعلبك (مشاة ومدفعية).

٥٧- ثكنات القياضية، (البرزة مركز القيادة العليا)، وصربا (بالقرب من جونبة)، وكذلك المدرسة الحربية.

٥٨- كانت الآراء متضاربة داخل قيادة فتح. فبعض المسؤولين كان يقول بأنه من الممكن، عبر انتصار سريع، وضع سوريا أمام الأمر الواقع، وبالتالي تأمين حرية قرار منظمة التحرير الفلسطينية. كما شكك آخرون وحذروا من مغبة زج القوات الفلسطينية في معركة لا علاقة لها بفلسطين ولا بالدفاع عن أمن المخيّمات. ولكن يبدو أن القرار كان قد اتخذ، وأن جنبلاط وجيش لبنان العربي قررا خوض المعركة.

عندئذ قررت منظمة التحرير، وجيش لبنان العربي، وميليشيات الحركة الوطنية، توحيد "قواتها العسكرية" وتشكيل قيادة مشتركة.

في هذا الخضم وجدت نفسها "الجبهة اللبنانية" التي كانت وحدتها الى حد ما قبل ثلاثة أشهر متفوقة عسكرياً على خصومها، وقد اضعفها التدخل السوري، امام قوات عسكرية متضامنة تتجاوزها عدداً وعتاداً. فأول هجوم قامت به القوات المشتركة كان على بعبداء، مقرّ رئيس الجمهورية. ولكن تصدّى لها الجنود المسيحيون المرابطون في تكتة الفياضية، وكذلك وحدات من منظمة الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني بأوامر من الحكومة السورية. في تلك الاثناء، نجح الفلسطينيون والمرابطون سريعاً، بدعم من سلاح مدفعية جيش لبنان العربي، في السيطرة على آخر مواقع ميليشيات الكتائب في منطقة الفنادق، خاصة في فندق هوليداي إن. وهكذا تمّ نهائياً تقسيم بيروت بين منطقة غربية واخرى شرقية عبر "خط أخضر" يمتدّ بين عين الرمانة والشبيّاح حتى المتحف، ثم عبر طريق الشام حتى ساحة الشهداء، ومنها الى المدخل الغربي للمرفأ، بقي هذا الخط الفاصل بين المنطقتين قائماً حتى نهاية الحرب.

عندئذ اخذت المدفعية الثقيلة لجيش لبنان العربي تقصف بيروت الشرقية وقصر الرئاسة في بعبداء، الأمر الذي دفع بالرئيس فرنجه الى الهرب الى بلدة الكفور في المنطقة المسيحية. وفي الاسبوع الاخير من شهر آذار، قامت القوات المشتركة بهجوم واسع النطاق أوصل قوات الجبهة اللبنانية الى شفير الانهيار العسكري. في تلك الاثناء قامت قوات حركة فتح بقيادة ابو موسى - الذي تمرّد فيما بعد على ياسر عرفات - بهجوم على منطقة الجبل في المتن الاعلى. فاحتلت بلدات المتين، وترشيش وعينطورة، وكادت تصل الى بكفيا، مسقط رأس بيار الجميل. وهذا ما أثار موجة من الهلع المفاجئ في المنطقة المسيحية. ففي نداء مؤثر للغاية من الراديو، دعا بيار الجميل الرجال والنساء المسيحيين الذين يتمكنون من حمل السلاح للدفاع عن وطنهم. هل كان وضع المسيحيين آنذاك فعلاً في حالة انهيار، كما اعتقدوا هم واخصامهم؟ من الممكن جداً التشكيك في هذا الأمر^{٥٩}. فبعد النجاح المفاجئ الذي

ولا يجوز التخلّي عن أفضل الحلفاء في الوقت الحرج. "لقد فعلنا ما يبهج جنبلات"، على حد قول أحد كبار قيادتي منظمة التحرير (من مقابلات مع المؤلف).

٥٩- اعتقد قادة الوحدات الفلسطينية في المتن بأن عرفات اصبح عاجزاً عن اتخاذ قرار حاسم، لانه لا يريد ان يغضب سوريا. وهكذا فالتته فرصة الانتصار. ولكن حسب تقدير بعض كبار الضباط اللبنانيين كانت العملية تحتاج الى فرقتين عسكريتين قوام كل منهما ستة ألوية مجهزة بمصفحات تتمكن من خرق صفوف المدافعين، كي تنجح العملية حتى جونية. وهذه القدرة لم يكن يمتلكها المهاجمون (من مقابلة مع المؤلف). وقد وصف كمال جنبلاط دوره في "معركة الجبل" وآماله منها: "هذه المعركة خطّط لها لضرورة أخذ الانعزاليين من الخلف وعلى أرضهم بالذات، وذلك في معارك أقل كلفة وخسارة من

أحرزته القوّات المشتركة، نجحت وحدات مسيحية من الجيش، تدعمها الميليشيات، في صدّ الهجوم. في تلك الآونة، تحدّث أبو أيّاد عن أن طريق القدس تمرّ بعيون السيمان، وبكفّيا، وجونيه، كما دعا كمال جنبلاط إلى تناول فطور الصباح قريبا جدا في بلدة بكفّيا. ولكن الرئيس حافظ أسد استدعى كمال جنبلاط وطلب منه الحضور فوراً إلى دمشق لإجراء محادثات كان من المفروض أن تغيّر بطريقة حاسمة مجرى النزاع في لبنان.

٨ - التدخل السوري ضد الفلسطينيين والحركة الوطنية

كان كل من حافظ أسد وكمال جنبلاط يكنّ، دون شكّ، تقديرًا معيّنًا للآخر، وكذلك نوعاً من النفور والكره المتبادل. ينتمي كل منهما إلى أقلية معيّنة. ولكن بينما نشأ جنبلاط وترعرع "والمعلقة الذهبية في فمه"، كان حافظ أسد يبني قوته بنفسه^{٦٠}. مارس جنبلاط العابا سياسية خطيرة، ولكن أسد برز كأهم لاعب سياسي يتحلى بالحدز والحكمة على مسرح أحداث الشرق الأوسط. جنبلاط لم يخف إطلاقاً احتقاره لبورجوازية البعث الصغيرة، بينما كان حافظ أسد يعتبر نفسه السياسي الأكثر إدراكاً للمسؤولية في الشرق العربي.

كان جنبلاط يرفض تماماً "تبعية" لبنان لسوريا. وقد ثار غيظه وسخطه من رؤية "شخصية الوالي"، أي الحاكم العثماني، في الحكام السوريين، "وكذلك صورة الفرعون في الحكام المصريين". بالنسبة لحافظ أسد، كان لبنان دائماً، وبأي شكل كان، بلدا تابعا لسوريا^{٦١}.

في كانون الثاني حدّر حافظ أسد جنبلاط من هزيمة يمكن أن تلحق به، موضحاً له عدم تساهله بالسماح بأي انتصار تام، كما عبّر عن الأسباب الكامنة وراء هذا التوجه في محادثاته الطويلة معه، وبعدها مع عرفات، وفي وقت لاحق، في خطاب^{٦٢} شهير ألقاه في ٢٠ تموز ١٩٧٦.

أبلغ حافظ أسد جنبلاط بأن تعديل الوثيقة الدستورية الذي حصل برعايته يستجيب عملياً لكل مطالبه. ورغم ذلك أطلق جنبلاط الدعوة إلى اضطراب عام، وأثار معارك

المعارك التي كانت قائمة في بيروت. فنظراً لمعرفتي الجيدة بتاريخ بلادي وجغرافيته، كنت أنا المحرّض على هذه الحملة التي كان هدفها تقصير مدة الحرب. خلال أسبوعين، كانت أهدافنا على طريق التحقيق... وكنا ننتظر استسلام العدو والسلام في ريفون أو بيت مري". راجع: Philippe

LAPOUSTERLE, op.cit. p. 215f.

٦٠- عن شخصية الرئيس حافظ أسد راجع: كريم بقرانوي، المصدر المذكور، ص ٧١-٧٤.

٦١- Philippe LAPOUSTERLE, op. cit., p.171.

٦٢- الترجمة الإنكليزية لهذا الخطاب في Itamar RABINOVITCH, The War for Lebanon, p. 201-236.

جديدة. سأل حافظ أسد جنبلاط عن هدفه الحقيقي، فأجابته بأنه يريد دولة علمانية. جاء رد حافظ أسد عليه بأن هذا الأمر لا يتعلق بالكثائب، ولكنه غير ممكن بالنسبة للمسلمين اللبنانيين. أما المشكلة الأساسية في الخلافات بين الرجلين، فكانت تكمن في مطلب جنبلاط الهادف الى انتصار عسكري حاسم على الموارنة، الا ان حافظ أسد تجاهل تماماً هذا الامر. فبينما كان جنبلاط يرى تلك المناسبة فرصة تاريخية مؤاتية له، كي يحطم سلطة المارونية السياسية، اعتبرها أسد أيضاً فرصة تاريخية لكسب الموارنة الى جانبه، وافهامهم بان خلاصهم لا يمكن ان يأتي لا من فرنسا ولا من الغرب، بل من ثقتهم بالعرب.

ولكن جنبلاط كان قد نمى في نفسه، ومنذ سنوات عديدة، نفوراً ممزوجاً بالحق ضد الموارنة. "كان الموارنة قديماً كتبة، ورجال فكر، ومؤرخين، وشعراء أقحاح، كما كانوا في الوقت ذاته عمالاً مهرة، وتجاراً بارعين، ومزارعين. ولكن هذا كل شيء، الى ان جاء الإنتداب ووضع السلطة السياسية كلها في ايديهم. فكان ذلك هدية لهم. لم يكونوا اهلاً لها، كما برهنوا فيما بعد... اما نحن الدرزيون فنقول: الماروني هو جاك سبي، لأنه لا يتمتع بشعور واهتمام بالتقاليد ولا بالحكم (الاثراك يقولون شيئاً مماثلاً)^{٦٣}. حتى الرئيس شهاب كان ينظر جنبلاط "مارونياً اكثر من اللازم"^{٦٤}. طلب كمال جنبلاط من حافظ أسد: "دعنا نؤدبهم. نحتاج الى عمل عسكري حاسم. لقد حكمونا زهاء مائة واربعين سنة، ونريد الآن التخلص منهم"^{٦٥}. ولكن أسد علق على هذا المطلب بما يلي: "عند هذه النقطة بالذات ادركت ان كل الأقنعة قد سقطت، فالأمور لم تكن هكذا كما كنا نراها عادة، ولا كما كانت تعرض لنا. فالقضية لم تكن تتعلق بخلافات بين اليمين واليسار، او بين تقدّمي ورجعي، ولكنها تتعلق بعملية ثأر، وبحادث ثأر، يعود الى مائة واربعين عاماً"^{٦٦}.

طلب جنبلاط من حافظ أسد اعطائه مهلة ثلاثة او اربعة ايام، اسبوعاً واحداً او اسبوعين كحد أقصى، كي يفرض الاستسلام على خصومه^{٦٧}، ولكن حافظ أسد حذره مرة أخرى من الانسياق في هذا الطريق اي طريق "المؤامرة"، الذي يمكن ان يخدم المصالح الاسرائيلية فقط. عندئذ غادر جنبلاط دمشق بانطباع يشير الى ان سوريا تريد الحفاظ على توازن بين اطراف النزاع في لبنان. اما حافظ أسد فكان

٦٣- Philippe LAPOUSTERLE, op. cit., p.96.

٦٤- من مقابلة مع المؤلف عام ١٩٧١

٦٥- هذا ما جاء في خطاب حافظ أسد في ٢٠ تموز ١٩٧٦، راجع: Itamar RABINOVITCH, op. cit., p. 218.

٦٦- ذات المصدر، ص ٢١٨ - ٢١٩. حسب مصادر مختلفة، جرى تسجيل النقاش بين أسد وجنبلاط. وقد يكون الرئيس حافظ أسد قد أرسل نسخاً من هذا التسجيل الى كل رؤساء الدول العربية.

٦٧- Philippe LAPOUSTERLE, op. cit. p.184.

مقتنعاً بأن جنبلاط سيواصل تصعيد الحرب. وكذلك كان الارتياح يداهمه ويقلقه. فالانتصار العسكري الحاسم ليس ممكناً لأنه لا يرتبط فقط بالقوى المسلحة. ومن المحتمل أن يؤدي إلى ظلم جزء من شعب لبنان، وبالتالي سيتضامن العالم مع المظلومين. وقد يؤدي التقسيم أيضاً إلى نشوء دولة "ملوّهة الحقد"، دولة قد تصبح أكثر خطراً وحقداً من إسرائيل، لأن سكانها ليسوا "يهوداً أو غرباء". "فهم جزء هام من شعبنا". فالظلم سيجعلهم أكثر عداوة للعرب من الاسرائيليين. إضافة إلى ذلك، الحل العسكري "سيفتح الباب أمام كل تدخل اجنبي، خاصة التدخل الاسرائيلي".

وبعد زيارة جنبلاط إلى دمشق بيوم واحد، استقبل حافظ أسد ياسر عرفات، ولفت نظره إلى خطورة مشاركة المقاتلين الفلسطينيين في مشروع جنبلاط^{٦٨}. قال له آنذاك: "لا أستطيع أن أتصور أية فائدة سيجنيها الفلسطينيون من معارك جبال لبنان العالية بالنسبة لتحرير فلسطين... فالفلسطيني الذي يقاتل في جبال لبنان، لا يقاتل إطلاقاً في سبيل فلسطين. هو يريد تحرير جونية وطرابلس وليس فلسطين، حتى وإن صرّح عكس ذلك"^{٦٩}. وافق بعد ذلك عرفات على وقف المعارك، ولكن المواقف داخل حركة فتح كانت متضاربة حول ضرورة التأثير والخضوع للضغوط السورية. أما جنبلاط فقد صعد الأمور وحث حلفاءه على متابعة المبادرة المشتركة، فتواصلت المعارك، رغم تراجع حدتها.

عندئذ قرّرت القيادة السورية التدخل مجدداً في النزاع في لبنان. في تدخلها الأول حالت دون تحقيق نصر لصالح الأحزاب والميليشيات المسيحية، أو أقله دون تحقيق نصف انتصار كان قد يؤدي إلى تقسيم البلاد. والآن تريد أن تحول، مهما بلغ الثمن، دون السماح لانتصار يحززه تحالف الفلسطينيين والحركة الوطنية. لأن ذلك سيؤدي، بنظر سوريا، إلى هجوم اسرائيلي، أو إلى قيام قوة عسكرية سياسية مناضلة تشكل من منظمات فلسطينية مستقلة تماماً عنها ومن زعماء لبنانيين، مثل كمال جنبلاط الذي تعتبره انساناً مغامراً. في مثل هذا الحال، قد تقع سوريا في وضع حساس للغاية بين نظام بعث نضالي ومنافس لها شرقاً (أي في العراق) ونظام يصعب خرقه في لبنان، غرباً. وقد زاد في التخوفات السورية إمكانية فقدانها السيطرة على تطوّر الأوضاع في لبنان، بسبب جهود جنبلاط وعرفات للحصول على مساعدة مصرية^{٧٠}.

أما الخطوة الأولى التي اتخذتها سوريا، فكانت قطع امدادات الاسلحة والذخيرة

٦٨- حسب قول أسد، راجع Itamar RABINOVITCH، المصدر المذكور، ص ٢١٩ وما يليها.

٦٩- ذات المصدر ص ٢٢١.

٧٠- في آذار طلب عرفات من السادات إرسال لواء عين جلود التابع لجيش التحرير الفلسطيني إلى لبنان. وقد حال دون ذلك هجوم قوات المصاعقة ووحدات جيش التحرير الفلسطيني الموالية لسوريا.

عن تحالف جنبلاط ومنظمة التحرير. ثم بدأت تعد لعملية تدخل جديد في لبنان بالتفاهم مع الولايات المتحدة، وبواسطتها، مع إسرائيل. فثناء رحلة قام بها "دين براون"، وزير الخارجية الأميركي المساعد آنذاك إلى الشرق الأوسط، حصل اتفاق معه يقضي بطلب الولايات المتحدة من إسرائيل عدم معارضة القوات السورية في لبنان، طالما لم تعبر "خطاً أحمرًا" في جنوبه. وفي ذات الوقت، ابلغ الاتحاد السوفياتي كلاً من جنبلاط وعرفات ضرورة احترام وقف إطلاق النار الذي تطالبهم به سوريا. ولكن جنبلاط، وكذلك عرفات المتردد، واصلا إطلاق النار دون هوادة. لقد اعتراهما الشك في خطر احتمال قيام سوريا بهجوم كبير على قواتهم. في هذا الصدد صرّح جنبلاط لاحقاً: "لم نتحسّب بدقة لهذا الخطر، لقد اعتمدنا على أوروبا، والولايات المتحدة الأميركية، وفرنسا والعرب، والسوريين بالذات، على منع الرئيس حافظ الأسد من تنفيذ خطته وإرسال جيشه إلى لبنان. لم نعتقد إطلاقاً بخطر التدخل العسكري. وقد يعود ذلك إلى عدم إدراكنا الكافي للعلاقات الناشئة آنذاك بين سوريا وواشنطن، والضغط الأميركي على إسرائيل بالنسبة لما يحدث في لبنان. لقد كان ذلك خطأً كبيراً في التقدير"^{٧١}.

حصل التدخل السوري، ولكنه جاء بهدوء وبخطى ثابتة، متقطعاً دائماً بسبب المفاوضات. في مطلع نيسان عبرت وحدات سورية نظامية الحدود اللبنانية واتخذت مواقع لها في سهل البقاع. وفي الوقت ذاته، حصلت مفاوضات بين الحكومة السورية والسياسيين اللبنانيين من كل الفئات حول امكانية الوصول إلى حلّ سياسي عبر انتخابات رئاسية مسبقة. فعُدل المجلس النيابي في التاسع من نيسان المادة ٧٣ من الدستور كي يسهل ذلك. وبينما كانت تدور معارك طاحنة في الجبل وفي بيروت، حاول النواب البحث عن مرشح للرئاسة وانتخابه بالاجماع. فالمرشح الياس سركيس الذي نافس عام ١٩٧٠ سليمان فرنجيه على الانتخابات، وفشل بفارق صوت واحد، لقي تأييداً ليس فقط من قبل تحالف النواب الشهابيين فحسب، بل أيضاً من قبل عدد من النواب المسيحيين الذين صوتوا سابقاً ضده. فبرز سركيس كمواطن لبناني رفيع الشأن. واعتبر أيضاً "مرشح سوريا"، كما كان يتميز بعدم انتمائه إلى أي فريق من فرقاء النزاع. أما جنبلاط فرفض الياس سركيس عام ١٩٧٦، كما رفضه عام ١٩٧٠. وبعد ان رأى صعوبة في منع اجراء الانتخابات، أيد ترشيح ريمون واده، الذي "ترشّح من حيث المبدأ". وكان ريمون واده ترشّح عام ١٩٥٨ ضد فؤاد شهاب دون الأمل بالفوز لأنه كان يعارض مبدئياً تدخل العسكر في السياسة. وفي عام ١٩٧٦ لم يكن حظه افضل من السابق. ولكنه هذه المرة عارض التدخل الاجنبي في الانتخابات، التي رفضها قطعاً: وهكذا اصبح رائد الليبرالية في لبنان

مرشحاً عن اليسار. وفي الثامن من أيار جرى انتخاب الياس سركيس بأكثرية ساحقة^{٧٢}.

شكل هذا الانتخاب هزيمة سياسية للحركة الوطنية، ومؤشراً للمنظمات الفلسطينية من خطر فرض وجود السلطة اللبنانية على الارض بتأييد ودعم من سوريا، وبالتالي الحدّ مجدداً من حرية تحركها. ولكن لم يفقد الحليفان الأمل بالحفاظ على السلطة العسكرية التي احزها على قسم كبير من الاراضي اللبنانية.

ومن جهة أخرى، تمكنت الجبهة اللبنانية سريعاً من استيعاب الصدمة التي تعرضت لها في الهجوم على منطقة المتن الأعلى، وبدأت بهجوم مضاد، احتلت خلاله بعض البلدات التي كانت تسيطر عليها الحركة الوطنية سابقاً. وعلى جبهات بيروت تواصلت الاشتباكات بأسلحة المدافع. وقد صرح سليمان فرنجيه بأنه نظراً الى الوضع القائم في البلاد، لم يعد يفكر بالاستقالة قبل نهاية مدة ولايته القانونية.

وبعد ان وصلت العلاقات بين الحكم السوري والحركة الوطنية، منذ زيارة جنبلات الى دمشق، الى ادنى مستوى، اشتدت أيضاً حدة التوتر بين سوريا والفلسطينيين. فأخذ عرفات يبحث عن تأييد له لدى الدول العربية الاخرى. فارسلت ليبيا وزير خارجيتها، جلود، الى دمشق، حيث حاول التوسط، ولكن دون نجاح يذكر. وكذلك مصر حذرت سوريا من تدخلات أخرى في لبنان. فحول جبهة الرفض ومصر ارادت الحؤول دون تقوية النفوذ السوري على منظمة التحرير، وان لاسباب مختلفة. فقد سافر عرفات الى ليبيا، بهدف كسب تأييد الدول العربية لصالحه^{٧٣}. اما الاتحاد السوفياتي الذي كان يؤيد الفريقين، أي سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية، فقد اهتم بابعاد شبح المجابهة بين حليفه الرئيسيين في الشرق الاوسط. لذلك جاء لهذه الغاية، في اول حزيران ١٩٧٦، رئيس الوزراء السوفياتي، الكسي كوسيفن، الى دمشق. وفي ذات اليوم ارسلت الحكومة السورية الى لبنان وحدات عسكرية مع مجموعة من الدبابات، ولكنها لم تتوقف هذه المرة في سهل البقاع، بل عبرت من الشمال نحو طرابلس، وعبر جزين نحو صيدا، والى وسط لبنان عبر طريق دمشق

٧٢- نال سركيس ٦٦ صوتاً من أصل ٦٩ نائب حضروا الجلسة. كما حاولت منظمة التحرير والحركة الوطنية الحؤول دون اكتمال النصاب، بينما أمنت قوات الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني حماية قصر منصور، مجلس النواب المؤقت، ومراقبة النواب، الذين جاؤوا للتصويت لسركيس. بعد انتخابه رئيساً تعرض الياس سركيس في فندق كارلتون، حيث كان يقيم منذ عام ١٩٧٥، لهجوم من قبل كومندوس المرابطون. وقد نجا من الخطف بفضل تدخل قوات الصاعقة التي أمنت الحماية حول الفندق بعد معارك دامت عدة ساعات. والنائب سليمان العلي، من منطقة عكار التي تستولي عليها سوريا، قرر للتصويت في البداية لصالح ريمون إده، ولكنه صوت لسركيس حسب قوله: "نزولا عند طلب اصديقاتنا السوريين".

٧٣- متع عرفات من المرور عبر سوريا. ولكنه نجح على طرق أخرى. فمطار بيروت كان مغلقاً، بعد أن قصفته وحدات مسيحية من الجيش للحؤول دون شحن الأسلحة الى الفلسطينيين بطريق الجو.

- بيروت. في عكار والبقاع، انتهت الحصار الذي كان مفروضاً على البلدات المسيحية التي طالبت مساعدة سوريا^{٧٤}. في البقاع، اصطدمت مع قوات منظمة التحرير والحركة الوطنية، التي كانت قد شنت هجوماً عنيفاً على وحدات منظمة الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني في بيروت. وهكذا بدأت الحرب السورية - الفلسطينية كنزاع بين الفلسطينيين، فانضم قسم من جيش التحرير الفلسطيني الى المهاجمين، وجرى تصفية القسم الآخر. وبالنتيجة تكبدت منظمة الصاعقة خسائر جسيمة^{٧٥}، وكذلك حصلت اقتحامات من قبل حركة فتح لمراكز حزب البعث المؤيد لسوريا ولمجموعات أخرى مؤيدة لسوريا ايضاً داخل الحركة الوطنية. كما أسرت جنوداً في سلاح الجو السوري في مخيمات الفلسطينيين. وبعد ساعات قليلة لم يبق في بيروت اية قوات حليفة لسوريا جاهزة للقتال. وقد افرج عن زعمائها وقادتها بفضل الوساطة الليبية والجزائرية فقط.

على أثر ذلك رفعت سوريا عدد وحداتها في لبنان إلى ١٢ الف جندي. في السابع من حزيران وصلت هذه الوحدات الى مصيف صوفر على طريق بيروت-

٧٤- حاولت سوريا تبرير تدخلها أمام الرأي العام. لقد قيل ان في بعض الحالات ارسلت برقيات من القرى، رغم عدم وجود مكاتب البريد والبرق فيها. فقد هاجم جيش لبنان العربي بلنتي القبيات وعندقت. ولكن هذا الهجوم حصل حسب المصادر الفلسطينية بإيعاز سوري، عن التدخل السوري، راجع: وليد خالدي، المصدر المذكور، ص ٥٨.

٧٥- زهير محسن، زعيم منظمة الصاعقة، هرب في البداية الى بيروت الشرقية، ثم احتسب لدى القوات السورية. وفي صيف ١٩٧٩ جرى اغتياله في مدينة "كان" (Cannes) الفرنسية على أيدي عناصر مجهولة.

دمشق، وإلى صيدا في الجنوب. وعندما دخلت مصفحات الاستطلاع السورية الى مدينة صيدا، الحق بها الفلسطينيون وجنود جيش لبنان العربي خسائر فادحة وارغمتها على الانسحاب^{٧٦}، ولكن الرد السوري كان قصفا مدفعا عنيفا خلال ساعات طويلة على مخيمات الفلسطينيين في صيدا، وبيروت الغربية، وطرابلس^{٧٧}. فقد أثار انفجار المجابهة المباشر بين سوريا والفلسطينيين مشاعر العالم العربي أكثر مما حدث في مراحل الحرب سابقا. فركز العراق وحدات مكثفة من جنوده على الحدود مع سوريا^{٧٨}. وسافر رئيس الوزراء الليبي الى بيروت في محاولة وساطة جديدة. وعقد وزراء خارجية دول الجامعة العربية اجتماعاً طارئاً في القاهرة، وطالبوا على أثره بوقف فوري لإطلاق النار، كما قرروا إرسال قوات سلام عربية الى لبنان. فوصل اليه ألفا جندي من السودان، ولحق بهم فوج من الجيش الليبي.

في تلك الاثناء، بدأت ميليشيات الجبهة اللبنانية ووحدات مسيحية من الجيش اللبناني هجوماً عنيفاً على مخيمات الفلسطينيين الواقعة شرقي بيروت. قبل ذلك بسنة ونيف تدخلت سوريا لوقف هجوم سابق على هذه المخيمات، ولكنها هذه المرة لم تقف حجر عثرة في طريقها. بالنسبة للجيش السوري، كان الأمر يتركز هذه المرة على ممارسة أكبر ضغط ممكن على منظمة التحرير. بدأ بالهجوم "تمور الاحرار" (الميليشيا التابعة لشمعون) وعدد من الجنود النظاميين، بينما تردد حزب الكتائب في البداية، قبل ان تنضم ميليشياته لاحقا الى المهاجمين. اما الدور العسكري الأهم فقد لعبته وحدات من الجيش اللبناني، التي اعيد تنظيمها بعد انقسام الجيش، ونزلت لأول مرة الى ارض المعركة. فسقطت عشية اليوم الأول للهجوم المواقع الفلسطينية الواقعة على تلة المير المشرفة على مخيم تل الزعتر. وبعد ثمانية ايام من ذلك، اي في اول تموز، اقتحمت وحدات تابعة للجبهة اللبنانية، مخيم جسر الباشا.

وفي سبيل تخفيف الحصار عن مخيماتهم المهددة، اراد الفلسطينيون ممارسة الاستراتيجية السابقة، أي القيام بهجوم على "جزر سكانية" مسيحية في امكنة اخرى. ولكن امكانية الاختيار هذه المرة كانت محدودة. ففي عكار والبقاع ومنطقة جزيين كانت تتمركز قوات سورية، والجيوب التي كانت في منطقة نفوذ منظمة التحرير جرى تصفيتُها في كانون الثاني. ولم يبق امامهم الا بلدة دير القمر الواقعة في وسط الشوف. ولكن جنبلاط رفض السماح لمثل هذه العملية في منطقته، اذ لم يكن يقبل

٧٦- في هذه المعركة قُتل ابن أخ الرئيس أسد. فجري تقطيع جسده قبل ان ترسل الى عائلته في اللاذقية.

٧٧- بتحريض سوري قام سلاح الطيران اللبناني الموجود في مطار الرياق في البقاع بهجوم على قوات منظمة التحرير على طريق بيروت - دمشق.

٧٨- حارب متطوعون عراقيون في صفوف جبهة التحرير العربية مع الجانب الفلسطيني وقد قطع العراق مواصلة ضخ البترول عبر أنابيب شركة الأي بي سي (IPC) التي تمر عبر سوريا، الأمر الذي حرمها من مداخيل مرتفعة للغاية.

اطلاقاً برؤية فلسطيني واحد فيها. كانت دير القمر مصانة تماماً قبل الحرب، واران جنبلاط ان تبقى هكذا. عندئذ قام الفلسطينيون بهجوم في الشمال. فاقترحوا سهل الكوره جنوبي طرابلس، حيث سهلت مهمتهم مراكز الحزب القومي السوري هناك. فاحتلوا مدينة شكا على الشاطئ، ومارسوا فيها تدميراً وحرقت منازل ومجازر رهيبه. اما رد الفعل المضاد من قبل الجبهة اللبنانية فجاء سريعاً، عبر وحدات مسيحية من الجيش النظامي، استخدمت المصفحات والدبابات بالتعاون مع الميليشيات^{٧٩}. قامت هذه الوحدات بهجوم على القوات الفلسطينية وطاردتها حتى شواطئ مدينة طرابلس. وهكذا حوصر الفلسطينيون في المدينة وفي مخيماتهم، في الشمال من قبل السوريين، وفي الجنوب والشرق من قبل قوات الجبهة اللبنانية.

وفي الوقت ذاته، تراجع الجيش السوري امام ضغط منظمة التحرير، فانسحب من جوار صيدا الى منطقة جزين. ولكن تمّ أيضاً عزل المقاتلين الفلسطينيين في المتن الأعلى عن مراكزهم وقياداتهم في بيروت، فوقعوا في فخ بين القوات السورية من جهة، وقوات الجبهة اللبنانية من جهة ثانية.

امام هذا الوضع العسكري المترديّ أيدت منظمة التحرير استعدادها للتفاوض مع الحكومة السورية عبر وساطة ليبية، فتعهدت قاداتها بوقف لاطلاق النار، و"عدم التدخل" بالشؤون اللبنانية، واحترام اتفاق القاهرة، والتعبير عن تقدير جهود الدور السوري "في الدفاع عن القضية الفلسطينية". ولكن التنازل الذي وافقت عليه حركة فتح، لم تقبل به المنظمات الفلسطينية التابعة لجبهة الرفض ولا الحركة الوطنية أيضاً، التي طالبت بانسحاب الجيش السوري اولاً. ومن جهة ثانية ابرزت الجبهة اللبنانية قلقاً حول ما رآته من تقارب جديد بين السوريين والفلسطينيين: فزادت من ضغطها العسكري على المواقع الفلسطينية المتبقية في شرق بيروت. ففي السادس من آب احتلت قواتها الحيّ السكني الشيعي الفلسطيني في النبعة، وكان الامام موسى الصدر قد تفاوض مع القيادات المسيحية حول اجلاء سكانه. وهكذا بقي آخر معقل فلسطيني في شرق بيروت في تل الزعتر. ولكن المنظمات الفلسطينية التابعة لجبهة الرفض حاولت يائسة، منذ بداية الحصار، ايجاد منفذ انطلاقاً من بيروت الغربية للمشاركة في القتال. فكانت قواتها تحاول دائماً النفاذ الى تل الزعتر عبر محلة، تدعى "غاليري سمعان"، نسبة الى مصنع للموبيليا هناك، تقع شرقي الحيّ المسيحي في عين الرمانة، وانطلاقاً من برج البراجنة والشياح الواقعين على بعد كيلومترين ونصف من تل الزعتر. كان يقاتل على تلك الجبهة جنود ليبون وعراقيون أيضاً.

٧٩- بسبب فشل عمليّة شكا، أخذ الفلسطينيون ينظرون بحذر الى جنبلاط لأنه منعهم من تحقيق نصر أكيد على بلدة دير القمر غير المسلمة. ابتداءً من ذلك التاريخ بدأت العلاقات تتو بين جنبلاط ومنظمة التحرير.

ولكن لم ينجحوا إطلاقاً بفتح اية ثغرة^{٨٠}. وبعد ٥٣ يوماً من الحصار، ومقتل الكثيرين من المقاتلين سقط مخيم تل الزعتر. فبعد الكرنتينا، والدامور، وشكا، وعدد كبير من المآزر "الصغيرة" التي حصلت في الهجومات على "الجزر السكانية"، حصلت أيضاً في تل الزعتر مجزرة كبيرة أخرى. فقد استغلت قيادة منظمة التحرير هذا الهجوم، فاستخدمت أجهزة الاعلام والصحافة للقيام بدعاية عالمية، وابرازه كرمز للمقاومة الفلسطينية كما اعتبرت الدفاع عن هذا المخيم الذي كان اهم قاعدة للفلسطينيين في لبنان كوسيلة للحصول على مساعدات ودعم عربي وغير عربي، وسبيلا للتحرر من النفوذ السياسي السوري. وفي الواقع، نجح الفلسطينيون في اثارة الرأي العام العربي والدولي، ولكن لم يأت احد لنصرتهم.

خرجت الجبهة اللبنانية منتصرة من تلك المعركة. فبعد تعرضها في شهر آذار الماضي الى هزيمة ممكنة، لم يبدو الانتصار بعد ذلك امراً مستحيلاً. فقد سيطرت بدون منازع على مساحة تمتد من منطقة زغرتا الجبلية وشواطئ طرابلس شمالاً حتى الخطوط الخضراء في الجنوب. فحزام المخيمات حول بيروت الشرقية تم القضاء عليه. واخذ يتحدث بعض قادتها عن "تحرير تام" للبلاد، بينما أعلن جنبلاط الذي ابتعد كثيراً عن اهدافه، الحرب بكل الوسائل ضد سوريا، كامكانية وحيدة بقيت امامه. ولكن منظمة التحرير، وكانت قيادتها اكثر واقعية منه، لم تهتم كثيراً بكلامه وخططه. فحاولت كسب الوقت عبر المفاوضات، دون ابداء الاستعداد للاستسلام تحت الضغط السوري. حافظ الفلسطينيون على مواقع قوية في صيدا، وطرابلس، وبيروت الغربية، وفي المنطقة الجبلية شرق بيروت. لذلك لم تر منظمة التحرير اي مبرر يدفعها للاستسلام. فسوريا عرفت سابقاً في صيدا اختباراً جعلها تتحذر وتتخوف من محاولة احتلال مدينة، يتمركز فيها عدد كبير من المقاتلين، قادرين على الحاق ضرر كبير في حياة الجنود النظاميين. فرأت من الافضل والانسب لها ان تقوم قوات الجبهة اللبنانية بالحاق ببعض الهزائم بالفلسطينيين، دون تعريض قواتها للخطر.

ولكن نظراً لرفض الفلسطينيين، بعد سقوط تل الزعتر، الخضوع لارادة السوريين، ونظراً لمواصلة القتال واطلاق النار دون تقطع بين جزئي العاصمة، بدأ الجيش السوري تحركه، فشدد الضغط على الفلسطينيين المحاصرين في المتن الاعلى، وواصل تقدمه ببطء على طريق بيروت-دمشق.

في الثالث والعشرين من ايلول، انتهت ولاية الرئيس فرنجيه، وتسلم سدة الرئاسة الياس سركيس^{٨١}، الذي لم يتمكن من تسلم السلطة في بيروت بسبب القتال، بل في

٨٠- رفض الفلسطينيون اجلاء السكان المدنيين من المخيم من قبل الصليب الأحمر، وقبلوا فقط بنقل الجرحى.
٨١- كتب كريم بقرادوني عرضاً مفصلاً عن عهد الرئيس سركيس في كتابه المذكور. تجدر الإشارة الى ان

مدينة شتورا التي يحتلها السوريون. ففي خطابه الى الأمة^{٨٢} الذي ناقش مضمونه مسبقاً مع الحكومتين السورية والمصرية، تحدث الرئيس سركيس عن تسوية بين مختلف الاطراف، مستبعداً اي تقسيم للبلد، ومشيراً الى ان لبنان سيواصل دعمه للقضية الفلسطينية. ولكنه في الوقت نفسه طالب منظمة التحرير باحترام اتفاق القاهرة. كما تعهد بالعمل على درس ومناقشة الاصلاحات في الدولة والمجتمع. وقد اعلن بنوع خاص، ما تجنب اعلانه الرئيس فرنجية وحكومته، بان الجيش السوري جاء الى البلاد بدعوة منه. بالنسبة للرئيس حافظ أسد، كان الوجود السوري منذ البداية يحظى بشرعية عربية، ولكن أضفيت عليه الآن شرعية لبنانية ايضاً.

مع بداية عهد الرئيس الياس سركيس التي أثرت نفسياً، سكنت اصوات المدافع مدة ثلاثة ايام. كان اللبنانيون ينتظرون - وان باطلاً - الامل منذ انتخابه قبل اربعة اشهر، ويعلمون انفسهم بتوقف الحرب. ولكن هذا الارتياح لم يدم طويلاً. فبعد ثلاثة ايام هاجم مقاتلون فلسطينيون تابعون لمنظمة مؤيدة للعراق، فندق سميراميس في دمشق وحجزوا رهائن فيه. فقامت حالاً القوات السورية باقتحامه والقبض على منفذي الهجوم الذين بقوا على قيد الحياة واعدامهم شنفاً علانية. ثم جرى طرد الفلسطينيين وميليشيات الحركة الوطنية في المتن الأعلى. ومن جانبها حاولت قوات الجبهة اللبنانية عبور طريق بيروت - دمشق واحتلال مدينة عاليه، ولكنها فوجئت بالمدفعية السورية التي اوقفتها.

في الواقع، كانت الحكومة السورية قد اتخذت قراراً، بوضع حد لما اكتسبته القوات المسيحية خلال فصل الصيف والاكتفاء به، حتى لا يتعرض لخطر جديد التوازن اللبناني - اللبناني الذي تم التوصل اليه^{٨٣}. فقد ارادت الحكومة السورية انجاز ما بقي بواسطة قواتها. ففي الثالث عشر من تشرين الاول احتلت هذه القوات بعد تبادل مدفعي عنيف مع الفلسطينيين مدينة بحدون الجبلية. وفي الوقت ذاته تقدمت نحو صيدا. عندئذ لم تعد منظمة التحرير تشك اطلاقاً بنوايا سوريا الفعلية. ولكن الجيش السوري تكبد خسائر فادحة في معركة بحدون. وهذا ما دفع بالحكومة السورية الى التفكير بامكانية الانتصار النهائي والحاسم على منظمة التحرير ولكنه سيكون مكلفاً جداً. في تلك الفترة، دعت المملكة العربية السعودية^{٨٤} الى عقد مؤتمر

بقراوني كان "مراقباً مشاركاً" للأحداث، كما كان مستشاراً سياسياً للرئيس.

٨٢- راجع مقتطفات لترجمة هذه الرسالة بالانكليزية في مؤلف وليد خالدي المذكور، ص ١٩٣ - ١٩٥.

٨٣- السبب الآخر هو ان المقاتلين المسيحيين بعد احتلالهم بلدة صليما التي هُجر منها المسيحيون سابقاً، مارسوا عمليات انتقامية وقتلوا عدداً من سكانها الدروز.

٨٤- أوقفت الحكومة السعودية مساعدتها المالية عن سوريا، وهذا ما دفع بالحكومة السورية، خاصة بسبب اكلاف تدخلها في لبنان، الى تقليص موازنتها الى النصف. بعد وقف اطلاق النار ومؤتمر الرياض عادت المملكة السعودية من جديد الى دفع مساعداتها المالية. "هكذا كان السعوديون مسؤولين عن انتهاء

قمة في الرياض في ١٥ تشرين الأول لرؤساء دول كل من مصر، وسوريا، ولبنان، ورئيس منظمة التحرير. فلبوا جميعا الدعوة. وفي السادس عشر من تشرين الأول دخل اتفاق جديد لوقف إطلاق النار حيز التنفيذ، وانتهت بذلك الحرب السورية الفلسطينية.

اتخذ مؤتمر الرياض في الثامن عشر من تشرين الأول عدداً من القرارات. منها إرسال قوة سلام عربية تتألف من ٢٥ ألف جندي، تعمل على حفظ السلام في لبنان، وتوضع تحت إمرة الرئيس اليباس سركيس^{٨٥}. كما تقرر ان تشكل القوات السورية القسم الأكبر منها^{٨٦}، وانسحاب الفلسطينيين الى المناطق المحددة لهم في اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩، وتسليم اسلحتهم الثقيلة واسلحة فرقاء النزاع الآخرين في لبنان الى قوات حفظ السلام. وفي ٢٥ تشرين الأول صدق مؤتمر قمة عربي آخر عقد في القاهرة، على هذه القرارات، ولكن ليبيا والعراق لم يوافقا عليها.

اما نتائج هذه المؤتمرات وكذلك محصلة الصراعات والمعارك على الأرض فكانت مرضية لسوريا التي حالت دون انتصار أي فريق في النزاع عبر تدخلها مرة لصالح هذا الفريق ومرة لصالح ذاك. ولكن التدخل الثاني كلفها الكثير من التضحيات. لذلك تخلت عن قسم كبير من المعارك الطاحنة الى قوات الجبهة اللبنانية، وتقدمها العسكري البطيء والحذر، معتمدة على أسلوب -"لا حرب خاطفة، بل تقدما بطيئاً، والإقدام على القليل من المعارك الطاحنة، واللجوء الى قصف مدفعي عنيف"^{٨٧}. مكنها هذا الأسلوب من تجنب تعريض قواتها لخسائر كبيرة. وهكذا تخلت سوريا عن تحقيق نصر عسكري شامل، ولكنها بقيت من حيث مشاركتها في قوة السلام العربية، اقوى قوة عسكرية على الأرض اللبنانية^{٨٨}، كما اكتسبت لقواتها موافقة شرعية لبنانية وعربية أيضاً. اضافة الى ذلك، حصلت على تمويل لقواتها من الدول العربية المنتجة للنفط^{٨٩}. وقد اضطرّ الفلسطينيون الى القبول بدور سوريا القيادي في لبنان. فخسروا عدداً من اهم مواقعهم، الأمر الذي جعلهم

الحرب الأهلية". راجع: Adeed I. DAWISHA, The Impact of External Factors on Syria's

Intervention in Lebanon, in: Journal of South Asian and Middle Eastern Studies, 2(1978)1, p. 40.

٨٥- عن قمة الرياض راجع: كريم بقرادوني، المصدر المذكور، ص ٤٥ وما يليها. وكذلك

Walter sung_BODIGHEIMER, Die arabischen Gipfelkonferenzen von Riad und Kairo. Ein Versuch zur L

der Libanonkrise, in: Europa-Archiv, 32(1977)2, p. D48-D54

٨٦- شاركت في قوات حفظ السلام وحدات أخرى من دولة الإمارات العربية المتحدة، ومن المملكة العربية

السعودية، ومن اليمن الشمالي، ومن السودان.

٨٧- راجع René CHAMUSSY المصدر المذكور، ص ١٨٥.

٨٨- ٢٥ ألف جندي سوري مقابل خمسة آلاف جندي من الدول الأخرى.

٨٩- حوالي ١٨٠ مليون دولار بالسنة.

يترجعون عسكرياً وسياسياً الى الحالة التي كانت قائمة قبل عام ١٩٧٣.

كذلك تحولت فكرة تشكيل حكومة لبنانية مرتبطة بهم، كما بدا لهم ذلك ممكناً في وقت من الأوقات، الى حلم بعيد المنال، ولكنهم حافظوا على وضعهم الكفاحي، كما كان عام ١٩٦٩. تثبت ذلك مجدداً، فحصلوا هذه المرة على ضمانة الدول العربية. ألحقت بهم خسائر جسيمة، ولكن لم تنهار قواتهم العسكرية. اما الدولة اللبنانية فاعطيت فرصة جديدة. فالرئيس سركيس لم يكن يتمتع بسلطة على جيش خاص، ولكن وضع تحت أمرته جيش عربي. اما الخاسرون في الرياض، فكانوا زعماء الحركة الوطنية والجبهة اللبنانية، اي تجمع المتطرفين في الحرب الاهلية. فقد اضطروا - الجبهة اللبنانية، بعد تردد طويل - الى القبول بتمركز قوات السلام العربية في مناطقهم. ففي الرابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٧٦ تقدم حوالي ستة آلاف جندي من الجيش السوري بقبعاتهم الزرقاء دون اية مقاومة ودخلوا الى منطقتي بيروت الغربية والشرقية.

٩- مواصلة الحرب بين الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين في الجنوب

على السؤال حول ما دفعه الى القبول بانتخابه رئيساً للجمهورية عام ١٩٧٦، اجاب الياس سركيس: "اعتقدت ان الحرب ستنتهي، وان اعادة بناء البلاد يمكن ان تبدأ. لهذه المهمة اعتبرت نفسي مؤهلاً. اما الذي لم اعرفه ولم اتوقعه هو ان الحرب بدأت بعد ذلك"^{٩٠}. بدأ سركيس عمله بتفاوض مندفع. تمركزت قوات السلام العربية دون اي حادث يذكر. وبدأت حكومة من التقوقراط غير السياسيين برئاسة استاذ الاقتصاد سليم الحص، بالتخطيط والعمل لإعادة البناء. وكذلك تمكن الضباط الذين لم يشاركوا في الحرب الأهلية مع اي فريق، من اعادة بناء جيش جديد.

بقيت هذه البدايات الزاخرة بالأمل مقتصرة على جزء من البلاد، يقع شمال "الخطوط الحمراء"، وذلك لعدم قبول اسرائيل بوجود اية قوات عربية، خاصة سورية، جنوب هذه الخطوط^{٩١}. في تلك المنطقة الجنوبية لم تعرف الحرب نهاية، بل فيها بدأت اعادة تصعيد العمليات العدوانية في باقي البلاد. في العام ١٩٧٥ و١٩٧٦ لم تتميز احداث الجنوب كثيراً عن الأحداث القائمة في المناطق الحدودية الأخرى. فقد حصل فيها توتر بين سكان القرى المسيحية القليلة واكثرية السكان الشيعة. وفي وقت من الأوقات، كانت القوات الفلسطينية ايضاً تهاجم "الجزر المسيحية". في تلك الاثناء بدأت اسرائيل تمارس سياسة "حسن الجوار". فسمحت

٩٠- مقابلة مع المؤلف عام ١٩٨١.

٩١- مقابلة المؤلف مع إيغال لون عام ١٩٨٠.

للبنانيين في الجنوب بالسفر الى اسرائيل للطبابة ولشراء حاجاتهم، كما وجد عدد منهم عملا في القرى الاسرائيلية المجاورة. ولكن تأزم الوضع في ربيع عام ١٩٧٦، عندما حصل انقسام في الجيش اللبناني، واحتل جيش لبنان العربي ثكنة مرجعيون، أهم بلدة قريبة من الحدود مع اسرائيل. اثناء ذلك، هرب من الجيش عدد كبير من الجنود المسيحيين من القرى الحدودية الجنوبية او من منطقة عكار. عندئذ كلفت قيادة الجيش الرائد سعد حداد، وهو من مرجعيون، بتجميع هؤلاء الجنود، وتشكيل لواء موال لها. كان سعد حداد من طائفة الروم الكاثوليك، مواطنا محليا من الجنوب، أبا لعائلة كبيرة تعيش في مرجعيون. كان حداد مؤهلا لتلك المهمة، الا انه كان ايضا ذا شجاعة بسيطة، وبعيدا تماما عن السياسة. وجد نفسه في اوضاع سياسية معقدة "كجندي ضائع"، كما وصفته جريدة "لوموند" الفرنسية. كان يعارض الفلسطينيين لأنهم جلبوا الاضطراب والخراب والحرب لبلاده. شارك حداد في الاشتباكات ضدهم عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٣. في مرجعيون، وجد نفسه امام خيار صعب يفرض عليه العمل بين نارين، النار الفلسطينية والنار الاسرائيلية، او العمل فقط مع عدو واحد. فاختار اسرائيل بحكم اقتناعه ونزولا ايضا عند اوامر اعطيت له. كان عليه ان يدافع عن الجنوب ضد الفلسطينيين، وفقا للامكانيات المتوفرة لديه. لم يقدم على اي عمل عدائي ضد الشيعة في جنوب لبنان، خاصة الذين امتنعوا عن تأييد الفلسطينيين. كذلك اعتبر عدد من الشيعة الفلسطينيين كأعداء لهم. فأخذوا ينتظمون في ميليشيات قروية ويتعاونون مع سعد حداد. وعندما تعثر على قواته الحصول على امدادات من بيروت ونفدت الذخيرة لديها، لم يتردد حداد طويلا في قبول المساعدة الاسرائيلية، بطريقة حذرة وسرية في البداية، ثم بطريقة علنية لاحقا. فطالما كانت الحرب قائمة في وسط البلاد، لم يهتم احد بما كان يحصل في جنوبه. ولكن تبدل هذا الأمر في تشرين الثاني عام ١٩٧٦. فقبل ان تدخل قوات السلام العربية الى بيروت وصيدا، جرى نقل عدد كبير من المقاتلين الفلسطينيين التابعين لقيادة منظمة التحرير الى المناطق الواقعة جنوب "الخطوط الحمراء". وكما كانت قوات السلام العربية مكلفة، وفق قرار قمة الرياض، بجمع السلاح الثقيل الموجود لدى مختلف اطراف النزاع، سارع الفلسطينيون الى نقل اسلحتهم الثقيلة الى الجنوب خوفا من فقدانها. فتحولت منطقة "ما بين النهرين" اللبنانية، الواقعة بين نهرى الليطاني والأولي، الى اهم منطقة عسكرية مدججة بالسلاح.

اما ميليشيات الجبهة اللبنانية، التي منعتهم سوريا من توسيع رقعة سيطرتهم، وبقيت بالتالي دون اي نشاط عسكري رغم تعطش عناصرها لممارسة اي عمل بعد انتصارات الصيف السابق، فقد انتقل بعض افرادها الى المنطقة التي يسيطر عليها سعد حداد. وهناك واصل الفلسطينيون ومقاتلو الجبهة اللبنانية بصورة محدودة حربهم التي حال السوريون دون مواصلتها في الشمال. في الثامن من تشرين الأول

احتلت قوات سعد حدّاد وحلفاؤه الجدد بلدة مرجعيون، ولكن الفلسطينيين وحلفاءهم اللبنانيين ثأروا لذلك بتدمير شامل لبلدة العيشية المسيحية المعزولة.

لم يرض حدّاد إطلاقاً عن تصرف الميليشيات التي جاءت لنصرته. فقد أراد، عند الضرورة، إعلان الحرب ضد الفلسطينيين، ولكن الميليشيات الآتية من الشمال لم تميّز إطلاقاً بين الحرب والحرب الأهلية. وهذا ما أثار غضب واشمئزاز السكان الشيعة المحليين، الذين حاول كسبهم لجانبه. ولكنه في النهاية تمكن من إبعاد عناصر الميليشيات مجدداً إلى بيروت.

حدّدت "الخطوط الحمراء" في الأصل، وبواسطة الدبلوماسية الأميركية، بغية تجنب المواجهة السورية-الإسرائيلية. ولكن خلفت وراءها انعكاسات لم تكن متوقعة^{٩٢}. منها مواصلة حرب محدودة بين الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين من جهة، والسماح بمواجهة فلسطينية-إسرائيلية، لم يكن يحبّها الفلسطينيون، من جهة أخرى. في الواقع تحول الجنوب إلى "فتح لاند" أكبر حجماً ومساحة، الأمر الذي مكن الفلسطينيين من القيام بأعمال عسكرية انطلاقاً منه، وتذكير الرأي العام العالمي بقضيتهم. كذلك فضّلت إسرائيل النزاع مع المقاتلين الفلسطينيين بالقرب من حدودها على النزاع مع الجيش السوري النظامي. أما سعد حدّاد والسكان المسيحيون في الجنوب فقد اختاروا التحالف مع المعسكر الأكثر قوة، أي المعسكر الإسرائيلي.

١٠ - الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان.

بدأ عام ١٩٧٧ بأمل بالسلام ليس في لبنان فحسب، رغم الوضع المتأزم في الجنوب، ولكن في الشرق الأوسط ككل أيضاً. فبعد تسلم الرئيس كارتر منصب الرئاسة قامت الولايات المتحدة بمبادرة جديدة لتسوية النزاع الفلسطيني. في شهر شباط أعلن لأول مرة رئيس أميركي عن وجوب إيجاد "وطن" (Homeland) للفلسطينيين، "الذين عانوا الكثير الكثير مدة طويلة من الزمن". فزار وزير خارجيته، فانس، مرتين المنطقة، وحصل على موافقة إسرائيل للتفاوض مع وفد عربي يضم ممثلين عن الفلسطينيين. وقد كان لمنظمة التحرير مبرر لاعتماد سياسة معتدلة. في شهر تموز اتفق الرئيس سركيس وياسر عرفات حول تمديد اتفاق القاهرة لعام ١٩٦٩. فوافقت منظمة التحرير على إبعاد مواقعها مسافة عشرة كيلومترات عن الحدود الإسرائيلية، وعدم القيام بأية عمليات عسكرية أو إطلاق النار عبر الحدود.

٩٢- لم يحدّد بالتالي بطريقة دقيقة. عندما تقدّم الجنود السوريون عام ١٩٧٧ إلى النبطية، احتجّت إسرائيل، فانسحب السوريون، وتحولت النبطية بالنتيجة إلى أهم قاعدة فلسطينية. راجع: كريم بقرادوني، المصدر المذكور، ص ١١٣-١١٥.

وفي أول تشرين الأول أصدرت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بياناً مشتركاً، يمهد الطريق لتسوية سلمية شاملة، مشدداً على ضرورة إقامة علاقات سلمية بين كل الدول، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني. كما تبين أن مؤتمراً جديداً في جنيف سيعقد في المستقبل القريب.

ولكن في التاسع من تشرين الثاني أعلن الرئيس أنور السادات مبادرة سلام جديدة^{٩٣}، أدت حالا إلى إشعال كل نزاعات العالم العربي من جديد حول فلسطين. فأعلن عن استعداده للسفر إلى القدس والقيام بمفاوضات ثنائية مع إسرائيل التي لم تتردد في توجيه الدعوة إليه. فلَبَّاهَا سريعاً. عندئذ قام بزيارة إلى القدس في ١٩ تشرين الثاني حيث لقي خطاباً أمام الكنيست. وبذلك بدأ التقارب الثنائي بين مصر وإسرائيل، وقد مهدت له اتفاقية سيناء الثانية. فرض هذا التقارب التوجه نحو عقد اتفاق سلام يقتصر على البلدين. ولكن لم يكن هناك ريب في أن السادات لم يستهدف من خلال ذلك حلاً ثنائياً فقط، بل أراد وفي الوقت ذاته، التوصل إلى حلّ مقبول للفلسطينيين أيضاً. وقد رأت الحكومة الإسرائيلية بالمقابل في مبادرة السادات فرصة ملائمة لابتعاد أقوى دولة عن الجبهة العربية ضد إسرائيل، دون الاضطرار إلى تقديم تنازلات حاسمة بشأن القضية الفلسطينية.

في صيف ١٩٧٧ كان حزب الليكود قد فاز في الانتخابات التشريعية، وانتخب على الأثر مناحيم بيغن رئيساً للوزارة. فكشف منذ البداية عن نواياه في المفاوضات، موضحاً رفضه المطلق لعودة اللاجئين الفلسطينيين من الدول المجاورة إلى فلسطين. وكانت النتيجة أن السلام الذي كانت تحضر له مصر وإسرائيل، قد دفع إلى اندلاع حرب جديدة في لبنان.

أما بالنسبة لسوريا، فاصبح كل شيء واضحاً. فهي لن تستطيع فيما بعد الاعتماد إطلاقاً على مصر. وبدون مصر يصعب التفكير بحرب كبيرة مثل حرب عام ١٩٧٣. وبالتالي زالت أهم وسيلة ضغط على إسرائيل لحملها على تقديم تنازلات بشأن القضية الفلسطينية. ولم يبق أمامها إلا اعتماد سياسة تؤدي إلى عدم تحقيق أي سلام حقيقي دونها، الأمر الذي دفعها مجدداً إلى الاتفاق مع منظمة التحرير. فبالنسبة لفلسطينيي المنفى، أشار التقارب الإسرائيلي-المصري إلى أن السلام بينهما سيؤدي إلى عدم الاكتراث والاهتمام بمصالحهم. ومن جديد، بدت لهم الهجومات انطلاقاً من الأراضي اللبنانية على إسرائيل الوسيلة الوحيدة للتذكير بأن الخطوات نحو السلام صعبة للغاية دون مشاركتهم. أما إسرائيل فلم يبق أمامها إلا اعتماد سياسة ذات اتجاهين، الأول يقضي ببذل جهود جدية لعقد سلام مع مصر، والثاني،

٩٣- سبق الإعلان الرسمي لهذه المبادرة اتصالات سرية منذ شهر آب، إذ لعبت الحكومة الرومانية دور الوسيط. فزار كل من بيغن والسادات تشاوشسكو، كما التقى موظفون كبار إسرائيليون ومصريون معاً.

تعزيز التحضير العسكري لسحق منظمة التحرير، اي السلام في جنوب اسرائيل والحرب في شمالها.

ولكن سوريا ومنظمة التحرير - ورغم شدة العداوة بينهما - اضطرتا مجدداً الى التفاهم والتقارب. كان كل طرف ينظر الى الآخر بحذر شديد. فسوريا اهتمت من جهة بتضييق مجال تحرك الفلسطينيين، كي لا يُستدرجوا رغماً عنها الى حرب مع اسرائيل لا يمكن كسبها. كما اهتمت ايضا من جهة أخرى بابرار ضعف اي سلام ثنائي طالما تقوم حرب صغيرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين على الحدود اللبنانية. بالمقابل ارادت منظمة التحرير تجنب لعب دور المنفذ للأوامر السورية، وابرار دورها وقوتها المستقلة.

في ظل هذه الاوضاع الاقليمية الجديدة، اصبح الاتفاق الذي عقده الرئيس سركيس وياسر عرفات في الصيف، بحكم الملغى في الخريف. ولم تعد لسوريا اية مصلحة لا في نزع سلاح الفلسطينيين، ولا في ردعهم عن الحرب في الجنوب. ولم يكن "الخط الأحمر" الا حجة فقط للتغاضي عن هذا الوضع.

تكاثرت مجدداً "الاعتداءات على الحدود". وهذا ما دعا الحكومة الاسرائيلية الجديدة الى الرد عليها بعنف وقساوة اكثر مما كان يحصل سابقاً. ففي الرابع عشر من آذار ١٩٧٨ خطف كومندوس من المقاتلين الفلسطينيين حافلة ركاب على طريق حيفا، وقتلوا ٣٤ راكبا وجرحوا عددا كبيرا من الركاب قبل ان يسيطر عليهم الجيش الاسرائيلي. جاء الرد على هذا الاعتداء بعد ثلاثة ايام بشكل تدخل عسكري كثيف للغاية^{٩٤}. فاحتل الجنود الاسرائيليون جنوب لبنان وصولاً الى نهر الليطاني. وهذا ما شكل اول حرب مباشرة بين الاسرائيليين والفلسطينيين.

لم يستهدف هذا الغزو ظاهرياً سحق قوات منظمة التحرير بقدر ما استهدف ابعادهم عن جنوب لبنان.

لم يحاول الجيش الاسرائيلي محاصرتهم، اذ لم يحصل اي انزال للجنود المظليين وراء الخطوط الخلفية للفلسطينيين، ولا اي هجوم سريع كما في الحروب السابقة. فقد بدأت "عملية الليطاني" بقصف مدفعي مركز، قبل ان تتقدم الوحدات الاسرائيلية على جبهة واسعة من الجنوب نحو الشمال، لتحاصر مخيمات الفلسطينيين في ضواحي صور. اما القوات الفلسطينية، باعدادها وعتادها المحدود، فقد تكبدت خسائر فادحة، ولكنها نجحت في الانسحاب نحو الشمال. فهرب معها عدد كبير من السكان المدنيين اللبنانيين الفلسطينيين قدر بربع مليون نسمة. وبهذه العملية احتلت اسرائيل حوالي عشر مساحة الاراضي اللبنانية.

٩٤ - راجع: وليد خالدي، المصدر المذكور، ص ١٢٣ وما يليها.

في التاسع عشر من آذار ١٩٧٨ اصدر مجلس الأمن في الامم المتحدة القرار رقم ٢٥٢، الذي دعا اسرائيل للانسحاب من جنوب لبنان، كما أرسلت قوات تابعة للامم المتحدة الى جنوب لبنان والمعروفة باليونيفيل (UNIFIL)^{٩٥}. قبلت اسرائيل بانسحاب تدريجي، ولكنها في الثاني عشر من حزيران وضعت الامم المتحدة والحكومة اللبنانية امام امر واقع. فلم تسلم قوات الامم المتحدة حزاماً عريضاً على طول الحدود معها يبلغ عرضه عشرة كيلومترات، بل سلمته الى قوات الرائد سعد حداد، الذي لم يسمح بدخول قوات الامم المتحدة اليه.

أدت الحرب الفلسطينية-الاسرائيلية الأولى دون شك الى نتيجة واضحة. فالفلسطينيون عاشوا معركة شبيهة بمعركة "الكرامة". تمكنوا من مجابهة ومقاومة اقوى جيش في المنطقة قبل ان تهزم قواتهم التي لم يقضى عليها، بل تجمعت من جديد شمال نهر الليطاني. كذلك نجحت اسرائيل في انشاء منطقتين عازلتين داخل الاراضي اللبنانية قبل الوصول الى حدودها: اي المنطقة التي تسيطر عليها قوات سعد حداد، والمنطقة التي تنتشر فيها القوات الدولية. وكما سنرى لاحقاً، زادت هاتان المنطقتان في صعوبة تحرك الفدائيين الفلسطينيين، ولكن دون القضاء عليها اطلاقاً. فالقوات الدولية برهنت على انها عاجزة، لا يؤهلها وضعها ولا المهمة التي انتدبت لها للحوّل دون تسليح المقاتلين عبر منطقة نفوذها^{٩٦}. فقد تعلم مقاتلو منظمة التحرير كيف يبذلون اتجاه طرفهم، كما اضطر جنود سعد حداد ايضاً الى تعزيز قوتهم اكثر فاكتر للدفاع عن انفسهم، خاصة ان الفلسطينيين كانوا يعتبرونهم اعداءهم مثل الاسرائيليين. وهكذا اصبح سعد حداد اقوى واكثر ارتباطاً بالمساعدة الاسرائيلية من السابق. ففي الحرب الصغيرة، التي تواصلت في الجنوب، تحول جنوده الى خدمة الحليف الأقوى.

١١ - نزاع بين السوريين والجهة اللبنانية

ساد منذ نهاية عام ١٩٧٦ شمالي "الخط الأحمر" "سلام سوري" لم يكن منذ

٩٥- تألفت قوات اليونيفيل (UNIFIL) في البداية من فصائل كندية، وفرنسية، وايرانية، ونرويجية، وسويدية. كما انضمت اليها لاحقاً فصائل نيبالية، وسنغالية، ونيجيرية، وفيجية، وايرلندية، وهولندية.

٩٦- لعبت وحدة اليونيفيل الفرنسية دوراً نشيطاً في البداية. ولكن بعد خسائر جسيمة في اشتباكات حصلت بينها وبين الفلسطينيين - جرح خلالها قائد الوحدة الفرنسية - اتخذت هذه الوحدة موقفاً أكثر تحفظاً. أما الوحدات الأكثر نظاماً ومصدقية - بمعنى مهمة اليونيفيل الآيلة الى منع التسرب - فكانت تلك الدول التي تهتم قليلاً جداً بأزمة الشرق الأوسط: اي الوحدات النيبالية، والفيجية. فقد تأثرت الوحدة الفيجية كثيراً باختبارها في لبنان. قام قائدها، الكولونيل "رابوكا" (RABUKA) عام ١٩٨٧ بانقلاب في وطنه وذلك للحفاظ على مكانة ونفوذ السكان الميلانيزيين الأصليين مقابل تزايد نفوذ السكان الهنود المهاجرين.

البداية سوى وقف لإطلاق النار مشحون بالتوترات ومفروض على الجميع، أكثر منه سلاماً منظماً. فقد أعلن كمال جنبلاط، شفها وكتابة، في الداخل كما في الخارج، معارضته للاحتلال السوري. ولكن جرى اغتياله في السابع عشر من آذار عام ١٩٧٧، على أيدي أفراد مجهولين بالقرب من حاجز عسكري سوري في منطقة الشوف^{٩٧}. من الذي دفع إلى هذا الاغتيال ونفذه؟

اعتبر هذا التساؤل تحذيراً وإنذاراً لمعظم السياسيين اللبنانيين، خاصة المسلمين، من معارضة الحكم السوري علنياً. حتى أشد خصوم جنبلاط في الجبهة اللبنانية عبروا عن شديد امتعاضهم واستنكارهم لاغتياله. فرغم رفضهم لأطماع جنبلاط، كانوا يعتبرونه مواطناً لبنانياً، كما اعتبروا اغتياله بهذه الطريقة ضربة ضد استقلال لبنان^{٩٨}.

على أثر ذلك، أخذ الارتياح حول التحالف مع سوريا يزول سريعاً لدى زعماء الجبهة اللبنانية. لقد قبلوا مرغمين بتمركز القوات السورية في بيروت الشرقية. فيشير الجميل الذي أصبح منذ معركة تل الزعتر قائداً لميليشيا الكتائب، لم يتمكن من السكوت إلا بصعوبة كلية عن عدم معارضة عنيفة للوجود السوري في المناطق المسيحية. فكل احتلال، وإن كان سلمياً، يشعر به السكان المدنيون سريعاً بأنه عبء لا يحتمل. ولكن أثره السياسي أخذ يشحن النفوس أكثر فأكثر. فعلى نقاط المراقبة والحوجز العسكرية، علقت صور حافظ الأسد ورفعت الأعلام السورية، واليا فطانت التي تحمل شعارات حزب البعث. وهكذا تكاثرت التساؤلات: هل جرى القتال لتحرير من السيطرة الفلسطينية كي نقع تحت السيطرة السورية؟ وهل مراقبة الصحافة - التي أقرتها حكومة الحص يطلب سوري - هي خطوة أولى نحو نهاية الحريات الديمقراطية في لبنان؟

ألا يشكل السوريون، الذين رُحّب بهم في البداية كمنقذين من خطر الفلسطينيين، تهديداً أخطر بكثير على استقلال لبنان؟

من جهة أخرى، لم تسو القضية الفلسطينية إطلاقاً في لبنان. فالرئيس سركريس قبل مجدداً باتفاق القاهرة لعام ١٩٦٩ في مؤتمر الرياض. أما قيادة الجبهة اللبنانية

٩٧- في عدد من قرى الشوف أُغتيل عدد من المسيحيين تراوح عددهم بين ١٦٠ و ١٨٠ ضحية. فقد حاول وليد، ابن كمال جنبلاط، وقف القتل، "لأنّ المسيحيين لم يغتالوا لي"، علي حدّ قوله. وقد أضاف مفسراً ومنذراً بشكل محدود: "على كل حال، مقتل كمال جنبلاط ليس حدثاً يومياً" (من مقابلة مع المؤلف عام ١٩٧٩).

٩٨- وسياسي لبناني قيادي آخر هو ريمون إده، عبر بعنف ضد "الانتداب السوري على لبنان". كما اختار في بداية عام ١٩٧٧ المنفى. في عام ١٩٧٦ نجا من عدة محاولات اغتيال، أحداها كانت على أيدي الكتائب، وأخرى على أيدي قوات الصاعقة. ومنذ ذلك الحين يعيش ريمون إده في باريس.

فقد طالبت في ايار ١٩٧٧ بالغائه. وهكذا تواصل التصعيد. ففي البلاد اكثر من مائتي الف مدني فلسطيني دخلوا بطريقة غير شرعية، كان ينبغي توزيعهم على الدول العربية. فعندما يحصل ذلك، عندئذ يمكن التحدث جدّياً عن مصالحة لبنانية-لبنانية.

هذه المطالب لم تكن مقبولة بالنسبة للحكومة السورية. فاختراع منظمة التحرير للسلطة السورية السياسية العليا هو أمر، اما نزع سلاحها بالكامل في لبنان فهو أمر آخر. وعندما عطلت مبادرة السادات، عبر زيارته الى القدس، امكانية تسوية شاملة لنزاع الشرق الأوسط، تحولت منظمة التحرير من جديد، وكما ذكر سابقاً، الى حليف قوي لسوريا. لذلك لم يُقبل اطلاقاً بان تهدد الجبهة اللبنانية هذا التقارب الجديد.

ونظراً لبروز تبدل في حلفاء سوريا، بدأت الجبهة اللبنانية من جهتها في البحث عن حليف جديد أيضاً. فالأمل بالمساعدة من قبل دول اوروبية غربية او من قبل الولايات المتحدة، مثلما كان المسيحيون اللبنانيون يعللون النفس به، اضمحل تماماً منذ سنوات الحرب الأولى. فالسؤال الذي طرحه كارل ماركس عام ١٨٦٠، "هل تخلت أوروبا عن حماية إخوتهم في الايمان؟"٩٩، أجيب عليه بعد مرور قرن من الزمن "بنعم"، وبكل وضوح. وهكذا شعر المسيحيون اللبنانيون أيضاً بحسرة ومرارة في قبول هذا الواقع الأليم، اي ان "أوروبا المسيحية" لم يعد لها اي وجود بعد. ولكن هناك دولة يهودية ينتظر منها بعض التعاطف مع الأقليات غير المسلمة في الشرق. كان على اسرائيل ان ترى مصلحة لها في مساعدة عدوّ عدوّها. وقد برهنت عن ذلك في سنتي الحرب الأولى عبر تقديم الأسلحة وتأمين التدريب للمقاتلين. ولكن الفريقين وجدا نفسيهما امام تحفظات بالنسبة لهذا التحالف. فبعض الزعماء المسيحيين، مثل سليمان فرنجيه، رفضوا هذا التقارب وهذا التحالف. كما أظهر بيار الجميل الكثير من التحفظ. فاعتبر اسرائيل وتهجير الفلسطينيين السبب الحقيقي في مأساة لبنان، ورأى في ذلك خطراً للانعزال عن العالم العربي. وقد كان مستعداً فقط، في ظل اوضاع شديدة الخطر، ان يقبل بتحالف يعتبره "تحالفاً مع الشيطان". ولكن ابنه بشير وحليفه كميل شمعون استنتجا سريعاً بان المواجهة مع سوريا لا مفرّ منها، كما وجدا في اسرائيل الحليف الوحيد الممكن.

ان توجه قسم من اعضاء الجبهة اللبنانية نحو اسرائيل لم تبرره فقط اعتبارات ومصالح. ففي المركز الفكري للجبهة، اي مركز الابحاث في جامعة الروح القدس في الكسليك، حصلت مناقشات أساسية ومطوّلة حول مستقبل الطوائف المسيحية في

لبنان، وجرى التعبير عنها بصيغ واضحة وجذرية^{١٠٠}. تبيّن من خلالها أن الميثاق الوطني لعام ١٩٤٣ هو مأساة هزلية^{١٠١}. ولبنان، كاتحاد طوائف، دخله "فيروس عدم الثقة". في مثل هذه الحال، ينبغي حلّ مثل هذا الاتحاد^{١٠٢}. فعندما يحصل التهاب في مكان ما من الجسم، لا يبقى إلا العملية الجراحية لاستئصاله أو لبطره^{١٠٣}. المخرج الوحيد يبقى في العودة الى صيغة لبنان القديم (الصغير)، أي الى لبنان مستقل، حيادي، تضمن استقلاله الدول الكبرى -أو في أفضل الحالات، إقامة دولة فدرالية على مثال سويسرا^{١٠٤}.

هذه الدراسات التي نشرت لأول مرة عام ١٩٧٦، أعيد نشرها مجدداً عام ١٩٧٨، وكان أحد أهم واضعيتها، فؤاد أفرام البستاني، أحد أركان المجلس الأعلى في الجبهة اللبنانية^{١٠٥}. تركت هذه الدراسات وقعا إيجابيا في إسرائيل. ففكرة تقسيم الشرق الأوسط الى دول صغيرة تقوم على أساس انتمائها الطائفي، بدت جذابة جدا لعدد كبير من الاسرائيليين. فقد بدا لهم أن أول دولة من هذا الطراز يمكن أن تنشأ في لبنان. إلا أن حزب العمال الحاكم في إسرائيل، أبرز تحفظات معينة ضد أي التزام قوي في لبنان. ولكن بعد تسلم حزب الليكود الحكم في إسرائيل في حزيران ١٩٧٧، تبدل هذا الوضع. فقد اعتقد ميناخيم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي، بأن مسيحيي لبنان مهددون بالإبادة، وقد كان حازما في منع ذلك. ورغم تحفظ العسكريين الاسرائيليين على ذلك، اختارت الحكومة سياسة التعاون الوثيق مع الجبهة اللبنانية.

وفضلا عن الاسباب البعيدة الكامنة وراء التقارب السوري - الفلسطيني من جهة، والذي قوّي العلاقات بين الجبهة اللبنانية واسرائيل من جهة ثانية، كان من الصعب جدا تجنب النزاع بين سوريا والجبهة اللبنانية. فقد وقع حادث منفرد في الثامن من شباط ١٩٧٨ أدّى الى التوتر، رغم عدم وجود اية علاقة للجبهة به. فقد اقام الجيش السوري حاجزا امام مركز حرس المدرسة الحربية اللبنانية في تكنة

-
- ١٠٠ - فؤاد البستاني، المصدر المذكور
 - ١٠١ - ذات المصدر، ص ٢٥
 - ١٠٢ - ذات المصدر، ص ١٩
 - ١٠٣ - ذات المصدر، ص ٥٠
 - ١٠٤ - ذات المصدر، ص ٥١
 - ١٠٥ - الدراسات الأخرى التي صدرت في عام ١٩٧٥ و ١٩٧٦ دون الإشارة الى مؤلفها، هي: Témoignages vivants sur la crise que traverse le Liban, 1975; Note sur la question libanaise, 1975; Lumières franches sur la question libanaise, 1975; La crise libanaise dans ses principales dimensions, 1976; Note explicative sur la situation au Liban, 2e éd., 1976; Liban 1975-1976. Qu'avons-nous fait et que faire? 1976; Génocide au Liban, 1976; Rapport analytique sur l'attitude des musulmans du Liban depuis le 13 avril 1975, 1976.

الفيّاضية. وبعد رفض السوريين طلب احد الضباط اللبنانيين نقل هذا الحاجر الى مكان آخر، اوقف البوليس اللبناني عناصره. ولكن السوريين ردّوا على ذلك بقصف مدفعي للثكنة. عندئذ هاجمت كتيبة من المدرسة الحربية موقع المدفعية السوري. فقتل ٢٢٠ جندياً وجرح ثلاثون. وقد فشلت اربع محاولات سورية لاحتلال تلك الثكنة. على اثر ذلك، اتسع نطاق الاشتباكات، واخذت القوات السورية، المرابطة في برج رزق، وهو كناية عن ناطحة سحاب في حيّ الأشرفية، بقصف الضواحي المسيحية. فأصاب ثكنة ووزارة الدفاع في اليرزه بقذائف مباشرة. كما حصلت في شرق بيروت معارك في الشوارع بين السوريين والميليشيات المسيحية. وجاءت خسائر الطرفين كبيرة. وهكذا تطوّر حادث تافه خلال أيام معدودة الى نزاع عسكري حربي، انتهى بعد اسبوع دون اية نتائج ملموسة. وعلى الأثر طلب الجيش السوري تسليمه قائد موقع الفيّاضية المسيحي ونوابه المسلمين. فرفض الجيش اللبناني هذا الطلب، لأن الجيش اللبناني لم يفتعل هذا الحادث. فاتفق الياس سركيس مع الحكومة السورية على حلّ يهدف الى الحفاظ على ماء الوجه لدى الفريقين. فشكّلت لهذه الغاية محكمة عسكرية سورية لبنانية مشتركة، ولكن لم تنتظر اطلاقاً في تلك القضية.

كشف حادث الفيّاضية بكل وضوح عن وقائع وتناقضات جديدة. فالرئيس سركيس كان يعتبر نظرياً القائد الأعلى لقوات السلام العربية في لبنان. ولكن الجيش السوري لم يتردّد، دون اي اعتبار لهذا القائد الأعلى، في الهجوم على جيشه، اي الجيش اللبناني، وممارسة ضغط عسكري غير أنيق اطلاقاً عبر قصف الأحياء السكنية. على أثر ذلك اعلن وزير الاعلام السوري عن ان القوات السورية ستبقى متمركزة في لبنان حتى تنفذ المهمة الموكلة بها، ولن تسمح بحدوث اضطرابات جديدة. وبالمقابل ردّ عليه شمعون باسم الجبهة اللبنانية، بان القوات السورية لا تستطيع البقاء الى الأبد في لبنان. وهكذا بدأت القوات السورية تتحول من قوات لحفظ السلام الى فريق في النزاع. وفي نيسان ١٩٧٨، وبعد انتهاء الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان، اندلعت مجدداً معارك في ضواحي بيروت بين القوات الفلسطينية والسورية من جهة، والميليشيات المسيحية من جهة أخرى. ومنذ ذلك الحين، اتضح للعبان ان السوريين استبدلوا حلفاءهم ووقفوا الى جانب الفلسطينيين. ومرة أخرى، حاول سركيس التوصل الى تسوية تقضي بتمركز وحدات عسكرية سعودية وسودانية بين الشياح وعين الرمانة، لانهاء القتال. وكذلك حاول مجلس النواب اللبناني مرّة أخرى ابعاد لبنان عن التشابك المعقد في النزاع العربي-الاسرائيلي. فقرر بالاجماع- وبحضور ٧٤ نائباً- انتهاء كل نشاط عسكري للفلسطينيين وللاحزاب الأخرى على الاراضي اللبنانية، ومنع اي وجود مسلح عليها سوى القوى اللبنانية دون استثناء أحد. ولكن لم تكن لرئيس الجمهورية ولا

لمجلس النواب اية سلطة او قوة تسمح لهم بتنفيذ هذا القرار. فسوريا كانت عازمة على استخدام حلفائها القدامى والجدد، اي الفلسطينيين، في نزاع غير مباشر ضد اسرائيل. ولكن الجبهة اللبنانية بدورها كانت عازمة ايضا على التحالف حتى "مع الشيطان" لطرد السوريين والفلسطينيين، ان لم يكن ممكناً من كل لبنان، فأقله من المناطق المسيحية.

١٢ - حرب أهلية بين المسيحيين

لم تمر قضية التقارب مع اسرائيل دون خلافات عميقة داخل الجبهة اللبنانية. فسليمان فرنجيه، رئيس الجمهورية السابق، تمسك بمبدأ ثابت يقوم على ان مصالح المسيحيين بصورة خاصة، واللبنانيين بصورة عامة، تراعاها وتحافظ عليها سوريا بالطريقة الفضلى. كانت هناك علاقة صداقة ودية بين أسرتي فرنجيه وأسد منذ الخمسينات، وترتبطان بالتالي ببعضهما بحكم المصالح الاقتصادية. فسليمان فرنجيه كان اكثر المدافعين تمسكا بالمواقف المارونية على مستوى السياسة الداخلية. وبعكس معظم الموارد الآخرين تصرف دائما كعربي معتبرا لبنان جزءا متكاملًا مع العالم العربي. اما التحالف مع اسرائيل فكان بنظره من المحرمات.

اضافة الى ذلك، برزت توترات اجتماعية ومنافسات بين انصار فرنجيه من جهة، وحزب الكتائب من جهة اخرى. كان فرنجيه آخر زعيم ماروني يبني زعامته القوية على تقاليد عائلية اقطاعية، وعلى ملكية الاراضي الكبيرة. ففي شمال الجبل الماروني لم تحصل في القرن التاسع عشر اية ثورة للفلاحين، بعكس ما حصل في كسروان والمتن. اما الكتائب فهم بالمقابل حزب شعبي حديث، لم ينشأ على قاعدة الانتماء التقليدي لعائلة او لعشيرة، بل على أساس برنامج عمل وسياسة تمثيل مصالح الطبقة المتوسطة والعمال. ومع احداث الحرب زادت شعبية هذا الحزب، فضمت ميليشياته شباباً من "الطبقة المتوسطة" في المدن، من بيئة حديثة وحازمة وقوية في ميلها الى المفاهيم العقائدية. اما انصار فرنجيه فكانوا من بيئة ريفية وزراعية محدودة في منطقة واحدة. وكانت ميليشياته تجمعاً من الأقرباء ومن القرى المجاورة لزغرتا. فالكثائب كانت تعتبر نفسها حركة تمثل على المستوى الوطني اهدافاً اجتماعية وسياسية معينة، كما حاولت ميليشياتها ان تتحول الى جيش نظامي.

خلال سنوات الحرب الأولى، عرف حزب الكتائب تأييداً واسعاً جداً لدى فئات من الشعب حتى خارج مراكزه الواقعة في بيروت الشرقية، والمتن، وكسروان. وقد اصبح هذا الحزب جذاباً خاصة بالنسبة للذين يعيشون على هامش نظام الزعامات التقليدية، مثل العمال الريفيين، والمزارعين الصغار، والمستخدمين، والعمال، الذين كانوا يتنقلون بين مناطق سكنهم الريفية وامكنة عملهم في المدن. ومنذ عام ١٩٧٦،

دخل في هذا الحزب عدد كبير من الأعضاء الجدد من شمال لبنان المسيحي. بالنسبة لفرنجه ذي التصورات السياسية التقليدية اعتبرت هذه الظاهرة تنحلاً غير مقبول وغير مرض في شؤون منطقة يمثل هو والعائلات القديمة الأخرى فقط مصالحها شرعا وبصورة ملائمة. اما بالنسبة لحزب الكتائب، فكان من البديهي ان يتحرر لبنان الشمالي من عهد "الاقطاعية" السياسية، وان يجد مكانه في حزب سياسي حديث وحركة وطنية.

ولكن النزاعات والخلافات بلغت أشدها بسبب جمع المال. فقد كانت ميليشيا المردة التابعة لفرنجه وميليشيا الكتائب تمول منذ عام ١٩٧٥ عبر جباية رسوم عالية فرضت على المؤسسات التجارية والصناعية. ففي منطقة شكا جنوبي طرابلس، والتي تضم عددا من المصانع، حصل خلاف حاد بسبب جباية الرسوم بين حركة المردة والكتائب.

في أيار ١٩٧٨ بلغت ذروة التفاقم في الخلافات السياسية المتأنية عن موضوع التحالف مع اسرائيل او مع سوريا، وعن قضية اعطاء الأولوية للعائلات القديمة او لحزب شعبي، والصراع حول الموارد المالية. فقد تصالح سليمان فرنجه مع رشيد كرامي، ممثل الاسلام السني التقليدي في طرابلس^{١٠٦}. ونظرا لاعتماد كرامي كليا على سوريا، نشأ بالتالي في شمال لبنان حلف مؤيد لسوريا، بينما كانت الجبهة اللبنانية في بيروت تواجه اشتباكات طاحنة مع الجيش السوري. في مطلع حزيران حصلت أول اشتباكات بين تنظيم المردة وحزب الكتائب في المدن الساحلية، البترون، وشكا. وبعد مرور ايام قليلة أغتيل في شكا أحد قادة حزب الكتائب الذي كان مديرا لأحد المصارف هناك. وهذا ما زاد في حدة الخلاف بين الفريقين رغم كل جهود الوساطة التي بذلها البطريرك الماروني، وقيام وحدات نظامية من الجيش اللبناني للحؤول دون اندلاع معارك أخرى.

وفي الثالث عشر من حزيران هاجمت بصورة مفاجئة مجموعة قوية من ميليشيا الكتائب بلدة اهدن، معقل آل فرنجه الصيفي، فقصفتها من الجبال المحيطة بها. من بين ضحايا الهجوم كان النائب طوني فرنجه نجل سليمان فرنجه الأكبر، وزوجته وابنتهما. وفي ظهر ذلك اليوم، قامت القوات السورية باحتلال تلك البلدة.

وكما كان الحال في مختلف احداث حرب لبنان المعقدة، برزت روايات مختلفة عن ذلك الحدث في اهدن. بالنسبة لأنصار فرنجه، تركّز الأمر على اغتيال حصل بهدوء وعن سابق تصور وتصميم. اما الكتائب فأعلنت، بانها تسلمت وثائق تشير

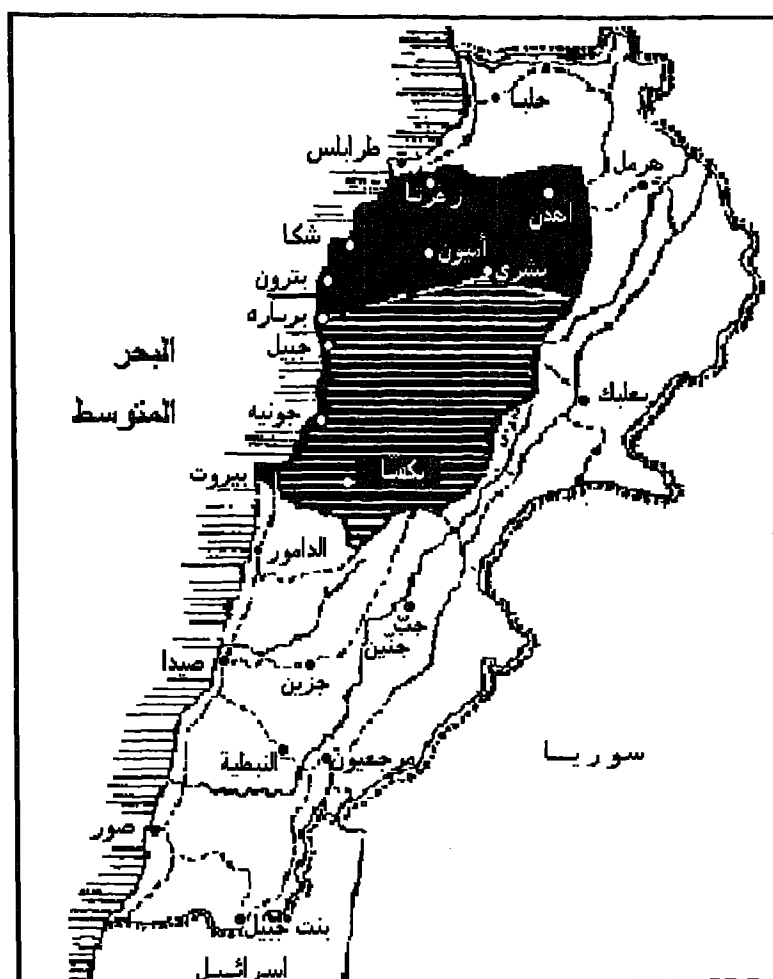
١٠٦- جرت المصالحة خلال مأدبة دعا اليها أحد كبار الضباط السوريين في ناد للضباط السوريين في طرابلس.

الى لائحة من الأشخاص الذين سيقتلهم انصار فرنجيه. ونظراً لعجز السلطة الرسمية عن ملاحقة الجناة قضائياً والاقتصاص منهم، قام أصدقاء وأقارب المهددين والمغدورين بالقبض على الجناة الذين فروا هرباً الى إهدن. كذلك لم يكن احد يعلم بأن طوني فرنجيه كان في ذلك اليوم مع أسرته في إهدن. ثم أعلن زعماء الكتائب لاحقاً بان ميليشياتها وقعت في حال الرعب، بعد جرح أحد قادتها الدكتور سمير جعجع، وهو أيضاً من لبنان الشمالي، ونقله الى بيروت. عندئذ تحدث بشير الجميل، القائد الأعلى لميليشيات الكتائب عن "مبادرة فردية مؤسفة"، ردها في النهاية الى صعوبات مختلفة "سببتها عشيرة فرنجيه لسكان المنطقة".

لم تكن تصاريح حزب الكتائب مقنعة اطلاقاً، وكذلك استنكاره المؤسف. ولكن تعليقات لاحقة لم تخف ارتياحه لاعطاء درس للمنحرف في الشمال. كما عبر قادته عن أسفهم لأن "الرئيس سليمان فرنجيه لم يلق هو أيضاً العقاب الذي يستحقه". فلو كان هدف العملية الحؤول دون انقسام الجبهة المشتركة للقوى السياسية المسيحية، فان نتائجها جاءت معاكسة تماماً. وهكذا انفصل الشمال المسيحي نهائياً عن الجبهة اللبنانية. على الأثر أعلن فرنجيه عزمه على الثأر من عائلة آل الجميل وخاصة من بشير، لأنه لم ير في تلك الحادثة شيئاً آخر سوى عملية انتقام عائلية. ثم اصدر انذاراً لأعضاء حزب الكتائب في الشمال بتسليم اسلحتهم ومغادرتهم الحزب او بمغادرة المنطقة قبل نهاية الشهر.

ومنذ ذلك الوقت احتلت القوات السورية جبال الشمال المسيحية، وسهل الكور، ومدينة البترون، والخط الساحلي الممتد حتى جسر المدفون، الواقع على مسافة ٤٥ كلم جنوب طرابلس. وهكذا سقط أكثر من ثلث المناطق التي كانت تسيطر عليها الميليشيات المسيحية تحت السيطرة السورية. فتقلص بالتالي نفوذ الجبهة اللبنانية الى منطقة لا تتجاوز مساحتها ١٠ بالمائة من مساحة مجموع الأراضي اللبنانية. وبذلك نشأت حول المعقل المسيحي الرئيسي حدود جديدة. فنتائج الحرب الأهلية بين الطوائف المسيحية أدت الى اضعافها اكثر بكثير من نتائج المعارك التي نشبت سابقاً بين اللبنانيين وأعدائهم الأجانب.

توزيع المناطق التي كانت تشرف عليها الاحزاب عام ١٩٧٨



تحت الاحتلال السوري تحت نفوذ الجبهة اللبنانية

١٣ - حرب سورية ضد الجبهة اللبنانية

مرة أخرى ساد الاقتتاع لدى أطراف النزاع بحتمية المجابهة. فالقيادة السورية أبدت امتعاضاً شديداً بسبب الضربة التي أنزلت بحليفهم. فقررت عدم التسامح مع أي عصيان عليها. أما زعماء الجبهة اللبنانية، خاصة كميل شمعون وبشير الجميل، فلم يكونوا على استعداد للإنصياع لأوامر السلطة السورية. فمنذ مطلع عام ١٩٧٨ رأوا أن المنطقة المسيحية مهددة من قبل القوات السورية المرابطة فيها، كما كانت سابقاً من قبل المخيمات الفلسطينية في ضواحي بيروت الشرقية. عندئذ قرروا دفع السوريين إلى الانسحاب من تلك المنطقة.

ولكن كان أولاً على المسيحيين اللبنانيين أن يتعلموا مجدداً ويعرفوا ماهي نتائج تصرفات ميليشياتهم في منطقتهم الرئيسية على السكان المسيحيين القاطنين خارجها. ففي التاسع والعشرين من حزيران عام ١٩٧٨، جرى اقتحام بلدة القاع في شمال البقاع، وهي بلدة يسكنها مسيحيون من طائفة الروم الكاثوليك، وتقع في منطقة يسيطر عليها السوريون. نفذت الهجوم عليها مجموعة من "العناصر المسلحة" وعلى قربتين مجاورتين لها من ذات الطائفة. فأوقفوا فيها أربعين شاباً. وفي مساء ذلك اليوم وجد منهم ٢٦ شاباً مقتولاً وملقى في واد قريب. أما الآخرون فضربوا وأهينوا قبل أن يطلق سراحهم، كما رفضوا بعد ذلك الإجابة على أي سؤال أو إعطاء أي تصريح.

على أثر تلك الحادثة أعلن المجلس الأعلى لطائفة الروم الكاثوليك يوم حداد وطني. ولكن في ذلك اليوم بدأ السوريون بقصف مدفعي على ضاحية عين الرمانة. فقد طلب الرئيس الياس سركيس من القوات السورية وقف القصف، ولكن لم يستجب له أحد. عندئذ اتضح أن القائد الأعلى "للقوات السلام"، كما تبيّن ذلك نهائياً، لم يكن له أية سلطة فعلية عليها. فطوال الأسبوع الأول من تموز قصف الجيش السوري دون توقف بالمدافع والصواريخ بيروت الشرقية وضواحيها. ولم يكن للميليشيات المسيحية أي خيار إلا الهجوم على المواقع السورية في تلك المنطقة. حاول مراراً عديدة جنود المشاة السوريين اقتحام عين الرمانة وبرج رزق، ولكن دون نتيجة، إلا أنهم نجحوا في قطع الطريق المؤدية إلى بيروت الشرقية.

في السابع من تموز هدّد الرئيس سركيس بالاستقالة في حال عدم توقف المعارك. وكذلك أطلقت الحكومة الاميركية نداء لوقف اطلاق النار. وطلب الرئيس السوري من الرئيس اليااس سركيس البقاء في الحكم، لان الاستقالة يمكن ان تؤدي الى اسقاط طابع الشرعية عن الجيش السوري لبنانيا، وكذلك عربيا، بموجب قرارات قمة الرياض. عندئذ اوقف الجيش السوري قصفه، وعاد الرئيس سركيس عن استقالته في الثامن عشر من تموز. ولكن في نهاية ذلك الشهر، حصلت اشتباكات جديدة في أماكن عدة، كما جرى قصف بيروت الشرقية مجددا وبطريقة مركزة في مطلع شهر آب ١٩٧٧. على أثر ذلك هرب عشرات الآلاف من المواطنين الى الجبال ولكن الميليشيات بقيت في قواعدها واقتحمت المواقع السورية المنفردة.

وبعد عشرة ايام حصل وقف لاطلاق النار، انسحبت على أثره القوات السورية من مواقعها في وسط الأشرفية وعن جسور مداخل بيروت الشرقية. وتبيّن بوضوح فيما بعد وجود هدف تكتيكي لهذا الانسحاب الجزئي. لقد تخلّى السوريون عن هذه المراكز تجنباً لخطر اصابة قواتهم عندما يجددون القصف.

وفي بداية ايلول بدأت محادثات السلام الاسرائيلية المصرية في كامب دافيد، وانتهت بتوقيع معاهدة في الثامن عشر من أيلول ١٩٧٨. رافق هذه الخطوة نحو سلام جزئي مجدداً اشتباكات عنيفة في لبنان. في الثالث والعشرين من أيلول بدأت القوات السورية مجدداً قصفها المدفعي لبيروت الشرقية. ولكن هذه المرة بعنف لم يسبق له مثيل، اذ سجلت قوى الأمن الداخلي سقوط ما يقارب الف قذيفة مدفعية وصاروخية في اليوم الواحد على الاشرفية. ولم يستهدف هذا القصف بالدرجة الأولى اطلاقاً الأهداف العسكرية، مثل مراكز الميليشيات، بل الأماكن السكنية، والمدارس والمستشفيات والمصانع التي دُمّرت بانتظام. اما الخسائر في الارواح فبقيت محدودة بالمقارنة مع نتائج القصف السابقة، لأن معظم السكان تمكنوا قبل ذلك من الهرب. ولكن القوات السورية وقعت في صعوبات. فقد حوصرت إحدى وحداتها في الاشرفية، وفشلت كل المحاولات التي استهدفت التقدم اليها بالمصفحات لفتك الحصار عنها. كما ان الحصار الذي اقامته القوات السورية بالنسبة للتأمين ضد بيروت الشرقية لم يعط اية نتيجة ملموسة، لأن النقل كان ممكناً عبر الطريق البحري. الا ان القصف السوري امتد الى المنطقة المسيحية البعيدة، واصابت القذائف بكفياً، وبيت مريا، وبرمانا، وجونية.

كان لتوسيع دائرة القصف والتدمير طابع القمع فقط. في منتصف تشرين الأول

١٠٧ - تجدر الإشارة الى تقرير شاهد عيان يستحق الذكر: Heinrich LUMMER, Bericht für den Generalsekretär und das Parteipräsidium der CDU über eine Informationsreise in den Libanon in der Zeit vom 3. bis 8. August 1978.

تبيّن ان هدف حرب سوريا ضد الميليشيات المسيحية لم يتحقق، نظراً لما اعلنه وزير الاعلام السوري سابقاً في مطلع شهر تموز بأن على الميليشيات ان تخضع لأوامر السلطة او ان تقمع وتصفى نهائياً. ولكن رغم تصعيد القصف المستمر، الحقت اضرار جسيمة بالمناطق المسيحية في بيروت وضواحيها، خاصة من حيث تدمير البنية التحتية الصناعية والتقنية، دون التمكن من اخضاع الميليشيات او قمعها. اما السكان المسيحيون فوقفوا وراءها وتضامنوا معها بصورة اقوى من السابق.

اما الرأي العام العالمي فقد أخذ علماً لأول مرة في تشرين الأول ١٩٧٨ بذلك الحرب الجديدة. من اتهم بمسؤولية هذا النزاع؟ - فقط وزير الخارجية الفرنسي "دي غيرانغو" اتهم كميل شمعون وميليشياته باثارة السوريين. - ولكن جرى بصورة عامة استنكار لشكل القمع والقصف الذي استخدمته سوريا. فقصف المناطق السكنية بالمدافع والصواريخ خلال اسابيع طويلة كشف الى اي حد وبأي طريقة يمارس الجيش السوري مهمته "الرائعة" كقوة عربية مكلفة بحفظ السلام.

انعقد آنذاك مجلس الأمن، وطالب كل أطراف النزاع بوقف النار. وقد جاء هذا القرار بالنسبة للميليشيات المسيحية كنوع من اعتراف دولي بالأمر الواقع. وعلى المستوى العربي، حاولت المملكة العربية السعودية البحث عن حلّ يسمح بحفظ ماء الوجه للجميع. ففي مؤتمر عقد في بيت الدين، تمّ التشديد على قرارات مؤتمر الرياض، وجُدّد لقوات السلام العربية، كما شُدّد على دور الرئيس سركيس كقائد أعلى لها، وجرى استبدال القوات السورية في بيروت الشرقية بوحدات من الجيش السعودي.

خرجت الجبهة اللبنانية من تلك المعركة باضرار كبيرة الحقت بالشعب المسيحي، ولكنها اكتسبت سياسياً وعززت بعض مواقعها العسكرية. ولكن تصرف السوريين فرض على الرئيس سركيس التقرب من الجبهة اللبنانية، لانه لم يتمكن إلا بصعوبة كئيّة فقط استعادة اعتبار دوره كقائد اعلى لقوات السلام العربية وكرئيس لإحلال السلام وإعادة البناء.

اما اسباب النزاع فلم تزل. فسوريا كانت تعمل لسحق مقاومة الميليشيات المسيحية المعارضة لدورها القيادي السياسي. لذلك أخذت تبحث عن اساليب جديدة اقل خطراً عسكرياً عليها وأقلّ كلفة كي تحقق هذا الهدف. اما الجبهة اللبنانية فشعرت بتعزيز قناعتها، الداعية الى انسحاب القوات السورية، كما رأت ان خلاصها يرتبط، اكثر من اي وقت، بتحالف وثيق اكثر فاكثراً مع اسرائيل.

١٤ - حروب صغيرة

كشف العالمان الاولان من الحرب عن سلسلة من النزاعات بين خصوم وحلفاء مختلفين. فكل منهم دخل أو اشترك في الحرب في مرحلة أو في مناسبة معينة. ولكن بعد عام ١٩٧٨، تعقدت حال النزاع أكثر فاكثراً. فكانت نزاعات مختلفة تبرز في ذات الوقت أو تتداخل مع بعضها. فلم تعد هناك حرب واحدة بل عدة حروب. فتحليل مسارها أو كيفية تطورها، لا يحتاج إلى عرض تسلسلي زمني، لا يأخذ بالاعتبار خصوصية كل نزاع، ولا إلى حصره في إطار زمني يسمح فقط بتبسيط أهمية الحدث. فلا بدّ إذا من تحليل أهم النزاعات والمجابهات في إطارها الزمني وإبراز حدوثها المتوازي أو ترابطها ببعضها.

تميزت سنة ١٩٧٨ بصورة عامة بالحرب الأهلية بين المسيحيين، وبأول مجابهة شديدة وعنيفة بين سوريا والجهة اللبنانية. في تلك الفترة تواصلت حروب صغيرة مختلفة، أو عرفت بداية لها.

فبعد الغزو الاسرائيلي في جنوب لبنان، استأنفت المنظمات الفلسطينية عمليات الكومندوس وان في ظلّ اوضاع أكثر صعوبة من السابق. فقد نجحت خلال أشهر قليلة من فتح ثغرات عبر المنطقة الفاصلة والتابعة للقوات الدولية. اشتبك عناصرها مراراً مع الوحدات النرويجية والفرنسية. كما حاولت هذه القوات وكذلك حاول الفلسطينيون تجنب تلك الاشتباكات. ولكن المقاتلين تعلموا سريعاً كيف ينفذون هجومهم بأعداد صغيرة وبسرعة تامة. أما القوات الدولية غير المؤهلة وغير المسلحة لمقاومة هجومات عسكرية، فقد اتخذت موقفاً أكثر حذراً، ركزت جهودها على مواقع ثابتة، وتعلمت كيف تغضّ النظر مؤقتاً. ولكن قوات وميليشيات سعد حداد المتمركزة في أقصى الجنوب، كانت أكثر استعداداً للنضال والقتال منها، ليس لأنها تعتبر عدواً للفلسطينيين مثل الاسرائيليين، بل لأنها كانت تعمل لحماية قراها والدفاع عنها. أما الحكومتان السورية واللبنانية فاتفقتا مبدئياً على تكليف الجيش اللبناني النظامي بمهمة الإشراف والمراقبة على أقصى المنطقة الجنوبية. كان هذا الجيش قد أعيد بناؤه وتنظيمه بعد انقسامه في مطلع عام ١٩٧٦ ومنذ تسلم الرئيس سركيس سدة الرئاسة ١٠٨.

في الواقع حُوّل إلى التقاعد عدد من الضباط الذين تعاونوا مع الميليشيات أو مع

١٠٨ - ٣ قد جرى تخطي الإنقسام الذي حصل في الجيش. وفي نهاية ١٩٧٦، تمّ التوصل من جديد إلى تشكيل وحدة متكاملة في الجيش، ورغم عدم خبرتها واضعافها بسبب عندها المحدود... إلا أنها كانت مستعدة للقتال عندما تتلقى الأوامر... كما أن كبار الضباط السّنة بقوا موالين للدولة، والحكومة، والجيش".
راجع: R.D. McLaurin, Lebanon and its Army: Past, present, and future, in: Edward E. Azar (Ed.), op. cit., p. 95.

أحد أطراف الحرب الأهلية. فقد حاول فكتور خوري، وزير الدفاع وقائد الجيش آنذاك، إنشاء جيش وطني لبناني من المسيحيين والمسلمين بالتساوي. أما في البقاع فكان يربط لواء من الجيش، تعاون منذ البداية مع الجيش السوري، واعتبر "لواء" للجيش اللبناني، اكتسب انضباطه ثقة السوريين، عكس الضباط والوحدات الموجودة في ثكنة الفيّاضية وفي محيط وزارة الدفاع. أصرت الحكومة السورية على إرسال هذه "لواء" إلى الجنوب، ولكن رفض ذلك سعد حداد وإسرائيل. فحالما تقدمت هذه "لواء" في مطلع آب نحو الجنوب، قصفت قوات سعد حداد بلدة كوكبا، وارغمتها على انسحاب جزئي. وفي نيسان عام ١٩٧٩، جرت محاولة أخرى لإرسال لواء من الجيش اللبناني "مؤيد لسوريا" إلى الجنوب، فتصدت له أيضاً قوات سعد حداد الذي شعر بالامتناع والإهانة. فقواته كانت تعتبر جزءاً من الجيش اللبناني، ولم ير مبرراً لإرسال قوات أخرى إلى الجنوب لا يمكن، حسب رأيه، الاعتماد عليها^{١٠٩}. عندئذ اضطر إلى التعبير عن تمرده "بإعلانه دولة لبنان الحر"، كما طالب الرئيس سركيس، ألا يبقى طويلاً "أسير السوريين"، بل حثه على الذهاب إلى الجنوب، "وتحرير لبنان" انطلاقاً منه. على أثر ذلك، اعتبر حداد متمرداً وخارجاً عن الجيش. فقامت عندئذ إسرائيل بتأمين دفع الرواتب لجنوده. ومنذ ذلك الحين لم تحصل أية محاولة أخرى لإرسال قوات من الجيش اللبناني إلى الجنوب. ولكن الحرب الصغيرة بين الفلسطينيين و"لبنان الحر"، تحولت إلى ظاهرة يومية مستمرة. فقد حوّلت القوات الفلسطينية قلعة "بوفور" الصليبية إلى حصن منيع يطلقون منه باستمرار نيران مدافعهم على مرجعيون، "عاصمة" حداد. ولم تتوقف أيضاً عمليات الفدائيين والردّ عليها على طول الحزام الأمني الموازي للحدود الإسرائيلية.

كذلك بدأت أيضاً حرب صغيرة أخرى في وسط بيروت، وعلى طول "الخط الأخضر" وحتى الضاحية. فمنذ بداية المجابهة بين السوريين والجهة اللبنانية، تحسّنت العلاقات بين سوريا والمنظمات الفلسطينية من جهة، وبين سوريا ومنظمات الحركة الوطنية من جهة أخرى. فقد سُمح لميليشيات منظمة التحرير، ولوحدات من جيش التحرير الفلسطيني، والمرابطون، وقوات الحزب التقدمي الاشتراكي بالتمركز على الجهة الغربية من "الخط الأخضر". بينما اتخذت القوات السورية مركزاً هاماً لها في "برج المرن"، وهي بناية عالية جداً تطل على "برج رزق" الواقع في شرق بيروت. وعلى الجانب الشرقي من الخط الأخضر تمركزت الميليشيات المسيحية، ومنذ عام ١٩٧٩، بعض وحدات من الجيش اللبناني، التي لم يسمح لها بالدخول إلى بيروت الغربية. وكانت هناك عدة ممرات بين شقي العاصمة^{١١٠}. كانت تفتح أحياناً،

١٠٩- من مقابلة مع المؤلف عام ١٩٨٠.

١١٠- في المرفأ، وعلى طول الأرصفة، و"الرينغ" الذي يربط الأشرفية ببيروت الغربية، وكذلك ممران آخرا

رغم الأخطار التي كانت محدقة بالمرور عليها، كما كانت تغلق تماماً من حين إلى آخر. أما المدينة القديمة بين ساحة الشهداء والمرفاء، فقد تركت للميليشيات على الجانبين. في معظم الليالي كانوا يطلقون النار على بعضهم مستخدمين اسلحة خفيفة، وصواريخ ومدفعية ميدانية، كما كانوا يطلقون النار أيضاً نهاراً. ومنذ مطلع عام ١٩٧٩، كان يحصل تبادل نار مماثل بين حي الشياح وعين الرمانة. وأحياناً كان لإطلاق النار دافع سياسي. فكل مرة كان ينبغي التجديد "لقوات السلام"، أو كان يزور مبعوث من الدول الكبرى الشرق الأوسط، كان إطلاق النار يزداد حدة للتذكير بوجود الحرب، حتى وإن كانت فقط حروب صغيرة. وفي حالات أخرى كانت تحصل اشتباكات عسكرية، لم يستطع المراقبون السياسيون من ذوي التحيّلات الواسعة تبريرها أو إعطاءها أي تفسير سياسي. ولكن كان للحروب الصغيرة التي سمحت بها سوريا في بيروت معنى سياسي. يهدف إلى تذكير اللبنانيين على جانبي الخط الأخضر، دائماً وباستمرار، بأن السلام لا يمكن أن يكون إلا سلاماً سوريا فقط. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العملية لم تكن مكلفة لسوريا. فقواتها لم تعد تشارك في المعارك مثل ما حصل عام ١٩٧٨، بل كانت تدفع الآخرين إلى القتال. في مطلع عام ١٩٨٠ نجحت سوريا في تخفيف العبء عنها فانسحبت قواتها عن الطريق الساحلي جنوبي بيروت، ومن بعض قطاعات المدينة، واتخذت، بالإضافة إلى موقع واحد في بيروت، مواقع في الجبال، وسلمت مراكزها إلى جيش التحرير الفلسطيني الذي كان يتلقى الأوامر من ضباط سوريين أو من مؤيدين لسوريا.

أدى الانسحاب السوري في بيروت الغربية إلى نوع من حرب صغيرة ثالثة، ذات طابع غير منتظم، وهي حرب بين منظمات لبنانية وفلسطينية مختلفة، لم تكن دوافعها سياسية. كانت الميليشيات مثلاً تختلف على مراقبة بعض أحياء المدينة، أو حول السيطرة على هذه الجهة أو تلك من الشارع، وحول جمع الأموال لحماية التجار والسكان. وكانت تطلق النار على بعضها بسبب خلاف على أفضلية المرور على الطريق، أو لأسباب شخصية. في مثل هذه الأحداث، كانت الشرطة العسكرية التابعة لمنظمة التحرير تلعب دوراً إيجابياً للحوّل دون انزلاق بيروت إلى حالة شاملة من الفوضى. فكانت تتدخل بنوع خاص عندما كانت الاشتباكات المحدودة تهدّد بانفجار على مستوى واسع.

إلى جانب الأحداث اليومية لتلك الحروب الصغيرة، بدأت تبرز عام ١٩٧٩ و ١٩٨٠ ملامح نزاعين تميّزا بمدلولهما السياسي الكبير وباستقلالهما التام عن بعضهما، وهما: النزاع بين الشيعة اللبنانيين والفلسطينيين من جهة، والتصعيد الجديد

شرقي وسط المدينة على طريق بيروت - دمشق. وعلى المتحف، وفي الضواحي، طريق الشياح - الحازمية، و برج البراجنة - الحدث.

بين الجبهة اللبنانية وسوريا من جهة أخرى.

١٥ - حرب شيعية - فلسطينية ١١١

كان المسيحيون اللبنانيون اول المنتفضين ضد الوجود الفلسطيني المسلّح في لبنان. ولكن اكثر الذين عانوا من هذا الوجود ومن نتائجه، مع بعض التحفظ، هم الشيعة اللبنانيون. قبل الحرب، بين ١٩٦٩ و ١٩٧٥، كانوا يترددون في اظهار سخطهم ضد الفلسطينيين، ولكن كانوا يظهرونه بطريقة اعنف ضد الدولة اللبنانية، التي كانت عاجزة عن الدفاع عنهم وحمايتهم من التحول الى ضحايا النزاع الفلسطيني - الاسرائيلي. ففي ضواحي بيروت تضامن الشيعة المتعاطفون والمؤيدون للتيارات اليسارية مع الفلسطينيين، وشاركوا معهم في القتال عام ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ضد الميليشيات المسيحية. وكان الامام موسى الصدر وحركة امل قد اتخذوا منذ بدء الحرب بعض المواقف المتحفظة، كما حاولوا التوسط لوقف التدهور. وعندما احتلت الميليشيات المسيحية في صيف ١٩٧٦ الجزء الشرقي من حزام البؤس حول بيروت، تفاوض موسى الصدر معهم لتسهيل عملية انسحاب السكان الشيعة من النبعة. وبعد بداية التدخل السوري ضد الفلسطينيين والحركة الوطنية، ايد الصدر السوريين دون تحفظ. فتحذر الفلسطينيون وانصارهم منه ومن السوريين.

ومنذ منتصف عام ١٩٧٦ تقاوم التوتر بين الفلسطينيين والشيعة. فبعد التهجير الذي حصل في مخيمات ضاحية بيروت الشرقية، ازداد عدد الفلسطينيين كثيرا في ضواحي بيروت الجنوبية والغربية التي كانت قبل ذلك مكتظة بالسكان الشيعة. وقد زادت اكثر بفعل انتقال سكان النبعة الشيعة اليها. وكذلك زاد عددهم من جديد اثناء الغزو الاسرائيلي عام ١٩٧٨ بفعل وصول عشرات الالاف من اللاجئين من الجنوب. ولكن للفلسطينيين كانوا افضل تسلحا وتنظيما. في الواقع كانوا يسيطرون على ضواحي بيروت الجنوبية. وهذا ما زاد في تخوف الشيعة اللذين بدأوا، مثلما فعل المسيحيون من قبل، ينظرون الى الفلسطينيين كمحتلين^{١١٢}. كان هذا الشعور اقوى بكثير في المناطق الواقعة جنوب "الخط الاحمر" الاسرائيلي، والتي تحولت في نهاية عام ١٩٧٦ الى "فتح لاند" ثانية. كانت تلك المنطقة مأهولة بأكثرية شيعية ساحقة. في الواقع حاول عدد من القرى الشيعية اتخاذ جانب الحياد في المعارك بين

١١١ - راجع : Francis GRIMBALT, op. cit., p. 80ff; Augustus Richard NORTON, Harakat Amal, in: Edward E. AZAR (Ed.), op. cit., p. 184FF; Andreas RIECK, op. cit., p. 285ff.

١١٢ - كتب وليد خالدي في مؤلفه المذكور ص ١١٥، عن "... تكابر وسؤ تصرف بعض الفصائل الفلسطينية وحلفائهم اللبنانيين في الجنوب". حتى السنة في صيدا زاد امتعاضهم من الوجود الفلسطيني. ذات المصدر ص ١١٦.

الفلسطينيين من جهة، والاسرائيليين وقوات سعد حداد من جهة ثانية. ولكن هذا "الحيداء" كان يعني في الواقع رفضاً للوجود الفلسطيني. لذلك عمد الفلسطينيون الى التغلغل قدر الامكان بين السكان المدنيين، كي يصعب على القوات الاسرائيلية التعرف عليهم. وحتى السكان السنة في صيدا الذين تعاطفوا طويلاً مع القضية الفلسطينية، تظاهروا عام ١٩٧٨، قبل الغزو الاسرائيلي وبعده، ضد تزايد الخطر الذي كان يسببه لهم وجود المقاتلين الفلسطينيين بينهم. ولكن سخط السكان الشيعة تفاقم اكثر فأكثر بسبب تغلغل الفلسطينيين في قراهم، واحتلالهم المنازل وغيرها، والهجمات التي كانوا يمارسونها، كما ازداد ايضا سخطهم بسبب عدم قدرتهم على مجابهة الردود الاسرائيلية الانتقامية^{١١٣}.

حدثان جديان دفعا الى اثارة وتعبئة الشيعة بقوة سريعة للغاية، سواء في بيروت او في الجنوب. في ايلول ١٩٧٨ غاب الامام موسى الصدر في ليبيا عن الوجود دون ان يترك له اي اثر يذكر. وفي كانون الثاني ١٩٧٩ طرد الثوار الشيعة الشاه من ايران. الحدث الاول دفع بالشيعة الى ذروة السخط والامتعاض. اما الحدث الثاني فقد اثار لديهم عنفوانا وشجاعة فائقة، خاصة بعد تعيين احد معاوني موسى الصدر سابقاً، مصطفى تشمران، والذي كان مدير مدرسة مهنية أسسها الامام في جنوب لبنان، وزيرا للدفاع في طهران^{١١٤}. وهكذا اكتسب الشيعة اللبنانيون لأول مرة في تاريخهم حاميا لهم وحليفاً خارجيا.

بدأت ايضا حركة امل، بقيادة النائب حسين الحسيني اولاً، ثم ابتداء من نيسان ١٩٨٠ بزعامه نبيه بري، بالتعبير بوضوح عن المصالح الشيعية. فقد تخوف قادتها

١١٣- أحد الكتب، "جون بوللوخ" (John BULLOCH) الذي كان يُعتبر صديقاً للفلسطينيين، كتب في هذا الصدد: "برر الفلسطينيون انفسهم وكأنهم لا يعقلون كيف كانوا منعزلين او لا يدركون خطورة الأضرار التي يسببونها بسبب اعمالهم في (لبنان)... في الجنوب بنوع خاص، أصبحوا مكروهين، بسبب اطلاقهم دوريا القذائف على الجليل الأعلى من قلعة بوفور ونقاط أخرى، كانوا يستبيرون غارات اسرائيلية انتقامية، تقتل القرويين اللبنانيين او تلحق الضرر بمنازلهم او بأرزاقهم دون أن تصيب الفلسطينيين. كان هذا الأمر سيئاً للغاية، ولكن الفلسطينيين لم يأبهوا له، بل واصلوا نشاطهم. كانوا يفرضون الخوات، وينزلون عقوبات عشوائية وتحريضية. كانوا يضعون أيديهم على ما يحتاجون اليه، يرايضون بأسلحتهم قرب القرى، يقيمون المخابىء والملاجىء قرب الحدود، كما لم يهتموا إطلاقاً براحة المنطقة". راجع: John BULLOCH, Final Conflict, op. cit., p. 41. كذلك كتب بصورة مماثلة، أحد كبار رجال الدين الشيعة، محمد جواد مغنّة، الذي توفي عام ١٩٧٩: "لقد أعلن القادة الفلسطينيون، بأنهم، مهما حصل، لن يغادروا جنوب لبنان... فنظراً لمعرفتهم بأهداف اسرائيل العدوانية والتوسعية، ألم يكن ذلك منطق فلسطيني غريب ومستهجن. ألم يكن ذلك وكأنك تقول للسكان المسالمين في منزلهم الهائنة: أريد أن أفجر منزلكم على رؤوسكم ليس لأي هدف، بل لأبرهن عن وجودي في هذا العالم". ذكر ذلك، Chibli MALLAT, Shi'i Thought from the South of Lebanon, Oxford 1988, p. 21.

١١٤- توفي "شمران" في صيف ١٩٨١ خلال مشاركته في عملية عسكرية في خزستان.

من ان تؤدي نتائج المعارك الاسرائيلية - الفلسطينية الى تهجير الشيعة من الجنوب واقامة دولة امر الواقع للفلسطينيين مكانهم. فطالبوا بانسحاب المقاتلين الفلسطينيين من كل المناطق السكنية، وارسال الجيش اللبناني النظامي مكانهم.

فبينما كانت ميليشيات الحركة الوطنية تعارض دخول هذا الجيش الى بيروت الغربية وتتنظر الميليشيات المسيحية في بيروت الشرقية اليه بحذر وتعتبره منافسا لها، برز الشيعة وكأنهم اكثر المقتنعين سياسيا بوجوده وبدوره. وهكذا اسهم الجيش من جهته في ايصال الامدادات العسكرية الى حركة أمل وفي تأمين التدريب لعناصرها. ولكن منظمة التحرير اخذت ايضا تتنظر بحذر شديد الى الفريقين. إلا انها لم تجد الطرف مناسباً للدخول في نزاع مفتوح مع الشيعة. وهذا كان موقف قيادة حركة فتح بنوع خاص، ولكنها اخذت تمارس بعض الانشطة ذات المدلول البعيد، دون اي تراجع عن المسائل الرئيسية. فعمدت الى تشديد المراقبة على ضواحي بيروت الغربية والى تعزيز سيطرتها في الجنوب.

في تشرين الثاني ١٩٧٩، جاء الاحتفال بعيد الاستقلال اللبناني في غربي بيروت مظاهرة غير عادية على الاطلاق ضد كل القوى غير اللبنانية. فتحوّلت المدينة الى بحر من اعلام الأرز اللبنانية. كما استتفدت الاعلام المصنوعة من القماش والورق قبل يوم من العيد. شارك في تلك المظاهرة، الى جانب السكان الشيعة، سنة بيروت الذين عانوا أيضا من حالة الفوضى التي فرضتها الميليشيات.

وفي مطلع عام ١٩٨٠ تفاقمّت حدة التوتر بين الفلسطينيين والشيعة في ظل الحرب العراقية الايرانية. فقبل اندلاعها في الخليج في ايلول ١٩٨٠، كانت الحرب قد بدأت فعلا في ضواحي بيروت الغربية والجنوبية، حيث وقعت معارك طاحنة بين حركة أمل وجبهة التحرير العربية المؤيدة للعراق. كما حاولت حركة فتح التوسط بينهما. ولكن رغم الاعلان مرّات عديدة عن وقف لاطلاق النار، تواصلت المعارك دون انقطاع. كذلك انتقل الصراع من بيروت الى الجنوب حيث استمرّت الاشتباكات من عام ١٩٨٠ وحتى منتصف عام ١٩٨٢ بهدف السيطرة على عشرات القرى. هذا ولم يشعر الرأي العام الدولي بوجود ذلك النزاع.

وهكذا وبعد نهاية الحرب بين الفلسطينيين والميليشيات المسيحية، اندلعت حرب أخرى أقل بروزاً ووعبا، وان لم تكن أقل عنفا وضراوة، بين الفلسطينيين وطائفة لبنانية أخرى^{١١٥}.

١١٥ - أشار كريم بقرادوني الى تصريح سابق لموسى الصدر يعود الى حزيران ١٩٧٧: "المقاومة الفلسطينية... ليست ثورة لأنها لا تعرف معنى الاستشهاد. انها جهاز عسكري يرهب العالم العربي. بفضل سلاحه، يبتز الأموال، ويفضل ماله، يرشي الصحافة، ويفضل الصحافة، يؤثر على الرأي العام العالمي". كريم بقرادوني، المصدر المذكور، ص ١٠٦ وما يليها.

عام ١٩٧٦ تمكّن المسيحيون اللبنانيون من حسم الوضع مع الفلسطينيين في مناطقهم بتضحيات كبيرة ، ولكن الصراع بين الشيعة والفلسطينيين لم يعرف بالتالي نهاية حاسمة.

١٦ - الجبهة اللبنانية ومحاولات التوسع

عززت دوافع المواجهة مع سوريا عام ١٩٨٢ الاعتقاد لدى زعماء الجبهة اللبنانية باستحالة اجبار سوريا على سحب قواتها من لبنان على المدى القريب. كانوا فعلا يدركون مدى تفوق الجيش السوري عليهم. ولكن تطور المعارك عام ١٩٧٨ أشار أيضا الى ان سوريا تتردد في دفع الثمن، جنودا وعتادا، لتحطيم مقاومة الميليشيات المسيحية. كان هدف الجبهة في البداية رفع حجم هذا الثمن. وقد زادت آمالهم من خلال تفاقم المشاكل الداخلية في سوريا. كما بدا نظام حافظ أسد منذ عام ١٩٧٨ مهددا من قبل المعارضة المتمثلة بجماعة الاخوان المسلمين السنة الاصوليين، الذين استخدموا ذات الاساليب الهمجية مثل الحكم، في كفاحهم ونضالهم. ففي عام ١٩٧٩ اغتال الاخوان المسلمون عشرات الضباط العلويين في حلب، كما نجا حافظ أسد عام ١٩٨٠ من محاولة اغتيال.

على أثر ذلك، اعدمت الحكومة السورية مئات من الاخوان المسلمين، وقمعت المظاهرات بقساوة رهيبة. هذا وقد اعتبرت الجبهة اللبنانية الانسحاب السوري الجزئي من بيروت في كانون الثاني ١٩٨٠ نجاحا لها. ولكن الجيش السوري عمد الى الاكتفاء بما هو اساسي له. فتمركز بقوة في سهل البقاع، حيث كان يخشى كثيرا من ضربة اسرائيلية. اما وجود لواء من الجيش السوري في بيروت الغربية فلم يتدخل في الحياة اليومية بل كان فقط لتذكير الفلسطينيين وميليشيات الحركة الوطنية بالقوة التي تعود اليها الكلمة الاخيرة. كذلك اتخذ الجيش السوري مواقع استراتيجية في الجبال حيث يتمكن من مراقبة طريق الاتصال بين بيروت ودمشق، وتبقى بيروت كلها تحت رحمة مدفعيته واسلحته. بقطع النظر عن هذا الاعتبار، جاء الانسحاب السوري الجزئي بالنسبة للمسيحيين من منطقة نفوذ الجبهة اللبنانية ليخفف الكثير من الابعاء. فقد زالت حواجز المراقبة التي كان يقيمها السوريون على مداخل بيروت الشرقية والأشرفية، مما سمح مجددا بنشوء منطقة متجانسة تحت سيطرة الميليشيات المسيحية فقط، كما كانت قبل دخول السوريين اليها في خريف عام ١٩٧٦.

نظمت الميليشيات "منطقتها". أنشأت مصالح موازية لمصالح الدولة. فوضعت نظاما فاعلا لجباية الضرائب في سبيل تمويل الميليشيات. فرضت على التجار والمقاولين واصحاب البيوت والشقق رسوما شهرية، وعلى محطات المحروقات

والمطاعم نسبة معينة من المداخل. وفي مرفأ بيروت استولت ميليشيات الكتائب على الحوض الخامس، حيث كانت هي - وليس الدولة اللبنانية - تجبي الرسوم الجمركية. عبر هذه المداخل أصبحت الميليشيات في وضع يسمح لها بدفع رواتب لقوات نظامية دائمة ولقاداتها، وبشراء الأسلحة والذخيرة. وهكذا تحولت عناصر الميليشيات الى مقاتلين محترفين اكثر من السابق. كم انضم الى صفوفها ضباط وجنود كانوا قد فصلوا بعد عام ١٩٧٦ من الجيش النظامي. الا ان المصيبة الكبرى التي واجهتها تلك الميليشيات، نشأت بفعل تواجد عدة منظمات ميليشيوية مع بعضها، اي ميليشيات الكتائب، ونمور الاحرار، و"حراس الارز"، و"التنظيم"، الأمر الذي عطل فعاليتها رغم وجود قيادة عليا مشتركة، اقتصر دورها على التنسيق اكثر منه على اعطاء وتنفيذ الأوامر^{١١٦}.

بعد ابتعاد القوات السورية عن مواقع هذه الميليشيات، ازدادت المناوشات والاشتباكات المحلية داخل صفوفها بفعل التوترات الاجتماعية بين عناصرها. فاولاد "العائلات الميسورة" المتحمسون للقتال كانوا يحاربون في صفوف ميليشيات حزب الوطنيين الاحرار، بينما كانت ميليشيات الكتائب، تتألف كما ذكر سابقاً، من عناصر تنتمي الى الطبقات المتوسطة والدنيا. وقد نشأت وبنوع خاص، حزازات بسيطة بين منظمات متنافسة من صغار الشباب الذين لم يجدوا عملاً بعد تخفيف الضغط على المنطقة المسيحية. فامكانية حمل السلاح في الخدمة او خارجها سببت غالباً منازعات فردية أدت الى تبادل اطلاق نار ذهب ضحيته في عام ١٩٧٩ وفي النصف الاول من عام ١٩٨٠ أكثر من مئتي قتيل وجريح. ولم يكن لرؤساء الميليشيات والحزاب الا الاهتمام دوماً بمحاولات التوسط والمصالحة^{١١٧}.

عندئذ اخذ قائد ميليشيات حزب الكتائب، بشير الجميل، يفقد الامل تدريجياً بعمليات التفاوض والتوسط. فاثناء اقتحام مخيم تل الزعتر حصل غالباً، بحكم انعدام التنسيق بين مختلف الميليشيات المسيحية، اطلاق نار خطأ على بعضها بعض. منذ

١١٦- توفيق خلف، في مؤلفه المذكور، ص ٥٠، يشير الى أن سنوات الحرب الأولى أدت الى تزايد نفوذ الميليشيات على القيادة السياسية في حزب الكتائب. وقد قوي هذا النفوذ أيضاً بفعل تعاونها مع "المتشربين" من الميليشيات المسيحية الأخرى. - راجع أيضاً في هذا الصدد: John P. ENTELIS, Ethnic Conflict and the Reemergence of Radical Christian Nationalism in Lebanon, in: Michael CURTIS (Ed.), Religion and Politics in the Middle East, Boulder, Colorado 1981, p. 227-245.

١١٧- لقد حصلت أيضاً مناوشات محدودة في أيار وأيلول ١٩٧٩ بين حزب الكتائب وميليشيا حزب الطاشناق الأرمني. رغم تأييد هذا الأخير لحزب الكتائب سياسياً، إلا أنه منذ ١٩٧٥-١٩٧٦ اتخذ موقفاً متحفظاً من أحداث الحرب. فقط في تموز ١٩٧٦ شارك في المعارك ضد الفلسطينيين، بعدما أعادى على الأرمن في أحياء النبعة وبرج حمود. فموقف الأرمن الحيادي لم يرق إطلاقاً للمتطرفين من الميليشيات المسيحية الأخرى. ولكن حصلت في النهاية تسوية حية للخلاف.

ذلك الوقت بدأ بشير الجميل يعمل لإنشاء قيادة موحدة لهذه الميليشيات. ولكن نظرا لصعوبة تحقيق ذلك عبر المفاوضات، قرر اللجوء الى القوة. ففي السابع من تموز ١٩٨٠ هاجم مكاتب وكنائس ميليشيا النمر التابعة لحزب الوطنيين الاحرار.

نفذت تلك العملية بسرعة، وعنيفة ونجاح. فقتل من النمر حوالي مائة عنصر واستسلم الباقون لقيادة بشير الجميل. فقط في عين الرمانة تمكن "النمر" من تثبيت وجودهم. ولكن بعد مرور ثلاثة اشهر تمكنت وحدات تابعة لبشير الجميل من مطاردة تلك العناصر المنافسة لها وطردها من تلك المنطقة، بالإضافة الى طرد وحدات الجيش منها^{١١٨}.

وهكذا اصبح بشير الجميل القائد الوحيد للميليشيات الموحدة التي اطلق عليها اسم "القوات اللبنانية"، والتي تحولت منذ ذلك الحين الى قوة عسكرية ذات شأن بارز. فضمت حوالي ستة آلاف مقاتل محترف، كما كان بإمكانها تجنيد حوالي عشرة آلاف مقاتل من الاحتياط. كذلك فرضت ايضا تدريبا عسكريا الزاميا على الشباب القاطنين في المناطق الواقعة تحت نفوذها.

لم يسبب التوحيد الدموي للميليشيات - عكس ما حصل في النزاع بين الكتائب وفرنجية - اي خلاف سياسي عميق. فكميل شمعون تأثر كثيرا من عملية سحق ميليشيات حزبيه. ولكنه عكس ابنه داني، الذي كان يقودها والذي انسحب من السياسة، اعتبر من الأفضل الحفاظ على الوحدة السياسية للجهة اللبنانية، كما بقي رئيسا لها. وقد اصبح شعارها "تعددية سياسية ووحدة عسكرية". لقد كان من السهل نسبيا التفاهم على التعددية "السياسية"، نظرا للاتفاق التام بين كميل شمعون وبشير الجميل حول المسائل الهامة. فبشير كان معجبا بحزم كميل شمعون وبخبرته، كما كان كميل شمعون يرى في بشير خلفا له. فكلهما دفعا الجهة اللبنانية في سياق مليء بالمخاطر: تجرأ كل منهما على استفزاز سوريا ودفعا اسرائيل الى الالتزام اكثر فاكثرا في لبنان.

تسهل هذا الاتجاه بفعل بعض التغيرات على المستويين الاقليمي والدولي. ففي ايار ١٩٨٠ استقال وزير الدفاع الاسرائيلي "وايزمان" من منصبه، فتسلم هذه الحقيبة بعده رئيس الوزراء، مناحيم بيغن الذي كان ميالا لدعم المسيحيين اللبنانيين اكثر من السابق. وفي تشرين الاول من تلك السنة عقدت سوريا معاهدة صداقة ودفاع مع الاتحاد السوفياتي، فتحوّلت الى اقوى حليف اقليمي للدولة الشيوعية الكبرى. وفي تشرين الثاني تم انتخاب "رونالد ريغن" رئيسا للولايات المتحدة، كما عين الجنرال

١١٨ - ان حالة استثنائية بقيت قائمة: حافظت ميليشيا الكتائب في المتن على استقلالية ذاتية بقيادة أمين الجميل، شقيق بشير، وقد وضع حد لوجودها في تشرين الأول ١٩٨٠ في دير عوكر.

"الكسندر هاينغ" وزيراً لخارجيته. وكلاهما عُرِفا باعطائهما النزاعات الاقليمية طابعاً "شمولياً"، اي ضرورة معالجتها في اطار المواجهة الشاملة بين الشرق والغرب. وفي كانون الثاني اصدرت الجبهة اللبنانية بياناً مفصلاً بعنوان "لبنان الذي نريد بناءه"^{١١٩}، تضمن تصور اهدافها في السياسة الداخلية والخارجية. فلبنان يجب ان ينظر اليه كاتحاد طوائف، لا تسوده امتيازات للمسيحيين ولا ايضاً للطوائف الاخرى. فلا يجوز ربط الحرية والأمن و"امكانية تقرير المصير بالنسبة لمسيحيي لبنان"^{١٢٠} بأي "معطيات ديمغرافية او توجيه سياسي"^{١٢١}. كذلك ينبغي النظر بميثاق ١٩٤٣ في اتجاه "اللامركزية او الفدرالية او الكونفدرالية"، وعلى البلد ان يتحرر من الاحتلالين وان يرفض قطعاً اي نوع من التوطن النهائي للفلسطينيين على أرضه. اما أوضح ما جاء في هذا البيان، فهو الموقف من سوريا، فشدد على ضرورة انتهاء الاحتلال السوري"^{١٢٢}.

وفقاً لهذا الهدف، حاولت الجبهة اللبنانية توسيع حدود المنطقة التي تسيطر عليها. فمُنذ بداية الحرب كانت مدينة زحلة منعزلة عن المنطقة المسيحية، نظراً لوقوعها على المنحنى الشرقي لسلسلة جبال لبنان، في وادٍ يفتح على سهل البقاع، غير بعيد عن طريق بيروت-دمشق. فيها تمرّ الطريق المؤدية الى مدينة بعلبك. في الاوقات العادية كانت تعد مدينة زحلة حوالي ٨.٠٠٠ نسمة وتشكل أهم مركز تجاري في البقاع. تنتمي أكثرية سكانها الى طائفة الروم الكاثوليك، يليها الروم الارثوذكس ثم الموارنة. اما الاحزاب فكانت منذ بداية الحرب ضعيفة التمثيل فيها.

في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ قام سكان المدينة بالدفاع عن انفسهم بواسطة ميليشياتهم، لصدّ هجومات المقاتلين الفلسطينيين. وقد رحّبوا بالدخول السوري الذي خفف الاعباء والاضغوط عنهم. ولكن هذا الوضع ما برح ان يتبدّل خلال عام ١٩٨٠. فالقوات السورية التي كانت ترأب كل الاتصالات مع زحلة، سواء عبر البقاع، او عبر الطرق الجبلية، أخذت تتصرف بكثير من التعنت وازعاج السكان. فتكاثرت الخلافات والنزاعات. وكردة فعل على ذلك زاد كثيراً التأييد لحزب الكتائب في زحلة. وسعت القوات اللبنانية الى تجنيد شبابها وتدريبهم وتحويلهم سريعاً الى القوة الاقوى سلاحاً في المدينة. ولكن في سبيل خلق توازن داخل زحلة، سلّحت القوات السورية افراد ميليشيا "تمور" الاحرار الذين هربوا سابقاً من بيروت^{١٢٣}. ففي

١١٩- لبنان الذي نريده. نص الوثيقة التي وزعتها الجبهة اللبنانية في ٢٣ كانون الأول ١٩٨٠.

١٢٠- ذات المصدر، ص ٦.

١٢١- ذات المصدر، ص ٥.

١٢٢- ذات المصدر، ص ٩.

١٢٣- خُش، قلند ميليشيا "النمور" في عين الرمانة، هو من منطقة زحلة، حاول بعد تهجيريه من العاصمة انشاء قاعدة نفوذ جديدة له في زحله.

تشرين الثاني وكانون الاول عام ١٩٨٠ حصلت عدة اشتباكات بين الطرفين، وقد دعمت خلالها القوات السورية ميليشيا "النمر" ولكنها تكبدت بعض الخسائر، اذ قتل ضابط وخمسة جنود من السوريين. وانتقاما لذلك قصفت المدفعية السورية مدينة زحلة من مواقعها الموجودة في الجبال المحيطة بها، خلال طيلة اسبوع عيد الميلاد. عندئذ التحقت كل عناصر "النمر" بالقوات اللبنانية. فاضطرت القوات السورية الى سحب مواقعها من المدينة وواصلت عمليات قصفها من بعيد. وبعد اسبوع اعلن وقف لاطلاق النار إلا ان المدينة بقيت محاصرة من قبل الجيش السوري.

ارتفع عدد مقاتلي القوات اللبنانية الى حوالي خمسة آلاف بعد تثبيت وجودها في المدينة، ثم حاولت اقامة اتصال بين زحلة والمناطق المسيحية. فبدأت بشق طريق جبلي بهدف كسر الطوق السوري عن المدينة. كانت هذه المحاولة بالنسبة لسكان المدينة امرا مشروعا تماما يهدف الى فك الحصار عنهم. وبالنسبة لقيادة الجبهة اللبنانية، كان ذلك خطوة غير عسكرية لتوسيع منطقة نفوذها. اما بالنسبة للسوريين، كانت قضية شق طريق تمثل اجراء استراتيجيا حافلا بالمخاطر والتهديدات. فنظرا لتعاون الجبهة علانية مع الاسرائيليين، تخوف السوريون من استخدام القوات الاسرائيلية لهذا الطريق الجديد، والوصول دون اي خطر الى وسط منطقة البقاع. فتهدد بذلك الوجود السوري هناك، كما تهدد ايضا مدينة دمشق.

حاولت القوات السورية منع شق الطريق ولكن دون احرار نجاح في البداية. ومنذ شهر أذار بدأت بقصف المدينة مجددا. ولكن القوات اللبنانية تمكنت من الحاق خسائر كبيرة في احدى ضواحي المدينة، وجاء الرد السوري باطلاق نار شديد عليها. وفي ذات الوقت بدأت المدفعية السورية باطلاق قذائف المدفعية والصواريخ على بيروت الشرقية وضواحيها المسيحية. وعندما استهدفت مراكز الجيش اللبناني النظامي، رد الجنود اللبنانيون بحزم شديد واقتحموا تكتة سورية بالقرب من خط النار الفاصل بين منطقتي العاصمة.

هذا التصرف السوري لم يختلف عن تصرفهم عام ١٩٧٨. فقد عوضوا عن خسارتهم على الارض بقصف المناطق السكنية في زحلة كما في بيروت، بغية الزام العدو على الاستسلام. ولكن هذا العدو لم يستسلم هذه المرة ايضا. وكما حصل عام ١٩٧٨ أثار قصف المدنيين والاحياء السكنية سخطا دوليا واسعا. فقد تحدث وزير الخارجية الاميريكي، اثناء زيارته الى القدس، عن ضرورة وقف الاعتداء السوري على المسيحيين اللبنانيين، كما أعلن منحيم بيغن عن انه لن يبقى مكتوف اليدين امام مجزرة المسيحيين. فحديث هايج وبيغن زاد في تخوفات السوريين، واعتبرت قضية زحلة ابعد من ان تكون نزاعا محليا مع القوات اللبنانية. فلكي تضع حدا لشق طريق جبلي تؤدي الى زحلة استخدمت سوريا في ٢٦ نيسان ولاول مرة

طوافات مقاتلة ومصفحة ضد القوات اللبنانية التي لم تكن تملك اسلحة مضادة لمجابهتها. وبذلك نجح السوريون بالسيطرة على موقع استراتيجي على جبل صنين، شمال غربي زحلة، يعرف "بغرفة الفرنسيين"، وهو مركز محصن يعود الى عهد الانتداب الفرنسي. وهكذا فشلت محاولة القوات اللبنانية في شق طريق الى زحلة. اضافة الى ذلك، اصبح من الممكن، انطلاقا من قمة صنين، تهديد كل المنطقة المسيحية. ولكن هذه الهزيمة العسكرية تحولت الى كسب سياسي بالنسبة للجهة اللبنانية: فعندما قبلت اسرائيل عام ١٩٧٦، عبر الولايات المتحدة، بعدم اعتراض التدخل السوري في لبنان، لم يكن ذلك يتضمن فقط احترام "الخطوط الحمراء" من قبل القوات السورية فقط، بل ايضا التزام سوريا بعدم استخدام سلاح الطيران. وفي عام ١٩٧٨ وعدت الحكومة الاسرائيلية الميليشيات المسيحية بانها لن تقبل اطلاقا بأية غارة جوية سورية ضدها. لذلك طالب زعماء الجهة اللبنانية الاسرائيليين باحترام هذا الوعد. ففي الثامن والعشرين من نيسان قامت طائرتان حربيّتان عسكريّتان اسرائيليتان، بقصف طوّافتين سوريّتين. وبعد يوم على ذلك صعدت سوريا الوضع العسكري. فركزت في سهل البقاع صواريخ سام -٢- وسام -٦- ارض جو. وهكذا اكتسب النزاع بين الجهة اللبنانية وسوريا بعدا دوليا^{١٢٤}.

وقد تبين لاحقا، ان اوضاع الطقس غير الملائمة حالت دون ضربة اسرائيلية سريعة ومفاجئة على مواقع تلك الصواريخ. وهكذا تسنى للدولتين الكبيرين، وقد أثارت قلقهما امكانية اندلاع حرب سورية - اسرائيلية، الاستفادة من الوقت للتدخلات الدبلوماسية. فقد أعلن السفير السوفياتي في بيروت، بان معاهدة الدفاع المعقودة مع سوريا، تنطبق على الاراضي السورية، وليس على الاراضي اللبنانية. كذلك ارسلت الحكومة الاميركية مبعوثا خاصا، هو فيليب حبيب، للتفاوض في سبيل الوصول الى حل سلمي "لازمة الصواريخ". أما الحكومة الاسرائيلية فقد ارجأت هجومها الملحوظ. وبما ان اسرائيل كانت تعيش مرحلة استعداد للانتخابات التشريعية تمكن فيليب حبيب من استخدام الوقت لممارسة مهمته. فنجح في دفع الحكومة السعودية للتوسط في ايجاد حل لازمة زحله.

في مطلع حزيران عقد اجتماع في بيت الدين ضم وزراء خارجية السعودية، وسوريا، والكويت، والامين العام للجامعة العربية، وكذلك رئيس الجمهورية اللبنانية، ورئيس وزرائه، ووزير خارجيته، بينما كانت تتواصل المعارك في زحلة وببيروت. وقد دعي بشير الجميل الى ذلك الاجتماع، حيث طلب منه ممثلو الدول العربية الابتعاد نهائيا عن اسرائيل. فطالب بضممانات لتسوية النزاع نهائيا في لبنان معلنا

١٢٤ - راجع: Thomas MAYER, Lebanese Politics and the "Missile Crisis", in: Colin LEGUM & al. (Eds), Middle East Contemporary Survey, Vol.V., 1980-81, New York and London 1982, p. 675-676.

استعداده عندئذ لقطع علاقاته مع إسرائيل، إذا ما حصل على هذه الضمانات. اما ممثلو الحكومة اللبنانية، بما فيهم رئيس الوزراء، شفيق الوزان، فقد وضعوا برنامجاً^{١٢٥} يتضمن قطع كل علاقات الجبهة اللبنانية مع إسرائيل، والتطبيق الحرفي لاتفاق القاهرة من قبل الفلسطينيين، والانسحاب التدريجي للجيش السوري حتى الاول من آب ١٩٨٢.

ولكن وزير الخارجية السوري، عبد الحليم خدام رفض الاقتراح الاخير.

اما الدبلوماسية السعودية فحققت وقفا للمعارك ورفع الحصار عن زحلة. على أثر ذلك تمكن حوالي اكثر من مائة مقاتل من خارج زحلة، مغادرة المدينة بمرافقة سعودية. فاستقبلوا في بيروت ورحب بهم كأبطال.

لم تحرز الجبهة اللبنانية في الواقع اي انتصار. فقد فشلت في توسيع رقعة نفوذها، وعادت زحلة مجددا الى حالة الامر الواقع، مع خسائر كبيرة في الارواح واضرار جسيمة في الممتلكات. ولكن ميليشياتها حاربت بضراوة ضد عدو اقوى منها بكثير، وكشفت لسوريا بأن القصف البربري الارهابي غير كاف لاجبار مدينة عازمة على الدفاع عن نفسها على الاستسلام. ولكن لم تتجح ايضا الجبهة اللبنانية في جرّ إسرائيل مباشرة الى النزاع. فالحكومة الاسرائيلية وفت بوعدها وتدخلت ضد استخدام سلاح الجو السوري، ولكن فقط عندما سقطت اهم مراكز الجبهة في الجبال. وبذلك كشفت عن قرارها المتعلق بالتدخل للحفاظ على الامر الواقع، وليس لتحقيقه او تعزيزه لصالح المسيحيين. ولكن لا الارتباط مع إسرائيل ولا الاستعداد لقطع العلاقات معها بهدف انجاح "حل عربي"، أدى الى نتيجة حاسمة. كما أن الاستعراض احتفالا بالنصر كان مقنعا بخيبة الأمل. إلا أن هذه المجابهة الجديدة بين الجبهة اللبنانية وسوريا تركت أثرا جانبيا لم يكن منتظرا. فالجيش اللبناني - المؤلف من جنود مسيحيين ومسلمين - لم يتردد في اطلاق النار على القوات السورية، عندما هاجمته. لقد دفع هذا الأمر بالرئيس سركيس ورئيس الوزراء شفيق الوزان، ووزير الخارجية فؤاد بطرس الى فقدان كل ايمانهم وثقتهم بالنوايا "الطيبة" لدى الحكومة السورية. وكذلك بدأ الرئيس سركيس سرّاً بتحضير بشير الجميل كخلف له. فنصحته بالاعتماد على الولايات المتحدة، بدلا من إسرائيل. وبواسطته تمكن بشير الجميل من زيارة واشنطن في آب ١٩٨١ واجراء محادثات سياسية هناك مع الادارة الاميركية.

١٢٥- تجدر الإشارة بنوع خاص الى أن شفيق الوزان، رئيس الحكومة، ساهم في اعداد هذا البرنامج. ولأول مرة منذ اندلاع الحرب حصل توافق شامل بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة حول المسائل الأساسية. راجع ايضا: كريم بقرادوني، المصدر المذكور، ص ٢٣٤ وما يليها.

١٧ - "حرب الاسبوعين" بين الاسرائيليين والفلسطينيين

لم تتوقف الحرب الصغيرة في جنوب لبنان اطلاقاً، بل استمرت حلقة العنف قائمة عبر الفلسطينيين وعمليات الفدائيين والرد الاسرائيلي عليها. ففي نيسان ١٩٨٠ بلغت هذه الحلقة من العنف ذروتها اثناء المعارك التي كانت مندلعة في زحلته. فقد كشف الجيش الاسرائيلي عن تخوفه من تحسين نوعية السلاح الذي تستخدمه منظمة التحرير، ومن نواياها الواضحة الهادفة الى استخدام قوات عسكرية نظامية. فتخوفت من حرب استنزاف مكلفة للغاية على حدودها^{١٢٦}.

ففي العاشر من تموز قام الطيران الاسرائيلي بقصف قواعد المدفعية والصواريخ الفلسطينية في ضواحي صيدا وفي النبطية. فردّ الفلسطينيون على هذه الغارة باطلاق الصواريخ على المنطقة التي يسيطر عليها سعد حداد وعلى بعض القرى الاسرائيلية في شمال الجليل. ولكن لم ينجح سلاح الجو الاسرائيلي في سحق بطاريات الصواريخ الفلسطينية. فبعد ١٤ يوماً اضطر سكان شمال إسرائيل الى النزول الى ملاجئ الأمانة من القصف الجوي. كما هرب معظم سكان قرية "شمونا" الى داخل البلاد. وفي السابع عشر من تموز هاجم الطيران الاسرائيلي الابنية التي تضم مكاتب المنظمات الفلسطينية في حي الفاكهاني في بيروت المكتظ بالسكان. دام هذا الهجوم عدة دقائق ولكنه خلف مئات الضحايا وآلاف الجرحى، معظمهم من المدنيين. وفي الجنوب تواصل القتال واطلاق النار، حتى نجح فيليب حبيب، بمساعدة الدبلوماسية السعودية، عبر مفاوضات منفصلة مع اسرائيل ومع منظمة التحرير، في وقف اطلاق النار.

خلفت "حرب الاسبوعين" خسائر جسيمة لدى الفلسطينيين - وخاصة لدى اللبنانيين - فتجاوزت كثيراً الخسائر لدى الطرف الاسرائيلي. ولكن الفلسطينيين أظهرُوا أنهم في وضع يؤهلهم، رغم الضربات الاحترازية الإسرائيلية، لقصف شمال الجليل في اسرائيل وشلّ الحركة اليومية فيه. وللمرة الأولى أيضاً كانت اسرائيل ملزمة، وإن بطريقة غير مباشرة، بإبرام اتفاق لوقف اطلاق النار مع منظمة التحرير. ابرز هذا الاتفاق نجاحاً سياسياً لصالح منظمة التحرير وفشلاً بالنسبة لإسرائيل. إلا أن الحكومة الاسرائيلية قبلت ذلك على مضض، لأن عام ١٩٨٢ كان المرحلة الأخيرة لتنفيذ معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، ولم ترغب في تعريضها للخطر. ولكن لم يقتنع أحد بسكوتها وتغاضيها عن هذا الفشل طويلاً.

١٢٦- راجع في هذا الصدد John BULLOCH, Final Conflict, op. cit., p. 44: "لقد كشف جنود الأمم المتحدة عن عجزهم في منع الفلسطينيين من التسلل الى الجليل الأعلى، كما لم تكن لهم الامكانية لردع مسلحي منظمة التحرير عن اطلاق القذائف من فوق رؤوسهم نحو الاراضي الاسرائيلية".

١٨ - حروب صغيرة قديمة وجديدة

جرى احترام اتفاقات وقف إطلاق النار في زحلة والجنوب بمساعدة الوساطة الدولية، دون أن تغيب تماما اصوات الاسلحة في البلاد. لقد تواصلت الحروب الصغيرة القديمة، واندلعت ايضا حروب صغيرة جديدة. فالجيش السوري فقد تماما معنوياته ودوره كقوة لحفظ السلام وتحول الى فريق في النزاع مثل باقي الفرقاء، ان لم يكن بنوع خاص فريقا كبيرا. كما انقسم لبنان الى مناطق تسيطر عليها قوات عسكرية مختلفة. وقد تواصل إطلاق النار متفرقا على معظم جبهات القتال. ولكن الاشتباكات العنيفة حصلت في المناطق التي لا تسيطر عليها قوة عسكرية من لون واحد. فقد حلّ نوع من النظام والهدوء في المنطقة التي كان يسيطر عليها الجيش النظامي اللبناني، والممتدة من اليرزة وبعيدا حتى ضواحي بيروت حيث كانت تتواجد ايضا القوات اللبنانية التي حولها بشير الجميل الى قوات شبه نظامية تعمل وتعيش وفق نظام الثكنات العسكرية. وفي كل الامكنة الاخرى كانت تتنازع قوى مختلفة على فرض سلطتها ونفوذها.

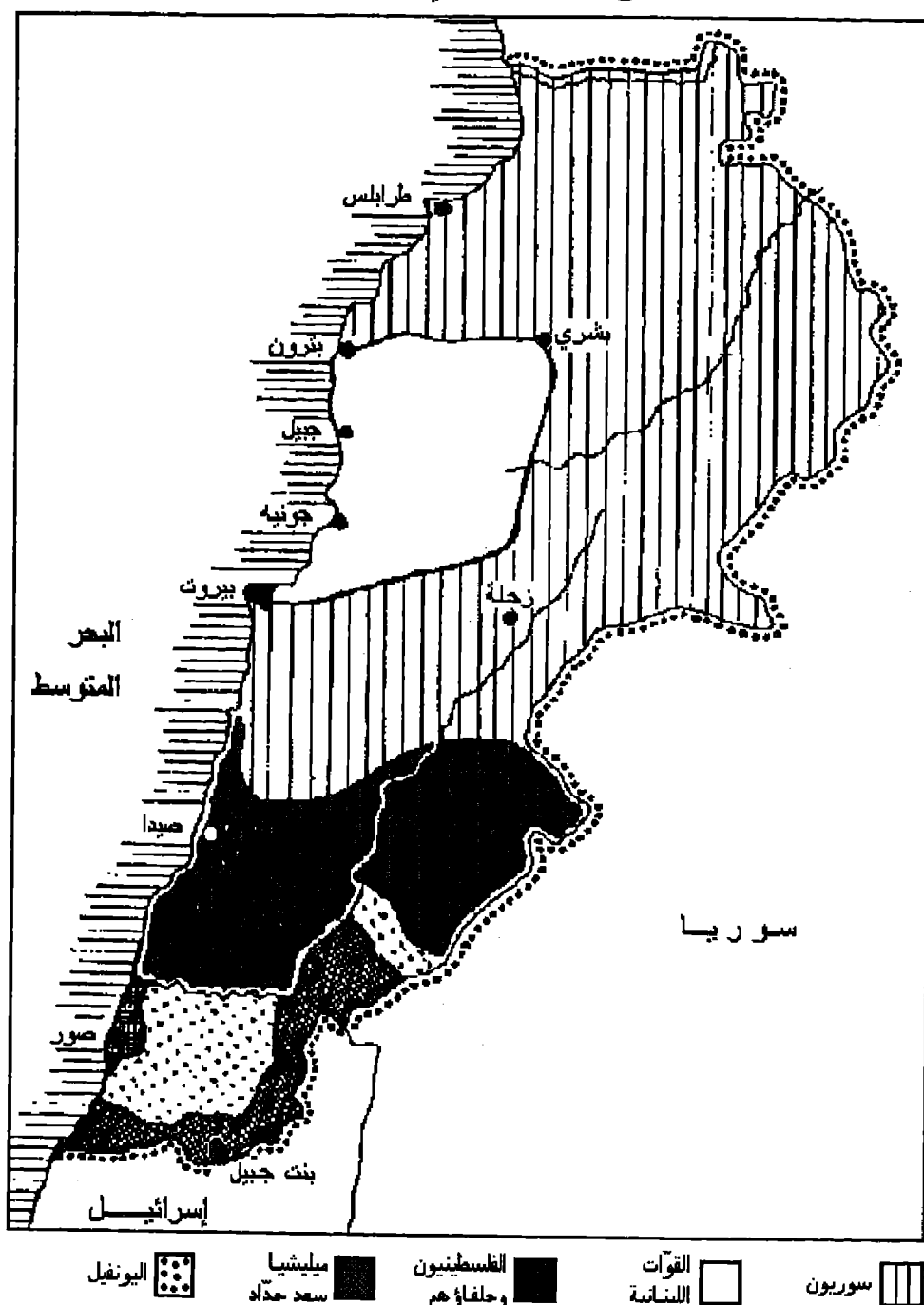
في نهاية عام ١٩٨١ كان تحديد مَنْ لا يحارب ضد مَنْ، أسهل من تحديد مَنْ يقاتل مَنْ. لم تحصل معارك بين المسيحيين والمسلمين اللبنانيين، ولا بين المسيحيين والفلسطينيين، ولا بين الفلسطينيين والاسرائيليين. ولكن الذين كانوا يحاربون آنذاك كانوا من غير اللبنانيين ضد غير اللبنانيين، اي السوريون ضد الفلسطينيين من جهة، ومن جهة أخرى مجموعات لبنانية مختلفة ضد السوريين او الفلسطينيين. فالتعايش بين القوات السورية ومنظمات المقاومة الفلسطينية بقي منذ عام ١٩٧٦ معقدا باستمرار. فأهم المخيمات الفلسطينية في ضواحي بيروت بقيت ايضا حتى بعد دخول الجيش السوري عام ١٩٧٦ خارج "الرقابة السورية". وكان ذلك بالنسبة لمنظمة التحرير شرط أولي لاستقلالها السياسي. وهكذا كانت تتواجد في غرب بيروت القوات السورية والفلسطينية جنبا الى جنب، متحالفة منذ عام ١٩٧٦، ولكن بحزر مستمر. كما كان بالامكان حصول او تجنب اشتباكات كبيرة بينهما. وفي شمال البلاد كما في شمال البقاع، اعتبرت سوريا نفسها صاحبة النفوذ دون منازع. في طرابلس خاصة، ثاني أكبر مدينة في البلاد، ارادت سوريا فرض سلطتها كاملة. ولكن لم يقبل الفلسطينيون بذلك. فمنذ مطلع عام ١٩٨٢، حصلت اشتباكات في شوارع المدينة استخدمت فيها المدفعية والصواريخ. أثناء ذلك حصل الفلسطينيون على تأييد ومساعدة من الميليشيات السنة المحلية. بينما شكلت سوريا الى جانب قواتها النظامية مجموعات من اللبنانيين ومن العلويين السوريين للقتال معها. تصرف الجيش السوري النظامي كما تصرف في نزاعه مع الميليشيات المسيحية في

بيروت وزحله. انسحب الى اعالي التلال المحيطة بالمدينة، وأخذ يقصف الأحياء السكنية "المعادية" له. وكانت المعارك تتوقف قليلا بعد كل اتفاق لوقف إطلاق النار. الا انها تواصلت عدة اشهر، مخلقة وراءها مئات الضحايا من المدنيين.

وكما حصل في طرابلس برزت ايضا في بيروت الغربية تحركات من قبل السكان السنة ضد قوة الاحتلال السوري. ولكن الوجود السوري هناك كان اقوى بكثير مما كان عليه في طرابلس وأقل ارتباطا بالنزاعات مع الفلسطينيين. ورغم ذلك، حصلت في آذار ونيسان ١٩٨٢ اشتباكات بين الميليشيات السنية والقوات السورية. وفي الوقت ذاته، بقي التوتر قائما بين الوحدات السورية من جهة والجيش اللبناني والميليشيات المسيحية من جهة ثانية. فعلى مراحل متقطعة، كانت المدفعية السورية تقصف مواقع الجيش اللبناني على تلال الجبال وعلى خطوط التماس في بيروت. وفي ذات الوقت لم يتوقف في وسط المدينة، تبادل النار بالصواريخ وقذائف المضاد، منذ سنوات، بين وحدات من جيش التحرير الفلسطيني والقوات اللبنانية. تَكَثَّرَت الاشتباكات بين السوريين والفلسطينيين، وبين السوريين واللبنانيين المسلمين والمسيحيين. ولكن أهمها كانت تلك الاشتباكات التي حصلت في الاشهر الأولى من العام ١٩٨٢ بين المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين، وذلك كما حصل سابقا عام ١٩٧٩، في ضواحي بيروت الجنوبية الغربية والمنطقة الممتدة بين الليطاني والزهراني. ثم امتدت في مطلع عام ١٩٨٢ الى وسط المدينة وفي غرب بيروت. كان أهم المتخاصمين حركة "أمل" ضد جبهة التحرير العربية المؤيدة للعراق التي كانت تدعمها منظمات شيوعية صغيرة، كانت مؤهلة للقتال والمعارك. ولكن حركة أمل التي نفذ اليها روح التجديد الشيعي حاربت بالتزام ضد تلك المجموعات التي كانت تضم "مؤمنين من الشيعة وقعوا في فخّ الالحاد". وفي نيسان من تلك السنة تصاعدت شدة المعارك عبر القصف المدفعي المتبادل بين الضواحي الشيعية ومخيمات الفلسطينيين المجاورة لها. وفي الوقت نفسه، تحولت الحرب الصغيرة الفلسطينية - الشيعية في الجنوب الى معارك طاحنة في صور والنبطية. وفي منتصف أيار، انفجر الوضع ايضا بين منظمات أخرى. ف وقعت في صيدا معارك دامية بين الميليشيات السنية الناصرية وحركة فتح.

برز الطابع المشترك خلال اشتداد حدة الحروب الصغيرة المختلفة، باستثناء النزاعات السورية - الفلسطينية، عبر تنامي واستياء المجموعات اللبنانية المختلفة من الاحتلالين السوري والفلسطيني معا. عبّر عن هذا الاستياء المسيحيون سابقا، والآن اخذ المسلمون ايضا يدركون تدريجيا - بانهم - وحدهم - تحمّلوا عبء النزاع العربي مع إسرائيل. فقد بدأ الوهم يزول من عقولهم حول الاعتماد على الشعوب العربية الشقيقة. فكم من اجيال من المسلمين اللبنانيين طالبت بالاتحاد مع

مناطق النفوذ العسكري ١٩٧٦-١٩٨٢



سوريا. ولكن لم يعد الآن أي سياسي مسلم بارز يشير الى ذلك اطلاقاً^{١٢٧}. فقد اتهم كبار رجال الدين المسلمين الفلسطينيين بعدم احترامهم لمصالح اللبنانيين الأساسية. فشعبية السياسيين المعتدلين قبل الحرب بدأت ترتفع، بينما أخذت تتراجع شعبية الذين تحالفوا مع الفلسطينيين وزاد نفوذهم بعد مصرع كمال جنبلاط، والذين كانوا يعتمدون على الميليشيات المرتبطة بهم وعلى الاحزاب. برزت هذه المؤشرات بكل وضوح في مطلع عام ١٩٨٢. فالحركة الوطنية مثلاً وضعت خطة تهدف الى إجراء استفتاء في أحياء بيروت وذلك للحد من تنامي شعبية الزعماء القدامى، خاصة صائب سلام. ولكن هؤلاء الزعماء نجحوا مع الرؤساء الدينيين في منع اجراء مثل هذا الاستفتاء. فدعوا الى مظاهرات شعبية في آذار وتمكنوا من تعبئة انصار لهم وجمعهم في الشوارع أكثر بكثير من منافسيهم. فالميليشيات كانت تمتلك فقط اسلحة، وكما دلت المظاهرات، كانت أكثرية السكان تقف وراء السياسيين القدامى المعتدلين. فنظراً لتكاثر الحروب الصغيرة المجردة من كل معنى أو هدف واكتشاف عبثيتها، بالإضافة الى الفوضى الشاملة التي سببتها، وجد المطلب الداعي الى ضرورة انزال الجيش اللبناني النظامي الى بيروت الغربية واعادة الشرعية اليها، تأييداً من الجميع. فالظاهرة التي برزت في العيد الوطني عام ١٩٧٩، أصبحت ظاهرة يومية: آلاف أعلام الارز على المساجد والمدارس، امام المحلات التجارية وعلى السيارات، على المنازل الخاصة، والابنية المدمرة. فمهما كان لهذه الظاهرة من مغزى عسكري أو رمزي، فلا بد أنذاك من الاعتراف بان المسلمين اللبنانيين بدأوا ينتفضون ضد أوضاع يشعرون بها وكأنها احتلال اجنبي^{١٢٨}.

١٢٧- شدد بنوع خاص على هذا الموضوع وليد جنبلاط في مقابلة مع المؤلف.

١٢٨- لاحظ نواف سلام في هذه المرحلة تزايد الايمان اللبناني بوطن مشترك ... منذ عام ١٩٧٩ يشكل يوم العلم مظاهرة متكررة للتعبير عن الروح اللبنانية بين كل الفئات الدينية. هذه "الروح اللبنانية" الجديدة تعبر عن خيبة الأمل الإسلامية من الفلسطينيين والسوريين ومن طريقة تعاطي العرب مع النزاع اللبناني. كما تعبر أيضاً عن تزايد زوال الغرور لدى المسيحيين تجاه الغرب... Nawaf SALAM, The Agony of Lebanon: Scenarios and solutions, Harvard University. Center for International Affairs, (unpublished), Cambridge 1982, p. 17f.

١٩ - الحرب الاسرائيلية - الفلسطينية ١٩٨٢

قبل عام ١٩٨٢، كانت معظم الحروب الاسرائيلية - العربية تتدلع وتشكل مفاجأة لهذا الفريق أو ذاك. ولكن منذ عام ١٩٨١ كان جميع الفرقاء في انتظار مواجهة جديدة وكبيرة بين اسرائيل ومنظمة التحرير في لبنان، وذلك لأسباب عديدة. فأزمة الصواريخ بين إسرائيل وسوريا بقيت دون تسوية. و"حرب الاربعة عشر يوما" في تموز ١٩٨١، كشفت لإسرائيل بأن منظمة التحرير كانت في وضع يسمح لها بقصف شمال إسرائيل وشلّ الحركة فيه. ولم يعد أيضا سرا خافيا على أحد، بأن منظمة التحرير كانت تعد في جنوب لبنان جيشا شبه نظامي، وأن سوريا تمدّها بالسلاح والعتاد. وفي إسرائيل زاد التخوف من إمكانية حرب استنزاف على الحدود الشمالية. كما أن مصرع الرئيس أنور السادات في تشرين الأول أثار تخوفات جديدة حول مدى إستمرارية عملية السلام مع مصر. ففي المفاوضات حول الجزء الثاني من إتفاق كمب دافيد، والمتعلق بالحكم الذاتي للفلسطينيين، برز تباين واضح بين التصورات المصرية والاميركية من جهة، والتصورات الاسرائيلية من جهة ثانية. لقد عقدت حكومة الليكود الثانية، التي كان الجنرال أريال شارون وزيرا للدفاع فيها، مناقشات طويلة ومكثفة حول كيفية مواجهة كل هذه الأخطار. وقد تم الإتفاق حول رفض أي تنازلات في الضفة الغربية، وتأمين الحدود الشمالية من حرب إستنزاف. وقد أيد فريق من أعضاء الحكومة والقيادة العسكرية، وكذلك حزب العمال المعارض، "حلا صغيرا"، براجماتيا، يقضي بإنشاء منطقة أمنية واسعة تمتد حتى اربعين كلم داخل لبنان، تحمي المناطق الحدودية الشمالية من قصف بعيد المدى. وقد طالب آخرون، وفي مقدمتهم أريال شارون "بحل كبير"، ولكن تصوره كان أكثر بكثير. إن حلا ملائما لاسرائيل في الضفة الغربية سيصبح ممكنا، حسب هذا التصور، عندما يتم القضاء على منظمة التحرير. في هذه الحال لابد في الوقت نفسه من طرد سوريا من لبنان والعمل على إقامة حكومة لبنانية قومية صديقة لاسرائيل. "قالحل الصغير" لا قيمة له، كما دلت على ذلك "عملية الليطاني" عام ١٩٧٨. إضافة الى ذلك، بدت الاوضاع آنذاك أكثر تلاؤما لحل كبير: فمن جانب مصر لا شيء يدعو بعد الى التخوف، والعراق غاطس في حرب الخليج، والأسلحة التي تمتلكها سوريا ما زالت محدودة، ولبنان قادم على إنتخابات رئاسية، ويبدو بشير

١٢٩ - راجع في هذا الصدد Itamar RABINOVITCH، المصدر المذكور، ص ١٢١ وما يليها؛ وكذلك الدراسة الأكثر تفصيلاً و"التزاماً" لمؤلفيها Ze'ev SCHIFF & Ehad YA'ARI المصدر المذكور. (يحمل المؤلفان بشير الجميل والكاتب مسؤولية كبيرة). هناك أيضا عرض دقيق للجوانب العسكرية، راجع: Moshe GAMMER, The War in Lebanon: The course of hostilities, in: Colin LEGUM & al. (Eds), Middle East Contemporary Survey, Vol. VI, 1981-82, New York & London 1984, p. 128-157; John BULLOCH, Final Conflict, op. cit.

الجميل مرشحا مؤيدا لاسرائيل. وفي النهاية يمكن الحصول على الموافقة الاميركية: فريغن وهايج يتابعان في الشرق الاوسط خطة "التوافق الاستراتيجي" القائم على تعاون كل القوى المؤيدة للغرب في المنطقة واعطاء إسرائيل دورا هاما في هذا الإطار. فاضعاف منظمة التحرير وخلق اوضاع مستقرة في لبنان يتوافقان تماما مع هذا المفهوم. ففي نيسان ١٩٨٢ أبلغ أحد كبار الضباط الاسرائيليين الجنرال هايج بهذه الخطة. وكان جوابه بأنه لا يجوز اطلاقا حصول اي شيء قبل المرحلة الاخيرة من الانسحاب من سيناء، كي لا يعرض السلام مع مصر الى خطر ١٣٠. وفي أيار التقى شارون بهايغ وحصل على موافقته وترحيبه وتشجيعه أيضا ١٣١. ولكن لم يكن مؤكدا ان شارون أطلع هايج على كل تفاصيل مخططاته. اما حول موافقة الحلفاء اللبنانيين فالأمر كان أكثر تعقيدا. فلا ريب ان بشير الجميل كان يطمح الى رئاسة الجمهورية، ولم يكن من شك ايضا بأنه كان يرحب دون أي تحفظ، بضربة إسرائيلية حاسمة ضد الفلسطينيين والسوريين في لبنان. كان بشير يعتبر الفلسطينيين والسوريين خطرا على إستقلال لبنان وليس على إسرائيل، كما كان يرحب بكل مساعدة لإزاحة هذا الخطر. ولم يكن هناك كذلك اي شك بأنه كان يطمح ليكون رئيسا قويا، كما كان مقتنعا بحاجة لبنان الى سلطة مركزية قوية وجيش قوي حازم. ولكنه كان مقتنعا أيضا بأن لبنان لا يمكن ان يحكمه رئيس يمثل نصف سكانه. ان رئيسا مارونيا سيكون قويا فقط طالما لا يسيء الى قناعات المسلمين ومشاعرهم الاساسية. وكان من المؤكد أن أكثرية المسلمين كانت تريد التحرر من الفلسطينيين ومن السوريين معا، وان امتعاض الشيعة وكذلك السنة زاده قناعة في هذا الاتجاه. ولكنه كان يعرف جيدا ان المسيحيين لا يستطيعون تحقيق أمنية مواطنيهم المسلمين، لأن ذلك يحتاج الى "قوة أكبر منهم بكثير"، اي القوة الاسرائيلية ١٣٢. وكان شارون ينتظر من بشير الجميل، حالما يتم الغزو الإسرائيلي، ان يقوم باقتحام بيروت الغربية و"تنظيفها" من الفلسطينيين. ولكن هذا التوقع كان امرا غريبا جدا وصعب التحقيق في الاطار اللبناني. فضلا عن ذلك، لم تكن القوات اللبنانية في وضع عسكري يؤهلها لهذه المغامرة. لقد كانت قوية للدفاع عن مناطقها، ولكن غير مؤهلة إطلاقا لتنفيذ عمليات هجومية. فلو حصل على ذلك، لتعرضت لانتحار ذاتي. فبعد انسحاب الاسرائيليين لا بد للمسيحيين من العيش مع مواطنيهم المسلمين. لذلك لم تكن الهجمات على مخيمات الفلسطينيين، ولا على بيروت الغربية المسلمة امرا ممكنا. فشارون لم يحصل على أية موافقة مسبقة في هذا

١٣٠- Ze'ev SCHIFF, The Green Light, in: Foreign Policy, 50(1983)1, p. 79.

١٣١- لم توافق كل الإدارة الأميركية على مفهوم اسكندر هايج. كما كان لوزير الدفاع "فاينبرغر" (WEINBERGER)، والمستشار الأمني "كلارك" (CLARKE)، مثلاً، مواقف واتجاهات معاكسة.

١٣٢- من مقابلة مع المؤلف عام ١٩٨١.

المضمار من بشير الجميل حول دعم القوات اللبنانية للجيش الاسرائيلي في الهجوم على بيروت الغربية. ولكنه أعتقد ببساطة، بأن هذا التأييد يمكن أن يحصل في اللحظة الحاسمة. ولكنه حصل على جواب أكثر وضوحاً على هذا الاقتراح، في حال إنزال القوات الإسرائيلية في جونية وإقحام بيروت من الشمال ومن الجنوب. كان ذلك ممكناً، لو بقي الجيش الإسرائيلي في لبنان كي يحمي المسيحيين باستمرار ضد سوريا وبقية العالم العربي^{١٣٣}.

ولكن في النهاية بلغ سؤ التفاهم ليس فقط بين بشير الجميل وشارون، بل أيضاً بين العديد من الإسرائيليين والمسيحيين اللبنانيين إلى أبعد من ذلك. من الجانب الإسرائيلي، برز تصوّر بأن المسيحيين اللبنانيين يرغبون في الواقع بأن "تفد إسرائيل عملاً قذراً"، بينما حمل المسيحيون إسرائيل مسؤولية تهجير الفلسطينيين وكل المآسي التي لحقت بلبنان من جراء ذلك^{١٣٤}، ووجدوا بالتالي أمراً طبيعياً أن تقوم إسرائيل بتخفيف هذه المآسي عنهم. وبرز أيضاً سؤ التفاهم الإسرائيلي حول إمكانية قيام نظام ذي سيطرة مارونية واضحة في لبنان، باعتبار أن الموارنة يطمحون إلى ذلك. لقد كان عدد من الموارنة يعتقد بأن طائفتهم تلعب دوراً فاعلاً وبارزاً في لبنان. ولكن باستثناء بعض مواقف أصحاب التخيّلات الوهمية من أفراد الميليشيات، لم يكن أحد من الموارنة يعتقد بإمكانية ممارسة سيطرة قائمة على سلطة غير ممكنة، وهذا أمر غير مرغوب فيه. حتى بشير الجميل بالذات لم يكن مقتنعاً بذلك. بل كان يعتقد بقيادة قوية، نظراً لقناعته بهذه الرغبة لدى المسلمين أيضاً. لقد اعتقد بدور رائد للموارنة، وليس بدور سلطوي أو تسلطي على طراز دور العلويين في سوريا أو الهاشميين في الأردن. وتركز سؤ الفهم الآخر لدى الإسرائيليين حول مدى استعداد المسيحيين اللبنانيين للانفصال عن بقية العالم العربي من خلال تعاون علني مع إسرائيل. فالمسيحيون يعرفون بأنهم لا يستطيعون انتظار أي تعاطف معهم أو مساعدة من العرب، ولكنهم كانوا يدركون أيضاً انتماءهم إلى العالم العربي وبأنهم لا يستطيعون لأسباب إقتصادية تحمّل الانفصال عنه^{١٣٥}.

فعندما بدأ شارون الحرب عام ١٩٨٢، برزت صحة توقعاته الاستراتيجية بأنها صحيحة. ولكن تفسيره المضلل للأوضاع في لبنان أدى، انطلاقاً من النصر العسكري، إلى كارثة سياسية في إسرائيل وإلى أكثر من ذلك في لبنان. فقد جرى تحديد توقّيت نشوب الحرب، بعد الانسحاب النهائي من سيناء في الخامس والعشرين

١٣٣ - A'e'v SCHIFF & Ehud YA'ARI, op. cit., p. 50

١٣٤ - لم يتعب بيار الجميل إطلاقاً من تكرار عرض هذا المفهوم باستمرار.

١٣٥ - على سؤال طرحه المؤلف، في حال تقسيم لبنان وقيام تحالف بين المسيحيين وإسرائيل في القسم المسيحي من لبنان، هل يبقى هناك مكان للديمقراطية الليبرالية، أجاب دوري شمعون: "هذا ما لن نعرفه أبداً. وقبل أن نتمكن من معرفة شيء، نكون قد متنا جوعاً لو قد هاجرنا".

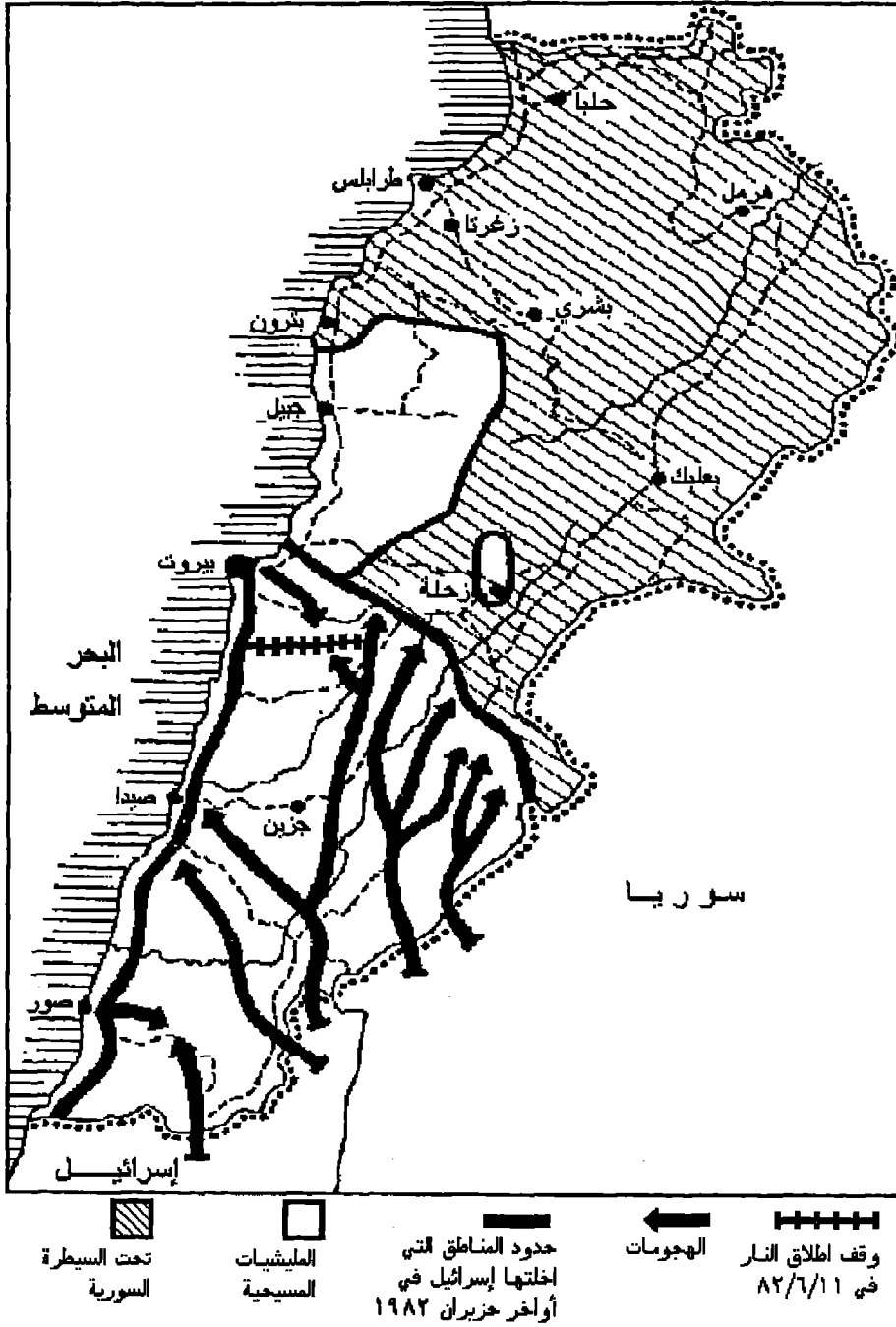
من نيسان وقبل شهر أيلول، آخر موعد لانتخابات رئاسة الجمهورية في لبنان. في نهاية نيسان بدأ فعلا انتظار حصول مبرر ما لإشعال نار الحرب. وهذا ما وفرته مجموعة منشقة عن منظمة التحرير بزعامة أبو نضال، قامت بهجوم على سفارة إسرائيل في لندن، دون أن يكون لمنظمة التحرير أي علاقة لها بهذا الاعتداء. فمجموعة أبو نضال المنشقة كانت متخصصة في إغتيال الفلسطينيين المعتدلين. إلا أن الرد الإسرائيلي على ذلك كان القيام بغارات جوية على أهداف تابعة لمنظمة التحرير في بيروت. وهكذا تم نقض اتفاق وقف إطلاق النار الذي سعى إليه فيليب حبيب قبل سنة. ومن جانبها، ردت منظمة التحرير بإطلاق صواريخ على شمال إسرائيل. ولكن في السادس من حزيران ١٩٨٢ كان الهجوم الإسرائيلي قد بدأ فعلا على جنوب لبنان.

لم تتخذ الحكومة الاسرائيلية أي قرار واضح بشأن اختبار مفهوم أو حجم "كبير" أو "صغير" لهذه العملية التي بدأت وكأنها تستهدف إقامة منطقة أمنية تمتد الى أربعين كلم شمال الحدود. ولكن "شارون" ورئيس أركان جيشه "إيتان"، سعيا كي تتجاوز العملية هذه المنطقة^{١٣٦}. تقدم الجيش الاسرائيلي خلال ثلاثة أيام حتى الدامور على طريق الشاطئ، تاركا خلفه مواقع فلسطينية قوية في مخيمات صور وصيدا، حيث أبدت وحدات منظمة التحرير المتمركزة فيها مقاومة عنيفة، إذ لم يقض عليها إلا بعد قصف قواتها جوا واستخدام سلاح المدفعية ضدها. وفي الوقت نفسه تقدم الجيش الاسرائيلي على خط ثان عبر جزين والشوف وعلى خط ثالث نحو الشمال عبر جنوب البقاع. حينها أبلغت الحكومة الاسرائيلية بواسطة الدبلوماسية الاميركية السوريين، بأن هجومها يستهدف فقط الفلسطينيين، وليس سوريا. ولكن نظرا لوجود قوات سورية في الجبال المحيطة بالبقاع، حصلت اشتباكات عنيفة لبعض الايام بين السوريين والاسرائيليين. إلا أن الامر الحاسم في الحرب أثارته الضربة القوية التي حققها سلاح الجو الاسرائيلي في العاشر من حزيران بنظام الصواريخ السوري وبسلاح الجو السوري ايضا. فجرى تدمير مواقع الصواريخ باستخدام تقنيات جديدة غير معروفة حتى ذلك الوقت. وهذا ما أفقد سوريا في المعارك الجوية القسم الاكبر من طائراتها الحربية وحوالي نصف طياريتها، وأصبحت القوات السورية البرية في وضع صعب للغاية. رغم ذلك، حاولت هذه القوات في الجبل كما في البقاع مواصلة بعض أعمال المقاومة.

وكما حدث في السابق، تحركت أيضا هذه المرة الدول الكبرى خوفا من وقوع حرب واسعة بين سوريا وإسرائيل. فالحكومة السورية التجأت الى الاتحاد السوفياتي الذي تفاوض بدوره مع الحكومة الاميركية طالبا منها ممارسة ضغط على الحكومة

١٣٦ - راجع تقديرات Itamar RABINOVITCH, The War for Lebanon, op. cit., p. 132ff

الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢



الاسرائيلية. وفي الحادي عشر من حزيران ١٩٨٢ جرى الاعلان عن إتفاق سوري-إسرائيلي لوقف إطلاق النار، قبل أن ينجح الجيش الاسرائيلي في الوصول الى احتلال طريق بيروت - دمشق. كان لهذا الاتفاق أهمية بالغة لاعتبارات عديدة، منها إشارة الاتحاد السوفياتي الى ان معاهدة الدفاع السورية - السوفياتية لا تشمل القوات السورية في لبنان، وتوضيح الولايات المتحدة بأن موافقتها للضربة الاسرائيلية ضد الفلسطينيين لا تعني في الوقت ذاته رضاها عن نصر اسرائيلي تام على سوريا في لبنان. اما ممارسة الدولتين الكبيرين ضغطا لوقف النار لصالح السوريين، وليس لصالح الفلسطينيين، فأثبت مجددا قلقهما الجدي من خطر اندلاع حرب أوسع بين حليفتيهما في المنطقة، دون أي إهتمام أو إكتراث بالاحداث الدامية المتواصلة في لبنان. في الواقع قبلت سوريا بوقف لإطلاق النار من جانب واحد، ولكن قواتها كانت تكتفي بالرد حيثما يعتدى عليها. كما قاومت هجومات عدة. ورغم تفوق قوات الغزو الاسرائيلي، لم يصل الاسرائيليون الى طريق بيروت - دمشق كما ذكر أحيانا. كما بقيت القوات السورية متمركزة جنوب شرق بيروت وشرقيها عندما أعلن وقف إطلاق النار في الحادي عشر من حزيران. حتى ذلك الوقت لم تكن بيروت قد حوصرت. ولكن الجيش الاسرائيلي لم يحترم وقف إطلاق النار بل واصل القتال في إتجاه بيروت. في الثالث عشر من حزيران، وعندما دعي الى وقف ثان لإطلاق النار، كان الجيش الإسرائيلي قد نجح في الوصول الى جوار بعثا والبرزة - حيث يقع القصر الجمهوري اللبناني ووزارة الدفاع اللبنانية - الى طريق بيروت - دمشق، وبالتالي تمكن من الإتصال بالقوات اللبنانية. وحتى بعد الاعلان الثاني عن وقف لإطلاق النار، واصل الجيش الاسرائيلي القتال، وتمكن بالتعاون مع القوات اللبنانية من مواصلة التقدم شرقا على طريق بيروت - دمشق وإجبار السوريين في الرابع والعشرين من حزيران على الإنسحاب من عاليه وبحمدون.

وهكذا جرى عزل الفلسطينيين ولواء من الجيش السوري كان متمركزا في بيروت الغربية، عن الوحدات الرئيسية للجيش السوري. فتمركزت وحدات إسرائيلية، على الجبهة الشرقية من الخط الفاصل في بيروت، بينما كانت البحرية الاسرائيلية تعزز الحصار البحري على المدينة. وهكذا جرى تطويق المنطقة الغربية من كل الجهات. فالحرب السورية - الاسرائيلية على الارض اللبنانية، وهي نوع من النتائج الجانبية لحرب إسرائيل ضد منظمة التحرير، إنتهت بذلك عمليا. فقد نجحت إسرائيل في طرد القوات السورية من كل مكان حيث كانت تقف عائقا في طريقها ضد الفلسطينيين. ولكن مخطط القيادة الاسرائيلية الهادف الى أبعد

من ذلك - وهذا ما كان يبتغيه شارون - لم يتم إنجاز ١٣٧. فقد تكبد الجيش السوري خسائر فادحة، خاصة سلاح الجو، ولكنه لم يهزم. وعندما أعلن عن وقف تام لإطلاق النار كانت سوريا ما تزال تحتل القسم الشمالي من البقاع، وكل المنطقة الشمالية من لبنان، والقسم الأكبر من طريق بيروت - دمشق، وخاصة منطقة المتن الأعلى في وسط الجبل. وهكذا بقيت بيروت على مرمى من مدفعيتها.

أما الحرب الاسرائيلية - الفلسطينية فقد تواصلت في ذات الوقت على المستويين العسكري والسياسي - الدبلوماسي. فعندما طوق الجيش الاسرائيلي بيروت وأخذ يشدد الحصار عليها، قامت في إسرائيل مناقشات حادة حول أهداف الحرب. فالحكومة الاسرائيلية قررت الغزو في لبنان، ولكن لم تحدد له بوجه الدقة أهدافه الجغرافية. فكان شارون يبلغ الحكومة يوما بعد يوم، عن الانجازات، ولكنه بعد الوصول الى بيروت، تمكن من الحصول على تأييد حكومته، بغية القيام بعملية تقضي على منظمة التحرير في تلك المدينة. وهنا حصل تباين في الآراء حول كيفية تحقيق ذلك بين أعضاء الحكومة وبين القيادات العسكرية. حينها أخذت الخلافات تزداد يوما بعد يوم، بعدما بدأت النتائج السلبية لحصار مدينة مكتظة بالسكان، تضم عددا كبيرا من الصحفيين ومراسلي وكالات الاعلام الدولية يقومون بتغطية الاحداث في معظم محطات التلفزة والاذاعات في العالم، كانت القيادة العسكرية باكثريتها ضد محاولة احتلال مدينة مثل بيروت، لأن ذلك سيعرض قواتها لخسارة فادحة. وقد توقع بعض المسؤولين الاسرائيليين قيام القوات اللبنانية بهذه المهمة مكان جنودهم. ولكن لم يكن ذلك واردا اطلاقا نظرا للحثييات والاعتبارات المشار اليها سابقا. عندئذ لم يكن بوسع الجيش الاسرائيلي الا استخدام ذات الوسائل التي استخدمها الجيش السوري عام ١٩٧٨ ضد بيروت الشرقية وعام ١٩٨١ ضد زحلة وبيروت الشرقية، اي الحصار والقصف العنيف. ولكن القصف الاسرائيلي عام ١٩٨٢ كان أكثر دقة وكثافة. فلم يشارك فيه سلاح المدفعية فحسب، بل السفن الحربية وسلاح الطيران ايضا.

جاءت نتائج هذا القصف شبيهة بنتائج القصف السوري. فلم يؤذ المقاتلين المتمركزين في الملاجئ المحصنة، بل السكان المدنيين من اللبنانيين والفلسطينيين العزل. وبالنتيجة لم يكن على الحكومة الاسرائيلية ان تواجه، كما حصل سابقا مع الحكومة السورية، الاستنكار الدولي فقط، بل أيضا استنكار واستياء سكان إسرائيل

١٣٧- اتهم شارون الولايات المتحدة لعرقلتها الجهود الاسرائيلية وذلك بالضغط على اسرائيل لوقف إطلاق النار قبل ساعات من تمكنها من انزال هزيمة بالقوات السورية في لبنان... فلو واصلنا القتال بضع ساعات أخرى، لتمكنا من القضاء على الجيش السوري في البقاع في منطقة شتورا". راجع:

International Herald Tribune, 2.3.1984

والجيش الاسرائيلي بالذات. لقد قدم أحد الضباط إستقالته من الجيش، لأن ضميره لم يعد يسمح له بإطلاق النار على بيروت ولا بقصف مدينة بطريفة عشوائية. كذلك تشكلت في أواخر حزيران "لجنة ضد الحرب في لبنان"، أعقبها في الثالث من تموز مظاهرة ضخمة ضمت حوالي مائة ألف متظاهر في تل أبيب، طالبوا بإجراء مفاوضات مع الفلسطينيين. ولكن حكومة "بيغن" تمسكت بالحصار وأعلنت في الوقت ذاته استعدادها لقبول عرض الولايات المتحدة بتكليف المبعوث الاميركي فيليب حبيب للبحث عن حل عبر المفاوضات. وكما حصل في إسرائيل نشأت أيضا نزاعات وخلافات متشابهة بين أعضاء الحكومة الاميركية والرأي العام السياسي. كان بإمكان ادارة الرئيس ريغن قبول ضربة سريعة ضد منظمة التحرير، ولكن لم يكن بوسعها القبول بتوسيع الحرب ضد سوريا. لذلك مارست ضغطا شديدا على إسرائيل، لإلزامها بقبول وقف لإطلاق النار. كما رفضت أيضا محاصرة مدينة بيروت الغربية خلال اسبوع كامل. وقد عارض ذلك فقط وزير الخارجية هايج، الذي اقبل من منصبه في ٢٥ حزيران مع عدد كبير من موظفي الادارة الاميركية، كما انهم هايج بموافقته على تصرف إسرائيل المتطرف في لبنان. أما خلفه، جورج شولتز، المعروف بعلاقاته الطيبة مع المملكة العربية السعودية، فقد سارع الى إعطاء توجيه جديد لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط. على الأثر، جرى التخلي عن مفهوم "التوافق الاستراتيجي" والأخذ بالاعتبار المميز للمصالح الاسرائيلية. فبدلا من أصحاب النظريات "الشمولية"، أعطيت الأفضلية لأصحاب النظريات "الاقليمية"، وبدأ التحضير لمبادرة سلام جديدة في الشرق الاوسط.

أدى التغيير في الادارة الاميركية الى نتائج غير متوقعة على ساحة القتال، اذ سمح لمنظمة التحرير باستعادة شجاعته ومواصلة الدفاع حتى عن آخر مراكزها مهما كلف الامر. وعندما وصل الاسرائيليون الى ضواحي بيروت، تخوفت القيادة الفلسطينية من إقحام مباشر لمخيماتها ولمقر منظمة التحرير الرئيسي. وعندما لم يحدث ما كان متوقعا، إنبعث الامل لديها مجددا في الحؤول دون اي إستسلام بفضل الضغط الدولي. كما كان بإمكانها تحمل مثل هذا الحصار مدة طويلة، علما أن وحداتها كانت قوية ومتماسكة، كما إنضمت اليها وحدات وصلت من الجنوب في الوقت المناسب، بالإضافة الى وفرة الاسلحة والذخيرة لديها، ومعرفتها الجيدة بالطرق والمخابيء السرية في المدينة، وخبرتها الواسعة في حرب الشوارع. أما إلحاق الخسائر بالسكان المدنيين فكان عاملا سياسيا أساء كثيرا الى المهاجمين. إنطلاقا من هذه المعطيات بدأ الفلسطينيون حالا بالحديث عن تحويل بيروت الى "ستالينغراد" ثانية.

وهكذا بدأ تبادل طويل بين الهجومات الاسرائيلية والمفاوضات الصعبة التي كان

يقودها فيليب حبيب من جهة مع الإسرائيليين، ومن جهة أخرى مع عرفات، بواسطة شفيق الوزان رئيس الوزراء اللبناني وصائب سلام. ولكن تضيق الحصار على بيروت الغربية من قبل الإسرائيليين اشتد أكثر فأكثر، بسبب قطع المياه والكهرباء عنها، ومواصلة الطيران الحربي غاراته عليها. أما جهود الوساطة فلم تتقدم إلا بصعوبة كلية. في آخر تموز قبلت أخيراً منظمة التحرير بمبدأ سحب قواتها من بيروت. إلا أن عرفات بقي يحاول ويراهن للحصول على أفضل شروط ممكنة، مطالباً أحياناً بالانسحاب المتوازي للقوات الإسرائيلية، وأحياناً باعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير. ولكن لم تلح بوادى الحل إلا بعد الغارات والانتهاكات الإسرائيلية الجديدة، إذ تبين لمنظمة التحرير بأن صمود السكان المدنيين قد شارف على النهاية. كذلك تخوفت المنظمة بنوع خاص من قيام شارون بهجوم ساحق عليها، بعد عزلها إقليمياً ودولياً. وفي الواقع، لم تعبر أية حكومة عربية عن استعدادها لتقديم المساعدة لها. الملك حسين وحده أعلن عن إعطاء الحرية للجنود الفلسطينيين في الجيش الأردني، بالذهاب إلى لبنان والمشاركة في الحرب إذا شأؤوا. كما نصح العقيد القذافي الفلسطينيين بمواصلة القتال في بيروت حتى آخر نفر منهم. وكذلك لم يبد أي بلد عربي استعداده لاستقبال مقاتلي منظمة التحرير. أما جهود فيليب حبيب الدبلوماسية فنجحت أخيراً في الحصول على موافقة بعض الدول، كالبحرين وتونس، كما أبدى الاتحاد السوفياتي استعداده لإجلاء عرفات ومعاونيه على متن سفنه الحربية. وفي النهاية نجحت الولايات المتحدة في تنظيم إخراج مشرف لهذا الإجراء. فتوافدت قوات متعددة الجنسية من الأميركيين والفرنسيين والإيطاليين إلى بيروت، بينما تعهدت إسرائيل بعدم إحتلال المدينة. وفي الحادي والعشرين من شهر آب، تم إجلاء حوالي خمسة عشر الفا من المقاتلين والمدنيين الفلسطينيين بحر ١٣٨١، وحوالي ستة آلاف وخمسة مائة جندي من الجيش السوري ومن جيش التحرير الفلسطيني برّاً. وفي أول أيلول انتهى إجلاء آخر مقاتل فلسطيني عن بيروت ١٣٩.

٢٠ - حرب باردة حول لبنان

وفي ذلك اليوم بالذات، أعلن الرئيس ريغن عن خطة جديدة لتسوية المشكلة الفلسطينية، تضمنت عدداً من الاقتراحات الهادفة إلى تحقيق البنود المتصلة

-
- ١٣٨- جرى توزيع مقاتلي منظمة التحرير على عدة دول عربية، كما نقل مقرها الرئيسي إلى تونس.
- ١٣٩- انسحبت القوات الأميركية في العاشر من أيلول، والإيطالية في الحادي عشر منه، والفرنسية في الثالث عشر منه، أي قبل العشرين من ذلك الشهر، وهو الموعد الذي تمّ الاتفاق عليه مع الحكومة اللبنانية. حول نتائج هذا الانسحاب المبكر، راجع فيما بعد.

بالفلسطينيين في اتفاق كمب دافيد. لاحظ ذلك الاتفان حكما ذاتيا لهم في الضفة الغربية وقطاع غزة "ضمن اتحاد مع الاردن". كما أن الخطوة الأولى تقضي بتجميد سياسة الاستيطان الاسرائيلي في الاراضي المحتلة. آنذاك أعلن ريغن بأن نجاح إسرائيل العسكري في لبنان دلّ على انها الدولة الأقوى في المنطقة، ولكن القوة وحدها لا تستطيع بناء أي سلام. فالأمر يتعلق بتسوية تضمن رغبة إسرائيل المشروعة بالأمن وإحترام الحقوق الشرعية للفلسطينيين.

الا أن خطته لم تلق قبولا لدى الحكومتين الاسرائيلية والسورية. فزعماء حكومة الليكود لم يفكروا إطلاقا بالتخلي عن الضفة الغربية. كما أن أحد أهم أهدافها من غزو لبنان كان تحطيم منظمة التحرير وقطع الأمل على فلسطينيي الاراضي المحتلة بالاعتماد على هذه المنظمة وحثهم على القبول بالسيطرة الإسرائيلية. كما رأوا في المبادرة الاميركية تهديدا لتعطيل ذلك. وهذا ما دفع بيغن الى رفض خطة ريغن حالا. أما سوريا، التي لم يذكرها ريغن اطلاقا في خطابه، فقد اعتبرت "الحل الاردني" للقضية الفلسطينية محاولة مشبوهة وغير مقبولة، ستؤدي الى توقيع إتفاق سلام ثنائي، كما حصل في اتفاق كمب دافيد سابقا. وسيجري تنفيذها بدون سوريا وضدها. وبالفعل، اعتبرت الدبلوماسية الاميركية سوريا في خريف ١٩٨٢، وكأنها قد أضعفت عسكريا، وأصبحت مرتبطة بالمملكة العربية السعودية ماليا، وصغيرة الحجم سياسيا.

ولكن إحتلال أجزاء كبيرة من لبنان من قبل سوريا وإسرائيل، إستغلته هاتان الدولتان لعرقلة مبادرة السلام الاميركية. وهذا امر لم يستدرك. فقد أعلن وزير الخارجية الاميركية، جورج شولتز، بأن أحداث لبنان كشفت عن أهمية الدور الرئيسي الذي يجب أن تلعبه اميركا لاحلال السلام في المنطقة، وليس لأحد سواها المصادقية، وبالتالي الامكانية لاقامة واجراء الاتصالات الحاسمة بين كل الاطراف.

ومرة أخرى لم تأت مبادرة السلام في الشرق الاوسط بأي سلام للبنان، بل بالحرب، رغم أنه عرف خلال فترة لم تتجاوز نصف السنة نوعا من الحرب الباردة. إلا أن هذه المرحلة زادت كثيرا في تعبئة آمال اللبنانيين.

في حرب إسرائيل ضد منظمة التحرير وسوريا، لم يشارك فيها اللبنانيون اطلاقا، بل كانوا ضحاياها. إعتقد الكثيرون منهم بأنه صدر أخيرا قرار باحلال السلام في هذا البلد. الحكومة اللبنانية إحتجت ضد الغزو الاسرائيلي وقدمت شكوى الى مجلس الأمن. ولكنها أعطت الأوامر الى جيشها بعدم المقاومة. وفي منتصف حزيران ١٩٨٢ قررت انتهاء وجود قوات السلام العربية وطالبت السوريين بالانسحاب. وقد كان العمل على إنسحاب كل القوات الاجنبية - الاسرائيلية، والسورية، والفلسطينية، الهدف الرئيسي لسياستها. بدا هذا الهدف في البداية ممكن التحقيق في إطار توازن

العنف الجديد. فميليشيا أمل الشيعية حاربت في البداية بشجاعة كلية ضد الإسرائيليين وتكبدت خسائر جسيمة، الى جانب الفلسطينيين الذين حاربتهم قبل ذلك الوقت بقليل^{١٤٠}. ولكن أمل ألقت السلاح، عندما تخوفت من تدمير الأحياء الشيعية أثناء حصار بيروت. ووليد جنبلاط من جانبه أمر ميليشياته الدرزية بابتداء "مقاومة غير فعالة"، أي أن الدروز لم يحاربوا مع حلفائهم الفلسطينيين في سبيل الحفاظ على منطقة الشوف من التدمير. أما سكان بيروت الغربية فلم يكن لهم اي خيار. لقد تحولوا مرغمين الى رهائن لدى اطراف النزاع. فائتاء القصف الاسرائيلي أبرزوا أولا تضامنا مع الجميع. ولكن زعماء بيروت الغربية المسلمين بدأوا بمطالبة سحب الفلسطينيين من المدينة. فقد أرادوا الحفاظ على مدينتهم عندما بدأ الفلسطينيون يتحدثون عن تحويلها الى "ستالينغراد" ثانية. آنذاك إتهم صائب سلام الفلسطينيين بوضوح لا يقبل الجدل، بأن الوقت الذي كانوا يشكلون فيه قوة عسكرية مدججة بالسلاح في بيروت قد ولى، وأن للتضامن حدود، عندما يصبح وجود المدنيين مستحيلا وبالتالي مهددا. ولكنه لعب دور الوسيط مع الاميركيين في سبيل ايجاد مخرج مشرف للانسحاب الفلسطيني من بيروت، إقتناعا منه بأن هذا هو الحل الوحيد للحد من دمار المدينة الشامل. اما القوات اللبنانية فلم تظهر أية مقاومة عندما دخلت القوات الإسرائيلية الى بيروت الشرقية، وذلك لتضييق الحصار على الجزء الغربي من المدينة. ولكن بشير الجميل خيب الآمال الكثيرة التي علقتها عليه عدد من الإسرائيليين، وأثار تخوفات العديد من مواطنيه المسلمين. لقد سبب الفلسطينيون والسوريون الغزو الإسرائيلي على حد قوله. كما أعلن أيضا امام انصاره بان هذه الحرب ليست حربهم، والجيش الاسرائيلي لم يأت الى لبنان لانتقاذه، بل لتنفيذ اهدافه الخاصة. فرغم وجود مصلحة مشتركة بين الاسرائيليين واللبنانيين بالنسبة لانسحاب الفلسطينيين والسوريين، إلا ان اللبنانيين لا يمكنهم إلا المطالبة بانسحاب سريع للاسرائيليين. فلبنان بحاجة الى خروج كل القوات الاجنبية من اراضيها واستعادة سيادته.

فالغزو الاسرائيلي عزز التطور الذي كانت تباشره قد برزت سابقا، والمتمثلة باجماع كل القوى السياسية الرئيسية في لبنان حول استعادة وحدة لبنان واستقلاله.

كان اول أيلول آخر يوم لاتمام عملية إجلاء الفلسطينيين عن بيروت. كما قاربت ولاية رئاسة الرئيس سر كيس من النهاية. عاشت الجمهورية اللبنانية منذ سنوات

١٤٠- هذا ما حصل بالقرب من مدينة صور. وقد اتخذ جانب الحياذ مقاتلو ميليشيا أمل في قرى الجنوب. ولكن عندما تقدمت القوات الإسرائيلية نحو مناطق الشياح والوزاعي والغبري في ضاحية بيروت الجنوبية، أخذت حركة أمل تعبر عن مقاومتها. راجع: Augustus Richard NORTON, "Harakat Amal", op. cit., p. 193.

دون سلطة. وكل مؤسساتها كانت قائمة وجرى الحفاظ عليها ضمن الاصول المتفق عليها. فمجلس النواب المنتخب عام ١٩٧٢ جدد لنفسه بصورة دورية، لأن أحداث الحرب لم تكن تسمح بإجراء انتخابات جديدة. فمُنذ ذلك الحين توفي أو أُغتيل ثمانية نواب من أصل ٩٩ نائباً، وكانت قرارات هذا المجلس قانونية، إذا اكتمل النصاب ب ٦٢ نائباً. فموجب الدستور وضمن مهلة قانونية ينبغي على رئيس المجلس دعوة زملائه النواب لجلسة يتم فيها انتخاب رئيس جديد للجمهورية. في تلك الاثناء كان قد بدأ إجلاء القوات الفلسطينية من غربي بيروت، كما كانت هناك اشتباكات قائمة في البقاع بين السوريين والفلسطينيين. فقد طالب عدد من النواب بإجراء الانتخاب، خاصة النواب السنة من غرب بيروت، كما أعلن عدد آخر بأنه لا يمكن إجراء انتخاب في ظل تهديد المدافع الإسرائيلية. ولكن الأكثرية رأّت أن الرئيس سر كريس جرى انتخابه عام ١٩٧٦ تحت ضغط المدافع السورية أيضاً. وفي الحقيقة لم يكن الأمر مرتبطاً بالمدافع أكثر مما كان مرتبطاً بشخص المرشح. ففي الخامس والعشرين من تموز وأثناء حصار الإسرائيليين لبيروت الغربية، أعلن بشير الجميل رسمياً ترشيحه للرئاسة. فأيدّه معظم النواب المسيحيين، باستثناء ريمون إده، وكذلك سليمان فرنجية. ولكنه رفض من قبل جنبلاط وبري وأكثريّة النواب السنة. فبشير الجميل كان ينظر البعض بطلاً وطنياً، بفضل تضحياته في سبيل الدفاع عن الوطن. كما كان ينظر البعض الآخر رجلاً متطرفاً ومرتبلاً بأحد أطراف الحرب الأهلية، ويدها ملطخة بدماء عدد من خصومه، وحلفائه السابقين. كان البعض يتمنى رجلاً قوياً يمكن الاعتماد عليه لإعادة سلطة الدولة، كما كان البعض الآخر يفضل رئيساً يتفق عليه بالاجماع. ولكن المعارضة الحقيقية لبشير الجميل جاءت من سوريا. فاتهمته بالخيانة الكبرى وهددته "بقرب يوم العقاب"١٤١. فقد حال الفلسطينيون من خلال قصفهم "قيلاً منصور"، المركز المؤقت لمجلس النواب، دون إنعقاد جلسة وانتخاب عدوهم اللدود منذ سنوات طويلة، رئيساً للجمهورية. ولكن الجلسة عقدت في الثالث والعشرين من آب في تكتة الجيش اللبناني في الفياضية. فبعد انتظار دام ساعات اكتمل نصاب النواب، وجرى إنتخاب بشير رئيساً من قبل ٥٧ نائباً من أصل ٦٢ حضروا الجلسة، وبقيت المعارضة خارجاً. حضر تقريباً كل النواب الموارنة والروم الكاثوليك، كما حضر نصف النواب الأرثوذكس وربع النواب السنة. والعامل البارز ظهر من قبل الشيعة وذلك بحضور ثلثي نوابهم. ومن الدروز، حضر الامير مجيد إرسلان، المنافس التقليدي لجنبلاط، واقترح لبشير. وعلى الأثر، جرى تدمير وحرق منازل نواب بيروت الغربية الذين شاركوا في الإنتخاب. لم تعرف تلك المعركة الانتخابية مرشحاً توافقياً، بل حصل الانتخاب في ظل ضغوط عديدة

١٤١ - حسبما ذكر راديو دمشق في ١٩٨٢/٧/٢٦. راجع Yosef OLMERT, Lebanon, in: Colin LEGUM & al.(Eds), Middle East Contemporary Survey, vol.VI, op. cit., p. 719

وضغوط معاكسة. وهكذا تحطم هذه المرة التوافق اللبناني المتعارف عليه، باعتبار الرئيس الجديد رئيساً لفريق واحد من لبنان فقط.

ولكن بعد أسابيع قليلة، إنقلبت الآية وحصل تحول رائع^{١٤٢}. ما ان انتهى إجلاء المقاتلين الفلسطينيين عن بيروت حتى أعلن سنة بيروت عن إستعدادهم للتعاون مع الرئيس الجديد. أما الدافع لهذا التحول فلم يكن فقط حرية التحرك التي إكتسبوها، بل وبنوع خاص السياسة التي عبّر عنها الرئيس الجديد، الذي أعلن عن عزمه ليكون رئيساً لكل اللبنانيين دون إستثناء. وقد إكتسب مصداقية عندما أعلن عن وضع حدود لنفسه تجاه إسرائيل، اذ رفض بنوع خاص ابرام معاهدة سلام منفصلة معها. وبالفعل تبين لاحقاً، أنه أبلغ بيغن بأنه لا يريد أن يتحول الى "كرمل بابرک" لبناني. وهذا ما أكسبه شعبية كبيرة بين المسلمين. وفي الحادي عشر من أيلول إجتمع بصائب سلام وحصل من جديد توافق لبناني.

ولكن في الرابع عشر من أيلول انفجرت قنبلة في أحد مراكز حزب الكتائب في الأشرفية، وأدى الانفجار بحياة ٢٦ شخصاً من بينهم بشير الجميل، وذلك قبل أيام معدودة من تسلمه منصب الرئاسة. ففي بلد إعتاد أهله على العنف اليومي منذ سنوات عديدة، أثار مصرعه صدمة رهيبة للجميع. وقد عقب ذلك صدمة أخرى في السابع عشر والثامن عشر من أيلول من جراء مجازر صبرا وشاتيلا. فبعد مقتل بشير الجميل احتل الجيش الاسرائيلي حالا - وخلافاً لما أتفق عليه مع فيليب حبيب - بيروت الغربية دون الدخول الى مخيمات الفلسطينيين. فقد ظن الإسرائيليون بأن بعض مقاتلي منظمة التحرير ما زالوا مختبئين في المخيمات ويبلغ عددهم حوالي الالفين. لذلك لا بدّ من القضاء على بقايا الوجود العسكري لمنظمة التحرير في بيروت. وهذا ما يستوجب القيام بعملية عسكرية ولكن دون زجّ الجيش الاسرائيلي فيها. فبعد مصرع بشير الجميل كان من السهل على الإسرائيليين كسب بعض

١٤٢- جورج قرم، الذي كان دائماً شديد الانتقاد بالنسبة لحزب الكتائب والقوات اللبنانية، وصف هذا التحول بما يلي: "... نجح الرئيس اللبناني خلال عشرين يوماً في استمالة قلوب كل الطوائف اللبنانية. في مقابلته اليومية على شاشات التلفزيون، كان بشير يتحدث بلغة بسيطة ومباشرة، بعيداً عن العبارات المتفلكة (أو المعقدة) والمكلفة في اللغة العربية الفصحى، عن حلمه، اي عن شعب موحد وقوي، عن ادارة بطرد منها الفساد، عن مجتمع يتمّ الترقّي فيه على أساس الكفاءات وليس على أساس الثروة أو الولاء العائلي والبطانقي، عن بلد يفرض احترامه على الأجنبي، بفضل جيشه القوي ودبلوماسيته الفعالة. فسان بيروت الغربية الذين حيوا بالدموع رحيل ثورة مفقودة، وجدوا أخيراً بطلاً لبنانياً، شاباً، فخوراً، ومنفعلاً. وفجأة بدأت تلوح في الأفق امكانية زوال كل الاذلال (والاهانات) ... وكذلك غابت صورة التمييز والعنف التي أعطتها الرئيس الشاب خلال سنوات الاحداث من عام ١٩٧٥ الى عام ١٩٨٠... ظهر بشير الجميل وكأنه المخلص ذو الهبة اللدنية الذي انتظره طويلاً شعب بكامله... ولكن اغتياله في الرابع عشر من أيلول، تسعة أيام قبل تسلمه مهام الرئاسة، ألكى كل الناس". راجع Georges CORM, Le Proche

Orient éclaté. De Suez à l'invasion du Liban, 1956-1982, Paris 1983, p. 224f.

قيادي القوات اللبنانية والطلب اليهم تنفيذ هذه المهمة. وهكذا حصل ما كان متوقعا. فالميليشيات المسيحية، ومن بينهم عدد من سكان بلدة الدامور حيث نفذ الفلسطينيون مجزرة بالمسيحيين عام ١٩٧٦، أقدموا على قتل عدد كبير من الرجال والنساء والاولاد من الفلسطينيين واللبنانيين في مخيمي صبرا وشاتيلا. ومن المؤكد أنه لم يتأثر عدد من اللبنانيين بذلك، بعد كل المعارك التي شهدها والمجازر العديدة التي حلت في بلادهم دون ان يبالي الرأي العام العالمي إطلاقا بها. فرغم هذه الاوضاع السياسية والتي لا يمكن التغاضي عنها "أخلاقيا"، كان خطر حدوث توافق لبناني جديد كبيرا للغاية. فلم تكن مجزرة صبرا وشاتيلا نتيجة معارك طاحنة سابقا، بل عملا إجراميا مورس على أناس أبرياء عزل من السلاح. لذلك إتسمت بطابع الجبن، ولم تترك مجالا لأي تبرير عقلاني سطحي. فالعنف الذي مورس ضد المدنيين في الكرنتينا، أو الدامور، أو تل الزعتر استهدف تهجير من كان يعتبر خصما من السكان. أما سكان صبرا وشاتيلا فكانوا محاصرين من كل الجهات. فلم يكن بالامكان تهجيرهم، بل قتلهم فقط. ولكن هذه المرة وبنوع خاص، وجدت الميليشيات المسيحية في الإسرائيليين محرضين ومتواطئين معها.

أما رد الفعل لدى زعماء المسلمين اللبنانيين، فكان مزيجا من الازدراء والتهكم تجاه مصير الفلسطينيين الذين لم يعد مرغوبا بهم. إستكروا المجزرة، مثلما فعل الزعماء المسيحيون، وحملوا الاسرائيليين فقط المسؤولية. ولكن زعماء حزب الكتائب، أقوى قوة سياسية كانت تدعم القوات اللبنانية، تحدثوا عن عدم اشتراكهم بالمسؤولية إطلاقا. وكذلك اتخذت الاحزاب اللبنانية اليسارية ذات الموقف. وقد قرر اللبنانيون من مختلف الاتجاهات والمعتقدات السياسية، ولأسباب مختلفة، تجاهل هذا الحدث المخزي والمشين. في الواقع كان الاسرائيليون شركاء في مسؤولية ما حدث، وإن لم ينفذوه. فقد فسحوا المجال لإشعال نار الفتنة، في وقت أراد فيه اللبنانيون عدم الإنقسام مجددا.

بعد يومين من حدوث المجزرة، انعقد مجلس النواب وانتخب بأكثرية كبيرة لم يعرفها أي رئيس لبناني^{١٤٣}، أمين الجميل، خلفا لأخيه بشير. وقد شارك هذه المرة معظم النواب السنة في الانتخاب. كان من السهل لأمين الجميل، أكثر من شقيقه الأصغر، أن يكون رئيس التوافق الوطني، نظرا لإستعداده الدائم للحوار والتسوية. وحتى أثناء الحرب، لم يقطع علاقاته إطلاقا لا مع القيادة السورية ولا مع الفلسطينية. كما أنه لم يشارك إطلاقا في مفاوضات حزبه مع إسرائيل. لذلك كان يعتبر من قبل مواطنيه المسلمين متعاليا وبعيدا عن كل ذلك. وعمليا أعلنت كل

١٤٣- حضر ٨٠ نائباً (في انتخاب بشير كانوا ٦٢). صوت ٧٧ نائباً لأمين الجميل، وعارضه نائب واحد، وامتنع اثنان عن التصويت.

القوى السياسية في لبنان، وحتى الذين كانوا من الدّ أعداء شقيقه، مثل فرنجية وجنبلاط، إستعدادهم للتعاون معه. وبالفعل تسهل له تسلم الحكم بفضل عودة القوات المتعددة الجنسيات، الاميركية، والفرنسية، والابطالية، الى بيروت. فخلال أيام معدودة أعيد توحيد العاصمة التي كانت منقسمة منذ عام ١٩٧٥. وقد برزت موجة من الاغتيال لاعداء البناء، إذ مول ملياردار مسلم عملية ضخمة لإزالة الانقاض وتنظيف الشوارع في بيروت. كما أن المقاتلين في الميليشيات الذين كانوا يقودون سابقا الدبابات والمصفحات، أخذوا يقودون البلدوزر، ويحملون الرفوش بدلا من البنادق. وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني، قام الجيش اللبناني باستعراض عسكري في قسمي المدينة، بمناسبة العيد الوطني.

وضعت الولايات المتحدة الاميركية بتصرف هذا الجيش اسلحة حديثة وبرنامج تدريب وتأهيل لمدة سنتين. ولكن أول "إنزال للجيش، أضعف المعنويات، لأنه إستهدف "مالكي الأراضي بوضع اليد"، والتجار غير الشرعيين، من "الشوارع الراقية" سابقا ومن شوارع المنتزهات في بيروت الغربية. "فمالكو الأراضي بوضع اليد" وبصورة غير شرعية كانوا من اللاجئين المعدمين الهاربين من الجنوب، والتجار الذين كانوا قد فقدوا متاجرهم في وسط المدينة بسبب المعارك في سنوات الحرب الأولى. لم يطردوا من قبل الميليشيات المعادية لهم، بل وبغضب، من قبل جيشهم، دون أن توفر لهم الحكومة إمكانية سكن أو تجارة بديلة. فالحكومة الجديدة التي رُحّب بها بكثير من الآمال، تصرفت مثل حكومات ما قبل الحرب، كاشفة عن ضعف في إدراكها للمشكلات الاجتماعية. وفي الوقت نفسه، لم ينجح أمين الجميل في جمع تحالف واسع يضم كل القوى السياسية الهادفة في البلاد، رغم إيقائه على شفيق الوزان، رئيس الوزراء السابق، في منصبه، والذي كان يتمتع ببقاء السنة في بيروت. ولكنه شكل، مثلما فعل فرنجية في بداية عهده في مطلع السبعينات، حكومة تكنوقراط من أصحاب الكفاءات، ولم يرق بأية محاولة جدية لإشراك قيادة حركة أمل في الحكم، رغم أن هذه الحركة الشيعية بالذات لم يعرف أحد كيف يكسب ولاءها للشرعية منذ سنوات طويلة^{١٤٤}. وكذلك لم يحاول أيضا إشراك وليد جنبلاط في مسؤولية الحكم، قبل أن يتحول الى أهم معارض للإدارة الجديدة. وقد فعلت مثله

١٤٤ - راجع: William W. HARRIS, op. cit., in: Bassma KODMANI-DARWISH (Ed.), op. cit., p. 96. وقد استنتج شيئا مماثلا Augustus Richard NORTON في مقاله عن "حركة أمل"، المصدر المذكور، ص ١٩٩: "لسو الحظ تبين أن أمين الجميل كان أكثر ارتياحا في تعامله مع الزعماء التقليديين من تعامله مع منافسيهم في حركة أمل... ومع الوقت، حصل اقتناع لدى الشيعة بأنهم يُستخدمون ككبش المحرقة من قبل رئيس يهتمّ بأنصاره الموارد الضعفاء... وهكذا لم تكن مفاجأة لأحد عندما تبين أن الشيعة قد فقدوا صبرهم". راجع أيضا: Clinton BAILEY, Lebanon's Shi'is After the 1982 War, in: Martin KRÄMER (Ed.), Shi'ism, Resistance, and Revolution, Boulder & London 1987, p.222ff.

لاحقاً حركة أمل. ولكن أمين الجميل أعتقد أن باستطاعته أن يحكم دون حركة أمل ودون جنبلاط. فبدلاً منهما، اعتمد على تعزيز الزعماء الشيعة التقليديين الذين أسهموا فعليا في انتخاب شقيقه وفي انتخابه أيضاً. كما اعتمد على فريق آل أرسلان لدى الدروز ضد آل جنبلاط. وقد دلّ ذلك على تقدير خاطيء للتطور المجتمعي الحاصل لدى الطائفة الشيعية أو لدى الطائفة الدرزية. ومن جهة أخرى، أعتقد الرئيس الجديد بضرورة إعطاء الأولوية للسياسة الخارجية على السياسة الداخلية. لم يكن خياره خاطئاً نظراً لوجود القسم الأكبر من البلاد تحت إحتلال قوات مسلحة غير لبنانية. فغياب الاهتمام بالتوافق الوطني الذي سمح بانتخابه رئيساً قد أسهم كثيراً في إندثاره، في الوقت الذي تحول فيه البلد مجدداً الى مسرح للنزاعات الدولية. ولا شك أن خيار أمين الجميل في مجال السياسة الخارجية كان صعباً للغاية. كان بالإمكان الاعتماد على "الخيار السوري"، إلا أن ذلك قد يدفع إسرائيل، التي تحتل قسماً من لبنان، للاحتفاظ به تحت سيطرتها. وكذلك الاعتماد على "الخيار الاسرائيلي"، كان سيؤدي الى ذات النتائج من الجانب السوري. ولكن الهاجس السياسي الذي تخوف منه اللبنانيون في نهاية عام ١٩٨٢، كان إمكانية حصول إتفاق ضمني بين إسرائيل وسوريا للاحتفاظ بكل بساطة بالمناطق الواقعة تحت نفوذهما. أمام هذا المأزق المحرج، أختار أمين الجميل، بتشجيع من أقرب معاونيه^{١٤٥}، ما يعتبر "خياراً أميركياً"^{١٤٦}، هذا الخيار الذي أعتمده سلفه الرئيس الياس سركيس الذي كان منذ عام ١٩٨١ قريباً جداً من بشير الجميل. فبدلاً من اختيار أحد الجارين المزعجين، وتحمل كل النتائج غير المرضية حتماً، تبين في الواقع أكثر تعقلاً اللجوء الى طلب مساعدة دولة غربية كبرى لانقاذ البلد من سيطرة البلدين المجاورين.

فخلال زيارة قام بها أمين الجميل في تشرين الأول عام ١٩٨٢ الى واشنطن، تكون لديه انطباع يشير الى استعداد الولايات المتحدة لممارسة دور محام جديد عن لبنان. فالقوات الاميركية جاءت مرتين الى لبنان قبل إجلاء الفلسطينيين وبعد حدوث مجزرة صبرا وشاتيلا. ولكن الرئيس رونالد ريغن أكد له هذه المرة، بأن القوات الاميركية ستبقى في لبنان حتى تغادره كل القوات الاجنبية وتستعيد الحكومة اللبنانية سلطتها على كل الاراضي اللبنانية. وقد كرر هذا التأكيد مراراً خلال سنة كاملة.

١٤٥ - نشر اثنان من معاونيه اختياراتهم في مؤلفين: Wadi D. HADDAD, Lebanon. The politics of revolving doors, New York 1985; Ghassan TUENI, Une guerre pour les autres, Paris 1985. كان الاول مستشار أمين الجميل للأمن القومي، والثاني مستشاره السياسي. كما نشر أمين الجميل في نهاية عهده كتاباً بعنوان: Amine GEMAYEL, L'offense et le pardon, Paris 1988.

١٤٦ - أعلن رئيس الحكومة، شفيق الوزان، عن تفاهمه مع الرئيس: "لقد أعترنا أن الخيار الوحيد الواقعي الذي يفرض نفسه هو الخيار الأميركي". Le Monde, 31.5.1983.

وهكذا ولأول مرة، أعطت السياسة الأميركية في الشرق الاوسط الأولوية للبنان^{١٤٧}. أعلن ريغن مرارا عن ضرورة حل النزاع في لبنان اولا، ثم العمل على تسوية القضية الفلسطينية. فكلّف المبعوث فوق العادة، فيليب حبيب، بالتوسط بين لبنان وجاريه، وطلب منه التفاوض أولا لسحب القوات الاسرائيلية، ثم لسحب القوات السورية. ولكن لماذا الربط بين القضية اللبنانية والقضية الفلسطينية؟ لم يكن بلامكان إيجاد جواب واضح على ذلك. أما التفسير الأكثر احتمالا فيعود الى أن الدبلوماسية الأميركية اعتبرت إيجاد حل للنزاع في لبنان هو أكثر سهولة، وقد يسمح لها لاحقا بممارسة تأثير إيجابي لإيجاد تسوية للقضية الفلسطينية الأكثر صعوبة وتعقيدا. أما سبب مباشرة فيليب حبيب بالمفاوضات حول القضية اللبنانية أولا بموضوع الانسحاب الاسرائيلي ثم الانسحاب السوري، بدلا من التفاوض حول انسحاب الفريقيين بطريقة متوازنة، فيعود الى اعتبار اسرائيل القوة المنتصرة في لبنان وفي مواقع أكثر قوة ونفوذا. لذا جرى الاتفاق معه على ضرورة انسحاب القوات الاسرائيلية الذي يرتبط به انسحاب القوات السورية^{١٤٨}. على كل حال، أعتبر خطر الضربات الاسرائيلية الممكنة لاحقا، عاملا رادعا قد يجعل سوريا التي أضعفت عسكريا، أكثر استعدادا لتقديم التنازلات. ولكن هذه الرؤيا دفعت باسرائيل وسوريا لاستخدام كل ما توفر لديهما من امكانيات لعرقلة جهود السياسة الأميركية الهادفة الى تسوية القضيتين اللبنانية والفلسطينية^{١٤٩}. وهكذا بدأت حرب باردة في لبنان.

ان رفض اسرائيل خطة ريغن المتعلقة بالاراضي المحتلة، وابرار عزمه على إيجاد تسوية في لبنان، دفعا بالحكومة الاسرائيلية الى استخدام امكانياتها لارجاء الحل في لبنان، أو لتأخيرها، أو لعرقلته، أو لجعله مستحيلا. فضلا عن ذلك، كانت للحكومة الاسرائيلية ايضا اسباب عديدة لاطهار عدم الرضى لما يحدث في لبنان. فعندما كان بشير الجميل حيا، لم يُقطع الامل باقامة نظام حكم ذي "سيطرة مارونية" يكون من جهة بحاجة الى الدعم الاسرائيلي، ومن جهة أخرى يكون قويا كفاية ليعقد في النهاية معاهدة سلام شكلية مع اسرائيل. كذلك لم تكن الثقة كبيرة بأمين الجميل

١٤٧- عن السياسة الأميركية في لبنان (١٩٨٢ - ١٩٨٤)، راجع بنوع خاص:

William B. QUANDT, Reagan's Lebanon Policy: Trial and error, in: The Middle East Journal, 38(1984)2, p.237-254.

رفضت حكومة بيغن خطة ريغن، لأنها كانت تريد اعطاء الفلسطينيين ادارة ذاتية محدودة فقط، دون أية سلطة أو مراقبة اقليمية. وقد عارضت سوريا الخطة لأن ريغن لم يشر في خطابه الى سوريا اطلاقا.

١٤٨- راجع تحليل حبيب في Ditchey-Konferenz، أيار ١٩٨٣.

١٤٩- راجع: William B. QUANDT, Reagan's Lebanon Policy, op. cit., p. 241f; Paul A. JUREIDINI, Lebanon's Regional Policy, in: Edmond E. AZAR u.a.(Eds), op. cit., p.212.

أشار هذا الأخير الى أن "..... ربط عملية الانسحاب من لبنان بعملية السلام كان كارثة".

ليؤلف حكومة قوية تستطيع التضحية بروابط لبنان بالعالم العربي مقابل معاهدة سلام مع إسرائيل. وفي الحقيقة، عبّر الرئيس الجديد عن تصوّر معظم السياسيين اللبنانيين، الذي يتلخّص بالسعي أولاً إلى وحدة شعبه الداخلية حتى وإن اضطر ليكون آخر دولة عربية تقدم على عقد مثل هذا الاتفاق^{١٥٠}. فبينما ركز "الصقور" الاسرائيليون على اجبار الرئيس اللبناني لقبول تسوية وفقاً لتصوراتهم، تكاثرت عدد "الحمام" المطالبين بوضع حدّ للمغامرة في لبنان وبالانسحاب السريع منه. فقد أثارت مجزرة صبرا وشاتيلا في إسرائيل أزمة أخلاقية عميقة، إذ اعتقد البعض بأن إسرائيل تعمل للحوّل دون مجزرة المسيحيين في لبنان. فبدلاً من ذلك أقترف المسيحيون مجزرة، وكان الجيش الاسرائيلي مسؤولاً عنها، وهذا ما لطّخ شرفه وكرامته بالعار والخزي. فقد اتهم "الصقور" عناصر القوات اللبنانية بالجنح لعدم اشتراكهم معهم في القتال ضد الفلسطينيين، كما اتهمهم "الحمام" بزجّ الجيش الاسرائيلي في عملية قتل جماعية لامبرر لها. فبينما لم تؤد في لبنان التحقيقات العسكرية في هذه المجزرة إلى أية نتيجة، بذلت إسرائيل جهوداً واسعة لكشف حقيقتها. وبقدّر ما كان يتزايد في إسرائيل الانتقاد لغزو لبنان، كانت الحكومة أيضاً تشعر بضرورة العمل للحصول على نتائج حسنة تبرر عملها. فقبل أن تبدأ المفاوضات اللبنانية - الاسرائيلية، مارس شارون ضغطاً على اللبنانيين، إذ هدّد في كانون الأول ١٩٨٢ رئيس حزب الكتائب، بيار الجميل بجعل دور ابنه الرئيس مقتصراً على دور "مختار بعدا"، (البلدة حيث يقع قصر الرئاسة)، إذا اعتمد فقط على الولايات المتحدة، دون تقديم التنازلات التي تطالب بها إسرائيل^{١٥١}. وما ان بدأت المفاوضات بين البلدين، حتى أخذت إسرائيل تمارس في مناطق تواجدتها سياسة "فرق تسد" حسب النموذج الكلاسيكي للدول المستعمرة. فوسّعت المنطقة الخاضعة لسيطرة ميليشيات سعد حداد، وسلحت مجموعات شيعية، كما سلحت مجموعات صغيرة من الفلسطينيين في مخيمات الجنوب. ولكن وبنوع خاص لم يفعل الجيش الاسرائيلي شيئاً على الإطلاق للحوّل دون نشوء نزاع جديد بين اللبنانيين، أي بين القوات اللبنانية وميليشيات الدروز في الشوف. وأخيراً لم يكن دور الاسرائيليين ضعيفاً في إثارة المعارضة بين المسيحيين ضد أمين الجميل. فالقوات اللبنانية لم تكن إطلاقاً راضية عن أن يخلف أمين، الميل للتسويات، شقيقه المناضل بشير. لقد اتهمته، بسبب ابتعاده عن إسرائيل، بتعطيم ما عمد بشير لتحقيقه، أي إقامة سيطرة مسيحية في لبنان. بالاختصار، لقد نظر قادة الميليشيا

١٥٠- كان الياس سركيس قد أعلن عام ١٩٧٧: "إن يكون لبنان الدولة العربية الثانية التي ستعقد اتفاقاً مع إسرائيل، بل الأخيرة". راجع: كريم بقرادوني، المصدر المذكور، ص ١٢٤.
١٥١- قال شارون في هذا الصدد: "قلت لبيار الجميل: لا تتبعوا نصيحة الاميريكيين. لا أحد يريد مساعدتكم". راجع: International Herald Tribune, 2.3.1984.

المناضلون الى أمين الجميل كعدو لهم، لأنه لم يعمل على تحقيق الأحلام التي كان يطمح اليها شقيقه الشهيد. ولكنهم، أيدوا وان على مضض، مواقف مستشاريهم الاسرائيليين وجماعة الاتصال بهم الذين ابغوهم سابقا ضروة الاعتماد على "الخيار الاسرائيلي". رغم ذلك، لم يعد يثق بهم أحد في إسرائيل. وكذلك حمل المسلمون اللبنانيون الرئيس أمين الجميل مسؤولية كل ما يقال ويمارس في الجانب المسيحي، رغم عجزه عن ممارسة اي تأثير على ذلك. وبقدر ما كانت تطول المفاوضات اللبنانية الاسرائيلية، كانت الدبلوماسية الاميركية تتفد صبرا. فلم تتمكن من الضغط كثيرا على إسرائيل، ولكنها دفعت بالحكومة اللبنانية تدريجيا الى تقديم التنازلات. وعندما تم في السابع عشر من أيار ١٩٨٣ توقيع المعاهدة بالأحرف الأولى، كان لبنان قد قدم الكثير من التنازلات التي كانت تحد كثيرا من سيادته في الجنوب^{١٥٢}. الا أن تلك المعاهدة بقيت تفتقر الى التوقيع الرسمي كي تصبح معاهدة سلام رسمية، لم يرغب بها اللبنانيون^{١٥٣}.

نجحت إسرائيل في كسب الشوط الاول من الحرب الباردة. ففي العاشر من نيسان أعلن الملك حسين فشل محاولته للاتفاق مع منظمة التحرير حول الخطوط الرئيسية في المفاوضات المتعلقة بالاراضي المحتلة. وهكذا تعطلت خطة ريغن. ولكن انتصار اسرائيل كان في الوقت ذاته انتصارا لسوريا، التي رفضت ايضا هذه الخطة واسهمت في افشالها بتشجيعها ودعمها للمعارضة الداخلية في منظمة التحرير ضد التفاهم مع الملك حسين. ولكن العامل الأهم في الحرب الباردة حول لبنان، باستثناء سوريا، انطلق من الاتفاق اللبناني - الاسرائيلي، الذي لا يدخل حيز التنفيذ الا عندما توافق سوريا على سحب قواتها من لبنان^{١٥٤}. ففي السادس من أيار أبلغ

١٥٢ - لحظ الاتفاق ما يلي: انتهاء حالة الحرب، اعتراف متبادل بالاستقلال، والسيدة، واحترام حدود البلدين، حظر الأنشطة والحملات الاعلامية العدائية، انشاء مكاتب اتصال على مستوى دبلوماسي. وخلال سنة ينبغي الغاء كل الاتفاقات التي تتنافى مع الاتفاق الاسرائيلي - اللبناني. (المقصود من هذا المطلب ميثاق الدفاع العربي المشترك لعام ١٩٥٠ والذي وافق عليه لبنان). أما القسم الأكبر من هذا الاتفاق فركز على الترتيبات الأمنية: انشاء منطقة أمنية في جنوب لبنان وفقاً لخط يمتد من جنوب صيدا الى راشيا. يشرف على الجزء الشمالي من هذه المنطقة فوج من الجيش اللبناني، وعلى الجزء الجنوبي "فوج من الجنود المحليين" يشكل من وحدات "جيش لبنان الحر" (وتم الإتفاق، دون الإشارة في النص، الى أن يوضع فوج الجنود المحليين بأمره الرائد سعد حداد). وينبغي تجريد جبل الباروك من السلاح، وقد كان سابقاً مركزاً للمعلومات تابعاً للجيش اللبناني. بالإضافة الى ذلك، ينبغي أن يحصل استكشاف دوري في المنطقة الأمنية من قبل "فريق أمني مشترك" (يتألف من ثمانية أعضاء) نصفهم من اللبنانيين والنصف الآخر من الاسرائيليين).

١٥٣ - الأمين العام السابق لوزارة الخارجية اللبنانية وصف مضمون الإتفاق الذي يتجاوز اتفاق وقف إطلاق النار لعام ١٩٤٩ بأنه "أقرب الى معاهدة سلام منه الى اتفاقية هدنة" راجع: Kesrouan LABAKI, Des idées pour le Liban, Antélias 1984, p.141.

١٥٤ - في رسالة الاسرائيليين الى الحكومة الأميركية ربط تنفيذ الاتفاق بإطلاق سراح الجنود الاسرائيليين

وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز دمشق، رفض سوريا لهذا الاتفاق الذي يحد من السيادة اللبنانية ويربط تنفيذه بانسحاب القوات السورية التي جاءت لبنان بعد موافقة الحكم اللبناني، وجامعة الدول العربية، واعتبارها مثل القوات الاسرائيلية قوات معتدية. وهذا أمر رفضته تماماً^{١٥٥}. وهكذا أصبح الاتفاق اللبناني-الاسرائيلي عملياً باطل المفعول. فقد اعتقد فيليب حبيب في البداية، بأن الخوف من اسرائيل سيدفع سوريا - وهذا ما كان يعتقد أيضاً في ايار ١٩٨٣ - أو على الأقل سيلزمها بالتفاوض. ولكن اطالة مدة التفاوض اسقطت كل الشروط الضرورية لحث سوريا على ذلك. في تلك الاثناء كان الاتحاد السوفياتي قد أعاد تزويدها بالأسلحة^{١٥٦}، وساعدها على اقامة شبكة جديدة للصواريخ يعمل فيها ويشرف على تشغيلها حوالي خمسة آلاف خبير عسكري سوفياتي^{١٥٧}. فأى اعتداء عسكري جديد تقوم به اسرائيل ضد سوريا كان محفوفاً بالمخاطر أكثر من السابق. فضلاً عن ذلك، كانت معظم الشروط السياسية في اسرائيل المؤيدة لعمليات عسكرية أخرى قد ضعفت كثيراً. فتقرير لجنة كاهان^{١٥٨} عن مجازر صبرا وشاتيلا، لم يؤد إلى إقالة وزير الدفاع الاسرائيلي "اريل شارون" فحسب، بل أيضاً إلى اجماع في الرأي العام وبين فريق من الجيش، حول عدم استخدام القوات النظامية في المستقبل للدفاع عن أرض الوطن فقط، وليس للتدخل العسكري والسياسي في الدول المجاورة. أما "أرنس" الذي خلف "شارون"، فلم يكن أقل منه "حقداً"، بل أكثر منه حنكة وحذراً. وهكذا لم يطل الوقت حتى تبين أن اسرائيل لن تحصل على أية مكافأة لقاء انسحابها من لبنان. لذلك اكتفي بانشاء تحالفات محلية في جنوب لبنان لتأمين الحدود الشمالية. وفي آب

المعتقلين لدى السوريين والفلسطينيين، وانسحاب القوات الفلسطينية من لبنان، ثم يتبع ذلك انسحاب متزامن للقوات السورية والإسرائيلية. وهكذا اتضح أن تنفيذ هذه الشروط ليس بمقدور الحكومة اللبنانية.

١٥٥ - "أت سوريا في ابرام اتفاق ١٧ أيار معاهدة سلام منفصلة شبيهة بما حصل في كمب دافيد" و "أنه محاولة لعزلها ولابعادها عن المحور الرئيسي في الدبلوماسية الإقليمية. إضافة إلى ذلك، اعتبرت بعض شروط الاتفاق تهديداً مباشراً لاستراتيجية سوريا ومصالحها الأمنية في لبنان". راجع: Nawaf SALAM, Prospects for Lebanon. An essay on political opportunities and constraints, Oxford 1987, p.18f.

١٥٦ - من بينها طائرات "ميغ ٢٣" والمصفحات من نوع ت ٦٢ و ٧٢، والطوافات الجوية، وصواريخ أرض أرض "سكود" (التي تصل إلى ٣٥٠ كلم تقريباً) و "فروج" (FROG) (التي تصل إلى ٥٠ أو ٦٠ كلم).

١٥٧ - يتعلق الأمر بصواريخ أرض - جو من نوع سام ٥ والتي تغطيها صواريخ من نوع سام ٢، ٦، ٨ و ١١. بالإضافة إلى ذلك انشئت محطات رادار سوفياتيتان لمراقبة الطائرات في سوريا. وقد أعلن عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي خلال زيارته إلى بيروت في أيار ١٩٨٣ بأن الاتحاد السوفياتي يتقيد بمضمون معاهدة الصداقة مع سوريا، ويحذر اسرائيل من أي اعتداء على هذا البلد.

١٥٨ - راجع: Annie LAURENT & Antoine BASBOUS, Le Liban et son volsunage, op. cit. p. 1146. بالإضافة إلى هذا التقرير، راجع أيضاً: Israel in Lebanon. Report of the International Commission to enquire into reported violations of International Law by Israel during its invasion of the Lebanon, London 1983.

١٩٨٣ بدأ الجيش الاسرائيلي أول انسحاب جزئي، دون الحصول على أية نتيجة.

أما الشوط الثاني من الحرب الباردة فقد لعبته سوريا. فالاتفاق اللبناني - الاسرائيلي بقي حبرا على ورق، كما فشلت خطة ريغن في مرحلتها الأولى. هذا ولم يعد باستطاعة الولايات المتحدة الاعتماد على تخويف سوريا من اسرائيل. كذلك نجحت سوريا في ايجاد عملاء لها تمكنوا من ممارسة اعتداءات تقليدية او غير تقليدية ضد القوات الاسرائيلية، والقوات المتعددة الجنسيات في لبنان. فبعد الاعتداء الأول على القوات الاميركية والفرنسية في شهر آذار، وقع انفجار رهيب في مبنى السفارة الاميركية في بيروت أدى الى مصرع كبار قادة منظمة الاستخبارات الاميركية المتخصصين بشؤون الشرق الأوسط. كان ذلك مؤشرا للانتقال من حرب باردة الى حرب ساخنة جديدة. فرغم إجلاء منظمة التحرير وقواتها عن بيروت، بقيت المدينة والبلد كله ساحة قتال لنزاع الشرق الاوسط. وكما كان الحال منذ عام ١٩٦٩، شاركت أيضا الخلافات اللبنانية الداخلية في تصعيد التوتر، ونشوب نزاعات عديدة.

٢١ - حرب أهلية بين الدروز والقوات اللبنانية^{١٥٩}

كان يعيش قبل الحرب في قضاء الشوف وفي الجانب الشرقي من قضاء عاليه، عدد متساو تقريبا من الدروز والمسيحيين، الى جانب أقلية سنية صغيرة. وفي بلدات عديدة كانت فئات السكان تنتمي الى الطائفتين. وقد كانت منطقة الشوف تعرف تاريخيا باسم "جبل الدروز"، كما اعتاد الدروز دائما على اعتباره جبلهم. ورغم عدم تشكيلهم أكثرية السكان، الا أن هذه المنطقة بقيت المكان الوحيد من البلاد حيث يشعرون بأنهم أكثرية. لقد اراد كمال جنبلاط الحرب عام ١٩٧٥، ولكنه لم يشأ اطلاقا اي حرب في الشوف. لم يسمح ابدا للفلسطينيين بالاقامة فيه ولا باستخدام اراضيهم لأغراض عسكرية، حتى وإن كانت تخدم الاهداف العسكرية المشتركة.

أما الميليشيات المسيحية فلم يكن لها وجود في الشوف الذي كان خاضعا فقط لسلطة ميليشيا الدروز التابعة للحزب التقدمي الاشتراكي الذي تقاسم النفوذ فيها منذ عام ١٩٧٦ مع الجيش السوري. في عام ١٩٧٧، وغداة اغتيال كمال جنبلاط، قام الدروز بقتل وذبح عدد من المسيحيين في قرى الشوف. ولكن بعد ذلك لم يحصل اي اعتداء عليهم. الا أن عناصر احزاب الجبهة اللبنانية تخوفوا كثيرا على حياتهم،

١٥٩- عن حرب الشوف، وضع مجلس كنائس الشرق الاوسط تقريرين زائرين بالوثائق والتفاصيل: Georges ASSAF, Rapport sur la situation dans les deux districts du Chouf et d'Aley depuis l'invasion israélienne, 1982; idem, "Bain de sang" dans la Montagne à la suite du brusque retrait des troupes israéliennes, 1983 (inédit).

فهجروا باكثريتهم المنطقة. قبل الحرب كان عدد كبير من مسيحيي الشوف يعملون في بيروت الكبرى وينتقلون بين أمكنة عملهم وأمكنة سكنهم. ولكن بعد اندلاع الحرب أصبح طريقهم محفوفاً بالمخاطر، بسبب اضطرارهم الى المرور على حواجز تفتيش عديدة اقامتها الميليشيات التي كانت تنتظر بحذر وارتياح الى كل مواطن مسيحي، الأمر الذي شكل ايضا سببا آخراً لهجرتهم. ففي القرى المسيحية واطرافها لم يبق في آخر السبعينات الا الاولاد والنساء والمسنون. وهكذا بقي التعايش السلمي سائداً في الشوف بين الطوائف، رغم فقدان التوازن العددي، مع العلم ان الدروز كانوا اسيادا في المنطقة قبل فترة من الزمن تقريبا.

عندما احتلت القوات الاسرائيلية عام ١٩٨٢ منطقة الشوف، اعتبرت القوات اللبنانية ان الوقت قد حان لتغيير هذا الوضع. فبعد استيلاء الجيش الاسرائيلي على عاليه وطرد الجيش السوري من هناك، عادت عناصر من كتائب المنطقة، وفتحت مكتبا حزبيا فيها. وكذلك عادت فصائل من ميليشيات القوات اللبنانية ودخلت الى عاليه وسوق الغرب، وتغلغت داخل الشوف حيث أقامت نقاط مراقبة فيه. لم يكن تحرشها بالسكان الدروز نادرا، كما أقدمت على توقيف اعتباطي لعدد منهم. حصلت غالبا اشتباكات مسلحة بينها وبين الميليشيات الدرزية، مما دفع بالجيش الاسرائيلي الى التدخل أحيانا والتوسط بين المتقاتلين. فبشير الجميل الذي حظي بدعم النواب الدروز في انتخابه رئيسا، أمر حالا بسحب ميليشياته من الشوف. ولكن بعد اغتياله كررت القوات اللبنانية محاولتها لممارسة النفوذ في الشوف. وبررت اجراءها بضرورة تأمين الحماية والمساواة للمسيحيين في تلك المنطقة. ولكن لم يخف على أحد وجود دوافع أخرى في بعض الاوساط المناضلة داخل الميليشيات المسيحية والجهة اللبنانية، ترمي الى ربط الجزء الجنوبي من الجبل الذي تستولي عليه مع الحليف الاسرائيلي. ولكن استيلاء الدروز على الشوف، كان يشكل حاجزا بين اسرائيل ومعقل المسيحيين. لذلك كان لا بد من القضاء نهائيا على هذا الحاجز. وقد انتشرت هذه التصورات بين المسيحيين المناضلين، اقتناعا منهم بعدم الفائدة والاكتفاء بالعودة الى الصيغة القديمة القائلة "لا غالب ولا مغلوب". فهناك غالب. وقد اعتبروا أنفسهم هذا الغالب بالذات.

تخوف الدروز كثيرا وشعروا بتهديد لوجودهم. كما أن فقدانهم للسيطرة على الشوف سيضعف دورهم ويجعله شبيها بدور الأقليات التي تماثلهم عددا، مثل طائفة الروم الكاثوليك، أي أقلية دون قاعدة أرضية لا تستطيع ممارسة اي عمل سياسي مستقل. فالخوف على الوجود أثار لدى الدروز تعبئة مماثلة، مثل التي عرفها المسيحيون في "معركة الجبل" في ربيع عام ١٩٧٦. فالطائفة الدرزية لا تعد أكثر من ربع مليون نسمة، ولكنها جندت ما لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل. فالى جانب

ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي، أنشأ الشيوخ الدروز قوات إضافية أطلق عليها اسم "قوات ابراهيم". وبما أن القوات اللبنانية لم تميز في تعاملها بين أنصار جنبلات وأنصار ارسلان - رغم أن هذا الأخير أيد ترشيح بشير الجميل واقترح له - فقد أدى تصرفها الى قيام جبهة مشتركة بين الجناحين الدرزيين المتنافسين. ويمكن إضافة سبب آخر لهذه التعبئة، يعود الى محاولة اغتيال وليد جنبلات في اول كانون الاول ١٩٨٢، فأصيب خلالها بجروح طفيفة. وفي كانون الأول ١٩٨٢ حصلت عدة اشتباكات في الشوف، مما دفع بالقوات الاسرائيلية، الى ممارسة الحكم بين اطراف النزاع.

قامت القيادة الدرزية بنشاط سياسي مكثف^{١٦٠}، وبكثير من الحنكة والحذر. فنجحت في الحصول على تأييد اسرائيلي وسوري معا. ساعدها في ذلك وجود طوائف درزية تعيش في اسرائيل وسوريا، لم تقطع علاقاتها الوثيقة مع دروز لبنان^{١٦١}. فالدروز الاسرائيليون يلعبون في اسرائيل دورا هاما، اذ يشكلون المجموعة العربية الوحيدة التي يخدم شبابها في الجيش الاسرائيلي. كما ان القيادة العسكرية الاسرائيلية تقدر كثيرا مصداقية الدروز واندفاعهم الحربي. لذلك أخذ الجيش الاسرائيلي بعين الاعتبار وضع عناصره من الدروز وحساسيتهم خلال غزو لبنان عام ١٩٨٢. فتجنب الاحتكاك والنزاع مع الطائفة الدرزية في هذا البلد. ومع بدء النزاع في الشوف، تطوّر دروز اسرائيل سياسيا لخدمة مصالح دروز لبنان، وذلك لكونهم الطائفة الوحيدة التي تمتلك قوة ضاغطة في اسرائيل^{١٦٢} حيث يتمتعون بسمعة طيبة رومانسية تشير الى انهم اقلية صغيرة، فخورة بنفسها، ومحبة للحرب والقتال. فعندما يجري الحديث في اسرائيل عن نظام جديد ممكن للشرق الاوسط وعن امكانية انشاء دول للاقليات الاثنية الدينية فيه، يُفكر دائما بدولة للدروز. فبقدر ما كانت خيبة الامل كبيرة في اسرائيل من الموارد بسبب ترددهم في الاشتراك في معركة بيروت، كما تضاعفت بعد انتخاب امين الجميل العربي، زادت الثقة كثيرا بمصداقية الدروز وبايجابية التعاون معهم كحلفاء ثابتين^{١٦٣}.

١٦٠ - في اواخر حزيران ١٩٨٢، زار شيمون بيريز وليد جنبلات في قصره في المختارة، في وقت كان جنبلات وما زال كثير الحذر والتحفظ في اتصالاته مع الاسرائيليين. وقد جرى تفسير الزيارة وكأنها تبادل الآراء بين ناقي رئيس منظمة الاشتراكية الدولية. أما الاتصالات اللاحقة مع القيادة السورية فاحبطت بكثير من السرية.

١٦١ - منذ صيف ١٩٨٢ يحصل تبادل زيارات بين الدروز الاسرائيليين الى الشوف والدروز اللبنانيين الى اسرائيل.

١٦٢ - حول هذا الموضوع ستصدر قريبا دراسة بقلم Aribert ZIEGLER

١٦٣ - "موشي أرئز"، الذي خلف "شارون" كوزير للدفاع، اعتبر سابقاً بأنه من الممكن أن يكون الدروز كحلفاء لإسرائيل أكثر مصداقية من الموارد. (من مقابلة معه عام ١٩٨٠).

وبما ان معركة الدروز ضد القوات اللبنانية كانت تخدم الحكومة السورية، فقد سمحت هذه الاخيرة للدروز السوريين بتقديم الدعم لميليشيات الدروز اللبنانيين في الشوف. ولكن لم يكن هذا التضامن الخارجي البارز مع الطائفة الدرزية العامل الوحيد الذي ساعدهم في حرب الشوف، بل ايضا التوافق الجزئي للمصالح السورية والاسرائيلية. فسوريا بحثت عام ١٩٨٣ عن حلفاء بين اللبنانيين للوقوف معها ضد الاتفاق اللبناني الاسرائيلي، فوجدت مناسبة لكسب الدروز الى جانبها. وبالمقابل شكل نزاع الشوف فرصة للاسرائيليين لممارسة ضغط على الحكومة اللبنانية. فكان بإمكانهم فصل الميليشيات المتقاتلة عن بعضها، وافساح المجال للجيش اللبناني النظامي للدخول الى الشوف، وتوسيع رقعة سلطة الحكومة الشرعية من بيروت الكبرى الى منطقة الشوف بكاملها. وهذا ما كان يمكن ان يشكل مكافأة لتصرف الحكومة اللبنانية الايجابي تجاه اسرائيل، بينما شكل عقابا لها ابقاء الشوف في يد الدروز فقط. هذا التلاقي صدفة لمصالح سوريا واسرائيل كان بالفعل محدودا في الزمن، ولكنه كان كافيا جدا كي يقيم الدروز علاقات طيبة مع الدولتين ويستفيدوا منهما لخدمة مصالحهم.

في ربيع عام ١٩٨٣ حصل تحول عسكري واضح لصالح الدروز في الشوف. فقد تعززت ميليشياتهم عددا وعدة بفضل تعبتهم ودعمهم من قبل السوريين. كانت الاسلحة والامدادات تصلهم بكثرة من الجيش السوري المتمركز في المتن الاعلى، دون ان تمنع ذلك القوات الاسرائيلية.

اما وحدات القوات اللبنانية فقد ضعفت جدا. كان عليها الحصول على امدادات من المنطقة المسيحية عبر طرق يسيطر عليها الدروز. ولم يكن ذلك ممكنا إلا بفضل تدخل الجيش الاسرائيلي ومزاجية عناصره معظم الأحيان. فخطوط المواجهة مع الدروز كانت صعبة للغاية. حاولت القوات احتلال بلدات مسيحية عديدة، يصعب الاتصال بين الواحدة والاخرى. كما أن محاولة شق الطرقات لتسهيل هذا الأمر، لم تكن كافية. كانت "الجبهة" طويلة، ومتعرجة بين الجبال والوديان. فكان على الوحدات المتوفرة أن تتمركز فيها، دون أن يكون لوجودها أي تأثير نظرا لمنع القوات العسكرية الاسرائيلية الأعمال العدائية. فالدروز والقوات اللبنانية كانوا يقصفون بعضهم بالمدافع، ويزرعون الرعب بين صفوفهم عبر عمليات الخطف والقتل، خاصة في شهري نيسان وأيار ١٩٨٣. وكان الفريقان ينتظران معرفة ماذا سيحصل عندما ينسحب الجيش الاسرائيلي من المنطقة. كما كانا يعبران عن مطالبهما السياسية. الدروز طالبوا مجددا بدولة علمانية في لبنان، أو بانشاء مجلس للشيوخ يكون رئيسه درزيا، كي يؤمن لهم مركز سياسي حساس في ادارة شؤون الحكم، مثل الموارنة والسنة والشيعية. وفي مطلق الأحوال، طالبوا بانسحاب القوات

اللبنانية من المنطقة الدرزية. ومن جانبه، عبّر سمير ججع، قائد القوات اللبنانية في الشوف، عن أمله بإنشاء "مناطق متجانسة سوسيوولوجيا ضمن نظام فدرالي"، وأن الدروز "لا حق لهم في حكم الجبل كما كانت الحال في السنوات الماضية". وقد رفضت القوات اللبنانية رفضاً قاطعاً "الهيمنة الدرزية" و"الوجود الغريب في عاليه وفي الشوف، المتمثل بالحزب التقدمي الاشتراكي"^{١٦٤}.

كان نزاع الشوف حرباً أهلية واضحة بين اللبنانيين، حتى وإن لعبت المصالح السورية والإسرائيلية دوراً فيها. طمح الدروز مثل القوات اللبنانية إلى فرض هيمنتهم على القسم الرئيسي من البلد. فبينما كان الدروز يدركون كيف يكسبون ماديًا واستراتيجيًا وكذلك سياسيًا بفعل دوزنة علاقاتهم مع السوريين والإسرائيليين، غابت لدى القوات اللبنانية الرؤيا الواضحة، وتصرفت قادتها عشوائيًا وفي اتجاه لا أمل فيه إطلاقاً. اعتقدوا بقدرة الصمود والتصدي أمام الدروز، وعقدوا الآمال على تأييد الجيش اللبناني لهم. كذلك كانوا يظنون بأن الاسرائيليين لن يتخلوا عنهم في ساعة الحسم^{١٦٥}. ولكن تبين أن كل هذه الافتراضات كانت خاطئة. ففي مطلع آب عام ١٩٨٣ أعلن وليد جنبلاط، ما يلي: "سيحصل قريباً كرنفال دموي في الجبل"^{١٦٦}. وكان هذا النبي في وضع يسمح له بتنفيذ ما يقول.

٢٢ - انتفاضة شيعية ضد إسرائيل وابتعاد عن الحكومة

بالنسبة للسكان الشيعة في جنوب لبنان شكّل الغزو الاسرائيلي صدمة كبيرة لهم، رغم وضعه حداً لسيطرة المقاتلين الفلسطينيين البغيضة. في بعض القرى الشيعية جرى الترحيب بالجنود الاسرائيليين، فاعتبروا منقذين لها من الكابوس الفلسطيني. حصل ذلك مع بعض التحفظ. فنادراً ما واجه الاسرائيليون مقاومة أو مؤشرات عدائية. فقد اعتقد السكان الشيعة بأن الاحتلال سيكون قصيراً بعد اجلاء الفلسطينيين عن بيروت^{١٦٧}.

- ١٦٤ - "النهار"، ١٩٨٣/٨/٢٨.
١٦٥ - برهنت القوات اللبنانية عن تخلف مذهب في مجال النضوج السياسي وعن سذاجة كبيرة تجاه اسرائيل". راجع: Annie LAURENT & Antoine BASBOUS, *Le Liban et son voisinage*, op. cit., p. 1240.
تجدد الإشارة والتوقف عند هذا الاستنتاج، نظراً إلى أن أحد الباحثين، انطوان بصبوص، كان مدير مكتب القوات اللبنانية في باريس من عام ١٩٨٨ إلى ١٩٩٢.
١٦٦ - L'Orient-Le Jour, 4.8.1983.
١٦٧ - "إنّ ما يمكن وصفه بأهم حساب خاطيء، هو أنّ منظمة "إ.د.ف." (IDF) أو الموساد لم يهتما بظاهرة كراهية ونفور الشيعة من الفلسطينيين واعتباره عنصراً إيجابياً قد يسهل إقامة علاقات وثيقة بين إسرائيل والطائفة الشيعية. في الواقع، لم يكن أحد من السكان على استعداد لاستبدال حاكم أجنبي مكان حاكم أجنبي آخر". راجع: Augustus Richard NORTON, *Harakat Amal*, op. cit., p. 196.

ولكن بقدر ما كانت تطول المفاوضات اللبنانية - الاسرائيلية، كان التخوف يزداد في جنوب لبنان. وعندما أعلن عن مضمون الاتفاق الذي يلحظ وجودا اسرائيليا في ذلك القسم من البلاد، تضاعف هذا التخوف من إمكانية انشاء "ضفة شمالية"، قد تتحول مع الزمن الى منطقة نفوذ اسرائيلية. اثناء تلك الفترة، تسنى لسكان الجنوب التعرف الى طبيعة الاحتلال الاسرائيلي والى الاشمئزاز منه. لقد كان الجنوب في وضع اقتصادي سييء، وزاده سوءا الحظر الذي فرضه الاسرائيليون، لأسباب أمنية، على الحركة التجارية مع المناطق الأخرى من البلاد، وفتح المجال فقط لدخول البضائع الاسرائيلية، وهذا ما زاد في عدد العاطلين عن العمل. عندئذ أخذ الناس يحقدون على ممارسات الاحتلال، المتمثلة بتفتيش الأشخاص والبحث في المنازل عن السلاح، وتجنيد المخبرين والمتعاونين، وانزال العقوبات الجماعية بعد كل حادث فردي. فبعد مدة قصيرة من الزمن، تحول الاسرائيليون، مثلما حصل مع الفلسطينيين من قبل، الى شعب متعجرف ومكروه. وهذا ما أثار الامتعاض والسخط على أناس لا يحترمون مشاعر السكان الدينية. فالجنود الاسرائيليون كانوا يدخلون الى المساجد الشيعية بحثا عن السلاح، كما عطلوا الاحتفالات بعيد عاشوراء، الذي يعتبر من أكبر المناسبات الدينية عند الشيعة.

لم يتصرف الجيش الاسرائيلي في لبنان بغير الطريقة التي تصرف فيها في الضفة الغربية حيث نجح الى حد ما. ولكنه في لبنان أثار مقاومة واسعة ضده. فلم يكن اللبنانيون أقل استعدادا من فلسطينيي الضفة للقبول بالقهر والاذى، ولكنهم كانوا أفضل استعدادا منهم للرفض والانتفاضة^{١٦٨}.

كان البلد يعج بمخازن الأسلحة المتنوعة، وكان الناس يحسنون كيفية استخدامها. تعلموا منذ سنوات كيف يهاجمون القوات، حتى المتفوقة عليهم عددا وسلاحا، ونقل المصفحات والدبابات، وكيفية اطلاق الصواريخ عليها وزرع الالغام في طريقها. فالذي يُعامل معاملة سيئة، يعرف كيف يثأر لنفسه. وهذا ما حصل فعلا. فالجنود الاسرائيليون لم يكونوا مهينين لهذا النوع من الهجمات. تكبدوا خسائر جسيمة، وردوا على الاعتداءات بقمع شديد. وهكذا نشأت على أرض خصبة حركة نضال ومقاومة منظمة. فالمنظمات الصغيرة التابعة للحزب اليسارية وجدت في جنوب لبنان مجالا للعمل. وكذلك الحركات الاسلامية لم تسمح بمزايدة أحد عليها. وأخيرا حركة أمل، أكبر المنظمات الشيعية وأهمها وجدت نفسها ملزمة بالتحرك ضد القوة

١٦٨- راجع: W. Andrew TERRILL, Low Intensity Conflict in Southern Lebanon: Lessons and Dynamics of the Israeli-Shi'ite War, in: Conflict Quarterly, 7(1987)3, p.22-35. راجع أيضاً الفصل الذي يتحدث عن "صنع الاعداء في جنوب لبنان"، في Augustus Richard NORTON, Amal and the Shi'a, op. cit., p. 107ff; Clinton BAILEY, op. cit., P. 219-236.

المحتلة كي لا تفقد تأييد السكان لها. وقد أعطى دفعا جديدا لهذا التطور دخول عنصر جديد على الساحة اللبنانية، أي جماعة إيران الخميني^{١٦٩}. ففي حزيران ١٩٨٢ سمحت الحكومة السورية أثناء الغزو الاسرائيلي بدخول مجموعة كبيرة من "حراس الثورة" الايرانيين (البسدران) الى لبنان. فتمركزوا في بعلبك وفي شمال البقاع. في تلك الاثناء، انشق قسم من حركة أمل بزعامة المدرّس سابقا، حسين موسوي، عن حركة أمل التي يتزعمها نبيه بري، واتخذ اسم "أمل الاسلامية" التي انضمت الى الاصوليين الإيرانيين. وقد جرى إعلان "جمهورية بعلبك الهرمل الاسلامية"، حيث حظر شرب الكحول وبيعه، وأجبرت النساء على ارتداء الحجاب. وفي مناسبة العيد الوطني اللبناني جرى تمزيق أعلام الارزة اللبنانية، ورفعت شارات الاصوليين الخضراء مكانها. ولم يكن للأقلية المسيحية القاطنة هناك الا اظهار الامتعاض. فعندما احتجّ رئيس اساقفة بعلبك للروم الكاثوليك على هذا التصرف، تعرض حالا للخطف. وقد حصلت ايضا اعتداءات عديدة على الجيش اللبناني المتواجد في البقاع. كما تلقى الاصوليون اللبنانيون تدريبا عسكريا في مخيمات التدريب التي أقيمت هناك.

أما الحكومة السورية فلم تكن مرتاحة بنوع خاص عن هذا الوضع نظرا لنزاعها منذ سنوات طويلة مع الاصوليين السنة في سوريا. ولكنها كانت تحتاج من جهة الى التحالف مع إيران ضد نظام البعث الحاكم والمنافس لها في العراق. وبالتالي، استغلت هذا الوضع اقتصاديا، فكانت تحصل على النفط الإيراني بأسعار زهيدة. ومن جهة ثانية، عرفت كيف تستغل الاصوليين الاسلاميين لتحقيق اهدافها في لبنان. فالشيعة الانتحاريون الذين لا يهابون الموت هاجموا الجنود الأميركيين والفرنسيين والاسرائيليين. وكان انسحاب هؤلاء من لبنان أحد الاهداف التي عملت سوريا من أجلها. وقد حصل ذلك دون إلقاء المسؤولية مباشرة على سوريا.

تركت المنافسة الاصولية الاسلامية تأثيرا كبيرا على حركة أمل. في الجنوب كما في ضواحي بيروت الشيعية، تأسس ما سُمّي "بحزب الله"^{١٧٠}، وهو حركة راديكالية منافسة لأمل. فبينما كان يتزعم ويقود حركة أمل اناس أنقياء، ولكنهم كانوا يطمحون الى بناء دولة علمانية، أخذ عدد من رجال الدين الشيعة المرتبطون مباشرة بزملائهم في إيران، يقفون وراء حزب الله ويوجهونه^{١٧١}. فقياديو حركة أمل المعروفون

١٦٩ - راجع: Bassma KODMANI-DARWISH, L'Iran, nouvel acteur fort au Liban? op. cit., p. 153-164.
 ١٧٠ - راجع: Martin KRAMER, The Moral Logic of Hizballah, Occasional Papers 101, Shiloah Institute, Tel Aviv 1987; Shimon SHAPIRA, The Origins of Hizballah, in: The Jerusalem Quarterly, 46(1988), p. 115-130.
 ١٧١ - عن الاتصالات بين رجال الدين اللبنانيين والعراقيين والإيرانيين، راجع: شبلي ملاً، المصدر المذكور، ص ٩ وما يليها. العامل الأساسي في هذا الأمر يعود الى التعليم المشترك الذي كانوا يتلقونه في المراكز

باعتدالهم وجدوا أنفسهم في صعوبات أمام ممثلي عقيدة راديكالية متطرفة. فالشيخ شمس الدين، نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى، ونبيه برّي، رئيس حركة أمل، كانا يفضلان حلّ مشكلة الاحتلال الاسرائيلي دون حرب جديدة. فطالباً مراراً عديدة بتسريع عملية المفاوضات اللبنانية - الإسرائيلية. ثم وجدا انفسهما مضطرين لاطلاق الدعوة لتحرير الجنوب. وفي تلك الاثناء اضطرت حركة أمل الى الوقوف ضد أمين الجميل وحكومة الوزان، إذ لم يرض السكان الشيعة في بيروت عن سياسة الحكومة الشرعية. وجد الشيعة أنفسهم في حال من الاهمال والحرمان أكثر من الماضي. كما كان ربع ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا من الشيعة، ولم يدع أحد منهم للثأر. والجيش اللبناني طرد الطارئين واللاجئين الشيعة بطريقة غير انسانية من المساكن الحفيرة التي بنوها. وبينما نزع سلاح الميليشيات في غرب بيروت، احتفظت القوات اللبنانية في بيروت الشرقية بسلاحها وبثكناتها، وأوقفت بعض خصومها السياسيين، وأقامت سجونا خاصة بها.

ادرك نبيه بري ومعاونوه بأن الرئيس الجميل ورئيس الحكومة الوزان لا يتمتعان بأية سلطة فعلية على القوات اللبنانية، فأخذوا تدريجياً يشكون بالارادة الطيبة سواء لدى رئيس الجمهورية او لدى رئيس الحكومة. ألم يكن الرئيس من حزب الكتائب، وألا يشارك في لعبة توزيع الادوار بين الدولة والميليشيات المسيحية؟ ألم يستخدم رئيس الحكومة الجيش الشرعي - الذي كانت تطالب أمل دائماً فيه - ضد الشيعة ولصالح البورجوازية السنيّة؟ هكذا أصبح الأمر محرّجا للغاية بالنسبة لحركة أمل، إذ رأت نفسها وراء حزب الله في مجال النضال لتمثيل مصالح الشيعة. ففي آذار ١٩٨٣، حصل أول اشتباك بين حركة أمل والجيش، بعدما أوقف هذا الأخير عدداً من الشيعة لاتهامات غير واضحة. وفي حزيران، دعت حركة أمل الى اضراب عام في الجنوب بمناسبة مرور سنة على الاحتلال الاسرائيلي. وفي تموز قاومت حركة

الشيعة في النجف وكربلاء جنوبي العراق. فالمفاهيم الدينية والسياسية التي كان يتداولها هناك رجال الدين وجدت ابتداءً من عام ١٩٥٨ مجالاً للتعبير والافساح عنها ونشرها في مجلة "العرفان" التي كانت تصدر في مدينة صيدا. فحرية الصحافة المتوفرة في لبنان سمحت بنشر مؤلفات لم يكن يسمح بنشرها في ظل الأنظمة العسكرية العراقية. في النجف قضى آية الله الخميني عدة سنوات منفياً عن بلاده. وهناك قامت بينه وبين رجال دين لبنانيين بارزين علاقات وثيقة، خاصة مع محمد مهدي شمس الدين ومحمد حسين فضل الله. وكان آخرون على اتصال وثيق مع شريعة مداري. وهكذا انعكس التخاصم الذي كان قائماً بين الخميني ومداري على رجال الدين الشيعة في لبنان. وكان محور الخلاف يتركز حول حجم السلطة القانونية والسياسية التي ينبغي أن تمتلكها السلطات الشيعة في الدولة. كذلك برزت خلافات حول أفضلية التوجيه القومي اللبناني او الاسلامي. راجع: شبلي ملاط، المصدر المذكور، ص ٢٦. شكّد على ".... الانقسام بين المجموعتين العسكريتين البارزتين في إطار هذا النموذج القومي والدولي، اي إنّ حركة أمل تؤيد اتجاهاً قومياً لبنانياً" وحزب الله يشكّد على هذا الإتجاه القومي كمرحلة ثانية تأتي بعد إعفاء التوجيه الإسلامي الدولي ومركزه إيران".

أمل قوات من الجيش قامت بطرد لاجئين شيعة من مبنى مدرسي كائن في حي وادي أبو جميل في بيروت، وذلك بعد ان ابتاعه الأثرياء السنة. وقد أعلن برّي على أثر ذلك، بأنه لن يرضى بأن يعامل الشيعة في لبنان "مثل العبيد في جنوب أفريقيا"، وطالب حالاً باستقالة الوزان.

أدى عدم الرضى عن الحكومة الشرعية من جهة، وضغط الاسلاميين المناضلين من جهة ثانية، الى تزايد قوة النضال لدى أكبر منظمة شيعية ١٧٢. فذهب نبيه برّي في مجال السياسة الداخلية الى أكثر مما ذهب اليه موسى الصدر. لم يعد يكتفي بالمطالبة بجزء من السلطة للشيعة، بل أخذ منذ ١٩٨٣ يطالب بالانتقال الى ديمقراطية الأكثرية. وفي هذا الإطار حصل اتفاق بين الدروز والشيعة حول هذا الهدف السياسي المشترك. وعندما أنتهت المفاوضات اللبنانية - الاسرائيلية، وأعلن عن مضمون الاتفاق، وعن التنازلات التي قدمتها الحكومة اللبنانية الى اسرائيل في جنوب لبنان، رفض نبيه برّي وحركة أمل هذا الاتفاق حفاظاً على مصلحة طائفتهم. وهكذا أكتسبت الحكومة السورية حليفاً آخر، أصبح منذ ذلك الحين الحليف الأكثر مصداقية وولاء لها. فالشيعة، الذين كانوا قبل عام ١٩٨٢ أكثر المؤيدين لتقوية وتدعيم سلطة الدولة اللبنانية، أصبحوا الآن من معارضي سياسة هذه الدولة كما أخذوا يطالبون بأن تكون هذه الدولة دولتهم.

٢٣ - حرب ضد الاتفاق الاسرائيلي - اللبناني

في السابع عشر من ايار ١٩٨٣ جرى التوقيع على هذا الاتفاق بالأحرف الأولى، ولكن الحكومة السورية رفضته سابقاً لأنه يشكل بنظرها استسلاماً، كما رفضت التفاوض حول موضوع انسحاب قواتها من لبنان، رافضة بالتالي استقبال المبعوث الاميريكي، فيليب حبيب في دمشق. عتّى أثر ذلك عقد في زغرنا، بحضور ضابط سوري رفيع المستوى، اجتماع ضمّ سياسيين لبنانيين من معارضي هذا الاتفاق، وفي مقدمتهم سليمان فرنجية، ورشيد كرامي، وممثلين عن الحزب التقدمي الاشتراكي، والحزب القومي السوري، وحزب البعث، والحزب الشيوعي، اي كل المتحالفين مع سوريا. وبعد مرور ثلاثة اسابيع صدر موقف رسمي لحركة أمل ضد

١٧٢- راجع: Elizabeth PICARD, Political Identities and Communal Identities: Shifting mobilization among the Lebanese Shi'a through ten years of war, 1975-1985, in: Dennis L. THOMPSON & Dov RONEN (Eds), Ethnicity, Politics, and Development, Boulder 1986, p. 159-178; idem, From "Community-class" to Patriotic Struggle". An attempt at an analysis of the role and significance of the Shi'a in the Lebanese political system (1970-1984). Paper MESA, Conference, San Francisco 1984. راجع أيضاً ص ١٤ انتقاداً لنبيه برّي بسبب استعداده لإيجاد حلّ تسوية.

الاتفاق. وفي العاشر من حزيران زال آخر تشكيك بأن المقاومة ضد الاتفاق هي كلامية فقط. فقد قصفت بيروت الشرقية، وجونية، وبكفيا بصواريخ الغراد، انطلاقاً من المنطقة الدرزية في الشوف، وكذلك من مواقع المدفعية السورية في المتن الأعلى.

وفي الرابع عشر من حزيران اجتمع المجلس النيابي وحضر سبعون نائباً. وتغيّب النواب الذين هم من المناطق الواقعة تحت السيطرة السورية. في تلك الجلسة أعلن صائب سلام بأن الاكثريّة الساحقة من اللبنانيين وبنوع خاص من المسلمين هم مع الاتفاق^{١٧٣}. والبرهان الرئيسي الذي دفع الى الموافقة عليه، هو التشديد على أن التخلص من الاحتلال الاسرائيلي لن يحصل الا إذا قدمت التنازلات. أما البرهان الرئيسي الرفض له فقد أطلقه الرئيس السابق لحركة أمل، حسين الحسيني، والقائل بأن لا قيمة للإتفاق طالما سوريا غير مستعدة لسحب قواتها من لبنان. وقد وافق المجلس النيابي اخيراً على الاتفاق بأكثرية ٦٤ صوتاً ومعارضة صوتين وامتناع أربعة أصوات^{١٧٤}. ولكن القرار الأخير للموافقة على إبرام الاتفاق كان يعود الى رئيس الجمهورية والى الحكومة. فقد أرجأ الجميل والوزان هذا القرار بأمل الضغط على سوريا لتليين موقفها. ولكن لم يكن بإمكان أحد حمل سوريا على تغيير سياستها. بعيد ذلك أعلن وزير الخارجية الاميريكي، جورج شولتز، في شهر أيار، بأن الولايات المتحدة قامت بكل ما لديها من جهود للتوسط بين لبنان وإسرائيل، والآن على اللبنانيين ان يتوصلوا الى تفاهم مع السوريين. أما المملكة العربية السعودية والكويت، وكان يعتمد عليهما فيليب حبيب كثيراً، فقد امتنعتا عن التدخل، نظراً للرفض السوري الحازم. ومن جانبها إسرائيل كانت قد "فقدت امكانياتها الردعية ضد سوريا في لبنان"^{١٧٥}. ولأسباب تعلقت بالسياسة الداخلية، لم تعد إسرائيل بحال يسمح لها باعلان الحرب ضد سوريا. فقد كان إبرام الاتفاق امراً يشكل مبرراً لحرب عام ١٩٨٢ قد يقبله الرأي العام الاسرائيلي، ولكن لم يكن وزير الدفاع "ارنز" ولا المنسق الجديد للسياسة الاسرائيلية في لبنان، السفير "اوري لوبراني"، أكثر اندفاعاً لهذا الأمر من "أريال شارون"، المحرّض الرئيسي على تلك الحرب. فقد رأى ارنز ولوبراني، بنوع من الواقعية، بأنه نظراً الى ضعف الحكومة اللبنانية والى تنامي قوة المعارضة التي تدعمها سوريا، لم يعد لهذا الاتفاق أية أهمية تذكر. وكذلك الخسائر الفادحة التي تلحق بالاسرائيليين عبر الهجومات والاعتداءات المتكررة اشارت الى ضرورة التخلي نهائياً عن الاهداف الطموحة لعهد شارون. فقد

١٧٣ - L'Orient-Le Jour, 16.6.1983.

١٧٤ - صوت لصالح الاتفاق ٤٠ نائباً مسيحياً من أصل ٥٠ و ٢٤ نائباً مسلماً من أصل ٤١.

١٧٥ - Itamar RABINOVITCH, The War of Lebanon, op. cit., p. 195. راجع.

أخذاً بالبحث أولاً عن كيفية ضمان الحدود الاسرائيلية. وفي هذا المجال قد يكون الدروز والشيعية أكثر فائدة لهم من حكومة تحكم فقط في بيروت وبصعوبة كلية. وموجز الكلام، أصبحت الحكومة اللبنانية وحيدة الآن أمام التشبث السوري الهادف إلى إسقاط الاتفاق.

شكل اللبنانيون المعارضون للاتفاق في ٢٣ تموز عام ١٩٨٣ "جبهة الإنقاذ الوطني". وكان لكل أعضائها أسباب تتعلق بالسياسة الداخلية، وتدفعهم لمعارضة الجميل والوزان. فرنجية مثلاً، أراد بعد مقتل بشير الجميل، أخذ الثأر من كل من يحمل اسم "الجميل" ومن الكتائب. وكذلك رشيد كرامي لم يكن مرتاحاً على الإطلاق، بأن يأخذ منه سنة بيروت، عبر الوزان وسلام الزعامة السياسية على طائفته. وجنبلاط بدوره رأى الفرصة سانحة لكسب تأييد لبناني في النزاع في الشوف وإعطاء بعد سياسي وطني لنزاع أقليمي حول الهيمنة. وللمرة الأولى وجدت أحزاب اليسار المجال مفتوحاً من جديد أمامها للدخول في جبهة سياسية عريضة، وكسب وزن سياسي. من الناحية الشكلية لم تضم هذه "الجبهة" الفئات الإسلامية المتطرفة ولا حركة أمل. ولكن الإسلاميين وجدوا، عبر إشتراكهم في النزاع ضد الاتفاق، إمكانية تحولهم إلى فريق يستحق الاحترام والتقدير. كما أن حركة أمل لم تستطع الوقوف على الحياد كي لا تعرض نفسها لخطر اتهامها بالتعاون مع الآخرين. أما العنصر المشترك للمعارضة الجديدة فلم يركز على أهداف في السياسة الداخلية، بل على ارتباط أعضائها بسوريا. فكل فريق كان يريد لبنانا آخر حتى وإن كان مختلفاً عن الفريق الآخر. ففي معارضتهم المشتركة ضد الاتفاق، تحولوا كلهم إلى حلف قوي. انتفض الشيعة في بيروت ضد الحكومة. وأخذ الدروز يتشابكون لا مع القوات اللبنانية فحسب، بل أيضاً مع الجيش اللبناني. وكذلك أخذت الفئات الشيعية المتطرفة تعتدي على الجنود الأميركيين والفرنسيين. وقد كان بمقدور الحكومة السورية الاكتفاء بتأمين الحماية العسكرية لهم، في المعنى الحصري كما في المعنى المجازي.

في شهر آب تفاقم قصف بيروت من مواقع المدفعية الدرزية والسورية. واستهدف القصف مطار بيروت والقصر الجمهوري ومواقع القوات العسكرية الغربية المتعددة الجنسيات. على أثر ذلك أعلن ناطق باسم الحكومة الفرنسية، بأن بلاده لا تريد أن تتدخل في حرب أهلية لبنانية. وكانت هذه أول إشارة للتراجع عن قرار بتأييد الحكومة اللبنانية. وفي آخر آب بدأت انتفاضة الشيعة في بيروت، ففقدت الحكومة خلال ساعات قلائل كل سلطة على ضواحي بيروت الغربية، كما جرى اقتحام وسط المدينة من قبل حركة أمل والمرابطون وميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي. وفي التلفزيون الرسمي احدثت صورة آية الله الخميني، صدمة قوية

للبورجوازية السنيّة. ولكن الجيش اللبناني نجح سريعا في استعادة وسط المدينة من المحتلين، عبر تعبئة عدد كبير من الجنود، الذين كانوا قد اعدوا للحلول مكان الاسرائيليين عند انسحابهم من الشوف. ولكن الجيش لم ينجح في استعادة السيطرة على الضواحي الغربية الجنوبية.

وبعد أيام قلائل، اي في الثالث من أيلول، انسحب الجيش الاسرائيلي من منطقتي عاليه والشوف. أما الجيش اللبناني، الذي كانت وحداته القوية منشغلة في غرب بيروت، فتقدم على طريق بيروت - دمشق حتى بلدة الكحالة، ثم في اتجاه الشوف حتى بلدة سوق الغرب^{١٧٦}. وفي المناطق الأخرى التي انسحب منها الجيش الاسرائيلي نشبت حرب شاملة بين الدروز والقوات اللبنانية، لم تدم طويلا. فالدروز بدعم من القوات الفلسطينية التي جاءت من البقاع والتي اعتبرت نفسها "قوات العودة"، هاجموا بواسطة المصفحات مدينة بحدون وقصفوا الميليشيات المسيحية. على أثر ذلك واصلت القوات اللبنانية، دون اي أمل، الاشتباكات، وهي تتسحب الى أكبر مدينة مسيحية في الشوف، دير القمر، حيث حاصرهم الدروز^{١٧٧}. وفي الوقت ذاته، هرب المدنيون المسيحيون، وقد أرهبتهم المجازر التي اقترفها الدروز في المناطق التي كانوا يقطنون فيها. والقوات اللبنانية من جهتها، قامت خلال انسحابها، بقتل سكان ثلاث قرى درزية. ولكن المنتصرين الدروز مارسوا عشرات المجازر في القرى المسيحية دون التمييز بين الموارنة، والروم الكاثوليك والروم الارثوذكس، ولا بين خصوم وأنصار الحزب التقدمي الاشتراكي، حزب جنبلاط. في بلدة البيرة مثلا التي كان أهلها دائما من أنصار هذا الحزب، لم ير سكانها ضرورة للهرب. ولكن الدروز لم يتركوا احدا منهم على قيد الحياة. فبعد اسبوعين تقريبا جرى تنظيف الشوف من المسيحيين باستثناء دير القمر. فقد دمرت ستون قرية، وقتل آلاف الأشخاص، وهرب عشرات الالاف من المدنيين او هُجروا. وقد وصف آنذاك الرئيس الديني الأعلى للدروز، الشيخ أبو شقرا، تلك المرحلة بأشرس مراحل الحرب منذ بدايتها عام ١٩٧٥، اذ قال: "لقد طويت صفحة من كتاب التاريخ. لن يبقى بعد اي مسيحي في جبل الدروز". وفي منتصف أيلول، ركزت الميليشيات الدرزية المنتصرة كل طاقاتها ضد مواقع الجيش اللبناني في سوق الغرب، الذي وقع في مأزق حرج للغاية. وقد كان هدف الدروز تأمين الاتصال بين الشوف وضواحي

١٧٦- تقرر ارسال فصيلتين من الجيش اللبناني الى الشوف، ولكن جرى الهأوها في بيروت، حيث لم تتجح في معارك الشوارع، فتعطل بالتالي دورها. وهكذا وعلى أثر انسحاب اسرائيل لم تكن أية وحدات مؤهلة لملاء الفراغ مكانها في الشوف. Paul A. JUREIDINI & R. D. McLaurin, Lebanon after the War of Shuf, in: Ed. E. AZAR a.o. (Eds), op. cit., p.24.

١٧٧- بقيت دير القمر محاصرة حتى قبيل عيد الميلاد ١٩٨٣، اذ سهّلت الوساطة الإسرائيلية انسحاب ميليشيا القوات اللبنانية والقسم الأكبر من اللاجئين. ولم يبق في القرية الا السكان المسنون فقط.

بيروت الشيعية التي تسيطر عليها حركة أمل. فأخذت في ذات الوقت المدفعية الدرزية والسورية تقصف بيروت والمناطق المسيحية. وكذلك تعرضت القوات المتعددة الجنسيات للقصف. فقوات البحرية الأميركية التي كانت ترابض قرب مطار بيروت، تعرضت للقصف من مواقع المدفعية في الجبل ومن الأحياء الشيعية القريبة من المطار.

وجدت الحكومة الأميركية نفسها في مأزق صعب. فمن جهة رفضت ان تتجرأ الى حرب أهلية لبنانية، ومن جهة أخرى لم تقبل بأن تسعى سوريا، بواسطة تحالف الحرب الاهلية الذي تدعمه، الى افشال السياسة الاميركية تماما في لبنان. فاسرائيل برهنت عبر انسحابها من الشوف بأنها لم تعد تفكر بتكوين توازن مقابل سوريا في لبنان، ولا بدعم أمين الجميل سياسيا، الذي رفض التوقيع على الاتفاق معها. فالقوات الأميركية، مثلها مثل القوات الفرنسية، والايطالية، واللواء البريطاني المحدود العدد، لم تكن على استعداد أيضا للدخول في عمليات عسكرية جدية. في البداية برز اقتناع بأن الحضور الرمزي لقوة دولية ولحلفاء لها، قد يكون كافيا لفرض الاحترام والطمأنينة^{١٧٨}. ولكن في النزاع اللبناني، تعلمت العناصر الرسمية وغير الرسمية منذ وقت طويل، احترام السلطة التي تعمل للسلام فقط. ولكن منذ اشهر عديدة، أختبرت الميليشيات مرات عديدة القوات الغربية وتأكدت من إمكانية الاعتداء والتحرش بها، دون التخوف من عمليات انتقامية.

كان على الولايات المتحدة أن تختار بين التراجع أمام الضغط السوري واعطاء الصورة عن دولة عظمى تقوم بمطاردتها الميليشيات، او بين التزامها العسكري وابرار مصداقيتها. فقد أختارت مخرجا لهذين الاحتمالين وقررت قصف الشوف والجبال المحيطة بسوق الغرب، بواسطة المدافع البحرية. فقامت فعلا السفن الحربية الاميركية، وخاصة البارجة "تيو جرسى"، وهي أكبر السفن البحرية في العالم، بقصف المواقع الدرزية انطلاقا من البحر. ولكن ضجيج مدافعها كان أقوى من مفعول ضرباتها.

أما الجيش اللبناني فقد نجح بصعوبة قصوى في الحفاظ على جبهة سوق

١٧٨- تشكلت القوات المتعددة الجنسية من جنود أميركيين، وفرنسيين، وإيطاليين وبريطانيين. بلغ عددهم حوالي ٥٥٠٠ عنصر، لا يحملون إلا السلاح الخفيف. "كان جنود البحرية لممارسة دور المحافظة على السلام، كرمز لالتزام الولايات المتحدة في لبنان. ولكن لم يشكلوا قوة كافية لخوض المعارك. فالموقع الذي كانوا يرابطون فيه بالقرب من مطار بيروت، كان معرضا للهجمات، ومن الصعب الدفاع عنه مقابل مرمى المدفعية المتمركزة على التلال التي يسكنها الدروز، وعمليات القنص من المنطقة الشيعية القريبة من موقعهم. فنظراً لبقائهم خارج المعارك تمكنوا من تجنب الأضرار، ولكن تبين أيضاً أن لا منفعة ولا مبرر لوجودهم". راجع: 246، p. cit., Reagan's Lebanon policy, op. cit., William B. QUANDT

الغرب^{١٧٩}. وفي ذات الوقت جددت حركة أمل هجوماتها في ضواحي بيروت الجنوبية. وفي الثامن والعشرين من أيلول، جرى تهجير سكان المريحة المسيحيين - آخر جيب غير شيعي في تلك المنطقة - من قبل الميليشيات الشيعية، وذلك عندما اضطر الجيش للإنسحاب. وقد هاجمت حركة أمل الجيش اللبناني على خطوط التماس القديمة بين الشياح وعين الرمانة.

وفي السادس والعشرين من أيلول زار المبعوث الأميركي الخاص "ماك فرلان" - خلف فيليب حبيب الذي رفضت سوريا التحدث إليه - العاصمة السورية. فتفاوض عبر التوسط السعودي حول وقف لاطلاق النار، الذي أعلن عنه وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام. وبذلك برز بكل وضوح ان سوريا التي اعتدي عليها وجرى تحجيرها قبل سنة في لبنان، تلعب اليوم دورا هاما وفاعلا فيه، وان الولايات المتحدة، طوعا أو كرها، تعترف لها بهذا الدور. هكذا أصبحت سوريا مستعدة لاحترام أمين الجميل كرئيس شرعي للبنان. ولكن "ماك فرلان" وعد بالضغط على الجميل للقبول ببعض التنازلات للمعارضة وحمله على "توسيع قاعدة حكمته". وبذلك توضحت معالم سؤ التفاهم الذي دام شهرا:

فالحكومة الأميركية أنتظرت من الجميل - ولكن دون أن تحدد ذلك اطلاقا - تقديم تنازلات للمعارضة، والتمسك في الوقت نفسه بالاتفاق الاسرائيلي - اللبناني. فقسم من المعارضة تمنى "تنازلات" في اتجاه تغيير الحكم الداخلي في لبنان. وقسم آخر، خاصة فرنجية، رفض مثل هذه التنازلات، كما رفضها الجميل. فما كانت تطمح إليه المعارضة وكذلك الحكومة السورية الواقعة وراءها، كانت الولايات المتحدة الأميركية تسعى الى تجنبه، الا وهو الالغاء الرسمي للاتفاق الذي لم يبرم نهائيا بعد. وقد ذهبت الحكومة السورية الى أبعد من ذلك. فطالبت بسحب القوات المتعددة الجنسيات، لأن وجودها في لبنان يعتبر تدخلا اجنبيا مرفوضا. وبالاختصار، دُفع أمين الجميل من قبل حلفائه الأميركيين الذين كان يعتمد عليهم، ليفعل ما لم يكن يريد فعله، أي ما كانت تطالبه سوريا به. ولكن بينما كانت الولايات المتحدة لا تريد، كما لم تكن بوضع يسمح لها بالقيام بأية خطوة، إذ كانت وحدها القادرة على انقاذ الاتفاق، عبر دعمها الجدي عسكريا للحكومة اللبنانية، كانت سوريا في تلك الأثناء تقوّي وتدعم حلفاءها عسكريا. ففي الثالث والعشرين من تشرين الأول فجر فدائيون شيعة المقرين الرئيسيين للقوات الأميركية والفرنسية في لبنان وقتلوا مئات الجنود.

وعلى أثر تصعيد النزاع، وبعد وساطة سورية وسعودية، عقد في ٣١ تشرين

١٧٩- كانت هذه الفصيلة ضعيفة العدد والعتاد. "ولكن في هذه الاوضاع الصعبة تمكنت قوى الجيش اللبناني من تثبيت وجودها بصورة مذهلة". Paul A. JUREIDINI & R.D. McLaurin, op. cit., p. 34, Note 28.

الأول في جنيف، "مؤتمر وطني" لبناني^{١٨٠}. دُعي إلى هذا المؤتمر الذي ترأسه أمين الجميل، كل من سليمان فرنجية، ووليد جنبلاط، ورشيد كرامي، عن المعارضة، وكميل شمعون وبيار الجميل عن الجبهة اللبنانية، وصائب سلام عن السنة، وعادل عسيران - الذي كان مدة طويلة من الزمن وزيرا ورئيسا سابقا لمجلس النواب - عن الشيعة. وقد وضعت سوريا فيتو ضد مشاركة رئيس الوزراء شفيق الوزان، لأنه كان أحد السياسيين السنة الذي حُمِلَ أيضا مسؤولية المطالبة بانسحاب القوات السورية وإبرام الاتفاق مع إسرائيل. لذلك كان الوزان بنظر سوريا شخصا غير مرغوب فيه. فالتقول بهذا الفيتو، وبالتالي القبول بمشاركة عبد الحليم خدام في المؤتمر، كانا من المؤشرات الأخرى على مدى التأثير والنفوذ اللذين تمارسهما سوريا في لبنان من جديد.

لم يسفر مؤتمر جنيف عن أية نتيجة فيما يتعلق بمسألة إصلاح الدستور اللبناني^{١٨١}، ولكن تم الاتفاق حول صيغة "الطابع العربي" للبنان، دون أن يتم التوصل إلى تبديل في صلاحيات المسؤولين. فقد برز سليمان فرنجية كأشد المدافعين عن المواقف المارونية الكلاسيكية، كما بقي أمينا في تحالفه الوثيق مع سوريا وفي رفضه القاطع لكل تسوية مع إسرائيل. وفي موضوع الاتفاق الاسرائيلي - اللبناني جرى التوصل إلى تسوية اقترحها سليمان فرنجية تقضي بتكليف المؤتمر الرئيس أمين الجميل بالتفاوض من جديد حول الإتفاق، ومحاولة الحصول على تأييد أميركي في هذا المجال.

ولكن في الأول من كانون الأول أبلغ أمين الجميل في واشنطن استحالة إعادة النظر في الاتفاق. وقد طلب منه مجددا العمل على التفاهم مع الدروز والشيعة. ولكن استمرّ سؤ التفاهم معهما قائما^{١٨٢}. على أثر ذلك قررت الحكومة الأميركية، بعد تفاوض وتفاهم مسبق مع إسرائيل، اتخاذ مواقف أكثر حزما وشدة تجاه سوريا. وهكذا قصف سلاح الجو الاميركي المواقع السورية في الجبل، كما قصف

١٨٠ - راجع هنا غسان تويني، المصدر المذكور، ص ٣١ وما يليها.
١٨١ - لم تكن نقطة الخلاف الرئيسية الاصلاحات الداخلية، بل اتفاق ١٧ أيار، لأنه كان المشكلة الرئيسية التي أثارها سوريا ودفعته إلى معارضة الحكومة^{١٨٢}. Paul A. JUREIDINI & R.D. McLaurin, op. cit., p.25.
١٨٢ - راجع William B. QUANDT, Reagan's Lebanon Policy, op. cit., p. 248. كان جواب "ريغن" على الجميل مربكا. لا شيء يمكن فعله لتغيير اتفاق ١٧ أيار. بل كان عليه أن يسعى إلى مصالح أساسية، خاصة مع الدروز والشيعة. كان يفترض أن يعمل الجميل مباشرة مع الإسرائيليين للتوصل إلى اتفاق حول الخطى التالية التي يمكن تنفيذها في جنوب لبنان لبطش سلطة الحكومة اللبنانية. أخيرا أعطت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل انطبعا عن استعدادهما لاتخاذ موقف جريء وحازم من سوريا. وهذا ما دفع ببعض المسؤولين اللبنانيين إلى الاعتقاد بأن التزاما عسكريا أميركيا قد يكون قيد التحضير. ولكن في النهاية، عاد اللبنانيون من واشنطن في حالة من الارتباك والخيبة.

سلاح الجو الفرنسي قاعدة عسكرية شيعية في البقاع. خلال تلك العملية اسقطت طائرتان حربيتان اميريكيتان، وقتل طياران وقبض على طيار آخر. وفي غارة قامت بها طائرات "السوبراتندار"، التي هي فخر سلاح الجو الفرنسي، قتل مواطن لبناني كان يرعى الماشية في الحقل. لذلك لم تؤثر هذه الغارات لا على السوريين ولا على الشيعة. ولكن الحكومة اللبنانية أدركت مرة أخرى أن الأساطيل الحربية الغربية المرابطة مقابل السواحل اللبنانية وطائراتها الحربية لا تستطيع مساعدتها، لفرض سلطتها في البلاد.

ولكن أهم نتيجة لهذه المحاولة القليلة الحظ، بغية الحد من التعنت السوري، كان الانتقاد المتزايد للالتزام الاميركي في لبنان في الولايات المتحدة بالذات. فقد طالب بعض أعضاء مجلس الشيوخ البارزين بسحب جنود البحرية الاميركية من هذا البلد. كما أخذ الاستعداد للانتخابات الاميركية عام ١٩٨٤ يطغى على تطور الاحداث. وكذلك لم يكن اي سياسي اميركي يؤمن بعد مرور عقد من الزمن على انتهاء حرب فيتنام، بأن أي تدخل عسكري اميركي في دول ما وراء البحار يرضى عنه النخبون. حتى الرئيس ريغن، الذي كان مرشحا لدورة ثانية، بدا متراجعا في قراره. حتى ذلك الحين كان يتمسك بمفهوم يتلخص بأن لبنان يشكل مصالح حيوية في المواجهة الشاملة بين الغرب والشرق. ولكن لم يشاركه هذا المفهوم كل وزرائه، كما خالفه هذا الرأي معظم الخبراء الاميركيين في سياسة الشرق الأوسط. وبنوع خاص كان وزير الدفاع "قايبرغر" مقتنعا بأن لا حاجة للولايات المتحدة الى خيارات عسكرية في لبنان. وفي منتصف كانون الأول ١٩٨٣ تحدث "ريغن" لأول مرة عن امكانية انسحاب اميركي من لبنان، في حال حصول "انهيار في النظام" هناك. ولكنه كرر فيما بعد عبارات تشير الى ضرورة الصمود. في مطلع شباط ١٩٨٤ أعلن عن أن انسحابا اميركيا من لبنان يعني نهاية هذا البلد. لذلك لا تفكر الولايات المتحدة ولا حلفاؤها الغربيون بالانسحاب، كما أنه لم يكن مستعدا للوضوح والاستسلام أمام الضغط السوري^{١٨٣}.

وقبل بضعة أيام من ذلك تحدث الرئيس السوري حافظ الأسد أمام دبلوماسيين اميركيين عن رأيه في سياسة الولايات المتحدة، فوصفها بأنها "تتحلى بنفس قصير"^{١٨٤}. وقد صدق في حكمه.

سقط وقف اطلاق النار الذي جرى الاتفاق عليه في جنيف، بعد أيام قلائل. ثم حصل اتفاق ثان سقط ايضا عبر قصف شديد ومعارك طاحنة عشية عيد الميلاد ١٩٨٣. وفي منتصف كانون الثاني عام ١٩٨٤ أطلقت الميليشيات الشيعية النار

Wall Street Journal, 3.2.1984 - ١٨٣

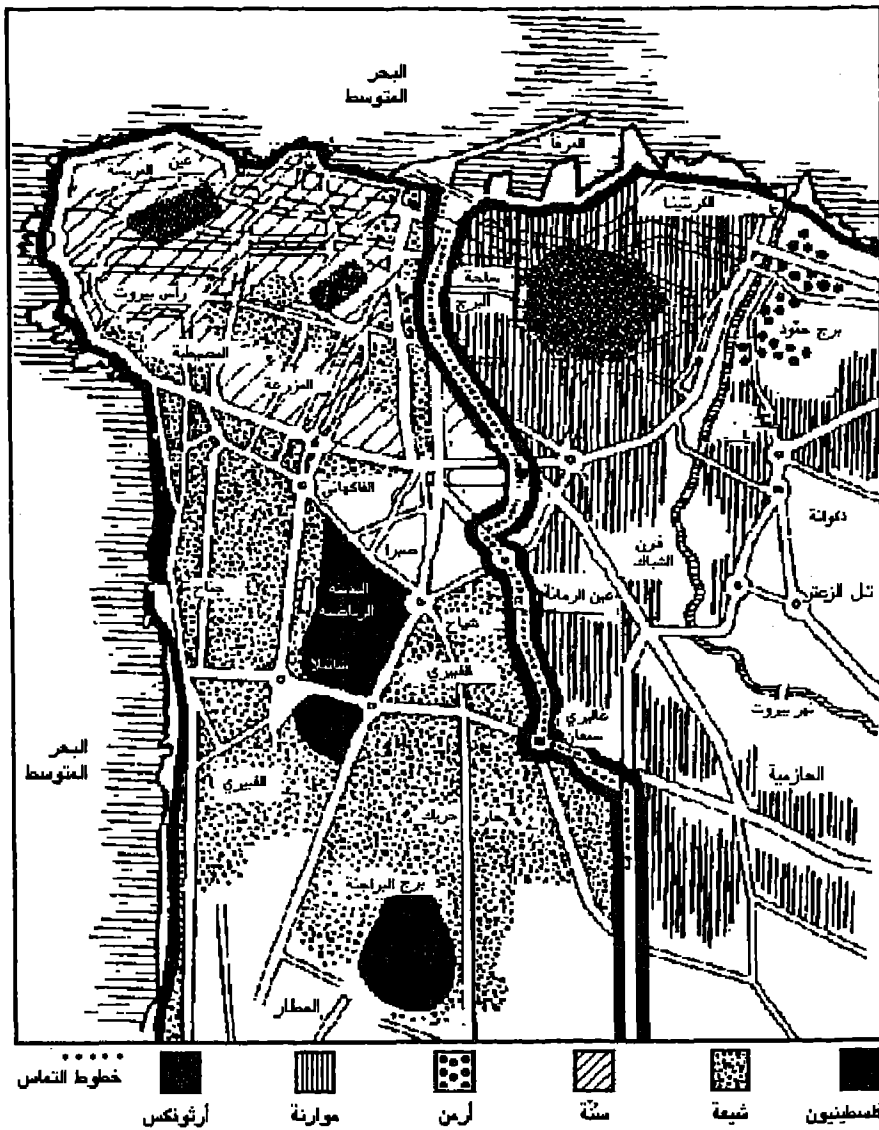
Le Monde, 26.1.1984. - ١٨٤

على الجيش اللبناني والقوات الفرنسية. وفي الثامن عشر من كانون الثاني، قتلت عناصر مجهولة، رئيس الجامعة الأميركية في بيروت، "مالكوم كار". وطالب في أواخر كانون الثاني كل من وليد جنبلاط ونبيه بري باستقالة أمين الجميل، لأنه فشل بتنفيذ ما طلب منه في جنيف، بشأن التفاوض حول اتفاق جديد.

وفي التاسع والعشرين من كانون الثاني قام الدروز بهجوم جديد على الجيش اللبناني في منطقة سوق الغرب. كما حاول الجيش في الأول من شباط اقتحام ضواحي بيروت الجنوبية، وذلك لعزل بيروت الغربية وميليشياتها الشيعية عن الدروز في الشوف. فقام الجيش في الخامس من شباط بقصف عنيف لجنوب بيروت مستخدماً المدافع والمصفحات. وجاءت الحصيلة خسائر عديدة بين المدنيين ودمار واسع. وهكذا تفاقمت الأحداث، فاستقالت حكومة الوزان، وأطلق نبيه بري نداء إلى الجنود الشيعية في الجيش بعدم إطلاق النار على اخوتهم. وأشار بأنه لن يمد يده بما بعد إلى أمين الجميل لأنه مسؤول عن المجازر في الضاحية. وعلى أثر تلك الأحداث صرح وليد جنبلاط: "أمين الجميل لم يعد الا شخص يجب سحقه" ١٨٥. وفي السادس من شباط اقتحمت ميليشيات أمل والدروز بيروت الغربية، بعدما تمت الاستجابة لنداء بري. فاللواء السادس في الجيش اللبناني، الذي يتألف بمعظمه من الشيعية، انضم إلى حركة أمل. وفي السابع من شباط، انسحب آخر الجنود، ومعظمهم من المسيحيين، الذين قاتلوا في غرب بيروت، إلى القسم الشرقي منها. وهكذا قسمت بيروت مجدداً على طول خطوط التماس.

١٨٥ - تصريح بثته الإذاعة الفرنسية سمعه المؤلف في ١٩٨٤/٢/٧، جاء فيه: "Ce n'est plus qu'un type à abattre".

التوزيع الطائفي في بيروت عام ١٩٨٤



هذه هي المرة الأولى التي نفذ اللبنانيون بأنفسهم تقسيم المدينة. في الحقيقة كانت سوريا وراء كل ذلك. فهي التي شكلت التحالف ضد الاتفاق ووفرت باستمرار الدعم والحماية له. ومن المؤكد أيضا ان الفلسطينيين شاركوا في احتلال بعمدون من قبل الدروز وغرب بيروت من قبل الشيعة، الذين قاموا بمحاربة الحكومة، ليس فقط لأنهم ضد الاتفاق، بل لأسباب خاصة بهم أيضا. فالدروز، الذين شعروا بتهديد وجودهم في الشوف من قبل القوات اللبنانية، حملوا الحكومة - بحق أو بدون حق - مسؤولية ما حصل، باعتبارها متواطئة مع القوات اللبنانية. والشيعة تخوفوا من أن يحصل بعد الغزو الاسرائيلي تحالف بين الاعيان المسيحيين والمسلمين - حتى مع اعيان طائفتهم - واعتبارهم "فئة لا قيمة لها". وكذلك كان أملهم بالانتهاء سريعا من الاحتلال الاسرائيلي للجنوب، كي يعمل على شل مفعول الاتفاق. أما قواتهم فتأثرت كثيرا بالثورة الإيرانية كما أخذت تتدرب تحت اشراف الكوادر الإيرانية. ولكن هذه القوى كانت تتألف من تلك العناصر الشيعية اللبنانية التي قامت بهجمات انتحارية ضد القوات الاسرائيلية والغربية معا. وهذا ما ذكر بعلميات الكومندوس الفلسطينية قبل بضع سنوات. فرئيس الجمهورية، والحكومة، وقيادة الجيش لم يقدروا حق التقدير الامتعاض والنضال الشيعي، خاصة تضامن الطائفة الشيعية. فهل ينتظر من جيش يتألف نصفه من جنود شيعة أن يطلق النار ويقصف منطقة شيعية؟ أليس ذلك أمر غبي؟ كذلك هل يطلب من هذا الجيش ومن جنوده الموارنة قصف منطقة الأشرفية؟ أما السنة فقد بقوا موالين للرئيس وللحكومة، طالما كان ذلك ممكنا. ولكن عندما اندلعت الحرب مجددا في بيروت، انسحبوا أو - طالما كانت هناك فئة منهم مسلحة، مثل المرابطون - وقفوا الى جانب الفريق المنتصر في غرب بيروت. كم كان كبيرا وقويا وفاعلا درو العوامل الخارجية المؤثرة في تلك المرحلة - و بنوع خاص الدور السوري. في السابع من شباط ١٩٨٤ وجد لبنان نفسه ليس فقط في حرب ضد الاتفاق الاسرائيلي اللبناني فحسب، بل أيضا في حرب أهلية بين الطوائف اللبنانية.

استغلت الدول المشاركة في القوات المتعددة الجنسيات هذه الفرصة، كي تنفذ ما أشارت اليه قبل بضعة أشهر. فأعلنت الحكومة الاميركية في السابع من شباط - في وقت لم تكن المعارك قد انتهت في غرب بيروت - بأن المشاة البحرية سيعاد تجميعها ونقلها الى البواخر المتواجدة بالقرب من الشواطئ اللبنانية^{١٨٦}، كما

١٨٦ - "هناك عدد قليل من الناس الذين توقعوا عدم قدرة واشنطن في التأثير على الوضع. فبعد تعبئة كل الجهاز الحكومي ورغم تعريض مصداقيتها للخطر، أعترفت اميركا في بداية عام ١٩٨٤ بفشلها، وقررت سحب جنود بحريتها من بيروت، بحجة أن لبنان كله لم يعد مهما بالنسبة للغرب مثل الخليج..." راجع Bassma KODMANI-DARWISH, Frankreich, ein zuverlässiger Verbundeter Libanons, in: Beiträge zur Konfliktforschung, 14(1984)3, p. 89.

انسحبت القوات البريطانية في الثامن من شباط، والإيطالية في العشرين منه. أما فرنسا، فقد ابدت اهتماماً بالكرامة حتى في الهزيمة، التي لم تكن مسؤولة عنها، ولكن جرّت إليها. فقد طالبت بضرورة احلال قوات تابعة للأمم المتحدة مكان القوات المتعددة الجنسيات. ولكن بعد فشل هذا الاقتراح في مجلس الأمن^{١٨٧}، وانسحاب آخر جندي اميركي من الأراضي اللبنانية، انسحبت القوات الفرنسية في ١٣ آذار، تاركة مكانها عدداً من الجنود كمراقبين لوقف إطلاق النار^{١٨٨}. أما القوات الاميركية فلم تنسحب دون ان تطلق البارجة المدرعة "ثيو جرسى" مدافعها بدون قذائف على مواقع سورية مختلفة. وقد أشار "وليم كواندت" الى أحد اللبنانيين الذي شبه هذا الانسحاب ببطل أفلام الواسترن الاميركية، والذي يركض الى الوراء تحت غطاء من إطلاق الرصاص. فيهرب عبر المخرج المخصص لحالات الخطر في النوادي الليلية، ثم يختفي. وقد علق على ذلك بقوله: "لم تتجح الضجة او السخط في إخفاء حقيقة سياسة "ريغن" في لبنان التي أحدثت حالة من الانهيار والدمار، ومعها انهيار قسم كبير من مدينة بيروت"^{١٨٩}.

وفي الخامس عشر من شباط، زال آخر أمل للجيش اللبناني لتحويل مجرى الأحداث. ففي المنطقة الساحلية من الشوف كانت هناك فصيلة من الجيش مكلفة بهجوم جنوب غربي بيروت، وعلى محيط الضواحي، كي تقطع الإتصال بين بيروت الغربية ومنطقة الشوف. فقبل المباشرة بتنفيذ هذه العملية، قامت ميليشيا الحزب التقدمي الإشتراكي بهجوم عليها، وأرغمتها على الإستسلام دون أية مقاومة. على أثر ذلك اتجه الجنود المسلمون نحو بيروت، ولجأ قسم من الجنود المسيحيين الى الجنوب كما نقل قسم آخر، بالبواخر الى بيروت الشرقية^{١٩٠}. وهكذا خسر أمين الجميل آخر خيار عسكري ضد انتفاضة الدروز والشيعية.

كشفت نهاية هذه الحرب الأهلية ضد الاتفاق بأنها لم تكن فقط حرباً أهلية. في التاسع والعشرين من شباط سافر أمين الجميل الى دمشق وأعلن للرئيس الأسد

- ١٨٧- بسبب فيتو الاتحاد السوفياتي في ١/٣/١٩٨٤.
- ١٨٨- "إذا كان الفرنسيون أول الواصلين الى لبنان، فقد كانوا آخر الراحلين عنه. ويعكس الاميركيين، حاولت باريس التحضير بعناية فائقة فنياً وسياسياً لانسحاب قواتها، وذلك كي لا تترك انطباعات عن عدم اهتمامها بلبنان". راجع: Bassma KODMANI-DARWISH المصدر المذكور
- ١٨٩- William B. QUANDT, Reagan's Lebanon Policy, op. cit., p. 250; Eric HAMMEL, The Root. The Marines in Beirut. August 1982 - February 1984. San Diego 1985. طرح سؤال على ٢٠٠ من جنود البحرية الاميركيين عن مهمتهم في لبنان. أجاب نصف المستجوبين تقريباً، بعنا الشعب اللبناني وقتاً أكثر". وكان معظم أجوبة النصف الآخر "لا شيء". عندئذ علق المؤلف وقال: "مع مرور الوقت، كلمة 'لا شيء' عبرت أكثر فأكثر عن التقويم الصحيح"، ص ٤٢٦.
- ١٩٠- انسحبت وحدات القوات اللبنانية التي كانت في الدامور نحو الجنوب بعد هجوم الدروز عليها. وكذلك هرب حوالي ١٥ ألف من المننيين المسيحيين من ساحل الشوف الى المنطقة التي تسيطر عليها إسرائيل.

استعداده لإلغاء الاتفاق. لم يذهب الجميل مدججا بالسلاح ومعه الحقائق الى دمشق، ولكنه استقبل حسب الاصول الرسمية محاطا بالحرس العسكري، وبالغناق الاخوي، وبمأدبة رسمية. فالحكومة السورية استطاعت ان تلعب لعبة "عودة الابن الضائع" بدلا من لعبة "النفى الى كانوسا". وفي الخامس من آذار أعلنت الحكومة اللبنانية الغاء الاتفاق الاسرائيلي - اللبناني. وهكذا نجحت سوريا في كسب معركتها ضد الاتفاق عبر حرب بين اللبنانيين وبعد طرد الاميركيين وحلفائهم من لبنان^{١٩١}.

بالنسبة للولايات المتحدة كانت هذه الهزيمة امرا مشينا. ولكن الانسحاب من لبنان كان نجاحا بالنسبة للسياسة الداخلية. فقد سحب ريغن "جنود البحرية" من حرب دامية يصعب فهمها من قبل الرأي العام الاميركي، وأعيد انتخابه ثانية. وهكذا جرى بصورة زاهية تثبيت أولوية السياسة الداخلية في النظام السياسي الاميركي، وبالتالي الكشف عن ضعف هذه الدولة العظمى في تحقيق أهدافها - أو ما كانت تستهدفه قيادتها - عبر استخدام قوتها العسكرية في إحدى دول الشرق الاوسط. فالولايات المتحدة كانت لها حكومة، شكلت سياستها، تراجعا عن كل الوعود العلنية، وبالتالي تحذيرا لكل الدول الأخرى في المنطقة لعدم اعتمادها اطلاقا على الوعود الاميركية^{١٩٢}.

واسرائيل كذلك لم تحقق هدفها باقامة حكومة صديقة لها في لبنان. لقد اتضح لها بأن أمين الجميل أراد بمساعدة الولايات المتحدة ان لا يكون صديقا لإسرائيل بل اتباع سياسة مستقلة عنها والحفاظ على علاقات طيبة مع العالم العربي. لذلك فقدت كل فائدة من الاتفاق واكتفت عبر مفاوضات طويلة ودقيقة بافشال خطة "ريغن" بشأن الفلسطينيين ومساعدة حلفائها المحليين لتأمين حدودها. نجحت فيما يتعلق بالأمر الأول، وجاء نجاحها محدودا بالنسبة للأمر الثاني، كما سيبين لاحقا. أما أمين الجميل فلم يحصل على أية مساعدة من إسرائيل. وهذا ما سهل مطالب أعدائه في الشوف. ولكن استسلام اسرائيل وانهزام الولايات المتحدة، اسهما في انجاح محاولة سوريا الجديدة لتأمين سيطرتها وتدعيم نفوذها في لبنان.

أما حلفاء سوريا في لبنان فقد تسنى لهم ابراز مكاسبهم. فالدروز تمكنوا من

١٩١ - في البداية عقد أمين الجميل آمالاً على أن سوريا ستقبل بخطة الوساطة السعودية الآيلة الى إرسال وحدات تابعة لقوات الأمم المتحدة مكان القوات اللبنانية. ولكن سوريا رفضت هذه الخطة، وكذلك حلفاؤها اللبنانيون.

١٩٢ - اتهم الشيخ زايد، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، الولايات المتحدة الاميركية، بتخليها عن حلفائها. وكذلك صرح الرئيس المصري، حسني مبارك، في واشنطن، بأن انسحاب الوحدات الاميركية من لبنان هو كارثة، وأن ذلك سيكلف واشنطن فقدان مصداقيتها لدى اصديقاتها في الشرق الأوسط.

راجع: Neue Zürcher Zeitung, 17.2.1984

وكذلك انتقد بشدة الملك حسين السياسة الاميركية في الشرق الاوسط.

توسيع منطقتهم، كما تمكن الشيعة من فرض سيطرتهم على بيروت الغربية. وقد دفع اعتراف سوريا المتواصل بأمين الجميل كرئيس للجمهورية، جنبلاط وبري الى التراجع عن مطلبهم بشأن استقالته. كذلك عقد بين الثاني عشر والعشرين من شهر آذار "مؤتمر المصالحة الوطنية" في لوزان. وكما حصل سابقا في جنيف، عارض سليمان فرنجية كل محاولة تهدف الى تعديل حاسم في نظام لبنان السياسي^{١٩٣}. على أثر ذلك، شكلت حكومة وفقا للنموذج التقليدي: عُين رشيد كرامي رئيسا للحكومة، وكميل شمعون، وبيار الجميل ووليد جنبلاط، ونبيه بري أعضاء فيها. وانتهت الحرب ضد الاتفاق كحرب أهلية، "دون غالب أو مغلوب"، وزادت في ربط كل المشاركين فيها بالجار السوري أكثر من أي وقت مضى.

٢٤ - حرب أهلية بين الفلسطينيين في لبنان

بينما كانت تدور في بيروت والمنطق المحيطة بها حرب ضد الاتفاق مع إسرائيل، اندلعت في شمال وشرق لبنان حرب أهلية أخرى، نتيجة نزاع بين مختلف فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. كان هذا النزاع أيضا لصالح سوريا، كما حصل أحد اطراف النزاع على دعم سوري قوي.

وكما أبعدت الحكومة السورية بعد الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢ عن هدفها، اي الزام الحكومة اللبنانية لاتباع النهج السوري في سياسة الشرق الاوسط وخاصة في سياستها تجاه إسرائيل، فقد تخلت عن هذا الهدف، وبالتالي عن السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت سوريا عام ١٩٨٢ البلد العربي الوحيد الذي قدم مساعدة للفلسطينيين في حربهم ضد إسرائيل، وبالتالي قدمت تضحيات كبيرة. لذلك لم يكن بإمكانها التسامح والتغاضي عن محاولة منظمة التحرير بعد تلك الحرب، مثلما حاولت الحكومة اللبنانية، لانتهاج طريق مستقل عنها. فبعد اجلائه عن بيروت، بدأ ياسر عرفات يبحث عن امكانية تسوية سلمية للمشكلة الفلسطينية. فانطلاقا من تونس، حيث المقر الرئيسي الجديد لمنظمة التحرير، تمكن من القيام بذلك وباستقلالية أكثر من السابق. فقام باتصالات مع مصر، الخصم الرئيسي لسوريا في نطاق سياسة الشرق الاوسط^{١٩٤}. وقد أعلن بأنه لن يرفض تماما خطة "ريغن"، التي

١٩٣- أعلن سليمان فرنجية: "إن أقبل اطلاقاً بأن يتحوّل دور رئيس الدولة الماروني الى دور أمين سر". راجع Neue Zürcher Zeitung 23.3.1984. لقد تقرر أخيراً وقف لاطلاق النار فقط وتشكيل لجنة دستورية. وقد طالب جنبلاط وبري بانشاء مجلس شيوخ للطوائف والغاء طائفية النواب، وتقصير ولاية رئيس الجمهورية من ست الى ثلاث سنوات. وكذلك طالب كل من بيار الجميل وكميل شمعون بإقامة دولة فدرالية في لبنان. راجع العرض المفصل لمؤتمر لوزان في مؤلف وديع حداد المذكور سابقاً، ص ١٢١ - ١٢٣.

١٩٤- طالب ياسر عرفات في تصريح الى جريدة الأهرام المصرية بعودة مصر الى الجامعة العربية. وفي

رفضتها سوريا تماما.

وفي مطلع عام ١٩٨٣ تفاقت حدة التوترات سواء داخل منظمة التحرير، كما بين سوريا وقيادة هذه المنظمة. ففي نيسان، اغتال افراد منشقون عن منظمة التحرير عصام السرطاوي، أحد أقرب مستشاري عرفات، وأكثر المؤيدين لمحاولة التسوية السلمية، وذلك اثناء مؤتمر المنظومة الاشتراكية الدولية في لشبونة. وفي الثالث من أيار التقى حافظ أسد وياسر عرفات في دمشق دون التوصل الى تفاهم حول سياسة مشتركة. وفي الثاني عشر من أيار حصل تمرد بين قوات حركة فتح المرابضة في البقاع ضد قيادة عرفات. تجدر الإشارة الى أن الخلافات بين هذه الحركة وباقي الفصائل في منظمة التحرير كانت دائما قائمة، بالإضافة الى خلافات سياسية حادة حول الرؤيا داخل حركة فتح بالذات. ولكن هذه المرة طالب عدد من الضباط المعروفين والمسؤولين عن وحدات رئيسية في منظمة التحرير بتغيير على مستوى القيادة. وكان على رأس هذا التجمع الرائد ابو موسى الذي قاد عام ١٩٧٦ مقاومة الفلسطينيين ضد الجيش السوري في صيدا، كما لعب دورا عسكريا هاما في الدفاع عن بيروت الغربية ضد الحصار الاسرائيلي عام ١٩٨٢. ولكنه هذه المرة، وقف بكل وضوح الى جانب سوريا، مطالبا بوقف كل المفاوضات مع الولايات المتحدة، ومصر والاردن، وبمشاركة الفلسطينيين في الكفاح من أجل تحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي. في البداية قام بهجوم على الوحدات الفلسطينية الموالية لعرفات في البقاع، بعد الحصول على دعم ومساعدة من سوريا. وهذا ما دفع بانصار عرفات والقوات المؤيدة له الى الانسحاب الى طرابلس في شمال لبنان. وفي السادس والعشرين من حزيران سافر عرفات الى دمشق في محاولة أخرى للمصالحة والاتفاق. ولكن لم يستقبله أحد من المسؤولين، بل طلب اليه مغادرة البلاد فوراً.

وهكذا لم يبق أمام أنصار عرفات الا المقاومة للاحتفاظ بآخر قواعدهم في منطقة طرابلس، والبحث هناك عن حلفاء جدد، حيث اتفقوا مع الأصوليين السنة بزعامة الشيخ سعيد شعبان، قائد حركة التوحيد^{١٩٥}. فبفضل أموال منظمة التحرير ومدربيها العسكريين، تمكنت حركة التوحيد من انشاء ميليشيا قوية لها. بالمقابل عبأ السوريون ايضا أنصارهم في طرابلس، المتمثلين بحزب البعث الموالي لهم، والحزب القومي السوري، و"الحزب العربي الديمقراطي" - وهو ميليشيا علوية - عرفت باسم

شباط ١٩٨٣ تفاوض عرفات مع الملك حسين حول تسويق السياسة بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية.

١٩٥- راجع في هذا المصدر: Michel SEURAT, Identité communautaire, violence urbaine, déréliction du politique: Un quartier de Tripoli au Liban, in: Salim NASR & Theodor HANF (Eds), Urban Crisis and Social Movements. Arab and European Perspectives, Beirut 1987, p. 193-198.

"الفرسان الحمر".

في السادس عشر من أيلول وصل ياسر عرفات الى طرابلس وتسلم قيادة القوى الفلسطينية الموالية له. وهذا ما اعتبره السوريون إثارة وتحديا لهم. وهناك تكررت الاحداث التي حصلت في بيروت عام ١٩٨٢، ولكن ليس ضد الاسرائيليين بل ضد السوريين الذين حاصروا الفلسطينيين في مدينة لبنانية كبيرة. قامت هذه المرة البحرية السورية بمحاصرة مرفأ طرابلس وشكا، منعا من وصول الامدادات والذخيرة. كما قامت المدفعية السورية، انطلاقا من التلال المحيطة بطرابلس، بقصف مخيمات اللاجئين في ضواحي تلك المدينة، كما قصفت وسطها. وفي طرابلس بالذات، هاجم الفلسطينيون وميليشيات التوحيد، مقاتلي الحزب العربي الديمقراطي، والحزب القومي السوري، ومجموعات أخرى يسارية. استغل الاصوليون تلك الفرصة للقضاء على مئات الاشخاص من "الشيوخ الملاحدين"، المقاتلين او غير المقاتلين. وفي مطلع تشرين الثاني، أخذت المعارك منعطفا جديدا وتحولت الى حرب أهلية بين الأكثرية السنية والأقلية العلوية. عندئذ تدخل الجيش السوري وجيش التحرير الفلسطيني بقيادته السورية. فاستسلمت المخيمات الفلسطينية، وجرى اجلاء عرفات وانصاره مرة ثانية من لبنان، على متن بواخر يونانية وبحماية بارج عسكرية فرنسية. وهكذا نجحت الحكومة السورية في احكام سيطرتها التامة على الفلسطينيين في مناطق نفوذها، تمهيدا لارغام الحكومة اللبنانية للانصياع لارادتها.

٢٥ - محاولات التقارب والحروب الصغيرة

أدى في البداية مؤتمر لوزان ونتائجه الى ارتياح في سوريا. ولكن بقيت كل المشاكل اللبنانية الداخلية التي برزت خلال الحرب وضد الاتفاق عالقة. فقد تمّ تشكيل حكومة جديدة برئاسة كرامي في نيسان، اشترك فيها امراء الحرب. ولكن تصوراتهم المختلفة حول مستقبل البلد لم تتبدل، كما ان الخلافات في الرأي داخل الحكومة ترافقت غالبا، باعطاء الوزراء الضوء الاخضر لميليشياتهم لاطلاق النار على بعضهم بعضا. فحتى مطلع تموز كانت تحصل دائما اشتباكات على خطوط التماس في بيروت وعلى جبهة سوق الغرب.

حاول رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة بدرجة اولى اعداد خطة أمنية لمدينة بيروت، تهدف الى سحب الميليشيات وانزال وحدات من الجيش النظامي مكانها. استقبل السكان هذا القرار بترحيب واسع، خاصة في بيروت الغربية، حيث كانت تتصارع الميليشيات المختلفة على النفوذ، واثارة الرعب والهلع بين صفوف المواطنين المدنيين. فقد حاولت المجموعات الاصولية فرض تصوراتها بالعنف،

فمنعت شرب الكحول والمتاجرة به وفرضت على النساء ارتداء الحجاب، الخ... ولكن هذه الممارسات لم يتحملها سكان بيروت المسلمون إطلاقاً. أما الأقلية المسيحية التي كانت تعيش في بيروت الغربية، فاضطهدت بعنف، إذ أحرقت متاجرها ومؤسساتها، كما أحرقت كنيسة في منطقة الحمراء، وخطف مواطنون مسيحيون لا علاقة لهم إطلاقاً بالسياسة وقتلوا. وكذلك ازداد قلق واضطراب السكان السنة، بسبب تدفق مجموعات كبيرة من الشيعة الآتين من الارياف، على أحيائها السكنية، حيث صادرت الميليشيات الشقق والبيوت. وفي آذار قامت ميليشيا الدروز بهجوم على ميليشيا المرابطون، المنظمة السنية الوحيدة المسلحة. وهذا ما برر رغبة السكان السنة في ان تفرض الدولة سلطتها، كما كان يخطط رئيس الوزراء رشيد كرامي. هذا الامر لم يكن ممكناً الا بمساعدة الجيش النظامي، الذي اندثر خلال المعارك في شهر شباط. وبمعكس الانقسام الذي حصل في مطلع عام ١٩٧٦، فان الوحدات المختلفة نجحت عام ١٩٨٤ في تجنب اطلاق النار على بعضها. وهناك واقع آخر لم يكن قائماً عام ١٩٧٦، أي وجود ألوية تضم تقريباً نصف عدد جنود الجيش في المناطق التي تسيطر عليها الحكومة^{١٩٦}، وتمتلك القسم الأكبر من الاسلحة الثقيلة، كالمدفعية، والمصفحات، والطوافات. وتتألف بمعظمها من المسيحيين، وتضم عدداً لا بأس به من الجنود السنة. وفي بيروت الغربية كان يرابط اللواء السادس بقيادة شيعية ويضم جنوداً من الشيعة فقط^{١٩٧}. فقد لحظت الخطة الأمنية ان تشرف وحدات مسيحية على بيروت الشرقية ووحدات اللواء السادس على بيروت الغربية. كما قبل بهذا الاجراء بعد تشكيل مجلس قيادة جديد للجيش يضم ستة ضباط ينتمي كل واحد منهم الى إحدى الطوائف الدينية. الرئيسية: اي الموارنة، والروم الكاثوليك، والروم الارثوذكس، والسنة، والشيعة، والدروز. كذلك اتفق على تعيين قائد اعلى الجيش، العماد ميشال عون، الذي كان قائداً للواء المرابط في جبهة سوق الغرب. كان ميشال عون ضابطاً محبوباً جداً من قبل الجنود المسيحيين والمسلمين، كما كان سياسياً رجل دولة من النهج الشهابي. كذلك كان يرفض كل تعاطف مع الميليشيات.

وفي الثالث من تموز دخلت الخطة الامنية حيز التنفيذ. انسحبت الميليشيات، وحل الجيش مكانها في قطاعي العاصمة، وأعيد فتح المرفأ والمطار المقفلين منذ عدة أشهر. وفي نهاية تموز جرى تنظيف خطوط التماس من الدشم والمتاريس. وبدأ مجلس الوزراء، سلسلة من "الخلوات" لمناقشة مسألة الاصلاحات السياسية. وفي

١٩٦- تتألف فصائل الجيش المتواجدة في المنطقة الشرقية من ١١ ألف جندي، من بينهم ٣٥٠٠ جندي من السنة ومعظمهم من منطقة عكار.

١٩٧- كانت الفصائل الأخرى موجودة خارج بيروت، في البقاع وطرابلس وصيدا. في حماتا كانت توجد فصيلة صغيرة تضم جنوداً دروزاً فقط.

منتصف تشرين الأول، جرى انتخاب حسين الحسيني، الرئيس السابق لحركة أمل، رئيساً لمجلس النواب، وقد صوت له نواب الكتائب، كخطوة أخرى للتقارب بين اطراف النزاع. شكلت سياسة الجميل وكرامي محاولة تهدف عبر "الخيار السوري" الذي فرض على الحكومة في مطلع السنة بشأن السياسة الخارجية، الى تحقيق المصالحة في السياسة الداخلية. فالمطالب السورية تم الحصول عليها، كما اوضحت الحكومة السورية بأنها، بعد تصحيح مجرى ونهج السياسة الخارجية، لم تعد تتعلق أهمية على انتصار طرف معين من اطراف الحرب الأهلية. ولكن المأزق العسكري بقي قائماً على الأرض. فلا التحالف الدرزي - الشيعي، ولا القوات اللبنانية المسيحية، ولا مختلف اقسام الجيش، استطاعت ان تأمل بنصر ما. عندها برزت فرصة جديدة أمام زعماء الطوائف اللبنانية المعتدلين، فبذل كل من أمين الجميل ورشيد كرامي الجهود لاستغلالها والافادة منها.

ولكن كانت هناك قوى متضررة تستطيع دق الأسافين في عملية المصالحة. فالجيش النظامي اعاد الى بيروت ظاهرة الحياة الطبيعية. أما الميليشيات لدى مختلف الاطراف بقيت قائمة وفاعلة، دون القبول بقرارات مؤتمر لوزان. كما لم يرق لاحداها الاكتفاء بنوع من التسويات المحدودة التي تم الاتفاق حولها في الخلوات الوزارية. ولم تقطع اي منها الأمل بإمكانية احراز نصر في سبيل القضايا التي تدافع عنها او تعمل لفرضها. فلم يشأ أحد التسليم والقاء السلاح. فمن خلال مواصلتها لتصعيد حدة التوترات، تستطيع ان تكسب قوة ومعنويات ومالا أكثر. وكما كان الحال في المراحل الأولى من الحرب، أدى كذلك المأزق في النزاع الرئيسي في النصف الثاني من العام ١٩٨٤ الى سلسلة من الحروب الصغيرة، أفرزت نزاعات أخرى مختلفة ومتوازية.

ففي حزيران وتموز ١٩٨٤ حصلت أولى الاشتباكات بين أمل والفلسطينيين في مخيمات بيروت، كانت نتيجتها "حرب المخيمات" التي دامت طويلاً فيما بعد، وفي الوقت نفسه اشتعلت من جديد في طرابلس حرب أهلية بين المسلمين، بلغت ذروتها عام ١٩٨٥. وكذلك في صيف ١٩٨٤ اشتبكت ميليشيا المردة التابعة لفرنجة مع ميليشيات الحزب القومي السوري بهدف السيطرة على منطقة الكورة. وقد تدخلت سوريا لفض الخلاف بين حليقيها. وفي تموز وآب هاجمت ميليشيات الدروز المرابطون. كما تمكنت، بعد تحالفها العسكري في كانون الثاني من العام ١٩٨٥ مع ميليشيات حركة أمل، من القضاء على المرابطون^{١٩٨} في نيسان ١٩٨٥. على أثر ذلك، اضطر ابراهيم قليلات، زعيم حركة المرابطون الى الهرب خارج البلاد. وفي شباط ١٩٨٥، حصلت لأول مرة اشتباكات بين الشيعة. تقاومت على أثرها المناقصة

١٩٨ - بعض احياء بيروت السنّة جرى سلبها ونهبها من قبل الميليشيات الشيعية.

بين حركة أمل وحزب الله، وتحولت عام ١٩٨٨ الى حرب مفتوحة. وفي المنطقة التي كانت تسيطر عليها الجبهة اللبنانية حصلت ايضا توترات داخلية، اذ رفض فريق من القوات اللبنانية بشدة الغاء الاتفاق اللبناني - الاسرائيلي. كما طالب قسم من رهبان الكسليك النافذين بالعودة الى "الخيار الاسرائيلي". فضلا عن ذلك، كانت القوات اللبنانية تدين للجيش الاسرائيلي الذي سهل في كانون الأول عام ١٩٨٣ انسحاب عناصرها المهزومين في معركة الشوف والتي كانت محاصرة في دير القمر. وفي أيار ١٩٨٤ فتحت مكتب اتصال لها في مدينة القدس، كما وصفت في حزيران سياسة أمين الجميل المؤيدة لسوريا والهادفة الى التقارب الوطني، "بالهرطقة".

ولكن أمين الجميل لم ينجح في البداية في استيعاب المعارضة المسيحية او استخدامها لصالحه، ولكنه أمن لسياسته تأييد أكثرية ساحقة داخل حزب الكتائب الذي كان يقوى فيه دور القوات اللبنانية سياسيا - وليس فقط عسكريا. كما أن مواقفها المتصلبة لم تكن مقبولة داخل الحزب. فقد حمل عدد من السياسيين في هذا الحزب القوات اللبنانية نتائج الكوارث في حرب الشوف. وفي الاشرافية بدأ الحديث يطغى حول جدية الحرب التي لا يجوز ترك القرار فيها الى العسكريين الذين عينهم الحزب. وقد دعم كثيرا سياسة الرئيس موقف الفاتيكان وتحذيره لرئيس عام الرهبانية المارونية الأبائي بولس نعمان، ودعوته لالتزام مواقف سياسية أكثر تحفظا. وفي التاسع والعشرين من آب توفي بيار الجميل رئيس حزب الكتائب اللبنانية، بعد نهاية إحدى جلسات مجلس الوزراء. فرغم كل الظروف الصعبة، التي كان يدافع فيها دائما عن مصالح المسيحيين، كان بيار الجميل يتمسك بمبدأ التعايش اللبناني، وبالتالي بتأييد سياسة ابنه بعد مؤتمر لوزان. فكان لوفاته في ذلك الوقت وقع أليم على محاولة إعادة التقارب بين مختلف الأطراف. على الأثر انتخب خلفا له في رئاسة الحزب ايلي كرامة، الذي كان طبيبا من طائفة الروم الكاثوليك، ومن سكان بيروت، ومن المتقنين، والمؤيدين المقتنعين بمبدأ الديمقراطية الليبرالية. فدعم أيضا السياسة التي انتهجها رئيس الدولة. كما كان قد انتخب في تشرين الأول عام ١٩٨٤، فؤاد ابو ناضر، وهو ابن شقيقة أمين الجميل، قائدا للقوات اللبنانية. وهكذا بدا وكأن الرئيس نجح في كسب لبنان المسيحي لصالح سياسة التوافق التي يعتمد عليها. ففي مطلع تشرين الثاني سلمت القوات اللبنانية الحوض الخامس في مرفأ بيروت الى الجيش النظامي، واستردت الدولة بذلك احد اهم مصادر دخلها.

ثم قرر أمين الجميل ورشيد كرامي توسيع دائرة الخطة الامنية الى مناطق أخرى من البلاد بغية حمل الجيش الاسرائيلي على الانسحاب من بعضها.

٢٦ - انتفاضة داخل القوات اللبنانية وحرب أهلية في شرق صيدا

في حكومة الائتلاف الاسرائيلية التي تشكلت في أيلول ١٩٨٤ برزت خلافات في الرأي بين حزب الليكود وحزب العمال حول السياسة التي ينبغي اعتمادها في لبنان. فقد كان "شمعون بيريز" رئيس الوزراء يميل الى انسحاب سريع جداً، بينما كان وزير الدفاع، "موشي أرئيل" يبحث عن حلفاء لاسرائيل وان دون نجاح كبير، بشأن مسائل الأمن. وكانت سوريا قد رفضت في تموز ١٩٨٤ أية مباحثات غير مباشرة مع اسرائيل. وحركة أمل من جهتها أعلنت بأنها لن تسمح فيما بعد بحصول عمليات كومندوس انطلاقاً من الاراضي اللبنانية، لأن جنوب لبنان قد تحمل بما فيه الكفاية انعكاسات القضية الفلسطينية، ولكنها ليست على استعداد لاقامة اية علاقة اتصال او اتفاق مع اسرائيل. أما المحاولات الاسرائيلية الهادفة الى تجنيد حراس او ميليشيات من القرى الجنوبية، فلم تؤد الى نتيجة تذكر، لأن نتيجة التعامل معها كانت أليمة للغاية. هكذا لم يبق امام اسرائيل مجال للتعاون الا مع قوات سعد حداد الذي ادرك كيف تستغل الروح الوطنية المحلية لدى السكان المسيحيين في القرى الحدودية وايضا لدى قسم من سكان القرى الشيعية. ولكن المنية داهمته في كانون الثاني ١٩٨٤. وخلفه اللواء انطوان لحد، وهو ضابط ماروني من منطقة الشوف^{١٩٩}. وخلال عام ١٩٨٤ تفاقمت بسرعة دورة العنف والاغتيالات في معظم المناطق التي تحتلها اسرائيل. فالهجمات على الجنود الاسرائيليين كانت تقابل بانتقامات قاسية للغاية. وهكذا دواليك، تكبد الجنود الاسرائيليون خسائر فادحة رغم كل اجراءات الأمن المتخذة لحمايتهم. أخيراً قررت الحكومة الاسرائيلية سحب جيشها من لبنان على عدة مراحل، ودعم قوات اللواء لحد في منطقة "الحزام الأمني" في أقصى الجنوب. وقد عُرفت هذه القوات "بجيش لبنان الجنوبي". بعد ذلك تحولت منطقة الحزام الأمني الى مسرح لحرب صغيرة دائمة، كما كانت الحال سابقاً بين عام ١٩٧٧ وعام ١٩٨٢. ولكن انسحاب الجيش الاسرائيلي من منطقة نهر الأولي ومنطقة صيدا وغرب البقاع سبب هناك ايضاً حرباً أهلية دامية.

هل يتعلم البشر من التاريخ؟ يبقى هذا السؤال دائماً مطروحاً للجدل. لقد دلت الحرب في منطقة صيدا، بأنه من الواضح تماماً، عندما يرفض احد أطراف النزاع تعلم ما يمكن تجنبه، يُعرض كل شيء للمأساة.

١٩٩ - راجع سيرة موجزة عن حياة انطوان لحد، نشرها "هارالد ليست" (Harald LIST) في مجلة Orient, 2, p. 179-187 (1988). كان انطوان لحد عام ١٩٧٥/٧٦ قائداً في الجيش اللبناني في البقاع. يعتبر من أنصار الرئيس كميل شمعون ومن معارضي التدخل السوري في لبنان. كان عام ١٩٨٣ أحد العماديين المرشحين لمنصب القائد الأعلى للجيش. فبعد تعيين ميشال عون في هذا المنصب، قُدم انطوان لحد استقالته حسب الاصول المتبعة في الجيش اللبناني.

فالذي حصل في اقليم الخروب، المنطقة الساحلية الجنوبية من صيدا والمرتبطة بمنطقة الشوف في شرق مدينة صيدا، كان تكراراً لحرب الشوف مع نتائج مأساوية مماثلة. في اقليم الخروب كان عدد من القرى المسيحية، كما كانت مدينة صيدا السنّة محاطة بشريط من الضواحي المسيحية حتى منطقة جزين الواقعة في جنوب الشوف.

فبعد حرب الشوف وهرب القوات اللبنانية من الدامور تمركزت وحدات من الميليشيات المسيحية في تلك المناطق. وقبل انسحاب الجيش الاسرائيلي من منطقة الأولى، حصلت اشتباكات بين القوات اللبنانية والدروز. ولكن نظراً لقربهم من الاسرائيليين، تحفظ الدروز كثيراً، كما حاولت الحكومة تجنب وقوع أحداث شبيهة بأحداث الشوف. فبعد مفاوضات طويلة مع مختلف الفرقاء - جنبلاط، الميليشيات الناصرية في صيدا، النواب المسيحيين في المنطقة - تقرر ارسال لواء من الجيش، تتألف معظم عناصره من المسلمين، الى تلك المنطقة. بدأ الانسحاب الاسرائيلي في التاسع من كانون الثاني ١٩٨٥، وتقدم هذا اللواء كما كان متوقعا، دون حصول أي حادث يذكر.

في السابع عشر من شباط زار الرئيس الجميل ورئيس الوزراء رشيد كرامي مدينة صيدا المحررة حيث رحب بهما من قبل مجموعة حاشدة من السكان. فالمدينة التي بدأت فيها عام ١٩٧٥ أولى معارك الحرب، ارادت أخيراً الاحتفال بنهايتها. ولكن في اليوم التالي، انسحب آلاف الاصوليين من بيروت الى صيدا، وتظاهروا مطالبين "بجمهورية اسلامية في لبنان" دون ان يعترضهم الجيش. ثم عمدوا الى خطف بعض المسيحيين، مما دفع بالمقابل الى خطف بعض المسلمين، كما حصلت اشتباكات في ضواحي مدينة صيدا.

أما القوات اللبنانية فقد اتهمت الحكومة والجيش بالتقاعس وعدم اتخاذ أي إجراء لحماية المسيحيين في صيدا. وهددت في حال استمرار هذا الوضع، بأنها ستضطر الى الدفاع عنهم.

في بداية شهر اذار حصل توتر شديد بين القوات اللبنانية من جهة، والحكومة وحزب الكتائب من جهة أخرى، دون أن يكون لذلك في البداية أية علاقة بما حدث في اقليم الخروب وشرق صيدا. كانت الحكومة قد طالبت القوات اللبنانية برفع الحاجز المقام في محلة البربارة في شمال المنطقة المسيحية، حيث كانت تفرض على كل المسافرين رسم مرور جمركي، بهدف تمويل ميليشياتها بعدما تخلت عن الرسوم التي كانت تستوفي من الحوض الخامس في مرفأ بيروت الذي سلم للحكومة. أما المسؤولون عن ذلك الحاجز فكانوا مقاتلين من شمال لبنان بزعامة سمير جعجع، الرجل الذي قاد عام ١٩٧٨ العملية المشؤومة ضد أنصار فرنجية في

اهدن، كما كان قائدا لوحادات القوات اللبنانية في حرب الشوف عام ١٩٨٣. فقد رفض جعجع رفع ذلك الحاجز في محلة البربارة، الأمر الذي أدى الى طرده من حزب الكتائب في الحادي عشر من اذار.

وفي اليوم التالي قاد جعجع حركة انتفاضة داخل القوات اللبنانية، فاستولى انصاره على أهم ثكنات القوات اللبنانية الواقعة شمال بيروت، وعلى المقر الرئيسي في الأشرفية. فحصلت بين المنتفضين والمقاتلين الموالين لقيادة حزب الكتائب، اشتباكات طاحنة، لم تتوقف حتى نجح الجيش النظامي في الفصل بينهم. ولكن جعجع، ورئيس "جهاز الأمن" في القوات نجحا، في ضم القسم الأكبر من المقاتلين الى جانبهم. ولكن في المدينة القديمة وفي أقليم المتن، مسقط رأس آل الجميل، واصلت فصائل الميليشيات المحلية دعمها لحزب الكتائب ولرئيس الجمهورية.

أما زعماء "الانتفاضة" فقد أعلنوا بأن حركتهم استهدفت الحؤول دون بيع لبنان الى سوريا، اذ لم يكن ممكنا السكوت والتساهل بأن يقدم الرئيس والحزب باستمرار تنازلات على حساب المسيحيين. فالرئيس يستطيع ان يكون رئيسا وان يفاوض كحكم حول التسويات، ولكنه لا يستطيع في الوقت نفسه التحدث "باسم الشعب المسيحي" ٢٠٠. وكذلك رفضوا في نفس الوقت اعطاء الحق المطلق لحزب الكتائب كممثل لأكثرية المسيحيين، وطالبوا بانشاء "مجلس مسيحي"، اي نوع من مجلس نيابي للبنان المسيحي. فلا بد من اتخاذ "قرار مسيحي مستقل". ولكن لم يتركوا اي مجال للشك حول اعتقادهم بأنهم هم بالذات يمثلون هذا القرار.

فلا جعجع ولا أحد من معاونيه استطاع ان يحدد القرارات الواقعية او التنازلات التي اتخذها او وافق عليها أمين الجميل، ولم يوافقوا عليها. ولكن نغمة تصريحاتهم كانت تعبر دون شك عن القلق الذي كان يطغى على المسيحيين منذ مقتل بشير الجميل وخلال تطور الاحداث اللاحقة. فالذين كانوا يحلمون باقامة سلطة مسيحية مجددا او بمساعدة الاسرائيليين، والذين اعتبروا انفسهم خطأ منتصرين، والذين ما زالوا دائما يعتمدون على "الخيار الإسرائيلي"، لم يبرزوا اي ارتياح لسياسة أمين الجميل الواقعية والهادفة الى الحد من الخراب والدمار. وقد جرى الابقاء على هذا الحلم بفعل تحويل بشير الميت الى معبود للجماهير، عبر تعليق صورته في كل الشوارع والساحات الرئيسية وعلى السطوح والجدران في المناطق الخاضعة لسيطرة القوات اللبنانية. فقد نظر عدد كبير من المسيحيين الى أمين الجميل بكثير من الامتعاض. وكذلك لم يدرك عدد كبير من قياديي القوات اللبنانية من ذوي النظرة القصيرة المدى، بان التطورات الداخلية في اسرائيل بعد مجزرة صبرا

وشاتيل، وبعد أضعاف "شارون" لم تعد مؤاتية للاعتماد على "الخيار الاسرائيلي"، وان "الخيار الاميريكي" تحول الى اللأخيار. وفي قيادة حزب الكتائب برز ادراك فعلي لمنحى هذه التطورات^{٢٠١}، ولكن حصل باستمرار تردد لمواجهة الشعب المسيحي بالوقائع غير المفرحة. وقد كان ذلك دون شك امرا صعبا بسبب الخطر الداهم الذي قد يحول الامر الواقع الى نوع من الاستسلام.

اعتبر سمير ججع نفسه الخلف الشرعي لبشير الجميل. لقد أبرز أكثر من أي زعيم ميليشوي، نمطا جديدا في مفهوم القائد السياسي في لبنان. فنظرا لتحدره من محيط ريفي متواضع كان اعداؤه يطلقون عليه باحتقار لقب "راعي الماعز". في بداية الحرب، اضطر سمير ججع الى التوقف عن دراسة الطب في الجامعة الاميريكية في بيروت. وقدم امتحانه في جامعة القديس يوسف، ولكنه لم يمارس الطب اطلاقا. اشترك في كل المعارك - والهزائم - التي قامت بها الميليشيات المسيحية، من الحرب الداخلية المارونية في شمال لبنان الى معارك زحلة والشوف. ويعود رصيد نفوذه في القوات اللبنانية الى وجود حوالي ألف وخمس مائة مقاتل من الشمال في صفوف القوات، وهم - مثله - لا يستطيعون العودة الى قراهم التي كان يسيطر عليها سليمان فرنجية. كان ججع الزعيم السياسي الوحيد الذي لم يعرف عمليا أي اختبار في الخارج. فاطر تفكيره واختباره يقتصر فقط على الحرب، وخاصة على الحرب الأهلية. "أمن المجتمع المسيحي" كان أهم شعار له. فلو كان بالإمكان نقل شعبه الى بلد آخر، لفعل ذلك. ولكن نظرا لصعوبة هذا الامر، فقد أراد ان يخلق هذا الأمن في لبنان. حتى التهجير الأليم الهادف الى اقامة مناطق متجانسة، كان يعتبر افضل بكثير "من حياة مرتبطة بالآخرين، ومن وضع رهائن يعيشون في قمع مستمر"^{٢٠٢}. فلبنان القادم بصيغة التعايش السابقة كان يعتبره كذبا ونفاقا، اذ لم يستطع مقاومة وقائع الحرب. فكل تعايش جديد لن يكون الا على اساس توازن في القوى. لقد كان مثل بشير الجميل ينظر الى تجار السياسة نظرة احتقار، تفاقمت وقويت عبر تجرده وتعاليه عن كل مصلحة مادية. فلو ارتدى ججع بدلا من لباسه العسكري لباس راهب، لظهر مثل "سافونارولا" (Savonarola).

لذلك لم يكن مستغربا بروز ردات فعل حول شخصه لدى المسيحيين اللبنانيين. فتوزعت وتأرجحت بين الاعجاب بحزمه الثابت وغير المساوم، والخوف من انسان يتزى بلباس نبي ولكنه مدجج بالسلاح، وبين رغبته بدعم وحماية المجموعة البشرية التي يمثلها، وادراك الحاجة لضرورة التوصل الى تسويات والاستناد لها.

استهدفت انتفاضة ججع في البداية "التنازلات" تجاه سوريا. ولكن كانت

٢٠١ - مقابلة مع الدكتور إليي كرامي، كانون الأول عام ١٩٨٤.

٢٠٢ - مقابلة المؤلف مع سمير ججع، عام ١٩٨٣.

نتيجتها الاولى مغامرة عسكرية عبثية في منطقة صيدا. فقد انضم القادة المحليون للقوات اللبنانية في الجنوب الى الانتفاضة. وجاءهم الدعم عبر وصول بضع مئات من المقاتلين من الشمال، مدججين بالسلاح الثقيل. فقصفوا ضواحي صيدا الاسلامية واساؤوا معاملة السكان السنة هناك. فاضطر اكثر من عشرين الفا من السنة الى الهرب. وقصفوا ايضا وحدات من الجيش النظامي كانت مرابضة بين القرية المسيحية "مئة ومئة" ومخيم اللاجئين الفلسطينيين الذي يعرف ايضا بهذا الاسم. وعندما هرب الجنود الى هذا المخيم، لم تتردد وحدات القوات اللبنانية عن قصفه ايضا.

اما الميليشيات السنية الناصرية في صيدا، وجنود الجيش ذي الاكثريّة السنيّة، والقلسطينيون الذين تسلحوا بسرعة بعد الانسحاب الاسرائيلي، فوحدوا انفسهم كلهم في صيدا ضمن تحالف جديد ضد القوات اللبنانية، وباشروا بالهجوم على وحداتها. اما خطط الحكومة وقيادة الجيش الهادفة الى فصل المتقاتلين بواسطة وحدات شيعية من الجيش، فلم يتم تنفيذها سريعا وبالوقت المناسب.

وهكذا تكرر ما كان قد حصل سابقا في الشوف. فقد قصفت القوات اللبنانية المنطقة وانسحبت منها. وبدأت القرى المسيحية المحيطة بصيدا تسقط الواحدة تلو الاخرى. فهرب سكانها في حالة الهلع والرعب الى منطقة جزين والى المنطقة التي تحتلها اسرائيل. والذين قرروا البقاء في منازلهم، جرى تهجيرهم بالقوة. وجرى كذلك اقتحام اقليم الخروب من قبل الميليشيات الدرزية انطلاقا من الشوف بعد تهجير كل المسيحيين منه. اما تقدم الفلسطينيين والسنة فقد جرى ايقافه على منتصف الطريق بين صيدا وجزين في محلة كفرالوس من قبل جيش لبنان الجنوبي بقيادة اللواء انطوان لحد. بالنسبة للمسيحيين كانت هذه ايضا كارثة يماثل حجمها الكارثة التي حلت بهم في الشوف. ففقدوا حوالي خمسين قرية، وهرب او سُرد حوالي ٥٨ الف نسمة. كما دمرت الميليشيات الدرزية كل قرى اقليم الخروب ٢٠٣. لربما فعلوا ذلك خوفا من مجيء الشيعة والاستيلاء على المنازل المهجورة. فالطائفة الدرزية تعتبر نفسها قليلة العدد، ولا تستطيع تحمل سكان جدد في مناطقها. اما الاسباب التي دعت القوات اللبنانية الى إثارة المعارك ثم الانسحاب، فقد بقيت حتى الان غامضة. اثناء تلك الاحداث ألقي الجيش الاسرائيلي من طوافاته العسكرية مناشير تدعو السكان للانتقال الى المنطقة الامنية في الجنوب والتي تسيطر عليها "قوات محلية بمساعدة جيشنا" ٢٠٤. فاذا كان الهدف من ذلك زيادة عدد السكان المسيحيين في منطقة الحزام الامني، فانه لم يتحقق، لان القسم الاكبر من المهجرين

٢٠٣ - مع آيات من وزارة الاشغال العامة التي كان جنبلات وزيرها لها .

٢٠٤ - Neue Zürcher Zeitung, 19.4.1985

المسيحيين لجأوا الى المنطقة المسيحية. وقد اعلن جعجع ومعاونوه في بيروت عدم مسؤوليتهم عن تصرف القوات اللبنانية في الجنوب. قد يكون ذلك ممكنا، ولكنهم لم يفعلوا ذلك اطلاقا مثلما فعل بكل وضوح حزب الكتائب قبل الهزيمة. فقد اعلن احد القادة السياسيين في هذا الحزب بعد الانتفاضة: "اتخوف من ان نضطر الى دفع الثمن غاليا بسبب احلام بشير واتباعه" ٢٠٥. وقد صدق كلامه مرة اخرى ، بفعل قيام القوات اللبنانية مرة ثانية - وقيادتها هي المسؤولة - وبدون اي تعقل، بإشعال الحرب الاهلية في احدى مناطق البلاد. وكانت نتيجتها، مرة ثانية ايضا، تهجير شامل للمسيحيين منها.

وكننتيجة اخرى للانتفاضة والحرب في الجنوب، فشلت ايضا جهود المصالحة التي بذلها امين الجميل ورشيد كرامي. ففي ايار عاد من جديد اطلاق النار والاشتباكات على خطوط التماس في بيروت، وتفاقت معها حدة نزاعات متوازية في مناطق مختلفة من البلاد.

٢٧ - "حرب المخيمات"، أمل ضد الفلسطينيين

في عام ١٩٨٤ بدأ المقاتلون الفلسطينيون يعودون الى بيروت والى جنوب لبنان، كما شارك عام ١٩٨٣ مقاتلون من الجبهة الشعبية ووحدات تابعة لأبوموسى المنشق عن حركة فتح، في الحرب مع الدروز ضد القوات اللبنانية في الشوف. وبعدها سقط في السادس من شباط حاجز الجيش النظامي الذي كان يقطع الطريق بين الشوف وبيروت، أصبح العبور سهلا الى مخيمات بيروت للمقاتلين الفلسطينيين المؤيدين لسوريا. وكذلك وجد ايضا المقاتلون المواليون لعرفات طريق مفتوحا للعودة. فبعد الانسحابات الاسرائيلية، تمكنوا من العودة عبر مرفأ خلدو الواقع تحت سيطرة الدروز، وبعد ذلك عبر مرفأ صيدا. وفي مطلع عام ١٩٨٥، شاع الحديث عن وصول مبالغ مالية ضخمة الى المصارف اللبنانية، أدت مؤقتا الى ارتفاع سعر صرف الليرة اللبنانية، باعتبار أن منظمة التحرير اخذت تجند من جديد مقاتلين لها في المخيمات، وتدفع لهم مرتبات عالية.

نظرت قيادة حركة أمل الى هذا التطور بامتعاض وقلق بارزين. فأعلن نبيه بري بأنه لن يسمح اطلاقا بعودة الأوضاع الى ما كانت عليه قبل عام ١٩٨٢، كما لن يسمح بأن تكون منظمة التحرير دولة داخل الدولة من جديد. فخوف الشيعة كان أحد العناصر التي أدت الى حرب "المخيمات". كما كانت مصلحة الحكومة السورية تفرض منع عرفات الذي طردته من لبنان من العودة اليه ثانية. ففي العشرين من

أيار ١٩٨٥ قام مقاتلوا حركة أمل، بدعم من اللواء السادس في الجيش النظامي اللبناني، بمحاصرة منطقة صبرا، ومخيمي شاتيلا وبرج البراجنة. وحتى مطلع حزيران، كان مخيم صبرا قد دُمر تماما، وقد تمكنت منظمة التحرير في مخيم شاتيلا من الحفاظ على منطقة صغيرة حول احد المساجد. اما مخيم برج البراجنة فقد قاوم بضراوة شديدة. وفي مخيمي صبرا وشاتيلا حصلت للمرة الثانية مجازر مرعبة، لم تتفدّها هذه المرة الميلشيات المسيحية، بل الميلشيات الشيعية، ولكن دون ان تشكل هذه المرة لجنة شبيهة "بلجنة - كاهان" للتحقيق في المجازر. ادت تلك المعارك الى قيام تحالفات جديدة غير منتظرة. في تلك الحرب، حارب أنصار عرفات وابو موسى، ألد الاخصام في الحرب الأهلية بين الفلسطينيين، ضد المعتدين الشيعة. فمواقع المدفعية التابعة لأبو موسى ولجبهة التحرير، والمرابطة على تلال الشوف، والتي قصفت، خلال الحرب ضد الاتفاق اللبناني - الاسرائيلي، المناطق السكنية المسيحية، قصفت هذه المرة الضواحي السكنية الشيعية للتخفيف من الضغط على المخيمات. اما اللواء السادس الشيعي المشارك في الحرب، فقد تلقى حماية ودعمًا من فوج المصفحات والدبابات - المسيحي - المرابض على الجبهة الشرقية من خطوط التماس. فالفلسطينيون حاربوا مع الفلسطينيين، واللبنانيون مع اللبنانيين، بقطع النظر عن خلافاتهم العقائدية والطائفية.

تميزت حرب المخيمات بحرارة شديدة. فالمخيمات والضواحي الشيعية المجاورة عاشت ويلات الحرب من عام ١٩٧٩ الى عام ١٩٨٢. وفي الحصار الاسرائيلي الذي أقيم عام ١٩٨٢ عانت أعنف المآسي. وفي عام ١٩٨٤، تعرضت لقصف رهيب من الجيش اللبناني في محاولته اليائسة، لإعادة سيطرته على المنطقة. فبين الشيعة والفلسطينيين زاد كثيرا الحقد والضغينة. تفوق مقاتلو حركة أمل على الفلسطينيين عددا، ولكن مستوى تدريبهم كان اضعف بكثير من مستوى المقاتلين الفلسطينيين المحترفين. دافع هؤلاء عن المخيمات مع ادراكهم العميق، منذ المجزرة الأولى، للنتائج المنتظرة، اذا ما استسلموا. فمخيم برج البراجنة لم يسقط ولم يستسلم. الا أن حركة أمل خففت من حدة الحصار، مكتفية باطلاق النار على من يحاول الدخول اليه او الخروج منه.

ولكن مع طول الانتظار النصر النهائي كان الوضع السياسي يتعثر أكثر فأكثر بالنسبة لحركة أمل. كانت تحظى حتى بتأييد سوريا، ولكن العالم العربي كان قلقا على مصير الفلسطينيين. في منتصف حزيران عقد اجتماع في الجامعة العربية وطلب رفع الحصار عن المخيمات. حتى ايران لم تؤيد تصرف حركة أمل وحاولت التوسط لانهاء المشكلة. وحزب الله كذلك لم يؤيد أمل، بل واصل حربه بكل الوسائل ضد اسرائيل وضد كل وجود غربي في لبنان. ففي حزيران ١٩٨٥ خطفت طائرة

تابعة لشركة (TWA) الى مطار بيروت. فزادت هذه الحادثة بالاضافة الى حوادث خطف الرهائن الغربيين في حدة التوترات القائمة بين حزب الله وحركة أمل التي كانت تعلق أهمية كبيرة على موقعها "المؤيد للدولة"، كما كانت ترفض ما يقال ويشاع عن تماثل كلمة "شيعي" مع كلمة "ارهابي".

لم تتوقف حرب المخيمات حتى نهاية عام ١٩٨٨، رغم الاتفاقات المؤقتة لوقف اطلاق النار. الا أن منظمة التحرير كانت تستغل كل مناسبة لإعادة تعزيز قواتها، وادخال المال والعتاد الى المخيمات - ومقاتلين اضافيين. لم تتمكن، عام ١٩٨٥ ولا عام ١٩٦٨، حركة أمل ومعها اللواء السادس من خرق المقاومة الفلسطينية. فقد نشأ بين مخيم برج البراجنة وضواحيه خط جبهة عسكرية، شبيها بالجبهات الكلاسيكية وخطوط التماس والجبهة القائمة بين الجيش والدروز في سوق الغرب.

٢٨ - حرب بين حركة أمل وميليشيا الدروز

لقد سهل الدروز عودة الفلسطينيين الى بيروت. وتأكد ذلك بفعل بقاء ميليشيات الدروز على الحياد، عندما اقتحمت حركة أمل مخيمات الفلسطينيين. وهذا ما أدى في حزيران ١٩٨٥ الى حصول اولى الاشتباكات بين حليفي الحرب ضد الاتفاق. فقد اشتركا معا في نيسان في الحرب ضد المرابطون. ولكن بدأ الآن بينهما صراع عنيف للسيطرة على بيروت الغربية. فأمل كانت تتحذر وتتخوف من الحزب التقدمي الاشتراكي الدرزي بسبب ارتباطه بخطة ياسر عرفات. كما وجد هذا الحزب من جهة تأييدا من قبل كل القوى في بيروت الغربية، التي كانت بدورها تتخوف من السيطرة الشيعية، خاصة مجموعات الاكراد الشيوعيين والسنة. فقد انضم المقاتلون الاكراد والسنة اللبنانيون الى ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي، كما انشأ آخرون ميليشيات جديدة مثل "حركة السادس من شباط". فالمساعدات المالية الفلسطينية وكذلك ايضا الليبية وجدت طريقها الى معظم المنظمات التي وقفت ضد الشيعية. تواصلت الاشتباكات والمعارك طيلة شهر حزيران بين حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي، كما حصلت اشتباكات في نهاية الشهر بين اللواء السادس في الجيش والحزب التقدمي الاشتراكي. ولم يبق للسكان السنة في بيروت الغربية إلا اعلان اضراب لاستنكار هذه المعارك. على أثر ذلك طالب الوزير السني سليم الحص سحب كل الميليشيات من بيروت الغربية. وفي شهر آب قامت الحكومة السورية بالتوسط بين فرقاء النزاع. وفي سبيل ارضائها، استدعي لأول مرة منذ الحصار الاسرائيلي عام ١٩٨٢ ضباط سوريون الى بيروت لمراقبة وقف اطلاق النار، ولكن لصالح من كان يميل التعاطف السوري؟ هذا ما برز بوضوح في نهاية شهر تموز ١٩٨٥. فقد تلقت حركة أمل خمسين دبابة من الجيش السوري، واللواء

السادس ثلاثين، ولم يتلق الحزب التقدمي الاشتراكي شيئاً على الإطلاق.

في النصف الثاني من العام ١٩٨٥ كانت حركة أمل تجابه من حين الى آخر في ذات الوقت الفلسطينيين في المخيمات والدروز في غرب بيروت. وفي أيلول من تلك السنة، طلب، ولأول مرة، رئيس الحكومة رشيد كرامي والوزير سليم الحص من الحكومة السورية إرسال قوات الى بيروت الغربية. وكان هذا مؤشر واضح للتشاور القائم لدى السنة. فوجود الجيش السوري كان افضل بكثير من فوضى الميليشيات الدرزية والشيعية. وفي الوقت ذاته، اضرب سكان بيروت مجدداً ضد هذه الفوضى التي تفاقمت أكثر فأكثر وبلغت حداً لا يطاق.

في تلك الأثناء قامت مجموعات شيعية مجهولة بالقاء متفجرات على مكاتب الحزب القومي السوري والحزب الشيوعي، لاعتبارهما "احزاباً ملحدة". كما خطف أربعة دبلوماسيين سوفييات، فقتل احدهم، وأفرج عن الآخرين بعد توسط سوري.

وقد بلغت الاشتباكات الدرزية - الشيعية ذروتها في تشرين الثاني ١٩٨٥ بما سمي "بحرب الاعلام". بمناسبة العيد الوطني اللبناني رفع جنود اللواء السادس في الجيش اعلام الأرزة اللبنانية على كل المباني الرسمية. ولكن عناصر ميليشيات الدروز نزعوها واستبدلوها بشارات حزبهم. وفي الحادي والعشرين من تشرين الثاني حصلت اشتباكات عنيفة في وسط بيروت الغربية بين الجنود والميليشيات الشيعية من جهة، وبين الميليشيات الدرزية وحلفائها من جهة ثانية، واستخدم الفريقان خلالها المصفحات والدبابات والمدفعية. وجاءت نتيجة قتال يوم واحد، ٦٥ قتيلاً وأكثر من ٤٠٠ جريح. بعد هذه الصدمة الرهيبة توقفت الحرب الشيعية - الدرزية، ولكن لبضعة أشهر فقط.

٢٩ - حرب أهلية حول زحلة وطرابلس

بينما كانت الاشتباكات تتواصل من حين الى آخر في بيروت بين الشيعية من جهة، والدروز والفلسطينيين من جهة أخرى، دارت في مدينتين لبنانيتين أخريين معارك أخذت طابع حرب أهلية، دارت كلاهما وفق نموذج واحد: كانت المعارك تبدأ بين طوائف لبنانية مختلفة، ثم يتبعها طلب المساعدة من سوريا، وتنتهي بدخول القوات السورية.

نشبت المعارك في زحلة هذه المرة - بعكس السنوات الماضية - بطريقة هادئة نسبياً. بدأت الميليشيات الشيعية في الحادي عشر من آب عام ١٩٨٥ باطلاق النار على المدينة. فردت القوات اللبنانية المرابطة هناك بقصف القرى الشيعية المجاورة. على أثرها قام الزعماء المسيحيون بالمفاوضات. ثم دخلت اليها القوات السورية في

السابع من أيلول. ومنذ ذلك الحين يسيطر في زحله "السلام السوري".

اما في طرابلس فاندلعت معارك أكثر شراسة من المعارك الماضية. فبعد ابعاد عرفات وانصاره عن المدينة في أواخر عام ١٩٨٣ بضغط سوري، تمكن الاصوليون السنة - حركة التوحيد - الذين دعمهم عرفات، من تثبيت وجودهم في معظم احياء المدينة، بفضل ترسانة الاسلحة التي تركتها هناك منظمة التحرير. ولم يبق الا حيّ بعل محسن العلوي تحت سيطرة "الفرسان الحمر" التابعين للحزب العربي الديمقراطي. اما حركة التوحيد فقد جندت معظم قادتها ومقاتليها، ليس فقط من السنة اللبنانيين فحسب، بل ايضا من الاصوليين السنة السوريين الذين هربوا الى طرابلس بعد المجازر الطاحنة التي تعرضوا لها اثناء انتفاضتهم في حماه عام ١٩٨١ و ١٩٨٢. فتمكنوا هناك من اقامة نوع من الجمهورية الاسلامية المحلية. فحظر شرب الكحول والمتاجرة بها، وجرى فصل الذكور عن الاناث في المدارس، وطرد بنوع خاص كل من "لا اله الا الله". في تلك الاثناء قتل عشرات الاشخاص من الشيوعيين والحركات اليسارية الأخرى بطرق شرسة. وفي أيلول ١٩٨٥ قام تحالف من العلويين، والشيوعيين، والبعثيين، وانصار الحزب القومي السوري بهجوم على الاصوليين، مما دفع الى هرب حوالي أكثر من ربع مليون نسمة من السكان المدنيين من طرابلس. ولم تستسلم حركة التوحيد الا بعد قصف عنيف جدا لمواقعها. وفي السابع من تشرين الأول عام ١٩٨٥، دخل حوالي عشرون الفا من الجنود السوريين الى طرابلس. وهكذا ساد ايضا في عاصمة لبنان الشمالي السلام السوري.

لقد كان واضحا سواء في زحله او في طرابلس بأن حلفاء سوريا كانوا وراء اثارة الاشتباكات والمعارك، وان الحكومة السورية كانت وراء دفعهم الى طلب نجدها. لكن رغم ذلك كان ايضا من الواضح ان قسما كبيرا من السكان كان يفضل النظام السوري على حرب الميليشيات المحلية.

اما بالنسبة للحكومة السورية فقد تبين لها ان الوقت قد حان لتسوية النزاع في لبنان في اطار مصالحها.

٣٠ - حرب حول إتفاق دمشق بين الميليشيات

اصبح هذا الظرف ناضجا وملائما نظرا لضعف معظم اطراف النزاع اللبنانيين. فزحلة وطرابلس اخضعتا لارادة الحكم السوري. الفلسطينيون، والدروز، والشيعة اضعفوا أنفسهم دون ان يتغلب أحدهم على الآخر. وكذلك أضعفت السلطة اللبنانية المركزية. فرئيس الجمهورية، والحكومة والجيش النظامي لم يتمكنوا من منع اندلاع

معارك جديدة في كل مناطق البلاد. وقد وجد رئيس الوزراء نفسه مضطرا الى طلب التدخل السوري. واخيرا اضعفت ايضا الميليشيات المسيحية. هل سبب سمير جعجع كارثة للمسيحيين في الجنوب، وهل أسهم او لم يسهم في ذلك؟ ففي مطلق الاحوال، لقد حمل مسؤولية هذه الكارثة من قبل السكان، والاحزاب، ومن داخل القوات اللبنانية بالذات.

وقبل اجلاء آخر المقاتلين من الجنوب، حصلت انتفاضة ثانية داخل القوات اللبنانية. كان على راسها، ايلي حبيقة، رئيس جهاز الاستخبارات. وكانت وراءها اتصالات بين القصر الجمهوري والمقر الرئيسي للقوات. فقد طلب الرئيس الجميل من سمير جعجع تصريحا خطيا يتعهد فيه بالاعتراف بمؤسسات الدولة الشرعية، وتسليم المرافق وحواجز المراقبة التي تسيطر عليها القوات الى الجيش، وتأييد سياسة الحكومة الخارجية. قام بالوساطة بين أمين الجميل وسمير جعجع، كريم بقرادوني، الذي كان عام ١٩٧٥/١٩٧٦ وسيطا بين الكتائب وسوريا، ثم مستشارا شخصيا للرئيس سركيس، وأخيرا مستشارا للقوات اللبنانية، واحد أهم أدمغتها السياسية مع بعض التحفظ. فقد وقع جعجع على التصريح. وفي الثالث عشر من أيار ١٩٨٥ انعقد مجلس قيادة القوات اللبنانية، فانقد خلاله ايلي حبيقة ما فعل سمير جعجع. كما اتخذ مجلس القيادة قرارا دعا فيه سمير جعجع للاهتمام فقط بالشؤون العسكرية، والتوقف عن التعاطي نهائيا بالشؤون السياسية. ثم انتخب مكانه ايلي حبيقة رئيسا جديدا للقوات اللبنانية.

ايلي حبيقة هو مثل سمير جعجع، رجل اكتسب نفوذا كبيرا في الحرب وبواسطة الحرب. ولكنه يختلف عنه كثيرا من حيث المزاج والأخلاق، فرغم تحدره من محيط بسيط، فهو ليس مثل جعجع من محيط ريفي، بل من محيط مديني. فأنصاره في الميليشيات هم من الطبقة الدنيا القاطنة في بيروت. تدرب في اسرائيل، وكان يعتبر رجل اسرائيل في القوات اللبنانية. ولكنه برز كرجل لامع تعلم على ذاته في شؤون الاستخبارات، كما برز ايضا كرجل أعمال. وبعكس جعجع، كان يعتبر رجلا فرحا يحب النكتة ولكن لا يحترم أي مبدأ. اعتبره الاسرائيليون "رجل المعارك" الصعبة، نظرا لبراعته ودهائه في التصرف والتعامل مع الأعداء. وقد اتهم مرارا، بأنه المسؤول الرئيسي عن مجازر صيدا وشاتيلا، ولكن نفت ذلك مؤشرات قليلة الأهمية^{٢٠٦}. ومهما يكن من أمره، فليس من شك على الاطلاق بتمتع هذا الرجل بمرونة غير عادية. فهو الذي اعتبر عميلا اسرائيليا، عارض مع جعجع سياسة أمين

٢٠٦- تقول هذه الرواية أن حبيقة كان مسؤولاً عن الحراسة الشخصية لبشير الجميل وكان مأخوذاً جداً بعد مقتل، ومهتماً بالتحري - حتى في سبيل مصلحته - لمعرفة من كان مسؤولاً عن الاغتيال. وبنتيجة ذلك لم يكن لديه اي وقت لتنظيم منبحة.

الجميل "المؤيدة لسوريا"، ثم أسقط جعجع، لأنه وافق على سياسة أمين الجميل، وقد كانت له أيضا اتصالات وعلاقات طيبة مع سوريا. لذلك دعي في ايلول ١٩٨٥ الى دمشق لاجراء محادثات مع المسؤولين السوريين ٢٠٧.

وفي أواخر أيلول من تلك السنة، بدأت في دمشق مفاوضات بين قادة اهم الميليشيات - جنبلاط، بري، وحبيقة، أو عبر ممثلين عنهم - حول تسوية سلمية شاملة في لبنان ٢٠٨. في تلك الأثناء أعلن نبيه بري عن خيارين، على المسيحيين القبول بأحدهما: اما الغاء نظام النسبة، او اجراء تعداد سكاني لوضع نظام نسبة جديد. فبعد مفاوضات طويلة ومعقدة، توصلت الميليشيات الى اتفاق حول الأسس الرئيسية لدستور جديد تقضي بالوصول بعد مرحلة انتقالية طويلة الى الغاء نظام النسبة. رفضت في هذا الاتفاق كل أشكال التقسيم، والفدرالية، والكونفدرالية، والكانتونيات، واللامركزية في مجال الأمن. وقد لحظ الى جانب المجلس النيابي انشاء مجلس للشيوخ، مهمته اتخاذ القرار النهائي في مجال تعديل الدستور والمسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية. ولم تتطرق الوثيقة اطلاقا الى علمنة قانون الأحوال الشخصية. ولكن جرى الحد من صلاحيات رئيس الجمهورية لصالح رئيس الوزراء والحكومة، فعلى الرئيس ان يرأس فقط في الحالات الاستثنائية جلسات مجلس الوزراء. كما يرأسها عادة رئيس الحكومة. فالسلطة التنفيذية تعود الى الحكومة. وبالنسبة للقوانين لا يعطى رئيس الجمهورية الا حق الفيتو لإجراء إصدارها.

وفي مرحلة مؤقتة، يتمثل المسيحيون والمسلمون في مجلس النواب مناصفة، يكون فيها لنواب الطوائف الثلاث ذات العدد من المقاعد. أما المقاعد الشاغرة فلا تملأ بالانتخاب بل بالتعيين. ويحافظ على نظام الحصص الحالي في الوظائف العامة فقط بالنسبة لوظائف الدرجة الأولى، وذلك على قاعدة التساوي بين المسيحيين والمسلمين، وليس بالنسبة لكل الطوائف بمفردها ٢٠٩. ويمكن وضع حد للمرحلة الانتقالية بعد أربع سنوات بأكثرية ثلثي الأصوات، أو بعد ثماني سنوات بأكثرية ٥٥ بالمائة من الأصوات، وبعد ١٢ سنة بأكثرية ٥١ بالمائة. وبالاختصار، برز تناقض بين المبادئ الدستورية الواردة في اتفاق الميليشيات، والمبادئ التي وردت في المشاريع الإصلاحية السابقة في مجالين أساسيين، وهما: انشاء مجلس للشيوخ، والهدف منه اعطاء "رئاسته" للدروز، وقرار نظام المساواة بين المسيحيين

٢٠٧ - ولید جنبلاط الذي صدمه التغيير المفاجيء من الجانب السوري، سأل خدام، لماذا تتفاوضون مع هذا المجرم"، اجابه خدام حالا: "ومن هو اذا غير مجرم في لبنان؟ أقله هو أين الشعب". ولم يكن هذا الجواب ودياً اطلاقاً بالنسبة للأرستقراطي جنبلاط.

٢٠٨ - راجع: The Middle East Paper, 48(1985)438, p.2-3; 49(1985)439, P.2; 50(1985)440, p. 2-3.

٢٠٩ - يعني ذلك إلغاء نظام الحصص لكل الفئات الأخرى: تطبيقاً لهذا المبدأ (أي الإلغاء)، ينبغي تسوية حقوق الطوائف المحرومة خلال ستة أشهر". ويكلام آخر: اعتماد نظام الحصص لانغاء الحصص.

والمسلمين، بدلا من نظام الحصص، المتبع بالنسبة لوظائف الدرجة الأولى. أما المرحلة الانتقالية المحددة للوصول الى الغاء نظام الحصص، فقد مددت بهدف اعطاء الفرصة لاحقا لاعادة النظر بالموضوع ضمن الحدود والظروف الممكنة.

أما الأمر الأكثر تعقيدا فهو القسم الثاني من اتفاق الميليشيات، الذي يعالج العلاقات بين سوريا ولبنان. فقد كتب عنه "ارنولد هوتنغر"، بأنه، بعكس المبادئ الدستورية المعبر عنها "باسلوب قانوني واضح"، "أشير اليه في لغة مبهمة ومستوحاة من المفاهيم العقائدية الواردة في - وثائق - حزب البعث النظرية، ومنمقة بكلمات كبيرة وبعبارات ذات مدلول واسع جدا... ويبدو هذا الأسلوب وكأنه يشير الى أن كل قسم من الوثيقة كان يمليه السوريون على المتفاوضين اللبنانيين قبل التفاوض والاتفاق عليه ٢١٠.

كان الهدف من العلاقات بين البلدين الوصول الى "التكامل الاستراتيجي" (وفي وثيقة سابقة جرى الحديث عن "دمج استراتيجي"). فعروبة لبنان يعبر عنها بكل أصالة في علاقات مميزة مع سوريا. فالتاريخ الجغرافيا يشكلان أسبابا موجبة لمثل هذه العلاقات المميزة، ينبغي ادخالها في قوانين البلدين، وان لا ترتبط لا بحزب، ولا "بنزوات او مصالح"، ولا بتأثيرات "أقليمية". في مجال السياسة الخارجية، يفرض وجود "تعاون تام وثابت في كل القضايا العربية والاقليمية والدولية". أما في شأن العلاقات العسكرية، فقد جاء في الوثيقة: "الصراع الحاسم الذي تقوده سوريا ضد اسرائيل، والذي تحاول فيه سوريا البلوغ الى توازن استراتيجي تجاه اسرائيل، بسبب الأوضاع العربية المعروفة، والمتمثلة اخيرا بخروج مصر من هذا الصراع، وانشاء محور عربي - فلسطيني، هدفه تضليل سوريا سياسيا وعسكريا، يفرض على لبنان ان لا يكون بابا تستطيع اسرائيل من خلاله توجيه ضربة الى سوريا او تهديدها". اضافة الى ذلك، ينبغي الاتفاق على مرابضة قوات سورية في لبنان، والتوصل الى "تحديد مشترك لأهم التهديدات لأمن واستقلال نظام البلدين". هذا وتشرف لجنة وزارية مشتركة على تنفيذ هذا الاتفاق.

وبالنسبة للجيش اللبناني، "قواعد تأهيله بمساعدة سورية" على أساس "روح الكفاح الأصل الذي يعرف التمييز بين العدو والصديق الحقيقي". وعلى الجيش ان ينسحب من كل المناطق "باستثناء مناطق المواجهة العسكرية مع الاحتلال الاسرائيلي".

ما أن كشف النقاب عن مضمون مشروع الاتفاق، حتى برز احتجاج كبير، خاصة حول القسم الثاني منه المتعلق بالعلاقات مع سوريا. فقد حاول ايلي حبيقة

٢١٠ - Arnold HOTTINGER, Syrische Wünsche nach Gleichschaltung im Libanon, in: NZZ, 8.1.1986;
Daniel PIPES, Damascus and the Claim to Lebanon, in: Orbis 30(1987)4, p. 663-681.

قمع الانتقادات، محاولاً منع صدور صحف حزب الكتائب، ومطالباً الحزب بتسليمه مراكز هذه الصحف، ومعلنًا في مجلس قيادة القوات اللبنانية، بأن المنطقة المسيحية ستقصف مجدداً، وستدمر في حال الامتناع عن توقيع الاتفاق. عندئذ شكلت معارضة واسعة. فأعلن حزب الكتائب بأن الحرية في المنطقة المسيحية مهددة من قبل إيلي حبيقة، والحرية في كل البلاد مهددة بالاتفاق المزمع التوقيع عليه في دمشق. وأعلن الجميل وشمعون معارضتهما لهذا الاتفاق، كما طالب الاسافقة الموارد باتخاذ "كل الاجراءات التي تضمن استقلال لبنان". أما السياسيون السنة فقد طلبوا من زملائهم المسيحيين معارضة الاتفاق، لأنه يستحيل عليهم استنكاره لأسباب تتعلق بأمنهم. وكذلك قيادة الجيش لم تكن مرتاحة كثيراً، لأن يشرف العسكريون السوريون على "اعادة تأهيل الجيش اللبناني". فتركت المجال للألوية المسيحية للتحرك واطهار معارضتها لهذا الاتفاق. عندئذ بدأت موجة الاعتداءات وزادت في تقاوم المجابهة. فقد جرح كميل شمعون، وإيلي كرامة وعدد من زعماء الجبهة اللبنانية في عملية تفجير، كما نجا إيلي حبيقة وأمين الجميل من اعتداء على سيارتهما، إذ لم يكن أحد منهما داخل سيارته. ورغم تزايد حدة المعارضة، وقع إيلي حبيقة على ذلك الاتفاق في الثامن والعشرين من شباط ١٩٨٥.

بعد ذلك ابلغ الرئيس الجميل رسمياً في دمشق بمضمون الاتفاق. فلم يوافق عليه باعتبار ان اتفاقاً بين الميليشيات لا يمكن ان يفرض على قرار الاجهزة الدستورية، المخولة وحدها ابرام التعديلات الدستورية والاتفاقات الدولية.

عندئذ حاول إيلي حبيقة ممارسة ضغط على الرئيس. فأمر وحدات من القوات اللبنانية بالهجوم على الوحدات الموالية لحزب الكتائب وللرئيس. وفي مجلس قيادة القوات اللبنانية عارضت أكثرية الاعضاء هذا الاتفاق. وكان المعارض الرئيسي سمير جعجع الذي هاجمت قواته قوات إيلي حبيقة. فبعد معارك ضارية جرى عزل حبيقة في مقره الرئيسي في الكرنتينا. فقامت قيادة الجيش، بطلب من البطريرك الماروني، بالعمل على تجنب نهاية دموية للمحاصرين. فاستقال إيلي حبيقة من رئاسة القوات اللبنانية، وقام الجيش بانقاذه بواسطة طوافة عسكرية، وجرى تعيين سمير جعجع مكانه، وكريم بقرادوني نائباً له. ومع تبدل السلطة في القوات اللبنانية سقط اتفاق الميليشيات.

ولكن امتعاض الموقعين الآخرين على الاتفاق، وكذلك الحكومة السورية، كان عنيفاً جداً. فقد أعلن حالاً عن اتخاذ عقوبات سياسية وعسكرية. فالخطوة السياسية الأهم كانت مقاطعة رئيس الجمهورية، وعدم التفاوض معه فيما بعد. فلم تعد تجتمع الحكومة، كما كان الحال في السنة السابقة. لم يقاطع الاجتماعات جنبلات وبري فقط بل أيضاً السياسيون المعتدلون السنة مثل كرامي والحص أيضاً، وذلك لعدم اغضاب

القيادة السورية ظاهرياً. ولكن عملياً واصلت الحكومة عملها. فجرت العادة بأعداد القرارات والإجراءات من قبل الموظفين، والتوقيع عليها من قبل الوزراء المختصين. على المستوى الرمزي، شكلت هذه المقاطعة سقوطاً ظاهرياً لنظام التوافق. فبعد مرور سنة على مشاركة رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة في احتفال في صيدا، لم يلتقيا مرة واحدة. والتوافق الذي استمر، كان نوعاً من التوافق السري. كما بقيت العقوبات العسكرية ضد معارضي الاتفاق محدودة. ولكن في مطلع شباط ١٩٨٦ عادت الاشتباكات إلى خطوط التماس وإلى جبهة سوق الغرب. وكانت المدفعية السورية تقوم بقصف بيروت الشرقية من حين إلى آخر. وفي النصف الثاني من شباط قامت ميليشيات الحزب القومي السوري بدعم سوري بهجوم في المتن الأعلى باتجاه بكفيا، مسقط رأس رئيس الجمهورية. ولكنه أوقف دون صعوبات كبيرة من قبل الجيش اللبناني النظامي. وكذلك على الحدود الشمالية للمنطقة المسيحية، حاولت القوات السورية أن تتقدم، ولكن دون نجاح^{٢١١}. وفي آذار ونيسان وأيار، بقيت الأوضاع سيئة في بيروت، عبر إطلاق النار باستمرار على خطوط التماس^{٢١٢}.

وفي بداية الصيف حصلت من جديد اتصالات حذرة بين لبنان المسيحي والمسلم. ففي شهر نيسان من تلك السنة انتخب المطران نصرالله صفيير، بطريركاً جديداً للموارنة، نظراً لمواقفه السياسية المعتدلة^{٢١٣}. وفي حزيران قام بزيارة إلى بيروت الغربية واجتمع بالمفتي السني هناك. وعلى أثر ذلك حصلت اجتماعات استشارية مشتركة بين الوزراء المسيحيين والمسلمين، خارج إطار جلسات مجلس الوزراء التي يترأسها رئيس الجمهورية، وذلك تحت شعار "الحوار السياسي". كانت تعقد الاجتماعات في مكان يرمز إلى حالة تقسيم البلاد، وذلك في ميدان سباق الخيل في قلب بيروت، وعلى خطوط التماس.

وقد حصلت في أواخر أيلول، معركة أخيرة بسبب اتفاق الميليشيات. فايلي حبيقة، بعد هزيمته ونفيه لوقت قصير إلى فرنسا، عاد إلى لبنان عبر سوريا. جمع حوله، وبدعم سوري، أنصاره من القوات اللبنانية، الذين فروا بعد معارك كانون الثاني إلى

٢١١- أعقب ذلك هجومان في المتن، أحدهما في الدوار، والآخر على طريق بسكنتا- بكفيا. في الشمال حصل اشتباك خلال يوم واحد فقط. فميليشيا المردة التابعة لفرنجة لم تكن مرتاحة إطلاقاً لإرغامها على إطلاق النار على مسيحيين آخرين. الجيش اللبناني سحب وحداته عن خطوط التماس إلى محيط قصر الرئاسة في بعداً وإلى المتن الأعلى. على خطوط التماس كانت الميليشيات تطلق النار.

٢١٢- في نيسان انسحب المراقبون الفرنسيون لوقف إطلاق النار من بيروت، بعد أن تكبدوا خسائر عديدة. ففي غياب كل نية جدية للحفاظ على وقف لإطلاق النار، لم يعد هناك أي مبرر لوجودها.

٢١٣- قامت القوات اللبنانية بنوع من الحملة الانتخابية لصالح أحد الأساقفة الذي اعتبر مناضلاً، ولكن أكثرية أعضاء مجلس الأساقفة لم تنتظر بلعين الرضى إلى مثل هذا التدخل بشؤونهم.

بيروت الغربية وإلى البقاع. وقد كانت أيضا في بيروت الشرقية أعداد من المقاتلين في القوات اللبنانية ما زالت تؤيده، خاصة بين عناصر جهاز المخابرات، الذي انشأه وأشرف على إدارته. ففي التاسع والعشرين من أيلول حاول حبيقة مع أنصاره احتلال بيروت الشرقية. فقام بهجوم عبر خطوط التماس انطلاقا من بيروت الغربية، أي برضى الميليشيات المتواجدة هناك، ولربما بدعمها أيضا. كان هذا الهجوم عملا جديدا. فمنذ معارك منطقة الفنادق عام ١٩٧٦ التي أسفرت عن قيام خطوط التماس، وقد كان طبيعيا إطلاق النار عليها، لم تراود أحدا جديدا فكرة القيام بحركة عسكرية تستهدف "عبور هذه الخطوط". أما هذا الهجوم فكان ممكنا، لأن حبيقة اعتمد على مقاتليه الذين يعرفون جيدا الجهة الأخرى من المدينة - والتي كانت منطقتهم سابقا - كما كان له فيها شركاء عرف كيف يستغلهم للتواطؤ معه. لقد فوجئ جعجع وأنصاره كثيرا بذلك الهجوم الذي أسفر عن تقدم قوات حبيقة إلى وسط الأشرفية. ولكن لم توقفهم الميليشيات المعارضة لهم، بل جنود الجيش الذي لم تسمح قيادته بعودته بيروت الشرقية إلى سيطرة فئة عسكرية متحالفة مع سوريا. فعندما بدأت المواجهة مع الجيش، أمر إيلي حبيقة أنصاره بالانسحاب. وهكذا فشلت المحاولة الأخيرة لفرض اتفاق الميليشيات بالعنف. أما ضحايا هذه المحاولة فكانوا من أنصار حبيقة الذين لم يتمكنوا من الهرب أو الانسحاب. فقتل حوالي مائة عنصر منهم على يد رفاق السلاح السابقين، كما حصلت بعد مرور بضعة أيام على تلك المعركة، عمليات تصفية. على أثر ذلك، طغت لمدة طويلة موجة من الحذر الشديد داخل الجناح المنتصر في القوات اللبنانية، تخوفا من وجود سري لأنصار حبيقة بين صفوفهم. ولكن سرعان ما زال هذا التخوف، كما عادت في تشرين الأول، عمليات الاشتباكات والقصف على خطوط التماس إلى "حالتها العادية".

جاء اتفاق الميليشيات، بعد اتفاق دمشق عام ١٩٧٦، محاولة ثانية قامت بها سوريا لتسوية النزاعات في لبنان عبر امتياز قائم على اتفاق. فشل الاتفاق الأول بسبب معارضة اليسار اللبناني ومنظمة التحرير، وفشل الاتفاق الثاني بسبب معارضة المسيحيين. أدى الفشل الأول إلى حرب أهلية، والثاني إلى نزاع عنيف حول السلطة بين القوى السياسية والعسكرية في لبنان المسيحي.

لم يُرفض في الواقع القسم المتعلق بالشؤون الداخلية من الاتفاق كما أن الخطوط العريضة لم تكن أيضا غير مقبولة في نظر معظم اللبنانيين من مختلف الاتجاهات السياسية، كإقامة نظام متساو بين المسيحيين والمسلمين، والوصول عبر مرحلة انتقالية مع بعض الخطوات "الهادئة" إلى نظام الأكثرية. ولكن ما لم تقبله أكثرية المسيحيين، وأيضا عدد كبير من المسلمين، هو ذلك الجزء من الاتفاق الذي يلحظ العلاقات المستقبلية مع سوريا. هنا برز لأول مرة وبكل وضوح ما تريد الوصول

اليه الحكومة السورية - او على الأقل الفئة الأكثر نفوذا فيها: لا "انشلوس"، (أي لا عملية ضم لبنان اليها)، بل "تنسيق موحد" شامل في السياستين الخارجية والأمنية، وبالتالي اضعاف طابع شرعي عليها. فالقبول بوضع شبيه "بوضع فنلنده"، وتنسيق سياسة لبنان الخارجية مع سوريا، هما أمران كان معظم اللبنانيين - بما فيهم المسيحيون - على استعداد لايجاد اطار مقبول لهما، كما دلت على ذلك السياسة الخارجية الشهابية تجاه عبد الناصر في الستينات. و لكن اتفاق الميليشيات ذهب الى أبعد من ذلك. فصياغة العبارات حول "اعادة تأهيل" الجيش اللبناني" بمساعدة سورية، تهدف الى ربط لبنان بصورة تامة بسوريا. وكذلك دل هذا الاتفاق بوضوح أكثر على كيفية ابعاد المؤسسات الشرعية القائمة عن المفاوضات ووضعها امام الأمر الواقع والزامها به. فلا رئيس الجمهورية، ولا رئيس الحكومة، ولا مجلس النواب شاركوا في المفاوضات، ولكنهم أعلموا بها لاحقا. أعلن عدد كبير من السياسيين المسلمين عدم موافقتهم على الاتفاق، وأملوا في افشاله على يد المسيحيين. وكذلك المجموعات والأحزاب المتحالفة مع سوريا أظهرت القليل من الرغبة في الكفاح من أجل فرض هذا الاتفاق. فالحرب الأهلية في سبيل الاتفاق بقيت بمعظمها حربا كلامية. فالمحاولة الوحيدة الجدية في سبيل اغلاق هذا الملف، تمثلت بالهجوم الذي قام به حبيقة على بيروت الشرقية. أما أساس المقاومة ضد فرض الإرادة السورية فتجسد عبر الوية الجيش اللبناني المتواجدة في المنطقة المسيحية، التي أوقفت محاولات التقدم في الجبل وفي الشمال، وأفشلت الهجوم الذي شنه حبيقة على بيروت الشرقية. ولكن الحركة السياسية والميليشيوية الوحيدة التي تمسكت بالاتفاق وأعتبرت سوريا كقوة حامية لها، كانت حركة أمل. ولكن كان لهذه الحركة - وللطائفة الشيعية اجمالا - اسباب هامة تبرر موقفها. فلم تكن هناك اية حركة أخرى تحتاج بشدة الى المساعدة السورية مثلها، وذلك لعدم وجود أية حركة أخرى في مأزق مشابه للمأزق التي كانت تعيش فيه في اطار نزاعات مسلحة جرت اليها. فحروب لبنان بين ١٩٨٦ و ١٩٨٨ كانت بمعظمها حروب حركة أمل. وكلما تعاظمت واشتدت تلك الحروب، كانت ايضا تتعاظم وتكبر وتشتد حاجة هذه الحركة الى المساعدة السورية.

٣١ - "حرب المخيمات" في بيروت والجنوب

في شهري آذار ونيسان ١٩٨٦ اندلعت من جديد معارك حول مخيمات الفلسطينيين. في الواقع، كان عرفات يمتلك امكانات مالية وافرة وولاء ثابتا من قبل أكثرية الفلسطينيين في المخيمات. استخدم هذا المال - كما كانت الحال دائما - لكسب حلفاء له. فبعد انهيار تنظيم "المرابطون" شكلت في بيروت ميليشيا سنية

جديدة، عرفت باسم "حركة السادس من شباط"، بالإشارة إلى حركة الانتفاضة التي وقعت في بيروت الغربية عام ١٩٨٤. جند معظم مقاتليها من السنة الذين هجروا من اقليم الخروب ومن الذين يسكنون منطقة الطريق الجديدة في بيروت. كان عرفات يمدّها بالمال والعتاد. ولكن سرعان ما شعرت حركة أمل بتهديد سيطرتها على بيروت الغربية من قبل المنظمة الجديدة. فبعد معارك طاحنة في الشوارع تميزت بعنف وحشي، هزمت "حركة السادس من شباط" ووحدات الحزب التقدمي الاشتراكي المؤيدة لها. وكذلك تكبد المنتصرون خسائر كبيرة، خاصة الذين هاجموا سكان الأحياء للإنتقام والثأر، ومارسوا التعذيب والمجازر فيها. عندئذ صدرت عن رؤساء الطائفتين السنة والشيعية تصريحات لا تهدف إلى التهدئة وضبط النفس. وطالب نبيه بري بدخول الجيش السوري إلى بيروت. بالنسبة لوضع المخيمات كان نبيه بري والقيادة السورية على اتفاق تام. فالسوريون كانوا يسعون إلى وضع المخيمات تحت سيطرة فصيلة أبو موسى، الموالي لهم. أما نبيه بري فلم يكن يرى أي فرق بين مختلف الفصائل الفلسطينية كما لا يمكن الاعتماد على أي منها: "فالذي يعلن عن نفسه في دمشق بأنه من أنصار أبو موسى، يتحول سريعا في بيروت إلى العرفانيين". وهكذا أتهم بري الفلسطينيين "بتفضيل العودة إلى لبنان على العودة إلى فلسطين". وفي أواخر حزيران، حصلت استراحة في حرب المخيمات، بعد مرابضة وحدات سنية من الجيش اللبناني حول مخيمي شاتيلا وبرج البراجنة، تدعمها فصيلة من الجنود السوريين.

ولكن فترة الهدوء هذه لم تدم طويلا. فقد جرى تصعيد حرب أمل ضد انبعاث جديد "لدولة فلسطينية داخل الدولة اللبنانية" في النصف الثاني من العام ١٩٨٦ بسبب تبدل بارز حصل بين الحلفاء الرئيسيين في النزاع اللبناني، وقيام حلف جديد بين عرفات والمسيحيين اللبنانيين. لا بد من التذكير هنا بأن النزاع الرئيسي في حرب لبنان بدأ بالاشتباكات بين الفلسطينيين والمسيحيين. وقد عاشت حركة أمل منذ عام ١٩٨٣/١٩٨٤ وضعا مع الفلسطينيين لا يختلف إطلاقا عن حال المسيحيين معهم منذ عام ١٩٦٩. ولكن في عام ١٩٨٦ لم تكن منظمة التحرير أهم خصم خارجي للمسيحيين، بل سوريا، وبالتالي حركة أمل التي أصبحت الحليف الرئيسي لسوريا وأهم خصم لهم في السياسة الداخلية منذ اتفاق الميليشيات. فمنظمة التحرير التي أصبحت خصما للسوريين وللشيعية معا، تحولت وأصبحت، - بحكم المصلحة - حليفا جديدا للمسيحيين. وقد أقدم الفريقان على ذلك على مضض. لقد سمح الرئيس الجميل بتجديد جوزات السفر لأكثر من سبعين ألف من الفلسطينيين، كما سهلت القوات اللبنانية لمنظمة التحرير نقل المقاتلين والأسلحة إلى المخيمات حول بيروت وفي الجنوب.

وفي بيروت قبلت حركة أمل بما حصل مرغمة وذلك لعدم تمكنها من السيطرة التامة على المخيمات. ولكن بري ومعاونيه ارادوا على الأقل منع منظمة التحرير من استخدام مخيمات الجنوب مجددا، والعودة الى حربها ضد اسرائيل، وبالتالي تعريض سكان الجنوب الشيعة لمآسي جديدة.

لذلك بدأت حركة أمل في تشرين الأول ١٩٨٦ حصارها لمخيم الرشيدية القريب من مدينة صور، واستمر القتال بين مقاتليها والفلسطينيين عدة أشهر دون أن يسقط المخيم. وبالعكس خرج في ٢٤ تشرين الثاني مقاتلو منظمة التحرير من إحدى المخيمات المجاورة لصيدا واقتحموا بلدة مغدوشة جنوب صيدا، وهي موقع استراتيجي مهم. وفي اليوم التالي قامت حركة أمل بهجوم مضاد واستعادت البلدة. وفي الوقت نفسه اغار الطيران الاسرائيلي على مواقع فلسطينية وقد دل ذلك على ان حركة أمل كانت تقوم بتنسيق - وبالتالي تتعاون - مع اسرائيل. وقد قام الشيعة المتحمسون بمطاردة الفلسطينيين الذين يعيشون خارج المخيمات. وهذا ما أدى الى تدعيم عزيمة الفلسطينيين في المخيمات والى عدم الاستسلام على الإطلاق.

وفي نهاية عام ١٩٨٦ لم تسفر حرب حركة أمل ضد الفلسطينيين عن نتائج مرضية. ففي عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥ دمرت حركة أمل قسما من المخيمات المجاورة لبيروت وسيطرت عليها. ولكن منظمة التحرير تمكنت من الصمود في مخيم برج البراجنة وفي قسم من مخيم شاتيلا. وفي عام ١٩٨٦ نجحت منظمة التحرير بالعودة بقوة وبكثافة الى الجنوب، واستولت حتى على مواقع خارج المخيمات وتمكنت من المحافظة عليها. وهكذا لم تنجح حركة أمل في الحؤول دون اعادة تسليح المخيمات ودون وصول امدادات عسكرية جديدة لمنظمة التحرير.

٣٢ - حرب حول بيروت الغربية بين حركة أمل واليساريين

لم تدعم القوات اللبنانية وحدها منظمة التحرير ضد حركة أمل، بل الميليشيات الدرزية ايضا كانت تؤمن لها الامدادات العسكرية، وتسهل دخول مقاتلين فلسطينيين جدد الى الجنوب. في مطلع عام ١٩٨٧ وبعد محاولات جديدة يائسة للسيطرة على مخيمات بيروت، تحولت ميليشيا حركة أمل التي عانت مرارا عدم الانتصار في صراعها الطويل، ضد أعوانها وحلفائها سابقا في بيروت الغربية: اي الحزب التقدمي الاشتراكي والشيوعيين^{٢١٤}. فالحزب التقدمي الاشتراكي في بيروت لم يكن في ذلك الحين ميليشيا درزية فقط، بل كان يضم مقاتلين من حركة المرابطون سابقا

٢١٤ - أُغتيل عدد من المثقفين القيايين الشيوعيين من قبل انصار حركة أمل، من بينهم الفيلسوف حسن حمدان، وهو من أصل شيعي، وكان قد حُدد عليه بنوع خاص "كملاحد كفر بدينه".

ومجموعات كردية أيدت سابقا منظمة التحرير . فالقوى الدرزية والسنية والتجمعات اليسارية^{٢١٥}، رفضت معا سيطرة تامة لحركة أمل على الجزء الغربي من المدينة. وهذا ما أدى في منتصف شباط الى مواجهة مسلحة عنيفة جدا تجاوزت بكثير حدود ما حصل سابقا في المعارك. فاستخدمت الأسلحة الثقيلة الموجودة في مواقع بعيدة عن المدينة، في حرب الشوارع، وعم الخراب والتدمير بشكل يماثل ما حصل عام ١٩٨٢ أثناء الغزو الاسرائيلي. وقد حصل قتال حثي في الأحياء السكنية التي لم تعرف سابقا اضطرابات، وبنوع خاص، الأحياء القريبة من الشواطئ البحرية. فبعد خمسة أيام من القتال المرير توصلت الميليشيات اليسارية الى فرض وجودها. وفقدت أمل مركزها الرئيسي في برج المر، وسيطر الحزب التقدمي الاشتراكي على منطقة الحمراء كما جرى حصار لمقاتلي حركة أمل في موقعين^{٢١٦}.

شكل هذا الوضع بنظر الحكومة السورية دافعا لتبرير ارسال قواتها من جديد الى بيروت، واعطاء هذا التدخل، - ولمصلحتها الخاصة - طابع المستعجل. كما برر ذلك عبر نداء الإغاثة الصادر عن سكان المدينة الذين برز لديهم الاقتناع بأن سوريا وحدها القادرة على وضع حد نهائي لهذه الحرب الأهلية الوحشية. وقد برزت الضرورة أيضا بفعل الخطر المحدق بحركة أمل، التي تعتبر أهم وأصدق حليف لسوريا في لبنان، والتي قد تتعرض للانسحاق تماما ونهائيا في صراعها ضد الفلسطينيين، والدروز واليسار اللبناني.

ففي الثاني والعشرين من شباط دخلت فصيلتان من الجيش السوري الى بيروت الغربية، وانسحبت وحدات حركة أمل الى الضواحي الجنوبية الغربية. ولم يسمح الجيش السوري بتواجد اية ميليشيات مسلحة في الشوارع. فحيث ما برزت مقاومة وان محدودة كان السوريون يسحقونها بعنف شديد. وهذا ما حصل مع ثلاثة وعشرين مقاتلا من حزب الله، لم يعيروا الانذار السوري اي اهتمام. فجرى اعدامهم رميا بالرصاص. وهكذا وبعد خمس سنوات من ارغام الجيش السوري على الانسحاب من بيروت من قبل القوات الإسرائيلية، عاد هذا الجيش مجددا الى العاصمة اللبنانية.

في عام ١٩٧٦، دخلت القوات السورية الى بيروت لأول مرة لانهاء حرب أهلية بين المسيحيين والمسلمين، ودخلت للمرة الثانية في عام ١٩٨٧ لانهاء حرب أهلية بين المسلمين. وفي الحالتين كان الهدف من دخولها السيطرة ليس فقط على لبنان بل

٢١٥ - انقسم الحزب القومي السوري الاجتماعي في صيف ١٩٧٦ الى فريقين، أحدهما أيد منظمة التحرير الفلسطينية - وكانت تدعمه ليبيا - والآخر كان مواليا لسوريا. ومنذ ذلك الحين واصل الفريقان اضطهاد بعضهما بعض عبر الاعتداءات والاعتقالات.

٢١٦ - بالقرب من فندق الكومودور الذي يرتاده الصحفيون الغربيون، ومن مستشفى الجامعة الاميركية.

على منظمة التحرير ايضا. في عام ١٩٧٦ حصل ذلك بالتفاهم مع رئيس الجمهورية الياس سرکيس. أما في عام ١٩٨٧ فقد احتج على دخولها رئيس الجمهورية أمين الجميل، بينما طالب بدخولها، طوعا او كرها، كل من سليم الحص، ونبیه بري وولید جنبلاط. في عام ١٩٧٦ كان كمال جنبلاط الخاسر الأكبر الذي اضطر الى التخلي عن كل أمل بالنصر بسبب التدخل السوري. أما الخاسر الرئيسي عام ١٩٨٧ فكان ابنه وليد، الذي كاد أن يصل الى المرحلة النهائية لقطف ثمار انتصاره، كما فقد ايضا السيطرة غير المحدودة على "الكانتون الدرزي" والتي اكتسبها عبر انتصاراته عام ١٩٨٣ على القوات اللبنانية. لقد سيطر السوريون على الطريق الممتدة من صوفر الى خلده وعلى الطريق الساحلي الجنوبي بيروت ٢١٧. وهكذا أصبحت سياسة جنبلاط المستقلة تماما عن سوريا امرا مستحيلا. اما استسلام الدروز وحلفائهم اليساريين، فبرز بكل وضوح في أيلول ١٩٨٧ عندما أعلن عن ارسال حوالي الف مقاتل من الميليشيات الدرزية و ٣٠٠ مقاتل من المنظمات اليسارية، بالأنفاق بين قياداتهم والعقيد القذافي، الى ليبيا، للمشاركة، كمرتزقة، في القتال في حرب التشاد ٢١٨.

أما حركة أمل فقد أنقذها التدخل السوري ولكنها أصبحت مرتبطة بسوريا أكثر من أي وقت مضى. في الجنوب كما في بيروت كان مقاتلوها يبرزون بعض البسالة من حين الى آخر في صراعاتهم ضد مخيمات الفلسطينيين، ولكنهم كانوا يكتفون فقط بمحاصرتها. وفي الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٩٨٨ أعلنت حركة أمل أخيرا نهاية الحصار، أخذة بالأعتبار انتفاضة الفلسطينيين غير المسلحة في الضفة الغربية التي وضعت الحكم السوري، وكذلك حركة أمل في وضع حرج للغاية. فمتابعة حصار المخيمات كانت ستؤدي الى تصنيفهم في نظر العالم العربي كشركاء لإسرائيل في المؤامرة ضد الفلسطينيين. بالإضافة الى ذلك، كان لحركة أمل سبب آخر دفعها، وان مؤقتا الى وقف الصراع مع الفلسطينيين، الا وهو المواجهة مع خصم جديد آخر.

٣٣ - حرب أهلية بين الشيعة: أمل ضد حزب الله

نشأ "حزب الله" عام ١٩٨٢ بعد ما سمحت سوريا "لحراس الثورة" الايرانيين بالدخول الى شمال البقاع للمشاركة في القتال ضد الغزو الاسرائيلي. في الواقع

٢١٧- من بينها، وقع ايضا "مرفأ الدروز" في خلدة تحت السيطرة السورية. وقد تبين أن بعض مقاتلي ميليشيا الحزب التقدمي الاشتراكي شاركوا في بعض الاعتداءات. وفي حزيران ١٩٨٧ اضطر جنبلاط الى تسليم المشاركين الى سوريا، ومن بينهم "المسؤول عن حراسته الشخصية".

٢١٨- تلقت هذه المنظمات حصصا من المخصصات لهذا النوع الجديد من المقاتلين في الفرق الأجنبية.

وصلوا متأخرين لهذا الغرض، ولكنهم حاولوا في الوقت المناسب بدء حرب العصابات ضد الاحتلال الاسرائيلي في جنوب لبنان عام ١٩٨٣. فتحت شعار "حزب الله"، نفذ الشيعة اللبنانيون عددا من العمليات الانتحارية أدت الى اضعاف معنويات الوحدات العسكرية الغربية المتعددة الجنسيات وكذلك الجيش الاسرائيلي. كما نفذت عمليات أخرى أيضا باسم "الجهاد الاسلامي". وهناك "مؤشر بارز" آخر لهذا الاتجاه السياسي تمثل في عدد كبير من خطف الرهائن^{٢١٩} في لبنان واستهداف كل وجود غربي في البلاد. لم يشكل حزب الله أي تنظيم موحد، بل لفيقا لتجمعات مختلفة، يجمع بينها عاملان مشتركان: الأول إقامة "جمهورية لبنان الاسلامية" على مثال ايران، والثاني، تأثير الحكومة الايرانية. القوي جدا عليها، ليس فقط عبر التوافق حول اقتناعات سياسية دينية، بل أيضا عبر الدعم المادي الكثيف الذي تقدمه لها.

فحركة أمل التي كان ينظر اليها حتى عام ١٩٨٢ كحركة "راдикаلية" من قبل انصار الزعماء الشيعة التقليديين، وجدت نفسها تدريجيا تحت ضغط منافسة شديدة من قبل حركة أكثر راديكالية منها. فمنذ سنوات طويلة كانت حركة أمل على خلاف حاد مع أحزاب اليسار التي كانت تستقطب قبل الحرب عددا من الشيعة اللبنانيين بسبب برامجها الجذابة، ولكن الآن جاءت المنافسة من جهة "اليمن"، أي من الخمينية. فحركة أمل وحزب الله يتبعان سياستين متناقضتين تماما تجاه اسرائيل. حركة أمل تريد فعلا رؤية الجنوب حرا من كل احتلال اسرائيلي، ولكن دون الحاق الأذى او الخراب به. لهذا السبب نفذت حربا طويلة ضد الفلسطينيين الذين بسبب نشاطهم العسكري الجديد، كانوا يسببون غارات انتقامية اسرائيلية يتخوف منها الشيعة. ولكن حزب الله أعلن على غرار الفلسطينيين الراديكاليين الحرب ضد اسرائيل وحتى "التحرير التام للقدس"^{٢٢٠}.

برز أيضا عنصر خلاف رئيسي بين التنظيمين الشيعيين في مفهومهما للبنان المستقبل. في نيسان ١٩٨٧ أصدر رجال دين ايرانيون ولبنانيون من الاصوليين مشروع دستور لجمهورية اسلامية في لبنان، ترتبط مباشرة بالنموذج الايراني. وفقا لهذا الدستور، ينبغي ان تستوحى كل القوانين من الشرع الاسلامي. كما يقوم مجلس

٢١٩- لم يكن لحزب الله أي رأي موحد حول مسألة خطف المواطنين كرهائن وكوسيلة يبررها الصراع. فالموسوي، زعيم منظمة "الجهاد الإسلامي"، أعلن عن شرعية عملية خطف "الجواسيس أو العسكريين". أما محمد حسين فضل الله، رجل الدين الأكثر نفوذاً في حركة حزب الله، الذي كان يرفض اعتباره قائدا لهذه الحركة، فقد وصف خطف المواطنين وأخذهم كرهائن "عملية غير انسانية وغير دينية"، كما أنها "غير إسلامية". ولكنه لم يصدر أي "فتوى" في هذا المجال. "لقد واصل زعماء حركة حزب الله المناقشات حول خلقية وشرعية الوسائل المؤيدة الى الهدف النهائي" (أي إقامة جمهورية إسلامية في لبنان). راجع : The Moral Logic of Hizballah, op. cit., p. 21ff.

٢٢٠- راجع: شبلي ملأط، المصدر المذكور، ص ٣٥ وما يليها.

اسلامي - يتألف فقط من الشيعة - بوضع نظام جديد للبلاد. أما "الاقليات المختلفة" فيه والتي تشكل أكثرية في بعض المناطق، فينظم لها حكم ذاتي^{٢٢١}.

رفضت قيادة حركة أمل هذا المفهوم، إذ أعلن نبيه بري مرارا، بأن حركته تتألف بمعظمها من الشيعة المؤمنين وتقدر حق التقدير الثورة الأيرانية. ولكن لبنان ينبغي أن يقرر مصيره اللبنانيون، بطريقة تتوافق مع معطيات لبنان وطوائفه المتعددة. فقد رفض العودة إلى الميثاق الوطني وطالب "بديمقراطية الأكثرية"، التي تمكن الشيعة دون شك من لعب دور رائد فيها. ولكنه رفض أي شكل من أشكال الدولة الإسلامية.

إضافة إلى المسائل ذات الأهداف السياسية لعب التنافس بين الحركتين على مستوى تجنيد المقاتلين. فحزب الله الذي يتلقى كل أنواع الدعم من إيران كان في حال أفضل من حال حركة أمل. فكان يدفع أجورا مرتفعة لمقاتليه ويحاول بالتالي جذب مقاتلي أمل إلى جانبه. لذلك وصفت قيادة أمل حزب الله، بهدف التحقير والسخرية، "بحزب البترو" (أي البترو دولار)، ولكن دون أن تتمكن دائما من الحؤول دون محاولات التجنيد.

في أيلول ١٩٨٧ حصلت معارك بين التنظيمين في جنوب لبنان. ولكن في نيسان ١٩٨٨ بدأت فعلا حرب أهلية نظامية بين الشيعة، وغالبا ما كان يمر خط الفصل السياسي عبر ذات العائلات، مضافا بذلك على هذا النزاع طابعا حادا كان يثير عددا كبيرا من الخلافات السابقة. جاء الشوط الأول من المعارك لصالح حركة أمل التي سحقت حزب الله تماما في الجنوب، فتحدث نبيه بري عن انتصار "ضد الراديكالية والخطف والارهاب". أما الشوط الثاني فكان لصالح حزب الله. في مطلع شهر أيار قامت الميليشيات الأصولية بهجوم على كل مواقع حركة أمل في ضواحي بيروت الجنوبية، يدعمها حراس الثورة الأيرانيون. مع الإشارة إلى أن المساعدات المالية التي تقدمها إيران كانت أكثر فعالية من المساعدات العسكرية. لقد سقط عدد من مواقع أمل دون أية مشاركة في القتال، لا بل سلمت مقابل كميات كبيرة من المبالغ المالية التي دفعت إلى صغار القادة في حركة أمل وإلى مقاتليها. وهكذا نجح حزب الله، بعد أسبوعين فقط من الصراع، بالسيطرة على ٨٠ بالمائة من ضواحي بيروت الشيعية. ولكن أمل تمكنت من الصمود فقط في منطقة الشياح، حيث وقعت في مأزق حرج.

عندئذ رأت القيادة السورية مدى الخطر الذي تواجهه حركة أمل، أخلص حلفائها

٢٢١ - Arnold HOTTINGER, Verfassungsentwurf Teherans für Lebanon - über die Ausbreitung der iranischen Revolution, in: NZZ, 6.5.1987.

بين المنظمات السياسية والعسكرية اللبنانية. وتمثل هذا الخطر بإمكانية طردها تماما من العاصمة. ولكن اي تدخل مباشر للقوات السورية لصالح حركة أمل سيشكل من جهة أخرى خطرا على سوريا قد يؤدي الى خلاف مفتوح مع ايران، الدولة الحامية لحزب الله، والحليف الأقوى لسوريا بين دول المنطقة. وكما ذكر سابقا، كانت العلاقات الجيدة على المستوى الاقتصادي بين سوريا وايران بالغة الأهمية. فسوريا التي تتلقى النفط الايراني بأسعار مفضلة، كان من الصعب عليها اتخاذ اي موقف عدائي ضد انصار ايران في لبنان. عندئذ قررت القيادة السورية الإقدام على خطوة تسهم في انقاذ أمل، دون الاعتداء مباشرة على حزب الله. فقام الجيش السوري بالسيطرة على الضواحي الجنوبية الغربية. وطالب حركة أمل وحزب الله بالانسحاب الى ثكنات معينة، معلنا عدم مهاجمة اي فريق، ولكنه سيضطر الى سحق أية مقاومة مسلحة قد يتعرض لها. فبعد تصريحات متكررة وتحذيرات شديدة تقدمت القوات السورية في السابع عشر من أيار دون اي قتال او مقاومة ودخلت الى الضواحي الشيعية^{٢٢٢}.

وهكذا جرى تجميد الحرب الأهلية الشيعية - الشيعية مؤقتا، ولكن دون وضع حد نهائي لها. فلم يرض حزب الله بهزيمته في الجنوب ولا حركة أمل بهزيمتها في بيروت. وكذلك لم تعمل القوات السورية على تجريد اي فريق من السلاح، ولكن زالت المظاهر المسلحة من الشوارع. وبدلا من المعارك المعلنة، قامت عمليات الخطف والاعتقالات بين الفريقين. ففي ايلول ١٩٨٨، جرى اغتيال قائد حركة أمل في الجنوب، داوود داوود، واثنين من معاونيه. وفي ذات الشهر حصلت اشتباكات بين ميليشيات أمل وحزب الله في البقاع، والجنوب، وكذلك في جنوب بيروت. ورغم محاولات التوسط السورية، اندلعت من جديد في مطلع كانون الأول معارك طاحنة في ضواحي بيروت، ولكنها هذه المرة دون غالب او مغلوب. وفي ربيع ١٩٨٩ جرى اتفاق لوقف اطلاق النار بعد جهود الوساطة السورية والايرانية. ولكن الحرب الشيعية لم تؤد الى اية نتيجة حاسمة.

٣٤ - حرب أهلية بين الفلسطينيين

في الدفاع ضد الهجمات التي قامت بها حركة أمل توحد الفلسطينيون من كل التيارات والمنظمات المختلفة. ولكن ما ان خف الضغط على مخيمات بيروت - نظرا لانشغال حركة أمل في أيار ١٩٨٨ في حربها ضد حزب الله - حتى بدأ الفلسطينيون باطلاق النار على فلسطينيين آخرين داخل المخيمات. فقد وجد

٢٢٢- أطلقت مجموعة كومندوس من حزب الله النار على سيارة كانت تنقل أربعة من كبار الضباط السوريين. ولكن لم يصب أحد لأن السيارة كانت مصفحة. واكتفى السوريون بتوجيه انذار جديد.

الفدائيون المؤيدون لسوريا بزعامة ابو موسى الفرصة مؤاتية لسحق انصار عرفات. خلال شهرين تقريبا كان البؤس في بيروت مسرحا لحروب متوازية. فبينما كان الشيعة يتقاتلون في الضواحي، كان صراع الفلسطينيين ايضا في المخيمات الكائنة فيها وفي جوارها، يحتدم ويشند. ففي الحرب الأهلية الفلسطينية، كان هناك - على الأقل مؤقتا - منتصر. في حزيران سقط مخيم شاتيلا، وفي الثامن من تموز سقط ايضا مخيم برج البراجنة بيد قوات ابو موسى، ولم يكن ذلك دون دعم لوجستي فاعل من قبل السوريين. وهكذا فقد عرفات مرة أخرى - بالمقارنة مع المرة الأولى عام ١٩٨٢ - قاعدته في بيروت. ووقع الفلسطينيون في الشمال والشرق والوسط تحت السيطرة السورية. ولكن في الجنوب، وفي المخيمات المجاورة لمدينتي صيدا وصور، حافظت الفصائل المؤيدة لمنظمة التحرير على نفوذها. اما الصراع للسيطرة على الفلسطينيين في كل لبنان، فلم يكن حتى نهاية عام ١٩٨٨ قد تحول الى قرار حاسم على الإطلاق.

٣٥ - حرب باردة حول الدولة اللبنانية

حصلت الحروب الحامية بين ١٩٨٦ و ١٩٨٨ بمعظمها بين اطراف الحرب الأهلية السابقين: حبيقة ضد جعجع في القوات اللبنانية، حركة أمل ضد معظم تجمعات اليسار السابقين، ضد الفلسطينيين وحزب الله، وأخيرا الفلسطينيون ضد بعضهم. ولكن كان بين كل هذه النزاعات جامع مشترك وهو أن القوى الشديدة التحالف مع سوريا حاربت تلك القوى التي تريد الحفاظ على استقلاليتها عن البلد المجاور.

أما المواجهة بين الفريقين، فلم تسفر عن أية نتيجة. فعلى خطوط التماس كان يحصل فقط من حين الى آخر إطلاق نار متقطع. وفي آذار ١٩٨٨ حصلت مرة أخرى اشتباكات على خطوط المواجهة في المتن الأعلى. فقد هاجمت هناك وحدات من الحزب القومي السوري بدعم من سلاح المدفعية السورية المنطقة المسيحية التي كان يدافع عنها جنود من الجيش النظامي. كانت معظم وحدات الحزب القومي السوري من المسيحيين من عكار. وكذلك جنود الجيش كانوا من السنة، معظمهم من عكار، وأحيانا من ذات القرى. وعندما تبين للفريقين انهم من ذات المنطقة، زال كل دافع لإطلاق النار على بعضهم، وتوقفت المعارك سريعا.

ولكن ما لم ينته بعد، كانت الحرب الباردة حول مؤسسات الدولة اللبنانية، التي بدأت منذ سقوط اتفاق الميليشيات في دمشق في كانون الثاني عام ١٩٨٦. فجنبلاط وبري، للذان وقعا ذلك الاتفاق، كما كانا في الوقت ذاته وزيرين في حكومة "الوحدة الوطنية" برئاسة كرامي، أخذوا منذ ذلك الحين يطالبان باستقالة رئيس الجمهورية.

وفي سبيل ارغامه على الإستقالة، أعلننا "مقاطعتهم" للرئيس، ورفضاً حضورياً لجلسات مجلس الوزراء التي تعقد برئاسته. وكذلك أيد رئيس الحكومة هذه المقاطعة، حتى أن مجلس الوزراء لم يعقد خلال أشهر طويلة. ولكن في أيلول التقى الوزراء مع بعضهم عدة مرات، ليس كحكومة، بل "كجنة مصالح" للتشاور حول الإصلاحات السياسية، دون الوصول الى أي اتفاق في الرأي. فالوزراء المسيحيون، خاصة، وزير المال كميل شمعون، طالبوا كرامي بإنهاء مقاطعة رئيس الجمهورية، وعقد جلسات مجلس الوزراء مجدداً وانتظاماً، أو بتقديم استقالته. ولكن كرامي لم يستجب الى أي من هذين المطلبين.

وفي مطلع نيسان ١٩٨٧، وتحت ضغط الأزمة الاقتصادية التي أخذت تتفاقم، عقدت جلسة حكومية، ولكن دون التوصل الى أية نتيجة. عندئذ أعلن كرامي وبصورة مفاجئة استقالة حكومته في الرابع من أيار ١٩٨٧. فالتصريحات التي أطلقها آنذاك، شكلت نوعاً ما افتتاحاً لحملة الانتخابات الرئاسية المقبلة عام ١٩٨٨. كما دعا الى عدم احتكار الموارد لمنصب رئاسة الجمهورية في المستقبل، بل ليكون مفتوحاً لكل لبناني الى أية طائفة انتمى. وقد كان كرامي قد أعلن ترشيحه لهذا المنصب عام ١٩٧٠ باعتبار المسلمين، حسب رأيه، أكثرية في لبنان. ولكنهم على استعداد للمشاركة في الحكم بالتساوي مع المسيحيين، دون أن تكون حصة المسيحيين راجحة في الدولة. أما وزير العدل، نبيه بري، فقد أعلن في الوقت ذاته عن مطلب آخر، ألا وهو إلغاء الميثاق الوطني الذي أصبح "تظاناً عقيماً لا يمكن تصحيحه ولا تحسينه". كما أعلن أيضاً عن عدم سماحه بانتخاب أي رئيس جديد، إذا لم يحصل أي اتفاق على نظام سياسي جديد. وكوزير للمواصلات، ذهب نبيه بري خطوة أبعد من ذلك، فوصف أمين الجميل "بشاه بعداً"، وطالب بطرده حالاً بالعنف العسكري من منصبه.

ولكن لم تعرف هذه التصاريح الرنانة والعنصرية أية ترجمة فعلية. فحركة أمل كانت منشغلة مؤقتاً بحربها ضد اليسار وضد الفلسطينيين. وجنبلاط تعرض لصعوبات في صفوف ميليشياته التي شارك جهاز استخباراتها في عمليات اغتيال ضد الوحدات السورية. كما اضطر الى تسليم المسؤولين عنها الى سوريا. وبعد ذلك، ومنذ استقالة حكومة كرامي، تطورت الأوضاع وأدت، بعد مرور سنة، الى أزمة دستورية هددت وجود الدولة واستمراريتها.

وفي أول حزيران ١٩٨٧ قتل رشيد كرامي في انفجار عبوة وضعت في طوافه تابعة للجيش، دون أن يعرف إطلاقاً من وضعها ومن كان وراء تلك العملية. وفي بداية شهر آب، قتل محمد شقير، الذي كان مستشاراً لأمين الجميل، ورجل الاتصالات بينه وبين القيادات السننية البيروتية. نفذت عملية الاغتيال عناصر

مجهولة^{٢٢٣}. على أثر ذلك غادر صائب سلام لبنان واستقر في جنيف. وفي ذات الشهر توفي كميل شمعون بصورة طبيعية، بعد أن كان قد نجا من عملية اغتيال في بداية السنة. وهكذا عبر الاغتيالات والهروب الى المنفى وكذلك الشيخوخة تمت تصفية فريق الرواد الذين اسهموا في وضع الميثاق الوطني، وظلوا، رغم كل التناقضات، يبحثون عن تسويات.

والجدير بالذكر هنا هو أنّ السياسيين اللبنانيين الذين نجوا من الموت والاغتيالات وبقيوا في البلاد، ظلوا يتمسكون بالمؤسسات والتقاليد السياسية للجمهورية اللبنانية. ففي إطار تناقضات المصالح والاهداف، كانت تنفذ حرب باردة حول الدولة وبصورة شرعية. فبعد غياب كرامي، كلف الرئيس أمين الجميل، وزير التربية سليم الحص، بمهمة تصريف أعمال رئاسة الحكومة. ولكن الحكومة لم تجتمع، بل ولصحت ممارسة أعمالها عبر عملية تدوير القرارات. فالاتصالات الضرورية بين الوزراء كانت تتم عبر كبار الموظفين او بواسطة الهاتف. وكذلك اللجان النيابية مارست أعمالها بكثافة أكثر من السابق، وتحولت الى الجهاز الأكثر أهمية في البحث عن التوافق. ومنذ خريف ١٩٨٧ بدأ تسابق المرشحين لمنصب رئيس الجمهورية، الذي كان يفترض انتخابه في صيف ١٩٨٨. فجرى الحديث عن ما لا يقل عن تسعة وخمسين مرشحا، وكلهم من الموارنة. حتى وليد جنبلاط رشّح لهذا المنصب عضواً مارونياً من حزبه.

فبعد مرور أكثر من اثني عشر عاماً على الحرب، ورغم وجود تسعين بالمائة من الأراضي اللبنانية تحت احتلال قوات خارجية، وكذلك رغم انعدام سلطة رئيس الجمهورية، ظلّ أكثر السياسيين اللبنانيين يتمسكون، مقتنعين، بالتسابق الى هذا المنصب. فالحرب الباردة حول الدولة كانت ظاهرياً مؤشراً لاستمرارية الأمل بمستقبل الدولة. فالذي كان يؤمن بذلك فقط، استطاع إبراز عزمه ومواصلة الطموح الى سلطة رمزية.

ولكن القرار الأكثر رمزية، وفي الوقت نفسه الأكثر تشكيكاً، اتخذه البرلمان اللبناني في أيار ١٩٨٧، إذ أعلن إلغاء اتفاق القاهرة المعقود عام ١٩٦٩ مع منظمة التحرير الفلسطينية، وسحب في الوقت ذاته موافقته على الاتفاق مع إسرائيل عام ١٩٨٣. شكل هذا القرار تحرراً من اتفاقين وافقت عليهما السلطة التشريعية بهدف

٢٢٣- شقيق كان رجل أعمال مثقفاً وناجحاً جداً. لم تكن لديه أية مطامع سياسية شخصية، بل كانت لديه إمكانيات اتصال جيدة بين جزئي العاصمة. كان صديقاً حميماً لرئيس حكومة سابق، تقي الدين الصلح، ولشخصيات مارونية أيضاً. فاقترعاً منه بضرورة التفاهم المسيحي - الإسلامي، وضع نفسه، دون أي مقابل، في خدمة هذا الهدف. ولذلك جرى اغتياله. هكذا كان مصير المواطن اللبناني الوطني عام ١٩٨٧.

تجنب الأسوأ، ولكنهما سببا نتائج أكثر سوءاً، أي الحرب والحرب الأهلية. جاء هذا القرار زائراً بمضمون رمزي، لأنه وضع حداً نهائياً للخلافات المسيحية - الإسلامية حول السياسة اللبنانية تجاه الفلسطينيين وتجاه إسرائيل. ولكن هذا القرار كان مشكوكاً بأمره، لأن لبنان لم يكن في وضع يسمح له بتقرير مصيره.

٣٦ - حرب صغيرة حول "منطقة الحزام الأمني"

في نهاية عام ١٩٨٨، كان قد مر عشرون سنة على سيطرة غير منتظمة تقريباً لعمليات العنف والعنف المضاد في أقصى المنطقة الجنوبية من لبنان، حيث بدأ الفدائيون الفلسطينيون عملياتهم، ورد عليهم الاسرائيليون بغارات انتقامية و"تحذيرية". وهناك بقيت الحال على هذا المنوال حتى يومنا الحاضر.

إن المنطقة التي حددتها إسرائيل من جانب واحد "كمنطقة أمنية" هي أكبر بقليل فقط من منطقة "جمهورية لبنان الحر" التي أعلنها الكولونال سعد حداد قبل الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢. يسيطر عليها "جيش لبنان الجنوبي" الذي يتألف من الفين وخمسمائة جندي تقريباً بزعماء اللواء انطوان لحد، الذي يرتبط باستمرار بالمساعدات الاسرائيلية^{٢٢٤}. بالإضافة الى المنطقة الأمنية، تدافع قوات لحد أيضاً عن منطقة جزين، آخر منطقة تسكنها أكثرية مسيحية متجانسة. ولكن ضمان المساعدة الاسرائيلية لا يشمل منطقة جزين. وهكذا قطع وفصل أقصى الجنوب عن باقي البلاد. كان هناك فقط خط بحري من الناقورة الى جونية يربط المنطقة الحدودية بالمنطقة المسيحية الرئيسية. وكان الوضع الاقتصادي في تلك المنطقة أصعب بكثير مما هو في باقي المناطق اللبنانية. أما أهم أرباب العمل فيها فهم قوات الأمم المتحدة المرابضة هناك. كذلك كان يعبر مئات الأشخاص الحدود يومياً للعمل في إسرائيل، ومازالوا حتى الآن.

يتألف ثلثا جيش لحد تقريباً من المسيحيين، والثلث الآخر من الدروز والشيعية. في عامي ١٩٨٦ و ١٩٨٧. التحق عدد كبير من جنوده الشيعة بحركة أمل وبحزب الله، وبعد ذلك حصل نوع من الاستقرار في عدد أفراده.

تقع المنطقة التي ترابض فيها قوات الأمم المتحدة (اليونيفل) في شمال المنطقة الأمنية. إنها منطقة مشرعة ومفتوحة كما كانت دائماً. ولكن حصل فيها تغيير من حيث هوية المهاجمين والمعتدين الذين كانوا سابقاً من الفدائيين الفلسطينيين فقط. فقد انضمت اليهم وحدات الكومندوس التابعة لحزب الله، كذلك لحركة أمل التي لم تشأ

٢٢٤ - حول ما يلي راجع الدراسة التالية: Harald LIST, Die südlibanesische Armee und ihr Territorium, Freiburg 1988.

ان يحتكر حزب الله وحده مجد وشرف القتال ضد اسرائيل. وكذلك اشترك مقاتلون من الاحزاب اليسارية الصغيرة في العمليات الهجومية. فقد نفذ مرارا مقاتلو حزب الله ومقاتلو الاحزاب اليسارية عمليات كومندوس انتحارية، اعطت الحرب شكلا جديدا، لم يكن معروفا قبل عام ١٩٨٢.

في نهاية عام ١٩٨٦ تكاثرت العمليات الهجومية. وحصلت عام ١٩٨٧ اقتحامات لمختلف مواقع جيش لبنان الجنوبي. وكان الجيش الاسرائيلي يرد بغارات عنيفة ضد القرى ومواقع المهاجمين شمالي المنطقة الأمنية، وخاصة منذ عام ١٩٨٨، كثفت الغارات الجوية عليها. وفي عام ١٩٨٨ قصف بعنف مخيم الفلسطينيين في المية مية. عقب ذلك، عشية عيد الميلاد، هجوم بالسفن الحربية والطوافات العسكرية الجوية، على جنوب بيروت، حيث لاقى جنود الكومندوس الاسرائيليين مقاومة شديدة.

ابرزت المنطقة الأمنية من الواجهة الاسرائيلية نجاحا معتدلا ومحدودا. فالصواريخ بقيت تسقط من حين الى آخر على منطقة الجليل الشمالي. كما نجح بعض افراد الكومندوس في عبور الحدود، ولكن لم يتمكنوا الا نادرا من إيقاع اصابات في صفوف المدنيين. كذلك لم يمنع تماما الحاق الضرر بالعناصر العسكرية. ففي تشرين الأول عام ١٩٨٨ مثلاً قتل ثمانية جنود اسرائيليين في عملية تفجير نفذها فريق كومندوس انتحاري. أما القتلى من جنود انطوان لحد فكان عددهم مرتفع جداً. وفي نهاية ١٩٨٨، جرح ايضا اللواء انطوان لحد بالذات في عملية اعتداء عليه.

بعد عقدين من حرب الفدائيين الفلسطينيين في الجنوب، وبعد أكثر من عقد ونيف على أول غزو اسرائيلي كبير في لبنان، ما زالت هذه الحرب الصغيرة قائمة ومستمرة. لقد أدت عملية الغزو عام ١٩٧٨ الى انشاء منطقة عازلة، جرى توسيعها بعد حرب عام ١٩٨٢. فالثمن الذي دفعته، وما زالت تدفعه اسرائيل في تلك المنطقة، مرتفع، ولكن حجم الضحايا البشرية والأضرار المادية التي تكبدها، وما زال يتكدها لبنان يتجاوزه كثيراً.

الفصل الخامس

عنف دون انتصار

أشكال الحرب، كلفتها، ونتائجها

"ستة عشر عاماً من الدمار، والسلب، واليأس، ولّت.
ومعها دخل العالم في ظلمات الضوضاء والرعب.
في الأفق البعيد لم يشرق أي أمل بالسلام.
المملكة تحولت الى ساحات تكدّست عليها الاسلحة.
المدن هجرت.
'ماغدبورغ' تحولت الى مدينة أشباح وأنقاض،
غابت عنها الحرف اليدوية والصناعات.
المواطن فقد كل حق، بعد ان سلبه المحارب كل شيء.
الجرائم تجاوزت كل حدّ واعتبار.
العصابات الهمجية احتلت تلك الأرض الكريمة،
وعاثت فيها فساداً ودماراً خلال تلك الحرب الطويلة".

"شيلر"، من كتاب "قالنشتاين"

"عندما يضيق الحصار على الحيوانات المفترسة، تراها تكافح برعونة حتى
النهاية. ألا ينطبق ذلك ايضاً على البشر؟! عندما يفقدون كل أمل، لابدّ من
ان يحاربوا حتماً حتى الموت".

"سون تزو"، من كتاب "من الحرب".

"المسيحيون جبناء. نعم، انا وافقك هذا الرأي. ولكن هل هم أجبن من القطط؟ القط الذي تحشره في زاوية ما، يستطيع ان يتحول الى نمر".

فؤاد شهاب الى كمال جنبلاط، ١٩٥٨

"في الشرق الاوسط يكسب الابطال دائماً نفوذاً سياسياً، لأنهم يقودون حروباً... لقد وصل العسكريون في كل مكان تقريباً الى درجة يبدو معها النصر الحقيقي ضعيف الاحتمال. لذلك تجري الحرب بالدرجة الأولى، ودون أي توقع لنهايتها، بغية منع الفريق المعارض او الخصم من تحقيق النصر. وهكذا يحافظ على النظام المتعسكر القائم".

"أورنولد هوتنجر"، ١٩٨٧

في ربيع عام ١٩٩٠ دخلت حرب لبنان عامها السادس عشر، دون ان يحقق أحد أطراف النزاع الداخليين او الخارجيين أي انتصار. الخسائر البشرية - وهي تعبير تقنوقراطي عن العذاب الانساني - جاءت، كما سيكشف لاحقاً، كبيرة للغاية. لم تكن الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية أقل شأناً منها. لقد تبدلت دورة العنف الداخلي: النزاعات داخل الطوائف أصبحت أكثر تواتراً من النزاعات بينها. وكذلك عادت دورة العنف الخارجي في جنوب اليلاد الى نقطة انطلاقها. كما ان القوات غير اللبنانية أصبحت تسيطر على ٩٠ بالمائة من اراضي لبنان. وهكذا تحول هذا البلد، أكثر من أي وقت مضى، الى ساحة حرب فعلية لحرب بديلة من أجل فلسطين، حتى وان كانت هذه الحرب قد تعرضت، منذ بعض الوقت، لنوع من الركود.

في الواقع، بدت كل العوامل التي أدت الى اندلاع الحرب قائمة، سواء كانت اقليمية او لبنانية داخلية، دون بروز أي احتمال لنهايتها. وقد اضيفت اليها عوامل جديدة. فاشكال الحرب وكلفتها أفرزت معطيات اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، فرضت دورات عنف جديدة، بغية مواصلة الحرب وتأمين استمراريتها.

١ - الرعب، ظاهرة يومية

كانت حرب لبنان، منذ بدايتها وحتى توقفها، تعبيراً عن "مواصلة السياسة بوسائل أخرى"، وان بطرق خاصة ومميّزة. فنادر ما استهدفت إحدى مراحل الحرب دحر الخصم بالوسائل العسكرية، رغم انها كانت تستخدم لتخويفه، وإلحاق الضرر به، بهدف ارغامه على تقديم تنازلات سياسية. لم يرد احد اطلاقاً - باستثناء كمال

جنبلاط في ربيع عام ١٩٧٦ - احرار "تصير شامل"، ولكن اراد كل أطراف النزاع تحقيق إنتصارات نسبية. اعتبروا ذلك ممكنا، حتى وإن الحق احدثهم بالآخر رعبا وضربا كبيرا وكافيا. دلت كل المؤشرات على ان أيا من اطراف النزاع اللبنانيين او أيا من زعمائهم - باستثناء كمال جنبلاط فقط - لم يكن يعتبر ممكنا احرار نصر شامل في النزاعات اللبنانية الداخلية، رغم المساعدات التي يمكن الحصول عليها من حلفاء خارجيين.

فما لا ريب فيه هو ان اطراف النزاع الخارجيين كانوا يمتلكون القوى العسكرية والأسلحة التي تؤهلهم لإحراز نصر ساحق على خصومهم من اللبنانيين. ولكنهم لم يجسروا على ذلك خوفا من مواجهة كاملة وشاملة مع الفريق الخارجي الذي يحمي الخصم اللبناني في الداخل. او كما كان الحال عام ١٩٨٢ بالنسبة لاسرائيل، لم تكن إحدى الدول الكبرى تتمنى حدوث مثل هذه المواجهة. ولكن بقطع النظر عن هذا الأمر، استدركت سريعا الأطراف الخارجية انعكاسات الانتصار العسكري الكامل التي ستكون باهظة الكلفة. لذلك لم يكن أحد منهم على استعداد لدفع هذا الثمن. سيجري التطرق الى هذا الموضوع لاحقا. ولكن الأسباب والدوافع لم تتغير ابدا، حتى بالنسبة للجيشين الاسرائيلي والسوري اللذين لم يتصرفا عكس الميليشيات اللبنانية. لم يبحثا عن نصر عسكري، بل عن ارباب بعضهما بالوسائل العسكرية بهدف حمل احدهما على تقديم تنازلات سياسية.

لقد وقع كل اطراف النزاع، الداخليون والخارجيون، في حسابات خاطئة^١. في بداية الحرب اعتقدت المنظمات الفلسطينية وحليفهم كمال جنبلاط بان المسيحيين شعب مدلل، لا يهتمون الا بالبذخ والرخاء، سيهربون منهم او سيستسلمون اليهم. كذلك اعتقد حزب الكتائب بانه يكفي استدراج الجيش الى اشتباكات مع الفلسطينيين، كي يستسلم هؤلاء لارادة الدولة. وسوريا بدورها اعتقدت بان القصف المدفعي لاهياء المدن سيرغم الميليشيات المسيحية على الاعتراف بالسيطرة السورية. وكذلك ارادت اسرائيل استخدام غاراتها الجوية على مخيمات الفلسطينيين للانتقام من عمليات الفدائيين ضد القرى الاسرائيلية، وبهدف إيقافها ايضا.

والاميريكيون من جانبهم كانوا يأملون بإرهاب وترويض ميليشيات الدروز بقصف مواقعها بمدافع بوارجها العسكرية التي كانت راسية قبالة الشاطئ اللبناني. كانت كل الميليشيات تعتبر دائما بانها تستطيع تحقيق اهدافها عبر ممارسة أشكال

١- "خلال كل الأزمة اللبنانية كان بالامكان ابراز الأخطاء في الحكم على الأمور من قبل السياسيين والاحزاب السياسية. يمكن النظر الى هذه الأخطاء مثل مختلف الاحداث العديدة التي أدت الى تصعيد في عمليات العنف..." راجع: توفيق خلف، المصدر المذكور، ص ٥٤ وما يليها.

متعددة من الإرهاب الفردي أو الجماعي. ولكن لائحة حساباتهم الخاطئة كانت طويلة. لقد وقعوا جميعاً في ضلال أساسي، معتبرين التهديد بالعنف سيكون فاعلاً لتحقيق أهداف سياسية. ولكن عندما تكرر حلقة العنف والإرهاب، يضعف الاعتقاد بفائدة التنازلات السياسية. "فالخوف من التهميش، أو الانحلال، أو التهجير، يصعد من كثافة العداوة بين الطوائف أو التجمعات المتحاربة. وكلما ازداد شعور التجمعات بالتهديد، ازداد أيضاً لجوءها إلى العنف، بغية الحفاظ على هويتها المهددة، وتزداد بالتالي خشيتها من فقدان مكتسباتها القليلة التي إحرزتها عبر مفاوضات تسوية النزاع... لذلك استمرّ العنف طويلاً، وأصبح شكلاً من أشكال الأسر الذاتي الذي يصدّ كل السبل الخلاقة نحو تطوّر سلمي"^٢.

يتحمل المرء أعمال الرعب والإرهاب على مضض، لأنه يتخوّف، في حال الاستسلام، من إرهاب أوسع وأخطر قد يلحق به. يتخذ إذا قراراً بتحمّل الإرهاب والعنف، وبممارسته أيضاً. لقد تحول العنف والإرهاب في لبنان، خلال أكثر من خمس عشرة سنة، إلى نشاط يومي، أخذ أشكالاً مختلفة ووسائل متعددة.

بررت عمليات القصف الأولى عام ١٩٧٥ بحجة "إعطاء درس" للفريق الآخر، أي في سبيل إرغامه على التنازل السياسي. ولكن "نتيجة الدرس" لم تكن سوى قصف مضاد. وهكذا أصبحت عملية المعاملة بالمثل قانوناً للإرهاب. فإذا ما قصفت مدفعية هذا الفريق مسبحة على شواطئ الفريق الآخر، اتبع ذلك حالاً حمام دم على شواطئ الفريق الأول، علماً أن المكان المستهدف قصفه كان حالة استثنائية وليس قاعدة عامة. لم يكن ذلك عائداً إلى ندرة الأهلية لدى رجال مدفعية الميليشيات فحسب، بل أيضاً وبنوع خاص إلى أن "المستهدف أو المطلوب كان" "القصف العشوائي" بالذات. كان الجميع يعلم أن إضعاف العدو عسكرياً في أحياء المدن صعب جداً، لأن مقاتليه يحتمون غالباً في أماكن آمنة. ولكن كان من الواضح أيضاً أن قصف مناطق العدو الأهلة بالسكان المدنيين سيشل الحركة فيها، وسيحدث بالتالي رعباً ودماراً.

كانت عمليات القصف المدفعية مؤشراً يرافق الأنشطة السياسية والديبلوماسية. فقبيل أية مفاوضات، أو زيارة موفد اجنبي كبير لعاصمة عربية، أو إنشاءها، كان أطراف النزاع ينكرون بوجودهم عبر إطلاق الرصاص والقصف المدفعي أو الصاروخي. ولكن إحيانا كانوا يطلقون النار أيضاً، لأسباب سياسية معقدة نسبياً، وغير متوقعة إطلاقاً. كانوا، مثلاً، يطلقون النار لكي يختبروا مدافع أو قذائف جديدة حصلوا عليها.

لبنان هو بلد صغير. فكلّما توفّرت اثناء الحرب لدى المقاتلين اسلحة ذات مدى بعيد، كانت تتسع دائرة القتال الى مناطق جديدة. لذلك كان الفرق بين خطوط الجبهة والمناطق التي لا يطالها القصف، يزول تدريجياً، ولم يعد بإمكان الناس الاحتماء سنوات طويلة في الملاجيء والمخابيء تحت الأرض. لذلك تابعوا نشاطهم اليومي. المدارس والجامعات لم تتوقف. ولم تنقطع الزيارات بين الأقارب والأصدقاء. ولكن أقلية محدودة من السكان استطاعت ان تجد مسكناً وعملاً في مناطق نائية وأمنة نسبياً. اما الأكثرية فاضطرت الى التكيف والعيش مع الرعب الدائم الذي يزرعه وقوع القذائف والقصف المدفعي. كانت القذائف مثلاً تقع في ملعب مدرسة، او على مصنع، امام كنيسة او جامع. فاذا ما تواصلت عمليات القصف، يهرب المواطنون الى المناطق الخلفية البعيدة. وحالما تهدأ الأمور، كانوا يعودون من جديد الى مساكنهم واعمالهم. كانت محطات الراديو تعلن باستمرار عن الاشتباكات واطلاق النار، والمناطق المستهدفة، وتنصح المواطنين باستخدام هذه الطريق أو هذا الممر الآمن، تماماً كما يحصل بالنسبة لازدحام السير وتقلبات الطقس. وهكذا اصبح الرعب امراً تافهاً ومبتذلاً، نظراً لعدم وجود اي خيار آخر.

ولكن هذا الوضع كان صعباً للغاية في المناطق القريبة او المحاذية لخطوط التماس، او لجبهات القتال، حيث كانت تمارس أشكال عديدة من عمليات الرعب. فبعكس عمليات القصف المدفعي في المناطق الخلفية، كانت عمليات اطلاق النار الكثيفة تحصل باستمرار على تلك الخطوط، ومن مسافات قريبة، وتستخدم فيها مختلف انواع الأسلحة. اما خطر الموت الدائم فكان يسببه وجود "القناصة" الذين كانوا يطلقون النار، عندما يحلو لهم، ودون تمييز، على المارة في الأحياء أو الشوارع. وهكذا تحوّلت خطوط التماس كلها في مدينة بيروت، وعلى جانبيها، الى مواقع محصنة بالدشم، والإسمنت، وأكياس الرمل، وبقايا الباصات والقطارات. حتى الشوارع التي كان الفريق الآخر يستطيع رؤيتها من جانبه، أغلقت "بالكونتاينرات" التي ملئت بالرمل، بغية حماية المارة والسكان من رصاص القنص.

مثل هذه الإجراءات لم تتخذ على المعابر في المناطق التي كانت تسيطر عليها مختلف الميليشيات. ولكن اطراف النزاع كانوا يقتعلون الأحداث والإشكالات عندما يحلو لهم. فيطلقون النار مثلاً على احد المارة بين معبرين، ويسبّبون بالتالي قطع الطريق. ولكن اللبنانيين، رغم هذه الأخطار، لم يتوقفوا عن استخدام تلك المعابر.

كان المرور كل مرة على معابر خطوط التماس، بين منطقتي العاصمة، يُحتمّ بذل جهد خاص لتجاوز المخاوف والاضطراب التي كانت محدقة فعلاً بهذا المعبر او ذاك. اما سبب الخوف فكان يتنوّع بالنسبة لكل مواطن، خاصة اذا وجد نفسه خارج المنطقة التي يسكن فيها. فمقاتلو الميليشيات كانوا كلما شعروا بمرارة الخسائر التي

لحقت بهم، يبحثون عن امكانية للثأر. فيلجأون الى تهديد المواطنين الأبرياء ويمارسون ضدهم عمليات الثأر باعتبارهم من اتباع الطوائف او الفئات المعادية لهم.

كذلك انتشرت، خلال السنوات الأولى من الحرب، ما سُمّي بعمليات القتل على الهوية والتي اخذت طابعاً مؤلماً للغاية^٣. فعلى بطاقات الهوية في لبنان كان يذكر اسم الطائفة الدينية التي ينتمي اليها صاحبها، بقطع النظر عن إسم صاحبها الذي يَسْمَحُ معظم الاحيان بمعرفة انتمائه الطائفي. خلال تلك العمليات، قُتل مئات المسلمين، فقط لأنهم كانوا مسلمين، كما قُتل مئات المسيحيين، فقط لأنهم كانوا مسيحيين^٤. وهذا المصير لم ينفذ حتى هؤلاء المسيحيين الذين كانوا من العناصر الرئيسية والبارزة في احزاب الحركة الوطنية، مثل حزب البعث والحزب الشيوعي^٥. حصلت غالباً تلك الاغتيالات، بعد عمليات تعذيب وبتر اعضاء وتشويه رهبة للغاية. وهذا ما دفع الى هرب المسلمين او المسيحيين من المناطق التي كانت تسيطر عليها ميليشيات من الطوائف الأخرى، وبدأت بالتالي عملية "التجانس" السكاني في مناطق عديدة من لبنان.

ازدادت عمليات التجانس بصورة اقوى عبر معارك عسكرية مورست ضد "الجزر السكانية الطارئة". خلال تلك العمليات، كانت فئات معينة تكسب امتيازات استراتيجية واضحة، وكانت نتائجها معروفة مسبقاً. فقط معركة مخيم تل الزعتر شكلت حالة استثنائية، لأن المخيم كان محصناً بطريقة مذهلة، كما كان يُعتمد على هجوم مضاد ينطلق من مخيمات بيروت الغربية. هنا فقط حصلت معارك طويلة وشرسة، بينما لم يتطلب أية بطولة احتلال الجزر الأخرى. حصلت هذه الاحتلالات

٣- مورست عملية القتل على الرجال فقط. "على الحواجز الطائفية، لم توقف النساء ولم تقتل احياناً، لأنهن لا يعتبرن خطيرات ولا يعترف بهن ممثلات لطوائفهن". راجع: سليم عكاوي وماجده سلمان، المصدر المذكور، ص ٦٧ وما يليها.

٤- "كانت عمليات خطف المسيحيين والتعذيب والتكيد بهم تمارس بطريقة شبه عادية في المناطق الإسلامية"، المصدر السابق ص ٣٧. "والعائلات المسلمة القاطنة في الأحياء المسيحية، كانت تطرد بصورة عامة او تصفى... لقد جرى قتل عدد كبير من حراس الابنية والعمال في قطاع البناء، المستخدمين في الأحياء المسيحية. وكانوا بصورة عامة من المواطنين السوريين". المصدر السابق ص ٢٦.

٥- عاصم قانصو، رئيس حزب البعث الموالي لسوريا، تحدث عن هذا الموضوع: "كنت انا وزوجتي نقضي طيلة الأسبوع في العمل لانقاذ المخطوفين. اعتقد اننا نجحنا في انقاذ بين ٤٠٠ و ٥٠٠ شخص. لقد وزعنا على آلاف المسيحيين في بيروت الغربية بطاقات الانتماء الى حزب البعث وذلك لانقاذهم. ولكن حتى هذه العملية لم تجد نفعاً احياناً ايضاً. على معبر المتحف قتل احد الموارنة، وهو عضو بارز في حزب البعث. القتل لم يعتدوا بكل بساطة ان ذلك ممكن. لقد كانت حرب أهلية". من مقابلة اجراها معه المؤلف عام ١٩٧٩.

بصورة مشابهة تقريباً. لم يؤسر احد، بل جرى طرد السكان من منازلهم، وغالباً بعد مذابح رهيبة تعرض لها قسم من السكان المدنيين^٦. فقط عملية إخلاء الشيعة من منطقة النبعة تمت، وبفضل توسط الإمام موسى الصدر، دون اية مذبحه.

في منطقتي عكار والباق، طُرد السكان المسيحيون من بعض القرى الصغيرة، رغم انهم لم يشكوا اي تهديد عسكري لأحد، ولم يحاولوا الدفاع عن انفسهم. فالاغتيالات، ومصادرة المنازل، وحرق المحاصيل الزراعية، وتدمير منشآت الرّي، وغيرها، دفعت الى حركة هرب طويلة ومريرة. وبصورة مماثلة حصلت عملية تهجير أكثرية المسيحيين الذين كانوا يعيشون في بيروت الغربية بعد عام ١٩٨٤. فقد قامت الفئات الشيعية المتطرفة بتهجيرهم قسراً، بعد ان قامت باحتلال المنازل والشقق، وتفجير المحلات التجارية، وممارسة اعمال الخطف والاغتيالات. في تلك الحالات، كانت أشكال "بسيطة" من الرعب تكفي لهرب وتهجير الناس. بالمقابل، لم يكن الرعب الذي حصل في منطقتي عالية والشوف أقلّ رحمة مما سبق، حيث لم تقدر ميليشيا القوات اللبنانية قوّة الدروز التي تصدّت لهم من منطلق الخوف على المصير الوجودي الذي كان يهدد طائفتهم. بعد تلك الكارثة الرهيبة التي حلت بالقوات اللبنانية، هرب معظم المسيحيين الذين كانوا يقيمون في هاتين المنطقتين. ولكن تبع ذلك - وهذا الأمر لم يحصل سابقاً اطلاقاً - مذابح رهيبة ذهب ضحيتها السكان المسيحيون الذين بقوا في قراهم، ومعظمهم من المبشرين. لم تكن تلك المذابح وسيلة، بل عمليات ثار لا غير.

مع تنامي عمليات التجانس، تراجعت الإغتيالات على أساس الانتماء الطائفي. ولكن تكاثرت بالمقابل عمليات الخطف بغية تحقيق اهداف سياسية معينة. بالنسبة للمسيحيين مثلاً، اصبحت الطريق المؤدية الى مطار بيروت محفوفة بالمخاطر. وهذا ما جعل الإتصال بينهم وبين العالم الخارجي صعباً للغاية، خاصة ان الطريق البحري عبر قبرص كانت طويلة ومكلفة. فوسائل نقل الأشخاص بين بيروت الشرقية والجامعة الأميركية والمستشفى التابع لها في غرب بيروت، تعرضت لهجمات عديدة، لأن فئات شيعية موالية لايران ارادت ممارسة الضغوط لاغلاق تلك المراكز التي ترمز الى الوجود الاميريكي في بيروت. وهذا المصير تعرضت له أيضاً مؤسسات تابعة لدول غربية أخرى، وذلك منذ تكاثر عمليات خطف المواطنين الأجانب ابتداءً من عام ١٩٨٤. ولقد حظي خطف هؤلاء بحملات إعلامية واسعة جداً في وسائل الإعلام الدولية، بينما لم يُشر اطلاقاً الى عمليات

٦- في المذابح الجماعية لم تستثن النساء ولا الأولاد: لم تتج من الاغتصاب والقتل اثناء الاعتداءات الظاهرة ضد قرية او مخيم او حي سكني". راجع: سليم عكاوي وماجده سلمان، المصدر المذكور، ص ٦٨.

خطف عدد كبير جداً من اللبنانيين. وهكذا مثلاً كان الحال بالنسبة لعمليات القصف المدفعي، كانت أيضاً عمليات خطف الرهائن تخضع لمبدأ المعاملة بالمثل. فالميليشيا المعادية، وأحياناً عائلة أحد المخطوفين، كانت تخطف أيضاً أحد الأشخاص وتستخدمه رهينة لتسهيل المفاوضة مع الجانب الآخر. لقد نجحت هذه العملية إلى حدٍ ما، ولكن العدد الكبير من المفقودين يشير إلى أن الاغتيالات حصلت أيضاً وفقاً لمبدأ المعاملة بالمثل.

كانت عمليات الخطف والاغتيال تُهدد بدرجة أولى المواطنين الذين كانوا يتجرون على التردد إلى مناطق الآخرين، أو الذين كانوا يقيمون فيها. ولكن عملية التجانس السكاني لم تخفف من الاخطار التي لحقت بالمواطنين داخل كل مجموعة. فكلما حصل هدوء على جبهات النزاع الرئيسية، كانت تنفجر خلافات ونزاعات داخل كل معسكر^٧. ولكن لم تكن انعكاساتها أقلّ مرارة من انعكاسات الخلافات والاشتباكات بين أطراف النزاع الكبار. في الجانب المسيحي، انتهت النزاعات بين حزب الكتائب وحركة المردة، وبالتالي بين حزب الكتائب وميليشيا النمر التابعة لحزب الاحرار، إلى حمامات من الدم. وبعد توحيد كل الميليشيات في إطار القوات اللبنانية، حصل هدوء نسبي، دام حتى برز نزاع جديد داخل المعسكر المسيحي بسبب اتفاق الميليشيات في دمشق، الذي أثار معارك قصيرة، ولكن طاحنة، بين انصار ججع وحبيقة.

وبتواتر أكثر كانت تحصل أيضاً نزاعات مسلحة بين الميليشيات المتواجدة في بيروت الغربية وبين القوى الإسلامية. قبل عام ١٩٨٢ حصلت اشتباكات ومنازعات عديدة بين ميليشيات كانت مبدئياً متحالفة مع بعضها. ولكن لم تكن لأسباب أو لدوافع سياسية. كان الخلاف يحصل بسبب "الخوات" التي فرضت على الشركات أو المحلات التجارية بهدف تأمين حماية لها، أو بسبب أحداث سير بسيطة، أو خلافات شخصية. وكانت كلها تنفجر وتتحوّل إلى معارك في الشوارع، تستخدم فيها الأسلحة

٧- راجع: Samir KHALAF, On Entrapment and Escalation of Violence, in: American-Arab Affairs, Nr. 24 (1988), p. 15.

"في النهاية تحول النزاع فعلاً من تنافس بين الطوائف إلى صراع عدائي مذهبي. فظاهرة العنف... أخذت أشكالاً أكثر شدة مثل حرب الشوارع وحرب الأحياء بالإضافة إلى العنف الطائفي السابق. ثم بدت الميزة السابقة لمختلف مراحل العنف المدني والتي وصفت مثلاً، "بالمسيحي ضد المسلم" أو "باليمن ضد اليسار"، وكأنها وصفاً لموضوعة قديمة لا قيمة لها الآن. في الحقيقة لم تعد تنفع شيئاً نظراً لبروز نزاعات عدائية جديدة بين السنة والشيعة، الدروز والشيعة، الفلسطينيين والشيعة، الأكراد والشيعة، الموارنة والارمن، أو بين الموارنة والموارنة. في الحقيقة، تجاوزت الأضرار التي خلفها العنف المذهبي خلال السنتين الأخيرتين تلك الأضرار التي نتجت عن العنف بين الطوائف أو بين الأديان".

الثقيلة المتوفرة لدى الجميع^٨. وغالباً ما كانت منظمة التحرير الفلسطينية، عبر جهازها العسكري، تتدخل لتهئية الحال. ولكن معظم الاحيان كان الفلسطينيون ايضاً معنيين مباشرة في تلك الاحداث الجانبية.

بعد عام ١٩٨٤، تكاثرت النزاعات والمعارك في سبيل النفوذ والسيطرة بين الميليشيات الإسلامية، وحتى بين ميليشيات الاحزاب اليسارية. فبعد انسحاب قوات منظمة التحرير من بيروت، بدأ البحث والنزاع عن الاولوية في السيطرة. فاتفق الدروز والشيعية معاً وقضوا على منظمة حركة المرابطون السنية. ثم حصلت معارك طاحنة بين الدروز والمنظمات اليسارية، بدعم من بقايا الميليشيات الإسلامية، وذلك لمناهضة سيطرة حركة أمل الشيعية التي أنقذت من الهزيمة بفعل التدخل السوري. هذا ولم تلبث ان اندلعت معارك طاحنة بين أمل والفلسطينيين، وحزب الله ايضاً. ولكن الاضرار التي احدثتها هذه النزاعات في بيروت الغربية لا تقارن اطلاقاً مع الاضرار التي خلفها الغزو الإسرائيلي.

لقد بلغ الرعب اليومي ذروته بالنسبة للمواطنين، في المناطق حيث معارك النفوذ لم تحقق نصراً لصالح هذا الفريق او ذاك. لم يكن هذا الرعب نتيجة المعارك فحسب، بل وبسبب ممارسات الأحزاب ايضاً. فكان هذا المسكن او ذاك مثلاً يُصادر، بحجة ان زعيم الميليشيا يعتبر موقعه "ذا اهمية استراتيجية"، او لأنه يريد اسكان احد اقربائه فيه، او بكل بساطة، لأنه يُعجبه. السيارة يمكن مثلاً ان تسرق، وهي في الأصل مسروقة، ولا يعرف صاحبها الى من يلتجئ ليبحث عنها. كانت الأسلحة تستخدم ايضاً لتوقيف الناس وارغامهم على دفع المساهمات المالية لنصرة "القضية المقدسة". وفي ظل النزاعات السياسية انتشرت خلال مختلف مراحل الحرب انواع عادية من الاجرام. خلال سنوات الحرب الأولى، كانت الميليشيات المختلفة تفقد انتصارات عسكرية ممكنة، لأنها كانت تهتم اكثر بعمليات السلب والنهب، دون ان ترحم حتى مواطني المجموعة التي تنتمي اليها. وقد برز ذلك بكل وضوح اثناء المعارك الطاحنة التي حصلت في وسط بيروت، في احياء الاسواق

٨- "في بيروت الغربية... وخلال السنوات الأخيرة (١٩٨٤ - ١٩٨٦) انهارت سلطة الزعماء الصغار، وبلغ مستوى تقلص المساحات الجغرافية درجات عالية جداً. فداخل كل حركة، كان يحدث تسابق داخلي ومناقسة واحياناً مجابهة بين انصار مختلف "الرجال الأقوياء" داخلها. كان تكاثر "المكاتب المسلحة" في بيروت الغربية... احدى الظواهر الأكثر بروزاً في تقاسم احياء المدينة بين مختلف الميليشيات. في عام ١٩٨٦ كان اكثر من ١٢٠ "مكتباً" يتقاسمون او يتنازعون على النفوذ في مختلف الأحياء. فمعظم الاشتباكات المسلحة الصغيرة او الكبيرة التي مزقت المدينة خلال السنوات الأخيرة حصلت بسبب خلاف على فتح "مكتب" جديد او على مناطق النفوذ والسيطرة التابعة لهذه "المكاتب" التي كانت احياناً مجاورة جداً لبعضها بعض". راجع، Salim NASR, Beyrouth : Remarques sur les acteurs d'un drame urbain, in : Salim NASR et Theodor HANF Ed. op. cit. p. 144f. Lewis W. SNIDER, op.cit. p. 142 ff.

والمصارف، حيث حصلت اهم عملية تخريبية لوضع اليد على الممتلكات. وقد تكون تلك العملية فريدة من نوعها في تاريخ لبنان الحديث. بعد ذلك، لم يحصل الا نادرا عمل مشابه. فقد اتعظ المواطنون، فنقلوا اموالهم وممتلكاتهم المنقولة الى خارج البلاد، او اضطروا الى دفع تأمين عليها. ولكن في النهاية لابد من الإشارة الى ان مثل هذه الأعمال كانت نادرة حيث لم تتواجد الميليشيات، خاصة في بيروت الغربية. وكذلك لوحظ بين ١٩٧٩ و ١٩٨٢، ثم منذ عام ١٩٨٤، ان نسبة الإجرام غير السياسي في المنطقة التي كانت تسيطر عليها الميليشيات المسيحية كانت ضعيفة. وهذا شكل آخر لعدم المساواة افرزته الحرب.

الآ ان الاجرام السياسي و"العادي" امتزجا معاً بدرجة عالية. فمنذ اندلاع الحرب، كانت تحصل باستمرار تعديّات على الممتلكات وحتى على الأشخاص داخل كل فريق بهدف الترويض والتخويف. وفي سنوات الحرب الأخيرة - وخاصة في غرب بيروت - تكاثرت عمليات خطف الأشخاص، بهدف الحصول على فدية مالية تحت غطاء سياسي، دون التأكد من هوية الخاطفين لمعرفة اذا كانوا قراصنة سياسيين او قراصنة بكل معنى الكلمة^٩.

واخيراً لابد من الإشارة الى ان مسلك الجنود التابعين الى جيوش نظامية لم يختلف اطلاقاً عن مسلك الميليشيات. لقد تمركزت في لبنان - ومازالت - وحدات من الجيش السوري. فعند عودة بعضها الى سوريا، كانت تحصل مشكلات نظامية كبيرة، وذلك بسبب الانخفاض البارز في دخل الجنود. وكذلك أقام الجيش الإسرائيلي مراكز جمركية لمراقبة وتفتيش عناصره العائدين من لبنان.

واجمالاً يمكن الاستنتاج بان الرعب الذي اصبح ظاهرة يومية، اخذ اشكالاً عديدة: من الاغتيالات الى تهديد وسلب ممتلكات الناس، الأجانب واللبنانيين، بواسطة "الآخرين"، وكذلك بواسطة ميليشيات من داخل كل فريق.

عندما كان يبدأ طرف ما بالقصف المدفعي، كانت الفئات المستهدفة بهذا القصف تنتظر ردّ "شبابها" بقصف مضاد، لأن التوازن في استخدام اجهزة الرعب كان

٩- كانت نسبة الجرائم السياسية وغير السياسية في المناطق الواقعة تحت سيطرة القوات اللبنانية اقل بكثير مما كانت عليه في باقي مناطق البلاد. في عام ١٩٨١، وحسب تقارير قوى الأمن الداخلي، كانت نسبة الاجرام في مناطق نفوذ القوات اللبنانية بالمقارنة مع المناطق الأخرى، كالآتي: ٣٥ مقابل ٤١٧ حادث قتل او اغتيال، ١٥ مقابل ٣٢٣ محاولة قتل او اغتيال، ٣٤ مقابل ٤٣٠ حادث سرقة، ٨ مقابل ٣٥٦ حادث سلب مسلح، ٦ مقابل ٣٣ عملية خطف، ٢ مقابل ٢٢ عملية غش واحتيال، ٣ مقابل ٨٩ جريمة مخدرات، ٥١ مقابل ٥٦٨ اعتداء بالمتفجرات، ١٨ مقابل ٨٠ اعتداء على قوى الأمن والجيش، ٢ مقابل ٢٠٦ اشتباكات مسلحة، ٢ مقابل ٢١١ سرقة سيارات. راجع: Lewis W. SNIDER, op.cit. p. 142 ff.

افضل سبيل لإيقافه. كذلك اعتقد مواطنون كثيرون ممن تدمروا من عمليات الخطف والاحتلالات، بان افراد جماعتهم اضطربوا الى ممارسة تلك الأعمال لأن الانتقام ضروري لردع العدو عن ممارساته. طبق هذا الأمر أيضاً على المذابح والتهجير. فبقدر ما كان ينمو حجم الرعب، كان يتعاظم لدى المواطن الشعور بالتمائل مع ميليشيات التجمع الذي ينتمي إليه، سواء أكانت على صواب او على خطأ.

وعندما كانت تهدأ جبهات القتال الرئيسية، كانت تتشابك عناصر كل ميليشيا مع بعضها، ويزداد بالتالي امتعاض وغضب التجمع الذي تنتمي إليه. كان يتدمر الناس من كثرة حواجز التفتيش والمراقبة التي تنشر القوضى على الطرقات وفي الشوارع، ومن الرسوم التي كانت تفرضها عليهم الميليشيات عنوة وقسراً، ومن عجرة المسلحين. ولكن هذا التدمير كان يستمر فقط حتى سقوط أول قذيفة او حتى انفجار سيارة ملغومة.

٢ - من تعبئة الفئات الشعبية الى تسلط المرتزقة

قبل الحرب ضمت المنظمات الفلسطينية بين صفوفها عدداً كبيراً من الفدائيين المدربين مهنيًا. اما مختلف اطراف النزاع اللبنانيين، فلم تتوفر لهم الا كوادر قليلة وضعيفة التأهيل عسكرياً. ولكن الاحزاب التي كانت، منذ زمن طويل، تضم بين صفوفها، "ميليشيات"، تمكنت من جمع عدد من المتطوعين وتدريبهم خلال عطل نهاية الاسبوع والعطل المدرسية. فضباط حركة فتح الفلسطينية، وكذلك ضباط الجيش اللبناني، الذين أخذوا منذ عام ١٩٧٣ يدرّبون ميليشيات هذا الفريق او ذاك، حاولوا تأهيل تلك العناصر من المتطوعين، الذين كانوا يتمتعون بمعنويات عالية. ولكن هؤلاء كانوا يمشون على مثال عناصر الحركات الكشفية. تعلموا الى حد ما عمليات اطلاق الرصاص، ولكن لم يكن بوسعهم المشاركة فعلياً في عملية جماعية. كانوا يفتقرون الى كوادر قيادية متوسطة. فميليشيات الحركة الوطنية استفادت كثيراً من الكوادر الفلسطينية. اما الاحزاب المسيحية فكانت تنظم لميليشياتها دورات تدريبية متفرقة، باشراف "حركة التنظيم".

عند اندلاع الحرب، قامت كل الفئات بتعبئة مكثفة لعناصر طوائفها الدينية، بهدف تجنيد مقاتليها. الاحزاب المسيحية قامت بذلك بطريقة علنية. اما زعماء الاحزاب اليسارية فقاموا بذلك مكرهين، وذلك لأنهم كانوا من المسيحيين، ويرفضون بالتالي، بحكم قناعاتهم، اعطاء الطابع الطائفي لتلك التعبئة. ولكنهم سرعان ما تخلوا عن مفهومهم العلماني عندما تبين لهم ان الدعوة الى تضامن طبقي بين صفوفهم لم يستجب لها الا عدد قليل من

المسيحيين. اما الاعداد الكبيرة من المسلمين، فكانت تأبى الدعوة للتعبير فقط عن تضامن ديني^{١٠}.

ولكن الظاهرة الأكثر فعالية تجسّدت في عمليات التضامن العفوية التي برزت لدى السكان في ضواحي العاصمة، بسبب الشعور بالتهديد. كان يقطن في تلك الضواحي غالباً اناس من ذات العائلة الكبيرة، أو من ذات القرى، وحتى من ذات الطائفة الدينية. فكانت تقدم إحدى العائلات مثلاً عدداً من أفرادها لحراسة الحواجز، كما كانت توكل مسؤولية هذه الطريق أو تلك إلى "قرية" ما، أو تكلف عناصر شيعية أو مارونية بحماية حيّ كامل في المدينة. أما في الأحياء المختلطة والبورجوازية، فلم يستجب أحدٌ في البداية لنداءات التعبئة. ولكن بعد مرور أشهر قليلة على اندلاع الحرب، برزت في تلك الأحياء الميليشيات، وبدأت عمليات "التجانس" الطائفية بعنف، عبر "القتل على الهوية" في البداية، ثم عبر القصف العشوائي على الأحياء المستهدفة، وصولاً إلى تعميم الشعور بالتهديد، وبالتالي إلى تعبئة جماعية لكل الطوائف الدينية.

حصلت التعبئة لدى الجانب المسيحي بسرعة أكثر مما حصلت لدى الجانب المسلم. فالسنة مثلاً اعتبروا أنفسهم ممثلين كفاية في الحرب عبر الفلسطينيين، الذين وصفهم مفتي الجمهورية اللبنانية "بجيش الاسلام"، كما كانوا فعلاً متفوقين على غيرهم. أما الشيعة فقد اتخذوا في البداية، ويتوجيه من الإمام موسى الصدر، جانب الحياد، إلا أنهم كانوا يشكلون العدد الأكبر من مقاتلي الأحزاب اليسارية. وعندما أرادت المنظمات الفلسطينية اظهار الحرب "وكانها قضية لبنانية داخلية"، أخذت تدعم بكثافة شديدة حركة المرابطون^{١١}. أما التعبئة المكثفة للشيعة كطائفة فقد

١٠- سليم عكاوي وماجده سلمان، في المصدر المذكور، انتقدا الفريق التقدمي من وجهة نظر يسارية: "... كان المفهوم التقدمي غالباً متناقضاً مع الممارسات العسكرية والسياسية لهذا الفريق..." (ص ١٤). اتهموا محاربييه بققدان الوعي السياسي (ص ٥٦) وبتزايد ضعف المفهوم السياسي لديهم (ص ٣٨) وعدم مشاركة السكان في الصراع (ذات المصدر)، بل في الممارسات الطائفية بنوع خاص (ص ٤١). لم تتجرأ الأحزاب اليسارية مرة واحدة على اتخاذ اجراء لوقف عمليات السلب والنهب، وذلك "لأن الأحزاب اليسارية كانت بحاجة إلى مقاتلين، سواء أكانوا لصوفاً أم لا" (ص ٣١).

١١- ان تقدير الفلسطينيين للميليشيات المتحالفة معهم كان محدوداً. تحدّث عن هذا الموضوع، حسن تودين، العامل في قسم الإعلام التابع لمنظمة التحرير، فقال: "من له اعتبار في هذا البلد؟ الكتاب هناك، وهنا نحن وجنبلاط. جنبلاط فقط، لأن هناك قبيلة وراءه. وكل الباقي لا اعتبار لهم. فهم مرتبطون سواء بالسوريين أو بنا. خذ مثلاً الذين يسمون بالناصرين، يوجد الآن ستة مجموعات منهم. حتى المرابطون لا يتجاوز عددهم الألف عنصر. تعطى لهم الأوامر عبر الهاتف، هذا إذا كان يعمل. لتركهم يفرضون نفوذهم في أحياء المدينة طالما لا يتطرقون أكثر من اللازم في تصرفاتهم الشاذة. ولكنهم لا يشكلون أية قوة". من مقابلة أجراها مع المؤلف عام ١٩٨٠.

حصلت في نهاية السبعينات في اطار بداية نزاعهم مع الفلسطينيين. والدروز من جانبهم بدأوا بتعبئة صفوفهم عام ١٩٨٢ بعد دخول القوات اللبنانية الى الشوف. اما السنة فقد ادركوا الحاجة الى التعبئة ابتداءً من عام ١٩٨١ في مدينة طرابلس، عندما انتفضوا ضد الاحتلال السوري والفئات العلوية المتعاملة معه.

بالنسبة للجانب المسيحي كان الوضع مختلفاً تماماً. لقد شعر المسيحيون عامة، والموارنة خاصة، بان وجودهم اصبح منذ عام ١٩٧٥ مهدداً بالموت. لم يكن لهم "جيش مسيحي" ليحارب عنهم. كان عليهم تحمل مسؤولياتهم بانفسهم. في حرب السنتين شاركت البورجوازية المسيحية كثيراً فيها. كان المهندسون يحولون الشاحنات الى نوع من الدبابات والمصفحات الميدانية، كما قاموا بتصنيع قاذفات للقنابل مستخدمين المواد المتوفرة محلياً. وكذلك تطوّعت سيدات "الطبقة الراقية" لتحضير الطعام للمقاتلين وللعاية بالجرحى. وقد اندهش السفير الاميريكي انذاك عندما رأى الطلاب اللبنانيين يتركون جامعاتهم عائدين الى وطنهم للمشاركة في الدفاع عن طوائفهم. حتى ان شبيبة المنظمات الرهبانية حملت السلاح. وكذلك كان الموظفون والمستخدمون وحتى رجال الأعمال يشاركون بعد نهاية اعمالهم بتأمين الحراسة في فترة المساء او في الليل على جبهات القتال. الا ان نهاية التعبئة المسيحية بدأت، عندما تبين، في خريف ١٩٧٦، ان الحرب قد انتهت. عندئذ عاد اصحاب المهن الحرة والتجار الى مزاولة اعمالهم، كما انتقل عدد كبير منهم الى الخارج، بانتظار عودة الانتعاش الى الاقتصاد اللبناني. وكذلك عاد الطلاب الى الدراسة. كما عاد قائد "التنظيم" الى عمله كطبيب جراح.

عندما تبين في بداية عام ١٩٧٧ ان النزاع لم ينتهِ بعد، كان هناك عدد كبير من الشباب على أهبة الاستعداد للانخراط في الميليشيات. كانت اعمارهم، عند اندلاع الحرب، تتراوح بين ١٢ و ١٨ سنة. ولذا كانت عودتهم، بعد مرور سنتين، الى مقاعد الدراسة صعبة للغاية. كما ان اعداداً وافرة منهم كانت من الطبقات الفقيرة، ولم يكن لها أمل كبير بأي تفوق علمي او مهني. اما الآخرون، فكانوا من المناطق الريفية، خاصة من المناطق التي حصل فيها تهجير مكثف، مثل الناجون من الموت في مذابح الدامور، او مهجرو المناطق المسيحية في الشمال، او البقاع، او الشوف. لم تكن لهم ايضاً اية امكانية مهنية. كما ان التهجير كان حافزاً اضافياً لهم للمشاركة في القتال في سبيل العودة الى ديارهم^{١٢}. وهكذا اخذت الميليشيات تنشيء الثكنات

١٢ - "يشكل المهجرون الخلّة الأعنف في القوات اللبنانية. لا ينتظرون شيئاً من تقسيم البلاد. يريدون اكثر فاكثر الانتقام من الذين هجروهم من قراهم". من مقابلة اجراها المؤلف مع احد رجال الدين الموارنة عام ١٩٨١.

العسكرية وتدرّب عناصرها بانتظام. فالجنود السابقون في الجيش اللبناني، وكذلك الضباط الذين سرحوا من الخدمة عام ١٩٧٦، انضموا الى صفوف الميليشيات. ومنذ عام ١٩٧٨ بدأت دورات تدريبية في إسرائيل. فالنواة الرئيسية للتعبئة الشعبية التي حصلت خلال سنتي الحرب الأولى، تحولت الى تنظيمات شبه عسكرية. عرفت تدعيماً بعد ما فرض توحيدها بالقوة في إطار "القوات اللبنانية" بقيادة بشير الجميل.

أمكن حصول ذلك، لان الميليشيات المسيحية انشأت مؤسسات لتأمين مصادر مالية لها. فقد فرضت ضرائب مباشرة على السكان المقيمين في مناطق نفوذها^{١٢}، وعلى المؤسسات واصحاب الأملاك. وكذلك فرضت "ضرائب غير مباشرة" على مداخل المطاعم - وكان يشار اليها بوضوح في الفواتير - وعلى كل محطات الوقود. فضلاً عن ذلك، كانت مصادر التمويل تأتي بغزارة اكثر من الرسوم الجمركية على الاستيراد، والتي كانت القوات اللبنانية تضع اليد عليها - مكان الدولة - في قسم من مرفأ بيروت وفي المرافق الأخرى. وقد كلف مصرفيون اقحاح بمسؤولية "الإدارة المالية".

لم تسمح هذه المداخل بتأمين رواتب المقاتلين وتجهيزهم بالعتاد واللباس فحسب - وهذا امرٌ يدهي بالنسبة لتنظيم عسكري، اضطرت عناصره عام ١٩٧٥، الى المشاركة في الحرب بلباس الجينز والى شراء اسلحتهم بأنفسهم - ولكنها سهلت انشاء جهاز اداري كبير ذي طبيعة عسكرية وسياسية ايضاً. وتكاثر كذلك انشاء المؤسسات الأخرى مثل وكالة للأنباء، وشرطة عسكرية، وشرطة مدنية، ومكتب صحافي واعلامي، ومكتب للخدمات الاجتماعية، ومحطة اذاعة، ومحطة تلفزيون، ومكاتب تمثيل في عدد من العواصم الأوروبية. لم توفر هذه الاجهزة لعدد كبير من المتقنين والكوادر المؤهلة، نشاطاً جذاباً يستهدف "تحرير لبنان" عبر "حركة مقاومة" فحسب، بل ايضاً مناصب مهنية جذابة تعجز الدولة وحتى القطاع الخاص عن تأمينها لهم.

وهكذا بدأت القوات اللبنانية عام ١٩٨٠ بانشاء مؤسسات مماثلة لما فعلته منظمة التحرير الفلسطينية في جزء آخر من لبنان، اي دولة داخل دولة. ولكنها، في إطار واحد، ذهبت القوات الى ابعد ما فعلته منظمة التحرير والدولة اللبنانية بالذات. ففرضت الخدمة العسكرية بهدف تأمين عناصر احتياط لها. وهكذا، وبعد مرور

١٣- من وجهة نظر اليسار اللبناني: تسهم هذه السياسة في تقريب البورجوازية المسيحية الصغيرة من احزاب اليمين المتطرف التي تبدو وكأنها تتصدى للأغنياء". راجع: سليم عكاوي وماجدة سلمان، المصدر المذكور، ص ٣١ وما يليها.

خمس سنوات، حلّت مكان التعبئة الشعبية العفوية التي برزت عام ١٩٧٦، تعبئة الزامية ومؤسسية.

اما الميليشيات الاسلامية فلم تستطع حتى عام ١٩٨٢ انشاء اجهزة شبيهة بأجهزة القوات اللبنانية. لقد توفرت لديها وبكثافة اعداد كافية من المقاتلين ومن ذات الفئات الاجتماعية. ولكن لم تجمع في ثكنات نظامية، بل في ما يُسمّى بالدكاكين، والمكاتب العسكرية الموزعة على مختلف احياء المدينة. كانت لهم مكاتب سياسية، يشرف عليها عدد من المتقنين البارزين، ومحطات اذاعية، واجهزة صحفية. ولكن بسبب حجم عناصرها المحدود لم تعمل هذه المؤسسات بأهلية مهنية مثلما عملت مؤسسات القوات اللبنانية، رغم انها انشأت مصادر تمويل خاصة بها، عبر فرض الضرائب، وجباية الرسوم من المرافىء غير الشرعية، وخاصة عبر المساعدات الخارجية المختلفة، ولم يكن آخرها المساعدات الليبية. ولكن هذه المصادر لم تكن دائمة ومنظمة لسوء تنظيمها او لارتباطها بحسن نية وارادة ومزاج ممولّيها الخارجيين. اما فيما يتعلق بامدادات الأسلحة، والتدريب، وحتى التمويل ايضا، فقد بقيت الميليشيات الإسلامية تحت رحمة منظمة التحرير، التي لم تكن لها اية مصلحة في تقوية تلك الميليشيات أكثر من اللازم او في اعطائها اية استقلالية عنها. ولكن ضعفها الأكبر تجلّى في تمزيقها التنظيمي، وتنافس قادتها على النفوذ الذي كان يؤدي باستمرار الى نزاعات واشتباكات. وهذا ما أفشل كل محاولة لإقامة ادارة مدنية في غرب بيروت.

لم يتغيّر هذا الوضع، الا عندما شعر الشيعة والدروز بتهديد وجودهم - تماماً كما حصل سابقاً مع المسيحيين - وقامت في صفوفهم حركة تعبئة جماهيرية. لقد دافع الفريقان عام ١٩٧٩ او كذلك في عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٣ ضد هذا التهديد بتعبئة شعبية - مثل المسيحيين ايضاً عام ١٩٧٥/١٩٧٦ - وقد نتج عن ذلك انشاء ميليشيات منظمة، بعد تحقيق انتصارات عسكرية بارزة، رغم انغماسها في نزاعات أخرى. وبعد عام ١٩٨٥ لم تعد تشكل حركة "أمل" او الحزب التقدمي الاشتراكي، حركات حزبية او شعبية لطائفتيهما، بقدر ما تحولت الى ميليشيات عسكرية قوية، يشرف على كل منها جهاز سياسي.

لقد تطوّرت ميليشيات القوات اللبنانية، وحركة أمل، والحزب التقدمي الاشتراكي، واصبحت الى حدّ كبير متشابهة. سيطرت كل منها على مناطق شاسعة من الاراضي اللبنانية التي حصل فيها تجانس سكاني. كانت لها "مرافئها الخاصة"، ومداخلها المستقلة. أنشأت في مناطق نفوذها نوعاً من الادارة المدنية وحلّت بالتالي مكان الادارة الحكومية. نجحت الى حدّ كبير بالسيطرة على نفوذ السياسيين المدنيين من مختلف الاتجاهات والقاطنين في مناطق نفوذها. القوات اللبنانية حولت حزب

الكتائب لخدمتها وجعلته تحت رحمتها. وحركة أمل مارست ضغوطاً على الزعماء الشيعة حتى ان بعضهم لجأ الى المناطق المسيحية. الا ان وليد جنبلاط ادرك مثل سليمان فرنجية، وعرف كيف يجمع بين شرعيته التقليدية، كأمر للدروز، وبين زعامة ميليشيا، كما نجح في تحويل الحزب التقدمي الاشتراكي الى واجهة لميليشيا الدروز.

ولكن لم تفلح الميليشيات الثلاث تماماً في فرض نفوذها وسيطرتها على "مناطقها". فالقوات اللبنانية اضطرت الى تقاسم النفوذ في المناطق المسيحية مع الفئة المسيحية من الجيش، الذي كان يمثل فيها شرعية الدولة اللبنانية. وحركة أمل أيضاً وجدت نفسها في مأزق مرير مع حزب الله، ومع قوات منظمة التحرير في جنوب لبنان. ولكن الحزب التقدمي الاشتراكي تمكن من السيطرة بمفرده على منطقة نفوذه التي أصبحت منذ تهجير المسيحيين كبيرة جداً بحيث لم تتمكن الطائفة الدرزية الصغيرة من التمسك والتحكم بها. لذلك حاول جنبلاط التحالف مع السنة ومع منظمة التحرير الفلسطينية، كما سعى الى عودة المسيحيين الى الشوف.

فالواقع الذي كشف عن عدم امكانية الميليشيات الثلاث من السيطرة كلياً على "كانتوناتها"، دفع بزعمائها الى الأخذ بالاعتبار، والى حد كبير، مصالح زملائهم واعدائهم في القيادة.

ان القيادات السياسية للميليشيات - باستثناء جنبلاط وبري، اللذين، لأسباب مختلفة، كانا يتمتعان بقاعدة شعبية، وجعجع أيضاً - لم تتوفر لها امكانية لعب دور بارز في نظام سياسي غير عسكري. في انتخابات نيابية حرة، لن تتوفر لافراد تلك القيادات اية امكانية بالفوز، او بالحصول على وظيفة مرموقة في اية ادارة مدنية. لذلك كان يحتم بقاء نفوذهم ومعنوياتهم، وحتى دخلهم، وجود الميليشيات واستمرارها والاستفادة منها. بهذه الطريقة كانوا يشبهون تماماً زعماء القراصنة في حرب الثلاثين عاماً^{١٤}. وينطبق ذات الشيء على القراصنة انفسهم، الذين احترفوا العمل الميليشيوي. فكانوا يتلقون مرتبات شهرية مرموقة بالإضافة الى مداخيل أخرى جانبية. لم يتعلموا شيئاً سوى مهنة الحرب. وهذه ليست مهنة محترمة. فالسلام بالنسبة لهم سيدفع بهم اجتماعياً الى الحضيض. لذا كان لقادة

١٤ - ارنولد هوتنجر (Arnold HOTTINGER) "هو أول من استخدم هذه المقارنة: "كلما طالأت أزمة الشرق الأوسط الحالية، يزداد أكثر فأكثر بروز المميزات التي تذكر بحرب الثلاثين سنة في أوروبا. في لبنان مثلاً، تسيطر عصابات مسلحة، تصنع السياسة، وتعمل على استمرار حالة الحرب لأنها تحتاج اليها كي تتمكن من الاستمرار كعصابات. وهذا ما يذكر بمفهوم "والنشتاين" (WALLENSTEIN) "عن الحرب التي ينبغي ان تغذي الحرب". راجع: Arnold HOTTINGER, Dreissigjähriger Krieg der Araber ? in: Neue Zürcher Zeitung 24. 11 1987.

القراصنة، وللقراصنة بالذات، مصلحة كبيرة في ممارسة نفوذهم، اذا ما استمرت الحرب^{١٥}. وهكذا افرزت الحرب في لبنان هذه النوعية من الميليشيات التي هدّدت بتحولها الى وسيلة لضمان استمرار الحرب.

٣ - الميليشيات والجيش النظامية في هدنة غير مستقرة

بقدر ما كانت تطول سنوات الحرب، كانت الميليشيات الرئيسية تبذل جهوداً حثيثة لتتحول الى قوات شبه نظامية، من حيث تنظيمها، ونظامها، واسلحتها. وبالمقابل، لوحظ ايضاً ان سلوك الجيوش النظامية كان بتشابه كثيراً مع سلوك الميليشيات، كلما طال بقاؤها في لبنان.

لا تعزى هذه المقارنة الى عملية تماثل متبادلة فحسب، بل ايضاً، وبنوع خاص، الى معطيات معينة في قيادة الحرب. ففي الحروب التقليدية تؤخذ القرارات العسكرية عادة بالاستناد الى واقع الحرب على ارض حرة. يتعلق بعضها بدحر القوى المعادية، والبعض الآخر باحتلال منطقة او بتثبيت احتلالها. حصل هذا النوع من الحرب عام ١٩٨٢ اثناء المواجهة بين الجيشين الاسرائيلي والسوري. فقد احتل الاسرائيليون جنوب لبنان. فحاصروا في البداية مخيمات الفلسطينيين ثم هاجموا فيما بعد. اما السوريون فقد انسحبوا، بعد الخسارة التي لحقت بقواتهم الجوية الى مواقع كانت افضل تحصيناً لمجابهة اي هجوم اسرائيلي على سوريا.

تجدر هنا الإشارة الى محاولة "كلاسيكية" أخرى لإدارة الحرب - وان بحجم محدود جداً - وذلك عندما حاول الفلسطينيون في "حرب الجبل" في ربيع عام ١٩٧٦ السيطرة على المنطقة المسيحية. فقد حصلت تلك المحاولة، كما أشير سابقاً،

١٥- "... هؤلاء الذين يسيطرون على نظام الحرب الداخلية القائمة لهم مصلحة في استمراريتها، وليس في استبدالها". هذا ما ذكره Augustus Richard NORTON, Waiting for the Nadle, in : American-Arab Affairs, 24 (Spring 1988) p. 22.

و سليم نصر، في مقاله A New Approach to the Conflict : The Social dynamics of an internal war, in : American-Arab Affairs, 24 (Spring 1988) p. 20.

حدّد المجموعات التالية ومصالحها التي تعتبر مقياساً يبرّر استمرار الحرب: "أمراء الحرب والمنفعون من الحرب، مسؤولو الادارات المحلية الناشئة حديثاً ومنظروها والعاملون فيها، المراكز الجامعية في المناطق... الأجهزة السياسية والادارية... الوسطاء الذين برزوا للتعاطي مع تقسيم السوق اللبناني وللتعايش معه، الفئة المتحركة من المحاربين المتفرغين او المشاركين جزئياً في الحرب،... وبصورة مأسوية أكثر، جماهير الشعب المهجر، بسبب استخدام سيل العنف من قبل مختلف المجموعات بهدف إقامة "مناطق جغرافية" متجانسة".

دون تحضير كافٍ، وسرعان ما أصيبت بالشلل. ومنذ ذلك الحين، لم تحصل أية عملية أخرى من هذا النوع.

يعود سبب ذلك، دون ريب، الى طبيعة أرض لبنان الجغرافية التي لا تصلح إطلاقاً لهجوم أو لغزو سريع، باستثناء سهل البقاع. "قالدبابات والمصفحات لا تستطيع تسلق الجبال مثل الماعز". هكذا وصف أحد القادة العسكريين اللبنانيين الصعوبات التي تعترض الوحدات العسكرية المؤلفة. فالمدافعون عن المواقع والمجهزون بأسلحة مضادة للدبابات، خاصة الذين يعرفون جيّداً طبيعة الأرض، يستطيعون تعريض وحدات عسكرية تتفوّق عليهم عدداً وعتاداً، لصعوبات كبيرة في المناطق الجبلية. فهذه المناطق في لبنان ليست مكاناً معزولاً، ولا منطقة انسحاب عسكري، - كما كان الحال مع الجيش السويسري إزاء أي هجوم ألماني محتمل على الأراضي السويسرية -، بل مناطق سكنية، خاصة بالنسبة للموارنة والدروز. فطالما لم تقع هذه المناطق تحت الاحتلال، كانت تشعر هاتان الطائفتان بالحرية، حتى وإن سقطت أطراف البلاد تحت الاحتلال.

ينطبق هذا الأمر أيضاً على المدن، خاصة العاصمة بيروت، حيث يعيش باستمرار نصف اللبنانيين تقريباً. فاحتلال المدن الكبيرة يعتبر دائماً أمراً صعباً بالنسبة للجيش النظامية، وبنوع خاص مدينة بيروت. لقد بنيت هذه المدينة بطريقة عشوائية تقريباً. أحيائها متشابكة ومتداخلة ببعضها. شوارعها الطويلة والعريضة نادرة أيضاً. لذلك لم تجد الدبابات إلا تلك الشوارع القليلة التي شقت في الستينات، مرمى لمدفعتها. كما أن معظم الابنية مُسَيّد بالاسمنت المسلح. وهكذا توفرت في بيروت تلك الأوضاع التي لا تختلف كثيراً عن الأوضاع المتوفرة في المناطق الجبلية، حيث يستطيع عدد محدود من المدافعين المجهزين بالأسلحة الملائمة، صدّ عدد كبير من المهاجمين. ويصح ذلك بنوع خاص، عندما يجهل المهاجم طبيعة المدينة تماماً. إذ يتمكن المدافعون الذين يعرفون جيداً واقع الأرض، من مقاومة العدو وإنزال الضربات القاضية بقواته.

كانت الأوضاع في حرب الجبل كما في حرب المدن تساعد كثيراً المدافعين، حتى وإن كانت أعدادهم واسلحتهم غير كافية، شرط توفر ارادة المقاومة دون الاهتمام إطلاقاً بالدمار والخسائر البشرية في صفوف المدنيين. وهكذا كان حال الفدائيين اللبنانيين، والفلسطينيين أيضاً، والميليشيات التابعة لهم. كانوا جميعاً مقتنعين بضرورة القتال في سبيل الحفاظ على مناطقهم أو أحيائهم السكنية في المدن، من أجل الحفاظ على وجود التجمع الذي ينتمون إليه. وقد ترسّخ هذا الاقتناع لديهم بنوع خاص، بفعل المجازر التي حصلت في عمليات احتلال "الجزر السكانية" النائية. لقد حاربوا جميعاً بشجاعة البائس عندما يتعرضون للهجوم. إلا أن دوافع القتال كانت

في بعض الحالات ضعيفة حتى وان استثنيت "الجزر السكانية" التي يصعب الدفاع عنها. فالجبال والوديان، الشوارع والأزقة التابعة لأطراف النزاع الآخرين، لم يكن يعرفها المقاتلون جيداً، أو كانوا يجهلونهم كلياً. لذلك لم يتشجعوا الا نادراً على مهاجمتها. فلم تحصل الا عمليات عسكرية قليلة بين الميليشيات خارج بيروت، باستثناء احداث الشوف عام ١٩٨٢/١٩٨٣ وشرق صيدا عام ١٩٨٥. وفي الحالتين انتصرت تلك الميليشيات التي كانت تنظر الى تلك الأحداث وكأنها "لعبة محلية"، اي الدروز في الشوف، والسنة والفلسطينيون في صيدا. اما في بيروت فقد حصلت عمليات عسكرية عام ١٩٧٥ و١٩٧٦ فقط في منطقة الفنادق التي كان يعرفها جيداً المقاتلون من كل الفئات. منذ بداية تلك الاشتباكات الدامية كان حزب الكتائب في موقع ضعيف. فعلى خط ضيق بجوار البحر كانت تمارس الهجمات انطلاقاً من مواقع مرتفعة في المدينة، كما كانت الإمدادات صعبة أيضاً. ومع ذلك تمكنت مجموعة من المقاتلين من الصمود اشهرًا عديدة في بعض اجزاء من حيّ الفنادق. ولم يتم احتلال تلك المنطقة الا بعد ان انضمت الى المقاتلين في الجانب الآخر وحدات مدججة بسلح حديث تابعة لجيش لبنان العربي المنشقة عن الجيش اللبناني. ومنذ ذلك الحين، تطورت الحرب واصبحت "حرباً جالسة"، (اي انطلاقاً من الكراسي التي كان يجلس عليها المقاتلون). وتتلخص باطلاق النار والقصف المدفعي عبر وعلى خطوط التماس التي بقيت قائمة حتى نهاية الحرب. فلم تحصل اية محاولات للتسلل، او عمليات انتحارية عبر تلك الجبهة، سوى عملية هجومية واحدة في صيف ١٩٨٥، عندما عَبَرَ خطوط التماس انصار ايلي حبيقة الذين طردتهم القوات اللبنانية من شرق بيروت. في الواقع، لم يهاجموا "الجهة الأخرى" بل حاولوا العودة الى منطقتهم.

لم تحصل معارك الشوارع الدموية بين اطراف النزاع الرئيسيين، بل في النزاعات داخل كل فريق. في هذه الحال، كان جميع المشاركين يعرفون جيداً طبيعة المكان، ولم تكن بينهم اية حدود تذكر، سواء بين حزب الكتائب ونمور الأحرار، او فيما بعد، بين حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي، او بين حركة أمل وحزب الله. الا ان المعارك بين "الاخوة" كانت بالتالي دموية للغاية.

وبالاجمال تبين ان المقاتلين من كل الميليشيات برهنوا عن اندفاع وجدارة عالية في الدفاع عن مناطقهم، ولكنهم لم يبرزوا اية شجاعة تذكر في الهجوم على

مناطق الآخرين^{١٦}. فبعد تثبيت الجبهات، واحتلال المناطق المحصورة، وتهجير سكانها، ساد بين اطراف النزاع اللبنانيين نوع من الهدنة العسكرية.

اضافة الى جدارة الميليشيات في الدفاع عن مناطقها، تجدر الإشارة الى انها كانت قادرة على مقاومة الجيوش النظامية في عدد من الحالات^{١٧}. لذلك ادركت القوات الاسرائيلية والسورية الثمن الباهظ الذي لابد من دفعه في سبيل تحقيق انتصارات عسكرية في لبنان.

في ايار ١٩٧٦ حاول السوريون لأول مرة احتلال مدينة صيدا. ولكن الفلسطينيين المتمركزين في تلك المدينة قضوا على فيلق كامل من الجيش السوري اثناء الهجوم. وفي عام ١٩٧٨ فشلت المحاولة السورية في سحق الميليشيات المسيحية في الأشرفية. فقد اضطرت مجموعات من المصفحات السورية الى الانسحاب. كما وقعت القوات السورية الخاصة المتمركزة في ذلك الحي من المدينة، في مأزق صعبة. وكذلك في عام ١٩٨١، اثناء حصار مدينة زحلة المعزولة، فشلت ايضا كل المحاولات السورية في هجوماتها بواسطة المصفحات وفرق المشاة.

والجيش الاسرائيلي بدوره عرف ايضا عام ١٩٨٢ صعوبات كبيرة في تحطيم المقاومة الفلسطينية في مخيمات الجنوب. وفي بيروت تردد كثيراً في الهجوم على المدينة وعلى المخيمات. فخلال الحصار، قام مرّات عديدة بتضييق الخناق عليها، اذ حاول، انطلاقاً من منطقة المتحف، عزل الوسط الرئيسي في غرب بيروت عن المخيمات. ولكنه توقف عن ذلك فيما بعد.

١٦- يستطيع الفريقان الدفاع عن مناطقيهما وليس احتلالها. في بعض نقاط على الجبهة، لم يجر التوصل خلال أشهر، الى عبور شارع صغير او الى احتلال مبنى فقط. لقد كانت ومازالت حرب مواقع. المثل النموذجي على ذلك هو غاليري سمعان. لقد صرف الليبيون مبالغ طائلة من المال في سبيل خرق هذا الموقع لشق منفذ الى تل زعتر. ولكن دون نتيجة. كان هناك عدد قليل من المدافعين عن ذلك الموقع، ولكن لم يكونوا من طراز السوبرمان. من البداية وحتى النهاية حافظ الفريقان، على مواقعهما. هذا ما عبّر عنه فؤاد الشمالي، المسؤول السابق لحركة التنظيم اثناء مقابلة اجراها معه المؤلف عام ١٩٧٩.

١٧- كانت عناصر الميليشيات خارج المدن تقيم في مناطق مكشوفة دون اية حماية خارجية من الدشم او الأبنية او التحصينات التي يصعب انشاؤها. ولكن في المدن حيث توجد مجموعات من الأبنية تساعدهم على التستر وتحميهم من المراقبة والتعرّف عليهم، ومرمى رصاص العدو، تستطيع مجموعات الفدائيين ممارسة عمليات ناجحة. فهم في وضع يسمح لهم بالتصدي للقوى النظامية التي لا تلجأ الى استخدام اسلحة الدمار حفاظاً على ارواح السكان المدنيين. هذا الاختبار عاشه الاميريكيون في مدينتي "هوا" (Hué) و"سايجون" (Saigon)، والروس في برلين، والاسرائيليون في السويس. وكذلك وجد الجيشان اللبناني والسوري امام هذا الوضع. قدون تدمير كامل لقسم كامل من المدينة، وملاحقة مكثفة جداً للمقاتلين من منزل الى آخر، لا يمكن القضاء على شبكات الفدائيين الذين يعملون ضمن مجموعات صغيرة. راجع: David Th. SCHILLER, Entstehung und Verlauf des Libanesischen Bürgerkriegs, op. cit. p. 206.

في الحالين، كان بمقدور الجيش السوري أو الجيش الاسرائيلي، دون أي ريب، استخدام امكانياته لتحقيق اهدافه. فلم يقدم احدهم على ذلك، لأنه لم يكن على استعداد لدفع الثمن المطلوب، عبر التضحية بارواح جنوده. اضافة الى ذلك، تعتبر حرب الشوارع كميناً رهيباً تسقط فيه ضحايا عديدة. وهكذا، وبحكم التزام الميليشيات في لبنان، برزت بسرعة امام الجيشين السوري والاسرائيلي امكانية هذا الخطر القائم.

ومثلما تخلّت الميليشيات عن محاولاتها السريعة لاحتلال مناطق اضافية بفعل القصف العشوائي، كذلك فعلت ايضاً الجيوش النظامية. فقد اقتصرّت عمليات الاعتداء السورية على اطلاق نار على مواقع محددة. ولكن القوات الاسرائيلية لم تستهدف بغاراتها الجوية الا مواقع دقيقة ولكن محدودة. لم تستخدم القوات السورية طيرانها الحربي ضد الميليشيات المسيحية، لأن اسرائيل كانت تعتبر المجال الجوي خطأ أحمر محظور تجاوزه. ولم تشأ القيادة السورية المخاطرة في هذا المجال.

لقد تمكنت اسرائيل اخيراً من فرض انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت. لربما حصل هذا الانسحاب نظراً لتوقف التضامن بين سكان بيروت الغربية والفلسطينيين، ولكن ايضاً لأن هذا الانسحاب كان يعتبر فشلاً كبيراً، وليس هزيمة نهائية ساحقة.

والجيش السوري بدوره لم ينجح عام ١٩٧٨ ولا عام ١٩٨١ في فرض الاستسلام على الميليشيات المسيحية، لأن الشعب ظل متضامناً معها، خوفاً من ان يؤدي هذا الاستسلام الى نهاية الوجود المسيحي في لبنان.

لقد كشفت حرب الحصار والقصف المدفعي بالنسبة لسوريا عن ضعف جيواها، وبالنسبة لاسرائيل عن نجاح محدود زمنياً فقط. القصف المدفعي لا يضعف الا نادراً العدو، كما يدفع بالمواطنين الى الالتزام بالمقاومة والصمود. لذلك ادركت القيادات العسكرية السورية والاسرائيلية ان جيوشها لا تتدفع باغتياب شديد الى هذا النوع من الحرب. على هذا الأساس اعترض عدد من الضباط الاسرائيليين او قدموا استقالاتهم من الجيش، لأنهم لا يريدون المشاركة في حرب ضد السكان المدنيين. وكذلك عرف الجيش السوري مشكلات نظامية. فجنوده لم يحاربوا بطيبة خاطر ضد الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين، كما لم تكن لديهم اية دوافع لتعريض انفسهم للخطر في هذا الصراع. وهكذا، ومنذ عام ١٩٧٥ ادركت كل الجيوش النظامية، انها عاجزة تماماً عن مقاومة الهجمات والاغتيالات. لذلك اضطرت القوات الاميركية، والفرنسية، والبريطانية، والايطالية، وحتى الاسرائيلية، الى الانسحاب، نظراً لهذا النوع من الصراع والنقائل. اما القيادة السورية، التي لم تكن تتأثر بالرأي العام الداخلي، فكانت لا تعبت اطلاقاً بالخسائر البشرية بين صفوفها. الا انها في النهاية

ومنذ عام ١٩٨٨، بدأت تتنبه وتتخذ بعض الإجراءات، فجمعت قواتها في بيروت الغربية في اماكن معينة بهدف تأمين حمايتها من الاعتداءات.

وهكذا تبين ان القوات النظامية، رغم تفوقها من حيث العدد والسلاح والتنظيم، لم تكن في حال يسمح لها بفرض نفوذها على الميليشيات المعادية. لذلك حصل نوع من الهدنة العسكرية غير المستقرة بين الجيوش والميليشيات. فسوريا سيطرت تماماً في البقاع، واسرائيل حاولت احكام السيطرة، ولكن بصعوبات اكثر، على منطقة الحزام الأمني في جنوب لبنان. النفوذ السوري في غرب بيروت بقي هشاً، ولم ينفذ اطلاقاً الى بيروت الشرقية والمنطقة المسيحية.

يبدو ان سوريا تراجعت، أقله لمرحلة مؤقتة، عن زج قواتها في هجومات مباشرة^{١٨}. فبعد عام ١٩٨٢ لم يشارك جيشها في الحرب اللبنانية، ولكنها دفعت بالميليشيات اللبنانية المتحالفة معها الى القتال مكانها.

استخدمت الحكومة السورية قواتها ومدفيعتها في البداية ضد منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد ذلك، وباستمرار، ضد المسيحيين. استهدفت من ذلك الحاق الضرر والخسائر بالاشخاص والممتلكات بغية اضعاف العدو وارغامه على الاستسلام.

فدورة العنف التي لم تؤد، منذ عام ١٩٧٥، الى انتصار اي من اطراف النزاع، او في أفضل الحالات، الى انتصارات محدودة - ولكنها غير ثابتة مع الزمن - احدثت بنوع خاص حمامات من الدم، كما اسهمت في تهجير مئات الالوف من العائلات من منازلهم وممتلكاتهم. وكذلك اضطر عدد كبير من المواطنين الى هجرة وطنهم الى الخارج، كما افنقر معظم اللبنانيين. فكلية العنف وانعكاساتها قام ببحثها خليل ابو رجيلي وبطرس لبكي في إطار دراسة ميدانية شاملة وزاخرة بالمعطيات،

١٨- وصف احد كبار الضباط اللبنانيين الوضع كالآتي: "احتلال الأشرفية عبر حرب الشوارع امر لا يمكن التفكير به ولا تحقيقه، والزامها على الاستسلام يفترض اقامة حصار شديد حولها لمدة ثلاثة أشهر على الأقل، برأ وبحراً، واللجوء الى غارات جوية مكثفة عليها. اما احتلالها بواسطة سلاح المشاة، ومواجهة الميليشيات التي تحارب في احيائها الخاصة، فهذا امر قد يصعب جداً على قوى نظامية". من مقابلة اجراها معه المؤلف عام ١٩٨١.

وكذلك عبر ضابط إسرائيلي عن ميزان القوى كالآتي: "إذا اراد السوريون فعلاً استخدام كل قواتهم، لتمكنوا من القضاء على المناطق المسيحية خلال اربع وعشرين ساعة. ولكن من كل عشرة جنود سوريين يُزجّن في المعركة، قد لا يعود خمسة منهم احياء الى منازلهم. مثل هذه العملية ستكلف السوريين فيلقاً كاملاً من جيشهم. قد يربحون المعركة، ولكن بأي ثمن؟" من مقابلة اجراها معه المؤلف عام ١٩٨٥. وبصورة مماثلة عبر عن هذا الأمر احد كبار العسكريين الفلسطينيين: "الأشرفية ليست للإحتلال - لأن ذلك سيكون كارثة لكل جيش نظامي، وإلا ينبغي تدميرها تماماً بالقتال". من مقابلة اجراها معه المؤلف عام ١٩٨١.

تركزت بنوع خاص على المرحلة التي امتدت من عام ١٩٧٥ وحتى عام ١٩٨٧. على هذه الدراسة القيمة جرى الاعتماد في التحليل التالي حول جمارك الدم.

٤ - جمارك الدم

منذ عام ١٩٧٥ وحتى نهاية تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٧ بلغت خسائر حرب لبنان ٦٢ ألف قتيل و ٨٣ ألف جريح. من بين الجرحى هناك ٩١٠٠ حالة إعاقة. يضاف الى عدد القتلى المفقودون الذين يتراوح عددهم بين الفين و ٢٠١٧٥٠٠.

الآ أن المواطنين المدنيين كانوا اكثر المتضررين من الحرب، فبلغت بينهم نسبة الضحايا ٧٥٪، والجرحى ٨٥٪. اما نسبة ضحايا الميليشيات فقاربت ١٥٪، والجيوش النظامية ١٠٪. في الجدول التالي تبرز معطيات دقيقة عن كل الخسائر ٢١.

١٩- Khaliy Abou RJAILY & Boutros LABAKI, Bilan de treize ans de guerre au Liban : Les pertes.

Première édition provisoire, Beyrouth, octobre 1987.

٢٠- يشكر المؤلف هذين الباحثين لوضعهما مخطوط هذا البحث بتصرفه وللسماع له بالاستناد إلى مضمونه. في الصحافة كما من جانب السياسيين اللبنانيين والفلسطينيين ذكرت ارقام عالية جداً. اما الأرقام التي أشار إليها بطرس لبكي و خليل أبو رجيلي فقد تحققت منها بفعل استنادهما الى معلومات قوى الأمن الداخلي، والجيش اللبناني، والأمن العام، والصليب الأحمر اللبناني، وكذلك عبر تحقيقات اجراها في اوساط النقابات المهنية والأحزاب والميليشيات.

٢١- خليل أبو رجيلي و بطرس لبكي، ذات المصدر المذكور، الفصل الأول، ص ١١.

الجرحى	القتلى	
٢٤٢٨	٢٠٦٤	الجيش اللبناني والأمن الداخلي
٢٥٠٠	٢٥٠	الجيش السوري
٣٨٩٠	٦٧٣	الجيش الاسرائيلي
غير معروف	٣٠٦	القوات المتعددة الجنسيات
غير معروف	١٥٥	قوات مراقبي الأمم المتحدة
٨٨١٨	٥٦٩٨	المجموع

نسبياً جاءت أعلى نسبة من الخسائر بين القوات الأمريكية والفرنسية التي كانت تابعة للقوات المتعددة الجنسية، وكذلك بين عناصر الجيش اللبناني، فبلغت حوالي ٧٪.

اما عدد الخسائر بين الميليشيات فكان من الصعب تحديده. ويعود ذلك من جهة الى التغييرات السريعة في هذه المنظمات، اذ حُلَّ بعضها، والحق البعض الآخر بمنظمات اخرى، كما نشأت منظمات خلال الحرب، ومن جهة أخرى، الى صعوبة الفصل بدقة بين افراد الميليشيات والمدنيين الذين اضطروا الى حمل السلاح في ظروف معينة. الا ان معطيات أكثر دقة تتوفر بالنسبة لخسائر القوات اللبنانية والمنظمات التي قامت قبلها. فوصل عدد ضحاياها الى ٣٠٦١ وجرحاها الى ٨٥٥، علماً ان نصف هذه الخسائر وقعت خلال السنتين الأولى من الحرب ٢٢.

بالنسبة لضحايا الفلسطينيين، بلغ عدد القتلى ٨٨٠، بمن فيهم ضحايا الغزو الاسرائيلي عام ١٩٧٨ وعام ١٩٨٢. كما سقط منهم ٥٠٧ قتلى في المعارك التي وقعت في طرابلس عام ١٩٨٥ ضد السوريين والمنظمات الفلسطينية واللبنانية المتحالفة مع سوريا ٢٣.

٢٢- ذات المصدر ص ٢٠.

٢٣- ذات المصدر ص ١٩.

وهكذا يمكن تقدير خسائر الميليشيات اللبنانية والفلسطينية بعشرة آلاف قتيل تقريباً. اما الجدول التالي فيجمل عدد الضحايا خلال سنوات الحرب (١٩٧٥ - ١٩٨٧) بين المدنيين والميليشيات^{٢٤}.

السنة	القتلى	الجرحى
١٩٧٥	٣٧٩٩	١٩٩٥
١٩٧٦	١٤٧١٤	١٣٢٠٩
١٩٧٧	٦٧٦	٦٢٣
١٩٧٨	٢٠٩٣	٢١٦٤
١٩٧٩	١٣٢٧	٨٥٤
١٩٨٠	١٥٧٨	١٠٥٤
١٩٨١	٢١٦٢	٣٩٠٢
١٩٨٢	١٧٠٠٠	٣٠٠٠٠
١٩٨٣	٣٦٣٢	٣٧٠٤
١٩٨٤	٢١٦١	٢٦١٤
١٩٨٥	٣٦٩٣	٤٧١٨
١٩٨٦	٢٦٦٨	٧٢٣٧
١٩٨٧	١٢٩٢	٢٧١٥
المجموع	٥٦٧٩٥	٧٤٧٨٩

٢٤- ذات المصدر ص ٢٧.

سقط العدد الأكبر من الخسائر البشرية بفعل الغزو الاسرائيلي والحرب بين انصار الجبهة اللبنانية والفلسطينيين وحلفائهم خلال السنتين الأولى من الحرب. وكذلك ارتفع حجم الخسائر البشرية عام ١٩٨٣ بسبب حرب الجبل، وعام ١٩٨٥ بسبب الحرب في شرق صيدا، وطرابلس، والمخيمات في بيروت الغربية. وحتى في عام ١٩٧٧ "الهادي"، ورغم الآمال بعودة السلام آنذاك، قتل عدة مئات من الناس بطريق العنف. وهكذا تكشف الارقام عن تقلب شدة المعارك خلال سنوات الحرب. ورغم ذلك، استمرت هذه الحرب طويلاً.

أما عن كيفية سقوط الضحايا وبأي شكل من أشكال العنف، فلم تتوفر إلا معلومات قليلة فقط. بالنسبة لعام ١٩٨٦، جرى تصنيف تقريبي يشير الى مقتل ربع الضحايا في "حرب المخيمات" بين الشيعة والفلسطينيين، والى سقوط الربع الثاني من الضحايا خلال مختلف الاشتباكات التي حصلت بين الميليشيات المتحالفة نظرياً مع بعضها والتابعة لمختلف اطراف النزاع. وقد سقط ١٥٪ منهم على "جبهات القتال الكلاسيكية". كما قتل ٢٪ بفعل الغارات الجوية الاسرائيلية والاعتقالات الفردية، وحوالي ٧٪ نتيجة تفجير السيارات المفخخة^{٢٥}. هذا ولم تحدد كيفية مقتل ٢٣٪ من الضحايا ولا تصنيفها بوضوح. ويعتبر الباحثان ابو رجيلي ولبكي هذا الشكل من العنف بأنه كان نموذجياً بين ١٩٨٤ و١٩٨٧.

لقد حصلت اغتيالات فردية خلال كل سنوات الحرب. فلم يقل معدلها سنوياً عن ٥٠٠ حالة. في سنوات الحرب الأولى اخذ الإغتيال شكل "القتل على الهوية"، ولكن فيما بعد كانت تنفذ عمليات الاغتيال بهدف ارباب فئات مهنية معينة. وهكذا جرى اغتيال ٦١ صحفياً وناشراً وما لا يقل عن ١١٦ دبلوماسياً^{٢٦}. هذه الاغتيالات كانت تحصل لاهداف سياسية معينة.

٢٥- ذات المصدر ص ٢٩.

٢٦- من بينهم ٧٠ عراقياً ضحايا الانفجار الذي دمر تماماً مبنى السفارة العراقية؛ ٣٠ امريكياً، ٤ فرنسيين، من بينهم سفير.

ضحايا المجازر الجماعية

السنة	في القرى المسيحية	في القرى المسلمة	المجموع
١٩٧٥	١٢٣	١٥	١٣٨
١٩٧٦	٩٥٣	٦٣	١٠١٦
١٩٧٧	٢٢١	٦٥	٢٨٦
١٩٧٨	٥١	—	٥١
١٩٧٩	١٢	—	١٢
١٩٨٠	١١	—	١١
١٩٨١	٣٠	—	٣٠
١٩٨٢	٩١	—	٩١
١٩٨٣	١١٥٥	١٦٠	١٣١٥
١٩٨٤	١٥٤	—	١٥٤
١٩٨٥	١٢١	—	١٢١
١٩٨٦	٥٠	—	٥٢٦
المجموع	٢٩٧٢	٨٢٩	٣٨٠١

ان ما يقارب ٨٠٪ من ضحايا المجازر كانوا من سكان القرى المسيحية، التي، كما أشير سابقاً، كانت تعتبر "جزراً سكانية طارئة" في مناطق كانت تسكنها اكثرية سكانية مسلمة او كانت مختلطة. لم تحصل المجازر بصورة عفوية الا نادراً. لقد جرى تنفيذها، عن سابق وعي وتصميم، بهدف تهجير الاقليات من تلك المناطق.

اما عمليات خطف المواطنين الأجانب فكانت امراً نادراً قبل عام ١٩٨٤. فلم تتكاثر الا مع ازدياد نفوذ الجماعات الموالية لايران. استهدف بنوع خاص الاميركيون (٢٠ مخطوفاً) والفرنسيون (٩)، والبريطانيون (٤)، والروس (٤)٢٧. ولكن بالإضافة الى مايقارب الخمسين مخطوفاً من الرعايا الأجانب، لابد من الإشارة الى عدة آلاف من المخطوفين والمفقودين اللبنانيين.

وقد طالت ايضاً لائحة المجازر الجماعية. فلم يعرف بدقة كم بلغ عدد ضحايا الفلسطينيين عام ١٩٨٢ و١٩٨٥ في مخيمي صيدا وشاتيلا. تأرجحت التقديرات آنذاك بين ٨٠٠ و٢٠٠٠ قتيل في الحاليتين. ولكن توفرت معطيات شبه أكيدة حول عدد ضحايا مجازر أخرى جرى استخلاصها عبر تحقيقات جرت مع الناجين منها٢٨.

٥ - الهرب والتهجير

خلال هذه الحرب تحول اللبنانيون الى شعب من اللاجئين والمهجرين داخل وطنهم. لقد اضطر أكثر من ٧٠٠٠٠٠ نسمة الى الهرب من مساكنهم لفترة من الزمن. هرب بعضهم مرات عديدة، ولكنهم تمكنوا من العودة الى مناطقهم. ولكن حوالي ٧٩٠٠٠٠ هجروا ولم يتمكنوا من العودة الى ديارهم في ظل الأوضاع السائدة. وفي مناطق عديدة من البلاد، جرى تعديل كبير في توزيع السكان وفقاً للانتماء الديني بالمقارنة مع مرحلة ما قبل الحرب.

التغيير الجزري حصل بنوع خاص في المنطقة الجنوبية من محافظة جبل لبنان، اي في منطقة المتن العالي، وقضاء عاليه والشوف. كان المسيحيون، قبل عام ١٩٧٥، يشكلون نصف سكان تلك المناطق. اما الآن فلا يتجاوز عددهم نسبة واحد بالمائة. وكان قد جرى تهجير المسيحيين في السنتين الأولى من الحرب من منطقة ساحل الشوف. أول الضحايا كانوا من سكان قرية عين أسد في إقليم الخروب، حيث بدأت حركة الهرب بعد احتلال تلك القرية، وقرى أخرى من قبل الفلسطينيين.

وفي بداية ١٩٧٦، حصلت ايضاً مجازر مدينة الدامور، ومعها جرى تهجير نهائي لكل السكان المسيحيين من منطقة الشوف الساحلية والمجاورة للبحر. حتى من

٢٧- خليل ابو رجيلي ويطرس لبكي، المصدر المذكور، الفصل الأول، ص ٣٢. استند الباحثان بالنسبة لهذه المعلومات بنوع خاص على تحقيقات اجريت مع الناجين من هذه العمليات.

٢٨- خليل ابو رجيلي ويطرس لبكي، المصدر المذكور، الفصل الأول، ص ٣٢. استند الباحثان بالنسبة لهذه المعلومات بنوع خاص الى تحقيقات اجريت مع الناجين من هذه العمليات.

منطقة الشوف الجبلية، بلغ عدد النازحين من السكان المسيحيين القادرين على العمل حوالي مائة ألف نسمة. وقد عاد قسم كبير منهم الى ديارهم بعد دخول الجيش السوري الى تلك المناطق. ولكن وعلى أثر مقتل كمال جنبلاط عام ١٩٧٧ جرى اغتيال عدد من المسيحيين في بعض قرى الشوف، وهذا ما دفع مجدداً الى نزوح حوالي ٢٥٠٠٠ نسمة. اما الكارثة الرهيبة التي حلت بالمسيحيين فقد حصلت بعد دخول عناصر من ميليشيا القوّات اللبنانية الى الشوف والحرب التي نتجت عن ذلك عام ١٩٨٣. على أثر ذلك نزح حوالي ١٦٤٠٠٠ مسيحي من الشوف، كما جرى تصفية السكان الذين فضلوا البقاء في قراهم. ومنذ عام ١٩٨٦ دعا وليد جنبلاط مراراً المسيحيين للعودة الى الشوف وعاليه، كما فعل ذلك بالحاح في كانون الثاني/يناير عام ١٩٨٩. ولكن لم يلبّ الا عددٌ قليل جداً منهم هذه الدعوة. فالخوف على الحياة مازال شديداً جداً في نفوس المهجرين منذ احداث عام ١٩٨٣. فقد تحولت منطقة الشوف الى "كانتون للدروز"، بقطع النظر عن الأقلية السنية التي تقطن المنطقة الوسطى.^{٢٩}

ومثلما حصل تغيير جزري في منطقة الشوف، كذلك حصل ايضاً في منطقة البقاع. قبل الحرب كان المسيحيون يشكلون ٤٠ بالمائة من سكان هذه المنطقة. كما ان مدينة زحلة كانت أهم مدينة تقطنها أكثرية مسيحية، بالإضافة الى ٢٥ قرية تتوزع من شمال البقاع حتى جنوبه. وقد كانت كلها حتى قبل عام ١٩٧٥، قرى من الصعب الدفاع عنها، استخدمها الفلسطينيون والمنظمات اللبنانية اليسارية كاهداف تهاجم كل مرة ارادوا انزال "عقاب غير مباشر" بالميليشيات المسيحية الموجودة داخل المنطقة المسيحية الرئيسية. فقريّة "حوش الامراء" القريبة من زحلة دُمّرت بالكامل. كما هُجّر كل سكان قرية "تعلبايا" المسيحيين. وفي قرى أخرى دفعت الاغتيالات وعملية مصادرة المنازل السكان المسيحيين الى الهرب والنزوح. وهنا ايضاً اسهم الاحتلال السوري في عودة جزئية لبعض النازحين. ولكن عندما بدأت عام ١٩٧٨ المواجهة بين الميليشيات المسيحية والقوات السورية، فلم يعد يحظى السكان المسيحيون في البقاع بأية حماية من قبل الجيش السوري المرابض هناك. فمجزرة بلدة "القاع" التي أشير اليها سابقاً، لم تسمَح بها القوات السورية فحسب، بل من المحتمل ان تكون قد نفذتها ايضاً. وهكذا فرّغت من جديد قرى مسيحية في شمال ووسط البقاع. وعندما بدأ الجيش الاسرائيلي عام ١٩٨٤ بالانسحاب من جنوب البقاع، بدأ ايضاً نزوح المسيحيين من تلك المنطقة بفعل عمليات الاغتيال، والمجازر، ومصادرة المنازل.

٢٩- وكذلك هرب حوالي ٢٥ ألف مواطن سني عام ١٩٨١ من منطقة الشوف الساحلية الى بيروت.

وبصورة اجمالية نزح ما يقارب ١٥٠٠٠٠ من المسيحيين من قرى وبلدات البقاع، استقرّ حوالي ٤٠٠٠٠ منهم في مدينة زحلة. اما الأكثرية فنزحت الى المنطقة المسيحية الرئيسية.

وبالمقابل تحول البقاع الى ملجأ لعشرات الآلاف من السكان الشيعة، الذين هربوا عام ١٩٧٦ و ١٩٨٢ و ١٩٨٤ من ضواحي بيروت الجنوبية. معظمهم كانوا بالأصل من سكان البقاع، وقد عادوا الى قراهم. وفي عام ١٩٨٢ هرب عدد كبير من الفلسطينيين من بيروت الى البقاع بحثاً عن مكان أكثر أماناً لهم. وهكذا تحولت اليوم البلدات المسيحية، مثل تعلبانيا وسعدنايل، الى بلدات تسكنها أكثرية فلسطينية.

وفي سنوات الحرب الأولى، نزح الأكراد الى البقاع بعدما تحولت منطقة سكنهم في وسط بيروت الى جبهة للقتال. ومن المحتمل جداً ان يكون عدد النازحين من الشيعة والفلسطينيين والأكراد الى البقاع قد تجاوز باضعاف عدد المسيحيين الذين اضطروا الى النزوح عن تلك المنطقة التي ارتفع كثيراً عدد سكانها. وقد تحول شمال البقاع الى كانتون شيعي متجانس.

وفي شمال لبنان، أدى الهرب والتهجير بنوع خاص الى تبادل سكاني داخل المنطقة. في خريف ١٩٧٥ هُجّر المسيحيون من عكار، والمسلمون من الكوره والبترون. وفي عام ١٩٧٨ أدت المعارك بين المسيحيين، أي بين حزب الكتائب وحركة المرّده، الى هرب انصار حزب الكتائب الى المنطقة التي تسيطر عليها ميليشيات هذا الحزب، بينما عاد انصار فرنجية الذين كانوا يقطنون في بيروت الشرقية والمتن وكسروان الى منطقة الشمال. ولكن لم تتوفر اية معطيات عن عدد هؤلاء. وفي معارك طرابلس، بين السوريين والميليشيات المتحالفة معهم من جهة، والفلسطينيين والاصوليين السنة من جهة أخرى، نزح ما يعادل المائة ألف من سكان المدينة بين عام ١٩٨٠ و ١٩٨٥، ولكنهم ما لبثوا ان عادوا إليها فيما بعد.

اما سكان جنوب لبنان، فهم اكثر الذين اضطروا الى الهرب والنزوح. بين عام ١٩٦٩ و ١٩٧٥، غادر حوالي ٢٥٠٠٠ مواطن شيعي قراهم بسبب المواجهات الفلسطينية-الاسرائيلية. وفي عام ١٩٧٨ أدى الغزو الاسرائيلي الى موجة نزوح ما بين ١٥٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠٠ مواطن. الا أنّ الحصار الاسرائيلي لمدينة بيروت دفع باعداد كبيرة من سكان الضواحي الشيعية الى العودة نحو الجنوب. اما انعكاسات المعارك في بيروت عام ١٩٨٤ والحروب التي اندلعت منذ عام ١٩٨٥ بين الشيعة والفلسطينيين او بين فصائل شيعية، فلم تتوفر معلومات دقيقة عنها. الا ان حركة النزوح كانت ترتبط بشدة المعارك سواء في بيروت او في الجنوب، والتي كانت تدفع بالناس الى البحث عن امكنة اكثر هدوءاً واماناً.

قبل الحرب كان المواطنون المسيحيون يشكلون ٢٥٪ من سكان جنوب لبنان. اما مناطق سكنهم فكانت تقع في الجبال شرقي مدينة صيدا، ومنطقة الزهراني، وفي مدينة مرجعيون في أقصى الجنوب. في تشرين الأول عام ١٩٧٦، هاجم جيش لبنان العربي المنشق بلدة "العيشية" المسيحية وهجر سكانها. ولكن الميليشيات المسيحية انتقلت ومارست عدواناً مماثلاً على بلدة الخيام الشيعية. وباستثناء هذين الحدين، كان السكان المسيحيون وكذلك الشيعة ينزحون عن الجنوب بسبب أوضاع الحرب والأوضاع الاقتصادية المتردية. ولكن لم يحدث أي تهجير منظم. إلا أن هذا الحال تبدل عام ١٩٨٥ عندما قامت ميليشيا القوات اللبنانية، التي دخلت الجنوب بعد الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢، وقصفت مدينة صيدا والمخيمات الفلسطينية المحيطة بها. وكانت النتيجة، كما أشير سابقاً، شبيهة تماماً بما حصل قبل سنتين من ذلك في منطقة الشوف. على أثر ذلك، اضطر ٨٦٠٠٠ مواطن مسيحي الى الهرب، في البداية الى منطقة "جزين" الواقعة تحت نفوذ العماد انطوان لحد، وإلى منطقة الحزام الأمني، ولكن لجأ معظمهم فيما بعد الى المنطقة المسيحية في وسط البلاد.

بالنسبة للعاصمة بيروت، فقد كانت منذ بداية الحرب مسرحاً لعمليات هرب ونزوح عديدة وهدفاً لعمليات التهجير^{٣٠}. ففي نيسان ١٩٧٥ هُجر معظم السكان المسيحيين من "الجزر" الواقعة في ضواحي بيروت الجنوبية الغربية، مثل حارة حريك، وبرج البراجنة، والشياح، وهي بلدات مسيحية قديمة. فقد نشأت حولها مخيمات فلسطينية وضواحي تقطنها اكثرية مسلمة. كان عدد سكان تلك البلدات المسيحية يقارب ٤٠٠٠٠ مواطن. وكذلك هرب حوالي ٣٥٠٠٠ مواطن مسيحي من وسط بيروت الغربية الى المنطقة الشرقية منها، بفعل الخوف من "القتل على الهوية". والخوف نفسه دفع بعدد كبير من المواطنين المسلمين للهرب من بيروت الشرقية الى بيروت الغربية، خاصة على أثر احداث "السبت الاسود" في كانون الاول ١٩٧٦. وفي صيف ١٩٧٦ اضطر كذلك السكان الشيعة الى مغادرة منطقة النبعة من ضاحية بيروت الشرقية، عندما هاجمت الميليشيات المسيحية المخيمات الفلسطينية شرق العاصمة. وقد قُدِّر عدد المسلمين الذين اضطروا الى مغادرة بيروت الشرقية او هربوا خوفاً على حياتهم بين ١١٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠. يضاف الى ذلك حوالي ١٥٠٠٠ مواطن مسيحي، من انصار الاحزاب اليسارية التابعة لتجمع احزاب الحركة الوطنية، والذين كانت الميليشيات المسيحية تعتبرهم عنصر خطر وتهديد لها، اضطروا هم ايضا الى النزوح عن المنطقة التي كانت تسيطر عليها تلك

٣٠- راجع: Ali FAOUR, The Displacement Crisis and Forced Migration in Beirut in 1984, in : Salim NASR und Theodor HANF (Ed.) op. cit. p. 165-174.

الميليشيات. وفي نهاية عام ١٩٧٦ لم يبق إلا نادراً مواطنون مسلمون في القسم الشرقي من المدينة.

ولكن بالمقابل، وفي القسم الغربي من بيروت، بقي عدد كبير من المسيحيين، خاصة في الأحياء السكنية المسيحية القديمة في وسط المدينة وفي الأحياء "المختلطة" منذ عدة أجيال، مثل حيي الحمراء ورأس بيروت. وقد عاد إلى تلك المنطقة، أثناء وجود القوات المتعددة الجنسيات (١٩٨٢-١٩٨٣)، عدد كبير من المواطنين المسيحيين الذين كانوا قد نزحوا عنها سابقاً. إلا أن الوضع تبدل منذ خريف ١٩٨٣ بسبب انتفاضة الشيعة. ففي ٢٣ أيلول من تلك السنة، هجرت حركة أمل سكان بلدة "المريجة"، التي كانت آخر معقل يقطنه مواطنون مسيحيون في الضاحية الجنوبية الغربية. وبعد إعادة تقسيم بيروت في شباط/فبراير ١٩٨٤، بدأت منظمات شيعية متطرفة سلسلة من الاغتيالات الفردية، وعمليات الخطف، والاعتداءات ضد المواطنين المسيحيين ومؤسساتهم التجارية وكنائسهم، بهدف واضح، ألا وهو القضاء نهائياً على الوجود المسيحي في غرب بيروت. أما المقاومة ضد هذه التصرفات التي استهدفت أيضاً المواطنين السنة، فقد مارستها الميليشيات الدرزية، وانصار الحزب القومي السوري والحزب الشيعي. فلم يبقَ أمام المواطنين المسيحيين إلا العيش في منطقتهم الجبلية. فقد اضطر أكثر من خمسين ألف مواطن مسيحي مغادرة الجزء الغربي من مدينة بيروت منذ ١٩٨٤.

وكذلك غادر أيضاً مواطنون مسلمون غرب بيروت، حيث تكررت الاضطدامات العسكرية الطاحنة بين الميليشيات المختلفة المتواجدة فيها. وهذا ما دفع بحوالي مائة ألف مواطن تقريباً إلى الهرب خلال تلك الأحداث إما إلى منطقة البقاع أو إلى جنوب البلاد.

اضطر أكثر من ثلث اللبنانيين إلى النزوح من أماكن سكنهم مرة أو أكثر بسبب أحداث الحرب، إلا أن معظمهم تمكن من العودة.

النازحون مؤقتاً^{٣١}

السنة	الدوافع	عدد النازحين
٧٦/١٩٧٥	المعارك في بيروت وضواحيها، وفي الشمال والبقاع، والجبل، وجنوب لبنان	٤٥٠.٠٠٠
١٩٧٦	الغزو الاسرائيلي	١٥٠.٠٠٠
	القصف السوري لبيروت الشرقية	١٥٠.٠٠٠
١٩٨١	القصف السوري لبيروت الشرقية	١٥٠.٠٠٠
١٩٨٢	الغزو الاسرائيلي وحصار بيروت الغربية (نزوح الى البقاع، والشمال، وبيروت الشرقية)	٢٠٠.٠٠٠
١٩٨٤	الحرب بسبب الاتفاق اللبناني-الاسرائيلي: هرب من بيروت الشرقية الى المنطقة الجبلية الخلفية	٤٠.٠٠٠
	هرب من بيروت الغربية الى الجنوب والبقاع	١٥٠.٠٠٠
١٩٨٣-١٩٨٥	المعارك حول طرابلس	١٠٠.٠٠٠
١٩٨٧-١٩٨٥	المعارك بين أمل ومنظمة التحرير، وبين أمل والحزب الاشتراكي	٦٠.٠٠٠
	هرب من الضواحي الجنوبية وغرب بيروت	٦٠.٠٠٠
المجموع		١٤٦٠.٠٠٠

٣١- خليل ابو رجيلي وبطرس لبكي، المصدر المذكور، الفصل الثاني، الجدول ٢ - ٦، ص ٣٣.

كذلك هُجّر أو هرب أكثر من نصف السكان، ولكن لم تبرز بعد أية إمكانية لعودتهم. وهذا هو مصير حوالي ٨٠٪ من المواطنين المسيحيين.

نزوح السكان بين ١٩٧٥ و ١٩٧٦ حسب المناطق والانتماء الديني^{٣٢}

المنطقة	المسيحيون	العدد	المسلمون	العدد
بيروت وضواحيها	من الضواحي الجنوبية وغرب بيروت		من بيروت الشرقية وضواحيها	
	(١٩٨٦-١٩٧٥)	١٢٥.٠٠٠	(١٩٧٦-١٩٧٥)	١١٥.٠٠٠
جبل لبنان	الشوف، وعالية والمتن الأعلى وإقليم الخروب		القلوق (جبل)	
	(١٩٨٦-١٩٧٥)	٢٤.٠٠٠	١٩٧٦	٥٠٠
لبنان الشمالي	عكار، بشري، زغرتا، البترون، الكوره		البترون والكوره	
	(١٩٨٦-١٩٧٥)	٣.٠٠٠		٢.٠٠٠
لبنان الجنوبي	شرق صيدا وجزين، والنبطية وصور		المنطقة الحدودية وجزين وقضاء النبطية	
	(١٩٨٦-١٩٧٥)	١٢٥.٠٠٠		٤.٠٠٠
البقاع	بعلبك، الهرمل، البقاع الغربي، وراشيا		-	
	(١٩٨٦-١٩٧٥)	١١.٠٠٠		
المجموع		٦٣.٠٠٠		١٥٧٥.٠٠

٣٢- ذات المصدر، الفصل الثاني، الجدول ٢ - ٧، ص ٣٤.

كان المسيحيون قبل الحرب يقطنون في كل مناطق لبنان. اما اليوم، فوجودهم قليل ونادر في الشوف والبقاع والجنوب، وفي احياء قليلة من بيروت الغربية. وبالمقابل، لم يعد هناك اي وجود للمسلمين في بيروت الشرقية والمنطقة المسيحية الجبلية، باستثناء منطقة جبيل. فالتقسيم في البلاد وفقاً للإنتماء الديني كان قد اصبح عام ١٩٩٠ اقوى بكثير مما كان عليه قبل الحرب.

فالمواطنون الشيعة كانوا بنوع خاص اكثر عرضة من غيرهم، للهرب والنزوح بسبب احداث الحرب. ان ما يقارب ربع مليون نسمة من الشيعة اضطروا الى النزوح اكثر من مرة من الجنوب الى بيروت، ومن بيروت الى الجنوب او الى البقاع. ولكن اكثر من ستمائة الف مواطن مسيحي هجّروا او اضطروا الى النزوح من مناطق مختلفة في البلاد، واللجوء الى بيروت الشرقية او المنطقة الجبلية الخلفية، التي تتكدّس فيها اليوم نسبة عالية جداً من الكثافة السكانية.

٦ - نزوح وهجرة اليد العاملة

منذ بداية الحرب، هاجر حوالي ربع اللبنانيين الى الخارج بهدف البحث عن عمل كاجراء او للإقامة الدائمة. الا ان الاستعداد للعودة الى الوطن - في حال تحسّن الأوضاع - ظلّ قائماً، كما تبين من عودة بعضهم في بعض الظروف التي ساد فيها أمل بالسلام. ولكن مع استمرار الحرب طويلاً، طالبت معها الهجرة في سبيل العمل. ومن المحتمل ان يتحوّل الذين هاجروا مؤقتاً في سبيل العمل، الى مهاجرين دائمين. لقد كشفت اعداد المهاجرين، وفقاً لسنوات الحرب، وبكل وضوح، عن ارتباط هذه الهجرة الى حدّ كبير بالحرب وبانعكاساتها.

عدد المهاجرين خلال سنوات الحرب (١٩٧٥-١٩٨٧) ٣٣

السنة	العدد	السنة	العدد
١٩٧٥	٤٠٠٠٠٠	١٩٨٠ ١٩٨١ ١٩٨٢ ١٩٨٣	١٣٢٠٠٠
١٩٧٦	٢٩٧٠٠٠	١٩٨٤	٦١٦٠٥
١٩٧٧	٣٨٠٠٠	١٩٨٥	٧٠٢٠١
١٩٧٨	٧٦٠٠٠	١٩٨٦	٧٣٩٠٧
١٩٧٩	٤٩٠٠٠	١٩٨٧ (٦ اشهر)	٣٣٥٤١
المجموع			٦٣٧٢٥٤

في السنة الأولى من الحرب غادر البلاد ١٥٪ من السكان^{٣٤}، وعاد منهم ٧٥٪ باعتبار ان الحرب قد انتهت. ولكن في عام ١٩٧٧ عادت حركة الهجرة من جديد لعدم تحسن الوضع الاقتصادي. في عام ١٩٧٩ حذّ السلام النسبي من حركة الهجرة التي ما لبثت ان تضاعفت عام ١٩٨٠ على أثر الغزو الاسرائيلي في الجنوب والحرب بين سوريا والجهة اللبنانية. اما العدد الإجمالي للمهاجرين بين ١٩٨٠ و١٩٨٣ فلم يسمح بتوضيح كيفية تطوره. في عام ١٩٨٢ عاد عدد كبير منهم بعد بروز الأمل مجدداً بنهاية الحرب. ولكن سرعان ما ارتفعت موجة الهجرة بعدما تبخرت تلك الآمال. وابتداءً من عام ١٩٨٤ تميّزت سنوات الحرب بالتضخم المالي وانهيار قيمة النقد اللبناني.

٣٣- ذات المصدر، الفصل الثالث، ص ١٧. راجع أيضاً:

Riad TABBARA, Le développement arabe et les ressources humaines libanaises, in : Université Libanaise, Institut des Sciences Sociales, (Ed.), La politique de la population au Liban, Beyrouth 1982 ; Boutros LABAKI, L'économie politique de la crise libanaise . Impact et enjeux . Université St. Joseph, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Beyrouth 1988. (Ronéotypé).

٣٤- كل هذه المعطيات الاحصائية مستقاة من بحث خليل ابو رجيلي ويطرس لبكي، المصدر المذكور، الفصل الثالث.

في عام ١٩٨٢ كان يعمل ما يقارب ٦٠٪ من المهاجرين اللبنانيين في الدول العربية، من بينهم ٣٣،٥٪ في المملكة العربية السعودية و ٨،٣٪ في الكويت. وفي ذات السنة كانت نسبة المهاجرين ١٢٪ الى أوروبا، و ٧٪ الى كل من شمال وجنوب امريكا، و ٦٪ الى الولايات المتحدة. ومنذ ذلك الحين بدأت بالارتفاع نسبة المهاجرين الى دول الخليج.

تجدر الإشارة الى ان معظم المهاجرين كانوا بنوع خاص من الأيدي العاملة المؤهلة. فتلتهم تقريباً كان من العمال الصناعيين المؤهلين، والثلث الثاني من قطاع البناء، والخمس من القطاع الفندقي. والأكثر تمثيلاً بين المهاجرين كان عدد المهندسين والأطباء والكوادر في حقل المال والاقتصاد. وكذلك نقلت شركات عديدة مكاتبها وموظفيها الى الخارج. فقد أسست ستة عشر شركة تأمين لبنانية ٤٣ فرعاً في الدول العربية، واليونان، وقبرص. وكذلك فتحت ٢٣ مصرفاً لبنانياً حوالي ٧٤ فرعاً في الخارج، معظمها في الدول العربية، ولكن أيضاً في أوروبا والولايات المتحدة الاميريكية. وقد لحق بالمصارف رجال الأعمال والتجار الذين احتفظوا غالباً بمكاتبهم في لبنان، الا ان معظم نشاطهم كان يمارس في الخارج.

ولم يقتصر الأمر فقط على افراد لبنانيين بحثوا عن عمل في الخارج لأن مداخيلهم تضاعلت جداً بحكم الاضرار التي لحقت بمختلف القطاعات، كالصناعة، والبناء، والسياحة، بل نقلت شركات اجنبية عديدة نشاطها ومكاتبها الى الخارج ايضاً.

تميز المهاجرون اجتماعياً من حيث البلدان التي توجهوا اليها. هاجر الى البلدان العربية أكثرية من الشباب غير المتأهلين، وبنسبة ٤٠٪ من خريجي الجامعات. والى الولايات المتحدة هاجرت عائلات بكاملها. ولكن المستوى الثقافي لهؤلاء المهاجرين كان ضعيفاً نسبياً، من بينهم ٩٪ من خريجي التعليم العالي، و ٣٠٪ من الأرمن. والى أستراليا وكندا هاجر مقاولون من الطبقتين الصغيرة والمتوسطة حاملين معهم مدخراتهم. اما فرنسا فهاجر اليها العلماء والمفكرون. الا ان الملفت للنظر هو تكاثر الهجرة الى افريقيا الغربية، حيث كان يوجد عام ١٩٧٠ ما يقارب ٧٤٠٠٠ لبناني. في عام ١٩٨٥ ارتفع هذا العدد الى ١٤٧٠٠٠، من بينهم ستون ألف حطوا الرحال في شاطئ العاج. قبل الحرب كان معظم اللبنانيين في افريقيا يعملون في حقل التجارة، ولكن يعمل اليوم عدد كبير منهم كعمال في حقل البناء. كذلك يلاحظ بكل وضوح ان الهجرة الى الدول العربية هي بمعظمها هجرة للعمل فقط، بينما الهجرة الى الولايات المتحدة هي نهائية.

افترزت الهجرة المكثفة انعكاسات سلبية بالنسبة للبنان. فرغم تزايد نسبة الولادات التي كانت دائماً متوفرة، عرفت حركة السكان نوعاً من الركود. في عام ١٩٨٥ كان عدد اللبنانيين هو نفسه تقريباً مثلما كان عام ١٩٧٥. فـهجرة اليد العاملة سببت، رغم الوضع الاقتصادي السيئ، نقصاً كبيراً في اليد العاملة المؤهلة، التي عوّضت - رغم الحرب - بمجيء العمّال المهاجرين الى لبنان، من سوريا، ومصر، وينسب متزايدة، من الدول الآسيوية. من جهة كانت تحويلات المغتربين اللبنانيين تسمح لقسم كبير من ذويهم الباقين في لبنان بمتابعة العيش بكرامة، رغم انحسار امكانيات العمل، وهذا ما كان يساعد على تحسين ميزان المدفوعات. ومن جهة أخرى كانت الانعكاسات الاقتصادية سلبية بمعظمها. فـهجرة المهارات والعناصر المؤهلة مهنيّاً أضعفت الطاقة الانتاجية في البلاد. كذلك زادت تحويلات المغتربين الحاجات واستيراد المواد الاستهلاكية ورفعت نسبة العجز في ميزان المدفوعات، كما اسهمت كثيراً في حجم التضخم وفي انهيار قيمة النقد الوطني.

وبالاختصار، "برزت حسنات الهجرة على المستوى الفردي وعلى المدى القصير، ولكن انعكست سيئاتها على المدى البعيد على المجتمع اللبناني بكامله"^{٣٥}.

٧ - اقتصاد الحرب^{٣٦}

قبل اندلاع الحرب شكّل قطاع الخدمات ٧٠٪ من اجمالي الناتج الوطني. فالتجارة والمصارف والسياحة كانت تعود بفائدة محدودة فقط بالنسبة للسوق اللبناني الداخلي، ولكن بفائدة كبيرة بالنسبة للمنطقة. حتى القطاع الصناعي الذي ازدهر سريعاً، كان يلبي حاجات العالم العربي، وبنوع خاص الدول الخليجية. فالنشاط الاقتصادي الذي كان يوفر في زمن السلم تزايداً في نسب التنمية وتطوراً ايجابياً في مستوى عيش السكان، تعرض للانحسار منذ عام ١٩٦٧ في ظل ظروف الاضطراب السياسي، كما انهار اخيراً في زمن الحرب.

ولكن رغم ذلك، كشف الاقتصاد اللبناني عن اهلية بارعة في التكيف حتى في ظروف الحرب. فبعد كل دورة عنف، كان اللبنانيون يسرعون، حيثما أمكن، الى اصلاح الأضرار وترميم المباني. لقد نقلت المؤسسات التجارية والمقاولون نشاطهم الى الخارج؛ ولكنهم كانوا يعودون الى بيروت بعد كل هدنة. لقد اقيمت مؤسسات انتاجية بعيداً عن خطوط المواجهة العسكرية. المصارف والمطاعم التي كانت قبل

٣٥- ذات المصدر، الفصل الثالث، ص ١٤٥.

٣٦- في المقطع التالي يعتمد المؤلف ويلخص ما جاء في الفصل الخامس من بحث خليل ابو رجيلي وبطرس ليكي، المصدر المذكور.

الحرب في وسط مدينة بيروت، فتحت فروعاً جديدة لها في الضواحي التي كانت سابقاً مناطق سكنية. حتى الأسواق، والتجارة بالجملة، والمحلات التجارية الكبيرة، انتقلت الى مختلف المناطق اللبنانية، وتحولت المدن الصغيرة الى مراكز اقتصادية جديدة. لقد تعلم اللبنانيون سريعاً مواصلة ممارسة العمل الاقتصادي حتى في زمن الحرب.

ورغم كل ذلك، أفرزت الحرب انعكاسات اقتصادية مؤلمة للغاية. لقد قُدرت الخسائر بسبب اضرار الحرب عام ١٩٧٦ بما يقارب المليارين ونصف المليار من الدولارات. وقد تضاعفت هذه الخسائر بعد الغزو الاسرائيلي، كما أشارت الى ذلك احصاءات الاتحاد العمالي العام:

الخسائر المالية ١٩٧٥-٣٧١٩٨٢

القطاع	نسبة الخسائر بمليارات الليرة اللبنانية	نوع الخسائر
قطاع السكن	٣,٦	تدمير ١١٢٠٠ مسكن
السياحة	١,٢	تدمير ٦٥ فندق (٤٠ في ١٩٧٥/٧٦ و ٢٥ عام ١٩٨٢)
التجارة وقطاع الخدمات	٩,٣	تدمير ما يقارب ١٣٤٠٠ مؤسسة
الصناعة	١,٥	تدمير ٣٠٠ مؤسسة او الحاق الضرر بها
الزراعة	١,٠	تدمير انشاءات الري، والآبار، والمزارع، وخسارة الآليات (تقديرات منظمة الفاو)

القطاع العام	٤,٠	الطرق، المرافق، المطارات، مؤسسات التلفون والكهرباء والمياه، المدارس، والمستشفيات.
الممتلكات المنقولة والاملاك الخاصة	٢,٠	مواد أولية، منتوجات جاهزة، تجهيزات للمؤسسات، مفروشات من المساكن الخاصة، سيارات.
المجموع	٢٢,٦	

استناداً الى سعر صرف الدولار آنذاك، بلغت قيمة الخسائر ٤,٧٨ مليار دولار. وسرعان ما ارتفعت هذه القيمة بفعل انحسار الانتاج. الجدول التالي يشير الى تطوّر اجمالي الناتج القومي:

السنة	اجمالي الناتج القومي بمليارات الليرة اللبنانية ^{٣٨}
١٩٧٤	٨,١
١٩٧٥	٧,٥
١٩٧٦	٤,٣
١٩٧٧	٦,٠
١٩٧٨	٦,١
١٩٧٩	٦,٣
١٩٨٠	٦,٧
١٩٨١	٦,٦
١٩٨٢	٦,٠
١٩٨٣	٥,٦
١٩٨٤	٥,٦
١٩٨٥	٥,٠
١٩٨٦	٣,٨

٣٨- ذات المصدر، الجدول ١٩، ص ٣٤.

بلغت قيمة الخسائر المتراكمة، بالمقارنة مع اجمالي الناتج القومي لعام ١٩٧٤، وحتى عام ١٩٨٦، ٢٧,٧ مليار ليرة لبنانية، اي ما يوازي حسب سعر صرف الدولار لعام ١٩٧٤، ١١,٦ مليار دولار. وبالنسبة لمعدل التنمية الافتراضي قبل الحرب، تكون الخسائر قد بلغت ٧٥ مليار دولار.

حصل الانهيار الكبير الأول في الانتاج عام ١٩٧٦، وقد امكن الحفاظ حتى عام ١٩٨١ على نسبة ٧٥٪ مما كان عليه قبل الحرب. ولكنه، منذ عام ١٩٨٢، انخفض حتى وصل عام ١٩٨٦ الى اقل من نصف مستواه عام ١٩٧٤. خلال السنوات الثماني الأولى من الحرب، بقي إذا النشاط الاقتصادي - باستثناء عام ١٩٧٦ - محافظاً على مستوى مقبول في ظلّ الأوضاع القائمة. ولكن بعد ذلك بدأت الأزمة التي افرزتها عوامل عديدة. فانعكاسات الركود الاقتصادي الدولي أثرت سلباً على منطقة الخليج، وكذلك الأعباء المالية الضخمة التي تحملتها دول الخليج التي دعمت العراق في حربه ضد ايران. هذا ما أدى الى اضعاف سوق المنتجات اللبنانية والى انحسار الايدي العاملة في منطقة الخليج. فضلاً عن ذلك، قاطعت دول عربية مختلفة منذ عام ١٩٨٢ المنتجات اللبنانية بسبب الغزو الاسرائيلي. وبنوع خاص، بدد اندلاع الحروب الجديدة وانسحاب الجيوش الغربية في بداية عام ١٩٨٤ كل أمل بعودة السلام وبالتالي كل امكانيات اعادة البناء.

انعكس الانتاج سلباً على تطوّر الميزان التجاري والمدفوعات. لقد كان الميزان التجاري منذ زمن طويل في حالة عجز دائم. في عام ١٩٧٤، غطت قيمة الاستيراد ٤١٪ من الواردات. وقد بقيت هذه النسبة حتى عام ١٩٨٢ شبه ثابتة رغم بعض التقلبات. في عام ١٩٨٣ تراجعت الى ١٧,٤٪ وفي عام ١٩٨٤ الى ١٦,٢، إلا انها ارتفعت قليلاً عام ١٩٨٥ الى ٢١,٣٪. وبالمقابل كان ميزان المدفوعات في لبنان قبل الحرب في حالة فائض دائم. وباستثناء عام ١٩٧٦، بقي الوضع قائماً على هذا الحال حتى عام ١٩٨١. وقد تجاوز هذا الفائض نسبة أعلى مما كان عام ١٩٧٥. ولكن الانهيار بدأ عام ١٩٨٢.٣٩

السنة	الفائض والعجز في ميزان المدفوعات بمليارات الليرة اللبنانية
١٩٧٤	١٤٩٣ +
١٩٧٥	٣٥٠ +
١٩٧٦	٢٣٩ -
١٩٧٧	٢٤٠٤ +
١٩٧٨	٥٤١ +
١٩٧٩	١٢٧٠ +
١٩٨٠	١٧١٧ +
١٩٨١	٢٧٠٧ +
١٩٨٢	٩٦٤ +
١٩٨٣	٥١٢١ -
١٩٨٤	١٢٠٢٨ -
١٩٨٥	٦٨٩٦ +
١٩٨٦	٢٢٥٢٧ -

حتى عام ١٩٨٢، كان العجز في الصادرات يغطي أكثر من اللازم بفضل تحويلات المغتربين، التي كانت تقدر بحوالي ١٥٠ مليون دولار شهرياً، وبواسطة المساعدات المالية الخارجية التي كانت تصل إلى مختلف اطراف النزاع. كانت مثلاً موازنة منظمة التحرير الفلسطينية المعتمدة للحرب تقدر بحوالي ثمانين مليوناً شهرياً. ولكن هذه المبالغ توقفت بعد اجلاء منظمة التحرير عن بيروت عام ١٩٨٢^{٤٠}. وفي نفس الوقت، بدأت الأزمة الاقتصادية في الخليج التي أدت إلى انحسار الصادرات وكذلك إلى انحسار كبير في تحويلات العاملين في تلك المنطقة.

الآن الأزمة تفاقمت بنوع خاص بسبب التضخم الأساوي في عجز الموازنة العامة منذ عام ١٩٨٢. قبل الحرب، كانت تمارس في لبنان سياسة دقيقة ومحافظة

٤٠- قبيل انسحاب منظمة التحرير جرى تحويل ٨٠٠ مليون دولار اميريكي من البنك العربي الى دول أخرى لحساب منظمة التحرير. راجع: John BULLOCH, Final conflict, op. cit. p. 216.

في إطار الموازنة العامة. الحديث عن الدين العام كان نادراً. كما ان موازنة عام ١٩٧٤ انتهت بفائض بلغ نسبة ٤٪.

ولكن مع بداية الحرب برز العجز في كل الموازنات السنوية. فالدولة اللبنانية استمرت في دفع رواتب موظفيها. وفي الظروف الهائلة نسبياً كانت تشق الطرق وتؤمن صيانتها، كما اشترت منذ عام ١٩٧٧ اسلحة جديدة للجيش اللبناني. إلا أن مداخيل الدولة تراجعت بشكل بارز. ومع انخفاض الانتاج وتزايد حركة الهجرة، تراجعت كثيراً ضرائب الدخل. فرسوم الخدمات العامة، مثل المياه، والكهرباء، والهاتف لم تكن تدفع في مناطق عديدة من البلاد. وبنوع خاص انخفضت كثيراً المداخيل الجمركية التي كانت سابقاً تشكل القسم الرئيسي لعائدات الدولة. فقد انشأت كل الأحزاب المشاركة في الحرب مرافئ لها، حيث كانت تجبي الرسوم الجمركية بهدف تمويل اجهزتها وميليشياتها.

تطور العجز في الموازنة العامة^{٤١}

السنة	عجز الموازنة %
١٩٧٥	٢١,٨
١٩٧٦	٧٦,٣
١٩٧٧	٢٨,٢
١٩٧٨	٢٧,٦
١٩٧٩	٣٥,٨
١٩٨٠	٣٨,١
١٩٨١	٣٧,٦
١٩٨٢	٦٣,٥
١٩٨٣	٥٣,١
١٩٨٤	٧٨,٥
١٩٨٥	٧٥,٤
١٩٨٦	٨١,١

٤١ - جرى احتسابها بالاعتماد على الاحصاءات الواردة في بحث خليل ابو رجيلي وبطرس لبكي، المصدر المذكور، الفصل الخامس، الجدول ٢٢، ص ٤٢.

في عام ١٩٧٦ أدى انهيار سلطة الدولة الى انخفاض يارز في العائدات الضريبية. ولكن العجز بقي محدوداً بين ١٩٧٧ و١٩٨٢. إلا ان احداث ١٩٨٢ جلبت معها انهياراً ثانياً. وفي عام ١٩٨٣ تمكنت الحكومة من استعادة المرافق من ايدي الميليشيات، الأمر الذي ساعد في ارتفاع العائدات العامة. كما ان العجز الذي كان مرتفعاً، تضاعف بوضوح كلي. ولكن منذ شباط/فبراير، واذار/مارس ١٩٨٤ ضعفت كثيراً سلطة الدولة الى حال يشابه عام ١٩٧٢. وبلغ العجز عام ١٩٨٦ اعلى درجة عرفها لبنان.

غطى هذا العجز بقروض من المصارف الخاصة، ومن البنك المركزي بنوع خاص. فبلغت نسبة القروض التي قدمها هذا المصرف الى الدولة ١٢٪، وارتفعت عام ١٩٨٦ الى ٤٥٪. ولكن انخفاض الانتاج المستمر وتزايد العجز في ميزان المدفوعات أدّى الى تكاثر عمليات طباعة الأوراق النقدية التي سببت تضخماً اقتصادياً وانهياراً نقدياً^{٤٢}.

السنة	زيادة اسعار السلع الاستهلاكية %	سعر صرف الدولار مقابل الليرة
١٩٨٠	٢٣,٧	٣,٤٣
١٩٨٣	٩,٨	٤,٥٢
١٩٨٤	٢٥,٨	٦,٥١
١٩٨٥	٦٩,٧	١٦,٠٠
١٩٨٦	١٦٢,٠	٣٥,٠٠
١٩٨٧	٦٢٠,٠	٥٢٠,٠٠

اسهمت الأزمة الاقتصادية في السنوات الأخيرة بطريقة مأساوية في تقاوم وانهيار مستوى العيش لدى قسم كبير من المواطنين اللبنانيين، كما يتبين ذلك من التطور السلبي البارز في مستوى دخل الفرد^{٤٣}:

٤٢- مصدر الجدول التالي: مصرف لبنان، التقرير الشهري، والاتحاد العام للعامل في لبنان، بيروت. ذكره

خليل ابو رجيلي ويطرس لبكي، المصدر المذكور، الفصل الخامس، ص ٥٢.

٤٣- ذات المصدر، الجدول ٢٥، ص ٥١.

السنة	معدل دخل الفرد بالدولار
١٩٧٤	١٨٦٩
١٩٨٢	٢٩١٧
١٩٨٣	١٩١٧
١٩٨٤	١٥٩٣
١٩٨٥	٩٧٩

حتى عام ١٩٨٢ تضاعف معدل دخل الفرد مقابل مرحلة ما قبل الحرب، ولكن سرعان ما انخفض بقوة حتى بلغ عام ١٩٨٥ نصف ما كان قبل الحرب. اما الذين انعكس عليهم سلباً هذا الانخفاض، فهم اصحاب الأجور التي كانت تدفع لهم بانتظام بالعملة اللبنانية، ولكن دون تعادل مع زيادة غلاء المعيشة.

تراجع القوة الشرائية للرواتب والأجور ١٩٧٤-١٩٨٦**

السنة*	الحد الأدنى للأجور (%)	معدل الأجور (%)
١٩٧٥	٥,٥	٧,١
١٩٧٧	١١,٣	١٧,٥
١٩٧٨	١٨,٩	٢٤,٥
١٩٧٩	١٧,٣	٢٧,٢
١٩٨٠	١٣,٩	٢٦,٠
١٩٨١	١٤,٥	٢٨,٥
١٩٨٢	١٦,٦	٣٠,٠
١٩٨٣	٨,٦	٢٧,٩
١٩٨٤	١٣,٦	٣٣,٧
١٩٨٥	٣٥,٩	٥١,٠
١٩٨٦	٣٨,٠	٦٠,٠
١٩٨٦ (ديسمبر)	٤٨,٠	٧٦,٠

* بالاستناد الى عام ١٩٧٤

انخفضت القوة الشرائية للحد الأدنى من الأجور الى نسبة ٤٠٪، ولمعدل الأجور الى نسبة ٦٠٪. وبصورة عامة فقد الحد الأدنى للأجور ١٣٪ من قيمته الشرائية بالمقارنة مع بداية الحرب، وبشكل أوسع مع معدل الأجور. في عام ١٩٧٤ كان الحد الأدنى للأجور يشكل ٧٠٪ من معدل دخل الفرد. وقد انخفض في نهاية ١٩٨٦ الى ٢٠٪. هذه هي مؤشرات حسية لتفاقم التباين في مستويات الدخل منذ بداية الحرب. وهذا يشير ايضاً، وبنوع خاص، الى ان الطبقات المتوسطة كانت اكثر المتأثرين بالأزمة الاقتصادية. اضافة الى ذلك، ارتفعت نسبة العاطلين عن العمل من ٥،٥٪ قبل الحرب الى ١٥،٢٪ عام ١٩٨٥. هذا ويشكل المهجرون الأكثرية الساحقة من العاطلين عن العمل.

لم تشكل الحرب في لبنان عاملاً كبيراً لإحلال المساواة، كما كان يتمنى بعض الذين اسهموا في إشعال نيرانها. لقد أفقرت معظم اللبنانيين، ولكن بعضهم افتقر اكثر من غيره. انه لمن الصعب جداً التنبؤ بانعكاسات الحرب الاقتصادية على المدى البعيد. حتى وان انتهت خلال وقت قصير، فإعادة البناء ستكون صعبة للغاية. فالبلاد هي بأشد الحاجة الى تلك الايدي العاملة المؤهلة التي غادرتها، بحثاً عن عمل في الخارج. انه لمن الصعب القول: متى سيعود هؤلاء، وكم سيكون عدد العائدين. وكذلك الرساميل الكبيرة ستكون ضرورية لإعادة البناء. ولكن منظمي ومقدمي المساعدات الشبيهة بخطة "مارشال" لم يبرزوا بعد. وحتى عام ١٩٩٢ لم ينفذ اي بلد عربي وعده بمساعدة لبنان. فالأسواق التي فقدت سيكون من الصعب جداً اكتسابها من جديد. وكذلك وجدت الرساميل البترولية مصارف لاستثمارها في أمكنة أخرى غير لبنان. اما القطاع الزراعي فلن يتمكن بسهولة من استعادة عافيته، خاصة ان انشاءات الرّي في البقاع دُمّرت، وهُجّر معظم الذين كانوا يستخدمونها. كما توقف الانتاج الزراعي الذي كان معداً للتصدير، وتلزمه سنوات عديدة كي يعاد بناؤه. وتجدر هنا الإشارة الى ان نصف المساحات الزراعية التي كانت قائمة عام ١٩٧٣ مازالت تستثمر، ولكن ليس في زراعة الحبوب والفاكهة والدخان، بل في زراعة الحشيش.

وفي بداية التسعينات برزت الى الواجهة هموم ملحة على المدى القصير. فمنذ عام ١٩٨٦ عرف لبنان، ولأول مرة منذ الحرب العالمية الأولى، ظاهرة الجوع. ولم تعد هذه الظاهرة ذات طابع نسبي فحسب، بل تحولت الى ظاهرة من الحرمان الواقعي الأليم.

٨ - الحياة اليومية في زمن الحرب

بالإضافة الى الانهيار الاقتصادي، تفاقمت أيضاً مختلف اوضاع الحياة اليومية من سبى الى اسوأ. حتى حيثما غابت المعارك، سيطر الخوف وبرز نوع الاستئشاء في مواجهة اخطار واقعية متعددة. لم يعد أحد يأمن سلامة الطريق المؤدي الى مكان العمل، أو الى المتجر، أو الى المدرسة، أو العودة مساءً الى البيت. ولكن، بالرغم من ذلك، كان معظم الناس يخاطرون ويسلكون تلك الطرقات غير مبالين بالخطر المحدق بهم. كان المواطنون يبحثون عن طرقات قصيرة لتقلاتهم، بقدر ما تسمح لهم الظروف، بحثاً عن عمل ومتجر ومدارس قريبة من مكان السكن. لقد حلّ التلفزيون وأشرطة الفيديو مكان قاعات السينما. والعائلة الصغيرة أخذت مكان حلقة الاصدقاء. في المساء لم يعد المواطن يخرج من منزله الا قليلاً، وفي حال الضرورة كان عليه توقع ضرورة قضاء الليل خارج مسكنه.

كذلك تقلصت مؤشرات الودّ والصداقة بين الناس. حتى ان النرفة كانت اكثر بروزاً في التصرفات والسلوك، الأمر الذي لم يكن يلاحظ سابقاً. النكات السياسية لم تنقطع ابداً، بل زادت مرارتها. الإشاعات والتكهنات كانت تنتقلها أجهزة الصحف التي حافظت على تنوعها وغناها الاعلامي، رغم افتقارها كثيراً الى التحاليل والتعليقات السياسية. كانت معظم التكهنات تدور حول "الموعد" القادم، مثل مؤتمر قمة عربي او دولي، او لقاء احد الموفدين، او الانتخابات في اسرائيل، او وفاة الخميني، الخ. ولكن كانت الآراء تنقسم حول هذه المواعيد، اذ لم يعد يجروء أحد على التعبير عن أمل كبير.

خلال سنوات الحرب الأولى، حاول اللبنانيون تجاهل الحرب بقدر الإمكان. كانت تصرف الاموال بإفراط، طالما كانت الجيوب مليئة منها. حفلات البذخ لم تنقطع. المطاعم كانت تزدحم بالزبائن. على الشواطئ البحرية كانت ترتدى وتعرض احداث ازياء السباحة. بعض الصحفيين الغربيين وصفوا ذلك بخفة العقل، ورأوا في تلك المظاهر نوعاً من النفاهة البطولية. فتجاهل الحرب رغم خطرها الحاضر دائماً كان شكلاً مدنياً وحضارياً رفيع الشأن للتعبير عن رفض الحرب التي لم يكن احد يريدّها. لقد كان ذلك ردة فعل طبيعية للغاية - عرفت ايضاً في حروب أخرى - على مجاورة الموت.

أثر التضخم الاقتصادي والانهيار النقدي كثيراً على اقامة مثل تلك الحفلات. فهناك اكثرية من المواطنين لم تعد تتوفر لديها الاموال لابتغاء الحاجات الباهظة الثمن لمثل تلك الحفلات. ولكن اقلية منهم بقيت محافظة على تقاليدها، وعلى البذخ المعروف. فالمواطن الثري يعرف جيداً كيف يُبرز قليلاً معالم البذخ والترف

المتوفرة لديه. ولكن هذا ما يفعله الأثرياء الجدد، أي اثرياء الحرب الذين يشكلون اليوم زبائن كازينو لبنان والسمرلاند، وهما من معابد الاستهلاك التي يجمع بينها انحطاط الذوق سواء في بيروت الشرقية أو في بيروت الغربية. وطالما توفرت "لصغار القوم" إمكانية الاحتفال بهذا الشكل، لم يُعد يُنظر إطلاقاً إلى هؤلاء، الذين بحكم حبّهم للحياة على الطريقة المتوسطة، كانوا يقيمون الحفلات بأشكالها المترفة وينتظرون بفرح في اليوم التالي صدور الصحف والمجلات لرؤية صورهم والتعليقات على حفلاتهم. ومنذ الوقت الذي لم تعد الأكثرية الساحقة تتمكّن فيه من القيام بمثل هذه الحفلات، برز امتعاض اجتماعي ازاء كل انواع البذخ. فقد أثار عالم "الأثرياء الجدد" موجة من الحسد والامتعاض لم تخلُ من القرف والانتقاد والاستنكار. ففي المناطق التي سيطر عليها "حزب الله"، استتكرت مثل هذه الاعمال كما غابت مظاهر الجمال والتبرج وراء الحجاب. في ظل مثل هذه الأوضاع المأساوية كان من المخزي ان يُعبّر الإنسان عن ابتهاجه باللجؤ الى شرب الكحول، ليتجاهل صعوباته وينسى مشاكله، علماً ان عدداً كبيراً من المسلمين اللبنانيين اعتادوا احتساءها. فالظهور بملابس غربية انيقة كان قد اصبح في تلك المناطق عملاً بطولياً تمارسه البنات المسلمات. كما ان شرب كأس من الويسكي كان تعبيراً عن الاقتناع بمفهوم العلمنة. إلا ان هاتين الظاهرتين اصبحتا نادرتين.

لم تميّز صعوبات الحياة اليومية لا بين الطبقات الاجتماعية ولا بين الطوائف. لقد عانى جميع اللبنانيين، دون تمييز، من انقطاع التيار الكهربائي، عندما كان يتعذر ايجاد البترول لتشغيل المولدات، كما عانوا ايضاً من انقطاع المياه، خاصة في فصول الحرّ الشديد. في المنطقتين الشرقية والغربية، كانت شبكات الهاتف بحالة يرثى لها، في وقت لم يكن سوى الهاتف وسيلة للاتصالات.

لقد تحولت المدرسة بالنسبة لذوي التلامذة الى مصدر قلق دائم. المدارس الحكومية كانت تغتقر باستمرار الى التجهيزات والمدرسين الذين بحكم رواتبهم المتدنية انقطعوا عن التدريس ومارسوا نشاطات أخرى جانبية. ولكن المدارس الخاصة كانت افضل حالاً، إلا ان رسومها كانت ترتفع باستمرار، ولم تعد بمتناول العديد من العائلات. ومنذ بداية الحرب، لم تمر سنة واحدة دون ان تضطر جميع المدارس الى اغلاق ابوابها بسبب المعارك وعمليات القصف المدفعي والصاروخي. طيلة الحرب، لم تفتح المدارس ابوابها الا شهراً واحداً خلال سنتين دراسيتين، وشهرين خلال سبع سنوات، وثلاثة أشهر خلال سنتين. وفي سبيل انجاز المناهج الضرورية لتقديم الامتحانات الرسمية، كانت تلغى مواد تعليمية مثل الرياضة،

والفنون، والتاريخ والجغرافيا. فالضغط في سبيل التعلم زاد بالنسبة لكل التلامذة، خاصة لعدم توفر وقت أو إمكانية للعب والتسلية. لقد زاد أيضا خلال الحرب عدد الجامعات. أنشئت في الجامعة اللبنانية عدة فروع جديدة، كما أنشأت طوائف دينية جامعاتها الخاصة. وهكذا حصل تجانس أيضا في مؤسسات التعليم العالي، سواء على مستوى الطلبة أو على مستوى الهيئة التعليمية، كما انخفض كثيرا مستوى التعليم. فإذا ما أراد الاساتذة الجامعيون تنظيم ندوة دراسية، يتطرق موضوعها الى الوضع السياسي بصورة مباشرة أو غير مباشرة، كانوا يُضطرون الى عقدها في قبرص.

كان الطريق الى هذه الجزيرة، انطلاقاً من كل اطراف البلاد، أكثر سهولة وأقل خطراً من الطريق بين منطقة وأخرى داخل البلاد، ليس فقط للأساتذة والجامعيين فحسب، بل لكل المواطنين أيضاً. لقد تجنب كثير من اللبنانيين، عندما كانت تسمح لهم الظروف، عدم التعرض للخطر عبر انتقالهم من منطقة تخضع لنفوذ إحدى الميليشيات الى منطقة تخضع لنفوذ ميليشيا أخرى. فنقاط المراقبة والعبور حتى داخل كل منطقة كانت مؤلمة للغاية. وهكذا صغر عالم اللبنانيين اثناء الحرب. فبعض الشباب من مدينة زحلة مثلاً، وربما تسنى لهم مرة زيارة باريس، ولكن لم يتعرفوا إطلاقاً على مدينة بعلبك. وكذلك زملاؤهم من صيدا وربما تسنى لهم زيارة القاهرة أو إبيدجان، ولكن لم يتسن لهم إطلاقاً زيارة مدينة جونية. ولربما كانت هناك اطراف تتمنى أو تعمل الى تحويل لبنان الى مناطق معزولة عن بعضها بعض.

قبل الحرب كانت ساحة البرج الوسط الرئيسي لمدينة بيروت. فيها كانت تمر جميع سيارات "السرفيس"، التي تعتبر اهم وسائل النقل في البلاد. بالقرب من تلك الساحة كان يقع حي المصارف ومنطقة الأسواق. اما الحرب، فقد أدت الى تسيير خطوط أخرى لسيارات "السرفيس"، كما انشئت "محطات" مختلفة في كل منطقة من العاصمة. وانتقلت المصارف والأسواق الى الضواحي. كما غطت الأعشاب والأشجار خطوط التماس^{٤٦}.

دُمّر وسط المدينة، وتحولت الى انقاض تلك البيوت القديمة التي كانت مشيدة بالحجارة الطبيعية والمزينة بالقناطر الجميلة والنوافذ ذات الشكل الغوتي. اما المباني

٤٦- يحتل النبات هذا المنظر من الحجارة. كل من توغل الى وسط بيروت خلال فترات الهدنة التي عرفتها الحرب اللبنانية، صُمم بغرابة منظر البناء و'غير البناء' المندمج ببعضه، وبمنظر المعدن والنبات المتداخل ببعضه، وبلعبة الموت والحياة المبهرة. وكأنه في تلك المدن البعيدة، الغارقة في الأدغال، أو في تلك الهياكل الانجكورية، كشواهد منسية عن حضارة ماضية". Jad TABET, Images de Beyrouth.

In : Salim NASR & Theodor HANF, op. cit. p. 132.

الجديدة المصنوعة من الاسمنت المسلّح، والتي لم تخرقها الصواريخ والقذائف المدفعية، او لم تحترق، فقد بقيت قائمة. من الجبال التي تعلو المدينة، لا يُشاهد مساءً إلا الإنارة في القسم الشرقي والغربي من المدينة، اما المثلث المهتم في وسط المدينة، فيكسوه ظلام دامس.

كانت الحياة في شقي العاصمة تعجّ ليلاً ونهاراً، ولكن بدا وكأن الطرفين قد ادارا الظهر لبعضهما بعض.

٩ - استقرار الرعب

ارتبطت اشكال الحرب، وأكلافها، وانعكاساتها عضوياً ببعضها بعض. كما ابرزت هذه الحرب الميليشيات الرئيسية المنظمة التي انبثقت عن التعبئة الأولى لمختلف اطراف النزاع والطوائف، والتي لم تؤد الى أي نصر. لقد نمّت هذه الميليشيات عدّة وعدداً، بهدف دفع تدخلات الجيوش النظامية الاجنبية لإحراز نجاح نهائي. جرّت الحرب بطريقة لا تهدف الى احتلال مناطق الخصم بل لإجباره على الاستسلام عبر الحاق الضرر به. لم يتحقق هذا الهدف، ولكن الأضرار التي سببتها الحرب جاءت كبيرة للغاية. لقد تحول اللبنانيون الى شعب من اللاجئين والمهجرين، واكثر من أي وقت مضى من تاريخهم، الى شعب من المهاجرين. انهار اقتصاد البلد، وافقر الشعب اللبناني، كما تحولت اوضاع الحياة اليومية، حتى دون انعكاسات الحرب المباشرة، الى حال من الشلل والاحباط.

أفرزت الميليشيات اسبداً من المرتزقة. فالماسي التي تسببوا بها، حتى وان بمساعدة جيوش غربية، عززت نفوذهم. امتلأت صفوفهم من المواطنين المهجرين والعاطلين عن العمل، لأنهم أرادوا استعادة منازلهم، او لأنه لم يكن امامهم اي خيار آخر. أدت الهجرة الى رحيل المواطنين الذين كانوا يشكلون الدعامة الاجتماعية للمجتمع المدني، اي المواطنين ذوي الكفاءات الفكرية والمهنية. وبغيابهم ضعف وجود العناصر المعتدلة والرصينة داخل معظم صفوف اطراف النزاع وخارجهم.

لقد اغتصبت الميليشيات جزءاً من مهام الدولة. كما وضعت يدها بنوع خاص على قسم كبير من مواردها. دفعت هذه الميليشيات بالحكومات الى اعتماد سياسة تضخمية، وهذا ما سبّب، بالإضافة الى اضرار الحرب الكبيرة، أزمة اقتصادية خانقة. لم تبد أية فئة منها رغبة في إعادة السلطة الى الدولة، او في التنازل لها عن قسم من الموارد العامة. لأن زيادة مداخيل الدولة تعني حكماً نقصاً في موارد الميليشيات. فلا قادتتها ولا قاعدتها الشعبية كانت توافق على هذه الخسارة. ولكن الأزمة الاقتصادية عزّزت نفوذها. فاستمرار التوترات برر شرعيتها داخل الطوائف

التي تمثلها، حتى وان كانت الأكثرية الساحقة من هذه الطوائف قد انهكتها هذه الحرب منذ مدة طويلة.

كان قادة الميليشيات لدى كل الأطراف مقتنعين تماماً بأنهم يقاومون ويعملون لمصلحة طوائفهم الفضلى. فتوافق المصلحة مع الاقتناع، مكن من تعزيز هذا الاقتناع فقط، قبل الحرب. قام لبنان على اقتناع رواد الميثاق الوطني بعدم امكانية سيطرة اية طائفة على الأخرى، وبأن الحل الوحيد والبناء هو المشاركة في ممارسة السلطة. فبعد سنوات طويلة من الحرب اضطر زعماء الميليشيات الى الاستنتاج والاقتناع بعدم امكانية انتصار او سيطرة طائفتهم او ميليشياتهم على غيرها. لذلك فضلوا التمسك واحتكار النفوذ الكامل في بعض اجزاء الوطن بدلاً من المشاركة في جزء من النفوذ في كل الوطن. وهذا ما سَيَّرَ تطوّر وتكاثر الممارك الطاحنة داخل كل طائفة أكثر منها بين الطوائف. فبدلاً من تقاسم السلطة، تقاسموا البلد.

كان لبنان ما قبل الحرب دائماً معرضاً للخطر، لأن قاداته كانوا ينتظرون تحقيق مكاسب داخلية بفضل الدعم الخارجي. ولكن في لبنان الحرب الذي ساد فيه نفوذ الميليشيات، زادت شدة هذا الخطر بشكل رهيب للغاية، لأن كل ميليشيا كانت اضعف بكثير من الدولة القديمة التي لم تكن توصف بالقوية. لقد أدّت الحرب والأزمة الاقتصادية الى استقرار الرعب المعبر عن المهادنة بين الميليشيات. ولكن الخطر كان يكمن في امكانية التلاعب بهذه الميليشيات، واستغلالها، وتحريكها من قبل قوى خارجية كانت تحاول باستمرار تسوية نزاعاتها في لبنان وتطمح الى تحقيق انتصار عبر العنف.

الفصل السادس

الثعالب والذئاب

النزاع اللبناني في تصوّرات السياسيين وزعماء المليشيات

"يحتاج عدد صغير فقط من المواطنين الى استخدام العنف، لفرض ارادتهم على الحاكمين الذين يرفضون مقارعة العنف بالعنف... وفي سبيل الحؤول ضد العنف أو مقاومته تحاول الطبقة الحاكمة اللجوء الى الحيل والخداع والافساد. قد نتراجع امام التهديد بالعنف، ولكنها تفعل ذلك ظاهريا فقط، بينما تسعى الى الدوران حول الحواجز التي لا تستطيع مواجهتها مباشرة... هنا يبرز "الثعالب" ويمارسون فن المصالح، بينما يسعى الآخرون الى ممارسة المقاومة المفتوحة، كما يُضعف الشعور القوي بالمتابرة امكانية الخضوع والاستسلام... كذلك تبرز قوة المثالية، سواء في الحروب الأهلية أو في الحروب بين الشعوب من خلال انتصارها. فالذي يفقد عادة استخدام العنف، ويعتاد، بدلا عن ذلك، على الحكم على عملية ما من منطلق مساومة تجارية يمارسها فقط، وفقا لواجبه وامكانياته، فانه يميل بسهولة الى المتاجرة بالسلم. قد تكون هذه العملية بحد ذاتها سليمة، لان الحرب تكلف أكثر من السلم... ولكن الاختيار يشير الى ان مثل هذا السلوك يؤدي في حال استمراره الى زوال شعب بكامله".

"كيلفرادو باراتو"

"يصارع العجوز في سبيل قضيته
بحرا به وضميره الطيب...
المنافسة تفرض استغلال كل مناسبة لصالح قضيتنا.
في الحرب يعتبر كل شيء حسنا.
نأخذ دون اي اعتبار كل شيء يقدم لنا".

"فريد ريش شيلر، فالنشتاين"

تسمح "ثعالب" "باراتو" بسهولة بالتعرف الى سياسيي لبنان التقليديين. اما الذئاب اللبنانيون فهم أكثر شبهاً بأسياذ "حرب الثلاثين سنة" الذين وصفهم "شيلر". في الواقع، لم تتجح "الثعالب" في تحقيق السلام، رغم الجهود التي بذلوها. "نظرية باراتو جامدة، وتبدو بالتالي تهكمية. فهو ينطلق من مبدأ اعتبار العقل المفكر خاضعاً لقوة روحية أقوى منه. لذلك ليس من العبث عرض أنواع المفاوضات واشكالها وتشبيهها بسلوك الحيوانات. وليس من العبث ايضاً تفضيله الذئاب على الثعالب. في خصوصية نظريته تكمن قوتها ومحدوديتها معاً".^١

توضح هذه النظرية نقاط الضعف عند الثعالب، ولكنها تضيف طابع المثالية على الذئاب. في التاريخ لم يندر عدد الذئاب الذين "ارجأوا المنحى الانساني الى مستقبل بعيد وحولوه الى هدف مثالي، بينما اتقنوا كيفية استخدام العنف دون أي اعتبار".^٢ "فالحرب الجيدة" و"الضمائر الصالحة" توفرت لدى كل "ذئاب" الحرب اللبنانية بكميات هائلة. ولكن سلطة المثالية التي تحدثت عنها "باراتو"، لم تبرز اطلاقاً في أي انتصار. لم يستطع أي من "الذئاب" فرض سيطرته، ولم يتبين كذلك اذا كان "الثعالب" سيحققون ذلك نهائياً. ولكن اسهم الفريقان بطرق مختلفة في دفع الشعب اللبناني اقله الى شفير الزوال.

فيما يلي يكشف النقاب عن كيفية تحليل مختلف الفعاليات القيادية لاسباب النزاع، وكيف يحكمون على انفسهم، وماذا ينتظرون من الأطراف الآخرين، واخيراً كيف يتصورون مستقبل بلادهم.

١ - تصورات المشكلة في لبنان ما قبل الحرب^٣

عام ١٩٦١ كان قد مرّ على أول حرب اهلية لبنانية ثلاث سنوات. يومها كانت الاصلاحات الادارية والاقتصادية في عهد الرئيس فؤاد شهاب قد بدأت تعطي ثمارها. فالخلافات حول السياسة الخارجية زالت بفضل التفاهم الذي تم التوصل اليه بين الرئيس شهاب والرئيس جمال عبد الناصر. ولكن الخلاف بلغ ذروته حول مسألة الهوية اللبنانية. فمن مواقف عدد من سياسيي تلك المرحلة يمكن استنتاج

١- Arnold BERGSTRAESSER, Die Macht als Mythos und als Wirklichkeit, Freiburg 1965, p. 132.

٢- ذات المصدر.

٣- كل الاستشهادات الواردة في هذا الفصل هي مقابلات اجراها المؤلف مع الأشخاص المذكورة أسماؤهم او مع القياذيين السياسيين او العسكريين الذين طلبوا منه عدم ذكر اسمائهم.

العناصر الاساسية لمختلف الاتجاهات الايديولوجية الكامنة وراء النزاع المسلح. ولكن تستنتج ايضا من خلالها اشكال مختلفة لكيفية المعالجة السياسية للنزاع حول الهوية.

رشيد كرامي، أول رئيس حكومة في عهد الرئيس فؤاد شهاب، اتخذ في هذا المجال موقفا واضحا، ولكن بشكل يسمح بالسعي الى بذل الجهد للتفاهم والبحث عن اسس مشتركة:

"لبنان هو بلد عربي، يتحلى بكل مزايا الدول العربية. ولكن هذا لا يمنعه من اقتباس ما هو مفيد في الدول الاخرى، كي يستفيد منه، دون ان يفقد من خلال ذلك طابعه العربي. من المؤكد ان لكل الاديان اصل واحد، اي الله. مبدئيا الجميع متساوون. فاذا عاش وسلك كل منا وفقا لقوانين دينه، اصبحنا جميعا سعداء وموحدين. ولكن ما يخيفنا هو الجماعة التي تستغل الدين لاهداف اخرى. يسمح ضعف دولتنا ب بروز تعصب لدى بعض الفئات. ولكن النظام القوي يستطيع ان يفرض سياسة سليمة، ومنطقية، ومعتدلة، كي يمنع المتعصبين من المتاجرة بنزواتهم... هذه الدولة هي لكل المواطنين، وليس لهذا الحزب او ذاك. لذلك نحتاج، بحكم الضرورة في الوقت الحاضر، الى سياسة اليد القوية. فعندما تكون هناك مشاركة في سكنى هذا البلد، لا بد بالتالي من وجود قواسم مشتركة بين سكانه."

برز في موقف رشيد كرامي الخوف من تكرار احداث عام ١٩٥٨، وكذلك الاقتناع بضرورة مساعدة السلطة الرسمية لفرض العوامل المشتركة الجامعة بين المواطنين ضد العوامل المفرقة.

عبر عن هذه القناعة ايضا شهابي آخر، ألا وهو فؤاد بطرس، الذي كان وزيرا للعدل في تلك الفترة، ولكن بجديّة وتحفظ:

"مسألة القوميتين اللبنانية والعربية لا حل لها على المدى القريب. فمن غير المؤكد ان تكون ممكنة مثلا لمسلم متشدد في ايمانه. في بعض الدول العربية الاخرى قد يختلف الوضع نوعا ما، لان العروبة هي احيانا امر دنيوي، ولكن هنا في لبنان تستمر الخلافات والتناقضات الطائفية اكثر من استمرارها في الدول العربية الاخرى. ولا يجوز ان تغيب عن الاذهان ان الفروقات الاقتصادية بين الفريقين ما زالت بارزة. فاذا ما حاولنا رفع مستوى الحياة لدى المسلمين، فسيكون بالامكان ملاحظة تراجع التعصب في فترة وجيزة. واعتقد انه في حال عدم تحسن مستمر في الوضع الاقتصادي، فان القومية العربية ستكسب قوة وزخما اكثر، وتأخذ طابع العنف في لبنان. لذلك انا مقتنع بان رفع مستوى الحياة للجميع، وخاصة للفئة الاسلامية المحرومة، هي السياسة

الوحيدة الصائبة للبنان. وهنا يكمن فقط، رغم كل المخاطر، حظ استمرارية هذا البلد كدولة مستقلة. فالأبحاث التي أجراها الاب "لوبرا" وبعثة "إيرفد"، هي حقاً، وبكل تأكيد، مفيدة، ولكني لا اعتقد انها ستؤدي الى تغييرات حاسمة، خاصة انها تستطيع التأثير مباشرة على الوضع السياسي. تركزت أبحاث الاب "لوبرا" قبل كل شيء على المناطق الريفية. ولكن المشكلة السياسية في لبنان ليست في تلك المناطق، بل في المدن. فالقومية العربية تتركز في بيروت وطرابلس وصيدا، وقد يكون لهذا الكلام صدى تشاؤمي. ولكني اعتبر ذلك فقط تحليلاً واقعياً للوضع. علينا ان نرى الامور كما هي، وان نوجه جهودنا في هذا المضمار. يكمن الخطر في بلادنا في عدم اتباع سياسة هادئة وواقعية. علينا ان نتجنب تأزيم وتصعيد الخلافات التي ما زالت قائمة".

لقد نظر اذا كرامي وبطرس الى التعصب كمشكلة. ورأى كل منهما في قيام دولة قومية تهتم بتنمية اقتصادية واجتماعية، افضل وسيلة للتحكم بالازمة. فبعد أكثر من ربع قرن لاحقاً، تبين ان تشخيص فؤاد بطرس كان صائباً. فعدم زوال التفاوت القائم يزيد في حدة التوترات العقائدية، وبنوع خاص في المدن. وقد برزت بوضوح هذه التوترات في التصريحات التي اطلقها ممثلو الاحزاب الشعبية، والتي عكست تصوراتهم عن حال البلد.

صرح في هذا المجال عدنان الحكيم رئيس حزب النجادة، بما يلي:

"لا توجد اية ثقافة لبنانية. فما يُسمى بالثقافة اللبنانية هو اختراع الفرنسيين والجماعة التي تتأثر بهم. لبنان هو جزء متكامل من العالم العربي. وطابعه المميز يكمن في انه يتأثر، أكثر من اي بلد آخر، بالامبريالية. وتغيير هذا الوضع هو واجب يعمل في سبيله حزب النجادة".

هذا الحزب يريد:

"محاربة عزل لبنان عن المنطقة العربية واستئصال هذا البلد من جذوره".

كذلك حدّد صورة العدو:

"لو لم تكن هناك اقلية دينية جرى استغلالها من قبل التيارات السياسية والتبشيرية الخارجية، لما وجد (لبنان) نفسه في معركة الدمار التي يواجهها".

ولكن رأياً معاكساً لذلك عبّر عنه حزب الكتائب الذي طالب بثقافة لبنانية مستقلة:

"ينبغي النظر الى الثقافة اللبنانية والتحدث عنها بذات الطريقة التي يجري الحديث عن ثقافة مستقلة فرنسية، او ألمانية، او ايطالية. هذه الثقافات تريد ان تبقى حرة، وفي

الوقت نفسه منفتحة على الغير. وهذا يعني ان ثقافتنا لا ينبغي ان تكون محصورة بالعالم العربي. فهذا أمر غير واقعي... ان صفة "بلد التكامل الثقافي" هي اكثر ملائمة لنا".

ولكن مسألة النقاش حول الهوية عام ١٩٦١ لم تكن اكااديمية فقط. في تلك السنة برز موقفان يشيران الى أي حد تشكل المفاهيم المتنازع عليها بالنسبة للقوميتين العربية واللبنانية في النهاية، قانونا للطوائف الدينية ولطموحاتها الى السلطة.

تحدث أيضا عن هذا الموضوع وبكل وضوح المفكر والكاتب عمر فروخ، الذي كان استاذاً للفلسفة في مدارس جمعية المقاصد السنّية. فقال دون أي تحفظ بالنسبة للاحداث السياسية اليومية:

"الاسلام هو في الاساس دين القومية العربية. انا شخصيا اعتقد بانهما، أي الاسلام والقومية العربية، امر واحد. في السياسة يقال بان الاسلام يشكل قسما كبيرا من العروبة. ولكن ذلك ليس سوى تنازل يقدمه السياسيون فقط. اما في الحقيقة فينبغي ان يكونا متماثلين، وهما ايضا متماثلان... انظر السؤال يطرح باستمرار: ماذا ينبغي ان يكون الاسلام في لبنان؟ هل ينبغي ان يكون ديناً فقط؟ كلا، بل اكثر بكثير من دين. فله ارتباط كبير جدا بثقافتنا. ماذا تعني اذا الثقافة المتوسطة؟ ما معنى الشعار "الاصل اليوناني اللاتيني"؟ كل ذلك يرتبط فقط بالمسيحية، وهذا شيء غريب عنا... من الطبيعي ان تقدم تنازلات في اطار العمل السياسي اليومي. ولكن ينبغي ان تكون للجميع ذات الحقوق، لانهم يعيشون كلهم سوياً في الوطن، خاصة الذين يريدون الانتماء اليه. الآن ينبغي ان يكون لبنان مستقلاً. ولكن يبقى هدفنا الوحدة، حتى وان بدا ذلك في الوقت الحاضر أمراً صعباً لاسباب سياسية معروفة".

وعن وضع المسيحيين في لبنان قال عمر فروخ:

"عندما يعتبر المسيحيون انفسهم عرباً ويسلكون كعرب، عندئذ يتساوون معنا. ولكن ينبغي عليهم ان يتصرفوا بالمعنى الديمقراطي، كأقلية، مثلما يتصرف البروتستانت في فرنسا كأقلية. وكذلك في إنجلترا، لا يستطيع اي انسان ينتمي الى الاقلية الكاثوليكية ان يصبح ملكاً... في الدين كل انسان يتساوى مع الآخر في القيمة. ولكن في السياسة تحكم الاكثرية".

وحول سؤال طرحه عليه المؤلف، اذا كان السياسيون على حق، خاصة الذين يعتقدون، كريمون إده مثلاً، بأن المسيحيين لا يستطيعون في دولة عربية موحدة الا

ان يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية فقط، اجاب فروخ:

"عندما تبلغ العروبة هنا في لبنان مستواها الرفيع، عندئذ لن يكون لأتاس مثل ريمون اده، لا يتكلمون العربية، ولا يريدون ان يكونوا عربا، أي مكان، لا كمواطنين من الدرجة الاولى ولا الثانية ولا الثالثة".

ولكن ريمون اده اعطى مسألة الهوية بعداً ليبرالياً براغماتياً بقوله:

"كان من الطبيعي ان تكون الأفضلية عندنا للغة العربية. عندما كنت في المدرسة عند اليسوعيين كانت تعطى لنا ساعة واحدة لدرس اللغة العربية. وهذا امر لا يجوز. ولكن الاسباب الاقتصادية تحتم على اللبنانيين دراسة وتملك عدة لغات. وعلى لبنان ان يبقى منفثحا على كل التيارات الفكرية. انا اعارض مبدنيا كل نوع من التوجيه الفكري".

وعن حقه بان يكون "لبنانياً من الدرجة الاولى"، اجاب بمزاجيته المرحّة قائلاً:

"رأيت في العروبة؟ لا يوجد بالنسبة لمعظم العرب أي فرق بين العروبة والاسلام. بالنسبة لهم، المسيحي العربي هو دائماً عربي من الدرجة الثانية فقط. هل تعتقد بان هذا الامر جذاب لنا؟ ليس لي اية رغبة على الاطلاق في ان اكون عربياً من الدرجة الثانية، اسم اسرتي "اده". وهذا اسم فينيقي. وانا نائب عن منطقة "بيبلوس" الفينيقية. وهل تعتقد بانه ينبغي ان اكون عروبياً؟".

عكست تصريحات ومواقف حزبي النجادة والكتائب والسيدتين فروخ واده، بوضوح كلي، الخلافات في الرأي حول طابع لبنان الثقافي والديني والسياسي. هذه الخلافات في الرأي التي كان يأمل رواد الميثاق الوطني بتجاوزها، كما سعى الشهابيون للحد منها عبر التوازن الاجتماعي. ولكن رغم هذه الجهود، فإنها بقيت مستمرة وقائمة بحدة. إضافة إلى ذلك، برز عام ١٩٦١ تعبير آخر عن النزاع، لم يبرز بصورة علنية إلا في وقت متأخر، ويتلخص بمطالبة الطائفة الشيعية بمشاركة أقوى وأفعل في النظام السياسي.

اشار الى ذلك النائب الشيعي محسن سليم الذي اعتبر تمدين طائفته قد قطع شوطاً كبيراً من التقدم:

"ان ناخبي عدنان الحكيم هم باكثريتهم الساحقة من الشيعة الذين يشكلون اليوم ٦٠٪ من سكان منطقة البسطة في بيروت. وما يسمى "بالشارع البيروتي"، يتكوّن اليوم باكثريته من الشيعة".

استنتج محسن سليم ايضاً ضعفاً متزايداً لدى القيادات السياسية المؤهلة لدى

الطائفة السنية:

"لهذا السبب اصبح مركز كمال جنبلاط لدى السنة قويا بهذا الشكل. ينظر اليه عدد كبير من السنة كزعيم لهم، لان زعماءهم خيبوا امالهم".

الى اي حد يعتبر هذا التحليل صائبا؟ الجواب على ذلك يكمن في ما حصل بعد عقد من الزمن لاحقا، كما اشير الى ذلك سابقا. ولكن محسن سليم لم يهتم كثيرا بزعامة سني على الشيعة او درزي على السنة، انما عبر عن طموح للزعم الشيعة:

"داخل كل الطوائف سيأخذ مكان القيادات القديمة، التي هي بمعظمها من اصل اقطاعي، جماعات شابة ديناميكية واكثر علما وثقافة. على المدى البعيد ارى امكانية لتغيير المعطيات الاساسية في السياسة اللبنانية بطريقة حاسمة. وهي تقوم على تغيير الميثاق الوطني بطريقة تتلاءم مع التطور العدي الواقعي. وهذا يعني في الواقع حلول الشيعة مكان السنة، اي بانتقال رئاسة الحكومة الى الشيعة. وبما ان الشيعة اقل ارتباطا من السنة بالدول العربية المجاورة سيكون ممكناً اتباع سياسة لبنانية حقيقية".

بعد مرور عشر سنوات على ذلك، اي في عام ١٩٧١، اصبحت المطالبات الشيعية موضوعا هاما في السياسة اللبنانية الداخلية. فبرز الامام موسى الصدر ناطقا ومطالباً باسم الشيعة. ففي مقابلة اجريت معه، شدد بنوع خاص على المسائل العملية المتعلقة بالحرمان اللاحق بطائفته. فطالب بزيادة حجم استثمارات الدولة في مجال البنية التحتية في الجنوب والبقاع، وتقديم المساعدات لتصنيع الدخان، وزيادة عدد المدارس، وعدد المنح للشيعة في الجامعة الاميريكية، وفي جامعة القديس يوسف. وعن النظام السياسي في لبنان تحدث بنوع من الدقة:

"انا شخصيا اعتقد بان النظام الطائفي في لبنان مرّ الوقت عليه، وينبغي الغاؤه. ولكن حسناته عديدة في الوقت الراهن بالنسبة لمختلف الطوائف... انها في الواقع امر سييء، ولكنها مفيدة جدا اذا طبقت بعدل وانصاف. فطائفنا محرومة منذ زمن طويل عبر سياسات مقصودة، ولكن لن نسمح في المستقبل اطلاقا باستمرار هذه السياسة. نريد الحصول على جزء من الاقتصاد والثقافة والسلطة السياسية في هذا البلد بطريقة تتلاءم وتتوافق مع قوتنا".

تكلم موسى الصدر مثلما تكلم رواد الدستور والميثاق الوطني الذين اقاموا نظام النسبة والحصص "كإجراء مؤقت" فقط. فالذي اراده الصدر لم يكن الغاء نظام الحصص، بل الحصول على حصة اكبر لطائفته. وقد استهدف ايضا تجديد القيادة

السياسية لهذه الطائفة. في هذا المجال تحدث احد معاونيه:

"هؤلاء الاقطاعيون يصلحون فقط للعمل الاداري، وليس للعمل الاصلاحى. ولا تقدم للشبيعة اذا لم يتحرروا منهم. نحن لسنا ضد نظام عام ١٩٤٣، بل نريد تغييرا في طريقة وظائفه، وخاصة اعتماد اساليب نظيفة، وتغييرا في الاشخاص".

بعد بروز المطالب الشيوعية، كانت نهاية النهج الشهابي الحدث الاهم في بداية السبعينات. لقد رَحَّبَ بذلك معارضوه، واعتبروه نهاية لتدخل العسكريين في السياسة. اما انصاره فرأوا فيه نهاية لسياسة الاصلاح.

بالنسبة للفريق المعارض، قد يكون رأي ريمون إدّه معبراً عنه:

لا يمكن ان يحكم لبنان الا سياسى برلماني. هذه هي قناعتى القوية. لذلك ترشحت لرئاسة الجمهورية ضد فؤاد شهاب عام ١٩٥٨، رغم وجود الاسطول السادس الاميريكي على شواطئنا. على السياسى المدني ان يتقدم بكل بساطة، كي لا ينجح العسكري اقله في أول دورة اقتراع. ان التخوفات التي ابدتها حول المتوقع حدوثه كانت صائبة تماما. ان فؤاد شهاب مثل أي رجل عسكري، يحتقر الديمقراطية. فعندما كنت وزيرا في عهده، لمست لمس اليد كيف حاول العسكريون وضع أيديهم على كل شيء، وبأوضح الوسائل والاساليب، في وزارة الداخلية. فالذين كانوا اكثر حنكة وفطنة ارادوا، على الاقل، الاحتفاظ بواجهة مدنية للدولة، وقد تخصصوا في عملية التلاعب بالانتخابات. وفي عهد شارل حلو اصبحت أكثر وقاحة. فقد ارادوا بطريقة لا مفر منها، فرض انتخاب شخص خيالي خلفا له. لقد جرى انقاذ الجمهورية بأكثرية صوت واحد. الرئيس شارل حلو كان ضعيفا للغاية. لم يكن يجزئ على ايقاف تدخلات العسكر. منذ عام ١٩٦٦، قدمت مشروع قانون يفرض ابعاد العسكر عن الامور القضائية المتعلقة بالصحافة. وانا اعتقد، مثل "برياند"، بان العدالة العسكرية تتصرف ازاء العدل، مثل الموسيقى العسكرية ازاء الموسيقى. ولكن الرئيس شارل حلو كان يتكلم كثيرا، ويعمل قليلا. امام العسكريين كانت تعتريه دائما حالة من التوتر والوقار. فالى الجنرال البستاني، هذا الحرامي، كان يتحدث دائما بعبارة "سيدي الجنرال". ولكنه لم يجرؤ اطلاقا على اعطائه اوامر للتنفيذ... لدينا الان حرية اكثر. فبعد اسبوع من تسلمه رئاسة الحكومة، امر رئيس الوزراء، صائب سلام، بتحطيم او باغلاق المكاتب المخصصة للعسكريين في وزارة البريد، وفي مركز البرق والهاتف الرئيسى، حيث كان يجلس اسياذ التنصت مع آلات التسجيل وسماعاتهم. فهم الان عاطلون عن العمل، مثل رئيسهم في المكتب الثانى. فؤاد شهاب تأثر كثيرا من انتصار الجمهورية التي كان يحتقرها. وهذا كان انتصاري انا".

كذلك الانتصار والمعاونون القياديون للنهج الشهابي استأوا غالبا من تدخلات المكتب الثاني في السياسة التي تجاوزت الحدود الممكنة. وهذا ما تحدث عنه مثلا فؤاد بطرس. ولكنهم تأسفوا كثيرا لنهاية النهج السياسي الاجتماعي. وعن هذا الامر قال محسن سليم:

"ان ما يحصل الان هو عودة الى الاقطاع السياسي، واخذ الثار. سليمان فرنجية هو من الناحية الانسانية لطيف جدا، ولكنه ليس منارة فكرية. لقد بحث عن معاونين له من مستواه، واحاط نفسه باحفاد العائلات القديمة. بهذه الطريقة سيضل لبنان وينهار. ليس لهذه العائلات اية مصلحة يتقدم هذا البلد. من المؤكد بانه سيستمر الحديث طويلا عن الاصلاح -توجد مثلا عملية اصلاحية مماثلة- وفي الوقت ذاته لن يحصل إلا القليل".

اما كمال جنبلاط الذي كان وزيرا مدة طويلة، وأحد دعائم الشهابية، فقد اسهم ايضا في نهايتها. فعندما سئل عن الاسباب، اجاب منتقدا:

"اراد شهاب ان يقيم نوعا من المساواة في المجتمع اللبناني. لذلك لم تواصل الشهابية منذ سنوات طريقها نحو التقدم. اتهمت الى حد ما بالخبث. وكذلك العهد الذي جاء بعد الشهابية، لم يحقق شيئا جديا بعد. لم يعد احد يجرو على لفظ كلمة الشهابية. ولكن ظل الشهابية بالذات مازال يحارب من قبل الخداعين السياسيين -اعني كميل شمعون- ومن قبل الذين يخافون - واعني بيار الجميل. واخيرا قام الشباب ايضا ضد النظام، ولكن لاسباب اخرى بسبب جموده والتصرفات غير الديمقراطية التي يمارسها المكتب الثاني. اما الخطأ الاساسي فيمكن في النهج الشهابي بالذات. ففؤاد شهاب لم يسع اطلاقا لتحقيق ما كان يريد فعلا. ولم يفهم ايضا كيف يوظف ضمير الوطن.

لقد اراد نوعا من الاشتراكية دون الاشتراكيين، ودون اليسار. وهذا غباء نتجت عنه كل الانعكاسات السلبية. لقد خدم اكثر من اللازم المكتب الثاني، كما ترك عددا من الناس في وظائفهم، خاصة الذين خدموا في عهود الرؤساء السابقين. لقد عمل مع موظفي المكاتب واصحاب النفوذ. وهكذا لم يصل حتى النهاية في فرض اصلاحه الاقتصادي والاجتماعي. اراد ان يمشي على البيض الطازج، دون ان يكسرها. وفي النهاية اصبح شخصا رهيبا ومخيفا.

لذلك ناسف كثيرا، لان هذا الرجل كان ذا اهمية بالغة. ولكن لم تكن له اية ثقة بالشعب. كان يخاف من غريزته الخاصة. فعندما كان يرى "أكلة الجبنة" في ساحة النجمة^٦، كان يفضل ارسال بعض المصفحات الى هناك. أقسم اليمين على الدستور، فاحترمه بامانة

حرفية، ولكنه حرم نفسه من ممارسة سلطته. لربما كان مسيحياً أكثر من اللازم بعقله وقلبه، وفي الوقت ذاته عقائدياً واكثريكياً. كان رجلاً من قماشة الجنرال "باتان". أو بالأصح، لم يكن في الأساس رئيساً على الإطلاق، بل أميراً بلباس جنرال".

الى اي حد ينطبق هذا الوصف على فؤاد شهاب؟ لن نتوقف هنا حول هذا الموضوع. ولكنه في كل الاحوال يعتبر بالغ الاهمية نظراً لصدوره عن كمال جنبلاط، ونظرته له ولسياسته، هذا الرجل الذي كان بإمكانه تغيير لبنان في العمق، ولكنه اسهم في مسخه بالذات. فطريقة انتقاد جنبلاط لشهاب تشكل بحد ذاتها برنامجاً سياسياً.

انعكست نهاية النهج الشهابي سلباً على اليسار اللبناني. لقد تمكنت الدولة الشهابية من جهة من مراقبة تحرك القوى اليسارية وضبطها، ومن جهة أخرى اسهمت الحركة الاصلاحية في سحب المطالب الاجتماعية من تحت اقدام اليسار. ولكن عودة السياسيين القدامى الى السلطة اعادت، بفضل هذه المطالب، كرامة جديدة الى القوى اليسارية. في هذا الاطار يبدو تحليل انعام رعد، رئيس الحزب القومي السوري، بالغ الاهمية:

"ساعدنا كثيراً الاستنكار الموجه ضد المكتب الثاني الذي أنشأ نوعاً من طبقة سياسية جديدة. فالشهابية شكلت تسوية معينة بين التقدم والرجعية جرى التوصل إليها على اساس الوضع اللبناني القائم. كانت تهدف الى تحقيق ضمانات اجتماعية أكثر، وليس الى تغيير جوهري. فبدلاً من اقامة دولة علمانية، تمّ السعي الى توزيع حصص أكبر وأكيدة من قالب الحلوى على كل الطوائف. لقد اريد اشراك الجميع في "اقتسام الجبنة".

"والآن اصبح كل شيء واضحاً. لقد بدأ عهد تفكير جديد حول لبنان. النظام السياسي القائم مطروح على بساط البحث. يلاحظ بان الفقراء يفتقرون أكثر فأكثر، والاثرياء يزد ثراؤهم أكثر فأكثر. فنصف السكان الأكثر فقراً يواجه صعوبات شاقة في هذا الجو من التضخم الاقتصادي. وبالتالي يقوى الشعور بعدم اهلية النظام اللبناني لممارسة واجباته كما يرام. لقد فقدت الثقة بالنظام البرلماني. ولا توجد اية ثقة بالنظام. فالنواب يوصفون بالتسعة وتسعين حرامياً، ليس فقط من قبل الطلاب، بل ايضاً من قبل سائقي التاكسي. لقد اصبح هذا البلد اتحاداً للزعماء والشيع، كما اصبح نظامه اوليغارشياً. الامتعاض الثوري يزداد ويتنامى. السياسيون يعيشون في عالم اخر غير عالم الشعب، وبنوع خاص، غير عالم الشباب. يقوم عالمهم على التسويات والالاعيب وتبديل الحكومات والحيل. فلا يفهمون ولا يدركون اطلاقاً ما يحصل فعلاً في عالم الاقتصاد والمجتمع. ان انكى رجل في مدرسة السياسيين القدامى هو ريمون اده. فهو يرى على

الأقل ماذا يحصل، ويعتبره كارثة. ولكننا نحن نعتبر هذا التطور امرا طبيعيا تماما".

تبرز مدرسة السياسيين القدامى في المقابلات التي اجريت عام ١٩٧١، بانها حذرة من امكانياتها للسيطرة على الصعوبات. فرشيد كرامي تحدث عن المشاكل الأكثر حدة في سوق العمل اللبناني، مطالبا خريجي المدارس والجامعات بالتصدي لها:

"ان مشاكل معينة في سوق العمل تكمن في طبيعة اقتصادنا. فبدون ثروات طبيعية لن نستطيع اعتماد اي خيار سوى ممارسة نظام اقتصاد السوق الحر والمفتوح بقدر الامكان، وذلك كي نتمكن من الاستمرار في الحياة. في قطاع الخدمات، وهو اساس اقتصادنا، هناك امكانيات كبيرة لم تستغل بعد. فلبنان يستطيع ان يكون مستشفى، ومركز نقاهة، ومركز ابحاث لكل الشرق الاوسط. هناك امكانيات عمل اضافية كثيرة، خاصة للشباب الجامعي.

"علينا ايضا ان نشجع اكثر فاكثر الرساميل الاجنبية كي توظف في مشاريع صناعية جديدة في لبنان. لقد عرفنا حتى اليوم اختبارات ممتازة جدا مع توظيف الرساميل الخارجية. ولكن علينا ان ننتبه كثيرا لنظامنا الضرائبي، كي لا ندفع الرساميل الى اي هرب الى الخارج.

وبعبارات اخرى لا مجال لسياسة اجتماعية اكثر من اللازم تدفع الى فرض ضرائب مرتفعة، والى سياسة ضريبية خطيرة".

وبالنسبة للبنى السياسية، رأى رشيد كرامي ان الاصلاحات المحدودة مستحبة وممكنة:

"كل نظام سياسي يمكن ان يبنى فقط كما تسمح هيكليات الشعب الاساسية. النظام اللبناني يعكس مجتمع الشعب اللبناني. اعتقد ان تعديلات معينة ضرورية وممكنة ايضا في اطار دستوري. لا ارى هنا اية مشكلة كبيرة. بالاجمال يسير نظامنا بصورة جيدة جدا. فقد استطاع ان يتجاوب بانتظام مع كل المطالب. الامر الوحيد الذي اتمناه هو تكيفات معينة لتدعيم التوازن".

اليسار اللبناني لا معنى له. هذا ما رآه رشيد كرامي ومعظم السياسيين العاملين في فلكه:

"يتكلم اليساريون كثيرا وبصوت عال. ولكن لا يحرزون أي نجاح في الانتخابات، حتى لم يستطع احد منهم الفوز في انتخابات مختارية القرية".

وإيديولوجيا لا يشكل اليسار أي خطر، كما يقول أيضا عمر فروخ:

"من المؤكد أن اليسار اكتسب بعض النفوذ والتأييد. ولكن يوجد أيضا اندفاع جديد نحو الدين. ليس للماركسية أي حظ لدى المثقفين المسلمين في هذا البلد. كارل ماركس هو اسم كبير. ولكن لا يعرف منه هنا إلا الاسم. ليس لنا أن نكسب أي شيء من الماركسية ولا أن نتعلم منها. إن أسس تعاليم ماركس الاقتصادية نستطيع قراءتها في الفصول التي كتبها ابن خلدون عن الاقتصاد.

التقبل العربي لماركس، لا يعني شيئا. إضافة إلى ذلك، تعتبر ترجمات كتب ماركس إلى العربية أمرا يريثي له. فمن الأفضل والمفيد لنا بكثير أن نقرأ "مقدمة فاوست"... ومازلت اعتقد دائما بأن الانتماء الحزبي بالنسبة للشيوعيين المسلمين هو مثل القميص، بيد له الإنسان حسب هواه. الشيوعية لا تعني هنا تأييد المواطن لسياسة موسكو، بل معاداة اميركا فقط. الشيوعية هي رمز لمعاداة الامبريالية".

وقد نظر بيار الجميل إلى ذلك بمنظار آخر:

"هنا، وفي بلدان أخرى، تحاول قوى معينة إثارة الاضطرابات. فلبنان، والشرق كله، وأجزاء كبيرة من العالم، أصبحت مسرحا للصراع بين الشيوعية والعالم غير الشيوعي، خاصة بين الدولتين العظميين. تأثير الشيوعية باستمرار القلق والاضطراب حيثما تستطيع. نتحدث عن تحسين الوضع التربوي، وتأمين سوق للعمل، وعن العدالة الاجتماعية. من لا يريد ذلك؟ أنا رئيس حزب يناضل منذ سنوات عديدة في سبيل سياسة اجتماعية سليمة".

ولكن الجميل لم يستطع استشفاف بروز أية أزمة سياسية جدية:

"أنه أمر طبيعي أن تكون لدينا مشاكل في سوق العمل. ولكن المشاكل عندنا ليست أكبر مما هي في بلدان أخرى، بل هي أقل شدة. الهجرة لها سينات، ولكن لها أيضا حسنات. فلبنان كان دائما بلدا يغترب شعبه. يعيش نصف سكانه ما وراء البحار. ولا تجوز المبالغة في هذا الموضوع".

اعتقد معظم السياسيين الذين طرح عليهم السؤال بأن السياسة الداخلية أمر عادي. ولكنهم رأوا المشكلة، وأن بتقدير مختلف، بأنها "مشكلة الاجانب":

"يشير التطور الديمغرافي لعدد الاجانب في لبنان إلى توقعات خطيرة. هنا يعيش على الأقل ٣٠٠٠٠٠ فلسطيني و٤٠٠٠٠٠ سوري، بالإضافة إلى عدد كبير من الاكراد واللجنين والعمال الموسمييين من بلدان أخرى في المنطقة. علينا أن نأخذ بعين الاعتبار وجود ما يقارب المليون أجنبي في البلاد. لا أرى إطلاقا كيف نستطيع اخراج

كل هؤلاء من البلاد. الامكانية الوحيدة التي اراها هنا تكمن في ايجاد حل عادل للمشكلة الفلسطينية. والا سيكون مستقبل البلاد قاتماً.

هكذا تحدث احد القياديين الموارنة. ولكنه رأى ايضا في الوجود الفلسطيني خطراً على التوازن في البلاد، ولم يَرَ رغم الاحداث التي حصلت عام ١٩٦٩، أي تهديد عسكري بسبب هذا الوجود.

"انه لمن العبث صرف ثلث موازنتنا على قضايا الدفاع. هنا الأمر بغاية الوضوح. مشكلة الدفاع في بلادنا يمكن حلها فقط دبلوماسياً، وليس عسكرياً. عندما تهاجمنا إسرائيل، عندئذ نقاومها، تماماً كما فعلت بلجيكا عام ١٩٣٩، سواء كان لنا جيش من خمسة آلاف أو من خمسين الف جندي.. لسنا بوضع يسمح لنا بمهاجمة إسرائيل. ولكن مع المشاكل الداخلية نستطيع دائماً ان نفرض حلاً عندما يكون لدينا خمسة آلاف جندي مدربين تدريباً رفيعاً. فالمبالغ التي يفترض صرفها على الجيش، نحتاج اليها بحكم الضرورة لدفع عجلة النمو الاقتصادي الى الامام."

بالنسبة لرشيد كرامي، "الاجانب" لا يشكلون لا تهديداً عسكرياً، ولا أي نوع آخر من التهديد.

"لقد اتبع لبنان دائماً سياسة الباب المفتوح. العرب هم في "أسرتهم" هنا. لبنان يستفيد كثيراً من وجودهم. يشكلون اليد العاملة التي نحتاج اليها والتي لا تتوفر لدينا. لا اعتقد بأن الاجانب يشكلون خطراً على لبنان. دولتنا هي ذات سيادة، ولديها الامكانيات لتعمل ما ينبغي عمله."

اما اليسار اللبناني فمن الطبيعي ان يرى الامور بمنظار آخر:

"ان بروز حركة المقاومة الفلسطينية، ووجودها القوي في البلاد سيؤدي خاصة الى قيام تضامن معها من جانب الشعب اللبناني. المقاومة تحمينا من قهر الدولة الذي كان قائماً باستمرار في السابق، والذي لم يعد ممكناً بعد اليوم."

هكذا كان اليسار عام ١٩٧١ يشعر بنوع من الشجاعة التي سمحت لأحد زعمائه، انعام رعد، بالقول:

"تريد تجنب المواجهات المسلحة بقدر الامكان. نحن نعتقد بأن الصراع الحقيقي هو صراع عقائدي. وهذا ما نعتقد باننا نستطيع كسبه."

وكما يشير هذا التصريح لم يستبعد صاحبه اطلاقاً حصول اشتباكات مسلحة. ولكن كمال جنبلاط كان يرى حظه يزداد يوماً بعد يوم:

"في عهد الرئيس حلو أهدرنا ست سنوات ثمينة. لقد فقد معظم السياسيين عندنا الحسّ والشعور بالنسبة للامور الواقعية. لم تنفذ اطلاقاً أية سياسة جدية في سبيل التوازن الاجتماعي بين المناطق. فالذي يحلّ بهدوء اوضاعنا الاقتصادية وسوق العمل عندنا، يرى ان التصنيع وحده يستطيع انقاذنا. من الضروري ان تفعل الدولة شيئاً كي نتحاشى الانفجار. ففشل الدولة، اي فشل السياسة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، سيجر هذا البلد قريباً جداً الى ازمة رهيبية. يعيش معظم انصار الطبقة السياسية في الزمن الحاضر فقط، ان لم يكن في الزمن الماضي. ليس لهم أية رؤيا مستقبلية. الوقت يعمل لصالحنا. الطبقة العمالية الصناعية تزداد وتقوى. لن يكون بالامكان خلال عشرين سنة حكم هذا البلد ضدنا. انّ ما يشجّعني هو هذا التأييد المتزايد الذي نجده لدى قسم من رجال الاكليروس المسيحي، حيث توجد اليوم في صفوفه حركة يسارية جدية. ومن المؤسف غياب مثل هذه الحركة بين صفوف الاكليروس الاسلامي. "الفقهاء" التقدميون هم "بضاعة" نادرة جداً في السوق اللبناني. ولكن الافكار الاشتراكية تنتشر. فلو كان لنا نظام انتخابي آخر، لوصل بكل تأكيد ٣٠ نائباً اشتراكياً الى مجلس النواب. العمل بخطى صغيرة لم يعد ممكناً بعد اليوم. نحتاج الى دولة علمانية والى انخراط في الاشتراكية. احياناً أسأل نفسي إذا لم يكن الزمن قد تجاوز سياسة الاصلاحات البطيئة. فالتوترات الاجتماعية ستتفاقم، وسيبقى المسؤولون عاجزين وغير قادرين على استئصال الاسباب".

وعندما سئل اذا كان يأمل بعد في تغيير سلمي في ظل هذه الاوضاع، تردد كمال جنبلاط، ثم أجاب بابتسامة ساخرة:

"لا اعرف".

ولكن بعد اربع سنوات اصبح كل شيء معروفاً. في نهاية الستينات كانت المحاولة الشهابية قد فشلت في تسليم زمام الدولة الى بعض التيارات التي تمثل "الذئاب" في المعنى الذي تحدث عنه "باراتو". عام ١٩٧٠، انتصر "الثعالب"، وكانوا مقتنعين بإمكانية تأمين السلام. ولكن "الذئاب" كشفت عن انيابها، وبدأت، منذ عام ١٩٧٠، بعض زمرها تتناحر مع بعضها.

٢ - تصورات اسباب الحرب

واحد فقط من اسباب حرب لبنان عبر عن افتخاره واعتزازه بتحضيره لهذه الحرب. لقد عبّر بصراحة عما ينتظره من الثورة، ومن حرب متعددة الاشكال. هذا الرجل هو كمال جنبلاط. ولكن بعد اندلاع الحرب لم يعد بالامكان مقابلة هذا الرجل

واستجوابه في اطار هذا البحث. لقد اغتيل في ١٦ آذار ١٩٧٧. ولكن اجوبة السياسيين وزعماء الميليشيات الذين جرى استجوابهم، يمكن اختصارها بكلمة "ماتياس كلاوديوس" "انها الحرب، وهذا مؤسف، ولكنني اعترف باتي برىء منها".

الاتهامات بالمسؤولية هي امر معقد للغاية، وكما هو منتظر، تختلف كثيرا عن بعضها. السياسيون اللبنانيون التقليديون لا يكذبون عادة، ولا ينكرون بان المشاكل الداخلية سمحت بوقوع الحرب وسهلت اندلاع شرارته. ولكنهم يعتبرون بمعظمهم الاسباب غير اللبنانية بانها الأهم والأقوى.

برز نموذج هذه الرؤيا في تفسير عبّر عنه رئيس حكومة سابق ألا وهو، تقي الدين الصلح:

"العناصر الداخلية هي من جهة الشعور بالخوف لدى المسيحيين، ومن جهة اخرى الشعور باللامساواة لدى المسلمين. وقد اسهمت مثل هذه المشاعر في لبنان الى تحويله الى ساحة صراع للآخرين. في مطلق الاحوال، لقد عشنا سوية في لبنان بصورة جيدة. من المؤكد ان امورا كثيرة لم تكن سليمة. كانت لدينا مشاكل اجتماعية، كما في الدول الاخرى. ومن المؤكد ايضا ان ادارتنا لم تكن في وضع يؤهلها لممارسة كل واجباتها. وليس هناك من سر. فالسراير كان موجودا. التوترات الاجتماعية والفساد لا يفسران وحدهما جوهر النزاع. ولكن جرى استغلالهما. وكذلك استغلت ايضا الخصائص التي تتميز بها حريتنا ومستوانا المعيشي، والتقدم الذي احرزناه. كل انسان كان يستطيع المجيء الى ارضنا، اقتصادنا كان جيدا، كنا نعيش في بلدان المجاورة. ومفكرون كثيرون جاؤوا الى هنا ايضا، لانه لم يكن يسمح لهم في بلادهم، لا بالكتابة ولا ايضا بالقراءة. فقد اضطر لبنان الى دفع ثمن أخطائه وحسناته غالبا.

والعنصر الفلسطيني كان هاما جدا. في عام ١٩٤٨، كان يعيش ستة آلاف لاجيء هنا. وعند اندلاع الحرب اصبح عددهم يتراوح بين ٤٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠. ولا احد يعرف ذلك بدقة. هناك من يتحدث عن نصف مليون فلسطيني. بعد مجازر عمان عام ١٩٧٠، ارتفع عددهم هنا بطريقة مأساوية. آنذاك غادروا الاردن وجاؤوا الى البلد الاكثر جمالا وحرية، أي لبنان. هناك حكومات عديدة استعانت كثيرا من هذه الحرية، لان الانسان يستطيع هنا ان يتحدث ويكتب عما يحصل في تلك البلدان، الامر الذي لا يسمح به فيها. ولكن بالنسبة للفلسطينيين لم يكن الامر يتعلق فقط بالزيادة العددية وبالحرية التي يتمتعون بها، بل ايضا بالتغيير النوعي والشامل للشعب الفلسطيني. ففي مخيمات اللاجئين حصلت ثورة نوعية. في السابق كانوا فقراء يعملون باجور زهيدة، وكان بإمكان عنصريين في قوات الأمن الداخلي مراقبة خمسة عشر الفا وعشرين الفا من

اللاجئين. فالخوف أدى الى القهر والاستغلال. ولكن اليوم تمكن الفلسطينيون من اعادة اكتشاف شخصيتهم. فهم يفتخرون، واصبحوا احرارا، ولكنهم تسلّحوا ايضا. الاجانب وبالاخص الاجانب المسلحون الذين تمتعوا بحريات معينة، حتى عبر الحدود، الاجانب الذين لا يظهرون أي احترام للقانون، لايد من ان يدخلوا في نزاع مع سكان البلد. من المؤكد ان الفلسطينيين هم اخوتنا. ولكن بين الاخوة ايضا يؤدي مثل هذا التصرف الى نزاعات.

"اخيرا ما الذي اشعل نار النزاع؟ هل المشاكل بين اللبنانيين انفسهم، او بين الفلسطينيين واللبنانيين؟ انا مقتنع بان اللبنانيين كانوا يستطيعون حل مشاكلهم دون اللجوء الى السلاح. كان بالامكان حصول مشاكل طبيعية اقتصادية واجتماعية، ولكن دون ان يؤدي الى حرب اطلاقا. كلاً فدون الوجود الفلسطيني لما اندلعت الحرب. ولكن المشكلات اللبنانية الداخلية خلقت اجواء كانت ملائمة لنشوب الحرب".

ان الشعور بالخوف لدى المسيحيين يعود، حسب رأى تقي الدين الصلح، بنوع خاص الى التطور الديموغرافي:

"الامر يكمن في ان المسلمين يولدون كثيرا، ويفعلون ذلك لان المناطق الاسلامية في البلاد هي المناطق المتخلفة. وفي مثل هذه المناطق، يتكاثر في العالم كله عدد الولادات. الميزان الديمغرافي كان سيتغير، حتى دون الفلسطينيين. الجميع هنا يخافون من التعداد السكاني. لقد فضلنا التفاضل عن الواقع الديمغرافي وتناسيه".

ولكن بسبب عدم التوازن الاجتماعي بين الطوائف لم يكن بإمكان المسلمين السكوت مدة طويلة، حسب قول الصلح:

"ان المجتمع المسيحي هو تقريبا في كل الميادين اكثر تقدما من المجتمع الاسلامي، رغم ما احرزه المسلمون من تقدم ايضا. والسبب الرئيسي في ذلك هو ان المسلمين اتفتحوا على الحضارة الغربية ببطء اكثر من المسيحيين... فعندما يتشكى بعض المسلمين من المسيحيين ويتهمونهم بانهم اغتنوا على عاتق المسلمين واستغلّاهم لهم، اعتبر ذلك خطأ. المسيحيون بدأوا عملية ترقّهم، حتى في عهد الاتراك، وذلك بفضل عملهم وجهادهم الذاتي. ولكن المسيحيين اقترفوا حسب رأبي الخطأ لاحقا. فبعد الاستقلال اهتموا تنمية المناطق الاسلامية. فالرئيس فؤاد شهاب ادرك ذلك، وحاول تنفيذ سياسة انمائية للمناطق الاسلامية. كان يعلم ان عدم التوازن الاجتماعي يسمح بتعريض لبنان للخطر".

ومحمد شقير، وهو شخصية سنية بارزة، اغتيل عام ١٩٨٨، شدد على نقاط الضعف في الدولة اللبنانية التي سمحت بالتدخلات الاجنبية. ولكنه حمل المسؤولية

بالتساوي للمسيحيين والمسلمين:

"المسيحيون ارادوا ان تكون كل مراكز النفوذ والسلطة بأيديهم: رئاسة الجمهورية، قيادة الجيش، المكتب الثاني الخ. قاموا بذلك حتى شعر المسلمون، بحق او بدون حق، بانهم مواطنون من الدرجة الثانية. لم يستغل المسيحيون الفرصة لكسب المسلمين للبنان. وبالمقابل لم يستغل المسلمون الفرصة لاشعار المسيحيين بانهم ليسوا أقلية، ولم يعترفوا بهم كي يشعروا ويعيشوا بأمان. وأنهم لا يريدون ان ينافسوهم كأكثرية. وهكذا بقي لبقثان دولة ضعيفة. وبسبب هذا الضعف وجد كل عنصر أجنبي امكانية للتدخل في هذا البلد. حتى في سةيسرا توجد عوامل خارجية، ولكنها لا تستطيع التدخل او ممارسة أي نفوذ. ويعود السبب الى كون هذا البلد موحد وبالتالي قوي ومحصن داخليا".

وقد اعتبر سياسي سني بارز آخر الفلسطينيين السبب الأهم في اندلاع الحرب: 'بعد احداث الاردن عام ١٩٧٠ اعتقد الفلسطينيون بضرورة استخلاص العبر منها، الأمر الذي دفعهم الى التدخل في شسؤون السياسة اللبنانية، من خلال دعم وتعزيز الأحزاب العقائدية اللبنانية، واستخدامها كواجهة للدفاع عنهم. كما كانت لهذه الاحزاب بالذات مصلحة كبيرة في الإفخادة من دعم الفلسطينيين. وهكذا حصل. ولكن الأمور تطوّرت حتى اصبحت هذه الأحزاب مرتبطة تماما بالفلسطينيين".

ولكنه ركّز ايضا على أخطاء اللبنانيين:

"واصلت البورجوازية المسلمة، بفعل حماقتها المألوفة، ممارسة العابها الطائفية القديمة، في الوقت الذي كان الفلسطينيون يعطلون توجهاتها ومواقفها لدى الجماهير المسلمة. وفي الوقت نفسه كان المسيحيون ايضا ضعيفي النظر. كيف ولماذا أقدموا على تعطيل عملية الاصلاح الشهابي التي كانت السبيل الوحيد لقيادة لبنان في الطريق الصحيح؟ نعم، كان للشهابية وجهها السلبي بسبب تدخلات والاعيب المخابرات العسكرية. ولكن لم يقض فقط على المكتب الثاني فحسب، بل على النهج الشهابي ايضا، دون ان يستبدل بنظام ليبرالي كان ينادي به ريمون إده، ولكن بإقطاعية سليمان فرنجية... كان من الطبيعي محاربة كل الاوضاع التي كانت ستؤدي الى قيام نظام عسكري. ولكن ماذا حصل؟ لقد أوتي بمجرم كبير الى الحكم، في الوقت الذي كنا فيه بأمس الحاجة الى نظام ليبرالي منفتح اجتماعيا. وبعد سنوات ماذا حصل؟ جرى انتخاب الياس سركيس رئيسا للجمهورية. ولكن استدعي الطبيب بعد ان مات المريض".

والسياسيون الشيعة حملوا ايضا الفلسطينيين مسؤولية اندلاع الحرب:

"اسرائيل هي حتما مصدر كل المشاكل في المنطقة. ولكن الفلسطينيين هم وحدهم سبب الحرب في لبنان".

هكذا عبّر عن رأيه عادل عسيران، الذي انتخب مرّات عديدة رئيسا لمجلس النواب، كما تسلم حقائب وزارية في حكومات عديدة:

"لقد اعتقدوا بانهم يستطيعون تحويل لبنان لخدمتهم، يسيطرون عليه ويحكمونه. ارادوا جعل لبنان دولة لهم يستخدمونها في سبيل استعادة فلسطين. هذا كان حلمهم. ولكن كان ذلك بالنسبة لنا كارثة".

وقد رأى ابراهيم شحيتو، وهو وزير شيعي سابق، العناصر الخارجية السبب الوحيد للحرب:

"كانت تحصل سابقا أزمات داخلية عديدة، ولكن لم تؤد اطلاقا الى ما أفرزته السنوات الاخيرة. فالحار التي اشتعلت في لبنان ليست نارا لبنانية. كان باستطاعة اللبنانيين التآخي والاتفاق معا، لو تركوا وحدهم".

اما تحاليل الزعماء المسيحيين فلم تختلف إلا قليلا عن تحاليل زملائهم المسلمين. فقد عبّر أحد النواب الموارنة عن رأيه قائلا:

"لم تندلع الحرب بفعل الخلافات الداخلية التي نعتزف بوجودها. تحدث المسلمون عن الامتيازات المارونية، ولكنها لم تكن سببا لاعلان الحرب. كانت هناك فروقات اجتماعية، ولكنها لم تصل الى درجة يمكن ان ينتج عنها مثل هذا الانفجار. فأخطاء النظام الاجتماعية او السياسية لا تستطيع تفسير او تبرير ما حصل".

وهنري فرعون، وهو وزير سابق من طائفة الروم الكاثوليك وأحد رواد الميثاق الوطني، أبرز بعض الأخطاء الجسيمة لدى الجانب المسيحي:

"من المؤسف ان الموارنة لم يستغلوا الظروف لكسب المسلمين لمصلحة الاستقلال من خلال سياسة حكيمة. إنه لأمر مؤلم للغاية ان يتمسكوا بمناصب عديدة، ليس فقط مثل رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش، بل ايضا محكمة الاستئناف ومجلس القضاء الأعلى ورئاسة هذه المؤسسة أو تلك، والتي لا تمت بصلة الى أمن المسيحيين. فلو ترك بعض هذه المناصب للشيعية، لكن ذلك أفضل بكثير".

ولكن:

"رغم كل الأخطاء التي ارتكبت -وليس فقط من قبل الموارنة- فان اسباب الحرب هي بمعظمها ذات طابع غير داخلي. صيغة الحكم كانت تسمح بتسوية المشاكل اللبنانية".

ولكن مع المشكلة الفلسطينية لم يعد بإمكاننا الصمود. فقد كان لدينا من جهة عدد كبير من الاجانب في البلاد، طردوا من بلادهم من قبل اناس كانوا هم بدورهم ضحايا المانيا النازية. فكل بلد يمثل هذا الوضع سيتعرض لمشاكل جسيمة، وحتى البلدان الأقوى والاكثر من لبنان".

وكذلك النائب فؤاد الطحيني، احد اعضاء كتلة جنبلاط البرلمانية، اعتبر الوجود الفلسطيني المسلح سببا هاما للازمة. فالبطالة زادت في حجم عناصر الميليشيات، والدولة ضعفت بسبب الانقسام بين اعضائها. ولكنه رأى سبب الحرب الرئيسي:

"في نوايا الاميركيين. فهم يريدون حل نزاع الشرق الاوسط بكل الوسائل. الاحتلال القائم لجزء من لبنان من قبل الفلسطينيين امر يمكن الحفاظ عليه وتجميده. فالبقاء النهائي للفلسطينيين في لبنان يعتبرونه ورقة قوية في عملية التفاوض حول نزاع الشرق الاوسط. الاسرائيليون يحتفظون بالجنوب، وسوريا بالبقاع، وبين بيروت وصيدا، هناك مكان لمجموعة كبيرة من الفلسطينيين. وانا مقتنع بان الاميركيين مازالوا مستمرين باللعب بهذه الافكار".

وهكذا توقع ايضا موسى دى فريج، وهو نائب سابق عن الأقلية اللاتينية:

"سبب الحرب هو دون اي شك خطة كيسنجر الهادفة الى توطين الفلسطينيين في لبنان. هذه الخطة هي فضيحة هذا العصر. فبعد ان اساء الاميركيون عام ١٩٤٨ الى حقوق الفلسطينيين، يمارسون ذات الشيء اليوم بحق اللبنانيين".

وعن وجود مثل هذه الخطة تحدث سياسيون لبنانيون قاديون، وفي مقدمتهم ريمون اده:

"اعتبر هنري كيسنجر المسؤول الرئيسي عن مصير لبنان. فحسب رأيي هناك أمر واضح تماما: فبعد التشيلي وكمبوديا، سيكون لبنان ضحية كيسنجر الثالثة... خلال زيارة قمت بها لموسكو قابلت أحد الصحفيين الاميركيين، ولم يكن ذا ذكاء خارق، كما لم يكن يعرف لبنان. وكما ادهشني الامر عند ما اخذ يحدثني، وبكثير من التفاصيل الدقيقة، بأنه سمع بخطة لحل المشكلة الفلسطينية. وعلى أساسها ينبغي تقسيم لبنان كما كان عام ١٩٤٢، وفقا لطريق دمشق بيروت. ولا بد من إقامة لبنان مسيحي صغير ولبنان مسلم صغير، ينبغي أن يستوطن فيه في النهاية الفلسطينيون. ومن المؤسف بانني غير مخول الآن للكشف عن اسم هذا الصحفي. وفي كل الاحوال يحدث كل شيء الآن كما علمت لاحقا، تماما كما رسمت له هذه الخطة".

وكذلك سليمان فرنجية، رئيس الجمهورية سابقا، كان مقتنعا:

"بان الخطة الاميريكية تهدف الى حث المسيحيين اللبنانيين على الهجرة، وتوطين الفلسطينيين مكانهم. والبرهان على ذلك هو مجيء مبعوث اميريكي لمقابلتي وعرضه يواخر اميريكية لاجلاء المسيحيين. وأعلمني بأنه خلال ٤٨ ساعة يمكن وضع وسائل النقل هذه في حالة التأهب. وخلال شهر واحد جاعني هذا المبعوث ثلاث مرات. منها مرتين يسألني فيها الى أي مدى نستطيع ان نقاوم. ولحسن حقلنا فشلت هذه الخطة".

اما صائب سلام، احد رؤساء الحكومة السابقين، فتحدث بطريقة مماثلة عن مؤامرة دولية:

"انا لا أريد أن ادافع عن ديمقراطيتنا التي كانت حرة بصورة غير عادية. لقد كانت تقريبا فوضوية. كانت لها نقاط ضعف عديدة. ولكن ما حصل لم يكن نتيجة اخطائنا، بل نتيجة مؤامرة دولية. فبعض الدول العربية ارادت نقل صراعاتها الى ارضنا. واسرائيل بحثت عن اضعف عضو في المجموعة العربية لتمارس فيه هجوماتها، وهذا العضو هو نحن. فالسبب الاساسي للحرب كان وجود الفلسطينيين في بلادنا. وقد اعطى اسرائيل حجة للهجوم علينا. فبدون اسرائيل وبدون الدعم الضعيف للنظر الذي توفره الولايات المتحدة لاسرائيل، لما وصلنا الى ما نحن عليه الآن".

ولكن فؤاد بطرس وزير الخارجية في عهد الياس سركيس، نظر الى هذه التصريحات بارتياح وحذر:

"انا لا اعتقد بالنظريات والإشاعات والأقوال عن المؤامرة. فكلها معقدة اكثر من اللازم كي تكون واقعية. من يستطيع في ظل الاوضاع الوطنية والدولية المعقدة توقع اي تطور قد يحصل خلال نصف سنة، بقطع النظر عن الخطط؟ الدول الكبرى تتفاوض باستمرار وفقا لمصالحها المتبادلة. والأزمة اللبنانية تدخل في مصالح دول عديدة. فمنهم من يلصقها بالحكومة الاميريكية عندما تبرز امكانية حل نزاع الشرق الاوسط على حساب لبنان. فلماذا لا يحاول ذلك الاميريكيون اذا سمح اللبنانيون بذلك؟ السياسة تصنع في اطار عملية تهكمية بارزة. هل تسوية قضية على حساب اللبنانيين يعتبر أكثر أهمية من لبنان؟ اما اذا كان حساب المصالح يتعلق باللبنانيين، فهذه مسألة اخرى. ولكن الخوف هو الذي دفع بالمسيحيين الى مقاومة يائسة، ولم يكن ذلك متوقعا إلا قليلاً. والحساب الخاطيء قد يؤدي الى اعادة تحليل جديد للأوضاع وليس الى تغيير في المصالح".

وقد شدد احد اعيان طائفة الروم الكاثوليك على غياب المناعة في النظام اللبناني التي تؤهله للتصدّي والوقوف بوجه الضغوط الخارجية:

"لقد عاش لبنان دائما في سلام ومستوى حياتي معتدل في غياب أي ضغط خارجي

عليه. لم يكن التعايش السلمي بين الطوائف سهلاً على الإطلاق. ولكن الخطر أو التهديد كان ممكناً فقط عندما تستغل قوى خارجية التعددية اللبنانية، لتفترقها، ولتمارس نفوذها وسيطرتها. فعند ما لم تتمكن إحدى الفئات من السيطرة، كانت تواجه البلد صعوبات ويبحث عن حل لها. ولكن عند ما تحاول قوى متخاصمة التحالف مع مجموعات مختلفة من سكان البلاد، عندئذ يهدد لبنان بالتمزق. واليوم أيضاً توجد قوى متنافسة ومتخاصمة، من مصلحتها تحطيم التعايش السلمي.

وبما أن معظم اللبنانيين - مسيحيين ومسلمين - يريدون التعايش السلمي، لذلك يتجنبون التعرض بقدر الامكان لمناقشة المسائل المزجة والصعبة. اللبنانيون يفكرون بشيء، ويقولون شيئاً آخر، ويعملون شيئاً ثالثاً، وذلك لتمكين استمرارية التعايش. السياسة اللبنانية تشبه الزواج البورجوازي، الذي يفضّل النظر عن المبدأ القائل: "ليخُن من يستطيع". ومثل هذا الزواج أصبح أيضاً التعايش اللبناني نظاماً قائماً ومستمر طالما لم يقو الضغط الخارجي عليه أكثر من اللازم.

تسهم المؤشرات المعبر عنها اعلاه عن اسباب الحرب من قبل الطبقة السياسية التقليدية في توضيح حسنات ونقاط الضعف أيضاً لدى هؤلاء الثعالب. فهؤلاء هم أدكياء أكثر من اللازم، كي يطلقون تفسيرات احادية السببية، يبرزون كمسؤولين معتدلين، يمارسون النقد الذاتي، يعترفون بتقصيرهم وأخطائهم في مجال السياسة الاجتماعية، ولكنهم يصدرون في الوقت ذاته "احكاماً تخفيفية" على انفسهم .

فبين تحاليل المسلمين والمسيحيين لا توجد فروقات اساسية، انما تبرز بعض الاتهامات المتبادلة التي تبقى في اطار انظمة اللعبة المتعارف عليها، كما يعبر عنها باعتدال وضمن اطار بارز من التسامح، كما هي الحال بالنسبة للزواج البورجوازي المشار اليه اعلاه. وحتى الميل الى اطلاق النظريات حول المؤامرة فله معنى وظيفي في اطار نظام محتمل لتسوية النزاع. فكلما امكن الحاق مسؤولية الحرب بالخارج سهل البحث أكثر عن تسوية جديدة.

اما لغة ومضمون تصاريح وتحاليل ممثلي المنظمات والحركات المشاركة في القتال، فتختلف تماماً عما سبق. زياد الحافظ، الذي كان ناطقاً باسم تنظيم المرابطون، تحدث عن "اسباب متعددة لحرب لبنان". ولكنه حمل مسؤولية النزاع بصورة رئيسية الى "الانعراليين"، أي المنظمات المسيحية المناضلة:

"يريد الانعراليون فصل لبنان عن روابطه مع العالم العربي، ولا يرون فيه إلا سوقاً فقط. ليس العرب الا زوارا للكاзино فقط. يريدون لبنان وطناً للموارنة. نحن نعتبرهم فاشيين. يتعاونون مع اسرائيل. لا يريدون تقسيم لبنان، بل السيطرة عليه فقط.

يستغلون نظريات التقسيم فقط لاهداف معينة... المتطرفون بينهم يفكرون بعملية تبادل السكان: تهجير المسلمين وهجرة المسيحيين من الدول العربية الاخرى. ان ما تريده اكثريتهم هو امر قليل التطرف، ولكنه يشكل خطرا واقعيا. يريدون تحويل منطقهم التي اقاموها بعد تهجير المسلمين منها الى قاعدة نفوذ يستغلونها للسيطرة على لبنان كله. الامر الاكثر تعقيدا هو الخلاف معهم حول مسألة الهوية: نحن عرب، وهم لا يريدون ان يكونوا عربا، والمساومة في هذا المجال تبدو شبه مستحيلة. في كل حال نريد منع الانعزاليين من تحقيق أي انتصار والحاق الهزيمة بهم".

وباسلوب أقل تطرفا تحدث المفتي السني، حسن خالد، الذي جرى اغتياله:

"اسباب الحرب هي: اولا محاولة الموارنة عزل لبنان عن بينته العربية. ثانيا، تحطيم الحركة الفلسطينية. فالموارنة يعتقدون دائما بان الفلسطينيين يشكلون جيش المسلمين، وقد لا يكونون على خطأ... كما يريدون الاحتفاظ بالامتيازات المارونية مهما بلغ الثمن".

اما قادة "حركة امل" فرأوا أسباب الحرب بطريقة اخرى. حسين الحسيني رئيسها سابقا، ورئيس مجلس النواب فيما بعد، أشار الى عدة مسؤولين:

"لقد ارادت الاحزاب اليسارية عام ١٩٧٥، تحقيق اهداف سياسية بفضل قوة الفلسطينيين العسكرية، والتحالف معهم. ولكن الموارنة ايضا يشاركون في المسؤولية. لقد وقعوا أخيرا على اتفاق القاهرة. فعند ما بدأت المعارك كانوا كلهم مسؤولين عن مواصلتها. ووقعت الكارثة. فجماعة الحركة الوطنية والفلسطينيون وميليشيات الجبهة اللبنانية، مارسوا كلهم القتل على الهوية. وحركة امل رفضت دائما المشاركة بهذه الامور".

اما نبيه بري الذي خلف الحسيني في قيادة "حركة امل"، فقد اتهم الفلسطينيين "بالعمل على بناء دولة داخل الدولة والقتال في سبيل السيطرة على مناطق لبنانية، اكثر من القتال في سبيل تحرير ارضهم".

ولكن يشارك في تحمل مسؤوليات الحرب -حسب قوله-:

"الذين يتمسكون بالامتيازات الطائفية ويعارضون تطوير لبنان نحو ديمقراطية حقيقية، أي نحو قيام نظام ديمقراطي مثلما هو الحال في كل مكان من العالم وحيث الاكثرية تحكم وتقرر".

وقد عبّر احد معاونيه بمرارة شديدة عن امتعاضه الشديد من الفلسطينيين، بقوله:

"لم يخيب الفلسطينيون آمال احد مثلما خيبوا آمال الشيعة. في عام ١٩٦٤ وقف المكتب

الثاني لأول مرة ضد الفدائيين الفلسطينيين. يومها انتفضنا جميعا تأييدا لهم، وتظاهرنّا ضد جيشنا. فالجماعة التي دافعنا عنها سابقا، تقائلنا اليوم. لقد استعبدونا سنوات طويلة، وقتلوا عددا كبيرا من جماعتنا. بالنسبة لنا لا يمكن فهم ذلك انسانيّا. ان نفوس الفلسطينيين تشوّت، وهذا أُرهب وأخطر مما فعلته بهم إسرائيل. لم يعد الفلسطينيون يحترمون ويقدرون الآن إلا القوة فقط. فاذا ما تباوست معهم، يغدرون بك. وإذا ما ضربتهم، يأتون ليتباوسوا معك. لا يريدون وطننا بديلا، بل اعداء جندا بدلّا من اعدائهم الحقيقيين. في البداية كان المسيحيون اعداءهم. واليوم نحن. وهنا تكمن مرارة الشيعة. فنحن اليوم اكثر قوة وعداء للفلسطينيين من المسيحيين سابقا".

الحزب القومي السوري، رأى حرب لبنان بدرجة أولى كجزء من حرب اسرائيل الشاملة ضد العرب. في هذا الاطار صرح انعام رعد:

"اسرائيل تريد تقسيم المنطقة كلها الى دول إثنو-طائفية، كي لا تبقى هي حالة استثنائية او جسما غريباً فيها. اسرائيل تريد منع وجود دولة متحدة في شرقها. في سبيل ذلك تفضل استخدام واستغلال الحدود الاجتماعية للطائفية، اكثر من حدود الدول الاصطناعية التي انشأتها الدول المنتدبة. هذا هو السلام الاسرائيلي. ان ما حدث ويحدث في لبنان، هو نتيجة السياسة الاسرائيلية. ليس مفهوم الجناح الانعزالي للمارونية السياسية إلا جزءاً محدوداً من السياسة الاسرائيلية. بدأت الحرب مع معاهدة كامب دايفد، وذلك للوصول، بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر، الى توقيع معاهدة مماثلة مع لبنان".

اما اسباب الحرب الداخلية، فتحتل بالمقابل اولوية واضحة بالنسبة للحزبيين الشيوعيين. البير فرحات، عضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي اللبناني، تحدّث عن هذا الموضوع قائلاً:

"نحن نعتقد ان الازمة الاجتماعية والاقتصادية سببتها الاوليفرشية المالية واختيار الفاشية كمخرج من الازمة... في الماضي استطاعت هذه الاوليفرشية المالية ان تحكم بالاعتماد على توازن قد انهار الآن. كان يقوم هذا التوازن على استبعاد الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة في ظل الاوليفرشية، اي الاستبعاد الايديولوجي والسياسي... قبل الحرب نفذ صبر الجماهير العاملة. المزارعون والمدرسون والطلاب والعمال وموظفو القطاع العام، شاركوا كلهم في المعارك الاجتماعية، خاصة الطبقة اللبنانية العاملة. فقد رأت الاوليفرشية في هذه الظاهرة خطراً كبيراً عليها... وعلى مستوى الطبقات الشعبية، حصل تقارب اوسع بين اتباع مختلف الطوائف الدينية. فبدأت الخلافات الدينية تزول على هذا المستوى. الطائفية كانت دائماً في لبنان تستغل من الاوليفرشية، كي تفرق

الطبقة العاملة عن بعضها البعض. الحزب الشيوعي اللبناني لا يؤمن إطلاقاً بقضية "الطبقة-الطائفة". فهناك امتيازات طبقية ذات طابع طائفي. ولكن يوجد بكل وضوح تفاوت اجتماعي داخل كل طائفة، خاصة الجماهير الشعبية المسيحية التي تقطن في المناطق الجبلية، هي بكل تأكيد من الفئات الشعبية الأكثر فقراً. لقد برزت داخلها ظاهرة اليأس بفعل غزو الرأسمالية الحديثة لقطاع الزراعة بطريقة تصعب ملاحظتها. لذلك أدت الصراعات الاجتماعية الى توحيد الطبقات الشعبية اللبنانية من كل الطوائف. اما البورجوازية اللبنانية، كطبقة اجتماعية، فلم تكن في وضع يؤهلها لانشاء احزاب سياسية حقيقية. ففوضت الاقطاعية السياسية للسلطة السياسية. وتمسكت الاوليغارشية جيداً بالبورجوازية. وبما ان الاوليغارشية لم تكن تهتم بتنمية الاقتصاد الوطني، بل كانت تكتفي اكثر فاكثراً بممارسة دور الوساطة والسمسة الكثيرة الربح في الرأسمالية الدولية، فان الاصلاحات والتغييرات الاجتماعية كانت مستحيلة. وازاء التهديد الذي تجسده الجماهير الشعبية، لجأت الاوليغارشية المالية الى استخدام الفاشية".

ولكن الحزب الشيوعي رأى أيضاً، بالاضافة الى العوامل الداخلية، عوامل خارجية اسهمت في وقوع الحرب:

"كانت هناك خطة اميركية لتسوية مشكلة الشرق الاوسط. في سبيل تحقيقها، كان لا بد من ضرب المقاومة الفلسطينية في آخر معقل لها في لبنان. في هذا البلد فقط كانت حركة المقاومة تستطيع التعبير عن مواقفها السياسية باستقلالية وحرية، دون الخضوع لضغط أي نظام عربي...وقد برزت رغبة الاميراليين والصهاينة، وكذلك الرجعية اللبنانية في تحويل لبنان الى دولة، وفقاً للنموذج الصهيوني، واضعاف سوريا عبر لبنان، وذلك لادخال هذا البلد في عملية كامب دايفد".

وبعكس الحزب الشيوعي، رأت منظمة العمل الشيوعي ارتباطاً وثيقاً بين التنمية الاقتصادية والطائفية. فقد اعتبر فواز الطرابلسي:

"الفاشية في لبنان شكلاً يساعد على استمرارية الامتيازات الطائفية، والحفاظ عليها. بالنسبة للتربية والدخل في النظام العام والتمثيل السياسي، هناك إجحاف بحق المسلمين والطوائف المسيحية غير المارونية. النظام الطائفي بالذات هو الذي يسبب النزاعات. لبنان كان بوضع يؤهله لتحديث مكوناته سريعاً. ولكن الرأسمالية المتوحشة خلقت مشاكل مأساوية جمدها النظام الطائفي. البلد نفسه وقف امام ثورة ديمقراطية. وقد زاد تنامي الحركات اليسارية. ولكن من جهة ثانية حصل تطور سريع للفاشية اللبنانية. فقد وجد عدد كبير من الناس من ذوي الامتيازات الصغيرة انفسهم تحت الضغط بسبب الازمة الاقتصادية. وقد كان من السهل ابعادهم عن الاسباب الحقيقية للأزمة.

أيديولوجياً نجحت الفاشية في عملية الربط التاريخي بين الإسلام والتخلف، والربط التاريخي بين المسيحيين - وخاصة الموارنة - والرأسمالية. وهكذا لجأ الفاشيون الى استخدام السلاح".

وقد رأت منظمة العمل الشيوعي في لبنان في صراعها مع من يسمون بالفاشية، "في الوجود الفلسطيني سنداً وتشجيعاً لها. فحركة المقاومة الفلسطينية أصبحت حافزاً للآزمة. ومسألة التضامن والوقوف الى جانبها، أثرت سريعاً في بروز التناقضات واندلاع الثورات الداخلية".

بدأت الفروقات والتناقضات في تصورات اسباب الحرب لدى معظم المنظمات المتحالفة محيرة ومضلة. لقد كان باستطاعة كل منها الاشتراك في حرب مختلفة. فما جمع بينها هو اقل من الاقتناع بانها كانت عرضة للهجوم.

ولكن التجمعات المسيحية المختلفة وقادة المناضلين، شعرت بالتهديد والخطر على المصير. فزعم حراس الارز، المايجور إتيان صقر، الملقب بـ "أبو ارز" صرح في هذا المجال قائلاً:

"هل حاربنا ضد الفلسطينيين والسوريين في فلسطين او في دمشق؟ لقد حاربنا هنا في وطننا. لقد دافعنا عن نسانا واولادنا، عن بيوتنا واحياتنا السكنية. ان سدس سكان لبنان عام ١٩٧٥ كان من الفلسطينيين. فلو قام مثلاً ١١ مليون من الجزائريين في فرنسا، واحتلوا جزءاً من البلاد، واقاموا حواجز لقطع الطرقات، ووقفوا فرنسيين او خطفوه، وحاولوا بناء دولة ضمن الدولة، فماذا يفعل عندئذ الفرنسيون؟"

انطوان معريس، عضو المكتب السياسي في حزب الكتائب، رأى ايضاً ان اللبنانيين بالاجمال، والمسيحيين بوجه الخصوص، مستهدفون في هذه الحرب:

"وجدنا انفسنا امام مجموعة من الاجانب والغرباء تحاول انتزاع السلطة في وطننا. هذا البلد لم يؤذ أحداً اطلاقاً. لقد استقبل دائما اللاجئين والمضطهدين. ولكن يحاول الآن اللاجئين الاستيلاء على السلطة، ودفع لبنان الى حرب. والدولة اللبنانية كانت ضعيفة، لدرجة انها لم تتمكن من مقاومة هذه المحاولة. وهذا ما فعلناه".

وقد اشار عضو آخر في المكتب السياسي الكتائبي قائلاً:

"السبب الحقيقي للحرب هو الفلسطينيون. لقد حاولوا منذ عام ١٩٦٩ اقامة نظام جديد يلام مزاجهم ويفرضون عليه نفوذهم. الدولة كانت عاجزة عن التفاوض، لان زعماء السنة لم تكن لهم الجرأة لاتخاذ أي قرار ضد الفلسطينيين. ففقدوا نفوذهم على الشارع

الفلسطيني، وصعدوا الامور بالنسبة لمطالبهم في سبيل الحصول مجددا على مؤيدين لهم. ولكن تبين بان المسلمين اللبنانيين، سواء القيايين التقليديين او قادة الميليشيات لم يكن بإمكانهم فصل او قول شيء. فالاوراق كان يمسك بها الفلسطينيون جيدا".

إضافة الى ذلك، اتهم عدد من الزعماء المسيحيين، بنوع خاص، سوريا، وحملوها مسؤولية اندلاع الحرب:

"سوريا خططت بانتظام للأزمة في لبنان. فالذي حصل في عكار والبقاع وجزين خططت له سوريا، كي تدفع الناس الى اطلاق نداء الغوث والمساعدة. هذه الطريقة عرفت سوريا جيدا كيف تستغلها لتضلل العالم الخارجي، ولتبرز امامه كقوة تعمل للحفاظ على النظام. لقد نجحت جيدا في تضليل الدول الغربية، وكذلك المسيحيين اللبنانيين، في مرحلة ما. لقد ضللنا نحن في البداية. الفلسطينيون قاموا سابقا بهجمات عديدة، وكانت سوريا تنظر اليهم كورقة تبادل في مفاوضات السلام المستقبلية. سوريا تريد ان تكون قوة سياسية في لبنان، وتريد ان تسيطر على الفلسطينيين واللبنانيين معا."

ابراهيم نجار، عضو آخر في المكتب السياسي الكتائبي، عبّر هو ايضا بصورة مماثلة بقوله:

"كم من محاولات تفسيرية لاسباب الحرب؟ المسيحيون ضد المسلمين. الاغنياء ضد الفقراء. المسيحيون ضد الفلسطينيين. المتعاونون مع اسرائيل ضد العرب الحقيقيين، الفلسطينيون ضد الشيعة. السوريون ضد السنة. في كل ذلك قد تكون هناك ذرة من الحقيقة. ولكن لكل هذه التغيرات تسمية مشتركة واحدة فقط، تتلائم مع المفهوم السوري "فرق تسد". هناك امر واضح: كلما هدأت الحال قليلا اسرع السوريون واشعلوا النار من جديد."

ولكن ابراهيم نجار، حمل اللبنانيين ايضا المشاركة في المسؤولية:

"تسهلت السياسة السورية بسبب الخلل القائم في السياسة الاجتماعية، وغياب التطلعات الاجتماعية المستقبلية الواضحة. المسألة الاجتماعية لم تسبب الحرب، ولكن لولا وجود المسألة الاجتماعية لما وقعت الحرب اطلاقا. فعند ما يكون هناك عدد كبير من المعطلين عن العمل، وتعطي كلا منهم خمسمائة دولار وكلاشنكوف، عندئذ تقع الحرب. ولكن الذي اوقد الشرارة (اندلاع الحرب) كان العنصر السوري عام ١٩٧٥. جاء كل الفلسطينين الى لبنان، منهم منظمة الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني. من اين جاؤا؟ وعلى اي حدود عبروا؟ ومن اين جاءت الاسلحة؟"

احد الحكماء الاربعة في الجبهة اللبنانية، استاذ الفلسفة، ووزير الخارجية سابقا

شارل مالك، اعتبر العناصر الخارجية وحدها المسؤولة والدافعة الى اندلاع الحرب:

"اهم اسباب الحرب الثلاثة هي: اولاً، الوجود الفلسطيني المسلح، لولا ذلك لما وقعت الحرب. ثانياً، اطماع سوريا والنفوذ المشترك لسوريا والفلسطينيين. ثالثاً، ارادة الدول العربية، خاصة ليبيا، لتدمير لبنان.

"ماهي دوافع الفلسطينيين؟ الخوف من تكرار احداث الاردن. قد يكون هذا الخوف قد لعب دوراً. ولكن بالدرجة الاولى، هذا الخوف هو - بصورة واعية وغير واعية - ادعاء للحماية. اما الدافع الاساسي فهو امر اخر. اني مقتنع تماماً بعدم وجود أي زعيم فلسطيني يؤمن بامكانية العودة مجدداً الى فلسطين. ولكنهم اكثر من ذلك يعتقدون بان لبنان هو البلد الوحيد المؤهل ليكون بديلاً لهم عن فلسطين. وبكل اختصار، ارادوا وضع اليد على هذا البلد. ماذا يريد الفلسطينيون؟ هل يريدون لبنان كقاعدة تمكنهم من استعادة فلسطين؟ هل يريدون دولة علمانية وديمقراطية؟ لا يعرفون اطلاقاً ماذا تعني دولة علمانية. يعرفون فقط بان لهذا المطلب وقع طيب في الغرب. هل قرأوا كتاب العهد القديم، وتعلموا منه ماذا تعني القدس لليهود؟ واية قوة تتجسد في هذا الحلم الذي يعود الى آلاف السنين؟ كلا. وإلا لما كرروا هذا الكلام الذي لا قيمة له عن الدولة العلمانية. هل يريد اي بلد عربي استقبال الفلسطينيين؟ كلا. فهم يراقبونهم بشدة او يطردونهم خارجاً. فقط لبنان الابله يسر لهم الدخول إلى ارضه. ان الامر في غاية السهولة. جاء نصف مليون نسمة الى هذا البلد الصغير، مدججين بالسلاح، يسرحون ويمرحون في بحر من المال توزعه عليهم الدول النفطية التي ترتجف منهم خوفاً ورعباً. يعرفون بانهم يستطيعون الذهاب من هنا الى مكان اخر. ولكن ما هي النتيجة؟ انها معروفة سلفاً. الفلسطينيون يريدون هذا البلد ليحولوه وطناً بديلاً لهم."

وبالنسبة لعضو قيادي آخر في الجبهة اللبنانية، الأبائي بولس نعمان، رئيس عام الرهبانية اللبنانية المارونية آنذاك، السوريون والفلسطينيون كانوا فقط ظاهرة قائمة لتهديد المسيحيين بطابع أبعد وأكثر اصولية:

"ان طموح سيطرة الاسلام هو السبب الحقيقي للارملة اللبنانية. لقد اعلن دائماً وتكراراً عن ذلك كلما برزت فرصة مناسبة. لذلك فشل الميثاق الوطني عام ١٩٤٣. الاسلام هو نظام مجتمع توتاليتاري، كما حصل في ايران واصبح واضحاً وجلياً، امام العالم كله. فقد لاحظ غير المؤمنين بالاسلام، اذا أمكن، مكان ادنى. لا يقف في تطوره، كما يعتقد البعض، خلف المسيحية. انه بكل بساطة شيء اخر، فلا يمكن ان يتغير او ان يتطور بسبب طابعه. كل اسلام يقبل بمجتمع علماني لا يمكن ان يكون اسلاماً بعد."

اما الزعيم السابق "لحركة التنظيم"، فؤاد الشمالي، فلم يكتف بذكر الاشارات

السياسية المحضة او الايديولوجية فقط لاسباب الحرب:

"الفائدة ضئيلة جدا من اتهام الفلسطينيين، والسوريين، واليسار، والاسلام. هم مسؤولون عن الحرب، ولكن ان يكون في لبنان حالة من الفقر سمحت بوقوع الحرب، فهذه هي مسؤوليتنا بالدرجة الاولى. فلا ننتهم انفسنا. البنية الاجتماعية كانت متوفرة في لبنان لوقوع الحرب. المسائل الاجتماعية تدفع الى وقوع الحرب. ولكن بسبب عدم توفر سياسة اجتماعية كافية، كان لبنان مستضعفا للغاية. فوفر بذلك حقلا ملائما للفساد. لقد استغل اعداؤنا الفقر والطائفية. ولكننا سمحنا باستغلال ذلك. في المناطق الحدودية من لبنان يوجد فعلا فقر بين المسيحيين كما بين المسلمين. زعمائنا السياسيون واساقفتنا يؤيدون هذا الكلام ولكن على مضض. فعند ما يقبلون بذلك، يوجهون النقد الذاتي لانفسهم. ماذا يميز بلدة "القاع" عن القرى المجاورة لها؟ وبلدة "دير الاحمر" عن "الهرمل"؟ لربما استطاع بعض المسيحيين التحدث ببعض الكلمات الفرنسية، او كانوا اكثر نشاطا من غيرهم في الحقل الاقتصادي. ولكن كل هذه القرى لم تتمكن من تصريف منتوجاتها الزراعية بطريقة سليمة، فبقيت مناطق فقيرة."

وبشير الجميل نظر الى اهمية المسألة الاجتماعية ايضا ولكن بمعزل عن الحرب:

"نعم كانت هناك مشاكل اجتماعية واقتصادية كثيرة جرى اهمالها خلال سنوات طويلة. لا اعرف اذا كان باستطاعتنا تجنب الحرب بفضل سياسة اجتماعية افضل. لربما لم يتمكن الفلسطينيون بسهولة من ايجاد ذخيرة لبنانية لمدافعهم. ولكنهم كانوا يمتلكونها بوفرة. في الاردن وقعت حرب وكانوا هم وراءها. لم يتحدث احد عن المشاكل الاجتماعية هناك. وهنا في بلادنا، لا يحارب الفقراء ضد الاغنياء، الفقراء ضد الفقراء. الاغنياء يقيمون على الشاطئ اللازوردي. ولكن الذين يحاربون اليوم في سبيل لبنان، لن يسمحوا مرة اخرى بتمرير سياسة تحتقر مجموع السكان، الى اية طائفة انتموا."

بالاجمال لا تختلف كثيراً تصريحات مختلف ممثلي الجانب المسيحي عن بعضها. يشعر كل منهم بالتهديد وبالاعتداء من قبل الفلسطينيين والسوريين معا، وبعدم فهم وادراك الواقع اللبناني من قبل الغرب. إلا أنهم ينظرون الى المسألة الاجتماعية بصورة مختلفة. حتي الذين يقدرون اهميتها الكبيرة، لم يعتبرونها السبب الرئيسي للحرب، بل فرصة لم تستخدم للحؤول دون احتمال اندلاع الحرب.

وكيف راي قادة المنظمات الفلسطينية اسباب الحرب؟

ابو اياد (صلاح خلف)، ممثل عرفات في لبنان، أجاب على هذا السؤال:

لم نهاجم، بل هوجمنا. لقد كنا هدفا، لم يكن لنا خيار اخر، إلا الدفاع عن انفسنا...لقد اعتقد الاسرائليون بانهم وجدوا وسيلة عجيبة ضدنا. فطالما نحن مضطرون للحرب في لبنان لن نتمكن من التركيز على محاربة اسرائيل. لقد كان من السهل عليهم ممارسة التلاعب والمناورات. كانت النزاعات تحصل دائما في لبنان. نحن الفلسطينيون هنا منذ عام ١٩٦٩. قبل ذلك حصلت نزاعات عدة. في عام ١٨٦٠ حصل نزاع بين الموارد والدروز. وفي عام ١٩٥٨ وقعت حرب اهلية، ولم يكن لنا ضلع فيها. في عام ١٩٧٥ كان الوضع اللبناني الداخلي متفجرا. صيغة عام ١٩٤٣ القائمة على النظام الطائفي زادت في حدة النزاعات. فالمسيحيون اتخذوا موقفا عدائيا من العرب، وكل المسلمين يؤيدون العرب. وفي هذا الاطار جاءت النزاعات الاجتماعية. هناك اغنياء بين المسلمين والموارنة، ولكن عددهم قليل بين الشيعة. جماعة الشيعة فقيرة ومحرومة من الامتيازات، مثلها مثل اكثرية الطبقة العاملة من كل الطوائف. زد على ذلك العوامل الدولية. فالموقعون على اتفاق سيناء كانت لهم مصلحة في جرتا الى الصراع. لقد كانت في الحقيقة حرب اعلنها قسم من اللبنانيين ضدنا. بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين، كانت هذه الحرب حرب دفاع ترتبط بمصيرنا ووجودنا. ولكن لم ندافع وحدنا. فجماهير لبنان الفقيرة ساعدتنا، وكذلك الاحزاب التقدمية... الفقراء قادم كمال جنبلاط. خلال الحرب تبلورت امور عديدة، لم تكن جليلة قبل ذلك، فبرز طابع الطائفية الذي، وبرزت التوترات الاجتماعية بجلاء أكثر."

محمود لبيدي الذي كان ناطقا باسم عرفات، حتى انشقاق ابوموسى عنه، تحدث في هذا المضمار:

"اشعلت نار الحرب اربع او خمس عائلات. انها حرب رهيبة. الاغنياء هاجموا الفقراء، واستخدموا الدين لتعبئة الناس. ارادوا الاقتداء بالاردنيين وطرد الفلسطينيين خارج البلاد. لم يتوقعوا تحالف الجماهير الفقيرة معنا. لقد اخذنا جانب التحفظ حتى شهر كانون الاول من العام ١٩٧٥. حذرنا اللبنانيين من مواصلة الحرب، وكان هذا تكتيكا. كنا نعرف جيدا بان الحرب تريدنا لنا القوات اليمنية. ولكن حاولنا بقدر المستطاع اظهار الحرب وكأنها حرب لبنانية داخلية. لم ندخل الى ساحة القتال الا عند ما هوجمت مخيماتنا، اى عند ما وقع اليمين اللبناني في "لعبة الامم" التي كانت اكبر منه."

وركز احد دبلوماسيي منظمة التحرير الفلسطينية على معنى عنصر الخوف:

"كنا نتخوف - خاصة بعد المعارك مع الجيش اللبناني الذي هاجم مخيماتنا بسلح الطيران - من التعرض في لبنان لذات المصير الذي عرفناه في الاردن. كان بيار الجميل يلقي دائما خطابات توحى بذلك. بالنسبة لنا كان هذا الخوف امرا واقعا. فبعد

"الأردنة" (نسبة لما حصل في الأردن) كان بإمكان "اللبننة" (نسبة الى لبنان) ان تقضي نهائياً، خلال سنوات قليلة، على حركة المقاومة. لم يكن بإمكاننا تحمل ذلك. لقد رأينا هذا النزاع منذ البداية لغير صالح أي من الفريقين. لم يكن للفلسطينيين أية مصلحة بوقوع حرب في لبنان. وماذا يمكن للمسيحيين اللبنانيين ان يكسبوا منها؟ لقد تحولوا، بوعي او بدون وعي، الى ادوات في يد اسرائيل."

ولكنه لم يحمل الاحزاب المسيحية وحدها مسؤولية الحرب:

"لقد لعبت سوريا منذ البداية دوراً مريباً جداً. لقد كانت منظمة الصاعقة، التابعة لسوريا، تحرّض الطرفين. وهي المسؤولة عن اضعاف طابع الطائفية على المبارك."

وعصام السرطاوي، الذي كان مستشاراً لعرفات، اعتقد بأن الحرب اندلعت بسبب نزاعات مختلفة كانت متراكمة فوق بعضها. حتى ولو كانت منفصلة عن بعضها، لما امكن تجنب اندلاع الحرب ايضاً. فالامر كان يتعلق حسب قوله:

"بمواجهة لبنانية داخلية، ولبنانية فلسطينية. فقبل الحرب كان نظام الحكم السياسي في لبنان مهترناً تماماً. كان النظام التيوقراطي والنظام الاقطاعي مندمجين معاً ضمن اشكال الديمقراطية الأوروبية. وهذا النظام بالذات، كان عرضة للخطر والانفجار، حتى دون التدخل الفلسطيني. فقد حاولت القيادة اللبنانية طويلاً استغلال الخطر الخارجي كي تغطي التناقضات اللبنانية الداخلية، والعمل على استقرار الوضع. بالنسبة الى المراقبين المطلعين جيداً على هذا الوضع، كان الأمر يتعلق فقط بعنصر الزمن، أي بمعرفة متى سينفجر الوضع في لبنان تلقائياً. فاحتكار الموارد للسلطة كان عامل توتر آخر. وقد اسهم الوجود الفلسطيني في تفجير هذه التناقضات قبل حينها."

أما فيما يتعلق بالفلسطينيين، فلم يكن لهم أي خيار بالنسبة للبنان:

"من الطبيعي ان يكون الأردن هدفنا الأول. طبيعته الديمغرافية والجغرافية هي أكثر ملائمة لنا. أكثرية السكان فيه تتألف من الفلسطينيين. والحدود مع اسرائيل هي الأطول. والاتصال مع الضفة الغربية كان مكثفاً وأكثر سهولة. لقد كان باستطاعتنا ان نقوى سريعاً هناك، لأن الجيش الأردني جرى تحطيمه تماماً عام ١٩٦٧. ورغم ذلك، خسرنا الحرب مع الأردن سياسياً وعسكرياً، ولا حاجة للجدل حول هذا الامر. بعد ذلك، بقي لبنان الامكانية الوحيدة اماناً، حيث تمكنا من الاحتفاظ بقاعدة مستقلة. فسوريا، بنظامها المقنع بالنقدمية، لم تكن مستعدة للسماح لنا ان نفعل على ارضها ما استطعنا فعله في لبنان. نحن نعتقد بأنه يحق لنا إقامة قاعدة حرة في كل بلد عربي، والانطلاق منها في نضالنا وصراعنا ضد اسرائيل. لقد مارسنا هذا الحق حيثما سمحت لنا الظروف للبلوغ الى هدفنا، وكان ذلك في لبنان. لم تكن الحرب في لبنان بالنسبة لنا

حرباً مستهدفة. عام ١٩٧٥ لم تكن نريد ان نحقق في هذا البلد اكثر مما تسنى لنا تحقيقه. وعند ما جررنا الى الحرب هناك، لم يكن الامر مرتبطاً بنا، بل بعناصر وعوامل تتجاوز حدود لبنان... السوريون لم يرغبوا اطلاقاً في الاساس بتوفير اية استقلالية اساسية للفلسطينيين. ولم يقطعوا الامل اطلاقاً في تحويل الفلسطينيين الى وسيلة يستغلونها لغرض سياستهم. وكذلك لم يقطعوا الامل اطلاقاً بالتوصل الى ممارسة نفوذهم على لبنان. وبالمقابل، كان لابد من اعتبارهم مجانين، لو لم يحاولوا ذلك. في الاساس لا يريد السوريون لا فلسطين مستقلة ولا لبنان مستقلاً. والاسرائيليون يريدون لبنان شيئاً آخر. في الخمسينات اطلق "ايا اييان" تصوراً لمستقبل اسرائيل في الشرق الاوسط كله. كان يستهدف حلاً ذا طابع فكري محض، يمكن استخلاصه من قراءة معظم خطباته. كان تصوره يكمن في جعل اسرائيل تتغلغل سرّياً في المنطقة في سبيل بلقيتها على اساس ديني او طائفي. ولبنان كان حقل الاختبار الاكثر ملائمة لهذا التصور.

حسن دولين، مسؤول في قسم الصحافة والاعلام التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، اشار الى هذا الامر بوضوح اكثر، مشدداً على ان السياسة السورية كانت السبب الرئيسي لحرب لبنان:

"في الاساس هناك امر واحد. اراد السوريون التدخل. فعلوا كل شيء كي يحققوا ذلك. في شمال البقاع، هاجمت قوات الصاعقة التابعة لسوريا عام ١٩٧٥ القرى المسيحية. حاصرتها ثم قصفتها، حتى اضطر سكان تلك القرى الى توجيه نداء المساعدة ضد الفلسطينيين الى حافظ اسد. وعند ما هدأت جبهات بيروت، قامت منظمة الصاعقة باطلاق النار علينا وعلى الكتائب، واحياناً على الطرفين في الوقت ذاته. السوريون ارادوا فرض ارادتهم ونفوذهم علينا وعلى اللبنانيين. لذلك كانوا يحتاجون الى الحرب".

وقد عبّر ممثل عن جبهة التحرير العربية الموالية للعراق، عن هذا الاقتناع، ولكن بأسلوب اكثر تحفظاً:

"هناك قوى خارجية ذات مصالح معينة في المنطقة، قامت كلها، دون ريب، باستغلال التناقضات الطائفية والاجتماعية في لبنان، وصعدت من حدثها. ولكن جرى ايضاً استغلال الحركة الفلسطينية لاهداف لم تكن لها علاقة بها، بل كانت تتضارب مع مصالحها الحقيقية".

اما تحليل اسباب الحرب بنظر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فهي شبيهة بما جاء على لسان ممثلي الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان:

"لم يكن الوجود الفلسطيني اطلاقاً سبباً لتفجير الوضع في لبنان. موقفنا من حرب لبنان هو فقط نتيجة تحالف مع الحركة الوطنية اللبنانية، وتأثيرنا في حركة التحرير العربية

بصورة عامة".

الازمة اللبنانية هي نتيجة لتراكم انعكاسات التطورات منذ عهد الانتداب:

"النظام الطائفي المثبت دستوريا أدى الى تدعيم مصالح الاقطاعيين والسياسيين التقليديين وسمح لهم باستغلال البلد. وهذا ما أدى بالتالي الى بروز طبقة الرأسمالية الامبريالية. فالبورجوازية الكمبرادورية هي التي تحكم هذا البلد."

لقد سهل التركيز المنفرد على قطاع الخدمات سيطرة هذه الطبقة، ولكنه سبب ايضا ازمة لها. فنظام لبنان الراسمالي المرتبط بازمة الراسمالية العالمية وصل الى مرحلة يرثي لها.

"لم يعد بإمكان هذا النظام الاعتماد على صدق الجماهير، وقد برز ذلك بوضوح عبر زج الجيش اللبناني في النزاعات الاجتماعية، بينما لم يكن هذا الجيش مستعدا للدفاع عن البلد ضد الهجمات الخارجية. ولكن الجماهير في لبنان رأت في الفلسطينيين حلفاء لها. فعند ما أُعتدّي على الفلسطينيين دعمت الجماهير الشعبية حركة المقاومة الفلسطينية، خاصة عبر انتفاضتها الكبيرة في نيسان ١٩٧٥. فحركة المقاومة الفلسطينية اعطت الجماهير اللبنانية لأول مرة امكانية التأييد ودعم الاحزاب الوطنية التي تجاهد في سبيل الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية... نحن نعتقد ان علاقتنا مع لبنان تقرر عبر وجود مصير مشترك بالغ الاهمية جمعنا ضد العدو. لبنان هو القاعدة التي نستطيع الانطلاق منها لمهاجمة العدو. انها الجماهير اللبنانية التي فرضت على الحكام توقيع اتفاق القاهرة. فبين عام ١٩٦٩ و ١٩٧٣ حاولت الطغمة الحاكمة سحق المقاومة الفلسطينية... وعند ما لم ينجح الجيش في تنفيذ المهمة التي كلف بها... بدأت الطغمة الحاكمة بالاعتماد على الاحتياط الرجعي المكون من الطائفيين الفاشيين."

ولكن الى جانب الاسباب الداخلية هناك ايضا اسباب خارجية:

"كانت هناك جهود الرجعيين العرب للسيطرة على المنطقة لمصلحة الامبريالية الدولية. فقد طلب الرجعيون العرب من الرجعيين اللبنانيين القضاء على الحركة الثورية في بلادهم. جرى اختيار لبنان لهذه المحاولة، لانه يشكل مركز المقاومة الفلسطينية التي هي طليعة الثورة العربية كلها. والسبب الآخر الجانبي استهدف القضاء على الحركة الوطنية اللبنانية. كذلك استهدفت هذه المحاولة ايجاد حل سياسي للمشكلة الفلسطينية. فقد اعتقدت الامبريالية بان الحل السياسي الذي تريده، يمكن ان يتحقق لصالحها، وفقا لشروطها، اذا لم يقض على حركة المقاومة ويفرض انتصار الرجعيين."

اما موقف الجبهة الديمقراطية فقد تركز على امور اخرى:

"التوترات الداخلية في لبنان لم تكن دون أهمية. والقوى التقدمية حققت مكاسب حتى لدى المسيحيين. كما ان زعماء الحركة الوطنية - باستثناء المرابطون - كانوا كلهم من المسيحيين. لقد اخذ الشعور الطبقي يتجسد ويبرز... كان لا بد من ان ينهار لبنان، عاجلاً أم آجلاً، بسبب تناقضاته الذاتية حتى دون الفلسطينيين. في سبيل الحفاظ على امتيازاتهم، اشعل المحافظون نار الحرب الاهلية. ولكن بالنسبة لبلد صغير مثل لبنان، كانت العوامل الخارجية حاسمة في اندلاع الحرب. لقد حاولت الولايات المتحدة واسرائيل اضعاف منظمة التحرير الفلسطينية والقضاء عليها ووضع سوريا في وضع حرج وصعب، وبالتالي دعم انور السادات. فالحرب اللبنانية أشعلت كمنورة لابعاد الاتهام ولتسهيل التقارب الاسرائيلي المصري. فكان المقصود الهاء منظمة التحرير والدول العربية، بينما كان السادات يتابع بهدوء تحقيق اهدافه. وكذلك توافقت اهداف المحافظين اللبنانيين مع اهداف الاميركيين والاسرائيليين الآيلة الى سحق المقاومة الفلسطينية، وتقديم المساعدة للسادات".

ان تصوّرات كل الذين شاركوا في النزاع المسلح من منظمات واحزاب وحركات تختلف تماماً عن تصورات السياسيين اللبنانيين المدنيين من المدرسة القديمة. فهي تعبّر الى حد بعيد عن تبرير ما حصل. لقد شاركوا جميعاً في القتال، ولكنهم اتهموا كلهم الآخرين بالاعتداء عليهم. فالذئاب يحبون فعلاً تشبيههم بالحيوانات الداجنة التي تستخدم قوتها فقط عند ما تكون مرغمة. اما الثعالب، فيتجنبون بصورة عامة التحدث عن دور سوريا في اشعال الحرب. فهم يعرفون بانهم قد يلعبون دوراً ممكناً في تسوية سياسية قد يجرى التفاوض حولها، وبان هذه التسوية لا يمكن ان تحصل دون موافقة سوريا. فلم يذكر احد منهم اسم مُشعل نار الحريق، لأنه يعلم بانه سيستخدم فيما بعد كمطفئ للنار، أي إطفائي. وكذلك الذئاب الصغيرة لم تشر الى هذا الموضوع، لانها دون شك تعتبر سوريا، الذئب الاكبر. فقط ممثلو فتح والمنظمات المسيحية المناضلة اتهموا سوريا بلعب الدور الرئيسي في اشعال نار الحرب واستمرارها. والفريقان كانا في نزاع مفتوح مع سوريا. كذلك اتهموا بعضهم بعض باشعال نار الحرب، ولكنهم لم يتفقوا فقط على ان يكونوا منذ بداية الحرب الخصوم الرئيسيين في النزاع فحسب، بل ايضاً الفرقاء الممثلين لأطماع الهيمنة ذاتها.

اما اعطاء الاولوية للنزاعات الاجتماعية كمسببة للحرب، فهو اقتناع عبرت عنه المنظمات الصغيرة التي تمثل اليسار اللبناني والفلسطيني. بينما اعتبرت معظم الفعاليات الاخرى بان المسألة الاجتماعية سهلت النزاع، ولكنها ليست العنصر الحاسم والمسبب له. اما الناطقون باسم حركة امل - اهم الاحزاب المشاركة في

الحرب منذ مطلع الثمانينات، رغم انها لم تشارك في اندلاعه - فقد حملوا كل الأطراف مسؤولية الحرب، أي احزاب اليسار، والفلسطينيين، والموارنة. ولا يستغرب اطلاقاً عدم إشارتها الى الحلفاء السوريين.

وهكذا يمكن القول ان الذئاب ليست غريبة عن فنون الثعالب، عند ما تعرف ان ذئاباً أكبر منها موجودة في الغابة.

تجدد الإشارة أيضاً الى ان اياً من السياسيين او ممثلي اطراف النزاع لم يذكر اسم شخص اسهم في اندلاع الحرب، بل ذكروا كلهم مجموعات ومنظمات، أو طوائف، أو دول. الاسم الوحيد الذي ذكر، كان اسم "هنري كيسنجر"، الذي اعتبر مرادفاً "للمؤامرة" ضد لبنان. في كتابة التاريخ الحديثة واعطاء الاولوية للتفسيرات الاجتماعية، مقابل التفسيرات المرتبطة بالأشخاص، لم يكن من الضروري الاهتمام بها كثيراً، خاصة ان السياسة الشرقية يرتبط تصوراً غالباً بالنشخيص المتطرف. قد يدرك هذا الخلل من خلال تحميل المسؤولية لأشخاص معينين، مع العلم بان معظم الفعاليات التي جرى استجوابها، تدرك كفاية وبقوة محدودة امكانيات تأثير ونفوذ الافراد على مسار احداث معقدة.

لقد جرى أيضاً استجواب عدد من مختلف اطراف النزاع الذين كانوا من المطلعين على مجرى الاحداث ومن المؤثرين فيها. ولكنهم لم يشاركوا مباشرة في اتخاذ القرارات. كانوا يعبرون غالباً في تصريحاتهم عما يقوله اشخاص آخرون. ولذا كانوا يفضلون عدم الإشارة الى اسمائهم. اما الشخص الذي كانت تنسب اليه مثل هذه التفسيرات او التصريحات، فكان كمال جنبلاط، الذي كان الاكثر نفوذاً، ولكن أيضاً الاكثر تعقيداً من بين كل القيادات التي شاركت مباشرة في اشعال الحرب. اعترف خصومه بدوره البارز، ولكنهم أشاروا أيضاً الى مسؤوليته. كذلك عبر مستشار احد احزاب اليسار عن اعجابه بكمال جنبلاط، فقال عنه:

"كان (أي جنبلاط) يريد نصراً كاملاً. رفض الاكتفاء بنصر جزئي. اعتقد كثيراً بحظه الكبير، فاقتنع بقرب ساعته التاريخية. لم يرد اطلاقاً التخلي عنها. كذلك لم يرد ابداً القبول بان التغيير الثوري والشامل في ظل الاوضاع الاجتماعية المعقدة في لبنان، غير ممكن في وقت معين. ومن الوُصف انه لم يدرك ان قصر بعيدا ليس قصر البستيل ولا قصر ووتر. هذا الخطأ دفع ثمنه مجاناً عدد كبير من الناس، واعاد القضية التقدمية كثيراً الى الوراء".

وبحزم ووضوح تحدث عن هذا الموضوع صديق احد رؤساء الحكومات السابقين ومستشاره الخاص:

"المسؤول الكبير عن الحرب هو كمال جنبلاط. لقد كان اسطورة ساحرة لجيل من الشباب، دفعهم الى الضلال، ولكنه كان مجرماً. طموحه الشخصي الكبير كان يدفعه الى فكرة تنصيب نفسه اميراً يحكم لبنان. فقد اتضح ذلك تماماً عام ١٩٧٦. في سبيل تحقيق مآربه، حلل لنفسه كل وسيلة، وكل خدعة، وكل كذبة. وقد دفع بالفلسطينيين الى اقتراف اكبر اخطائهم".

وقد حكم عليه احد المفكرين السياسيين المطلعين جيداً على مجريات الامور، وقد كان مستشاراً لعدد من البرلمانيين المعتدلين:

"لقد تحول كمال جنبلاط في السنتين الاخيرتين من حياته الى رجل متعصب جداً. فتصريحاته ضد المسيحيين ازدادت شدة. عن الاموات وعن القتل كان يتحدث بكثير من الاستخفاف والاستهتار. وهذا لم يكن بارزاً بالنسبة لنفوذه العسكري، بل أثر كثيراً بالفلسطينيين وبالياسار اللبناني. فتصريحه القائل بقتل ثلث المسيحيين، وتهجير الثلث الثاني، واستعباد الثلث الاخير، لم يكن الأسوأ. فلا عجب ان ينتفض خصومه في اطار مقاومة ميؤوس منها. قتل جنبلاط كثيراً من قدرة المسيحيين، كما أثر ايضاً في حلفائه. لم يكن يفهم شيئاً من عالم العمل، من الاسواق، من المحترفات، ومن المصانع. لقد اعتقد بان اضراباً عاماً لبضعة ايام ستكسده خلاله بضائع المسيحيين في متاجرهم، وهذا يكفي لدفعهم الى الاستسلام. لم يفكر اطلاقاً بان المسيحيين عند ما يتعلق الامر بمصير حياتهم، يستطيعون لقاء القنابل في الاسواق، وتدمير المصانع، وتفجير المصارف. لقد تحدث كمجرم سفاح، ولكنه اندهش كثيراً عند ما حصلت مقاومة ضده".

وقد تحدث احد اعيان الحزب التقدمي الاشتراكي عن شخصية كمال جنبلاط، فقال:

"ان تطور شخصية كمال جنبلاط هو مأساة، أدت به الى مأساة سياسية اخرى أسوأ بكثير من الاولى. كان جنبلاط رجلاً موهوباً جداً، ثاقب البصيرة، واسع الاطلاع والثقافة، ولكنه كان انساناً معقداً جداً، مزدوج الشخصية، ومختل التوازن. فقد والده باكراً، وترعرع بحمي والده كانت تسيطر بسحر جمالها وتفكيرها. كانت تسمى "الرجل الوحيد بين الدروز". لقد تأثر بتيارات فكرية مختلفة، خاصة بالدين الكاثوليكي اللبناني والفرنسي، بالتصوف الهندي، والتقليدية الدرزية. زواجه فشل. زوجته كانت سيدة محترمة من أسرة ارسلان. لم تخف احتقارها له. كانت حاجته تقوى اكثر فاكثرت وتزداد كي يعبر الآخرون عن اعجابهم به، نظراً لذكائه ونفوذه. كان يريد فرض نفسه على كل محاور. وكان طمعه بالسلطة يزداد من سنة الى اخرى. انه لامر عجيب وغريب، كم أثر فيه في السنوات الاخيرة سحر عبارة "الدم". من جهة، كان لديه خوف مرضي من الدم،

فلم يكن يستطيع ان يرى كيف يذبح فروج الدجاج. ومن جهة أخرى كان يختار باستمرار عبارات دموية. "انا لا يهمني التخبّط بالدماء". "هذا البلد يحتاج الى حمام دم مطهر". ما معنى الموت اذاً مع التصوّف الممزوج بالجشع الى السلطة. كان لديه جنون العظمة. كان يشبه نفسه بالفراغة. ويعتقد انه يتقمص شخصية "اغنائون". في زيارته للمتاحف في مصر، كانت تحصل معه مشاهد غريبة الاطوار... في سلوكه السياسي كان يبدي بتعجرف احتقاره للآخرين. فالموارنة بالنسبة له هم ناكرو الجميل. كانوا سابقه خذاماً متمردين، وغير اهل للعيش والتعاطي مع النبلاء. في الحلقات الصغيرة كان يسخر من الدين الاسلامي، كما يسخر من الدين المسيحي. كان يصف حافظ اسد بالمزارع الصغير، وبحديث النعمة سياسياً. كان يتغطرس ويقول بانه يستطيع، في أي وقت يشاء، اغتيال حافظ اسد. ولو كان هناك شخص اخر مكانه لفعل ذلك سريعاً.

هكذا كانت تبدو صورة كمال جنبلاط واطباعه في تاريخ حياته. انه الوحيد بين اللبنانيين الذي - سواء عن اعجاب او عن حقد - كان ينظر اليه معاصرو، والمتعاونون معه، ويصفونه بالعظيم او بالمجرم الغادر. فهو كرجل فريد من نوعه، أثر بصورة رهيبه في مجرى تاريخ بلاده.

٣ - أسباب الحرب في نظر "الحمام" اللبنانية

لم يكن العالم السياسي ما قبل الحرب في لبنان يتألف فقط من الثعالب والذئاب. كانت هناك صحافة حرة، ورجال دين منفتحين، وعلماء ملتزمين اجتماعياً. وسياسيون شباب من ذوى الكفاءات، الذين يمكن تصنيفهم، ضمن الاجناس (الفئات) التي صنفها "باراتو". فلا يمكن تصنيف هذه الفئات وتشبيههم بالحيوانات البريئة او المتوحشة ولكن - ولكي نبقي في اطار التماثل - نصيفهم "بالحمام" الذين يتكاثر ذكرهم. فعددهم هو اكبر بكثير من عدد الفعاليات السياسية والعسكرية البارزة وكذلك آراؤهم هي اكثر تنوعاً. لا يرتبطون باحزاب او بمنظمات سياسية، وينتمون الى طوائف مختلفة. لهم تصورات سياسية اجتماعية يمكن تصنيفها -حسب مقاييس الثقافات السياسية المتجانسة- بالليبرالية او بالديمقراطية الاجتماعية. وكما سيبيّر لاحقاً، فان تصوراتهم لا تقبل بها الاقليات فقط في المجتمع اللبناني. نعرض هه بعض الامثلة الأكثر بروزاً، والتي تجسد تصورات بعض افراد هذه الفئة عن اسباب الحرب^٧.

٧- لا تعتمد هذه النماذج على اية معطيات احصائية تمثيلية. والآراء المشار اليها هنا لا تمثل فقط آراء الاشخاص الذين جرى استجوابهم، بل تعتبر ايضاً نموذجاً لمدارس فكرية داخل صفوف "الحمام"

قال احد الصحفيين اللبنانيين، الذي طلب عدم ذكر اسمه:

"من من السياسيين اللبنانيين له مصلحة في عرض واضح وصريح لاسباب الحرب؟ هل كميل شمعون؟ او وليد جنبلاط؟ -هل يريد هذا الأخير معرفة الحقيقة عن ابيه؟ لا احد يجرو على الكلام يوضح وصراحة.

يمكن ببساطة فهم اصل الحرب. لقد حارب الفلسطينيون في لبنان، كي يعترف بهم دوليا. لقد استخدموا لبنان رهينة. من المؤكد ان لبنان كان يشكل وحده دائما مشكلة. كانت هناك مسألة الهوية، التي لم يتفق اللبنانيون عليها اطلاقا. فكل مرة كان لبنان في حالة هدوء بالنسبة للعوامل الخارجية كانت تعود هذه المسألة وتطرح من جديد. نشأ الخلاف الاساسي منذ تأسيس الدولة. نظر المسيحيون الى الارزة وكأنها صليبا، وكذلك المسلمون. كلمة "عربي" تعني هنا في لبنان "مسلم" و"لبناني" تعني مسيحي. ولكن المشكلة اللبنانية لم تشعل الحرب. مع هذه المشكلة عشنا طويلا وسنواصل ايضا العيش، حالنا حال بلجيكا وكندا.

قبل عام ١٩٦٧ لم يكن الفلسطينيون ايضا يشكلون مشكلة. لم يكونوا مسلحين. الكتائب كانوا قبل الحرب مسلحين. وافق. الكتائب هم حزب يعمل للدفاع الذاتي عن المسيحيين. في لبنان كان هناك دائما سلاح بايدي اللبنانيين. ولربما في حال اليأس او الغضب الشديد قد يقدم انسان على قتل والده. ولكن يفهم الجميع بان لا لحداً يستطيع قتل الآخر او القضاء عليه. كان هناك تخويف متبادل قائم. ولكن العنصر الفلسطيني المسلح غير كل شيء. فجنبلاط اراد الوصول الى الحكم بمساعدة الفلسطينيين. وكذلك ايضا اليسار اللبناني. اما الفلسطينيون فلم يريدوا تسلم الحكم، بل تحويل لبنان الى رهينة بين ايديهم كي يحصلوا على دولتهم - ليس هنا، بل في فلسطين. ولكن تحقيق هذا الهدف فرض عليهم ممارسة أي ضغط ممكن. لقد خافوا ايضا من ان تقوم اسرائيل والاحزاب المسيحية بعملية ابادة جماعية لهم. لقد خاف القابض على الرهينة كما خافت الرهينة ايضا. وهكذا بدأت الحرب".

وقد ميّز ممثل قيادي من طائفة الروم الارثوذكس ما يلي:

"ان الكلام صحيح عن محاولة اليسار اللبناني استخدام الفلسطينيين لتحقيق اهدافه. لقد اخطأوا في حساباتهم، لان المسيحية السياسية كانت اقوى بكثير مما كان يعتقد الجميع. كذلك لم يكن متوقعا جرّ قسم من الفلسطينيين لتسلم حكم الامر الواقع في لبنان، مثلما ارغموا على التراجع عن مثل هذه المحاولة سابقا في الاردن.

اللبنانيون.

لقد نتج بعد ذلك انقسام ايديولوجي وسياسي في سياسة الفلسطينيين. من جهة تحالفوا مع اليسار الذي يوجهه حالياً المسيحيون العرب. ومن جهة أخرى برزت مسألة وضع اليد بالقوة على السلطة في لبنان، وهذا ما دفعهم الى التحالف مع الاسلام السياسي. في سبيل ذلك كان لابد من الحصول على تأييد جماهيري يسمح بإضفاء الطابع الطائفي على النزاع. وهكذا انبثق هذا التحالف المدهش والمقلق بين الفلسطينيين واليسار العلماني، وبينهم وبين الاسلام السياسي. لذلك لم يكن واضحاً على الاطلاق اذا كان الفلسطينيون في الواقع هم جيش اليسار او جيش الاسلام. اليساريون اعتقدوا بان الثورة قد اندلعت. والمسلمون رأوا انهم على الطريق المؤدية الى تسلم السلطة. المفتي السني اطلق تصريحات في هذا المضمار. وحتى موسى الصدر اعتبر في البداية بان الفرصة مؤاتية لتحقيق توجيه السلطة لصالحه".

أما عالم الاجتماع، سليم نصر، فقد حلل الربط بين التوترات الاجتماعية والتوترات بين الطوائف الدينية كما يلي:

"عند ما يتساءل المرء عن انعكاسات التوترات الاجتماعية على السياسة، تبرز ازمة لبنان الريفي اكثر من بروز ازمة وضع التصنيع المزمع. حزام اليوس لم يكن بانسا الى حد ما. في عام ١٩٧٤ كان سوق العمل في المدينة واسعاً جداً ومتوفرًا. فالعامل كان يترك عمله ويجد عملاً جديداً، دون صعوبة تذكر. الاجور كانت على ارتفاع. لذلك لم تستغرب قلة مشاركة اليد العاملة السنّية في الحرب. فازمة المناطق الريفية كانت اكثر حدة. في المعارك التي وقعت في البقاع كانت الدوافع الاجتماعية اكثر بروزاً تقريباً. مدينة زحلة تحولت من مدينة كبار الملاكين، والتجار، والمصارف، الى مدينة تستغل محيطها الزراعي. من المؤكد ان الخلافات الطائفية كانت تبرز او تزج في الخلافات الاجتماعية. ومدينة صيدا كانت تلعب ذات الدور الاقتصادي في الجنوب، مثل زحلة في البقاع. ولكن لم يحدث هناك شيء على الاطلاق. فسكان المدينة ومحيطها هم من المسلمين... التوترات الاجتماعية برزت فيها كنزاعات عامة اندمجت مع توترات بين الطوائف...

فتجميد الوضع الاجتماعي كان من عمل البورجوازية بكاملها، اسهم فيه كبار الملاكين المسلمين التقليديين، كما اسهم فيه أيضاً رجال الاعمال المسيحيين.. ولكن القرار الحاسم كان في تصور المسلمين، اي ان الدولة تترك الحرية التامة لكبار الملاكين والرأسماليين وأهل الاحتكار، وهذه الدولة يسيطر عليها المسيحيون. لذلك كان الصراع موجهاً ضد المسيحيين. في المدن كانت تتواجد خلافتات أخرى على المصالح، أدت الى ذات النتائج. كانت تقوم مناهضة حادة بين الطبقة المتوسطة المسلمة والمارونية. كان الامر يتعلق مثلاً بالحصول على وظيفة في القطاع العام او في الجيش، او حول

استثمارات الدولة في المناطق او القرى. كان المورد يمتلكون القسم الاكبر من الوظائف في القطاع العام، ويأتي بعدهم السنة والشيعية. من المؤكد ان الثروة البورجوازية المسيحية لم تكن تعتمد على القطاع العام. فالارثوذكس والروم الكاثوليك لم يهتموا به كثيرا. ولكن الطبقة المتوسطة المسلمة والمارونية تنافست خاصة في زمن الانحسار الاقتصادي... اما مطالب الطبقة المتوسطة المسلمة فقد استهدفت تغيير نظام الحصص. كان المقصود الحصول على قطعة اكبر من الجبنة. لم يكن الناطقون باسمها من السياسيين التقليديين، بل اناس مثل شفيق الوزان او ممثلون عن المجلس الاسلامي الاعلى، الذين اخذوا يبرزون كخبرة على الساحة. وهذا ما دفع بالسياسيين القدامى الى التركيز دائما على مطالب اكثر شدة".

وعالم الاجتماع، رياض طباره، لم يتصور اطلاقا لبنان ما قبل الحرب، رغم كل التطورات الاجتماعية والطائفية، على طريق تدفع به وبشعبه الى حرب اهلية. بالعكس:

"كان لبنان اختبارا حقيقيا رغم الخلل والضعف فيه. ولكن الاختبار كان يهدف الى تحقيق النجاح. كان التكامل الاجتماعي قد بدأ. هذا النجاح لم يعتمد لا على خطة ولا على ارادة سياسية طموحة، بل كان يقوم اكثر على التنمية الاقتصادية التي تمهد للتكامل الاجتماعي. حتى "الرأسمالية المتوحشة" التي تتهم باذكاء التوترات الاجتماعية، سهكت كثيرا التكامل بين الطوائف. فالمضاربة في مجال العقارات سقطت على بيروت مثل الاعصار. تاريخيا كانت بيروت مدينة اسلامية، وكان المسلمون يمتلكون القسم الاكبر من الاراضي والعقارات. وهكذا استفادوا بنوع خاص من الارتفاع المفاجيء الذي خلق مجموعة كبيرة من اصحاب الملايين المسلمين، وبالتالي مجموعة كبيرة من الجامعيين المسلمين بين اولادهم. اما لدى المسيحيين فسار التطور في اتجاه معاكس. فاهل الريف خسروا كثيرا خلال موجة الارتفاع المفاجيء للأسعار. والمورد هم بمعظمهم من الريف. وهكذا برزت ظاهرة جديدة، الا وهي المسيحيون الفقراء. وقد بقي الشيعة في وضع اسوأ. فهم مسلمون ويقوا محرومين. كانوا من الريف، ولذلك لم يستفيدوا من ارتفاع اسعار المضاربة. كانت انعكاسات التغييرات الاجتماعية باللغة الاهمية. لقد قبل المسلمون واقعا بالمجتمع العلماني. فحتى عام ١٩٧٩ لم يكن هناك زواج مختلط مسيحي اسلامي. ثم ارتفعت هذه الظاهرة سريعا. من المؤكد ان الزواج المختلط، بالنسبة للبلد ككل، مازال احصائيا ظاهرة هامشية. ولكن بين سكان المدن، خاصة في اوساط البورجوازية والانتلجنسيا، اصبحت هذه الظاهرة اكثر شيوعا. كانت لهذا المجتمع الجديد، ذات العادات، ذات المصالح، ذات الانواق. فالزواج المختلط الحاصل في اتجاهين كان نتيجة طبيعية. وكان كل شيء يسير على افضل مايرام. ولكن

جاءت التأثيرات الخارجية واضرمت نار الحرب التي كان بالامكان حصولها في كل بلد يعيش واقعا استراتيجيا شبيها بلبنان. ان اسلحة تجاوزت قيمتها ثلاثة اضعاف مجموع قيمة الناتج القومي، دخلت البلاد. فاذا ما توفرت لذي وسائل وامكانيات تتجاوز قيمتها ثلاثة اضعاف قيمة الناتج القومي في الولايات المتحدة الاميركية، قد يكون بامكاني اشغال أجمل حرب اهلية يمكن ان يتصورها انسان في هذا البلد".

ان أقسى وامر تحليل لأسباب الحرب تسنى الحصول عليه في اطار المقابلات التي اجريت مع القيادات اللبنانية، يعود الى سياسي اصلاحي مسلم اعتزل مؤقتا النشاط السياسي. وهذا نصّه:

"العوامل الرئيسية للحرب هي: اولا: الوجود الفلسطيني المسلّح. ثانيا، استعداد العرب المتقاعس لمحاربة اسرائيل واقعيا وفعليا. ثالثا، طمع سوريا في السيطرة على لبنان. "اريد ان أشدد على امر معين. العنصر الاجتماعي الذي جرى الحديث كثيرا عنه لم يلعب الا دورا ثانويا فقط. فبعد اطلاق النار لأول مرة، اخذت بعض الفئات تطلق النار لاسباب اجتماعية. ولكن لو كانت هناك خلافات اجتماعية فقط، لما اطلق احد النار. هنا لا وجود لاي صراع طبقي. هنا لم يحدث اي انقلاب على نظام سياسي. ولكن هنا جرى تحطيم مجتمع بكامله. من الطبيعي ايضا ان تلعب اسرائيل دورا هاما ولكنه ليس دورا مسببا للحرب. استفادت اسرائيل من هذه الفرصة الفريدة التي توفرت لها. ان ما أثرت به اسرائيل في الحرب، هو أقل من سبب للحرب واكثر من ظاهرة عارضة. ثم كانت هناك نظريات تتحدث عن مؤامرة... انه لامر محزن رؤية اناس يبحثون عن تبرير انفسهم من المسؤولية باللجوء دائما الى اتهام ما يسمى ب"اليد الخفية"... هذه هي تفسيرات مجتمعات بدائية، ليست في الواقع اهلا لبلد عمره أكثر من سبعة آلاف سنة. على كل حال لا قيمة لهذه النظريات، لانها لا تساعد على شيء اطلاقا.

"بالنسبة للسبب الرئيسي، الفلسطينيون طردوا من كل الدول العربية، واصبح لبنان آخر ملجأ لهم، هذا البلد الليبرالي المنفتح على كل التيارات والاتجاهات والهجرات. لقد هاجم العرب والفلسطينيون في السنوات العشر الاخيرة اسرائيل عدة مرات. وكانت النتيجة كل مرة الفشل الذريع. وكانوا دائما يعلنون فشلهم بعوامل خارجية. في عام ١٩٤٨ اقاموا حربا شبيهة بحرب الببدو وخسروها. وادّعوا بعد ذلك بان اسرائيل لم تنتصر، بل انتصرت بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية، وحتى الاتحاد السوفياتي ايضا، اي الدول التي أيدت اسرائيل. وفي عام ١٩٥٦، اطلق شعار كبير سمي "بالاعتداء الثلاثي". لقد كان هذا الامر قائما. ولكن جرى التأكد بكل بساطة من ان اسرائيل وحدها عبرت صحراء سيناء، ووصلت الى مسافة تبعد عشر كيلو مترات عن السويس. وعام ١٩٦٧، لم يستطع جمال عبد الناصر ان يتصور كيف استطاعت الطائرات الاسرائيلية مهاجمة

مصر من الغرب، وقد كان ينتظرها من الشرق. وآتهم من جراء ذلك الاميركيين. ومنذ عام ١٩٦٧ يحاول الفلسطينيون القيام بثورتهم الخاصة. فتنادوا للعمل على مثال جبهة التحرير الوطنية في الجزائر. ولكنهم تعلموا خطأ من الجزائريين. فلم يتقدموا على الاطلاق. وبقيت اساليبهم هي ذاتها منذ عام ١٩٦٧. فكانت توضع مثلاً متفجرة في سلة المهملات وينتظر وقوع ضحية عابرة... ومثلما فعلت الدول العربية سابقاً، كذلك بحث الفلسطينيون عن تعليقات واعذار لفشلهم. ومن كان كيش المحرقة؟ حتما الانظمة العربية الرجعية التي لا تجرؤ على القتال. هذه الانظمة الرجعية، اى المملكة العربية السعودية ودول الخليج، تمول الفلسطينيين، كي لا تحصل عندهم اية اضطرابات. وهكذا تركوا المجال لشتيمهم.

"في الاردن كما في لبنان حاول الفلسطينيون فرض وجودهم ونفوذهم. في الاردن كان هناك ملك وجيش وشعب، تجندوا جميعاً للدفاع عن انفسهم وعن بلادهم بكل نجاح. وسوريا لم تسمح للفلسطينيين الهاربين من الاردن بالبقاء على اراضيها، ولا باطلاق عملياتها الفدائية من الاراضي السورية. لماذا استقبل لبنان الفلسطينين؟ المسيحيون والمسلمون أيدوا القضية الفلسطينية. ولكن المسيحيين، وينبغي الاعتراف بذلك، كانوا اول من شعر بخطر الوجود الفلسطيني المسلح. القياديون المسلمون لم يروا ذلك، بل رفضوا رؤيته. لقد اسهموا في اعطاء الضوء الاخضر للقيام بعمليات كومندوس ضد اسرائيل انطلاقاً من لبنان، ولكن لم يفكر احد بنتائجها.

"كان الفلسطينيون منطقيين بعملهم. لقد حاولوا اضعاف الجيش اللبناني، الذي كان يستطيع قطع الطريق امامهم. فبدأ العمل السري بين صفوف الجيش، معززا بفضل البترودولارات. بالاضافة الى ذلك، انشأوا ميليشيات لبنانية لدعمهم ومعاونتهم، وذلك ايضا بفضل البترودولارات. وقد ساعد في سبيل ذلك بنوع خاص العقيد معمر القذافي. فمول تنظيم المرابطون، وكان يدفع المال بسخاء لعدد كبير من الميليشيات الاخرى. السياسيون المسلمون لم يعارضوا ذلك، وبنوع خاص رشيد كرامي. ولكن لاحقاً تأسفت جماهير المسلمين، سنة وشيعة، لما حصل. القياديون المسلمون اخفقوا تماماً. فلم يمارسوا القيادة، بل التحقوا بالذين كانت تصفق لهم الجماهير. اما لدى المسيحيين فقد جرت الامور في اتجاه آخر. وحتى هم لم يكونوا اطلاقاً في وضع جيد مع اسرائيل. بالعكس، فالمسيحيون السوريون واللبنانيون كانوا دائماً اعنف الخصوم واشد المنتقدين للصهيونية... ولكنهم رأوا ايضا الانعكاسات الممكنة للاعمال الفلسطينية العقيمة انطلاقاً من لبنان، وحاولوا بالتالي معارضتهم.

"لماذا تصرف العرب بصورة عامة، والفلسطينيون بصورة خاصة، بهذه الطريقة؟ اني افسر تصرفهم هذا انطلاقاً من التناقض الكبير بين ماضيهم المجيد وحاضرهم التعيس،

بين الطموح والواقع. ينبغي إجراء تحليل نفسي لمجموعة القياديين السياسيين لنندرك مدى عقمهم. من يوجد الآن على الساحة؟

"انهم كبار الملاكين حمادة، الاسعد، خليل، العلي، سكاف، الخ. هؤلاء يمثلون مصالحهم الشخصية. وهناك ايضا زعماء المدن، مثل سلام وكرامي، يمثلون صغار المواطنين المؤمنين اي الجماعة التي لا تفكر، بل يوجه الدين فقط تصرفها ومسلكتها. كيف يفكر هؤلاء القادة؟ يمكن استنتاج ذلك جيدا من خلال اقوالهم والامثال التي يرددونها باستمرار، والتي تعتبر في الوقت ذاته مبادئ لعملهم:

"عندما لا يستطيع الانسان الحصول على كل شيء، يستطيع اقله الحصول على جزء من كل". "كيف؟ هذا ما يأتي مع الوقت". "على الأثرة أن تشتد أولا قبل ان يلوح الحل". "ان شاء الله". "خذوا الوقت مع الحلفاء، عندئذ يحل كل شيء". "تترك الامر الى الغد، الصباح افضل من المساء". "نؤجل الموضوع الى وقت لاحق". "من الافضل السوف في المساء من الاسراع بالعمل في الصباح". هذه الأقوال والحكم هي نتيجة دين متحجر. "الله يحكم ويدير شؤون العالم". "فلماذا ينبغي ان نفعل احسن منه؟" كل شيء يدور ويتركز على كلمة "مكتوب"، اي كل شيء مبرمج ومخطط له سلفا. لذلك لا ينبغي فعل شيء أبدا. هؤلاء القادة ليسوا في وضع يسمح لهم بتوجيه الجماهير. لقد كانوا عديمي القوة، عند ما كان رجل لديه "هيبة لدنية"، مثل عبد الناصر، يسحر الجماهير بخطابات ويتلاعب بها. لقد استطاعت طبقة السياسيين القديمة الحفاظ على نفوذها، طالما كانت الحياة سهلة، وطالما لم تبرز صعوبات شديدة. ولكن لم يكن احد منهم اهلا لمواجهة أزمة وجود ومصير بلاده. لقد استطاعوا تجنب الاسوأ خلال ثلاثين سنة من الزمن. رغم ذلك حصلت بعد خمسة عشر عاما حرب اهلية صغيرة. ولكن ما قيمة ثلاثين سنة في حياة امة؟ لقد افلست القيادة السياسية، ثم جاء ما يسمى باليسار اللبناني. ماذا يمثل هذا اليسار؟ تأسس الحزب الشيوعي عام ١٩٢٤. لم يعين منه وزير واحد ولم ينتخب أي نائب منه، ولا مختار قرية، حتى في جنوب لبنان، حيث يعتبر هذا الحزب قويا على ما يبدو. وهناك ايضا حزب البعث، احد اشكال القومية العربية، الذي يتحالف تكتيكيا مع الحزب الشيوعي. اليسار هو اختراع كمال جنبلاط. لقد كان جنبلاط معقدا من الموارد. وهذه عقدة الجماعة التي منذ سنوات تطمح الى السلطة، ولم تحصل، حتى على ذرة واحدة منها. ولكن بعد اربعين او خمسين سنة استفاقوا فوجدوا حركة المقاومة الفلسطينية الى جانبهم. فقد استطاع الفلسطينيون تشكيل قوة مقابل الجيش اللبناني، هذا الجيش الذي يجسد في نظر اليسار، المصالح القطاعية والرأسمالية، ويقمع بعنف منذ سنوات كل مظاهرات الاحزاب اليسارية. وهكذا وجدوا عشرين او ثلاثين الف مسلح، يمكن التعاون معهم والقيام وياهم بعمل مشترك ضد هذا الجيش. اخيرا كان

علينا ان نواجه القومية العربية التابعة لسوريا. الكلام عنها كثير وفعلها ضئيل. بالنسبة لهذه القومية ينتمي كل العرب الى ذات البلد الواحد. الاجانب هم الذين جزأوا الأمة وشرذموها الى دول اصطناعية... الفلسطينيون تأثروا كثيراً بهذه القومية، فاعتبروا كل الدول العربية بلدهم. واعتبروا كذلك ان من حقهم الطبيعي استخدام كل ارض عربية للهجوم ضد اسرائيل. كانوا يشعرون في لبنان وكأنهم في بيتهم، وفي قسم من وطنهم الكبير، في موقع ينبغي من الطبيعي ان يُستخدم لاستعادة فلسطين.

"هناك تناقض بين ادعاءات وحقيقة حركة المقاومة الفلسطينية. هناك دول عربية بعيدة جداً جغرافياً، مازالت تظهر للفلسطينيين تأييداً او ترحيباً. ولكن الواقع لا يتوافق مع هذه الصورة في معظم دول المواجهة. سوريا والاردن، لا يسمحان للفلسطينيين بآية حرية للتحرك. ومصر طردتهم خارجاً.

"دعنا نسمي الامور باسمائها. المقاومة الفلسطينية كانت مقاومة وهمية. لقد كانت قوية فقط بالادعاء، ولكنها عقيمة ويائسة على الارض. ان ضعفها واستعدادها للصراع المتخاذل ضد عدوها الحقيقي، دفعها الى البحث عن عدو بديل لها، اعتقدت بانها ستقضي عليه بسهولة. وهذا العدو هو الموارنة.

وهنا لعبت سوريا دورا بالغ الاهمية. فالسوريون يميلون ايضا الى هذا الاتجاه، ويعتبرون انفسهم قادرين على لعب دور صلاح الدين. ولكن لم يتمكنوا ايضا ولن يستطيعوا طرد الاسرائيليين من فلسطين ولا من الجولان. لذلك يبحثون عن عدو بديل يمكن التغلب عليه بسهولة. حافظ اسد كان اكبر جبان في عام ١٩٦٧. فقد اعلن، كقائد لسلاح الطيران السوري آنذاك، سقوط مدينة القنيطرة قبل سقوطها فعلاً بوقت طويل. والآن يحاول ان يلعب دور البطل في لبنان.

"السياسة السورية ازاء لبنان كما تبدو اليوم، تعود الى بداية هذا القرن ولم تتغير حرفاً واحداً. اراد السوريون تحجيم دور لبنان والسيطرة عليه. منذ نهاية الاتحاد الاقتصادي اللبناني السوري عام ١٩٥٠ ارادت البورجوازية السورية اقله ممارسة الدور الاقتصادي في لبنان: التجارة بالجملة، السياحة، القطاع المصرفي، المرفأ، والمطار. فكلما تطلعت الى الدمار في بيروت اذكّر وافكر بالضعيفة السورية القديمة. في عام ١٩٧١ حصلت في منطقة عكار مواجهات بين المزارعين والافطاعيين. آنذاك كان الشيخ عزام وهو درزي، محافظاً في شمال لبنان، اتهم السوريين في احداث الاضطرابات. كنت اعتقد في ذلك الحين ان الامر يتعلق فعلاً بشيء من صراع الطبقات. اما اليوم فاعرف جيداً بان عزام كان على حق. لقد اغتيل عام ١٩٧٥ في طرابلس من قبل "عناصر مجهولة"، ولكن لم تكن في الواقع مجهولة. وعام ١٩٧٢، اكتشفت شبكة

تجسس في وزارة البريد والبرق والهاتف، كانت تتجسس بنوع خاص على وزارة الخارجية. وقد كان افرادها عملاء سوريين. آنذاك جرى اغلاق الملف، ضعفا، او خجلا، دون التشهير او ترك العدالة تأخذ مجراها. وفي عام ١٩٧٢ شجع عبد الحليم خدام لبنان واللبنانيين على التصدي للفلسطينيين. فطالب الجيش اللبناني ببسط رقابة الدولة على كل الاراضي اللبنانية. هل اراد السوريون آنذاك ممارسة التحريض على الحرب؟ منذ عام ١٩٧٥ قام السوريون باضفاء طابع الطائفية على الحرب، ولكنهم لم يقوموا بذلك وحدهم فقط. في البقاع لم يشارك في البداية المسيحيون في الحرب. هنا لعب السوريون دورا قذرا. ففي عدة قرى كان يقطنها مواطنون من طائفة الروم الكاثوليك، أثاروا مجازر عدة. موسى الصدر كان في حالة اضراب عن الطعام، اضطر الى تعليقه، كي يتدخل في البقاع. كان يريد الصدر اولا وقفاً لاطلاق النار، ثم اجراء مفاوضات. ولكن ذلك لم يرق للسوريين. فعملأهم كانوا المسؤولين مباشرة عن المجازر.

'سوريا تريد الوصول الى ممارسة اكبر تأثير ونفوذ ممكن في لبنان. ولكن لحسن حظنا لا تفعل ذلك بطريقة لائقة. فقد اعتقدوا بانهم يستطيعون الامساك بلبنان، مثلما يمكن بورقة تسقط من الشجرة في فصل الخريف. لقد تجاهلوا قوة المقاومة في لبنان، الناشطة والخفية. يسيطر الآن لدى السنة حنين الى لبنان القديم. ويريد الشيعة وطننا مستقلا. لا يجرؤون على النطق. يخافون من الارهاب. وهذا الارهاب هو الواقع. فكلما فشلت حتى الآن امكانية تفاهم بين اللبنانيين، تبين في النهاية ان السوريين كانوا وراء افشالها، لان اهداف سوريا لم تكن مقبولة'.

تسمح مقارنة تصورات الحرب التي عبر عنها الاعيان اللبنانيون وكذلك زعماء الاحزاب السياسية باستنتاج التصورات التي ذكرت هنا بصورة نموذجية، وابرار قوى قيادية حديثة في لبنان، لا تخاف ولا ترتعب من الاطراف الخارجية ولا من مجالات الضعف القائمة في البلاد. يريدون تغيير ما حدث، لا تبريره. ان تكون النزاعات الاقليمية بالدرجة الاولى هي التي اشعلت نار الحرب، فهذا امر لا جدل حوله برأي الاكثرية. ولكنهم يرون ايضا جوهر النزاع القائم في البلاد عبر الخلافات بين الطبقات، وكذلك بين الطوائف الدينية، والربط بينها. لقد انتقدوا بحدة وقساوة الزعماء السياسيين القدامى وكذلك اطراف النزاع. لقد حملوا الفريقين مسؤولية التصدي لعملية التنمية الاقتصادية والتكامل الاجتماعي وتوقيفها واهمالها. لقد عبروا بمرارة عن غياب السلطة والسيطرة الخارجية. كما عبروا عن تفتتهم بقوة المقاومة لدى المجتمع اللبناني. فهؤلاء لم ينتموا سابقا ولم ينتموا بعد الى نخبة ارباب السلطة في البلاد. ولكن هذا العرض الاستطراذي لمواقفهم وتصوراتهم كشف

بوضوح عن امكانية توفر قيادات سياسية اخرى في لبنان اكثر وعياً وادراكاً من "الثعالب"، واكثر اعتدالاً من "الذئاب".

٤ - نحن والآخرون

في نزاع معقد مثل حرب لبنان عرف تغييراً متواتراً بين الحلفاء والاعداء، تتميز فيه أيضاً صورة الصديق والخصم الى حد ما. لذلك استنتج نوع من الاستقرار لهذه الصور خلال سنوات الحرب. لقد زادت كثافتها او ضعفت. ولكنها لم تتغير الا قليلاً فقط بالنسبة الى سماتها الرئيسية. فيما يلي نحاول ابراز مختارات من تصورات ذاتية عبرت عنها مجموعة من القيادات السياسية والعسكرية تسمح بتوضيح اكثر خصائصها الثابتة. فاحد رؤساء الحكومات السابقين اعلن ما يلي:

"انا راض عن موقف السنة خلال الحرب. لقد تصرفوا بحكمة فائقة، وبأكثر من الحكمة. اجد ان هناك قوة وشجاعة لدى الانسان كي لا يلجأ الى السلاح، حتى وان كان مهدداً. انه يريد اللقاء مجدداً بالآخرين، دون ان تكون يدها ملطخة بالدماء. الحرب ولدت الحق. ولكن لدى السنة لا يوجد أي حق".

وسياسي سني آخر برز اكثر انتقاداً:

"فقد زعماء السنة القدامى كثيراً من نفوذهم ونحن مسؤولون عن ذلك. ويؤلمني جدا قول هذه الحقيقة. فعند ما نشب النزاع وقفنا جانباً، وارادنا الانتظار لنرى من سينتصر. اردنا ان نحقق كسباً من هذا الوضع. ولكن سبب هذا الموقف عميق الجذور ويعود كثيراً الى الوراء. الزعماء السنة فقدوا خلال عهد عبد الناصر قوتهم القيادية. لماذا؟ لانهم تحولوا الى ممثلين محليين لعبد الناصر، تحولوا الى خدام وعبيد له، والى أجراء يدورون في فلكه. عندئذ فضل معظم الناس التوجه مباشرة نحو الشمس، وليس نحو القمر. فانخسف هؤلاء الزعماء مثلاً ينخسف القمر عند الصباح".

رغم ذلك، يعتقد هذا السياسي ان هؤلاء الزعماء مازالوا اكثر تمثيلاً لاكثرية السنة من اي زعيم ميليشيوي آخر من طائفتهم او من الطوائف الاخرى:

"سياسياً لا يشكل اسيااد الحرب شيئاً لدى السنة. قد يكون ابراهيم اقليلات قد حصل في اسد ايامه على نسبة واحد بالمائة من التأييد الشعبي. اسيااد الحرب يشكلون شيئاً محدوداً فقط بفضل السلاح المتوفر بين ايديهم. ففي انتخابات حرة، سيجد من المؤكد الزعماء القدامى، ورغم كل شيء، نصف السنة وراءهم".

صائب سلام، عبّر بعنف اكثر عن رأيه بالمرابطون والميليشيات الاخرى:

"هذه الدكاكين هي مثيرة للإزعاج. ولكن لا قيمة سياسية لها على المدى البعيد. الهدف الوحيد للمرابطون هو جمع المال. لقد نجحوا في هذا المجال الى حد ما. فهم زمرة من النهابين والقتلة دون اية ايدولوجية. كان من الصعب جدا ان يبرزوا للوجود، لو لم يتمسك بهم الفلسطينيون للاستفادة منهم مؤقتا. ابوعمار هو الذي يدفع لهم المال ويقودهم بالحبل، وغالبا بحبل طويل".

وله رأي مماثل بالميلشيات المسيحية:

"لدى الطرف الآخر يتعلق الامر ايضا بعصابات ولكنها افضل تنظيما".

واعتبر نائب سني ان لا قيمة سياسياً لزعماء طائفته الدينيين:

"عمليا ليس لهم أي تأثير. لدى السنة لا يوجد اكليروس ولا كهنة، ولا وسطاء بين الله والبشر. في السنوات الاخيرة أعطي المفتي ونائبه دورا كبيرا، وذلك فقط لإقامة توازن مع المركز القوي للبطريرك الماروني. ولكن ذلك لا يعني شيئا. ليس من السهولة ان تصنع من مستخدم او من موظف بطريركا. لا يستطيع القاء الحرم على احد. لدى المسيحيين قد يستطيع كميل شمعون السماح لنفسه بمهاجمة البطريرك. ولكن أضعف سياسي سني يستطيع مهاجمة المفتي عند ما لا يروق له ما يقول".

عن اليسار لم يكن لصائب سلام اي رأي ايجابي. ولكنه حاول ان يتبرأ ويستنكر اضعاء "أتيكات" على ما يسمّى "بالمسلمين اليساريين".

"لولا الوجود الفلسطيني لما كان لليسار في لبنان اي حظ بالوجود. المسلمون اللبنانيون ليسوا يساريين. فهم ضد اليسار وشديدو العداء للشيوعية. خذ مثلا كمال جنبلاط مع حزبه المسمى بالتقدمي الاشتراكي. لا يوجد أي اسم اكثر زيفا وتناقضا منه. جنبلاط كان رجل الشوق وزعيم القبيلة الدرزية. يتألف حزبه من الدروز بالاضافة الى بعض الشيوعيين الطوارىء. وليس اكثر من ذلك. كمال جنبلاط لم يكن مرة واحدة اشتراكيا في حياته. لقد عدنا مرة سوية من زيارة الى القاهرة في عهد عبد الناصر، واثناءها قال لي: "صائب، لا اعتقد ان هذا النظام الاشتراكي يصلح لبلادنا". والآن خلفه ابنه في زعامة الحزب. بالحقبة انهم اشتراكيون بثياب جميلة، اشتراكيون مع خلافة في الوراثة. يتحدثون في بعض المناسبات بمنطق اليسار، وذلك لانهم يجدون لدى اليساريين في اوربا تأييدا لهم".

وتحدث كذلك احد الاعيان السنة بمرارة أشد عن الفلسطينيين:

"لم يقبلوا اطلاقا باسلام لبناني مستقل عنهم. كانوا يفضلون العمل مع اناس مثل صبحي الصالح الذي كانت ليبيا تدفع له المال، او مع المرابطون الذين كانوا يرتبطون مائة

بالمائة بحركة فتح، وكانوا يمثلون سياسيا قومية عربية بدائية. وكبار المفكرين، سواء لدى الفلسطينيين او لدى اليسار اللبناني ايضا، كانوا من المثقفين المسيحيين الذين راق لهم الحديث باستمرار عن التعصب الاسلامي. لقد اسهم الفلسطينيون كثيرا في تحويل السنة السياسية في لبنان الى ما لا معنى له".

وقد استخلص محمد شقير قائلا:

"معظم اهل السنة هم اليوم لبنانيون مقتنعون. ولكنهم لا يجرؤون على الاعتراف بذلك. انهم يخافون. ومن المؤكد ان هذا الخوف مبرر، ولكنه لم يكن مبررا في بداية الحرب. انا متأكد من ان التاريخ سينزل حكما قاسيا على زعماء المسلمين في لبنان. لقد كانوا محتالين ولكنهم كانوا ايضا جبناء، وجبناء جدا. زعماء الفريق الآخر كانوا شجعانا، ولكن للأسف غير حكماء. وهكذا لم يتمكن لبنان من جني اي نفع لا من حكمة هذا الفريق ولا من شجاعة الفريق الآخر".

وزعيم سني آخر شخّص الشعور المزدوج لدى طائفته:

"كنا نفضل لو نجح الفلسطينيون او السوريون في تغيير الحكم في لبنان. ولكن عددا من السنة والعائلات القديمة وصغار القوم يسألون انفسهم منذ مدة اذا كان هذا الهدف يستحق فعلا كل هذه الضحايا الرهيبة. وكذلك لا يمكن التعتيم على ان عددا من المسلمين يحنون الى لبنان ما قبل الحرب. لم يكن لبنان ما كنا نتمناه لنا. ولكنه كان افضل بكثير مما وصلنا اليه اليوم. المسلمون يعيشون في احوال للسباحة تتبدل شعوريا. في الصباح يتذمرون غضبا من السوريين او من الميليشيات، وفي المساء عند ما يقصفون الاشرافية ينيران مدافعهم يعودون الى التضامن معهم والى تأييدهم".

السياسيون المسيحيون المعتدلون يرون الامور بصورة مشابهة:

"لدى المسلمين العاديين اكثرية صامتة، همها التحرر من السوريين وكذلك ايضا من الميليشيات. ولكن لا تمتلك هذه الاكثرية اية وسيلة للتعبير عن سخطها. وطالما تواصل الميليشيات المسيحية التصرف على اساس طائفي فلا بد للجماهير الاسلامية الا ان ترمي ذاتها مجددا بين ايدي المتطرفين او السوريين".

فؤاد بطرس، وزير خارجية سابق، حكم باختصار وبوضوح على دور الاعيان المسلمين:

"بعض القوى السياسية القديمة لم تعد موجودة. الاسلام السياسي اللبناني مات، خاصة الاسلام السني. لقد اختفى منذ سنوات ليترك المجال واسعا امام المتطرفين. لم يشارك في الحرب. ولكنه لعب دور شاهد الزور".

ولكنه اعتبر ايضا وضع السياسيين المسيحيين المعتدلين عرضة للخطر:

"انعكاسات الحرب مخيفة. لقد زادت في حدة المرارة، والتعصب، والتصلب. لقد مورست ضدي شخصيا ثلاثة اعتداءات، لاني كنت معتدلا. لقد فُسّر الاعتدال من قبل كل الاطراف بأنه خيانة. مازال يوجد عدد كاف من الناس المعتدلين لدى كل الفئات، ومن المؤكد انهم يشكلون الاكثرية، ولكنهم يتحفظون لعدم تعريض حياتهم للخطر. الارهاب يحد ذاته يمنع المرء من التعبير عن رأيه".

وانتقد نائب ماروني الميليشيات المسيحية. وفي الوقت نفسه، عبر عن بعض التفهم لها:

"لا يختلف رأيي بقيادتها عن رأي الفريق الآخر. من العبث البحث لديها عن مفاهيم سياسية واضحة. هناك تيار معارض للشيوعية عشوائيا. وآخر يطرح بعض الافكار الغامضة عن الفدرالية والقليل جدا عن مواضيع اخرى. بيار الجميل كان دائما نكيا يتكلم عن الحب بينما كانت ميليشياته تقتل وتبطش. الميليشيات المسيحية كانت في كل الاحوال اشد شراسة، وقتلت اناسا اكثر من غيرها، خاصة في تل الزعتر. هنا جرى الانتقام من سكان المخيم بسبب معاملات وتصرفات سيئة مارسها الفلسطينيون سابقا. فلم يسلم احد من المقاتلين. نعم كان المسيحيون اكثر شراسة، وذلك لسبب وجيه. لقد حاربوا في سبيل بقائهم على قيد الحياة. ولاحقا فعل الدروز في الشوف ذات الشيء وللسبب نفسه. فالذي يخاف على وجوده ومصيره، يثور وينتفض لامر تافه".

واشار نائب مسيحي آخر الى ان المسيحيين، لولا وجود ميليشياتهم، لتعرضوا لهزيمة ساحقة عام ١٩٧٥ و ١٩٧٦. ولكنه يعتقد بان هذه الميليشيات انحرفت لاحقا، واساءت التصرف كثيرا:

"ان الشرخ الذي حصل مع الشمال المسيحي كان أول كارثة تتحمل هذه الميليشيات مسؤولية عواقبها. ومنذ ذلك الحين سفكت دماء كثيرة بين الموارنة. واحتلت الاجزاء القديمة في المنطقة المسيحية. المصفحات السورية رابضت في غابة الارز. وحرب الشوف كانت الكارثة الثانية. لقد اعدتنا هذه الميليشيات اكثر من قرن الى الوراء. ثم ما حاولت فعله في مناطق شرق صيدا، لم يكن اجراما فحسب، بل اجراما ابلها ايضا. ليحم الله المسيحيين من الاسلام ومن السوريين، ولكن خاصة من المنظرين والمنطرفين الكبار في صفوف ميليشياتهم".

يتحدث السياسيون المسلمون والمسيحيون عن بعضهم باحترام محدود في افضل الحالات. فكل منهم يحمل الآخر مسؤولية اكثر مما يحمل نفسه. ولكنهم لا يطلقون اتهامات اساسية ضد بعضهم. ينتقدون بدرجة اولى الاخطاء الفنية في ادارة الازمة،

وذلك في محيطهم، كما لدى الآخرين. ويتحدثون بالمقابل عن امراء الحرب في كل الاحزاب بنوع من الاحتقار والتهكم، وباستنكار غاضب يصعب اخفاؤه. يتهمون "التعاليب" لانهم لم يحولوا دون تدمير البلاد، و"الذئاب" لانهم نفذوا ذلك.

وبالمقابل يحاول زعماء الاحزاب المشاركة في الحرب والناطقون باسمهم، التحدث عن انفسهم في اطار مميز، واضفاء شكل سافل وشيطاني على الخصم المناهض لهم.

فالمرابطون يعتبرون فلسفتهم السياسية الذاتية كهوية للعروبة والاسلام:

"لا نرى اي تناقض بين العروبة والاسلام. فنحن نحاول العودة الى جذورنا الثقافية. المسلم العادي يعيش صدمة ثقافية. ردة فعله الاولى هي الاحباط، والثانية العودة الى الدين. فهو يبني ويعمل في سبيل استمراريته. ويحاول بوعي او بدون وعي حماية نفسه ضد ثقافة التلفزيون، والكوكا كولا. القومية العربية تساعده في الدفاع عن نفسه ضد الامبريالية السياسية. والاسلام يساعده ضد التغرب او الاغتراب الثقافي".

اما عدوهم الرئيسي فهو الجبهة اللبنانية:

"ما يريدونه هو لبنان كوطن للموارنة. نحن نعتبرهم فاشيين يتعاونون مع اسرائيل. يريدون تقسيم لبنان. يريدون السيطرة عليه. استخدموا التهديد بالتقسيم فقط، وذلك للضغط والقهر. الخوف عند المسيحيين جرى تصعيده بانتظام من قبل زعمائهم، وذلك للحفاظ على مستوى التعبئة بين صفوفهم. ليس من مبرر لهذا الخوف، لان المسلمين في الواقع شعب متسامح. الوجود الاسلامي في اسبانيا ازيل تماما. وقد كان بالامكان منذ زمن طويل تصفية الوجود المسيحي في العالم العربي. ولكن المسيحية المشرقية استمرت في الوجود".

ولكن المرابطون عبّروا عن انتقاد اكثر مرارة تجاه حلفائهم:

"من المؤسف ان الفلسطينيين تصرفوا معظم الاحيان "كالاخ الكبير". فلا يقولون لنا شيئا، ولكنهم كانوا يورطوننا في حالات الامر الواقع، الواحدة تلو الاخرى".

وكذلك تنكروا بكل وضوح للحركات والاحزاب اليسارية اللبنانية:

"التحليل الطبقي ذي الطابع الغربي، لا يساعد لبنان اطلاقا. هنا لا توجد مثالية طبقية عمالية بارزة الاهمية. الشيوعيون اللبنانيون لم يتجاوزوا بعد حدود الحلقات الطلابية. فقط عند ما يبدأ الحزب الشيوعي بدعم القومية، يصبح مقبولا. صراعنا ليس صراع طبقات، بل صراعا وطنيا. ليس لدينا الوقت اطلاقا للمناقشات الايديولوجية في المقاهي.

الخصم لا يصنفنا ايدولوجيا، بل وطنيا. اليسار الحقيقي في هذا البلد ليس ماركسيا، بل قوميا".

والى الفئة المسيحية المتقفة التقدمية، ينظر المرابطون بنوع من الازدراء والتهمك:

"لقد ناثرت هذه الفئة بمحيطها الاجتماعي. انتلجنسيا مقاهي الرصيف تراجعت امام بيئتها الاصلية. المثل التقدمية كانت جميلة طالما لم تزعج الراحة الشخصية. بعد ذلك تحولوا الى مقلدي رواد سان جرمان دي بري والشانزيلزه".

وبصورة مماثلة وصف المرابطون القيادة الاسلامية القديمة:

"لقد جرى انتهاك مقام الزعامات السنّية. الكل يدرك مسؤوليتها في استمرار سوء وضع المسلمين في لبنان. لم يتوقعوا مرة واحدة امكانية وقوع الحرب. الجيل الجديد يعارض تماما هذه القيادة. ولم يبلغ بعد نصف عدد السكان العشرين سنة. الزعماء لا يدركون تعبئة الجماهير. فهم رموز للفساد والعجز السياسي".

اما لهجة زعماء "حركة امل"، فكانت اكثر اعتدالا:

"تتوجه حركتنا الى كل المحرومين. الى الطوائف الصغيرة، الى الارثوذكس، الى الكاثوليك، الى الدروز. ولكن ايضا الى الموارد، الذين هم فقراء او اكثر فقرا من الشيعة. نتوجه الى كل الذين انتهكت حقوقهم بسبب نظام ١٩٤٣".

اما الابتعاد عن الاعيان الشيعة، فعُبر عنه بتحفظ:

"في عهد الانتداب لم ينشئ الفرنسيون أية مؤسسات، بل تعاملوا مع افراد استخدموا كوسطاء بينهم وبين جماهير الشعب. وهكذا أنشئت فئة القيادة القديمة. عهد الانتداب ابرز سيطرة مارونية وسنّية، لا تعكس اطلاقا التقليد اللبناني. اما زعماء الشيعة فكان يقتصر دورهم فقط على ضمان استقرار النظام. اهتمت المناطق الريفية الشيعية. والشعب لاحظ ذلك وادرك ان الزعماء التقليديين، لم يفعلوا شيئا لصالحه. وعند ما اندلعت الحرب لم يكن اي انسان مستعدا لحمل السلاح الى جانب هؤلاء الزعماء. التقليد الشيعي يتمثل بالثورة الدائمة. في العهد العثماني، جرت محاولة لاعتبارنا فئة خارجة عن الدين. ولكن الشيعة بقوا رغم ذلك حركة ثورية في الاسلام. هذا التقليد تجسده حركة الامام موسى الصدر".

بين الاحزاب المسيحية وميليشياتها من جهة، ومجموعة الموارد من جهة اخرى، هناك فرق واضح بنظر حركة امل:

"التجانس السياسي لدى الموارنة جرى غالبا الافراط في التعبير عنه. لا يؤيد الجبهة اللبنانية وميليشياتها، اكثر من ٢٠ بالمئة من الموارنة. هناك زعماء مسيحيون كثيرون لهم شعبية قوية، ويقبل بهم المسلمون، امثال: ريمون اده، وسليمان فرنجية، وجان عزيز، وميشال الخوري. الاحزاب، مثل حزب الكتائب، وحزب الوطنيين الاحرار، ليسوا متأصلين في العمق. فهم اتباع للطبقة الخارجية. فاذا ما عدل قانون الانتخابات، من المحتمل ان يبرز من جديد نظام الحزبين المارونيين القديمين، اي حزب الكتلة الوطنية والحزب الدستوري. حزب الكتائب استغل بذكاء واسع الحرب لصالحه. لقد اختلقوا اشباح الرعب لتخويف المسيحيين. ولكن الخوف والرعب جلبا لهم انتصارا ومؤيدين. ورغم الاحداث المؤسفة لن ننسى فضل الموارنة التاريخي. في ظل الحكم العثماني، كانوا الوحيدين الذين بحثوا عن الحرية. ولكن في ظل الانتداب الفرنسي عند ما سلّموا دفة الحكم، أخذ كل شيء يتغير عندهم. اما صراعهم القديم في سبيل الحرية فلن ننساه... وحالما يستقر الوضع وتعود الامور الى نصابها، سيرى الموارنة اين تكمن مصلحتهم الحقيقية. فالقيادة التي برزت في زمن الحرب تمثل قيادة للصراع والنقّال، لا اكثر ولا اقل. ولكن الزعماء الآخرين يعرفون جيدا ان دولة "اسرائيل مسيحية"، لن يعترف بها العرب اطلاقا، وستلحق ضررا كبيرا بالمسيحيين. منطقتا كسروان والمتن، محدودتان. قبل ذلك كان للموارنة تاثير في لبنان كله. وامراء الحرب المسيحيين قادوا الموارنة في اتجاه خاطيء. لم يفهموا ايدا سياسة العالم الحديثة. ومازالوا ينظرون، مثملا فعلوا عام ١٨٦٠، وعام ١٩٢٠، الى فرنسا كحامية لهم. وفرنسا لم تعد تصلح لذلك اطلاقا. انهم يعتبرون انفسهم بديلا لفرنسا. ولكنهم لا يحتاجون الى اية حماية. فهم عرب بالذات... كل شيء يدعو الى التزام فاعل للموارنة في العالم العربي. العرب لديهم المال، والاوروبيون المعرفة الفنية. سوية يستطيع العرب والاوروبيون تكوين حركة ثالثة في السياسة الدولية. والموارنة يستطيعون ان يكونوا سفراءنا الى اوروبا، والجسور بيننا وبين الغرب".

وليد جنبلاط، رئيس ميليشيا الحزب التقدمي الاشتراكي، اعتبر المطالب السياسية الكبيرة قبل الحرب من الصعب تحقيقها:

"لدى حزبنا برنامج رائع يشمل افكارا جديدة، تسحر كل انسان. العروبة الاشتراكية، العلمانية. ولكن ينبغي النظر الى الاوضاع في الشرق الاوسط كله. العروبة؟ العرب هم اليوم اكثر تمزقا من أي وقت مضى. كل منهم يريد فرض عروبة على الآخرين. الاشتراكية؟ عدد كبير من الدول تتحدث عنها، ولكنها كلها احاديث وهمية. تهدف فقط الى ضبط ومراقبة بورجوازياتها وتجارها وصناعاتها، كي لا يخرج رأس المال باي طريقة كانت من هذه الدولة او تلك. في لبنان، كان يمكن ان يكون الامر جميلا، لو تم

تطبيق القوانين المتوفرة بانتظام ودقة، بغض النظر عن القوانين المتعلقة بالضرائب. ولو تمكنت الدولة من ان تتحول أكثر من ذلك بقليل الى دولة ميسورة، لحصل تقدم كبير. والعلمانية؟ من اسرائيل الى ايران، تجري الرياح مع مراكب الاصوليين. وهنا لابد من التساؤل، ألم تصل بعد عدوى الاصولية الى المسيحيين والشيعية عندنا؟

وعند ما سئل عن الدوافع التي حملته الى تسلم مهام ودور والده، اجاب وليد جنبلاط:

"انا لم ابحث عن هذا الدور، وعلى كل الاحوال لم افكر يوما بانني سأتحمل ذلك باكرا. ولكنني افتخر بتسلم هذه المسؤولية. الدروز هم شعب صغير وفخور بذاته. يستطيع الدروز العيش كما يريدون والبقاء على فخرهم واعتزازهم. لقد برهنوا عن استعدادهم للدفاع عن ذلك. ولم يحاربوا بصورة سيئة. مع اليسار اعمل بكل سرور ضمن الحركة الوطنية. عددهم ليس كبيرا، ولكنهم ينتمون الى تلك الفئة الضئيلة غير المتعصبة دينيا حاليا، ويريدون انشاء دولة حديثة".

بالنسبة للزعماء المسيحيين المناضلين لم يبد وليد جنبلاط الا الاحتقار:

"بشير وجماعته لا حاجة اطلاقا للحديث عنهم. امين الجميل هو رجل لا معنى له، ولكنه مدع بنفسه. لعب دور المعتدل في مرحلة من الزمن كي ينتخب رئيسا. لقد اساءوا كلهم بحق البلاد، واكثر بكثير بحق جماعتهم ولمدة طويلة".

يأمل وليد جنبلاط على المدى المتوسط، ببروز قيادة جديدة لدى المواردنة:

"لربما تمكن سمير فرنجية ان يلعب يوما دورا هاما. ان الافكار اليسارية التي عرفها في شبابه تخطى عنها منذ زمن طويل. لقد اصبح اكثر نضوجا، انه ذكي ويتفهم اوضاع لبنان كلها. وكذلك اولاد شمعون اصبحوا اكثر تعقلا. لقد ادركوا جيدا لماذا يصلح الكتائبون، والى اين استطاع جنونهم ان يقودهم".

وقد تطرق الى القوى الخارجية في النزاع اللبناني بكثير من التحفظ:

"نحن هنا في الشوف محاطون بكل القوى الممكنة. احيانا يحتاجون الي، وحيانا احتاج أنا اليهم. لقد تعلمنا العيش بحذر وتحفظ شديدين. ولا حاجة لذكر الاسباب. هناك امر يستحق الذكر. خلال عدة عقود طالب عدد كبير من اللبنانيين بالاتحاد مع سوريا. والآن سوريا موجودة في لبنان. ولكن لم يطرح أي زعيم سياسي بارز موضوع الاتحاد. ان لا يقدم المواردنة على ذلك، فهذا امر غير مستغرب. ولكن ان لا يجرؤ سياسي سني او شيعي على المطالبة بذلك، فهذا امر يستحق اكثر فاكثر الدهشة والاستغراب".

اما انعام رعد فقد اعتبر اهداف الحزب القومي السوري، بالاستناد الى احداث السنوات الاخيرة، بانها اكثر تبريرا وواقعية من السابق:

"مازلنا ننظر الى لبنان كجزء من سوريا، التي تشكل قطرا متكاملا من الشرق العربي. وجود لبنان مستقلا لا مبرر له جغرافيا وجيوسياسيا واقتصاديا. لقد عانى هذا البلد دائما بسبب استقلاله. مليونان ونصف مليون لبناني يعيشون هنا، وثلاثة ملايين اضطروا الى الهجرة. اليس ذلك افضل برهان على ان لبنان هو جزء من بلد اكبر؟ ان سبب وجوده الوحيد هو ان يكون دولة للاقليات. نحن لا نتنظر شيئا من دولة اقلية. والتبديل بالنسبة لي هو حل جذري، يقوم على انشاء دولة علمانية ديمقراطية. من المؤكد انه خلال الحرب، ازداد كثيرا الشعور بالخوف لدى مختلف الطوائف الدينية. ومن جهة اخرى، يرى كثير من الناس ان الدماء سفكت باسم الطائفية. لذلك نطالب، اكثر من اي وقت مضى، بإقامة دولة علمانية، وقد اصبحت الآن اكثر قبولا".

اما الخصم الرئيسي بنظر زعماء الحزب القومي السوري، فهم ممثلو الانعزالية: "يتحدث الانعزاليون عن الاستقلال الابدي للبنان، وعن هويته المنفصلة. ان فئة منهم، وهي نفسها التي ارادت التمسك سابقا بالانتداب الفرنسي، تبحث اليوم عن الحماية الاسرائيلية. لا يتطلعون اطلاقا الى ما وراء بلدهم، بل ينظرون فقط الى الشواطئ. فهم يجهلون بان اقتصادا سليما قائما على الانتاجية ممكن فقط، عند ما نكون جزءا من العالم العربي".

ولكنهم ارادوا التمييز بوضوح بين "الانعزاليين"، من جهة، والمسيحيين بمن فيهم الموارنة ايضا من جهة اخرى:

"ان القوى اليسارية والفلسطينية اقترفت خطأ كبيرا في بداية الحرب، لأنها هاجمت الموارنة. هناك جماعة، بينهم، مثل إده، وعزيز، وفرنجية، نختلف وإياهم حول أمور كثيرة، ولكنهم لا يتعاونون مع إسرائيل. الموارنة هم جزء هام من تقليدنا ومن امتنا. بدأ تاريخهم مع الدفاع عن التراث السوري ضد بيزنطية. وفي القرن الماضي، كانوا رواد النهضة العربية التي انتفضت ضد الحكم العثماني. الموارنة وقفوا خلال مراحل قاسية من تاريخنا للدفاع ضد القوى الأجنبية المسيحية والإسلامية. انه من الضروري جدا ان نكسب الموارنة في سبيل قضيتنا القومية. اقول ذلك رغم ما عاناه الحزب القومي السوري خلال الحرب، ان قسماً كبيراً من جذورنا موجود في المنطقة المسيحية. ومئات الرفاق من حزبنا جرت تصفيتهم منذ البداية من قبل قوات الانعزاليين".

ويميّز الحزب القومي السوري بينه وبين الاحزاب اليسارية الاخرى:

"اثارت الاحزاب اليسارية في تحليلها بنوع خاص المسائل الاجتماعية. وهنا نختلف كثيرا في الرأي. فنحن لا نريد اغفال المشاكل الاجتماعية. فهي هامة جدا. ولكننا نراها في علاقتها مع مشكلة الهوية القومية. لقد اضطرت الاحزاب الشيوعية الى ان تعيد النظر في رؤيتها للمشاكل اللبنانية. تحدثوا في البداية عن الصراع الطبقي فقط. واليوم يرون المسألة القومية تبرز الى الواجهة، حيث تلعب مظاهر الطبقية دورا طبيعيا".

الزعماء السنة والشيعة التقليديون، لم يرغبوا اطلاقا بوقوع اشتباكات مسلحة، ولكنهم:

"في زمن السلم يشكلون قوة ما، اما في زمن الحرب فلا شيء".

ان حزب البعث الموالي لسوريا عرف خلال الحرب خصوما مختلفين جدا. اما موقفه الثابت فيتلخص:

"حزبنا يرتبط ارتباطا وثيقا بسوريا. ان ما نريده هو وحدة البلد. ولكننا نحن ضد الطائفية، مرض العصر، وضد لبنان الذي يبني من جديد على اساس المساواة الطائفية بين المسيحيين والمسلمين. فاذا ما حصل ذلك، فان الاحداث ستتكرر خلال عشر سنوات. البعث هو الحزب الوحيد الذي لم يقتل احدا، لا على الحواجز في الطرقات، ولا في اى مكان اخر".

وكيف يرى هذا الحزب خصومه؟

"عام ١٩٧٦ حصلت اشتباكات قاسية بيننا وبين الحركة الوطنية، وقسم من الفلسطينيين. احرقت منازلنا ومكاتبنا وهوجمت منطقتنا. اضطررنا الى الهرب الى دمشق. جريدتنا توقفت عن الصدور خلال سنة كاملة. قتل ٤٢ عضوا من الحزب على يد الحركة الوطنية. وبعد ذلك رجعنا من جديد الى هنا. ومنذ ذلك الحين اصبح خصمنا الرئيسي الجبهة اللبنانية وميليشياتها. فهم يعملون ضد أمن سوريا وأمن لبنان، وذلك لمصلحة اسرائيل. ان من يؤيدهم، هو ضد سوريا. والتحالف الجديد بينهم وبين العراق له هدف واحد، ألا وهو اثاره الصعوبات لسوريا. ولكن دون سوريا لا يمكن حصول شيء هنا على المستوى البعيد".

ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان، وجدت نفسها امام مشكلات داخلية كبيرة، بسبب اعطاء الطابع الطائفي للحزب. وقد فسر ذلك فوز طرابلسي بقوله:

"ان منظمنا لم تميز اطلاقا بين الطائفة والطبقة. نحن لم نفعل ذلك ابدا. ولكننا نحاول الربط بدقة بين الاثنين. نعتبر هذا الامر هاما جدا بنوع خاص، لان قسما من اليساريين، يعتبر الطائفة او الطائفية كايديولوجية محضة. نريد فصل الصراع الطبقي

عن النزاع بين الطوائف الدينية. لقد حاول الفاشيون نشر ايديولوجية تقول بان الموارد والرأسمالية شيء واحد، بينما العوارنة هم اكثر الذين يعانون من الرأسمالية. لقد كانت هذه محاولة الفاشية اللبنانية، التي ارادت الربط بين الامتيازات الاقتصادية للبورجوازية، وامتيازات الموارد السياسية. نحن لا نريد التورط في هذا الغموض والخلط. لقد افرزت الحرب وضعاً متناقضاً. الطوائف الدينية اصبحت اكثر تزمناً وتطرفاً من اي وقت مضى، كما زاد الشعور الطائفي وبرز بقوة اكثر بسبب الحرب. ومن مآسي هذه الحرب عودة القوة والنفوذ للطوائف. فقد انتعش النظام القديم من جديد، سابقاً عبر الهجرة التي اضعفت قوى المعارضة، واليوم ايضا عبر الهجرة التي سببتها الحرب. فالقائض من القوى العاملة الذي كان يستطيع احداث ثورة حقيقية اضمحل بسبب الهجرة. لا نتطرق الآن الى المسائل الهادفة الى تغيير النظام الاقتصادي، لان الهدف الاول والاهم الآن، هو الحفاظ على وحدة البلد. مشكلة الاقليات دائماً تصبح اكثر خطورة في لبنان كما في الشرق كله. ٢٥ سنة مما يقال له "تحديثاً" - وهذا لا يعني هنا الا رفض وجود الاقليات بكل بساطة - ماذا جلبت معها؟ فقط القبول بالتنوع وتثبيته، والخصوصيات الثقافية والدينية التي يمكن ان تحقق الوحدة. الوحدة العربية فشلت، لان هذه الحقيقة لم تؤخذ بعين الاعتبار، كما استندت بكل بساطة محاولات التوحيد على ما يسمى بالاكثريّة. العروبة تستطيع ان تكون فقط ديمقراطية وعلمانية، والا لن تكون هناك اية عروبة. ولكن الاخطاء تستغلها الإمبريالية".

وترى حركة العمل الشيوعي في لبنان خصمها بالدرجة الاولى في البورجوازية: "البورجوازية المسلمة - وصائب سلام هو نموذج لها - تتحالف مع البورجوازية المسيحية. لقد كانت اول من اطلق شرارة الحرب من فوق. ولكن عند ما فشل صائب سلام، قام الجيش بالهجوم، ثم تبعه حزب الكتائب".

ومنذ ذلك الحين اصبح الخصم الرئيسي حزب الكتائب، وبالتالي القوّات اللبنانية:

"ان قسماً من الموارد شارك في السنوات الاخيرة قبل الحرب في الصراع من اجل القضايا الاجتماعية، وقد اصبحوا اكثر راديكالية من غيرهم. وهذا الامر بالذات كان السبب الرئيسي للمشروع الفاشي. يصف الكتائب انفسهم بالحزب "الاجتماعي". ولكن مفهومهم الاجتماعي يضلّل. فعند ما كان الامر يتعلق بتغيير اقتصادي فعلي او بتساؤلات اجتماعية حاسمة، كانوا يقفون دائماً الى جانب ارباب العمل. تاريخياً عرفوا دائماً بعصابات البورجوازية المسلحة. ودعم المسيحيين لهم ليس واضحاً اطلاقاً. فالكتائب تسيطر اليوم على مناطق لا تمتلك فيها اية اكثرية. هذا الحزب قوي في المتن، وفي اجزاء من كسروان وفي شرق بيروت. ولكنه ضعيف نوعاً في جبيل، والبترون،

والشمال. وكذلك معظم نواب المسيحيين، هم ضد هذا الحزب. واستراتيجيتنا نحن تهدف الى العمل مع كل القوى غير الفاشية بين المسيحيين".

فقدت منظمة العمل الشيوعي في لبنان بعد مرور سنتين من الحرب عددا من انصارها. وقد وصف احد الاعضاء السابقين اسباب ذلك بقوله:

"ان معظم المثقفين اليساريين هم اليوم في حالة اضطراب تاما، ودون وطن سياسي. فهم ليسوا على استعداد لقبول مواقف هذا الفريق او ذاك. وليسوا في وضع يسمح لهم باتخاذ موقف خاص بهم. آراؤهم تتأرجح بين التهكم والحزن. قلة منهم فقط مازالت تؤمن "بأيتوبيا" دولة علمانية موحدة، ومعظمهم موجود خارج البلاد.

في السبعينات جادلنا وتخاصمنا ونظرنا وكتبنا كثيرا. جريدة "الحرية" تحولت الى برنامج عمل بالغ الاهمية. لقد اغتبطنا كثيرا، خاصة بمفهوم تنظيم الجماهير، أي العمل على مستوى القاعدة. لقد توصلنا الى تحديد كلمة "جمهور" ومدلولها. كانت كلمة "جمهور" تدل على الفقراء، والمسلمين، والفلسطينيين و"الشارع"، السخ... كان كل منا يندفع بشغف الى عمل المنظمة في ضواحي بيروت. لقد كان ذلك امرا سارا. كل مثقف كان يتحول بلحمة بصر الى "زعيم في الحي". كان يشعر بفرح. الاناس العاديون كانوا بالطبع سعداء جدا، عند ما يرون احد "المثقفين" يهتم بهم. وفي الوقت ذاته كان الانسان يحاول تهذيب وصقل حسنه التقدمي. اما ما لم يؤخذ بعين الاعتبار، عمدا او سهوا، فكان الطابع الاساسي الطائفي للقاعدة، والتي كان ينبغي الاهتمام بها والتركيز عليها. بصورة رئيسية، كان الهاربون او النازحون الى الضواحي من الشيعة الذين لم يتمكنوا من الانتماء في اماكن سكنهم الجديدة الى أي زعيم تقليدي. لذلك قبلوا بافكارنا وتوجهاتنا. وهناك عدد كبير من رفاقي السابقين مازالوا يتمسكون بذلك. ولكنهم يكذبون على انفسهم. اما البعض الآخر فقد انخرط دون ازعاج في صراع طائفية جديدة يسارية بائسة. المثل التعيس عن الخبث الفكري، هو بنوع خاص نظرية "الطائفة كطبقة". فالذين اطلقوها كانوا يدركون ابعادها جيدا. لقد طبقوا مفهوم "المنهجية" على التحليل. وهكذا تم الوصول في نهاية المطاف الى اعتماد الموقف السخيف القائل بان الغاية تبرر الوسيلة. مع اعتماد مبدأ "الطائفة كطبقة" اعطي الضوء الاخضر لضمير كل انسان كي يصبح طائفيا دون تحفظ او اضطراب. في انتهاجه مثل هذا المسلك، فقد اليسار في هذا البلد مصداقيته تماما. وزادت في حدة هذا الاتجاه المرحلة الزمنية التي ارتبط اليسار خلالها بالمنظمات الفلسطينية. يوما كان التهكم البراغماتي متقدما جدا وساريا الى حد بعيد. فمهما كان السبب، كان يرحب بكل طرف يقدم لنا العون والمساعدة، وبالتالي كان يستغلنا كالسذج. وبالنتيجة لم تحصل الثورة الاجتماعية في الوقت الملائم والمكان الملائم، ولن تحصل اطلاقا".

تسمح مثل هذه التصوّرات بإدراك الواقع، وتفسّر كيف ان عددا من كوادرات الاحزاب والمنظمات اليسارية لم يسلك طريق الهجرة الداخلية او الخارجية فقط، بل التحق بعضها بالمنظمات المسيحية المناضلة. هذه المنظمات لم تتوفق اطلاقا في الوصول الى مفهوم موحد والى اهداف سياسية مشتركة. فالخلافات حول الاهداف وتصوّرات النظام السياسي تبرز ايضا داخل هذه المنظمات.

"توجد بيننا جماعات تريد فعلا تقسيم البلاد، او السيطرة من جديد على لبنان. يقولون بكل بساطة: اذا لم نستطع السيطرة على لبنان كله، كما نتصور، فالأفضل الانكفاء بقسم منه. خاصة هناك عدد من زعماء ميليشيات الشباب فقد بكل بساطة الايمان بإمكانية التعايش مع المسلمين. وهناك جماعات تريد دولة فدرالية، وعلى رأسها سلطة مركزية ضعيفة بقدر المستطاع. وهكذا تتمكن كل طائفة من العيش كما يروق لها، دون الحاجة الى نشوب الخلافات ولأسباب اقتصادية لا معنى لها. وهناك ايضا فئة مقتنعة بان لا إمكانية لأي حل دون السوريين. ولذا ينبغي البحث عن حل بالتفاهم معهم. بينما انصار التقسيم يوجهون نظرهم نحو اسرائيل وان يحذر بارز. وهناك ايضا من يطالب بدولة علمانية موحدة. كما ان عدد المطالبين بالعودة الى الميثاق الوطني ليس قليلا، ولكن مع بعض الضمانات الإضافية للمسيحيين. وهكذا يلاحظ ان المفاهيم والطموحات تختلف عن بعضها كثيرا".

هذا ما عبّر عنه احد معاوني القيايين المقربين من كميل شمعون. ولكن ماهو الجامع المشترك بين المسيحيين المناضلين؟

"ان ما يوحد بينهم هو فقط ارادة ثابتة، ترفض سيطرة أي انسان عليهم، وهذه الارادة هي ثابتة جدا".

ان ارادة الاستقلال الذاتي تعكس بنوع خاص الشعور بالتهديد من قبل "الاسلام" والخوف من الوقوع تحت سيطرته. فكيف يرى المسيحيون المناضلون الاسلام اذا؟

"الاسلام ليس، بالدرجة الاولى، دينا. انه امبراطورية تأسست على ايديولوجية دينية، امبراطورية ذات طابع توتاليتاري. منذ الولادة، يلحق المسلم باستمرار، بان الامة الاسلامية، هي خير امة خلقها الله، ودعاها للسيطرة على كل الديانات الاخرى. تشبيه الاسلام بالعنصرية امر طبيعي، لا حاجة الى البرهان عليه. كل شيء غير مسلم هو دنى، لذلك لا يجوز للمسلمين ان يطيعوا، او ان يخضعوا لغير المسلمين. فالامبراطور يأتمر باوامره فقط، اذا كان مسلما. والعالم يتكوّن فقط من "ارض الاسلام" حيث يسود السلام، ومن "ارض الحرب" حيث ينبغي اجراء الحرب حتى ينتصر الاسلام. عند ما يقوى المسلم "كفاية"، يصبح ملزما دينيا بتسلم السلطة. هناك وقف لاطلاق النار مع

غير المسلمين، طالما لم يقو المسلمون كفاية. ولكن لا يوجد اي سلام دائم مع غير المسلمين. السياسة الاسلامية لم تقم اطلاقا على التبشير، بل على استبعاد الآخرين. كانوا يريدون ان يعيشوا من الجزية التي يفرضونها على غير المؤمنين المستعبدين. في عهد الامويين لم يكن سوى ٢٠٪ من المسلمين في سوريا. "ارتدت" الاكثرية الى الاسلام لاحقا بسبب فرض الجزية والتمييز الديني. فالذي اراد التحرر من ذلك اعلن اسلامه. ان "وضع الذمة"، أي "نظام الحماية" لغير المؤمنين الخاضعين، هو شبيه بالنظام الذي تصوره هتلر، بالنسبة للشعوب السلافية التي وقعت تحت سيطرته. وبما ان الاسلام مغلف بقشور دينية، لذلك انخسف اقتصاديا، وثقافيا، وسياسيا. ان الانتفاضة ضد الحضارة الغربية التي تلاحظ اليوم لدى عدد كبير من المسلمين، تفسر الفجوة القائمة بين الظموح الى التعالي والسيطرة، وبين مركب النقص الواقعي بسبب الدونية والتخلف. لم يستطع المسلمون ان يتطوروا. اما اليهود فتمكنوا من ذلك وحافظوا على دينهم وثقافتهم. اليابانيون حققوا ذلك. والمسلمون عجزوا عنه. مسيحيو الشرق لم يدركوا هذه المشكلة، لانهم ظلوا، عبر الدين والتقليد الثقافي، في ارتباط مع الغرب الذي تنبثق منه دينامية التحديث او العصرية. وكذلك في لبنان لم يكن بالامكان تجاوز هذه التناقضات رغم الآمال التي عقدت في سبيل ذلك منذ وقت طويل. والحرب هي خير دليل على ذلك. اليوم يستطيع نظام فدرالي فقط ايجاد حل لمشاكل التعايش. لكل انسان الحق في ان يعيش حيثما هو، ويبقى مثلما هو، ويحتفظ بثقافته ودينه. ولكن على المسيحيين ان يكونوا في مركز القوة، وان يحافظوا عليه، وذلك تحسبا لدرء التهديد الدائم لاختضاعهم او لاستبعادهم".

هذا هو تفسير احد المتقنين من طائفة الروم الارثوذكس. وقد كان قبل الحرب خلال سنوات طويلة ملتزما يساريا. واليوم ينظر اليه، كمفكر سياسي، بتقدير بارز في المنظمات المسيحية المناضلة.

ويشترك في هذا الراي ايضا احد اعضاء المكتب السياسي في حزب الكتائب، اذ يقول:

"في معظم البلدان العربية الاخرى اراد المسيحيون تجاوز هذه المشكلة عبر التزامهم وانخراطهم في حركات ومنظمات ايدولوجية علمانية، خاصة في اطار القومية العربية. ارادوا قيام امة عربية حديثة. ولكن العلمانية التي طالبوا بها رفضها الاسلام. من المحتمل ان المسيحيين اللبنانيين استدركوا الامر وتراجعوا في الوقت المناسب عن موقفهم ازاء القومية العربية. اما المسيحيون في البلدان الاخرى وهذا ما نعتقده نحن اليوم، مازالوا يتمسكون بآمال واهية جنونية. ان ما حصل بالقومية العربية، يتكرر اليوم ايضا بالنسبة للايديولوجيات الاشتراكية في الشرق. ان الاشتراكيين الحقيقيين

الوحيدين هم من اصل مسيحي. والاهم من ذلك، وهذا ما يراه المفكرون، والعقائديون، هو التطور الديمغرافي للمسيحية الشرقية. في كل مكان يتدنى عدد المسيحيين، خاصة عبر الهجرة من منطقة الجزيرة في سوريا. كان تسعون بالمائة من سكانها مسيحيين. ولم يبق منهم اليوم سوى اربعين بالمائة فقط. ان عددا كبيرا من مسيحي العراق ومؤسساتهم الدينية والرهبانية ابتاعوا اراض لهم في منطقة كسروان واقاموا فيها. الاصولية الاسلامية تفرض تطورا اخذ يبرز حتى قبل استقوائها. حتى في بلد يعتبر شكليا علمانيا تماما، مثل تركيا، عاد الاسلام ليتصدر الواجهة. وكذلك في صفوف الحزب الشيوعي التركي يجري الحديث اليوم عن احترام الاسلام والعودة إليه. وهكذا تبدو العلامات وكأنها ظاهرة فقط. فعلى المسيحيين اللبنانيين استخراج العبر من كل ذلك. دساتير الدول العربية تضلل. دستوريا مازالت السيطرة الاسلامية قائمة. ولا يجوز لنا العيش في عالم الأوهام. من الغرب لا يجري اطلاقا انتظار اية مساعدة. فعند ما يريد المسيحيون في لبنان العيش بحرية، عليهم قبل كل شيء الاعتماد على انفسهم".

وقد حدّد كميل شمعون، رئيس الجمهورية سابقا، الخطر السياسي الواقعي بالنسبة للمسيحيين، خاصة في:

"التوجه الخارجي التام لدى المسلمين اللبنانيين. فمباشرة بعد حصولنا على الاستقلال أخذوا يتطلعون الى سوريا، ثم الى عبد الناصر، فالتزموا سياسته بصورة عمياء. المسلمون اللبنانيون يصنفون تارة في خانة "اليسار"، وطورا في خانة "اليمن"، وفقا للاتجاه القائم لدى العرب. واليوم يبرز الخطر في خضوعهم للسياسة السورية".

اما شارل حلو، وهو ايضا رئيس جمهورية سابق، فقد وصف ذلك بأسلوب ادبي:

"المسلمون اللبنانيون هم مثل الوزّ الداجن لدى "لافونتان"، يشعرون بارتياح تام. ولكن عند ما يرون الوزّ البرّي يطير، عندئذ يغمرهم الاضطراب".

لم يكن لشمعون، وكذلك لزعماء مسيحيين اخرين، أي رأي ايجابي حول تأثير المسلمين سياسيا:

"ان دورهم اليوم شبه معدم، او بافضل الاحوال، كبير بقدر ما يسمح به السوريون. لا يحق لهم التعبير عن أي أمر. نعم، يترحمون على الايام الجميلة الماضية، وهذا صحيح. ولكن لماذا لا يقولون ذلك عاليا ويكل وضوح؟ يهمسون بذلك في مجالسهم الخاصة، ويعبرون سرا عن خيبتهم. يقولون شيئا، ولا يفعلون. واذا اردوا فعل شيء، فلا يستطيعون. لا هم يخافون. نعم يخافون، ولذلك لا يستطيع إلا عذرهم".

فؤاد الشمالي، رئيس حركة التنظيم سابقا، عبر عن ذلك بطراوة اكثر:

"لا يوجد اسلام في لبنان. يوجد مسلمون فقط. لقد رفض عدد كبير منهم منذ زمن طويل التعصب القائم في البلدان المجاورة. لقد تلبننوا. هناك بين صفوف السنة خاصة انبعاث وطني لبناني لم يعرف سابقا على الإطلاق".

وسمير جعجع، قائد القوات اللبنانية، شدّد بنوع خاص على مشكلة امن المسيحيين على المدى الطويل:

"انا مقتنع من ان معظم المسلمين اليوم يريدون التعايش معنا بسلام. ولكن كيف كان الحال عام ١٩٧٥؟ بماذا تفكر دائما اكثرية المسلمين؟ من يضمن لنا ان ميليشياتهم لن تقصف مناطقنا غدا من جديد، عند ما يأمرهم السوريون بذلك؟ لا يمكننا بعد القبول بأي نظام سياسي يسمح بوقوع نزاع دموي كل خمسة عشر سنة، او كل عشرين سنة، قبل ان يعاد تنظيم التعايش".

اما الاحزاب والمنظمات اليسارية فلا تعطي الا أهمية محدودة فقط للزعماء المسيحيين المناضلين:

"لقد لعبوا دورا عند ما حاول الفلسطينيون عام ١٩٧٥ اطلاق الشعارات القائلة، بان الدولة اللبنانية فاسدة تماما، والمسيحيين ضعفاء، وضريبة قاسية واحدة تكفي لكي يعلنوا استسلامهم. ولكن منذ ذلك الحين، لم يفعلوا شيئا. فقد استمروا في حالة اضطراب بسبب فشل توقعاتهم ومظاهر الطائفية، خاصة منذ ان برز التوجه الطائفي الشيعي ضدهم. هناك عدد كبير من المسيحيين كانوا سابقا يساريين وانسحبوا. احد اقربائي كان شيوعيا. ترك الحزب الشيوعي عام ١٩٧٥، وذلك لامتناعه من المظاهرات الحزبية والجماهيرية التي كانت تبدأ باسم الشعارات اليسارية. ولكنها كانت تنتهي بالآيات القرآنية. اما اليوم فلا وجود لآيات قرآنية بعد، لان الناس الذين كانوا يريدون سماعها، غابوا او ابتعدوا. والمظاهرات الجماهيرية اليسارية لم يعد لها أي وجود. والذي مازال يؤخذ اليوم بعين الاعتبار لدى الجانب الآخر، هو الطرف الشيعي والدرزي، وذلك طالما يتلقى الدعم السوري".

تبرز تصورات الخصوم والحلفاء في المقابلات التي اجريت مع مسؤولين في المنظمات الفلسطينية. فهي تشير الى تعدد مماثل كما هي الحال لدى معظم الفعاليات اللبنانية. لقد شدّد معظم الفلسطينيين على أن لا علاقة لهم اطلاقا وأساسا بالنزاع بين الطوائف الدينية في لبنان، لأنهم، هم بالذات، تجاوزوا الطائفية:

"بالنسبة لنا كفلسطينيين، لا يشكل الدين لنا اية مشكلة. حوالي ٢٠٪ من الفلسطينيين هم من المسيحيين، ولربما اكثر. وهذا أمر لا يعنينا، ان كنا مؤمنين او غير مؤمنين، مسلمين او مسيحيين. في كل حال، نحن ننتمي الى حضارة هي عربية واسلامية.

ونحن بالدرجة الاولى فلسطينيون. فعند ما تهاجمنا فئة معينة هنا في لبنان، فهذا امر لا يتعلق بنا. انها مشكلتهم".

وباستثناء هذا الموقف الاساسي يعتبر القياديون الفلسطينيون الموارد اهم خصم لهم. في هذا المجال تحدث ايضا محمود لَبْدِي، الناطق الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية:

"الموارد؟ من يهتم بهم؟ قريباً لن يعد احد يتحدث عنهم. الاسماء الفرنسية لا تجعل الناس اوروبيين. ان من يريد منهم ان يصبح اوروبيا، عليه ان يهاجر. وقد هاجر عدد كبير منهم. في المنطقة الشرقية لا يوجد بعد اكثر من اربعمائة الف ماروني. وهؤلاء لا يشكلون شيئا بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية، سوى العوية في جيبه الغرب. لن يلعبوا فيما بعد اي دور قيادي، لا في الشرق الاوسط عامة ولا في لبنان. انهم يخسرون ويغادرون هذا البلد. التاريخ سيدوسهم. من يهتم اليوم بعد بالموارد؟ لا احد اطلاقاً، حتى ولا هم بالذات. في منطقة الاشرفية، لا يوجد اكثر من ٢٠٪ من الناس الذين يؤيدونهم. يوجد هنا في المنطقة الغربية مسيحيون اكثر مما يوجد هناك. اللبنانيون كانوا يعتمدون دائما على شيء اكبر منهم. لذلك كانوا يعتبرون انفسهم اذكى الناس في الشرق الاوسط. فهم يعتقدون بانهم من اصل فينيقي، وهم اذكى الناس في كل مكان. كم كانوا أغبياء قليلي الذكاء! لقد تحولوا الى لعبة بايدي الاسرائيليين، الى دمي. واسرائيل لن تسمح لهم بالتصرف عكس ما تريد".

اما موقفهم من المسلمين اللبنانيين فقد رآه القياديون الفلسطينيون بواقعية السلطة السياسية:

"نحن نعرف طبيعياً بأن السنة غير راضين عنا، كما كانوا سابقاً. ولكن لا نستطيع ايضا السماح لهم بالتآمر ضدنا. ولا يمكننا ان نسمح لهم بعقد سلم مع الجبهة اللبنانية بمعزل عنا. وكذلك ايضا لن نسمح لهم بالتحالف مع سوريا من وراء ظهورنا. هذا ما سنمنعه، مثلما منعنا بالعنف منظمة الصاعقة عن التآمر مع السوريين ضدنا. لقد اضطررنا الى القبول بتنسيق معين مع سوريا. ولكن سندافع عن انفسنا بكل ما لدينا من قوى وامكانيات".

وعن العلاقات الفلسطينية الشيعية، قال عصام السرطاوي:

"كان الشيعة منذ امد طويل ضحايا التخلف الاجتماعي في الجنوب. وقد حصل هذا التخلف، لان اسرائيل لم ترد ابداء حصول اي مشروع تنموي في الجنوب. وقد تردى هذا الوضع كثيراً، وتحول من سييء الى اسوأ، بعد ما اصبح الجنوب ساحة حرب كلاسيكية. هذا الشعور المعادي للفلسطينيين والملموس بدون شك لدى الشيعة هو امر

طبيعي. في النهاية انهم يعانون الأمرين بسبب وجودنا في الجنوب.

ان السياسة بالنسبة للناس العاديين، هي ما يجعل حياتهم اسهل واصعب. ان ما سمح الشيعة بحصوله بهم، هو رضوخ شبيه بالارادة الطيبة لدى القديسين. لقد طردوا من قراهم، ثم عادوا اليها، ثم طردوا من جديد. ان من ينظر الى مدينة صور - وقد اصبحت مدينة اشباح حقا - او الى مدينة النبطية المدمرة، عندئذ لن يندهش اطلاقا من الشعور العدائي الذي يكنه لنا الشيعة ولكن يمكن ان يتطور ويتبدل هذا الشعور لدى الشيعة، اذ لا خيار لهم. عليهم ان يتعاونوا معنا. من الواضح ايضا، انه على المدى المنظور - وطالما استمرت الحرب - فلا يمكن ان يتحسن مصير الشيعة فعليا. وكذلك لا يمكن ان لا تكون هناك جبهات، كي لا يحارب عليها".

بالنسبة لليसार اللبناني هناك ارتباط وثيق بينه وبين الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية. ويقوم هذا الارتباط على عناصر ايدولوجية مهمة. فمواقف هاتين الجبهتين لا تختلف اطلاقا عن مواقف المنظمات اللبنانية اليسارية. ولكن حركة فتح لا تعتبر اليسار الا وسيلة. اما اليسار اللبناني والفلسطيني، فقد انتهج اسلوبا خاصا لتقييم الامور وتحليلها.

"من المؤكد انه حصل خطأ في تحليل الوضع اللبناني. يمكن ادراك طبيعة هذا البلد من منظار التحليل الطبيعي البدائي. فتضامن الطوائف الدينية كمجموعات ذات هوية لم نعطه قيمته الحقيقية".

وقد عبر مسؤول آخر من حركة فتح عن هذا الوضع بطريقة اقوى واشد، فقال:

"انه كلام فارغ، اين هو الصراع الطبقي في لبنان؟ زملائي الاكثر اهتماما بالايديولوجية يثيرون غالبا السخط لدي. احدهم كان لسنوات طويلة ماركسيا في "هايد لبرغ"، ولكنه الآن يصيح "الله اكبر"، ويبشر بالقومية الاسلامية. وقد ولد هذا الانسان مسيحيا. لا يمكن اعطاء اية اهمية جدية لهؤلاء الاشخاص. لقد قتل عضو في اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي ودفن. وقد جاء احد الشيوخ وتلا كل الآيات القرآنية الممكنة عن الكفار والاشرار. وقد كان ذلك اثناء دفن احد هؤلاء الكفرة. أو أنه لم يكن كافرا؟. اليساريون والعقاديون في هذه المنطقة من العالم، هم امر مدهش حقا. الميليشيات اليسارية ترتبط عسكرياً مائة بالمائة بنا، من حيث السلاح والتدريب والامدادات. ولكن، عدا ذلك، لا اهمية لها تذكر. فمنظمة العمل الشيوعي في لبنان تحولت تماما الى ذات الخط الذي يعتمد عليه الحزب الشيوعي الموالي لموسكو. لماذا اذا يشكلان منظمين مختلفتين؟ هذا هو لبنان. هل تعلم ما هو الافضل لهذه الدولة؟ ان يكون ريمون اده رئيسا للجمهورية وياسر عرفات رئيسا للحكومة. عندئذ يسود الهدوء والنظام، ويسير

كل شيء على ما يرام".

ان رؤيا القادة السياسيين والناطقين باسم مختلف اطراف النزاع المناضلين، تتضمن عددا من الامور المشتركة. فالتصورات الذاتية تنهار عادة بسرعة. والذين استجوبوا يفترضون مسبقا بان السائل يعرفهم، وانهم نظرا لتأكدهم من هويتهم التنظيمية لا يرون اية حاجة اطلاقا للتحدث عنها بالتفصيل. وفي الحقيقة، لوحظ ان المنظمات الصغيرة تبذل جهودا اكثر للتعبير عن تصوراتها الذاتية وللبرهان على سلامة وصحة ايديولوجيتها الخاصة. اما الخصم الرئيسي فكان يهاجم كلاميا بقساوة، وغالبا يحترق وكأنه من المستوى الأدنى. بالنسبة الى الحلفاء، كان ينظر اليهم غالبا ببعض الازدراء والتكابر. فيوصفون بذوي الارادات الطيبة. ولكن لا يمكن الركون اليهم بجدية ومصداقية. احيانا تكاثر التساؤل حول مدى تمثيل المنظمات المعادية للطوائف التي تنتمي اليها. حاول البعض البحث عن حليف ممكن لدى الطرف الآخر. فالتشكيك بعدم تمثيل الاحزاب المقاتلة، قد يكون احيانا واقعيًا، وذلك لدى مختلف الفئات. ان البحث عن حليف غير مناضل او ضعيف النضال لدى الفريق الآخر، يشكل قبولا غير مباشر، بأن أيًا من الفئات المتصارعة لا تأمل جدًا باحراز أي انتصار. اضافة الى ذلك، تشير بعض التصريحات الى رضى وارتياح كل فريق من فرقاء النزاع عن انه لن يهزم ولن يباد. فالبقاء على قيد الحياة والتمسك بمنطقة جغرافية، وان كانت صغيرة، تعتبر مؤشرات نصر. ويبرز هذا الامر بوضوح لان كل فريق يدرك تماما الحسابات الخاطئة لدى الفريق الآخر. وبذلك كان يستطيع تجنب كل هزيمة ذاتية ممكنة. وهذا ما كشفت عنه بعض التصريحات المميزة.

عن هذا الموضوع تحدث عصام السرطاوي:

"سمحت الاحداث بعرض عدد من الحسابات الخاطئة لدى الفعاليات السياسية. فالزعماء السياسيون المسيحيون والمسلمون ايدوا حزب الكتائب في محاولته، لطرده الفلسطينيين خارج لبنان. وكانت النتيجة ان المسيحيين لا يسيطرون الا على منطقة صغيرة. اما القوى الاسلامية الرجعية، فموجودة ولكن جرى تعطيل نفوذها السياسي تماما..."

"كيف تم الوصول الى هذه الحسابات الخاطئة؟ هذا الامر لم يتضح لدي بعد. كنا عام ١٩٧٤ قوة عسكرية قوية في البلاد. وكانت المؤسسات اللبنانية ضعيفة. لم تتمكن من مراقبتنا. حاول آنذاك الفلسطينيون توسيع حلقة نفوذهم. في حينها لم اتصور اطلاقا ان اللبنانيين سيكونون مجانين الى هذا الحد كي يجرؤوا على مهاجمتنا. لقد أشعلوا النار في البيت الذي يملكونه. ولكن نحن لم نكن نريد آنذاك نفوذاً أكثر أو مناطق أكبر مما لدينا. يكمن التفسير الصحيح في ان القيادة اللبنانية، من المسيحيين والمسلمين، لم

تكن عقلانية، ولا منطقية مع نفسها. لم يكن من السهل التوقع بان تلك القيادة لم تكن متعقلة. لم تشفق، لا على الوطن، ولا على سكانه".

وتحدث فؤاد الشمالي عن تصورات الفريق المعادي:

"كان الفلسطينيون متاكدين تماما من النصر. وكانوا يرددون غالبا على مسامعنا في احاديثنا الشخصية معهم "نحن نعرفكم انتم ايها الموارنة". انتم تعودتم على الحياة الطبية والعيش الهنيء. انتم لستم مستعدين للقتال بعد. عند ما نريد، نستطيع في اي وقت القضاء عليكم. هذا كان موقف الفلسطينيين الذين هربوا من الاردن عام ١٩٧٠. ولكن لم نقبل بالرضوخ اطلاقا امامهم. وعند ما اندلعت الحرب عام ١٩٧٥، جاءت هناك مفاجأة كبيرة. اكتشف المسيحيون بانهم يستطيعون ان يحاربوا. والحاسم في هذا الامر كانت ارادتهم في البقاء على قيد الحياة، وليس في أي مكان في الخارج، بل هنا، وليس كافراد، بل كجماعة. فالجماعة التي وجهت ضرباتها لنا كانت تغل نفسها بالأمل أيضا بان هؤلاء التجار سيهربون امامهم بكل بساطة. ولكن خابت امالهم".

ميشال ابو جوده، رئيس تحرير جريدة "النهار"، حكم على الفريقين المشاركين في اندلاع الحرب:

"ان ما أثر سلبيا على لبنان، هو المستوى غير العادي للجهل المتبادل بين المجموعات المختلفة. الموارنة لا يعرفون الفلسطينيين. سركيس وبطرس لم يكن لديهما اية معلومات عن الفلسطينيين، وبالتالي آل الجميل. وكذلك لا ريمون اده ولا غسان التويني. الفلسطينيون ايضا لا يعرفون الموارنة. ان مؤسسة الدراسات الفلسطينية، انشأت مؤخرا في ايار عام ١٩٧٥، قسما خاصا بلبنان. لم يهتموا اطلاقا، وعن قصد، بلبنان. لم يرغبوا ايضا برؤية الواقع الفلسطيني. اخيرا الفلسطينيون، والاسرائليون، لا يعرفون بعضهم ايضا. كل واحد يجهل الآخر، ويتصور الآخر الذي يجهله، وكأنه الشيطان الذي يلاحقه. وهكذا نشأت حرب رهيبة مؤلمة".

اما قائمة الامثلة فيمكن ان تكون طويلة. التصورات الخاطئة لم تحصل فقط عند اندلاع الحرب، بل ايضا خلال مساره. حصلت حسابات لبنانية خاطئة. في عام ١٩٧٦، اعتقد كمال جنبلاط بانه يستطيع الانتصار على الموارنة. وكذلك عام ١٩٨٣ اعتقدت القوات اللبنانية بانها تستطيع الانتصار على الدروز. وحصلت ايضا حسابات خاطئة لدى الفعاليات الخارجية. لقد قلل السوريون من اهمية الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين. كذلك لم يتوقع الاسرائيليون قوة الارادة في سبيل المقاومة لدى الشيعة.

لقد اخطأوا الحسابات ككل الذين قاموا بأي هجوم. ويعود ذلك الى ما اشار اليه

ميشال ابوجوده اعلاه، أي الى الجهل الذي أدى الى ضعف تقييم الخصم. لم يقدر بنوع خاص حزم الذين شعروا بتهديد وجودهم - سواء كان ذلك عن حق او عن خطأ، اذ لا تأثير له على النتيجة - لقد استماتوا في مقاومتهم. ولكن، كما اشار السرطاوي، حصلت تلك الهجومات بالاستناد الى حسابات سيئة، وغير عقلانية، ولكنها استهدفت تثبيت الوجود. فكل فئة هوجمت، كانت تدرك ان انهزامها يعني نهايتها كمجموعة.

لقد دل هذا البحث على ان معظم اطراف النزاع شعروا بتهديد وجودهم. الا ان مرارة حرب لبنان واستمرارها لا يمكن تفسيرهما فقط بالاستناد الى هذه التصورات.

٥ - تسوية او انتصار؟

كيف يرى السياسيون اللبنانيون وزعماء اطراف النزاع المخرج الممكن للحرب؟ في الاجوبة على هذا السؤال تختلط التصريحات حول ما يمكن التمسك به بطريقة يستحيل تقريبا الجمع بينها وبين ما يعتبره المجيب امرا مستحبا او مرغوبا به. يسيطر المعيار القياسي الى حد ما على التشخيص. بعض الذين طرح السؤال عليهم، ترددوا في قبول الفرق بين الاتجاهين.

بالنسبة لتحليل امكانيات تسوية النزاع، لا يشكل هذا الامر أية عقدة على الاطلاق. ففوة المقياس، خاصة المقاييس التي تركز عليها الفعاليات، تستطيع أن تعبر عن امكانيات اكثر من الدرس التحليلي المتحفظ للواقع. هناك في مجال النزاعات قوة واقعية للمقاييس. فلدى السياسيين اللبنانيين المسيحيين، والمسلمين، يبرز بوضوح الأمل بالعودة الى التسوية والتأكيد على امكانية التوصل الى هذه التسوية. في هذا الاطار يقول زعيم سني:

"لا بد من ايجاد تسوية، لان اي حل آخر غير ممكن. ينبغي انشاء لبنان لا يفترس القوي فيه الضعيف. هذا اللبنا ينبغي ان لا يعتقد بعد فيه بان 'ضعفه هو قوته'، بل يجب ان يكون لبنا قويا فعلاً. نحتاج الى جيش قوي، كي لا يبقى البلد ممزقا. اللبنانيون تعبوا من الحرب. وسيتكثرون من التفاهم".

وقد فسّر رئيس حكومة سابق، لماذا يؤمن بتسوية جديدة:

"كيف استطاعت الديمقراطية فرض نفسها في هذا البلد الصغير فقط من بلدان الشرق العربي؟ حصل ذلك بفضل تعدد الطوائف التي خلقت الحرية. ففي لبنان مسلم، أو مسيحي فقط، لن تكون الحرية أمراً أكيدا. في لبنان لا تشكل أية طائفة اكثرية بارزة،

بل يوجد توازن بينها. لا يستطيع المرء ان يعيش في هذا البلد دون ان يتعلم احترام الآخرين. فجوهر الديمقراطية لا يقوم فقط على اساس ان تقوم الاقلية بخدمة الاكثرية، بل وينوع خاص، على اساس احترام الاكثرية للأقلية.

"في مطلق الاحوال يبقى السنة متمسكين بمواقفهم كما كانوا قبل عام ١٩٧٥. لن يقبلوا بعدم المساواة، بل يريدون المساواة. ليسوا ضد المسيحيين، بل يريدون العيش معهم. هنا في لبنان لا يمكن ان تنشأ قبرص ثانية. انا متأكد جدا باننا سنصل قريبا الى حل جيد.

"بماذا يفكر اللبنانيون؟" كان يمكن معرفته منذ سنوات عند ما كان الجيش يدخل الى بعض المناطق، فنرى الناس يرقصون في الشوارع ترحيباً به. وكان بالامكان ايضاً ان نرى ذلك عند ما ذهب امين الجميل ورشيد كرامي الى صيدا المحررة. فرغم التهديد الخارجي، انا واثق جدا من مستقبل لبنان. هذا البلد سينهض من جديد، وسيصبح افضل مما كان سابقاً".

وقال وزير شيعي:

"ان التسوية ضرورية. فميثاق عام ١٩٤٣ اصبح قديماً. علينا ان نبني دولة، مثلما هي الحال في سويسرا. وهذا يعني ان اللامركزية ممكنة. والامر الوحيد الذي لا يمكن القبول به هو التقسيم".

وقال احد الوجهاء السنة:

"يصرّح بعض الناس علانية وبسرعة بان الميثاق الوطني قد مات. ويعود ذلك غالباً الى الجهل او الى الرغبة بالنار. النار بنظر الذين اعتقدوا ان اميل إده كان على صواب عام ١٩٤٣، او نار الذين لم يقبلوا بلبنان آنذاك. ولكن المشكلة لدى الجميع تكمن في الجهل. ماذا كان ميثاق ١٩٤٣؟ لقد كان تسوية لكل المسائل التي كانت جوهرية آنذاك. لقد كان ملائماً للوضع الذي كان قائماً عام ١٩٤٣.

الى ماذا نحتاج نحن اليوم؟ مبدئياً نحتاج الى ذات الشيء. نحتاج الى تسوية، الى صيغة للوحدة والتعاون. انا متفائل بان ذلك سيحصل".

وقال وزير شيعي سابق:

"اللبنانيون هم في الاساس محافظين. ان عدداً من الزعماء القدامى سيعود الى الواجهة، وسيعقد ميثاق جديد شبيه بميثاق عام ١٩٤٣. سيكون شبيهاً ولكن اكثر دقة وكمالاً. في ميثاق ١٩٤٣ اهتمت المشاكل الاجتماعية في البلاد تماماً. اكثرية اللبنانيين تريد العودة

الى لبنان القديم. ولكن لا نحتاج الى تكرار ذات الاخطاء".

ماهي العوائق التي يعتبرها الاعيان المسلمون تحول دون التوصل الى تسوية جديدة؟

سياسي سني يشير الى تزايد عدد السكان لدى المسلمين الذي يمكن ان يطرح مسألة التوازن جديا على المدى البعيد. ولكنه لا يعتقد باستحالة تجاوز هذه المشكلة:

"فالمسلمون ذوو الثقافة العالية، لا يختلفون عدديا عن المسيحيين. فقط الاختلافات مازالت قائمة في الطبقات. فعند ما يتلقون جميعا ذات التربية، عندئذ تتوقف الزيادة السكانية حتى لدى المسلمين".

ويرى وزير شيعي سابق المشكلة في وجود الميليشيات، ولكن:

"توجد فئات شابة حاربت ومازالت تحارب. معظمها دخل في صفوف الميليشيات، خاصة بين المسلمين، لاسباب مادية محضة. يمكن استيعاب عدد كبير منهم في الجيش. والآخرين يحتاجون الى عمل. وهكذا يمكن احلال السلام من جديد".

في عدد كبير من البلدان يقال: الذي يأخذ السلطة، هو الذي يدفع الثمن. هذا الكلام لا يطبق في لبنان. هنا يوجد نوع من العنق الديمقراطي. عام ١٩٤٥، انتخب البريطانيون "تشرشل" بعد احرازه النصر. وسيكون سهلا علينا نحن، الا ننتخب كل الذين لم ينتصروا. المسيحيون وقفوا كلهم في احداث عام ١٩٥٨ وراء الكتائب، ولكنهم لم يفكروا بعد عام ١٩٥٨ بتسليمهم السلطة في زمن السلم".

ويرى سياسي سني آخر حلّ المسألة الفلسطينية كشرط ضروري للسلام في لبنان. فطالما بقيت هذه المشكلة قائمة، سيبقى لبنان عرضة لتدخل القوى الخارجية المختلفة. الحل العادل والسليم يكمن في انشاء دولة فلسطينية:

"فعند ما تؤمن للفلسطينيين دولة خاصة بهم، حتى وان كانت صغيرة، عندئذ سيهتمون بحالهم، بدلا من الاهتمام بالثورة في كل المنطقة. هم يحتاجون الى جواز سفر، يحتاجون احتراما، يحتاجون وطنا، حتى وان لم يستطع الجميع العودة اليه. مع الزمن سيقبلون بان قسما من بلادهم لن يعود اليهم ابدا. يوغسلافيا تخلت وتنازلت عن مدينة "ترياست"، والمانيا عن "الازراس". والفلسطينيون ايضا سيتخلون عن قسم من فلسطين. عندئذ سيعرف لبنان الهدوء مجددا".

السياسيون المسيحيون الذين لا علاقة لهم باطراف النزاع المناضلين، عبّروا عن رؤيا مماثلة لرؤيا زملائهم المسلمين.

سليمان فرنجية، رئيس جمهورية سابق، اعتقد بإمكانية تعديل ميثاق عام ١٩٤٣: "هناك اكثرية كبيرة توافق على توزيع عدد النواب بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين والغاء النسبة الطائفية على مستوى الوظائف العالية".

هنري فرعون، احد رواد الميثاق الوطني، شدد فقط على "صيغة عام ١٩٤٣ مع بعض التعديلات الممكنة"، كوسيلة للخروج من الحرب. وكل ما تبقى بدا له غير واقعي:

"من المؤكد ان بعض المسيحيين المتطرفين، يفضلون التقسيم. ولكنهم يعرفون انه صعب التحقيق. لذلك لا يعني التهديد بالتقسيم شيئا آخر سوى البحث عن منطلق لاجراء مفاوضات ممكنة. العلمنة الشاملة، فكرة غبية، فكرة جنونية. من يستطيع بعد هذه الحرب فرض علمنة شاملة؟ ماذا سيحصل في مختلف قوانين وتقاليد الطوائف، خاصة في ما يتعلق بالزواج وبقانون الارث؟ ان قانون الاحوال الشخصية، هو بالنسبة لنا مثل الكائنات بالنسبة لسويسرا. وفي النهاية لا احد يتمنى التخلي عن ذلك، خاصة المسلمون. وعلمنة سياسية محضة هي غير مقبولة بالنسبة للمسيحيين. فهم يعرفون الوضع الاليم الذي يعاني منه ويرزح تحته ملايين الاقباط في مصر. فلن يقبلوا بذلك اطلاقا. لكل فريق اسبابه الكافية لرفض العلمنة. وهذا ما يشكل نوعا من التوازن. وطالما بقي الوضع على هذا الشكل، لن يبقى امامنا الا العودة الى التسوية فقط".

ان موظفا مارونيا في مركز عال، وذا نفوذ سياسي واسع، استنتج ذات الشيء:

"يمكن ميرر وجود هذا البلد على اساس تعددية طوائفه فقط. فاسس ميثاق ١٩٤٣ مازالت دائما الحل الافضل للتعايش. وأي حل آخر لن يصلح بكل بساطة. بعض التعديلات الصغيرة يمكن ان تكون ضرورية. ولكن لا توجد صيغ حقيقية بديلة ممكنة".

منوال يونس، نائب ماروني سابق، غالبا ما طرح اسمه كمرشح ممكن لرئاسة الجمهورية في المستقبل، طرح في المقابل إعادة نظر اساسية لنظام الحكم، ولكن على اساس ميثاق عام ١٩٤٣:

"الاعتراض الرئيسي للمسلمين ضد النظام القائم يكمن في جوهره، أي في منصب رئاسة الجمهورية. في الاساس يدور كل شيء حول هذا المنصب. ان كل المشاكل الممكنة التي يمكن ان يواجهها أي مسلم لبناني ينسبها الى ما يسمى بالامتيازات. ولكن المقصود بذلك هو هذا المنصب فقط. وبالمقابل يشدد المسيحيون على أن رئاسة الجمهورية ليست امتيازاً، بل ضماناً. ولكن الامر ليس امتيازاً ولا ضماناً. ليس امتيازاً، لان رئيس الجمهورية يستطيع اتخاذ القرار فقط بالاشتراك مع رئيس الحكومة.

وليس هذا المنصب ايضا ضماناً، لان رئيس الجمهورية يأتي غالباً كمرشح تسوية. ولا يستطيع تمثيل المصالح المسيحية، كما يفعل رئيس الحكومة بالنسبة لمصالح المسلمين. ان صيغة دستورية جديدة ينبغي ان تلغي ما يعتبره المسلمون امتيازاً، وبالتالي لا مساواة. ولكن ينبغي ايضا ان تقدم للمسيحيين ضماناً ضد عملية تزايد عدد السكان، واخضاعهم لنتائج. اني اقترح استبدال منصب رئاسة الجمهورية ومنصب رئيس الحكومة بمجلس رئاسي تتمثل فيه الطوائف الكبرى بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين. ينبغي ان يكون المجلس الرئاسي هذا مثل المجلس الفدرالي السويسري، جهازاً جماعياً، ولكن معززا بسلطات وصلاحيات اوسع. ان سلطة قوية مركزية تعكس التقاليد الشرقية. ورئاسة هذا المجلس تحصل مداورة. ولكن لا يعتبر هذا المنصب كمنصب رئيس الدولة كما هو الحال في سويسرا، بل كمنصب المسؤول عن تصريف اعمال اللجنة الجماعية، التي تمارس جماعياً المهام الرئاسية.

"بالنسبة للبرلمان، ارى امكانية اقامة نظام المجلسين، مجلس نواب دون حصص وتمثيل للمجموعات، ومجلس شيوخ يمثل بنية المجموعات التي يتألف منها هذا البلد. وهكذا يتم الغاء ما يسمى "بامتياز" الرئاسة، ولكن تعطى بالمقابل للمسيحيين ضمانات وامن عبر مؤسستين لا تخضعان لقانون الاكثرية، ولا تربطان بالمضاريات الدائمة حول التطورات الديمغرافية لصالح هذا الفريق او ذاك".

ومثل زملائهم المسلمين، كذلك يعتقد ايضا عدد من السياسيين المسيحيين بان تسوية لبنانية، يمكن التوصل اليها فقط، عند ما يتحرر لبنان من الضغط الدولي وتفصل قضيته عن قضية تسوية المسألة الفلسطينية. فلبنان يزرع تحت هذا الضغط منذ اكثر من عشرين سنة تقريباً، وفي هذا المجال، قال سياسي ماروني:

"يمكن بكل بساطة حل المشكلة الفلسطينية، عند ما تكون هناك دولة فلسطينية. عندئذ تتحلل الامور كما تحللت في لبنان عام ١٩٣٢. آنذاك منح اللبنانيون المغتربون الجنسية اللبنانية. فحصلوا على جوازات سفر واصبح لهم الحق بوطن - وبقوا مقيمين حيثما كانوا. من الواضح ان كل الفلسطينيين لا يريدون العودة الى فلسطين. الكثيرون منهم يريدون العيش في الخارج وهم يحملون جواز سفر فلسطيني. فعند ما تحل المشكلة الفلسطينية، عندئذ يستطيع عدد كبير من الفلسطينيين ان يصبحوا لبنانيين اذا ارادوا. ولماذا؟ مشكلة التوازن؟ يمكن الاتفاق حول ذلك بمجيء عدد من المسيحيين من الدول العربية، واعطائهم الجنسية. وهكذا يعود التوازن من جديد. وحول التوازن نستطيع ان نتفق بيننا نحن اللبنانيون، عند ما يتوقف السوريون او الاسرائيليون، او الفلسطينيون، او العراقيون او الاميريكيون عن البحث، كل حسب هواه، عن تسوية المشكلة الفلسطينية على ارضنا".

هذه الصورة الشاملة لا تترك أي مجال للشك. السياسيون المدنيون، يريدون تسوية - التسوية القديمة، أو تسوية معدلة قليلاً. المطالب عرضت، ولكن دون تحديد كبير. التفاصيل يمكن التفاوض حولها. ان مجال المفاوضات، كما يتضح من التصريحات العديدة، امر بارز. لقد اعلن احد المسلمين عن استعدادة "للقبول بالعودة عند الضرورة الى لبنان القديم مع كل اخطائه".

وسياسي مسيحي - وليس الوحيد اطلاقاً - طرح صيغة جديدة للمشاركة المدنية في السلطة، تتجاوب وتتوافق مع المطالب الاسلامية القديمة. لقد برزت هنا بوضوح كل سمات السياسيين التقليديين. فهم متسامحون، يؤمنون بالتعايش. يعبرون عن مصالح طوائفهم، دون مراوغة. ولكنهم يظهرون ايضا استعدادهم لتقديم تنازلات في سبيل الوصول الى تسوية ممكنة. اما نقاط الضعف لديهم، فيبرزونها، خاصة في الامور التي يشيرون اليها فقط، او التي لا يتطرقون اليها اطلاقاً. كيف يمكن تحرير البلاد من نزاع لا يشمل لبنان فقط، بل فرض عليه؟ تكمن قوة هؤلاء السياسيين، بنوع خاص، في تقييمهم الجذّي لتوازن القوى السياسية الداخلية، التي يستخلصون منها العبر العقلانية. اما حدود هذه القوة فتكمن في الخوف من التعبير عن مواقفهم وقناعاتهم حول السياسة الخارجية. السياسيون المسيحيون والمسلمون يتحدثون عن دولة فلسطينية في المستقبل، يمكن ان تزيل اسباب النزاع الاقليمي. ولكن لم يتساءل احد منهم غالباً، اذا كانت لسوريا او لاسرائيل او لكليهما اهداف تتجاوز حل المسألة الفلسطينية. فالخوف من مثل هذه المواقف هو ايضا عقلائي. فكلهم يدركون جيداً انهم سيتعرضون للخطر في حال اطلاق تصريحات او اتهامات واضحة المعالم حول المسائل الدولية، او الاقليمية، وذلك دون التمكن من تحقيق أي أمر. يتحدثون عن المسائل التي قد ترتبط جزئياً بتأثير نفوذهم، كالتسوية بين اللبنانيين، وينتظرون بالتالي ظروفًا أفضل. فإذا ما جاءت هذه الظروف، عندئذ تستطيع طبقة السياسيين القدامى لعب دور من جديد. وفي هذه الحال يبدون كامل استعدادهم. اما زعماء اطراف النزاع المناضلين، فيمثلون مواقف مختلفة تماماً حول امكانيات انتهاء النزاع. لقد حاربوا واستمروا في الحرب. وعليهم ان يبرهنوا بان الحرب كانت مفيدة لانصارهم، ان لم يكن عبر الوصول الى أي نصر، فعلى الأقل عبر الحصول على حسنات واضحة مقابل الوضع الذي كان قائماً قبل الحرب. وعن الانتصار تحدث المرابطون:

"ان وجود لبنان في هذه الحال هو خطأ. لقد نشأ هذا البلد نتيجة للحكم الاستعماري وتأميناً لسيطرة مسيحية عليه. ميثاق ١٩٤٣ وافق عليه الزعماء المسلمون في وقت لم تكن لديهم اية امكانية أخرى للحصول على شيء افضل. اليوم تبدلت موازين القوى.

وينبغي علينا استخلاص النتائج.

وبصورة أوضح تحدث صبحي الصالح، نائب المفتي:

"هذه الحرب التي اندلعت، لا يمكن ان تنتهي دون نتائج. نحن نقول اليوم: ينبغي ان يكون لبنان عربيا خالصا، دون، اذا، او، ولكن، الامتيازات المارونية والطائفية السياسية ينبغي الغاؤها. الحرب ستغير وجه البلد، والا سنستمر فيها. فاما حصول تغيير جذري، او استمرار الحرب".

ولكن اليوم، زال كل اثر او نفوذ للمرابطون، كما جرى اغتيال صبحي الصالح. اما الذين يستمرون في الحرب، فهم الاحزاب والميليشيات الكبيرة. ولكن زعماءهم، هم اكثر تحفظا. وليد جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، لم يعتقد بإمكانية تحقيق كل مطالب حزبه ومطالب الحركة الوطنية:

"لقد حاربنا منذ سنوات في سبيل وجودنا الذي كان مهددا. لدينا برنامج عمل نعتبره سليما. ولكن هناك شك في امكانية تنفيذ كل ما تضمنه.

"السنة لا يستطيعون القبول بمفهوم العلمنة الشاملة. كل القوميات والايديولوجيات في المنطقة، اطلقها افراد من الاقليات: عفلق كان مسيحيا، والادي كان درزيا. ولكن من خرج من السنة؟ محمد عبود والافغاني. لم يكونا قوميين عربيين، بل اسلاميين. الوحدة العربية فشلت، وهذا امر مؤسف.

"في لبنان التسوية ليست بعيدة والموارنة لن يكونوا غرباء عنها. أنا آمل بأن تكون التسوية الجديدة اكثر وضوحا من تسوية عام ١٩٤٣. ان تكريس الوظائف الكبرى في الدولة لطوائف معينة، لا يجوز أن يستمر. وسأعمل لالغاء ذلك. ويمكن للامور أن تكون أسهل لو تمكنت الفئات العاقلة لدى الموارنة أخذ مكان العسكريين. هناك بين المسيحيين عدد كبير من الناس الذين يريدون، على الأقل، بناء دولة حديثة وعصرية. أنا لا أرضى بإمكانية الوصول الى مصالح ظاهرية على المدى المنظور. فشروطها غير متوفرة، خاصة موافقة السوريين. هذه الموافقة غير موجودة. السوريون يطلبون ثمنا لذلك. وكل الفئات المختصة ليست على استعداد لدفع ثمن عال جدا".

نبيه برّي، رئيس حركة أمل، عدد أولويات حركته، كما يلي:

"أهم شيء هو أن نتوقف الحرب أولا. ثم سيكون بإمكاننا التحدث عن الإصلاحات السياسية. وينبغي أن نتحدث عنها. بعد كل ما حدث لا يمكن العودة مجددا الى ذات النظام الذي لم يحمنا من هذه الحرب.. ان ما يريده معظم اللبنانيين وما يحتاج اليه هذا البلد، هو الديمقراطية الطبيعية، أي ديمقراطية الأكثرية. ينبغي أن تعطى لكل مواطن

ذات الحقوق، وأن يُختار الأفضل لكل منصب او مركز ووظيفة، بقطع النظر عن انتمائه الديني. لا يمكننا الاكتفاء بشيء محدود. نستطيع أن نتحدث عن مرحلة انتقالية. ولكن الهدف ينبغي أن يبقى واضحاً: أي الديمقراطية، دون أية حدود أو حقوق استثنائية أو تعقيدات. فالجماعة التي تتحدث دائماً عن الضمانات، عليها أن تدرك بأن أفضل ضمانات لها هي الديمقراطية الحقيقية. وهذه الديمقراطية نطرحها نحن ونطالب بها".

عاصم قاتصو، رئيس حزب البعث الموالي لسوريا، طمح الى تعديل قانون الانتخابات:

"الانتخابات الديمقراطية في لبنان، هذا أفضل ما يمكن فعله. لقد استخدم العنف والاجرام، وماذا نتج عنهما؟ ينبغي استخدام السبل الديمقراطية. نحن نعارض الآن نظام الانتخابات القائم والذي تفقد فيه كل أصوات الأقليات. أنا أؤيد قانون انتخابات قائم على نسبة صحيحة. قد يعطي ذلك حظاً أكبراً للأحزاب. في النظام الراهن يسيطر الزعماء التقليديون. فيصل أرسلان، سينتخب، لان اسمه أرسلان، فقط. في بعلبك توجد قبيلة تستطيع دائماً أن تبني ٢٥٠٠ صوت. فإذا مات زعيمها يستطيع ابنه دائماً أن يبيع ٢٥٠٠ صوت. فإذا أردت الحصول على ٢٥٠٠ صوت، عليّ أن أعمل مدة عشر سنوات. ولكن مع قانون جديد للانتخابات، ومع تزايد النفوذ السوري في لبنان، سيصل عدد كاف من المتقدمين الى المجلس النيابي وسيبنون لبناناً حديثاً".

ان ما تبدو لنبيه بري وعاصم قاتصو كديمقراطية عادية تقوم على الاكثريّة، يعتبر من قبل زعماء المنظمات المسيحية المناضلة - وكذلك أيضاً من قبل الاعيان المسيحيين - تهديداً لهم، كي يتحولوا الى أقلية دائمة. وما تعتبره المنظمات المؤيدة لسوريا كنقوذ سوري خلاصي، يربهم أكثر فأكثر.

ان قاضيا رفيع المستوى، وقد كان مستشاراً نافذاً لدى بعض السياسيين المسيحيين، عبّر عن قلقه في هذا المجال:

"على افتراض أننا تحررنا من عوامل النزاع الخارجية، علينا أن نعيش دائماً مع المسلمين اللبنانيين. بين صفوفهم، توجد بكل تأكيد عناصر ديمقراطية حديثة. ولكن الاكثريّة تتألف بكل بساطة من المسلمين الذين من المفروض أن يبقوا مسلمين دينياً وسياسياً. سيكون من المستحيل أن يطلب منهم ألا يكونوا مسلمين. بالنسبة للمسلمين، يوجد فقط جماعة المؤمنين، وواجب إقامة دولة مسلمة عند ما يستطيعون. وهذا يعني انهم سيعيدون دائماً الكرة.

في الزمن الحاضر، يشك أصدقاؤنا السنة بإمكانية ذلك. بالإضافة الى ذلك طفح الكيل لديهم من اخوانهم الفلسطينيين والسوريين، وأخذوا يترحمون على لبنان القديم،

وتحولوا الى لبنانيين طيبين. ولكن الى متى؟ وبالمقابل يثق الشيعة بكل بساطة يعامل الزمن وبالتطور الديمغرافي. "سيصبح لبنان يوماً ما لنا وسيكون بلد الاسلام". وديمقراطية الاكثرية، هي بالنسبة لهم السبيل الاكثر سهولة للدخول في الدولة الاسلامية. يعود الفضل الاكبر أولاً للفلسطينيين ثم للسوريين في لبننة المسلمين، أقله مؤقتاً. ولكن الى متى؟ اننا نعرف امراً واحداً وهو أن الدولة الاسلامية لن تتحقق، طالما نحن أقوياء. نحن عازمون على الابقاء على ميليشياتنا علناً أو سراً. لا نريد أن نؤخذ مرة ثانية على حين غفلة، ودون استعداد، كما حصل عام ١٩٥٨ و ١٩٧٥، عند ما استخدم المسلمون حق الفيتو بعدم انزال الجيش. المسيحيون اللبنانيون نجوا في عام ١٨٤٠ و ١٨٦٠ و ١٩٥٨، وكذلك نجوا من هذه الحرب القائمة الآن، ولكن بأي ثمن؟ هل ينبغي تكرار ذلك بعد مرور عدة عقود من الزمن. هل ينبغي أن ندفع كل مرة ثمننا باهظاً، كي يتمكن الباقون على قيد الحياة من العيش بسلام بضع سنين؟ هل نستطيع تحمل هذه المسؤولية أمام أولادنا؟ أين هو الفرق بين لبنان والدول المتعددة الشعوب؟ عند ما يطلق أحد صرخة "الله اكبر" في المنطقة، يصبح كل مسلم مسلماً أكثر، وينسى أنه لبناني، وينسى أن لبنان بلد لا يقع في أوقيانيا، بل تحيط به دول مجاورة. فإذا ما برز لدى الجيران شخص مثل جمال عبد الناصر، أو زعيم لبناني كبير، عندئذ تعود دورة العنف من جديد. كذلك تعتبر فكرة دولة ذاتية تجربة كبيرة. لا أحد يجروء على التفكير بها جدياً حتى النهاية. النتائج ستكون رهيبة: استمرار الحرب، وتبادل السكان. ما هذا التلميح الغوغائي؟ ولكنني أفكر أحياناً بأن هذا سيحدث أيضاً دون أن نريده، وأحياناً أجروء على التفكير بأن التمزق قد لا يكون خطيراً إذا عرفنا بالنهاية سلاماً، وتركنا في حال من الهدوء."

هناك عدد قليل بين زعماء المنظمات المسيحية فكّر جدّياً بإمكانية تحقيق فكرة التقسيم. في الواقع، تصوّر وفكر بذلك مستشارو القادة، وليس اصحاب القرار. والبرهان على ذلك يتلخص بما يلي:

"علينا أن لا نغفل اطلاقاً. المسلمون لن يقبلوا أبداً بمساواة الاقليات بهم. لقد اطلقت شعارات عديدة ضد ما يسمى بامتيازات الاقليات. والمقصود بذلك، هو ان على الاقليات أن تخضع لقوانين وشرائع الاسلام التي تفرض السيطرة عليهم وتمييزهم. فلماذا إذا لا يكون لنا دولتنا الخاصة؟ فعند ما يجد كل انسان بأن الخميني يحق له اقامة جمهورية اسلامية، فلماذا لا يجوز إذا أن تقوم أيضاً جمهورية يهودية أو جمهورية مسيحية؟"

أحد المتقنين الاكثر نفوذاً في الجبهة اللبنانية، قال متأسفاً:

"ان اقامة لبنان الكبير كان خطأ... لقد اعتقدنا خطأ بأن التقدم سيحوك المسلمين الى

لبنانيين طيبين. لم نقدر بكل بساطة قوة التحول في الاسلام... اليوم اصبح التقسيم - وللأسف - غير ممكن تقريبا. أنا أقترح حلاً فدراليا. فعند ما تقوم دولة فدرالية، نستطيع أن نستوعب أو نستقطب مليوني مسيحي من سوريا والعراق والاردن. ان وضع المسيحيين في هذه البلدان سيستوء بسرعة في المستقبل... أنا متفائل، بسبب التغيير الديمغرافي، سيتغير كل شيء هنا. في سوريا ستتغير الدولة الحالية، وعلى أساسها ستنشأ دويلات علوية ودرزية وسنية".

وهذا "المفكر" اعتبر ممكنا عملية "نقل السكان":

"لربما ترك الدروز اللبنانيون لبنان، كما حصل سابقا في التاريخ. فعند ما تختلف أسرتان درزيتان، تهرب الاسرة المنهزمة الى جبل الدروز. التاريخ يدل على انه من السهل جدا دفع الدروز الى التحرك والانتقال. بالنسبة للشيعية يبدو الامر أكثر صعوبة، لعدم وجود حدود مشتركة مع العراق. ولكن الامر ممكن أيضا. والمشكلة القليلة الاهمية هي مع السنة".

وشخص آخر فكر هكذا:

"إذا كان الامر يتعلق بالاكثريات، عندئذ نستطيع ان نكون أكثرية. سنضع برنامجا "ضخما" لعودة المغتربين. فعند ما يسود هنا السلام والديمقراطية، فانهم سيعودون. وكذلك اذا ما هددنا بأكثريات، فنحن نعرف أن في الدامور والشوف نشأت خلال أيام قلائل أكثريات جديدة. فإذا كان الامر هكذا فنحن نستطيع تحقيقه أيضا".

ولكنه لم يعتقد أبدا أن مثل هذه السياسة يمكن تنفيذها بوجود السياسيين المسيحيين الحاليين:

"مع الزعماء القدامى والعقلية السياسية القديمة لن نستطيع صنع لبنان جديد، ولكن حتما مع الشباب. موسى ترك شعبه أربعين سنة في الصحراء، حتى توفوا جميعا ووقع البعض منهم في قبضة الرق. لن نستطيع صنع دولة جديدة مع جماعات من عهد الانتداب، تعودوا على الصفقات السياسية الاقتصادية في الجمهورية القديمة. هذه هي الامثلة التي ينبغي استخلاصها".

هذه التصورات عن مستقبل لبنان لها أهمية محدودة بالنسبة للسياسة الواقعية التي تتبعها المنظمات المسيحية المناضلة، ولكنها تعبر كثيرا عن درجة الخيبة والخوف واليأس التي أفرزتها الحرب لدى بعض الفئات من مجموعات القياديين المسيحيين، خاصة حول العزم والقرار الحاسم للحفاظ على وجود مستقل للطوائف المسيحية بجميع الوسائل. عن هذا الموضوع تحدث ناطق رسمي في القوات اللبنانية:

"ان الكلام عن هجرة بعض المسيحيين الآخرين، هو وهم خيالي. والكلام عن تهجير للمسلمين هو فقط مرفوض قطعاً. وليس سوى تعبير عن استعداد للدفاع عن النفس حتى الموت. لدى المسؤولين السياسيين والعسكريين، لا وجود إطلاقاً لمثل هذه المفاهيم. ليس لدينا عقدة شبيهة بعقدة "ماسادا". لا نريد الاستسلام، بل اثبات الوجود الذاتي. رغم كل ما حصل في لبنان، لن نعيد النظر إطلاقاً بمبدأ التعايش. ليس فقط، لانه لا بديلاً آخراً ممكناً عنه، بل لاننا نتمنى ونريد التعايش".

وكيف ينبغي أن يكون هذا التعايش في المستقبل؟ هنا تختلف كثيراً أو تتضارب الآراء لدى الزعماء المسيحيين المناضلين، بطريقة عشوائية وتناقضية أكثر مما هي في صفوف أطراف النزاع المسلمين.

بشير الجميل عبّر في أوقات مختلفة عن مفاهيم مختلفة أيضاً. لقد صرح في إحدى المقابلات:

"نريد لبناناً واحداً، معلماً تماماً، وحديثاً، على معظم أراضي الجمهورية".

وقد فسر أحد معاونيه أسباب هذا الخيار:

"في دولة علمانية تماماً تصبح مسألة الاكثريّة نافذة. ولكن لا بد من بناء دولة علمانية وحديثة. نحن لا نعارض وجود رئيس مسلم للدولة إذا كانت الدولة علمانية والرئيس لبنانياً حقيقياً. ان انصاف الحلول لم تعد مقبولة لدينا. تحملنا كفاية، المطالبة باعادة النظر دوماً في النظام القائم، وان تربط الهوية الوطنية دائماً ومجدداً بشروط ومطالب جديدة. نحن لا نفكر بالحرب لسنوات طويلة، كي نعود مجدداً الى الميثاق القديم. الفريق الآخر يطرح دائماً الميثاق على بساط البحث. ولكنه يعود اليه نادماً عند ما لا يستطيع ان يفرض شيئاً آخراً. لن نشارك فيما بعد بهذا الامر. لقد سفكت دماء أكثر من اللازم. نريد الآن حلاً ثابتاً ودائماً".

وفي مقابلة أخرى صرح بشير الجميل:

"نريد بنوع خاص دولة فدرالية، تنظّم بطريقة لا تسمح برميها في البحر اذا اندلعت حرب جديدة. في جزء من الدولة ينبغي ان يشكل المسيحيون اكثرية السكان، وفي الجزء الآخر المسلمون. بيروت يمكن ان تكون عاصمة الدولة الفدرالية. النظام التربوي الذي يحمي وجودنا الثقافي، وكذلك نظام الدفاع الذي يحمي وجودنا الجسدي، يكونان في عهدة كل دولة فدرالية على انفراد. ولماذا ينبغي ان يكون الجيش ايضا فدرالياً؟ نريد جيشاً يكون لديه الاندفاع الكافي للحرب في حال نشوب أي خطر... فقط عند ما تقوم لا مركزية للجيش سيشعر سكان جميع المناطق بالامان".

الأمن للمسيحيين هو هدف المفهومين. فاما ان تقوم الدولة كلها ويحصل ضمان للمسيحيين من تزايد الكثرة السكانية ومن امكانية نشوء دولة اسلامية، او انه ينبغي عليهم ان يضمنوا مستقبلهم من هذين الخطرين على قسم من الارض. ان تحقيق هذا الامن بصورة افضل على هذه او تلك الطريقة، هو مسألة تتعلق بالظروف وبالمصالح السياسية، حسب رأي مجموعة من القيايين المسيحيين المناضلين".

ابراهيم نجار، عضو المكتب السياسي في حزب الكتائب استنتج مايلي:

"ان مفهومنا السياسي لم يكن غالبا، وينبغي الاعتراف بذلك، واضحا جدا. منذ بدء الحرب قاومنا - واحيانا قاومنا بضراوة وشراسة - خوفا على انفسنا من الابداء الشاملة. احيانا وجدنا انفسنا مثلا في حالة ارتباك شديد، عند ما كان يطرح مقاتلوننا السؤال: ما هو الهدف الحقيقي الذي نحارب من اجله؟ التقسيم، كان جوابا جذبا، لانه سهل الادراك. ولكنه كان حسب اقتناعنا جوابا خاطئا".

قد اقترح أيضا لا مركزية على اساس دولة فدرالية:

"كيف ينبغي ان يكون بالتفصيل هذا النظام الجديد؟ هذا الامر لم نتطرق اليه بعد. نحن مازلنا نعيش في وضع استثنائي. وفي مثل هذه الحال لا يجوز اتخاذ موقف نهائي اطلاقا".

وبصورة اكثر حسما ووضوحا، تحدث كميل شمعون، رئيس حزب الوطنيين الاحرار عن تسوية في اطار دولة فدرالية:

"خلال خمسين سنة من الحياة السياسية ادركت جيدا ماهية التناقضات والتوترات القائمة في هذا البلد. علينا ان نجعلها وننظمها. وهذا لا يمكن الا في اطار دولة فدرالية لا مركزية فقط. امم أخرى سوت هكذا وبنجاح التعايش بين المجموعات المختلفة، مثل سويسرا . سويسرا حافظت خلال الحرب العالمية الثانية، رغم قواها المركزية، على وحدتها. وهذا ممكن أيضا لدينا. نحن نحتاج الى دولة فدرالية تكون المحافظات فيها مستقلة ذاتيا، مثل الكانتونات السويسرية. اذا ما اردنا مثلا الحفاظ على وحدة بلدنا، لن يكون لنا حل آخر. او أن تنشأ كونفدرالية مبسطة، تتألف من دولتين. نحن نفضل الدولة الفدرالية. ولكني لا أرى مخرج أخرى".

في حال اعلان اللبنانيين المسلمين موافقتهم على اعلان دولة فدرالية لا مركزية، يمكن عندئذ أن يعلن بعض السياسيين المسيحيين المناضلين استعدادهم للتخلي عن منصب رئاسة الجمهورية. في هذا الاطار صرح شارل مالك:

"المشروع الذي اعده منوال يونس، يبدو، بالنسبة لي، مقبولا، شرط ضمان امننا

بوضوح عبر اللامركزية. فالجهاز الجماعي الذي يطرحه للسلطة التنفيذية والذي تتمثل فيه الطوائف الكبيرة والصغيرة بذات الحقوق، له الفضل في الحد من أهمية المسألة الديمغرافية".

ويقول عضو ماروني في القيادة الكتابية:

"من الممكن التوصل الى تسوية جديدة اذا ما تخلى المسلمون عن دولة موحدة والمسيحيون عن رئاسة الجمهورية لصالح جهاز تنفيذي جماعي. بالنسبة لي شخصيا أفضل لهذا البلد الصغير دولة موحدة. ولكني قطعت الامل بأن يقبل المسلمون العمنة الشاملة. والدولة الموحدة القائمة على ديمقراطية الاكثرية، دون عمنة، تعني تحويل المسيحيين الى "ذميين". لذلك اما جمهورية واحدة وغير مجزأة، مع فصل تام بين الدين والدولة، وزواج مدني، وقانون ارث لا علاقة له اطلاقا بالدين، وحرية عدم الانتماء الى دين ما، أو لا دولة موحدة.

"عدا ذلك نفضل قيام كاتنتونات مستقلة ذاتية وفق النموذج السويسري مع نظام ثقافي ودفاعي محدود، ومجلس فدرالي على رأس الدولة، كما اقترح منوال يونس. يضم سنيا وشيعيا، ودرزيا، ومارونيا وارثوذكسيا وكاثوليكيا. هذا الاقتراح بنظري هو الافضل. بذلك يقوى دور الطوائف الصغيرة. ونستبدل ثنائية السلطة المارونية - السننية المباشرة بسلطة تعددية مشتركة. الطوائف تؤخذ بعين الاعتبار، وليس الرؤوس والأنوف. ولكن يقبل بهذه السلطة التنفيذية الجديدة فقط، شرط أن يستبدل الضمان الذي كان قائما بالنسبة لنا عبر مركز رئاسة الجمهورية، بضمان الاستقلالية الذاتية للكاتنتونات".

سمير جعجع، قائد القوات اللبنانية، عبّر عن رأيه ببرودة تامة:

"الشيء الوحيد الذي يهمني هو أمن المسيحيين. لو كان الامر ممكنا لفضلت نقل شعبي الى بلد يشعر فيه بالأمان. ولكن هذه الامكانية غير متوفرة. لدينا فقط هذا البلد. علينا أن نضمن الامن هنا بقدر المستطاع. نظام عام ١٩٤٣ لا يوفر ذلك. لقد انهيار مرتين. ديمقراطية الاكثرية تعني هنا فقط سيطرة الاسلام. وهذا الامر لم نقبل به خلال أكثر من ألف عام، ولن نقبل به أيضا اليوم. بالنسبة للتعايش مع المسلمين، مازلنا دائما على أهبة الاستعداد. ولكن نريد صيغا للتعايش لا تسمح بقهرنا. نريد ضمانات أمنية جدية - وهذا يعني جغرافية. وإذا استمر الفريق الآخر بمطالبه فإن الحرب ستستمر أيضا".

وكذلك تحدث جعجع بدون مراوغة عن رأيه بدور سوريا قائلا:

"الفريق الآخر يطرح مطالبه، لان سوريا تقف وراءه. ومن المحتمل أن سوريا هي التي

تريد أن يطرح مثل هذه المطالب. ولكن لن نستسلم هنا امام سوريا. لذلك ستستمر الحرب بعد طويلا".

لدى معظم الفعاليات السياسية التي جرى استجوابها، تختلط التخوفات والامال، بالنسبة لطوائفهم كما بالنسبة للبلد ككل. ولكن التخوفات هي الراجحة على الامل.
شارل مالك تحدث قبل وفاته بوقت قصير عن قلقه الاكبر:

"هل سيبقى في المستقبل مسيحيون احرار في هذا البلد؟ كل التهديدات تهدف الى ان يفرض علينا النظام المفروض على المسيحيين في سوريا أو العراق أو مصر أو أكثر من ذلك. في بلدان عديدة من الشرق زالت المسيحية تماما عن الوجود. عام ١٩٢٠ كان في تركيا أكثر من أربعة ملايين مسيحي. في القسطنطينة كان يعيش مليون مسيحي. "سميرنا" كانت مدينة مسيحية. في "الاسكندرون" كانت تعيش جالية مسيحية كبيرة. اليوم أصبحت تركيا بلدا دون مسيحيين. لم يبق من الارثوذكسية الا السريان الذين يهاجرون اليوم الى اوروبا الغربية. في عدد كبير من دول الشرق تُدفع الطوائف المسيحية للهرب، وتهجر من منازلها وأراضيها، ويفرض عليها الاغتراب. ماذا سيقول، بعد خمسين سنة، المؤرخون في توينغن وفرايبورغ؟ اني اتخوف ان يحصل بالمسيحيين هنا كما حصل بهم في تركيا. اني اخاف. نحن نعيش اليوم الأيام الاخيرة لآخر الطوائف المسيحية الحرة في الشرق".

ولكن الخوف على الحرية يشعر به أيضا السياسيون المسلمون، فقد تساءل أحد الاعيان السنة قائلا:

"ماذا سيكون مصير لبنان؟ ان ما يربطني بهذا البلد هو فكرة الحرية، الحرية التي لم يعد لها أي وجود منذ زمن طويل في الدول العربية الاخرى. اليوم لم تعد موجودة هذه الحرية، لا بالنسبة للمسيحيين ولا بالنسبة للمسلمين. ان لبنان مقسما، حتى القسم المسيحي، سيحكم على طريقة الدكتاتوريات العربية. اني كمسلم سني أريد أن أكون لبنانيا. ليس لاني أقبل بالمارونية السياسية. كيف أستطيع ذلك؟ بل لان لبنان مسيحي ومسلما فقط يستطيع أن يكون بلد الحرية الذي أريد العيش فيه. في الوقت الحالي أعمل بين باريس والرياض وبيروت. في باريس أشعر بنفسى بين الغرباء، وفي الرياض بين البدو، وفي بيروت بين العصابات".

بالاختصار يمكن الاستنتاج بأن معظم السياسيين اللبنانيين الذين عرفوا نظام لبنان ما قبل الحرب يؤمنون بإمكانية عودته، ولكن القيايين السياسيين والعسكريين

لاطراف النزاع يرفضون هذا النظام. ان قانون الايمان السياسي لدى "الثعالب" كان ومازال التسوية. اما قادة الميليشيات، فلا ترى أي اساس لتسوية ما. فالمطالبة "بالعلمنة السياسية"، او ديمقراطية الاكثرية دون علمنة المجتمع، تقابل بالمطالبة بعلمنة شاملة، أو بدولة فدرالية لا مركزية. ولم يعد أحد من "الذئاب" يتحدث عن نصر عسكري. ولكن كل منهم مازال يشير الى عزمه وقراره لمنع تحقيق الاهداف السياسية لدى الطرف الآخر. فاستمرار النزاع بينهم لا يقوم على تصورات خاطئة متبادلة، بل على أهداف متباينة، جرى وصفها بصدق، ولكن لا يمكن الجمع بينها.

الفصل السابع

تعايش في زمن الحرب

مواقف العمال اللبنانيين وآراؤهم

١٩٨١ - ١٩٨٧

لو جرى اليوم استطلاع للرأي العام، لما حصل أي زعيم سياسي إلا على نسبة ضئيلة جداً من التأييد.

وليد جنبلاط، ١٩٨٩

نحن نخاف اليوم كما يخافون أيضاً في الطرف الآخر. فإذا جرى استفتاء شعبي، دون تهديد بالسلاح طبعاً، سيختار أكثر من تسعين بالمائة من الطرفين التعايش. فالناس العاديون يشكون من الزعماء الذين اوصلوهم الى هذه الكارثة. هناك لدى الشعب اللبناني بأسره شعور أصيل بالانتماء الى بعضهم، وبإمكانية العيش بهناء سوياً.

صائب سلام، ١٩٨٩

منذ عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٩٢ لم يتمكن المواطنون اللبنانيون من التوجه الى صناديق الاقتراع، بسبب اندلاع حلقة العنف عام ١٩٧٥. هل ساهمت القوى الخارجية بما حدث؟ لبنانيون قتلوا لبنانيين آخرين، جرحوهم، عذبوهم، سلبوهم، وهجروهم. هل يريد اللبنانيون ان يعيشوا سوياً بعد؟ هل ما زالوا يعتقدون بإمكانية العيش المشترك؟ وفي أي شكل يعتبرون ذلك ممكناً؟

هذه الأسئلة ليست جديدة في التاريخ اللبناني، ولكنها لم تطرح سابقاً بهذه الحدة وفي إطار الصعوبات المصيرية، كما طرحت خلال سنوات الحرب. لم يُسلب إطلاقاً في السابق المواطن اللبناني العادي امكانية التعبير عن رأيه حول هذه الأسئلة في الشكل الذي توفّره له الديمقراطية البرلمانية.

لقد جدّد مجلس النواب اللبناني ولاية اعضائه عدة مرات بشكل دستوري، نظراً لتعذّر اجراء انتخابات لاختيار نواب مكان الذين توفّوا أو قتلوا. لم يُفكر إطلاقاً باجراء انتخابات جديدة، كما ان البرلمان لم يكن في وضع يسمح له بتقرير مصير البلد. لم يستطع أحد القول اذا كان اعضاء مجلس النواب الذين انتخبوا منذ حوالي عقدين من الزمن، مازالوا، والى اي حدّ، يمثلون آراء ورغبات ناخبهم. ويطبق ذلك اكثر فاكثراً على الذين نصبوا انفسهم زعماء وقادة لمجموعات مسلحة، فرضت نفسها، واخذت، منذ عام ١٩٧٥ تتحدث وتتصرّف باسم الشعب اللبناني او باسم طوائفها.

لا يمكن الإركان الى البحث الاجتماعي التجريبي للحلول مكان الانتخابات الحرة. ولكن حينما يتعذّر اجراء انتخابات، يستطيع البحث الاجتماعي التجريبي توفير بعض المؤشرات، وابرار ارادة الشعب، عند ما يستحيل تعداد الاصوات والبنادق. يستطيع كذلك ابراز خصائص النزاع والمساعدة في الكشف عن امكانيات تسوية سلمية للنزاع. هل تبقى المجموعات المتخاصمة في خطوط المواجهة المميّنة، لا يفصل بينها سوى السلاح، او ان هناك أسس مازالت متوفرة للعيش المشترك؟ هل التصوّرات حول مستقبل لبنان متناقضة حتى التنافر، ام ان هناك مجالاً للتسويات كما كان الحال غالباً في الماضي؟

قد تكون الطاقة العسكرية، والجهد الحربي لمجموعات صغيرة ملتزمة، ونفوذ القوى غير اللبنانية، أهم من آراء ورغبات المواطنين اللبنانيين. ولكن ما يُعبّر عنه من آراء ورغبات لا يمكن ان يبقى دون تأثير تام على امكانيات التفاوض المتوسطة والطويلة الأجل لدى الذين يقررون مواصلة الحرب او الحدّ منه او السلم. الحرب، وخاصة الحرب الأهلية، يمكن اشغالها بدعم عدد قليل من المواطنين، ولكن تصعب جداً مواصلتها باستمرار دون موافقة عدد كبير منهم. ولذلك لا بدّ من التعرف على هذا العدد الكبير بالتحديد. من المؤكد ان يحصل سلام دائم فقط عند ما تريده اكثرية كبيرة من المواطنين، وعند ما تتحد وتتفق على كيفية اقرار هذا السلام.

يستطيع البحث الاجتماعي التجريبي ابراز المواقف، والآراء، والاتجاهات السياسية الرئيسية مع بعض المصادقية. ولكن هل يستطيع ذلك ايضاً في ظل اوضاع حرب كانت تخفّ او تزيد شرستها من حين الى آخر؟ فعدم القيام بمثل هذا

البحث في ظل تلك الأوضاع، ينفي هذه الامكانية. ولكن تؤيدها الاختبارات التي حصلت أثناء تحقيقات جرت في مناطق متوترة، وساخرة في ظل نزاع مسلح^١.

قام بأول محاولة لاختبار امكانية اجراء ابحاث اجتماعية تجريبية في ظل الأوضاع اللبنانية، الباحث سليم نصر ومؤلف هذا الكتاب في نهاية عام ١٩٨١. آنذاك كانت وطأة النزاع المسلح ضعيفة نسبياً. ولكن كانت تحصل في تلك الفترة يومياً تقريباً هجومات مفاجئة، واشتبكات مسلحة، وتفجير قنابل، ومعارك بالمدفعية، سواء داخل المناطق العسكرية المختلفة او بينها. لم تتأثر نوعية مضمون البحث إطلاقاً في ظل تلك الأوضاع، بل العكس. فكل الاشخاص تقريباً الذين جرت مقابلتهم ابدوا استعداداً كبيراً وانفتاحاً للتعاون مع الباحثين.. كما عبر عدد كبير منهم عن امتنانهم لاعطائهم الفرصة في تلك الفترة للتعبير عن رأيهم حول مواضيع الساعة التي كان يرتبط بها مصير بلدهم. فنسبة الممتنعين عن إعطاء الأجوبة، بالمقارنة مع التحقيقات التي تجرى في بلدان عادية يسودها السلام، كانت منخفضة بصورة غير عادية ولم تتجاوز ٢ بالمائة. وهذا مؤشر ايجابي^٢ ايضاً.

يعود العامل الأساسي لإحراز النجاح الى المستجوبين، الذين كانوا بمعظمهم من علماء الاجتماع الملتزمين والمخلصين في عملهم. جندوا لهذه الغاية، وجرى اختيارهم من مختلف الطوائف الدينية والمناطق، واستناداً الى خبرتهم الواسعة في مجال البحث الاجتماعي. استهدف الاستطلاع الأول العمال المنتظمين والملتزمين نقابياً، وفئات أخرى لا علاقة لها بالنقابيين او العمال.

بعد نجاح المحاولة الأولى، اعيد تكرارها عام ١٩٨٤، و١٩٨٦ و١٩٨٧. ولكن المحاولات الجديدة لم تستهدف بدرجة أولى النقابيين فحسب، بل مجمل الطبقة العاملة اللبنانية ايضاً. فضلاً عن المعالم البنوية الاجتماعية، اضيفت ايضاً بعض المواقف السيكو اجتماعية، والتصورات والمواقف في المهنة والعمل، والدين، والطوائف الدينية، والنظام السياسي، والتوجهات والافضليات السياسية، والآراء حول السلوك والدين والسياسة، وكذلك المسائل الرئيسية المتعلقة بامكانية وبكيفية التعايش في لبنان^٣.

١- لقد تبين في جنوب افريقيا مثلاً ان استطلاعات الرأي لدى السكان السود قبيل الانتفاضة في ولاية "سوفيتو" (SOWETO) عام ١٩٧٦ كانت صعبة للغاية، وكان ذلك امراً بديهياً نظراً للخطر والخوف لدى الذين كانت تطرح عليهم الأسئلة. ولكن بعد اندلاع الانتفاضة حصل تغيير كبير في هذا المجال. تراجع الخوف كثيراً، واخذ المستجوبون بنسبة ٧٧٪ يعبرون بجرأة ووضوح عن آرائهم المتعلقة بالمسائل الحياتية.

راجع: Theodor HANF, Heribert WEILAND & Gerda VIERDAG, op. cit. p. 67-68.

٢- راجع : الفصل الخامس من مؤلف تيودور هانف" وسليم نصر المذكور.

٣- راجع أسئلة الاستمارة في الملحق.

جرى اختيار هذه المجموعة الواسعة من مواضيع البحث لأن ارتباطاً وثيقاً بين مختلف الحقول برز في أبحاث وتحقيقات سابقة عن الآراء والمواقف السياسية في لبنان وفي مجتمعات أخرى تعيش أيضاً إزمات ونزاعات، كما تبين جدواه تحليلياً.

ضمّت الاستثمارات النموذجية أسئلة مغلقة بمعظمها، وشعارات ثابتة، أُجيب عليها بـ "نعم" أو "لا"، وأقوالاً معاكسة - بغية المراقبة - في مكان آخر. وقد عولجت المواضيع الواسعة الأبعاد في إطار مقابلات شفوية، استغرق كل منها ساعة من الوقت تقريباً.

لماذا أجري التحقيق عدة مرات؟

في التحقيق الأول لم يكن مستبعداً أن تأتي الآراء والمواقف المعبر عنها متأثرة بمعظمها بالاحداث الاقتصادية والسياسية. فقط تكرارها في ظل ظروف متميزة كان يسمح بكل تأكيد بمعرفة المواقف التي يمكن اعتبارها متأثرة بظروف عابرة، أو بأنها مواقف أصيلة ثابتة.

أخضعت هذه التحقيقات عن مواقف اللبنانيين لامتحان عسير في ظل اوضاع سياسية واقتصادية كثيرة الاختلاف.

- في اواخر عام ١٩٨١ كان الوضع في البلاد يَتميّز بانخفاض في نسبة حرارة النزاع و"بتوازن نسبي في مجال الرعب، اقليمياً ولبنانياً"، كما كان الوضع الاقتصادي يَمرُّ بفترة من الانفراج.

- في بداية عام ١٩٨٤ كانت تسود بالمقابل اجواء توتر شديد للغاية. كانت الآمال الواهية بفرض سلطة الدولة وباعادة البناء الاقتصادي بعد الغزو الاسرائيلي قد اضمحلت. وكانت حرب الشوف قد اسفرت عن تهجير عشرات الآلاف من المسيحيين من منازلهم وقراهم. وفي السابع من شباط عام ١٩٨٤ انقسم الجيش اللبناني، كما سيطرت الميليشيات الدرزية والشيعية على بيروت الغربية، وبدأت

٤- راجع مثلاً ما ورد عن جنوب افريقيا في الحاشية الأولى من هذا الفصل. وبالنسبة للبنان. راجع: Theodor HANF, Le comportement politique des étudiants libanais, op. cit. p. 5-52; Halim BARAKAT, op. cit.; idem, Social and Political Integration in Lebanon : A case of social mosaic, in : Middle East Journal, 27 (1973) p. 301-318; Iliya HARIK, The Economic and Social Factors in the Lebanese Crisis, op. cit.

٥- أعدّ الاستثمار المؤلف بالاشتراك مع سليم نصر الذي اختار العيّنات، كما اشرف على المقابلات. اما تحليل نتائج عام ١٩٨١ فقام به الاثنان معاً (راجع الحاشية ٢)، بينما قام المؤلف بمفرده بالإشراف على التحقيقات اللاحقة وتحليلها. وقد جرى سابقاً اختيار قسم من المواضيع التي تركز عليها الاستطلاع في أبحاث سابقة قام بها المؤلف.

مرحلة حرب اهلية "حقيقية". وكذلك تعرضت الثقة بمستقبل الاقتصاد اللبناني لضربة قاسية.

- في صيف ١٩٨٦ كان الوضع ايضاً يتسم بازمة حادة جداً. فالاتفاق الذي توصلت اليه الميليشيات الثلاث الكبرى باشراف سوريا جرى تفصيله عبر التغيير العنيف في قيادة الميليشيات المسيحية وفي رفضه من قبل رئيس الجمهورية. كذلك كانت تهدد البلاد من جديد مواجهات شرسة. كما ان الازمة الاقتصادية وانهيار العملة اللبنانية دفعا الى افقار قسم كبير من السكان.

- اما خريف ١٩٨٧ فيمكن وصفه بمرحلة التشاؤم الهادئ نسبياً. لقد تخللت تلك الفترة نزاعات صغيرة داخل الاطراف المتخاصمة، كما حصلت معارك طاحنة بين الشيعة والفلسطينيين ومواجهات متزايدة في الجنوب. ولكنها تميّزت بنوع خاص بالبورس الاقتصادي المتنامي.

لقد جرت اذاً هذه التحقيقات في مراحل اتّسمت بالهدوء النسبي كما اتّسمت ايضاً بالنزاعات الحادة، وفي مراحل كانت الامل معقودة فيها على انتصار هذا الفريق او ذاك، كما عرفت هذه المراحل عيشاً رغيداً نسبياً، وكذلك اتهياراً اقتصادياً رهيباً.

فالمواقف والآراء التي تبقى ثابتة عبر مثل هذه المتغيرات، يمكن اعتبارها دون شك اطلاقاً بأنها أصيلة ومجذرة في العمق ودائمة.

في التحليل التالي يعتمد بصورة رئيسية على التحقيق الذي جرى عام ١٩٨٧، وذلك لأنه الأحدث من جهة، ونظراً لكبر حجم العينة التي شملت (٢٠٠٣) اشخاص من جهة أخرى. وقد سُمح باجراء تحليل مفصل وفقاً للسن، ومستوى التربية، والمهنة، والديانة. كما أخذت بعين الاعتبار الفروقات بين المناطق الجغرافية المختلفة. حول كل موضوع، جرى توضيح الاستقرار والتغيير في المواقف في اطار المقارنة الزمنية. بهدف ابراز "الجوهر الأساسي" مجتمعياً وسياسياً للرأي اللبناني.

١ - امكانية مقارنة نتائج التحقيقات الميدانية

كيف تكون العيّات قادرة على تمثيل مجموعات في بلد حصل فيه تعداد سكاني عام ١٩٣٢، وتشكل فيه القوة العددية لطوائفه موضوع نزاع سياسي رئيسي؟

من التناقضات العديدة القائمة في لبنان، هو ان السياسيين والادارات الرسمية لا يسمحون باجراء تعداد سكاني عام لأسباب سياسية. ولكنهم يشجعون تنفيذ دراسات وتحقيقات أساسية في مجال يتسم بأهمية اقتصادية كدراسة الفئة السكانية العاملة^٦. وكذلك جرى منذ اندلاع الحرب عدد من التحقيقات الجزئية التي تسمح باستنتاج المتغيرات التي حصلت منذ عام ١٩٧٢، وان بصورة تقريبية.

لم تعرف اذاً نسبة المسيحيين والمسلمين من مجموع السكان، ولكن عرف بصورة عامة توزيع الفئة العمالية من السكان حسب الجنس، والسن، والقطاع المهني - ومع بعض التحفظات - حسب المنطقة. وهذا المقياس الأخير تعرض كثيراً للتغير بسبب احداث الحرب، خاصة بسبب الهرب والتهجير.

لهذه الاسباب جرى التخلي عن استجواب عينة تمثل كل السكان او الذين يتمتعون بحق الانتخاب. ولكن بدلاً من ذلك، جرى اختيار عينة نسبية من الفئة السكانية العاملة بالاستناد الى خصائصها المعروفة. لا شك في ان لهذا الاختيار سيئاته في استكشاف المواقف السياسية. فلم تتمثل الفئة المسنة من السكان وكذلك ربّات المنازل، رغم ان وصف هاتين الفئتين في معظم المجتمعات بالفئات المحافظة. ولكن لهذا الاختيار ايضاً حسناته، نظراً الى ان الفئة العمالية من السكان هي عادة الأكثر نشاطاً اجتماعياً وسياسياً.

في البداية وزعت النسب وفقاً للقطاعات الاقتصادية والمناطق. وفي داخلها جرى توزيع النسب حسب الجنس والسن. استخدمت المميزات بصورة مندمجة. فقط التحقيق الذي جرى عام ١٩٨١ بقي محدوداً في امكانية مقارنته، لأن النسب لم تبرز النقبين، وغير النقبين، والعمالّ الأحرار المستقلين. تألفت العينة من ٣٥٠ ثم ٥٠٠ شخص. وقد جرى تصنيفها لاحقاً وفقاً للمعالم والمميزات الأخرى.

توزعت العينات في التحقيقات الاربعة على القطاعات الاقتصادية كما يلي:

١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	القطاعات الاقتصادية
(٨)	(٩)	(٧)	(١)	(الزراعة)
٢٠	٢٠	٢٤	٢٥	الصناعة والبناء
٢٢	٢٨	٢٦	٢٤	التجارة والنقل
٨	٥	٦	٨	المصارف والتأمين
١٨	٢٠	١٣	١٩	مؤسسات خدماتية أخرى
٢٤	١٨	٢٥	٢٥	إدارات الدولة، والتربية
٢٠٠٣	٤٨٠	٧٨٣	٥٠٠	المجموع

المعطيات بالنسبة المئوية.

حتى إذا استثنينا قطاع الزراعة الذي كان ضعيف التمثيل في تحقيق عام ١٩٨١ بسبب انعدام التنظيم النقابي فيه، لم تبرز أية فروقات ذات مغزى بالغ بين العيّنات الموزعة وفقاً للقطاعات الاقتصادية.

ولكن الفرق برز في المقابل في التوزيع حسب المناطق.

١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	المناطق
٢٩	٣٢	٢٦	٢٦	بيروت الشرقية والمتن وكسروان وجبيل
٣٠	٣٢	٣٤	٣٨	بيروت الغربية وضواحيها
٥	٦	٣	٢٠	الشوف
٩	٥	١٢	٤	طرابلس، صيدا
٨	٨	٩	-	لبنان الجنوبي
٩	٨	١٠	٧	لبنان الشمالي
١٠	٩	٦	٥	البقاع

المعطيات بالنسبة المئوية.

تختلف عينة عام ١٩٨١ كثيراً عن العينات الأخرى، لأن درجة تنظيم النقابات يختلف كثيراً من منطقة الى أخرى. في الشوف مثلاً، كانت الدرجة عالية جداً. وبالتالي أخذ بعين الاعتبار انتقال السكان الذي حصل منذ عام ١٩٨٤، خاصة تهجير السكان المسيحيين من الشوف ومن شرق صيدا وعودة الشيعة الى البقاع. نظراً لهذا التبدل جرى تحليل عامل المنطقة فقط بالاعتماد على التحقيق الذي حصل عام ١٩٨٧.

بالنسبة للجنس لم تبرز أية فروقات ذات أهمية. فنسبة النساء العاملات بلغت تقريباً خمس العينة.

أما في ما يتعلق بالسن، فيختلف تحقيق عام ١٩٨١ عن التحقيقات الأخرى، لأن المرحلة العمرية الشابة كانت ضعيفة التمثيل نقابياً، بينما لم تبرز أية فروقات هامة في التحقيقات الأخرى.

المرحلة العمرية	١٩٨١	١٩٨٤	١٩٨٦	١٩٨٧
١٥ - ٢٠ سنة	٦	١٠	١٠	١٠
٢١ - ٢٥ سنة	٦٠	٦٢	٦٢	٥٨
٣٦ - ٤٥ سنة	٢٢	١٩	١٨	١٩
٤٦ سنة وما فوق	١٢	٨	١٠	١٣

المعطيات بالنسبة المئوية.

إن المعطيات المتعلقة بالتصنيف حسب الدخل فقدت قيمتها نظراً للتضخم ولانهيار قيمة الليرة اللبنانية منذ عام ١٩٨٤. لذلك وزعت العينات على أربع فئات دخل بالاستناد الى ارتفاع الدخل المطلق القائم، وقورنت هذه الفئات مع بعضها.

أما توزيع العينات حسب المستوى التعليمي - والتي لم تعط في الحصص - فلم تسفر عن إبراز فروقات جديرة بالاهتمام.

المستوى التعليمي	١٩٨١	١٩٨٤	١٩٨٦	١٩٨٧
الابتدائي او دونه	٢٦	٢٩	٢٤	٢٧
مهني	٢٤	٢٠	٢٣	٢٤
الثانوي والعالي	٥٠	٥١	٥٣	٤٩

المعطيات بالنسبة المئوية.

الانتماء الى طائفة دينية - وهذا لم يذكر ايضاً - يختلف في تحقيق عام ١٩٨١ عن التحقيقات الأخرى. ولكن لم تشكل الفروقات اية فائدة تذكر.

الطوائف الدينية	١٩٨١	١٩٨٤	١٩٨٦	١٩٨٧
سنة	١٨	٢٦	١٦	٢١
شيعية	٢٦	٢٦	٢٧	٢٧
دروز	٤	٥	٦	٤
موارنة	٣٨	٢٤	٢٩	٢٥
روم وكاثوليك	١٢	١٨	١٧	١٩
ارمن ومسيحيون اخرين	٢	٥	٥	٤

المعطيات بالنسبة المئوية.

يستنتج اجمالاً بان عيّنات عام ١٩٨٤ و ١٩٨٦ و ١٩٨٧ هي قابلة للمقارنة تماماً وفقاً للمعالم المشار اليها حسب القطاع الاقتصادي، والجنس، والسن، بينما تتلاءم مع التوزيع الجغرافي وفقاً للمتغيرات الحاصلة. ولذلك تبرز الفروقات. اما تحقيق عام ١٩٨١ فيختلف عن التحقيقات الأخرى بسبب عثراته المختلفة والتي ليست بالتالي جسيمة، حتى انه - مع تحفظات واضحة العالم - لا حاجة الى اخذها بعين الاعتبار في التحليل المقارن.

وكوسيلة للتأكد من امكانية مقارنة الاستثمارات، يمكن الأخذ بعين الاعتبار التوزيع حسب المستوى التعليمي والانتماء الطائفي، ورغم عدم فرز اية حصص

لهذه المؤشرات. المستوى التعليمي أبرز في العينات الاربع. اما التوزيع حسب الانتماء الطائفي، فقد اشير اليه في عينات ١٩٨٤، ١٩٨٦ و ١٩٨٧. لذلك تسمح المقومات الثابتة للمعلومات والمعطيات دون اي عائق بتبرير استخدام التحقيقات الاربعة في تحليل تقريبي للاتجاهات.

٢ - تحقيق عام ١٩٨٧

اعتمد تحقيق عام ١٩٨٧، وهو الأحدث والأشمل، أساساً للتحليل المفصل. فاستناداً الى المعطيات الأساسية برزت اتجاهات في التطور تكشف عن معنى مجتمعي هام.

تمثل الذكور في تلك العينة بنسبة ٧٩٪ والإناث ٦١٪. كما كانت الإناث العاملات بصورة عامة اصغر سناً من الذكور. ٨٠٪ منهن بلغن سن الخامسة والثلاثين أو أقل، بالمقارنة مع ثلثي عدد الرجال. كانت المتزوجات منهن قليلات غالباً، ولم يكن لنصفهن تقريباً اي اولاد.

فرغم كونهن ذات مستوى تعليمي اعلى من المعدل الوسط - ٨٥٪ انهين التعليم الثانوي والجامعي مقابل ٤٢٪ لدى الذكور - فقد توزعن حسب مستوى الدخل بصورة مختلفة: ضعفا عددهن من فئة الدخل الأدنى، وثلاثة اضعاف اقل من فئة الدخل الأعلى، وذلك بالمقارنة مع زملائهن الذكور. كانت اكثريتهن تعمل في القطاع التربوي والمصرفي والخدماتي. يسكن ايضاً معظمهن في بيروت الشرقية والمتن وكسروان وجبيل. ١١٪ مسيحيات (مقابل ٤٥٪ من الذكور المسيحيين)، ومعظمهن من الموارنة والروم الكاثوليك. وبالاختصار، كانت الطبقة العاملة اللبنانية تتألف بمعظمها آنذاك من الذكور، خاصة في قسمها المسلم.

بالنسبة للسن توزعت العينات نسبياً كما يلي:

١٠	٢٠ - ١٥ سنة
١٦	٢٥ - ٢١ سنة
٤٢	٣٥ - ٢٦ سنة
١٩	٤٥ - ٣٦ سنة
١٣	٤٦ سنة وما فوق

٤٩٪ غير متزوجين - ٤٦٪ دون أولاد. ٢٤٪ لديهم من ولد واحد الى ثلاثة. و ٣٠٪ لديهم أربعة أولاد وأكثر.

في لبنان يتزوج الناس في سن متقدمة وذلك لأسباب بمعظمها اقتصادية. ٣٥٪ من العينة وحتى سن ٣٥ كانوا من فئة الدخل الدنيا. يتزوج المرء عند ما يصبح بمقدوره إعالة أسرة. معظم العازبين غير المتزوجين كانوا يعملون في قطاع الخدمات وفي المصانع، وفي قطاع المهن حيث تدفع أدنى الأجور. اما ذوي الأسر الكبيرة، فهم بنوع خاص من الفلاحين. ومن بينهم حوالي ٧٠٪ تضم أسرهم أربعة اولاد او أكثر.

يبدو تطوّر السكان في لبنان وكأنه يمرّ في مرحلة انتقالية. الأسر الكثيرة الأولاد هي ظاهرة موجودة لدى السكان المزارعين ولكنها تتراجع سريعاً، رغم ان ملامحها مازالت ظاهرة الى حدّ ما لدى النازحين الجدد من الريف الى المدن. الأسر الكثيرة الأولاد تقطن معظمها المناطق الريفية في جنوب لبنان وشماله وشرقه.

الفئات الشابة في كل مناطق البلاد تتدفّق نحو بيروت. فأكثر من نصف عدد العيّنات حتى سنّ ٢٥ هم من المناطق البعيدة. ولكن نسبة الشباب اليوم في المناطق الكثيرة التمدّن هي اعلى بكثير ممّا هي في باقي مناطق البلاد.

مركز السكن	٢٥-١٥ سنة %
بيروت الشرقية وضواحيها	٢٨
بيروت الغربية وضواحيها	٢٨
المتن	٢٧
كسروان - جبيل	٢٩
الشوف - عاليه	٢٤
طرابلس - صيدا	٢٢
لبنان الجنوبي	٢١
لبنان الشمالي ^١	٢٩
البقاع	٢٢

٨- قد تكون هناك اسباب سياسية للنسبة العالية من الشباب في شمال لبنان. فالقوى المسيطرة على منطقتي الكوره وزغرتا هي على نزاع مع الميليشيات المسيحية في بيروت الشرقية، وهذا ما يردع النزوح الى هناك. اما بيروت الغربية فكانت قليلة الانجذاب في تلك الفترة بالنسبة لمسيحيي الشمال.

فكما أشير سابقاً، جرى توزيع المستجوبين على أربع مجموعات كبيرة مقارنة من حيث الدخل. المجموعة الأدنى كانت تكسب أقل من ٦٠٠٠ ل.ل شهرياً، المجموعة الثانية ما بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ ل.ل، المجموعة الثالثة ما بين ٨٠٠٠ و ١٠٠٠٠ ل.ل، والمجموعة الرابعة والأعلى من ١٠٠٠٠ ل.ل وما فوق ١٢.٩٪ لديهم دخل ثان و ٥٠٪ منهم تقريباً يملكون مسكناً أو عقاراً.

تمثل مجموعة الدخل الأعلى كبار الملاكين، والصناعيين والعاملين في الحرف الحرة. ينتمي نصف المستجوبين في هذه المجموعة الى فئة الدخل الأكثر ارتفاعاً. وفي المجموعتين المتوسطتين يتمثل الموظفون والمستخدمون والعاملون في المزارعون. وفي المجموعة الدنيا يتمثل المستخدمون، والمعلمون، وعمل المصانع، والعاملون بنوع خاص في مؤسسات خدماتية^{١٠}.

يلاحظ وجود معظم الذين يكسبون دخلاً جيداً في بيروت الشرقية والمن والشوف. بينما تأتي مجموعة الدخل الأدنى بنوع خاص من جنوب لبنان، ومن بيروت الغربية. هنا ينعكس دون ريب الوضع الأمني المتفاوت. في المناطق الهادئة نسبياً كان الوضع الاقتصادي عام ١٩٨٧ أفضل بكثير من المناطق المتأثرة بأحداث الحرب.

بالنسبة للمستوى التعليمي، توزعت الفئات نسبياً كما يلي:

٪	
١٤	لم ينهوا اية مرحلة تعليمية
١٣	انهموا مرحلة التعليم الابتدائي
٢٤	انهموا مرحلة التعليم المهني ^{١١}
٣٠	انهموا مرحلة التعليم الثانوي
١٩	انهموا مرحلة التعليم الجامعي

- ٩- ١١٪ لم يعطوا اي جواب على السؤال حول دخلهم الشهري. تتشكل هذه النسبة بنوع خاص من كبار ملاكي الأراضي، والمزارعين، والعامل الزراعيين من جهة، ومن اصحاب المهن الحرة من جهة أخرى، اي الفئات التي لا دخل لها ثابت دورياً.
- ١٠- حسب القطاعات، تشكل التجارة القطاع الذي يدر أعلى نسبة من الدخل (٥٠٪ من هذا القطاع من ذوي الدخل الأعلى) وكذلك القطاع المصرفي والتأمين (٣٨٪).
- ١١- "البريفه"، اي الشهادة الإعدادية.

يتميز مجتمع لبنان بالثقافة والتعليم رغم عدم وجود أي قانون يفرض التعليم الإلزامي فيه. و ينطبق هذا بنوع خاص على فئة السكان العاملة. نصفها تخرج من التعليم الثانوي وخمسها من التعليم العالي، وبذلك تتمتع بمستوى تعليمي أعلى مما هو في بعض المجتمعات الصناعية الغربية^{١٢}. ولكن من جهة أخرى هناك فئة لا بأس بها لم يتسن لها إنهاء أية مرحلة تعليمية، وهذا الأمر يفسر بالتطور التاريخي للتعليم وبالساسة التعليمية التي انتهجت في لبنان منذ الاستقلال. فالمدارس انشئت في البدء من قبل الطوائف الدينية، خاصة من قبل الكنائس المسيحية في منطقة جبل لبنان. وفي عهد الانتداب الفرنسي، أنشئ قطاع عام للتربية، وذلك للحد من التباينات والتفاوت بين المناطق، خاصة انه حتى عام ١٩٢٠ لم تكن هناك مدارس في المناطق البعيدة التي كانت واقعة تحت الحكم العثماني مباشرة. وفي عهد الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ - ١٩٦٤) اتبعت سياسة التوازن الجغرافي بعزم وقوة، ولكن دون اقرار الزامية التعليم. فالتشديد يقوم لاعلى انعكاس الزامية التعليم فحسب بل على تأثير الفائدة الاقتصادية في مجتمع خدماتي يستفيد كثيرا من نوعيات التعليم^{١٣}.

تستكشف النتائج من توزيع الفئات العمرية حسب المستوى التعليمي: ٢٧٪ من الذين لم يكملوا أية مرحلة تعليمية بلغوا سن السادسة والثلاثين وما فوق. وقد كانوا بمعظمهم في سن الدخول الى المدرسة في عهد فؤاد شهاب. وبالمقابل هناك ٤٪ لم ينهوا أية مرحلة تعليمية، وقد بلغوا سن الخامسة والعشرين أو أقل. بين الشباب يعتبر المستوى التعليمي بمعظمه عالياً^{١٤}. فنسبة المتخرجين من التعليم الثانوي تبلغ ٦٠٪، كما ان ربع الفئة العمرية بين ٢٦ و ٣٥ سنة تخرج من التعليم العالي.

١٢- ليس من المنظور الكمي فحسب، بل ايضاً من المنظور النوعي. تعادل البكالوريا اللبنانية في مضمون برنامجها البكالوريا الفرنسية، باستثناء تدريس اللغات الاجنبية التي هي ذات مستوى اعلى بكثير. اما التعليم الفني فكان منذ عقد الستينات يوازي مستواه المستويات الدولية الأكثر حداثة.

١٣- راجع: Théodor HANF, Erziehungswesen in Gesellschaft und Politik des Libanon, op. cit.
١٤- في المرحلة العمرية ٢١ الى ٢٥ سنة، يحوز ٣٨٪ الشهادة الثانوية و ١٩٪ شهادة جامعية. وهناك عدد كبير من الفئة العاملة، يتابعون الى جانب عملهم دروساً جامعية، وهذا ما يزيد حتماً النسبة المشار إليها.

مستوى التعليم حسب المناطق السكنية

المنطقة السكنية	دون اي تعليم	ابتدائي	مهني	ثانوي	جامعي
بيروت					
رأس بيروت	٩	١١	٢٧	٣٨	١٦
المصيطية- المزرعة	١٨	٩	٢٦	٣٠	١٧
البسطة	١٢	١٦	٢٣	٣٨	١٢
طريق الجديدة	١٧	١٢	٣١	٣٢	٧
الاشرفية	١٣	١١	٢٧	٢٨	٢٢
ضواحي بيروت الشرقية	١١	١٢	٣٠	٢٥	٢٢
الشيح	٢١	٢١	٢٠	٣٠	٩
حارة حريك	١٥	١٢	٢٢	٣٧	١٥
برج البراجنة	١٤	١٨	٢٥	٣٢	١٢
الجناح-الاوزاعي	٢١	١٤	٣٢	٢٩	٥
مجمع بيروت	١٤	١٣	٢٧	٣١	١٥

المناطق الأخرى					
المتن	٧	٤	١٣	٣٧	٤١
كسروان	٨	٨	١٦	٣٦	٣١
جبيل	٧	١٤	٢٦	١٩	٣٤
الشوف-عالية	٢٠	٢٠	٢٢	٢١	١٦
صيدا	١٧	٧	٢١	٤٢	١٤
النبطية	٢٠	١٩	٢٥	٢٠	١٦
جزين	٢٤	٩	١٥	٤٢	١١
البقاع الأوسط والغربي	١٥	١٧	٣٤	٢٧	٨
بعلبك-الهامل	٢٥	٢١	٢٥	١٨	١٢
طرابلس	٩	١٢	٢٦	٢٤	٣٠
الكورة-زغرتا	٨	٧	١٨	٣٣	٣٤
عكار	٨	١٩	٣٠	٣٠	١٢
مجل المناطق الأخرى	١٤	١٣	٢٢	٢٩	٢٢
مجموع المستجوبين	١٤	١٣	٢٤	٣٠	١٩

المعطيات بالنسبة المئوية

كان المستجوبون دون اي مستوى تعليمي من العمال الزراعيين، والفلاحين، والحرفيين اليدويين وكذلك من العاملين في مجالات لا يحتاجون فيها الى اية شهادة أو مؤهلات. اما المتخرجون من التعليم العالي، فيعملون بمعظمهم، كما هو معروف، في المهن الحرة، والوظائف الحكومية، والهيئات التعليمية، والمصارف، وشركات التأمين.

كشف التحليل الدقيق بوضوح عن ان توسع المجال التربوي في لبنان قد حدّ كثيراً من التباين بين المناطق خلال العقود الثلاثة الأخيرة، ولكنه لم يقض عليه بعد.

في بيروت تقطن الفئة ذات المستوى التعليمي الضعيف بمعظمها في الشياح وفي الجناح-الاوزاعي، اي في الضواحي الشيعية التي تضم عدداً كبيراً من نازحي الجنوب وشرق البلاد. وخارج بيروت هناك ايضاً مناطق تسكنها اكثرية شيعية - مثل بعلبك - الهرمل، وجزين، وأطراف الجنوب، والنبطية - ولكن ايضاً في الشوف حيث تبرز بقوة نسبة الذين لم يتلقوا تعليماً كافياً. وهكذا يستنتج ان التخلف التاريخي لم يقض عليه بعد (راجع الجدول السابق).

اما القفزة التاريخية في "لبنان الصغير" سابقاً، فما زالت تتجسد بوضوح في مستوى التعليم العالي. فبيروت الشرقية وضواحيها، والمناطق المسيحية في وسط لبنان وشماله - المتن، كسروان، جبيل، الكورة، وزغرتا - وكذلك ايضاً طرابلس، تضم بمعظمها معدلاً أعلى من المتوسط في اعداد خريجي التعليم العالي. وبنوع خاص في المتن، يبلغ عدد حاملي الشهادات الجامعية ضعفي المعدل الوطني العام.

وبوضوح أكثر، تبرز آثار سياسة تطوير التعليم، التي نفّذت في الستينات، على مستوى التعليم الثانوي. وهكذا يتوقف كل شيء على عامل الزمن كي يتحقق توازن بين المناطق على مستوى التعليم العالي.

الربط بين التعليم والدخل ظاهرة معقدة كما يكشف الجدول التالي:

مجموعة الدخل				التعليم
٤ (الأعلى)	٣	٢	١ (الاننى)	
١٩	٣٣	٣١	١٧	دون اي مستوى تعليمي
٢٩	٢٦	٢٠	٢٥	المستوى الابتدائي
٢٣	٢٠	١٩	٣٨	المستوى المهني
١٩	١٧	٣٥	٢٩	المستوى الثانوي
٣٧	١٧	٢٧	١٩	انهوا المستوى العالي
٢٥	٢١	٢٧	٢٧	المجموع

المعطيات بالنسبة المئوية

فعدم توفر اي مستوى تعليمي شكلي لا يعني في لبنان فقراً على الإطلاق. فالمستجوبون في هذه الفئة يتجاوز دخلهم اعلى مبلغ في معدلات الدخل الدنيا، ولكنه ادنى دخل ايضاً. الا انهم يتمثلون في مجموعتي الدخل المتوسط ويتجاوزون معدلها. ومعظمهم من فئة الفلاحين والحرفيين اليدويين من ذوي الدخل الجيد، ولم يؤثر عليهم اطلاقاً العامل التعليمي.

اما الذين يحملون شهادة الدروس الابتدائية فيتمثلون بمعدل يتجاوز المعدل الوسط في مجموعتي الدخل الأعلى. ان عدداً كبيراً من المهن المكتسبة، خاصة في حقل التجارة، لا تحتاج في لبنان الى شهادات تعليم عالية، بل تستلزم حباً او طمعا بالثروة، ومرونة، وأهلية في الاتصالات واختباراً في الحياة. وهذه الصفات نادراً ما يكتسبها التلامذة والطلاب في المدارس والجامعات.

حتى المكاسب المادية في التعليم المهني الكلاسيكي لها حدودها. ولكن الواقع يشير الى ان حاملي شهادة البريفه يتمثلون تقريباً بمعدل عادي في مجموعتي الدخل العالي. وهذا يدل ايضاً على ان الحظ بالنجاح في الحقول المهنية يتوافق ويرتبط مع هذا المستوى التعليمي. ومن جهة أخرى يتجاوز قسم من هذه الفئة المعدل الوسط في مجموعة الدخل الدنيا. وهؤلاء هم بمعظمهم من الذين أثرت كثيراً أحداث الحرب سلباً على الحرف التي مارسوها، سواء في الصناعة او في السياحة^{١٥}. وكما سيبيّن لاحقاً، فان معظم حاملي شهادة البريفه (الأهلية المهنية) كانوا يتلهفون الى حلول سريعة وسلمية للنزاع. فنهاية الحرب ستفتح لهم المجال واسعا لتحسين اوضاعهم المهنية بصورة بارزة.

المستوى التعليمي الأكثر حرجاً اقتصادياً برز لدى خريجي التعليم الثانوي. فهؤلاء هم الاضعف تمثيلاً في مجموعتي الدخل العالية ولكنهم اكثر تمثيلاً في مجموعتي الدخل الدنيا. فقبل اندلاع الحرب، ومنذ بداية السبعينات تجاوز بكثير مستوى عرض خريجي التعليم الثانوي على الطلب في سوق العمل اللبناني. وفي الأزمة الاقتصادية منذ عام ١٩٨٤ ازداد هذا الوضع سوءاً. وهذا يعني ان الاهتمام منذ الستينات بتأمين مدارس ثانوية في كل البلاد اسفر عن احلال توازن في الوضع التعليمي بين المناطق، ولكنه لم يؤدِ تلقائياً ايضاً الى بلوغ توازن في مجال الدخل.

١٥- تخرج من المدارس الفنية اللبنانية عدد لا بأس به من الاختصاصيين الذين استوعبهم القطاع الصناعي الذي عرف نمواً وتوسعاً كبيراً في النصف الأول من السبعينات. نذكر بنوع خاص ايضاً مدارس التدريب الفندقية التي كانت تشرف على شبكة من المطاعم والفنادق وتؤمن لها الكوادر الفنية. ولكن الحرب عطلت كثيراً القطاع الصناعي وبنوع خاص القطاع السياحي الذي قضى عليه تماماً.

فخريجو المدارس الثانوية المستأثرون والناقمون على الوضع كانوا يشكلون مجموعة ميسسة وبارزة قوّة تميل باكثريتها نحو التطرف.

حتى شهادة التعليم العالي لم تعد تشكل ضماناً لدخل عال. فحوالي عشرين بالمائة تقريباً من الجامعيين كانوا من جماعة الدخل الأدنى. مع ذلك مازالت الدراسة الجامعية تعتبر استثماراً اقتصادياً هاماً. مجموعة الدخل العليا تتمثل بمعظمها باصحاب الشهادات الجامعية الذين تتوفر لهم امكانيات العمل في مجال المهن الحرة المكسبة، وتسلم المناصب الرفيعة في المؤسسات المصرفية وشركات التأمين، وكذلك الوظائف العليا في الدولة. وبعكس شهادات التعليم الثانوي، تشكل الشهادة الجامعية مؤشراً أكيداً لرخاء العيش، رغم انه ليس المؤشر الوحيد.

بالنسبة للمجموعات المهنية، توزع المستجوبون كما يلي:

٦ %	كبار الملاكين، والصناعيون
١٣ %	مهن حرة
٣٥ %	موظفون ومستخدمون
١٣ %	حرف يدوية
٣ %	فلاحون
١٣ %	عمال مصانع
١٢ %	قطاع الخدمات
٥ %	عمال مزارعون

اعطى التوزيع وفقاً للقطاعات الاقتصادية المشار اليها الصورة التالية:

١٣ %	مؤسسات حكومية ومصالح مستقلة
٨ %	الزراعة
١٤ %	الصناعة
٦ %	البناء
١٤ %	التجارة
٨ %	مصارف وتأمين
٨ %	النقل
١١ %	التربية والتعليم
١٨ %	مؤسسات خدماتية اخرى

التحرك المهني بين الأجيال

مجموع مهن المستجيبين	عمال زراعيون	قطاع الخدمات	عمال صناعيون	الأحرف	حرف يدوية	موظفون مستخدمون	مهن حرة	كل المهنيين الصناعيون	مهنة الوالد
مهنة المستجيبين :									
٦	١	٢	١	٩	٣٣	١٢	١٢	٢٠	كل المهنيين وصناعيون
١٣	٤	٤	١٠	١٠	٢٣	٢٣	١٤	١٢	مهن حرة
٣٥	٦	٨	١٥	١٤	٢٥	٢١	٥	٦	موظفون ومستخدمون
١٣	٧	٨	١٨	٢٩	٢٨	٤	٣	٣	حرف يدوية
٣	٢٩	-	١٠	٤٠	١٥	٤	-	٢	الأحرف
١٣	١٦	٨	١٨	٢٢	٢٤	٧	٣	٢	عمال صناعيون
١٢	١٠	٤	٢٦	١٦	٢٩	١٢	١	٢	قطاع الخدمات
٥	٤٩	٣	٥	٢٦	١٥	٢	-	-	عمال زراعيون
١٠٠	١٠	٦	١٥	١٨	٢٥	١٥	٥	٦	مجموع مهنة الأبناء

المعطيات بالنسبة المئوية.

يقطن اصحاب المهن الحرة بمعظمهم وينوع خاص في المتن، وبمعدل أقل في غرب بيروت، وذلك نتيجة لهجرة السكان بسبب أحداث الحرب. الحرفيون اليدويون يقطنون بمعظمهم في غرب بيروت وفي جنوب لبنان. والفلاحون المستقلون في الجنوب أيضاً، والعمال الزراعيون في الشوف وفي سهل البقاع، الذي يشكل آخر معقل للملكية الزراعية الكبيرة التقليدية.

تتبعكس اللامركزية في الصناعة اللبنانية التي سببتها الحرب على توزيع العمال الصناعيين حسب المناطق. فالقسم الأكبر منهم يقطن في ضواحي بيروت الغربية الشيعية، وفي ضواحي بيروت الشرقية المارونية، وكذلك أيضاً في جبيل وكسروان. ان قسماً من المؤسسات الصناعية انتقل من المناطق المحيطة في بيروت والواقعة في المناطق الساخنة الى المنطقة المسيحية الأقل خطراً.

ان حجم تبدل البنية الاقتصادية يبرز التحرك المهني بين الأجيال بصورة شديدة الانطباع (انظر الجدول السابق).

فقط نسبة كبار الملاكين والصناعيين تبدو ثابتة. اما نسبة اصحاب المهن الحرة فقد ارتفعت من ٥ الى ١٣٪. كما ارتفعت نسبة الموظفين والمستخدمين من ١٥ الى ٣٥٪. اما نسبة الحرفيين اليدويين فقد انخفضت الى النصف، وانهارت بشكل مأساوي نسبة الفلاحين من ١٨ الى ٣٪. وبسبب ظروف الحرب، تراجعت أيضاً نسبة العمال الصناعيين، بينما تضاعفت نسبة العاملين في قطاع الخدمات من ٦ الى ١٢٪. وفئة العمال الزراعيين التي بلغت نسبتها ١٠٪ لدى الآباء، تقلصت الى ٥٪ لدى الأبناء. وبالاختصار، يلاحظ ان التقلص في المهن الزراعية، يشبه الى حد كبير الأمر الحاصل في ألمانيا وفرنسا. اما مجال العمل الصناعي فقد بقي ثابتاً. بالمقابل حصل تطور رهيب في قطاع الخدمات الرسمي والخاص.

يتميز المجتمع اللبناني ليس بتحريك قوي جداً اجتماعياً ومهنياً فحسب، بل أيضاً بتحريك جغرافي شديد البروز. ولا يعود هذا الأمر الى دوافع حرة او اقتصادية فقط، بل بقسمه الأكبر الى الهرب والتهجير اثناء سنوات الحرب. فتوزيع المستجوبين وفقاً للأصل الجغرافي وموقع السكن يسمح على الأقل بالتعرف الى هذه الظاهرة. وهذا ما يمكن استكشافه من الجدول التالي^{١٦}.

١٦ - ان العينة هي بحد ذاتها صغيرة كي تمكن من استخلاص نتائج ديمغرافية احصائية ذات أهمية. فهي لا تعوض عن اي إحصاء. ولكنها توضح بالتقريب نوعية وحجم مشكلة النزوح.

الأصل ومكان السكن

الأصل عامة	البقاع	لبنان الشمالي	لبنان الجنوبي	طرابلس صيدا	الشوف عاليه	جبل كسروان	المتن	بيروت القريبة	بيروت الشرقية	مكان السكن
مكان الأصل:										
٩	٨	١	-	-	١	٥	٥	٤	٧٥	بيروت الشرقية
١٢	٢	-	-	١	١	-	٤	٨٦	٦	بيروت الغربية
٦	٩	-	-	-	١	٥	٥٧	٨	٢٠	المتن
٧	٣	١	-	١	-	٨٢	٦	٤	٣	كسروان جبيل
٩	-	-	١	١	٥٢	٣	٥	٢٦	١١	الشوف عاليه
٨	١	١	١	٨٠	-	١	١	١٣	٢	طرابلس صيدا
١٨	-	-	٤١	١	-	-	١	٥٦	١	لبنان الجنوبي
١٤	١	٦٥	-	١٠	-	٥	٢	٥	١٢	لبنان الشمالي
١٦	٥٦	-	-	-	-	١	٣	٢٣	١٧	البقاع
١٠٠	١٠	٩	٨	٩	٥	٨	٦	٣٠	١٥	المجموع

المعطيات بالنسبة المتروكة.

تسكن اكثرية المستجوبين في المنطقة التي يتحدرون منها. ولكن لا ينطبق هذا الأمر الا على ٤١٪ بالنسبة لجنوب لبنان، و ٥٢٪ بالنسبة لمنطقة الشوف-عالية. فجنوب لبنان هو في الحقيقة المنطقة التي عرفت أقوى حركة تنقل سكانية. ٥٦٪ من الذين استجوبوا، هم من جنوب لبنان، ولكنهم يسكنون في بيروت الغربية. جاؤوا اليها نظراً للامكانيات الاقتصادية المتوفرة فيها، وهربا من الفقر الذي كانوا يعانون منه في قراهم. ولكنهم هربوا ايضاً بسبب المعارك التي تعرض حياتهم باستمرار للخطر منذ عام ١٩٦٩. تنطبق هذه الظاهرة ايضاً على النزوح من الشوف وعالية. يعيش ربع النازحين من مناطقهم الأصلية اليوم في غرب بيروت. جاؤوا اليها بحثاً عن امكانيات حياة وعمل أفضل. بينما ١٩٪ من الذين يسكنون في بيروت الشرقية، والمتن وكسروان وجبيل هم نازحون وبالتالي مهجرون بسبب حرب الشوف عام ١٩٨٣ و ١٩٨٤.

اما الذين جاؤوا من البقاع، فيعيش منهم حوالي ٢٠٪ في بيروت الشرقية والمناطق المجاورة لها، وكذلك في بيروت الغربية. الأولون هم مسيحيون كان وجودهم في البقاع مهدداً وصعباً للغاية منذ عام ١٩٧٥، وخاصة منذ عام ١٩٨٣. والآخرون هم من الشيعة استقروا في ضواحي بيروت الجنوبية.

٨٪ من الذين ولدوا في بيروت الشرقية و ٩٪ في المتن، يعيشون اليوم في البقاع. ومن المحتمل ان يكون معظمهم من الشيعة الذين هربوا عام ١٩٧٦ من النبعة، والكرنتينا، ومن مخيمات الفلسطينيين في جسر الباشا وثل الزعتر. و ٤٪ آخرون من بيروت الشرقية و ٨٪ من المتن يعيشون اليوم في بيروت الغربية. وبالمقابل هناك ١٠٪ اصلهم من بيروت الغربية، يعيشون اليوم في بيروت الشرقية وفي المتن. هجروا او هربوا في اطار "عملية التجانس" التي حصلت في جزئي العاصمة.

يمكن تفسير عدد قليل فقط من حركات النزوح والانتقال بحركات "طبيعية"، مثل التبادل بين بيروت الشرقية والمناطق المسيحية المجاورة لها، او بين لبنان الشمالي ومدينة طرابلس. فموجات النزوح اللبنانية الداخلية الكبيرة هي من جهة النزوح الريفي من المناطق النائية الى منطقة بيروت الكبرى، والتي حصلت بمعظمها قبل الحرب لدوافع اقتصادية، وبنوع خاص بالنسبة للجنوب، ولكن ايضاً بسبب احداث الحرب. ومن جهة أخرى حصلت موجة النزوح بسبب هرب وتهجير الأقليات من المناطق التي كانت خليطة قبل الحرب.

بصورة عامة، ٣٥٪ من المستجوبين لا يعيشون اليوم في المناطق التي يتحدرون منها، وان لأسباب مختلفة. انها عملية تفكك جغرافي اكبر من العملية التي عرفتھا المانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية.

الى اي حد وصلت "عملية التآجنس"؟

هذا ما يمكن استكشافه من مقارنة امكنة السكن والانتماء الطائفي للمستجوبين^{١٧}. ان ظاهرة "التطهير الإثني" بين الطوائف -التي حصلت طوعاً أو قسراً - بلغت أعلى درجاتها في العاصمة، خاصة في منطقة رأس بيروت التي كانت سابقاً أكثر المناطق اختلاطاً بين الطوائف، نظراً لطابعها الدولي بفعل وجود الجامعة الاميريكية فيها. فثلث المستجوبين هم من الطوائف المسيحية، وخمسهم فقط من منطقتي المصيطية والمزرعة. اما في ضواحي بيروت الجنوبية، فلم يلتق المحققون بأي مسيحي، كما لم يلتقوا في الأشرفية وفي ضواحي بيروت الشرقية بأي مسلم.

كذلك يستنتج من العينة ان السنة اصبحوا اقلية في عرين معقلهم سابقاً في بيروت الغربية. فقط في بعض الأحياء السكنية، مثل البسطة، وزقاق البلاط وبرج ابوحيدر، مازالوا يشكلون تقريباً نصف المستجوبين، بينما يتساوى العدد في احياء المزرعة وطريق الجديدة بين السنة والشيعية. هذا وتبلغ نسبة السكان الشيعة في الضواحي الجنوبية من بيروت ٩٠٪ تقريباً.

في بيروت الشرقية حافظت منطقة الأشرفية ظاهرياً على طابعها ذي الأكثرية الارثوذكسية. بينما طغت في الضواحي اكثرية مارونية. وفي خارج بيروت، لم تبرز اية مشكلة لفرض عملية "التآجنس". في المتن وكسروان، كان معظم السكان، حتى قبل الحرب، من الطوائف المسيحية فقط. في المتن مثلاً، يشكل الموارنة ثلث عدد السكان، والروم الكاثوليك رבעه تقريباً، والروم الارثوذكس خمسهم الأول، والأرمن خمسهم الثاني، والطوائف المسيحية الأخرى خمسهم الثالث. وفي كسروان، لا يوجد عملياً إلا موارنة. اما منطقة جبيل فبقيت المنطقة الوحيدة التي سيطرت عليها الميليشيات المسيحية، والتي تعيش فيها أقلية مسلمة لا بأس بها.

في مناطق الشوف وعاليه والمنتن الأعلى، كان من الصعب جداً اللقاء بموارنة، بفعل أحداث عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٤.

١٧- العينة هي ايضاً غير كافية لاستخلاص نتائج ديمغرافية. فرغم عدم ذكر الانتماء الطائفي في عملية توزيع الحصص، بل في إطار الحصص المختارة بطريقة عشوائية، يتبين ان ذلك يلائم جيداً توضيح التوزيع الاقليمي للسكان وفقاً للانتماء الطائفي. راجع في هذا الصدد:

Khalil ABOU RJEILY & Boutros LABAKI, Les paroisses déplacées des Eglises du Liban, Paris et Beyrouth 1987.

اما في المناطق الأخرى، فقد عكست العينة طائفيًا الواقع السكاني المعروف، أي أكثرية سنية في طرابلس وصيدا وعكار، أكثرية شيعية في النبطية وصور والزهراني وبعبك والهرمل، واكثريات مسيحية في جزين والكوره وزغرتا.

بالاختصار يلاحظ ان المناطق الواقعة خارج بيروت حافظت على تكوينها حسب الطوائف الدينية أكثر بكثير من العاصمة، وضواحيها الشرقية والغربية:

مناطق السكن والانتماء الطائفي

مناطق السكن	سنة	شيعية	دروز	موارنة	روم	كاثوليك	ارمن
بيروت:							
راس بيروت	٤١	١٣	١٤	٨	٦	٦	١٣
مصيطية-مزرعة	٢٧	٢٧	٢٤	٥	٩	٣	٥
البسطة	٤٦	٤١	٦	-	-	١	٥
طريق الجديدة	٤٢	٤١	١٢	١	-	-	٤
أشرفية	-	١	-	٢٦	٥٥	١١	٧
الضواحي الشرقية	-	-	-	٧٠	٨	١٧	٥
الشياح	٧	٨٧	-	-	-	-	٦
حارة حريك	٧	٨٨	-	-	-	-	٦
برج البراجنة	٤	٩٢	-	-	-	-	٤
جناح-اوزاعي	٦	٩١	-	-	-	-	٣
مجموع بيروت	١٦	٤٠	٦	١٧	١١	٥	٤

مناطق السكن	سنة	شعبة	دروز	موارنة	روم	كاثوليك	ارمن
المناطق الأخرى							
المتن	-	-	-	٣٣	٢١	٢٤	٢٢
كسروان	-	-	-	٩٩	-	١	-
جبيل	١٦	١١	-	٧٣	-	-	-
الشوف عاليه	٥٥	٥	١٩	٤	٨	٩	-
صيدا	٧٤	٦	١	٤	١	١٣	-
النبطية	-	٨١	-	٧	-	١٢	-
جزين	١٤	٢	-	٣١	٢٩	٢٤	-
البقاع الاوسط والغربي وزحله	١٠	١٦	٣	٣٣	٢	٢٥	١٢
بعلبك الهرمل	١٢	٧٢	-	٦	-	٩	-
طرابلس	٧٢	١	-	١٣	١٤	-	-
كوره زغرثا	٤	-	١	٦٢	٣٢	-	١
عكار	٧٣	-	-	١٣	١٣	-	-
مجموع المناطق الأخرى	٢٥	١٥	٢	٣٢	١٠	١١	٤
مجموع العينة	٢١	٢٧	٤	٢٥	١١	٨	٤

المعطيات بالنسبة المئوية.

الطوائف الدينية حسب المجموعات المهنية

الطوائف الدينية	كبار الملاكين الصناعيون	الذين الحرة	الموظفون (المستخدمون)	العمال المهنيون	الزراعيون صناعيون	عمال عقال	قطاع الخدمات	عمال زراعيون
السنة	٧	١١	٣٦	١٢	٣	١٠	١٥	٥
الشيعة	٥	٨	٢٧	١٩	٢	١٨	١٤	٦
الدروز	٣	٩	٤٧	١٢	١	١٠	١٦	٣
الموارنة	٨	١٥	٣٩	٧	٣	١٤	١٠	٥
الروم الارثوذكس	٧	١٨	٤٢	٨	٣	٨	١١	٤
الروم الكاثوليك	٤	١٨	٣٨	١٠	٤	١١	٩	٦
الارمن	١٠	١٧	٣٣	٢١	١	١١	٧	-
مجموع المستجيبين	٦	١٣	٢٥	١٣	٣	١٣	١٢	٥

المعطيات بالنسبة للموتيرة.

كيف تتميّز الطوائف وفقاً لمعالم اجتماعية أخرى؟

من حيث البنية العمرية لا تبرز أية معالم تستحق الذكر، ولكن بالمقابل تبرز بعض الفوارق من حيث البنية العائلية. ٣٦٪ من المستجوبين السنة و ٤٩٪ من المستجوبين المسيحيين هم غير متأهلين. ولكن تبرز على الأقل فوارق في معدل عدد الأولاد^{١٨} بين الطوائف:

الطوائف الدينية، وامكنة السكن، وعدد الاولاد

الطوائف الدينية	خارج البلاد	مكان السكن في بيروت	المجموع
السنة	٤,٣	٤,٥	٤,٢
الشيعة	٥,٣	٤,٦	٤,٩
الدروز	٣,٨	٤,٠	٣,٩
الموارنة	٣,٣	٣,١	٣,٢
الروم الارثوذكس	٣,٦	٣,٣	٣,٤
الروم الكاثوليك	٣,٥	٣,٤	٣,٥
الأرمن	٢,٨	٣,٥	٣,٠

يبلغ معدل عدد الأولاد لدى المسلمين ٤,٥، ولدى الطوائف المسيحية ٣,٣

بالنسبة للتوزيع المهني، ابرز الجدول السابق الصورة التالية:

يتوزع عدد كبار الملاكين والصناعيين بالتساوي تقريباً على الطوائف الدينية الكبيرة. في قطاع المهن الحرة، يتفوق الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك والأرمن. وفي قطاع الموظفين والمستخدمين ترتفع نسبة الدروز، وتتنخفض نسبة الشيعة. في مجال الحرف المهنية، تبلغ نسبة كل من الشيعة والأرمن ١٣٪. إلا ان الشيعة يشكلون القسم الأكبر من العمال في القطاع الصناعي.

١٨ - رغم عدد النساء غير المتوازن في العينة، جرى إحصاء ذلك وفقاً لعدد الأولاد الذين صرّح عنهم الرجال فقط.

تبرز مجموعات الدخل ايضاً صورة مميزة ومشابهة كما يشير الجدول التالي:

توزيع الطوائف الدينية حسب مجموعات الدخل

مجموعات الدخل				الطوائف الدينية
٤ (الأعلى)	٣	٢	١ (الأدنى)	
٢٤	٢٧	٢٧	٢١	السنة
١٧	٢٠	٣٣	٣٠	الشيعة
٢٤	٢٩	٢٨	١٩	الدروز
٢٩	١٩	٢٤	٢٩	الموارنة
٣٤	٢٠	٢٠	٢٦	الروم الارثوذكس
٢٢	١٦	٣١	٣١	الروم الكاثوليك
٣٥	١٣	٢٠	٣٢	الارمن
٢٥	٢١	٢٧	٢٧	مجمّل المستجوبين

المعطيات بالنسبة المئوية.

يتمثل معظم الشيعة في المجموعتين الأدنى. في المجموعة الأولى يتمثل ايضاً الموارنة بذات النسبة تقريباً مثل الشيعة. الروم الكاثوليك^{١٩} والشيعة يمثلان هنا أعلى نسبة. ويشكل الأرمن أعلى نسبة في فئة الدخل الأعلى، يليهم الروم الارثوذكس،

١٩- طائفة الروم الكاثوليك التي تعتبر تقليدياً ميسورة، تكبدت خسائر فادحة بسبب انعكاسات الحرب في البقاع وفي المنطقة الخلفية من صيدا. فعدد اللاجئين من افرادها مرتفع جداً.

الدروز والسنة ٢٠ يصلان الى اعلى نسبة في المجموعة الثانية العليا من الدخل. وإذا ما جمعنا المستجوبين بين المسلمين والمسيحيين - ضمن اطار الخصائص الاجتماعية المميزة لكل طائفة - لحصلنا على التوزيع التالي:

مجموعات الدخل				
٤ (الاعلى)	٣	٢	١ (الادنى)	
٢١	٢٤	٣٠	٢٥	مسلمون
٢٩	١٨	٢٤	٢٩	مسيحيون
٢٥	٢١	٢٧	٢٧	مجموع العينة

المعطيات بالنسبة المئوية.

بالاختصار يستنتج من ان الاسطورة الواسعة الانتشار والتي تحدثت عنها وسائل الاعلام في وصفها المسيحيين ب "الأغنياء" والمسلمين ب "الفقراء"، لا تتفق إطلاقاً مع نتائج البحث التجريبي. اما الواقع الصحيح فيشير الى ان الشيعة هم الأضعف تمثيلاً في مجموعة الدخل الأعلى، ويمكن وصفهم في المجموعة الأدنى بالفقراء. ولكن يتمثل الشيعة والروم الكاثوليك والارمن والموارنة بنسب مئوية متقاربة جداً من بعضها. هذا ورغم تصنيف كل طائفة، حسب الدخل، فلا بُدَّ من الاعتراف بان لكل منها اثرياًوها وطبقتها المتوسطة وفقراؤها.

الفروقات التربوية تبرز أيضاً صورة مميزة بين الطوائف، كما يتبين في الجدول التالي:

٢٠- في التحقيق الذي حصل عام ١٩٨١ مثّل السّنة المجموعة الأقوى بين ذوي الدخل الأعلى. في تلك الفترة - وكما كان الحال قبل اندلاع الحرب - كانت أسعار العقارات والإيجارات في بيروت وطرابلس عالية جداً، حيث يشكل السّنة القسم الأكبر من ملاّكي الأراضي والعقارات. ولكن مع التضخم القائم منذ عام ١٩٨٤ تراجعت كثيراً مصادر هذه المداخل.

الطوائف الدينية	دون اي مستوى تعليمي	تعليم ابتدائي	تعليم مهني	تعليم ثانوي	تعليم عال
السنة	١٥	١٤	٢٥	٣١	١٥
الشيعة	٢٢	١٩	٢٥	٢٧	٧
الدروز	١٨	٩	٢٠	٣٤	٢٠
الموارنة	٩	١٠	٢٢	٢٩	٣٠
الروم الارثوذكس	٨	٧	١٩	٣٧	٢٩
الروم الكاثوليك	١٢	١١	٢٨	٢٧	٢٢
الارمن	٣	١٥	٢٧	٣٨	١٦
مجموع العينة	١٤	١٣	٢٤	٣٠	١٩

المعطيات بالنسبة المئوية.

تشير هذه المعطيات الى أن الشيعة هم أكثر تمثيلاً في المجموعتين التعليميتين الدنيا ولكن تمثيلهم ضعيف جداً في مجموعة التعليم العالي. أما الموارنة والروم الارثوذكس فهم أكثر تمثيلاً في المجموعة الأخيرة. فزيادة عدد الشيعة بين الطلاب الجامعيين، والتي برزت خلال العقدين الأخيرين. لم تنعكس بعد على مستوى الطبقة العمالية.

باستثناء الربط الجزئي الذي جرى ابرازه سابقاً بين مستوى التعليم ومستوى الدخل، يمكن ايجاد نسب هامة لعدم المساواة على مستوى التعليم بين الطوائف، والذي يتجسد في بروز الشعور الواسع الانتشار بين الشيعة، ألا وهو الحرمان النسبي. فالمجموعات الموجهة نحو التقدم والهادفة الى الالتحاق بالآخرين والتعويض عن الحرمان، ليست سوى فئات، وبالتالي طبقات، او جماعات، او الاثنيين معاً، تحاول غالباً استخدام القطاع العام كوسيلة الى التقدم. وهكذا يفعل الشيعة. التوظيف في القطاع العام يتطلب في كل الدول مؤهلات علمية معينة. وهذا الوضع ينطبق ايضاً في لبنان. فالوظائف العليا في الدولة تحتاج الى مؤهلات جامعية. ومن الممكن - وهذا امر محتمل كما يتبين من التفاوت بين مستوى التعليم

والدخل - ان امكانيات وحظوظ الترقى عبر مستويات التعليم قد تصبح امراً وهمياً في حال انتشار واسع للتعليم. فبقدر ما يزداد عدد المؤهلات العلمية، بقدر ذلك تضعف قيمتها في سبيل الترقى، ويصبح أكثر اهمية البحث عن سبل ترق أخرى. ولكن طالما لم تتوفر امكانيات متساوية للجميع في حق التعليم، تبقى النظرة إليها كعقبة رئيسية في سبيل الترقى قائمة.

لا توجد طائفة أخرى تعرف التفاوت الكمّي بين خريجي المدارس الثانوية وخريجي الجامعات - وبالتالي تشعر بدرجة عالية من الحرمان - أكثر من الشيعة.

فالتفاوت في الدخل بين الطوائف قد لا يُبرز موضوعياً الشعور بالحرمان. ولكن التفاوت في مستوى التعليم يكفي لانبعاث هذا الشعور. فسواء كان هذا الحرمان قائماً ام لا، وسواء حصل تطرف في وصفه ام لا، فانه لا يغيّر الا قليلاً في تأثيره السياسي. وهنا يكمن جوهر الحرمان النسبي. فالى اي حد يشعر به في لبنان، وخاصة لدى الشيعة؟ هذا ما سنطرق إليه فيما بعد.

ان المعطيات الاجتماعية لتحقيق ميداني هي نادراً ما تكون قراءه مثيرة. في هذا الاطار تسمح بعض المؤشرات بالتعرف وبإبراز المشاعر الأساسية التي اكتسبها المجتمع اللبناني.

يعمل المستجوبون في عالم مهني يختلف تماماً عن عالم ذويهم. فهم يعيشون بمعظمهم في مكان آخر يختلف عن مكان اصلهم. فالمتغيرات المكثفة في البيئة الاقتصادية والبيئة السكنية الأضيق هي وراء الاختبار الذي عرفوه في حياتهم.

يشير تصنيف المستجوبين حسب دخلهم ومستوى تعليمهم الى مجتمع متفاوت سواء بالنسبة الى "الأعلى" او الى "الأدنى" كما بالنسبة الى الطوائف. جرى هذا التصنيف بصورة مماثلة عبر الطوائف. ولكنه لا يُبرز اطلاقاً المسلمين بصورة عامة كمحرومين نسبياً، بل الطائفة الشيعية، وذلك بالنسبة للتعليم والدخل. فالى اي حد اذا تستطيع المؤشرات الاجتماعية إبراز المواقف والآراء؟ هذا ما يجري بحثه فيما يلي.

٣ - المواقف النفسية والاجتماعية

لا تتبثق المواقف والآراء السياسية فقط من المعطيات الاجتماعية الثقافية "القاسية" مثل العمر، او الأصل (مسقط الرأس)، او الدخل، او المستوى التعليمي، بل ايضاً من مشاعر عميقة تكمن في شخصية الانسان وتعكس نظرته الى الحياة والى البيئة الاجتماعية، مثل الحذر او الاستعداد للتغيير، الخوف من المستقبل، او عدم الخوف،

الثقة، او عدم الثقة بالناس الذين يعيش ويعمل الانسان معهم، وكذلك الشعور بعدم القدرة، او بإمكانية التأثير على مصيره الذاتي ومصير الآخرين.

في اطار تحقيق موجه لاستكشاف المواقف السياسية، يمكن طبيعياً إبراز عناصر الشخصية، ولكن في خطوطها الكبرى فقط. وقد اختيرت تلك المواضيع من المواقف التي تأكدت أهميتها السياسية في تحقيقات وابحاث عديدة.

فروح المحافظة المجتمعية جرى غالباً قياسها بالاعتماد على ردود الفعل ازاء قولين:

"قبل مباشرة الانسان بنشاط ما، يجب التأكد من انه سينجح فعلاً"
 "إذا قمنا بتغيير الأوضاع غالباً ما تصبح أسوأ".

في مجتمعات عديدة تتوافق ردود الفعل على هذين القولين. ولكن في لبنان، لا يحصل هذا التوافق الا بصورة محصورة فقط.

القول الأول يُعبر عن حذر في العلاقات مع اناس مجهولين. ففي التحقيقات الاربعة تراوحت النتائج بين ٧١ و ٧٤%. وبالمقابل، الارتياح او الخوف تجاه التغيير، كما يبرز في القول الثاني، يُستنتج فقط لدى اقلية لا تتجاوز الثلث تقريباً. "فالتغيير" او التطور هو، ظاهرياً، عبارة ذات مغزى ايجابي، يتفق عليه عدد كبير من المستجوبين ذوي الحذر التقليدي.

من هم هؤلاء الحذرون - المحافظون او التقليديون؟

غالباً ما نجد الكثرة منهم بين المسنين وليس بين الشباب^{٢١}.

ومع تزايد درجة المستوى التعليمي يتضاءل عددهم، حتى يصل الى ٦٤% بين الجامعيين.

وقد بلغت ظاهرة الحذر التقليدي نسبة تتراوح بين ٨٦ و ٩٠% لدى سكان ضواحي بيروت الشيعية، وكذلك لدى سكان مناطق النبطية وصيدا وجزين، وفي احياء سكنية ومناطق من البلاد كانت تعيش اضطرابات ومعارك خلال السنة التي جرى فيها التحقيق. ونجد الأقل حذراً المستجوبين الذين يسكنون في مناطق هادئة

٢١- جرى التخلي عن تحديد الربط بين المتغيرات والمطلوب. فالنتائج المشار اليها هي ذات أهمية إحصائية بنسبة ٥% على الأقل.

نسيباً، في بعلبك والهرمل وطرابلس والشوف وكسروان (بين ٥١ و٦٢٪). يبرز الحذر، مع بعض الاحتمالات، في ظل الاوضاع اللبنانية، ليس فقط في معالم الشخصية المتأثرة بالسنة والمستوى التعليمي فحسب، بل ايضا كردة فعل على الاوضاع الأمنية القائمة^{٢٢}. وبالاختصار، يمكن القول بان الحرب المبرحة تجعل الانسان حذراً. وهذا الاستنتاج ليس مفاجئاً او غريباً، ولكنه ليس ضعيف الأهمية سياسياً.

ينبغي تفسير النفور او الخوف من التفسير والاستعداد للتغيير من الوجهة السياسية ايضا. فلا يلعب العمر ولا الدخل ولا المستوى التعليمي هنا اي دور. ولكن الفروقات كبيرة بالنسبة لاستعدادية الانسان للتغيير، حسب المناطق. فظاهرة الاستعداد للتغيير هي أقل ملاحظة وبروزاً في الأشرافية، وفي ضواحي بيروت المسيحية وفي جزين، بالمقابل هي أكثر بروزاً وملاحظة في الضواحي الشيعية، ولكن ايضا في بعض احياء بيروت الغربية.

تبرز هذه الصورة أكثر وضوحاً من حيث الانتماء الطائفي. فالدرز يؤيدون التغيير بنسبة ٨٣٪ والشيعية بنسبة ٦٩٪، بينما تصل هذه النسبة لدى الموارنة الى ٦٤٪ ولدى الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس الى ٦٢٪. فالدرز والشيعية يشكلان الطائفتين اللتين يطالب زعمائهما السياسيون باصلاحات مجتمعية وسياسية. ان رؤية البيئة الاجتماعية وموقف الفرد منها لا تبرزان فقط عبر الثقة او عدم الثقة بالاشخاص الذين يعيشون في المحيط الاجتماعي الأقرب:

"بمن نثق؟"

٪	
٦٧	الأقرباء المقربين
٥٩	الأصدقاء
٢٠	الزملاء
١٥	الجيران
١٠	ارباب العمل
٢٦	لا أحد

٢٢- جرى التأكد من هذا الافتراض من خلال نتائج التحقيقات السابقة التي ابرزت حذراً وحفاظاً على التقاليد في المناطق المضطربة. في عام ١٩٨١ مثلاً برز هذا الشعور في أعلى ذروته في بيروت الغربية التي كانت الميليشيات تعبت في احيائها، مع العلم انها كانت سابقاً بمنأى عن النزاعات. وفي الوقت نفسه كان مثل هذا الشعور في اثنى مستوى بين سكان بيروت الشرقية والمتن.

تشكل الأسرة وحلقة الأصدقاء بالنسبة للمستجوبين عالماً سليماً. ولكنه لا يبدو متحرراً من التأثيرات السياسية.

بالمقارنة مع سنوات سابقة، تبين ان الموارد في عام ١٩٨٧ كانوا أقل ثقة بأصدقائهم. فالنزاعات التي اندلعت قبل عام داخل الطائفة المارونية، تركت طبعاً انعكاسات في هذا الاتجاه.

بالنسبة للجزير، فقط اقلية من اللبنانيين تثق بهم. فالمسنون يشعرون اكثر من جيل الشباب بارتباطهم مع جيرانهم. ولكن مع ارتفاع مستوى التعليم، ترتفع أيضاً نسبة الريب وعدم الثقة. بين خريجي التعليم الثانوي والجامعي يلاحظ وجود ١٠٪ فقط من الذين يتقون بجيرانهم.

ومن حيث الانتماء الطائفي، لوحظ ان السنة والشيعية هم اكثر ثقة بجيرانهم (أكثر بقليل من المعدل) من المسيحيين (أقل بقليل من المعدل).

في حقل العمل، تسود ظاهرة الريب وعدم الثقة. فقط ٢٠٪ من المستجوبين يتقون بزملائهم و ١٠٪ بآرباب العمل.

بالنسبة للعلاقات مع آرباب العمل، تبين انها طيبة اكثر من المعدل في طرابلس والشوف ولبنان الشمالي، اي في المناطق التي يسود فيها طابع المجتمع التقليدي. اما من حيث الانتماء الطائفي، فان الشيعة هم اكثر الذين لا يتقون بآرباب العمل. فمعظمهم يتلقى أجوراً لا تساعد على خلق علاقات ثقة قوية معهم.

وبصورة عامة، يثق العمال اللبنانيون بافراد أسرهم وبأصدقائهم طالما لا يوجد اي خلاف سياسي بينهم، وإلا لا يتقون بأحد آخر. اما الجوار فلا يسهم عادة بخلق أجواء من الثقة. إلا ان هذا الأمر لا يعتبر ظاهرة غريبة، نظراً لتوافر التغيير في أمكنة السكن، كما أشير سابقاً.

الآن هذه النتائج تأخذ أكثر فاكتر طابعاً نسبياً. في ثلاثة تحقيقات من أصل اربعة أشار ٢٠٪ تقريباً من المستجوبين الى عدم ثقتهم بأي إنسان. فقد بلغت هذه النسبة ١٩٪ عام ١٩٨١، و ١٨٪ عام ١٩٨٤، و ٤٪ فقط عام ١٩٨٦، وارتفعت الى ٢٦٪ عام ١٩٨٧. ولكن هذا الارتفاع هو أيضاً مؤشر هام لعدم الثقة. فظاهرة انعدام الثقة في مجتمع يتميز بالعلاقات الشخصية أكثر مما يتميز بالعلاقات الوظيفية

المجهولة، هي أمر يستحق الذكر. فنادر ما يستطيع الإنسان العيش وحده، ولكنه ليس في مأمن إطلاقاً^{٢٣}.

ومثل الأسئلة التي تشير الى النزعة نحو المحافظة، كذلك تعكس أيضاً الأسئلة حول الخوف من المستقبل ليس فقط معالم الشخصية، أو المشاعر الاجتماعية العامة فحسب، بل أيضاً المخاوف المرتبطة بالعوامل السياسية.

"عندما أفكر بمستقبلي، أشعر بالقلق وعدم الثقة".

في التحقيقات الاربعة تأكد هذا الكلام بنسبة ٦٠٪. الخوف من المستقبل يتضاعف مع الدخل ومستوى التعليم^{٢٤}. أما العامل الهام والمؤثر في الخوف فهو، دون ريب، الوضع الاقتصادي الواقعي، أو الذي يمكن الإبقاء عليه.

فضلاً عن ذلك، ارتبط الخوف من المستقبل بكل وضوح بالوضع السياسي - العسكري. في بيروت لوحظ الخوف في الضواحي الشيعية أكثر مما لوحظ في وسط بيروت الغربية وفي بيروت الشرقية^{٢٥}.

وخارج بيروت، عبّر كل المستجوبين في صيدا والنبطية عن خوفهم، بينما لم يعبر عنه في بعلبك والهرمل وكسروان وخاصة في الشوف الا افراد الاقليات الموجودة في هذه المناطق.

برزت هذه الصورة بوضوح أكثر بالنسبة لاهياء بيروت والمناطق وفقاً للسيطرة العسكرية عليها:

-
- ٢٣ - برزت استنتاجات مماثلة في تحقيقات سابقة مع الطلبة اللبنانيين. راجع: Théodor HANF, Le comportement politique des étudiants libanais, op. cit.
- ٢٤ - النسب المئوية حسب فئات الدخل: ٦٩ - ٦٦ - ٥٦ - ٤٥ وحسب مستويات التعليم: ٦٨ - ٦٣ - ٦٠ - ٥٣ - ٦٢.
- ٢٥ - برج البراجنة ٧٠٪ حارة حريك ٦٩٪ المصيطبة والبسطة ٣٩٪ الأشرفية ٤٣٪ ضواحي بيروت الشرقية ٤٧٪.

الخوف في المستقبل %	
٨٤	مناطق تحت سلطة الميليشيات الشيعية
٦١	مناطق تحت سلطة الميليشيات المسيحية
٥٨	مناطق ذات أكثرية سكانية إسلامية تحت سلطة الجيش السوري
٥٦	مناطق ذات أكثرية سكانية مسيحية تحت سلطة الجيش السوري ^{٢٦}
٣٨	مناطق تحت سلطة الميليشيات الدرزية

هنا يتضح أن الخوف من المستقبل هو بمعظمه خوف من أحداث الحرب المهددة مباشرة أو المستمرة. في ضواحي بيروت الشيعية كانت تشتعل دائما معارك بين حركة أمل والمقاتلين الفلسطينيين، بينما في الجنوب الشيعي كانت تتوالى عمليات الكومندوس ضد إسرائيل والعمليات الانتقامية الاسرائيلية. وفي المناطق التي تسيطر عليها الميليشيات المسيحية، يتباين الهدوء النسبي في معقل المسيحيين الرئيسي شمال بيروت، وفي كسروان خاصة، مع نسبة الخوف العالية ٩٠٪ في منطقة جزيين التي يجري الصراع عليها والتي تسيطر عليها ميليشيا لحد. وفي مناطق الوجود السوري تنخفض نسبة الخوف قليلا، ولكن بنسبة اعلى حيث تتضح اوضاع القوى العسكرية مثلما هو الحال في البقاع الشمالي وبيروت الغربية، وحيث لا يعترض احد اطلاقاً القوات السورية. وأخيرا، يسود الشوف وضع واضح في بنية القوى العسكرية، نظرا لسيطرة ميليشيا واحدة على هذه المنطقة.

" لا يستطيع شخص مثلي سوى القليل من أجل تحسين حياة الناس".

من خلال ردود الفعل على هذا الاستنتاج يمكن بصورة اجمالية قياس التقدير الذاتي لامكانيات العمل الاجتماعية. مع ارتفاع في النسب من ٦٦٪ عام ١٩٨١ الى ٦٧٪ عام ١٩٨٨، ومن ٧٢٪ عام ١٩٨٦ الى ٨٠٪ عام ١٩٨٧، تبرز صورة جلية عن العجز الاجتماعي وضيق العيش. وكما هو الحال مع الخوف من المستقبل، يتضاءل ايضا بصورة بارزة الشعور بالعجز مع ارتفاع مستوى الدخل^{٢٧} ومستوى التعليم^{٢٨}.

ولكن تبرز مجدداً الفروقات بالنسبة لمكان السكن ولنوع السيطرة العسكرية اكبر بكثير مما هي بالنسبة للمعالم الأخرى. العجز يسيطر بنوع خاص في الضواحي الشيعية، وتقريبا لدى كل المستجوبين في الشياح، والجناح، والاوزاعي، وحارة حريك، وبرج البراجنة، وفي وسط بيروت الغربية، حيث نسبة الخوف أقل مما هي في الضواحي. يشعر الانسان ايضا بأنه عاجز، كما هي الحال في المصيطبة، والبسطا، وطريق الجديدة. ان تباينا واضح المعالم يبرز في هذا المجال في الضواحي المسيحية ايضا حيث تصل نسبته الى ٧٥٪ بصورة عامة، ولكنها تنخفض الى ٥٨٪ في الأشرفية.

وتبرز كذلك تباينات متشابهة بين المناطق في جزين، وبعلبك، والهمل، وصيدا، حيث ترتفع نسبة شعور الانسان بعجزه وعدم قدرته. ولكنها تنخفض في الشوف والمتن وجبيل وكسروان، حيث يوافق على ذلك ثلثا المستجوبين.

يبرز الشعور بالعجز وعدم القدرة كذلك وبنوع خاص من جهة في مناطق المواجهات العسكرية، ومن جهة ثانية في المناطق الواقعة تحت الاحتلال الاجنبية، وبالتالي تحت الاحتلال الاسرائيلي اكثر مما هو تحت الاحتلال السوري. واقل الذين يشعرون بالعجز وعدم القدرة هم المستجوبون في المناطق المتجانسة والواقعة تحت سيطرة الميليشيات الدرزية او الميليشيات المسيحية. ولكن حتى في هذه المناطق لا يرى اكثر من نصف المستجوبين اية امكانية تحرك ذاتية.

بصورة عامة، تتأثر المواقف السيكو-اجتماعية بصورة قاطعة بالاوضاع الخارجية، اي بالتهديد والقلق الناتجين عن الحرب المبرحة. وسيكون من الخطأ تفسيرها بدرجة اولى وكأنها من الخصائص المميزة للشخصية.

يتبين في ظل هذه الاوضاع الخارجية ان ٧٥٪ من اللبنانيين هم محافظين وحذرين، ولكنهم ايضا مستعدون للتغيير بنسبة ٦٠ الى ٦٥٪. فالاوضاع كانت

٢٧ - ٨٥ - ٨١ - ٦٩٪
٢٨ - ٩١ - ٨٨ - ٧٩ - ٨١ - ٧٠٪

اجملاً سيئة، كما ان التغييرات لم تزيدها سوءاً. فالذي يعيش في مناطق النزاع - وهذا هو حال الأكثرية - يخاف من المستقبل ويشعر بعجزه وعدم قدرته على مقاومة الأمر الواقع.

٤ - الخلقية الاقتصادية والارتياح المهني

جرى استكشاف الميول نحو الاستثمار والاستهلاك عبر السؤال التالي:

"تصور انك ربحت مبلغاً كبيراً من المال في اليانصيب الوطني.
كيف ستصرف بهذا المال على الغالب؟"

١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	
١٩	٢٦	٣٣	٣٧	بناء منزل او شراء عقارات
٤	٣	٣	٥	شراء سيارة او عفش بيت جديد
٥١	٥٧	٤٦	٤٢	فتح مؤسسة تجارية خاصة
٢٦	١٤	١٧	١٦	استثمار جيد في المصرف

المعطيات بالنسبة المئوية.

يبرز الميل الى الاستهلاك مع بعض التحفظ في الدرجة الأخيرة، بينما الميل الى العمل الحر الذاتي يأتي في الدرجة الأولى من هذه الخيارات. غالباً وبمعدل أعلى من الوسط يرغب افراد الفئات الضعيفة الدخل، والشعبة، في فتح مؤسسات تجارية خاصة.

الاستثمارات في مجال العقارات، والتي كانت في النصف الأول من الثمانينات الشكل الأكثر أمانة ودخلاً في توظيف الرساميل في لبنان، تراجعت الى الدرجة الثالثة عام ١٩٨٧. يلاحظ هذا الخيار غالباً وأكثر من المعدل الوسط بين الموارد. في منطقة الحصار المسيحية المكتظة بالسكان بلغت قيمة العقارات والاراضي المستوى الأعلى بالنسبة لباقي مناطق البلاد.

تجدر الإشارة الى التفضيل المتزايد لتوظيف الأموال في المصارف. ففي مرحلة التضخم السريع، منذ عام ١٩٨٤، تبيّن ان استثمار رأس المال بالعملة الاجنبية كان افضل وسيلة لحماية المبالغ المدخرة ضد انخفاض قيمة العملة الوطنية.

ان صورة المجتمع الاستهلاكي المستهجنة في لبنان، والتي تصوّرّها غالباً وسائل الإعلام الدولية، هي بالنسبة لأكثرية السكان غير صحيحة اطلاقاً. هذه الأكثرية تربط فكرة الربح باللوتو ليس بالاستهلاك، بل بالطموح الى الترقّي الاجتماعي عبر تأسيس مؤسسة تجارية خاصة. بينما يفكر معظم الآخرين ايضاً بجديّة وعقلانية بضمان ثروة عبر توظيفها. وهنا يدرك تماماً تحوّل الأفضلية من مجال الاستثمار العقاري الى التوظيف المصرفي. ويعكس ذلك الوضع الاقتصادي المتغيّر.

يبرز ايضاً المؤشر الأساسي لرؤيا عقلانية للحياة الاقتصادية والمهنية في الأجوبة على سؤال حول تصوّر عناصر النجاح.

"ما هو برأيك - بين العناصر التالية - اهم عنصر للنجاح في الحياة؟"٢٩

%	
٢١	العمل
٢١	الاختبار
١٦	التعليم
١٦	العلاقات
١٤	الحظ
٧	الاحتيايل
٥	الإرث

يعتبر الإرث، وبصورة واضحة أقلّ العناصر أهمية، وذلك لان المجتمع اللبناني لم يعرف بعد كثيراً هذا الاتجاه. اما العناصر القائمة على العمل والجهد الشخصي

٢٩- لم يبرز اي تفاوت يستحق الذكر في التحقيقات الاربعة.

والاختبار فهي الأكثر تواتراً، يليها العلم، والعلاقات اي (الواسطة). فنظراً الى بنية الاقتصاد والمجتمع في لبنان المتسم بالطابع الزبائني القوي، فان نسبة ١٦٪ التي تشير الى "الواسطة" كعنصر للنجاح هي قليلة. وهذا أمر مدهش. "الاحتيايل" هو ترجمة غير كافية لكلمة "combines" (اي حيل، وخداع)، وذلك لانجاح عمل تجاري معقد، ذكي، ومكسب. يتمتع التجار اللبنانيون بشهرة واسعة كأسياد في ممارسة مثل هذه العمليات.

هذا العنصر لم يُشر إليه إلا قليلاً، إلا أنه يبرز من جديد اهمية العناصر التي تشدّد على العمل والجهاد. اخيراً تعكس نسبة ١٤٪ لعنصر الحظ، المقولة الواسعة الانتشار عن "الإيمان الشرقي بالحظ او بالقدر". اما العمال اللبنانيون، فيؤمنون بقول آخر، وهو "كل انسان يصنع حظه". وبصورة إجمالية، يبرز هنا تصور نموذجي مثالي عن حظوظ النجاح والتقدم في مجتمع خدماتي مفتوح.

لقد عرف الاقتصاد اللبناني منذ عام ١٩٨٤ انهياراً خيالياً. كيف كان أثره على مواقف المستجوبين من العمل والمهنة؟ في البداية، حصل استكشاف عن استعداد وتحمل المخاطر الاقتصادية لدى المستجوبين:

"يقول احدهم:

افضل أن أشتغل كثيراً، أفتح مصلحة وأجازف لكي يكون لي حظ وأكسب كثيراً.

ويقول آخر:

أفضل وظيفة ثابتة مع مدخول مضمون، كي لا أحمل دائماً همّ مستقبلي.

هل توافق على القول الأول او القول الثاني؟"

ان اختيار المستجوبين اللبنانيين واضح للغاية. ارتفعت نسبة تأييد الاختيار الأول من ٦٠٪ عام ١٩٨١ الى ٧٥٪ تقريباً عام ١٩٨٧. هل يعتبر ذلك من ظواهر نفسية المقاولين اللبنانيين الاسطورية، التي لم تتأثر بعد بالصعوبات؟ ولكن نسبة التأييد العالية تفرض الحذر من مثل هذه التفسيرات. حتى بالنسبة لشعب اعتاد على العمل التجاري، يبدو أقل احتمالاً ان لا تصل نسبة الذين يفضلون راتباً مضموناً الى أكثر من ٢٧٪ حتى في ظل ظروف عادية. فكيف يُفسّر ذلك؟

الاستعداد للمجازفة يلاحظ لدى كل مجموعات الدخل والفئات مهما كان مستواها التعليمي. ان يختار العاملون في الحقل التجاري المجازفة بنسبة ٨٪، ليس امراً مدهشاً. فهو لاء يعيشون في مثل هذه الأجواء. ولكن ايضاً الذين يعملون في الصناعة يفضلون العمل التجاري مع كل مخاطره على دخل مضمون من عملهم. ولكن ان تكون نسبة ٨٠٪ من الشيعة مقابل ٦٧٪ من الموارنة، تؤيد هذا الاختيار، فهذا أمر

يدعو الى الافتراض بان القضية يمكن ان تكمن في عوارض الأزمة الاقتصادية الحادة في لبنان اكثر مما تكمن في الاستعداد النفسي المبني.

يُعزّز هذا الافتراض عبر مقارنة الاستعداد للمجازفة لدى المستجوبين في احياء بيروت وفي المناطق. فالأكثر استعداداً لها هم المستجوبون الذين يسكنون في الضواحي الشيعية وايضاً في رأس بيروت. لقد اختاروا كلهم الخيار الأول. واقلّ بكثير منهم استعداداً للمجازفة هم الذين يعيشون في البسطة والمصيطبة، وكذلك ايضاً في الأشرقية وضواحي بيروت الشرقية.

وكذلك المستجوبون في جزين، وصيدا، والنبطية عبّروا عن استعدادهم للمجازفة بنسبة ٨٪.

فالذين يسكنون في المناطق الواقعة تحت سيطرة الميليشيات الدرزية والجيش السوري والميليشيات المسيحية - والتي كانت عام ١٩٨٧ هادئة نسبياً - عبّروا عن استعدادهم للمجازفة بنسبة تتراوح بين ٦٠ و ٧٠٪. وتتجاوز هذه النسبة ٨٠٪ بالنسبة للذين يعيشون في المناطق التي تسيطر عليها الميليشيات الشيعية وفي جنوب البلاد. وبالاختصار يمكن القول بان الاستعداد للمجازفة يبرز حيثما تقوم أزمات مبرحة - وحيث الراتب الشهري لا يمكن ان يبقى ثابتاً أو أكيدا.

واخيراً، ان الذين عبّروا عن خيار الاستعداد للمجازفة، هم بمعظمهم من الذين عبّروا عن خوفهم من المستقبل وعن الشعور بالعجز وعدم القدرة. لذلك يعتبر هذا الوضع ظاهرة مرضية في زمن الأزمات. وقد تأكّد هذا الاستنتاج من خلال ردود الفعل على مقولة أخرى:

"لا أنوي الاستمرار كأجير الى الابد. سوف أعمل يوماً على حسابي".

أيدّ هذا القول كذلك ٧٥٪ من المستجوبين. فالمعالم البنوية الاجتماعية تُفسّر بعض الفروقات. فمع ارتفاع الرواتب والأجور تنخفض درجة الاستعداد للعمل المستغل، وكذلك مع ارتفاع مستوى التعليم.

ولكن الفروقات الأكثر وضوحاً ترتسم من جديد من حيث التوزيع الطائفي والمناطق السكنية. بلغت نسبة الشيعة ٨٣٪، والموارنة ٧٤٪، والروم الارثوذكس ٦٩٪. في ضواحي بيروت الشيعية اراد اكثر من ٩٠٪ العمل المستقل، في بيروت الشرقية وضواحيها ٦٠٪ فقط، وفي المناطق الساخنة مثل جزين وصيدا والنبطية ارتفعت النسبة الى اكثر من ٨٠٪، وانخفضت في المناطق الهادئة مثل كسروان الى ٥٩٪ والشوف الى ٤٤٪. ومرة أخرى يلاحظ ان الأكثرية الساحقة من المستجوبين،

الذين يشعرون بالعجز وعدم القدرة ويخافون من المستقبل، هم الذين يأملون بحياة اقتصادية مستقلة.

بالاستناد الى ردود الفعل على اقوال تركّز مباشرة على الرضى المهني، يمكن اخيراً قياس حجم الأزمة التي تعيشها اليوم الطبقة العمالية اللبنانية:

نسبة الموافقة %	
٤٧	مع الاسف، أظن أنني لا أملك حظاً كبيراً للتقدم في مهنتي
٤٧	بصورة عامة انا راضي عن رب عملي
٢٤	من الطبيعي ان يتمنى الانسان دائماً ربحاً أكثر، ولكن انا راض الآن عن راتبي
٧٠	لو سمحت لي الظروف، لأخترت مهنة أخرى
٥٢	لو سمحت لي الفرصة، لسافرت الى الخليج للعمل

ان عدم رؤية نصف المستجوبين أي حظّ لهم بالتّرقّي أو عدم رضاهم عن ربّ العمل، ليس استنتاجاً غير عادي، ولكن ان يعبّر حوالي ٢٥% منهم عن رضاهم عن رواتبهم، وان يفضل ٧٠% تغيير مهنتهم، و ٥٠% تقريباً السفر الى دول الخليج للعمل كأجراء، فهذا أمر ينذر بالخطر ايضاً.

جرى تقييم المواقف من الحظوظ بالتّرقّي ومن ربّ العمل بصورة مماثلة تقريباً في التحقيقات السابقة. ولكن الراتب أو الأجر كان يعتبر من عام ١٩٨١ الى عام ١٩٨٦ من قبل نصف المستجوبين مقبولاً. والرغبة في تغيير المهنة ارتفعت نسبتها من ٦٠ الى ٧٠%، وكذلك الرغبة بالعمل في الخليج ارتفعت من ٣٨% عام ١٩٨٤ الى ٥٢%. فانهيار قيمة النقد اللبناني وارتفاع كلفة المعيشة اسهما الى درجة لا مثيل لها في اثبات عدم الرضى في الحقل المهني.

فالأقوال عن الرضى وعدم الرضى المهني ترتبط ببعضها بعض. كذلك وضع مقياس "للرضى المهني" ٣٠ سمح بتوزيع العيّنة على الشكل التالي:

٣٠- على كل موافقة اعطي المستجوبون علامة. وقد جرى تصنيف العلامات في اربع فئات.

%	
٢٨	راض
٢١	اقل رضى
٢٧	غير راض
٢٤	غير راض اطلاقاً

فاكثر من ربع المستجوبين كان راضيا عن عمله ومهنته، وخمسهم اقل رضى. ونصفهم غير راض او غير راض على الإطلاق. غير الراضين هم بصورة خاصة من فئة الشباب وفئات المجموعات الدنيا في مجالي الدخل ومستوى التعليم.

الدخل والرضى المهني

مجموعات الدخل					
المستجوبون	٤ (الأعلى)	٣	٢	١ (الاننى)	الرضى المهني
٢٨	٥٣	٢٧	١٢	١٥	راض
٢١	٢٣	٢٠	١٧	٢١	اقل رضى
٢٧	١٧	٣١	٢٨	٣١	غير راض
٢٤	٧	٢٢	٣٦	٣٣	غير راض إطلاقاً

المعطيات بالنسبة المئوية.

العلاقات بين الدخل والرضى ليست أمراً ضيقاً إطلاقاً. "غير الراضين إطلاقاً" هم من مجموعتي الدخل الثاني والدنيا. وكذلك في المجموعة الثالثة، أي ثاني أعلى مجموعة في الدخل، هناك فئة من "غير الراضين" و "الراضين قليلاً"، مثلما هو

الحال لدى المستجوبين من جماعة الدخل الأدنى. هنا يبرز الحرمان النسبي للطبقة المتوسطة المهددة بالتضخم الذي يعيق ترقّيها الاجتماعي.

تأكدت صحة هذا الافتراض من خلال المقارنة بين المجموعات المهنية. فمن بين غير الراضين، وغير الراضين إطلاقاً لا توجد فقط أكثرية من العاملين في قطاع الخدمات (٦٢٪) وفي الصناعة (٥٧٪)، بل بين الحرفيين اليدويين (٦٥٪) والموظفين (٥٦٪) أيضاً. وأكثر الراضين عن عملهم المهني هم من العاملين في قطاع التجارة والمصارف والتأمين، من بينهم ٤٦ و ٤٠٪ من فئة الراضين.

وكذلك العلاقات بين مستوى التعليم والرضى تكشف عن بعض التباينات حول الافتراض الاحادي النسب الذي يشير الى أنه "كلما ارتفع مستوى التعليم انخفض مستوى عدم الرضى":

مستوى التعليم والرضى المهني

الرضى المهني	دون أي مستوى	التعليم الابتدائي	التعليم المهني	التعليم الثانوي	التعليم الجامعي	المستجوبون عامة
راضون	٢١	٢٦	٢٤	٢٥	٤٥	٢٨
راضون قليلاً	٢٠	٢٥	٢٢	١٩	٢١	٢١
غير راضين	٣١	٢٥	٢٧	٣٠	٢٠	٢٧
غير راضين إطلاقاً	٢٨	٢٤	٢٧	٢٦	١٤	٢٤

المعطيات بالنسبة المئوية

ان المستجوبين دون اي مستوى تعليمي هم الأكثر تمثيلاً بين فئة غير الراضين وفئة غير الراضين إطلاقاً، وكذلك خريجو الجامعات هم الأكثرية في فئة الراضين؛ ونجد في الطرفين الأعلى والأدنى كل مجموعات مستوى التعليم. ولكن يلاحظ أيضاً بنوع خاص ان معظم خريجي التعليم المهني وخريجي التعليم الثانوي غير راضين. والفئة الأخيرة تعتبر كسبها سيئاً نسبياً وليس لها حظوظ أفضل في سوق العمل. فالافتراض المشار إليه اعلاه بأنها شديدة الشعور بحرمان نسبي، يتأكد هنا بوضوح تام.

الرضى المهني بالنسبة لأمكنة السكن

مكان السكن	راضون	راضون قليلاً	غير راضين	غير راضين إطلاقاً
بيروت:				
رأس بيروت	٦	٧	٤٥	٤٢
مصيطة-مزرعة	٤٧	٢٤	٢١	٨
بسطة	٤١	٢٦	٢٦	٨
طريق الجديدة	٦	٩	٨٣	٤٧
أشرفية	٤٤	٣٠	١٩	٧
الضواحي الشرقية	٣٩	٢٩	٢٣	٩
الشيح	٦	١٢	١٨	٦٤
حارة حريك	١٢	٤	٢٨	٥٦
برج البراجنة	٨	١١	٢٩	٥٢
جناح اوزاعي	٢	٨	٣٦	٥٤
بيروت عامة	٢٥	١٨	٢٧	٣٠

مكان السكن	راضون	راضون قليلاً	غير راضين	غير راضين اطلاقاً
المناطق الأخرى:				
المتن	٥٠	٢٩	١٣	٨
كسروان	٤٤	٣٣	١٨	٥
جبيل	٢٣	٢٩	٣٤	١٤
الشوف-عالية	٥٥	٢٤	٢١	-
صيدا	٧	١٤	٤٠	٣٩
النبطية	١٠	١٩	٣١	٤٠
جزين	١٢	٧	٣١	٥٠
وسط البقاع وغربه وزحله	٣٢	١٤	٣٢	٢٢
بعلبك-الهرمل	٤٢	٢٨	٢٣	٦
طرابلس	٣٩	٢٩	٢٤	٨
الكوره-زغرتا	٣٢	٢٦	٣٢	١٠
عكار	٨	٢٠	٢٤	٤٨
مجموع المناطق الأخرى	٣١	٢٣	٢٧	١٩
مجموع المستجوبين	٢٨	٢١	٢٧	٢٤

المعطيات بالنسبة المئوية.

ان ما يثير الاهتمام هو التوزيع الجغرافي المفصل لعدم الرضى. فأكثرية عدم الراضين موجودة في بيروت اكثر منها في باقي المناطق، وتتركز بكثافة في بعض

أحياء المدينة، في كل الضواحي الشيعية كما في رأس بيروت وطريق الجديدة. وأكثرية الراضين هي في بيروت الشرقية وضواحيها، ولكن أيضاً في أحياء وسط بيروت الغربية، والمصيطبة والبسطة.

ونجد تبايناً قوياً مماثلاً بين مختلف المناطق. معظم غير الراضين هم في صيدا والنبطية وحزير، ووسط البقاع وغربه، وكذلك في عكار في أقصى شمال البلاد.

تبرز للوهلة الأولى الفروقات في الحالة الأمنية كامكانية للتفسير. فضواحي بيروت الجنوبية، ومنطقة جنوب لبنان كانت خلال المرحلة الزمنية التي جرت فيها التحقيقات أكثر المناطق المعرضة للخطر والاضطرابات. ولكن يبرز من خلال ملاحظة قريبة أن هذا التفسير غير كاف. ففي بيروت الغربية لم تكن رأس بيروت وطريق الجديدة أكثر عرضة للخطر من البسطة والمصيطبة. وعكار ليست أكثر تهديداً من الكوره أو طرابلس. سكان تلك الأحياء والمناطق هم غير راضين بدرجات متفاوتة جداً. فالأمر الذي لم يكن ممكناً استكشافه هو أن تفاوتاً واضحاً يقوم بين المناطق ذات المجموعات الدينية المختلفة.

الطوائف الدينية والرضى المهني

الرضى المهني	سنة	شيعة	دروز	موارنة	روم	كاثوليك	ارمن
راضون	٢٤	١٧	٢٨	٣٧	٤٠	٣١	٣٦
راضون قليلاً	١٨	١٣	١٩	٢٨	٢١	٢٥	٣٧
غير راضين	٣٠	٢٩	٢٧	٢٤	٢٧	٢٥	١٣
غير راضين إطلاقاً	٢٨	٤١	٢٦	١١	١٢	٢٠	١٤

المعطيات بالنسبة المئوية.

يشكل غير الراضين وغير الراضين إطلاقاً نسبة ٥١٪ من مجموع العينة. ولكن هذه النسبة تبلغ ٧٠٪ لدى الشيعة، و٥٨٪ لدى السنة و٥٣٪ لدى الدروز. والنسب لدى الطوائف المسيحية جاءت أدنى من المعدل: ٤٥٪ لدى الروم الكاثوليك، ٣٩٪ لدى الروم الارثوذكس، و٣٥٪ لدى الموارنة، و٢٧٪ لدى الأرمن. فعدم الرضى هو بمعظمه ظاهرة اسلامية، وبنوع خاص شيعية.

الطوائف الدينية، الدخل، والرضى المهني

الطوائف الدينية	مجموعة الدخل (الأغنى) ١	غير راضين إطلاقاً	مجموعة الدخل ٢	غير الراضين	مجموعة الدخل ٣	القل رضى	مجموعة الدخل (الأعلى) ٤	راضون
سنة	٢١	٢٨	٢٧	٣١	٢٧	١٨	٢٤	٢٤
شعبة	٣٠	٤٤	٣٣	٢٩	٢٠	١٢	١٧	١٥
لورد	١٩	٢٧	٢٨	٢٧	٢٩	٢٠	٢٤	٢٧
موازية	٢٩	١١	٢٤	٢٤	١٩	٢٨	٢٩	٣٧
لوم	٢١	١٢	٢٠	٢٥	٢٠	٢٢	٢٤	٤١
كثلايك	٣١	٢١	٣١	٢٦	١٦	٢١	٢٢	٣١
لرمين	٣٢	١٥	٢٠	١٣	١٣	٣٩	٢٥	٣٣
المجموع	٢٧	٢٤	٢٧	٢٧	٢١	٢١	٢٥	٢٨

المعطيات بالنسبة المئوية.

هل يمكن إيعاز ذلك الى التفاوت في الدخل الذي أشير إليه بين الطوائف؟ هذا ما تؤكدُه المقارنة بين مجموعات الدخل والفئات الاربع بالنسبة للأكثر والأقل رضى حسب الطوائف (راجع الجدول السابق).

بصورة عامة تتقارب مجموعات الدخل الاربع والفئات الاربع وتتشابه بحجمها. ولكن بالنسبة للطوائف هناك تفاوت كبير بين حصتها في مجموعة الدخل من جهة، وحصتها في نسبة غير الراضين من جهة أخرى. تبرز لدى السنة، والشيعة، والدروز، ولكن بنوع خاص لدى الشيعة، اعلى نسب غير الراضين اطلاقاً، كما تشير الى ذلك حصتهم في مجموعة الدخل الأدنى. وفي فئة الأقل رضى تبرز حصص هذه الطوائف ادنى بكثير من حصصها في مجموعة الدخل الثالثة العليا. فقط لدى الدروز تتوافق النسب مع بعضها، بينما تبرز دائماً في مستوى ادنى من المعدل لدى السنة والشيعة.

في المقابل تبرز لدى الطوائف المسيحية، خاصة لدى الارمن والموارنة، نسبة غير الراضين اطلاقاً، ادنى بكثير مما يمكن افتراضه بالمقارنة مع نسبتهم في فئة الدخل الأدنى. ولكن نسبة غير الراضين، وغير الراضين اطلاقاً منهم هي أكبر من نسبتهم في فئات الدخل الأعلى.

لا يفسر التفاوت في الدخل وحده اذ درجات عدم الرضى المختلفة لدى الطوائف.

فهل يقدم التفاوت في مستوى التعليم بين الطوائف اي تفسير؟ (انظر الجدول التالي).

هنا تبرز صورة أخرى. فنسب الفئة ذات المستوى التعليمي الأدنى تتوافق مع نسب غير الراضين اطلاقاً لدى الطوائف الإسلامية الثلاث. فنسبة غير الراضين لدى الموارنة هي أقل بكثير من نسبة الفئة ذات المستوى التعليمي الأدنى. ونسبة الراضين منهم هي أيضاً أعلى من المعدل بالنسبة لمستوى التعليم الأدنى. وكذلك لدى اتباع الطوائف المسيحية الصغيرة هناك أيضاً كثيرون من غير الراضين اطلاقاً، كما هي الحال بالنسبة لأفراد الفئات ذات المستوى التعليمي الأدنى. ونسب غير الراضين هي لدى الطوائف، باستثناء الروم الكاثوليك، والموارنة، وبنوع خاص الارمن، اعلى من نسبة خريجي المدارس المهنية. وهذا ينطبق أيضاً على فئة الأقل رضى بالمقارنة مع فئة خريجي التعليم الثانوي، بينما يشير غير الراضين الى ذات النسب تقريباً، - اكثر او اقل بقليل - مثل خريجي التعليم الجامعي. وهنا أيضاً يشكل الارمن حالة استثنائية:

الطوائف الدينية، المستوى التعليمي، والرضى المهني

الطوائف الدينية	لون أي مستوى تعليمي	غير راضين إطلاقاً	تعليم مهني	غير راضين	تعليم ثانوي	الكل راضٍ	تعليم عالي	راضون
سنة	٢٩	٢٨	٢٥	٣٠	٣١	١٨	١٥	٢٤
شعبة	٤١	٤٢	٢٥	٣٠	٢٧	١٣	٧	١١
مدرسة	٢٥	٢٥	٢٠	٢٨	٣٤	١٩	٢٠	٢٨
مدرسة	١٩	١١	٢٢	٢٤	٢٩	٢٨	٢٠	٣٧
مدرسة	١٥	١٢	١٩	٢٧	٣٧	٢١	٢٩	٤٠
كلية	٢٣	٢٠	٢٨	٢٤	٢٧	٢٥	٢٢	٣٢
أمن	١٨	١٥	٢٧	١٢	٣٨	٣٧	١٦	٣١
المجموع	٢٧	٢٤	٢٤	٢٧	٣٠	٢١	١٩	٢٨

المعطيات بالنسبة المئوية.

ان الراضين والأقل رضى - اذا ما أخذوا معاً - هم لدى الطوائف الإسلامية الثلاث اقل عدداً من خريجي التعليم الثانوي والجامعي. بينما المسيحيون، باستثناء طائفة الروم الارثوذكس، هم نسبياً اكثر رضى من الفئات ذات المستويات التعليمية العالية.

بالاختصار، المسيحيون هم، مع مستوى تعليم أضعف، أقلّ عدم رضى، ومع مستوى تعليمي اعلى، اكثر رضى من المسلمين.

كيف يتميّز التفاوت بين الدخل وعدم الرضى من التفاوت بين المستوى التعليمي وعدم الرضى؟ فاذا ما جمعنا نسب كل طائفة من فئتي الدخل الأدنى وفئتي المستوى التعليمي الأدنى من جهة، ونسب كل طائفة من فئات غير الراضين وغير الراضين اطلاقاً من جهة ثانية، يبرز مؤشران واضحان:

الطوائف الدينية حسب الدخل والرضى المهني وحسب المستوى التعليمي والرضى المهني

الطوائف الدينية	عدم الرضى والدخل *	عدم الرضى والمستوى التعليمي
السنة	+ ١٤	+ ٤
الشيعة	+ ١٣	+ ٦
الدروز	+ ١٠	+ ٨
الموارنة	- ١٥	- ٧
الروم	- ٦	+ ٥
الكاثوليك	- ١٢	- ٧
الارمن	- ٢١	- ١٨

* جرى القياس هنا بالاستناد الى المعدل العام لكل فئة.

ان القياس بالنسبة الى درجة مستوى التعليم يبرز دائماً تفاوتاً كبيراً في عدم الرضى بين الطوائف الاسلامية والمسيحية. ولكن هذا التفاوت هو اقل بكثير اذا ما قورن مع مستوى الدخل.

وكذلك التفاوت في مستوى التعليم لا يستطيع اطلاقاً تفسير درجة التفاوت في عدم الرضى بين الطوائف.

من الممكن التفكير بان الشعور بالحرمان سياسياً ورمزياً يلعب هنا دوراً، اي ان المسلمين يعتقدون بانهم لا يتمتعون بالمستوى الاجتماعي والسياسي الذي يحق لهم. بينما المسيحيون - بقطع النظر عن مستوى الدخل والمستوى التعليمي - هم راضين عن وجودهم في لبنان. اما درجة الرضى العالية بطريقة غير عادية لدى الارمن، فيمكن تفسيرها باعتبار ان هذه الطائفة تشعر بالسعادة لأنها وجدت في لبنان وطناً جديداً، بعد كل الاضطهادات الأليمة التي تعرضت لها. ولكن ينبغي ان يبقى هذا التفسير افتراضاً، نظراً لعدم توافر اية معطيات عن الحرمان السياسي - الرمزي.

على كل حال، التفاوت في درجة عدم الرضى بين الطوائف، من خلال مقارنة مستوى الدخل او مستوى التعليم، يكشف هنا بالذات عن عوارض كلاسيكية تشير الى الشعور بحرمان نسبي.

بالاختصار، يمكن الاستنتاج بان المواقف من العمل والمهنة توضح وتثبت أوضاع الأزمة في المجتمع اللبناني. فالمواقف الأساسية مثل الاستعداد الرفيع المستوى للإدخار وللاستثمار، والاتجاه الواضح نحو بذل الجهود، تشير الى كل الخصائص التي تتميز بها المجتمعات التنافسية. ولكن في الوقت نفسه، الدرجة العالية من الاستعداد للمجازفة في مجال العمل التجاري والرغبة الشديدة لممارسة العمل الحر المستقل - وكلاهما مرتبطان بصورة وثيقة بالخوف من المستقبل وبمشاعر العجز وعدم القدرة - تكشفان صورة غير طبيعية فيما يتعلق بالاستعداد للتغيير في حقل العمل والمهنة - حتى وان أخذت بعين الاعتبار المرونة المهنية الرفيعة الشأن والمعروفة منذ زمن بعيد في لبنان.

لقد خلّفت الأزمة الاقتصادية وراءها آثاراً شتّى: عدم الرضى عن الدخل (الراتب) والمهنة، وكذلك الرغبة والاستعداد للتحويل الى عامل غريب في بلاد أخرى. فقد ازدادت هذه العوارض كثيراً منذ عام ١٩٨١. فالدرجات المتباينة لعدم الرضى تبرز فجوات بين المناطق كما بين الطوائف. ولا يمكن تبرير هذه الفجوات فقط بسبب التأثير المتباين عبر أحداث الحرب. فدرجة عدم الرضى العالية لدى فئات من الطوائف الاسلامية يمكن تفسيرها فقط جزئياً عبر التفاوت في الدخل وفي

مستوى التعليم. وهذا يفترض - بنظر المسلمين - وجود أزمة اجتماعية وسياسية منذ زمن بعيد، بينما تبرز أيضاً درجة عدم الرضى الأخف حدة، لدى المسيحيين الضعيفي الدخل والكسب والقليلي التعليم. وهذا يدل على ان المسيحيين يعلقون أهمية أقل على هذه الازمة. وهكذا كان الحال دائماً موضوعياً او تصوريا لدى هذا الفريق او ذاك. فالمعطيات كانت تشير الى وجود أزمة اجتماعية قاسية. فان لم تكن هذه الأزمة سبباً، فانها نتيجة حتمية للحرب ولانعكاساتها الاقتصادية.

٥ - الاقتصاد والمجتمع

هل أثرت الأزمة البارزة في المواقف من المهنة ومن العمل على الصورة التي كانت تتكون لدى العمال اللبنانيين، عن الاقتصاد والمجتمع؟

٧١%	"عندما اذكر ظروف معيشة أهلي، ارى حالي أفضل من حالهم"
٦٦%	"اخاف ألا تكون ظروف معيشة اولادي بنفس مستوى معيشتي"

سيطر الاعتقاد والتصور عن تقدم واضح بالنسبة الى جيل الآباء، ولكن لم يقابله خوف من عدم تمكن الأولاد من التقدم. برزت هذه التباينات الواضحة أيضاً بين المناطق والطوائف.

جغرافياً لوحظ تأييد أقل لدى سكان بيروت الشرقية (٦٥%) والمتن (٧٦%) وخاصة في الشوف (٨٥%). اما طائفيًا فاعتبر الارثوذكس والارمن والموارنة (٦٧%) والروم الكاثوليك (٦١%) حالهم أفضل من حال ذويهم، بينما عبر السنة عن هذا الاتجاه بنسبة ٨١%.

بالمقارنة مع جيل الأهل برز أيضاً بوضوح ميل الى التوازن الاجتماعي. فالمناطق والطوائف التي كانت سابقاً في وضع أفضل شعرت بتقدم أقل. ولكن برز العكس في المناطق ولدى الطوائف التي كانت سابقاً في وضع سيء.

الخوف من مصير أسوأ للأجيال القادمة، عبرت عنه اكثرية المستجوبين من كل الفئات والمناطق والطوائف، ولكن مع بعض الفروقات. فاصحاب الدخل الكبير، واصحاب الاملاك الشاسعة، والعاملون في المهن الحرة والتجارة والقطاع المصرفي، وفي القطاع العام، اظهروا خوفاً أقل بالنسبة لأولادهم. اما التخوف

الأكبر فبرز بنسبة ٨٧٪ لدى الفلاحين. طائفيًا تجاوزت نسب الروم الكاثوليك والأرمن والسنة المعدل الوسط. كما برزت أقل نسبة لدى الدرّوز (٥٣٪). تشير المقارنة الجغرافية الى تأثير الوضع الأمني على التخوف من مستقبل الولاد.

بلغت هذه النسبة ذروتها في المناطق التي كانت واقعة تحت سيطرة الميليشيات الشيعية (٧٧٪)، وفي مناطق صيدا المضطربة (٨٢٪) وجزّين، واطراف الجنوب (٨١٪). وبرزت أدنى نسبة في المناطق التي كانت هادئة أثناء التحقيقات، كبلعبك والهرمل (٤٧٪) وتلك التي كانت واقعة تحت سيطرة الميليشيات الدرزية (٥٣٪). فتقييم الوضع الحياتي الذاتي بالمقارنة مع وضع الأهل والأولاد، ارتبط كثيراً بالمواقف النفسية الاجتماعية، وبالمواقف من العمل والمهنة. فالذي كان يعتقد ان وضعه افضل من وضع ذويه، وان وضع اولاده سيكون أسوأ، هو انسان مضطرب عادة، يشعر بعدم القدرة، ولكنه مستعدّ للمجازفة بسبب تشاؤمه، وبالتالي غير راض عن مهنته وعمله.

كيف رأى المستجوبون التباين الاجتماعي في المجتمع اللبناني وتوزيع الرفاهية والسلطة الاقتصادية فيه؟

١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	
٩٦	٩٤	٩١	٩٠	- "منذ عام ١٩٧٥ زاد التفاوت بين الفئات الاجتماعية"
٩٥	٩٤	٩٢	٨٧	- "في لبنان توجد اقلية من الاغنياء تجمع ثروات على عاتق الاكثرية الساحقة من السكان"
٧١	٤٦	٥٤	٦٨	- "في لبنان تعيش اكثرية الناس في مستوى حياتي وسط، ويوجد فقط عدد قليل من الاغنياء ولا يوجد كثير من الفقراء"
٥٢	٤٠	٣٧	٢٥	- "مهما اراد العمال دائماً لن يستطيعوا تحقيقه ضد سلطة ارباب العمل"
٩٧	٩٧	٩٦	٩٧	- "حتى الناس البسطاء يستطيعون ان يتقدموا اذا تعاونوا مع بعضهم"
٧٢	٦٣	٦٧	٦٦	- "عند ما ارى الناس في الأحياء السكنية الراقية، اقول لنفسي باني اريد ايضاً العيش مثلهم ولي الحق بذلك"

المعطيات بالنسبة المئوية

أشارت المتغيرات ذات المغزى الكبير جزئياً في ردود الفعل الحاصلة بين عام ١٩٨١ و١٩٨٧ الى حجم الأزمة الاجتماعية بوضوح تام.

في عام ١٩٨١ لم تكن الحرب تعتبر من قبل ٩٠٪، وفي عام ١٩٨٧ من قبل كل المستجوبين تقريباً، وسيلة فاعلة للمساواة بين الجميع، بل اسهمت في زيادة حدة

التفاوت الاجتماعي. كذلك كان ينظر الى "أقلية من الأثرياء" كمجموعة استغلالية. هذه الفئة أصبحت اسطورة في لبنان بعد ظهور "دراسة-لوبرا" ٣١.

اما الصورة التنافسية عن "مجتمع لبناني متوسط الحال"، فقد انهارت تماماً منذ عام ١٩٨٦. في عامي ١٩٨١ و ١٩٨٤ برزت موافقة على ذلك من قبل اكثرية المستجوبين، ولكن عام ١٩٨٧، لم تعد تؤيدها الا اقلية صغيرة بلغت نسبتها ١٧٪. وهكذا مازال يعتقد بوجود طبقة متوسطة، ربع الذين تجاوزوا سن الخامسة والاربعين، وبالتالي ربع المستجوبين من فئة الدخل العالي والمستوى التعليمي العالي. في المتن وطرابلس وجبيل مازال نصف المستجوبين يتمسك بهذا الرأي. اما بالنسبة للطوائف فبرز تباين واضح. ٣٣٪ من الموارنة، و ٢٠٪ تقريباً من الطوائف المسيحية الأخرى كانوا يعتقدون بوجود اكثرية ذات مستوى حياتي متوسط، بالإضافة الى ١٣٪ من السنة و ٥٪ فقط من الشيعة.

فالذي وافق على ذلك، لم يكن مستعداً للتغيير اجمالاً. كان راضياً عن عمله ومهنته، ويؤمن بالجهود الشخصي، ولا يشعر بعدم القدرة. ولكن صورة المجتمع المتوسط الحال التي كانت قبل سنوات قليلة، بارزة في نظر الاكثرية، بدت عام ١٩٨٧ وكأنها تحولت الى أمنية فئة أقلية ومستقلة ذاتياً.

كانت سلطة ارباب العمل تعتبر قوية جداً عام ١٩٨١ من قبل ربع المستجوبين، ومن قبل أكثر من نصفهم عام ١٩٨٧. في تلك العينة كان معظم المستجوبين من النقابيين. ولكن لو كانوا فعلاً نقابيين، لما اعتبروا ذلك صحيحاً. انما ارتفاع النسبة من ٣٧٪ في تحقيق عام ١٩٨٤ الى اكثر من ٤٠٪ عام ١٩٨٦، والى ٥٢٪ عام ١٩٨٧ دلّ على ان معظم افراد الطبقة العمالية يشعرون بضعف متزايد امام ارباب العمل. وهذه، دون شك، ظاهرة طبيعية لنتائج الأزمة الاقتصادية والبطالة.

فالاعتقاد بإمكانيات ترقّي الناس البسطاء عبر التضامن والتعاون والمساعدة المتبادلة، بقي قوياً بنسبة ٨٠٪. ولكن انخفضت هذه النسبة كثيراً منذ عام ١٩٨٦. وهذه ظاهرة مرضية تشير الى الاحباط المتزايد. وقد برز تباين واضح بين أحياء بيروت وبين المناطق. في الأشرافية والضواحي المسيحية بقي الاعتقاد بالتضامن والتعاون والمساعدة المتبادلة قائماً بدرجة اعلى من المعدل، وكذلك ايضاً في وسط بيروت الغربية، وفي المصيطبة والبسطة. ولكن انخفض هذا الاعتقاد لدى سكان الضواحي الشيعية: ٥٦٪ في برج البراجنة، ٦٠٪ في الشياح و ٦٦٪ في حارة حريك. في طرابلس وعكار والشوف والمتن وجبيل، بلغ هذا الاعتقاد نسبة تتجاوز

بقليل ٥٠٪، ولكنها انخفضت في صيدا الى ٤٦٪ فقط. فالأجوبة على هذا السؤال أعطت مؤشرا على التماسك الاجتماعي في احياء المدينة وفي المناطق. "نعم" كان جواب المستجوبين من المناطق ذات البيئة السكانية المتجانسة والسكان المقيمين فيها منذ زمن طويل. و"كلا" كان جواب الذين في السنوات الأخيرة تعرضوا للتهجير ولتغيير امكنة سكنهم.

من هذا المنطلق تبين ان الدروز والموارنة كانوا اكثر المؤمنين بالمساعدة المتبادلة، والشيعية والروم الكاثوليك اقل المؤمنين بها. وقد تعرضت مجموعات في هاتين الطائفتين الاخيرتين الى التهجير من مساكنهم او الرحيل عنها قسراً في السنوات الأخيرة.

اخيراً لم يكن مستغرباً ازدياد نسبة الحسد الاجتماعي تجاه "سكان الاحياء الراقية"، بسبب الأزمة الاقتصادية والاجتماعية.

برز هذا الحسد بمعظمه لدى الشباب، واصحاب الدخل الضعيف، وذوي المستوى التعليمي الضعيف، والذين لا مأوى ولا ملكية لهم. وتبين ان ادنى درجة من الحسد الاجتماعي كانت في بيروت، في الأشرفية والضواحي الشرقية من جهة، وفي المصيطبة والبسطة من جهة أخرى، وكذلك خارج بيروت في كسروان والشوف وطرابلس والكورة. وارتفعت هذه النسبة بنوع خاص في احياء بيروت الشيعية وفي رأس بيروت، وخاصة في جزين. وبالنسبة للطوائف، برزت ردود الفعل على هذا القول وكأنها مؤشر آخر على الشعور بالحرمان النسبي، ارتفعت نسبته الى ٨٤٪ لدى الشيعة و٧٣٪ لدى الروم الكاثوليك.

وقد ارتبط الحسد بالخوف من المستقبل، وعدم القدرة وعدم الرضى من المهنة والعمل بنسبة اعلى من المعدل. وهذا مؤشر آخر لذات الظاهرة المرضية.

كيف تمنى ورأى المستجوبون مستقبل الاقتصاد اللبناني؟

٨٩٪	"كيفية جاء الحل اللبناني للنزاع ينبغي ان تبقى وحدة الاقتصاد قائمة"
٨٦٪	"الخدمات التي يقدمها لبنان للمنطقة لا يمكن استبدالها. فهل تثبت دور لبنان في هذا المجال، رغم الأزمة؟"

لم تعرف نسبة الموافقة على هذين القولين تغييراً يذكر بين عام ١٩٨٠ وعام ١٩٨٧.

عن ضرورة الاحتفاظ بوحدة الاقتصاد، اعتقد على الأقل سكان الشوف والبقاع وكسروان وجبيل، أي سكان المناطق التي تعرضت لانحسار اقتصادي نسبي. وتجاوزت أكثر من المعدل الوسط نسبة الذين كانوا يتمنون الوحدة ليس فقط من قبل سكان بيروت، بل أيضاً من قبل سكان جزين وصيدا والنبطية، أي المناطق التي جرى تهميشها والحق الضرر بها بسبب التجزئة الاقتصادية.

وتجدر الإشارة الى التباين البارز بين الطوائف. ٧٥٪ من المستجوبين من الدروز و ٨٣٪ من الموارنة عبّروا عن رغبتهم بوحدة الاقتصاد اللبناني. وكانت كل من هاتين الطائفتين تسيطران على كانتون بحيم الامر الواقع. وبالمقابل أيدّ الوحدة معظم المستجوبين من الروم الارثوذكس والسنة والشيعة. تجدر الإشارة هنا الى ان الطائفة السنية او الارثوذكسية لم تسيطر على اية منطقة جغرافية. اما بالنسبة للشيعة الذين يتوزعون على البقاع وبيروت الغربية وجنوب لبنان، فان أي تقسيم اقتصادي كان يعني لهم تقسيماً داخل طائفتهم.

رغم كل التباينات النسبية تجدر الإشارة الى ان حوالي ٧٥٪ من الدروز أيدوا المحافظة على الوحدة الاقتصادية، رغم ميل هذه الطائفة الواضح الى الاكتفاء الاقتصادي ضمن منطقة جغرافية خاصة بها.

اما الموافقة على القول بأن "دور لبنان الإقليمي، تثبّت وإن لبنان لا يمكن استبداله"، لا يمكن تفسيرها إلا باعتبارها تعبيراً عن الأمل الذي مازال يحلم به اللبنانيون. فالمستجوبون من مستوى التعليم العالي كانوا يميلون أكثر الى الارتياح، وكذلك المستجوبون من الطوائف المسيحية. وانخفضت نسبة الموافقة على ذلك في المناطق التي ترابض فيها القوات السورية. هنا يشير الاختبار اليومي الى ان دور لبنان لم يثبت. وقد ارتفعت النسبة الى اعلى مستوى في المناطق التي كانت تعيش احداثاً أليمة جداً اثناء التحقيق، وهي ضواحي بيروت الشيعية. طائفياً، كان الشيعة أكثر الذين يعتقدون بعدم امكانية استبدال دور لبنان في المنطقة، وذلك ليس لغياب أي أمل لهم خارج لبنان، بل للتمسك على الأقل بهذا الأمل.

ان النظرة الى الاقتصاد والمجتمع تثبّت وتكمل ما برز حتى الآن بالنسبة للعمل والمهنة، أي صورة أزمة مجتمعية ذات حجم أكبر.

اعتقدت أكثرية المستجوبين بأن وضعها هو افضل من وضع ذويها، ولكنها تخاف على ان يكون وضع اولادها أسوأ. اعتقدت بأن التناقضات الاجتماعية تزداد تفاقمًا وإن أقلية صغيرة، تجمع ثرواتها على حساب الآخرين. وقد أيدت عام ١٩٨١

أكثرية ساحقة القول بأن لبنان هو مجتمع ذو طبقة متوسطة. ولكن انخفضت هذه النسبة الى ١٧٪. وما زال ارباب العمل يُعتبرون أسياداً أقوياء مثل السابق. واما الاعتقاد بالمساعدة المتبادلة والتضامن بين الناس البسطاء فتراجع كثيراً. وبالمقابل زاد انتشار الحسد الاجتماعي.

ولكن بقي الأمل بإعادة توحيد اقتصاد البلاد والاحتفاظ بدور لبنان كدور فاعل في الشرق كله كما كان سابقاً. وأكثر من عبّر عن هذا الأمل هم الذين كانوا يعتبرون عن عدم الرضى اطلاقاً، ويخافون من المستقبل ويشعرون بعدم القدرة.

٦ - الدين، العائلة، والطائفة

تتميّز الطوائف اللبنانية، كما ابرزت حتى الآن المعطيات المشار إليها، بمميزاتها وبخصائصها الاجتماعية، وبمواقفها من العمل والمهنة، وكذلك بنظرتها الى الاقتصاد والمجتمع. ولكن أسئلة فرضت نفسها حول كيفية تكوين الحياة الداخلية لهذه الطوائف. الى اي حدّ تعتبر الطوائف الدينية متديّنة، والى اي حدّ أصبحت هذه الطوائف لا تحمل إلا اسمها فقط؟ كيف يبرز التضامن العائلي من جهة، والشعور بالانتماء الى طائفة دينية من جهة أخرى؟ وكيف يبرز هذان العاملان بالنسبة لبعضهما؟ واخيراً، كيف يُنظر الى التفاوت بين الطوائف من جهة، وبين الفئات او الطبقات من جهة أخرى، وكيف يُقيّم هذا التفاوت؟

٧١٪	"أؤمن بحياة بعد الموت، حيث يُكافأ الصالحون ويعاقب الأشرار"
٧٥٪	"أحاول ان أعيش حياتي اليومية حسب تعليم ديني"
٣٨٪	"أتردد غالباً إلى أماكن العبادة"
٨١٪	"أستطيع ان أكون سعيداً وانتعم بالحياة دون الإيمان بالله"

حتى في إطار تفسير حذر، وأخذاً بعين الاعتبار لإمكانية اجوبة "مرغوبة اجتماعياً"، لا يمكن الاستنتاج بأن العمال اللبنانيين يبرزون، بمعظمهم نزعة دينية. ولكن كل أسقف في أوروبا الغربية يستطيع ان يحلم فقط بمثل هذه النتائج. فعن علمنة القناعات لا يمكن الحديث اطلاقاً في لبنان.

ترتبط الأقوال عن التدين ببعضها كثيراً، كما يؤكد ذلك تحليل العناصر. لذلك جرى وضع مقياس لها^{٣٢}.

متدين جداً	٢٦%
متدين	٣٩%
متدين قليلاً	٢٢%
غير متدين	١٣%

أشار ٦٥% من المستجوبين الى درجة عالية او عالية جداً من التدين. اما المجموعة المعلمنة فتشكل بالمقابل اكثر من ١٠%. وقد انخفضت نسبتها بصورة بارزة خلال السنوات الأخيرة، كما يستدل ذلك من الموافقة على القول "استطيع ان اكون سعيداً و اتمتع بالحياة دون الإيمان بالله"، في التحقيقات الاربعة منذ عام ١٩٨٦ وذلك بنسبة ٢٠%، ٢٢%، ١٥% و ١١%.

من هومتدين ومن هو اقل تديناً؟ لا يوجد بين الذكور والإناث اي تباين، بل بالنسبة للعمر. في المرحلة العمرية من ٢٠ الى ٢٥ سنة برزت نسبة ٥٣% من غير المتدينين او من المتدينين قليلاً، وهي تتميز كثيراً بنسبة ٣٥% عن المعدل العام لهاتين الفئتين.

وبرز عنصر هام للعلمنة بالاستناد الى مستوى التعليم:

مستوى التعليم ونسبة التدين %

التدين	دون اي مستوى	تعليم ابتدائي	تعليم مهني	تعليم ثانوي	تعليم جامعي	المجموع
متدين جداً	٥٢	٢٨	٢٠	٢٢	١٧	٢٦
متدين	٣٤	٤٦	٤٠	٣٩	٣٩	٣٨
متدين قليلاً	١٠	١٩	٢٦	٢٤	٢٤	٢٢
غير متدين	٤	٧	١٣	٢١	٥١	١٤

٣٢- يتألف هذا المقياس من ست درجات: سيجري الحديث لاحقاً عن درجتين. عن كل موافقة يعطى المستجوبون علامة. درجات المقياس بين صفر وستة وزعت على اربع فئات. ضارب المصادقية "الفا" يساري ٧٧ (Alpha = 77).

خريجو الجامعات هم أقل تمثيلاً في فئة المتديّنين جداً وأكثر تمثيلاً في فئة غير المتديّنين. ولكنهم مع ذلك يشكلون الخمس تقريباً، من بينهم ٥٥٪ متديّنون أو متديّتون جداً.

اما المناطق الجغرافية للتديّن فهي البسطة في بيروت الغربية، وضواحي بيروت الشرقية. وخارج بيروت، تبلغ نسبة المتديّنين جداً والمتديّنين ٨٠٪ في كل من طرابلس، وصيدا، وجزين، وكسروان، وجبيل.

اما طائفيّاً^{٣٣}، فبرز التوزيع التالي:

الطوائف الدينية ونسبة التديّن٪

التديّن	سنة	شيعة	دروز	موارنة	روم	كاثوليك	ارمن
متديّتون جداً	٢٦	٣٢	٦	٢٦	١٨	٢١	٢٣
متديّتون	٤٢	٣٣	٤١	٤٠	٤٣	٤٣	٢٦
متديّتون قليلاً	٢٠	٢١	٢٢	٢٠	٢٥	٢٧	٣٠
غير متديّنين	٦	١٢	١٤	١١	٣٦	١٥	١٢

تشير هذه المعطيات الى مساواة بين السنة والموارنة في مجال التديّن. ويتمتع الشيعة بأعلى نسبة بين المتديّنين جداً. ولكن المقارنة بين الفئات غير المتديّنة والقليلة التديّن والمتديّنة والمتديّنة جداً، تطابق توزيع الشيعة تماماً مع المعدل العام. لدى الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس تبرز أعلى نسبة وان ضعيفة من غير المتديّنين والقليلي التديّن. ماعدا ذلك لا تختلف كثيراً درجة التديّن لدى اللبنانيين، الى اية طائفة انتموا.

٣٣- في تفسير هذه النتائج تجدر الإشارة الى ان مقياس "التديّن" لا قيمة له بالنسبة للدروز فقط. فلا توجد لدى هؤلاء اية مراكز للعبادة بالمعنى الحصري. المشاركة في الاجتماعات الدينية تقتصر فقط على فئة منهم تسمى "بالعقال" الذين يسمح لهم بالإطلاع على "تعاليم الدين". ولم يمنع هذا الأمر اكثريّة الدروز من تصنيف انفسهم بشيدي التديّن. إذ ان ٨١٪ منهم يؤمنون بحياة بعد الموت - وهذه هي أعلى نسبة بين كل الطوائف -. وهناك ٣٪ منهم فقط يستطيعون تصوّر انفسهم سعداء دون الإيمان بالله.

ولابدّ من التشديد هنا على ان الطوائف من حيث مقياس التدّين، هي بنسبة تثنّي اعضائها، طوائف دينية.

تؤكد هذا الواقع في اربعة تحقيقات. وتبيّن ان المجموعة الصغيرة من العلمانيين ضعفت كثيراً منذ عام ١٩٨٤. لذلك يمكن التأكيد على انه لم يتبدل شيء في هذا المجال على الإطلاق.

اما التضامن العائلي الكثيف فقد اعتبر احياناً ظاهرة تنافس الولاء للطائفة، كما اعتبر أيضاً أساساً اجتماعياً لهذا الولاء. يعتبر بعض المفكرين الروح العائلية شكلاً أكثر قديماً لتضامن المجموعات، والتضامن الطائفي شكلاً أكثر حداثة لها^{٣٤}.

جرى قياس الروح العائلية بالاستناد الى ردود الفعل على الأقوال التالية:

٤٥%	"انصر اخاك ظالماً كان او مظلوماً" ^{٣٥}
٥٠%	"في النزاع بين عائلتي والتيار السياسي الأكثر اهمية في طائفتي، اقف الى جانب عائلتي"

وجرى استكشاف التضامن مع الطائفة بالاستناد الى ردود الفعل على الأقوال التالية:

٥٨%	"سواء كانوا اغنياء او فقراء، أشعر بارتباط وثيق مع افراد طائفتي"
٩١%	"من المستحسن ان لا يحصل اي خلاف بين ابناء الطائفة الواحدة"

- يقول احدهم:

٣٤- راجع في هذا الصدد، فؤاد خوري، المصدر المذكور، ص ٢٠١ وما يليها.

٣٥- مثل لبناني.

"لا يهتمني اذا تزوجت ابنتي من شخص ينتمي الى دين آخر، طالما يحبان بعضهما"

ويقول آخر:

"الزواج بين افراد من اديان مختلفة ليس جيداً، ويؤدي غالباً الى القتل. انا لن اوافق على زواج ابنتي من شخص من غير دينها."

٤٠٪ اوافق على القول الأول

٥٥٪ كجيران افضل الناس الذين هم من ذات المنطقة (او القرية) مثلي

٩٠٪ اذا كان زملائي صديقين ومتعاونين، فلا تهمني الطائفة التي ينتمون اليها

التضامن العائلي قوي، وقد ازداد كثيراً في السنوات الأخيرة. في عامي ١٩٨١ و ١٩٨٤، أيد ربع المستجوبين مبدأ "أخي أولاً، ان كان على خطأ او على صواب". ارتفعت هذه النسبة الى الثلث عام ١٩٨٦ وإلى النصف تقريباً عام ١٩٨٧. وهذا النصف هو ايضاً مستعد، في حال قيام نزاع بين العائلة ورأي أكثرية الطائفة، للوقوف الى جانب العائلة. ولكن بما ان مثل هذا الحال غير مستحب اطلاقاً، فان الموافقة الواضحة تثبت الاستنتاج بان النزاعات داخل الطائفة ينبغي تحاشيها قدر الامكان. وهنا يبرز مغزى هذه الموافقة نظراً لارتفاع نسبتها من ٦٩٪ عام ١٩٨١ الى ٩١٪ عام ١٩٨٧. وبكلام آخر، لقد ازدادت نسبة التضامن مع العائلة كما ازدادت ايضاً مع الطائفة. وفي حال حصول نزاع بينهما، تنقسم الأرواح عندئذ الى نصفين.

من هم الشديدي او الضعيفو الارتباط بالعائلة، الذين يتضامنون اكثر او أقل مع طوائفهم؟ الروح العائلية تزداد مع العمر وتنخفض مع المستوى التعليمي. في بيروت بلغت نسبة الروح العائلية ٥٢٪ وفي المناطق ٤١٪. وبالمقارنة مع التحقيقات السابقة، لوحظت اعلى نسبة في أحياء المدن السكنية لدى العائلات المقيمة فيها منذ زمن بعيد، خاصة في البسطة، حيث وصلت الى ٨٣٪. وانخفضت في الاحياء السكنية التي عرفت في السنوات الأخيرة تغييراً قوياً في بنية السكان، كما هي الحال في رأس بيروت بنسبة ٢٦٪. وخارج بيروت برزت اعلى نسبة في منطقة الشوف.

وبالنسبة للطوائف الدينية برزت تباينات واسعة. "انصر اخاك ظالماً كان او مظلوماً"، أيد ذلك الشيعة بنسبة ٥٨٪ والسنة ٥٣٪، والموارنة ٣٩٪ والروم الكاثوليك ٢٦٪. وأيد الوقوف الى جانب العائلة في حال نزاعها مع الطائفة ٤٢٪

من الشيعة، و٦٣٪ من الروم الارثوذكس، و٥٦٪ من الروم الكاثوليك والارمن و٥٤٪ من الدروز.

الروح العائلية هي ايضاً قضية "صغار القوم" ذوي الدخل والمستوى التعليمي الادنى. والتمسك بالروح العائلية، أي الاستعداد حتى للدخول في نزاع مع الطائفة، هو امتياز اقلية واعية، مدركة، وذات دخل جيد نسبياً. فالذي يتضامن مع العائلة رغم كل شيء، هو مستعد للتغيير بصورة عامة، يخاف قليلاً من المستقبل ويميل الى الرضى في عمله ومهنته.

التضامن مع الطائفة، بقطع النظر عن ثروة او فقر افراد العائلة، برز لدى ٥٨٪ من المستجوبين. وظهر التفاوت حسب الاحياء السكنية في المدن، والمناطق. ومثلما هو الحال مع الروح العائلية، بلغت نسبة الشعور او التضامن مع الطائفة ٦٢٪ في العاصمة و٤٠٪ في المناطق. وبينما عرفت هذه الأخيرة ذات النسبة تقريباً في شكلي التضامن العائلي والطائفي، ارتفعت في بيروت نسبة التضامن مع الطائفة الى ٦٢٪ مقابل ٥٢٪ مع العائلة.

ولكن محيط المدينة لا يبرز تلقائياً التضامن مع الطائفة. فالتفاوت يبرز في احياء المدينة وفي المناطق. في بيروت وصلت نسبة التضامن مع الطائفة الى ٧٥٪ في الصيطة و٨٣٪ في البسطة، و٧٦٪ في الأشرفية. برز اذا التضامن الطائفي في الأحياء القديمة أكثر من بروزه في الضواحي الجديدة. في حارة حريك بلغت هذه النسبة ٤٠٪ وفي الجناح ٣٥٪، وانخفضت في راس بيروت الى ٣١٪ وفي طريق الجديدة الى ١٩٪ فقط ٣٦. وخارج بيروت برز التضامن الطائفي بنوع خاص في الشوف ٨٧٪، وفي كسروان ٨٣٪.

وبين الطوائف برزت ايضاً فروقات في هذا المجال. في رأس الهرم يأتي الأرمن بنسبة ٦٤٪، الموارنة ٦٣٪، والدروز ٦١٪، والشيعة ٥٣٪. فالطوائف ذات الهوية والتاريخ الطويل، تشعر أكثر من غيرها بضرورة هذا التضامن كما تريد ذلك ايضاً ٣٧.

٣٦- بالنسبة لهذين الحين في المدينة، قد تكون هناك اسباب سياسية - ايديولوجية وراء هذا الرفض للتمائل الطائفي. سيجري التوقف لاحقاً حول هذه الظاهرة.

٣٧- لابد من اتخاذ بعض جوانب الحذر في تفسير هذا الاستنتاج. فلا يمكن استبعاد ما دفعت إليه صيغة "لا فرق، غني أو فقير" لدى المستجوبين الشيعة الى اعطاء جواب سلبي. فقياديو الحركات الشيعية السياسية اضطروا في السنوات الأخيرة الى اثارة معارضة "زعماء" طائفتهم التقليديين والاثرياء، واعتبار قضيتهم بأنها قضية الفقراء والمحرومين. فنسبة الموافقة الضعيفة بنوع خاص في ضواحي بيروت الشيعية الشديدة التمسك، هي خير مؤشر لهذا الافتراض. راجع ايضاً النسب العالية للحسد الاجتماعي لدى سكان المدن من الطائفة الشيعية.

أما الرغبة في تجنب النزاعات داخل الطائفة فقد عبّر عنها ٩١٪ من المستجوبين، أي أكثر من ٣٠٪ من الذين يتضامنون مع الطائفة. يدل بوضوح هذا المؤشر على وجود تضامن مع الطوائف يتجاوز إطار الطوائف، حتى وإن بشكل أضعف. ولكن المفيد هنا هو معرفة من لا يقف ضد هذه النزاعات. فغالبية خريجي الجامعات وأصحاب المهن الحرة، هم في وضع يسمح لهم بالابتعاد عن طوائفهم. نجد هؤلاء بنوع خاص في الكورة وزغرتا، في المتن، في جبيل، وكذلك في عكار، أي في تلك المناطق التي شهدت نزاعات داخل الطائفة خلال السنوات الأخيرة. فالموارنة بنوع خاص يقبلون بنزاعات مفتوحة بين صفوفهم. وهذا ما يفعله بالمقابل الشيعة بنسبة ٥٪ فقط، وليس ذلك سوى دليل على صحة الشك المعبر عنه سابقاً حول التقدير الأدنى للتضامن الطائفي لدى الشيعة^{٣٨}. وأخيراً، يعبر الدروز بالاجماع وبشجاعة عن معارضتهم للنزاعات الداخلية.

والسؤال الحاسم حول ارادة الحفاظ الذاتية على المجموعة كمجموعة، أو بالعكس الاستعداد للتكامل الاجتماعي، يكمن في قبول الزواج من الآخرين. الشرع الإسلامي يسمح لرجل مسلم بالزواج من امرأة مسيحية أو يهودية، ولكنه يحرم زواج المرأة المسلمة من رجل مسيحي أو يهودي. لذلك كان السؤال عن مدى استعداد المستجوب للسماح لابنته من الزواج مع شخص من غير دينه، سؤالاً افتراضياً^{٣٩}.

ورغم ذلك عبّر ٤٠٪ من المستجوبين عن هذا الاستعداد. ارتفعت النسبة لدى النساء المستجوبات إلى ٥١٪ وهذه هي إحدى الحالات الاستثنائية التي برز فيها موقف نسائي إذ مغزى يتميز عن موقف الرجل^{٤٠}. فالشباب وغير المتزوجين وافقوا على ذلك غالباً. وكذلك بلغت نسبة المستجوبين من فئة التعليم العالي ٥٥٪.

في جزئي مدينة بيروت برزت أكثرية محدودة، خاصة في رأس بيروت وفي الضواحي المسيحية، بينما في الشياح انخفضت النسبة إلى ٢٢٪. وخارج بيروت،

٣٨- راجع الحاشية السابقة.

٣٩- من البديهي أن يطرح هذا الموضوع الكلاسيكي تفاوتاً حاداً بين الآراء والمواقف. التعبير عن الاستعداد لزواج مختلط أثناء مقابلة مع أحد الباحثين هو شيء، ولكن تحقيقه عملياً هو بكل تأكيد شيء آخر. لذلك تسمح المقارنة بين اجوبة المستجوبين من فئات اجتماعية مختلفة باستكشاف مستويات التحسّس بمشكلة التمييز والتكامل. وتجدر الإشارة إلى أن المسيحيين الشرقيين أيضاً حرّموا بشدة الزواج المختلط كردة فعل على "خط الإتهام الواحد" لدى المسلمين، أقله باستخدام القانون الكنسي (الذي يفرض التحليل) ولكن أكثر فاكتر بسبب الضغط الاجتماعي.

٤٠- هنا تجدر أيضاً الملاحظة إلى أن الأمر يتعلق بين المستجوبين بالنساء العاملات اللواتي لا يمكن اعتبارهن ممثلات حقيقيات لمجمل النساء اللبنانيات.

فقط في المتن، عرفت هذه النسبة أعلى مستواها (٦٣٪). وانخفضت الى اقل من ٣٠٪ في كل من جزين، وصيدا، وبعبك، وطرابلس.

الآ ان التفاوت بين الطوائف بقي مرتفعاً. فقد وافق على الزواج المختلط ٦٦٪ من الارمن، و٤٨٪ من الروم الكاثوليك و٤٦٪ من الموارنة، بينما انخفضت هذه النسبة لدى السنة الى ٣٧٪ ولدى الشيعة الى ٣٢٪. تدفع هذه النتائج الى تفسير نسبة التضامن الطائفي المشار اليها سابقاً بنوع من الحذر. فالشعور القوي جداً بهذا التضامن لدى الارمن والموارنة، لم يمنع المستجوبين من هاتين الطائفتين، نصفهم او اكثر، من قبول فكرة الزواج المختلط. وبالمقابل، عبر نصف الشيعة فقط عن شعورهم بالتضامن مع الطائفة، ولكنهم رفضوا الزواج المختلط بنسبة تجاوزت ٧٠٪.

تتسم الفئة التي تؤيد الزواج المختلط بنوع من الثقة بالذات. انها فئة غير محافظة، ومستعدة للتغيير والانتقال، واثقة من نفسها، وراضية نسبياً عن عملها ومهنتها.

فنتقييم نتائج هذا السؤال هو اصعب بكثير من تقييم المواضيع الأخرى التي أثّرت سابقاً. فالمسيحيون اللبنانيون يميلون الى ابراز رفض الاكثرية لتكامل اجتماعي فعلي من قبل المسلمين. وبالمقابل يشير المسلمون الليباليون الى ان موافقة ثلث المسلمين، وان تكن ذات طابع افتراضي، على اتجاه يتنافى مع الشرع الإسلامي، هو دليل بارز الاهمية على ارادة التعايش. ومن الممكن ان يلتقي الموقفان، ولكن موضوع العلاقة الهام هنا يكمن في اشارة النتائج الى ان خطر الزواج المختلط يشكل وسيلة هامة للحفاظ على الوعي والتضامن داخل المجموعات الطائفية. وهذا ما يبدو اشد وأقوى تأثيراً لدى الطوائف الاسلامية منه لدى الطوائف المسيحية.

الجيران من ذات الطائفة، فضل ذلك ٤٩٪ من المستجوبين عام ١٩٨١. وارتفعت هذه النسبة عام ١٩٨٧ الى ٥٥٪. هنا يبدو ان المعارك وعمليات التهجير في السنوات الأخيرة أثّرت كثيراً على هذا الموقف. ولكن من حيث الخصائص الاجتماعية لم تبرز فروقات تذكر. فخريجو التعليم العالي هم اكثر انفتاحاً على جيران من طائفة أخرى بنسبة ٤٦٪. اما نسبة الموافقة على جيران متجانسين فعالية بنوع خاص في بيروت الشرقية وفي كسروان، حيث وجد مأوى عدد كبير من اللاجئين والمهجرين من مناطق كانت مختلطة السكان. وبرزت اعلى نسب هذه الموافقة أيضاً في صيدا، والنبطية، وبعبك، والشوف، أي المناطق التي اصبحت متجانسة تماماً عبر تهجير الأقليات منها. فالمنتصرون عبّروا عن سرورهم ظاهرياً بالوضع الجديد. كما ان إقامة "كانتون الأمر الواقع" وجدت موافقة وتأييداً، حيثما

حصل ذلك. ولكن الأمر المدهش يلاحظ في ضواحي بيروت الجنوبية، في حارة حريك وبرج البراجنة، حيث فضلت نسبة ٢٧٪ من المستجوبين جيرانا من ذات الطائفة. لقد تحولت حارة حريك عام ١٩٧٥ وبرج البراجنة عام ١٩٨٣، عبر تهجير سكانها الاصليين، المواردنة منها، الى منطقة سكنية شيعية فقط. وهنا يبدو ان اكثرية السكان الشيعة لا تؤيد اعمال بعض الميليشيات.

هل يشكل هذا الأمر ظاهرة حنين مرضية فقط الى ايام تعايش افضل؟ لا يمكن الجواب على هذا السؤال استناداً الى المعطيات المتوفرة هنا.

فتفضيل الجيران من ذات الطائفة ليس فقط نتيجة احداث الحرب. تدل على ذلك ايضاً العلاقة الوثيقة القائمة بين الاعتراف بالشعور الطائفي ورفض الزواج المختلط. فالجوهر الاساسي في الوعي الطائفي يتمثل اذا في رفض الزواج المختلط، وبدرجة اقوى، في الرغبة بالعيش ضمن حدود جغرافية.

مقابل الرغبة المتنامية لفرز المناطق السكنية، لم تتغير الاً قليلاً جداً نسبة الموافقة بين عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٧ على كون الجيران من زملاء العمل من الطوائف الاخرى^{٤١}. ولكن المهم هنا يكمن في معرفة من يعبر عن هذا الرفض. برز ذلك بنوع خاص لدى الشيعة بنسبة ١٩٪ مقابل ١٪ لدى الدروز و ٥٪ لدى المواردنة. وقد لوحظت هذه النسبة لدى الشيعة فقط في بيروت. في الشياح مثلاً، في حي كامل، وفي حارة حريك، أكثر من ٢٧٪ من المستجوبين لا يريدون اطلاقاً العمل مع زملاء من الطوائف الاخرى، بالمقارنة مع ٦٪ فقط في رأس بيروت وفي الضواحي المسيحية. اما خارج بيروت، فلم يلق رفض زملاء العمل من طوائف اخرى الا نسبة ٧٪.

ما هي علاقة التضامن مع الطائفة ومجموعة المصالح الاقتصادية، او ما هي علاقة النظرة الى "الطائفة" مع النظرة الى "الطبقة"؟

جرى بحث هذا السؤال بالاستناد الى القولين التاليين:

٤١ - يبدو ان الموافقة هنا سهلت عبر اضافة الجملة التالية: "اذا كانوا شرقاء ومستعدين للتعاون".

٥٩%	"بالطبع هناك انقسامات سياسية ودينية، ولكن الاهم يبقى الانقسام بين الاغنياء والفقراء"
٥٢%	"الذين يستغلون الخلافات في السياسة بين الطوائف، يفعلون ذلك من أجل تغطية الفروقات الحقيقية بين الأثرياء والفقراء"

في هذين القولين تبرز الشعارات الكلاسيكية التي كان يتمسك بها منذ زمن طويل اليسار اللبناني. ولكن منذ مطلع السبعينات تبتت أيضاً هذه الشعارات الحركة الشيعية التي تعتبر ان الفقراء هم من الطائفة الشيعية.

وافقت اكثرية المستجوبين على القول الاول واكثر من نصفهم بقليل على القول الثاني. من وافق ومن رفض؟

مع تزايد مستوى الدخل تضعف الموافقة على القول الاول^{٤٢}. في مجموعتي الدخل الأدنى هناك الثلثان، وفي مجموعة الدخل الأعلى الثانية ٥٨٪، وفي مجموعة الدخل الأعلى الاول، النصف فقط. وأعلى نسبة للموافقة برزت لدى الفئة ذات المستوى التعليمي الأدنى ٧٠٪، ولدى خريجي التعليم الثانوي ٦٢٪، ولدى خريجي التعليم العالي ٥٣٪.

التفاوت الأكبر في الموافقة يبرز في المناطق وحسب الطوائف. في بيروت، تتردد كلمة "نعم" بنسبة ٦٧٪ على لسان المستجوبين، وهي أكثر تكراراً من جهة في معاقل اليسار اللبناني^{٤٣}. في رأس بيروت، وطريق الجديدة وفي عكار، ومن جهة ثانية، في ضواحي بيروت الشيعية كما في صيدا، والنبطية، وجزّين. وجاءت نسبة هذه الموافقة أدنى من المعدل الوسط، ليس فقط في الأحياء والمناطق المسيحية فحسب، بل أيضاً في الأحياء القديمة من بيروت الغربية، وفي الشوف وطرابلس. أما بالنسبة للطوائف، فأعلى نسبة للموافقة على هذا القول تبرز لدى الشيعة ٧٩٪، وتبلغ ٥٠٪ تقريباً لدى السنة والدروز والروم الارثوذكس، وأقل من ٥٠٪ لدى الموارنة، والروم الكاثوليك والأرمن.

تشير مقارنة نتائج الموضوعات السابقة الى ارتباط مع العوارض المرضية للحرمان النسبي. فالذين يوافقون على هذا القول، هم بمعظمهم وباكثريةهم حذرون ومحافظون، يخافون من المستقبل، ويشعرون بعدم القدرة، وغير راضين عن

٤٢- يجري التركيز فيما يلي على هذا القول فقط. أما الموافقة على القول الثاني فبلغت نسبتها ١٠٪ أقل من نسبة الموافقة على القول الأول. ولكنها شبيهة بها من حيث البنية.

٤٣- سيجري التوقف بالتفصيل لاحقاً حول هذا الموضوع.

وضعهم العملي والمهني. ويلاحظ أيضاً أن نسبة الموافقة على "مفهوم الطبقة" يتراجع. فقد انخفضت بين عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٧ من ٦٦٪ إلى ٥٩٪.

وفي هذا المجال، مازال الامر يتعلق بالتصور المسيطر على مفهوم النزاع. ولا يعبر عن ذلك شيء أقوى من الواقع. وهذا ما وافق عليه أيضاً نصف المستجوبين في مجموعة الدخّل الأعلى - والتي ليست هي ذاتها كما ابرزنا سابقاً - وكذلك نصف المسيحيين. ولكن تبرز هنا معاً آراء كل الذين تأثروا بنتائج الحرب، وعانوا من انعكاساتها، بقطع النظر عن انتمائهم الطائفي. ويأخذ هذا الاستنتاج طابعاً خاصاً بالنسبة للشيعة، لانهم لا يجدون أي فرق كبير بين حرمانهم كطائفة أو حرمانهم كقراء. بالنسبة لهم، "الطائفة والطبقة"، لا تعنيان إلا شيئاً واحداً.

ختاماً يمكن اختصار العلاقات القائمة بين التدين، والروح العائلية، والتضامن الطائفي، والنظرة الاقتصادية - الاجتماعية إلى حرب لبنان.

لقد تبين أن معظم المستجوبين هم بمعظمهم متدينون، باستثناء اقلية تصل إلى ١٣٪. وتتشابه درجة التدين كثيراً لدى كل الطوائف. ولكن بين فئة المتدينين جداً، تبرز أعلى نسبة لدى الشيعة.

التدين هو في ارتباط وثيق مع الشعور القوي بالتضامن العائلي. فنصف المستجوبين تقريباً شددوا على الروح العائلية. وتصل هذه النسبة إلى ٥٨٪ لدى الشيعة. أما الشعور الطائفي الواضح - الانتماء إلى الطائفة، سواء كان المستجوب غنياً أو فقيراً - فيبرز بنوع خاص لدى الطوائف ذات التقاليد الأكثر قوة مثل الأرمن والدروز والموارنة. ويبرز بأقل نسبة لدى الشيعة. وكذلك يتلاحم ويرتبط مع التضامن العائلي والتضامن الطائفي. وفي حال اندلاع نزاع افتراضي بين العائلة وميول الاكثريّة في الطائفة، يقف نصف المستجوبين إلى جانب العائلة. ولا يتمنى أكثر من ٩٠٪ من المستجوبين أي نزاع داخل الطائفة. أما الزواج من افراد من ديانات مختلفة فيؤيده ٤٠٪ من المستجوبين، بينهم ٣٧٪ من السنة و ٣٢٪ من الشيعة.

بالنسبة لزملاء العمل من طوائف مختلفة، يقبل بهم ٩٠٪ من المستجوبين - ٨٠٪ من الشيعة عامة - و ٧٥٪ من الشيعة في ضواحي بيروت. ومقابل الشعور الطائفي الواضح لدى الشيعة بنسبته الأدنى من المعدل الوسط، يتبين أن أكثرهم لا تتمنى أي نزاع داخل الطائفة، وتفضل التضامن معها في حال وقوع نزاع بينها وبين العائلة. كما ترفض الزواج المختلط. ويشكل الشيعة أكبر اقلية لا تريد العمل مع زملاء من طوائف أخرى. وبالاختصار، واستناداً إلى كل المعايير، باستثناء معيار

التضامن مع اغنياء او فقراء الطائفة، يتميز الشيعة بالتماسك الاقوى مع بعضهم ويفضلون بوضوح كلي العيش في مكان منعزل عن الآخرين.

تعتبر اكثرية المستجوبين النزاعات بين الفقراء والاغنياء أهم من النزاعات بين الطوائف. وهذا ينطبق على كل فئات المستجوبين. ويبلغ هذا التصور ذروته من جهة لدى فئة غير المتدينين، ومن جهة ثانية لدى الشيعة. وفئة غير المتدينين هي في الوقت ذاته تلك الفئة التي لا تؤيد الروح العائلية وتشكل ادنى نسبة في تأييد التضامن الطائفي، ولكنها تؤيد بأكثرية ساحقة الزواج المختلط وتقبل بزملاء عمل من الطوائف الاخرى. هنا يتبين ان ٧٩٪ من الشيعة يعبرون عن ذات الرؤيا من النزاع، باعتباره مواجهة بين الفقراء والاغنياء، مثلهم مثل غير المتدينين. ولكنهم يتميزون كثيرا عن هؤلاء بالاستناد الى معايير اخرى. وبتعبير اكثر تطرفا يمكن القول بان الشعور الطائفي لدى الشيعة تعبر عنه، نسبة ٨٠٪، وكأنه تعبير عن "الوعي الطبقي الديني".

في التصور الذاتي لدى اكثرية الشيعة، يبرز مفهوم معين كانت تنادي به فئة من اليسار اللبناني قبل الحرب. هذا المفهوم هو "الطبقة- الطائفة"، وهو حالة كلاسيكية لما يعرف "بنبوة الاكتفاء الذاتي". يمكن الاشارة اليه بالاستناد الى معطيات اقتصادية قاسية. وهذا ما ينطبق ايضا بحجم أكبر على مستوى الوعي الذي يشير الى ان مشكلة لبنان الاجتماعية الرئيسية هي مشكلة شيعية. ولكن في الازمات السياسية المبرحة، يبدو تشغيل الحاسبة الالكترونية للوعي اكثر اهمية من برنامج عملها.

٧ - النظام السياسي

كيف رأى العمال اللبنانيون توزيع السلطة والنفوذ في جهاز الدولة؟

كيف كانوا يرون نموذجي القيادة في لبنان: نموذج الزعيم التقليدي، اي الوسيط السياسي، وممثل مصالح جماعته في المنطقة او على مستوى الطائفة، من جهة، ونموذج الزعيم الجديد للحزب والميليشيا، من جهة اخرى؟ هل كانوا يعتبرون ضروريا وجود قيادات سياسية واضحة، او كانوا يرون من الافضل الامتناع عن الاهتمام بالسياسة؟ هل اعتقدوا اخيرا، باحتمال تصعيد الازمة الداخلية في البلاد او بإمكانية العودة الى التوازن اللبناني الذي كان قائما قبل الحرب؟

لا بدّ أولاً من استكشاف الانطباعات عن الصورة التي اعطاها المستجوبون عن نظامهم السياسي، قبل البحث في توجهاتهم وآرائهم ومواقفهم السياسية من المسائل المتنازع عليها.

ما هي برأيك الفئة الأكثر نفوذاً في لبنان؟

١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	٤٤١٩٧٥	
٢	٢	٧	٤	٧	كبار ملاّكي الاراضي
٣	١٢	١٠	٧	١١	الزعماء الدينيون
٨	—	٥	٥	٢	اصحاب المصارف
٣٨	١٨	١٧	٦	٥٧	الزعماء
١٤	١٧	١٦	١٣	٣	التجّار
٤١	٣٠	٣٨	٥٤	٤	رؤساء الاحزاب
١	—	١	٤	٢	الصناعيون
١	٣	—	١	٩	الوزراء
٣	٦	٦	٥	٤	القادة العسكريون

المعطيات بالنسبة المئوية.

عكست تصوّرات المستجوبين تغيّرات في هيكلية المسؤولين السياسيين، نظرا للتغيير الواضح الذي برز لدى فئتين منهم: فئة رؤساء الاحزاب من جهة، وفئة السياسيين التقليديين من جهة اخرى.

قبل الحرب لم يعرف رؤساء الاحزاب اية أهمية تذكر. ولكن نفوذهم برز منذ بداية الحرب، وبلغت نسبة الاعتراف باهمية دورهم ٥٤% عام ١٩٨١. بنظر المستجوبين آنذاك، كان يتمتع بالنفوذ اولئك الذين يمتلكون الاسلحة ويتزعمون الميليشيات، وبالتالي يمارسون النفوذ السياسي. فتعددية القوى في لبنان لم تكن عام ١٩٨١ على الاقل سوى تعددية جماعات تمارس نفوذا وتأثيرا مختلفا، ولم تكن تعني على الأكثر الا تعددية رؤساء الاحزاب. ولكن اطار نفوذهم الذي كان يقتصر جغرافيا على المناطق التي سيطروا عليها وعلى الفئات السكانية فيها، اصبح مع مرور الزمن واضح المعالم، كما كشفت نتائج التحقيقات. ولكن، بين عام ١٩٨١ تراجعت نسبة اهميتهم من ٥٠ الى ٣٠٪، اي الى مرتبة ادنى من مرتبة الزعماء.

٤٤ - جرت هذه التقديرات في تحقيق عام ١٩٨١.

السياسيون من الطراز السياسي القديم كانوا يعتقدون بانهم من جنس بشري صلب، ويشبهون ابطال الملاكمة الذين يعودون رغم الفشل الى حلبة الصراع من جديد. في عام ١٩٨١ انخفضت نسبة نفوذهم الى ادنى مستوى (٦٪)، وتجاوزتهم آنذاك شعبية ومعنويات بشير الجميل لدى المسيحيين، والقوى الفلسطينية والسورية لدى المسلمين. ولكن عام ١٩٨٢، وبعد مقتل بشير الجميل، واخراج القوات السورية والفلسطينية من بيروت، وانتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية الذي برز كسياسي من الطراز التقليدي، عاد المجلس النيابي الى لعب دور فاعل. وفي عام ١٩٨٤ ارتفع الميل الى اعادة الاعتبار للزعماء التقليديين بنسبة ١٧٪، رغم انهيار الآمال مجدداً بالعودة الى حياة سياسية اكثر طبيعية. وفي عام ١٩٨٦ ارتفعت هذه النسبة الى ٣٨٪. ولكن ماهو مدلول او مبرر هذا الارتفاع؟

ينبغي البحث عن السبب الالهم في الإزمة الاقتصادية والاجتماعية. الزعيم التقليدي قد لا يُحِبُّ، ولكنه يبقى غالباً زعيماً في زمن الضيق والحاجة. فله علاقات واتصالات تجارية وإدارية، ويستطيع تأمين وظيفة او عمل او خدمة لانصاره. وهكذا عاد من جديد النفوذ الى الزعماء التقليديين. وهذا ما يشير الى صعوبة اقصائهم كقوة نافذة عن المسرح السياسي.

يمكن استنتاج التفاوت في تقدير هذا النفوذ. فقد تجاوزت اكثر من ٥٠٪ نسبة تأييد زعماء الاحزاب في رأس بيروت والمثمن وجبيل، اي في احياء المدن السكنية والمناطق المتمثلة فيها الاحزاب والميليشيات. كما انخفضت كثيراً في البقاع حيث يسيطر الجيش السوري، وفي بيروت الشرقية، حيث اساءت النزاعات داخل الفريق المسيحي كثيراً الى معنويات زعماء الاحزاب.

فضلاً عن ذلك، برز تباين واضح في النفوذ المتجدد للزعماء التقليديين حسب المناطق. في احياء بيروت، بلغت اعلى نسبة في المصيطبة، والبسطة، والاشرفية، وادناها، اي ٣٠٪، في الضواحي الشيعية. وجاءت منخفضة ايضاً في النبطية، وعكار، اي في المناطق التي فقد فيها الزعماء التقليديون، حتى قبل اندلاع الحرب، الكثير من نفوذهم وشعبيتهم. كذلك برزت معاقل أخرى كبيرة للزعماء مثل بعلبك والهرمل، والشوف، وكسروان.

ولكن تقدير نفوذ مجموعة من الزعماء هو شيء والتعبير عن الاحترام لهم قد يكون شيئاً آخر، وهذا ما برز في نسبة تأييد القولين التاليين:

٦٢٪	"لقد ولّى عهد السياسيين القدامى. يمثل الزعماء الجدد الاتجاهات الحقيقية في البلاد، ويتمتعون بفاعلية أكبر"
٣٧٪	"السياسيون القدامى أفضل من الجيل الجديد. يتميزون على الأقل بالتسامح والاعتدال والواقعية"

تُقدّر اكثرية المستجوبين نموذج الزعماء الجدد، رغم انها لا تعترف لهم غالباً إلا بنفوذ أقلّ من نفوذ السياسيين القدامى.

الصورة الاجتماعية لأنصار هذا النموذج او ذاك متنوّعة جداً. فصاحب الدخل القليل والمستوى التعليمي الضعيف والذي لا يملك شيئاً، يفضل الزعماء الجدد. اما صاحب الدخل الأفضل، وصاحب الملكية، فيميل أكثر الى السياسيين القدامى. الزعماء الجدد تفضيّلهم اكثرية من الشيعة ٧٧٪ ومن الدروز ٦٩٪. الزعماء القدامى لم يحصلوا اطلاقاً على اكثرية المستجوبين في اي من الطوائف: ٤٩٪ لدى الموارنة. ٤١٪ لدى الروم الارثوذكس، و ٤٠٪ لدى السنة.

حتى من جهة مواقفهم النفسية الاجتماعية، يختلف مؤيدو هذين النموذجين من الزعماء. بالنسبة للزعماء الجدد تجاوز تأييدهم ٥٠٪ لدى الفئات المستعدّة للتغيير والتحريك والمجازفة، ولدى غير الراضين عن عملهم ومهنتهم^{٤٥}، ولدى الفئات ذات الحسد الاجتماعي، وتلك التي تعتبر التناقض بين الفقراء والاثرياء مصدر النزاع الرئيسي في لبنان. وكذلك تؤيد أقلية غير المتديّنين بمعظمها الزعماء الجدد.

اما الذي فضل السياسيين القدامى، فلا يميل كثيراً الى المجازفة التجارية، وهو راض عن عمله ومهنته^{٤٦}، ويؤمن بالجهد الشخصي كعامل للنجاح، وهو أكثر تدبّراً^{٤٧}، وتضامناً مع العائلة والطائفة. يفضل جيرانه من ذات الطائفة، ولكنه لا يعارض اطلاقاً ان يكون زملاؤه في العمل من طوائف أخرى، ولا يعتبر التناقض الطبقي كأهم مسبّب للنزاع، ولا يرى في التناقضات الدينية حجاباً فقط يغطي التناقضات الاجتماعية.

بالاختصار، ان الذين فضلوا الزعماء الجدد، هم اكثر المتأثرين بالحرمان الاقتصادي، كما كانوا يشعرون بانهم الاكثرية المحرومة. فمواقفهم الاجتماعية كانت

-
- ٤٥ - ان نسبة ٧٦٪ من غير الراضين اطلاقاً و ٥٣٪ من الراضين، تؤيد القديين الجدد.
 ٤٦ - ٢٢٪ فقط من غير الراضين يعتبرون السياسيين القدامى أفضل من الجدد، مقابل ٥٠٪ من الراضين.
 ٤٧ - ٢٣٪ من غير المتديّنين يؤيدون السياسيين القدامى وكذلك ٤٤٪ من شديديّ التدين.

تقوم على شعور رئيسي شعبي، ينسجم في إطار الاسلوب او البرنامج الشعبي الذي ينادي به الزعماء الجدد.

اما تفضيل السياسيين القدامى فقد عبّر عنه بالمقابل الذين هم اقل حرماناً وشعوراً بالحرمان. ويمكن تحديد المواقف الاجتماعية لهذه الفئة ضمن شعار ليبرالية تتسم بالروح المحافظة المعتدلة. لقد لوحظ وجود التيارات الشعبية والليبرالية لدى كل الطوائف. الا ان التيار الليبرالي كان اكثر بروزاً وقوة لدى الموارنة، والروم الكاثوليك والسنة، والتيار الشعبي اكثر انتشاراً وسيطرة لدى الشيعة والدروز.

وكما أشير سابقاً، جاءت نسبة الذين فضلوا الزعماء الجدد اكبر من نسبة الذين اعتبروهم المجموعة الأكثر نفوذاً. ويدعو هذا الأمر الى التساؤل عن مدى اعتبار المستجوبين "مسييسين"، أو ملتزمين سياسياً، او اذا كانوا يفضلون الحياد والتحفظ.

٨٢%	"في الأزمة الراهنة ينبغي ان يكون لكل لبناني قناعات وخيارات سياسية واضحة"
٦٢%	"اذا ابتعدت عن السياسة ترتاح ويرتاح ضميرك"
٦٩%	"على قد بساطك، مَدّ إجرّيك"٨٠

في ردود الفعل على هذه الأقوال برز تفاوت واضح. فبينما وافق خمس المستجوبين على "تسييس آرائهم"، فضل الثلثان تقريباً "ابعاد الاصابع عن نار السياسة"، واكثر من الثلثين، ضرورة بقاء المرء عند حدوده، اي عدم التقدم بمطالب لا يمكن استجابتها. ونظراً لاستبعاد اعتبار القناعات والخيارات السياسية بأنها ضرورية، بل مسييسة، وبما ان الابتعاد عن السياسة والإكتفاء بالمطالب والطموحات ترتبط ببعضها، عبّر ربع المستجوبين عن استعدادهم للإلتزام السياسي ورفضهم لحكم الأمر الواقع.

يضاف الى ذلك امرٌ آخر. لقد انخفض الشعور بضرورة القناعات السياسية الحاسمة خلال المرحلة الزمنية التي حصلت فيها التحقيقات. في عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٦ أيد كل المستجوبين تقريباً هذا الإتجاه. وفي عام ١٩٨٧ انخفضت النسبة الى ٨٠%.

استناداً الى هذه الاستنتاجات التي أشارت الى اكثرية فضلت الزعماء الجدد واعتبرت القناعات الواضحة مهمة، والى اقلية اعتبرت هؤلاء الزعماء فاعلين وواسعي النفوذ، ولكنها مستعدة للالتزام في العمل السياسي، أمكن استكشاف عوارض مرضية واضحة المعالم تشير الى الاستسلام والاذعان والإحباط.

يلاحظ هذا الاستسلام لدى كل الطوائف وفي كل المناطق. فالمجموعات الأكثر تسيساً أمكن تحديدها. إنها بنوع خاص مجموعات الدروز والشبيعة، التي لا تعيش في الشوف او في الجنوب او في البقاع، بل في العاصمة. في رأس بيروت، ٧١٪ لا يريدون "تغميس أصابعهم بنار السياسة" و ٧٩٪ لا يريدون "البقاء على بساطهم"، في طريق الجديدة ٨٥ و ٧٠٪، في الضواحي الشيعية ٧٥ و ٦٩٪. هنا، كان يسود الخوف من المستقبل وعدم القدرة، وعدم الرضى، وتصور النزاع وكأنه بين الفقراء والأغنياء. هنا وجد الزعماء الجدد الشعبيون صدىً وتأييداً. وهنا برزت بقوة ظاهرة التسييس والاستعداد للعمل السياسي.

كيف رأى المستجوبون دور العناصر الخارجية في النزاع الذي يمزق لبنان وكيف حكموا على امكانيات الخروج من النزاع اذا ما ترك اللبنانيون وحدهم؟

٥٠٪	"حتى وان لم يحصل اي تدخل من الخارج في القضايا اللبنانية، سيكون من الصعب تحقيق تفاهم. ومن الممكن ان تندلع النزاعات من جديد بين الجماعات الداخلية المتخاصمة"
٥٦٪	"اذا لم يحصل اي تدخل خارجي، قد ينتهي كل نزاع في لبنان دون غالب او مغلوب."

هذان القولان كانا افتراضيين بالاستناد الى الظروف القائمة. لذلك امكن القبول بان المواقف منها تشكل تقديراً اكاديمياً اقل مما تعكس تخوفات ورغبات.

٤٩ - التفاوت الكبير البارز هنا يكمن في اجوبة المستجوبين من المصيطبة والبسطاء، حيث يريد اكثر من ٩٠٪ "البقاء على بساطهم"، وفي الاشرقية يريد ذلك جميع المستجوبين تقريباً.

فانفجار النزاعات مجدداً حتى دون تدخل خارجي اعتبر ممكناً من قبل اكثرية الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك. وهذا موقف عبّر عنه انصار طائفتين لم تمتلك اية منها ميليشيات خاصة، رغم سقوط ضحايا من رعاياها طيلة فترة النزاع.

اما امكانية اندلاع نزاعات داخلية جديدة فأيدّها اكثرية المستجوبين في البسطة، والأشرفية والضواحي المسيحية، وفي المتن وكسروان، وبعبك، والهرمل، وفي المناطق التي كان يسودها هدوء نسبي اثناء التحقيقات. مقابل ذلك برزت ايضا الآراء ولكن بنسبة أقل من ٥٠٪ لدى المستجوبين في المناطق التي كانت مضطربة اثناء التحقيقات، وكانت تشهد اشتباكات متقطعة، كما كان الحال في برج البراجنة وفي النبطية. فكل شيء اذا كان يوحي بان الاستنتاج الأول يُفسّر بعامل الخوف لدى الذين كانوا يعيشون انذاك في ظلّ هدوء نسبي. والاستنتاج الثاني يفسّر بعامل الأمل لدى الذين كانوا يعانون الأمرين بصورة مبرحة^{٥٠}.

"لا غالب ولا مغلوب" كانت الصيغة التي وضعت حدّاً نهائياً للحرب الأهلية عام ١٩٥٨. في الردود على هذه الصيغة، برزت رغبة الآباء وكذلك الموافقة عليها، كما برز ايضا رفضها. عبّر عن هذا الرفض ٥٦٪ من الدروز، ٧٥٪ من المستجوبين في الشوف و ٦٧٪ من الشيعة في بعبك والهرمل. في هذه المناطق كان هناك غالب ومغلوب. والمنتصرون فيها كانوا يشعرون بنوع من الرضى^{٥١}. وقد أيدت هذه الصيغة اكثرية سكان منطقتي جبيل وجزين الذين كانوا يتخوفون من ان تؤدي المعارك الجديدة الى نتائج غير أكيدة.

ولكن الاستنتاج الأكثر أهمية أشار الى ان ٦١٪ من الشيعة و ٧٠٪ من سكان ضواحي بيروت الشيعية عبّروا عن هذه الموافقة التي بلغت نسبتها ٦٣٪ في رأس بيروت و ٧٦٪ في طريق الجديدة. اما انصار الطائفة الاكثر تعبئة، باستثناء الفئات القاطنة في المناطق المسيسية، فقد اعتبروا النصر بعيد الاحتمال. وهذا مؤشر آخر للاستسلام والرضوخ، حتى في الاماكن حيث كان ينتظر ان تكون الرغبة في النصر اقوى من اي مكان آخر. ولكن هذا التفسير أشار الى رغبة في وضع حدّ للمعارك.

الاستسلام والواقعية عكسا نظرة اللبنانيين لواقع نظامهم السياسي. هذا ما كشفت عنه نتائج التحقيق. فقد عبّر المستجوبون بوضوح بين الرغبة والواقع. ان تياراً شعبياً ذا اكثرية واضحة، كان يسيطر بنوع خاص لدى الشيعة، حيث يفضل طبعاً

٥٠- في هذا المجال تكشف الوقائع ايضاً على ان "التدخلات الخارجية" تلعب دوراً رئيسياً في التوترات الحاصلة في برج البراجنة وفي النبطية: الفلسطينيون هنا والاسرائيليون هناك.
٥١- تجدر الإشارة هنا الى ان ثلثي الذين لا يعتقدون بمخرج حاسم للأزمة، يعتقدون ايضاً بامكانية تجدد الصراعات الداخلية.

الزعماء ورؤساء الاحزاب والميليشيات الجدد. ولكنه أشار الى ان هؤلاء كانوا في مهب الريح. اما الزعماء التقليديون فأبديتهم أقلية فقط، حتى وان كانت ضعيفة. فرغم كل التشخيصات والتوقعات، لم يلق الزعماء القدامى بعد في سلة مهملات التاريخ. فالاتجاه الليبرالي المحدود والمتسم بروح المحافظة، كان وراء دعمهم وتأييدهم.

استنتجت لدى الاكثريّة الكبيرة قناعات سياسية. ولكن ٢٠٪ منها ابدى استعداداً، نظراً للظروف الراهنة، للالتزام العملي بهذه القناعات. هذه الأقلية الأكثر تعبئة، واستعداداً للعمل، برزت فقط في منطقتين: في غرب بيروت وفي الضواحي الشيعية. ولكن أكثرية هذه الأقلية بالذات اعتقدت بعدم احتمال النصر او الهزيمة في النزاعات الداخلية في لبنان. لذلك لم يكن الفصل ممكناً تماماً بين الاستسلام والواقعية.

٨ - الاتجاهات السياسية

لم يشكل التفضيل الحزبي اطلاقاً اي مؤشر كافٍ للتوجهات والاتجاهات السياسية، نظراً للطابع الشخصي الذي يصطبغ به النظام السياسي اللبناني. كان من الممكن التعبير عن تفضيل حزب ما انطلاقاً من تفضيل سياسيين معينين يوثق بهم، ولكن لا ينطبق هذا الأمر اطلاقاً على أكثرية الشخصيات السياسية.

لذلك طرحت أسئلة لمعرفة من هو السياسي الذي يشعر المستجوب بأنه أقرب إليه، من حيث افكاره وتوجهاته. وكذلك من هو السياسي الذي يرغب في الابتعاد عنه. وكما ان الصحف اللبنانية تمثل بمعظمها تيارات ذات توجهات سياسية واضحة، سئل المستجوبون عن صحيفتهم المفضلة، بغية الحصول على معطيات إضافية. وكذلك طرح السؤال عليهم لمعرفة البلد الذي يعتقدون انه يلائم تصوراتهم المثالية من حيث طبيعته ونظامه. من خلال تفضيل بلدان معينة يمكن على الأقل استكشاف تصورات عامة عن النظام الاجتماعي والسياسي الذي يفضلها المستجوبون.

من هم السياسيون المفضلون في نظر المستجوبين اللبنانيين؟

السياسيون المفضلون	٥٢١٩٨٤	١٩٨٦	١٩٨٧
لا معطيات	٢٠	١٦	٤٢
لا أحد	١٢	٢٢	٢٠
نبيه بري	١٣	١٠	٧
ريمون إده	٨	٤	٣
وليد جنبلاط	٤	٧	٣
بشير الجميل	٦	٨	٢
كميل شمعون	٤	٩	٢
جورج حاوي	٣	٢	٢
كمال جنبلاط	٤	٣	١
امين الجميل	٤	٣	١
سليم الحص	٥	٣	١
رشيد كرامي	٢	٣	١
جمال عبد الناصر	١	١	—
محمد شمس الدين	٢	—	—
موسى الصدر	١	١	—
سمير جعجع	—	٢	١
الشيخ فضل الله	١	١	١
شفيق الوزان	١	—	—
الياس سرקيس	—	—	١
الامام الخميني	—	—	١
غيرهم ^{٥٣}	١١	٣	٧

المعطيات بالنسبة المئوية.

٥٢- لم يطرح هذا السؤال في تحقيق عام ١٩٨١.

٥٣- ان الذين يشار اليهم هنا بكلمة "آخرون"، أيدهم اقل من ١٪ من المستجوبين.

تجدر الإشارة هنا الى ان نسبة الذين لم يفضلوا أي سياسي والمعبرة عن عدم استعدادهم لتفضيل أحد، ارتفعت بين عام ١٩٨٤ وعام ١٩٨٧ من الثلث الى الثلثين. ولهذا المؤشر مغزى سياسي سيبرز لاحقاً. فقد فقد كل سياسي عدداً من انصاره^{٥٤}. وازداد هذا الواقع تفاقماً، لأن نسبة رفض كل من هؤلاء السياسيين المذكورين من قبل أكثرية المستجوبين هي أعلى بكثير من نسبة تفضيلهم لهم.

من هم السياسيون الأكثر كرها بالنسبة لك ؟

١٦%	امين الجميل
٨%	نبيه بري
٧%	سمير جعجع
٥%	وليد جنبلاط
٢%	ياسر عرفات
٢%	حافظ الأسد
١%	بيار الجميل
١%	الشيخ فضل الله
١%	الإمام الخميني
١%	فكتور قصير
١%	رشيد كرامي
١%	رونالد ريغن
٧%	كل السياسيين
٤٧%	لا جواب

٥٤- هذا الأمر لا يتعلق فقط بالذين لا هموا حتفهم، أمثال، بشير الجميل، كمال جنبلاط، رشيد كرامي، جمال عبد الناصر وكميل شمعون، ولكن أيضاً بالذين مازالوا على قيد الحياة. وتجدر الإشارة الى ان احد المتوقفين، الياس سركيس، هو السياسي اللبناني الوحيد الذي ذكر اسمه عام ١٩٨٧.

تبيّن ان امين الجميل، رئيس الجمهورية السابق، تتجاوز نسبة اعدائه على نسبة انصاره. وهذا ينطبق ايضا على سمير جعجع، قائد القوات اللبنانية، وبدرجة أقل، على وليد جنبلاط ونبيه بري، زعمي الميليشيات الدرزية والشيعية. بالاختصار، كل الذين هم في البلاد - او بالأحرى، في اجزاء من البلاد - يمتلكون سلطة فعلية ويمارسونها، يرفضهم معظم اللبنانيين اكثر مما "يؤيدونهم". عبّر ٦٪ من المستجوبين عن امتعاضهم من سياسيين أجانب و ٧٪ من كل السياسيين.

اية اتجاهات سياسية^{٥٥} تبرز لدى السياسيين المفضلين، وكيف تغيّرت هذه الإتجاهات خلال المرحلة التي حصلت فيها التحقيقات؟

الاتجاهات السياسية	١٩٨٤	١٩٨٦	١٩٨٧
لا جواب	٢٠	١٦	٤٦
لا أحد من السياسيين	١٢	٢٢	٢٠
المسيحيون المعتدلون	١١	٥	٧
المسلمون المعتدلون	٩	٧	٣
المسيحيون المناضلون	١٦	٢٤	٧
حركة أمل	١٦	١١	٤
الحزب التقدمي الاشتراكي	٧	٩	٤
اليسار	٣	٢	٢
الإسلاميون	١	١	٢
آخرون	٥	٣	٢

المعطيات بالنسبة المئوية.

٥٥-

جرى تصنيف السياسيين المذكورين في الفئات التالية:

- المسيحيون المناضلون (اي السياسيون الذين يمكن اعتبارهم من حزب الكتائب، او القوات اللبنانية، او حزب الوطنيين الأحرار، او الجبهة اللبنانية)؛
- حركة أمل (نبيه بري، محمد مهدي شمس الدين، والسياسيون المتحالفون مع حركة أمل)؛
- الحزب التقدمي الاشتراكي (وليد وكمال جنبلاط، والسياسيون الأعضاء في هذا الحزب)؛
- اليسار (سياسيو الحزب الشيوعي، ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان، والحزب القومي السوري الاجتماعي، ومختلف المنظمات الناصرية. وقد اعتبر من اهل اليسار المستجوبون الذين ذكروا سياسيين سوفيات او من الاشتراكية الدولية)؛
- الاصوليون الاسلاميون (محمد فضل الله، الخميني، حركة أمل الإسلامية، وزعماء اسلاميون آخرون)؛
- المسلمون المعتدلون (السياسيون المسلمون غير المرتبطين بالاحزاب، والزعماء التقليديون).

ينبغي أولاً أن يؤخذ بعين الاعتبار الانخفاض الكبير في نسبة مؤيدي "السياسيين التقليديين" "المعتدلين"، وكذلك في نسبة مؤيدي السياسيين والاحزاب ومنظمات "المناضلين".

وبغض النظر عن التفضيل المستتج - غير المشخص - من قبل ٣٧٪ من المستجوبين "للسياسيين القدامى"، ذكر ١٠٪ منهم فقط سياسياً معيناً من هذا الطراز. وبصورة عامة، أيد "الزعماء الجدد"، أي رؤساء الاحزاب والميليشيات، ٦٢٪ من المستجوبين. ولكن أشار ٢٢٪ فقط منهم الى شخصية معينة من هذه الفئة. ولم يؤيد سوى خمس المستجوبين فقط عام ١٩٨٧ سياسيين يمكن اعتبارهم منطرفين، بقطع النظر عن اتجاهاتهم.

إذا ما جمعنا الذين يؤيدون حركة أمل، والحزب التقدمي الاشتراكي، ومختلف المنظمات اليسارية، وكذلك الاصوليين الاسلاميين، كمجموعة ذات برنامج واهداف متضاربة، ولكنها تعمل وتتاضل ضد النظام اللبناني الذي كان قائماً قبل عام ١٩٧٥، لوجدنا ان هذه المجموعة تحظى بتأييد ١٥٪ من المستجوبين. وإذا ما اعتبرنا السياسيين المسيحيين المعتدلين وكذلك المناضلين، كمجموعة تؤيد النظام الذي كان قائماً سابقاً، لتبين لنا ان نسبة انصارها تماثل بقوتها قوة المجموعة السابقة.

كيف تبرز الصورة الاجتماعية لهذه الميول المختلفة؟

في البداية، ينبغي التوقف عند الأكثرية التي تشكل حسب التعبير اللبناني "حزب الممتنعين عن التصويت"، وهو حزب تضاعف عدد "انصاره" منذ عام ١٩٨٤. انه يضم فئات شعبية وفئات ليبرالية بالمعنى المشار اليه سابقاً. "لا جواب"، يجعل من الفئات الشعبية، مجموعات حذرة محافظة، تشعر بعدم القدرة، غير راضية، ومتضامنة عائلياً. فهي تعتبر التناقض بين الغني والفقير أهم من التناقضات بين الطوائف، تريد الابتعاد عن السياسة وتعتقد بان أي طرف من اطراف النزاع في لبنان يستطيع ان ينتصر. واجمالاً تبرز صورة الامتناع السياسي بسبب الاستسلام. وبالمقابل، يتحلى الذي لا يفضل "أي سياسي"، بمظهر ليبرالي محافظ. فهو ينتمي الى فئة الدخل العالي والمستوى التعليمي العالي، لا يعرف أي خوف من المستقبل، ويؤمن بالمجهود الشخصي ولا يظهر أي حسد اجتماعي، وهو غير متضامن مع الروح العائلية، بل يشعر بارتباطه مع طائفته، ويقبل بجيران له من الطوائف الأخرى. ولا يعتبر التناقض بين الغني والفقير بانه الأهم، ولا يفضل الزعماء الجدد. باختصار، يبرز الأمر هنا كنوع من "الكلام-الدو-لوكس" عن الامتناع السياسي.

أي يتواجد "حزب الممتنعين عن التصويت" او الصامتين ويبرز اقوى او أضعف تمثيلاً؟ بلغت نسبته ٨٤٪ في الأشرفية و ٧٥٪ في ضواحي بيروت المسيحية، حيث

اختار نصف المستجوبين فئة الامتناع أي "لا جواب" ورفض اختيار "اي سياسي". وكذلك في البسطة، وصلت النسبة الى ٨٢٪ (من بينها ٤٩٪ ترفض أي سياسي). في طريق الجديدة، "لا جواب" ٧٢٪، وفي المصيطبة ١٤٪، ولكن لا يريد هنا ٥٤٪ التعرف على أي سياسي. وفي الضواحي الشيعية، معاقل التيار الشعبي، وكذلك في رأس بيروت، بلغت نسبة "لا جواب" ٥٢ و ٦٢٪.

وخارج بيروت برز تفاوت أكبر في درجة الامتناع عن ذكر السياسيين. في صيدا والنبطية لم يعط احد اي جواب. في عكار وبعبك الهرمل ٧٥٪. وفي الكوره وزغرتا، وجزين، والبقاع الاوسط والبقاع الجنوبي، وكذلك في الشوف والمتن، تراوحت النسبة بين ٦٠ و ٦٥٪. وفي المنطقتين الاخيرتين، لم يُشر الى "اي سياسي" ليبرالي. فقط في كسروان (٤٤٪)، وطرابلس (٤١٪) وخاصة في جبيل (١٤٪) شكل "المتنعون عن التصويت" اقلية بارزة.

من هم انصار السياسيين المسيحيين المعتدلين؟

يشبهون كثيراً إجتماعيا "المتنعين عن التصويت" الليبراليين. معظمهم من فئات الدخل الأعلى والمستوى التعليمي الأعلى. ليسوا محافظين حذرين. انهم راضون عن مهنتهم، متديّنون، ولكنهم لا يرتبطون لا بالعائلة ولا بالطائفة. تؤيد اكثريتهم الزواج المختلط. لا يعتبرون النزاع اللبناني نزاعاً طبقياً. يجدون نموذج السياسي القديم افضل من النموذج الجديد، ولا يعتقدون بانتصار احد اطراف النزاع. منطقة جبيل هي معقلهم الرئيسي، حيث بلغت نسبتهم ٤٥٪. في هذه المنطقة لا ينازع أحد الزعيم ريمون اده. في طرابلس، وزغرتا، والكوره، والبترون، وكسروان، تراوحت النسبة بين ١٥٪ و ٢٢٪، ووصلت في البقاع الى ١٣٪، وفي المتن الى ١٠٪. وبرزت قوتهم ايضاً بنوع خاص في المناطق حيث لا سلطة ولا نفوذ للقوات اللبنانية، او كما كان الحال في جبيل، حيث قبل بهم قسراً او كرهاً، وكذلك في المناطق ذات الاكثية المسلمة التي تضم اقلية مسيحية لا بأس بها.

اما انصار السياسيين المسلمين المعتدلين، فيشبهون انصار السياسيين المسيحيين المعتدلين، والذين لا يفضلون اي سياسي. يتألف معظمهم من الفئات ذات الدخل المتوسط والعالي (وبينهم أكثرية من خريجي التعليم المهني). لا يخافون من المستقبل، ويشعرون بارتياح كلي في عملهم ومهنتهم، ولا يضمرون اي حسد اجتماعي تجاه الآخرين. انهم بمعظمهم متديّنون. وبعكس انصار السياسيين المسيحيين المعتدلين، يشعرون بالتضامن العائلي والطائفي. هذه الفئة لا تعتبر التناقض بين الغني والفقير سبباً للنزاع، ولا الزعماء الجدد بانهم اكثر فعالية.

معاقلمهم الرئيسية البسطة والمصيطبة، ولكن ايضاً طرابلس حيث بلغت نسبتهم ٢٣٪، وكذلك في مناطق الشوف، وعاليه والمتن الشمالي بنسبة ١٤٪.

اما صورة انصار الزعماء المسيحيين المناضلين، فهي مختلفة تماماً. فمعظمهم من فئة الشباب، من ذوي الدخل المحدود، رغم ارتفاع مستواهم التعليمي. متديّنون، قليلو الارتباط بالعائلة، ولكنهم اكثر تضامناً مع الطائفة. والنزاع اللبناني ليس برأيهم نزاعاً طبقياً. يعتبرون السياسيين القدامى أكثر تسامحاً، والسياسيين الجدد اكثر فعالية. وكذلك كانوا يعتقدون ان النزاع يمكن ان يستمر حتى دون تدخل خارجي. العمال الصناعيون يشكلون بينهم نسبة اعلى من المعدل الوسط. ٣٤٪ ليسوا محافظين. و ١٥٪ منهم يفكرون بان الانسان يستطيع "ان يكون سعيداً حتى دون الايمان بالله". المعقل الرئيسي للمسيحيين المعتدلين هو في كسروان بنسبة الثلث، وكذلك في المتن وضواحي بيروت الشرقية بنسبة ٢٥٪، وفي جزين وجبيل ١٦٪ فقط.

وقد برز الشكل الاسلامي للتيار الشعبي الجماهيري لدى انصار نبيه برّي وسائر زعماء حركة أمل. انتشر هذا التيار ايضاً بين فئة الشباب وذوي الدخل الادنى، وخاصة بين العمال الصناعيين. وبمعكس مؤيدي الزعماء المسيحيين المناضلين، ضمّ هذا التيار فئات من ذوي المستوى التعليمي الادنى. ومثل المسيحيين المناضلين، كذلك انصار حركة أمل هم بمعظمهم متديّنون. ولكن بعكس الأولين، ليسوا راضين عن عملهم ومهنتهم. ويرون في النزاع اللبناني نزاعاً بين الاغنياء والفقراء. ويعتبرون الزعماء الجدد افضل من القدامى. وهم بمعظمهم مستيّنون. ولكنهم يعتقدون ايضاً بان كل نزاع في لبنان دون تدخل خارجي، ينبغي ان يبقى في لبنان ودون غالب او مغلوب. المعقل الرئيسية لأنصار برّي كانت برج البراجنة وحارة حريك، حيث بلغت نسبتهم ٣٠٪، وفي الشياح والغبيري، والجناح، والاوزاعي، وحي السلم بنسبة ٢٠٪، بينما وصلت هذه النسبة الى ١٤٪ في طريق الجديدة و ١١٪ في رأس بيروت والمصيطبة. وخارج بيروت، اعتبر ٢٠٪ في بعلبك والهرمل نبيه برّي، الرجل السياسي المفضل لهم.

اما انصار جنبلاط والحزب التقدمي الاشتراكي فكانوا يختلفون تماماً عن انصار المسيحيين المناضلين وانصار حركة أمل. ليس لهم مظهر التيار الجماهيري بل مظهر التيار الليبرالي-المحافظ. كانوا يتألفون بمعظمهم من ذوي الدخل العالي ومن كبار الملاكين. ولكن العمال الزراعيين كانوا يشكلون نسبة عالية بينهم. انصار هذه الفئة مقتنعون بعملهم ومهنتهم، ولا يعتقدون ان حال اولادهم سيكون أسوأ من حالهم. لا يشعرون بأي حسد اجتماعي، ويعتقدون بمعظمهم بأن لبنان هو مجتمع الطبقة المتوسطة، لا يعارضون الزواج المختلط، ولا الجيران من الطوائف الأخرى. فهم

مسيحيون، ويعتقدون بإمكانية تغلب فريق ما في النزاع اللبناني. ولكنهم يعتقدون أيضاً بأنه لو لا التدخلات الخارجية لما استمرت المعارك. المعقل الرئيسي لأنصار جنبلاط هو الشوف، ولكن أيضاً رأس بيروت بنسبة ١٦٪ والمصيطية بنسبة ١٠٪. في عكار والبقاع بلغت نسبتهم ٨٪ وفي الكورة والبترون ٧٪.

الفئة الصغيرة من المستجوبين، التي أمكن تصنيفها باليسار، يصعب جداً تحديدها من حيث معالمها الاجتماعية البنيوية. ولكن اتجاه مواقفها كان واضح المعالم. اليساريون كانوا دائماً على استعداد للتغيير، غير راضين عن عملهم ومهنتهم. ولكنهم كانوا يرون إمكانية ترقى وتقدم. آمنوا بالتضامن، ورفضوا سلطة أرباب العمل. كانوا بمعظمهم غير متدينين، وغير متضامنين لا مع العائلة ولا مع الطائفة. رأوا في النزاع اللبناني نزاعاً طبقياً، كما ركزوا على اعتبار الدين والطائفة ستاراً لحجب حقيقة النزاع. أيّدوا الزعماء الجدد، والتزموا العمل السياسي. ورفضوا الوقوف على الحياد، كما آمنوا بإمكانية الانتصار. لم يكن لنضالهم أي طابع جماهيري، مثل أنصار حركة أمل أو المناضلين المسيحيين. فالروح العائلية، والتدين، والشعور بالتضامن الطائفي والتعبير عن المصالح، بدت كلها صعبة الفصل لدى الفئات المحرومة نسبياً. فنضالهم البعيد عن الارتباطات التقليدية، استند بنوع خاص على القنوات السياسية. معقلهم الرئيسي كان رأس بيروت، حيث بلغت نسبتهم ١٦٪، وكذلك في طريق الجديدة (٩٪)، وبرج البراجنة (٨٪). في الضواحي الشيعية كانت القوى اليسارية قوية جداً قبل الحرب وفي سنواتها الأولى. أما خارج بيروت، فبلغت نسبتهم ٥٪ في الكورة والبترون وزغرتا، و٦٪ في صيدا^{٥٦}.

ما هي صورة انصار الاصوليين الاسلاميين؟

٨٠٪ منهم كانوا ينتمون إلى فئة الدخل الأدنى، و٤٢٪ دون أي مستوى تعليمي. كان يشعر معظمهم بعدم القدرة، وبعدم الرضى عن عملهم وعن مهنتهم. أنهم شديداً التدين والتضامن العائلي. كانوا يعارضون الزواج المختلط، ولا يقبلون أناساً من الطوائف الأخرى لا كجيران ولا كزملاء في العمل. التزامهم السياسي كان قوياً. ومن الأفضل وصفهم بالفئات الجماهيرية الشعبية ذات الطابع الديني.

كان معقلهم الرئيسي في ضواحي بيروت الجنوبية، حيث بلغت نسبتهم ١١٪ في الشياح، و٩٪ في حارة حريك، و٨٪ في برج البراجنة، و٣٪ في طريق الجديدة. وخارج بيروت لم تبلغ هذه النسبة إلا ٥٪ في منطقة بعلمك.

٥٦ - في صيدا يتعلق الأمر بأنصار مصطفى سعد أو والده المتوفي. وهؤلاء يصفون أنفسهم بالناصرين. ولكن مميزاتهم تجعلهم من مناصري السياسيين المسلمين المعتدلين أكثر من اعتبارهم من أهل اليسار.

كيف تَوَزَّعت الميول السياسية المتباينة في مناطق البلاد في ظل السيطرة العسكرية المختلفة؟

مناطق السيطرة العسكرية والميول السياسية

الميلول السياسية	الميليشيات المسيحية	الجيش السوري (أكثرية مسيحية)	الجيش السوري (أكثرية مسلمة)	الميليشيات الدرزية	الميليشيات الشيعية
لا جواب	٤٢	٤٠	٤٥	١٨	٧٤
لا أحد	١٨	٢٠	٢٤	٤٢	٥
المعتدلون المسيحيون	١٠	١٦	٥	٣	—
المعتدلون المسلمون	—	٣	٥	٧	١
المناضلون المسيحيون	١٣	٨	٤	٦	١
حركة أمل	٨	٢	٧	١	١٠
الحزب الاشتراكي	٢	٤	٣	٢٠	—
اليسار	٣	٤	٢	١	٢
الاصوليون الاسلاميون	١	١	٣	١	٣
الآخرون	٣	٢	٢	١	٤

المعطيات بالنسبة المئوية.

الممول السياسية حسب الانتماء الطائفي

الانتماء الطائفي	"حزب غير المقترعين" لا أحد لا جواب		المسيحيون	المعتقلون المسلمون	المناضلون المسيحيون	حركة أمل	الحزب التقدمي الاشتراكي	اليسار	الأمنيون الإسلاميون	مجموع المستجوبين
السنة	٢٤	٢٤	١٢	٩١	٤	١	١٣	٧	٣	٢١
الشعبة	٣١	١٥	٢	٢	-	٩٦	٣	٤٧	٩٤	٢٧
الدروز	٢	٤	-	-	١	١	٥٣	-	٢	٤
الموارنة	١٩	٢٥	٦٣	٣	٦٤	٢	٢٦	١٢	-	٢٥
الروم الأرثوذكس	١١	١٥	١٢	٢	١٤	-	١	٢٣	-	١١
الروم الكاثوليك	٩	١٢	٨	-	٩	١	٣	٧	-	٨
الارمن	٤	٥	٣	٢	٨	-	١	٤	-	٤

المعطيات بالنسبة المئوية.

ان ما دلّ عليه تحليل المعادل الرئيسية بالتفصيل، كان ينطبق ايضاً هنا بوضوح على مناطق كبيرة. كان لكل تيار معادله الرئيسية، رغم انتشار انصاره في باقي انحاء البلاد. فلم تكن هناك "ثقافة سياسية واحدة او أحادية". فكل تيار كان على الأقل ضعيفاً، ولكن ممثلاً في كل مكان تقريباً.

ولكن الى أي حد كانت تعتبر التيارات والاتجاهات المختلفة "ثقافات أحادية" بالاستناد الى تكوينها وفقاً للإلتزام الطائفي؟

"الثقافة الأحادية" الوحيدة والكاملة برزت في التيار او الاتجاه الاسلامي، الذي لم يستطع بحكم طبيعته ان يكون شيئاً آخر. ولكن حركة أمل التي تجمع حولها ٩٦٪ من الشيعة و٩٨٪ من المسلمين لم تختلف إطلاقاً عن هذا التيار. وبرز شكل آخر مماثل جداً في اتجاه المسيحيين المناضلين. فتوزيعهم على طوائف مسيحية مختلفة كان أكثر انتشاراً من حركة أمل لدى المسلمين، رغم ان نسبة انصارهم من المسيحيين بلغت ٩٠٪. فالتيارات والاتجاهات الشعبية الجماهيرية لم تكن جذابة لا للمسلمين - وهم بغالبية ساحقة من الشيعة - ولا للمسيحيين. وهؤلاء هم بدرجة عالية من الموارد. اما الاتجاهان المعتدلان فكانا أكثر انتشاراً من حيث الإلتزام الطائفي. فالسياسيون المسيحيون المعتدلون حظوا بتأييد لدى المسلمين بنسبة ١٤٪، كما حظى السياسيون المسلمون المعتدلون بتأييد لدى المسيحيين بنسبة ٧٪. والتأييد الساحق للسياسيين المسلمين المعتدلين وصل الى ٩١٪ لدى السنة.

ولكن التأييد المتعدد الطوائف كان لصالح الحزب التقدمي الاشتراكي واليسار. فمن المعلوم ان الدروز يشكلون اكثرية ضئيلة من انصار الحزب التقدمي الاشتراكي. الا ان ٣١٪ من المسيحيين أيّدوا هذا الحزب ايضاً. وقد أيّد الأحزاب اليسارية ٤٧٪ من الشيعة و٢٣٪ من الروم الارثوذكس. وقد برز في هذه الأحزاب توازن بين المسيحيين والمسلمين. الا ان أقوى اتجاه متعدد الطوائف كان اتجاهها غير طائفي ومعاد للطائفية.

أخيراً الحزب المتعدد الطوائف هو ايضاً "حزب غير المقترعين". ففي التيارين المعبر عنهما، توزع المستجوبون على كل الطوائف، ومن بينهم الشيعة. الا ان هذه الطائفة كانت أكثر تمثيلاً من بين الذين رفضوا الجواب، وأقل تمثيلاً في الاتجاه الأكثر ليبرالية، أي بين الذين لم يختاروا "أحدًا من السياسيين".

ولكن الى جانب تكوين الاتجاهات حسب الإلتزام الطائفي، من المهم ايضاً طرح السؤال حول تكوين الطوائف حسب الميول السياسية.

من الممكن ان تضم اتجاهات سياسية مختلفة، وان يكون معظم مؤيديها من طائفة واحدة. ولكن العكس غير صحيح، اي ان الطوائف تركز بمعظمها على اتجاه سياسي واحد.

يتألف الحزب التقدمي الاشتراكي من اكثرية درزية تميزه بوضوح. ولكن رغم التعددية الطائفية في هذا الحزب، فانه يمثل اتجاه الدروز. هذا ولم تذكر إلا أقليات ضئيلة جداً من الدروز سياسيين من اتجاهات أخرى. فهم يشكلون في الواقع الطائفة الأكثر تجانساً سياسياً.

الطوائف الدينية حسب الميول السياسية

سنة	شيعية	دروز	موارنة	روم	كاثوليك	ارمن	
٥٢	٥٣	٢٧	٣٥	٤٧	٤٩	٤٦	لا جواب
٢٤	١١	٢٢	٢٠	٢٨	٣٠	٢٦	لا أحد من السياسيين
٤	-	-	١٧	٨	٦	٥	المسيحيون المعتدلون
١٣	-	-	-	١	-	١	المسلمون المعتدلون
١	-	١	١٨	٩	٧	١٤	المناضلون المسيحيون
-	٢٥	١	-	-	١	-	أمل
٢	-	٤٧	٤	١	١	١	الحزب الاشتراكي
١	٤	-	١	٥	٢	٣	اليسار
-	٦	١	-	-	-	-	الاصوليون
٣	١	-	٥	١	٤	٤	غير هم

المعطيات بالنسبة المئوية.

حركة أمل هي تنظيم شيعي محض، ولكن لم يؤيدها إلا ربع المستجوبين الشيعة. الاصوليون الاسلاميون هم عملياً من الشيعة فقط، ولكن لم يؤيدهم الا ٦٪ من الشيعة. اما اليسار فلم يحصل لدى الشيعة إلا على نسبة ٤٪. لدى الموارنة بلغت نسبة مؤيدي السياسيين المسيحيين المعتدلين ١٧٪، وهي نسبة تعادل تقريباً نسبة الذين أيدوا السياسيين المناضلين ١٨٪. كما أيد الحزب التقدمي الاشتراكي والاحزاب اليسارية ٥٪ من الموارنة.

لدى طائفة الروم الارثوذكس، أيد ٩٪ منهم السياسيين المناضلين، و ٨٪ السياسيين المسيحيين المعتدلين، و ٥٪ الاحزاب اليسارية. بينما أيد، لدى طائفة الروم الكاثوليك، ٦٪ السياسيين المعتدلين و ٧٪ السياسيين المسيحيين المناضلين. واخيراً لدى الشيعة، لم يُستنتج عملياً أي تأييد للمناضلين (او المقاتلين). ولكن أيد ١٣٪ منهم السياسيين المسلمين المعتدلين و ٤٪ السياسيين المسيحيين المعتدلين.

برزت ادنى درجة من النضال في اي اتجاه كان، لدى الطوائف التي لم تكن لديها أية ميليشيا. لم يؤيد أي اتجاه سياسي ٨٠٪ من الروم الكاثوليك و ٧٥٪ من الارثوذكس والسنة والارمن.

وبالاختصار يمكن الاستنتاج بان وراء الاتجاهات السياسية المناضلة وقف نصف الدروز، وثالث الشيعة، وربع الموارنة.

ولكن اكثرية كل الطوائف لم تؤيد اي اتجاه سياسي بل أيدت السياسيين المعتدلين. فالنضال السياسي في لبنان هو - حسب مفهوم واسع الانتشار مثل تفضيل السياسيين المناضلين - قضية أقلية من الناس فقط.

اما تحليل قراءة الصحف من قبل المستجوبين فقد اعطى معلومات اضافية لتوضيح الميول والاتجاهات السياسية المستنتجة. لقد تطورت حصص اهم الصحف لدى مجمل قرائها خلال مرحلة التحقيقات على الشكل التالي:

الجراند	١٩٨١	١٩٨٤	١٩٨٦	٥٧١٩٨٧
النهار	٥٧	٥٠	٤٠	٢٨
السفير	٣٧	٤٤	٣٢	١٤
العُمل	٢٣	١١	١٠	٥
الانوار	١٠	٧	١٠	٥
لوريون-لوجور	٦	٤	٢	٤
لورافي	٣	١	٢	٢
النداء	٧	١٤	١١	٧
الاحرار	٢	١	٢	١
اللواء	٦	١	٧	١
أمل	-	١٩	٨	٦

المعطيات بالنسبة المثوية.

نشير هنا الى ان عدد قراء الصحف قد تراجع بصورة عامة. في عامي ١٩٨١ و ١٩٨٤ كان كل مستجوب يقرأ يومياً ما يعادل جريدة ونصف (١,٥)، وفي عام ١٩٨٦ (١,٢ جريدة) وفي عام ١٩٨٧ (٠,٧ جريدة) فقط. يعزى هذا التراجع بالدرجة الأولى الى التضخم وغلاء المعيشة. ولكن سببا آخر يكمن في خيبة الأمل من التطور السياسي ومن انهيار التأييد المنفع وراء السياسة النضالية. فحوص المنشورات المتخصصة والتابعة للمجموعات السياسية تضاعل عددها اكثر من حصص الصحف ذات الصفحات الواسعة المتخصصة لأهم الانباء والتحقيقات.

"النهار" كانت الصحيفة اليومية في البلاد الأكثر اهمية وجدية. اتجاهها الرئيسي هو الاعتدال الليبرالي. تتميز بالتقارير الشاملة والصادقة وبالتحليل والتعليقات الحذرة والجريئة. وينطبق هذا الأمر ايضا على الصحيفة المرتبطة بجريدة "النهار" والناطقة باللغة الفرنسية، اي "لوريون-لوجور". يقرأ كلاهما مستجوبون من ذوي الدخل ومستوى التعليم العالي. ٥٥٪ من خريجي الجامعات يقرأون "النهار"، و ١٥٪

"لوريون-لوجور". اما مناطق انتشار "النهار" فكانت الاشرفية وضواحي بيروت الشرقية والمتن وكسروان وجبيل، وايضا المصيطبة والبسطا في بيروت الغربية، وكذلك طرابلس وزغرتا والكوره . اما "الاوريون-لوجور" فكانت تباع بنوع خاص في المتن وكسروان وجبيل وبيروت الشرقية، وقليل جداً في معظم المناطق الإسلامية. من بين قرائها يشكل الارمن نسبة عالية جداً. ومنذ عام ١٩٨٤، فقدت "النهار" اقل نسبة من قرائها بالمقارنة مع كل الصحف اللبنانية الأخرى، بينما استطاعت "الاوريون-لوجور" المحافظة على عدد قرائها.

"السفير" هي جريدة غير مرتبطة بحزب او بمنظمة سياسية، كانت بالأصل ذات اتجاه يساري، ولكن اخذت بعد ذلك اتجاها ليبرالياً يسارياً. تتمتع بالجديّة والشمولية في التحقيقات، ولكنها من حيث التعليقات، يبدو انها موجّهة بقوة الى السكان المسلمين اكثر من "النهار". تقرأها فئات الدخل العالي - ٤١٪ من قرائها هم من فئة الدخل الأعلى - ولكن ايضاً من ذوي المستوى التعليمي المتوسط. فخرجو التعليم المهني والثانوي يشكلون اكثرية قرائها. مناطق انتشارها تشمل الى جانب بيروت الغربية، الشوف وطرابلس والكوره وعكار، في بيروت الشرقية وفي الضواحي المسيحية وكذلك الشيعية. تتراوح نسبة قرائها بين ٥ و ٦٪. الدروز والسنة هم اكثرية قرائها، وتمثل كل طائفة منهما ربع القراء، ولكن نسبة قرائها انخفضت منذ عام ١٩٨٤ الى الثلث.

اما جريدة "العمل" لسان حال حزب الكتائب، فكانت في السنوات الأخيرة موضوع نزاع بين الحزب والقوّات اللبنانية. فقد كانت في مرحلة من الزمن تصدر يومياً في طبعتين مختلفتين، وهذا ما أثر كثيراً في فقدان عدد كبير من قرائها. تقتصر منطقة انتشارها على بيروت الشرقية والمناطق الجبلية المحيطة بها. اما غالبية قرائها فهي من الموارنة والروم الارثوذكس. يقرأها عدد قليل من الروم الكاثوليك، ولا يقرأها اطلاقاً المسلمون.

وبسبب المشاكل التي تعرضت لها جريدة "العمل"، استقادت كثيراً جريدة "الريفاي" التي كانت تصدر باللغة الفرنسية، والقريبة من أمين الجميل. كانت تنتشر في ذات المنطقة مثل جريدة "العمل"، ولكن بنوع خاص في المتن. وقد لوحظ ان النساء والارمن كانوا يشكلون اكثرية قرائها.

اما جريدة "الانوار" الصادرة في منطقة الحازمية، فكانت تتبع نهج التقليد الشهابي، واهدافه الاصلاحية. يقرأها اتباع الطوائف المسيحية، وبعض السنة في البسطة وفي طرابلس. انخفضت نسبة عدد قرائها الى ادنى من المعدل في الآونة الأخيرة.

"النداء" كانت الجريدة الرسمية الناطقة باسم الحزب الشيوعي. قراؤها هم من فئة المتعلمين والمتقنين العالية. كانت تتوزع جيداً في رأس بيروت بنسبة ٣٥٪، وفي المصيطبة بنسبة ١٤٪، وفي طريق الجديدة بنسبة ١٢٪، وبصورة معتدلة في الضواحي الشيعية. وترتفع هذه النسبة الى اكثر من المعدل في الشوف وفي عكار. الدروز، والشيعية، والروم الارثوذكس كانوا يشكلون القسم الأكبر من قرائها.

"اللواء"، لسان حال الاسلام السياسي السنّي في بيروت الغربية، كانت توزع ايضاً في طرابلس حيث تقرأها فئة صغيرة ولكنها ثابتة.

"الاحرار"، لسان حال حزب الوطنيين الذي كان يرأسه رئيس الجمهورية الأسبق كميل شمعون، كانت توزع فقط في بيروت الشرقية وفي كسروان.

"أمل"، نشرة الحركة الشيعية التي تحمل ذات الاسم، كانت تُقرأ في ضواحي بيروت الجنوبية، وفي مناطق النبطية، وبعبك -الهرمل ٢٠٪ من المستجوبين الشيعة كانوا يقرأون هذه النشرة.

سمحت اتجاهات الصحف اللبنانية بمقارنة قرائها مع مختلف الميول السياسية التي جرى بحثها سابقاً:

الميول السياسية وقراء الصحف %

الميول السياسية	الانصار	الصحف	القراء
المسيحيون المناضلون	٧	مسيحي مناضل	٥ ٢ ١
انصار حركة أمل	٧	قراء أمل	٦
الحزب الاشتراكي اليسار	٤ ٢	اليسار الحزب الشيوعي	٧
المعتدلون المسيحيون المعتدلون المسلمون	٧ ٣	ليبرالي واصلاحي ليبرالي يساري مسلم	٢٨ ٤ ٥ ١ ١٤
		النهار لوريون-لوجور الانوار اللواء السفير	

ان نسبة الميول المسيحية والميول الجماهيرية المناضلة الشيعية وكذلك ميول اليساريين اتفقت تقريباً وبدقة مع ميول قراء المنشورات المطابقة لأرائهم. ولكن نسبة قراء الصحف الليبرالية والاصلاحية والليبرالية اليسارية كانت تزيد خمس مرات عن نسبة المؤيدين للميول السياسية المعتدلة. ومن الطبيعي ان يكون المرء حذراً تجاه التفسير المتطرف لهذه الفروقات. فقسم من المستجوبين كان يقرأ عدة صحف، حتى تلك التي تمثل اتجاهات معاكسة لأرائهم. ولكن حتى في هذا الحال، يمكن التشديد على ان عدد اصحاب المواقف الليبرالية والإصلاحية بالمعنى الواسع، كان يتجاوز بكثير عدد الذين يؤيدون علانية السياسيين. وهذا ما يؤكد ايضا، كما

ذكر سابقاً، صورة الموقف الليبرالي لدى الذين أشاروا الى انهم لا يفضلون او لا يؤيدون اي رجل سياسي. وبالاختصار، تجاوزت نسبة الليبراليين والتقدميين الليبراليين بكثير نسبة الذين كانوا يهللون فقط لسياسي معين يمثل احدي هذه الميول. فعدم تأييد أي سياسي بنوع خاص، لم يعتبر في لبنان عام ١٩٧٨ مؤشراً على فقدان الرأي السياسي.

"ما هو البلد الذي يبدو لك مثالياً وتودّ الذهاب اليه قبل غيره؟"

هذا السؤال المفتوح هو بالنسبة للبحث الاجتماعي التجريبي، مثل اطلاق النار عشوائياً، بالنسبة لصياد يصطاد في غابة كثيفة، حيث تستطيع طلقات النار ان تذهب بعيداً دون إصابة شيء. ولكنها تستطيع دفع الطريدة المفترسة للتوجه نحو خط معين. بالنسبة للبحث في لبنان، اسهم هذا السؤال في استكشاف نتائج ذات مغاز بالغة الأهمية:

١٩٨٧	١٩٨٦	٥٨١٩٨٤	البلد المثالي
٤٧	٣٣	٣٠	سويسرا، النمسا الدول السكندنافية
٩	٨	٧	فرنسا
٦	٦	٤	الولايات المتحدة
١٠	٨	١٠	دول غربية أخرى
٥	٧	١٠	الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية
٢	٣	٧	ايران
—	١	٢	الدول العربية المستقبلية للعمال
—	٤	٣	دول عربية أخرى
١٢	٢	١	دول الإغتراب
٤	٨	١٥	لبنان
١	١	١	اسرائيل
٣	١٩	١٠	لا جواب

المعطيات بالنسبة المثوية.

تشير المقارنة الزمنية الى تطورات بالغة الأهمية هنا: الاعجاب بالوطن نفسه ضَعُفَ كثيراً، وكذلك الاعجاب بالجمهورية الإسلامية الإيرانية، كما ارتفع الاهتمام بدول الاغتراب بسرعة مذهلة، واصبحت الدول الديمقراطية، والحيادية، والمزدهرة دولا مثالية لنصف المستجوبين.

فقدت فرنسا والولايات المتحدة عام ١٩٨٤، بعد وقت قليل من فشلها في إعادة الهدوء وتثبيت الأمن في لبنان، الكثير من التقدير، ولكن سرعان ما استعادته من جديد. فالموارنة بنوع خاص هم اكثر المعجبين بفرنسا، البلد الذي تربطهم به علاقات تاريخية منذ اجيال بعيدة. ولكن نسبتهم لم تبلغ سوى ١٣٪ فقط. اما الولايات المتحدة فتعتبر خاصة من قبل الروم الارثوذكس البلد المثالي تقريبا، ولكن

من قبل ١٣٪ فقط. اما المسلمون فلم يغيروا رأيهم كثيراً بالولايات المتحدة عام ١٩٨٧.

لم تُختَر فرنسا بسبب فصل الدين عن السياسة فيها، بل نُظِرَ إليها بدرجة أولى كدولة علمانية. كما اعتبرت الولايات المتحدة بلداً يوفر حظاً كبيراً لأصحاب النشاط والطموح.

وقد ذُكر عدد من الدول الغربية الأخرى بنسبة ٦ إلى ١٦٪ من قبل المستجوبين من كل الطوائف، وبِنوع خاص من قبل الروم الاثونكس. كان معظم هؤلاء من الفئات الناجحة مهنيًا، التي لا تضمّر أيّ حسدٍ اجتماعي، وهي قليلة التدين ولا تخاف من المستقبل. تعتبر هذه الفئة ظاهرياً شكل المجتمع في الدول الصناعية الغربية نموذجاً يجدر الاقتداء به.

اما صورة الدول الإشتراكية فبدت جذابة بنسبة عالية بين الدروز (٢٧٪) والارمن (١٥٪) وكذلك بين المستجوبين من الشوف ومن لبنان الشمالي (١٢٪). اصحاب هذا الاختيار هم من غير المتدينين وقليلي الارتباط بالعائلة او بالطائفة. يؤيدون الزعماء السياسيين الجدد، مسيّسون جداً، ولا يخافون من المستقبل. ويعتقدون بإمكانية انتصار فريق على آخر في النزاع اللبناني. توافق تفضيلهم لمجتمع اشتراكي مع اقتناع سياسي، مثلما استنتج سابقاً بالنسبة لمؤيدي السياسيين اليساريين.

الدول العربية المصدرة للنفط زالت من اللائحة عام ١٩٨٧. ولكن إمكانيات الربح فيها يقدّرها اللبنانيون دون ان يعتبرها احد منهم بلداناً مثالية. وينطبق ذات الشيء على الدول العربية الأخرى. حتى سوريا، التي تعتبر "الدولة الشقيقة" والأهم بالنسبة للبنان، لم يأت على ذكرها الا ٠,٢٪ من المستجوبين.

لقد لوحظ أيضاً تراجع ذكر المستجوبين لبلدهم منذ عام ١٩٨٤. وهذا أمر لا يدعو كثيراً الى الدهشة رغم حب اللبنانيين لوطنهم. هذا ما لاحظته ايضاً حتى الذين كانوا يزورون لبنان بسرعة. فاعتباره من قبل احد المواطنين عام ١٩٨٧ كبلد مثالي، كان أمراً يحتاج، دون شك، الى وطنية بطولية. ٤٪ من المستجوبين فقط ايدوا ذلك. وهذه الفئة يصعب تصنيفها بالاستناد الى معالمها الاجتماعية او لأية مواقف أخرى.

اما ايران الخميني فقد اعتبره ٧٪ من المستجوبين عام ١٩٨٤ كالبلد الأكثر تقديراً ومثالية. لم تكن تلك نسبة عالية بالمقارنة مع نسبة ٢٦٪ من الشيعة في العينة تلك السنة. وعام ١٩٨٧ انخفضت نسبة الذين كانوا يعتبرون ايران بلداً مثالياً، الى ١١٪ بين الشيعة، والى ٢٪ من مجموع العينة. فوجود حراس الثورة (البسدران)

في لبنان منذ عام ١٩٨٤ قد دعم وشجع كثيراً القوة القتالية والروح النضالية لدى ميليشيات حزب الله. ولكنهم اساءوا كثيراً الى نسبة التأييد والترحيب بنموذج الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. بالنسبة للأصوليين الإسلاميين، برزت بوضوح كلي صعوبة جمع القوة الضاربة العسكرية والسلطة من جهة، مع دعم السكان والتغلغل في صفوفه من جهة أخرى.

ولكن ما هو البلد المثالي بنظر الشيعة اللبنانيين؟ ١٩٪ منهم ذكروا البلدان الغربية التي مازالت ابوابها مفتوحة للهجرة، مثل كندا، وأستراليا، ودول اميركا اللاتينية، وكذلك الدول الأفريقية حيث تمكن عشرات الآلاف من اللبنانيين - وبأنواع خاص الشيعة منهم - من السفر إليها والاستقرار فيها.

اختار هذه الدول أيضاً ١٦٪ من السنة، و ١١٪ من كل من المواردنة، ومن الروم الكاثوليك ومن الارمن، وكذلك ٧٪ من الروم الارثوذكس. وبصورة عامة أعجب بهذه الدول عام ١٩٨٧، ١٢٪ من المستجوبين. وهذا دون شك مؤشر للإرتفاع المأساوي لرغبات الهجرة إليها. ففي عام ١٩٨٤ لم يذكر دول الاغتراب إلا ١٪ فقط من المستجوبين.

لا يشير الأمر هنا الى أمنية فقط، بل يعبر عن قناعات واقعية. وهذا ما تشير إليه صورة المجموعة التي ذكرت مثل هذه البلدان. يتمثل فيها أكثرية المستجوبين من خريجي التعليم المهني، أي الفئة التي تتمتع بمؤهلات تقرأها كثيراً اليوم معظم دول الاغتراب. فالذين ذكروا هذه البلدان، هم من غير الراضين عن ارباب عملهم وأجورهم ومن المتشائمين من حظوظ الترقى، والراغبين بالذهاب الى دول الخليج للعمل هناك كاجراء. كذلك لم يعتبروا الزعماء الجدد أفضل من القدامى، ولكنهم رفضوا التعاطي بالسياسة. فهم يتمنعون بكل خصائص ومواقف التيارات الشعبية الجماهيرية. ولكنهم لا يعتقدون بإمكانية تحقيق رغباتهم السياسية. وفي الواقع، كان المواطن العادي المستسلم يفكر بالهجرة.

اما الذين يقدررون العلمانية الفرنسية، وحظوظ الترقى الاميركية، ونماذج المجتمع الغربية او الاوروبية الشرقية، العربية او الايرانية، والذين يأملون بإمكانيات أفضل في بلد جديد، فيشكلون معاً نصف اللبنانيين فقط. وقد اختارت نسبة ٤٧٪ من المستجوبين، وهي الفئة الكبرى، دولاً أخرى، كبلدان مثالية، مثل سويسرا، والنمسا، والسويد، ودول اسكندنافية أخرى. سويسرا وحدها حظيت بثلاث المستجوبين. فلهذه الدول جوامع مشتركة. انها دول صغيرة ديمقراطية، مزدهرة اقتصادياً، وبمعظمها حيادية. قد يكون ذلك أمنية وتكراراً لصيغة الحلم اللبناني القديم المعبر عن رؤية لبنان "كسويسرا الشرق". ولربما تكون هذه الصيغة قد لعبت دوراً هنا. ولكن عام

١٩٨٤ حصلت معظم هذه الدول على نسبة اقل مما حصلت عليه سويسرا وحدها عام ١٩٨٧. لربما كان ذلك بسبب المناقشات المكثفة التي حصلت عام ١٩٨٥ في الصحافة ووسائل الإعلام حول النظم الدستورية والمجتمعية في دول مقارنة. ويؤكد على ذلك تزايد ذكر هذه الدول مع ارتفاع المستوى التعليمي بين المستجوبين.

ومن جانب آخر، أشار المعجبون بالدول الصغيرة والديمقراطية والمزدهرة الى مواقف متضامنة بارزة المغزى. معظمهم من فئة الراضين، لا يضمرون أي حسد اجتماعي، ولكنهم يشعرون بوجود تفاوت اجتماعي متزايد في لبنان. مؤمنون دينياً ولكنهم لا يمارسون. يعتبرون السياسيين القدامى أكثر تسامحاً، ولكنهم لا يتوقعون شيئاً كبيراً من "القناعات السياسية الواضحة". يريدون "البقاء على بساطهم" وابعاد اصابعهم عن السياسة، كما انهم لا يخافون من المستقبل. بالإختصار، كان النموذج "السويسري" مثالا جذابا للبيراليين المتفائلين.

تقاربت نسب هذه الفئة لدى كل الطوائف، كما شكلت النسبة الأعلى لدى كل منها. ولذا يمكن الإستنتاج بان التوجهات السياسية في المجتمع اللبناني المعقد والمضلل هي ايضا معقدة ومضلة، وبالتالي يمكن استكشاف بعض خطوطها العريضة الواضحة.

اللبنانيون مستأثرون من سياسيتهم. والمدعش هنا، بالاستناد الى وضع البلاد، ليس الواقع كما هو، بل الحجم. في عام ١٩٨٤، لم يختزل ثلث المستجوبين أي سياسي أو لم يعط أي جواب. وفي عام ١٩٨٧ تضاعفت هذه النسبة من الثلث الى الثلثين. فقد كل السياسيين عدداً كبيراً من انصارهم، وتزايد عدد اعدائهم، كما ضعف كثيراً عدد مؤيديهم.

فالذين لم يفضلوا أو لم يذكروا أي زعيم سياسي، هم من جهة شعوبيون مستسلمون، أكثر فقراً وسخطاً، متضامنون عائلياً وطائفيًا، ولكنهم غير ميسسين. ومن جهة أخرى هناك فئة من الليبراليين الذين يتقيأون السياسة والعاملين فيها.

ولكن يشكل ليبراليون آخرون مجموعة من انصار السياسيين المعتدلين المسيحيين (٧٪) والمسلمين (٣٪). ويشكلون سوية ١٠٪ من مجموع المستجوبين.

اما الفئة الشعبية الأكثر تسيساً وتديناً فتتألف من انصار السياسيين المسيحيين والشيعية المناضلين. ٧٪ من المستجوبين أيدوا هذين الاتجاهين. و"السوبر-جماهيريون" هم الذين أيدوا الاتجاه الإسلامي. انها فئة فقيرة الحال، ضعيفة المستوى التعليمي، متديتة، غير راضية عن وضعها، ونشيطة. تشكل ٢٪ من المستجوبين، ولكنها أقلية صغيرة جداً.

يشكل جنبلاط واشتراكيوه التقدميون مجموعة ذات مغزى بارز. هذه المجموعة هي خليط من كل الطوائف. إنها فئة محافظة-ليبرالية من حيث مميزاتها الاجتماعية ومواقفها. وهي مناضلة سياسياً بذات النسبة مثل الميول لدى الفئات الجماهيرية. ٤٪ من المستجوبين أيدوا هذا الاتجاه عام ١٩٨٧.

وبالنسبة لأحزاب اليسار، فقط ٢٪ من المستجوبين اعتبروا أنفسهم من انصارها الملترمين. إنها فئة ذات مستوى تعليمي عال، معلمة تماماً، وتنتمي إلى كل الطوائف، ولكنها متحررة منها.

جغرافياً لوحظ وجود معادل رئيسية لكل تيار سياسي. ولكن لم يشكل أي تيار في أي مكان أكثرية، حتى وإن نسبية. لكل التيارات - باستثناء اليسار - معادلها الرئيسية في طوائف معينة. يعتبر مثلاً نصف الدروز تقريباً من انصار جنبلاط وحزبه. كما أيد ربع الشيعة نبيه بري، وبالتالي حركة أمل. وكذلك أيد ما يقارب خمس المواردنة المسيحيين المناضلين. ولكن لم يحظ أي تيار سياسي على أكثرية داخل طائفة ما. فاتباع الطوائف التي لا تمتلك ميليشيا خاصة بها أو تابعة لها - مثل السنة، والروم الكاثوليك، والارمن - لم يؤيدوا بنسبة أكثر من ٧٠٪ أي سياسي، أو امتنعوا عن الجواب. النضال السياسي هو ظاهرة تتميز بها أقلية في كل الطوائف، وهو في الواقع قضية أقلية فقط.

لقد دلّ تحليل قراءة الصحافة من قبل المستجوبين، من حيث ميولهم، ومزايهم الاجتماعية، ومواقفهم، على أن أصحاب المواقف الإصلاحية والليبرالية بالمعنى الواسع، هم أكثر عدداً من الذين عبروا عن تفضيلهم أو عن تأييدهم لسياسيين معينين.

أما السؤال عن البلد الذي يعتبر مثالياً بنظر المستجوبين، فقد أسهم في استكشاف نتائج ذات مغزى. فايران ونموذج الجمهورية الإسلامية فيه كان البلد المثالي لـ ١٠٪ من الشيعة، وبرز بالتالي كبلد مثالي لأقلية فقط من الفئة الجماهيرية الشيعية المناضلة. أما الدول الاشتراكية فبرزت كالنموذج المثالي لمستجوبين زاد عددهم على عدد الذين اعتبروا أنفسهم من انصار السياسيين اليساريين اللبنانيين. ولكن جرى اختيارها أيضاً من قبل ثلث المؤيدين للسياسيين اليساريين والتقدميين.

وهناك ١٢٪ من المستجوبين - مقابل ١٪ فقط قبل ثلاث سنوات سابقاً - رأوا في دول الاغتراب دولاً مثالية. تألفت هذه الفئة بمعظمها من المجموعة الشعبية الجماهيرية المستسلمة وغير المسيسة، وهي بغالبيتها من الطائفة الشيعية. وهذه هي مؤشرات عواض مرضية لأزمة خطيرة تشير إلى أن ١٠٪ من اللبنانيين فقدوا كل أمل بمستقبل أفضل في بلدهم.

اضافة الى ذلك، برز مؤشر مرضي آخر اقوى وأكثر أهمية من المؤشر السابق. فقد تجلّى في ان الدول الصغيرة، الديمقراطية "المزدهرة"، مثل سويسرا او النمسا، اصبحت عام ١٩٨٧ بنظر ٥٠% من اللبنانيين دولا مثالية، بينما لم يعبر عن ذلك قبل ثلاث سنوات إلا ٣٠% فقط.

٩ - الدين والسياسة

كانت الصيغة اللبنانية لتسوية العلاقات بين الدين والسياسة، اي بين الطوائف الدينية وسلطة الدولة، حتى ما قبل الحرب، مثار جدل كبير في لبنان. لم تكن معارضة الصيغة القائمة موجهة ضد توزيع السلطة الواقعي بين الطوائف، أي من يأخذ أكثر من غيره فحسب، بل ضد مبدأ هذا التوزيع ايضا. ولكن هذه الصيغة التي لم تتجح في الحؤول دون وقوع الحرب، أثارت معارضة من قبل جهات مختلفة. قدّمت بعضها اقتراحات متناقضة في سبيل إيجاد صيغة جديدة للعلاقات بين الدين والسياسة، اي علمنة نظام الدولة والقوانين. ومن جهة أخرى برز تصوّر يهدف الى اقامة لامركزية تسمح لكل طائفة بان يكون لها كانتونها الجغرافي حيث تستطيع تحديد علاقة الدين بالسياسة حسب ارادتها الذاتية. اخيراً، ومنذ عدة سنوات برزت اتجاهات دينية اصولية تهدف - بعكس الاتجاه العلماني - الى اعطاء الدولة والمجتمع طابعاً دينياً اقوى مما كان سابقاً. ماهو الصدى الذي تركته هذه المفاهيم والتصورات لدى المستجوبين؟

"يجب تجنب خلط الدين بالسياسة"

الموافقة على هذا المبدأ العلماني ذي الطابع العام، ارتفعت نسبتها من ٨٤% في السنوات ١٩٨١ و ١٩٨٤ الى ٨٧% عام ١٩٨٦ وحتى ٩٣% عام ١٩٨٧ .

وعلى سؤال أكثر تحديداً ودقة جاءت نتائج الاستفتاء مشابهة:

"يوجد بالفعل فروقات بين الطوائف الدينية في بلدنا،
ولكن يجب ألا يُزجَ بها في السياسة".

على هذا القول وافقت نسبة ٩٢٪. أما الموافقة المحدودة فقد برزت فقط لدى الفئات ذات المستوى التعليمي المتدني، وفي أجزاء من ضواحي بيروت الشيعية. وهناك أيضاً معارضة واسعة، لما نتج لاحقاً منذ بدء الحرب من تحديد للسياسة عبر استخدام عبارات الدين والطائفة الدينية. ولكنه من السابق لأوانه اعتبار هذا الرفض مماثلاً مع الخيار الواضح لمفهوم دقيق للعلمنة. وهذا ما أشارت إليه ردود فعل المستجوبين على قول آخر:

**"الحلّ الأفضل لإخراج لبنان من المأزق الراهن،
هو العلمنة الشاملة للدولة والمجتمع".**

في عام ١٩٨٤ وافق على هذا القول ٧٥٪، وانخفضت هذه النسبة عام ١٩٨٦ إلى ٥٢٪، ثم عادت وارتفعت عام ١٩٨٧ إلى ٦٣٪. يمكن إيعاز هذا التفاوت إلى الظروف السياسية والعسكرية. فعام ١٩٨٦ كان زخراً بنزاعات قاسية. ولكن على كل حال، افرزت التحقيقات الثلاثة ٥٩ أكثر من تأكيد مفهوم العلمنة الشاملة.

من يشدد على هذا المفهوم؟ ومن يشدد بصورة أقل؟ الذين اتخذوا موقفاً إيجابياً هم بمعظمهم من الشباب ومن ذوي الثقافة العالية، وكذلك من ذوي الدخل العالي.

وتختلف نسبة التفاوت في الموافقة حسب أحياء المدن والمناطق. أعلى نسبة أيدت العلمنة برزت في الأشرقية وفي ضواحي بيروت المسيحية (٧٥٪) ثم في رأس بيروت (٦٩٪). أما الأقلية المؤيدة للعلمنة فبرزت في الشياح (٤٢٪). وخارج بيروت، بلغت أعلى نسبة في جبيل (٩٠٪)، يليها المتن الأعلى والمتن (٧٥٪). كما أن هذه النسبة جاءت مرتفعة أيضاً في كل من الكوره، وعكار، وكسروان. وبرز انخفاض هذه النسبة في كل من النبطية (٤٠٪) وصيدا (٢٤٪) وجزير (٢٢٪). وتجدر الإشارة أيضاً إلى التفاوت بين الطوائف الدينية، إذ برزت أعلى نسبة لدى الدروز (٧٧٪)، ثم لدى الموارنة والارمن (٧٣٪) والروم الكاثوليك (٧٠٪). فهم بمعظمهم من مؤيدي العلمنة. أقلّ منهم حماساً برز الروم الكاثوليك بنسبة ٦٠٪، والسنة بنسبة ٥٧٪، والشيعية بنسبة ٥٣٪. وليس من المدهش كثيراً ارتفاع نسبة الموافقة لدى الدروز. فاهم زعماء هذه الطائفة طالبوا دائماً بتطبيق العلمنة. وبالمقابل تجدر الإشارة إلى الأكثرية التي برزت حتى لدى الطوائف المسيحية. فالسياسيون القاديون المسيحيون طالبوا أيضاً منذ عدة سنوات بتطبيق العلمنة شرط أن تكون

شاملة كاملة، اي ان لا تقوم فقط على الغاء النسب السياسية، بل أيضاً على فرض قانون مدني وغير ديني للأحوال الشخصية. وهذا ما تعنيه صيغة "علمنة الدولة والمجتمع". ولكن غالباً ما كان مطلب العلمنة الشاملة هدفاً تكتيكياً يرمي الى اشارة رفضه من قبل الطوائف الإسلامية. فاما ان تكون العلمنة هكذا او لا تكون. نتائج التحقيق عام ١٩٨٧ أشارت إلى أكثرية واضحة لدى المسيحيين كانت مستعدة لمثل هذه العلمنة. ولكن توجد أيضاً اكثريات مؤيدة للعلمنة لدى السنة والشيعة، ولكنها جاءت محدودة لدى الطائفة الأخيرة.

اجتماعياً تؤيد العلمنة مجموعات مختلفة جداً. يُشدّد عليها، كما هو متوقع، من جهة غير المتديّتين؛ وغير المتمسكين بالروح العائلية والطائفية، ولكن يشدد عليها من جهة ثانية أيضاً، وبأكثرية واضحة، المتديّتون المعتدلون، وغير الحذرين من المحافظين، والراضون عن عملهم ومهنتهم، أي الفئات التي لا تخاف من المستقبل، ولا تشعر بعدم القدرة. وقد وصفت سابقاً بالليبرالية-المتفائلة.

وحسب الميول السياسية جاء التأييد الأقوى للعلمنة من قبل انصار الاحزاب اليسارية والحزب التقدمي الاشتراكي، والمسيحيين المعتدلين، وكذلك من قبل الذين لا يفضلون او لا يقدرون أي رجل سياسي. فالجامع السياسي المشترك لأنصار العلمنة هو رفضهم لنموذجين من السياسيين، الزعماء الاصوليين الاسلاميين، والمسيحيين المناضلين. هذه النتائج استطاع انصار مفهوم العلمنة الموافقة عليها بكل تفاؤل. ولكن ينبغي الحذر من الافراط في تفسيرها، كما تشير ردود الفعل على قول آخر:

"يستطيع من يرغب من اللبنانيين ان يختار الانتماء الى طائفة علمانية، لها نفس حقوق الطوائف الأخرى (أحوال الشخصية، تمثيل سياسي...)"

حول هذا الاقتراح انقسم المستجوبون الى فئتين. ان فكرة انشاء طائفة علمانية، واعطاء الحق لكل مواطن لاختيار الانتماء اليها او البقاء في طائفته الاصلية، جرت مناقشتها منذ مدة في لبنان كصيغة فردية، حرة، تؤدي الى العلمنة دون احداث اي اضطراب سياسي في المرحلة الانتقالية. حصل هذا المفهوم على تأييد أقل بكثير من مفهوم العلمنة الشاملة للدولة والمجتمع، وبالتالي لم يحظ الا على موافقة ضئيلة. ولكن كيف يُفسّر ذلك؟

المزايا الاجتماعية ومظاهر المواقف لدى مؤيدي ومعارضى هذا المفهوم تتشابه مع ما أشير إليه اعلاه. لكن رغم ذلك برزت هنا اختلافات أكثر حدة. من بين المؤيدين هناك اكثرية من ذوي الدخل الكبير والمستوى التعليمي العالي، وغير متدينين، ومن الملتزمين سياسيا من مختلف التيارات، وليبراليين. ومن حيث الاتجاهات السياسية فهم يؤيدون اليسار، والحزب التقدمي الاشتراكي، والسياسيين المسيحيين والمسلمين المعتدلين. اما المعارضون فهم من الاصوليين الاسلاميين بنسبة ٩١٪ ومن انصار نبيه بري وحركة أمل بنسبة ٧٢٪.

وتجدر الإشارة الى التوزيع الجغرافي لمعارضى الطائفة العلمانية. أكثر من الثلثين هم من سكان برج البراجنة، وحارة حريك، وطريق الجديدة، والنبطية، وجزين، ومن بينهم ٨٠٪ من سكان الشياح، والجناح، والاوزاعي، وصيدا.

ومن حيث التوزيع الطائفي، برزت صورة واضحة الاختلاف والتفاوت حول مدى الاستعداد للعلمنة:

مؤيدو علمنة	مؤيدو طائفة	الطوائف الدينية
علمانية الدولة والمجتمع		
٧٣	٦٥	الموارنة
٧٣	٥٩	الارمن
٧٠	٥٨	الروم الارثوذكس
٦٠	٥٦	الروم الكاثوليك
٧٧	٤٩	الدروز
٥٧	٤٧	السنة
٥٣	٣١	الشيعية
٦٣٪	٥٠٪	مجموع المستجوبين

لدى كل الطوائف أيدت الأكثرية مفهوم "علمنة الدولة والمجتمع" أكثر من مفهوم "الطائفة العلمانية". هذا الأمر يحتاج الى تفسير. فوصف الطائفة العلمنة هو أكثر

حسبةً وواقعية. فهي تؤدي تقريباً الى ما يمكن ان تعنيه بالتفصيل، علمنة الدولة والمجتمع، اي انه يحق للأفراد الخروج من طوائفهم، كما توفر لهم امكانية عقد زواج مدني، والحصول على تمثيل سياسي غير مرتبط باية طائفة. فعندما تتوضح اكثر فاكتر واقعية هذا الاتجاه، يقل عدد العلمانيين.

اما ظاهرة التخوف او التهرب فهي اقوى واكثر بروزاً لدى الطوائف الاسلامية منها لدى الطوائف المسيحية. ولا غرابة في هذا الأمر. فالعلمنة الواقعية تعني لهم إعطاء المواطنين المسلمين امكانية الخيار بين قانون مدني للزواج والإرث بدلا من الشريعة القرآنية التي تنظم الزواج والارث، كما تشرع الزواج المختلط في الاتجاهين.

ان مجمل نتائج الأسئلة حول العلمنة يدعو الى الحذر والتحفّظ ازاء ادراك الأكثرية لهذا المفهوم. رغم التأييد الواضح والواسع، فلا يريد احد خلط الدين بالسياسة. فهذا أمر وافقت عليه أكثرية تجاوزت ٩٠٪، كما أيد حوالي ٧٠٪ تقريباً علمنة الدولة والمجتمع. ولكن عندما يبدأ الحديث عن النتائج العملية لمثل هذه العلمنة - وذلك فقط ضمن اطار حرية الاختيار الفردي - عندئذ لا يؤيد ذلك الانصف اللبنانيين بصورة عامة، و٣١٪ من الشيعة بصورة خاصة.

ان عدداً كبيراً من المسيحيين اللبنانيين يتخوفون من ان مواطنيهم المسلمين يريدون فقط علمنة الدولة، وليس القوانين ولا المجتمع. وهذا ما يمكن ان يؤدي ليس فقط الى فقدانهم المشاركة في السلطة فحسب، بل أيضاً الى فرض الشريعة الإسلامية وتطبيقها عليهم. والاستنتاجات التي جرى استكشافها لا تبدد اطلاقاً هذه التخوفات.

بسبب هذه الهواجس المسيحية من تزايد اعداد الأكثرية الاسلامية غير المعلمنة، برزت مفاهيم اللامركزية الاقتصادية والسياسية، التي يمكن ان توفر استقلالية ذاتية فعلية للطوائف.

كيف يبدو تأييد أو رفض مثل هذه المفاهيم؟

موافقون %				
١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	
٢١	٤٦	٦١	٥٢	"خلال الأزمة ٦٠، تمكنت المناطق من تدبير امورها بنفسها. فاللامركزية قد تكون مسألة جيدة".
١٢	٢٥	٢٣	*	"كان التعايش بين الطوائف سهلاً، لو كان لكل طائفة منطقة ذاتية"
١٢	*	*	*	"الحفاظ على هوية وخصائص طائفتي هو اهم بالنسبة لي من الاخلاص لبلدي."
٧٠	٨٥	٨٦	*	"معظم المناطق اللبنانية هي خليط من كل الطوائف. والاراضي اللبنانية كلها ملك لكل اللبنانيين."

* لم يطرح هذا السؤال في تلك السنة.

لم يلقَ مفهوم اللامركزية إلا صدئاً أقل بكثير من مفهوم العلمنة. فالأكثرية الضئيلة، التي أيدت عام ١٩٨١ اللامركزية الاقتصادية، انخفضت إلى أقل من الثلث عام ١٩٨٧. ومفهوم "الكننتة" حسب الطوائف، أيده عام ١٩٨٦ ربع المستجوبين. ولكن انخفضت هذه النسبة عام ١٩٨٧ إلى ١٨٪. ولم يوافق على صيغة تفضيل مصالح الطائفة على مصالح البلد إلا ١٢٪ فقط.

ولكن حتى الطرح المعارض لمفهوم اللامركزية والكننتة لم يلقَ عام ١٩٨٧ كثيراً من التأييد. وهذا أيضاً انعكاس للواقع لأن هذا الطرح لم يعد يعني شيئاً لعدد من المناطق. ورغم ذلك، أيدت هذا الطرح أكثرية واسعة.

بالنسبة للامركزية الاقتصادية وافق الجميع عليها، خاصة حيثما أصبحت امراً واقعاً، وساد أمن نسبي، يسمح للمواطن بمواصلة اعماله التجارية دون ازعاج او اضطراب، كما كان الحال في عمق المناطق المسيحية، مثل جبيل (٧٥٪)، وكسروان (٥٧٪) والمتن (٥٦٪)، وشرق بيروت (٤٣٪)، وكذلك في المناطق المسيحية الشمالية، مثل الكوره وزغرتا والبترون (٥١٪)، ولكن ايضاً في الشوف (٤٩٪) والبقاع الشمالي الواقع تحت السيطرة السورية (٤٠٪). فالذين كانوا يعيشون بنوع خاص في جوف من التوتير وفي مناطق تزرع تحت عبء الازمة الاقتصادية ونتائجها الاليمية، رحبوا قليلاً بهذا المفهوم. ففي جنوب لبنان بلغت نسبة الموافقة ١٤٪، وفي الضواحي الشيعية ٨٪، وفي رأس بيروت ٤٪.

الكانتونات الدينية، جرى تأييدها حيثما كانت قائمة بحكم الأمر الواقع. في المناطق الواقعة تحت سيطرة الميليشيات المسيحية بلغت نسبة التأييد ٤١٪ في كسروان، وتدنّت الى ٢٤٪ في الاشرفية. ولكنها بلغت في الكانتونات الشيعية في بعلبك والنبطية نسبة (٢٨٪)، وفي الشوف (٢٢٪). اما من حيث الميول السياسية فان ٣٤٪ من المناضلين و ٢٢٪ من المسيحيين المعتدلين أيّدوا الكنتنة.

ما هي خصائص الفئة التي تفضّل الحفاظ على هوية طائفاتها قبل الاخلاص لوطنها ؟

تتوزع نسب هذه الفئة على المتن (٢٥٪) والبسطة (٢٢٪)، وخاصة على الضواحي الشرقية، حيث بلغت ٣٠٪. ومن حيث الانتماء الطائفي، شكل الارمن (١٧٪)، والموارنة (١٥٪) والروم الكاثوليك (١٥٪). وهؤلاء هم بمعظمهم من الفئة الأكثر ارتباطاً بالدين والعائلة. اما من حيث الميول السياسية فبلغت نسبة المسيحيين المناضلين ٢٢٪ والاصوليين الاسلاميين ٢٤٪.

وبينما برزت الموافقة على اللامركزية الاقتصادية والكنتنة الطائفية كنتيجة لقوة الأمر الواقع المعيارية، تبين ان الموقف المتطرف بالنسبة لهوية الطائفة، كان موقفاً تراجعياً، سببه الخوف المسيحي، وكذلك الخوف الشيعي-الإسلامي. ولكن هذا الأمر لا يرتبط بمجموعة واسعة متشددة ومتصلبة، بل بفئة ضعيفة.

ان مؤيدي اللامركزية بشكليها هم تقريباً اقلية في كل المناطق والطوائف. فالأكثرية الكبيرة تعتقد ان لبنان كله هو ملك لكل اللبنانيين. ولكن اللامركزية تبدو، اقل بكثير من العلمنة، كصيغة مقبولة في لبنان يمكن الاعتماد عليها في تسوية جديدة للعلاقات بين الدين والسياسة.

ماذا يفكر اللبنانيون بهذه المفاهيم التي تناقض العلمنة وتهدف الى تقوية اضعاء طابع ديني على الدولة والمجتمع؟

موافقون %				
١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	
٦٨	٧٩	٧٨	٧٩	"على المؤمن ان يعود الى اصوله الدينية والثقافية، وتعميق معنى انتمائه الطائفي".
٥٥	٦٨	٦٢	٦٧	"على الإيمان والقيم الدينية ان ينظما حياة المجتمع".

فالذي يحاول العودة الى المصادر الدينية، يريد ايضاً ان تُنظم القيم الدينية المجتمع. ليس هذا موقف سياسي نابع عن التقوي ودون نوايا مبطنة فحسب، بل هو موقف اصولي. يلقي تأييداً أكثر من العلمنة ايضاً. ولكن يبدو انه بلغ ذروته ظاهرياً. كما ان انخفاض التأييد له بنسبة ١٠٪ خلال سنة، يشير الى مغزى يتجاوز البعد الإحصائي^{٦١}. من هي الفئات ذات الاتجاهات الاصولية؟

انها فئات من ذوي المستوى التعليمي الادنى، ومن المتدينين المتشددين، ومن ذوي الشعور التضامني القوي مع العائلة والطائفة. معاقلهم الرئيسية تتوزع في كسروان وطرابلس، وصيدا، والمتن، بنسبة ٨٥٪.

يتمثلون باكثريتهم لدى السنة والموارنة، وبأقليتهم لدى الروم الكاثوليك، والروم الارثوذكس والدروز: ولكن نسبتهم تصل الى ٩٠٪ لدى الاصوليين الإسلاميين ولدى المناضلين المسيحيين.

لقد تبين ان "الاصولية" اللبنانية تعبر عن شكل فريد من نوعه. فلها اتباع وانصار لدى الشيعة. ولكن هذه الطائفة التي تنهم بالاصولية هي أقل تأثراً بها من السنة والموارنة.

على كل حال، انها اصولية لبنانية صرفة، اي اصولية متعددة الاديان، او اصولية تعددية.

٦١- في الحالتين (بنسبة > ٠,٠٠١) ($p < 0.001$)

وبما ان لكل الطوائف اصوليتها الخاصة، فان كل امكانيات وحظوظ تطبيقها لدى كل طائفة ضعيفة. ولكن رغم ذلك، تزايدت ايضا إمكانية تطبيقها داخل كل طائفة. وفي الواقع، لقد لوحظ منذ عام ١٩٨٦ بان النزاعات المسلحة تحصل بين الطوائف أقل مما تحصل داخل صفوفها. ومن المحتمل ان تكون ظاهرة هذه النزاعات الداخلية افضل مؤشر لتفسير تراجع نسبة تأييد هذه المواقف بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٨٧.

ان تحليل المواقف حول هذه المفاهيم التي تتضمن كصيغة لبنانية معروضة تسوية بديلة للعلاقات بين الدين والسياسة، أدى الى بروز صورة زاخرة بالتناقضات. اهمها هو ان ٦٣٪ من المستجوبين يؤيدون علمنة الدولة والمجتمع، بينما يريد ٥٥٪ منهم ان ينظم الايمان والقيم الدينية حياة المجتمع. كما ان ٢٥٪ من اللبنانيين يؤيدون العلمنة، و ٢٥٪ منهم يعارضونها^{٦٢}. ولكن هذه الصورة ليست منطقية، كما ان الحقيقة المجتمعية هي ايضا واحيانا غير منطقية، بل تناقض نفسها بنفسها.

اذأ، عندما لا يجد هذا المفهوم الجديد او ذاك اكثرية، ولا يحظى مفهوم ثالث الآ على تأييد أقل من المفهومين الاولين، فهل هذا يعني ان اللبنانيين هم على استعداد للقبول والتكيف مع ما هو قائم؟

"ان ما نبتغيه ونرغبه دائما يبدو مستحيلاً، أي تطبيق العلمنة في لبنان.
فالانتماء الى طائفة ما هو واقع ينبغي القبول به."

أيد هذا القول ٥٤٪ من المستجوبين. ولكنه رفض من قبل الشباب، ومن ذوي المستوى التعليمي العالي، وبنوع خاص من قبل الدروز. وغالبا ما برز هذا الرفض ايضا في الضواحي الشيعية والأشرفية.

وقد جاء الرفض كذلك من قبل الذين لا يخافون من المستقبل، والقليلي التدين والتعاطف مع العائلة والطائفة، ومن المسيحيين كثيرًا.

شكل هذه المجموعة يوفر ضماناً للتأكيد على ان الواقع لا يمكن قبوله ببساطة. فعلاقة الدين والطائفة الدينية بالسياسة والدولة والمجتمع ليست موضوع جدال بين الطوائف فقط، بل داخل صفوفها ايضا. وكل شيء يشير الى انها ستبقى دائما موضوعاً للجدال.

٦٢- وينطبق ذات الشيء ايضا عندما يشار الى اختيار الشكل الواقعي بالنسبة لطائفة علمانية.

١٠ - صيغُ تسوية النزاع

ما هي صيغة النظام السياسي التي يعتبرها اللبنانيون بأنها الأفضل لتسوية النزاعات في بلادهم؟

نسبة الموافقة %				
١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	
٩٤	٨٥	٨٢	٨٣	"لبنان يستطيع فقط ان تكون له حكومة موحدة وقوية، عندما تتمكن الدولة من تجاوز التناقضات بين اللبنانيين وبين التيارات الطائفية."
٦٦	٣٧	٧٩	٦٧	"لبنان يستطيع فقط ان تكون له حكومة موحدة وقوية، عندما تشارك الطوائف في الحكم عبر ممثليها الحقيقيين."

لهذين القولين مدلولات مختلفة. القول الأول يشدد على ضرورة تخطي الخلافات القائمة. ارتفعت نسبة الموافقة عليه بين ١٩٨١ و ١٩٨٧ من ٨٠ الى ٩٠٪. والقول الثاني يشير إلى كيفية تحقيق هذا الهدف. وهنا أيضاً تبرز اكثرية واضحة، ولكنها ليست اجماعاً على الإطلاق. فقد أيد ثلثا المستجوبين في التحقيقات الاربعة - وقد كانت النسبة اعلى ارتفاعاً عام ١٩٨٤ و ١٩٨٦ - المفهوم القائل بان البلاد يمكن ان تحكم فقط عبر تعاون الطوائف ومشاركة ممثليها الحقيقيين في الحكم.

ان ثلث المستجوبين هم غير مقتنعين، وي طرحون السؤال حول من ينبغي ان يكون هؤلاء "الممثلين الحقيقيين". الافتراض الأول يدل على ان المستجوبين القليلي التدين والتعاطف مع العائلة والطائفة، وخاصة الذين يعتبرون من انصار الاحزاب اليسارية، لا يوافقون ولا يقبلون بحكومة من هذا النوع. فلم اعتراضات مبدئية ضد نظام سياسي يقوم على مشاركة الطوائف بالحكم، لأنهم لا يريدون التعاطي اطلاقاً مع ما يسمى بالطوائف. هذه المجموعة تشكل فقط جزءاً صغيراً من الذين

يعارضون هذا الاقتراح. اما الجزء الآخر فيتألف بمعظمه مما يُسمّى "بحزب غير المقترعين". ولكن المستجوبين الذين ينتمون الى التيارات السياسية المناضلة، ايدوا هذا القول بنسبة تتجاوز ٨٠٪، اعتقاداً منهم، بان لديهم "الممثلين الحقيقيين". فاذا اخذنا بعين الاعتبار بانه منذ عدة سنوات تعتبر المجموعات المناضلة والميليشيات زعماءها كالممثلين "الحقيقيين"، عندئذ يتضح الأمر بان جزءاً من الذين رفضوا القول، ليسوا حكماً ضد مشاركة الطوائف بالحكم، ولكنهم ضد الطامحين الحاليين لممارسة دور الممثلين الاصليين.

وهكذا تشير الردود على الاستنتاج الأول بأن ردة فعل كل المستجوبين كانت ايجابية بالنسبة لشعار "تخطي الخلافات بين اللبنانيين والتيارات الطائفية". بينما الاجوبة على الاستنتاج الثاني تشير الى ان فكرة المشاركة في الحكم بين الطوائف تبدو مقبولة على الأقل من قبل الثلثين.

في عام ١٩٨٧ طلب الى المشاركين في التحقيق الاختيار بين عدد من الأقوال المفضلة^{٦٣} عن نظام سياسي جدير بالاهتمام، بهدف التمكن من الوصول الى تحليل دقيق لأرائهم حول صيغ تسوية النزاع.

٦٣- جاء في المقدمة:

توجد بلدان عديدة شبيهة بلبنان، تضم عدداً كبيراً من التجمعات - تجمعات لغوية، دينية، إثنية وغيرها. في هذه البلدان توجد أشكال حكم متعددة وآراء متباينة حول افضل طريقة لحكمها. نعرض عليكم بعض هذه الآراء. الرجاء ان تعبروا عن تلك الآراء التي تبدو لكم، عندما تفكرون بلبنان، مقبولة او غير مقبولة.

نسبة الموافقة %	
٤	"ينبغي تقسيم هذا البلد، وعلى كل مجموعة ان تبني دولتها الخاصة".
٦	"ينبغي على المجموعة الأكثر عدداً ان تحكم. وعلى المجموعات الأخرى ان تقبل بما تقرره المجموعة الأولى".
٢٠	"ينبغي على المجموعة الأقوى ان تحكم. وعلى المجموعات الأخرى ان تقبل بما تقرره المجموعة الأقوى".
١٠	"ان مجموعة ينبغي ان تحكم. والمجموعات التي ترفض ذلك عليها ان تغادر البلد".
٣٥	"ان حزباً واحداً مفتوحاً امام الجميع ينبغي ان يحكم دون معارضة".
٧١	"الجميع يصوتون للحزب الذي يريدونه. الحزب او الأحزاب التي تفوز، تشكل حكومة، وتبقى الاحزاب الأخرى في المعارضة".
٨٠	"تظراً لطبيعة المجتمع اللبناني ينبغي ان تحظى القرارات السياسية الهامة على موافقة كل الطوائف الكبرى" ^{٦٤} .

٦٤- طرحت هذه الصيغة في تحقيقات ١٩٨١، ١٩٨٤ و ١٩٨٦. وقد احتفظ بها لتسهيل امكانية المقارنة الزمنية.

يمكن استخلاص بعض العبر من هذه النتائج. لقد رُفض التقسيم بصورة أقوى مما رفضت اللامركزية الاقتصادية والكنتنة. وكذلك رفض الجميع تقريباً سيطرة المجموعة الأكثر عدداً.

ولكن فكرة هيمنة مجموعة وجدت تأييداً لدى ٢٠٪، ولدى ١٠٪ في شكلها الأعنف القائل بأن على الراضين لها مغادرة البلاد. كما توجد أقلية لا بأس بها تعتبر صيغ الحكم غير الديمقراطية مقبولة.

والأخطر من ذلك هو الاستعداد للقبول بحلول غير ديمقراطية، بالاستناد الى اختيار دولة الحزب الواحد. وقد أيد ذلك ٣٥٪ من المستجوبين.

وهكذا يتبين ان أكثرية كبيرة رفضت التقسيم وكل الصيغ غير الديمقراطية لتسوية النزاع، سواء كانت سيطرة المجموعة الأقوى أو الأكبر أو دولة الحزب الواحد. وحتى بعد مرور اثني عشر عاماً من الحرب والحرب الأهلية بقي معظم اللبنانيين ديمقراطيين.

وبالنظر الى صيغ الحكم الديمقراطية، برز استنتاج بالغ الأهمية، يشير الى ان ٨١٪ من اللبنانيين يقبلون بديمقراطية الأكثرية المحضة، ولكن ٨٠٪ يعتبرون موافقة كل الطوائف الكبيرة ضرورية بالنسبة للقرارات السياسية الهامة، وبالتالي يؤيدون المبدأ الأساسي لديمقراطية التوافق. فمبدأ الأكثرية وايضاً مبدأ التوافقية تقبل بهما أكثرية كبيرة. ولكن كيف يرتبط تأييد هاتين الصيغتين من الديمقراطية مع بعضهما، وبنوع خاص كيف تتميزان عن بعضهما. هذا ما يحتاج الى تحليل أكثر دقة.

لأبذل أولاً من تحديد معالم الذين يؤيدون الخيارات المختلفة.

الذين يؤيدون للتقسيم، يؤيدون ايضاً اللامركزية الاقتصادية والكانتونات، كما يؤيدون اعطاء الأولوية للطائفة قبل الوطن. نجد مثل هؤلاء في ضواحي بيروت المسيحية، وفي المتن، خاصة بين الموارنة، والروم الارثوذكس، والروم الكاثوليك. فهم باكثريةهم يخافون من المستقبل ويريدون "الابتعاد عن السياسة".

اما سيطرة المجموعة الأقوى عدداً فقد رُحِب بها اصحاب المستويات العلمية الدنيا، ومعظمهم من النبطية، وبعبك، والهرمل، والمتن. وعدد ضئيل من ضواحي بيروت الشيعية. انهم شديداً التدين، متضامنون عائلياً، وغير سياسيين، يعطون الأولوية لطائفتهم على الوطن، ويرفضون العلمنة. واكثريةهم تذكر اصوليين إسلاميين، ونبه بري ايضاً، كالأفضل والأقرب اليهم. فبين المستجوبين الشيعية، أيد ١١٪ هذا الخيار - ولكن ايضاً ١١٪ فقط من كل طائفة تعتبر الأقوى عددياً.

ومفهوم هيمنة مجموعة أو سيطرتها رُحِبَ به معظم المسنّين. فهم مرتبطون عائلياً وطائفيًا، ومعظمهم من انصار السياسيين المسيحيين المناضلين، أو انصار جنبلاط، أو هم من الذين يرفضون كل السياسيين. ولكنهم لا يريدون إطلاقاً الالتزام في العمل السياسي. نرى هذه الفئة بنوع خاص في الشوف، وكسروان، وكذلك في بعلبك والهرمّل، وفي المناطق التي كانت تسيطر عليها آنذاك مجموعة معينة. هؤلاء هم ظاهرياً من المتفائلين العاملين في القطاع الزراعي، غير المتعاطين في السياسة، والراضين عن عملهم ومهنتهم. يعتبرون طائفتهم الأقوى ولا يجدون شيئاً سلبياً في هيمنتها.

وتبرز بشكل مختلف تماماً المجموعة المؤيدة لصيغة هيمنة مجموعة ولتهجير المنشقين أو الرافضين إلى خارج البلاد. فالذي يؤيد هذا الخيار هو عادة من ذوي المستوى التعليمي المحدود، غير راضٍ إطلاقاً، متديّن، يعارض العلمنة ومسيّس للغاية. تسكن معظم هذه الفئة في الضواحي الشيعية، وفي المتن وبعلبك، وهي من انصار الأصوليين الإسلاميين، أو جنبلاط، أو المسيحيين المناضلين. وتؤيد بمعظمها أيضاً الكائنات الطائفية، كما تتميز بروح النضال الشعبي الجماهيري المتطرف. جاء اتباعها من المناطق التي نجحت فيها عمليات تهجير المجموعات الأخرى. وعندما يتعسّر تطبيق الهيمنة والتهجير في كل البلاد، يبقى ممكناً تطبيقها أقله في الكانتون الذاتي. هذه الفئة، التي تشكل ١٠٪ من مجموع المستجوبين، تشير إلى القوة الكامنة وراء نزاعات أخرى في لبنان. أنها فئة صغيرة، ولكنها مناضلة، موجودة في مختلف الميول السياسية المتناقضة والمتخاصمة. تشكل افكارها ودوافعها، عندما يتوفر لديها السلاح، القوة التي أفرزتها الحرب الأهلية.

الفئة التي أيدت دولة الحزب الواحد هي بمعظمها من ذوي الدخل الأدنى، من سكان الأحياء السكنية الضيقة في بيروت الغربية، وخاصة في ضواحي بيروت المسيحية.

تتألف هذه الفئة من الشباب. تؤيد باكثريتها علمنة عامة، وكذلك مجتمعاً معلماً. تنتمي بمعظمها إلى انصار الاحزاب اليسارية، والمناضلين المسيحيين، وبنسبة أقل إلى حركة أمل. ولكن المثير للاهتمام - والموضح لدافع الرغبة لإقامة دولة الحزب الواحد - هو صورة هذه الفئة من حيث انتماؤها الطائفي. فالمؤيدون هم بمعظمهم من الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك. والمعارضون هم من الدروز. انصار هذا الخيار هم بنوع خاص من الطوائف التي تمدّنت (سكنت المدن) ولم تكن لها ميليشيا خاصة تحارب باسمها. ان حزباً واحداً، منفتحاً على الجميع، يستطيع ان يوفر لها، على الأقل، حق المشاركة في التعبير عن الرأي الذي حرمت منه خلال الحرب.

فالدروز عارضوا ذلك، لأنهم في إطار مثل هذا النظام لن يتمكنوا من ممارسة تأثيرهم القوي كما يفعلون في إطار الصيغ المتعددة في التنظيم السياسي.

فالاخلافات في ردود الفعل حول خيار دولة الحزب الواحد تشير بكل وضوح اذاً الى منطق مصالح الطوائف المختلفة. وهكذا يبدو ان الحزب الواحد ايضا لا ينظر إليه إلا كحزب توافقي.

تشابك نسب التأييد لديمقراطية الأكثرية وكذلك لديمقراطية التوافق، مع بعضها كثيراً. وهي في الحالين مرتفعة. يستوجب هذا الأمر تحليلاً معيَّناً. ٧٨٪ من الذين يعتبرون ديمقراطية الأكثرية أمراً يمكن القبول به، يؤيدون أيضاً ديمقراطية التوافق. و ٧٢٪ من الذين يقبلون بديمقراطية التوافق، يؤيدون أيضاً ديمقراطية الأكثرية. لذلك يجدر الاهتمام بتوضيح معالم المجموعات الثلاث التي يفرزها هذا التشابك: أي الذين يقبلون بديمقراطية الأكثرية فقط، أو بديمقراطية التوافق فقط، أو أخيراً الأكثرية، التي تقبل هذين الشكلين من الديمقراطية. الأولى تتمثل بنسبة ١٧٪ فقط، والثانية بنسبة ٢٣٪، بينما يقبل ٦٠٪ بالأولى والثانية.

فالذين يؤيدون ديمقراطية الأكثرية ليسوا بنوع خاص مرتاحين نفسياً. انهم غير متدينين وغير متعاطفين عائلياً أو طائفيًا. يفضلون الزعماء الجدد، وخاصة زعماء حركة أمل، والحزب التقدمي الاشتراكي، وبنوع أخص الأحزاب اليسارية. هم من المعجبين بالدول الاشتراكية وبقرنسا الدولة العلمانية وذات الحكم المركزي. يطمحون الى علمنة الدولة والمجتمع. يرفضون انشاء طائفة معلنة. من المحتمل ان يكون هذا المفهوم بنظرهم تسوية كسولة، لانها تتلاءم مع منطق مصالح الطوائف. ويؤيد ذلك بنوع خاص الشيعة والدروز. ففي نظام الأكثرية المحضنة تستطيع المجموعة الكبرى ان تعتمد على افضل الحظوظ، والمجموعة الصغيرة على وضع افضل من حالها في ظلّ نظام ديمقراطية التوافق.

اما الذين يؤيدون نظام ديمقراطية التوافق فيشكلون فئة من الميسورين نوعاً ما، ويعملون بنوع خاص في الانتاج الزراعي والصناعي. هم بمعظمهم من الحذرين المحافظين ويغامرون مكرهين. يشاركون مؤيدي ديمقراطية الأكثرية بعدم رضاهم عن عملهم ومهنتهم. كما يشاركون الأكثرية التي تؤيد شكلي الديمقراطية، بالتضامن العائلي والطائفي. انهم اقل التزاماً سياسياً. لا يؤيدون اجمالاً أي سياسي. ولكن يوجد بينهم عدد لا بأس به من الاصوليين الإسلاميين والمناضلين المسيحيين. ويفعل اعتقادهم بعدم وجود غالب أو مغلوب في نزاع لبنان، ونظرتهم الى الطوائف كواقع قائم ينبغي التعامل معه، تبدو لهم حكومة تتألف من الممثلين الاصليين لكل الطوائف أمراً مقبولاً. ولكن ما لا يقبلون به إطلاقاً هو الدولة المعلنة.

أما أكثرية الذين يؤيدون معاً ديمقراطية الأكثرية ويعتبرون كذلك من الأهمية بمكان القرارات الهامة بموافقة الطوائف الكبيرة. فهم بأكثرية من مجموعات الدخل العالي والمستوى التعليمي العالي أيضاً، فهم قليلاً ما يريدون التعاطي مع السياسة الراهنة. ولا يعتقدون بخروج طرف منتصر من النزاع الحالي. ويشتركون مع الذين يؤيدون ديمقراطية التوافق، بفعل اعتبارهم الطوائف أمراً واقعاً، لا يمكن التخلص منه. ولكنهم ينظرون إلى إنشاء طائفة معلنة للذين يرغبون فيها، أمراً ضرورياً ذا أهمية بالغة. ومن حيث ميولهم السياسية، ينتمون بنوع خاص إلى تلك الفئة التي ترفض بوضوح كل السياسيين. وحتى أنصار السياسيين المسيحيين والمسلمين المعتدلين ينتمون بمعظمهم إلى هذه المجموعة.

أما صورتهم الاجتماعية ومواقفهم فتبرز بإيجاز^{٦٥} في الجدول التالي:

٦٥- تشير فقط إلى تلك المعالم التي تستطيع من خلالها المجموعات الثلاث أن تتميز إحصائياً عن بعضها بصورة بارزة.

يؤيدون ديمقراطية الأكثرية فقط	يؤيدون ديمقراطية التوافق فقط	يقبلون بالصيغتين	
المعالم الاجتماعية	فئة الشباب ذو الدخل الأدنى فئة التعليم العالي بيروت الغربية لبنان الشمالي الشبيعة الدروز	ذو الدخل الأدنى التعليم الأدنى كسروان، جبيل طرابلس، صيدا بيروت الشرقية	التعليم العالي بيروت الشرقية الشوف، عالية كسروان، جبيل
المواقف النفسية الاجتماعية	مستعدون للمخاطرة	غير مستعدون للمخاطرة غير مستعدين للتغيير يخافون من المستقبل	
مجتمع واقتصاد	حسد اجتماعي	دون حسد اجتماعي	
الدين والطائفة	غير متدينين دون تعاطف عائلي دون تضامن طائفي يؤيدون الزواج المختلط سبب النزاع الديني: الغني ضد الفقير.	متدينون تضامن طائفي يعارضون الزواج المختلط	تضامن طائفي الغني ضد الفقير ليس سببا للنزاع.
الاتجاه السياسي	الزعماء الجدد أفضل حركة أمل الحزب التقدمي الاشتراكي الاحزاب اليسارية	رفض كل سياسي المسيحيون المناضلون الاصوليون الإسلاميون	رفض كل سياسي المسيحيون المعتدلون المسلمون المعتدلون
الدين والسياسة	يؤيدون العلمنة العلمنة ممكنة الطائفة ليست أهم من الدولة	ضد العلمنة العلمنة غير ممكنة	ضد طائفة علمانية

وبصورة مبسطة يمكن وصف المؤيدين لديمقراطية الأكثرية فقط بان معظمهم من التقدميين المناضلين، والمؤيدين لديمقراطية التوافق فقط بانهم محافظون، والمؤيدين لهذين النموذجين من الديمقراطية بانهم ليبراليون.

فاستنتاج وجود اكثرية تؤيد ديمقراطية الأكثرية وكذلك ديمقراطية التوافق في لبنان، يمكن اعتباره الأهم والأكثر مغزى في هذا التحقيق. انه يثير الإهتمام لأنه يعبر عن اقتناع ثابت في النقاش السياسي بين اللبنانيين بانهم يريدون حكم أكثرية طبيعية، وليس شيئاً آخر، وكذلك الايمان الأكيد بانهم، اذا ما تركوا لوحدهم، سيعودون بسرور الى الوضع السياسي الذي كان قائماً قبل الحرب. وهذا الاستنتاج هو ايضا مهم، لأنه يمكن ان يكون المنطلق للتفكير بصيغ نظام سياسي قائمة على أكثرية قادرة، لا تبنى لا على اكثرية عددية متحجرة ولا على أكثرية التوافق المتصلبة.

هل ينطبق هذا الاستنتاج الرئيسي حول قدرة الأكثرية في هاتين الصيغتين للديمقراطية على مجموع المستجوبين فقط، او ايضا على اهم المجموعات المتفرعة عنهم؟ للتحقق من ذلك، طرح السؤال على مجموعات فرعية من مختلف المعال الاجتماعية حول تأييدها وموافقتها على النزاعات المختلفة.

اشكال تسوية النزاع حسب العمر%

السن	التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الاقوى عددا	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية ٦٦	مبدأ التوافق
١٥ - ٢٠ سنة	٣	٢٤	٩	١٣	٢٢	٦٨	٨١
٢١ - ٢٥ سنة	٥	١٧	٦	١٣	٤٥	٧٢	٦٧
٢٦ - ٣٥ سنة	٤	٢٠	٦	١٠	٣٧	٧٦	٨١
٣٦ - ٤٥ سنة	٤	١٨	٦	١١	٣٣	٧٣	٨٣
٤٦ سنة وما فوق	٣	٣٠	٨	١٠	٣٣	٧٥	٩٠
المجموع	٤	٢٠	٦	١٠	٣٥	٧١	٨٠

٦٦- التفاوت في المراحل العمرية هو هام فقط في مسألة ديمقراطية التوافق.

تبرز اكثريات واضحة سواء بالنسبة لديمقراطية الاكثرية او ايضاً بالنسبة لديمقراطية التوافق في كل المراحل العمرية. من ٢١ الى ٢٥ سنة بلغت نسبة مؤيدي الديمقراطية العددية ٧٢٪، وديمقراطية التوافق ٦٧٪. ولكن في كل المراحل العمرية الأخرى عرفت ديمقراطية التوافق اعلى نسب التأييد.

اشكال تسوية النزاع حسب الدخل %

الدخل	التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الأقوى عدداً	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية ٦٧	مبدأ التوافق
١- الدخل الأدنى	٤	١٩	٧	١٢	٤٣	٦٨	٧٢
٢	٤	١٨	٥	١١	٣٧	٧١	٧٩
٣	٣	٢٦	٥	١٢	٣٤	٧٥	٨٤
٤- الدخل الأعلى	٤	٢١	٣	٨	٣٤	٨٢	٨٤
المجموع	٤	٢٠	٦	١٠	٣٥	٧١	٨٠

بين كل مجموعات الدخل هناك اكثريات تؤيد الصيغتين الديمقراطيةيتين. ولكن ديمقراطية التوافق تحظى باعلى نسب التأييد لدى كل مجموعات الدخل. ومع ارتفاع الدخل ترتفع نسبة اختيار ديمقراطية الاكثرية العددية وكذلك ايضاً ديمقراطية التوافق.

تقبل بهذين الشكليين من الديمقراطية اكثرية واضحة ايضاً من كل الفئات ذات المستويات التعليمية المختلفة. والفئات الأعلى هي الأكثر قبولا بها. بالنسبة لخريجي التعليم العالي فان تأييد الصيغتين بلغ ذات النسب العالية. وهذا ما يدل على ان الديمقراطية العددية تحظى بتأييد أكثر منهم الساحقة ايضاً.

٦٧- تبلغ نسبة الديمقراطية العددية وديمقراطية التوافق (٠,٠٠١) (p < 0.001)

بالنسبة للمجموعات المهنية، فإن أكثريتها تقبل بالصيغتين الديمقراطيةين. ولكن ديمقراطية التوافق نالت تأييداً أكثر من قبل المستجوبين من كل الفئات المهنية.

اشكال تسوية النزاع حسب المستوى التعليمي %

المستوى التعليمي	التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الأقوى عديداً	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية ^{٦٨}	مبدأ التوافق
دون اي مستوى	٤	٢٢	١٢	١٨	٣٧	٦٤	٨٩
تعليم ابتدائي	٣	٢٢	٧	١٠	٣١	٧٨	٨١
تعليم مهني	٤	٢٢	٥	١١	٣٩	٧٢	٨٠
تعليم ثانوي	٤	٢٠	٥	٩	٤١	٧٥	٧٧
تعليم عالي	٤	١٩	٦	٨	٣٤	٧٩	٧٩
المجموع	٤	٢٠	٦	١٠	٣٥	٧١	٨٠

٦٨ - للاختبارين، النسبة هي (٠,٠٠١) ($p < 0.001$)

اشكال تسوية النزاع حسب مكان السكن والمنطقة %

مكان السكن	التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الأقوى عدياً	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية ^{٦٩}	مبدأ التوافق
بيروت الشرقية	٨	٣٧	٨	١٠	٦٥	٧٨	٩٤
بيروت الغربية	١	١٣	٢	١٣	٤٠	٧٥	٧٠
المتن	١٠	٢٦	٩	١٤	٣٥	٦٧	٧٦
كسروان-جبيل	٥	٢٤	٧	٩	٢٧	٦٩	٩١
الشوف، عالية	١	٤٣	٢	٦	١٨	٨٦	٩٢
طرابلس صيدا	٣	١٢	٣	٨	٢٩	٦٧	٨٩
لبنان الجنوبي	٧	١	١٨	٣	٣٢	٦٦	٨٣
لبنان الشمالي	٧	٢٦	١١	١٠	٣٩	٨٠	٧٠
البقاع	٢	٣٢	٧	١٣	٢٨	٧٣	٨٣
المجموع	٤	٢٠	٦	١٠	٣٥	٧١	٨٠

في كل مناطق البلاد برزت اكثريات تؤيد المفهومين. في بيروت الغربية نالت الديمقراطية العددية نسبة ٥٠٪ اكثر من ديمقراطية التوافق. وفي لبنان الشمالي زادت نسبة الأخيرة ١٠٪ على نسبة الأولى. بينما حصلت ديمقراطية التوافق على تأييد أقوى في كل المناطق الأخرى.

٦٩ - النسبة لکلي المفهومين (٠,٠٠١) ($p < 0.001$)

أشكال تسوية النزاع حسب مكان السكن، احياء بيروت والمناطق

التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الأقوى عددياً	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية	مبدأ التوافق	
١	١	١	١٢	٣٢	٧٩	٧١	رأس بيروت
١	٤٣	١	٩	٣٢	٨٤	٩٥	المصيطبة
١	٣٩	٤	٥	٦٥	٨٧	٩٦	البسطة
-	-	-	١٨	٣١	٨١	٥٦	طريق الجديدة
٤	٣٦	٤	٧	٦٤	٧٥	٩٦	الأشرقية
١٣	٣٧	١٣	١٣	٦٧	٨١	٩٢	ضواحي بيروت الشرقية
-	-	٣	٢٢	٤٤	٦٠	٦٩	الشيخ
٢	٢	٢	٩	٣٧	٦٩	٥٦	حارة حريك
٦	-	٣	١٠	٣٤	٦٤	٥٩	برج البراجنة
-	٢	٥	١٩	٤٨	٧٠	٥٢	الجناح
١٠	٢٦	٩	١٤	٣٥	٦٧	٧٦	المتن
٤	٤٢	٢	١٥	٤٢	٧٣	٩٣	كسروان
٦	٣	١٢	٣	١١	٦٥	٨٩	جبيل
١	٤٣	٢	٦	١٨	٨٦	٩٢	الشوف-عالية
-	٩	٤	٧	٣٦	٥٢	٩٢	صيدا
٨	-	٢٩	٣	٢٧	٦٨	٧٩	النبطية
٥	٣	-	٣	٤٠	٦٢	٩٠	جزين
٢	٢٢	١	١٠	٣٥	٧١	٨٠	البقاع
١	٤٩	١٨	١٨	١٧	٧٦	٩١	بعلبك-الهرمل
٦	١٧	١	١٠	٢١	٨٤	٨٦	طرابلس
٧	٢٧	٨	١٢	٣٨	٧٣	٨٣	الكور-مزرعنا
٤	٢٠	٦	١٠	٣٥	٧١	٨٠	المجموع

فحسب الأحياء السكنية في بيروت وحسب المناطق تؤيد الأكثرية صيغتي الديمقراطية (راجع الجدول السابق). ولكن نسبة الديمقراطية العددية بلغت القمة في رأس بيروت، وطريق الجديدة، وحارة حريك، وبرج البراجنة والجناح الوزاعي. كما بلغت نسبة ديمقراطية التوافق القمة في كل أحياء بيروت الأخرى وفي باقي مناطق البلاد.

أشكال تسوية النزاع حسب الطوائف الدينية %

السنة	التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الأقوى عددياً	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية ٧٠	مبدأ التوافق
السنة	٢	٢١	٢	٨	٣٦	٧٦	٨٥
الشيعة	٢	١١	١١	١٣	٣٥	٦٩	٦٩
الدروز	٤	٢٣	١	١٣	١٦	٨٨	٧٧
الموارنة	٧	٢٧	٦	١٠	٣٩	٧٦	٨٥
الروم	٥	٣١	٦	١٣	٥٠	٧٣	٨٥
الكاثوليك	٦	٢٥	٥	٨	٤٢	٧٣	٨٠
الارمن	٣	٢٩	٧	٤	٣٤	٧٢	٧٦
المجموع	٤	٢٠	٦٠	١٠	٣٥	٧١	٨٠

يؤيد المستجوبون من كل الطوائف الدينية باكثريتهم الديمقراطية العددية وكذلك ايضاً ديمقراطية التوافق. الدروز يؤيدون بنسبة ٨٨٪ الديمقراطية العددية وبنسبة ٧٧٪ ديمقراطية التوافق. وتبرز لدى اتباع كل الطوائف الأخرى نسبة تأييد لديمقراطية التوافق اعلى من نسبة تأييد الديمقراطية العددية.

٧٠- تتميز الطوائف بصورة بالغة في مسألة التوافق فقط.

أشكال تسوية النزاع حسب الميول السياسية %

التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الأقوى عددياً	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية ٧١	مبدأ التوافق
لا جواب	٣	١٧	٧	١٢	٣٨	٧٣
رفض أي سياسي	٥	٣٣	٥	٨	٣٨	٧٨
المسيحيون المعتدلون	٤	١٧	٧	٥	٣٠	٧٩
المسلمون المعتدلون	٣	٢٨	٢	٧	٢١	٧٧
المسيحيون المناضلون	٨	٣٩	٨	١٢	٥٢	٦٤
حركة أمل	٣	١٣	١١	٤	٤٠	٦٥
الحزب الاشتراكي	٧	٢٦	٤	١٣	٢٠	٨٦
الاحزاب اليسارية	٢	٥	٢	٩	٥١	٨٦
الاصوليون الإسلاميون	٣	٣	١٢	٥٥	٢٧	٢٤
آخرون	٤	١٣	٤	٦	٢٩	٩٢
المجموع	٤	٢٠	٦	١٠	٣٥	٧١

٧١- للاختبارين النسبة هي (٠,٠٠٠١) ($p < 0.001$)

بالنسبة للميول السياسية تبرز استثناءات عامة. فلدى المستجوبين المؤيدين للأحزاب اليسارية (٢٪ من مجموع العينة)، هناك نسبة ٢٣٪ لا تؤيد مبدأ التوافق. ولكن أنصار اليسار يؤيدون بنسبة ٦٨٪ ديمقراطية الأكثرية العددية، و ٥١٪ دولة الحزب الواحد. وبالمقابل يقبل الاصوليون الاسلاميون بنسبة ٩١٪ مبدأ التوافق، ولكنهم يرفضون ديمقراطية الأكثرية العددية بنسبة ٧٥٪. وبين اصحاب الميول السياسية الأخرى تبرز أكثريات واسعة تقبل بالصيغتين. ولدى أنصار الحزب التقدمي الاشتراكي تبرز نسبة تأييد الديمقراطية العددية أعلى من نسبة تأييد ديمقراطية التوافق. وبالنسبة لأنصار حركة أمل تتساوى النسب. ولدى كل الميول السياسية الأخرى يحظى مبدأ التوافق بالأكثرية.

وتجدر الإشارة هنا الى ان المسيحيين المناضلين يقبلون بدولة الحزب الواحد بنسبة ٥٢٪ وبسيطرة "المجموعة الأقوى" بنسبة ٣٩٪ - بالإضافة الى تأييد أكثرية ساحقة منهم لمبدأ التوافق.

أشكال تسوية النزاع حسب مناطق السيطرة العسكرية %

مناطق	التقسيم	سيطرة المجموعة الأقوى	سيطرة الفئة الأقوى عددياً	سيطرة فئة فقط	دولة الحزب الواحد	الأكثرية العددية	مبدأ التوافق
الميليشيات المسيحية والجيش اللبناني	٥	٢٠	٥	١٠	٤٠	٧٣	٧٨
الجيش السوري: أكثرية مسيحية	٥	٢٨	٧	١١	٤١	٧٣	٨٢
الجيش السوري: أكثرية اسلامية	٣	٢٤	٦	١٣	٣٩	٧٦	٨٢
الميليشيات الدرزية	٣	٣٤	٢	١٢	٢٣	٨٥	٨٣
الميليشيات الشيعية	٤	٥	١٣	٧	٣٥	٦٦	٧٨
المجموع	٤	٢٠	٦	١٠	٣٥	٧١	٨٠

في المناطق الواقعة تحت سيطرة عسكرية مختلفة تبرز أكثرية تقبل بصيغتي الديمقراطية. فقط في منطقة الميليشيات الدرزية هناك تفضيل بنسبة ٨٥٪ للديمقراطية العددية مقابل ٨٣٪ لديمقراطية التوافق حسب السيطرة العسكرية.

وبصورة عامة يمكن التأكد بان الاستنتاج المركزي، أي قبول الأكثرية بالديمقراطية العددية، وكذلك أيضاً بديمقراطية التوافق، هو من الثوابت القائمة لدى كل المجموعات حسب الفئة العمرية، والدخل، والمستوى التعليمي، والمهنة، في كل المناطق، وفي كل احياء بيروت، وكذلك لدى كل الطوائف.

من هذا الاستنتاج المركزي تبرز فئتان فرعيتان. الأولى تضمّ المستجوبين الذين ينتمون الى احزاب اليسار. فهي ترفض مبدأ التوافق. والثانية تضمّ الذين ينتمون الى الميول الاصولية الإسلامية، وتؤيد مبدأ الديمقراطية الاكثرية. وكلا المبدأين مستساغان نظراً لصورة وتوجهات هذين التجمعين. رغم انهما لا يمثلان في العينة سوى ٤٪. حتى وان تضاعفت هذه النسبة مرة او مرتين على مستوى كل السكان اللبنانيين - وهذا امر غير مؤكد اطلاقاً - فلن يغير ذلك شيئاً ابدأ بالنسبة الى النتيجة العامة.

والنتيجة الهامة الثانية تكمن في ان نسبة تأييد مبدأ التوافق تتخطى نسبة القبول بمبدأ الديمقراطية التعددية بصورة عامة، حتى لدى الفئتين الفرعيتين المشار اليهما اعلاه. اما الأمر المعاكس فيبرز لدى الفئة العمرية من ٢١ الى ٢٥ سنة، والمؤلفة من المستجوبين من مختلف احياء بيروت الغربية (رأس بيروت، طريق الجديدة، حارة حريك، برج البراجنة والجناح-الاوزاعي)، وكذلك لدى الدروز وانصار الحزب التقدمي الاشتراكي والاحزاب اليسارية. ولكن لدى كل هذه التجمعات الفرعية، باستثناء جماعة الاحزاب اليسارية، تبرز ايضاً أكثريات تقبل ايضاً بديمقراطية التوافق. والتفاوت بين الاكثريات المؤيدة لهذا او ذاك المبدأ ضئيل جداً.

كيف يمكن بالاختصار تفسير وتقييم هذه النتائج؟

يرغب كل اللبنانيين تقريباً في التمكن من تجاوز الانقسامات في مجتمعهم، وتشكيل حكومة قوية وقادرة على العمل. ويعتقد ثلثا اللبنانيين بإمكانية تأليف حكومة متساوية اذا ما تمثل فيها الزعماء الحقيقيون للطوائف. وقسم من الثلث الباقي لا يوافق مع الذين مازالوا يتمسكون بمثل هؤلاء الزعماء، او الذين يفرضون أنفسهم كأنهم الزعماء الأصليون. ولكن قسماً آخر، وهو مجموعة مناضلة، يرفض مبدأ تمثيل الطوائف في الحكومة رفضاً مطلقاً.

لم نحظ كل الاقتراحات غير الديمقراطية كشكل من أشكال تسوية النزاع الا على تأييد اقلية فقط. ففكرة تقسيم البلد أيديتها مجموعة صغيرة جداً، غير مرتبطة بمعظمها بالسياسة، وتعيش في حالة من الخوف. اما فكرة سيطرة المجموعة الأقوى عددياً فلم تجد ايضاً صدى الا لدى عدد قليل من المستجوبين، ومعظمهم من الشيعة الريفين. ولكن لم يطالب بها احد جذباً. وبالنسبة لدولة الحزب الواحد فقد أيديتها اكثرية ضئيلة سواء بين المسيحيين المناضلين او بين اليساريين، ولكن لا يرغب اي من الفريقين بذات الدولة او الحكومة المؤلفة من حزب واحد. وقد وجدت بالتالي هذه الفكرة بعض التأييد لدى أعضاء الطوائف المسيحية، التي لم يكن لها آنذاك اية ميليشيا ولا سلطة في مكان ما، ولكنهم يفضلون الصيغ الديمقراطية كحل للنزاع.

وبصورة عامة، تعني الإجابة "نعم" على حكومة الحزب الواحد من قبل ثلث المستجوبين بالدرجة الأولى تعبيراً عن الموافقة على كل حل، مهما كان نوعه، شرط أن يوضع حد لاستمرار الحرب.

وتعتبر الميول الى الحلول الهادفة الى سيطرة مجموعة على البلد من المسائل التي تعقد تطوره المستقبلي. فهذا الاقتراح يشكل بقسم منه تصوراً يهدف الى سيطرة اقليمية على كل البلاد. ولذا ينبغي تفسيره كفكرة لا قيمة لها ولا مغزى. ولكن هناك مجموعة تشكل ١٠٪ من المستجوبين، تؤيد صيغة السيطرة التي ينبغي فرضها بنوع من الضعف البارز. انها مجموعة متطرفة جداً، ضعيفة اقتصادياً، لا ترى اية مشكلة في تأييد فكرة تهجير الاعداء. وبما ان هذه المجموعة تتوزع على مختلف الميول السياسية المتخاصمة والمتناقضة، فمن المؤكد ان مثل هذا "الحل" في البلاد كلها سيعارض بشدة. فلكل قوة سياسية داخلية او خارجية مصلحة في استمرار التوتر، تسعى اليه مجموعة او مجموعات اذ تتقدم بمثل هذه المطالب التي تعتبر مبرراً يدعم اهدافها. فلا سيطرة مجموعة ما ولا تهجير الذين لا يرضخون لها يوقر احتمالاً ممكناً لكل لبنان، بل يشكل سيناريو لبعض أجزاءه، كما حصل حتى الآن. فالقوى الفاعلة لممارسة لعبة الرعب كانت متوفرة، كما تشير الى ذلك نسبة التأييد البالغة ١٠٪.

ولكن رغم كل الممارسات الرهيبة والمرعبة التي حصلت منذ اندلاع الحرب، فان الاكثريات الكبيرة المؤيدة للصيغ الديمقراطية لتسوية النزاع تبدو ذات مغزى بارز الأهمية. فقد برزت مجموعة تقدمية مناضلة بنسبة ١٧٪ تؤيد حلاً قائماً على اعتماد ديمقراطية الاكثرية فقط، كما برزت مجموعة أخرى محافظة بنسبة ٢٣٪، تؤيد كذلك اعطاء حق الفيتو للطوائف، والمشاركة في السلطة من قبل كل المجموعات القائمة. وهناك اكثرية ليبرالية من كل المستجوبين تؤيد هاتين الصيغتين. ففي حال تطبيع العمل الديمقراطي في لبنان، وحصول انتخابات واستفتاءات شعبية، فلن يكون هناك اي شك في اختيار احدى هذه الحلول. فالأكثرية الليبرالية تستطيع ان تتكامل اما مع المجموعة الديمقراطية التقدمية او مع المجموعة الديمقراطية المحافظة، او انها ستبحث عن صيغة تجمع بين ديمقراطية الاكثرية العديدة وديمقراطية التوافق.

ولكن في الوقت الراهن لا توجد اية عملية سياسية طبيعية في لبنان. فالقوى الليبرالية والديمقراطية ليس لها ممثلين فعليين ومعترف بهم يستطيعون التعبير عن النتائج التي افرزها هذا التحقيق. فالأقليات المناضلة تستطيع شل واحباط كل محاولة تهدف الى تطبيق مبدأ ديمقراطية الاكثرية العديدة او العودة الى النظام السابق او

انشاء ديمقراطية توافقية اصلاحية. تستطيع هذه الاقليات تعطيل كل ذلك طالما تؤخذ القرارات بقوة السلاح او الضغوط وليس بفعل الانتخابات الحرة.

١١ - حظوظ التعايش

كيف يرى اللبنانيون الحظوظ التي تستطيع ان تلبي رغبتهم لتجاوز النزاعات الحاضرة ولتحقيق تعايش ديمقراطي؟ هل يعتقدون فعلاً بان التعايش بين مختلف المجموعات ممكناً او غير ممكن؟ وهل ان التعايش مازال ممكناً بعد كل ما حصل اثناء الحرب في لبنان؟ هل مازالت هناك قناعات وعلاقات انسانية بين المجموعات السكانية، تستطيع، في حال سمحت لها الظروف الخارجية، ان تشكل اساساً لإعادة البناء وللعيش المشترك؟

حول السؤال عن الإمكانية الأساسية للتعايش بين مجموعات مختلفة جاءت ردود فعل اللبنانيين مبهمة ومزدوجة.

نسبة الموافقة %	
٥٣	"سواء اردنا ذلك ام لا، المجموعات اللغوية او الدينية، او الاثنية، او العرقية، التي تعيش معاً في بلد واحد، تستطيع فقط اما ان تسيطر او ان يُسيطر عليها".
٧٠	"المجموعات الشديدة التباين دينياً او اثنيّاً او لغوياً او عرقياً، تستطيع العيش معاً في ذات البلد، تقبل بعضها بعض وتحترم حقوقها المتبادلة".
٦٤	"وجود مجموعات ذات تقاليد مختلفة في بلد ما هو مصدر ثروة وفائدة مجتمعية".

يعتبر أكثر من نصف المستجوبين سيطرة مجموعة ما أمراً لا مفرّ منه. ولكن أكثر من الثلثين، يعتبر أيضاً الاحترام المتبادل لحقوق كل المجموعات أمراً ممكناً. وكذلك يشعر حوالي الثلثان بان التعايش بين المجموعات هو إثراء انساني. فقد أيد

قسم من المستجوبين إذاً الاستنتاجات التي تستبعد نفسها بالتبادل. فهل يكمن بالنسبة للحالة الأولى خطر في النظرة المؤسفة الى ما لا مفرّ منه، وفي الثانية الى الرغبة في اتخاذ القرار الحاسم؟

ان الذين يؤيدون مفهوم حتمية السيطرة ينتمون الى الفئات ذات الدخل الأدنى، والى ذوي المستويات التعليمية الدنيا. فهم يعيشون في الشوف، وفي كسروان، وفي البقاع، اي في مناطق كانت تسيطر عليها فعليا مجموعة معينة. اما من حيث الانتماء الطائفي، فهم ينتمون بنوع خاص الى الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك. وهما مجموعتان اختبرتتا سيطرة مجموعات أخرى، وسيختبرونها بعد. وتجدر الإشارة الى ان المستجوبين الذين يعيشون في مناطق واقعة تحت سيطرة الجيش السوري، وخاصة الميليشيات الدرزية، يفضلون السياسيين المسلمين المعتدلين او لا يحبّون اي سياسي على الإطلاق، ومنهم من يعتقد غالبا بالسيطرة كما هي بالنسبة للذين يعيشون في مناطق نفوذ الميليشيات الشيعية. وبالاختصار، تعبّر هذه النظرة عن رؤيا استسلامية امام الوقائع. ولكن هناك مجموعة أخرى تؤيد السيطرة، وتتألف من فئات مستعدة للتغيير، لا تخاف المستقبل، وراضية عن وضعها الاقتصادي. فهي تعتقد بإمكانية الانتصار، وتؤيد اللامركزية الاقتصادية، والكانتونات الطائفية. تضع المصالح الطائفية فوق مصالح الوطن. وهي غير مقتنعة بان ارض لبنان كلها تعود الى الجميع. تتألف هذه الفئة ظاهريا من أناس، لا يقبلون فقط بالسيطرة، بل يعتبرونها امراً مرغوباً به. فهم بأكثرية من الاصوليين الإسلاميين والمناضلين المسيحيين.

فاذا كانت المجموعة الأولى سيئة الحظ، وتؤيد السيطرة بدافع القهر والمرارة، فان المجموعة الثانية تعبّر عن ارتباطها او عن رغبتها بالسيطرة.

اما طرح امكانية التعايش على أساس احترام متبادل للحقوق، فقد أيده مستجوبون من كل فئات الدخل، ومن ذوي المستويات التعليمية الجيدة. فهم أقل تضامنا وتعاطفا مع العائلة والطائفة. يقبلون بمعظمهم بالزواج المختلط ويطالبون بالعلمنة. تعيش اكثرية في احياء المدن والمناطق حيث ما تزال طوائف مختلفة تتعايش معاً، مثلما كان الحال في رأس بيروت وطريق الجديدة، وفي المتن وجبيل، ولكن ايضاً في مدن الجنوب والشمال. تتألف هذه الفئة بنوع خاص من اليساريين والمسيحيين المعتدلين، وفي قسم منها، من انصار حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي.

"التقاليد المختلفة هي مصدر ثروة انسانية."

يؤمن بذلك الذين كانوا يعيشون يوماً مع فئات من طوائف مختلفة. برزت اعلى نسبة لهؤلاء، مرة أخرى، في منطقة رأس بيروت، التي، كما يبدو، لم تفقد بعد طابعها الكوسموبوليتي، وكذلك في جبيل. وجاءت أقل نسبة في كسروان (٣٣٪) وفي الشوف (٣١٪). وهذا أمر يُميز الثقافات الطائفية الأحادية.

استنتج اجمالاً وجود اكثرية واضحة تؤمن بمبدأ امكانية التعايش. برز هذا الاقتناع، بالدرجة الأولى، في المواقف الليبرالية لدى المجموعة العلمانية، وكذلك لدى الذين مازالوا يقطنون في مناطق مختلطة السكان. بالمقابل، برز تحفظ واضح حول هذا الأمر لدى الذين كانوا يسيطرون على مناطق جغرافية، او يريدون السيطرة، وكذلك بين الذين لم يعرفوا أي تعدد ثقافي في مناطقهم. وقد زاد عدد مثل هذه المناطق منذ اندلاع الحرب.

هل يعتبر اللبنانيون التغييرات السياسية الأساسية أمراً محتملاً ام لا؟

نسبة الموافقة %	
٥٢	"ان قوة الطوائف المختلفة تجعل من كل تغيير جوهري في النظام السياسي أمراً ممكناً على المدى البعيد".
٣٥	"لا يبدو الأمر هكذا. ان تغييراً للنظام السياسي أمر ممكن في المستقبل القريب"

امكانيات التغيير على المدى البعيد يعتبرها اكثر من نصف المستجوبين ممكنة، وتلثم فقط على المدى القصير. اعتبار الاولين يستند بنوع خاص الى الانتماء الطائفي والاتجاه السياسي. وفي التأييد كما في الرفض تبدو الرغبة وكأنها مصدر التفكير. يشكل الروم الارثوذكس والموارنة اكثرية قوية لا تعتقد بامكانية تغيير امور جوهرية في النظام السياسي (٧٠ و ٦٣٪)، بينما أيد هذا الاتجاه ٢٦٪ فقط من الدروز و ٤٠٪ من الشيعة. اما اليساريون، وانصار الحزب التقدمي الاجتماعي، والاصوليون الاسلاميون، وانصار حركة أمل، فاعتقد معظمهم بتغيير على المدى البعيد.

وبالنسبة للتغيرات على المدى القصير، اعتبرت أنها ممكنة فئات من جماعة الدخل الكبير أو من ذوي المستوى التعليمي العالي، والذين يعيشون غالباً في ضواحي بيروت الشرقية وفي المتن. فهم بمعظمهم من الدروز والموارنة، ومن المسلمين المعتدلين، ومن انصار جنبلاط، وانصار السياسيين المسيحيين المعتدلين. يتعلق الأمر هنا بنوع خاص بفئات متفائلة ذات وضع جيد نسبياً، واثقة بنفسها، وذات اتجاه علماني. تأمل هذه الفئات من الكانتونات القائمة حدوث استقرار وارتياح ونهضة اقتصادية جيدة. ولكن عارض هذا الاتجاه مستجوبون من ضواحي بيروت الجنوبية ومن مناطق الجنوب المتوترة.

وبينما التوجهات البعيدة المدى للتغيير أو القبول بالأمر الواقع تفرضها الرغبات والآمال التي تتوزع بصورة مختلفة حسب الطوائف والميول السياسية، فإن التوقعات القصيرة المدى تتأثر بمعظمها بالوضع الأمني الإقليمي والمحلي. فالذي يعيش في مناطق آمنة في ظل وضع تسلطي واضح المعالم، والذي يعيش بحال جيدة في هذا الإطار، يعتقد بان الأوضاع المريحة بنظره تستطيع قريباً ان تتحول الى نظام سياسي جديد، بينما يسود التشاؤم في المناطق غير الآمنة ولدى الفئات ذات الوضع الضعيف اقتصادياً واجتماعياً.

ولكن بصورة عامة يسيطر المفهوم الذي يشير الى صعوبة انتظار قيام نظام جديد على المدى القصير.

كيف حكم اللبنانيون عام ١٩٨٧ على امكانيات النصر والهزيمة، وكيف كانوا يقيمون معنى التضحيات التي طلبت منهم، او فرضت على معظمهم سابقاً، والتي ستفرض عليهم لاحقاً.

نسبة الموافقة %	
٧٢	"تساعد قوة وحزم مجموعتنا على تحقيق اهدافنا".
٦٢	"لا يعطي الانتصار اية قيمة للتضحيات والخسائر، التي تهدد طائفتي".
٧٧	"في الصراع بين الطوائف المختلفة في بلادنا، ستخرج كلها منه مغلوبة".

مرة أخرى تبدو الأجوبة لأول وهلة غامضة، وحتى متناقضة. فقد اعتقد ٧٥٪ تقريباً بانتصارهم، وحوالي الثلثان بان مثل هذا النصر لا يستحق الأهمية، وأكثر من ٧٥٪ بانهم جميعاً في النهاية مغلوبون.

ولكن التحليل التالي يدل على ان التناقضات هي اقل مما بدت في البداية. فالاعتقاد بالنصر عبّر عنه بنوع خاص ذوو المستوى التعليمي الضعيف. وهم بنسبة ٩٠٪ من الدروز والشيعية. يسكنون بيروت الغربية والشوف. انهم بمعظمهم من الفئات الشعبية المتشائمة يتميّزون بضعف في القدرة، مضطربون، متديّنون، متعاطفون مع العائلة، وغير مستعدين للقبول بالعلمنة. ولكن أكثر من نصفهم لا يعتقد بان النجاح يستحق التضحيات والخسائر. و ٩٠٪ تقريباً كانوا يعتقدون بإمكانية استمرار التعايش، و ٨٥٪ بان كل الطوائف ستخرج من الحرب مغلوبة وخاسرة. وبالاختصار، تفكر اكثرية المتأكدين ظاهرياً من النصر بهذه الطريقة بغية استعادة قوتها وشجاعتها، رغم انها كانت تعيش وضعاً رديئاً جداً.

وهناك ١٥٪ من المستجوبين يندمج في نظرهم الاقتناع الممكن بالنصر والاتجاه بان التضحيات والخسائر هي محقة في سبيل هذا النصر، مع المعالم الأخرى المرتبطة بالنضال الشديد. يتميّز هؤلاء برفضهم لكل الزعماء السياسيين القدامى. فهم شديداً التسيس. لا يريدون "البقاء على بساطهم"، ويرفضون كل أشكال العلمنة، ويعارضون الزواج المختلط والجيران من الطوائف الأخرى. ينتمون بمعظمهم الى انصار الأصوليين الإسلاميين، وحركة أمل، والحزب التقدمي الاشتراكي، والمسيحيين المناضلين واليساريين. وهكذا يتبيّن ان العناصر المناضلة لدى كل الأطراف، تشكل النواة القاسية للمقتنعين بإمكانية الغلبة والنصر.

النصر لا يستحق التضحيات والخسائر المطلوبة. هذا هو رأي اكثرية كبيرة تختلف عن الفئة المقتنعة بإمكانية النصر ظاهرياً او واقعياً. تتألف من الروم الارثوذكس (٧٣٪)، والسنة (٦٨٪)، والروم الكاثوليك (٦٦٪). برز هذا الموقف لدى هؤلاء أكثر مما برز لدى الشيعة والموارنة والدروز. الطوائف الثلاث الأولى التي يتألف منها أصلاً معظم سكان المدن، عانت أكثر من الجميع ويلات الحرب. فهي لم تنتظر شيئاً من النصر، لأنها لا تمتلك اية ميليشيا.

في هذا المجال برزت تباينات هامة وفقاً للميول السياسية. فالتأييد الكبير لهذا القول أتى من جانب انصار المسيحيين المعتدلين والمسلمين المعتدلين الذين يعرفون جيداً أن لا حظ لهم بالنصر. كذلك وافق ثلثا انصار حركة أمل على ذلك، بينما وصلت نسبة التأييد لدى المسيحيين المناضلين الى ٥١٪، ولدى انصار الحزب التقدمي الاشتراكي الى ٤٦٪، ولدى الاصوليين الاسلاميين الى ٢٤٪.

اخيراً، هل تعتبر كل الطوائف اللبنانية مغلوقة؟ نعم، هذا ما عبّر عنه ٧٥٪ من المستجوبين. ولكن أقل نسبة برزت لدى الدروز (٦١٪)، أي الطائفة الوحيدة التي أحرزت عملياً بعض المكتسبات. وثالثها نسبة تتجاوز ٥٠٪ في جنوب البلاد حيث لم يكن الوضع آمناً عام ١٩٨٧.

كيف رأى المستجوبون، رغم نسبة آمالهم بالنصر وتخوفاتهم من الخسارة، امكانيات التعايش الواقعية في لبنان؟

١٩٨٧	١٩٨٦	٧٢١٩٨٤	
٢١	٤٤	٤٨	"في الأشهر الأخيرة جرت أحداث مؤلمة جداً. لذلك اتخوف من ان يصبح التعايش بين مختلف الطوائف صعباً جداً".
٧٥	٦٩	٧٩	"رغم كل ما حدث مازال بإمكان اللبنانيين التفاهم بين بعضهم عندما تتوقف القوى الخارجية عن التدخل بأمورنا وقضايانا".
٨٦	٧٩	٨٢	"رغم الأحداث المؤلمة جداً التي حصلت في الأشهر الأخيرة، اعتقد ان التعايش بين الطوائف مازال دائماً ممكناً".

بعد الانخفاض البارز بين ١٩٨٤ و ١٩٨٦ ارتفع الايمان بإمكانية التعايش بين اللبنانيين مجدداً الى مستوى عال بارز للغاية. ان الموافقة هنا، حيث الأمر يتركز على الوضع اللبناني الواقعي، هي اعلى مما هي بالنسبة للقضايا الأكثر أهمية والمسائل العمومية المتعلقة بالتعايش بين مجموعات في بلدان تضم طوائف مختلفة، والتي جرى تحليلها سابقاً. ولا بد من الإشارة الى زيادة نسبة المستجوبين الذين أيدوا إمكانية التعايش دون اعتبار توقف التدخلات الخارجية كشرط لها. وهذا دليل على ان هذه التدخلات لا ينظر إليها سلبياً فقط.

لقد أصبح التعايش صعباً. هذا ما أيدته أكثرية من المستجوبين من ذوي الدخل المنخفض جداً، ومن اتباع الطوائف المسيحية في جنوب البلاد. ومن المعلوم ان هذه الفئات والمجموعات كانت الأكثر استهدافاً في النزاعات الصعبة التي حصلت قبل عام ١٩٨٧.

وقد أيد التفاهم والتعايش دون تدخل أكثر فاكثر المسيحيون والسنة، وبنسبة أقل، الدروز والشيعية الذين منذ عام ١٩٨٤ استفادوا كثيراً من المساعدات الخارجية.

ويؤمن بالتفاهم والتعايش بكل بساطة اتباع الطوائف الإسلامية بنسبة تتجاوز ٩٠٪، بينما بدا المسيحيون أكثر تحفظاً وحذراً. ولكنهم أيدوا ذلك بنسبة ٨٠٪.

رغم كل الاختلافات والتباينات في الرأي التي جرى ابرازها سابقاً حول مسائل عديدة، مازال الايمان بالتعايش، الذي استنتج لدى كل الفئات الاجتماعية وكل الطوائف، يجد أسسه في بعض الثوابت والآمال الأساسية التي بقيت، حتى خلال سنوات الحرب، ثابتة لم تتغير.

فالأقوال حول هذا الموضوع وضعت للمرة الأولى في التحقيق الذي جرى عام ١٩٨١. لقد كان تأييدها مرتفعاً، حتى انه كان بالامكان التخلي عنها في العمليات العادية من البحث الاجتماعي التجريبي.

ولكن جرى الاحتفاظ بها، لأنه في ظل الأوضاع غير العادية في لبنان، لم يكن من المؤكد إطلاقاً استحالة تغيير المواقف، وخاصة أنها تبرز، عكس ما كانت توحيه صورة لبنان المعروفة كمجتمع عميق التمزق، الرابط الذي مازال يجمع بين سكان هذا البلد:

نسبة الموافقة %				
١٩٨٧	١٩٨٦	١٩٨٤	١٩٨١	
٩١	٨٨	٨٢	٩٢	"ان الديانات السماوية مثل المسيحية والإسلام تؤمن بذات الإله وتعلم مبادئ أخلاقية واجتماعية متشابهة"
٧٤	٩٢	٩٠	٨٧	"الفصل بين المناطق اللبنانية ليس طبيعياً. سيزول حالما تنتهي الأزمة"
٩٨	٩٦	٩٦	٩٦	"الصديق الحقيقي هو صديق حقيقي، سواء كان اسمه جورج او محمد"

الاقتناع بالثوابت المشتركة بين الديانتين، عرف عام ١٩٨٤ صدمة قوية ولكنها محدودة، كردة فعل على اول دخول للأصولية الإسلامية الى لبنان. ولكن سرعان ما انجالت الأمور وتبين ان الاصولية الإسلامية والإسلام لا يمثلان ذات الشيء بنظر الأكثرية الساحقة من المسلمين اللبنانيين. وقد تمثل ذلك من جديد بنسبة اعلى مما كانت سابقاً^{٧٣}.

بالنسبة للإيمان باعادة توحيد لبنان، جاءت نسبة الموافقة عام ١٩٨٧ اقلّ بقليل مما كانت في التحقيقات السابقة. يعود ذلك الى التغيير الذي ادخل في صياغة الأسئلة. بين عام ١٩٨١ و ١٩٨٦ طرح السؤال حول اعادة توحيد بيروت^{٧٤}. اقل الذين عبّروا عن ايمانهم باعادة التوحيد كانوا المستجوبون من الجنوب، الذين بدوا أكثر حذراً بالنسبة الى نهاية الفصل او العزل الحاصل في اقصى الجنوب، اي المنطقة التي تسيطر عليها اسرائيل. ومن المحتمل ان يكونوا على حق في مواقفهم.

اما العلاقات الانسانية بين الطوائف، رغم الحدود المصطنعة والمفروضة عبر الحدود، فيبدو انها لم تتأثر اطلاقاً بسبب احداث الحرب خلال فترات التحقيق. اخيراً

٧٣- جاءت معظم الأجوبة السلبية على لسان المستجوبين غير المتكئين.

٧٤- "الفصل بين شرقية وغربية" غير طبيعي...

يضاف الى الاقتناعات الأساسية التي تميّز الثقافة السياسية اللبنانية، الاقتناع بضرورة التسويات بالاستناد الى معطيات واقعية:

"في الوضع الراهن تفرض قوّة الطوائف المختلفة ضرورة البحث عن تسوية والوصول الى تفاهم".

هذا ما أيّده ٩٢٪ من المستجوبين.

أيّد اللبنانيون، باكثريتهم الساحقة، وكما أشارت كل التحقيقات، امكانية التعايش بين كل الطوائف في بلادهم. وهذا التأييد او الاقتناع، بعد ١٢ سنة من الحرب، هو مؤشر ايجابي للغاية.

فضلاً عن ذلك، برزت بعض المؤشرات الإستسلامية. اكثر من ٥٠٪ كانوا يخافون من ان تصبح سيطرة مجموعة ما أمراً لا مفر منه في مجتمعات متعددة الطوائف. ولكن لم تتمنّ هذه السيطرة الا مجموعة ضئيلة. هذا وقد اعتبر ثلثا المستجوبين بان التعايش في ظل الاحترام المتبادل ممكن، وان التقاليد المختلفة الموجودة هي مصدر ثروة انسانية. اما التعبير على المدى البعيد للنظام السياسي فهو امر ممكن برأي نصف المستجوبين تقريباً، وبرأي ثلثهم على المدى القصير. هذا ولم يُشر الى أية حركة ثورية عام ١٩٨٧. ومن بين الثلثين الذين عبّروا عن ثقتهم بالنصر، يشكل ١٥٪ تقريباً منهم نواة من المناضلين المتصلبين. كما يعتقد الثلثان تقريباً بان النصر لا يستحق التضحيات والخسائر التي تقدّم. كذلك اعتقد ٧٥٪ ايضاً بان كل الطوائف ستخرج مغلوبة من الحرب.

وحول السؤال عن الوضع العملي في لبنان، اعتقد ٩٠٪ بان التعايش بين الطوائف مازال ممكناً. المعطيات المشتركة بين الديانتين الكبيرتين وامكانية الصداقات عبر حدود المجموعات شدّد عليها وأيّدتها أكثر من ٩٠٪. وفي ذات الوقت اعتبر أكثر من ٩٠٪ التسويات والتفاهم بين الطوائف أمراً ضرورياً.

تدلّ هذه الثوابت على ان تأييد الأكثرية للديمقراطية والتوافق ليست اراءً سياسية هامشية او معزولة، ولكنها تعتمد على ثقافة سياسية واعية بالنسبة للتعايش والتسويات. وقد بقيت ثابتة حتى بعد سنوات طويلة من الحرب.

١٢ - تعايش في ظل اوضاع شديدة التأزم

حصل تحقيق عام ١٩٨٤ بين شهر كانون الثاني وشهر نيسان. في السابع من شباط من تلك السنة اندلعت معارك شديدة في بيروت وفي الجبل. في تلك الفترة انقسم الجيش اللبناني الى فئة مسيحية، وأخرى إسلامية. كما اعيد تقسيم مدينة بيروت وفقاً لخطوط التماس المعروفة. وإذا كانت صفة "حرب أهلية" قد أخذت طابعاً مبهماً في كل مراحل الحرب سابقاً، فقد سادت، ابتداءً من السابع من شباط ودون أي شك، حرب أهلية بكل معنى الكلمة. لقد كان ذلك اليوم يوماً مرعباً للغاية في حياة اللبنانيين.

فحتى السادس من شباط كان قد انجز ملء ٢٧٠ استمارة تحقيق، أي أكثر من نصف الإستمارات الملحوظة. لقد كان المحققون على استعداد تام لمواصلة عملهم، وهذا ما أتاح لهم فرصة نادرة لتنفيذ بحث اجتماعي تجريبي، يقوم على إمكانية إجراء تحقيق عشية حلول مرحلة أليمة جداً من الحرب الأهلية، وبعدها بقليل. فبعد التاسع من شباط، استمر تنفيذ الاستجابات مجدداً، وذلك مع العينة الملحوظة أصلاً والتي استهدفت ٥٠٠ شخص.

عند تحليل المعطيات تبين أن تكوين المقابلات التي بلغ عددها ٢٧٠ قبل السابع من شباط، حسب الجنس، والسن، والقطاع الاقتصادي، والمستوى التعليمي، والانتماء الطائفي، لم تختلف بأي شكل من الأشكال عن العينة التي استجوبت بعد السابع من شباط. لذلك كان من الممكن القيام بمقارنة ما حصل قبيل وبعيد السادس من شباط.

وهكذا تبين أن الاستجابات التي حصلت خلال ثلاثة أشهر بعد السابع من شباط، كشفت عن فروقات هامة من حيث المعالم الاجتماعية، باستثناء الانتماء الطائفي، الأمر الذي سمح بمقارنة شهرية أثناء مسار الأزمة^{٧٥}:

٧٥- في سبيل الابتعاد عن الانتماء الطائفي (كان تمثيل المسلمين في شهري شباط وأذار منخفضاً)، تمت المقارنة الزمنية حسب الأشهر بالتميز بين المسيحيين والمسلمين. أهم الفروقات المتبقية هي التالية: في قسم من العينة لدى المسيحيين في شهر آذار كان عدد الطلاب الثانويين ضئيلاً، كما كان بينهم في شهر آذار ونيسان مستجوبون من شمال لبنان. وفي قسم من العينة لدى المسلمين في شهر نيسان، كانت المرحلة العمرية الأعلى أكثر تمثيلاً. فيما يلي جرت مقارنة "قبل وبعيد" بالاعتماد على المقابلات التي تمت قبل السابع من شباط (وعددها ٢٧٠)، وتلك التي تمت بعد هذا التاريخ (وعددها ٥٧٠). المقارنة الزمنية على امتداد أربعة أشهر ميّزت بين المستجوبين المسيحيين والمسلمين:

كيف أثرت صدمة السابع من شباط عام ١٩٨٤ ومرحلة المعارك التي تبعتها على مواقف اللبنانيين؟

بقيت نسبة الخوف من المستقبل قبلها وبعدها عملياً شبه مماثلة (٦٩ و ٦٤٪) لدى كل المستجوبين. ولكن اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المقارنة الزمنية، لوجدنا بعض التفاوت لدى المجموعتين الدينتين^{٧٦}:

الخوف من المستقبل	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٦٨	٥٤	٧٢	٥٧
مسيحيون	٦٩	٨١	٦٤	٦١

لدى المسلمين تراجعت نسبة الخوف بعد السابع من شباط اولاً - وانخفضت حتى ٤٠٪ لدى الشيعة - ثم عادت الى الارتفاع مجدداً في شهر آذار. لدى المسيحيين ازدادت كثيراً نسبة الخوف مباشرة في شهر شباط، وبعدها تراجعت بقوة.

وبصورة مماثلة، برز أيضاً الشعور بعدم القدرة الاجتماعية:

	ومن ١ ك ٢ الى ٧ شباط العدد %	من ٧ الى ٢٨ شباط العدد %	اذار العدد %	نيسان العدد %	مجموع المستجوبين العدد %
مسلمون	٦٢ ١٦٧	٢٨ ٣٥	٤٢ ٣٧	٦٠ ١٧٥	٥٣ ٤١٤
مسيحيون	٣٨ ١٠٣	٧٢ ٩٢	٥٨ ٥١	٤٠ ١١٧	٤٧ ٣٦٣
العدد -	٢٧٠	١٢٧	٨٨	٢٩٢	٧٧٧

٧٦- انها هامة للمسيحيين بنسبة ٥٠٪

عدم القدرة الاجتماعية	كانون الثاني	شباط	أذار	نيسان
مسلمون	٨٣	٦٦	٦٨	٦١
مسيحيون	٧٣	٨٢	٥٢	٧٧٤٨

ان احتلال بيروت الغربية من قبل الميليشيات الشيعية والدرزية حدّد من خوف المسلمين وعدم القدرة لديهم، وأثار لدى المسيحيين في البداية كثيراً من الذعر. ولكن في نيسان تراجعت حرارة الخوف، وشعرت المجموعتان الدينيتان بضعف أقلّ ممّا كان الحال عليه في كانون الثاني. لقد أصبح المسلمون اسيادا في مناطقهم، والمسيحيون شعروا بالعزاء بفعل تمكنهم من المحافظة، بدون منازع، على السيطرة في مناطقهم.

وقد جاء الانعكاس المباشر لاندلاع الحرب الأهلية الانهيار السريع لليرة اللبنانية، وبداية الأزمة الاقتصادية. وقد عبّر كل المستجوبين عن الأزمة الاقتصادية بعد ذلك بحذر وتحفظ أكثر من السابق: ٦٢٪ مقابل ٧١٪ سابقاً:

الوضع الاقتصادي	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٧٣	٥٤	٦٢	٥٣
مسيحيون	٦٨	٧٨	٧٠	٦٤

في بداية الأزمة كان المسلمون أكثر تفاؤلاً، ولكن في نيسان تراجع هذا التفاؤل بصورة بارزة. فالمسيحيون كانت لهم بنية اقتصادية، تأثرت قليلاً بالأزمة. ولكن الشيعة، رغم انتصارهم في بيروت الغربية كانوا أكثر المتشائمين. فقد انخفضت نظرتهم الايجابية الى الوضع الاقتصادي من ٥٩٪ في كانون الثاني الى ٤١٪ في نيسان. في تلك الفترة تعرضت مناطقهم السكنية لأشنع الأضرار.

ان نسبة الاستعداد للذهاب كعمّال الى الدول الخليج ارتفعت من ٣٣٪ الى ٤٠٪ بعد السابع من شباط. فخلال الأشهر الأربعة برزت فروقات هامة بين المجموعات الدينية:

الذهاب الى دول الخليج	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان
مسلمون	٣٥	٤٣	٥٧	٤٨
مسيحيون	٣١	٢٣	٤٦	٣٤

بدأت ردّة الفعل لدى المسيحيين تبرز أولاً في شهر آذار. وكانت قد برزت لدى المسلمين في شهر شباط. ولكن في نيسان اخذت هذه الرغبة تتراجع لدى الجميع. فالاستعداد الذي برز اكثر تعبيرا لدى المسلمين، يعود الى الانعكاس الاقتصادي الكبير الذي بدأوا يشعرون بكبوته مع اندلاع الأزمة.

اما المسيحيون فقد أبرزوا ردّة فعل آخر على الانعكاسات الاقتصادية للحرب الأهلية الجديدة. فاعتقادهم باستحالة ممارسة لبنان دوراً اقتصادياً في الشرق الاوسط تراجع من ٨٥٪ الى ٧٤٪، بينما لم يبرز اي تغيير يستحق الذكر في هذا المجال لدى المسلمين. بالنسبة لمقاييس الخوف وعدم القدرة، وكذلك بالنسبة لتقييم الوضع الاقتصادي، عكست التغييرات في الرأي والمواقف ما حصل فعلاً على الأرض. لقد شعر المسلمون سياسياً والمسيحيون اقتصادياً بانهم المنتصرون نسبياً. ولكن في مطلق الأحوال تراجع في شهر نيسان ردود الفعل التي اعقبت الاحداث القاسية في شهري شباط وآذار.

الشعور بالانتماء الطائفي ارتفعت نسبته من كانون الثاني الى آذار لدى المجموعتين ٧٨، وبقيت حتى في نيسان نسبياً اعلى مما كانت في بداية الأزمة:

٧٨- فقط هامة للمسلمين بنسبة (٠,٠٠١) ($p < 0.001$)

"سواء كانوا اثرياء او فقراء، أشعر بالتضامن مع إبناء طائفتي".

التضامن الطائفي	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٣٧	٦٢	٧٠	٧٢
مسيحيون	٤١	٥٤	٥٣	٥٦

- "من الأفضل ان لا يحصل اي نزاع داخل الطائفة".

لا نزاع داخل الطائفة	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٦١	٨٥	٨١	٧٩
مسيحيون	٥٤	٥٩	٧٥	٥٧

لقد زادت الحرب بطريقة مأساوية الحاجة الى ان يكون الجيران من اتباع ذات الطائفة. عبّر عن هذه الرغبة المسيحيون في وقت لاحق بعد المسلمين، الذين تأثروا في البداية بانعكاسات الحرب:

جيران من ذات الطائفة	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٢٩	٤٧	٧٦	٤٠
مسيحيون	٣٨	٣٦	٤٧	٥٦

بعد السابع من شباط بقيت الرغبة لدى كل المستجوبين بمناطق سكنية متجانسة اعلى مما كانت سابقا: ٤٧٪ مقابل ٣٢٪/٧٩. ومباشرة بعد اندلاع المعارك تغيّر ايضاً تصوّر طابع النزاع. فقد تراجعت النظرة اليه كنزاع بين الأغنياء والفقراء^{٨٠}.

٧٩- نسبة ٠,٠٠١ ($p < 0.001$)

نيسان	اذار	شباط	كانون الثاني	نزاع بين الاغنياء والفقراء
٦٦	٤٩	٥٤	٦٩	مسلمون
٦٣	٥٤	٤٩	٦٨	مسيحيون

تجدر الإشارة الى انه حتى في نروة المواجهة واحتدام المعارك بين الطوائف الدينية، بقي نصف المستجوبين يعطون الاولوية للنزاع وكأنه بين الاغنياء والفقراء. وفي نيسان زادت هذه النظرة مجددا بصورة ملحوظة.

كيف انعكست هذه الازمة على تطور النظام السياسي؟ ان تقييم اهمية الزعماء من جهة، وزعماء الاحزاب من جهة أخرى، تعرض لتغيير هام جزئياً.

نيسان	اذار	شباط	كانون الثاني	المجموعات الأكثر تأثيراً
الزعماء:				
١٤	٣	٦	٣٠	مسلمون
٢٣	٢١	٢٢	٣٣	مسيحيون
رؤساء الاحزاب:				
٥٧	٥٧	٥١	٤٣	مسلمون
٤٩	٤٥	٦٦	٤٦	مسيحيون

اعتبار الزعماء الذي ارتفعت نسبته مجدداً بعد عام ١٩٨٢، انخفض بصورة بارزة لدى المسلمين في شهر شباط، ثم عاد وارتفع مجدداً في شهر نيسان، بينما لم يعرف تغييراً بارزاً لدى المسيحيين. فاكتمت المعنويات لدى رؤساء الاحزاب، برز بكل وضوح لدى المسلمين. فهم ابطال حرب شباط. اما المسيحيون فقد قدروا

رؤساء احزابهم في زمن الأزمة الكبرى كثيراً^{٨١}، ولكنهم عادوا الى آرائهم السابقة في شهر آذار.

اما تفضيل النموذج السياسي لدى الزعماء الجدد، فقد ارتفع بشكل بارز لدى المسلمين خلال الأزمة^{٨٢}، ولكنه عاد وانخفض كثيراً في شهر نيسان:

الزعماء الجدد افضل	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٥٨	٨٩	٩٢	٦٩
مسيحيون	٥٣	٤١	٦٢	٥١

في المقارنة السابقة واللاحقة لمجمل التحقيقات لم يبرز تفاوت بالغ الأهمية. فعلى أثر احداث السابع من شباط ارتفع اعتبار اثنين من الزعماء الجدد: نبيه بري ووليد جنبلاط، قائدي معركة بيروت الغربية. ارتفعت شعبية نبيه بري لدى المسلمين من ١٩% في كانون الثاني الى ٣٤% في نيسان، وشعبية وليد جنبلاط من ٨% في كانون الثاني الى ٢٧% في آذار، ثم انخفضت الى ١١% في نيسان. اما شعبية الزعماء المسيحيين المناضلين فقد زادت لدى المسيحيين بين كانون الثاني وشباط بنسبة ٢٠% (من ١٣ الى ٣٣%)، ولكنها انخفضت مجددا في نيسان الى ١٩%.

هل يريد اللبنانيون "الابتعاد عن السياسة" في زمن الأزمات؟

الابتعاد عن السياسة	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٥٦	٥٠	٧٣	٦٦
مسيحيون	٥٤	٥٩	٨١	٧٣

في شباط، لم يؤيد نصف المسلمين هذا الرأي، بينهم ٦٢% من الشيعة. ولكن انخفضت مجددا وبسرعة الدرجة العالية من التسييس، كما انخفضت بنسبة اعلى

٨١- بنسبة ٠,٠٠٥ (p < 0.005)

٨٢- بنسبة ٠,٠٠١ (p < 0.001)

لدى المسيحيين. قبل السابع من شباط، رفض ٥٥٪ من المستجوبين التعاطي بالسياسة، ثم ارتفعت بعده هذه النسبة الى ٦٧٪.

هل كان لاختبار احداث الحرب الأهلية تأثير على مفهوم اللبنانيين حول علاقة الدين بالسياسة؟ ان فكرة علمنة الدولة والمجتمع كافضل امكانية لحل مشاكل لبنان الراهنة عرفت صدمة قوية في شهر شباط لدى المسلمين^{٨٣}:

علمنة الدولة	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٨٤	٤٠	٦٨	٥٦
مسيحيون	٩٥	٩١	٧٨	٨٠

أيد علمنة الدولة قبل السابع من شباط ٨٨٪ وبعدها لم تتراجع هذه النسبة إلا إلى ٧٠٪. ولكن مفهوم العلمنة تخطى سريعاً ونسبياً صدمة النزاعات المسلحة كما تشير الى ذلك ردود الفعل على قول آخر:

- "ان ما نرغبه دائماً يبدو مستحيلاً، اي تحقيق العلمنة في لبنان.
الانتماء الطائفي هو واقع ينبغي القبول به":

العلمنة غير ممكنة	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٤٢	٧٩	٦٣	٥٧
مسيحيون	٣٤	٣٥	٥٩	٤٠

اعتقد المسلمون باكثريتهم ابتداءً من شباط، والمسيحيون باكثريتهم ابتداءً من اذار باستحالة تطبيق العلمنة. في نيسان، بقيت أكثرية المسلمين في حالة حذر وتحفظ، رغم تراجع عددهم. اما لدى المسيحيين فقد بقيت أقلية فقط تؤيد ذلك^{٨٤}.

٨٣- التغييرات هي هامة جداً لدى المسلمين والمسيحيين بنسبة (٠,٠٠١) ($p < 0.001$)

وبصورة مماثلة برزت الآراء بالنسبة لمفهوم الكاتنونات الدينية. رغم ذلك تسمح المقارنة بين السابق واللاحق باستنتاج زيادة في نسبة التأييد من ١٨ الى ٢٧٪. ولكن المقارنة الزمنية تشير، الى ان الأمر كان، على الأقل لدى المسلمين، يتعلق بردة فعل زمنية كتعبير عن الخوف^{٨٥}.

الكاتنونات الدينية	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	١٦	٣٧	٣٥	١٣
مسيحيون	٢٠	٢٤	٤٢	٣٧

وهكذا يتبين من ان اندلاع الحرب مجدداً دفع بفكرة العلمنة الى الوراء وجعل فكرة الكاتنونات تبدو أكثر قبولا. ولكن اتضح في ذات الوقت ان تحفظا محدودا ازاء احداث المعارك المؤلمة أدت الى اعادة النظر في بعض الأمور. كيف اثرت اذا الأزمة المبرحة على المواقف الاساسية من التعايش وعلى اشكاله في لبنان؟ كانت صيغة طرح الأسئلة عام ١٩٨٤ ملائمة مع الاحداث الراهنة آنذاك، لذا لم تبرز اية حاجة الى اعادة النظر فيها.

"خلال الاشهر الاخيرة حصلت احداث مؤلمة جداً في لبنان.
لذلك أخاف من ان يصبح التعايش بين الطوائف الدينية أكثر صعوبة".

التعايش أكثر صعوبة	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٣٨	٨٠	٨٣	٤٣
مسيحيون	٤٢	٥١	٦٧	٥٠

٨٤- نسبة (٠,٠٠١) ($p < 0.001$) لدى المسلمين، و ٠,٠٠٥ ($p < 0.005$) لدى المسيحيين.

٨٥- راجع الحاشية السابقة.

التعايش الذي أصبح جوهرياً أكثر صعوبة، بقي التمسك به قائماً حتى في ظل تأثير المعارك المباشر^{٨٦}. وقد عاد التفاؤل وارتفع بصورة ملحوظة في نيسان، وعاد ليقترّب من النسب التي برزت في شهر كانون الثاني.

وبرز ذات النموذج في السؤال عن احتمالات مواصلة تصعيد النزاع:

تصعيد النزاع	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٥٠	٧١	٧٦	٥٦
مسيحيون	٤٧	٥٥	٧٥	٦٦

ابتداءً من شباط ارتفعت النسبة المئوية بصورة بارزة لدى المسلمين، وابتداءً من اذار لدى الفريقين. وفي نيسان، عادت النسبة لدى المسلمين الى ما كانت عليه في شهر كانون الثاني. اما المسيحيون فكانت ردة الفعل عندهم أكثر بطئاً ولكنها جاءت في ذات الوقت أكثر ايجابية^{٨٧}.

سواء كان التعايش قد أصبح أكثر صعوبة ام لا، فهل اعتبره اللبنانيون مبدئياً حتى في وسط الحرب ممكناً؟

"رغم الأحداث الأليمة في الأشهر الأخيرة اعتقد بان التعايش مازال دائماً ممكناً بين الطوائف؟"

التعايش ممكن	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٨٧	٨٧	٩٤	٨٧
مسيحيون	٧٩	٨٠	٧٧	٦٨

٨٦ - راجع الحاشية ٨٤.

٨٧ - النسبة للمسلمين والمسيحيين (٠,٠٠١) ($p < 0.001$)

حتى في ذروة المعارك المسلحة استمرّ المسيحيون والمسلمون يؤمنون بإمكانية التعايش. فرأيهم حول هذه المسألة لم يتأثر إطلاقاً بوطأة الاحداث المريرة. عبر الازمة وخلالها بقي تأييد المسلمين والمسيحيين لمبدأ التوافق قائماً:

التوافق	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان
مسلمون	٩٣	٩١	٧٥	٨٧
مسيحيون	٨٢	٨٩	٩٠	٧٢

لقد عبّر ربع المسلمين في أذار، وأكثر من ربع المسيحيين في نيسان عن شكهم في هذه الصيغة لتسوية النزاع^{٨٨}. ولكن لم يُحاول في أي وقت من الأوقات إعادة النظر فيها جدياً.

اخيراً لم يبرز أي تغيير يستحق الذكر، لدى المسيحيين كما لدى المسلمين، في التحقيق الذي حصل خلال الأشهر الأربعة، أو في المقارنة العامة قبل وبعد السابع من شباط، لدى المستجوبين حول تأييدهم للثوابت الدينية لفعل الايمان السياسي اللبناني. فخلال أشهر تلك الحرب الأهلية العلنية، استمر اللبنانيون يعتقدون بأن الاسلام والمسيحية يدينان بذات الإله الواحد، ولهما ذات المبادئ الاخلاقية والاجتماعية، وبأن الأصدقاء والزملاء يبقون اصدقاء وزملاء، وأن بيروت ستعود مدينة موحدة.

هذه النتيجة بالذات في اطار التحقيق الشامل حول حدث هام، دموي، وعنيف للغاية، في النزاع اللبناني القائم - يمكن الآن استخلاصها وبراها.

كانت مشاعر الخوف وعدم القدرة تزداد، كما هو منتظر، إثناء حدوث المعارك، وتتبدل لدى المجموعات وفقاً لنتائج تطورات هذه المعارك سلباً وإيجاباً. فالانعكاسات المتأتية من الأزمة الاقتصادية التي افرزتها احداث الحرب، برزت بسرعة فائقة.

في مرحلة من مراحل الازمة المبرحة، ازداد وعي اللبنانيين لانتمائهم الطائفي، كما طمحووا اكثر فاكثروا الى منطقة خاصة بهم. ورغم ذلك، وفي ذروة احتدام المعارك لم ترغب أكثرية اللبنانيين بسماع اي كلام عن اقامة الكانتونات. فالرغبة

٨٨- نسبة (٠,٠٠١) (p < 0.001) للمسيحيين، و(٠,٠٠٥) (p < 0.005) للمسلمين.

بعلمنة الدولة والمجتمع تعرضت لصدمة قاسية عندما اطلق المسيحيون والمسلمون النار على بعضهم. لا يمكن التمسك بوجود طوائف منظمة سياسياً الا لفترة زمنية قصيرة فقط. فعندما كانت تخف حدة الأزمة، كان يتراجع تأرجح المواقف ويعود الى حالته الطبيعية.

عندما تنطق الاسلحة، ينهار اعتبار ونفوذ السياسيين القدامى، اي فطاحل او ارباب العمل السياسي في زمن السلم. وتلتف كل فئة بدورها حول اسياذ الحرب. وحالما تتخفف حدة اصوات المدافع، ترتفع بورصة الزعماء القدامى، ويتبدد مجد أمراء الحرب سريعاً كالسحاب. وعندما يضعف التعايش ظاهرياً بسبب الازمة، يصبح أمر تحقيقه أكثر صعوبة - كما لا يمكن ان يكون ذلك معاكساً - ولكن لفترة وجيزة حتى يتوقف النزاع المفتوح.

وعندما يُسأل عن تقدير الوضع الذاتي او وضع البلد ككل، يتم الحصول على أجوبة واقعية. وعندما يُعبّر عن المواقف والآراء، عندئذ تبرز بوضوح آثار صدمات الحرب. ولكن في الوقت نفسه، يتبين ايضاً بكل وضوح ان هذه الصدمات يجري تجاوزها سريعاً وبطريقة تستحق الدهشة والاعجاب.

فقبل ان يتوقف هدير المدافع، اي حالما يخف صوتها، وتراجع حدة القصف الصاروخي قليلاً، ينبري اللبنانيون ويستعيدون مواقفهم المعتدلة العادية.

لقد كشفت سلسلة التحقيقات منذ عام ١٩٨١ وحتى ١٩٨٧، بان الثوابت او القواعد الأساسية للثقافة السياسية اللبنانية - اي الاستعداد الدائم للتعايش، والتسامح، والبحث عن التوافق مع الاحتفاظ بالتباينات - قد صمدت دون ان تتأثر او ان تتعثر في سنوات الحرب. فتحليل الأشهر من كانون الثاني الى نيسان عام ١٩٨٤، اثناء تحول الحرب نهائياً الى حرب أهلية، أثبت بصورة مؤثرة ومدهشة، معظم الاستنتاجات التي افرزها التحقيق.

من الممكن ان تحصل او ان تقع حرب او حرب أهلية في لبنان، ولكنها لن تكون حرب اكثريّة اللبنانيين على الإطلاق، لأن هذه الاكثريّة بالذات تريد التعايش أكثر فاكثراً - حتى في زمن الحرب.

الفصل الثامن

انهيار التحالف

لمحة سريعة عن تكوين النزاع واستمراره

تريد ان نكون شعبا واحدا واخوة،
لا ننفصل في اى ضيم او خطر،
نريد البقاء احرارا، كما كان الآباء،
مفضلين الموت على العيش في ظل العبودية.
نريد الاعتماد على الاله الاعظم،
دون الخوف من سلطة البشر".

فريد ريش شيلر

"انا ادرك بانكم غير مؤهلين مثلي لمجابهة هؤلاء الناس.
ولكن انا لن اغيب...
عند ما اعود، يا احبابي، في ظل بدر صاف،
عندئذ اعود على ظهر دبابة، واتحدث بلغة المدافع،
وازيلكم جميعا.
فحيثما تعبر دبابتي، يكون هناك طريق.
وما يقوله مدفعي، يكون تعبيرا عن هدفي.
ولكن قبل كل شيء اغفو فقط عن اخي،
انما اضربه على فمه".

برتولد براشت

ليس الميثاق الوطني لعام ١٩٤٣، شبيها "بقسم روتليس" (Rütli Schwur) الذي تحول في اشعار "شيرلر" الى اسطورة وطنية في سويسرا. لم يكن لبنانيو مرحلة الاستقلال "شعبا واحدا من الاخوة"، بل اتباع طوائف مختلفة ذات مصالح متباينة واشكال استقلالية متناقضة نمت تاريخيا. لم يشكل لبنان في حدود عام ١٩٢٩ بنظراي طائفة، الدولة التي ارادتها او رغبت بها - وان يكن ذلك لبعض الطوائف اكثر من الاخرى. بالنسبة للجميع، كان هناك حل ثانٍ أفضل منه. ولكن الحل الافضل كان ما جرى التوصل اليه عام ١٩٤٣. كان حلا مع بعض التحفظ. علل انداك نصف اللبنانيين انفسهم بالامل، لتحقيق ما هو بنظرهم الحل الافضل في ظل ظروف ملائمة، اي بتحقيق وحدة سوريا الكبرى، او الوحدة العربية. وقد قبل النصف الثاني بالجمهورية المستقلة الجديدة مع "تحفظ عقلائي"، يتلخص في امكانية العودة الى "لبنان الصغير" في حال بروز اوضاع غير ملائمة. وقد اعتبر فريق من النصف الثاني من الخطأ التنازل عن هذا التحفظ.

اراد لبنانيو عام ١٩٤٣ ان يكونوا كلهم "احرارا كما كان آباؤهم"، او أفضل مما كان أجدادهم. ولكن قسما منهم اراد التحرر من الفرنسيين والقسم الآخر من العرب الآخرين. أمل الأولون بتراجع خوف الآخرين من الاخوة العرب مع مرور الزمن. وكان يعتمد الآخرون في حال تعرضهم لخطر مبرح، على امكانية الحصول على نجدة من الخارج.

كان لبنان تحالفا يستطيع كل فريق التصل منه، اي نوعا من الشركة التجارية يستفيد منها كل فريق عند توزيع المكاسب التي يجري التفاوض عليها بعناية فائقة. ولكن باستطاعة الحلول الثانية الفضلى ان تكون غزيرة الفائدة بالنسبة للمشاركين، وبالتالي طويلة المدى. ففي مطلع السبعينات كان شركاء الاتحاد والتحالف اللبناني العقلاني والمفروض عليهم غير مستائين ومنزعجين منه. فقد اعتبر عدد من المراقبين والمحليين الداخليين والخارجيين بان هذا الاتحاد هو "قصة نجاح" (success story) رائعة. اعتبر لبنان دولة متعددة الشعوب، تنظم سلميا عيش طوائفها الى جانب بعضها بعض، وتسهم في تحديثها وتقديمها دون اضطرابات ثورية، كما تؤمن لسكانها مستوى متاميا من الرفاه، في اطار من الحرية الديمقراطية. وقد اعتبر هذا النهج السياسي بنظر اصحاب ديمقراطية التوافق الهادفة كنظرة معيارية، الى تحقيق استقرار ديمقراطي والحفاظ عليه في ظل الاوضاع الصعبة التي تعيشها الدول التعددية، مؤشرا وبرهانا على أن امكانية تحقيقه وتطبيقه

بنجاح ايضا في بلد غير اوروبي^١.

بعد اندلاع الحرب تكاثرت التحاليل التي تشير الى أن الاختبار اللبناني كان محكوما عليه بالفشل من الاساس. ولكن هذه الاحكام كانت تتميز عن بعضها بصورة بارزة. البعض رأى في التوترات الاجتماعية السبب الذي أدى الى نزاع طبقي مسلح^٢. والبعض الآخر رد ذلك الى المشكلات المستعصية بين هويات وطنية مختلفة، نشأت بين طوائف لبنانية متباينة^٣. وكذلك رأى اخرون المسؤولية في الاخطاء القائمة في انشاء نظام التوافق اللبناني^٤، او اعتبروا هذا النظام بالذات "لب المشكلة"^٥.

اخيرا اراد عدد لا بأس به من المفكرين تفسير الحرب ليس كنتيجة للتوترات بين الطبقات والطوائف، او لانعدام التلاؤم في النظام السياسي، بل نتيجة لتأثير عوامل اقليمية ودولية فقط^٦.

- ١- Arend LIJPHART, Democracy in Plural Societies, op. cit. p. 147ff.
- ٢- Samih K. FARSON & Walter CARROLL, The Civil War in Lebanon : Sect, class, and Imperialism, in : Monthly Review, 28 (1976)2, p. 12-37. Suad JOSEPH & Barbara L.K. PILLSBURY (Ed.), Muslim-Christian Conflicts: Economic, political and social origins, Boulder and Folkestone 1978.
- ٣- Enver M. KOURY, The Crisis in the Lebanese System, Confessionalism and Chaos (Foreign Affairs study 38), Washington D.C. 1976.
- ٤- Richard H. DEKMEJIAN, Consociational Democracy in Crisis : The case of Lebanon in : Comparative Politics, 10 (1978), p. 251-265. Arend LIJPHART, Democracy in Plural Societies, op. cit. p. 149.
- ٥- ينتقد هذا الأخير "المؤسسية غير المرنة للمبادئ التوافقية" في لبنان. "النظام الطائفي بحد ذاته - كتجسيد لنموذج توافقي - كان جزر المشكلة". راجع: Michael C. HUDSON, The Lebanese Crisis : The limits of consociational democracy in : Palestine Studies, 5 (1976), p.114. Idem, The Precarious Republic Revisited : Reflections on the collapse of pluralist politics in Lebanon . Contemporary Arab studies, Seminar Paper No. 2, Georgetown University, Washington D.C. 1977.
- وفي تحليل جديد ومختلف جداً يبرز "مايكل س. هودسون" مفهومه، ويفسر لماذا وكيف أسهم النموذج التوافقي اللبناني، وبنوع خاص نموذج الدولة (étatisme) الشهلية، في القضاء على ذاته. راجع Michael C. HUDSON The Problem of Authoritative Power in Lebanese Politics . Why consociationalism failed, in : Nadim SHEHADI & Dana HAFFAR MILLS (Ed.), Lebanon : A history of conflict and consensus, London 1988, p. 224-239.
- ٦- يبدو في الواقع ان الديمقراطية اللبنانية لم يكن يحق لها بالاستمرار، ليس بسبب افتقار محيطها الاقليمي الى مؤسسات ديمقراطية فحسب، بل ايضا لانه كان معاديا لها... ولكن المؤلف يعتقد بضرورة استمرارها بشكل او بآخر لا يناقض العنف الاقليمي غير المألوف الذي زجت فيه". راجع: Iliya HARIK, the Economic and Social Factors, in : The Lebanese Crisis, op. cit. p. 235.

نتطرق هنا الى البحث في كيفية نشوء نظام لتسوية النزاعات في لبنان ما قبل الحرب، وكيف جُرَّ هذا البلد الى وسط عاصفة نزاع الشرق الاوسط، وكيف تطوّر النزاع في مراحل مختلفة، وما هي الاشكال التي عرفها. ثم نحاول، بالاعتماد على التحقيقات التي اجريت، اعطاء صورة مختصرة وتحليل لمختلف عناصر النزاع مع التمييز بين العوامل المرتبطة بوقوع الحرب والاسباب التي أدت الى استمراريتها.

١ - لبنانيون ضد لبنانيين

منذ عام ١٩٧٥، كان كل سنة يطلق لبنانيون النار على لبنانيين اخرين. فكما كان البعض يحاول دائما تقييم معنى عناصر النزاع غير اللبنانية، فقد وجدت ومازالت تتوفر اسباب كافية لحرب اهلية لبنانية، ضمن حرب لم تكن غالبا حرب اللبنانيين.

لقد برزت نزاعات اجتماعية وزادت حدتها في النصف الاول من السبعينات. ولكن توزيع الدخل في لبنان ما قبل الحرب، كان، اذا ما قورن على المستوى الدولي، متفاوتا باعتماد فقط. وكان يشابه الوضع انذاك في فرنسا والمكسيك. فما يتعلق بطريقة اندماج الفئات والطوائف، كان أمرا متساويا باعتماد. فقد كان هناك اصحاب امتيازات وآخرون دون امتيازات في كل الطوائف. كان الوضع افضل نسبيا بالنسبة للطوائف التي كانت تسكن المدن قديما، كالسنة والروم الارثوذكس، كما كان الوضع صعبا بالنسبة للطوائف التي نزحت لاحقا الى المدن وتمدنت، اى الموارنة والشيعة. ولكن الطائفة الشيعية كانت بوجه عام اكثر حرمانا - وذلك بسبب الاهمال الطويل لمعظم المناطق الزراعية الشيعية، وعدم اهتمام الزعماء الشيعة التقليديين بتنميتها - ومنذ عام ١٩٦٩ زاد هذا الحرمان بسبب بداية الحرب في الجنوب التي لم يُهَتم بها كثيرا في باقي مناطق البلاد. فحرمان الشيعة هو ايضا في جزء منه "عمل بيئي داخلي" وفي جزء آخر، من نتائج الحرب.

فعدم المساواة بين الطوائف من حيث مستوى التعليم والدخل جرى التخفيف والحد منه منذ تأسيس الدولة بصورة بارزة، وبنوع خاص في ظل تأثير السياسة الاجتماعية الشهابية في الستينات. ولكن زيادة الوعي والتحسس بهذه اللامساواة تفاقم كثيرا. "لقد خفت حدة الشر، ولكن الحساسية زادت حيوية" (دي توكفيل). هذا الوصف الشامل الذي يمكن تسميته في لغة العلوم الاجتماعية الحديثة، بالحرمان النسبي، ينطبق تماما على سياسة التنمية اللبنانية في سنوات ما قبل الحرب. فالتوقف المخيف عن مواصلة تطبيق سياسة التوازن الشهابية عبر الاصلاحات كان فقط كافيا وملأنا تماما لتفاقم حدة ادراك الحرمان النسبي. وهكذا تم القضاء على كل الامل الكبيرة.

سياسة التعليم التي عرفت توسعا كبيرا في الستينات اسهمت بتأهيل عدد كبير من الخريجين لممارسة اعمال وتقليد وظائف ذات دخل متوسط وعال، اكثر مما يستوعب سوق العمل. وقد تفاقم الوضع بسبب التسابق على وظائف العمل في القطاع العام. ونظرا لتوزيع هذه الوظائف حسب حصص الانتماء الطائفي، فقد ائتت المباراة القاسية الى طرح هذه المسألة على بساط البحث.

ان حرمان سكان الريف لصالح سكان المدن، وحرمان مناطق معينة مقابل مناطق اخرى، وتزايد اعداد خريجي التعليم الثانوي والجامعي، كلها ظواهر تسبب ايضا ازمات اجتماعية، حتى في المجتمعات المتجانسة. فالشعور بالحرمان النسبي ليس حكرا على الدول المتعددة الشعوب اطلاقا. في لبنان، اعتبر الحرمان المطلق يصيب نسبيا الطوائف اكثر من الفئات او الطبقات او المناطق او المراحل العمرية، رغم بروز هذه النظرة بطريقة محدودة فقط. في لبنان تشعر طوائف بكاملها بالحرمان - خطأ أو صوابا - وهذا امر لا قيمة له بالنسبة للنتائج السياسية. كانت هناك مجموعتان تميلان الى التعبير عن هذه الرؤيا، الاولى اضطرت الى "خروج من الريف بسبب الوضع الاقتصادي او الحرب، اي الشيعة. والثانية يبحث اعضاء منها بعد تخرجهم من التعليم الثانوي والجامعي عن ترق اجتماعي - وهؤلاء هم من الشيعة والسنة معا. وبتعبير اكثر قساوة، شكل الاولون لاحقا عناصر الميليشيات، والآخرين الكوادر او الاطر. ولكن الامر الذي لم يلاحظ غالبا قبل الحرب هو ان قسما من الموارد ايضا اضطرت الى النزوح من الريف، وقسما اخر منهم، لم يتمكن من تحقيق طموحاته في مجال الترق الاجتماعي. فشكّلوا لاحقا عناصر وكوادر في الجانب الاخر. ولكن في البداية، وقبل الحرب، كان الاحتجاج الاجتماعي بالدرجة الاولى، احتجاجا سياسيا تطلقه الطوائف الاسلامية ضد الدولة - اي ضد دولة كانوا ينظرون اليها كدولة يهيمن عليها المسيحيون.

وكما اشير سابقا لم تكن الهيمنة المسيحية في دولة ما قبل الحرب موجودة بهذه الصورة. فرئيس الجمهورية، لم يكن له في الواقع الدستوري مركز اقوى من رئيس الحكومة. فالقرارات تحتاج كلها الى موافقة الفريقين. كانت الحكومة تشكل دائما بالتساوي. والتأثير السياسي لأكثريّة مسيحية في مجلس النواب جرى الحد منه عبر نظام انتخابي يجعل عددا من النواب المسيحيين مرتبطا بالمقترعين المسلمين، وليس العكس. وفي النهاية لم تعد السيطرة المسيحية سوى امر رمزي فقط. رئيس الدولة كان مسيحيا، وكذلك الاكثريّة العدديّة من النواب.

ولكن نتيجة لهذه "السيطرة" (او كما يقال بلغة السياسيين اللبنانيين، "الهيمنة") المسيحية برزت المطالب الاجتماعية، وكانها ليست مطالب المسلمين المحرومين فقط، بل برزت ايضا مطالب موجهة ضد دولة "الهيمنة". وهذا يعني في لغة الجدل

السياسي المعروف مطالب ضد "المسيحيين".

تحوّلت بعض المطالب الى مطلب يقضي بتغيير توزيع السلطة، وفي النهاية الى اعادة النظر والبحث بالميثاق الوطني. ولكن هذا المطلب أدّى حتما الى اثاره مشاعر الخوف لدى المسيحيين اللبنانيين. وقد تركّز ذلك بالدرجة الاولى على مسائل تتعلق بالسياسة الخارجية - اى بمسألة الاستقلال اللبناني. ولكن المسيحيين عاشوا اختبارات سابقة، اى ان المسلمين اخذوا يتقبلون اثناء عهد الانتداب فكرة الاستقلال، واعترفوا بها مهللين عام ١٩٤٣. ثم شعر المسيحيون عام ١٩٥٨ بان هذا الاستقلال مهدد، ومنذ عام ١٩٦٩ بان حياتهم مهددة بالموت. وكذلك استغل الفلسطينيون لبنان كقاعدة طبيعية لصراعهم في سبيل الحرية. وخاضوا هذا الصراع دون اى اعتبار للمصالح اللبنانية. ولكنهم وجدوا حيادا مرضيا جدا، وكذلك تأييدا محيّا ومشجعا لهم من قبل المسلمين اللبنانيين. ان ما اعتبره المسلمون تضامنا طبعيا مع العرب الآخرين، اعتبره المسيحيون دليلا اخر على "الولاء المزدوج" لدى المسلمين. وكذلك برزت بحدة اكثر من الماضي مسألة النزاع حول الهوية. بالنسبة للمسلمين اللبنانيين اعتبر الولاء المزدوج امرا طبيعيا. فهم يعتبرون انفسهم لبنانيين وعرب، دون ان يروا اى نزاع بين هاتين الهويتين. ولكن غالبية المسيحيين طالبت باستمرار بان اللبنانيين لا يحق لهم أن يكونوا سوى لبنانيين.

اما خوف المسيحيين فزاد عمقا وتفاقما. لم يخافوا فقط من "الانشلوس" اى الضم الى بلد اخر، بل بنوع خاص من تحولهم الى اقلية ضمن اكثرية مسلمة. وكأن مسألة الحجم، حتى في دولة عربية اكبر أو داخل لبنان، ليست بالنسبة لهم نوعا من الخطر. وقد اثارت هذا الخوف احزابهم القيادية قبل الحرب، من خلال معارضتهم لكل تعديل في النظام اللبناني القائم. ان حزب الكتائب اسهم خلال سنوات طويلة بتنفيذ النهج الشهابي، ولكنه انضم منذ عام ١٩٦٩ الى جبهة اعدائه، اذ تبين له ان تحالفا قويا للحفاظ على الوضع القائم هو اهم من تغيير النظام الاجتماعي الاقتصادي القائم - الذي دعمه وايده مبدئيا.

رأى عدد كبير من المسلمين انفسهم محرومين اقتصاديا، وارادوا انهاء هذا الحرمان. حاولوا تحقيق ذلك عبر تغيير الوضع السياسي القائم. بينما بدأ عدد كبير من المسيحيين، لهذا السبب بالذات، بالدفاع عن الوضع الاقتصادي القائم - او انهم في البداية، لم يواصلوا التزامهم في سبيل الاصلاح - لانهم ركزوا على الدفاع عن النظام السياسي القائم. وعند ما بدأت الحرب، وقف المحرومون من الفريقين، حاملين السلاح بايديهم، مقابل بعضهم بعض.

هل النزاعات الاجتماعية التي اعتبرت كنزاعات بين الطوائف، اى هيمنة

المسيحيين الرمزية، والتناقضات حول السياسة الخارجية المرتبطة بنزاع حول الهوية، يمكن ان تكون سببا ومبررا كافيا يدفع لبنانيين الى اطلاق النار على لبنانيين آخرين؟ مقابل هذا الافتراض يبرز واقع اخر وهو ان لبنان عاش مدة طويلة هذه النزاعات والتناقضات، دون التعبير عنها بواسطة السلاح. في الواقع تفاقمت النزاعات الاجتماعية في النصف الاول من السبعينات. ولكنها نادرا ما انعكست كصراع بين الطوائف، تناقضا مع الميل الى اعتبارها والنظر اليها كنزاعات بين الطوائف. فالحركة النقابية كانت خليطا طائفيًا، وكذلك الحركة الطلابية. والمسيحيون كانوا كذلك مثل المسلمين بين المطالبين باصلاح اقتصادي وسياسي جذري. هذا وقد لاحظ محللون من مختلف الاتجاهات السياسية وجود مؤهلات لنشوء وعي طبقي. فالحركة العمالية عرفت وضعًا صعبًا بسبب البنية المتصدعة في مؤسسات العمل. ولكنها استطاعت احراز تقدم بارز في تحريكها ونضالها عبر استخدام وسائل ضغط سليمة، كالاضرابات والمظاهرات والمفاوضات.

وكذلك في اطار النظام السياسي حصلت بعض التعديلات البارزة. فقد ثبت منذ عام ١٩٥٨ نظام الحصص بالتساوي في مجال العمل في القطاع العام. وفي عهد الرئيس فرنجية جرى تعديل الربط الذي كان قائما لبعض الوظائف العامة التي كانت حكرا لبعض الطوائف بفضل بعض التسويات المرنة. وفي الانتخابات التشريعية لعام ١٩٧٢ انتخب عدد لا بأس به من النواب غير التقليديين اكثر من الماضي. وبالتالي لم يكن بالامكان توقع اللقاء مسؤولية جسيمة على عاتق مجموعات القيادة اللبنانية بسبب تفاقم التوترات السياسية الداخلية. فسياسيو المدرسة الشهابية اقروا وشعروا بقوة التفجير الكامنة، وراء التفاوت والمآسي الاجتماعية. فاتهم كمال جنبلاط لهم بانهم لم يعرفوا ان يتجاوزوا مع ثقة المنطق السياسي لدى الشعب، كان في مكانه. فلا فؤاد شهاب، ولا معاونوه، او انصاره، حاولوا جديا صياغة اهداف واسس سياستهم ليفهمها الناس بصورة عامة، والقيام بتعبئة للحصول على تأييد شعبي واسع وتنظيمه. لقد حاولوا اكثر فاكثر تطبيق الاجراءات التي اعتبروها محقة وصائبة بصورة تقنوقراطية واثوقراطية. تلاحبوا بالنظام السياسي، بدلا من تعديله بالوسائل الديمقراطية. وهكذا اثاروا معارضة عدد كبير من السياسيين لهم، خاصة الذين كانوا مقتنعين باهداف الاصلاح. كما اثاروا ايضا استياء عدد من الناضحين الذين كان بالامكان الحصول على تأييدهم لتلك الاهداف. فمحاولة الاصلاح في لبنان فشلت اخيرا بسبب قيام تحالف، لا متجانس اطلاقا من قبل معارضي الاصلاح والليبراليين المعارضين للعسكر وتدخلاته السياسية، والفئات الشعبية التي كانت تريد تحقيق تعديلات سريعة وجذرية. "قالاصلاح انطلاقا من القمة" تعرض لفشل ذريع عام ١٩٦٩.

عقب ذلك عهد جديد من الازدهار في ظل حكم "الثعالب". تحلّى هؤلاء بصفات عديدة، منها التعقل في عدم اثارة وتعرض التوازن في البلد للخطر، والاستعداد للوصول الى تسويات، بالاضافة الى درجة من روح التسامح البارز. ولكن لم يكن هناك اي اثر بين هذه الصفات لاي اهتمام بالمشكلات الاجتماعية. بعد عام ١٩٧٠، ازدهر بنوع خاص الفساد وعدم الاهلية الادارية. وهكذا عادت الطريق للصعود السياسي من قبل "الذئاب" الذين استغلوا لصالحهم الاحباط المتنامي، ليعبروا عن مطالبهم الراديكالية. وكذلك اضطر "الثعالب" الى اتخاذ مواقف راديكالية، كي لا يفقدوا، كل في طائفته، شعبيته وانصاره. الى جانب نقص الشعور الاجتماعي لدى طبقة السياسيين القدامى، لم تغير السنوات الاخيرة شيئاً كبيراً في هذا المجال. في عام ١٩٨٢ / ١٩٨٣ اظهر امين الجميل تفهما اقل للمشاكل الاجتماعية الحرجة التي اصبحت اكثر حرجاً وانفجاراً مما كانت عليه في عهد سليمان فرنجية.

ولكن لم يتبين ان "الذئاب" كانوا اكثر شعوراً واهتماماً بالقضايا الاجتماعية. لقد عبأوا الفقراء، ليس كفقراء، بل كاتباع طوائف معينة. استغلوا شعور الحرمان النسبي لدى الطوائف، دون خجل او حياء. فزعماء الاحزاب اليسارية تحدثوا بشكل آخر، ولكنهم استخدموا أيضاً وسيلة التعبئة الطائفية، نظراً لفعاليتها. ففي برامج الحركة الوطنية لم يعد يذكر احد شيئاً عن المطالب الاقتصادية. بالاختصار، "الذئاب" بحثوا في البداية عن "الامبراطورية السياسية"، مع الامل، بان "كل شيء سيعطى لهم". فكمال جنبلاط الذي اتهم شهاب بعدم الوثوق بالشعب، لم يعتمد هو أيضاً على وسيلة الاقناع، بل اختار طريق العنف.

ان مجموعة القيادات السياسية القديمة والجديدة، في جمهورية لبنان ما قبل الحرب، اسهمت كلها بطرق مختلفة في اضعاف او زوال هذه الجمهورية. هذا الواقع طرح أيضاً على بساط البحث الافتراض القائل بأن النظام السياسي لعام ١٩٤٣ يشكل جذور المرض اللبناني. فالسياسيون المعادون للنظام استغلوا هويات طائفية مختلفة ومشاعر طائفية، دون خجل او حياء، اكثر من الذين انشأوا هذا النظام وعملوا على الاحتفاظ به. قد يكون ذلك لمصلحتهم أيضاً مع بذل جهد متواصل، للحد من النزاع، ولتسويته. فسواء في أنظمة التوافق اوفي أنظمة ديمقراطية الاكثرية ابرزت الدول التعددية "ذئابها"، ونشبت النزاعات بين الطوائف في عدد كبير منها. لذلك كان من المحتمل ان تنشأ باكراً في لبنان، لو كانت هناك ديمقراطية الاكثرية، مشاعر الحرمان النسبي بين الطوائف حتى في غياب نظام يقوم على النسب او الحصص. فالتفوق العلمي لدى الطوائف المسيحية برز تاريخياً، وجعل حكماً تسلم الوظائف في القطاع العام حكراً عليهم. فحتى نهاية السبعينات كان نظام الحصص الطائفية يطبق كنظام تفرقة ايجابية لصالح المسلمين.

في عدد كبير من الدول التعددية، يطبق "القانون والنظام" على اساس سيطرة طائفة ما، وفي بعض الدول العربية المجاورة على اساس سيطرة الاقليات. ولكن كما استنتج بحق "لامبروخ" (Lehmbruch) عام ١٩٦٧، ليس من مبرر للاعتقاد بان انظمة هذه الدول هي اكثر فعالية. فهيمنة احدى الطوائف لم تستطع مثلاً في العراق الحؤول دون اندلاع حروب اهلية دائمة خلال سنوات طويلة.

ولكن في لبنان اثبتت الحرب التي دامت سنوات عديدة بان سيطرة مجموعة لا يمكن فرضها. فتوازن القوى لم يسمح بذلك. كما ان اخذ موازين القوى اللبنانية الداخلية بعين الاعتبار، لم يسمح بفرض اية سيطرة.

كشف نظام التوافق اللبناني عن عدة انجازات. فالتفاوت الكبير الذي خلفه عهد السيطرة العثمانية جرى الحد منه بصورة بارزة. ازدهار البلاد قبل الحرب أثر في بعض الدول المجاورة، خاصة انه وفر للبنانيين درجة من الحرية الفردية والجماعية لم تعرفها اي من البلدان المجاورة. سادت الحرية والديمقراطية في هذا البلد ليس بصورة الزامية مفروضة، بل نظراً الى واقع مجتمعه التعددي، وحال توازنه دون فرض حلول سلطوية فيه.

وكما اشير آنفا، كان من الممكن الوصول الى تكوين لبنان متوازن اجتماعيا واقتصاديا. فمحاولة النهج الشهابي الديمقراطي، لم تنجز حتى النهاية، لان العمى الاجتماعي لدى السياسيين القدامى، والمتمثل بالمواقف الراديكالية، والتعطش الى السلطة لدى النخبة السياسية الجديدة، اسهم في افراز الوضع الاليم وتفاقمه. لقد فسر الفريقيان وكشفا عن الاسباب التي دفعت اللبنانيين لاطلاق النار على بعضهم. ولكن لم تكن هذه الاسباب ملزمة ومقتعة لمعرفة لماذا اقدموا على ذلك في النهاية.

٢ - عسكرة النزاع

الاختبارات ليست ممكنة في التاريخ. ولكن لا يمكن البرهان ولا التأكيد عن اقدام اللبنانيين على اطلاق النار على بعضهم بعض حتى دون وجود الفلسطينيين. هذا امر ضعيف الامكانية. في عام ١٩٧٥ كانت النخبة السياسية اقل تمزقا مما كانت عليه عام ١٩٥٨، اقله فيما يتعلق بمسائل السياسة الداخلية.

فالامر الحاسم في عسكرة النزاعات اللبنانية الداخلية يعود سببه الى وجود قوة مسلحة في البلاد الى جانب قوة الدولة، وهي قوة الفلسطينيين. فانطلاقاً من وضع مصالحهم الذاتية، واختبارهم في الاردن، ومنطق فرض وجودهم، لم يبق لهم خيار آخر الا تسليح كل المجموعات التي تطوعت للتحالف معهم. وسوريا من جانبها

كانت لها مصلحة في دعم وتقوية الفلسطينيين ضد سلطة الدولة اللبنانية، وكذلك في عدم سماحها ايضا، كما تبين لاحقا، لمنظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها بالسيطرة على سلطة الدولة. واسرائيل من جانبها كانت لها مصلحة في ان تقوم الدولة اللبنانية بمحاربة الفلسطينيين - او في حال تعذرها وعدم استطاعة هذه الدولة - ان تساعد مجموعات مسلحة لبنانية لمحاربتهم.

وهكذا تحول لبنان الى مسرح بديل للمعارك من اجل فلسطين. ولم يمر وقت طويل حتى تحولت الحرب الى حرب اهلية.

كان اللبنانيون جميعا مسؤولين عن هذا التطور. فكمال جنبلاط وحلفاؤه من اليسار، وجدوا عبر مساعدة المنظمات الفلسطينية لهم فرصة فريدة للاستيلاء على الحكم. اما حزب الكتائب فقد حاول من جانبه اثارة الجيش اللبناني لضرب الفلسطينيين. ولكن "الاستبلاشمانت" الاسلامي منع استخدام الجيش. وحاول، اكثر من ذلك، استغلال الصراع لمصلحته والبلوغ الى توزيع جديد ومحدود للسلطة في البلاد. وهكذا بقى السؤال مطروحا حول امكانية ابعاد لبنان عن الانزلاق في نزاع الشرق الاوسط دون تحميل القيادات اللبنانية المختلفة هذه المسؤولية. في الاردن، لم تحصل اية خلافات تقليدية بين المسيحيين والمسلمين، بل كانت هناك سلطة مركزية قوية. ورغم ذلك حصلت حرب دموية. فهل كان بإمكان نظام شهابي ثابت وجيش قوي في لبنان، الحؤول دون قيام حرب لبنانية- فلسطينية؟ او في حال اندلاعها، هل كان بإمكانه كسبها؟ وعلى هذا السؤال، كما على اسئلة اخرى، لا يمكن اعطاء اجوبة بسهولة. فقد نوقشت كل هذه المسائل طويلا، منذ عام ١٩٨٦. فلو لم يقاوم المسيحيون الفلسطينيون، لثار ضدهم الشيعة الاكثر تضررا من نشاطهم، كما حصل في السنوات الاخيرة.

ولكن ما حصل هو ان الحرب اندلعت في البداية بين المسيحيين والفلسطينيين. ولكن هؤلاء قدموا لحلفائهم اللبنانيين السلاح والتدريب، ومكنوهم من اشعال حرب اهلية. وهكذا نجحوا في Eskرة النزاع بين اللبنانيين. في الواقع، كان هناك نزاع يمكن Eskرته، ولكنه كان نزاعا جانبيا، كنتيجة للحروب من اجل فلسطين، التي حصلت في فلسطين بالذات، وعلى الاراضي المصرية والسورية والاردنية. ولكن هذه الحروب انتقلت ايضا الى لبنان منذ عام ١٩٦٩.

٣ - تدخلات دون انتصارات

ان ما ينطبق على اندلاع الحرب ينطبق ايضا على استمرارها طويلا. بقيت الحرب الاهلية بمعظمها، ظاهرة عارضة من النزاعات تتفاعل حتى خارج لبنان،

ولكنها وقعت على الاراضي اللبنانية. بين ١٩٧٥ و ١٩٨٨ حصلت ست وعشرون مجابهة عسكرية كبيرة - دون احصاء "الحروب الصغيرة". وقعت ست منها بين قوى غير لبنانية. وفي تسع مجبهات حصلت المعارك بين اطراف النزاع اللبنانيين مع اطراف النزاع غير اللبنانيين، وضد حلفائهم اللبنانيين في الوقت نفسه. وفي تسع مجابهات فقط حارب لبنانيون ضد لبنانيين اخرين. ومن بينها ست مجابهات حصلت، ليس بين فريقين النزاع الرئيسيين، بل داخل صفوف كل فريق.

وقعت حرب اهلية بين الفريقين الرئيسيين في البداية، اي من صيف ١٩٧٥ وحتى خريف ١٩٧٦، عند ما حاربت الاحزاب المسيحية ضد تحالف قوى اليسار وجيش لبنان العربي والفلسطينيين. وقد شكل الفلسطينيون القوة العسكرية الرئيسية في هذا التحالف. اما الحرب الاهلية بمعناها الصحيح، فهي حرب الشوف - او حرب الجبل - التي وقعت بين الميليشيات المسيحية و الميليشيات الدرزية، رغم تلقي الدروز دعما واسعا من الفلسطينيين في المرحلة الاخيرة. وكذلك حصلت حرب اهلية بكل معنى الكلمة، بسبب الاتفاق اللبناني-الاسرائيلي. وهي الحرب التي شنها الدروز والشيعية ضد الحكومة والجيش. وقد تلقى معارضو الاتفاق دعما واسعا من سوريا، كما تلقت الحكومة مساعدة عبر الاميركيين والفرنسيين. وتصنف في خانة الحرب الاهلية الصرفة، النزاعات التي حصلت داخل صفوف كل فريق: المسيحيون ضد المسيحيين من جهة، الشيعة ضد الدروز، والشيعة ضد الشيعة من جهة اخرى. ومنذ نهاية عام ١٩٨٥ تكاثر هذا النوع من النزاعات - وهذا هو اوضح مؤشر للمأزق الذي حصل سابقا بين الميليشيات المسيحية والميليشيات الاسلامية. فقد خسرت الميليشيات المسيحية كل المناطق خارج معقل المسيحيين الرئيسي.

اما النزاعات التي شاركت فيها القوى والجيش الاجنبية، فلم تكن الاكثر عددا فقط، بل الاكثر شراسة ايضا. فالحسائر البشرية الاكثر جساما وقعت في تلك الحروب "غير اللبنانية"، خاصة في عام ١٩٧٦ و ١٩٨٢، والتي اشترك فيها اولا الفلسطينيون، ثم السوريون والفلسطينيون والاسرائيليون. لقد تميزت الحرب منذ بدايتها بطابع التدخلات الخارجية، او استهدفت فرض الهيمنة الخارجية على لبنان. ولكن لم تقلح اية منها في تحقيق هدفها. فقد فشلت، اما بسبب تدخلات خارجية اخرى، او بسبب مقاومة احد اطراف النزاع اللبنانيين.

ان محاولة الفلسطينيين لنصرة كمال جنبلاط وحلفائه، فشلت بسبب تدخل سوري افشل ايضا سابقا محاولة الاحزاب المسيحية لسحق الفلسطينيين عسكريا. فقد حاولت سوريا اخضاع الفلسطينيين، وكذلك المسيحيين لها. ولكنها تخلت عام ١٩٧٧ عن هذه المحاولة ضد الفلسطينيين بسبب حاجتها الى تاييدهم مجددا في نزاعها ضد السادات. اما اخضاع المسيحيين فقد فشل بسبب المقاومة الشديدة، وكذلك بسبب

الخوف من احتمال ردود فعل اسرائيلية.

والتدخل الاسرائيلي ادى الى اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت. ولكن هدفها الثاني الكامن في تمكين قوى لبنانية صديقة لاسرائيل من فرض هيمنتها، فشل بسبب مقاومة سوريا والشيعية. ان التدخل الاميريكي والفرنسي عام ١٩٨٢ - ١٩٨٤، الذي استهدف اعادة سلطة الدولة اللبنانية، فشل كذلك بسبب العرقلة الاسرائيلية والمقاومة السورية، وانتفاضة الدروز والشيعية ضد الحكومة المركزية، والتي ادت الى انقراط الجيش اللبناني.

اما محاولة سوريا الثانية لفرض هيمنتها على لبنان عبر اتفاق الميليشيات الثلاث، فقد فشل مجددا بسبب مقاومة المسيحيين والقسم المسيحي من الجيش.

وكذلك محاولة ايران لتثبيت نفوذها في لبنان عبر الميليشيات الشيعية الاصولية جوبهت بمعارضة ميليشيات حركة امل التي حصلت آنذاك على دعم وتأييد من سوريا.

وبالاختصار، الى جانب محاولة اطراف النزاع اللبنانيين لفرض هيمنة داخلية، فشلت حتى عام ١٩٩٠ كل محاولات القوى الخارجية، لفرض هيمنتها ايضا. وهكذا لم يكن بالامكان فرض سلام على الاطلاق، بل توالى دائما ومجددا حروب صغيرة وكبيرة.

لقد زُجَّ لبنان في وسط عاصفة سياسة الشرق الاوسط مع بداية المحاولات الاميريكية لتسوية المشكلة الفلسطينية، في البداية، دون منظمة التحرير، ثم ايضا دون سوريا، وكذلك دون مشاركة الاتحاد السوفياتي. لذلك بذلت منظمة التحرير جهودا، وسوريا كذلك، لافشال هذه المحاولة عبر تعبيرها بوضوح في لبنان وانطلاقا من لبنان عن انه لا يمكن تسوية نزاع الشرق الاوسط بدونها. فقد كانت سوريا ومنظمة التحرير تعتمدان على دور الاتحاد السوفياتي وتأييده لهما. اما اسرائيل، فقد حاولت في عهد "بيغن" و"شارون" فرض سلام على حدودها الشمالية عبر انتصارها في لبنان. فقد كان هناك تجاوب فقط من قبل الولايات المتحدة - طالما كان "الكسندر هاينغ" على رأس الدبلوماسية الاميريكية - وتأمين المساعدات العسكرية لها باستمرار. فقد ادركت الدولتان العظميان الاستقلالية النسبية التي مارسها حلفاؤها في المنطقة. فالاتحاد السوفياتي لم ينجح عام ١٩٧٦ وعام ١٩٨٣ في ردع سوريا عن حربها ضد منظمة التحرير. ومن جهتها تمكنت الولايات المتحدة من حث "اريل شارون" على وضع حد لحربه ضد سوريا في لبنان، ولكنها لم تتجح في الزام خلفه على مساعدتها لعدم افشال مساعيها السلمية في لبنان. الاتحاد السوفياتي اعلن عن استعداده لضمان امن سوريا، ولكن لم يتحرك لضمان

امن القوات السورية في لبنان. وكذلك الولايات المتحدة كانت، رغم التردد، مستعدة لـغض النظر عن حرب اسرائيل ضد منظمة التحرير، ولكن ليس عن حربها ضد سوريا في لبنان. على كل الاحوال ارادت الدولتان الكبيران الحؤول دون وقوع مجابهة سورية-اسرائيلية مباشرة، وذلك كي لا تضطر الى الالتزام بتعهداتها.

ومنذ عام ١٩٨٢ ابرزت كل من سوريا واسرائيل استعدادا محدودا فقط لمجابهة مباشرة في لبنان. فقد عادت اسرائيل الى سياسة "الخطوط الحمراء" التي حددتها عام ١٩٧٦، وسوريا بدورها احترمت هذه "الخطوط" الى حد ما. فلم تحاول التقدم نحو جنوب لبنان، ولم تستخدم سلاح طيرانها ضد اللبنانيين المعارضين لسياساتها. وبدلا من ذلك فضلت القوات الاقليميتان المتنافستان ان تتحارب المجموعات اللبنانية الموالية لها، خدمة لمصالحها.

فاسرائيل وجدت في جيش لبنان الجنوبي حليفا صغيرا لها، ولكنه جدير بالثقة، يستطيع أن يساهم في الدفاع عن منطقة الحزام الامني، وان بقدر محدود. اما سوريا فقد سيطرت على القسم الاكبر من الاراضي اللبنانية، ولكنها عمدت الى التسامح، وكذلك الى اثارة الخلافات والنزاعات بين حلفائها، نظرا لمصداقيتهم المحدودة. فمحاولتها لكسب القوات اللبنانية لجانبها، فشلت مع ازاحة ايلي حبيقة واقصائه عن قيادتها. وفي بداية عام ١٩٨٦ اسهم التدخل السوري في انقاذ حركة امل من هزيمة كانت محتمة في صراعها مع الدروز. ولكن دعم سوريا لهذه الحركة بقي محدودا، اذ ان الصراع الشيعي- الشيعي، اي بين هذه الحركة وحزب الله، لم تستطع حسمه لصالحها. اخيرا، غضبت سوريا النظر عن صراع حركة امل ضد عودة منظمة التحرير الفلسطينية التابعة لياسر عرفات. كما دعمت السيطرة على فلسطيني بيروت عبر المنظمة الفلسطينية الموالية لها.

لقد دفعت هزائم التدخلات الخارجية المذهلة الدول الكبرى الى ممارسة ضبط النفس والى دفع حلفائها في المنطقة ايضا الى ضبط النفس. ولكن حليفيهما، سوريا واسرائيل، استخدمتا كل منهما حلفاءه اللبنانيين لمتابعة الصراع.

٤ - تطور لدى اطراف النزاع اللبنانيين

ادى اندلاع الحرب الى تعبئة شعبية متتالية لبعض الطوائف. برزت تعبئة المسيحيين عام ١٩٧٥ و١٩٧٦، والدروز عام ١٩٨٢، ثم الشيعة ابتداء من عام ١٩٨٣. حصل ذلك في وقت كانت هذه الطوائف تشعر بتهديد لوجودها. فالطوائف المسيحية الصغيرة انضمت الى الموارنة، وذلك لان خصومهم لم يميزوا كثيرا بين الموارنة والمسيحيين الاخرين. فالمسيحيون غير الموارنة هجروا من البقاع وعاليه

والشوف وكذلك من جنوب لبنان. واصبحوا بسبب هذا التهجير اكثر نضالا مما كانوا سابقا في تاريخهم. وكذلك سنة بيروت اخذوا منذ عام ١٩٨٤ يشعرون بتهديد وجودهم، بعد ان نجحت الميليشيات الشيعية في فرض سيطرتها ايضا على الاحياء السكنية السنية. ولكن في تلك الاثناء كان الاوان قد فات، لاحداث أي تعبئة.

وبدلا من مواصلة التعبئة العنوية، ونظرا لاستمرار احداث الحرب، زادت قوة الميليشيات من حيث التدريب والنظام. فالميليشيات المسيحية والدرزية والشيعية سيطرت على مناطق جغرافية مندمجة، وانشأت اجهزة ادارية مدنية، وامنت مصادر تمويل لها عبر فرض الضرائب والرسوم الجمركية في المرافىء التابعة والخاضعة لها.

ايرزت الطوائف الثلاث التي انشأت ميليشيات و"كانتونات" لها، كما كشفت التحقيقات التحريبية، تماثلاً و تضامناً قويا. ولكن سياسيا، لم يؤيد "الذئاب" سوى اقليات في كل طائفة. لذلك كان للميليشيات ولقاداتها وللسياسيين المناضلين مصلحة في تغذية توترات محدودة على الاقل بين اطراف النزاع، لأن السلام سيحد حتما من نفوذهم. فالى جانب مصلحة الدول الاقليمية لاستمرار التوتر في لبنان، اضيفت ايضا مصلحة فرقاء النزاع الداخليين في الحفاظ على اوضاع مشابهة لاوضاع الحرب. وهكذا تحولت الحرب الى ظاهرة تفرض نفسها بنفسها وتسعى الى استمراريتها.

٥ - تصورات خاطئة لمصالح الحلفاء الخارجيين

لقد آمل كل فرقاء النزاع اللبنانيين في اوقات مختلفة بامكانيات انتصار عبر الاعتماد على مساعدة خارجية. لذلك نسجوا اوهاما مختلفة حول مصالح وإهداف الحلفاء الخارجيين. "البحث عن دولة خارجية حامية ينعكس في النهاية شرّاً على الفئة المحمية التي يستغلها الحامي، طالما كان ذلك ممكنا. لا يمكن ان تتصرف اية دولة حامية سياسيا وعسكريا دون البحث عن مصلحتها. كما ان الثمن الذي ينبغي على المحمي دفعه هو غالبا باهظ للغاية"^٧. لقد "اعتمد السنة منذ بداية الحرب على قوة الفلسطينيين كقوة اضافية حاسمة. وكذلك اعتمد المسيحيون على السوريين للحفاظ على سلطتهم، وعلى الاسرائيليين، لتدعيم هذه السلطة، وعلى الاميريكيين لاستعادة كسب حصتهم القديمة في السلطة على الاقل. لقد خدعوا انفسهم جميعا. فالفلسطينيون والسوريون، وكذلك الاسرائيليون، كانوا يبحثون بالدرجة الاولى عن

Georges CORM, Quelques réflexions méthodologiques et historiques sur la perception de la société libanaise par les élites des communautés chrétiennes, in : Joseph ABOU JAOUDE & al.

op. cit. p. 59.

مصالحهم الذاتية. ولم يكن للاميركيين اي اهتمام بلبنان، بل بمسألة تسوية النزاع الفلسطيني فقط. وعند ما تبين لهم مدى تعقيد الوضع في لبنان، تركوه ينهار.

ولكن الدروز بقيادة وليد جنبلاط، ادركوا كيفية استغلال حلفائهم الخارجيين بكثير من الحذر والتحفظ. لقد مكنهم الاسرائيليون وكذلك السوريون من توسيع منطقة نفوذهم بشكل بارز. ومنذ عام ١٩٨٦، عندما لم يبق لهم حليف الا سوريا فقط، رأوا سريعا ان سيطرتهم العسكرية على بيروت الغربية قد نزلت منهم، ولم يبق لهم الا الاحتفاظ والتفرد بسيطرتهم على "كانتوتهم" الذاتي.

اما النزاع بين الميليشيات الشيعية، فقد اثارته المنافسة بين حليفيهما الحاميين لها: سوريا وايران. فكان كل من حركة امل وحزب الله يأمل في ان الدولة الحامية له ستتمكن من الانتصار في النهاية على الاخر. وكان كل شيء يشير الى انهما سيعرفان ايضا المآسي الاليمة التي عرفت طوائف اخرى.

لنت مواقف السكان اللبنانيين، كما اعتقد ايضا عدد لا بأس به من سياسي النهج القديم على ان اللبنانيين يستطيعون توحيد صفوفهم وكلمتهم، اذا ما تركوا وحدهم. ولكن الواقع أشار بالمقابل الى ان عددا كبيرا من السياسيين القدامى قبل الحرب، ومعظم اسياذ الحرب لم يرغبوا في البقاء وحدهم، بل أملوا دائما "باسقاط التحالفات" المقبلة، كي يتمكنوا من احراز انتصار بالحصول على سلطة اكثر. فكل فرقاء النزاع اللبنانيين اسهموا في وقت او في اخر بالتوصل من "الاتحاد" اللبناني أو في انهياره، الأمر الذي لم يساعد احدا منهم في احراز اي نصر.

٦ - اهداف الجيران العرب

من بين كل الفعاليات الخارجية احتفظت سوريا بنوع خاص بنفوذ حاسم وبالسيطرة على الاحداث في لبنان. اما الفلسطينيون فقد ابعدوا في البداية من قبل اسرائيل، ثم من قبل سوريا، كعنصر نافذ وقوي في لبنان. ولم يلعبوا بعد ذلك سوى دور دفاعي فقط في جنوب لبنان. اما سوريا فقد لعبت دورا حاسما في افشال التدخل الاميركي. وكذلك من خلال دعمها للمنظمات المتحالفة معها، دفعت اسرائيل ايضا الى الاكتفاء بتأمين مصالحها الامنية في جنوب لبنان. فاذا كان من منتصر، وان مؤقتا، فهو سوريا، حتى وان لم تتمكن من السيطرة التامة على عمق المنطقة المسيحية، وقرضا دائما في كل مكان.

وضعت سوريا لنفسها اهدافا شبيهة بنظرية تأمرية. ولكن ليس لمثل هذه النظريات، وخاصة بالنسبة لسوريا، اي احتمال لتصديقها. فسوريا، دون اي ريب،

لديها مصالح بعيدة الامد، تعمل قيادتها على تحقيقها بكل عزم واصرار. فهي تمارس، حسب ما جاء على لسان الرئيس حافظ اسد، في اتجاه كل الدول العربية، سياسة "القومية التدخلية"، عند ما يكون ذلك ضروريا ومفيدا. فالهدف البعيد المدى للنفوذ السوري في لبنان يدخل في هذا الاطار. وكذلك رغبة سوريا للسيطرة على الحركة الفلسطينية، واستخدامها كوسيلة لسياستها. فضلا عن ذلك هناك مصالح دفاعية اساسية لسوريا في لبنان، حسب مفهوم قياداتها، التي ترى فيه "خاصرتها الضعيفة"، في اية مجابهة عسكرية محتملة مع اسرائيل^٨.

اما سعي سوريا لتحقيق هذه المصالح، فلا يدخل حتما في اطار "مشروع كبير"، بل يعتمد على استغلال الفرص التي تتوفر لها. فالمجابهة بين الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٨ اعطت فرصة لسوريا لممارسة دور الحكم، وفرض نفوذها على فريقين النزاع. تمكنت من ممارسة هذا الدور على افضل وجه والتمسك به، فمنعت كل فريق من احراز اي نصر على الآخر. فقد دعمت الفلسطينيين عند ما هددوا عام ١٩٦٩ و ١٩٧٣ بسحق الجيش اللبناني، وعام ١٩٧٥ بسحق الاحزاب المسيحية. وكذلك اسرعت سوريا لنجدة المسيحيين عام ١٩٧٦ وانقاذهم من هزيمة امام القوات الفلسطينية وجنبلات.

الرئيس الياس سركيس، اعتقد عند تسلمه سدة الرئاسة بنوايا القيادة السورية الهادفة الى تأييد الدولة اللبنانية، لبناء توازن جديد ولردع قوة الفلسطينيين. ولكن سرعان ما بدأ يشكك بنوايا سوريا. في عام ١٩٧٦ أثار امام مستشاره كريم بقرادوني: "اراد جمال عبد الناصر من لبنان ان يلتزم ويؤيد سياسة مصر الخارجية فقط، والرئيس فؤاد شهاب اراد ان يقرر وحده سياسة بلاده الداخلية. فكان هناك مجال لاتفاق متوازن. فقد اتبع فؤاد شهاب خط عبد الناصر في السياسة الخارجية، كما دعم عبد الناصر سياسة فؤاد شهاب الداخلية"^٩.

ولكن سركيس لم يتأكد من ان سوريا ستمكنه من تحقيق اتفاق مماثل. اخذ الشك بنوايا سوريا يراوده عام ١٩٧٨، اذ قال: "سوريا... لا تفهم لبنان، ولن تفهمه، حتى وان بقيت قواتها مائة سنة هنا. يريد السوريون تطبيق اساليبهم هنا، ويعتقدون بان على الرئيس اللبناني ان يحكم البلد، حسب طريقته"^{١٠}.

في عام ١٩٧٩ هدد عبد الحليم خدام، نائب الرئيس السوري، موجهها اليه الكلام:

٨- راجع: Daniel PIPES, Damascus and the Claim to Lebanon, in: Orbis, 30 (1987)4, p. 663-681;
Elizabéth PICARD, La politique de la Syrie au Liban. Les développements incontrôlables d'une stratégie ambitieuse, in : Maghreb-Machrek, 116 (1987), p. 5-34.

٩- Karim PAKRADOUNI, La paix manquée, op. cit. p. 21f.

١٠- ذات المصدر، ص ١٤٦.

"هدؤا يا فخامة الرئيس، سوف لن نقصف بيروت بعد الان. سنستخدم وسائل اخرى ونضرب في مكان آخر... الضربات على الراس ليست وحدها مميتة. في المستقبل سندفع عشرين الفا من الفلسطينيين لمحاربة عشرين الفا من القوات اللبنانية"^{١١}. في الواقع لم تستخدم القيادة السورية جيشها النظامي فقط، بل ايضا المجموعات المناصرة لها، لترويض خصمها في لبنان، ولكن مع تفضيل وتأييد لحلفائها.

وعند ما ابتعدت منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات عن الخط السياسي السوري، دفع حافظ اسد الفلسطينيين المنشقين، مقدما لهم المساعدة اللوجستية السورية، الى طرد هذه المنظمة من المناطق اللبنانية التي تسيطر عليها القوات السورية. وعند ما قبل امين الجميل عام ١٩٨٤ بتأييد السياسة الخارجية السورية، تلقى دعما قويا ضد خصومه الدروز والشيعية الذين طالبوا باستقالته وابعاده عن الحكم.

وهكذا اتضح حسب مفهوم الحكم السوري، الذي كشف في تلك الاثناء النقاب عنه، بان لبنان يدين "بئمن" كبير لجارته، بسبب مشاركتها خلال سنوات طويلة في النزاعات ومحاولة تسويتها. في اتفاق الميليشيات الرئيسية الثلاث عام ١٩٨٥، عبر لأول مرة عن دفع هذا "الئمن" بشكل معاهدة، تضمن "تكاملا استراتيجيا" بين البلدين. وهذا يعني سياسة خارجية موحدة، واتفاقا على مرابطة قوات سورية دائمة في لبنان، و"اعادة تاهيل" الجيش اللبناني تحت اشراف سوري. هذه المطالب لا تؤدي الى ضم لبنان الى سوريا، اي الى "انشلوس"، ولكن الى ابعاد من "فنلندنة" لسياسة لبنان الخارجية بكل معنى الكلمة، كما قبل بذلك فؤاد شهاب مع جمال عبد الناصر، وكما اظهر استعدادده للقبول بذلك، كل من الياس سرקيس وامين الجميل ايضا. فتنفيذ هذه المطالب، رغم الاحتفاظ بدولتين مستقلتين شكليا عن بعضهما، يعني القبول بالهيمنة السورية على لبنان، ضمن اطار معاهدة واضحة.

على اثر ذلك اقصت القوات اللبنانية رئيسها الذي وافق على هذا الاتفاق والذي رفضه ايضا القسم المسيحي من الجيش، وكذلك رئيس الجمهورية. وبقيت الميليشيات الشيعية والدرزية عند مواقفها.

ولكن في البداية لم تحاول سوريا ولا حلفاؤها اللبنانيون جديا سحق مقاومة المسيحيين عسكريا. ولكنهم عمدوا، اكثر من ذلك، الى مقاطعة مؤسسات الدولة السياسية حتى نهاية عهد امين الجميل في صيف ١٩٨٨ وبداية المجابهة المأساوية.

٧ - نهاية ديمقراطية التوافق بسبب فشل النخبة والازمة الدولية

ان فشل مجموعة القيادة في لبنان اضعف ديمقراطية التوافق اللبنانية. فالأزمة الدولية التي زُجّت فيها هذه القيادة كان باستطاعتها ان تجرّ دولة متجانسة الى حرب، ولكن ليس حكما الى حرب اهلية. لقد عرف لبنان ما قبل الحرب توترات اجتماعية، و خلافات بين طوائفه الدينية. فالأزمة الداخلية تفاقمت في تطورها وتحولها الى تماثل بين الفئات الاجتماعية والطوائف. لقد تحققت مساواة اكثر، ولكن في الوقت نفسه، اثّرت قوة الشعور بالحرمان النسبي لدى الطوائف الاسلامية التي كانت محرومة سابقا. فالانتصار السياسي للنخبة السياسية التقليدية على الاصلاحيين التقوقراط في عهد النهج الشهابي، دفع الى احباط الامل والتوقعات المنتظرة.

وفي الوقت نفسه، تحول لبنان الى اخر قاعدة لنضال الفلسطينيين. في سبيل تامين هذه القاعدة، عمد الفلسطينيون الى تسليح كل القوى والمنظمات السياسية التي عبّرت عن تأييدها لهم، الأمر الذي سهل عملية عسكرية النزاعات الداخلية.

اما الحرب الاهلية، فقد بقيت في معظم مراحلها تجاه الحروب البديلة في سبيل فلسطين، ظاهرة عارضة. ولكنها احدثت في الوقت نفسه تغييرا في النظام السياسي اللبناني. لقد نفذ القياديون المناضلون الى كل المجموعات واخذوا امكنة السياسيين التقليديين، وهكذا بقي النزاع، سواء كحرب دولية، او كحرب اهلية، دون مخرج حاسم حتى مدة طويلة من الزمن، لان الفعاليات الاقليمية، وكذلك الداخلية المناضلة، كانت لها مصلحة في استمرار النزاع وصيانة التوتر. وهكذا تحولت الحرب الى ظاهرة كانت تغذي استمراريتها بنفسها. وبالتالي حلّ مكان التوازن القائم على التوافق، توازن، غير مستقر، يقوم على الخوف والرعب.

الفصل التاسع

انهيار الدولة

الطريق نحو التبعية (١٩٨٨ - ١٩٩٠)

"لبنان الجديد لن يكون مستقلا، لن يكون موحدًا،
ولن يكون ديموقراطيا...فسوريا ستسيطر عليه".

بول.ا. جريد بني ور. د. ماك لورين

هذا التشخيص السلبي حول وحدة لبنان وديموقراطيته واستقلاله، كان شديد الاحتمال عندما استنتج عام ١٩٨٤. ان ما حصل خلال خمس عشرة سنة من الحرب اضفى على هذا التشخيص المزيد من الوضوح في التوقعات. فالدولة اللبنانية التي أضعفت سابقًا، ولكنها استمرت عبر مؤسساتها، بدأت منذ ذلك الحين بالانهيار. كذلك الجهود التي بذلت لاستعادة بنائها، انتهت الى تفتيت اوسع، والى ارتباط متزايد لبعض اجزائها بالدولة السورية المجاورة.

١ - لبنان دون رئيس

كل التغييرات الهامة التي حصلت في لبنان منذ عام ١٩٧٦ والتي رافقها ايضا تخطيط لانهيار الدولة ، تسببت عبر احداث وقعت في مناطق اخرى من الشرق الاوسط. ففي كانون الاول من العام ١٩٨٧ انتفض فلسطينيو الضفة الغربية وقطاع غزة ضد الاحتلال الاسرائيلي. وفي نهاية شهر تموز من العام ١٩٨٨ تخلى الاردن

عن مطالبه في الاراضي المحتلة. وعقب ذلك اعلان منظمة التحرير عن تأسيس دولة فلسطين المستقلة. واعترفت بدولة اسرائيل واعلنت عن استعدادها لمفاوضات السلام معها. وقد تمت اكرتية الدول العربية القيام بمحاولة جديدة لتسوية المشكلة الفلسطينية^٢. فقط سوريا بقيت منفردة بسياستها القائمة على المجابهة. كما دعمت وحدها، من بين كل الدول العربية ، ايران في حرب الخليج التي انتهت في نهاية شهر تموز ١٩٨٨ بعد ان خرج منها العراق منتصرا، بجيش قوي، وبميل شديد للثأر من النظام المعادي له في دمشق. فمن ترسانة الاسلحة الضخمة التي كان يمتلكها، اخذ العراق يمد خصوم سوريا في لبنان، القوات اللبنانية في البداية، ثم فصائل الجيش اللبناني المرابضة في المنطقة المسيحية.

فعلى التهديد الجديد الموجه اليها من الشرق، ردت سوريا بمساع اكثر فاعلية وقوة لتأمين جبهة حرة لها في الغرب، اي بفرض هيمنتها نهائيا على لبنان ، مستغلة بذلك فرصة نهاية ولاية الرئيس أمين الجميل ، في الوقت الذي كان يفترض فيه اجراء انتخاب رئيس جديد للبلاد قبل الثاني والعشرين من ايلول عام ١٩٨٨. فحتى نهاية شهر تموز كانت كل الاستعدادات للانتخابات، حسب التقاليد اللبنانية، قد مرت. اقترحت انذاك بعض اسماء للمرشحين، او قدم بعض السياسيين ترشيحهم. ووضعت الميليشيات والاحزاب السياسية "فيتو" على هذا المرشح او ذاك. وكان البحث يدور عن مرشح تسوية تقبل به كل القوى السياسية اللبنانية. ونظرا لتوزيع موازين القوى واقعيا في البلاد، كان من البديهي ايضا ان يسعى بعض المرشحين الى الحصول على تأييد الحكومة السورية. في ظروف سابقة، جرى الاتفاق على انتخاب فؤاد شهاب عام ١٩٥٨ بالتفاهم بين الولايات المتحدة الاميركية ومصر، والياس سركيس عام ١٩٧٦ بالتفاهم مع سوريا، وبشير الجميل بتأييد من اسرائيل، وأمين الجميل بدعم من الولايات المتحدة. ولكن هذه المرة تجلى بوضوح ان سوريا سترفض كل مرشح لا تتفق به، وتريد فرض مرشح يخضع لها دون شرط او قيد. فالسياسيون اللبنانيون الذين كانوا يحجون الى دمشق، طلب منهم، للحصول على الموافقة السورية، تقديم برامج عمل خطية، وبالتالي التعهد بتطبيقها، بعد تضمينها بكل وضوح ما جاء في اتفاق الميليشيات الثلاث الذي افشل عام ١٩٨٥. ولكن لم يوافق معظمهم على ذلك.

ان الذي اعلن ترشيحه رسميا، كان الرئيس السابق، سليمان فرنجية، الذي لم يتحدث اطلاقا عن اي برنامج اصلاحي. على اثر ذلك اعلنت الحكومة السورية حالا تأييدها التام له. يبدو انها كانت ظاهريا تعول على حليف أكيد لها يتحلى بالمصادقية

أكثر من حليف يعبر عن استعدادة للإصلاح. وبعد تردد قصير أعلن معظم السياسيين المسلمين تأييدهم لفرنجية، ولكن دون اغتباط، بل نزولا عند رغبات الإرادة السورية. أما لدى المسيحيين، فانقسمت الاتجاهات، فرأى بعض السياسيين التقليديين أن فرنجية هو فعلا حليف لسوريا، ولكنه أيضا رجل يتحلى بوطنية صلبة. ولذا قد يعتبر الأفضل اهلية للحفاظ على استمرارية الدولة في ظل الأوضاع السائدة، وتجنب مؤسساتها المخاطر المحدقة بها. ولكن عارضت بشدة ترشيح فرنجية القوات اللبنانية، باعتبارها ألد اعداء هذا الرجل منذ عام ١٩٧٨، بعدما طرد وهجر كل أفرادها ومؤيديها من منطقة لبنان الشمالي المسيحية. وكذلك لم يحبز سياسيون معتدلون آخرون الدعوة الى انتخاب الرجل الذي لم يستطع أبان ولايته من عام ١٩٧٠ الى ١٩٧٦، الحؤول دون اندلاع الحرب في البلاد، بل أصبح منذ ذلك الحين، وبنوع خاص، رمزا لاختضاع لبنان لإرادة سوريا.

دعا رئيس مجلس النواب حسين الحسيني أعضاء المجلس لعقد جلسة نيابية في الثامن عشر من آب عام ١٩٨٨ في قصر منصور، المبنى المؤقت للمجلس آنذاك. حضر ٢٨ من اصل ٣٥ نائبا مسلما وعشرة من اصل ٤١ نائبا مسيحيا. من بين هؤلاء حضر نائبان مارونيان، من اصل ٢١ نائبا مارونيا، كما منعت القوات اللبنانية بعض أعضاء البرلمان من الحضور الى المجلس. وبقي البعض الآخر بعيدا عن الاضواء، لعدم تأييدهم هذا المرشح أو ذاك. وهكذا لم يكتمل النصاب لعقد جلسة نيابية، كما فشلت عملية انتخاب رئيس جديد. وللمرة الاولى في تاريخ لبنان تبين انه ليس مستبعدا على الاطلاق عدم انتخاب رئيس للجمهورية، ضمن المهلة القانونية المحددة في الدستور. عندئذ بدأ انصار سوريا واعدائها بالاستعداد لمواجهة هذه الحال. فبموجب المادة ٦٢ من الدستور تقوم رئاسة السلطة التنفيذية بممارسة الحكم في حال شغور منصب رئاسة الجمهورية. ولكن منذ سنة تقريبا كان هناك رئيس حكومة بالوكالة فقط. فرئيس الحكومة السابق، رشيد كرامي، كان قد استقال من منصبه في الرابع من ايار عام ١٩٨٧، وجرى اغتياله في اول حزيران من تلك السنة. عندئذ كلف أمين الجميل وزير التربية، سليم الحص، بتصريف اعمال رئاسة الحكومة، حتى تأليف حكومة جديدة. وفي شهر آب عام ١٩٨٨ أعلن سليم الحص سحب استقالة الحكومة بهدف ممارسة كامل سلطات رئيس الجمهورية، في حال عدم التوصل الى انتخاب رئيس جديد. أما الرئيس الجميل، فكان قد ابلغ الحص رسميا بأن استقالة حكومة كرامي هي نهائية بموجب الدستور، مضيفا الى انه اذا لم ينتخب رئيس جديد للجمهورية قبل نهاية ولايته، سيعمد الى تشكيل حكومة جديدة.

ولكن رغم ذلك استمرت المساعي لتأمين انتخاب رئيس جديد. في الخامس عشر من ايلول سافر الى دمشق "ريشارد مورفي"، المبعوث الخاص الاميريكي. وبعد

مفاوضات دامت ثلاثة ايام مع الحكومة السورية جاءت نتيجتها مفاجئة للغاية، ومفادها ان الحكومتين الاميريكية والسورية تؤيدان ترشيح النائب ميخائيل الضاهر، لرئاسة الجمهورية. وهكذا كان من غير المألوف ومن المستهجن ان يعمد الى تسمية مرشح من قبل ممثلي دولتين اجنبيتين. في التدخلات السابقة من هذا النوع كان، على الاقل، يجري الحفاظ على السرية الدبلوماسية. ولكن هذه المرة برز بوضوح المغزى السياسي لهذه الظاهرة الجديدة. ميخائيل الضاهر، هو نائب من شمال لبنان، من منطقة عكار التي اضطر سكانها المسيحيون الى التعاون مع السوريين منذ عام ١٩٧٦. كان الضاهر معروفا كمحام لامع اكثر مما كان معروفا ككاتب. ورغم التزامه بالولاء غير المشروط للجار السوري مثل فرنجية، الا انه، عكس هذا الاخير، لم يكن يمتلك سلطة او نفوذا محليا ولا معنويا. فسوريا لم تكن ترغب اطلاقا بأي مرشح تسوية على مثال الياش سركيس، الذي كان مستعدا، رغم كل شيء، للتعاون معها. بل كانت تريد رجلا ضعيفا مسائرا لها، كرئيس للبنان.

فالدولة الغربية الكبرى، التي كانت اكثر اهتماما بالحصول على مساعدة سوريا لتحرير رهائنها المحتجزين في لبنان، وافقت على هذا الاتجاه وتبنته. على اثر ذلك، سافر "مورفي" الى لبنان واعلن بعد مقابلته للبطريرك الماروني: "هناك خيار واحد فقط، اما الضاهر او الفوضى".

فالذي كان يشك في عزم سوريا وحلفائها اللبنانيين على عدم السماح باي انتخاب آخر، زال شكه تماما عندما دعا حسين الحسيني النواب مجددا لعقد جلسة نيابية، ليس هذه المرة في قصر منصور الواقع في مكان "محايد"، بل في مبنى مجلس النواب القديم، الذي لم يستعمل اطلاقا منذ بداية الحرب، والواقع في ساحة النجمة في منطقة سيطرة الجيش السوري.

اما ردة فعل السياسيين المسيحيين ورؤساء الدين والجيش، فكانت واضحة تماما. فالنواب الذين كانوا سيقترعون لصالح فرنجية، لم يكونوا على استعداد اطلاقا لاثارة انتخاب ميخائيل الضاهر. فقد اجتمع ٢٧ نائبا لدى البطريرك الماروني، وطالبوا بانتخابات حرة في قصر منصور. اما الرفض القاطع، فقد جاء من قبل قائد الجيش الذي اعتبر ان الجيش ملزم بالحفاظ على الديموقراطية البرلمانية، وانه يرفض تعيين رئيس الجمهورية من قبل الولايات المتحدة وسوريا.

وفي اليوم الاخير من ولايته، سافر امين الجميل الى دمشق للقيام باخر محاولة توسط. في ذات اليوم، اجتمع ميشال عون وسمير جعجع، رغم ان الاثنين لم يكونا صديقين. ميشال عون لم يكن يقبل اطلاقا برؤية اجهزة غير اجهزة الجيش كسلطة مسلحة شرعية وحيدة في الدولة، وانه ينبغي حل الميليشيات. ولكنهما تخوفا من ان

بخضع امين الجميل في النهاية للضغوط السورية. وقد تأكد هذا التخوف. فبعد عودته من سوريا اعلن الجميل امام النواب المجتمعين في الصرح البطريركي، بانه لا يرى امكانية اخرى سوى الموافقة على انتخاب الضاهر. ولكن النواب رفضوا ذلك. عندئذ حاول امين الجميل في اليوم الاخير من ولايته، اي في الثاني والعشرين من ايلول، تأليف حكومة جديدة. ولكنه لم يجد اي سياسي مسلم على استعداد لقبول حقيبة وزارية في تلك الظروف. وفي ساعات متأخرة من ذلك المساء، وجه عون وجعجع الى الرئيس اذارا طالباه فيه بعدم ابقاء سليم الحص في منصبه: "يا فخامة الرئيس، ان الدستور يخولكم تأليف حكومة. فاذا فضلتكم عدم تأليف حكومة، فاننا سنعتبركم ابتداء من منتصف هذا الليل خائناً". وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين، وقع امين الجميل على مرسومين، الاول يقيل فيه حكومة تصريح الاعمال، وفي الثاني يعين حكومة انتقالية حتى انتخاب رئيس جديد للجمهورية. شكلت هذه الحكومة من ستة عسكريين، ماروني، وارتوذكسي، وكاثوليكي، وشيعي، ودرزي، وسني. كما عين ميشال عون رئيساً لها.

هذه الحكومة كانت شرعية وفقاً للدستور اللبناني، الذي يخول رئيس الجمهورية في المادة ٥٣ تعيين الوزراء "واختيار احدهم رئيساً للحكومة". حتى وان لم يستقل رئيس الحكومة، يحق لرئيس الجمهورية اقالته، وتعيين آخر مكانه. وهكذا تم تأليف حكومة عون وفقاً لقواعد لعبة الميثاق الوطني. ففي حال شغور منصب الرئاسة، تمارس الحكومة السلطة التنفيذية الوحيدة. ويجري توزيع الحقائق بين الطوائف داخل الحكومة. وقد حصلت سابقة مماثلة عام ١٩٥٢، عندما عين الرئيس بشارة الخوري قائد الجيش آنذاك، فؤاد شهاب، رئيساً لحكومة انتقالية.

وخلافاً لما حصل عام ١٩٥٢، لم يكن الوضع في ايلول ١٩٨٨ يسمح باعتراف غير مجزأ بحكومة، لا وفقاً للدستور، ولا وفقاً لاحترام اصول الميثاق الوطني. ولكن حكومة الحص، مثل حكومة عون، ادعت بانها الحكومة الدستورية. وفي الواقع حكم عون في المنطقة المسيحية والحص في المناطق التي تسيطر عليها الميليشيات الاسلامية، والجيش السوري. ولم تعد كلا الحكومتين تمثلان كل طوائف لبنان، لان الوزراء الثلاثة في حكومة عون الممثلين للطوائف الاسلامية، رفضوا تسليم حقائبهم، واثنان من الوزراء المسيحيين في حكومة الحص، اعتبروا هذه الاخيرة منحلة، وتوقفا عن ممارسة نشاطهما.

هكذا اصبح منصب رئيس الجمهورية شاغراً، وقامت حكومتان تدعي كل منهما قانونيتها وشرعيتها. وبعد الثاني عشر من تشرين الاول ١٩٨٨، شغل ايضا منصب رئيس مجلس النواب بانتهاء ولاية حسين الحسيني. وهكذا توقف ايضا مجلس النواب عن الاتقاد.

وعقب انقسام السلطة التنفيذية انقسام في الادارة وقيادة الجيش. فقد عين عون مدراء جددا للمكتب الثاني، وللحرس الجمهوري، وللامن العام. ورد الحص عليه بتعيينات معاكسة. وفي بداية تشرين الثاني عام ١٩٨٨، طالب وزير الدفاع في حكومة الحص العماد ميشال عون "بالكف عن نشاطاته السياسية"، التي لا تتفق مع وظيفته، كقائد للجيش. وبما ان عون لم يستجب لهذا الطلب، عين سليم الحص البريغادير سامي الخطيب، قائدا اعلى للجيش بالوكالة. وبدورها، استبدلت حكومة عون كل ضباط الجيش ورجال الامن الذين لم يلتحقوا بمراكز عملهم، ومعظمهم من المسلمين، بضباط من المناطق الواقعة تحت سيطرتها، ومعظمهم من المسيحيين. اما الادارات الوزارية والسلطات المختلفة، فقد التحقت بالحكومة التي تسيطر على المنطقة التي تقع فيها مراكزها ومكاتبها. ولكن البنك المركزي تجنب الالتحاق باي من الحكومتين، وواصل تمويل حاجاتهما. وبعد مرور ثلاثة اشهر تقريبا على فشل انتخاب رئيس للجمهورية، كانت عملية انهيار الدولة اللبنانية قد قطعت شوطا بعيدا.

بعد هذه الاحداث سقطت كل التحفظات اللفظية لدى المسؤولين. فقد اعلن كل من نبيه بري ووليد جنبلاط، وكانا وزيرين في حكومة الحص، في مؤتمر عقد في المختاره، شارك فيه ممثلون عن حزب البعث، والحزب القومي السوري، والحزب الشيوعي، وميليشيات حبيقة، عن وفاة الميثاق الوطني، وطالبا "بالديموقراطية العددية". وقد ذهب جنبلاط الى ابعد من ذلك مفضلا ضم "المناطق الوطنية" الى سوريا على اعادة الاتحاد مع "منطقة تخضع لسيطرة الغرب ولاصدقاء اسرائيل". وقد رفضت كل عروض الوساطة من قبل زعمي الميليشيات، خاصة العرض الذي تقدمت به فرنسا لاجراء انتخابات في حماية واشراف قوات الامم المتحدة، وكذلك ايضا عرض البطريرك الماروني للبحث مجددا عن مرشح تسوية. وفي وقت قصير لاحق اعلن عبد الحليم خدام، نائب الرئيس السوري، عن ان كل مرشح ينبغي عليه ان يقدم برنامجا خطيا، يجري الحكم عليه بموجبه. وبذلك تاكدت علنيا الاشاعات التي كانت ترددت، وأشير اليها سابقا. فمطلب زعمي الميليشيات وولي امرهم السوري، عبّر عنه هكذا بكل جلاء اكثر من اي وقت مضى. ويتلخص هذا المطلب بتغيير جوهري في النظام السياسي اللبناني، وبالاقرار بالهيمنة السورية.

وبدوره كان العماد ميشال عون ايضا واضحا. فقد وصف حكومته "بحكومة الاستقلال"، وتساءل: "هل نحن بلد مستقل، او ولاية سورية؟... السوريون يحكمون بلدنا، يتدخلون من اعلى الى اسفل في كل شؤوننا. في النهاية سوريا تريد ضم لبنان اليها. وهذه الفكرة نريد محاربتها".

٢ - محاولة العماد عون لاعادة بناء الدولة

في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٨٩، قرر مجلس الجامعة العربية، الذي انعقد على مستوى وزراء الخارجية، تشكيل لجنة لتسوية المشكلة اللبنانية. وبنوع خاص شدد العراق على قيام مبادرة عربية وذلك -حسب كلام وزير خارجيته- "لمنع سوريا من وضع اليد على لبنان، بالعنف والارهاب". وكانت سوريا قد عارضت دوماً "تعريب" الازمة اللبنانية، وكذلك ايضا "تدويلها". ونظرا لعزلها في العالم العربي، جرى هذه المرة، رغما عنها، اتفاق لتشكل لجنة برئاسة وزير الخارجية الكويتي. فقد دعت هذه اللجنة الشخصيات القيادية اللبنانية الى تونس، ومن بينهم العماد عون، وسليم الحص، وحسين الحسيني. فقد شدد الحص والحسيني على ضرورة الاصلاحات السياسية في لبنان. ولكن عون اعلن عن امكانية وجود خلافات في الرأي بين اللبنانيين. الا انه من الممكن تسويتها فقط بين اللبنانيين انفسهم، والشرط الاساسي لذلك هو انسحاب الجيش السوري من لبنان. اما هدفه الرئيسي فكان العمل على تحقيق هذا الانسحاب واستعادة السيادة اللبنانية.

ولكن بعد عودته من تونس، كان على العماد عون ان يعالج مشكلة تثبيت سلطة حكومته اولا في المنطقة المسيحية. فلم يرفض حق وجود الميليشيات، طالما بقي التهديد الخارجي مسلطا على البلد. ولكنه لحظ لها دورا مساعدا للجيش النظامي، دون ان تكون لها مهام رسمية في شؤون الدولة. وهذا ما تمازت به القوات اللبنانية الى درجة كبيرة، اذ رفضت تسليم المرافق البحرية الى الدولة، واستمرت في جباية "الضرائب"، بينما يزداد يزداد العجز في موازنة الدولة ومداخيلها باستمرار. وكذلك نافست القوات اللبنانية الجيش في مجال تجنيد عناصر جديدة، لانها كانت تدفع لمقاتليها معاشات افضل مما يدفع الجيش الى جنوده. اخيرا، انشأت القوات "مجلسا للتنمية" بهدف تقديم مساعدات اجتماعية وتربوية واقتصادية، بدلا من الدولة.

فبعد حصول عدد من الاشتباكات الفردية المتفرقة، اندلعت في العاشر من شباط عام ١٩٨٩ معارك طاحنة بين الجيش والقوات اللبنانية، اتهم خلالها العماد عون هذه القوات بانها تحضر لانقلاب، وان ميليشياتها تتصرف مثل المافيا. ورأى ان من واجبه تثبيت حقوق الحكومة الشرعية. فالقوى المتخاصمة كانت قوية عددا. كان الجيش اللبناني التابع لسلطة العماد عون يقدر بخمسة عشر الف عنصر، والميليشيات بحوالي عشرة الاف عنصر. وكان الفريقان مدججين بالاسلحة بفضل الامدادات العراقية. حصلت المعارك في ضواحي بيروت المسيحية، وفي بعض القرى الجبلية، وعلى طول الشريط الساحلي في المنطقة المسيحية.

بعد استخدام الفريقين المصفحات والمدفعية^٣، طلب البطريك الماروني وتجمع السياسيين المسيحيين وقف المعارك. قلباً عون هذا الطلب، ورضخت الميليشيات للمطالب الرئيسية للحكومة: أي تسليمها الحوض الخامس في مرفأ بيروت، وهو اهم مورد في البلاد لجباية الرسوم الجمركية، وتسليم حاجر البربارة الواقع على الطريق الرئيسية في شمال المنطقة المسيحية الى الجيش، وعودة الميليشيات الى ثكناتها. وهكذا استعادت الدولة اهم مصادر دخلها.

نفذت حكومة عون ذلك بهدف استعادة سلطة الدولة^٥. فلم تتردد اطلاقاً في استخدام اعنف الوسائل ضد الميليشيات التي تعتبر من صميم "فريقها". ثم طالبت كل الميليشيات الاخرى باغلاق "مرافئها" او بتسليمها الى الحكومة. استجابت ميليشيات المردة التابعة لفرنجية لهذا الطلب، اقله شكلياً، فسلمت مرفأ سلعا الى احدى فصائل الجيش المرابضة في المنطقة. وامتنع عن ذلك نبيه بري ووليد جنبلاط والميليشيات التابعة لهما.

في الثالث من اذار ١٩٨٩ أمر العماد عون بمحاصرة المرافئ التي تسيطر عليها حركة امل والحزب التقدمي الاشتراكي في خلده والجية والاوزاعي. فمنعت مراكب من البحرية اللبنانية ووحدات من الطوافات الجوية الدخول الى هذه المرافئ.

٣ - قصف مدفعي وحصارات

كانت الحكومة السورية قد اندرت سابقاً العماد عون بطريقة غير رسمية، بأنه

- ٣- جاءت حصيلة هذه المعارك ٧٧ قتيلًا و ٢٠٠ جريحاً، معظمهم من مقاتلي الفريقين.
- ٤- حسب معلومات العماد عون كانت القوات اللبنانية تفرض رسوماً بقيمة ٢٪ على مبيعات العقارات والاراضي، ١٪ على الابنية الجديدة وعمليات الارث، ٤٪ على مدخول المطاعم، بين ٤٠ و ١٢٥ دولاراً على كل مسافر على الباخرة من جونية الى لارنكا، وعشرين ليرة لبنانية على كل ليتر بنزين. وبالإضافة الى "مداخل الجمر" في مرفأ بيروت وجونية، وصل مبلغ جبايات القوات اللبنانية الى اربع مائة مليون ليرة لبنانية يومياً. بعد الاتفاق الجديد كان على القوات اللبنانية ان تحافظ على جباية الرسوم المفروضة على "مداخل" المطاعم ومحلات التسلية. - وقد اتهم داني شمعون القوات اللبنانية بأنها تحصل على مداخيل اضافية من محلات الدعارة ومن تجارة المخدرات. - بعد هذا الاتفاق ارتفعت واردات الدولة من الرسوم الجمركية بصورة بارزة. وانعكس ذلك ايجابياً على سعر صرف الدولار الذي تراجع من ٥٠٢ الى ٤٠٠ ل.ل.
- ٥- Jihad ALAM, Crise dans la Crise, Guerre dans la Guerre, In: Les Cahiers de l'Orient, 14 (1989)2, p. 41. علق على هذا الأمر بقوله: "لأول مرة تحاول سلطة قانونية وتتجج، وان جزئياً، بوضع حد لحكم الميليشيات". يفعل هذا التصرف تجاه القوات اللبنانية، اكتسب العماد عون شعبية واسعة لدى المسيحيين كما لدى المسلمين.

يستطيع ان يفعل ما يريد في "منطقته"، ولكنها لن تتسامح مع اي عمل مماثل ضد الميليشيات في المناطق الاخرى. وعندما تمسك العماد عون بقراره، ردت سوريا سريعا وبعنف. فبدأت مدفعية الجيش السوري في المتن الاعلى ومدفعية الحزب التقدمي الاشتراكي في الشوف بقصف مرافئ بيروت وحونية. فرد العماد عون بدوره بقصف المطار. وهكذا شلت الحركة في المرافئ والمطار. على اثر ذلك، بدأ عون تصعيدا كلاميا. في الرابع عشر من اذار ١٩٨٩ اعلن "حرب التحرير ضد سوريا"، نظرا لعدم وجود اي خيار اخر. "من المؤكد ان سوريا هي اقوى من لبنان، والا لما استطاعت احتلاله. ولكن لم يبق للبنانيين خيار آخر، الا الانتفاضة ضد هذا الاحتلال. فالدول العربية، وغير العربية، ومن بينها سوريا، طالبت دائما بان على الدولة اللبنانية ان تستعيد سلطتها، وانا لا افعل شيئا آخر".

لم تكن سوريا والميليشيات المتعاونة معها في وضع يسمح لها بالرد على هذا التصعيد الكلامي. ولكنها في الحادي والعشرين من آذار، اقامت حصارا شاملا على المنطقة التي كانت تسيطر عليها حكومة العماد عون. فاغلقت كل نقاط العبور على خطوط التماس في بيروت، والجبل، والشمال. وتمكنت المدفعية السورية انطلاقا من مرائبها في الجبل من قصف مرافئ المنطقة المسيحية بسهولة. ولم يعد بالامكان استخدام هذه المرافئ الا بحذر شديد. وقد توقف ايضا النقل البحري بين جونية وقبرص. فقد استخدم الجيش السوري كل الاسلحة التي استخدمها سابقا ضد الفلسطينيين والمسيحيين اللبنانيين، في حرب استنزاف عن بعد، من خلال قصف الاحياء السكنية. كان التدمير هذه المرة قاسيا للغاية، نظرا لاستخدام مدافع من عيار ٢٤٠ ملم. وللمرة الاولى استخدمت قذائف حارقة. استهدف القصف اهدافا اكثر دقة من الماضي. فبعد مرور ايام قليلة جرى تدمير محطة توليد كهربائية و ٨٠٪ من خزانات البنزين والمازوت والغاز...

اما قوات العماد عون فقد ردت بعنف على القصف. كان سلاحها افضل بكثير من سلاح اي خصم لسوريا في مجابهات سابقة في لبنان، باستثناء الاسرائيليين. فقد قصفت مرائب السوريين في البقاع، كما دمرت قرى درزية في جوار مواقع الحزب التقدمي الاشتراكي. وفي عمليات القصف على المواقع السورية من قبل الجيش اللبناني، تعرض السكان في غرب بيروت لذات المآسي التي تعرض لها السكان في شرقها، بسبب القصف السوري. فقد هرب عشرات الالوف من سكان بيروت الغربية، وخاصة سكان الاحياء الشعبية المجاورة لمطار بيروت، مرة اخرى الى جنوب البلاد.

من المنظور السوري لم يكن هذا الامر مجددا سوى "حرب اهلية لبنانية"، قدمت خلالها سوريا دعما ومساعدة لحلفائها. لا ريب في أن هذا الكلام صحيح بجزء منه.

فالميليشيات الدرزية شاركت في المعارك ابتداء من السادس من آذار. وحركة أمل وحزب الله أوقفوا حربهما الشيعية في الخامس عشر من كانون الثاني، وشاركوا في الاشتباكات العسكرية على خطوط التماس. وأعلنوا في بيان مشترك مواصلة القتال حتى النصر النهائي ضد العماد عون. وهذا ما أعطى مفهوم الحرب الاهلية طابعاً سياسياً معيناً. وتجدر الإشارة هنا الى ان وحدات الجيش النظامي اللبناني التابعة لحكومة الحصن قد اشتركت رمزيًا بالمعارك. كما ان هناك دلائل على ان الجنود المسلمين كانوا ينقلون الى زملائهم في الوحدات التابعة للعماد عون، معلومات عن مواقع الجيش السوري.

وهكذا مثلما حصل في مراحل سابقة من الحرب، لم تكن الحرب الاهلية الا ظاهرة عارضة. ولكنها هذه المرة كانت تدور حول حرب نفذتها القوات السورية ضد ما تبقى من دولة لبنانية كانت ما تزال مستقلة عن سوريا.

في المنطقة الصغيرة، حيث تمكنت هذه الدولة من فرض نفسها، كانت نتائج القصف والحصار مرعبة للغاية. فقد شلت الاعمال التجارية اليومية. وحتى في الأيام "الهادئة" نسبياً، كانت القذائف المتقطعة تفرض بقاء المؤسسات، والمدارس، والمتاجر، والمكاتب الادارية، مغلقة. ولم يكن بإمكان السكان الخروج من الملاجئ. ففي الثالث عشر من نيسان ١٩٨٩، ذكرى اندلاع الحرب اللبنانية، سقطت عشرة آلاف قذيفة مدفعية وصاروخية على المنطقة المسيحية. وكانت تلك العملية اعنف عملية تدمير وقصف، منذ الحصار الاسرائيلي لبيروت الغربية عام ١٩٨٢. فاندلعت النيران والحرائق في المستشفيات ومستودعات الحبوب. وانقطع التيار الكهربائي تماماً. ونفدت الوقود والمواد الغذائية من الاسواق.

وكذلك في مناطق اخرى من لبنان كانت الخسائر البشرية والاضرار المادية كبيرة. فقد قصفت مدفعية الجيش التابع للعماد عون كل الاهداف والمواقع السورية بين بيروت وبعبك. ولكن مثلما كان الجيش السوري يلحق اصابات كبيرة وبالغة بالمدنيين اكثر من العسكريين، هكذا كانت ايضا نتائج قصف قوات العماد عون.

وبالنتيجة أدت محاولة اعادة بناء الدولة فقط الى تحويل خطوط التماس الى جبهة عسكرية جديدة.

٤ - المتفرجون

منذ سنوات كان عدد كبير من اللبنانيين يحلم بالتححرر من اعتباطية الميليشيات المحلية ومن الجيوش الاجنبية. فعندما عبر لأول مرة العماد عون عن هذه الرغبة،

وبلغة واضحة، استطاع الاعتماد على ترحيب وتأييد واسع جدا بين اللبنانيين. ولكن في ظل الضغط السوري المكثف، تكاثرت الاسئلة. هل اختار العماد الوقت الملائم لهذه المحاولة؟ وهل تتوفر لديه الوسائل لتحقيق هدفه؟ على السؤال الاول اجاب: "من الاجدر أن يحصل ذلك متأخرا، بدلا من ان لا يحصل اطلاقا. لقد تأخرنا على ذلك اكثر من اربعة عشر عاما، وكنا سائرين على طريق الانهيار التام في البلد". وعلى السؤال الثاني لم يشك احد اطلاقا في ان حرب التحرير تتطلب تضحيات قاسية، وان لبنان لا يستطيع تحرير نفسه بقواه الذاتية. وقد بدا ان العماد، كان يعتمد على دعم خارجي، سواء من جانب العالم العربي، او من جانب القوى الخارجية.

وهذا الامل بالذات كان الدافع الحاسم في سرعة الاجراءات المعاكسة السورية وقساوتها. بالنسبة لسوريا، كان لا بد من سحق المقاومة الجديدة قبل ان تتمكن من الحصول على دعم اقليمي او دولي. وهذا الدعم لم يأت. فقد سعت الجامعة العربية الى وقف اطلاق النار عدة مرات، وبقيت موافقها بالنسبة لانسحاب القوات السورية من لبنان "سيبيلينية"، اي وهمية. فبعد مفاوضات عديدة، طالب وزير الخارجية الكويتي، رئيس لجنة الجامعة العربية المهمة بلبنان، بانسحاب "القوات الاسرائيلية وغير الاسرائيلية". وبما ان اسرائيل اشترطت انسحاب القوات السورية كي تسحب قواتها، وسوريا اشترطت انسحاب القوات الاسرائيلية كي تسحب هي ايضا قواتها، فقد بقي هذا المطلب عديم الفائدة. عندئذ سعت المملكة العربية السعودية الى استبعاد اي قرار لا يرضي سوريا، وذلك خوفا من تزايد نفوذ العراق في المنطقة، خاصة انه طالب بشدة بانسحاب سوريا من لبنان، وأمن امدادات الاسلحة لجيش العماد عون. ولكنه لم يمهده باسلحة مثل صواريخ ارض ارض، تسمح للجيش اللبناني بقصف عمق الاراضي السورية. فقد تخوف المشككون اللبنانيون من ان يكون هدف العراق محاربة سوريا حتى آخر لبناني. واسرائيل بدورها رأت بارتياح كبير، وصول آلاف اللاجئين اللبنانيين الى منطقة الحزام الامني التي تسيطر عليها قواتها بحثا عن الامن، كما رحبت باحداث لبنان التي حجت عن الانتظار انهماك الرأي العام الدولي واهتمامه بالانتفاضة الفلسطينية.

اما ردود فعل القوى غير الاقليمية، فكانت مخيبة لامال العماد عون وانصاره. فقد اوضحت الادارة الاميركية الجديدة بانها لا تنوي اطلاقا التدخل مجددا في الشؤون اللبنانية^٦. وكذلك عبر الموظفون القياديون في هذه الادارة عن لا مبالة واضحة تجاه لبنان^٧، مشيرين الى انهم مازالوا في حالة استياء، لان العماد عون

٦- اعلن الرئيس بوش: "لا يوجد اي مخطط مذهب يستطيع اعادة السلام الى لبنان".
٧- في خطاب القاه "مورفي" عن السياسة الاميركية في الشرق الأوسط في المعهد الفرنسي للعلاقات الخارجية في نيسان ١٩٨٩، لم يأت على ذكر لبنان بكلمة واحدة.

حال، في ايلول عام ١٩٨٨، دون انتخاب النائب ميخائيل الضاهر الذي اقترحوه وتفاوضوا على ترشيحه مع السوريين كرئيس للجمهورية. اما تمنياتهم بوقف اطلاق النار، فلم تكن سوى بادرة بيلاطس البنطي باسم الحكومة الاميركية. اما الحكومة الفرنسية، فقد ابدت في البداية التزاما قويا. فقد وصف مبعوثها الخاص، "فرانسوا دينيو" (François Deniau) سوريا بالدولة المعتدية على لبنان^٨. ولكن نظرا لردة الفعل السورية القاسية، أعطي لهذا التصريح طابع التعبير عن "رأي خاص"^٩. وبشكل مماثل حصل تصنيف سياسي للمساعدة الفرنسية للبنان، من خلال ارسال باخرة مستشفى، وناقلة محروقات. فقد اعتبرت هذه المساعدة في البداية مؤشرا سياسيا لدعم العماد عون، ولكنها سرعان ما اخذت، بسبب التهديدات السورية، طابع الاجراءات الانسانية لصالح كل اللبنانيين دون تمييز او تفضيل سياسي. والسبب الرئيسي لهذا التراجع الفرنسي يعود دون شك الى الامتناع الاميركي عن تقديم اية مساعدة سعى اليها جاهدًا وزير الخارجية الفرنسية، اثناء زيارة قام بها الى واشنطن. بعد ذلك بقيت فرنسا الدولة الاجنبية الوحيدة التي قدمت، على الاقل، بعض المساعدات الى لبنان. فقد أجلى عدد من المصابين من ذوي الحالات الخطيرة عن بيروت على متن سفن فرنسية. ولقاء ذلك، تمكنت فرنسا من تسليم الوقود لتشغيل محطات توليد الكهرباء في البلاد^{١٠}.

اخيرا تمكنت فرنسا ايضا، رغم المعارضة الاميركية، من طرح المشكلة اللبنانية في مجلس الامن. وقد دعمها في هذا المجال الاتحاد السوفياتي، الذي ابرز استياءه، ان لم يكن استهجانا، ازاء التصرف السوري في لبنان. فقرر مجلس الامن بالاجماع تكليف الامين العام "بيريز داكوالار" بالقيام "باتصالات مع مختلف الاقراء"، والدعوة الى وقف لاطلاق النار، ودعم مبادرة الوساطة التي تقوم بها الجامعة العربية، والمساعدة الانسانية من قبل سلطة الانتداب القديمة، وعروض الوساطة من قبل الجامعة العربية والامم المتحدة. هذا ما اكتفت به في البداية ردود الفعل الدولية. ولكنها لم تكن ملائمة وكافية لردع سوريا على الاطلاق.

على اثر ذلك، ابدت سوريا تصلبا في استعدادها وعزمها على تحقيق اهدافها

٨- لقد حاول "دينيو" (Deniau) اثارة التزام قوى من قبل الولايات المتحدة، ولكن دون جدوى. فلشدة امتعاضه أشار الى ان سوريا تغض النظر عن زراعة الحشيش والمخدرات في سهل البقاع وعن تدريب الارهابيين، ولكن الولايات المتحدة - بعكس سياستها في مناطق أخرى من العالم - لا تستنكر هذه الممارسات.

٩- هكذا تحدث وزير الخارجية الفرنسية، "رولان دوما" وكذلك وزير الدولة للشؤون الانسانية "برنار كوشنار". وقد صرح ايضا "ميشال روكار" بان فرنسا تطالب بانسحاب القوات السورية من لبنان، ولكنها لا تنوي محاربة سوريا.

١٠- وافقت جمهورية ألمانيا الاتحادية على قرار مجلس الوزراء الاوروبي الذي طالب بانسحاب كل القوات غير اللبنانية من لبنان. ورغم ذلك واصلت برنامج تعاونها الاقتصادي مع سوريا.

السياسية في لبنان باللجوء الى القوة العسكرية. فقد كانت - مثلما كانت منذ بداية تدخلها في لبنان - في وضع يسمح لها بتحقيق ما تريد، دون تعريض جنودها الى خسائر كبيرة في الارواح . فالحرب تقع في لبنان، وليس من اي خصم لبناني يستطيع الزام قواتها بالعودة الى سوريا. كما ان حربها التي تقوم على التدمير والقصف المدفعي والصاروخي عن بعد، كانت تهدد حياة السكان اللبنانيين المدنيين على جانبي جبهات القتال، وكل ما تبقى من البنى الاقتصادية التحتية في البلاد. كان بإمكان سوريا ممارسة "سياسة الارض المحروقة"، وخاصة الاراضي اللبنانية المحروقة. في هذا الاطار، تحدث "ارنولد هوتنغر" عن "لعب العماد عون مع الموت"^{١١}، فقد اعتقد بان الاخبار الجديدة عن الموت والدمار في لبنان ستثير السخط الدولي، وستؤدي نتائجها الى الحصول على مساعدة خارجية. فاذا كانت هذه هي بالفعل نوايا العماد عون، فانه قد خسر سريعا "لعبته"^{١٢}.

فالسخط الدولي كانت له حدود. وانباء الرعب المتكررة اصبحت مبتذلة. وفي نيسان ١٩٨٩ اخذت المؤشرات الاولى تبرز حول مدى الدعم السياسي للعماد عون. بدأ بعض السياسيين المسيحيين يتساءلون : ألم يكن من الافضل لهم القبول بانتخاب رئيس موال لسوريا، مثل فرنجية او ضاهر، والحفاظ بالتالي على الدولة اللبنانية، وان في ظل الحماية السورية، وعقد الامال على ايام افضل؟ واعتبر آخرون موقف العماد عون عبثيا، لانه يريد تحرير المسلمين اللبنانيين على حساب المسيحيين. ليس من الافضل ان يترك لهم ذلك. وقد برز هذا التساؤل وكأنه رواية اخرى جديدة للبرهان على الرغبة في التقسيم. في تلك الاثناء، اجتمع ٢٣ نائبا في الصرح البطريركي الماروني وطالبوا بوقف لاطلاق النار، كما اعلنوا عن استعدادهم للاتصال بكل اطراف النزاع والسلطات، والعمل في سبيل احلال السلام^{١٣}. وقد عبر البطريرك الماروني عن ان تحرير لبنان ينبغي ان يحصل بالتعقل والحوار. ولكن بادرة هؤلاء النواب اثار ايضا احتجاجات عنيفة. فقد تظاهر آلاف الشباب ضدهم وكذلك ايضا ضد البطريرك ، الامر الذي لم يحصل اطلاقا سابقا في تاريخ لبنان المسيحي. وهكذا برز نوعان من التقديرات المتضاربة للوضع في

١١- راجع : Neue Zürche Zeitung, 7.4.1989

وكذلك Joseph MAILA, in : Esprit 150 (1989)5, p. 119.

"... يبدو ان العماد عون توقع تدخل دول كبرى لصالح تكويل الأزمة".

١٢- راجع ايضا : Frankfurter Allgemeine Zeitung, 29.9.1989:

"كان فشله (اي عون) بارزا جدا لدى الولايات المتحدة، وهذا ما عكس الموقف الذي اتخذته عام ٨٢/١٩٨٢، عندما اخذت تميل الى ترك لبنان الى السوريين كمنطقة نفوذ، وذلك كي تشتري استعداد سوريا للمساومة في النزاع مع اسرائيل".

١٣- راجع نص التصريح في : Les Cahiers de l'Orient, 14 (1989), p.100f.

المعقل المسيحي: فئة قالت بان الخسائر كانت جسيمة حتى الآن، وامكانيات النجاح أصبحت ضئيلة، لذلك لا فائدة يعد من مواصلة الكفاح. وفئة اخرى رأت بانه من المستحيل تناسي هذه الخسائر والعودة الى الوضع الذي كان قائما سابقا: لذلك لم يبق اي خيار آخر سوى الصمود.

ولكن رغم الاصوات المشككة من قبل السياسيين التقليديين والسلطات الدينية، بقي العماد عون متمسكا "بسياسة التصلب". كان يلقي دعما بنوع خاص من قبل الشباب في المنطقة المسيحية. وكان يتوجه اليهم بندايات ذات طابع شعبي:

"انتم جيل التحرير، انتم الامة والارادة الوطنية... خاطبوا وقولوا لهم باتكم لن تشاركوا في خيارهم، وليس لهم بعد اي حق في تمثيلكم...قولوا للكنيسة بان مبرر وجودها يكمن في قولها الحقيقة... الشعب هو الذي يصنع الدولة وليس العكس". وقد تحدث ايضا عن الدول الغربية: "لقد شبعنا من تقديمكم لنا المساعدات الغذائية. ان ما نريده هو احترام حقوقنا السياسية".

وفي نيسان تظاهر الشباب امام مبنى سفارة الولايات المتحدة، احتجاجا ضد "صمت ما يسمى بالدول الديموقراطية عن الارهاب السوري".

اما خارج المنطقة المسيحية، فقد عرف العماد عون تعاطفا، ولكن لم يعبر عنه علنا. فمقتل الشيخ حسن خالد، مفتي الجمهورية اللبنانية، الذي سعى، دون توقف، منذ فشل انتخاب رئيس جديد للجمهورية، الى التوسط بين حكومتي عون والحص، اعتبر من قبل الجميع تحذيرا لكل من يقوم باتصالات أو ييدي استعدادا للتعاون مع العماد عون. وكذلك النداء الذي وجهه العماد عون الى وحدات الجيش المسلمة للانضمام والمشاركة في حرب التحرير، لم يلق اي صدى. ولكنها - نظرا لسوء الاسلحة التي كانت تمتلكها - لم تشارك في معارك السوريين والميليشيات المتحالفة معهم، ضد المنطقة المسيحية.

وفي نهاية نيسان، اخذ عون يعبر عن بعض الليونة. فعندما طالب المؤتمر غير العادي للجامعة العربية في تونس بوقف اطلاق النار، ورفع الحصار عن كل المرافئ والمطار والمعابر البرية، وارسال مجموعة من المراقبين العرب، للاشراف على اطلاق النار، وافق العماد عون حالا على ذلك. وهذا ما أشار الى تراجع عن الاجراءات التي اتخذها ضد المرافئ غير الشرعية التابعة للميليشيات، اي تلك الاجراءات التي تسببت في اندلاع المعارك. وفي الثاني من ايار اعطى تفسيراً جديداً "لحرب التحرير"، مشيراً الى انه ينبغي مواصلة ذلك عبر "الطرق الدبلوماسية"، ولكن لم يرق هذا الكلام لخصومه الذين احترموا وقف اطلاق النار الذي طالبت به الجامعة العربية خلال بضعة ايام فقط. ولكن سرعان ما اعدوا في

الثاني من ايار عمليات القصف والتدمير ضد المنطقة المسيحية مجددا، وتصعيد كثافتها خلال اسبوع واحد الى درجة لما يعرف لها مثل سابقا.

٥ - الوسطاء

لم تقبل الجامعة العربية بالسكوت عن هذا الاحتقار المشين لقراراتها من قبل سوريا. فقد طالبتها كل من فرنسا والاتحاد السوفياتي باتخاذ خطوات جديدة. فعقد في الثالث والعشرين من ايار ١٩٨٩ مؤتمر قمة عربي في الدار البيضاء، وتقرر خلاله تكليف ثلاثة من رؤساء الدول العربية لمعالجة الازمة اللبنانية، وهم : الملك السعودي، والملك المغربي، والرئيس الجزائري. هذه "الترويكا" او "الثلاثية" كما اشير اليها في وسائل الاعلام، وضعت لنفسها اهدافا واضحة تتضمن دعوة مجلس النواب اللبناني خلال ستة اشهر لاقرار اصلاحات سياسية، وانتخاب رئيس جديد، وتشكيل حكومة اتحاد وطني، و"استعادة سيادة الدولة على كل الاراضي اللبنانية". في مؤتمر الدار البيضاء^{١٤}، لم يؤت على ذكر اسم سوريا ولم يحملها احد المسؤولية. ولكن الموقف غير المزدوج الذي عبرت عنه القمة بالنسبة لاستقلال لبنان، كان واضحا للغاية. كما اعتبرته بعض الحكومات العربية موجها ضد نوايا سوريا. ان ما كلفت به "الترويكا" للاستعداد لتسوية شاملة لمشاكل لبنان الداخلية والخارجية، اعتبر بكل وضوح "تعريبا للمسالة اللبنانية". وهكذا بدأت سياسة التصلب التي نادى بها العماد عون تعطي ثمارها.

باشرت الترويكا العربية عملها سريعا. فشكلت امانة عامة، واختارت لها مركزا في جدة. وكلف بادارتها ممثل الامين العام للجامعة الوزير الجزائري، الاخضر الابراهيمي، الذي تحدث بوضوح اكثر مما قيل في مؤتمر القمة. فوصف هدف الترويكا بانه ليس فقط رفع الحصار، بل ايضا "تحرير لبنان من كل هيمنة اقليمية واستعادة سيادته الوطنية". وطلبت الترويكا من دمشق، بشكل انذار، احترام وقف اطلاق النار، ومن بغداد وقف مد العماد عون والقوات اللبنانية بالاسلحة. وقد اسفرت مفاوضات الابراهيمي مع اطراف النزاع اللبنانيين عن تقدم سريع، واخذت تبرز ملامح تسوية للاصلاحات الداخلية. ولكن المحادثات مع سوريا حول استعادة السيادة اللبنانية كانت صعبة للغاية. وتسريع الخطوات دعا في نهاية شهر ايار رؤساء الترويكا اعضاء مجلس النواب اللبناني للاجتماع خارج لبنان، وذلك لاعداد وثيقة حول التفاهم الوطني.

ولكن سوريا ردت على هذه المبادرة بقصف عنيف للغاية للمنطقة المسيحية

١٤ - راجع نص القرار في: Les Cahiers de l'Orient, 15 (1989), p. 107.

وتشديد الحصار عليها. فقد ظهرت لأول مرة سفن حربية سورية امام الشواطىء اللبنانية، وذلك لقطع خط الاتصال البحري مع المنطقة المسيحية. فاغرقت ناقلة نفط مالتية. وكذلك ادى قصف البواخر بالصواريخ الموجهة بواسطة جهاز الرادار الى زيادة في تصعيد الحصار. وفي الخامس من تموز اصدر الرئيس "غورباتشيف" و"ميتيران" بيانا مشتركا رحبا فيه بجهود الترويكما التي واصلت مفاوضاتها، رغم مجابته لمقاومة سورية عنيدة. فكل محاولة كان يقوم بها مبعوث الى دمشق وببيروت، وكل لقاء بين وزراء خارجية الترويكما، كان يواكب بتصعيد القصف السوري في لبنان.

في الحادي والثلاثين من تموز اعلنت الترويكما أسفها لفشل جهودها، واصدرت بيانا^{١٥} تحمل فيه الحكومة السورية مسؤولية هذا الفشل، وذلك في وثيقة دبلوماسية عربية كتبت بلغة واضحة للغاية. فقد شددت هذه الوثيقة على وجود توافق بين كل الاطراف اللبنانية حول كل المسائل الهامة. فجميع الاطراف تتمنى السلام والتعايش، كما تقبل الاكثريّة الساحقة بالاصلاحيات السياسية، وباعادة بناء المؤسسات الحكومية، وخاصة بانتخاب رئيس للجمهورية. كذلك قبل الجميع دعوة مجلس النواب الى الانعقاد خارج الاراضي اللبنانية. وهنا القى البيان المسؤولية على سوريا. "رغم وعود السوريين في فتح طرق العبور، لم يتحقق شيء من هذه الوعود. واكثر من ذلك، استمر الحصار البحري وجرى تصعيد اعمال العنف".

حصلت خلافات عميقة في المواقف والآراء بين ممثلي الترويكما وسوريا، كما جاء في البيان حول مسألة السيادة اللبنانية والعلاقات المستقبلية السورية اللبنانية. فقد اقترحت الترويكما ضرورة تجميع القوات السورية في البقاع بعد مرور مرحلة انتقالية. ويحدد مكان تجميعها، وحجمها، ومدة اقامتها في اتفاق أمني سوري لبناني يتم التوصل اليه باشراف الترويكما. ولكن سوريا رفضت الاقتراحين. فالرئيس السوري رفض شخصيا كل اشارة الى القوات السورية، لانها ليست قوة احتلال، كي تدفع الى الانسحاب من لبنان، كما رفض ايضا كل مشاركة للترويكما في اعداد اتفاق لبناني سوري. وقد امتنع بعد ذلك الرئيس السوري عن التحدث اطلاقا عن هاتين المسألتين، وكلف وزير خارجيته بمواصلة المحادثات الاخرى، التي بقيت هي ايضا دون نتيجة. "وبالاختصار، بقي الاخوة السوريون متمسكين بمواقفهم السابقة...". لقد قيم رؤساء الترويكما مجمل نتائج الجهود التي بذلت، دون تحفظ او مواربة. فحسب نظرنا، شكلت التصورات المختلفة للجنة الثلاثية من جهة، ولسوريا من جهة اخرى، حول موضوع السيادة، العقبة الرئيسية... وبالاستناد الى التصورات السورية، فان تحقيق الاقسام الاخرى من وثيقة التفاهم سيجابه ويمنع، لان ذلك يشكل مجموعة لا

تتجزأ".

وهكذا فشلت بادرة الوساطة من قبل الجامعة العربية. ولم يعز هذا الفشل الى تباين في الاراء اللبنانية حول السياسة الداخلية، بل الى مسألة بقاء لبنان بلدا مستقلا. وبوضوح اكثر كان اتفاق الميليشيات في دمشق عام ١٩٨٥ قد تضمن النوايا السورية، اي مرابضة القوات السورية في لبنان لوقت غير محدود وابرار اتفاق لبناني سوري حول "العلاقات الخاصة والمميزة...في كل الحقول: السياسة والامن، والاقتصاد وغيرها..." وشرطا آخر يقضي باقصاء اي وسيط عربي.

عبرت الحكومة السورية عن استيائها من بيان الترويكوا الواضح عبر قصف عنيف لمدينة ببيروت، دام سنا وثلاثين ساعة، اعقبه تصريح لوزير خارجيتها، جاء فيه: "الجيش السوري باق في لبنان لمواصلة مهمته الوطنية، وللدفاع عن شرف وكرامة الشعب اللبناني".

وفي الثالث عشر من آب عام ١٩٨٩، تجمعت الميليشيات الدرزية والفلسطينية، بدعم من القوات السورية، وقامت بهجوم على منطقة سوق الغرب. فحاولت كسر طوق مواقع الجيش اللبناني، بهدف الهجوم على قصر الرئاسة في بعبدا. ولكن بعد معارك طاحنة دامت خمس ساعات نجح جنود الجيش اللبناني في سحق هذا الهجوم. على اثر هذه الهزيمة، عاد الدروز والسوريون الى طريقة حربهم الروتينية، مستخدمين اطلاق المدافع والصواريخ عن بعد.

بعد هذه الاحداث تزايدت ردود الفعل الدولية بصورة اوضح مما كانت في الاشهر السابقة. فقد دعا العراق الى عقد مؤتمر قمة عربي. وطالب الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية بانسحاب القوات السورية، كما طالبت المملكة العربية السعودية ومجموعة الدول الاوروبية بوقف اطلاق النار. وقد تحدث البابا عن ابادة جماعية في لبنان. وفي الخامس عشر من تموز دعا مجلس الامن الى وقف اطلاق النار، معربا عن تقديره لعمل الترويكوا العربية وجهودها. وبعد مرور اربعة ايام، ارسلت فرنسا حاملة طائرات وفرقاطة، وناقلة مراكب للانزال امام الشواطىء اللبنانية. وقد اعلن الرئيس ميثيران بان استقلال لبنان مهدد، وينبغي حمايته. ولكن مهمة الاسطول الفرنسي ليست عسكرية، بل انسانية^{١٦}.

١٦- جرى تقييم تأثير ارسال الاسطول الفرنسي بطرق متباينة جداً. "جون كلي" (John KELLY)، مساعد وزير الخارجية الاميركي لشؤون الشرق الأوسط عبّر عن رايه بان الاسطول الفرنسي يستهدف ضمان حاجات انسانية، ولكنه غير كاف للقيام بعمل عسكري. راجع: Les cahiers de l'Orient, 15(1989), p.56. أيضاً Andreas RIECK في جريدة Frankfurter Allgemeine Zeitung في عددها الصادر في ٢٩ تموز عام ١٩٨٩ ما يلي: "ان ارسال الاسطول الفرنسي شكّل في آب ردعاً قوياً للسوريين". فحاملة الطائرات "قوش" كانت تنقل طائرات "سوبر انتدارد" مع صواريخ اكزوست. ان تأثيراً رادعاً هامشياً لا يمكن استبعاده، اقله

في هذه الاثناء تواصلت عمليات الحصار والمحاصرة. في نهاية شهر آب وصل عدد الضحايا، منذ بداية الاشتباكات في منتصف آذار، الى الف قتيل، وزاد ايضا عدد الجرحى كثيرا، كما دُمّر ١٢٠ مصنعا، وتضرّر ٤٠٠ آخرين. وكان مئات الالاف من سكان بيروت وضواحيها قد هربوا الى مناطق اخرى من البلاد، او الى خارجها.

وفي السابع من ايلول ١٩٨٩ حصل تطور مفاجيء. فعادت الترويك العربية مجددا الى ممارسة نشاطها نظرا الى خطورة الوضع في لبنان والى الدعوات اللبنانية والعربية والدولية. فوضعت في الثالث عشر من ايلول طروحات جديدة تتلخص في وقف مباشر لاطلاق النار، ورفع الحصار، واجتماع مجلس النواب اللبناني في الثلاثين من ايلول في المملكة العربية السعودية، وذلك للتشاور حول وثيقة التفاهم الوطني التي اعدتها لجنة الترويك. وهذه المرة نجحت فعلا المبادرة العربية. فخلال ايام قلائل توقفت نهائيا المعارك والاشتباكات، وعادت المراقبة وكذلك المطار الى مزاولة العمل، وفتحت المعابر بين بيروت والغربية والشرقية. على اثر ذلك هأت فرنسا الترويك واسحبت اسطولها، وارتفعت بالتالي قيمة الليرة اللبنانية مقابل الدولار.

كيف نجحت الوساطة هذه المرة؟ ان ما لا شك فيه هو ان تزايد الاحتجاج الدولي لم يبق دون تاثير على الحكومة السورية، لان عزلتها الدولية المتزايدة اصبحت اكثر وضوحا^{١٧}. ولكن سوريا قبلت بذلك لان الترويك العربية اخذت بعين الاعتبار تصوراتها ومواقفها.

كان التنازل الاول حول انشاء لجنة امنية تقوم بتفتيش كل السفن المتجهة الى لبنان بحثا عن نقل الاسلحة المشحونة اليه وتوقيفها. وكان هذا الاجراء موجها ضد العماد عون. ولكن لم يُلحظ تطبيقه على شحن الاسلحة عبر الطرق البرية، كي لا يطال اطلاقا امدادات الاسلحة السورية. اما التنازل الاكثر اهمية، فيمكن فيما تضمنته الصيغة الجديدة لوثيقة التفاهم الوطني^{١٨}، التي عرضت على مجلس النواب اللبناني، والتي تشير الى انسحاب جزئي للقوات السورية بعد مرحلة زمنية تدوم سنتين. في الاصل كانت الترويك العربية قد اقترحت مهلة ستة اشهر. اما مهلة السنتين فتقرر ان تبدأ بعد انتخاب رئيس الجمهورية وتأليف حكومة اتحاد وطني

عبر تحليق الطائرات فوق سوريا. ولكن من جهة أخرى لم يكن القصف السوري، بعد ظهور الاسطول الفرنسي، أقل حدة من السابق.

١٧- صدر عن السفير السوفياتي في دمشق قول مفاده ان الاتحاد السوفياتي ينوي تخفيض مساعداته العسكرية الى سوريا.

١٨- النص الكامل في Les Cahiers de l'orient, 15(1989) p.83-91

واقرار الاصلاحات الدستورية - اى بعد اتخاذ كل التدابير والاجراءات التي تستطيع الحكومة السورية ممارسة نفوذ وتأثير على اقرارها، او ايضا الحؤول دونه. في نهاية هذه المهلة ينبغي على القوات السورية، ليس فقط ان تتمركز - كما اقترح في البداية ، في سهل البقاع - بل ايضا "على مدخل البقاع الغربي من ظهر البيدر وحتى خط حمّانا - المديرج - عين داره"، اى حتى داخل عمق جبل لبنان، وكذلك في مراكز اخرى". وهذا ما يترك المجال مفتوحا لكل الخيارات. وقد ترك أمر تحديد حجم القوات السورية ومدة تمركزها الى اتفاق تقرّه الحكومتان السورية واللبنانية. ويقتصر دور الترويكا العربية على استعدادها "لمساعدة الدولتين اذا رغبتا في ذلك". وهكذا ربطت الوساطة العربية في موضوع المسائل الامنية برغبة وارادة الحكومة السورية. ولم تلاحظ اطلاقا اية مشاركة للترويكا العربية في اعداد اتفاقات سورية لبنانية حول "العلاقات المميزة" في مجالات اخرى. وبالاختصار، أستنتج من ان الترويكا العربية وضعت في الوثيقة الجديدة صيغ تسويات تأخذ بعين الاعتبار المطالب السورية حول كل المسائل التي كانت موضوع خلاف سابق.

لقد اوضح الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، كيفية وحيثيات ما حصل^{١٩}، مشيرا الى ان فريقا من اللبنانيين طالب بانسحاب السوريين، ورفض ذلك فريق آخر. وبعض الدول العربية، طالبت بشدة بهذا الانسحاب. ولهذا السبب طالبت الترويكا العربية بالانسحاب كشرط للتسوية. وهذا ما اساء مجددا الى السوريين. على اثر ذلك وضعت الترويكا حدا نهائيا لمهمة الوساطة التي كلفت بها. ولكنها عادت الى متابعتها بطلب من دول عربية ودول اخرى. عندئذ طرح السؤال حول ما اذا كان الانسحاب السوري ينبغي ان يحصل ضرورة قبل التوصل الى تفاهم سياسي بين اللبنانيين. وهناك تساؤل ايضا عن امكانية وجود سلطة لبنانية مسلحة تستطيع ان تضمن الامن وامتلاك ثقة كل اللبنانيين. لذلك تقرر البدء اولا بمعالجة المشاكل الداخلية اللبنانية واعتبار الانسحاب السوري كمرحلة اخيرة للتسوية. ولكن الترويكا التزمت تجاه اللبنانيين بمساعدتهم في معالجة الانسحاب السوري، عندما تتحقق شروط التفاهم الداخلي. وبالاختصار، تراجعت الترويكا عن ربطها السابق بين تفاهم اللبنانيين والانسحاب السوري، لان السوريين رفضوا هذا الربط، ويمتلكون بالتالي القوة لفرض ارادتهم.

ولقد كان لسوريا ايضا اسباب معينة لوقف الحرب، كما كانت في حال يسمح لها بمواصلتها في اي وقت. لذلك فضلت انتظار نتائج خلوة البرلمانيين اللبنانيين المقررة.

قد كان وقع موافقة الترويك العربية على الاقتراحات، الجديدة مؤلما بالنسبة للعماد عون. ولكنه رغم ذلك نجح في دفع جامعة الدول العربية، بعد سنوات طويلة، للاهتمام جديا بتسوية الازمة اللبنانية، وتوفير امكانية لاجتماع مجلس النواب في مكان حيادي، واعطاء الفرصة لاعادة بناء المؤسسات الحكومية. ولكن ما لا ريب فيه على الاطلاق، هو ان سياسة العماد عون المتصلبة هي التي سمحت بذلك. فالهدف الذي اعلنه لتحرير البلاد بقي بعيدا جدا، مثلما كان قبل عدة اشهر. ولكنه بالمقابل اضطر الى التخوف من ان احتلالا سوريا غير محدود فعليا، وارتباطا متواصلا للبنان بسوريا يستطيع مجلس النواب ان يضفي عليه طابعا شرعيا وان تعترف به الجامعة العربية، في حال قبول الاقتراحات الجديدة التي قدمتها الترويك. فبعد اشهر حرب قاسية، ونظرا لامل الشعب بالسلام، وتحت الضغط الدبلوماسي القوي من قبل الحكومات المؤيدة لمواقفه، لم يبق للعماد عون خيار آخر سوى اعطاء النواب فرصة والاكتفاء بتحذيرهم، لكي يصروا على وضع جدول زمني واضح لانسحاب القوات السورية.

ولكن النواب بدورهم، وضعوا ايضا تحت ضغوط من جانب آخر. فالميليشيات الشيعية اوضحت بانها لن تتسامح باية تسوية دستورية، وانها لن تقبل اطلاقا باقل من اعتماد ديموقراطية الاكثرية. وكذلك اعلنت مصادر الميليشيات الدرزية بان الضحايا الكثيرة لم تقدم خلال سنوات عديدة، كي يكتفى في النهاية ببعض التصحيحات في النظام السياسي القديم.

كل من اثار اي تساؤل حول الموقف السوري في لبنان، كان عرضة للانذار والخطر. فالنائب السني عن البقاع، ناظم القادري، اثار مع زملائه مسألة المطالبة بانسحاب السوريين من البقاع، نظرا لانتفاء هذه المنطقة ايضا الى لبنان ٢٠. ولكن سرعان ما جرى اغتياله قبل عشرة ايام من انعقاد خلوة النواب في الطائف.

٦ - الطائف او فرصة "الثعالب"

في اول تشرين الاول ١٩٨٩ افتتح وزير الخارجية السعودي خلوة البرلمان اللبنانيين في مدينة "الطائف" السعودية بخطاب ركز فيه على شعار اساسي "الفشل ممنوع". وهذا يعني اقرار دينامية مصالحة وسلام تجعل الاسباب التي تبرر وجود القوات السورية في لبنان باطلة. في هذا الاطار اعلنت المملكة العربية السعودية ضمانات ادبية عن بدء الانسحاب السوري اذا ما تحققت الوحدة الوطنية اللبنانية

٢٠- هذا ما اعلنه النائب عبد المجيد الرفاعي اثناء خلوة الطائف.

والمصالحة^{٢١}. وقد كان للترويك العربية اسباب كافية لاقناع النواب اللبنانيين بهذا الامر. فقد فشلت محاولة "سلام المتقاتلين" عام ١٩٨٥ في اتفاق دمشق. والآن توجد حكومتان لا تمثلان فعلا ما يجب تمثيله. فقط مجلس النواب بقي كمؤسسة دستورية ذات شرعية لا يشك فيها. لقد حضر الى الطائف ٦٢ نائبا، نصفهم مسيحيون والنصف الاخر مسلمون. بعضهم جاء من لبنان والبعض الاخر من المنفى الفرنسي، او السويسري، او العراقي. وقد ترأس الاجتماعات رئيس مجلس النواب السابق حسين الحسيني.

كان هذا اللقاء بالفعل خلوة^{٢٢}. استقبل النواب في الطائف كالامراء، ولكنهم وُضعوا في عزلة. لم يسمح للصحفيين، ولا للمساعدين، ولا للمستشارين حضور الخلوة. وكان الاتصال مع الخارج يحصل فقط بواسطة الهاتف. وقد شارك وزراء خارجية الترويك في المناقشات والمفاوضات منذ البداية وحتى النهاية. كان من المتوقع ان تدوم الخلوة ثلاثة ايام فقط، ولكنها دامت ٢٢ يوما. فقد استغل خلالها رواد سياسة لبنان ما قبل الحرب الفرصة التي اعطيت لهم لاول مرة منذ سنوات طويلة لممارسة تأثير نافذ على سياسة تقرير مصير بلادهم. في بداية الاستشارات حصلت جلسة مناقشة عامة، عُرِضت خلالها كل المفاهيم المتناقضة في السياسة الداخلية والخارجية بحددة. فالنواب الذين جاؤوا من المنطقة المسيحية، طالبوا بربط الاصلاحات السياسية بانسحاب القوات السورية. ولكن النواب المسلمين، رفضوا كل انسحاب سوري، وان جزئي، قبل اقرار الاصلاحات الدستورية، واعادة تنظيم الجيش، وتحرير الجنوب من الاحتلال الاسرائيلي. فبعض المجموعات كانت تنتظر من الاصلاحات السياسية امورا معينة. ونواب الجبهة اللبنانية ارادوا الحفاظ على مركز رئيس الجمهورية القوي، وفقا للدستور القائم. بينما طالب السياسيون المقربون من جنبلاط اعطاء كل السلطات للحكومة. وذهب عدد من النواب الى ابعد من ذلك مطالبين بالغاء نظام النسبة حسب الطوائف الدينية، وتطبيق نظام الاكثرية العددية. ولكن مصالح الطوائف برزت سريعا الى الواجهة: فالسنة ارادوا تدعيم مركز رئيس الحكومة، والشيعية مركز رئيس النواب، بينما طالب النائب الدرزي الوحيد الباقي على قيد الحياة بانشاء مجلس شيوخ يكون رئيسه درزيا. في البداية بدأ استبعاد اي اتفاق تقريبا. ولكن خلال المناقشات تبين ان اقلية صغيرة تصر على تغيير جذري في النظام السياسي، بينما ابدت الاكثرية الساحقة استعدادا للاكتفاء باصلاحات

٢١ - أكد سعود الفيصل للنواب ان سوريا لا تريد ان تتخذ خطأ بالانسحاب كي لا تبدو خاسرة امام العماد عون. وقد شدد - كما فعل ايضا الرئيس الشاذلي (راجع الحاشية ١٩) - على ان الترويك، وبنوع خاص المملكة العربية السعودية ستقف الى جانب لبنان في حال إثارة صعوبات من قبل سوريا.

٢٢ - يعتمد العرض التالي على عدد من المقابلات التي اجريت مع النواب اللبنانيين الذين لم يرغبوا في ذكر اسمائهم. جرت هذه المقابلات بين شهر كانون الأول عام ١٩٨٩ وشهر شباط عام ١٩٩٠.

جزئية.

كلفت لجنة من ١٧ نائبا، جرى اختيارهم كما هي العادة، وفقا للانتماء الطائفي، لوضع مبادئ رئيسية للاصلاح الدستوري. ولم تستخدم، كمرجع للعمل فقط، الوثيقة التي اعدتها الترويكاء، بل ايضا الاقتراحات التي جرى الاتفاق عليها سابقا بين حسين الحسيني والبطيريك الماروني. وما تم التوصل اليه كان صيغة جديدة تماما للجزء السياسي الدستوري من "وثيقة التفاهم الوطني". وبالنتيجة، وحسب قول احد المشاركين، "لم يكن احد راضيا، بل حصل قبول من الجميع تقريبا".

تضمنت مقدمة الوثيقة ٢٢ مبادئ عامة عن طابع لبنان وهويته:

"... أمة ذات سيادة حرة، مستقلة، وطن لكل ابنائه، في وحدة الارض والشعب والمؤسسات، في حدوده الواردة في الدستور اللبناني، والمعترف بها دوليا. لبنان هو بلد عربي في انتماؤه وهويته... لبنان هو جمهورية ديموقراطية وبرلمانية تقوم على مبدأ احترام الحريات، وحرية الرأي والمعتقد، والمساواة في الحقوق والواجبات بين كل المواطنين دون تمييز. الشعب هو مصدر السلطة والسيادة، يمارس حقوقه بواسطة مؤسسات الدستور. يستند النظام الى مبدأ المشاركة في السلطة".

انها مبادئ واضحة تبعد كل شكل من اشكال التبعية، وكل اشكال الحكم غير الديموقراطي وغير العلماني، وكذلك مخططات التقسيم، والاعتراف بالميثاق الوطني لعام ١٩٤٣ الذي حددت مبادئه الرئيسية: "هوية لبنان هي هوية عربية دون "اذن" و"لكن"، وهو وطن نهائي. وتلت ذلك مبادئ عامة حول النظام الاقتصادي والاجتماعي:

"النظام الاقتصادي هو نظام حر، يقوم على المبادرة الشخصية والملكية الخاصة. ان تنمية متوازنة للمناطق... هي القاعدة الرئيسية للدولة وللاستقرار. وعلى الدولة ان تسعى عبر اصلاحات مالية واقتصادية واجتماعية الى تحقيق عدالة اجتماعية شاملة".

هنا تذهب الوثيقة الى ابعد ما كان يتضمنه الدستور السابق. لقد جرى التشديد على النظام الاقتصادي للسوق، ولكن ايضا على انشاء دولة اجتماعية، حيث ينبغي

٢٣ - راجع النص الكامل في L'orient - Le jour ٢٤ تشرين الأول ١٩٨٩ وكذلك في Les Cahiers de l'orient, L'Accord de Taef.

Document d'entente pour le Liban, 16-17(1990), p.115-128

وفي ذات العدد، نشر "جوزف مايل" (Joseph MAILA) دراسة نقدية مفصلة عن هذا الاتفاق، ص ١٣٥-٢١٧.

الاهتمام بتحقيق توازن في مستوى العيش في كل مناطق البلاد. ان اهم ما جاء في هذه الوثيقة هو ما يلي:

"لا يمكن ان تقوم سلطة شرعية معترف بها اذا لم تتفق مع ميثاق التعايش".

ان ميثاق التعايش لعام ١٩٤٣، هو اتفاق غير مكتوب، جرى التركيز عليه بشدة واعتباره اساسا للشرعية اللبنانية. وبوضوح اجلى من اي وقت مضى، وُصف تعايش الطوائف الدينية بانه مبرر وجود الدولة وهدفها في لبنان.

اما بالنسبة لتعديل البنية السابقة لتوزيع السلطة، فقد أقر مبدا جديد لمجلس النواب. "من اجل احترام مبادئ التعايش بين اللبنانيين"، ينبغي وضع قانون جديد للانتخاب. وطالما لم يتم الاتفاق على قانون جديد للانتخاب "خارج النظام الطائفي" للبرلمان، تتوزع مقاعد النواب وفقا لنظام نسبي بين كل مجموعة وبين المناطق". فنظام النسبة الذي كان قائما حتى الآن ٦ مقابل ٥ لصالح المسيحيين، استبدل بمبدأ المساواة. وقد تطرق البحث الى تطورات مستقبلية. "في حال انتخاب مجلس نيابي غير طائفي"، ينبغي انشاء مجلس شيوخ تتمثل فيه "كل العائلات الروحية"، وتقتصر صلاحياته "على الشؤون المصيرية". وهكذا لوحظت امكانية انشاء مجلسين: مجلس نواب، دون نسبة او مساواة، ومجلس شيوخ يناط به تمثيل الطوائف الدينية فيما يتعلق بالمسائل الاساسية. ولكن اقرار نظام المجلسين يبقى مرتبطا بموافقة مجلس النواب القائم على قاعدة المساواة عدليا بين المسلمين والمسيحيين.

لقد حصل جدال بنوع خاص في الطوائف حول موضوعين: رفع عدد المقاعد النيابية من جهة، وتعيين نواب جدد مكان المتوفين والمقاعد الجديدة، من قبل حكومة الاتحاد الوطني من جهة ثانية. فلا بد اذا من انشاء مقاعد جديدة، لتطبيق مبدأ المساواة العددية بين المسيحيين والمسلمين. فقد اقترحت الترويك بدلا من العدد ٩٩ المطبق سابقا، ١٢٨ مقعدا. ولكن اكثرية الحاضرين في الطوائف عارضت ذلك بشدة. فقد تخوفت من تعبيد الطريق بهذا الشكل لكي يدخل المجلس النيابي كل زعماء الميليشيات وامراء الحرب - وزبائن سوريا - خاصة عبر عملية التعيين^{٢٤}. كذلك لم يوافق اطلاقا، لاسباب مبدئية على عملية التعيين، وان يكن كتسوية استثنائية. ولكن تم اخيرا التوصل الى تسوية، نظرا لصعوبة اجراء انتخابات جديدة في البلاد لاسباب امنية، فجرى القبول بمبدأ التعيين، ولكن اتفق على رفع عدد النواب الى ١٠٨، وهو العدد الضروري لتطبيق مبدأ المساواة العددية.

التغييرات الاكثر حسما جرى اقرارها في الطوائف ليس فقط بالنسبة للسلطة

٢٤- حصلت هذه التخوفات بسبب اتفاق الميليشيات في دمشق عام ١٩٨٥ الذي لحظ فيه رفع عدد النواب الى ١٩٨.

التشريعية، بل أيضا بالنسبة للسلطة التنفيذية. فقد جرى تثبيت توزيع الوظائف العليا في الدولة حسب الطوائف كما كان الامر حتى الآن، ولكن دون التعبير بقوة عن ذلك: فأبقيت رئاسة الجمهورية للموارنة، ورئاسة الحكومة للسنة، ورئاسة مجلس النواب للشيعة. ولكن عدلت بشكل جذري صلاحيات هذه الوظائف.

بالنسبة لمركز رئاسة الجمهورية فقد حجمت صلاحياته، واصبح دوره تمثيليا. لم يعد الرئيس، كما كان سابقا، رئيس السلطة التنفيذية، بل "رئيس الدولة ورمز الوحدة". فقد بقي القائد الاعلى للجيش، ورئيس مجلس الدفاع، ولكنه مرتبط بقرارات الحكومة في هذا المجال. فلن يترأس بعد دوريا جلسات الوزراء، بل "فقط عندما يرغب". ولا يحق له التصويت ولا يمتلك تجاه قرارات الحكومة الا حق الفيتو لتأجيلها. ولا يستطيع بعد الا تعيين رئيس للحكومة على اساس "الاستشارات الالزامية" مع البرلمانين. ولا يحق له، لا عزله، ولا اقالته.

وبالمقابل تعاضد دور رئيس الحكومة. فهو الذي يرأس جلسات الحكومة، وهو "مسؤول عن تنفيذ السياسة العامة لمجلس الوزراء"، ويوقع كل المراسيم باستثناء مرسوم تعيينه. ولكن يحق لمجلس النواب اقالته. وكذلك جرى تدعيم دور رئيس مجلس النواب. فرفعت مدة ولايته من سنة الى اربع سنوات، اى طيلة دورة كاملة لمجلس النواب^{٢٥}. وبما انه يشرف على "الاستشارات الالزامية" التي يجريها رئيس الجمهورية مع النواب لتشكيل الحكومة، فقد اصبح دوره بعد اليوم دور "صانع الملوك"، وهو الدور الذي كان يمارسه حتى الآن في عملية انتخاب رئيس الجمهورية.

"السلطة التنفيذية القيت على عاتق مجلس الوزراء". فالحكومة كجهاز جماعي اعطيت سلطة كثيرة الاهمية. فلها يعود حق المبادرة في اعداد القوانين. وهي مهمة كان يشارك فيها رئيس الجمهورية سابقا. فعليها الآن ان تراقب القوانين والادارة، وتعين الموظفين. ان اعطاء قدر اوسع للحكومة يبرز في تعبير رمزي عن اعطائها مركز خاص بها، يختلف عن مركز رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة. اما قرارات الحكومة فينبغي ان تؤخذ حسب القانون "توافقيا"^{٢٦}. وفي حال تعذر ذلك يلجا الى عملية التصويت. والقرارات ذات "الشؤون الهامة"، تحتاج الى اكثرية ثلثي اعضاء الحكومة. وهذه "الشؤون الهامة" جرى تحديدها بوضوح، وهي التعبئة العامة، وحالات الطوارئ، وعلان الحرب، وابرام السلام، والمعاهدات الدولية، والموازنة

٢٥- يمكن اقالته بعد سنتين ولكن باكثرية ثلثي عدد النواب.

٢٦- في النص العربي استخدمت عبارة "توافقيا" التي تعادل في لغة علم السياسة العربي عبارة "توافق" (Konkordanz)، او "التركيب الودي" (Amicabilis compositio) كما ورد في معاهدة السلام الواستفالية (Westfälischer Frieden).

العامة، ومشاريع التنمية الطويلة الامد، وتعيين كبار الموظفين^{٢٧}، والاصلاح الاداري، وحل مجلس النواب، وقانون الانتخاب، وقانون الجنسية، وقوانين الاحوال الشخصية، واقالة الوزراء. واذا ما استقال ثلث عدد الوزراء، تعتبر الحكومة كلها مستقيلة تلقائياً^{٢٨}. ان مجموع هذه القرارات تشير بوضوح وجلاء الى ان الحكومة، كجهاز جماعي، ينبغي ان تعمل وفقاً لمبدأ التوافق.

ان قرارات الاصلاح التي اتفق عليها في الطائف غيرت من جهة صلاحيات الاجهزة الدستورية الأكثر أهمية، وكذلك اعادة توزيع السلطات بين الطوائف من جهة أخرى. لقد دعم مجلس النواب واصبح عدده متساوياً. واعطي رئيس مجلس النواب ورئيس الحكومة صلاحيات أكثر على حساب صلاحيات رئيس الجمهورية. فمثلاً السنة والشعبة في أعلى مناصب الحكم اصبحا أكثر نفوذاً وتأثيراً من ممثل الموارد، الذي احتفظ بدور رمزي فقط، واصبحت الحكومة الجهاز الدستوري الأقوى. فبدلاً من ثنائية الحكم المارونية - السنة كمرکز ثقل في الحكم حل جهاز جماعي يتألف من كل الطوائف ويفرض عليه اتخاذ قرارات توافقية. فتوزيع السلطات وفقاً لميثاق التعايش الجديد الذي أقر في الطائف، يتميز عن التوزيع الذي اتفق عليه في الميثاق الوطني عام ١٩٤٣. فالميثاق القديم كان قضية بين طائفتين، بينما يشكل الميثاق الجديد، بالنسبة لكل الطوائف، أساساً للمساواة بين المسيحيين والمسلمين.

لذلك يمكن وصف ميثاق الطائف بأنه تجديد العقد أو التحالف بين الطوائف اللبنانية^{٢٩}. ففي تناقض ظاهري تبدو قرارات الطائف، وكأنها تشير إلى ان "الغاء الطائفية" يشكل "هدفاً وطنياً جوهرياً". ولكن القرارات الواقعية لتحقيق هذا الهدف جرى الحديث عنها بسرعة. لقد ذكر ان "مجلساً وطنياً" برئاسة رئيس الجمهورية، يدعى له، ويتألف من رئيس الحكومة ورئيس مجلس النواب، وشخصيات من العالم السياسي والاجتماعي والثقافي والجامعي"، يسعى إلى "دراسة الغاء الطائفية على مراحل". لم يوضع لذلك اي جدول زمني، كما لم يوضع ايضاً جدول زمني لانشاء نظام المجلسين، الذي لا يلغي "الطائفية"، اي تمثيل الطوائف، بل يوكلها إلى مجلس شيوخ.

بالنسبة "للمرحلة الانتقالية" تم الاتفاق على قرارات واقعيين. الغي نظام النسبة

٢٧- موظفو الدرجة الأولى حسب قانون الموظفين اللبناني يعادلون تقريباً "الموظفين السياسيين" في ألمانيا الاتحادية.

٢٨- الاسباب الأخرى التي تدعو إلى استقالة آلية للحكومة هي: انتخاب رئيس جمهورية جديد، بداية مجلس نيابي جديد، استقالة أو وفاة رئيس الحكومة.

٢٩- راجع "جوزف مايل" (Joseph MAILA)، المصدر المذكور ص ١٧٥.

الطائفي في الإدارة، فيما يختص بموظفي ومستخدمي الوظائف المتوسطة والدنيا، بينما تثبت مجددا نظام المساواة رسميا بين المسيحيين والمسلمين، بالنسبة لوظائف الدرجة الاولى ولهئية الضباط. وكذلك تقرر الغاء خانة الانتماء الطائفي او الطبقي الديني من تذاكر الهوية^{٣٠}.

لقد وصف جوزف مايلا فكرة "الغاء الطائفية" بانها "وهم نموذجي لمجتمع متعدد الطوائف"^{٣١}. لقد اشار الى ان هذا الوهم، اي الامل بتحقيق هذا الهدف على مراحل، وكذلك فشل امكانيات الزمن الواقعي، جرى البرهان عنها في خطاب رياض الصلح الشهير في السابع من تشرين الاول ١٩٤٣. في ذلك الخطاب، عبر رياض الصلح عن مضمون الميثاق الوطني. وبعد ٤٦ سنة على ذلك تمسكت خلوة الطائف بهذا الوهم (الايثوبيا) وأوكلت تحقيقه الى الروزنامة اللبنانية. في عام ١٩٤٣ وكذلك في عام ١٩٨٩، كشفت فكرة المرحلة المؤقتة بانها صيغة التسوية الاكثر تلاؤما بين الرغبة والواقع المجتمعي-السياسي.

ان الجزء المخصص للسياسة الداخلية في وثيقة الطائف يدل على ان الخلوة التي اقرت هذه الوثيقة كانت فرصة لبروز كوكب "ثعالب" السياسة اللبنانية. فقد برهن النواب مرة جديدة على الواقعية والتسامح والاستعداد للتسويات، التي هي اهم مزايا الطبقة السياسية القديمة التي افرزتها الانتخابات النيابية. وبرز النواب المسيحيون استعدادهم للتخلي عن المواقف التي لم يعد بالامكان التمسك بها. كما ان زملاءهم المسلمين تجنبوا تقديم مطالب متطرفة. ان الامتيازات الرمزية للمسيحيين التي لم يعد لها اية قيمة فعلية منذ زمن طويل الغيت تماما. ونظام النسبة الذي كان عرضة للنقد والتساؤلات منذ مرحلة غير قصيرة، لم يستبدل وفقا لبراهين واضحة ديموقراطية او ديموغرافية مستعارة، بل وفقا لمبدأ المساواة القائم على وجود مجموعتين دينيتين كبيرتين.

ولا شك في ان القرارات المتخذة تتضمن بعض نقاط الضعف. فالدعم السعودي للسنة اللبنانيين، والذي كان فاعلا في مؤتمر الطائف، أدى الى اعطاء حصة لا بأس بها من السلطة لهذه الطائفة، تتجاوز وزنها المجتمعي. ولكن مقابل ذلك، لا بد من الاعتراف، بان الحد من سلطة الموارد على رأس هرم الدولة، والحصة الكبيرة من السلطة التي اعطيت للسنة بشخص رئيس الحكومة، والسلطة الاقل اهمية التي انيطت برئاسة مجلس النواب، أخذت كلها طابعا نسبيا بارزا بفضل تزايد مكثف لسلطة ممثلي كل الطوائف في الحكومة.

٣٠- اكتسب هذا التعديل الجديد اهميته حتى قبل حدوث القتل الجماعي على الهوية الذي حصل في السنوات الأولى من الحرب بسبب الإشارة الى الطائفة على بطاقات الهوية.

٣١- راجع "جوزف مايلا" (Joseph MAILA)، المصدر المذكور، ص ١٧٦.

اخيراً، برهن النواب من خلال قراراتهم لانشاء دولة اجتماعية، ولحظ سياسة تنموية متوازنة بين المناطق، بانهم تلقوا درسا من الاخطاء الماضية. وبالاجمال يستنتج من ان قرارات الطائف المتعلقة بالسياسة الداخلية، والتي أعدت خلال فترة وجيزة، تشكل انجازا بالغ الاهمية، وهو المحاولة الواقعية التي قامت بها اكثرية ساحقة لتسوية جزء من النزاع اللبناني الذي تحول الى حرب اهلية.

ولكن خلوة الطائف لم تبحث فقط في النزاعات اللبنانية الداخلية، بل ايضا في مسألة العلاقات العسكرية والسياسية بين لبنان وسوريا. فقد استنتج سريعا بان النواب المجتمعين لم يكن لهم عمليا اي مجال للمفاوضات. فقبل انعقاد الخلوة كانت الترويكات العربية قد ناقشت هذا الموضوع والنصوص المتعلقة به كلمة كلمة مع الحكومة السورية. حتى في المسائل الاكثر جدلا، كان في النهاية الموقف السوري هو الفاصل. فقد أكد وزراء خارجية الترويكات للنواب بانهم ليسوا بحال يؤهلهم للحصول على اكثر من ذلك. فالمجتمعون كان عليهم اذا ان يقبلوا بالنص المعد سلفا فيما يتعلق بالقسم الدولي من الوثيقة.

ان قبول هذا النص يعني: اعترافا بدور الجيش السوري كمساعد للحكومة اللبنانية لاستعادة سلطتها"، وذلك خلال مرحلة تدوم سنتين، ابتداء من اقرار عملية الاصلاحات، واضفاء طابع الشرعية على تمركز القوات السورية في البقاع، وفي الجبل، "كما في مناطق اخرى" لمرحلة غير محددة يجري للتفاوض حولها لاحقا بين الحكومتين السورية واللبنانية دون مشاركة الترويكات، و"شكرا" للجيش السوري لمساعدته، والالتزام باقرار "علاقات متميزة" بين لبنان وسوريا "في كل المجالات" عبر اتفاقات ثنائية.

لم يعط مجال للنواب للتفاوض حول هذه المسائل، بل كان لهم قرار القبول او الرفض لهذا الامر. اما الرفض فيعني العودة الفورية لعمليات القصف والتدمير. عندئذ اصرت النواب المسيحيون على تحديد شروط للانسحاب السوري، وبنوع خاص جوزف سكاف، نائب زحلة عن طائفة الروم الكاثوليك، والذي كان الاكثر تأثرا مباشرة بتمركز الجيش السوري في البقاع، فطالب باصرار شديد بتحسين النص. عندئذ قام وزير الخارجية السعودي بمحاولة أخيرة، فزار خلال الخلوة دمشق. وبعد جولتين من المحادثات مع الرئيس السوري، دامت الثانية ست ساعات، عاد الى الطائف حاملا تنازلات سورية هامة. وافق حافظ اسد على ان يكون عدد النواب في المجلس النيابي ١٠٨، بدلا من ١٢٨ - اي وفقا للقرار اللبناني الداخلي. اما بالنسبة للقسم "السوري" من الوثيقة، فقد قبل باضافة العبارة "في اطار سيادة واستقلال البلدين" - وهذا تنازل لا يختلف اطلاقا عن السخري والاستهزاء.

بعد عودته الى الطائف اعلن الامير سعود الفيصل امام النواب اللبنانيين بان عليهم اتخاذ القرار. فنص الوثيقة كما هو مائل امامهم، يشكل الفرصة الاخيرة. ثم ذكر برفض مشروع الامم المتحدة لتقسيم فلسطين في عام ١٩٤٧. ومنذ ذلك الحين والفلسطينيون يبحثون عن قطعة ارض صغيرة لوطن لهم. وكذلك اللبنانيون يعرضون انفسهم للخطر، اذ يتحولون مثل الفلسطينيين الى شعب دون وطن. فاذا ما اندلعت الحرب من جديد فستكون عاقبتها تدمير لبنان وتهجير سكانه. "لم نستطع الحصول من السوريين على شيء افضل ولن نستطيع ان نحرز اي تقدم بعد". ثم حاول اعضاء الترويك ابراز الجوانب الايجابية في التسوية المقترحة. فأشير الى انه لا شيء يمنع لبنان من ارسال عدد من الجنود اللبنانيين الى البقاع اكثر من عدد الجنود السوريين، كي لا يبقى اي مبرر لسوريا للبقاء في لبنان. وعندما تسحب سوريا قواتها، عندئذ يصبح بالامكان دفع اسرائيل الى سحب قواتها ايضا. وهكذا يمكن فقط كسر طوق اصرار سوريا، وكذلك اسرائيل في ادعاء كل منهما بضرورة البقاء في لبنان. اخيرا وعد وزير الخارجية السعودي بحضور ملكه العاهل السعودي ووزيري خارجية المغرب والجزائر لتقديم المساعدة اذا ما تم اقرار الوثيقة.

لقد تردد النواب طويلا، ولكنهم مالوا اخيرا الى القبول بالامر الواقع. فقد اعلن ادهم:

"لم يعد الامر يتعلق بايقاف الهجوم السوري. السوريون هم في البلاد، يشرفون على ٨٠٪ من اراضيه، كما يسيطرون على بعض الميليشيات. والوثيقة تشكل بالنسبة لهذا الموضوع خطوة جدية أولى، كي نتخلص منهم. لقد قبلوا بنزع سلاح الميليشيات خلال ستة اشهر، واعترفوا بمبدأ الاسحاب على مرحلتين. وللمرة الاولى نرى العرب يققون الى جانبنا. اني ارى المخاطر، وارى ان الوثيقة ليست حلا مثاليا، بل هي افضل ما نستطيع الحصول عليه في هذا الوقت. في ظل الصراع العسكري الذي لا نتيجة منه، اعتبر ان الموافقة على هذه الوثيقة هي الحل الافضل".

وفي اليوم الثالث والعشرين لانتقاد الخلو قام النواب بعملية التصويت. فوافق على الوثيقة ٥٦ نائبا من اصل ٦٢، وتحفظ اثنان منهم حول ضرورة تحديد جدول زمني للانسحاب السوري. وسجل ثلاثة آخرون تأييدهم لالغاء الطائفية. وامتنع اربعة نواب عن المشاركة في عملية التصويت. وهكذا جرى القبول بميثاق التعايش الجديد، ولكن جرى ايضا، اضافة طابع الشرعية على الاحتلال السوري.

٧ - انتخاب رئيس واغتياه

اثارت نتائج خلوة الطائف ترحيباً دولياً واسعاً. فقد رحب مجلس الامن، والولايات المتحدة، ودول المجموعة العربية، ومصر، وحتى العراق بمؤتمر الطائف واعتبروه فرصة لانهاء الحرب في لبنان.

وفي الحال قام اعضاء الترويكا بخطى لتطبيق ما تم الاتفاق عليه عملياً. فعرضوا على رئيس مجلس النواب عقد جلسة نيابية في السابع من تشرين الاول في بيروت، لاقرار وثيقة التفاهم الوطني رسمياً في جلسة عادية، وانتخاب رئيس للدولة. فقد سافر الاخضر الابراهيمي حالاً الى بيروت، وذلك لحث العماد عون على الموافقة.

ولكن العماد عون رفض ذلك معلناً بأنه لا يعارض اطلاقاً الاصلاحات السياسية، بل تمنى ان تكون اكثر راديكالية. ولكنه لم يجد نفسه في حال يسمح له بالموافقة على اضعاف طابع الشرعية على الوجود السوري في لبنان، لان ذلك يحد من استقلال وسيادة الدولة. فالنواب كان لهم الحق باقرار الاصلاحات، ولكن لا يحق لهم دستورياً عقد معاهدات دولية، وبنوع خاص لا يحق لهم التنازل عن السيادة الوطنية. فاذا ما أصرّوا على ذلك فانه سيضطر الى حل المجلس.

مع هذا الرفض القاطع، وجد عون نفسه وحيداً امام القيادات السياسية في لبنان. فالنواب أصرّوا على قرارهم. والبطريرك الماروني شكر الله لما حصل بالنسبة للتفاهم ودافع عن النواب^{٣٢}. والقوات اللبنانية بدورها ابدت مع بعض التحفظ موافقتها على الطائف. وهكذا لاحت امامهم لأول مرة بعد اشهر طويلة فرصة للخروج من ظل العماد عون وإعادة كسب نفوذهم في المنطقة المسيحية. ولكن العماد عون لم يكن معزولاً اطلاقاً بين السكان المسيحيين. فقد حصل اضراب عام وشامل تقريباً ضد قرارات خلوة الطائف. عشرات الآلاف من الناس قاموا بتظاهرات امام قصر بعبداً تأييداً لموقف العماد عون. وبذلك برزت ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ لبنان. الجماهير المسيحية التي لم تسمع وتصغي لقياداتها السياسية والروحية التقليدية، التي تنادي بالاعتدال، كانت مستعدة لدعم الرجل الذي اعلن عن موقف واضح بكلمات بسيطة للغاية.

كانت شخصية العماد عون مؤهلة لاستقطاب هذه المظاهرات الشعبية الجديدة. فمن حيث اصله الاجتماعي وسيرة حياته، ينتمي عون الى "الجماعات الصغيرة"

٣٢- اتخذ في هذا المجال موقف الفاتيكان القاضي باختيار الشر الأهم عندما يكون الإنسان أحياناً مضطراً للخيار بين شر أكبر وشر أصغر.

التي تطمح الى ترف اجتماعي بقواها الذاتية. كان والداه مزارعين. ولد عام ١٩٣٦ في حارة حريك، التي كانت آنذاك قرية مارونية صغيرة تقع في ضاحية بيروت الجنوبية. فمسير هذه القرية التي كانت اول "جزيرة مسيحية" غزاها الفلسطينيون عام ١٩٧٥، فرض عليها ان تسهم على الاقل برفض كل دور سياسي وعسكري للاجانب في لبنان. لم يكن رجلا عسكريا نموذجيا. في البداية درس الحقوق في الجامعة اليسوعية. وقد اضطر لبعض الوقت الى التوقف عن الدراسة، بهدف العمل وكسب العيش. ولكن بعد انتهاء دراسته دخل الى المدرسة الحربية، التي تخرج منها كضابط حصل على المرتبة الاولى بين افراد دورته. من الناحية السياسية، كان قريبا من حزب "الكتلة الوطنية". آنذاك نصحه ريمون اده بالبقاء في الجيش، بعد امتعاضه الشديد من عدم فائدة الجيش، وقرر مغادرته في بداية الحرب. فعام ١٩٧٦ كان المخطط للهجوم على تل الزعتر. وفي عهد الياس سركيس اعطيت له الفرصة لبناء وحدة جديدة في الجيش تضم مسلمين ومسيحيين معا. لقد قاد هذا الفوج من الجنود في معارك سوق الغرب عام ١٩٨٣ و١٩٨٤، قبل ان يعين في شبه توافق سياسي واسع قائدا اعلى للجيش. ان اختباره مع الجنود المسلمين جعله يتحسّن ضد الافكار الانفصالية المسيحية ويثبتته في وطنيته اللبنانية. "ابن الشعب"، شجاع، والبرهان على شجاعته الشخصية في معارك قاسية، هو تمسكه بلبنان ككل. كان ميالا الى القاء خطابات واضحة - عكس ما كان حال السياسيين التقليديين. هذه هي اهم الخصائص والمميزات التي جعلته يحظى بتأييد وتقدير عدد كبير من الناس.

فاقتناعا منه من ان تسوية العلاقات المستقبلية مع سوريا كما جرى القبول بها في الطائف ستكون مليئة بالمخاطر بالنسبة للبنان، واستنادا الى الدعم الذي تلقاه عبر المظاهرات الشعبية، تجاوز العماد عون في الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٨٩ حدا خطيرا، فاصدر القرار ٤٢٠، القاضي بحل مجلس النواب. استند بذلك الى موقف تاريخي سابق: "الوضع شبه بوضع" الجنرال "ديغول" ازاء "باتان"، الاول يمثل فرنسا الحرة، والاخر فرنسا المحتلة، نحن نقاوم اتفاقا، فرض في ظل الاحتلال".

فاذا كانت شرعية حكومة العماد عون كسلطة تنفيذية رسمية يصعب الجدل حولها دستوريا بعد فشل انتخاب رئيس للجمهورية في ايلول ١٩٨٨، فان الامر لا يمكن تطبيقه على عملية حل المجلس من قبل حكومة انتقالية. فقد رأى العميد ريمون اده، بالاستناد الى المادة ٥٥ من الدستور اللبناني^{٣٣} بان هذا الاجراء قانوني.

٣٣- "يستطيع رئيس الجمهورية بعد موافقة الحكومة على الأسباب المبررة ان يحل مجلس النواب قبل نهاية ولايته القانونية. في هذه الحال يدعى الناخبون للاقتراع وفقا للمادة ٢٥، وينبغي على المجلس الجديد ان ينعقد بعد مرور ١٥ يوما على اعلان نتائج الانتخاب. وحسب المادة ٢٥ ينبغي حصول الانتخابات

واخذ يصف نفسه ابتداء من ذلك الحين "بنائب سابق". اما "جورج فادال"، الاختصاصي القانوني في الدستور الفرنسي والذي استشاره رئيس مجلس النواب، حسين الحسيني، فقد اعطى توضيحا معاكسا، مشيرا الى ان الحكومة تمارس وفقا للمادة ٦٢ من الدستور، في حال شغور منصب الرئاسة، مهامها التنفيذية، ولكن لا يحق لها حل مجلس النواب، لان ذلك يتناقض مع مهامها الانتقالية. فحل المجلس من قبل حكومة انتقالية، يجعل من الحكومة الجهاز الدستوري الوحيد، وبالتالي يحصل اعتداء صارخ على المبدأ الاساسي المتعلق بتوزيع السلطة.

باستثناء قانونية الاجراء، اعتبر اقدام حكومة عون عليه امرا خطيرا للغاية من الوجهة السياسية. فقد كان مجلس النواب الجهاز الدستوري الوحيد المعترف به من كل الجهات، وقد بدا توقع انتخاب مجلس جديد في ظل الاوضاع السائدة في لبنان في نهاية عام ١٩٨٩ امرا وهميا للغاية^{٣٤}.

رغم ذلك دعا حسين الحسيني مجلس النواب للاتعداد في قاعدة القليعات الجوية التي تبعد سبعة كيلومترات عن الحدود السورية. في تلك الاثناء لم يعد معظم النواب المسيحيين بعد خلو الطائف الى منازلهم في المنطقة التي كان يسيطر عليها العماد عون، بل انتقلوا الى باريس كي لا يمنعوا من المشاركة في اية جلسة نيابية. عندئذ سافر الحسيني الى باريس، واقنع النواب ال ٢٥ هناك بالسفر الى القليعات. نقلتهم طائرة خاصة يملكها الملياردير اللبناني، رفيق الحريري، مباشرة الى القاعدة الجوية في القليعات، بينما وافاهم اليها النواب الآخرون عن طريق البر. وبعد حضور ٥٥ نائبا واكتمال النصاب، عقدت جلسة نيابية في الخامس من تشرين الثاني ١٩٨٩.

انتخب خلالها اولا حسين الحسيني مجددا رئيسا للمجلس، كما انتخب نائبا للرئيس النائب البير مخير غيايبا. ثم جرى التصويت على وثيقة الطائف^{٣٥}، فوافق عليها كل النواب الحاضرين، وتحفظ تسعة منهم على البروتوكول. ثم بوشربعملية انتخاب الرئيس. في الجولة الثانية، فاز رينيه معوض، نائب زغرتا، بأكثرية ٥٢ صوتا،

التشريعية بعد حل المجلس بثلاثة أشهر كحد أقصى. وبما ان قرار حكومة عون يحدد موعدا لانتخابات جديدة في كانون الثاني ١٩٩٠ وبما ان العماد عون اوضح لسباب حل المجلس، فقد اعتبر ريمون اده هذا القرار مطابقا للدستور^{٣٤}.

٣٤- في الواقع اضطر عون في بداية ١٩٩٠ الى ارجاء موعد الانتخابات النيابية الى أجل غير مسمى. حتى الانتخاب في المناطق التي لا تتواجد فيها او تحتلها قوات اجنبية لم يكن ممكنا.

٣٥- ان قانونية هذا القرار هي مدعاة للتشكيك. فالمادة ٧٥ من الدستور اللبناني تقول: "عندما ينعقد المجلس لانتخاب رئيس للجمهورية، فانه يشكل فقط هيئة انتخابية وليس مجلسا للتشاور. عليه حالاً، ودون تردد او نقاش ان يباشر بعملية انتخاب رئيس الدولة". فالتصويت على وثيقة الطائف حصل قبل انتخاب رئيس الجمهورية لأن النواب المسلمين اعتبروا قبول الاصلاحات كشرط للإشتراك في انتخاب الرئيس.

وامتنع ستة نواب عن التصويت^{٣٦}. رينيه معوض (٦٤ سنة) كان من "عائلة كبيرة" مارونية من شمال لبنان. انتخب نائباً لأول مرة عام ١٩٥٧. ومنذ ذلك الحين كان يعاد انتخابه. كان محامياً يجسد نموذج الزعيم السياسي المثقف والمرن في المدرسة القديمة. اشتهر كرائد لتسويات سياسية عديدة. لذلك اعتبر المرشح المثالي. لم يشارك في الحرب اطلاقاً وكذلك انصاره. لم تكن لديه اية ميليشيا. اعجب به عدد كبير من القوميين اللبنانيين، خاصة المسيحيين منهم، لانه صوت عام ١٩٨٢ لبشير الجميل. وقد كان ايضاً مقبولا من قبل القوى الموالية لسوريا، لانه لم يشك اطلاقاً في ان الحل اللبناني لا يمكن التوصل اليه الا بالتوافق مع سوريا.

حضر عدد من السفراء الاجانب انتخاب رينيه معوض. وقد صدرت تصريحات تأييد له من كل الدول العربية، ومن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وفرنسا^{٣٧}. وهكذا، وبعد مرور سنة على شغور منصب الرئاسة، اصبح للبنان رئيس جديد، انتخب ليس بضغط من قوة خارجية، بل نتيجة تسوية لبنانية كلاسيكية - اي رئيس اتفق على اختياره "الثعالب".

ان هذا الانتخاب لم يكن ممكناً، لولا التصلب السياسي الذي ابداه العماد عون الذي لم يهتم بامر انتخاب رئيس فقط، بل بامر انسحاب السوريين ايضاً. وبما ان قرارات الطائف لم تتجج في اقرار هذا الانسحاب، بل اضفت طابع الشرعية على الاحتلال السوري، كان من المنطقي ان يرفض العماد عون ايضاً ما حققته خلوة الطائف. وبما انه اقدم على حل المجلس بسبب موافقته على وثيقة الطائف، لم يعترف العماد عون ايضاً بانتخاب معوض من قبل هذا المجلس. ولكن عزلته الدولية بلغت مع هذا الانتخاب ذروتها تقريباً. فبعد الاعتراف به سابقاً كرئيس احدى حكومتي الامر الواقع، اصبح بعد ذلك بنظر معظم الحكومات العربية والحكومات الاخرى ضابطاً متمرداً. فقد حاول تشبيه نفسه بالجنرال ديغول عام ١٩٤٠، ولكنه، عكس هذا الاخير لم يتلق دعماً من اية دولة كبيرة. لذلك اصبح يشبه "ديغولا" لا تتجاوز سلطته او نفوذه الا بعض "الكنايس الضيقة". ولكنه بقي يتمتع بتأييد واسع من قبل جماهير الشعب وانصاره في المنطقة المسيحية. في عشية انتخاب رئيس الجمهورية هاجم المتظاهرون الصرح البطريركي الماروني في بركي واعتدوا على البطريرك، وارغموه على تقبيل صورة العماد عون. وكذلك وضعت متفجرات

٣٦- في الدورة الأولى من الاقتراع حصل النائب رينيه معوض ٣٥ صوتاً مقابل ١٦ صوتاً لرئيس حزب الكتائب النائب جورج سعادة، و٥ اصوات للنائب الياس هراوي، نائب زحلة. اما سليمان فرنجييه، والنائب ميخائيل الضاهر، مرشح سوريا عام ١٩٨٨، فقد سحبا ترشيحهما قبل الانتخاب.

٣٧- ابدت ايران موقفاً سلبياً اذ رأت في انتخاب معوض "تثبيتاً للنظام الطائفي". اما العراق فعبر عن تحفظه لأن الوضع في لبنان سيبقى معقداً طالما هناك احتلال من قبل قوات اجنبية، وخاصة سورية.

على منازل معظم النواب المسيحيين. ولكن العماد عون استنكر كل هذه الممارسات، كما اظهر "تفهما لغضب الشعب". وكذلك صعد من حدة تصريحاته. "انا رئيس لبنان الحر، والسيد. فقط المتوطنون مع العدو هم في الجانب الآخر. انا اشكل بالتعاون مع الحكومة صلاحيات رئيس الدولة، كما استند على شرعية الشعب...رينيه معوض ليس الا نائبا سابقا. وهذا كل ما في الامر".

ولكن كان اللغة رينيه معوض وقع آخر. فقد دعا الرئيس المنتخب كل اللبنانيين للانضمام الى عملية السلام. "اني اعتبر رسالتي في الحياة العمل على تحقيق المصالحة بين اللبنانيين من مختلف الميول والاتجاهات. وهذه المصالحة لا تستهدف استبعاد احد، حتى الذين يصرون على ابعاد انفسهم..." لم تحصل مظاهرات تأييد للرئيس الجديد الا في مسقط رأسه فقط. ولكن معظم اللبنانيين عبروا بشكل آخر عن أملهم وارتياحهم. فقد عادت بيروت تعج بالسيارات - كدليل لعودة الوضع الى حالته الطبيعية - وامتألت المحلات التجارية والمطاعم. وانخفض سعر الدولار من ٥٣٤ ليرة قبل الانتخاب الى ٤٢٠ بعده.

سعى رئيس الجمهورية الأسبق، شارل حلو، وبعض الأعيان الموارنة، لإقامة حوار بين معوض والعماد عون، ولكن دون جدوى. فقد رفض العماد عون كل وساطة، مطالبا النواب بالتراجع عن قرارات الطائف، كشرط لابطال مفعول قراره بحل المجلس. فكل نائب مسيحي تجرأ وقبل حقيبة وزارية في حكومة معوض والحص، كان عليه ان يتخلى عن السكن في المناطق الحرة من البلاد.

ورغم اعلان نبيه بري ووليد جنبلاط معارضتهما للطائف، وإن لاسباب أخرى غير اسباب العماد عون، فقد اعترفا بالرئيس معوض وعبرا عن استعدادهما للمشاركة في الحكومة. الا ان معوض لم ينجح في كسب تأييد سياسيين مسيحيين يمثلون الوحدة الوطنية في حكومته. لقد طرح موضوع تشكيل حكومة انتقالية، ولكن معوض رفض استخدام العنف ضد عون والمنطقة التي يسيطر عليها. "اريد كسب المنطقة الشرقية بالحوار وليس بالسلاح".

اما الحكومة السورية التي عرضت عليه مساعدتها "لإلغاء عقبة عون"، فادركت سريعا تصلب معوض واصراره على ايجاد تسوية. فقد نشرت صحيفة سورية مقابلة "سورية" مع معوض، نسب فيها الى الرئيس اللبناني، كلام يؤمل سماعه منه: "تقوم العلاقات المميزة بين لبنان وسوريا على معطيات تاريخية وجغرافية...على روابط القربى والكفاح المشترك ضد الاستعمار الفرنسي... لبنان وسوريا هما شعب واحد في دولتين، وجزء من الأمة العربية التي مزقتها القوى الاستعمارية"^{٣٨}. ولكن مكتب

٣٨- تقارير الصحف اللبنانية الصادرة في ١٩٨٩/١١/٨ نقلًا عن صحيفة "الثورة السورية".

الرئيس اعلن انه لم يعط اي تصريح ولم تجر معه أية مقابلة^{٣٩}.

وفي ظلّ توتر كثيف احتفل لبنان في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٨٩ بعيد استقلاله السادس والاربعين. فبينما اصرّ معوّض مجدداً على تحقيق قرارات الطائف، وصف العماد عون هذه القرارات "بالخيانة والفشل". وفي طريق عودة الرئيس معوّض الى مكان سكنه من حفلة استقبال للسفراء الأجانب اقيمت في القصر الحكومي، انفجرت سيارة مفخخة، أدت الى مقتل ١٤ شخصاً، ومن بينهم الرئيس الجديد. في الحال أسرع مصطفى طلاس، وزير الدفاع السوري، واتهم اسرائيل والعراق والعماد عون، بتنظيم هذا الاغتيال. ولكن الصحافة اللبنانية التي تصدر في بيروت الشرقية أشارت الى ان الاغتيال وقع في منطقة تسيطر عليها القوّات السورية وحدها. وكما هو الحال في عدد كبير من الاغتيالات السياسية السابقة في لبنان، كان من الصعب جداً تحديد الجهة الدافعة اليها بدقة. وكذلك السؤال "لماذا حصل ذلك"، لم يسمح بالتعرف على الجاني في بلد يستطيع عدد كبير من الناس اقتراف مثل هذا العمل، ولديهم الاستعداد لاقترافه. اما على السؤال "من هو المستفيد من الجريمة"، فيمكن الجواب عليه بوضوح. فمتلما استفادت سوريا من مقتل كمال جنبلاط، وبشير الجميل، ومحمد شقير، وحسن خالد، وناظم القادري، كذلك استفادت من مقتل رينيه معوّض، كما تبين بعد مقتله بيومين فقط.

٨ - رَجُلُ سوريَا كرئيس لبناني

في التقاليد اللبنانية، لا يفكر بالخلف قبل دفن السلف. ولكن مهلة الخجل، اي فترة الحداد، لم تحترم بعد اغتيال الرئيس رينيه معوّض. ففي مساء ذلك النهار، اي في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، انتقل - او استدعي - حسين الحسيني، رئيس مجلس النواب، الى دمشق، للتشاور مع عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري. وفي صباح اليوم الثاني التقى ٣٩ نائباً في فندق بارك اوتيل في شتورا، مركز جهاز الاستخبارات العسكرية السورية. وقد وافاهم الى هناك عدد من النواب الذين حضروا مجدداً من باريس في طائرة رفيق الحريري الخاصة. وفي اليوم التالي، انعقد مجلس النواب في جلسة رسمية، كما ايعدت القوات السورية الخاصة الصحفيين عنها. وقد اكتمل النصاب بحضور ٥٣ نائباً. ولكن اذاعة دمشق اعلنت نتيجة انتخاب الرئيس قبل حصول عملية الاقتراع^{٤٠}. كان المرشح الوحيد للنائب

٣٩- وبعد مرور ايام قلائل على ذلك تكرر ذات الشيء، اي "مقابلة" مع زوجة الرئيس اللبناني. وقد استتكرت هي ايضا ان تكون قد اجريت معها اية مقابلة.

٤٠- هذا ما نشرته معظم الصحف اللبنانية الصادرة في ٢٥ تشرين الثاني عام ١٩٨٩.

الياس هراوي، الذي فاز في الجولة الثانية من الاقتراع ب ٤٧ صوتاً. ولم يصوت ضده احد، ولكن امتنع ستة نواب عن التصويت. وعلى أثر ذلك مباشرة، أقر النواب تجديد ولاية مجلسهم لفترة اربع سنوات أخرى. اما الرئيس الجديد فقد دعا اللبنانيين "الى التفكير والوعي بدلا من الانجراف في مغامرة سياسية". فحث على التسلح بالواقعية "بدلا من الاستماع الى الشعارات التي ستحول الاحلام والآمال الى دموع".

لا شك في ان هراوي نفسه كان واقعيا. فهو رجل سوريا من حيث اقتناعه وكذلك من حيث المصلحة. منذ سنوات كان يعبر عن نظريته القائلة بان على لبنان ان ينظم اوضاعه مع سوريا: "في ظل الاوضاع والظروف الراهنة، يمر الطريق الأقصر والأسرع عبر دمشق. وفي العلاقات بين الدول لا يوجد شيء نهائي. يمكن ابرام معاهدات كما يمكن تعديلها لاحقا". لم يكن هراوي اقل مارونية من موارد المنطقة المسيحية، مثل الجميل، ولا من مسيحيي الشمال مثل معوض. ولكنه كماروني من البقاع حيث تسيطر سوريا منذ عام ١٩٧٦، لم تكن له اية مصلحة لانتهاج سياسة لا تخدم مصالح مسيحيي الأطراف. فمن المغامرة التي قامت بها القوات اللبنانية عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ استنتج وادرك كم كان غالبا ثمن التحدي لسوريا بالنسبة للمسيحيين في تلك المنطقة. بالاضافة الى هذه القناعات والاختبارات، هناك ايضا المصالح الشخصية. هراوي هو من كبار ملاكي الاراضي الزراعية الواقعة في سهل البقاع. في شركة المعليات التي يملكها، يشاركه منذ عدة سنوات احد اولاد نائب الرئيس السوري، عبد الحليم خدام. وكذلك تزدهر حركة انتاجه الزراعي بنوع خاص من صادراته الى العالم العربي عبر سوريا. وموجز القول: نظرا لنجاحه في اقامة علاقات اقتصادية جيدة مع السوريين، يمكنه ايضا اقامة علاقات سياسية ناجحة معهم. وقد ساد اقتناع ثابت لديه، بانه في الوقت الراهن، يستحيل النجاح في حقل الأعمال كما في الحقل السياسي رغم ارادة السوريين. وكذلك شدد في رفض كل ما يمكن اعتباره مغامرة سياسية. كان بشير الجميل بنظره مغامرا، وكذلك العماد ميشال عون هو مغامر ايضا.

ولكنه خلافاً للرئيس معوض، كان الياس هراوي مصمماً على الانتهاء سريعاً من العماد عون، واذا اقتضت الحاجة، بمساعدة الجيش السوري. فبعد مرور يوم واحد على انتخابه أقال العماد عون من منصبه كقائد أعلى للجيش، وأمره بمغادرة قصر الرئاسة في بعبدا خلال ٤٨ ساعة، والا عليه تحمل النتائج. "لم ننتخب لاعلان حرب جديدة. ولكن اذا ما اندلعت حرب جديدة، فلن ندوم سوى ساعات قلائل وذلك للقضاء على الذين لا شرعية لهم. انا مقرر ان احكم انطلاقا من بعدا... حتى وان لم يبق هناك سوى غرفة واحدة". لقد كان بإمكان اي عمل عسكري تدمير قصر بعبدا الشديد التحصين خلال "ساعات قليلة". وهذا يعني تهديدا باستخدام سلاح

الطيران السوري. ولكن مرّت مهلة الانذار دون حدوث شيء. فبعد انذار هراوي بساعات قليلة، اندفع عشرات الآلاف من الناس الى بعبداء، خاصة الفتيان والشباب. فنصبّت حول قصر بعبداء الخيام، وبدأ اعتصام دام عدة اسابيع. كما ساهم الخطباء والفنانون، والشعراء والموسيقيون في إثارة مشاعر الجماهير. وتخلل ذلك مظاهرات تأييد لعون تحولت الى مهرجانات من الطرب والزقاص. ونظرا لهذا المهرجان الشعبي المتواصل كانت كل غارة جوية ستؤدي الى مجزرة جماعية.

ارتعب هراوي من هذه الظاهرة. كما نصحه البطريرك الماروني، الذي لم يكن صديقاً لعون، بعدم استخدام العنف. وكذلك فعلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وفرنسا والفاتيكان. وقد حذر قائد سلاح الطيران الاسرائيلي سوريا من استخدام طائرات، لأن ذلك سيؤدي الى "مجابهات غير مرغوبة" مع طائرات الدفاع الجوي الاسرائيلي، التي كانت تحلق دورياً في الأجواء اللبنانية^{٤١}. أخيراً تمكن عون أيضاً من نصب صواريخ أرض-جو وصلته من العراق حول بعبداء. وهذا ما جعل كل غارة جوية صعبة للغاية. وهكذا تواصل ما وصفه خصوم عون بـ "كرنفال بعبداء"، ولكن بشكل منظم^{٤٢}، كوسيلة للتعبئة السياسية. وما بدأ كمظاهرات منوثة لقرارات الطائف، تحول خلال أسابيع قليلة الى حركة تأييد للعماد عون شبّية بظاهرة عبادة الأشخاص^{٤٣}. لقد وجد عدد كبير من الشباب في المنطقة المسيحية فرصة لرفض النظام البرلماني القائم ورفض ممثليه وابداء التقدير والاعجاب بشخصية قيادية سياسية متطورة، في إطار وحدة وتحرير لكافة الأراضي اللبنانية^{٤٤}. فعندما قرّر هراوي القضاء بعنف وسريعا على "مشكلة عون"، انهارت حالا هذه الإمكانية. في الرابع عشر من كانون الأول ١٩٨٨ أعلن هراوي بأنه لم يطلق اي انذار ضد عون ولم ينو القيام بأي هجوم عسكري ضد بعبداء. ولكنه يملك وسائل أخرى أكثر فعالية لتحقيق هدفه.

بعد انتخاب الرئيس مباشرة كُلف سليم الحصّ مجدداً بتشكيل حكومة جديدة.

٤١- هكذا شكت إسرائيل مجدداً على أنها تعتبر المجال الجوي اللبناني "خطأً أحمر"، لا يسمح للسوريين بخرقه. بالمقابل لم تتحرك إسرائيل اطلاقاً لمعارضة او لمواجهة الحصار البحري الذي اقامته البحرية السورية ضد المنطقة المسيحية.

٤٢- كانت المدارس في المنطقة المسيحية ترسل دورياً وفرداً من التلامذة الى بعبداء.

٤٣- كانت الشعارات التي تردت عبر مكبرات الصوت كانت تقول غالباً: "بالروح والدم نفديك يا جنرال". "لا نريد عون الله، لدينا عوننا".

٤٤- جرى تحقيق بين المتظاهرين في بعبداء في بداية عام ١٩٩٠، فتبيّن ان ٣٥٪ من المشاركين كانوا دون الثامنة عشرة من العمر، و ٤٠٪ دون الأربعين، و ٩٦٪ منهم عبّروا عن مطالبهم ببلبان موحد، وبانتخاب شعبي للرئيس، و ٨٥٪ طالبوا بقانون جديد للانتخاب وعارضوا الأحزاب القائمة، كما أعلن ٩٠٪ عن معارضتهم لقرارات الطائف (استقيت هذه المعلومات من تحقيق قام به بطرس لبكي لم ينشر بعد).

فالوزراء المسلمون الذين اعطوا حقائب وزارية، ومن بينهم زعماء الميليشيات نبيه بري ووليد جنبلاط، تسلموا حالا حقائبهم، وكذلك الوزراء المسيحيون المقيمون في المناطق الواقعة تحت السيطرة السورية، ولكن وزيرين مسيحيين كانا يقيمان في المنطقة المسيحية تردداً في قبول تعيينهما: ميشال ساسين بقي في باريس، وجورج سعادته، رئيس حزب الكتائب، تردد بين القبول والرفض، لأن الأمر كان مشروطاً فقط "بحكومة وحدة وطنية" في اطار قرارات الطائف. فقد استغلّ هراوي والحصّ بسرعة كبيرة وامكانيات واسعة اجهزة الدولة لتكثيف العزلة على العماد عون. فطلب الى كل الموظفين مغادرة المكاتب الوزارية والادارات الرسمية الواقعة في المنطقة التي يسيطر عليها العماد عون، وقطع الرواتب عن الذين لا يحترمون هذا القرار. وفي وزارة الخارجية استبدل الموظفون المواليون للعماد عون، كما عيّن قائد جديد للجيش، العماد الماروني اميل لحود الذي أمر كل الضباط والجنود بالالتحاق بقيادته. ولكن لم يكن لهذا الأمر اي انعكاس مباشر، بل أخذ عدد من الضباط الذين، حسب التقليد في الجيش اللبناني، لا يتعاطون بالامور السياسية ويتقيدون دائماً بالشرعية، يتساءلون الى من ينبغي ان يعود ولاؤهم^{٤٥}.

ولكن سرعان ما تعرّض العماد عون لصعوبات مباشرة عبر امر صدر عن حكومة الحصّ الى البنك المركزي يقضي بقطع رواتب الجيش والموظفين في المنطقة المسيحية. فلم يبق للعماد عون الا امكانية عدم دفع مداخيل الدولة من المنطقة التي يسيطر عليها الى البنك المركزي، واستخدماها لدفع رواتب الجيش والموظفين فيها. وكما كان الحال في كل البلاد، لم تعد ايضاً المداخيل منذ مدة طويلة تغطي حتى في المنطقة المسيحية المصاريف الضرورية. فالعجز في الموازنة كان يُغطى عبر قروض وطبع اوراق نقدية. وهذان الأمران كانت تمتلكهما الحكومة التي تسيطر على البنك المركزي الموجود في بيروت الغربية، اي حكومة هراوي والحصّ، وليس حكومة العماد عون.

اما المخرج الوحيد الذي بقي امام هذا الاخير فكان زيادة مداخيل الدولة في المنطقة المسيحية، وعلى حساب القوات اللبنانية التي احترمت موافقتها على ذلك في شباط ١٩٨٩ جزئياً فقط، ولكنها واصلت جباية "الضرائب" و"الرسوم الجمركية" بنسب عالية. وهكذا كان بمقدور القوات تأمين رواتب افرادها المدنيين والعسكريين. كما كان بإمكانها ايضاً دفع رواتب الى ميليشياتها اعلى من الرواتب التي كانت تدفع الى موظفي عون وضباطه وجنوده. كانت هذه الأوضاع بالنسبة لعون امراً مقلقاً منذ

٤٥ - في الثالث من كانون الثاني ١٩٩٠ امر العماد عون بالقاء القبض على ثلاثة ضباط قاموا بمفاوضات مع العماد لحود. يبدو انهم خططوا لتسليم موقع عشيّة العسكري لقيادة الجيش الجديد، وبالتالي نحو الجنوب انطلاقاً منه.

مدة طويلة. فبعد قطع الرواتب من قبل البنك المركزي اضطر بحكم الضرورة الى تغيير ذلك. وبالاختصار، وضعت العقوبات الاقتصادية التي اتخذتها حكومة الحصّ العمد عون في وضع فرض عليه الدخول في نزاع محتم مع القوات اللبنانية.

٩ - حرب بين الجيش والميليشيات في المنطقة المسيحية

لم يقع هذا النزاع اطلاقاً بسبب المال فقط. قبل سنة من ذلك كان العمد عون قد بدأ محاولة لاستعادة سلطة الدولة عبر اضعاف دور القوات اللبنانية. ولكنه، كما أشير سابقاً، اضطرّ الى الإكتفاء بنجاح جزئي. وقد بقي النزاع الأساسي كما يعرف الفريقان، دون حل، وبقي التساؤل عالقاً، من ينبغي ان يحكم، الدولة او الميليشيا؟

أخذ العمد عون على عاتقه مسؤولية تمثيل الدولة، كما رأت القوات اللبنانية مبرر وجودها في الدفاع عن "الشعب المسيحي"، حسب صيغة ايديولوجيتها، او حسب تعبير سمير جعجع، الدفاع عن "المناطق الشرقية". اما العمد عون فاراد استعادة دولة لبنانية موحدة. وجعجع تمنى دولة فيدارالية مرنة يستطيع جزءها المسيحي التمتع بحكم ذاتي كبير. ورأى في ميليشياته المحامي الشرعي لمصالح هذا الجزء من الدولة. العمد عون اراد تحرير كل البلاد، بينما كان يرى جعجع دائماً ان على المسلمين اللبنانيين ان يحرروا انفسهم بانفسهم عندما يرغبون بذلك. اما في الوقت الراهن فينبغي تدعيم الحفاظ على القرار الذاتي في المناطق الشرقية.

كانت الاهداف المتضاربة انعكاساً ونتيجة للتقديرات والحسابات المتضاربة. فلم يكن جعجع ينتظر شيئاً من التحدي غير الضروري لسوريا التي تتفوق بقوتها العسكرية، ولا من حرب التحرير التي اعلنها العمد عون. فخلال حرب السوريين ضد المنطقة المسيحية، حاربت ايضا القوات اللبنانية الى جانب الجيش، لأن الأمر كان يتعلق بالمنطقة التي يتمسكون بها. فقد امتنع جعجع خلال اشهر طويلة عن اعطاء اي تصريح علني. ولكنه بعد نهاية التهديد العسكري المباشر للمنطقة المسيحية لم يعد يرى اي مبرر للتضامن غير المشروط مع العمد عون. فحزب الكتائب الذي كان للميليشيات منذ عدة سنوات الكلمة النهائية في اجتماعات مكتبه السياسي، شارك بشخص رئيسه النائب جورج سعادة في خلوة الطائف. وفي السابع عشر من كانون الأول ١٩٨٩ قطع جعجع صمته الطويل واعلن عن ضرورة "اعطاء فرصة للطائف". وهذا ما سهل الاتصالات بين هراوي والقوات اللبنانية، ولكن العمد عون اعتبر ذلك خيانة. فالى جانب النزاع حول المصادر المالية، برز النزاع السياسي ايضاً.

زاد في تفاقم حدة الخلافات التسابق الى كسب التأييد الشعبي بين السكان

المسيحيين. فلم ينجح جعجع إطلاقاً في كسب التأييد والتعاطف كما كان الحال مع بشير الجميل قبل عشر سنوات. فميليشياته أبعدت الناس عنه وعنها بسبب ممارسات فرض الخوات وجباية الضرائب، والاجراءات التعسفية، كما اشارت الحقد عليهم. ولكن العماد عون نجح في فترة وجيزة وأصبح "حبيب الشعب". كما أخذت الاكثريّة الساحقة من السكان تفضل موظفيه وجيشه المنظم على سلطة الميليشيات.

في كانون الثاني ١٩٩٠ استعد الطرفان المتخاصمان لنزاع مفتوح. كانت ترسانة الأسلحة لدى الفريقين زاخرة بالامدادات العراقية. اقامت الميليشيات مراكز لها بالقرب من تكتات الجيش. في السابع والعشرين من كانون الثاني اندلعت المعارك الأولى، على أثر قرار حكومة العماد عون استعادة مبنى مدرسي في فرن الشباك كانت قد صادرتها ميليشيا القوات اللبنانية، وتسليمه الى وزارة التربية. كان هذا المبنى يقع في مكان استراتيجي هام، يمكن، انطلاقاً منه، مراقبة طريق الشام بين بعداً وببيروت الشرقية. فعندما رفضت الميليشيات الإنسحاب من هذا المبنى، اطلق الجيش النار. وعلى أثر ذلك وخلال ساعات قلائل، اندلعت معارك طاحنة في امكان عديدة. كان الجيش من حيث العدد اقوى من القوات^{٤٦}. ولكن نظراً لتركز قسم كبير من وحداته على حدود المنطقة المسيحية مقابل القوات السورية، لم يستطع الا استخدام عدد محدود من جنوده في تلك المعارك. ويبدو كذلك ان القوات اللبنانية كانت مجهزة ومستعدة جيداً لهذه المعارك. فقد هاجمت قواتها تكتات الجيش الواقعة على الشواطىء والتي لم تكن ذات قوة كبيرة. وفي الحادي والثلاثين من كانون الثاني استسلم موقع للجيش في عمشيت. وفي الثاني من شباط استسلمت تكتة صربا، والقاعدة البحرية في جونيه. وكذلك انسحبت وحدة صغيرة من الجيش كانت ترابض في مرفأ بيروت الى بيروت الغربية، واستسلمت لقيادة العماد لحود. وهكذا سقط الشريط الساحلي من المنطقة المسيحية خلال أيام معدودة في أيدي قوات جعجع.

في السادس من شباط قام الجيش بهجوم مضاد. فتمكن، بعد معارك طاحنة، من احتلال منطقة ضبيّه، حيث كانت تقع عدة تكتات للقوات، وادارتها المالية، ونفذ من جديد الى الشاطئ في انطلباس. وتخفيفاً للضغط عنها، حاصرت القوات قاعدة أدماء الجوية حيث دُمّرت كل الطوافات العسكرية التابعة للعماد عون. ورغم التفوق العددي للقوات، تمكنت وحدة الكومندوس في تلك القاعدة من المقاومة، حتى جرى في النهاية اتفاق سمح لأفراد الجيش المحاصرين بالخروج من القاعدة مع اسلحتهم. وفي العاشر من شباط قامت الميليشيات بهجوم في الجبل ضد مواقع الجيش في

٤٦ - كان يتألف الجيش الموالي للعماد عون من خمسة عشر ألف عنصر، من بينهم تسعة آلاف من القوات المقاتلة. وكان بإمكان القوات اللبنانية تعبئة عشرة آلاف مقاتل ضدهم، كان نصفهم في حالة تأهب للقتال.

القلبيات^{٤٧}. فجرى التصدي لها سريعاً. وفي ذات النهار أعلن الكولونيل بول فارس الذي استقال من الجيش قبل عدة اسابيع، نفسه قائداً "لجيش حيادي"، فانضم اليه الجنود الذين بقوا على قيد الحياة في المواقع التي استسلمت امام الميليشيات.

وفي اليوم التالي، قام الجيش بهجوم على ضواحي بيروت الشرقية. فبعد معارك طاحنة لم يعرف لها مثيل سابقاً، توصل الجيش الى تحرير عين الرمانة. انسحبت على أثرها وحدات القوات اللبنانية - عبر بيروت الغربية - الى الأشرفية، في وسط بيروت الشرقية. عندئذ أعلن جعجع اعترافه "بالسلطة الشرعية"، اي سلطة هراوي وحكومة الحصن التي طلب مساعدتها. وكبادرة حسن نية تجاه هذه الحكومة سلم أربع طائرات عسكرية من طراز "فوغا-ماجستر" (Fuga-Magister) وقعت في حوزته عند استيلائه على مطار حالات العسكري، الى سلاح الجو التابع للعماد لحدود في مطار القليبات. ولكن هراوي صرح من جانبه بأنه سيقدم له المساعدة فقط عندما يعترف جعجع بوثيقة الطائف ويعلن عن استعداده لوضع نفسه بتصرف الحكومة.

وعندما قام الجيش في الأول من آذار ١٩٩٠ بهجوم وتقدم الى ضواحي سن الفيل والنبعة، تبين انه اكتسب المعركة. ولكن سرعان ما تعرض جنود العماد عون لصعوبات شديدة لأن المنازل والشوارع كانت ملغمة، كما ابرزت الميليشيات مقاومة مريرة - وبدأت الذخيرة تنفذ لدى الجيش.

وهكذا مرّ شهر كامل على هذه الحرب دون الوصول الى نتيجة حاسمة لصالح الجيش او الميليشيات. فانقسمت المنطقة المسيحية على بعضها، وقامت فيها خطوط تماس فاصلة لا تختلف عن "الخطوط الخضراء" التي كانت تفصل بين بيروت الشرقية والغربية، وبقيت القوات اللبنانية تسيطر على قضاءي جبيل وكسروان. اضافة الى ذلك، استمرت في السيطرة على وسط بيروت الشرقية - الأشرفية والكرنتينا - الذي انفصل عن القسم الأكبر من منطقتها، وبقي الاتصال بينهما مؤمناً عن طريق البحر فقط. اما جيش العماد عون فبقي مسيطراً في قضاء المتن وعلى الشريط الساحلي الممتد من بيروت الى نهر الكلب، بالإضافة الى ضواحي بيروت الشرقية والمنطقة المحيطة ببعيدا وجزء صغير من كسروان.

عسكرياً كانت نتيجة هذه الحرب غير ملائمة اطلاقاً بالنسبة للجيش. فلم يتمكن من فرض سلطته ازاء الميليشيات، بل فقد ثلثي المنطقة المسيحية. ويبدو ان العماد عون والفريق المعاون له اخطأوا في تقييمهم للوضع. فمواقع الجيش على الشواطئ

٤٧- انطلاقاً من هناك قام الجيش سابقاً بمحاولة فاشلة لارسال امدادات بهيف دعم وتقوية موقع أدما.

لم تكن محصنة كفاية. وبعض الضباط في الجيش تبنى ميليشيا القوات^{٤٨}. فبعد فقدان السيطرة على المرفأ وبعض مستودعات الذخيرة على الشواطئ أصبح الجيش مقطوعاً من الامدادات. وكذلك لم يقدر الجيش كفاية القوة النضالية لدى الميليشيات ولا ارادتها في الصمود.

وهكذا اضطرت ايضاً افضل وحدات الجيش اللبناني تدريباً الى التعلم من الاختبار الذي عاشته قبلها قوات نظامية أخرى في صراعتها ضد ميليشيات يحدها العزم والصمود. في سبيل اقتلاعها من مراكزها في المدن، كان ينبغي تدمير هذه المراكز، والقيام بمعارك طاحنة ضدها. ولكن "مجال الضعف" الاضافي لدى الجيش اللبناني اضطره، بقدر ما سمحت له الظروف، الى أخذ السكان المدنيين بعين الاعتبار. اما الميليشيا فلم تفعل ذلك اطلاقاً، وكذلك الجيش ايضاً، بعد الخسائر الجسيمة التي لحقت به.

لقد بلغت تلك المعارك مستوى عالياً جداً من الكثافة والقساوة، وهو أمر لم يشهده اللبنانيون منذ بداية الحرب. ومرة أخرى تبين ان التصعيد مازال ممكناً. لقد استخدمت المدفعية الثقيلة والمصفحات والمدركات والصواريخ في مناطق من البلاد شديدة الكثافة السكانية. ولأول مرة أدى النزاع الى خسائر عالية بين المتحاربين. فقد تجاوزت خسائر ميليشيا القوات ثلاثة او اربعة اضعاف خسائر الجيش. وبالإجمال سقط في هذه الحرب بين المسيحيين عدد من الناس يتجاوز عدد الذين سقطوا خلال قصف المنطقة المسيحية من قبل السوريين قبل سنة.

لم يظهر افراد القوات اللبنانية اية رحمة او شفقة تجاه شعبيهم "الذاتي"^{٤٩}. لم يأخذ مقاتلوها اي اعتبار للامكنة التي كانوا يطلقون النار منها. فقد استخدموا المدارس والاديار والمستشفيات كمراكز لاطلاق النار، ممارسين بذلك سياسة "الارض المحروقة". فمنطقة عين الرمانة مثلاً، بدت بعد دخول الجيش اليها، وكأنها خارجة من زلزال أرضي، حسب قول مراسل وكالة "رويتر".

الوحدات الخاصة في ميليشيا القوات كانت تتألف من حوالي ألف مقاتل جرى تجنيدهم واختيارهم من بين مهجري لبنان الشمالي. كانوا يشكلون القوة الأكثر ولاء لجمع. فقد ارسلت هذه الوحدات للتمركز في بيروت. وهناك "مارست الحرب وكأنها في أرض غريبة"^{٥٠}. فمشاعر القرويين المشردين تجاه سكان المدن،

٤٨ - تبين ان الفوج الخامس بنوع خاص كان ضعيف الولاء نسبياً. فقد كتبت له منذ زمن بشير الجميل علاقات وثيقة بميليشيا القوات.

٤٩ - حول ما يلي راجع: Union des Jeunes Européens, Livre Blanc du Conflit Armée-Fores Libanaises, Paris 1990.

٥٠ - من مقابلة جرت مع شاهد عيان.

ومتوسطي الحال نسبياً، دفعت بهم الى ممارسة العنف والسلب والنهب والحريق. كما استهدفت اعتداءاتهم بنوع خاص التلامذة والطلبة الذين شاركوا في كل المظاهرات في بعدا. كذلك اتخذوا افراد عائلات الضباط كرهائن، وأعدموا رميا بالرصاص بعض الجنود الأسرى - كما اعدموا عددا من رفاقهم الذين في بعض الحالات رفضوا مواصلة القتال. وبالنسبة لتأمين الغذاء والماء للسكان لم تبد ميليشيا القوات اي اهتمام، بل بالعكس حالت احيانا دون تأمينها. وقد استنتج بعض المراقبين بان الميليشيا عمدت بذلك الى معاقبة السكان بسبب ضعف شعبيتها وتعاضم شعبية العماد عون. وقد تزايد وصف القوات اللبنانية "بالسكوريئاته" (Securitate).

فامام مثل هذا الخصم لم يكن مدهشاً ان يشتد التأييد والترحيب بالعماد عون وبجيشه. ولكن الايمان بامكانية النجاح ضعف كثيراً. ففي منتصف شهر آذار عرض العماد عون على الرئيس هراوي امكانية التفاوض، لأن المعارك كشفت بان "النزاع لا يمكن حله بالعنف بل بالحوار فقط". ولكن هراوي رفض ذلك، طالما لم يقبل العماد عون باتفاق الطائف.

انشأ العماد عون مرفأ في انطلياس لتأمين الاتصال بالعالم الخارجي. ولكن القوات اللبنانية سدت طريق السفن بواسطة القصف المدفعي، الأمر الذي دفع بالعماد عون الى قصف المرافق الواقعة تحت سيطرة ميليشيا القوات. فالحصار الذي نفذته السوريون عام ١٩٨٩، نفذه الطرفان المتخاصمان في المنطقة المسيحية المحاصرة. وعلى خطوط التماس في بيروت الشرقية وفي كسروان كانت تحصل دائماً اشتباكات منقطعة، اذ لم يعد لأي طرف القوة لمواصلة الحرب، بل للقيام فقط باعمال كومندوس وقصف محدودة. وفي الحادي والعشرين من شهر ايار جرى التوصل الى وقف لإطلاق النار، بفضل وساطة الفاتيكان، ولكن ايضا تحت وطأة الإستنزاف المتواصل لدى الفريقين المتخاصمين.

١٠ - فقدان المصداقية

قبل خمس سنوات برّر سمير جعجع معارضته لأمين الجميل لأن سياسته كانت آيلة الى ربط لبنان بسوريا - ولكن لم يلبث ان حاول التقرب منها في وقت قليل لاحقا دون احرار اي نجاح. اما العماد ميشال عون فقد اعلن عام ١٩٨٩ "حرب التحرير" ضد سوريا، وعام ١٩٩٠ الهجوم على ميليشيات جعجع، الذي اعلن استعداد له لتأييد اتفاق الطائف - وبالتالي لربط لبنان بسوريا. وبعد فشل محاولته لتثبيت سلطته في المنطقة المسيحية، بدأ العماد عون ايضا الاعتماد على الدعم السوري.

امام صعوبة الاتصال بالعالم الخارجي، ونظراً لنفاد الامدادات لقواته، قبل العماد عون بتأمين المحروقات والذخيرة من قبل ميليشيات حبيقة والحزب القومي السوري الموالية لسوريا. بالمقابل سمح لهما بمعاودة نشاطهما السياسي في منطقة المتن. اما نوايا سوريا الكامنة وراء السماح لتقديم هذه المساعدة - المحدودة - فبديهية الهدف. فانتصار جعجع واعادة توحيد المنطقة المسيحية مجدداً بواسطة ميليشياته، لم يكن من مصلحة سوريا، وكذلك انتصار عون، بل اضعاف القوتين القوميتين المسيحتين. لم تكن سوريا على عجل للبدء بتنفيذ اتفاق الطائف، وفقاً للمراحل الزمنية المحددة له. اخيراً، كان بقاء العماد عون الذي اضعف وبقي متشبثاً بالسيطرة على قصر الرئاسة في بعثدا يخدم مصلحة سوريا، الامر الذي سمح لها باقناع الرئيس هراوي، ورئيس الحكومة سليم الحص، بانها وحدها القادرة على مساعدتهما لتحقيق خططهما.

حاول هراوي وحكومته، بعد توقف الاشتباكات المسيحية-المسيحية، السعي لايجاد حلّ سلمي ومُشترَف. في الحادي عشر من تموز عام ١٩٩٠، اطلق هراوي وحكومته نداءً عاماً الى كل القوى السياسية في البلاد "للاضمام الى الشرعية"، وذلك "دون اقصاء أحد او اعطائه امكانية احتكار تمثيل طائفة او منطقة ما". اقترح برنامج عمل يلحظ، كخطوة أولى، انسحاب كل الميليشيات من جزئي مدينة بيروت. حظي هذا النداء بموافقة وترحيب "الترويكا" العربية. كان وزير خارجية السعودية، سعود الفيصل، والسفير الابراهيمي، قد حصلوا قبل ذلك على موافقة الحكومة السورية بهذا الشأن. حتى فرنسا، والفاثيكان، والبطريرك الماروني أيدوا مبادرة الحكومة وقدموا الدعم لها.

وافق سمير جعجع عليها، ولكن شرط ان يسلم العماد عون قصر بعثدا ووزارة الدفاع في البرزة الى الحكومة. ولكن العماد عون رفض هذا النداء رفضاً قاطعاً لأنه "صادر عن مراجع غير شرعية". ورغم هذا الرفض قام السفير الابراهيمي، بتكليف من الترويكا العربية، بمحاولة أخرى لإقناع العماد عون، بالموافقة على اتفاق الطائف. فاقترح تشكيل حكومة اتحاد وطني، يتمثل فيها عون وجعجع. التقى بالعماد عون اكثر من اربع مرات. ولكن هذا الأخير لم يرفض اقتراح الابراهيمي مباشرة، بل وضع عدداً من الشروط، من بينها عدم تعيين النواب، وتقوية صلاحيات رئيس الجمهورية تجاه صلاحيات رئيس الحكومة، وقرار تنفيذ اتفاقية الطائف بعد حلّ الميليشيات، وانتخاب مجلس نواب جديد. ولكن هذه المطالبات اثارت إعادة نظر في تسويات السياسة الداخلية التي جرى الاتفاق حولها في الطائف. وقد علق جعجع وعدد من السياسيين الآخرين بان عون اعلن دائماً خلال مؤتمر الطائف وبعده، بأنه لا يعلق اية اهمية على النظام السياسي وتنظيمه، بل على السيادة القومية فقط.

"ولكنه الآن لم يعد يتحدث عن السيادة، بل فقط عن صلاحيات رئيس الجمهورية". عندئذ علق الابراهيمى بقوله: "انا لا افهم على من وعلى ماذا يعتمد الجنرال". فاجابه عون "بان الجنرال والشعب يقرران معا".

في صيف عام ١٩٩٠ تكاثرت مؤشرات فقدان تقدير الواقع من قبل العماد عون. فقد استمر محاصراً في قصره، وكان يخطب غالباً امام مجموعات من انصاره الذين، رغم كل الهزائم، استمروا في تأييدهم له. فرفضه لاتفاق الطائف زاد شدة، كما ذهب الى ابعد من ذلك. اتصل بقيادة حزب الله، المنظمة التي لم يتفق معها الا في رفض اتفاق الطائف. لقد بدا وكأنه علق آمالاً على ان سوريا لم تعد مهتمة بتنفيذ عملية الطائف، وانها ستدعمه ضد خصومه المسيحيين واللبنانيين الآخرين. فالذي اعلن سابقاً حرب التحرير اخذ يقدم لسوريا تنازلات متعددة. وفي نهاية شهر تموز، ذهب الى ابعد من ذلك، فاعلن عن تحديد العلاقات السورية-اللبنانية بالصيغ التي حددتها دمشق: "نحن شعب واحد، من حيث التقاليد والعادات والثقافة، لماذا لا ينبغي ان تربطنا علاقات اقوى من علاقات الجوار والعلاقات المميزة؟". ولم يكن لسوريا اي اعتراض حول هذه العلاقات الأقوى. ولكن دمشق لم تعد تصدق او تعتمد على هذا العرض المقدم من عماد فاضل ومعزول، لتختاره حليفاً لها. وهذا ما استنتج في وقت قصير لاحقاً.

١١ - فرّق تسد

في صيف ١٩٩٠ وبعد خمسة عشر عاماً من الحرب، وجد لبنان ذاته في وضع أكثر يأساً من اي وقت مضى. في مناطق عديدة من البلاد كانت تحصل اشتباكات منقطعة. في الجنوب تواصلت عام ١٩٨٩ و ١٩٩٠ سلسلة اعمال الكومندوس ضد منطقة "الحزام الأمني" الإسرائيلية، ومعها "الغارات الانتقامية التأديبية"، بشكل هجومات وغارات جوية. وكما توقف الصراع على النفوذ في المنطقة المسيحية، انتهى ايضا الصراع على الهيمنة لدى الطائفة الشيعية. ولكن في كانون الأول اندلع من جديد النزاع المسلح بين حركة أمل وحزب الله، بعد ما تمكن مقاتلون من ميليشيا حزب الله العبور من البقاع عبر المنطقة التي يسيطر عليها "جيش لبنان الجنوبي" والتسلل الى المنطقة الخلفية من صيدا. فرغم حصول وقف متقطع لاطلاق النار، حارب مقاتلو الفريقين بسبب المواقع حول بعض القرى في اقليم التفاح، حيث حاولت عبثاً قوات منظمة التحرير الفلسطينية المرابضة في المخيمات المجاورة لصيدا، الفصل بين المتقاتلين، وتوسيع إطار نفوذها بقدر الامكان. فالتخاصم بين المنظمين الشيعيين اتصف بذات المرارة والشراسة مثل التخاصم الذي حصل بين

الفريقين المتعاضدين في المنطقة المسيحية. فقد اتهم نبيه برّي حزب الله بأنه لا يشكل مجموعة لبنانية أصيلة، وليس سوى العوبة في أيدي التيارات الايرانية المتطرفة. وقد كان دون ريب على حق وصواب في كلامه. ولكن رغم ذلك، عرف حزب الله ترايدا في قواته العسكرية. ففي أيار عام ١٩٩٠ قامت المنظمة الأصولية بهجوم على حركة أمل في وسط بيروت الغربية. ولكن الجيش السوري أسهم مرة أخرى في إنهاء القتال دون تمكين أي فريق من التغلب أو الانتصار على الفريق الآخر. وكما كان الحال مع المسيحيين اللبنانيين، رأت سوريا ان فريقين متخاصمين في طائفة ما يسهمان سوية في اضعاف نفوذهما.

أصبحت الطوائف اللبنانية الكبيرة بالتالي، كوحدات مؤهلة للتفاوض سياسياً، مميزة تماماً. السنة كانوا منذ بداية الحرب دون اية قوة عسكرية. الموارنة والشيعة لم يتوانوا عن تمزيق صفوفهم. وبفضل المبادرة العربية انتخب رئيس جديد وشكلت حكومة. ولكن عملية السلام التي اطلقها مؤتمر الطائف ابتعدت كثيراً عن هدفها. فالرافضون للطائف - خاصة العماد عون وحلفاؤه - جرى اضعافهم من قبل خصومهم داخل صفوف طوائفهم، ولكن دون ان تحرز الحكومة المركزية أي نفوذ أو قوة.

في منتصف عام ١٩٩٠ أصبح لبنان مقسماً الى عدد من المناطق الجغرافية الصغيرة تسيطر عليها قوات عسكرية - سياسية مختلفة، بعضها بالاشتراك مع سوريا أو مع إسرائيل، ولكن بعضها كان في نزاع كبير مع المنطقة المجاورة لها. في طرابلس واقصى المنطقة الشمالية كان يسيطر النظام السوري، الذي كان مهددا لبعض الوقت في طرابلس من قبل الحركات الاصولية السنية. والشمال المسيحي كان تحت سيطرة أسرة فرنجية حيث تمكن في آب ١٩٩٠ سليمان ابن طوني فرنجية الذي اغتيل والده عام ١٩٧٨، من عزل عمه روبير وابعاده عن النفوذ السياسي في تلك المنطقة التي عرفت استقلالاً ذاتياً تحت الإشراف السوري. في تلك المنطقة أيضاً كان يعتمد كثيراً على الحماية السورية ضد الاصولية الاسلامية في طرابلس، ولكن أيضاً ضد الخصم اللدود الموجود جنوبي المنطقة، أي سمير جعجع وميليشياته. وفي البقاع، اقام الجيش السوري توازناً بين مختلف المجموعات الشيعية-الإسلامية، والفلسطينيين، والميليشيات المسيحية التابعة لايلى حبيقة التي كانت تسيطر بنوع خاص في زحلة. اما خطوط التماس بين مناطق سيطرة القوات اللبنانية وجيش العماد عون، فكانت توصف في منتصف عام ١٩٩٠ بالحدود الداخلية "الأكثر سخونة". وفي جنوبي "خطوط التماس" القديمة، كان الصراع قائماً بين حركة أمل وحزب الله، في بيروت الغربية وضواحيها الجنوبية، حيث كان السوريون يلعبون دور الحكم، وفي الجنوب، حيث مارس الفلسطينيون هذا الدور.

اما دروز جنبلاط فقد اتخذوا جانب الحيطة والحذر لتجنب خطر تدفق الشيعة او الفلسطينيين الى المنطقة التي كانوا يسيطرون عليها، والتي اصبحت منذ عام ١٩٨٣ منطقة قليلة السكان. في صيدا وصور كانت القوى الناصرية الشعبية تنقسم النفوذ مع منظمة التحرير الفلسطينية التابعة لياسر عرفات، والتي نجحت في إعادة بناء قوتها التحتية بحجم كبير في المخيمات الفلسطينية المحيطة بالمدن. وفي المنطقة الخلفية من صيدا كانت تسيطر حركة أمل التي لم تتمكن من الحؤول دون عودة الفلسطينيين الذين كانت تكن لهم حقداً مريراً، لأن حزب الله كان يشكل خطراً متزايداً عليها. أخيراً، تحولت منطقة نفوذ جيش لبنان الجنوبي التابع للواء انطوان لحد، ومنطقة الحزام الامني الاسرائيلي الى مسرح عمليات لكل المنظمات التي كانت تستهدف تحرير فلسطين بالوسائل العسكرية.

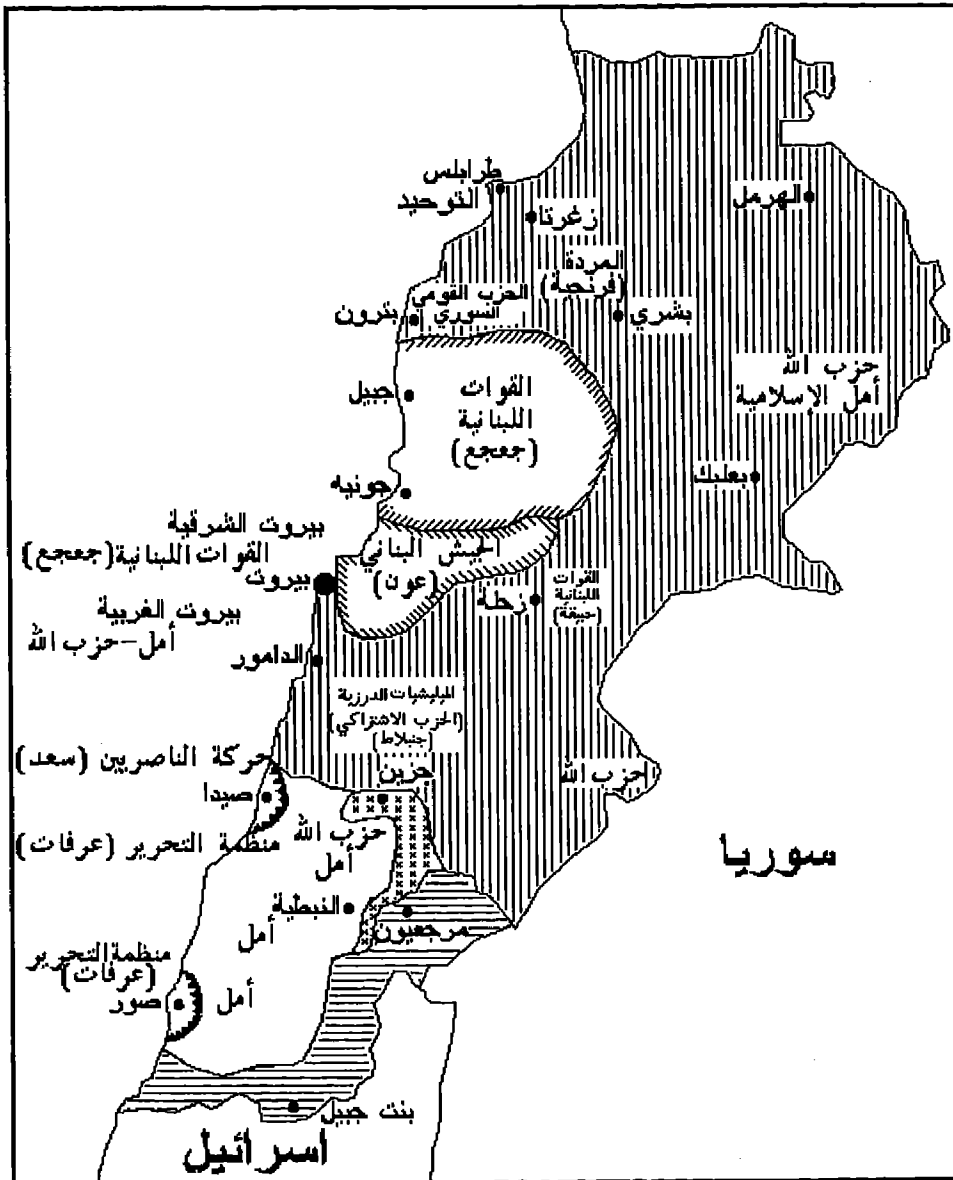
بالنسبة للاكثرية الكبيرة من اللبنانيين في كل اجزاء المناطق اللبنانية، أدى هذا التشرزم الى الزامهم بالعيش في ظل سيطرة احدى الميليشيات. وهذا يعني، ضمن درجات متفاوتة، العيش في ظل سيطرة تصفية وتسليطية. فالتعاطف الذي حصل في الماضي من قبل بعض اللبنانيين مع "ميليشياتهم" زال تماماً في الفترة الأخيرة. ولكن هذا التراجع في الشعبية والتأييد، دفع بالميليشيات الى احكام السيطرة وممارسة النفوذ بشكل أقسى وأشد بكثير من السابق. وكذلك ابقار البلد المتزايد جعل تمويل الميليشيات من المناطق التي كانت تسيطر عليها عبئاً ثقيلاً على السكان اكثر مما كان في السنوات الماضية. لقد كانت كل الميليشيات عازمة على فرض نفسها، ليس ضد بعضها بعض فحسب، بل ايضاً ضد السكان الذين ادعت حمايتهم. وهكذا تحول اللبنانيون من شعب من الرهائن، الى رهائن ميليشياته الذاتية.







تسببت الحرب في لبنان، كما اشير سابقاً، بخسائر كبيرة ومرعبة جداً في الارواح والممتلكات. ولكن بالنسبة للسنوات الأخيرة، لم تتوفر لدينا احصاءات وارقام دقيقة. فحربا العماد عون ضد السوريين وضد القوات اللبنانية، كلت حسب بعض التقديرات حوالي الألف قتيل وثلاثة آلاف وخمسة مائة جريح، كما دُمّر حوالي خمس وعشرون ألف مسكن. اقتصادياً كان عام ١٩٨٩ و ١٩٩٠ من أسوأ السنوات منذ بداية الحرب. كذلك انخفضت نسبة الانتاج الوطني الى ٢٠٪ عام ١٩٨٩ بالإضافة الى ١٠٪ عام ١٩٩٠. فقد دُمّرت المنشآت الكهربائية والمائية، كما شلّ تماماً القطاع الصناعي. وبالنتيجة ارتفعت مرة أخرى نسبة هرب الرساميل.

كذلك واصلت الميليشيات جباية الضرائب اكثر من الدولة. وبلغت نسبة العجز في الموازنة العامة ١٩٩٠ ما يقارب ٦٥٪. ولم تعد مداخيل الدولة تكفي لتغطية فوائد قروضها. اما مصاريفها فكانت تمويل فقط عبر طباعة الأوراق النقدية.

امام هذا الواقع المرير لم يعد أمراً مدهشاً انفجار حركة الهجرة. فقد هاجر خلال عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٠ حوالي مائة وخمسون ألف لبناني. فالذي تمكن من ذلك بفضل ثروته او علمه، غادر بلد الحرب والقهر والفقر. ولم يبق فيه الا الذين لم يتمكنوا من الهجرة ، اي الذين كانوا وبقوا رهائن فقرهم في بيت فقير.

مواقع الجيوش والمليشيات في منتصف عام ١٩٩٠



- 
 الجيوش السورية
- 
 الجيوش الإسرائيلية (إسرائيل)
- 
 الجيوش الفلسطينية (الحد)
- 
 الجيش اللبناني (لبنان)
- 
 حزب الله (لبنان)
- 
 الجيوش الفلسطينية (لبنان)

الفصل العاشر

الجمهورية الثانية ورأس جانوس

انتهاك السيادة (١٩٩٠ - ١٩٩٢)

"تعود السلطة الى رجل الأمة الذي يجمع حوله اكبر عدد ممكن من الاصوات والوسائل. ولكن قبل كل شيء، عليه ان يحصل على موافقة الاثراك ويتحول الى خادم تابع لهم. بفعل اقطاعيتهم يستطيعون تعيين الحاكم ضد ارادة الامة... ولكن لم تدم هذه الحال القهرية الا بواسطة العنف الذي فرضته".

فولنای، رحلة الى سوريا ومصر، ١٧٩٠

"حسب القاعدة كان الولاة اللبنانيون يعملون باستقلال على المستوى المحلي... المصريون والاشوريون والبابليون كانوا يسجلون فتوحاتهم على الصخور في اسفل الجبال... الرومان والبيزنطيون والصليبيون كانوا يعتبرون عن حضورهم وحضارتهم باقامة الابنية الضخمة التي تحولت اليوم الى انقاض. اما الفرس والسلجوق والمغول فنادر ما كانوا يتركون اثراً لهم. وليس من مبرر للاعتقاد بان الغزاة الجدد سيتركون اثراً آخر سوى انهم تمكنوا من البقاء مدة اربعة قرون".

فيليب حتي، ١٩٥٧

"الى جميع المتخوفين والمشكلين اقول: لا تخافوا. ان لبنان هو وطن نهائي لكل اللبنانيين، وبفضل ارادة الجميع. انه صلب كفاية كي لا يذوب، وساطع كفاية كي لا ينخسف".

الباس هراوي

كلما طال النزاع حول منهجية اعادة بناء الدولة، كان يغوص لبنان أكثر فأكثر في دوامة العنف. فرغم التحفظات العديدة، وافق النواب في الطائف على اصفاء طابع الشرعية على مرابضة القوات السورية في لبنان، بهدف وضع حد لوجودها في الزمان والمكان. اراد النواب انتهاء الحرب، وحل الميليشيات، والحصول على تعاون سوريا عبر تقديم تنازلات لها. كان الأمل يحدهم بان دولة يعاد بناؤها، ستكون ايضا في حال يسمح لها باستعادة سيادتها التامة على المدى المتوسط والطويل. ولكن العماد عون وانصاره ارادوا أولا التحرر من سوريا كشرط لاعادة بناء الدولة. اما خلوة الطائف فقد ارادت التغاضي عن السيادة، كي تسهل استعادتها في اوقات اكثر تلاؤما. ولكن العماد عون اراد استعادتها بالقوة، خوفا من ان لا تتخلى سوريا مجددا عما تكون قد اكتسبته.

فشل العماد عون في محاولته. ولكن في منتصف عام ١٩٩٠ تبين ان هذا الفشل اسهم ايضا في شل عملية تنفيذ اتفاق الطائف، الذي لم تكن الحكومة السورية راضية عنه تماما، مع العلم ان "الترويك" العربية كانت قد بذلت جهودا حثيثة خلال اشهر طويلة للحصول على موافقة سوريا.

الا ان حالة الامر الواقع التي كانت قائمة في منتصف عام ١٩٩٠ كانت تصب في مصلحة سوريا، نظرا لضعف الحكومة اللبنانية، وتشرذم القوى العسكرية والسياسية في البلاد. هذا الظرف استغلته سوريا لتشل اتفاق الطائف، مكتفية بممارسة سياسة "فرق تسد"، وبكلفة محدودة جدا. اتبعت سوريا هذه السياسة في لبنان في النصف الاول من العام ١٩٩٠.

ولكن في شهر آب من تلك السنة، حصل تطور آخر، فرضته، كما كان الحال غالبا في تاريخ الحروب اللبنانية، احداث حاسمة في منطقة الشرق الاوسط.

١ - في ظل النزاع الكويتي-العراقي

في الثاني من آب ١٩٩٠ قامت قوات صدام حسين العراقية بغزو اماره الكويت المجاورة. على اثر ذلك وفي فترة زمنية قصيرة تشكل تحالف دولي قوي بقيادة الولايات المتحدة لمناهضة الاعتداء العراقي. لم يكن باستطاعة الدول العربية اتخاذ موقف واضح من هذا النزاع. ولكن كان من السهل على سوريا الوقوف ضد العراق، الذي تعتبر رئيسه، صدام حسين، عدوا لدودا لها. وكان لسوريا آنذاك سبب آخر أهم واعمق يدفعها للدخول في تحالف ضد العراق. فقد ادرك حافظ الأسد، قبل اي زعيم عربي، معنى التغييرات التي حصلت في اوروبا الشرقية عام ١٩٨٩ ومدى انعكاساتها على منطقة الشرق الاوسط. فالاتحاد السوفياتي لم يعد له شأن

وقدرة للاحتفاظ بتوازن عسكري مع القوة الاميركية في المنطقة، الأمر الذي فرض على الولايات المتحدة ممارسة دور اهمّ قوة في العالم. وبينما لم يستخلص صدام حسين الا عبراً خاطئة من المأزق الاميركي في لبنان عام ١٩٨٤، اسرع حافظ الأسد، وبذلك، بطريقة غير عاطفية، كما كان يفعل دائماً، اتجاهه السياسي، وبدأ يتقرب بحذر من الولايات المتحدة.

وهذا ما استدعى تصحيحاً لسياسته اللبنانية ايضاً. فإزاء الانتفاضة الدولية ضد احتلال الكويت من قبل العراق، وجد حافظ الأسد من الانسب له الحد من افساح المجال للمقارنة بين الدور السوري في لبنان، والدور العراقي في الكويت، او الدور الاسرائيلي في الضفة الغربية، وهي المقارنة التي كان يشير اليها صدام حسين في خطابه. عندئذ تبين لحافظ الأسد ان الوسيلة الاكثر اناقة في هذا المجال هي العودة الى القبول بعملية اتفاق الطائف. وهذا ما كانت تتمناه دائماً المملكة العربية السعودية، وعرب الطائف، والتي اصبحت اهم حليف للولايات المتحدة الاميركية. فاعادة الاهتمام بتطبيق اتفاق الطائف اصبحت بالنسبة لسوريا أكثر سهولة نظراً لزيادة نفوذها في لبنان اكثر مما كان عام ١٩٨٩. فقد أضعف عون وجعجع احدهما الآخر. ولكن ادارة الهراوي والحص كانت تحتاج الى المساعدة السورية للقضاء نهائياً على عون والميليشيات.

بالمقابل لم يدرك العماد عون سريعاً تحول مؤشرات الزمن.

لقد كان على خلاف مع الولايات المتحدة. فالسفارة الاميركية أغلقت ابوابها بعد المظاهرات التي قام بها مؤيدوه أمامها. ولم يحاول عون كثيراً تحسين علاقاته معها. وكان قد اغضب اسرائيل ايضاً في خطابه النضالية. فلم يعد بإمكانه ان ينتظر منها أية مساعدة او تأييد. وكذلك اصبحت تحالفه مع العراق بعد الثاني من آب ١٩٩٠ سبب غضب ليس لسوريا فحسب، بل للولايات المتحدة ايضاً. وكانت فرنسا والفاتيكان قد بذلا جهوداً حثيثة لحمل عون على ايجاد تسويات ممكنة مع الهراوي، كما زاد امتعاضهما بسبب رفضه. وبالاختصار قدّم عون نفسه مجاناً أول ضحية سياسية لحرب الخليج.

ان تكون الولايات المتحدة قد أعطت سوريا "ضوءاً اخضر" لانهاء تمرد العماد عون، فهذا امرٌ غير مستبعد نظراً للتماثل البديهي في المصالح.

اما الذي ادرك سريعاً، مثل حافظ الأسد، مغزى التحالف الدولي والاقليمي الجديد، فكان الياس الهراوي. فدعواته المباشرة، وكذلك دعوات وجهود الوسطاء العرب والدوليين لايجاد امكانيات تسوية، لم تجد نفعاً.

حتى سوريا كانت قد أيدت تحفظاً ازاء طلبه مساعدتها العسكرية لانهاء تمرد

العماد عون، ولكن الوضع الجديد المتمثل باهتمام سوريا في البدء بعملية تطبيق اتفاق الطائف، دعم أيضاً موقفه تجاهها. فالذي لم يكن في لبنان أو في أي مكان آخر يعبر اهتماماً وتقديراً للهراوي، اضطر في الأشهر التالية إلى تغيير رأيه به تماماً. فقد طلب الياس الهراوي من سوريا تنفيذ اتفاق الطائف بحذافيره، فتجاوبت معه سريعاً، الأمر الذي جعله يتصرف بفطنة رائعة وبسرعة بارزة.

٢ - تعديل الدستور

في منتصف شهر آب رفعت الحكومة مسودة تعديل للدستور إلى مجلس النواب الذي أقرها في إطار الإصلاح الدستوري، وبالاستناد إلى المبادئ والاصلاحات التي تم الاتفاق عليها في الطائف. فالتفسيرات الأساسية حول طابع وهوية لبنان التي تصدرت وثيقة الطائف، اعتمدت دون أي تعديل كمقدمة للدستور. وكذلك تمت الموافقة على الاصلاحات الدستورية عبر تعديل ثلاثين مادة من الدستور، وفقاً لما تضمنه اتفاق الطائف^١.

في السادس والعشرين من آب ١٩٩٠ انعقد مجلس النواب بحضور واحد وخمسين نائباً: ٢٦ مسيحياً و ٢٥ مسلماً. خلال تلك الجلسة، جرى التصويت على التعديلات الدستورية بأكثرية ٤٨ صوتاً ومعارضة صوت واحد، كما امتنع نائبان عن المشاركة في التصويت. ابتداءً من هذا التاريخ دخلت المهل الزمنية الواردة في اتفاق الطائف حيز التنفيذ: أي ستة أشهر لحل الميليشيات وستان لانسحاب القوات السورية إلى البقاع. وهكذا بدأ جدياً العمل باتفاق الطائف.

اما ردود الفعل حول الدستور الجديد فكانت متماثلة لما حصل عام ١٩٨٩. فقد عبر زعماء السنة، وخاصة صائب سلام، عن ارتياح كبير. اما الامتعاظ النسبي لدى الشيعة فقد عبر عنه الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الذي تحدث عن "اتفاق حصل بحكم الضرورة وليس باختيار حر". وكذلك كان وليد جنبلاط واقعياً بقوله: "لا يوجد شيء آخر غير الطائف، وسيكون من الصعب جداً إعادة النظر فيه أو معارضته، لأن ذلك سيؤدي إلى حروب جديدة".

بالمقابل تحدث العماد عون عن مهزلة ذات فصول عديدة، مشيراً إلى أن مجلس النواب قد حلّ من قبل الحكومة الشرعية في الرابع من تشرين الأول ١٩٨٩، وكل قراراته اللاحقة تعتبر غير قانونية.

ومرة أخرى قدمت الحكومة إلى العماد عون عرضاً جديداً. طُلب إليه تسليم

١- راجع الترجمة الفرنسية للمقدمة وللمواد المعدلة في Libanoscope (1990) 88, p.26

قصر بعبداء إلى العماد لحود، وانسحاب القوات اللبنانية في الوقت نفسه من الاشرافية، مقابل تعيينه وزير دولة. ولكنه في الثالث عشر من ايلول رفض كل حوار مع "دُمى" بيروت الغربية، بقوله: "انا امثل الحل". وبذلك انتهت آخر محاولة لحثه على القبول بتسوية.

في الحادي والعشرين من ايلول وقّع الهراري على الدستور الذي يثبّت اسس الجمهورية الثانية...

"نريد تشكيل حكومة تضمّ كل الاحزاب، تقوم بانتهاء حالة الحرب، وحلّ الميليشيات، واعادة فرض سلطة الدولة والقانون على كامل الاراضي اللبنانية، والاهتمام بمعالجة الازمة الاقتصادية، كما ستعمل في ذات الوقت على وضع اسس ثابتة لعلاقات اخوية مع سوريا..."

"اني آمل بالتمكن من اجراء انتخابات برلمانية قريباً. ولكننا نقول للمطالبين بانتخابات فورية في ظل الاوضاع الراهنة، بان الجواب الصحيح الذي نعطيهم لهم هو جواب الذين غادروا لبنان احتجاجاً ضد الذين ضربوا، وقتلوا، وخطفوا، ودمّروا المنازل والمتاجر".

وكذلك بدأ بعض انصار عون بالتشكيك والتساؤل عما اذا كانت مواقفه مازالت قانونية وشرعية. جاء هذا التشكيك خاصة من قبل الفعاليات العسكرية التي تعتبر تقليدياً شرعية. فقد دعا ثلاثة من أسلافه في منصب قيادة الجيش، وهم اميل البستاني، وفكتور خوري، وابراهيم طنوس، جنود عون للالتحاق بقيادة العماد لحود، كما لتي هذه الدعوة عدد لا بأس به من الضباط.

٣ - اسقاط العماد عون

في الثامن والعشرين من ايلول اتخذت قوات من الجيش اللبناني بقيادة العماد لحود مواقع لها على كل المعابر المحيطة بالمنطقة التي كان يسيطر عليها العماد عون، الأمر الذي زاد في تصعيد الحصار الاقتصادي الذي كان مفروضاً على تلك المنطقة منذ فترة طويلة. اما انصار عون فردوا على ذلك بالمظاهرات اليومية، مثلما حصل في خريف عام ١٩٨٩. ولكن هذه المرة، قامت المظاهرات على نقاط العبور. اما عملية الحصار التي اساعت الى السكان المدنيين اكثر مما اساعت الى جنود العماد عون، فلم تحظ بأي تأييد حتى خارج منطقة عون، رغم مظاهرات التآخي المذهلة التي كانت تحصل على نقاط المراقبة. وعشية الاول من تشرين الاول سارت مجموعات كبيرة من المتظاهرين حاملين الشموع المضاءة على خط

التماس بين الاشرافية والضواحي الشرقية، حيث كانت ترابض وحدات من جيش العماد لحود والى جانبها وحدات من ميليشيا القوات اللبنانية. وعلى جسر نهر الموت، أطلقت النيران والقذائف على المتظاهرين، فسقط ١٣ قتيلاً و٩٠ جريحاً. ورغم ذلك، تواصلت المظاهرات في الايام التالية بهدف مناهضة القوى المسلحة بالوسائل السلمية، الا انها تلقت صدمة جديدة، نظراً لاتخاذ الوحدات الخاصة من القوات السورية مراكز لها ايضاً في بداية تشرين الاول على نقاط العبور المؤدية الى منطقة العماد عون. وفي الحادي عشر وجّه هراوي، على اثر قرار اتّخذ في مجلس الوزراء، نداءً خطيباً الى الرئيس حافظ الأسد، يطلب منه تقديم مساعدة عسكرية للجيش اللبناني وفقاً لما جاء في اتفاق الطائف. وفي ذات اليوم، كما في الايام التالية، حلفت طائرات عسكرية سورية فوق بعبداء ان يعترضها سلاح الجو الاسرائيلي. وهكذا تبين ان "الخط الاحمر" الجوي ام يعد له وجود.

وفي الثالث عشر من تشرين الاول، وفي تمام الساعة السابعة صباحاً، بدأ سلاح الطيران السوري بغاراته على بعبداء، رافقها تقدم بالدبابات والمصفحات التالية للوحدات العسكرية السورية واللبنانية، انطلاقاً من الجبل ومن بيروت الغربية. عشية ذلك اليوم كان العماد عون قد أعلن مواصلة المقاومة حتى النهاية. ولكن بعد ساعتين ونصف من بدء الهجوم، انتقل العماد عون الى دار السفارة الفرنسية، حيث دعا قواته للالتحاق بالعماد لحود - وطلب اللجوء السياسي من فرنسا.

وصلت هذه الدعوة متأخرة لبعض وحدات قواته، التي كانت قد بدأت الاشتباكات والمعارك كما قررت وحدات أخرى مواصلة المقاومة رغم استسلام العماد. وهكذا حصل التباس وغموض. في عارياً رُفع جنود العماد عون في البداية رايات بيضاء، ولكنهم سرعان ما اطلقوا النار على الوحدات السورية المتقدمة. ورغم عدم مشاركة القسم الاكبر من وحدات العماد عون في المعارك، فان الوحدات السورية تكبدت خسائر فادحة، اذ قُدر عدد ضحاياها بأربع مائة قتيل. فحيثما حصلت مقاومة، حصلت ايضاً سريعاً انتقامات دموية. فقد اعدمت الوحدات السورية حوالي مائة عنصر من جنود عون بعد القبض عليهم. وفي قرية بسوس حيث اطلق المدنيون النار على السوريين، جرى اعدام خمسة عشر مواطناً من سكانها^٢.

القوات اللبنانية من جانبها اطلقت نيران مدفعتها على بعبداء والمتن اثناء الهجوم السوري. وتقدمت ايضاً وحدات من ميليشيا حزب الله الى بلدة الحدث المسيحية، ولكن قامت سريعاً ميليشيات حبيقة المؤيدة لسوريا بردها ودفعها الى الانسحاب، انتهت المعارك بعد مرور ثمان ساعات فقط من اندلاعها. فلقد لجأ عدد من أقرب

٢- راجع في هذا الصدد Fondation for Human and Humanitarian Rights, The October Debacle. Report on Lebanon, Fall of 1990. Beirut, 4 November 1990

معاوني العماد عون الى السفارة الفرنسية، وقبضت القوات السورية على حوالي عشرين من كبار الضباط، ووقفهم أولاً في عنجر في البقاع، ثم نقلوا الى سوريا، خاصة الضباط الذين كانوا يعملون في قسم المخابرات، ورؤساء الافواج، وقادة الوحدات التي قاومت. وكذلك وضعت القوات السورية يدها على كل الوثائق التي كانت في القصر الجمهوري، وفي وزارة الدفاع، وفي قيادة الجيش في البرزة ونقلتها الى سوريا. ومنذ ذلك الحين لم يعد يخفى على سوريا اي سر يتعلق بالجيش اللبناني. اما سكان المنطقة التي كانت واقعة تحت سلطة العماد عون، فقد تعرضت خلال عدة ايام لانواع عديدة من المآسي بسبب هجومات القوات المنتصرة وعودة الميليشيات التي أبعدت سابقاً عن تلك المنطقة. حصلت فيها عمليات دهم وتفتيش ومصادرات ونهب وسلب. وقامت دوريات مراقبة مشتركة من الجنود السوريين واللبنانيين. وهكذا اتضحت تماماً المؤشرات الهادفة الى ضرب كل مقاومة بقساوة مريعة. وبالتالي تبين ان الجيش السوري كان يريد فقط مساعدة الحكومة اللبنانية لبسط سلطتها على منطقة كانت حتى ذلك الحين واقعة تحت نفوذ المتمردين. وهكذا أخذ النظام الجديد يفرض نفسه.

لم يحصل توقيف لمؤيدي العماد عون، رغم كل التخوفات التي انتشرت. اما انصار عون المدنيون، الذين شكلوا "مكتباً وطنياً للتنسيق"، فتمكنوا بعد ذلك من ممارسة نشاطهم السياسي. كما فرض على العماد عون التزام الصمت فعلاً. ورغم ان فرنسا ضمننت له اللجوء السياسي، الذي اعتبره الرئيس ميتران "قضية شرف وكرامة"، فان الحكومة اللبنانية لم تسمح للعماد عون بالسفر الى الخارج.

بعد ذلك، سافر الرئيس هراوي الى دمشق لتقديم الشكر الى زميله السوري على المساعدة التي أمتها له. لقد تخوف السكان المسيحيون من احداث أسوأ بكثير مما حصل. صدموا بسرعة وقساوة العملية ضد العماد عون، وباستسلامه غير المشرف كثيراً. ولكن هذا الاستسلام كان، دون شك، عقلانياً، لانه حال دون سفك دماء أكثر. فلو حصلت العملية قبل يوم واحد لكانت قد تحولت الى مجزرة رهيبة للغاية. وقد جاءت الصدمة كبيرة أكثر لكونها قد حصلت بعد مرحلة من الهيجان الذي دام شهراً تقريباً، حصلت خلاله مظاهرات مستمرة تأييداً لعون. فضلاً عن ذلك، حصلت صدمة أخرى على اثر مصرع داني شمعون، وزوجته، وولديه.

كان شمعون احد انصار عون، وبالتالي خصماً للهيمنة السورية على لبنان. بعد مصرعه لم يعد احد يجرؤ على التعبير علناً ضد هذه الهيمنة.

اما القوات اللبنانية فلم تهال كثيراً لاسقاط العماد عون. كانت تتمنى ان تصبح الممثلة الوحيدة للمسيحيين في لبنان، ولكنها شهدت سريعاً حصول الاسوأ.

عسكرياً لم تتمكن من احراز اي كسب على الارض. فالى جانب الجيش السوري واللبناني، تمكنت ايضا ميليشيات ايلي حبيقة، - وهو خصم لدود لقوات جعجع- وقوات الحزب القومي السوري، من التدفق والتغلغل سريعاً في المنطقة التي كانت سابقاً تحت سلطة قوات العماد عون. وهذا ما أبقى القوات اللبنانية خارجاً. كما جرى تهميشها سياسياً أكثر من السابق، الامر الذي زاد في حقد انصار العماد عون تجاهها، بسبب تعاونها مع هراوي والسوريين. وفي النهاية لم تعد القوات موضوع ثقة بنظر أي فريق، رغم موقفها واسهامها في عملية اقضاء العماد عون.

تمكن من الاستفادة في هذه العملية فقط الفريق الذي كان مقتنعاً باتفاق الطائف والذي عرف كيف يستغل تلك الفرصة لصالحه.

٤ - تحرير بيروت من الميليشيات

قبل الثالث عشر من تشرين الأول، كانت تتألف وحدات الجيش اللبناني الخاضعة لقيادة العماد لحود من حوالي ستة آلاف عنصر تقريباً. وبعد انضمام معظم الوحدات التي كانت خاضعة سابقاً للعماد عون اليها، تضاعف عدد افراد الجيش اللبناني الشرعي سريعاً. فجنود عون كانوا في حال من الاحباط، ولكنهم كانوا مدربين ومسلحين جيداً، ولم يكن لديهم أي تعاطف مع أفراد الميليشيات، الى اية فئة انتموا. وهكذا كان الجيش الجديد قوياً ومحفزاً كفاية لتنفيذ الأوامر التي تعطى له لتحرير مدينة بيروت من الميليشيات.

قبل اعلان الحكومة عن خططها الأمنية لبيروت، حصل أيضاً تفاهم مع سوريا على التفاصيل. فالجيش السوري، المتواجد بكثافة في بيروت الغربية وفي المتن، كان مستعداً لدعم خطط الحكومة ومساعدتها على التنفيذ. في السابع عشر من تشرين الثاني، اتخذت وحدات من الجيش اللبناني مراكز لها في نقاط عديدة من العاصمة. وفي ذات اليوم طلبت الحكومة من كل الميليشيات سحب عناصرها من بيروت. وهكذا قامت حركة أمل بسحب وحداتها الى الجنوب، والحزب التقدمي الاشتراكي بسحب وحداته الى الشوف. وبعد ثلاثة ايام انسحب مقاتلو حزب الله. اما القوات اللبنانية فوضعت شروطاً لانسحابها، معلنة عن استعدادها للانسحاب، بعد انسحاب الميليشيات المؤيدة لسوريا من منطقة المتن، وإعادة مكاتب ومؤسسات حزب الكتائب اليه، ومرابضة وحدات من الجيش في الأشرفية غير تلك الوحدات التي كانت سابقاً تحت امرة العماد عون. ازاء هذه المطالب تصرفت الحكومة بنوع من المرونة. فاعادت الى حزب الكتائب معظم مكاتبه^٣،^٤ وأرسلت الى الاشرفية

٣- أنهم كثيرون سوريا بهذه الجريمة، بما فيهم وكالة الأنباء الألمانية. راجع: Terrorismus 1(1991). p.6-7

وحدات من ثكنة صربا التي بقيت على حياد اثناء المعارك بين العماد عون والقوات اللبنانية. وفي الثالث والعشرين من تشرين الثاني بدأت أخيراً هذه القوات بالانسحاب من بيروت في عرض تظاهري تعبيراً عن قوتها. انتهى انسحابها في الثالث من كانون الأول، ولكن بقي ثلاث مائة مقاتل من عناصرها في مقرها الرئيسي في الكرنتيتا وفي المرفأ.

في اليوم الثاني، بدأت وحدات الجيش بازالة الحواجز والدشم عن "خطوط التماس". وهكذا اعيد توحيد بيروت للمرة الاولى منذ شهر شباط ١٩٨٤. وللمرة الاولى منذ عام ١٩٧٥ أصبحت هذه المدينة حرة تقريباً من الميليشيات. وفي السادس من كانون الاول استطاع هراوي للمرة الاولى منذ انتخابه رئيساً زيارة منطقة الاشرافية.

كذلك استطاعت الحكومة احراز نجاحات اخرى. فبعد جهود حثيثة ووساطات طويلة بذلتها الحكومتان السورية والايرانية، انسحبت ميليشيات حركة أمل وحزب الله من اقليم التفاح بعد معارك طاحنة بينهما. وكذلك قام خمسة ضباط لجأوا مع العماد عون الى السفارة الفرنسية، بوضع انفسهم بتصرف العماد لحود. وفي منتصف كانون الاول زار بيروت، لأول مرة منذ سنوات طويلة، رئيس دولة عربية، الرئيس الجزائري، الشاذلي، الذي وعد بتقديم مساعدات واسلحة لدعم بناء الجيش اللبناني.

٥ - حكومة وحدة وطنية

لم يكن سليم الحصن، رئيس الوزراء في عدة عهود، يحبذ اطلاقاً حكومات موسعة جداً، بل كان يفضل التقنوقراط ذوي الكفاءات العالية كوزراء على السياسيين. اما الرئيس هراوي، وهو سياسي من المدرسة القديمة، فلم يوافق رئيس الحكومة هذا الرأي، بالإضافة الى عدم تقديره الخاص له. وبينما تمسك الحصن، بالاعتماد، نصّاً وروحاً، على الدستور الجديد، بصلاحيات رئيس الحكومة كرئيس للسلطة التنفيذية، تصرّف هراوي، منذ انتخابه، كرئيس للجمهورية الأولى. وهذا ما أدى سريعاً الى توتر في العلاقات بينهما. ولكن انتهت تلك الفترة بانتصار هراوي. ان ما فقده بالاستناد الى الدستور الجديد، عوّض عنه بفضل الدعم السوري الذي

ولكن بالرغم من ان مقتل داني شمعون أسهم في تثبيت النفوذ السوري في لبنان، إلا أن طريقة تنفيذ هذه الجريمة، أي القضاء على عائلة بكاملها، تشير الى أنها أقرب الى عمل انتقامي قامت به إحدى الميليشيات. -٤- ولكن لم يسترجع الحزب مبنى "بيت المستغل" ولا مبنى جريدة "الريفاي"، اللذين صادرتهما القوات اللبنانية عام ١٩٨٨. ولكن تسلمهما الجيش مؤقتاً.

تأمن له تقديرًا لخياره الواضح والهادف الى تعاون وثيق ومفتوح مع سوريا. وهكذا بدأ باكراً انهيار دستور الجمهورية الثانية والواقع الدستوري بصورة بارزة.

جرى تشكيل الحكومة الجديدة بالتفاوض بين هراوي والحكومة السورية. خلال تلك المفاوضات جرى تجاهل الصلاحيات الجديدة المعطاة ليس فقط لرئيس الحكومة فحسب، بل أيضاً لرئيس مجلس النواب. فالاستشارات النيابية بحضور هذا الأخير تمت بشكل صوري. في الخامس عشر من كانون الأول فاض هراوي بمفرده - دون الحصص وحسيني - في دمشق. وفي التاسع عشر من ذات الشهر استقال الحصص. وفي العشرين منه كلف عمر كرامي بتشكيل الحكومة الجديدة التي أعلن عن تأليفها في الرابع والعشرين من ذلك الشهر.

جمعت بين رئيس الحكومة الجديد ورئيس الجمهورية قواسم عديدة مشتركة. ينحدر كلاهما من مناطق الأطراف، كما لم يكن بإمكان أحدهما تصوّر مصلحته إلا بالاعتماد على سوريا فقط. ولكن كان لكل منهما أيضاً قناعة شخصية تدفعه الى تعاون وثيق مع سوريا، كما يُعتبران أخيراً من طغمة السياسيين التقليديين البرغماتيين.

فالحكومة التي تشكلت من ثلاثين وزيرا كانت أوسع حكومة عرفت حتى ذلك الوقت في تاريخ لبنان - أي أكبر حكومة تحالف. فباستثناء حركة حزب الله، وحزب الوطنيين الأحرار، وانصار العماد عون، والشيوخيين، تمثلت فيها كل الأحزاب والاتجاهات السياسية في لبنان.

عُيّن فيها ما لا يقل عن سبعة زعماء ميليشيات كوزراء دولة دون حقائب: برّي، جنبلاط، ججع، حبيقة، سليمان طوني فرنجي، وعبد الله الأمين من حزب البعث الموالي لسوريا، وأسد حردان، زعيم ميليشيا الحزب القومي السوري. اعترف عمر كرامي دون موارد بأن مشاركة أمراء الحرب في الحكم تعني استعدادهم لحلّ ميليشياتهم. كذلك اسندت حقائب وزارية الى رؤساء حركة أمل، والحزب القومي الاشتراكي، والقوات اللبنانية، وحزب الكتائب، بالإضافة الى حقيبتين وزاريتين لكل منهما. وقد عيّن ممثلون عن حزب البعث والحزب القومي السوري وزراء في الحكومة، بالإضافة الى وزير آخر يعتبر مدافعاً عن المصالح السورية دون قيد أو شرط. ولكن تألفت اكثرية اعضاء الحكومة من انصار عائلات السياسيين التقليديين. ولم يتردد هراوي عن تعيين صهره واثنين من الاعيان المرتبطين به تجارياً كوزراء في الحكومة.

شكلت كيفية تأليف الحكومة بحد ذاتها برنامجاً واضحاً. فلم يكن بين اعضائها الا ثلاثة وزراء يعتبرون من المعادين لسوريا، وهم من ممثلي القوات اللبنانية وحزب

الكتائب، وثلاثة آخرون من المؤيدين لها دون قيد أو شرط.

ولكن الآخرين كانوا على استعداد تام لتعاون وثيق مع سوريا سواء بفعل اقتناعهم الشخصي أو بحكم الضرورة. وهكذا جرى ترويض "نائب" الميليشيات، والسيطرة عليهم بفضل "ثعالب" السياسة اللبنانية التقليدية. وبالاختصار، جرى تشكيل حكومة جديدة لفرض اتفاق الطائف.

جاء الاحتجاج الأعنف ضد هذه الحكومة من قبل القوات اللبنانية التي طالبت بحكومة "أكثر توازناً"، لأن الوزراء المسيحيين لا يمثلون القاعدة. فمن المحتمل أن يكون الأمر أسهل داخل حكومة أصغر، إذ يستطيع ثلث أعضائها شلّ القرارات الأساسية. ولكن هذا ما أراد هراوي تجنبه بالذات. فقد التقى جعجع بعشرة من الوزراء المسيحيين وطالبهم بالاستقالة. ولكن لم يوافق أحد على طلبه إلا ثلاثة وزراء يمثلون اتجاهه فقط. على أثر ذلك أعلن رئيس الوزراء، بأن حكومته ستواصل عملها حتى وإن لم ينضم إليها هؤلاء الوزراء الثلاثة.

في التاسع من كانون الأول عام ١٩٩١ عقدت جلسة الثقة في مجلس النواب. فرغ الانتقادات العنيفة التي وجهت إلى ظروف تشكيل الحكومة الجديدة، جرى التصويت ومنحت الثقة بأكثرية ٣٤ صوتاً من أصل ٤٠ نائباً حضروا الجلسة.

تضمن بيان الحكومة برنامج الطائف بكامله الداعي إلى سيطرة الجيش بأسرع وقت ممكن على المرافق غير الشرعية، وإرساله إلى الجنوب، وحلّ الميليشيات، وادماج عدد كبير من أفرادها في الجيش، وقوى الأمن الداخلي، والإدارات الحكومية الأخرى، وتعيين نواب جدد للمقاعد الشاغرة والمستحدثة، وعقد الاتفاقات مع سوريا كما تقرر في الطائف، والعمل على تسهيل عودة اللاجئين المهجرين إلى ديارهم، وإعادة بناء البلاد.

٦ - نزع سلاح الميليشيات

في منتصف كانون الثاني كلفت الحكومة الجديدة الجيش بالتصدي في بيروت الكبرى بقوة وحزم ضد ما تبقى من سيطرة الميليشيات فيها. وحتى بعد انسحاب عدد كبير من المقاتلين مع أسلحتهم الثقيلة، حاولت بعض الميليشيات مواصلة سيطرتها على بعض أجزاء المدينة. ولكن الحكومة حظرت أي نوع من حمل السلاح ولباس الميليشيات. كذلك كلف الجيش بالبحث عن الأسلحة المخبأة، ومنع الميليشيات من مراقبة الأشخاص وفرض "الضرائب والخوات"، ومنع المظاهرات غير المرخص بها مسبقاً. على أثر ذلك، قام الجيش بدهم عدد كبير من مكاتب

الميليشيات، وتفتيشها، وتوقيف المسلحين، الذين كانوا يوصفون في كل التقارير الرسمية "بالعناصر المسلحة" فقط. وهكذا وُضع حدٌ لكل هذه الأمور دون أية أبهة عسكرية.

لقد حصلت احتجاجات عديدة وعنيفة خاصة من جانب قائد القوّات اللبنانية. فردّ عليه ميشال المرّ، وزير الدفاع، بأنه في المستقبل لن تبقى اية "جزيرة" أو "جيب" خارج سيطرة الجيش. وفي التاسع من شهر أذار احتلت قوّات من الجيش المقرّات الرئيسية للقوّات اللبنانية، وحركة أمل، والحزب التقدمي الاشتراكي، وحزب الله، كما صادرت أسلحة مخبأة في بيروت الغربية والشرقية. وفي الحادي عشر من أذار تقدّمت قوّات الجيش أيضاً نحو مرافئ الميليشيات: الحوض الخامس في مرفأ بيروت، وضبيه، والاوزاعي، وخلده. وفي اليوم الرابع بعد انجاز تلك العملية أعيد فتح مرفأ بيروت مجدداً امام الملاحة البحرية.

وجد زعماء الميليشيات انفسهم مرغمين على المشاركة في نزع سلطتهم الذاتية في اطار احترام قرارات الحكومة. ورغم تقديم جنبلات استقالته من الحكومة احتجاجاً، اضطر الى العودة عنها بعد عدة ايام. اما الوزراء الممثلون للقوّات اللبنانية وحزب الكتائب فقد قاطعوا جلسات الحكومة، وتركوا المجال مفتوحاً لاتخاذ قرار حول بقائهم اعضاء في تلك الحكومة ام لا. ولكن بعد توجيه اذار اليهم من قبل رئيس الحكومة، قرر اثنان منهم البقاء في الحكومة، واستقال جعجع، وجرى تعيين احد اقرب مساعديه، روجيه ديب، وزيراً مكانه. وهكذا انتصر مفهوم الياس هراوي. تذرّ زعماء الميليشيات، ولكنهم لم يعارضوا جدّاً سياسة اكثرية اعضاء الحكومة، التي بقوا اعضاء فيها.

في منتصف أذار تلّقت الحكومة تأييداً خارجياً أيضاً، عبر اعلان الرئيسين "بوش" و "ميتران" في مؤتمر قمة "المارتينيك" عن تأييدهما لعملية الطائف، كما ارسلت الولايات المتحدة مجدداً ولأول مرة منذ عام ١٩٨٤، شحنات أسلحة الى الجيش اللبناني.

في العشرين من أذار اتخذت الحكومة قراراً أكثر بعداً وأهمية، يقضي بحلّ الميليشيات في اواخر نيسان. في البداية اعرب معظم المراقبين عن شكهم بإمكانية تطبيق هذا القرار. بالنسبة للميليشيات، كان انسحابها من بيروت مع اسلحتها الثقيلة الى معاقلها في كسروان، أو الشوف، أو الجنوب، امراً معيّنًا، ولكن التخلي نهائياً عن هذه المعاقل وعدم الظهور كمنظمات مسلحة امر آخر. لقد كان قرار الحكومة واضحاً للغاية، اذ يقضي بتسليم كل الأسلحة الى الجيش خلال شهر واحد، واغلاق كل وسائل الإعلام التابعة للميليشيات. وفي حال الضرورة، يجري تنفيذ هذا القرار

ايضاً باستخدام العنف وبمساعدة "الجيش السوري الأخوي". كذلك أعلن هراوي عن ان "ايام الميليشيات أصبحت معدودة، وعملية السلام لا عودة عنها".

وفي جلسات الحكومة المتتالية، اتخذت قرارات تتعلق بمستقبل افراد الميليشيات. وهذا أمر بديهي بالنسبة لمجموعة كبيرة من الشباب الذين لم يتعلموا الا ممارسة الحرب، كما يصعب عليهم جداً ايجاد امكانية عمل في الحياة المدنية. ولكنهم كعاطلين عن العمل سيشكلون قوة اضطراب سياسية وخطر اجتماعي. لذلك لاحظت الحكومة اعتمادات تسمح بدفع أجر شهري بمقدار مائة دولار لكل مقاتل ميليشيوي من اصل عشرين الفا، وادماجهم في الوظائف العامة، بعد مرحلة زمنية من التدريب والامتحان تسمح بضمهم الى الجيش، او الى قوات الأمن الداخلي، او الى الشرطة، او الى وظائف حكومية أخرى.

ولكن سرعان ما قامت من جديد معارضة شديدة من قبل القوات اللبنانية. فتحدث جعجع مرة أخرى عن خطر اندلاع حرب جديدة وطالب باستفتاء حول حلّ الميليشيات. وقامت تظاهرات في كسروان وجبيل تأييداً للمحافظة على الميليشيات. ولكن هذا الأمر لم يكن سوى مؤشر للتقهقر والتراجع. على أثر ذلك، بدأت القوات اللبنانية في النصف الثاني من شهر نيسان بنقل أسلحة ثقيلة على البواخر لشحنها خارج البلاد^٥. ومن جهة أخرى أعلن وليد جنبلاط عن نيته لعدم تسليم ترسانة الأسلحة الموجودة لديه الى الجيش اللبناني، بل الى الجيش السوري. وبعد ذلك بدأت مجدداً معارك توزيع الغنائم، ولكنها ذات طابع مدني تركّزت حول عدد افراد الميليشيات الذين سيجري ضمهم الى الجيش والادارات العامة. وقد تقرر في النهاية أخذ عشرة آلاف ميليشيوي من المسيحيين وعشرة آلاف من المسلمين، تقدم منهم القوات اللبنانية ٦٥٠٠ عنصر من افرادها، وتقدم كل من حركة أمل والحزب الاشتراكي ٢٨٠٠ عنصر. ويؤخذ الباقيون من الميليشيات الأخرى.

في نهاية شهر نيسان، دخلت قوات من الجيش الى منطقة زغرتا والكوره والبترون، وفي الأول من ايار الى جبيل وكسروان والشوف. وفي نفس الوقت سيطرت قوات الجيش على آخر مرافئ الميليشيات، كما تمت السيطرة على أهم معاقلة دون اي حادث يذكر. تمكنت قوات الجيش من فرض وجودها في كل مكان دون الحاجة الى دعم سوري، ولكن الاتفاق كان يتم مسبقاً مع القيادة السورية، كما أصبح هذا التصرف فيما بعد أمراً مألوفاً.

٥- بعكس الموقف السوري، عبّر وليد جنبلاط عن بعض التأييد لصدام حسين. وفي الوقت نفسه تألم كثيراً لإضطراره الى تقديم الاعتذار عن هذا الموقف في دمشق، وإلى الموافقة على تجريد ميليشياته من السلاح. على أثر ذلك قرّر اعتزال العمل السياسي نهائياً، إلا انه عاد عن هذا القرار نزولاً عند رغبة طائفته.

بالنسبة لتسليم الأسلحة الثقيلة والمتوسطة قدمت الحكومة بعض التنازلات. فالحزب التقدمي الاشتراكي وضع ترسانته بتصرف الجيش السوري. والقوات اللبنانية سلمت الجيش اللبناني تلك الأسلحة التي كانت تابعة سابقاً له، مثل الدبابات والمصفحات، والطوافات الجوية والمدافع الثقيلة. وكذلك قبلت الحكومة بتخزين الأسلحة الثقيلة التي تم شراؤها، حتى تتمكن كل فئة من نقلها الى الخارج. وقد تبين ان حجم ترسانة الأسلحة لدى الميليشيات كان كبيراً للغاية، حتى ان تسليمها كان يحتاج الى وقت أكثر مما كان متوقعاً. وقد جرى التخلي عن جمع الأسلحة الخفيفة، نظراً لكثرة توفرها.

وهكذا لم تتفد عملية نزع سلاح الميليشيات بكاملها. كما لم يكن مستبعداً على الإطلاق ان تكون هذه الميليشيات قد نجحت في تخبئة قسم من أسلحتها الثقيلة. ولكن رغم ذلك، انتهت في أول أيار ١٩٩١ سيطرة الميليشيات الكبيرة، حتى في معارقلها الرئيسية. وقد ركزت الحكومة على ان خسارة الميليشيات للمرافق ولأهم مصادر دخلها سيجعل من المستحيل عليها دفع أجور لمدنيين يحملون أسلحة خفيفة. وفي مطلع شهر حزيران اعلن الجيش عن فتح مخيمات تأهيل وتدريب لأفراد الميليشيات السابقين. ولكنه تردد كثيراً في تجنيد مقاتلين ميليشيويين سابقين خوفاً من تسييس مفرط في الجيش. وفي خريف ١٩٩٢ لم يكن بعد ممكناً معرفة عدد المقاتلين الذي امكن استيعابهم في صفوف الجيش.

٧ - معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق مع سوريا

بقطع النظر عن الاسلوب المرن الذي اعتمدته الحكومة اللبنانية وعزم الجيش اللبناني على تنفيذ ما يطلب منه، لم يكن نزع سلاح الميليشيات ممكناً، دون موافقة الحكومة السورية، ودون امكانية الاعتماد على الجيش السوري.

هكذا تقيدت سوريا بأهم ما وافقت عليه في اتفاق الطائف دون تحفظ او تردد، بتنفيذ ما وافق عليه الجانب اللبناني في الطائف، بالنسبة لأهم مطلب لسوريا، اي عقد معاهدة معها.

فكما جرى سابقاً تعديل الدستور، جرى أيضاً اقرار هذه المعاهدة بطريقة عفوية للغاية، وفقاً للخطوط الرئيسية الواردة في اتفاق الطائف. بموجب هذه المعاهدة، تعمل الدولتان على تحقيق "اعلى درجات التعاون والتنسيق بينهما في جميع المجالات السياسية، والاقتصادية، والامنية، والثقافية، والعلمية، وغيرها"، وذلك "ضمن اطار سيادة واستقلال البلدين" (المادة الأولى). وقد جرى التركيز فيها على الجوانب الأمنية: "لبنان لا يسمح بان يكون ممراً او مستقراً لأية قوة، او دولة او تنظيم

يستهدف المساس بأمن سوريا، وأنّ سوريا، الحريصة على الحفاظ على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووافق ابنائه، لا تسمح بأي عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته" (المادة الثانية). تعمل حكومتا البلدين "على تنسيق سياستيهما العربية والدولية وتحقيق أوسع التعاون في المؤسسات والمنظمات العربية والدولية وتنسيق مواقفهما تجاه مختلف القضايا الإقليمية والدولية..." (المادة الخامسة). وقد جرى التشديد مرة أخرى، على أنه، بالإستناد الى الجدول الزمني الذي اتفق عليه في الطائف، تقرر الحكومتان "اعادة تمركز القوات السورية في منطقة البقاع، ومدخل البقاع الغربي، وفي ظهر البيدر، حتى خط حمّانا-المديرج-عين داره، وإذا دعت الضرورة في نقاط أخرى..." (المادة الرابعة).

ولتنفيذ هذه المعاهدة، تقرر انشاء بعض الأجهزة:

- مجلس أعلى يتألف من رئيسي الدولتين، ورئيسي الحكومتين وممثليهما، ومن رئيسي مجلسي النواب. وينعقد هذا المجلس مرة كل سنة؛
- لجنة متابعة وتنسيق تتألف من رئيسي مجلس الوزراء وعدد من الوزراء المعنيين بالعلاقات بينهما وتلتقي مرتين كل سنة؛
- لجان وزارية للشؤون الخارجية، والاقتصاد، والدفاع، تعقد اجتماعاتها دورياً كل شهرين.
- واخيراً أمانة عامة.

واشارت كذلك المعاهدة الى عقد اتفاقيات ثنائية في كل المجالات الواردة فيها.

جاءت ردود الفعل حول هذه المعاهدة متباينة، كما كانت الحال بالنسبة لإتفاق الطائف. المأخذ الرئيسي لمعارضيه، عبّر عنه البطريرك الماروني بقوله: "ان معاهدة بين فريقين غير متساويين تعني سيطرة جهة على أخرى". كذلك برز برهان جديد من قبل مؤيدي هذه المعاهدة على لسان الوزير مروان حمادة الذي قال: "في هذه المعاهدة اعترفت سوريا لأول مرة بالدولة اللبنانية". ولكن رغم البراهين التي قدّمت والمواقف التي برزت، كان السيف قد سبق العدل والقرار قد اتخذ. ففي الخامس عشر من ايار وافقت الحكومة على المعاهدة بالاجماع، مع امتناع الوزيرين ديب وسعاده، ممثلي القوات اللبنانية والكتائب، كما جرى التوقيع عليها في دمشق في ٢٢ ايار. وتجدر الإشارة والتوقف امام النقاط التي شدّد عليها في خطابه كل من حافظ أسد والياس هراوي في حفلة التوقيع. فقد كرّر أسد مرة أخرى عبارة "شعب واحد في دولتين منفصلتين". وركز هراوي على ان المعاهدة هي "افضل خيار للبنان، انها افضل مما كان قائماً في الظروف السابقة... هذه المعاهدة لن تنقص من

سلطة الدولة التي استبعدت بعد سنة عشر سنة من الحرب الأهلية".

٨ - تعديل قانون الانتخاب وتعيين النواب

في مطلع شهر ايار عدل مجلس النواب قانون الانتخاب، تنفيذاً لقراراته الداعية الى رفع عدد النواب الى ١٠٨، نصفهم من المسيحيين والنصف الآخر من المسلمين، واعتماد النسبة داخل كل مجموعة حسب الطوائف. اعطي للشيعية ثلاثة مقاعد اضافية في الجنوب وبعلبك وبعبداء، وللجنة مقعدان في بيروت وطرابلس، وللدرز مقعدان في حاصبيا وبيروت، كما أعطي لأول مرة مقعدان الى العلويين في طرابلس وعكار.

لقد حصل جدال حاد للغاية، كما حصل سابقاً في خلوة الطوائف، حول تعيين النواب من قبل الحكومة لملء المقاعد الشاغرة او المستحدثة. برزت مقاومة أساسية ضد هذه العملية التي تتنافى مع كل مبدأ ديمقراطي لتوزيع السلطة. "هذا عمل شائن"، كما صرّح النائب ميخائيل الضاهر. كذلك صدرت تصريحات أخرى تعتبر هذه العملية اهانة للنائب المنتخب. "لا يمكن بهذه البساطة تعيين اي انسان في مقعد كمال جنبلاط"، كما قال ابنه وليد. وقد جرى التخوف مرة أخرى، من ان الحكومة ستضطر الى تقديم تنازلات للسوريين وللمليشيات. اما المؤيدون فقد شددوا على صعوبة اجراء انتخابات في المستقبل القريب، علما ان مجلس النواب مهدد بالزوال شيئاً فشيئاً، اذ لم يبق منه على قيد الحياة عام ١٩٩١ الا ٦٨ نائباً من اصل ٩٩ انتخبوا عام ١٩٧٢. ولكن عملية تعيين النواب لم تكن الا تطبيقاً حرفياً لوثيقة الطوائف.

وكما هي العادة في مثل هذه الحالات، تقدّم ما لا يقل عن ٣٨٤ مرشحاً، "انتخبت" منهم الحكومة في السابع من حزيران اربعين نائباً جديداً - ومعظمهم باكثريات ساحقة. ولكن بقطع النظر عن كل المواقف المرتبطة بمصالح معينة، اعتبر الأمر المشين في تلك العملية، من وجهة نظر ديمقراطية بدائية، تعيين ١٣ نائب من اعضاء الحكومة، من أصل الاربعين نائباً، اي ان نصف اعضاء الحكومة تقريباً قرروا شخصياً تعيين انفسهم ودخولهم الى مجلس النواب.

سياسياً، برزت عملية تعيين النواب الجدد مشابهة تماماً لصورة الحكومة. فعدد المؤيدين لسوريا دون قيد وشرط، بين النواب المعينين، كان اكثر قليلاً من عدد الوزراء، اي ربع النواب الجدد. وهكذا لم يتعلق الأمر فقط بممثلي احزاب لم يتمكنوا اطلاقاً في السابق من الفوز بمقعد نيابي - مثل الحزب القومي السوري، وحزب البعث الموالي لسوريا الذي اعطي ثلاثة مقاعد، وحركة أمل والاحزاب العلوية - بل

اعطيت أيضاً الأحزاب القديمة، مثل الكتائب، والحزب التقدمي الاشتراكي، وحزب الطاشناق، المقاعد التي كانت تشغلها سابقاً، باستثناء حالتين بارزتين، وهما اعطاء مقعد بيار الجميل الى ايلي حبيقه، ومقعد كميل شمعون الى جان عبيد المعروف بموالته لسوريا. جاءت هذه العملية في الواقع إهانة موجهة ضد الأحزاب المسيحية المناضلة^٦. ولكن أكثر من نصف النواب المعيّنين جرى اختيارهم من بين أتباع العائلات السياسية القديمة، او من الشخصيات المقربة منها. وكان بينهم ما لا يقل عن ١٤ نائباً من أبناء او من أقارب نواب سابقين.

لم يحصل تعيين ممثلي احزاب "جديدة" نواباً بغية ارضاء أصدق انصار سوريا فحسب، بل أيضاً اقتناعاً من ضرورة تمثيل هذه التيارات في مجلس النواب بدلاً من تركها في معارضة خارج اللعبة البرلمانية.

وهكذا تمت ظاهرياً عملية اكمال عدد مقاعد مجلس النواب في ظل ذات المؤشرات التي رافقت عملية تشكيل حكومة كرامي، اي في إطار تأكيد وتثبيت عملية الطائف. فجرى اختيار مؤيدي الطائف الذين تشكل أكثريةهم من "الزعماء".

٩ - تجريد منظمة التحرير الفلسطينية من السلاح

تمكنت منظمة التحرير التابعة لياسر عرفات، كما أشير سابقاً، من إعادة بناء قوة عسكرية لها في جنوب لبنان وفي مخيمات الفلسطينيين المجاورة لصيدا وصور. في اتفاق الطائف لم يشر إطلاقاً الى الفلسطينيين، ولكن جرى دمجهم بهدوء ضمن "الميليشيات" التي ينبغي تجريدها من السلاح. وبالتالي لم تعد منظمة التحرير تنتظر شيئاً ايجابياً من عملية الطائف، كما ابدت تعاطفاً مع معارضيه، وخاصة مع العماد عون. فبعد ابعاد هذا الأخير عن مركز السلطة، زادت تخوفات الفلسطينيين حول مستقبل وجودها في لبنان. فطالبت منظمة التحرير الفلسطينية الحكومة اللبنانية بابرام اتفاق جديد حول وضعها في هنا البلد. ولكن لم تلق هذه المطالبة اي صدى لدى اية قوة سياسية في لبنان. فمعظم اللبنانيين اصبحوا مقتنعين ومدركين ان مصيرهم السييء بدأ مع اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩. وفي أيار ١٩٨٧، كان انتهاء هذا الاتفاق من قبل مجلس النواب، احد القرارات السياسية الأقل اهمية، التي تمكن اللبنانيون من الاتفاق عليها. وهكذا لم يبق اي لبناني على استعداد لإثارة موضوع أي اتفاق جديد مع الفلسطينيين.

٦- كان من المقرر ان يعين مكان النائبتين المتوفيتين، كميل شمعون وبيار الجميل، ولداهما دوري وأمين، ولكنهما رفضا ذلك.

هذا ما صرّح عنه بوضوح الرئيس هراوي في تشرين الثاني ١٩٩٠، مشيراً الى ان الوجود المسلح لمنظمة التحرير ينبغي ان يتوقف نهائياً خلال الأشهر الستة القادمة. وفي البيان الحكومي في التاسع من كانون الثاني ١٩٩١، شدّد عُمر كرامي على ان قرار الحلّ يشمل "الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية". ولكن منظمة التحرير صرّحت على انها ليست ميليشياً، بل جيشاً لتحرير فلسطين لا علاقة له اطلاقاً بسياسة لبنان الداخلية. على ذلك اجاب حسين الحسني، رئيس مجلس النواب آنذاك بقوله: "يبدو ان أبا عمار وأبا أياد ما زالوا يعيشان في مرحلة ما قبل عام ١٩٨٢". فلبنان يهدف الى احترام شديد لاتفاق وقف اطلاق النار المنعقد مع اسرائيل عام ١٩٤٨، والجيش وحده مع قوات الأمم المتحدة يتحملان معاً مسؤولية أمن الجنوب. وسيجري التعامل مستقبلاً مع الفلسطينيين. ومع مخيماتهم، تماماً كما هو حاصل معهم في باقي الدول العربية.

تفاقمّت هذه التوترات اللبنانية-الفلسطينية مأساوياً بعد بداية عملية حرب الحلفاء ضد العراق في نزاع الكويت. فحاولت منظمة التحرير في جنوب لبنان "فتح جبهة ثانية" لدعم صدام حسين، اذ اطلقت قذائف الغراد والكاتيوشا على المنطقة الشمالية من اسرائيل وعلى "الحزام الأمني". فردت اسرائيل بقصف مدفعي وغارات جوية. وهكذا اضطر الجيش اللبناني الى التحرك، فاتجه في السادس من شباط فوج من قواته الى الجنوب بهدف "إسكات كل المدافع"، حسب قول وزير الدفاع آنذاك ميشال المرّ. على أثر ذلك، حصلت بين صفوف الفلسطينيين معارك داخلية، بين وحدات ارادت التجاوب مع المطالب اللبنانية، وأخرى رفضتها. ولكن تمكنت الفئة الأولى من فرض رأيها.

في نهاية شهر اذار بدأ الجدل مجدداً حول وضع الفلسطينيين في لبنان. فكررت منظمة التحرير قولها بانها ليست ميليشياً، ولن تسمح بالتالي بتجريد عناصرها من السلاح. ولكن ردود الفعل اللبنانية جاءت سريعة وواضحة. فصرّح الرئيس هراوي بأنه لن يسمح فيما بعد للفلسطينيين بحمل السلاح. وطالب نبيه برّي بأن يطبّق على الفلسطينيين ما يطبّق ايضاً على اللبنانيين. وكذلك صرّح وزير الداخلية، سامي الخطيب، بان المقاومة المزعومة لا ينبغي ان تشكل حجة لبناء دولة داخل الدولة. وشدّد وزير الخارجية، فارس يوز، بأنه لن يعقد فيما بعد اطلاقاً اي اتفاق مع الفلسطينيين. وهكذا حصل التوافق اللبناني حول هذا الموضوع بدعم سوري قوي تجسّد في تصريح وزير الدفاع، مصطفى طلاس، الذي عبّر فيه عن وجوب زوال كل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية.

اما الفلسطينيون فلم يكونوا راغبين في الحصول على أكثر مما حصلوا عليه عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٥، أي حق محاربة إسرائيل انطلاقاً من الأراضي اللبنانية.

ولكنهم في عام ١٩٩١ لم يجدوا أي حليف لبناني يؤيدهم. وهكذا اختصر وزير الدفاع اللبناني، ميشال المر، بان "الفلسطينيين لم يحرروا خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة أي شبر من ارض فلسطين". وبعبكس ما حصل عام ١٩٦٩ و١٩٧٥، لم يعد بإمكان منظمة التحرير التابعة لعرفات الاعتماد على دعم سوريا.

في العشرين من نيسان ١٩٩١ القى الجنود اللبنانيون في الجنوب القبض على وحدات فدائية فلسطينية من الجبهة الشعبية، كانت تستعد لعملية كومندوس. وفي منتصف أيار حصلت اشتباكات بين الجيش والفلسطينيين في ضواحي مدينة صور. وفي حزيران اعلن اللبنانيون عن استعدادهم لمجابهة شاملة. عندئذ طلبت الحكومة من منظمة التحرير بالانسحاب كلياً من مواقعها خارج المخيمات وتسليم الاسلحة الثقيلة للجيش اللبناني. وبأمر من قيادة منظمة التحرير من تونس رفضت القوات الفلسطينية المتواجدة في ضواحي صيدا، الانصياع لهذا الطلب.

وهكذا مقابل ستة آلاف مقاتل فلسطيني وقف عدد مماثل من الجيش اللبناني مؤلفاً من وحدات مسيحية وإسلامية مختلطة. لم تكن لديها، مثل الفلسطينيين، اية خبرة مشتركة في القتال. بدأت المعارك في اول تموز، بتبادل القصف المدفعي والقذائف الصاروخية. في اليوم التالي، هاجم الجيش اللبناني المواقع الفلسطينية. وبعد معارك دامت حوالي اثنتي عشرة ساعة فقد الفلسطينيون كل مواقعهم خارج المخيمات. على أثر ذلك تحدث وزير الدفاع، ميشال المر، بحق عن "انتصار خاطف". وفي الرابع من تموز اعلن الفلسطينيون عن استعدادهم لتسليم الأسلحة الثقيلة والخفيفة. وكذلك قام الجيش بتجريد الميليشيات اللبنانية في صيدا من السلاح. وبعد ذلك بأيام قليلة، قامت قوات من الجيش اللبناني باقتحام المخيمات الفلسطينية المحيطة بمدينة صور، حيث ارغم الفلسطينيون على الرضوخ والاستسلام. عندئذ لم يبق لياسر عرفات الا البحث عن مخرج مشرف له، فأمر باهداء الاسلحة الى الجيش اللبناني. كان لهذه البادرة ان تترك صدى طيباً لو حصلت في السنوات السابقة. ولكن في عام ١٩٩١ اعتبرها اللبنانيون مهزلة نافهة بعد المآسي التي تكبدها بسبب الوجود الفلسطيني على ارضهم. ولكن في النتيجة لم تغير هذه البادرة شيئاً. في عام ١٩٨٢ هُجّر الفلسطينيون من بيروت من قبل الجيش الإسرائيلي، وفي عام ١٩٨٥ هُجروا من طرابلس من قبل الجيش السوري. وفي عام ١٩٩١ فرض اللبنانيون الاستسلام على آخر وحداتهم المستقلة. وهكذا تحولت منظمة التحرير التابعة لعرفات الى جيش في المنفى.

١٠ - تحريف اتفاق الطائف

اسهم التغيير الذي حصل في الأوضاع الإقليمية والدولية في ظهور جمهورية لبنان الثانية. هذه الظروف استغلها الرئيس هراوي لدفع عملية تنفيذ اتفاق الطائف الى التحرك بعد الشلل الذي اصيب به.

لقد كان هراوي مقتنعاً بان هذا الخيار هو الخيار الواقعي الوحيد لانقاذ لبنان. لذلك لم يتردد في طلب مساعدة الجيش السوري لاسقاط العماد عون الذي كان يشكل العقبة الرئيسية في طريق تنفيذ اتفاق الطائف. كما أنه لم يأبه لاستعداد قسم كبير من مسيحيي لبنان كنتيجة لسياسته.

الآن النجاح الذي أحرزه كشف عن صوابية خياره. في منتصف عام ١٩٩١ شعر معظم اللبنانيين بارتياح لنهاية نفوذ الميليشيات ولعودة الأمن. كما كانوا سعداء لإعادة توحيد البلاد وعاصمته. الا انهم كانوا أقلّ ارتياحاً لانتصار الجيش على ما تبقى من منظمة التحرير. في تلك الفترة، حصل شعور جدي بإمكانية عودة السلام، وقد تمثل ذلك في صيف ١٩٩١ عبر ظاهرة تدفق رساميل كثيرة الى البلاد.

تحقق هذا النجاح لأن سوريا ولبنان التزما حرفياً بقرارات اتفاق الطائف. فالحكومة اللبنانية لم تتخذ في الواقع أي قرار مهم دون التفاوض المسبق حوله مع سوريا التي كانت تدعم هذه القرارات بصدق ودقة. هكذا سمح هذا التنسيق الوثيق بانهاء حالة الحرب وباستتباب الأمن.

الآن ثمن هذا النجاح كان الحدّ من السيادة اللبنانية، الذي حدّته "معاهدة الأخوة" مع سوريا. فاجهزة التنسيق الواردة في هذه المعاهدة لا تختلف الا قليلاً فقط عن الأجهزة التي تلتحظها معاهدة الصداقة الألمانية-الفرنسية، او معاهدة التعاون السياسي الاوروبي في عدم التوازن البارز في السلطة بين الفريقين، خاصة الواقع الذي فرضته وافرزته المعاهدة السورية-اللبنانية، والقاضي بمرابضة جيش بلد الشريك الأقوى على ارض بلد الشريك الأضعف، ولأجل غير محدد.

يبدو ان "جانوس" يرمز فعلاً وبقوة الى جمهورية لبنان الثانية: احد وجهيه هو إعادة بناء الدولة اللبنانية، والوجه الآخر هو الحدّ من سيادتها. ليست هذه الازدواجية سوى نتيجة لاتفاق الطائف بالذات. وهذا ما يكشف عن ان ثمن الانجازات الاولى الناجحة كان اعلى بكثير مما كان متوقعاً في الطائف. فالحد من السيادة تلاه انتهاك للديمقراطية ولدولة القانون، اذ ان "انتخاب" النواب من قبل الحكومة حصل بصورة عقلانية ومنطقية، الا انه جاء تحريفاً ساخراً لتوزيع السلطة وذلك بفعل الضغط السوري على النواب في الطائف. وبفعل هذا الضغط المتجدد جرى تنفيذ ما اتفق

عليه في الطائف بعد مرور السنتين لاحقاً. أما الحد من حرية الرأي وحرية الصحافة فلم يشر إليه إطلاقاً في اتفاق الطائف، إلا أن قراءة الصحافة اللبنانية أصبحت مملة للغاية بفعل الرقابة والرقابة الذاتية. ومنذ صيف ١٩٩١ مازال يلقى القبض غالباً على خصوم الحكومة السياسيين، خاصة على انصار العماد عون دون انذار او اوامر رسمية بالتوقيف، ويودعون السجن دون محاكمات قانونية.

جاء أيضاً تأليف حكومة عمر كرامي مطابقاً حرفياً لاتفاق الطائف، إلا أنه طعن في روحية هذا الاتفاق. في الواقع جرى توزيع العدد الكبير من الوزراء بالتساوي بين الطوائف. ولكن اكثرية الوزراء المسيحيين لم يكن لهم اي وزن تمثيلي لطوائفهم. لذلك وجدت معظم القوى والفعاليات المسيحية السياسية الهامة نفسها محرومة من امكانية تشكيل اقلية تتألف من ثلث عدد الوزراء، تستطيع نقض اي قرار، وفقاً للضمانة التي اعطيت لهم في الطائف. فالانتهاك الفادح لمبدأ التوافق لم يبرز بعد، طالما الأمر يتعلق بتأمين تطبيق هذا الاتفاق. ولكن الانتهاك الأخطر من ذلك حصل في صيف ١٩٩١، عندما أجلت سوريا أولاً، ثم الحكومة اللبنانية امكانية البحث في تطبيق بنود أخرى رئيسية من اتفاق الطائف. ولكن الانتهاك هذه المرة لم يحصل ضد روح الاتفاق، بل ضد حرفية بنوده أيضاً.

وكما هو الحال غالباً في تاريخ لبنان المستقل، لم يحصل تحريف الاتفاق بفعل تطور الاحداث اللبنانية، بل بفعل الاوضاع الاقليمية. فقامت الولايات المتحدة بمحاولة جديدة لحل المشكلة الفلسطينية ودعت اطراف النزاع للتفاوض في سبيل اقرار سلام شامل في الشرق الأوسط. إلا أن الجولة الأولى من المفاوضات بددت كل الأوهام، وتبين أنها ستكون طويلة وعسيرة. ولكن الغرب كان يشدد على تسهيل دفع سوريا الى مفاوضات جدية. لذلك لم يعد يحظى لبنان باهتمام أولي، بل جرى تركيز الاهتمام على ابعاد وآفاق المفاوضات. وبالنسبة لسوريا تبين ان استمرار تأثيرها في لبنان يوفر لها امكانية افضل في عملية المفاوضات.

ومرة أخرى، اختارت سوريا جنوب لبنان منطقة تستطيع من خلالها تذكير اسرائيل، دون تعريض اراضيها للخطر، بأن السلام على حدودها الشمالية سيبقى ضرباً من الأوهام اذا لم تتعاون معها. أما منظمة التحرير فلم يعد بمقدورها ان تعمل لمصلحة سوريا التي وافقت ودعمت الجيش اللبناني للقضاء على بقايا وجودها العسكري.

ولكن حزب الله كان بديلاً عنها. فبينما كانت منظمة التحرير تعمل في السابق لتحقيق استقلالية نسبية في نضالها عن سوريا، رأت هذه الأخيرة أنها تستطيع توجيه حزب الله كما تشاء، لأنه مرتبط بها بصورة وثيقة.

الآ أن اتفاق الطائف قرر نزع سلاح كل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية. ولكن في غمرة تنفيذ هذا القرار، لم ينتبه المراقبون في لبنان الى ان ميليشيا حزب الله لم ينزع سلاحها، لا في المناطق المحيطة بالحزام الأمني الإسرائيلي في جنوب لبنان، ولا في قواعدها الواقعة تحت سيطرة القوات السورية في شمال البقاع. في أيار ١٩٩١ صرّح نائب الرئيس السوري، عبد الحليم خدام، عن ضرورة مواصلة المقاومة في جنوب لبنان طالما لم تتسحب اسرائيل من تلك المنطقة^٧. وهكذا بعد انتهاء الجيش اللبناني من عملية القضاء على قوات منظمة التحرير، لم يتلق أي دعم او موافقة لبسط سلطة الدولة اللبنانية جنوب نهر الليطاني. ومنذ صيف ١٩٩١ عادت من جديد عمليات الاعتداء التي يمارسها حزب الله والمنظمات المتحالفة معه ضد جيش لبنان الجنوبي التابع للواء أنطوان لحد، والقوات الاسرائيلية في "الحزام الأمني"، وبالتالي عادت عمليات الانتقام الاسرائيلية الى سالف عهدها، مثلما كان الحال منذ سنوات عدة.

في خريف ١٩٩١ تعرّض الأمل بمستقبل آمن في لبنان، والذي كان قد انتعش بفضل انجازات الجمهورية الثانية، لضربة مأساوية. فنظراً لتجدد المعارك في الجنوب وللانتهاك الفاضح في عملية اتفاق الطائف تبذدت ثقة المستثمرين المنتظرين، وتوقف خلال أشهر قليلة تدفق الرساميل الى لبنان.

في كانون الثاني ١٩٩٢ قدّمت الحكومة اللبنانية الى مجلس النواب مشروع موازنة كشف عن عجز تفوق قيمته نصف اجمالي الناتج القومي، الأمر الذي دفع بالناس الى شراء الدولار. وقد تواصل هذا الهجوم على شراء العملة الاميركية رغم سحب الحكومة لمشروعها. حاول المصرف المركزي في البداية دعم العملة الوطنية، ولكنه بعد نفاد ثلث احتياطه من العملة الأجنبية، اوقف عملية الدعم في ٢٩ شباط. وفي بداية شهر أيار وصل سعر صرف الدولار الواحد الى الفّي ليرة لبنانية.

ولكن ردّة الفعل على انهيار الوضع الاقتصادي، كان اضراباً عاماً شلّ معظم مناطق لبنان في السادس من أيار، أخذاً شكل انتفاضة شعبية، جرى خلالها اعتداء

٧- اشار احمد ببيضون الى ان الرئيس هراوي ووليد جنبلاط، وكذلك امين عام حزب البعث في لبنان عارضوا كل نشاط تمارسه فئات المقاومة في لبنان. وكذلك كان سكان جنوب لبنان يعارضون ويرفضون كل عمل عدائي بسبب نتائجه الوخيمة. ولكن السوريين خالفوا هذا الرأي، لأنهم "يهتمون بالاعتبارات الاستراتيجية أكثر من اهتمامهم بالشأن المحلي"، كما انهم يحترمون رغبات ايران. وهكذا تتصل نائب الرئيس السوري، عبد الحليم خدام، من اصدقائه اللبنانيين. الأمر الذي "لزم الرئيس هراوي الذي كان قد اصدر اوامر حاسمة ضد العمليات العسكرية، الى التخفيف من شدتها". راجع:

Ahmed Beydoun, "Le Liban pacifié. Dissolution des milices? Renaissance de le société civile?", in: Centre d'Action et d'Information pour le Liban (ed.), Perspectives et réalités du Liban, Paris 1993, p. 70f.

وتدمير لمكتب رئيس الحكومة، ومنزل وزير المالية، وفندق يملكه رئيس مجلس النواب، ومحطات وقود يملكها نجل رئيس الجمهورية. وفي امكنة عديدة حصلت مظاهرات معادية لسوريا.

ونظراً لعجز الحكومة عن لجم تلك الانتفاضة، قدّم رئيسها استقالته. وجرى بسرعة أكثر مما كان متوقّعا، تشكيل حكومة جديدة في دمشق، معظم اعضائها من المؤيدين لسياسة سوريا ومواقفها، دون قيد أو شرط. فبعض الوزراء الذين كانوا يرحبون بتعاون وثيق مع سوريا، ولكن ليس دون شروط، جرى ابعادهم. اما رئيس الحكومة الجديد، رشيد الصلح، فقد اعلن بعد عودته من دمشق، عن انتخابات تشريعية جديدة خلال الصيف.

بهذا الإعلان نفّذ انقلاب فاضح على اولوية الإجراءات التي تمّ الاتفاق عليها في الطائف. كان مقرر إنشاء مجلس دستوري، وعودة المهجرين الى مناطق سكنهم الاصلية، وخاصة انسحاب جزئي للجيش السوري بعد مرور سنتين، اي في ايلول ١٩٩٢.

اما اقرار اجراء انتخابات جديدة خلال فترة قصيرة من الزمن، فيعني انتخابات دون توفر امكانية قانونية للنظر في دستورية قانون الانتخاب الجديد، وانتخابات في مناطق مُجَرّ قسم كبير من سكانها، وانتخابات في بلد محتل تماما. وهكذا أدّت انعكاسات الاحداث الى النتائج التي كانت مستهدفة فعلا.

١١ - انتخابات مزوّرة

بعد مرور شهرين على تسلّم الحكم، قدمت حكومة رشيد الصلح مشروع قانون جديد للانتخابات الى مجلس النواب، فوافق عليه في ١٦ تموز. فقط نائب واحد، هو الدكتور البير مخيبر، الذي كان خلال فترة طويلة من الزمن نائبا لرئيس مجلس النواب، عارضه بشدة، ووصفه بالقانون "المستورد والمفروض".

جرى تفصيل هذا القانون لصالح الذين يؤيدون مخطط التعاون الكامل مع سوريا دون تحفظ، ولإلحاق الضرر بالقوى السياسية التي كان ينتظر منها مقاومة هذا المخطط. من بين المحظوظين يوجد مسيحيون ومسلمون، ولكن بنوع خاص مسلمون. وبين المتضررين، هناك مسيحيون ومسلمون ايضا، ولكن بنوع خاص مسيحيون.

لم ينتهك اتفاق الطائف هذه المرة عبر الممارسات السياسية او تبديل الأولويات فحسب، بل ايضا وبوضوح جلي عبر نص قانوني.

في الطائف تقرر رفع عدد المقاعد النيابية بعد نقاش حاد ومفاوضات طويلة مع دمشق الى ١٠٨. ولكن في قانون الانتخابات الجديد تقرر رفع العدد الى ١٢٨.

جرى توزيع المقاعد الإضافية بطريقة غير متساوية اطلاقاً على مناطق البلاد. في البقاع زاد عدد المقاعد النيابية الى اكثر من النصف تقريباً، في شمال لبنان ٤٠٪، وفي الجنوب ٢٥٪. اما في بيروت وجبيل لبنان، فلم تصل الزيادة الى ٢٠٪. وهكذا وُزِعَ ثلثا عدد النواب الاضافيين على المناطق اللبنانية الحدودية. ونالت حصّة الأسد المناطق التي ترابض فيها القوات السورية منذ اكثر من خمس عشرة سنة. وحيث سيبقى بعد حصول انسحاب جزئي محتمل.

ولكن التوزيع الجديد احدث اجحافاً بارزاً. في البقاع أعطي مقعد نيابي لكل ١٦٠٠٠ ناخب، وفي باقي مناطق البلاد مقعد نيابي لكل ١٨٥٠٠ ناخب تقريباً^٨.

الانتهاك الثاني الفادح لاتفاق الطائف تركّز على تقسيم الدوائر الانتخابية. في الطائف اتفق النواب على ان تشكل كل محافظة دائرة انتخابية. بينما كان يشكل في الماضي كل قضاء دائرة. اتخذ القرار آنذاك لاعتبارات هامة. الدوائر الصغيرة كانت تسيطر عليها طوائف معينة، الأمر الذي يفرض ويثبت ثقافة طائفية واحدة. اما الدوائر الانتخابية الكبرى، - وهذا ما كان يتمناه النواب في الطائف - ستفرض تحالفاً واسعاً وقوى بين الطوائف، وبالتالي ستسهل للسياسيين الاهتمام ليس فقط بالطائفة التي يمثلونها فحسب، بل ايضاً بالطوائف الاخرى.

ولكن قانون الانتخاب الجديد لم يقرر الدائرة الصغيرة ولا الدائرة الكبيرة، بل نظاماً خليطاً: دوائر كبيرة في بيروت وشمال لبنان وجنوبه على أساس المحافظة، ودوائر صغيرة في البقاع وجبل لبنان على أساس القضاء. في بيروت يشكل المسلمون أكثرية ضعيفة من المقترعين، وفي الجنوب أكثرية قوية، وفي الشمال، نوعاً من التوازن مع المسيحيين. اما في جبل لبنان، فيشكل المسيحيون أكثرية قوية. ففي حال اقرار هذه المحافظة دائرة انتخابية واحدة، يستطيعون فرض النواب المسلمين في هذه الدائرة. لذلك استبعد هذا الأمر عبر تقسيم هذه المحافظة الى ست دوائر انتخابية صغيرة. حصل ذلك كي لا يبقى وليد جنبلاط في دائرة الشوف مرتبطاً بأصوات الأكثرية المسيحية القوية، وبالتالي للحد من اضعاف تأثير هذه الأكثرية. وكذلك قسمت محافظة البقاع الى ثلاث دوائر انتخابية، تتوافق كل منها مع قوة احد السياسيين النافذين في الجمهورية الثانية: قضاء زحلة للرئيس هراوي،

٨- نشرت وزارة الداخلية احصاءات عن عملية الانتخابات. راجع جريدة "السفير"، ٣٠ نيسان ١٩٩٢. ولكن تبين ان عدد الناخبين العلويين المسجلين يبلغ ١٤٣٧٩، وقد خُصصَ لهم مقعدان. اما الأقليات الأخرى، اي البروتستانت، والسريان الارثوذكس، واللاتين، والكلدان، واليهود، البالغ عدد ناخبهم المسجلين ٢٦٢٥٠، فلم يخصص لهم إلا مقعد نيابي واحد.

قضاء بعلبك-الهرمل لرئيس مجلس النواب، حسين الحسيني، وقضاء البقاع الغربي - راشيا لوزير الداخلية، سامي الخطيب.

كان الهدف من هذا التوزيع الجديد واضحاً. لم يتجاوب إطلاقاً مع تعزيز التمثيل المحلي كما كان الحال في نظام الدوائر الانتخابية السابق، ولا مع تعزيز التحالفات بين الطوائف، وتفضيل السياسيين المعتدلين، كما كان مقررراً في الطائف. ولكن فصلت الدوائر الانتخابية الكبيرة والصغيرة فقط لتعزيز مواقع المرشحين المؤيدين لسوريا والشخصيات النافذة في الجمهورية الثانية حيث يشكل خصومهم خطراً عليهم.

كان وراء كل الاعتبارات السلبية والإيجابية لهذا النظام هدف سياسي. فتأثير التوزيع الجغرافي للمقاعد النيابية الإضافية وتقسيم الدوائر الانتخابية أسفرا عن اختلال كبير في التوازن بين لبنان المسيحي ولبنان المسلم.

لقد أشير سابقاً الى ان نظام توزيع المقاعد النيابية السابق والذي كان قائماً وفقاً لقاعدة ستة مقاعد للمسيحيين مقابل خمسة مقاعد للمسلمين، كان مرده الى ان أكثرية النواب المسيحيين كانوا يفرضون من قبل الناخبين المسلمين وليس العكس. اما المساواة الجديدة في المقاعد بين المسيحيين والمسلمين، فقد قضيت عليها عملياً في قانون الانتخابات الجديد، الذي يفرض انتخاب عدد اكبر من السابق من النواب المسيحيين من قبل الناخبين المسلمين، بينما لا ينتخب الا عدد قليل جداً من النواب المسلمين من قبل الناخبين المسيحيين.

وهكذا لم يعد بوسع النواب المسيحيين الذين يعتمدون في انتخابهم على أكثرية الناخبين المسيحيين، وفقاً لقانون الانتخابات الجديد، حتى تشكيل أقلية تتألف من ثلث اعضاء المجلس، كي تتمكن من نقض او معارضة اي قرار. فبدلاً من المساواة التي استهدفت في الطائف، فرضت في الواقع سيطرة اسلامية واضحة في مجلس النواب.

ان اية مشاركة مسيحية مكثفة في الانتخابات لم يكن بإمكانها تغيير شيء. وهذه المشاركة بالذات جرى القضاء عليها في بعض بنود قانون الانتخابات الجديد. فالإتفاق الذي تم في الطائف حول عودة اللاجئين والمهجرين الى ديارهم لم ينفذ، الأمر الذي حال دون تمكن حوالي ثلث الناخبين من التوجه الى صناديق الاقتراع في مناطقهم. لقد خصصت في بيروت مراكز اقتراع لمهجري الشوف وعاليه، ولكن لم تخصص مراكز اقتراع للاجئين من الشمال اي من بشري وعكار، ولا من البقاع والجنوب.

فضلاً عن ذلك، لم يلحظ القانون الجديد اي حق بالاقتراع للبنانيين الموجودين في

الخارج، خاصة انهم يشكلون ثلث عدد الناخبين تقريباً. فعام ١٩٩٢ بلغ عدد الناخبين حوالي ٢,٤ مليون تقريباً، توزعوا بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين^٩. فحسب التقديرات المختلفة^{١٠} كان يقيم في لبنان ٢,٣ مليون لبناني، يحق لقسم منهم فقط الاقتراع. كما ان هذا العدد يتألف من ١,٣ مليون مسلم ومليون مسيحي تقريباً. وخلال سنوات الحرب الأخيرة، وليس فقط بفعل "حرب التحرير" التي اعلنها العماد عون، ارتفع عدد المسيحيين الذين بحثوا عن ملجأ وعمل في الخارج، ولكنهم احتفظوا بمكان سكنهم الرئيسي في لبنان، كما كان يحق لهم المشاركة في الاقتراع.

اما سبب حرمان لبنانيي الخارج من حق الاقتراع، فقد يكون ايضاً سياسياً أكثر منه طائفياً. في الخارج يوجد عدد كبير من انصار العماد عون، ويستطيعون التعبير عن رأيهم في وسائل الإعلام. ولكن الحكومة لم تجد اية مصلحة لها في اشتراكهم في الانتخابات. لم يتخذ اي قرار الا وفقاً للمصالح السياسية. فحرمان اللبنانيين الموجودين في الخارج من حقهم بالاقتراع زاد في اخلال التوازن بين المسلمين والمسيحيين أكثر من توزيع المقاعد وتقسيم الدوائر الانتخابية.

هكذا اتضح تماماً ان قانون الانتخابات الجديد شكل انقلاباً على اتفاق الطائف. لقد جرى وضعه بدرجة أولى لاستخدامه كوسيلة للحفاظ على توجهات السياسة السورية وتثبيتها في لبنان، ولكن تأثيره عمق هوة الخلل الحاصل في التوازن بين المسلمين والمسيحيين.

هذا ما ادركه الجميع في لبنان، حتى الاوساط التي تعتبر من اصدقاء الحكم ومن المؤيدين لكل تعاون مع سوريا. لذلك استقال احتجاجاً على ذلك وزير الخارجية، وهو صهر رئيس الجمهورية. ولم تعترض عليه فقط الاحزاب المسيحية، مثل حزب الوطنيين الاحرار، والكتلة الوطنية، والكتائب، والقوات اللبنانية فحسب، بل ايضاً عدد كبير من النواب المستقلين، بما فيهم نواب مسلمون. فسلم الحصص مثلاً اعلن ان الوحدة الوطنية هي أهم من انتخابات جديدة.

اما أهم ناطق باسم المعارضة فكان البطريرك الماروني الذي دعمه مجلس أساقفته. رفض اجراء الانتخابات طالما لم تنفذ عودة المهجرين، ولم يلحظ حق الاقتراع اللبنانيي الخارج، ولم ينته الاحتلال. في الثالث والعشرين من تموز حصل اضراب عام ضد الانتخابات، شاركت فيه كل مناطق البلاد التي ترابض فيها قوات

٩- "السفير"، ٣٠ نيسان ١٩٩٢. هؤلاء هم اللبنانيون المقيمون في لبنان. ولم تضمّ السجلات اللبنانيين المقيمين خارج لبنان.

١٠- هذه هي تقديرات مؤسسة الإغاثة السعودية ومؤسسة الحريري، وجامعة "لافال" (Laval)، وجامعة القديس يوسف راجع هنا: Salma Hussein, Redistribution de la population du Liban pendant la guerre civile

(1975-1988), Thèse, EHESS, Paris 1992

سورية.

ولكن الحكومة لم تأبه إطلاقاً لمواقف واحتجاجات المعارضة. ركزت اهتمامها على تشكيل "لوائح انتخابية موالية لها" في كل الدوائر. فجرى دعم هذه اللوائح بطريقة شبه واضحة من قبل ممثلي السلطة السورية. فتكفل دعمها بالنجاح. في دائرة الجنوب شكل نبيه برّي تحالفاً واسعاً، لم يضم ممثلين عن حركة أمل فحسب، بل ممثلين عن حزب الله، والشبيوعيين، والحزب القومي السوري، وأسر الأعيان الشيعية والمسيحية القديمة أيضاً. كذلك ضمت لأتحته شقيقة رفيق الحريري ممثلة لارستقراطية المال الحديثة. مقابل هذا التحالف، تشكلت لائحة معارضة برئاسة كامل الأسعد الذي كان يحظى بتأييد واسع في منطقة الحزام الأمني. وهكذا تبين في الجنوب ان الناخبين كانوا مستعدين للمشاركة في الاقتراع.

والوضع في لبنان الشمالي كان مماثلاً للوضع في الجنوب. هنا تألفت لائحة من العائلات السياسية التقليدية في طرابلس وزغرتا، ضمت إليها ممثلين عن الحركة الاسلامية السنية وممثلين عن العلويين.

ترأس لائحة الحكومة في البقاع الغربي وزير الداخلية، سامي الخطيب، وفي زحلة نجل رئيس الجمهورية، وفي بعلبك الهرمل حسين الحسيني، حيث شكل حزب الله لائحة معارضة.

ولكن الوضع في بيروت كان صعباً بالنسبة للقوى الموالية للحكومة. هنا ترأس رشيد الصلح لائحة، كما ألف أيضاً سليم الحص لائحة أخرى، بعد لقاء طويل اجراه مع نائب الرئيس السوري، عبد الحليم خدام. ولكن صائب سلام وولده تمام رفضا ترشيح انفسهما.

في دائرتي الشوف وعاليه مثل جنبلاط والحزب التقدمي الاشتراكي لائحة الحكومة. اما في باقي دوائر جبل لبنان الانتخابية فواجهت الحكومة صعوبات كبيرة في ايجاد مرشحين موالين لها. لذلك اضطرت الى الاعتماد على انصار الحزب القومي السوري وابلي حبيقه الذين لم يكونوا في حال يسمح لهم بالحصول على اكثرية اصوات المقترعين.

المعارضة من جهتها لم تقم باية حملة انتخابية، ولكنها دعت الى مقاطعة الانتخابات. فنظرا لعدم تمكنها، في اطار قانون الانتخابات الجديد، من الاعتماد على احرار اي نصر، ولا حتى على تكوين اية اقلية تستطيع نقض القرارات في مجلس النواب، سعت الى تحويل الانتخابات الى عملية استفتاء ضد الانتخابات.

لم تقدم الاحزاب المسيحية اي مرشح عنها. حتى حزب الكتائب الذي كان متردداً

في البداية، اتخذ في النهاية قرار المقاطعة بعد زيارة أمين الجميل القصيرة الى لبنان. وكذلك الزعماء المستقلون القياديون للطوائف المسيحية في جبل لبنان امتنعوا ايضا عن ترشيح انفسهم. وفي دائرة كسروان لم يتقدم الا مرشح واحد للمقاعد النيابية الخمسة.

حتى قبل بدء الحملة الانتخابية كان متوقعا ان لا تؤدي الانتخابات الى نتائج تمثيلية صحيحة. ولكن صحة تمثيلها ارتبطت بنجاح او بفشل مقاطعتها.

١٢ - انتخابات اقلية من المقترعين

كان من المألوف في لبنان حصول تجاوزات او مخالفات قانونية كبيرة او صغيرة في الانتخابات التشريعية. الاموات كانوا يقترعون. السلطات كانت تتدخل لصالح هذا او ذاك. الأصوات كانت تُشْرَى وتباع. ويقطع النظر عن التجاوزات الخطيرة التي حصلت في انتخابات عام ١٩٤٨، بقيت هذه المخالفات محدودة نوعاً. كانت الحملات الانتخابية تحصل بحرية تامة، وعمليات الاقتراع في الصناديق كانت تجري بسرية. ومراقبو اقليم الاقتراع كانوا من الموظفين المدنيين. كانت النتائج تعلن بكل تفاصيلها، كما كان يمكن الطعن بها، حتى وان لم يؤد ذلك الى الغائها. ولكن انتخابات عام ١٩٩٢ تخطت كل هذه التجاوزات وذهبت الى ابعد من ذلك^{١١}.

كانت المهلة التي لحظت للحملة الانتخابية قصيرة للغاية. مرشحو المعارضة جرت معاكستهم ومطاردتهم اثناء الحملة الانتخابية. عندما قرّر كامل الأسعد اجراء مهرجان انتخابي في تبنين، اغلقت الطرقات لمنع انصاره من المشاركة فيه. ورغم ذلك، شارك في هذا المهرجان حوالي عشرين الف نسمة. على اثر ذلك جرى خطف احد معاونيه، المحامي نبيه خوري. ورغم اضراب نقابة المحامين لم يطلق سراحه. كذلك اعتقل دون محاكمة عدد كبير من الشباب المؤيدين للعماد عون، لأنهم طالبوا بمقاطعة الانتخابات.

سجلات اسماء المقترعين لم يجر تصحيحها او تجديدها. شهادة اخراج القيد الشخصي كانت كافية لاعطاء حاملها حق الاقتراع. بهذه الطريقة ادليت اصوات عديدة في صناديق الاقتراع^{١٢}.

١١- راجع في هذا الصدد Joseph MALLA, Liban: Des élections sous influence, In: Les Cahiers de l'Orient, 4 (1992)28, p.35-49.

١٢- أكدت طالبة في علم الاجتماع للمؤلف ان عشرة أشخاص استخدموا "إخراج قيدها" ليصوتوا في احدى دوائر البقاع الانتخابية.

أما مكاتب الاقتراع فلم يُشرف عليها غالباً بالطرق القانونية. في دائرة البقاع الغربي مثلاً، قام موظفو وزارة الداخلية بالإشراف عليها، حيث كان وزير الداخلية بالذات مرشحاً عنها. أحياناً كثيرة فقدت صناديق الاقتراع، كما دامت عملية احصاء أصوات المقترعين اسبوعاً تقريباً في دوائر البقاع ولبنان الشمالي. وحتى نهاية عام ١٩٩٢ لم تكن بعدُ قد نشرت رسمياً نتائج الانتخابات النهائية.

وبما أن المغزى السياسي كان يتعلق بمستوى المشاركة في الاقتراع، سمحت السلطات الرسمية لنفسها بإعطاء نتائج تعتمد على تقديرات عالية بدلاً من التقديرات المنخفضة الواقعية^{١٣}.

بلغت أعلى نسبة للمشاركين في الاقتراع ٤٠٪ في شمال البقاع وفي الجنوب، ولكن لم تشكل إلا ثلث نسبة المشاركين في انتخابات عام ١٩٧٢. في بيروت الكبرى وطرابلس، بلغت نسبة المشاركة ١٠،١٪ و ١٥٪، بالمقارنة مع نسبة ٢،٤٧٪ و ٥٩،٦٪ عام ١٩٧٢. أما أدنى نسبة مشاركة فقد جاءت في دوائر الجبل ذات الأثرية المارونية. في جبيل مثلاً، حصلت المرشحة، مهي أسعد على نسبة ٠،٥٪، وتمكنت من دخول المجلس النيابي ب ٤١ صوتاً. في كسروان، حيث أرجئت عملية الانتخاب، لعدم تقدم مرشحين في هذه الدائرة، إلى شهر تشرين الأول، شارك ٢٠،٩٪ في عملية الاقتراع مقابل ٥٧٪ عام ١٩٧٢. وعلى مستوى البلاد ككل، بقيت نسبة المشاركة في الانتخابات أدنى من ٢٠٪.

حتى إذا اعتبرنا أن ثلث عدد الناخبين لم يتمكن من المشاركة في الاقتراع بسبب وجودهم في الخارج، وأن الأمر كان يتعلق فقط بالناخبين الموجودين في البلاد، فإن نسبة المشاركة في الانتخابات لم تتجاوز ثلث الناخبين، بالمقارنة مع مشاركة ٦٠٪ من الناخبين في الانتخابات السابقة.

لذلك ليس من شك في أن مقاطعة الانتخابات شكلت نجاحاً خارقاً، وجاءت استفتاءً جلياً ضد قانون الانتخابات، وضد الانتخابات في ظل الأوضاع السائدة.

ولكن إذا كانت المعارضة قد اعتقدت بإمكانية التوصل إلى إلغاء الانتخابات، فإنها تكون ضعيفة الإدراك للموقف الحازم، وحتى أيضاً، لوقاحة قادة الجمهورية الثانية وأسيادهم في دمشق.

قد يكون مجلس النواب المنتخب المجلس الأقل تمثيلاً للشعب في تاريخ لبنان، وقد تنقصه الشرعية الديمقراطية، ولكن لا يمكن الطعن بقانونيته. فإجراء انتخابات

١٣- نشرت جريدة "لوريون-لوجور" نتائج الانتخابات. ويعدّ "مركز الدراسات السياسية في بيروت" دراسة مفصلة أيضاً عن هذه النتائج.

مزورة تحصل في عدة أنظمة سياسية. ورغم ذلك، تعتبر ديمقراطية^{١٤}.

اما النتيجة المباشرة لقانون الانتخاب الجديد ولمقاطعة الانتخابات فقد انعكست على تكوين المجلس الجديد. التغيير الأقل حصل في التمثيل النيابي في لبنان الشمالي، حيث فازت "لائحة الحكومة" بكل المقاعد. ضمت تلك اللائحة عمر كرامي وثمانية من انصاره، من بينهم ممثلي الأسر السياسية المارونية في زغرتا. اما النواب الجدد الذين فازوا على هذه اللائحة، فاحدهم يمثل حركة الاسلاميين السنة، واخران الطائفة العلوية.

في المقابل حصل تغيير أساسي في تمثيل لبنان الجنوبي. فانتصار كامل الأسعد من منطقة "الحزام الأمني" لم يتمكنوا من المشاركة في عملية الاقتراع، لأن اسرائيل أغلقت المعابر يوم الانتخاب. وبذلك تسهل فوز "لائحة الحكومة" التي تزعمها نبيه بري. بلغت نسبة المشاركة في الاقتراع ٣٧٪ في منطقة الجنوب^{١٥}، ولكنها لم تتجاوز ٥٪ في القرى المسيحية التابعة لقضاء جزين. وفي صيدا جرى انتخاب مصطفى سعد من قبل السكان السنة، رغم انه لم ينضم الى لائحة نبيه بري. الا ان هذا الأخير اعتبر فوز لائحته "انتصارا على اربع مائة سنة من الاقطاعية".

في دائرة البقاع الغربي-راشيا، فازت، كما كان متوقعا، لائحة وزير الداخلية سامي الخطيب. ولكن في دائرة بعلبك-الهرمل حصلت مفاجأة كبيرة، بفعل فوز لائحة حزب الله على لائحة رئيس مجلس النواب، حسين الحسيني. تمكن هذا الأخير من الفوز بمقعه عن الشيعة، لأن لائحة حزب الله كان ينقصها مرشح واحد عن هذه الطائفة. امتنع الحسيني كثيرا من هذه النتيجة، فتحدثت عن عملية تزوير للانتخابات وعلن استقالته. ولكن لم يستبعد قط ان يكون حزب الله قد اغتم الفرص السانحة للتزوير، لأن عددا كبيرا من مراكز الاقتراع كانت خالية من مراقبين رسميين، الأمر الذي سمح لممثلين عن هذا الحزب بالإشراف عليها. ولكن عددا لا بأس به من المراقبين كانوا مقتنعين بان هذه المنظمة الأصولية الاسلامية اكتسبت كثيرا من التعاطف والتأييد الشعبي بفعل الخدمات الاجتماعية والمساعدات التي تقدمها للناس بقطع النظر عن مواقفهم العقائدية، في الوقت الذي كان فيه الحسيني منشغلا بمعارك السلطة والنفوذ في بيروت أكثر من اهتمامه بحاجات ومشاكل دائرته الانتخابية. وما يشير ايضا الى تفوق حزب الله هو ان اعلى نسبة مشاركة في الاقتراع حصلت في هذه الدائرة الانتخابية، وبلغت ٤٠٪.

١٤- صدر احتجاج من قبل البرلمان الاوروبي، وعن المرشح الديمقراطي للانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، بيل كلينتون، الذي وصف الانتخابات اللبنانية بأنها "غير حرة وغير نظيفة".

١٥- لا بد من الإشارة الى ان ٣٧٪ هي نسبة عالية نسبيا بالمقارنة مع نسبة المقترعين عام ١٩٧٢ التي بلغت ٦٠٪.

وفي زحلة حصلت أيضاً مفاجئات. في هذه الدائرة التي كان يترشح فيها سابقاً رئيس الجمهورية، ادلى ٣١٪ فقط من الناخبين باصواتهم في صناديق الاقتراع. وهنا فشل نجل الرئيس، وهذا مؤشر واضح ابرزه الناخبون الذين رفضوا تأييد "لائحة الحكومة" بكامل اعضائها. حتى المرشح، محسن دلول، المعروف بعلاقاته الوثيقة مع سوريا، جرى انتخابه بصعوبة كلية. اما الذي نال اكبر عدد من اصوات المقترعين، فكان ايلي سكاف، الذي برز كمعارض للسياسة السورية في لبنان.

وفي بيروت أسفر عدم ترشيح آل سلام والسياسيين الموارنة والارثونكس عن مشاركة ضئيلة جداً في الاقتراع. نالت معظم الأصوات لائحة سليم الحص. ولم يفز رئيس الوزراء، رشيد الصلح، الا بصعوبة كلية. وقد فاز بالمقعد الماروني مرشح عن الحزب القومي السوري.

اما في دائرتي الشوف وعاليه، فلم يفز من اللائحة المعارضة الا الأمير فيصل ارسلان فقط، وهو زعيم ثاني أكبر أسرة سياسية عند الدروز. وتجدر الإشارة الى ان اعلى نسبة مشاركة في الاقتراع في جبل لبنان، حصلت في دائرة الشوف، حيث اقترح كل الدروز والسنة، بينما بقي المسيحيون في منازلهم.

وفي دائرة بعبداء، لم يقترح الا ١٢٪ من مجموع الناخبين. فاز المرشحون المؤيدون لسوريا بالمقاعد المارونية بنسبة ٣٪ من الأصوات، ومن بينهم ايلي حبيقة.

في دائرة المتن، انتُخب نواب مستقلون ولكنهم من انصار الحكومة، مثل نسيب لحود، واوغست باخوس، وميشال المر، المقرّب من سوريا، وذلك من قبل ١٤٪ من الناخبين.

بالنسبة لدائرة جبيل، أشير إليها سابقاً. اما دائرة كسروان حيث جرت انتخابات لاحقة، فقد فازت لائحة وزير الخارجية، فارس بوز، الذي اعلن عن ترشيحه وتأليف لائحة، بهدف ابعاد مرشحين من انصار ايلي حبيقة او الحزب القومي السوري عن المنطقة.

وبالإجمال، حصل تبدل واضح في بنية المجلس الجديد. فهو يضم ما لا يقل عن ١٩ نائباً يمكن اعتبارهم من زبائن سوريا المباشرين، من بينهم سامي الخطيب، ايلي حبيقة، ميشال المر، ونواب الحزب القومي السوري وحزب البعث. اما الكتلة البرلمانية الأكثر تجانساً، فهي كتلة نبيه بري وتضم ١٧ نائباً، وكتلة حزب الله وتضم ١٤ نائباً، يضاف إليها نائبان عن الحركة الاسلامية. ويبلغ عدد النواب الموالين لهراري ١١، وسليم الحص ١٠، ووليد جنبلاط ١٠، وعمر كرامي ٩، وسليمان فرنجيه ٦.

في السياسة الداخلية، أدت نتائج الانتخابات الى تغييرين بارزين. الأول، التغيير الراديكالي في التمثيل الشيعي. فقد حلّ مكان الأعيان التقليديين انصار حركة أمل وحزب الله، الذين بفعل الارتفاع النسبي في عدد المشاركين في الإقتراع لهم في المناطق الشيعية، وبمعكس ما حصل مع باقي النواب، اكتسبوا نوعاً من الشرعية. التغيير الثاني يتمثل في الغياب التام لممثلي أهم التيارات السياسية للبنان المسيحي، وذلك نتيجة لقانون الانتخاب وللمقاطعة. فميشال عون، وأمين الجميل، وريمون إده، ودوري شمعون، ليسوا في المجلس، بل في المنفى. وباستثناء كتلة نواب زغرتا، فإن أهم القوى السياسية المسيحية تجد نفسها اليوم في صفوف معارضة غير برلمانية. بالرغم من ذلك، يضمّ مجلس النواب نصف أعضائه من المسيحيين، ولكنهم لا يمثلون الا أقلّيات من السكان المسيحيين، كما دلت على ذلك بنوع خاص نسبة المقترعين المتدنية في أهم المناطق المسيحية.

في المجلس الجديد برز بكثافة تأثير سوريا على أعضائه. النواب السابقون الذين انتخبوا عام ١٩٧٢ كانوا بأكثريةهم معتدلين، ولكنهم كانوا يدفعون بحزم عن استقلال لبنان دون تحفظ. وافقوا على تعاون وثيق مع سوريا بحكم الضرورة وليس بحكم الرغبة بذلك. اما تعيين النواب عام ١٩٩١ لملء المقاعد النيابية الشاغرة، فاسهم في ادخال اول دفعة من مؤيدي السياسة السورية دون تحفظ الى مجلس النواب. ولكن انتخابات عام ١٩٩٢ زادت هذا العدد كثيراً. فالنواب الذين كانوا تقليدياً يؤيدون التعاون الوثيق مع سوريا يشكلون اليوم مع النواب المقتنعين بذلك، أكثرية كبيرة. وبذلك امتلكت سوريا قاعدة شرعية لسياستها في لبنان.

بالاختصار، كشفت انتخابات ١٩٩٢ عن انتصار ممثلي التيارات الشيعية المناضلة، وعن الفشل الفعلي للمسيحيين. ولكن المنتصر الحقيقي هو سوريا.

اما التوازن اللبناني الداخلي، الذي كان أساساً لاتفاق الطائف، فقد تعرّض لضربة قاضية بفعل قانون الانتخاب الجديد ونتيجة الانتخابات. فالتبعية لسوريا، التي قبل بها جزئياً في الطائف، زادت وكبر حجمها كثيراً بسبب انتهاكات هذا الاتفاق، وجرى تثبيتها في صميم النظام السياسي اللبناني. فتمن نهاية الحرب واعادة بناء الدولة ارتفع لاحقاً بشكل رهيب جداً.

١٣ - تطوّر نحو التبعية

في نهاية تشرين الأول ١٩٩٢ شكّلت حكومة جديدة. لم تأت كسابقاتها صورة مصغرة عن مجلس النواب، بل اعتبرت محاولة وشكلاً جديداً للتوازن مع هذا المجلس، بهدف التوفيق والمصالحة بين الذين قاطعوا الانتخابات والدولة.

رئيس الحكومة الجديد هو رفيق الحريري، المعروف كملياردار ومحسن كبير. يحمل الجنسيتين اللبنانية والسعودية. ولكنه ليس نائباً. ضم إلى حكومته عدداً من غير البرلمانيين، معظمهم من رجال الأعمال الناجحين والتكنوقراط البارزين. ركز في برنامج حكومته على مسائل إعادة البناء والنهوض الاقتصادي، أي تجديد البنى التحتية، والإصلاح الإداري، وتحديث قطاع التعليم، والتنمية الزراعية، وتنظيم المدن، وخاصة تعزيز قطاع الاستخدام.

أعادت شخصية رئيس الحكومة ومعاونه الثقة إلى اللبنانيين. في يوم تعيينه كان سعر الدولار يساوي في بيروت ٢٢٠٠ ل.ل. وبعد حصول حكومته على ثقة مجلس النواب، أسبوعين بعد تعيينه، انخفض سعر الدولار إلى ١٩٠٠ ل.ل. في الواقع شعر أخيراً عدد كبير من اللبنانيين بأن هذه الحكومة ستعمل للنهوض بالحركة الاقتصادية التي طال انتظارها.

أثار تشكيل الحكومة الجديدة نوعاً من التفاؤل، نظراً لتسهيل الانفتاح والاتصالات غير الحكومية بين مختلف الفئات السياسية. فقد حصل لقاء بين حزب الله وحزب الكتائب، كما التقى سمير جعجع مع إيلي حبيقة. كذلك دعا وليد جنبلاط المسيحيين والقوات اللبنانية للعودة إلى ديارهم في منطقة الشوف.

رغم ذلك، كانت عودة الرساميل إلى البلاد بطيئة جداً. لبنانيو الخارج هم أصحابها. ولكنهم تعلموا من الأحداث السابقة التريث والانتظار للتأكد من الوقائع. فتأليف حكومة فقط، تعتبر ذات جدارة وموضوع ثقة وتقدير أكثر من سابقتها، لم يكن كافياً لإزالة أحد العوائق الرئيسية للاستثمار.

في جنوب لبنان استمر مسلسل العنف عبر عمليات حزب الله العسكرية وردّات الفعل الانتقامية من جانب إسرائيل. وكذلك بقي تطبيق القانون في باقي أنحاء البلاد هشاً. كما تواصلت عمليات اعتقال عناصر من القوات اللبنانية، وخاصة من انصار العماد عون^{١٦}، كما أحيل إلى القضاء العسكري الشباب الذين كانوا يوزعون منشairs.

وفي حكومة الحريري أسندت الوزارات التي تشرف على أجهزة النفوذ والقوة في الدولة، إلى أقرب واصدق المتعاونين مع سوريا^{١٧}. كذلك تعهد رفيق الحريري

١٦- في كانون الأول ١٩٩٢ نشرت منظمة العفو الدولية في تقريرها الشهري، أن حوالي مئتي شخص من انصار العماد عون جرى اعتقالهم خلال الأشهر الماضية، وعُبرت عن قلقها بسبب الأنباء الواردة عن عمليات التعذيب التي يتعرضون لها.

١٧- عُيّن مكان سامي الخطيب الذي برز كمسؤول رئيسي عن الانتخابات، بشارة مرهج، وزيراً للداخلية. كان مرهج سابقاً عضواً في حزب البعث المؤيد للعراق، ولكنه يُدّعى سورياً فيما بعد. كذلك عُيّن وزيراً للدفاع، محسن دلول، الذي فاز بصعوبة كئائب عن زحلة، ولكنه يتمتع بثقة حكاه دمشق.

في بيانه الحكومي باحترام معاهدة الأخوة السورية-اللبنانية، وشدد على ان العلاقات بين سوريا ولبنان هي قضية خاصة تتعلق بهاتين الدولتين، مشيراً بذلك الى رفض كل وساطة عربية او دولية ممكنة.

ومن جانب آخر، يرتبط الحريري نفسه بعلاقات ممتازة مع المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الامريكية، ويتمتع بتأييدهما. ولكن من الصعب جداً ان يكون لهذا التأييد اي تأثير على تبعية بلاده الى سوريا.

لقد اتضح من كيفية تشكيل حكومته انه أعطي حرية واستقلالية كافية للاهتمام بالشأن الاقتصادي فقط، وليس بالمسائل الرئيسية المتعلقة بالسلطة والعلاقات السورية-اللبنانية. فمن مصلحة سوريا بالذات ان يحصل تحسن في الوضعين الاقتصادي والاجتماعي في لبنان، أقله لاستبعاد تكرار انتفاضة شعبية كما حصل قبل عام. فنجاح الحكومة في هذا المجال، يستفيد منه الجميع. ولكن بالمقابل لم تطلق يد رئيس الحكومة في الشأن السياسي. اذا، الحكومة تستطيع فقط العمل على انماء القطاعات الاقتصادية في إطار التبعية السياسية والعسكرية.

وسرعان ما عُبر له بوضوح عن هذه الشروط. فبعد حصوله على ثقة مجلس النواب بأكثرية ساحقة في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٢، قام هذا المجلس بالذات برفض الموافقة على الاجراءات الاصلاحية التي قررتها الحكومة. فلم يُسمح له باصدار مراسيم حكومية خلال فترة محدودة من الزمن ولا برفع الحصانة عن موظفي الدولة، كخطوة لا مفر منها لتحقيق الإصلاح الاداري. الحريري يمتلك ثروة طائلة تسمح له بان يكون مستقلاً تماماً. فهو لا يعيش من الدولة، ولكنه ينفق من ثروته الخاصة لتغطية الإنفاق العام. وهذا ما يسمح له بتجاهل النواب الطامحين الى مقاعد وزارية، الأمر الذي كان يهدد في الماضي الحكومات المؤلفة من غير البرلمانيين.

اما من جانب المعارضة غير البرلمانية فلم يتوقع الحريري الاً قليلاً من الدعم. لقد برهنت هذه المعارضة عن قوتها العددية عبر مقاطعة الانتخابات، ولكنها لم تكن بعد ذلك في وضع يسمح لها بالتعبير عن هذه القوة. فبعد فشل محاولاتها لالغاء الانتخابات، وحرمانها من استخدام مجلس النواب كمئبر للتعبير عن موافقتها، تفككت اكثر مما كانت سابقاً^{١٨}.

تجلى عجزها الفعلي بوضوح، عندما أخذت سوريا وحلفاؤها اللبنانيون يركزون على مطلب يشل تماماً الفريق المسيحي المعارض، اي الغاء "الطائفية السياسية". وهذا يعني اجراء الانتخابات النيابية القادمة دون اعتماد المساواة العددية بين

١٨ - اندلع في حزب الكتائب صراع حول السلطة بين التيار المدني برئاسة جورج سعادة وكريم بقرادوني، وبين سمير جعجع، قائد القوات اللبنانية.

المسيحيين والمسلمين وأخذ مقياس النسب بعين الاعتبار.

لقد لُحِظَ هذا الموضوع في المادة ٩٥ من الدستور الجديد، دون تحديد زمني له. ولكن نبيه برّي، رئيس المجلس النيابي الجديد عبّر في خطابه في ٢٥ تشرين الأول ١٩٩٢ عن أمله بأن يكون هذا المجلس آخر مجلس ينتخب على أساس طائفي. وقد تبنى حزب الله بعد ذلك مطلب إلغاء الطائفية. وبعد مرور شهر، أعلن نائب الرئيس السوري، عبد الحليم خدام، عن إمكانية انسحاب جزئي للقوات السورية عندما تلغى الطائفية في لبنان. وبعد عشرة أيام عقدت قمة سورية - لبنانية في دمشق، صدر على أثرها بيان مشترك لم يتطرق إطلاقاً إلى أي انسحاب سوري، كان مقرراً تنفيذه في أيلول ١٩٩٢ وفقاً لما نصّ عليه اتفاق الطائف. وفي الثامن من كانون الأول أعلن الرئيس هراوي عن أن إلغاء الطائفية لن يحصل إلا بالتوافق فقط وفي إطار اتفاق الطائف والدستور.

هكذا جرى ابتداء شرط تعجيزي جديد، يشكل بحد ذاته طعنة صارخة لاتفاق الطائف، ولكنه سيف ذو حدين. فإما انسحاب سوري جزئي فقط بعد إلغاء نظام النسبة والمساواة، وإما، إذا كان هناك تخوف من هذا الإلغاء، كما هو حال أكثرية المسيحيين اللبنانيين، الامتناع عن المطالبة بانسحاب القوات السورية.

هذا التخيير بين أمرين دعم وظيفة الحكم التي تمارسها سوريا في لبنان وثبتت تبعية هذا البلد لها أكثر من أي وقت مضى.

الفصل الحادي عشر

انبعاث أمة

خاتمة وتوقعات

"التطرف الذي حصل اثناء المعارك زاد في التباعد بين الطوائف، وبلغ الحد مستويات لم تكن معروفة منذ قرن على الاقل... العقد الاخير من العنف الكريه اضعف كثيرا التسامح الذي هو شرط أساسي للتعددية".
بول ا. جريد يني ورد. لوران، ١٩٨٤

"لقد جاء الى هنا مرة عدد كبير من الرجال،
ارادوا التحدث مع العساكر.
ولكن هؤلاء استخدموا لغة البنادق.
ولم يستطع الرجال النطق بأي كلام".

برتولد براشت

"الحماية: نظام قانوني يضع دولة في تبعية دولة أخرى، فيما يتعلق خاصة بالسياسة الخارجية وسياسة الدفاع".
لاروس، قاموس الفرنسية المعاصرة

"لماذا تحظى التكهنات السلبية بانتشار واسع؟ انه لمن السهل جدا التكهن بأمر
كثير إذا ما بدت الأمور سيئة".
كلرل و. د ويتش

"تتألف الامة من عدد من الناس، يتفقون على خطأ مشترك حول أصل مشترك، أو على رفض مشترك، ضد جار لهم".

مثل بوهيمي ذكره كارل و. دويتش

"Le lion et le chacal peuvent fort bien s'entendre pour chasser en commun, mais as-tu jamais vu un chacal recevoir les meilleurs morceaux du butin".

Mika WALTARI, Sinouhé l'Egyptien, 1975

قبل عقد من اندلاع الحرب، وصف "مايكل س. هدرسن" لبنان "بالامة العابرة". فهل يمكن بعد أكثر من ١٦ عاما من الحرب والحرب الاهلية، وصف اللبنانيين بعد، كأمة؟ الا تشير كل التجاوزات والنزاعات الداخلية التي مارستها كل المجموعات تقريبا، الى القبول بما قاله "جريديني" و"لوران"، بأن التسامح قد انعدم، وبدونه لا يمكن أن تقوم أية أمة في دولة تعددية؟ ولكن آراء ورغبات أكثرية اللبنانيين، كما عبّر عنها وكشفها نتائج التحقيقات، ابرزت تناقضا صارخا مع الواقع الزمني الطويل للأحداث اليومية، والتقسيم، والافقار، والموت. فهل من الممكن - كما يتوقع البحث الاجتماعي، وكما يُشككُ ايضا منذ فترة طويلة - ان تكون آراء ورغبات الأفراد شيئا ما، وتصرف المجموعات شيئا آخر؟ هل يتصرف اللبناني كفرد، مثل الدكتور "جاكيل"، بينما تتصرف مجموعات اللبنانيين مثل "المستر هايد"؟ الجواب واضح. ان الشعب اللبناني باغليته يريد السلام والتعايش والوحدة الوطنية. عبّر عن ذلك اللبنانيون ليس فقط على المستوى الفردي خلال المقابلات فحسب، بل ايضا خلال سنوات الحرب، عبر مؤشرات وتظاهرات جماهيرية كانت تحصل كلما سمحت الظروف بذلك.

١ - حركات السلام والوحدة

برزت مثل هذه الحركات لأول مرة في تشرين الثاني عام ١٩٧٥ عندما اطلق "شريف الاخوي"، المذيع التلفزيوني، نداء للقيام بمظاهرة شعبية تدعو الى وقف المعارك. آنذاك لَبَّى هذا النداء عفويا عشرات الآلاف من الناس من بيروت الغربية والشرقية. ولكن ما ان عاد المتظاهرون الى منازلهم حتى بدأت الميليشيات مجددا باطلاق النار. وكذلك مُنعت مظاهرات شعبية لاحقة من قبل المتحاربين الذين اطلقوا نيران مدفعيتهم قبل ساعات قليلة من الموعد المحدد للمظاهرات، الأمر الذي دفع

بالسكان الى البقاء في مساكنهم او الى الهروع الى الملاجئ. خلال الحصار الاسرائيلي لبيروت الغربية عام ١٩٨٢ استقبل حوالي مائة الف نسمة تقريبا في بيروت الشرقية دون النظر الى كونهم مسلمين او مسيحيين. وكذلك حصلت مظاهرات مذهلة للتعبير عن ارادة التأخي خلال الاستقبال الذي أعد في صيدا لاستقبال الرئيس أمين الجميل ورئيس الحكومة رشيد كرامي، عندما زارا المدينة على أثر انسحاب القوات الاسرائيلية منها.

الاحتجاجات الجماهيرية المنظمة ضد الحرب، وبغية اعادة توحيد البلاد، أخذت تنمو وتزداد بنوع خاص منذ عام ١٩٨٥. فقد قامت حركة "النساء ضد الحرب" بمسيرة احتجاج الى القصر الجمهوري والى مجلس النواب. وكذلك قام المعاقون على عكازاتهم وكراسيهم المتنقلة بمسيرة من طرابلس الى بيروت. واتحادات مهنية مختلفة أعلنت بوضوح لا لبس فيه، بأنها لا تعير أي اهتمام اطلاقا لمحاولة الميليشيات تقسيم صفوفها. في انتخابات نقابة المحامين اللبنانيين عام ١٩٨٨، حاول كل من حزب الكتائب وحركة أمل فرض انصارهم. ولكن لم يُنتخب احد منهم، بل فاز خصومهم الرافضون للحرب وللانقسام بين الطوائف. وبصورة مماثلة، جاءت نتائج انتخابات مكتب نقابة الاطباء، ففشل كل المرشحين المرتبطين او المؤيدين، او المواليين للميليشيات ولاطراف الحرب. اخيرا جرى الحؤول من قبل الميليشيات دون انتخاب هيئة مكتب لنقابة المهندسين، خوفا من الحصول على نتائج مماثلة.

ولكن الاحتجاج الشعبي الاكثر قوة ضد الحرب جاء من قبل النقابات العمالية. فالاتحاد العام للنقابات اللبنانية حافظ طيلة سنوات الحرب على تعاون ونظامه، متخطيا كل اعتبار طائفي. عام ١٩٨٨، كانت النقابات تضم خمسة وخمسين الف عضو، يدفعون بانتظام رسوم الانتساب، اي ان حوالي ربع مجموع الطبقة العمالية كان منظما نقابيا. وهذه الدرجة من التنظيم تماثل درجة تنظيم النقابات الاميركية والمكسيكية تقريبا.

يتألف الاتحاد العام العمالي من ١٦٥ نقابة، يمثل بعضها قطاعات صناعية معينة، بينما يمثل البعض الآخر قطاعات مهنية مختلفة، وبعضها لا علاقة له بالسياسة. ولكن البعض الآخر كان مسيسا كثيرا. لذلك تلاحظ بين النقابات اتجاهات شيوعية وكتائبية.

تنظمت النقابات القطاعية، مثل الاتحاد العمالي العام، وفقا للنظام التوافقي. تكونت الاطر الادارية العليا وفقا لمبدأ المساواة غير الرسمي والمرن بين المسيحيين والمسلمين. في الجمعية العامة لاتحاد النقابات تتمثل كل نقابة بذات العدد من المقاعد، وضمن احترام ايضا للنسبة السياسية. وتؤخذ كل القرارات الهامة وفقا لمبدأ

التوافق. حتى منتصف عقد الثمانينات تمحور الموضوع الرئيسي للنشاطات النقابية حول قضايا الاجور والاسعار، ومشاكل اوضاع العمل وقوانينه. بهذه الطريقة تمكن الاتحاد العمالي العام من ان يصبح احدى اهم المنظمات التمثيلية فعلا في البلاد. فالازمة الاقتصادية هي التي دفعت به للعمل بنشاط اكثر في الحقل السياسي.

بين ١٩٧٧ و ١٩٨٢ نجح في تحقيق زيادات في قيمة الاجور تتلاءم على الاقل مع نسبة التضخم. ولكن منذ بدء الازمة لم يعد بإمكانه فرض ذلك. الا أنه التزم بحزم وجديّة بمحاربة اسباب الازمة: أي الحرب وتقسيم الامر الواقع للبلاد.

في تموز عام ١٩٨٦، دعا لأول مرة الى اضراب عام، جرى تنفيذه في كل مناطق البلاد، رغم استياء ارباب السلطة والنفوذ السياسي والعسكري فيها. وقد عقبته سلسلة من اضرابات اخرى ذات طابع سياسي متزايد، وذلك في نيسان وتموز وآب وايلول وتشيرين الثاني من العام ١٩٨٧، وكذلك في نيسان من العام ١٩٨٨. لم تكن هذه الاضرابات ذات طابع تقليدي، بل أدت الى مظاهرات جماهيرية شارك فيها عدد كبير من الشعب اللبناني الى جانب النقابيين. وكذلك المتقنون الاصلاحيون الذين كانوا من اعضاء الحركة الطلابية في الستينات، ازداد التزامهم في العمل النقابي. فصحيفة الاتحاد العمالي العام "صوت الوحدة"، طالبت بانتهاء حال الحرب وبإعادة بناء التعايش بين اللبنانيين. وقد بلغت حركة السلام التي دعت اليها النقابات ذروتها في تشيرين الثاني عام ١٩٨٧. فقامت مظاهرات شعبية ضخمة في طرابلس، وجبيل، وصيدا، وصور. وكانت اضخمها واهمها سياسيا في بيروت، حيث التقى، حسب تقارير الامن الداخلي، حوالي ستون الف متظاهر من المنطقتين الشرقية والغربية على معبر المتحف. وكانت مكبرات الصوت تطلق الشعارات: "الشرقية والغربية معا"، و"الوحدة الوطنية". فقد حُمِل على الاكتاف رئيس الاتحاد العمالي العام، انطوان بشاره، من المتحف في بيروت الشرقية الى بيروت الغربية، ذهابا وايابا. فالصدى الذي أحدثته النقابات ضلل واقلق الميليشيات المختلفة التي بدأت تتخوف من اضعاف نفوذها. لذلك هُدّد انطوان بشارة في المنطقة الشرقية، كما هُدّد نائبه الشيوعي في المنطقة الغربية. واستقال اثنان من المكتب التنفيذي في الحزب التقدمي الاشتراكي، وهما عضوان نقابيان، من وظائفهما الحزبية، احتجاجا على مثل هذه الممارسات. واخيرا نظم الاتحاد العمالي العام مجددا اضرابا عاما وطنيا في التاسع والعشرين من ايار عام ١٩٩٠. ورغم كل ذلك، لم تتمكن النقابات من تحقيق هدفها الرامي الى الاسهام في تغيير الوضع السياسي عبر الاضرابات. فحسبما جاء على لسان "برتولد براشت"، "جاء عدد كبير من الناس للتحدث مع الصاكر، ولكنهم اضطروا الى الصمت امام الاسلحة المصوبة اليهم". ولكنهم برهنوا على ان عشرات الآلاف من النقابيين اللبنانيين لم يكونوا على استعداد لسماع كلمات وأوامر

أسياد الحرب، الى أية جهة انتموا.

ان يكون اللبنانيون من مختلف الطوائف الدينية على استعداد لتقديم المساعدة لبعضهم بعضا في حالات الشدة والضيق، هذا امر برز بطريقة رائعة للغاية في ربيع عام ١٩٩٠، تماما كما حصل قبل ثمان سنوات مع سكان بيروت الغربية اثناء الحصار الاسرائيلي عندما استقبلوا في شرق المدينة. كذلك تمكن عشرات الآلاف من البيروتيين الشرقيين اللجوء الى غرب المدينة اثناء المعارك الطاحنة التي جرت بين جيش العماد عون والقوات اللبنانية.

٢ - اسس لتوافق جديد

المظاهرات في سبيل السلام والتعايش التي حصلت على مرأى من الميليشيات المدججة بالسلاح، كشفت بوضوح نتائج الاستفتاء والتحقيق، مشيرة الى توفر الأسس لتوافق جديد بين اللبنانيين. هناك حقد اقل وتسامح اكثر بين السكان، رغم وبعد كل ما حصل منذ عام ١٩٧٥. هناك ايضا ارادة اقوى للعمل على وحدة البلد اكثر مما يمكن تصوره بعد الانهيار الذي حصل خلال سنوات طويلة.

اللبنانيون لا يشكلون مجتمعا "هوبسيا"، بالاستناد الى مبدأ "هوبس" المعروف، اي ان كل طائفة تشكل زمرة من الذئاب تقف بالمرصاد للطائفة الاخرى. ولا توجد ايضا جماهير متعصبة ومترتبة لتحول دون قيام توافق جديد، بل يوجد فريق متعطش الى السلطة وقصير النظر. فروح التوافق متأصل بعمق في نفوس اللبنانيين، كما كشفت عن ذلك نتائج التحقيقات وبرزته الى العيان حركات الاضراب والمظاهرات. هناك فقط "كرتال" من الاطراف المتخاصمة تمنع التوافق. يضم هذا الكرتال "الذئاب"، وزعماء المرتزقة، وأسياد الحرب، وبنوع خاص، "كرتال" المروضين غير اللبنانيين الذين، وفقا لحاجاتهم ومصالحهم، يهوشون "ذئابهم" على بعضهم بعض.

بعض "المهندسين" اللبنانيين الذين يريدون، بعد الازمات الدستورية المختلفة، صياغة لبنان جديد واعادة بنائه، لم يقدروا كفاية النضج السياسي في مجتمعهم. فبعضهم يريد دولة موحدة دون اي اعتبار او احترام للطوائف، يرغبون فقط بانشاء امة متجانسة. والبعض الاخر يريد سحق خصومه والقضاء عليهم وفرض ارادة الاكثرية وكأنها الارادة الوطنية. وكذلك يعتقد اخرون ان البلد يتألف من أمم مختلفة، لان الطوائف والمجموعات الدينية هي في الاساس أمم.

مقابل كل ذلك، كشفت نتائج التحقيقات بان لدى اكثرية اللبنانيين مشاكل أقل في التوفيق معا بين الهوية الطائفية والهوية القومية. يشعر المواطن بنفسه كماروني، أو

كشيعي، أو كسنيّ، وفي الوقت نفسه كلبناني ، تماما كما يشعر المواطن "البافاري" (نسبة الى سكان ولاية بافاريا) او "الراينلاندي" (نسبة الى سكان ولاية الراين لاند" في ألمانيا) كمواطن في هذه او تلك الولاية، وفي الوقت نفسه كمواطن ألماني. فالشعور بالانتماء الى طائفة ما هو قوي، ولكنه لم يُفضّل الا من قبل اقلية صغيرة فقط على الانتماء الى الأمة اللبنانية. كل انسان يريد ان يبقى مثلما هو، ويعترف بذات الشيء بالنسبة للآخر، وكذلك يريد العيش مع الآخرين وبسلام في ذات البلد^١.

"ميثاق التعايش" الجديد الذي صاغه النواب اللبنانيون في القسم المتعلق بالسياسة الداخلية في وثيقة الطائف، يعكس بشكل رائع للغاية رغبات السكان كما عبّر عنها في نتائج التحقيقات.

ان اكثرية كبيرة من اللبنانيين تؤيد نظاما سياسيا يقوم على المشاركة في السلطة بين الطوائف. ولكن هناك ايضا اكثرية مماثلة ترضى بنظام ديموقراطية الاكثرية. وهذا ما يسمح باستخلاص عبرة لاقامة نظام مشترك يجمع بين ديموقراطية التوافق والديموقراطية العددية، تقريبا على غرار النظام السويسري. هذا النظام يثبت الاعتراف بالطوائف والمساواة بينها من جهة، ويسمح من جهة اخرى لاكثريات تتغير، باتخاذ قرارات في كل المسائل التي لا تمس اطلاقا وجود الطوائف وهويتها. البرلمانيون اللبنانيون لاحظوا الانتقال الى مثل هذا النظام في ميثاقهم الجديد كامكانية مستقبلية. والتوافق على ذلك هو اقوى مما كان يرغب به اليعقوبيون من جهة، والانفصاليون من جهة اخرى.

هل كان مثل هذا التوافق قائما قبل الحرب؟ لا يمكن نفي ذلك ابداء، خاصة انه لم تحصل في السنوات التي سبقت الحرب اية ابحاث وتحقيقات تجريبية مقارنة يمكن الاعتماد عليها. ولكن من المحتمل ان يكون هذا التوافق نتيجة للحرب. فمع "الشراسة" اللطيفة في المثل البوهيمي المشار اليه اعلاه، يمكن القول، بان الاختبارات التي تحصل في زمن الحرب، تسهم كثيرا في انبعاث الامة وتجدها.

التوافق القديم عام ١٩٤٣ قام على منطق اقتصادي، وعلى ارادة استقلالية اراد من خلاله المسلمون الاستقلال عن فرنسا، ولكن ايضا اراد المسيحيون الاستقلال عن سوريا. والتوافق الجديد الذي نشأ في زمن الحرب يركز على اسس اضافية،

١ - جرى التأكد من هذه النتائج من خلال تحقيق استطلاعي، قامت به في شهري ايلول وتشرين الاول مؤسسة "ماس" اللبنانية، ومؤسسة استطلاع الرأي الفرنسية "اوبتام". راجع:

MASS et OPTEM, Les Libanais et le Liban, Paris, Octobre 1989.

أهم ما جاء فيه هو تأكيد ٧٣٪ من المستجيبين القول التالي: "رغم الازمة، يوحد اللبنانيين شعور قوي بانتمائهم الى أمة لبنانية، وهذا ما يسهل إعادة بناء بلادهم".

على اختبار الضيق والحاجة، على ارادة السلام، وعلى ارادة مشتركة للاستقلال عن كل الجهات. ان اقل من واحد بالمائة من اللبنانيين المستجوبين، ابدى تعاطفاً، او اعجاباً بإسرائيل، ولكن ايضاً ابدى اقل من واحد بالمائة ذات الشيء تجاه سوريا، الدولة "الشقيقة".

هذه النتائج والمعطيات جرى في الواقع التأكد منها لاحقاً. فالمشاركة المتدنية جداً في الانتخابات التشريعية عام ١٩٩٢ اشارت بوضوح كلي الى ضعف المرشحين على لوائح الدولة والمؤيدين لسوريا، باستثناء نسبي في دائرة الجنوب حيث تمكن نبيه بري من تكوين شعبية لا بأس بها. ولكن بالمقابل يمكن تفسير النجاح البارز في مقاطعة الانتخابات كرفض قاطع لنظام "مستورد ومفروض" على الشعب اللبناني. ان ما لا يريده اللبنانيون اطلاقاً، هو التبعية للآخرين.

٣ - هل لبنان أمة تنبعث متأخرة جداً؟

لم تحقق بعض الامم الصغيرة ابداً الدولة التي ارادوها، كما فقد البعض الآخر الدولة التي كانت له. كان اللبنانيين دولة مستقلة، ولكنهم اخذوا يتحولون الى امة، عندما كانت دولتهم في خطر الموت. هل انبعثت الامة اللبنانية متأخرة جداً كي تحقق استقلال الدولة؟

باستثناء مشاعر التعاطف او المعاداة لدى اللبنانيين، فقد اخذت دولتهم اليوم ترتبط اكثر فاكثر بسوريا. وسيكون من الصعب جداً تغيير هذا الوضع في المستقبل المنظور. ولكن كيف سيبقى لبنان مرتبطاً بسوريا، هذا ما يصعب التنبؤ به فعلاً.

لقد قطع لبنان مرحلة متقدمة من التبعية. خلال عام ١٩٩٢ عقدت لقاءات القمة بين الرئيسين السوري واللبناني بمعدل لقاء واحد كل ١٤ يوماً. كما قام الوزراء وكبار موظفي الدولة بمئات الرحلات الى دمشق. لقد مارس وما زال يمارس كبار المسؤولين السوريين دور الحكم للفصل في النزاعات والخلافات بين رئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة، ورئيس مجلس النواب. المرشحون للانتخابات التشريعية كانوا يتنافسون، مثلهم مثل النواب الذين حالهم الحظ بالفوز في تلك الانتخابات، للحصول على رضى الأطراف المقربة من السلطة في سوريا. في دمشق كان يتقرر مصير العسكريين والموظفين اللبنانيين، فيحتفظون بوظائفهم او يبعدون عنها. لقد انشأ نظام التبعية السياسية بنية خاصة به، تلعب فيه سوريا دور الزعيم الاكبر الذي يفرض النظام على الزعماء التقليديين وعلى أمراء الحرب الذين

تحولوا الى سياسيين^٢. كذلك تثبتت روابط جديدة للمصالح، لا تتقرر ولا تستند، في اطار نظام الحماية، على الوظائف و المناصب فحسب، بل ايضا وقبل كل شيء على المال والثروة.

فالقبول الضمني بالربط بين "الغاء الطائفية" والانسحاب الجزئي للقوات السورية، جعل كل انسحاب بعيد الاحتمال. اما حكومة الحريري بالذات فليست الا تساهلا او تنازلا لم تسمح به سوريا الا لكبح غضب اللبنانيين الذي تجسّد في عنف الهيجان الشعبي وفي المقاطعة الكثيفة للانتخابات. من خلال ذلك يؤمل بان يسهم تحسن الاوضاع الاقتصادية في تقبل اوضاع سياسية غير مرغوب فيها.

هل يمكن تصور ازدهار جديد في ظل تبعية سياسية؟ هل يتشجع اللبنانيون ويقدمون على الاستثمار في لبنان اذا كانت دولة القانون غير مضمونة في بلدهم؟ هل سيعود لبنانيو الخارج مع اموالهم قبل التأكد من امكانية ممارسة حرياتهم الثقافية واحترام حقوقهم المدنية، خاصة وقبل كل شيء، حرية الفكر والكلمة؟

اذا كانت الاجوبة على هذه التساؤلات سلبية، فلا بد من توقع مستقبل زاهر بالركود الاقتصادي، وبعودة هجرة الطاقات البشرية المؤهلة، وب "سريّة" ليس فقط الدولة اللبنانية فحسب، بل المجتمع اللبناني بكامله ايضا.

حتى مطلع عام ١٩٩٣ لم تكن بعد قد برزت اية اجوبة نهائية على هذه التساؤلات. ولكن من الممكن ان تتجح حكومة الحريري في احياء لبنان كمركز تجاري ومالي، وكذلك انتاجي، لتأمين حاجات الدول الخليجية الزراعية والصناعية. من الممكن ايضا ان يعود الى سابق عهده وتتوّعه النظام التربوي اللبناني وكذلك الحياة الثقافية. اذا توفر كل ذلك، عندئذ قد يرغب اللبنانيون في الابتعاد عن اوضاع الانحسار الاقتصادي المتنامية في الدول الصناعية الغربية، والعودة مع أسرهم وثرواتهم الى لبنان، بدلا من ان يتكبدوا، هم واولادهم، هموم ومشاكل معاملات التجنيس المعقد، والتي تزداد تعقيدا اكثر فاكثرا في أوروبا،

٢- عرض ذلك جوزف مايلابوضوح رائع بقوله:

"العودة الى الثقافة السياسية القديمة أضيف اليها عنصر جديد، مقلق للغاية، ألا وهو خضوع الطبقة السياسية الجديدة، باكريتها، للواقع الذي أنشأته سوريا في لبنان. من الممكن فعلاً التفكير، من منطلق القانون الدولي فقط، بأن القسم الرابع من اتفاق الطائف الذي يلحظ تنظيم العلاقات مع سوريا، قد خلق بيئة للاستعباد. ولم يكن بالامكان التفكير بأن ذلك سيثير بهذه السرعة ثقافة التذلل. فمن خلال مجاملتهم للإجاءات السورية، وتلّثهم بضغوطها، واتصياحهم لأوامرها، ذهب القادة اللبنانيون الى أبعد من رغبات دمشق، وذلك بهدف الإبقاء على دورهم السياسي وممارسة الحكم. وهكذا جرى تسهيل قيام نظام المفوضية الذي يمارس اليوم في لبنان". راجع:

Joseph MAILA, L'accord de Taef: Deux ans après. in: Centre d'action et d'information pour le Liban (ed.), Perspectives et réalités du Liban, Paris 1993, p. 56.

واميركا الشمالية، واوستراليا. على كل حال، لربما يؤدي ذلك أقله الى وضع حد لموجة الهجرة.

ان اعادة انعاش الازدهار الاقتصادي، قد تمكن اللبنانيين من التفكير والاهتمام بما هو ابعد من التركيز على كسب حياتهم اليومية. فالاختبار الذي عرفته مجتمعات عديدة أخرى، يدل على ان عودة الازدهار من الصعب ان تؤدي الى حالة من اللامبالاة السياسية، بل بالعكس، انها تشكل حتماً قوة دفع جديدة نحو الحرية السياسية.

٤ - الجار ومستقبله الغامض

لا يرتبط تطور مستقبل لبنان واقعياً باللبنانيين انفسهم، ولا، الى حد ما بجدارة الحكومة اللبنانية فحسب، بل اكثر فاكثر بجارهم الكبير ايضا. ولكن التوقعات حول مستقبل سوريا بالذات تبدو صعبة وغامضة للغاية.

يرتبط هذا الامر جزئياً بنظام الحكم السوري حيث يمسك بالقرار النهائي رجل واحد، لا يكشف عن نواياه الا عند الضرورة. لقد برهن هذا الرجل، خلال مرحلة حكمه الطويلة، بأنه يتمسك جيداً باهدافه، ولكنه يعرف، بدهاء خارق، كيف يتعامل مع الظروف الطارئة، ويعذل بموجبها اهدافه واستراتيجيته وتكتيكه. جميع الرؤساء السوريين الذين سبقوه الى الحكم، لم يقبلوا ولم يعترفوا بوجود لبنان مستقل. لقد احتار السياسيون اللبنانيون طويلاً في تحليل الغاز واهداف حافظ اسد في لبنان. ولكن هذه الاهداف توضحت منذ عام ١٩٨٥. لم يعمل اسد للقيام بعملية ضمّ بدائية، كما حاول ان يفعل صدام حسين لاحقاً في الكويت، بل سعى لفرض اعتراف غير مشروط بالسيطرة السورية على لبنان مستقل شكلياً. تحقق هذا الهدف في التوقيع على "معاهدة الاخوة" عام ١٩٩١، وفي تنصيبه في صميم النظام اللبناني عام ١٩٩٢ عبر انتخاب مجلس نواب لبناني تهيمن عليه اكثرية من نواب موالين لسوريا.

في مجال السياسة الخارجية والامن اصبح لبنان دولة تابعة لسوريا، سواء من خلال المعاهدة، او عملياً. وبما ان النفوذ السوري تمكن من التوغل كثيراً داخل النظام اللبناني، فسيكون من الصعب جدا التحرر من هذا الربط.

ولكن الى اي حد سيعمل الحكم السوري على تطبيع الشائين الثقافي والاقتصادي؟ هذا الامر لم يتضح بعد. الا ان من المعروف تقليدياً ان حزب البعث الحاكم في سوريا يميل ويسعى الى فرض سياسات ثقافية تشجع الوحدة العربية، كما يطبق نظام تدخل الدولة في القطاع الاقتصادي. لقد شكل حتى الآن التنوع في النظام التربوي اللبناني في كل مراحله، والتعددية اللغوية لدى فئات كبيرة من الشعب اللبناني، شوكة

في اعين منظري حزب البعث. كذلك لم يرض هذا الحزب اطلاقاً عن النظام الاقتصادي اللبناني "الفوضوي"، رغم نجاحه وتكيفه حتى في زمن الحرب. كما كان هذا النظام يشكل دائماً لسوريا سبباً لرفض المقارنة أو التشابه. ولكن هذه الايديولوجية البعثية بالذات لم تعد اليوم الدافع المحرك للسياسة الاقتصادية السورية، التي كانت خلال سنوات مرتبطة بالمساعدات الاقتصادية الخارجية. ففي سبيل تحسين انتاجها واولضاعها الاقتصادية، عمدت سوريا نفسها الى تحرير اقتصادها بشكل واسع. فبدلاً من ان تفرض على لبنان نظاماً اقتصادياً تتخلى هي عنه، من الافضل لمصلحتها ان تستفيد بقدر الامكان من نظام لبنان الاقتصادي. اللبنانيون يحبون التحدث عن "سيناريو هونغ كونغ"، اي تحويل لبنان الى مركز تجاري ومالي دولي مزدهر، مع مشاركة سوريا في الارباح. ولكن ما يفكر به اللبنانيون فعلاً، هو "هونغ كونغ" مع أكبر استقلال نسبي ممكن. وهذا ما يفكر به ايضا السياسيون السوريون الأقل تمسكاً بايديولوجية البعث، ولكن مع سيطرة سياسية اوسع. لذلك يمكن النظر الى حكومة الحريري كاختبار لهذا النموذج.

الى اي مدى ستبقى ثابتة سياسة سوريا في لبنان على المدى المتوسط والطويل؟ لقد برهن النظام السوري الحالي على انه نظام مستقر فعلاً، وذلك في بلد اشتهر سابقاً بعدم الاستقرار.

يعود الفضل في هذا الاستقرار الى رجل ذي اهلية استثنائية. بقدر ما تتركز بين يديه مقاليد السلطة، بقدر ذلك ستكون خلافته صعبة. الاحداث التي حصلت في دمشق اثناء مرض حافظ أسد عام ١٩٨٤، تعتبر اختباراً مسبقاً لما سيحدث في سوريا بعد رحيله. يقال بأنه يحضر ولده لخلافته. ويبدو ان استعدادات تحصل مجدداً في محيطه سعياً وراء النفوذ والخلافة. ولكن رحيله المفاجئ يؤجل دائماً. ويبدو ان التمتع بالسلطة المطلقة يشكل اكسيراً للحياة.

ولكن ليس من مبرر لكي ينظر قادة سوريا بعد رحيل حافظ أسد الى مصالحهم في لبنان بمنظار آخر. الا ان التساؤل يدور حول امكانيتهم لمتابعة هذه السياسة بذات الحنكة والدهاء.

في حال حصول صراع طويل في سبيل السلطة، من المحتمل ان تضطر سوريا الى تخفيض عدد قواتها في لبنان، او الى سحبها. ولكن من المحتمل ايضاً ان كل حكم في سوريا يخلف حافظ أسد، سيحاول متابعة سياسته في لبنان، لان هذه السياسة كانت تشكل دائماً عنصراً أساسياً في سياسة هذا البلد الاقليمية.

بالنسبة للقادة السوريين يعتبر تطور لبنان اجتماعياً واقتصادياً أمراً ثانوياً. ولكن المهم بنظرهم هو بقاء هذا البلد رهينة او ورقة بين ايديهم يستخدمونها في لعبة

الحرب او السلم في الشرق الاوسط. فطالما لم تحصل تسوية لنزاع الشرق الاوسط - وحتى اذا ما لاح في الافق اي امل باقتراب التسوية - فان سوريا ستحكم سيطرتها على لبنان. فمن خلال التبعية الى سوريا، سيرتبط لبنان اكثر فاكثر بتطورات الشرق الاوسط، اكثر مما كان مرتبطا بها منذ عام ١٩٦٧.

٥ - "كثبان من الرمال المتحركة"

شبه ياسر عرفات استقطاب محاور النفوذ في منطقة الشرق الاوسط، بالرمال المتحركة، نظرا لعدم نمك احد من التنبؤ بالجهة التي ستدفعها اليها الرياح. منذ عام ١٩٦٧ تجمعت في لبنان طبقات عديدة من "كثبان الرمال"، فلم تحترم حدودا ولم تعرف اتجاهها معينا. تتبدل صورتها، او تتغير، او تزول من الوجود.

فالتشخيص حول التطورات السياسية المتوسطة والبعيدة المدى في الشرق الاوسط، يشبه التشخيص حول تغيرات بحر من الرمال. كل شيء ممكن، وليس من امر غير عادي او غير محتمل.

من الممكن حدوث زوابع محلية تنحصر في لبنان او في اجزاء منه. فطالما لم تتوصل سوريا واسرائيل الى اتفاق، ستبقى الاضطرابات قائمة في جنوب لبنان. فاذا ما اثار ميليشيات حزب الله بتحركاتها الدولة العبرية، او قامت بعمل ارهابي مؤذ لها، لربما عمدت اسرائيل الى توسيع منطقة "الحزام الامني"، او قامت بغارات انتقامية موجعة ضد قواعد عسكرية في عمق الاراضي اللبنانية.

من المحتمل ايضا حصول عواصف عنيفة. الفشل في التوصل الى اتفاق حول الحكم الذاتي مع الفلسطينيين في الاراضي المحتلة، قد يزيد حتما في ضراوة الانتفاضة، ويشجع الاصوليين الاسلاميين في الضغط على منظمة التحرير، ولتغيير طبيعة النزاع الفلسطيني. بالمقابل يمكن ان يؤدي هذا الوضع الى تعزيز مقولة الاسرائيليين الذين لا يرون حلا ممكنا الا عبر عملية "ترحيل السكان". في هذه الحال، لن يكون بامكان الاردن وسوريا التزام السكوت وغيض النظر. وبالتالي يمكن ان يتحول لبنان مجددا الى ساحة قتال.

من المحتمل ايضا ان يثير العراق اضطرابات جديدة ايضا. ففوته العسكرية لم يتم سحها اطلاقا في حرب الخليج الثانية. كما ان دولا خليجية بدأت، بحكم خوفها مجددا من ايران، تقترب من العراق. فبدلا من استبعاد تكرار مغامرته في الكويت، نظرا للاخطار المحدقة بذلك من جراء الضمانات الغربية لهذه الدولة النفطية، لربما يعود صدام حسين الى سياسته السابقة، محاولا اثاره الفتنة والاضطرابات في الدول العربية المعادية له، ودعم حركات المعارضة فيها. قد تكون سوريا بالذات هدفة

المحتمل، خاصة اثناء اندلاع الصراع من اجل السلطة. هل يساعد ذلك على توسيع او تضيق امكانية التحرك والعمل في لبنان؟ هذا الامر يصعب التنبؤ به الآن.

ولكن لا يستبعد حصول تغيير عام في مناخ الشرق الاوسط السياسي. هناك عدد وافر من الاسرائيليين لا يؤيدون السيطرة على الفلسطينيين في الاراضي المحتلة، ويرفضون فكرة "ترحيل السكان" باعتبارها امراً مشيناً اخلاقياً. ومن جهة ثانية، تراجعت منظمة التحرير عن مطالبتها المتطرفة السابقة، وتبدو الآن اكثر استعداداً للقبول بأقل من دولة فلسطينية مستقلة.

في هذا الاطار لم تعد احتمالات التوصل الى سلام في فلسطين أمراً غير واقعي اطلاقاً الأمر الذي سيسهل كثيراً التقارب بين سوريا واسرائيل.

الآن انه من غير المؤكد ان يستفيد لبنان من هذا التطور. لربما يؤدي تطبيق قرار مجلس الامن رقم ٤٢٥ الى انسحاب سوريا واسرائيل من لبنان. ومن جهة اخرى، ولربما ايضا تقع اسرائيل - ومعها الدول الغربية - في تجربة بيع حرية لبنان مقابل موافقة سوريا على تسوية لمشكلة الشرق الاوسط. في هذه الحال، سيقتضى تماماً على مصير لبنان كدولة مستقلة.

لم تشر حتى الان اي من التطورات السياسية الممكنة الى توقعات ايجابية بالنسبة للبنان. ولكن الاحتمالات ليست تأكيدات. لا يستطيع احد الاستهانة بقوة الصمود والمقاومة في هذا البلد، كي لا يبتلعه جار قوي. في السنوات الاخيرة، تمكنت دول صغيرة عديدة كانت منسية، من استعادة استقلالها.

فالتوافق الكبير على انقاذ لبنان، رغم التقسيم، والتهجير، والمجازر، هو اكثر قوة واصالة مما كان عليه في زمن الاستقلال.

هذا التوافق الجديد يعتمد اليوم على اختبارات شعب كامل، اكثر من اعتماده على اعتبارات ومصالح فئة محدودة العدد من سكان هذا البلد. فانشاء دولة هو اسهل من خلق أمة. تعلم اللبنانيون من تاريخهم الحديث، بأنهم أمة، ويريدون البقاء كأمة. ان حبهم للديمقراطية وعشقهم للحرية، لهما جذور عميقة. فمن غير المحتمل اطلاقاً ان تتخلى مثل هذه الأمة عن طموحها لتقرير مصيرها الفعلي، وعن سيادتها الكاملة.

ملاحظة:

غداة الانتهاء من وضع هذا المؤلف، صدر للنائب والوزير السابق البير منصور كتاب بعنوان "الانقلاب على الطائف" في منشورات دار الجديد، بيروت ١٩٩٣. ان بعض ما جاء فيه يتفق تماماً مع نظرنا الى كيفية تحريف مضمون وثيقة اتفاق الطائف، نصاً وروحاً.

المصادر الأجنبية

١- الكتب

- ABDEL-MALEK, Anouar, Egypte, Société militaire, Paris 1962.
- ABOUCHDID, Eugénie E., Thirty Years of Lebanon and Syria (1917-1947), Beirut 1948.
- ABOU JAOUDE, Joseph et al., La nouvelle société libanaise dans la perception des Fa'aliyat (decision-makers) des communautés chrétiennes, Vol. 3, Etudes et Rapports, Kaslik 1984.
- ABOU RJAILY, Khayl and Boutros LABAKI, Les paroisses déplacées des églises du Liban, Paris and Beirut 1987.
- ACCAOUI, Selim and Magida SALMAN, Comprendre le Liban (Culture Critique 12), Paris 1976.
- AGGIOURI, René, Le conflit de Palestine dans le jeu des puissances (1950-1967), Beirut 1968.
- AJAMI, Fouad, The Vanished Imam. Musa al Sadr and the Shia of Lebanon, London 1986.
- , The Arab Predicament: Arab political thought and practice since 1967, Cambridge 1981.
- AL-HURI, Bisarah, Haqa'iq lubnanliyyah (Lebanese Realities), 3 Vols., Beirut 1960.
- ALLEMANN, Fritz René (ed.), Die arabische Revolution. Nasser über seine Politik, Frankfurt 1988.
- ALMOND, Gabriel and James S. COLEMAN, The Politics of the Developing Areas, Princeton 1960.
- and Sidney VERBA, The Civic Culture. Princeton 1963.
- and G. Bingham POWELL, Comparative Politics: A developmental approach, Boston 1966.
- AMOS II, John W., Palestinian Resistance. Organization of a Nationalist Movement, New York 1980.
- ANTONIUS, George, The Arab Awakening: the story of the Arab national movement, New York 1946.
- ANTOUN, Richard and Iliya HARIK (eds.), Rural Politics and Social Change in the Middle East, Bloomington and London 1972.
- APTER, David E., The Politics of Modernization, Chicago 1965.
- ASAD, Muhammad, The Principles of State and Government in Islam, Berkeley and Los Angeles 1961.
- AZAR, Edward E. et al. (eds.), The Emergence of a New Lebanon. Fantasy or reality?, New York 1984.
- BANTON, Michael, Race Relations, London 1967.
- BARAKAT, Halim, Lebanon in Strife. Student preludes to the civil war, Austin and London 1977.
- BARTH, Frederik (ed.), Ethnic Groups and Boundaries. The social organization of culture difference, Boston 1969.
- BARUDIO, Günter, Der Deutsche Krieg 1618-1648, Frankfurt 1985.
- BASH, Harry H., Sociology, Race and Ethnicity. A critique of American ideological intrusions upon sociological theory, New York 1979.
- BAUBEROT, Jean et al. (eds.), Palestine et Liban. Promesses et mensonges de l'Occident, Paris 1977.
- BAUER, Otto, Die Nationalitätenfrage und die Sozialdemokratie, Vienna 1924.
- BAZ, Selim, Pièces diplomatiques relatives aux événements de 1860 au Liban, Beirut 1978.
- BENASSAR (alias Gabriel Menassa), Anatomie d'une guerre et d'une occupation. Evénements du Liban de 1975 à 1978, Paris 1978.
- BENEDICT, Ruth, Patterns of Culture, London 1961.
- BERGSTRAESSER, Arnold, Die Macht als Mythos und als Wirklichkeit, Frelburg 1965.
- and Wilhelm CORNIDES (eds.), Die Internationale Politik 1955. Eine Einführung in das Geschehen der Gegenwart, Munich 1958.
- BERTING, Jan et al. (eds.), Problems in International Comparative Research in the Social Sciences, Oxford 1979.
- BETTS, Robert Brenton, Christians in the Arab East. A political study, Athens 1975.
- BEYDOUN, Ahmad, Identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains, Beirut 1984.
- BIEGEL, L.C., Minderheden in het Midden-Oosten. Hun betekenis als politieke factor in de Arabische wereld, Deventer 1972.
- BINDER, Leonard (ed.), Politics in Lebanon, New York 1966.
- BINSWANGER, Karl, Untersuchungen zum Status der Nichtmuslime im Osmanischen Reich des 16. Jahrhunderts. Mit einer Neudefinition des Begriffs "Dhimma", Munich 1977.

- BLECHMAN, Barry M. and Stephen S. KAPLAN (eds.), *Force without War. The use of the armed forces as a political instrument*, Washington 1978.
- BRAUDE, Benjamin and Bernard LEWIS, *Christians and Jews in the Ottoman Empire. The functioning of a plural society*. 2 Vols., New York and London 1982.
- BRINTON, Crane, *The Anatomy of Revolution*, New York 1938.
- BROCKELMANN, Carl, *Geschichte der arabischen Literatur*, Leiden 1942.
- BÜREN, Rainer, *Ein palästinensischer Teilstaat? Zur internen regionalen und internationalen Dimension der Palästinafrage*, Baden-Baden 1982.
- BULLOCH, John, *Death of a Country. The civil war in Lebanon*, London 1977.
- , *Final Conflict. The war in the Lebanon*, London 1983.
- CAMPBELL, Ernest Queener (ed.), *Racial Tensions and National Identity*, Nashville, Tenn. 1972.
- CARRE, Oliver (ed.), *L'Islam et l'Etat dans le monde d'aujourd'hui*, Paris 1982.
- et al. (eds.), *Radicalismes islamiques*, Vol. I, Paris 1985.
- CARSTENS, Karl et al. (eds.), *Die Internationale Politik 1966-67*, Munich 1973.
- CATROUX, Georges, *Dans la bataille de la Méditerranée*, Paris 1949.
- CEMAM-Report, *Religion. State and Ideology* (Center for the Study of the Modern Arab World, Saint-Joseph's University). Reports 1975, Vol. 3, Beirut 1976.
- CEMAM-Report, *Islamic Law and Change in Arab Society* (Center for the Study of the Modern Arab World, Saint Joseph's University). Reports 1976, Vol. 4, Beirut 1978.
- CHAMOUN, Camille, *Crise au Moyen-Orient*, Paris 1963.
- , *Crise au Liban*, Beirut 1977.
- , *Mémoires et souvenirs*, Beirut 1979.
- CHAMUSSY, René, *Chronique d'une guerre. Liban 1975-1977. En postface: Les doutes de l'après-guerre*, Paris 1978.
- CHARAF, Georges, *Communautés et pouvoir au Liban*, Beirut 1981.
- CHARLES-ROUX, François, *La France et les chrétiens d'Orient*, Paris 1939.
- CHARON, Cyrille, *Histoires des patriarchats Melkites*. 2 Vols., Rom 1910-1911.
- CHEVALLIER, Dominique (ed.), *La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe*, Paris 1971.
- (ed.), *L'espace social de la ville arabe*, Paris 1979.
- CHIH, Michel, *Visage et présence du Liban*, Beirut 1964.
- COHEN, Abner, *Two-Dimensional Man. An essay on the anthropology of power and symbolism in complex society*, Berkeley 1974.
- (ed.), *Urban Ethnicity*, London 1974.
- COPELAND, Miles, *The Game of Nations. The amorality of power politics*, London 1969.
- CORRE, Georges, *Le Proche-Orient éclaté. De Suez à l'invasion du Liban*, 1956-1982, Paris 1983.
- , *Géopolitique du conflit libanais. Etude historique et sociologique*, Paris 1986.
- COULAND, Jacques, *Le Mouvement Syndical au Liban 1919-1946. Son évolution pendant le mandat français de l'occupation à l'évacuation et au Code du Travail*, Paris 1970.
- COX, Oliver C., *Caste, Class and Race: A study in social dynamics*, New York 1948.
- CUDSI, Alexander S. and Ali E. Hillal DESSOUKI (eds.), *Islam and Power*, London 1981.
- CURTIS, Michael (ed.), *Religion and Politics in the Middle East*, Boulder, Col. 1981.
- DAHDAH, Nagib, *Evolution historique du Liban*, Beirut 1967.
- DAWISHA, Adeed J., *Syria and the Lebanese Crisis*, London and Basingstoke 1980.
- DEKMEJIAN, Hrair Richard, *Egypt under Nasir. A study in political dynamics*, New York 1971.
- DESJARDINS, Thierry, *Le martyre du Liban*, Paris 1976.
- DESPRES, Leo A. (ed.), *Ethnicity and Resource Competition in Plural Societies*, The Hague 1975.
- DEUTSCH, Karl W., *Nationalism and Social Communication: An inquiry into the foundations of nationality*, Cambridge, Mass. 1962.
- and William FOLTZ (eds.), *Nation-Building*, New York 1966.
- DIB, Pierre, *L'Eglise maronite*, Paris 1930.
- DIBS, Joseph, *Les maronites du Liban*, Paris 1875.
- , *Perpétuelle orthodoxie des maronites*, Arras 1896.
- DÖRING, Peter A. et al. (eds.), *Bildung in sozio-ökonomischer Sicht*, Cologne and Vienna 1989.
- DOUGLAS, Mary, *Purity and Danger*, London 1966.

- DUBAR, Claude and Salim NASR, *Les classes sociales au Liban*, Paris 1976.
- DUPUY, Trevor Nevitt, *Elusive Victory: The Arab-Israeli Wars, 1947-74*, Indianapolis 1977.
- ECKSTEIN, Harry (ed.), *Internal War. Problems and approaches*, London 1964.
- EDWARDS, R.C. et al. (eds.), *Labor Market Segmentation*, Lexington, Mass. 1975.
- EISENSTADT, S.N., *Modernization: Protest and change*, Englewood Cliffs, N.J. 1966.
- EMERSON, Rupert, *From Empire to Nation. The rise to self-assertion of Asian and African peoples*, Cambridge, Mass. 1960.
- ENDE, Werner and Udo STEINBACH (eds.), *Der Islam in der Gegenwart*, Munich 1984.
- ENTELIS, John P., *Pluralism and Party Transformation in Lebanon - Al Kata'ib, 1936-1970*, Leiden 1974.
- ESMAN, Milton J. (ed.), *Ethnic Conflict in the Western World*, Ithaca, N.J. 1977.
- and Itamar RABINOVICH (eds.), *Ethnicity, Pluralism and the State in the Middle East*, Ithaca and London 1988.
- ETTELDOERF, Raymond, *Catholic Churches in the Middle East*, New York 1955.
- EVANS-PRITCHARD, E.E., *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande*, Oxford 1937.
- EVRON, Yair, *War and Intervention in Lebanon. The Israeli-Syrian deterrence dialogue*, Baltimore 1987.
- FATTAL, Antoine, *Le statut légal des Non-Musulmans en pays d'Islam*, Beirut 1958.
- FAWAZ, Leila Tarazi, *Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut*, Cambridge and London 1983.
- FISCHHOF, Adolph, *Österreich und die Bürgschaften seines Bestandes*, Joseph Klemm, Vienna 1869.
- FLORES, Alexander, *Intifada, Aufstand der Palästinenser*, Berlin 1988.
- FONDATION LIBANAISE, *Fondation Libanaise pour la paix civile permanente* (ed.), *Le droit à la mémoire*, Beirut 1988.
- FRANCIS, Emmerich K., *Interethnic Relations*, New York 1976.
- FREEDMAN, Robert O., *Soviet Policy toward the Middle East since 1970*, New York 1978.
- FURNIVAL, J.S., *Netherlands India. A study of plural economy*, Cambridge 1939.
- , *Colonial Policy and Practice. A comparative study of Burma and Netherlands India*, New York 1956.
- GARDET, Louis, *La cité musulmane*, Paris 1954.
- GEERTZ, Clifford (ed.), *Old Societies and New States. The quest for modernity in Asia and Africa*, London 1963.
- GELLNER, Ernest and John WATERBURY (eds.), *Patrons and Clients in Mediterranean Societies*, London 1977.
- GEMAYEL, Amlne, *L'offense et le pardon*, Paris 1988.
- GIBB, H.A.R. and J.H. KRAMERS (eds.), *Shorter Encyclopedia of Islam*, Leiden 1953.
- GLAZER, Nathan and Daniel PATRICK MOYNIHAN, *Beyond the Melting Pot*, Cambridge, Mass. 1963.
- GOLAN, Gaila, *Yom Kippur and After. The Soviet Union and the Middle East crisis*, Cambridge 1977.
- GORIA, Wade R., *Sovereignty and Leadership in Lebanon 1943-1976*, London 1985.
- GURR, Ted Robert, *Why Men Rebel*, Princeton, N.Y. 1970.
- HACKE, Christian, *Amerikanische Nahostpolitik. Kontinuität und Wandel von Nixon bis Reagan*, Bonn 1985.
- HADDAD, Wadi D., *Lebanon. The politics of revolving doors*, New York 1985.
- HAJJAR, Joseph, *L'Europe et les destinées du Proche-Orient (1815-1848)*, Paris 1970.
- HALEY, P. Edward and Lewis W. SNIDER (eds.), *Lebanon in Crisis. Participants and issues*, Syracuse and New York 1979.
- HAMMEL, Eric, *The Root. The Marines in Beirut. August 1982-February 1984*, San Diego 1985.
- HANF, Theodor, *Erziehungswesen in Gesellschaft und Politik des Libanon*, Bielefeld 1969.
- , Heribert WEILAND and Gerda VIERDAG, *South Africa: The prospects of peaceful change. An empirical enquiry into the possibility of democratic conflict regulation*, London 1981.
- HARIK, Iliya F., *Politics and Change in a Traditional Society: Lebanon, 1711-1845*, Princeton 1968.
- HARKABI, Yehoshafat, *Arab Strategies and Israel's Response*, New York 1977.
- HARTMANN, Klaus-Peter, *Untersuchungen zu Sozialgeographie christlicher Minderheiten im Vorderen Orient (Beihfte zum Tübinger Atlas des Vorderen Orients. Reihe B. Nr. 43)*, Wiesbaden 1980.
- HECHTER, Michael, *Internal Colonialism: The Celtic fringe in British national development 1536-1966*, London 1975.
- HERSHLAG, Zvi Yehuda, *Introduction to the Modern Economic History of the Middle East*, Leiden 1964.
- HERZOG, Chaim, *The War of Atonement*, London 1975.

- HIRST, David, *The Gun and the Olive Branch. The roots of violence in the Middle East*, London 1977.
- HITTI, Philip K., *Lebanon in History. From the earliest times to the present*, London 1967.
- HOMSY, Basile, *Les capitulations et la protection des chrétiens au Proche-Orient aux XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles*, Harissa 1956.
- HONIGMANN, John J. (ed.), *Handbook of Social and Cultural Anthropology*, Chicago 1974.
- HOROWITZ, Donald L., *Ethnic Groups in Conflict*, Berkeley 1985.
- HOURANI, Albert H., *Minorities in the Arab World*, London 1947.
- , *Syria and Lebanon. A political essay*, London 1954.
- , *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*, London 1962.
- HUDSON, Michael C., *The Precarious Republic. Political modernization in Lebanon*, New York 1968.
- ISAACS, Harold Robert, *Idols of the Tribe. Group identity and political change*, New York 1975.
- ISRAEL IN LIBANON, Report of the International Commission to enquire into reported violations of International Law by Israel during its invasion of the Lebanon (London, 28. August 1982 - 29. November 1982), London 1983.
- ISMAIL, Adel, *Histoire du Liban du XVIIème siècle à nos jours*, 2 Vols., Paris 1955.
- JOHNSON, Michael, *Class and Client in Beirut. The Sunni Muslim Community and the Lebanese State 1840-1985* (Political Studies of the Middle East Series, Nr. 28), London 1986.
- JOUMBLATT, Kamal, *Pour le Liban*, Paris 1978.
- JUREIDINI, Paul A. and William E. HAZEN, *The Palestinian Movement in Politics*, Lexington, Mass. 1976.
- KAISER, Karl et al. (eds.), *Die Internationale Politik 1968-69*, Munich 1974.
- and Udo STEINBACH (eds.), *Deutsch-Arabische Beziehungen*, Munich 1981.
- KARPAT, Kemal H., *Political and Social Thought in the Contemporary Middle East*, London 1968.
- KAZZIHA, Walid W., *Revolutionary Transformation in the Arab World. Habbash and his comrades from Nationalism to Marxism*, London 1975.
- , *Palestine in the Arab Dilemma*, London 1979.
- KEPEL, Gilles, *Le prophète et le pharaon. Les mouvements islamistes dans l'Egypte contemporaine*, Paris 1984.
- KERR, Malcolm H., *Lebanon in the Last Years of Feudalism, 1840-1868* (Oriental Series Nr. 33), Beirut 1959.
- KEWENIG, Wilhelm, *Die Koexistenz der Religionsgemeinschaften im Libanon*, Berlin 1965.
- KHADDURI, Majid, *War and Peace in the Law of Islam*, Baltimore 1955.
- KHADDURI, Walid, *International Documents on Palestine*, Beirut 1969.
- KHALAF, Samir, *Persistence and Change in 19th Century Lebanon*, Beirut 1979.
- , *Lebanon's Predicament*, New York 1987.
- KHALID, Delval, *Islam and political Extremism: Einführung und Dokumentation*, Hamburg 1985.
- KHALIDI, Walid, *Conflict and Violence in Lebanon: Confrontation in the Middle East*, Cambridge 1979.
- KHOURY, Enver M., *The Crisis in the Lebanese System. Confessionalism and Chaos* (Foreign Affairs Study, 38), Washington D.C. 1976.
- KHURI, Fuad I., *From Village to Suburb. Order and change in Greater Beirut*, Chicago 1975.
- KIRK, George E., *Contemporary Arab Politics. A concise history*, London 1961.
- KISSINGER, Henry, *Years of Upheaval*, Boston 1982.
- KODMANI-DARWISH, Bassma (ed.), *Liban: Espoirs et réalités*, Paris 1987.
- KÖHLER, Wolfgang, *Die Vorgeschichte des Krieges im Libanon*, Wiesbaden 1980.
- KRAEMER, Gudrun, *Arabismus und Nationalstaatlichkeit: Syrien als nächstliche Regionalmacht*, Ebenhausen 1987.
- KRAMER, Martin (ed.), *Shi'ism, Resistance and Revolution*, Boulder, Col. and London 1987.
- KRIENER, Gustav-Adolf, *Geschichte der evangelischen Gemeinde zu Beirut*, Beirut 1958.
- KUDERNA, Michael, *Christliche Gruppen im Libanon. Kampf um Ideologie und Herrschaft in einer unfertigen Nation*, Wiesbaden 1983.
- KUPER, Leo and M.G. SMITH (eds.), *Pluralism in Africa*, Berkeley and Los Angeles 1969.
- LABAKI, Boutros, *Introduction à l'histoire économique du Liban. Soie et commerce extérieur en fin de période ottomane (1840-1914)*, Beirut 1984.
- LABAKI, Kesrouan, *Des idées pour le Liban*, Antelias 1984.

- LAMMENS, Henri, *L'évolution historique de la nationalité syrienne*, Alexandria 1919.
- LANDAU, Jacob M. et al. (eds.), *Electoral Politics in the Middle East. Issues, voters and elites*, London 1980.
- LAQUEUR, Walter Z., *Communism and Nationalism in the Middle East*, London 1956.
- (ed.), *The Israel-Arab Reader. A documentary history of the Middle East conflict*, New York 1969.
- , *Confrontation - The Middle East war and world politics*, London 1974.
- LAURENT, Annie and Antoine BASBOUS, *Guerres secrètes au Liban*, Paris 1987.
- LEFTWICH, Adrian (ed.), *South Africa. Economic growth and political change. With comparative studies of Chile, Sri Lanka and Malaysia*, London and New York 1974.
- LEGUM, Colin et al. (eds.), *Middle East Contemporary Survey*, Vol. V, 1980-81, New York and London 1982.
- (ed.), *Middle East Contemporary Survey*, Vol. VI, 1981-82, New York and London 1984.
- LEHMBRUCH, Gerhard, *Proporzdemokratie: Politisches System und politische Kultur in der Schweiz und in Österreich*, Tübingen 1967.
- LENIN, W.I., *Über die nationale und die koloniale nationale Frage*, East Berlin 1960.
- LENER, Daniel, *The Passing of Traditional Society. Modernizing the Middle East*, Glencoe 1962.
- LIJPHART, Arend, *The Politics of Accomodation. Pluralism and democracy in the Netherlands*, Berkeley 1975.
- , *Democracy in Plural Societies. A comparative exploration*, New Haven and London 1977.
- , *Power-sharing in South Africa*. Institute of International Studies, Berkeley 1985.
- LIPSET, Seymour Martin, *The First New Nation*, New York 1963.
- LONGRIGG, Stephen H., *Syria and Lebanon under French Mandate*, London 1958.
- LUTSKY, V., *Modern History of the Arab Countries*, Moskau 1969.
- MAGUBANE, Bernhard, *The Political Economy of Race and Class in South Africa*, New York 1979.
- MAHDI, Muhsin, *Die geistigen und sozialen Wandlungen im Nahen Osten*, Freiburg i.Br. 1961.
- MALINOWSKI, Bronislaw, *A Scientific Theory of Culture and Other Essays*, Chapel Hill 1944.
- MA'UZ, Moshe (ed.), *Palestinian Arab Politics*, Jerusalem 1975.
- and Avner YANIV (eds.), *Syria under Assad. Domestic constraints and regional risks*, London 1986.
- MARX Karl and Friedrich ENGELS, *Werke*, Vol. 6, East Berlin 1959.
- , *Werke*, Vol. 15, East Berlin 1961.
- MASON, Philip, *Patterns of Dominance*, London 1970.
- , *Race Relations*, London 1970.
- McLAURIN, Ronald D. (ed.), *The Political Role of Minority Groups in the Middle East*, New York 1979.
- , Mohammed MUGHISUDDIN and Abraham R. WAGNER, *Foreign Policy Making in the Middle East. Domestic influences on policy in Egypt, Iraq, Israel and Syria*, New York 1977.
- MEO, Leila M. T., *Lebanon. Improbable nation. A study in political development*, Bloomington 1965.
- MESSARRA, Antoine Nasri, *La structure sociale du parlement libanais*, Beirut 1977.
- , *Le modèle politique libanais et sa survie. Essai sur la classification et l'aménagement d'un système consociatif*, Beirut 1983.
- MILLER, Aaron David, *The PLO and the Politics of Survival*. (Washington Papers, Vol. 11/99), New York 1983.
- MOKDESSI, Toufic and Lucien GEORGE, *Les partis politiques*, Beirut 1959.
- MOSLEM LEBANON TODAY, Arab University of Beirut, Beirut 1976.
- NANTET, Jacques, *Histoire du Liban*, Paris 1963.
- NASR, Salim and Theodor HANF (eds.), *Urban Crisis and Social Movements. Arab and European perspectives*, Beirut 1987.
- NASSER, Gamal Abdel, *Philosophie der Revolution*, in: Fritz René ALLEMANN (ed.), *Die arabische Revolution. Nasser über seine Politik*, Frankfurt 1958.
- NORDLINGER, Eric A., *Conflict Regulation in Divided Societies*, Cambridge, Mass. 1972.
- NORTON, Augustus Richard, *Amal and the Shi'a. Struggle for the soul of Lebanon*, Austin, Tex. 1987.
- NOUVELLE (LA) SOCIÉTÉ LIBANAISE DANS LA PERCEPTION DES FA'ALIYAT (decision-makers) DES COMMUNAUTÉS CHRÉTIENNES. 3 Vols., Kaslik 1984.
- O'BALLANCE, Edgar, *Arab Guerilla Power, 1967-1972*, London 1974.
- OBERSCHALL, Anthony, *Social Conflict and Social Movements*, Englewood Cliffs, N.J. 1973.

- ODEH, B.J., *Lebanon: Dynamics on Conflict. A modern political history*, London 1985.
- O'NEILL, Bard, *Revolutionary Warfare in the Middle East; Israelis versus Fadayeens*, Colorado 1974.
- OWEN, Roger (ed.), *Essays on the Crisis in Lebanon*, London 1976.
- PAKRADOUNI, Karim, *La paix manquée. Le mandat d'Elias Sarkis (1976-1982)*, n.p. 1984.
- PARETO, Vilfredo, *The Mind and Society. A treatise on general sociology*, Vol. 4: *The General Form of Society*, New York 1963.
- PERLMUTTER, Amos, *Egypt. The praetorian state*, New Brunswick 1974.
- PERONCEL-HUGOZ, Jean-Pierre, *Une croix sur le Liban*, Paris 1984.
- PETRAN, Tabitha, *The Struggle over Lebanon*, New York 1987.
- PICARD, Elizabeth, *Liban, état de discorde. Des fondations aux guerres fratricides*, Paris 1988.
- POHL-SCHÖBERLEIN, Monika, *Die schlitische Gemeinschaft des Südlbanon (Gabal, Amil) innerhalb des libanesischen konfessionellen Systems*, Berlin 1975.
- PRYCE-JONES, David, *The Face of Defeat, Palestinian Refugees and Guerillas*, London 1974.
- PYE, Lucian, *Aspects of Political Development*, Boston 1966.
- QUANDT, William B., *Decade of Decisions. American policy toward the Arab Israeli conflict. 1967-1976*, Berkeley 1977.
- , Fuad JABBER and Ann Mosely LESCH, *The Politics of Palestinian Nationalism*, Berkeley 1973.
- QUBAIN, Fahim I., *Crisis in Lebanon*, Washington 1961.
- RABBATH, Edmond, *La formation historique du Liban politique et constitutionnel. Essai de synthèse*, Beirut 1973.
- RABINOVICH, Itamar, *The War for Lebanon, 1970-1983*, Ithaca and London 1984.
- RABUSCHKA, Alvin, *A Theory of Racial Harmony*, Columbia 1974.
- and Kenneth A. SHEPSLE, *Politics in Plural Societies. A theory of democratic instability*, Columbus, Ohio 1972.
- RAPHAEL, Pierre, *Le rôle du Collège Maronite Romain dans l'orientalisme aux XVIIème et XVIIIème siècles*, Beirut 1950.
- RAYMOND, André et al. (eds.), *La Syrie d'aujourd'hui*, Paris 1980.
- RENNER, Karl, *Das Selbstbestimmungsrecht der Nationen, in besonderer Anwendung auf Österreich*, Leipzig and Vienna 1918.
- REPUBLIQUE LIBANAISE, Ministère du Plan, Direction Centrale de la Statistique. *Enquête par sondage sur la population active au Liban. 2 Vols.*, Beirut 1972.
- , Ministère du Plan, *Mission IRFED-Liban 1960-61*, Beirut n.d.
- RIECK, Andreas, *Die Schiliten und der Kampf um den Libanon. Politische Chronik 1958-1988*, Hamburg 1989.
- RISTELHUEBER, René, *Les traditions françaises au Liban*, Paris 1918.
- RONDOT, Pierre, *Les institutions politiques du Liban*, Paris 1947.
- , *Les chrétiens d'Orient (Cahiers de l'Afrique et de l'Asie. Vol. 4)*, Paris 1955.
- ROTHSCHILD, Joseph, *Ethnopolitics. A conceptual framework*, New York 1981.
- SADAT, Anwar, *Revolt on the Nile*, London 1957.
- SAFA, Elie, *L'émigration libanaise*, Beirut 1960.
- SALEM, Elie, *Modernization without Revolution. Lebanon's experience*, Bloomington 1973.
- SALIBI, Kamal S., *Crossroads to Civil War. Lebanon 1958-1976*, New York 1976.
- , *The Modern History of Lebanon*, London 1977 (reprint).
- , *A House of Many Mansions. The history of Lebanon reconsidered*, London 1988.
- SAMNE, Georges, *La Syrie*, Paris 1920.
- SAUNDERS, Harold H., *The Other Walls. The politics of the Arab-Israeli peace process*. American Enterprise Institute for Public Policy Research (A.E.I.), Washington 1985.
- SAYEGH, Raymond, *Les conflits dans les zones de crise: Le Proche-Orient et le Liban*, n.p. 1985.
- SCHIEFFLER, Thomas, *Ethnischreligiöse Konflikte und gesellschaftliche Integration im Vorderen und Mittleren Orient*, Literaturverlag, Berlin 1982.
- SCHIFF, Ze'ev, *October Earthquake: Yom Kippur 1973*, Tel Aviv 1974.
- and Ehud YA'ARI, *Israel's Lebanon War*, London and Sydney 1984.
- SCHILLER, David Thomas, *Der Bürgerkrieg im Libanon. Entstehung. Verlauf. Hintergründe*, Munich 1979.

- , Palästinenser zwischen Terrorismus und Diplomatie. Die paramilitärische palästinensische Nationalbewegung von 1918 bis 1981, Munich 1982.
- SCHMUCKER, Werner, Krise und Erneuerung im libanesischen Drusentum, Bonn 1979.
- SHAKED, Haim and Itamar RABINOVICH (eds.), The Middle East and the United States, New Brunswick 1980.
- SHARABI, Hisham, Palestine and Israel: The lethal dilemma, New York 1969.
- , Neopatriarchy. A theory of distorted change in Arab society, New York and Oxford 1988.
- SHARAF, Shamir, Die Palästinenser. Geschichte der Entstehung eines nationalen Bewusstseins, Vienna 1983.
- SHEHADI, Nadim and Dana Haffar MILLS (eds.), Lebanon: A history of conflict and consensus, London 1988.
- SHILS, Edward, Political Development in the New States, The Hague 1965.
- SHWADRAN, B., Jordan: A state of tension, New York 1959.
- SMITH, M.G., The Plural Society in the British West Indies, Berkeley 1965.
- SOU'AL (Viermonatszeitschrift), Sondernummer, L'islamisme aujourd'hui, Paris 1985.
- SPAGNOLO, John P., France and Ottoman Lebanon, 1861-1914, London 1977.
- SPRINGER, Rudolf (Pseudonym für Karl Renner), Der Kampf der österreichischen Nationen um den Staat, Leipzig and Vienna 1902.
- SRINIVAS, M.N., Caste in Modern India and other Essays, London 1962.
- , Social Change in Modern India, Berkeley 1967.
- , Social Change in Modern India, Berkeley 1967.
- STEIN, Gustav and Udo STEINBACH (eds.), The Contemporary Middle Eastern Scene, Opladen 1979.
- STEINBACH, Udo and Rüdiger ROBERT (eds.), Der Nahe und Mittlere Osten. Politik, Gesellschaft, Wirtschaft, Geschichte, Kultur. 2 Vols., Opladen 1988.
- SUAD, Joseph and Barbara L.X. PILLSBURY (eds.), Muslim-Christian Conflicts: Economic, political and social origins, Boulder, Col. and Folkstone 1978.
- SULEIMAN, Michael W., Political Parties in Lebanon. The challenge for a fragmental political culture, Ithaca and New York 1967.
- SWEET, Louise E. (ed.), Peoples and Cultures of the Middle East. An anthropological reader, 2 Vols., Garden City, N.Y. 1970.
- THOMPSON, Dennis L. and Dov RONEN (eds.), Ethnicity. Politics and Development, Boulder, Col. 1986.
- TIBI, Bassam, Die Krise des modernen Islams. Eine vorindustrielle Kultur im wissenschaftlich-technischen Zeitalter, Munich 1981.
- , Der Islam und das Problem der kulturellen Bewältigung sozialen Wandels, Frankfurt 1985.
- , Vom Gottesreich zum Nationalstaat. Islam und panarabischer Nationalismus, Frankfurt 1987.
- TOCQUEVILLE, Alexis de, Der alte Staat und die Revolution, Hamburg 1969.
- TOUFIK, Touma, Paysans et Institutions féodales chez les druzes et les maronites du Liban du XVIIème siècle à 1914, Beirut 1971.
- TUENI, Ghassan, Une guerre pour les autres, Paris 1985.
- TYAN, Emile, Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam, Paris 1938.
- UNIVERSITE LIBANAISE, Institut des Sciences Sociales (ed.), La politique de la population au Liban, Beirut 1982.
- VALLAUD, Pierre, Le Liban au bout du fusil. Avant-propos de Jean Lacouture, Paris 1976.
- VAN DAM, Nikolaos, The Struggle for Power in Syria. Sectarianism, regionalism and tribalism in politics, 1961-1978, London 1979.
- VAN DEN BERGHE, Pierre L., The Ethnic Phenomenon, New York and Oxford 1981.
- WAHBA, Mourad (ed.), Youth, Violence, Religion. Secularization and desecularization, Cairo 1983.
- WEBER, Max, Wirtschaft und Gesellschaft. Grundriss der verstehenden Soziologie, Vol. 1(I), Tübingen 1976.
- WHETTEN, Lawrence C., The Canal War: Four-power conflict in the Middle East, Cambridge, Mass. 1974.
- WINKLER, Heinrich August (ed.), Nationalismus in der Welt von heute, Göttingen 1982.
- WYM, W., Nasser of Egypt. The search for dignity, Cambridge, Mass. 1959.
- YAARI, Ehud, Strike Terror. The story of Fatah, New York 1970.

- YAMAK, Labib Zuwiyya, *The Syrian Social Nationalist Party: An Ideological analysis*, Cambridge, Mass. 1966.
- YANIV, Avner, *Dilemmas of Security Politics, Strategy, and the Israeli Experience in Lebanon*, New York and Oxford 1987.
- The YEARBOOK of Education, London 1949.
- YOUNES, Riad, *Politik und Proporzsystem in einer südlibanesischen Dorfgemeinschaft. Eine empirisch sozio-politische Untersuchung*, Munich 1975.
- YOUNG, Crawford, *The Politics of Cultural Pluralism*, Madison, Wisc. 1976.
- ZAMIR, Meir, *The Formation of Modern Lebanon*, London 1985.
- ZAPF, Wolfgang (ed.), *Theorien des sozialen Wandels*, Cologne and Berlin 1969.
- ZIADEH, Nicola Abdo, *Syria and Lebanon*, Beirut 1968.

ب- مقالات في مجلات ومراجع علمية

- AHMED, Naveed, *The Lebanese Crisis: The role of the PLO*, in: *Pakistan Horizon*, 29 (1976)1, pp.31-46.
- ALAM, Jihad, *Crise dans la Crise, Guerre dans la Guerre*, in: *Les Cahiers de l'Orient*, 14 (1989)2, pp.35-48.
- AL-AZMEH, Aziz, *The Progressive Forces*, in: Roger OWEN (ed.), *Essays on the Crisis in Lebanon*, London 1976, pp. 59-72.
- ALEM, Jean-Pierre, *Troubles insurrectionnels au Liban*, in: *Orient*, 2 (1958)6, pp. 37-47.
- ALMOND, Gabriel, *Comparative Political Systems*, in: *The Journal of Politics*, 18 (1956), pp. 397.
- ANSARI, Hamied N., *The Islamic Militants in Egyptian Politics*, in: *International Journal of Middle East Studies*, 16 (1984), pp. 123-144.
- AUCAGNE, Jean, *L'imam Moussa Sadr et la communauté chiite*, in: *Travaux et Jours*, 53 (1974), pp. 31-51.
- AVI-RAN, Reuven, *The Syrian Military-Strategic Interests in Lebanon* in: *The Jerusalem Quarterly*, 46 (1988), pp. 131-144.
- AZAR, Edward E. and Kate SHNAYERSON, *United States - Lebanese Relations: A pocketful of paradoxes*, in: Edward E. AZAR et al. (ed.), *The Emergence of a New Lebanon*, New York 1984, pp. 219-275.
- BAGLEY, Christopher, *Racism and Pluralism: A dimensional analysis of forty-eight countries*, in: *Race*, 13 (1972)3, pp. 347-354.
- BAILEY, Clinton, *Lebanon's Shi'is after the 1982 War* in: Martin KRAMER (ed.), *Shi'ism, Resistance and Revolution*, Boulder, Col. and London 1987, pp. 219-236.
- BARAKAT, Halim, *Social and Political Integration in Lebanon: A case of social mosaic*, in: *Middle East Journal*, 27 (1973), pp. 301-318.
- BARON, H. M., *Racial Domination in Advanced Capitalism: A theory of nationalism and divisions in the labor market*, in: R.C. EDWARDS et al. (eds.), *Labor Market Segmentation*, Lexington, Mass. 1975, pp.173-216.
- BASILE, Antoine, *Contraintes et perspectives de l'économie libanaise*, in: Joseph ABOU JAOUDE et al., *La nouvelle société libanaise dans la perception des Fa'aliyat (decision-makers) des communautés chrétiennes*, Vol. 3, *Etudes et Rapports*, Kaslik 1984, pp.263-286.
- BENTLEY, G. Carter, *Theoretical Perspectives on Ethnicity and Nationality*, in: *Sage Race Relations Abstracts*, 8 (1983)2, pp. 1-53.
- BERNER, Wolfgang, *Die Nah- und Mittelostpolitik der UdSSR*. In: Udo STEINBACH and Rüdiger ROBERT (eds.), *Der Nahe und Mittlere Osten. Politik, Gesellschaft, Wirtschaft, Geschichte, Kultur*, Vol. 1, Opladen 1988, pp.711-778.
- BEYDOUN, Ahmad, *Le Liban pacifié. Dissolution des milices? Renaissance de la société civile?*, in: *Centre d'Action et d'Information sur le Liban* (ed.), *Perspectives et réalités du Liban*, Paris n.d. (1993), pp. 70f.
- BÖDIGHEIMER, Walter, *Die arabischen Gipfelkonferenzen von Riad und Kairo. Ein Versuch zur Lösung der Libanon-Krise*, in: *Europa-Archiv*, 32 (1977)2, pp. D 48-D 54.
- BOURGEY, André, *Beyrouth. ville éclatée*, in: *Hérodote*, 17 (1980)1, pp. 5-30.
- BRYER, David, *The Origins of the Druze Religion* in: *Der Islam*, 52 (1975), pp. 47-84 and 53 (1976), pp.4-27.

- BÜTTNER, Friedemann, Der Islam und die Entfaltung der arabischen politischen Ideen, in: Karl KAISER and Udo STEINBACH (eds.), *Deutsch-Arabische Beziehungen*, Munich 1981, pp. 27-43.
- BURAWOY, M., Race, Class and Colonialism, in: *Social and Economic Studies*, 23 (1974), pp.521-560.
- CARRA DE VAUX, B., Druzes, in: H.A.R. GIBB and J.H. KRAMERS (eds.), *Shorter Encyclopedia of Islam*, Leiden 1953, pp. 94.
- CARRE, Olivier, Le mouvement idéologique ba'ithiste, in: André RAYMOND et al. (eds.), *La Syrie d'aujourd'hui*, Paris 1980, pp. 185-224.
- CEROC, Le droit à la différence pour plus de justice et de liberté. Centre d'Etudes de Recherches sur l'Orient Chrétien, First Colloquium, Beirut 1985.
- CHAOUL, Melhem, Le dispositif de la guerre au Liban, fonction de réduction in: Fondation Libanaise pour la Paix Civile Permanente (ed.), *Le droit à la mémoire*, Beirut 1988, pp. 60-39 (Arab pagination).
- COAKLEY, John, National Territories and Cultural Frontiers: Conflicts of principle in the formation of states in Europe, in: *West European Politics*, 5 (1982), pp. 34-49.
- COBBAN, Alfred, The Nation-State and National Self-Determination, New York 1969.
- COLLINS, James F., The Soviet Union, in: P. Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (eds.), *Lebanon in Crisis. Participants and Issues*, Syracuse and New York 1979, pp. 209-223.
- CONNOR, Walker, Self Determination. The new phase, in: *World Politics*, 20 (1967), pp.30-53.
- , Nation Building or Nation Destroying, in: *World Politics*, 24 (1972)3, pp. 319-355.
- , A Nation is a Nation, is a State, is an Ethnic Group, is a... , in: *Ethnic and Racial Studies*, 1 (1978)4, pp. 377-400.
- COOLEY, John K., The Palestinians, in: P. Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (eds.), *Lebanon in Crisis. Participants and issues*, Syracuse and New York 1979, pp. 21-54.
- CORM, Georges, Quelques réflexions méthodologiques et historiques sur la perception de la société libanaise par les élites des communautés chrétiennes', in: Joseph ABOU JAOUDE et al., *La nouvelle société libanaise dans la perception des Fa'aljyat (decision-makers) des communautés chrétiennes*, Vol. 3, Etudes et Rapports, Kaslik 1984, pp. 45-61.
- CROW, Ralph E., Religious Sectarianism in the Lebanese Political System, in: *The Journal of Politics*, 24 (1962)3, pp. 489-520.
- DAALDER, Hans, The Consociational Democracy Theme, in: *World Politics*, 26 (1974)4, pp.604-621.
- DAVIES, James C., Toward a Theory of Revolution, in: *American Sociological Review*, 27 (1962), pp. 5-19.
- DAWISHA, Adeed, J., The Transnational Party in Regional Politics: The Arab Ba'ith Party, in: *Asian Affairs*, 61 (1974)1, pp. 23-31.
- , The Impact of External Actors on Syria's Intervention in Lebanon, in: *Journal of South Asian and Middle Eastern Studies*, 2 (1978)1, pp. 22-43.
- DEKMEJIAN, Hrair Richard, Consociational Democracy in Crisis: The case of Lebanon, in: *Comparative Politics*, 10 (1978), pp. 251-265.
- DELPAT, Raymond, Blocages économiques et crise sociale au Liban, in: *Etudes des cahiers de l'orient contemporain*, 26 (April 1969), pp. 5-12.
- DEUTSCH, Karl W., Social Mobilization and Political Development, in: *American Political Science Review*, 55 (1961)3, pp. 493-514.
- , External Involvement in Internal War, in: Harry ECKSTEIN (ed.), *Internal War. Problems and approaches*, London 1964, pp. 100-110.
- EL-SOLH, Alia, Nommer le mal, in: *Le Monde*, 25.4.1989.
- ENDE, Werner, Imam Musa as Sadr, in: *Orient*, 14 (1973)3, p. 103.
- ENTELIS, John P., Ethnic Conflict and the Reemergence of Radical Christian Nationalism in Lebanon, in: Michael CURTIS (ed.), *Religion and Politics in the Middle East*, Boulder, Col., 1981, pp. 227-245.
- ESMAN, Milton J., The Management of Communal Conflict, in: *Public Policy*, 21 (1973), pp. 49-78.
- , Two Dimensions of Ethnic Politics: Defense of homelands, immigrant rights, in: *Ethnic and Racial Studies*, 8 (1985)3, pp. 438-440.
- FAOUR, Ali, The Displacement Crisis and Force Migration in Beirut in 1984 in: Salim NASR and Theodor HANF (eds.), *Urban Crisis and Social Movements. Arab and European Perspectives*, Beirut 1987, pp. 165-198.

- FARSOUN, Samih K., Family Structure and Society In Modern Lebanon, in: Louise E. SWEET (ed.), Peoples and cultures of the Middle East. An anthropological reader, 2 Vols., Garden City, N.Y. 1970, pp. 257-307.
- and Walker CAROLL, The Civil War in Lebanon: Sect, class, and imperialism", in: Monthly Review, 28 (1976)2, pp. 12-37.
- FRANZ, Erhard, Religiöse und periphere Minderheiten, in: Udo STEINBACH and Rüdiger ROBERT (eds.), Der Nahe und Mittlere Osten. Politik, Gesellschaft, Wirtschaft. Geschichte, Kultur, Vol. 1, Opladen 1988, pp. 67-78.
- GAMMER, Moshe, The War in Lebanon: The course of hostilities, in: Colin LEGUM et al. (eds.), Middle East Contemporary Survey, Vol. VI, 1981-82, New York and London 1984, pp. 128-157.
- GEERTZ, Clifford, The Integrative Revolution: Primordial sentiments and civil politics in the new states, in: idem (ed.), Old Societies and New States. The quest for modernity in Asia and Africa, London 1963, pp. 105-157.
- GRIMBLAT, Francis, La communauté chiite libanaise et le mouvement national palestinien 1967-1986, in: Guerres mondiales et conflits contemporains, 151 (1988), pp. 71-91.
- HAKIM, Georges, The Economic Basis of Lebanese Polity, in: Leonard BINDER (ed.), Politics in Lebanon, New York 1966, pp. 57-68.
- HAMADE, Marwan, L'Islam libanais, du nassérisme à la participation, in: Travaux et Jours, (1974)53, pp. 5-12.
- HANF, Theodor, Le comportement politique des étudiants libanais, in: Travaux et Jours, 46 (1973), pp. 5-52.
- , The 'Political Secularization' Issue in Lebanon, in: Annual Review of the Social Sciences of Religion, 5 (1981), pp. 225-253.
- , Die christlichen Gemeinschaften im gesellschaftlichen Wandel des arabischen Vorderen Orients, in: Orient, 22 (1981)1, pp. 29-49.
- , Arabismus und Islamismus, in: Heinrich August WINKLER (ed.), Nationalismus in der Welt von heute, Göttingen 1982, pp. 157-176.
- , Beirut. Konflikt und Koexistenz in einer geteilten Stadt, in: Geographische Rundschau, 37 (1985)9, pp. 454-461.
- , The Prospects of Accomodation in Communal Conflicts: A comparative study, in: Peter A. DÖRING et al. (eds.), Bildung in sozio-ökonomischer Sicht, Cologne and Vienna 1989, pp. 313-332.
- HARIK, Iliya F., Lebanon, in: Jacob M. LANDAU et al. (eds.), Electoral Politics in the Middle East. Issues, voters and elites, London 1980, pp. 145-171.
- , The Economic and Social Factors in the Lebanese Crisis, in: Journal of Arab Affairs, 1 (1981/1982)2, pp. 209-244.
- HARRIS, William W., La politique libanaise de Hafez el-Hassad, in: Bassma KODMANI-DARWISH (ed.), Liban: Espoirs et réalités, Paris 1987, pp. 91-117.
- HOTTINGER, Arnold, An Eye-Witness Report on Iraq, in: Swiss Review of World Affairs, 9 (1959), pp. 12-16.
- , Zu'ama' and Parties in the Lebanese Crisis of 1958, in: The Middle East Journal, 15 (1961)2, pp. 127-140.
- , Zu'ama' in Historical Perspective, in: Leonard BINDER (ed.), Politics in Lebanon, New York 1966, pp. 85-105.
- , How the Arab Bourgeoisie Lost Power, in: Journal of Contemporary History, 3 (1968), pp. 111-128.
- , Syrische Wünsche nach Gleichschaltung im Libanon, in: Neue Zürcher Zeitung, 8.1.1986.
- , Verfassungsentwurf Teherans für Libanon - über die Ausbreitung der iranischen Revolution, in: Neue Zürcher Zeitung, 6.5.1987.
- , Dreissigjähriger Krieg der Araber?, in: Neue Zürcher Zeitung, 24.11.1987.
- , Arafats Friedensangebot an Israel. Ein Durchbruch in der Palästinafrage?, in: Europa-Archiv, 44 (1989)2, pp. 39-46.
- HOURANI, Albert H., Ideologies of the Mountain and the City, in: Roger OWEN (ed.), Essays on the Crisis in Lebanon, London 1976, pp. 33-41.
- HUDSON, Michael C., Review of Chamoun, Crise au Moyen-Orient, in: Middle East Journal, 18 (1964)2, pp. 245.

- , The Lebanese Crisis: The Limits of consociational democracy, in: *Palestine Studies*, 5 (1976), pp. 109-122.
- , The Problem of Authoritative Power in Lebanese Politics. Why consociationalism failed, in: Nadim SHEHADI and Dana Haffar MILLS (eds.), *Lebanon: A history of conflict and consensus*, London 1988, pp. 224-239.
- HUNTINGTON, Samuel P., Preface to Eric A. NORDLINGER, *Conflict Regulation in Divided Societies*, Cambridge, Mass. 1972.
- JUPP, James, Ceylon and Malaysia, in: Adrian LEFTWICH (ed.), *South Africa. Economic growth and political change. With comparative studies of Chile, Sri Lanka and Malaysia*, London and New York 1974, pp.187-211.
- JUREIDINI, Paul A., Lebanon's Regional Policy, in: Edward E. AZAR et al. (eds.), *The Emergence of a New Lebanon. Fantasy or reality?*, New York 1984, pp. 207-218.
- and R.D. McLAURIN, Lebanon after the War of 1982, in: Edward E. AZAR et al. (eds.), *The Emergence of a New Lebanon. Fantasy or reality?*, New York 1984, pp.3-35.
- KARPAT, Kemal H., The Ottoman Ethnic and Confessional Legacy in the Middle East, in: Milton J. ES MAN and Itamar RABINOVICH (eds.) *Ethnicity Pluralism, and the State in the Middle East*, Ithaca and London 1988, pp. 35-53.
- KASSIR, Samir, L'affirmation des chîlites libanais, in: *Le Monde Diplomatique*, May 1985, p. 12.
- KERR, Malcolm H., Rezension zu Qubain, in: *Middle East Journal*, 16 (1962) 1, pp. 96.
- KEYES, Charles F., Towards a New Formulation of the Concept of the Ethnic Groups, in: *Ethnicity*, 3 (1976), pp.202-213.
- KHALAF, Samir, On Entrapment and Escalation of Violence, in: *American Arab Affairs*, 24 (Spring 1988), pp.14-18.
- KHALAF, Tewfik, The Phalange and the Maronite Community: From Lebanonism to Maronitism, in: Roger OWEN (ed.), *Essays on the Crisis in Lebanon*, London 1976, pp. 43-57.
- KHALID, Detlev, Nabih Berri (Nabih Birri), in: *Orient*, 26 (1985), pp. 141-146.
- KHOURI, Fred J., The Arab-Israeli Conflict, in: P. Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (eds.), *Lebanon in Crisis. Participants and Issues*, Syracuse and New York 1979, pp. 161-177.
- KHURI, Fuad I, Sectarian Loyalty among Rural Migrants in Two Lebanese Suburbs: A stage between family and national allegiance, in: Richard ANTOUN and Iliya HARIK (eds.), *Rural Politics and Social Change in the Middle East*, Bloomington and London 1972, pp. 198-213.
- KIWAN, Fadia, Stratification sociale et identification politique à Bourj el Barajneh. Social stratification and political identity in a Beirut suburban village, in: *L'Afrique et l'Asie Modernes*, 115 (1977)4, pp. 15-27.
- KODMANI-DARWISH, Bassma, Frankreich, ein zuverlässiger Verbündeter Libanons, in: *Beiträge zur Konfliktforschung*, 14 (1984)3, pp. 77-91.
- , L'Iran, nouvel acteur fort au Liban?, in: Idem (ed.), *Liban: Espoirs et réalités*, Paris 1987, pp.153-164.
- KURANI, Habib, Lebanon, Educational Reform, in: *The Yearbook of Education*, London 1949.
- LABAKI, Boutros, Structuration communautaire, rapports de force entre minorités et guerres au Liban, in: *Guerres mondiales et conflits contemporains*, 151 (1981), pp. 43-70.
- , L'économie politique du Liban indépendant 1943-1975, in: Nadim SHEHADI and Dana Haffar MILLS (eds.), *Lebanon: A history of conflict and consensus*, London 1988, pp. 166-180.
- LECHLEITNER, Herwig, Konfessionsgruppen und Wirtschaftsleben im Libanon, in: *Geographische Rundschau*, 24 (1972)6, pp. 213-218.
- LEHMBRUCH, Gerhard, Konkordanzdemokratie im politischen System der Schweiz, in: *Politische Vierteljahresschrift*, 9 (1968), pp. 443-459.
- , Consociational Democracy in the International System, in: *European Journal of Political Research*, 3 (1975)4, pp. 377-391.
- LIST, Harald, Antoine Lahad, in: *Orient*, 29 (1988)2, pp. 179-187.
- MAILA, Joseph, Le 'Document d'Entente Nationale'. Un commentaire, in: *Les Cahiers de l'Orient*, 16-17 (1990)1, pp. 135-217.
- , L'accord de Taëf: Deux ans après, in: *Centre d'Action et d'Information pour le Liban* (ed.), *Perspectives et réalités du Liban*, Paris n.d. (1993), p. 56.
- , Liban: Les élections sous influence, *Les Cahiers de l'Orient*, in the press.

- MARSHALL, Susan E., Paradoxes of Change: Culture crisis, islamic revival, and the reactivation of patriarchy, in: *Journal of Asian and African Studies* 19 (1984)1-2, pp. 1-17.
- MAYER, Thomas, Lebanese Politics and the 'Missile Crises', in: Colin LEGUM et al. (eds.), *Middle East Contemporary Survey*, Vol. V, 1980-81, New York and London 1982, pp. 675-676.
- McDONALD, D.B., Dhimma, in: H.A.R. GIBB and J.H. KRAMERS (eds.), *Shorter Encyclopedia of Islam*, Leiden 1953, pp. 55f.
- McKAY, James, An Exploratory Synthesis of Primordial and Mobilizationist Approaches to Ethnic Phenomena, in: *Ethnic and Racial Studies*, 5 (1982)4, pp.395-420.
- McLAURIN, Ronald D., Lebanon and its Army: Past, present and future, in: Edward E. AZAR et al. (eds.), *The Emergence of a New Lebanon. Fantasy or reality?*, New York 1984, pp. 79-114.
- MERTZ, Robert Anton, Why George Habbash Turned Marxist, in: *Mideast Magazine*, 10 (1970)4, pp. 31-36.
- MESSARRA, Antoine Nasri, Un modèle consociatif au Proche-Orient arabe: Approche comparative du système politique libanais, in: *Droit, institutions et système politique*, Paris 1987.
- NAHAS, Dunia, L'évolution des organisations palestiniennes, in: *Travaux et Jours*, 52 (1974), pp. 77-99.
- NASR, Sâlim, Pour éclairer la guerre civile au Liban. Jalons pour une position des rapports entre confessions et société libanaise, in: Jean BAUBEROT et al. (eds.), *Palestine et Liban. Promesses et mensonges de l'Occident*, Paris 1977, pp. 144-159.
- , Les formes de regroupement traditionnel dans la société de Beyrouth, in: Dominique CHEVALLIER (ed.), *L'espace social de la ville arabe*, Paris 1979, pp. 145-198.
- , L'Islam politique et l'Etat libanais (1920-1975), in: Olivier CARRE (ed.), *L'Islam et l'Etat dans le monde d'aujourd'hui*, Paris 1982, pp. 31-43.
- , Mobilisation communautaire et symbolique religieuse: L'imam Sadr et les chiïtes du Liban (1970-1975), in: Mourad WAHBA (ed.), *Youth, Violence, Religion. Secularization and de-secularization*, Cairo 1983, pp. 384-403.
- , Beyrouth: Remarques sur les acteurs d'un drame urbain, in: Sâlim NASR and Theodor HANF (eds.), *Urban Crisis and Social Movements. Arab and European Perspectives*, Beirut 1987, pp. 141-146.
- , A New Approach to the Conflict: The social dynamics of an internal war, in: *American-Arab Affairs*, 24 (Spring 1988), pp.19-21.
- NASR, Marlène and Salim, Morphologie sociale de la banlieue-est de Beyrouth, in: *Maghreb-Machrek* (1976)73, pp. 78-88.
- NASR, Nafhat and Monte PALMER, Alienation of Political Participation in Lebanon, in: *International Journal of Middle East Studies*, 8 (1977), pp.493-516.
- NORTON, Augustus Richard, Harakat Amal, in: Edward E. AZAR et al. (eds.), *The Emergence of a New Lebanon. Fantasy or reality?*, New York 1984, pp. 162-204.
- , Waiting for the Nadir, in: *American Arab Affairs*, 24 (Spring 1988), pp. 21-25.
- OLMERT, Yosef, Lebanon, in: Colin LEGUM et al. (eds.), *Middle East Contemporary Survey*, Vol. VI, 1981-82, London and New York 1984, pp.702-733.
- OLSON, Mancur, Rapid Growth as a Destabilizing Force, in: *Journal of Economic History*, 23 (1963), pp. 529-552.
- PICARD, Elizabeth, La politique de la Syrie au Liban, in: *Maghreb-Machrek*, Nr. 116 (1987), pp.6-34.
- , Political Identities and Communal Identities: Shifting mobilization among the Lebanese Shi'a through ten years of war, 1975-1985, in: Dennis L. THOMPSON and Dov RONEN (eds.), *Ethnicity, Politics and Development*, Boulder, Col. 1986, pp. 159-178.
- PIPES, Daniel, Damascus and the Claim to Lebanon, in: *Orbis*, 30 (1987)4, pp. 663-681.
- PORAT, Yehoshua, The Peasant Revolt of 1858-61 in Kisrawan, in: *Asian and African Studies* (1966)2, pp. 77-157.
- QUANDT, William B., Lebanon, 1958, and Jordan, 1970, in: Barry M. BLECHMAN and Stephen S. KAPLAN (eds.), *Force without War. The use of the armed forces as a political instrument*, Washington 1978, pp.222-288.
- , Reagan's Lebanon Policy: Trial and error, in: *The Middle East Journal*, 38 (1984)2, pp. 237-254.

- RABINOVICH, Itamar, The Limits of Military Power: Syria's role, in: P. Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (eds.), Lebanon in Crisis. Participants and issues, Syracuse and New York 1979, pp. 55-73.
- Le RAPPORT du Père Lebret, in: Le Commerce du Levant, 1 (1960)3, p. 25.
- REISSNER, Johannes, Säkularisierung des Libanon? Äusserungen von Muslimen zum neuen Schlagwort 'Almana', in: Orient, 17 (1976)3, pp. 13-37.
- , Die militant-islamischen Gruppen, in: Werner ENDE and Udo STEINBACH (eds.), Der Islam in der Gegenwart, Munich 1984, pp.470-486.
- RIECK, Andreas, Syriens beharrliche Strategie im Libanon, in: Frankfurter Allgemeine Zeitung, 29.7.1989.
- RONDOT, Pierre, Les nouveaux problèmes de l'état libanais, in: Revue Française de Science Politique, 2 (1954), pp. 326-356.
- , L'expérience du collège unique dans le système représentatif libanais, in: Revue Française de Science Politique, Vol. VII, 1957, pp. 67ff.
- , Quelques réflexions sur les structures du Liban, in: Orient, 2 (1958)6, pp. 23-36.
- , Le Liban devant la résistance palestinienne, in: Revue de la Défense Nationale, 25 (1969), pp.1410-1432.
- ROSS, Jeffrey A., Urban Development and the Politics of Ethnicity: A conceptual approach, in: Ethnic and Racial Studies, 5 (1982)4, pp.440-456.
- ROZAT, G. and R. BARTRA, Racism and Capitalism, in: Sociological Theories. Race and colonialism, Paris 1980.
- SABA, Paul, The Creation of the Lebanese Economy - economic growth in the nineteenth and twentieth centuries, in: Roger OWEN (ed.), Essays on the Crises in Lebanon, London 1976, pp. 1-22.
- SAID, Edward W., Palestinians in the Aftermath of Beirut, in: Journal of Palestine Studies, 12 (1983)46, pp. 3-9.
- SALEM, Elie, Cabinet Politics in Lebanon, in: The Middle East Journal, 21 (1967)4, pp. 488-502.
- SALIBI, Kamal S., 'Right' and 'Left' in Lebanon, in: Gustav STEIN and Udo STEINBACH (eds.), The Contemporary Middle Eastern Scene, Opladen 1979, pp.97-104.
- , Lebanon since the Crisis of 1958, in: The World Today, 17 (1961)1, pp.32-42.
- , L'historiographie libanaise, histoire de vanité, in: L'Orient, 25.5.1965.
- , The Personality of Lebanon in Relation to the Modern World, in: Leonard BINDER (ed.), Politics in Lebanon, New York 1966, pp.263-270.
- SANAN, Fernand, Notes sur la répartition du revenu au Liban in: L'économie des pays arabes, étude mensuelle, 20 (1977)222, pp. 9-15.
- SAYIGH, Rosemary, The Struggle for Survival. The economic conditions of palestinian camp residents in Lebanon, in: Journal of Palestine Studies, 7 (1978)2, pp. 101-119.
- SCHIFF, Ze'ev, The Green Light, in: Foreign Policy, 50 (1983)1, pp.73-85.
- SCHLICHT, Alfred, The Role of Foreign Powers in the History of Lebanon and Syria from 1799 to 1861, in: Journal of Asian History, 14 (1980)2, pp. 97-126.
- SCHÖLCH, Alexander, Der libanesische Bürgerkrieg, in: Aus Politik und Zeitgeschichte (Beilage zu Das Parlament), 9.4.1977, pp. 3-21.
- SEURAT, Michel, Identité communautaire, violence urbaine, dérégulation du politique: un quartier populaire de Tripoli au Liban, in: Salim NASR and Theodor HANF (eds.), Urban Crises and Social Movements. Arab and European Perspectives, Beirut 1987, pp. 193-198.
- SHAPIRA, Shimon, The Origins of Hizbollah, in: The Jerusalem Quarterly, 46 (1988), pp. 115-130.
- SHILS, Edward, Primordial, Personal, Sacred, and Civic Ties, in: British Journal of Sociology, 8 (1957), pp. 130-145.
- SICKING, Thom, Déperissement d'un village libanais, in: Travaux et Jours, 47 (1973), pp. 5-21.
- SIRHAN, Bassem, Palestinian Refugee Camp Life in Lebanon, in: Journal of Palestine Studies, 4 (1975)2, pp. 91-107.
- SMITH, Anthony D., Towards a Theory of Ethnic Separatism, in: Ethnic and Racial Studies, 2 (1979)1, pp. 21-37.
- SMITH, M.G., Institutional and Political Conditions of Pluralism, in: Leo KUPER and M.G. SMITH (eds.), Pluralism in Africa, Berkeley and Los Angeles 1969, pp.27-66.
- SMOOGHA, Sammy, Pluralism and Conflict. A theoretical exploration, in: Plural Societies, 6 (1975)3, pp. 69-89.
- SNIDER, Lewis W. et al., Israel, in: P. Edward HALEY and Lewis W. SNIDER (eds.), Lebanon in Crisis. Participants and issues, Syracuse and New York 1979, pp. 91-112.

- , *The Lebanese Forces: Wartime origins and political significance*, in: Edward E. AZAR et al. (eds.), *The Emergence of a New Lebanon. Fantasy or reality?*, New York 1984, pp. 117-161.
- SPAGNOLO, John P., *Constitutional Change in Mount Lebanon: 1861-1864*, in: *Middle Eastern Studies*, 7 (1971)1, pp. 25-48.
- STEINBACH, Udo, *Ideengeschichte im Zeichen von Kolonialismus, Unabhängigkeitsbewegung und Modernisierung*, in: idem and Rüdiger ROBERT (eds.), *The Contemporary Middle Eastern Scene*, Opladen 1979, Vol. 1, pp. 135-184.
- , *Israelisch-arabischer Konflikt*, in: idem and Rüdiger ROBERT (eds.), *The Contemporary Middle Eastern Scene*, Opladen 1979, Vol. 1, pp. 639-661.
- STEMER-PICARD, Elisabeth, *Le Liban et la résistance palestinienne*, in: *Revue Française de Science Politique*, 25 (1975)1, pp. 5-22.
- STEPPAT, Fritz, *Die arabischen Staaten zwischen Ost und West*, in: Arnold BERGSTRÄESSER and Wilhelm CORNIDES (eds.), *Die Internationale Politik 1955. Eine Einführung in das Geschehen der Gegenwart*, Munich 1958, pp. 619-654.
- , *Nassers Revolution*, in: *Europa-Archiv*, 17 (1962), pp.163-173.
- , *Internationale Politik am Mittelmeer*, in: Karl CARSTENS et al. (eds.), *Die Internationale Politik 1966-67*, Munich 1973, pp. 207-305.
- , *Der Mittelostkonflikt nach dem Krieg von 1967*, in: Karl KAISER et al. (eds.), *Die Internationale Politik 1968-69*, Munich 1974, pp. 227-234.
- STOAKES, Frank, *The Supervigilantes: The Lebanese Kataeb Party as a builder, surrogate and defender of the State*, in: *Middle Eastern Studies*, 11 (1975)3, pp. 215-236.
- STOOKLEY, Robert W., *United States*, in: P. HALEY and Lewis W. SNIDER (eds.), *Lebanon in Crisis. Participants and issues*, Syracuse and New York 1979, pp.225-248.
- SULEIMAN, Michael W., *Crisis and Revolution in Lebanon*, in: *The Middle East Journal*, 26 (1972)1, pp.11-24.
- TABBARAH, Riad, *Background to the Lebanese Conflict*, in: *International Journal of Comparative Sociology*, 20 (1979)1-2, pp.101-121.
- , *Le développement arabe et les ressources humaines libanaises*, in: Université Libanaise. Institut des Sciences Sociales (ed.), *La politique de la population au Liban*, Beirut 1982.
- TABET, Jad, *Images de Beyrouth*, in: Salim NASR and Theodor HANF (eds.), *Urban Crisis and Social Movements. Arab and European Perspectives*, Beirut 1987, pp. 129-139.
- TERRILL, W. Andrew, *Low Intensity Conflict in Southern Lebanon: Lessons and dynamics of the Israeli Shi'ite War*, in: *Conflict Quarterly*, 7 (198), pp. 22-35.
- TIBI, Bassam, *Naher Osten - Nach dem Sechs-Tage-Krieg 1967 begann eine neue Epoche. Die regionalen und internationalen Folgen eines militarisierten Konflikts*, in: *Beiträge zur Konfliktforschung*, 17 (1987)4, pp. 69-98.
- VAN DAM, Nikolaos, *Middle Eastern Political Clichés: 'Takriti' and 'Sunni' Rule in Iraq; 'Alawi Rule' in Syria. A critical appraisal*, in: *Orient*, 21 (1980), pp. 42-57.
- VAN DEN BERGHE, Pierre L., *The Present State of Comparative Race and Ethnic Studies*, in: Jan BERTING et al. (eds.), *Problems in International Comparative Research in the Social Sciences*, Oxford 1979, pp. 23-36.
- , *Pluralism*, in: John J. HONIGMANN (ed.), *Handbook of Social and Cultural Anthropology*, Chicago 1974, pp. 959-977.
- WALLERSTEIN, Imanuel, *Social Conflict in Post-Independence Black Africa: The concepts of race and status-groups reconsidered*, in: E. CAMPBELL (ed.), *Racial Tensions and National Identity*, Nashville, Tenn. 1972, pp. 207-226.
- WOLPE, Harold, *The 'White' Working Class in South Africa*, in: *Economy and Society*, 5 (1976), pp. 197-240.
- ZUWIYYA YAMAK, Labib, *Party Politics in the Lebanese Political System*. in: Leonard BINDER (ed.), *Politics in Lebanon*, New York 1966, pp. 143-166.

ج- دراسات مستقلة وأبحاث غير منشورة

- ABOU RJAILY, Khaly and Boutros LABAKI, Bilan de treize ans de guerres au Liban: les pertes. 1ère édition provisoire, Beirut October 1987 (unpublished manuscript).
- AGGIOURI, René, Les problèmes actuels du Proche-Orient, Beirut 1960.
- ASSAF, Georges, September 1983: 'Bain de sang' dans la Montagne à la suite du brusque retrait des troupes israéliennes, Middle East Council of Churches (ed.) Beirut 1983.
- , Rapport sur la situation dans les deux districts du Chouf et d'Aley depuis l'invasion israélienne. Middle East Council of Churches (ed.), n.p.n.d.
- ASSOCIATION Libanaise du Planning Familial. La famille au Liban, mimeographed, Beirut 1971.
- ATIYAH, Najla, The Attitude of the Lebanese Sunnis Toward the State of Lebanon, dissertation, University of London 1973.
- BOUSTANY, Fouad E., Le problème du Liban, Kaslik 1978.
- CHAMIE, Joseph, Religious Fertility Differentials in Lebanon, dissertation, University of Michigan 1976.
- CONNOR, Walker, Ethnonational Versus Other Forms of Group Identity: The problem of terminology, Paper presented to the Conference on Pluralism, Cape Town May 1977.
- CONSEIL SUPERIEUR DES INTERETS COMMUNS, Recueil des Statistiques de la Syrie et du Liban, Beirut 1942-1943.
- La CRISE libanaise dans ses principales dimensions, n.p. 1976.
- CROW, Ralph E., Interest Groups in the Lebanese Political Process, Beirut 1962.
- DELPRAT, Raymond, Liban: L'évolution du niveau de vie en milieu rural 1960-1970, Beirut 1970.
- FOUNDATION FOR HUMAN AND HUMANITARIAN RIGHTS, The October Debacle: Report on Lebanon, Fall 1990, n.p. (Beirut) 4 November 1990.
- GENOCIDE au Liban, n.p. 1976.
- GREAT BRITAIN, The Covenant of the League of Nations, H.M.S.O., London 1935.
- HANF, Theodor and Salim NASR, Gewerkschaftliche Konkordanz im Libanon. Bestimmungsfaktoren gewerkschaftlicher Einheit in einer kulturell und politisch fragmentierten Gesellschaft. Eine empirische Untersuchung. Forschungsbericht des DIPF, Frankfurt 1982.
- HUDSON, Michael C., The Precarious Republic Revisited. Reflections on the collapse of pluralist politics in Lebanon, Contemporary Arab Studies Seminar Paper No. 2. Georgetown University, Washington 1977.
- HUSSEINI, Salma, Redistribution de la population du Liban pendant la guerre civile (1975-1988), unpublished dissertation, Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, Paris 1992.
- JOUMBLATT, Kamal, La démocratie économique, Cénacle libanais, Beirut 1950.
- , La démocratie sociale, Cénacle libanais, Beirut 1953.
- KHALIFE, Issam, A la recherche d'une politique ou d'un concept de sécularisation dans le Liban multiconfessionnel 1958-1975, dissertation, University of Paris-Sorbonne 1982.
- KRAMER, Martin, The Moral Logic of Hizbollah, Occasional Papers 101, Shiloah Institute, Tel Aviv 1987.
- LABAKI, Boutros, Rapports de force intercommunautaires et genèse des conflits internes au Liban, Paper delivered at the Congress of the European Consortium for Political Research, Freiburg im Breisgau 1983.
- , From Extended Family to the Community in Lebanon, mimeographed, Beirut 1988.
- , L'économie politique de la crise libanaise. Impact et enjeux, Faculty of Arts and Human Sciences, St. Joseph's University, mimeographed, Beirut 1988.
- LAURENT, Annie and Antoine BASBOUS, Le Liban et son voisinage, dissertation, Université de Droit, d'Economie et de Sciences Sociales, Paris 1986.
- THE LEBANESE NATIONAL MOVEMENT, Merip Reports, 61 (1977).
- LEBRET Report, cf. REPUBLIQUE LIBANAISE, Ministère du Plan, Mission IRFED-Liban.

- LEHMBRUCH, Gerhard, A Non-Competitive Pattern of Conflict Management in Liberal Democracies. The case of Switzerland, Austria and Lebanon (Paper delivered at the 7th Congress of the International Political Science Association), Brussels 1967.
- Le LIBAN que nous voulons bâtir. Texte du document diffusé par le Front Libanais en date du 23 décembre à Deir Aoukar, 1980.
- LIBAN 1975-1976. Qu'avons-nous fait et que faire?, n.p. 1976.
- LIST, Harald, Die südlibanesische Armee und ihr Territorium, unpublished manuscript, Freiburg im Breisgau 1988.
- LUMIERES franches sur la question libanaise, n.p. 1975.
- MALLAT, Chibli, Shi'i Thought from the South of Lebanon (Papers on Lebanon 7), Oxford 1988.
- THE MANDATE for Syria and Lebanon. 24. Juli 1922, in: League of Nations Official Journal, August 1922.
- MASS and OPTEM, Les Libanais et le Liban, Paris 1989.
- NACCACHE, Georges, Un nouveau style: Le chéhabisme, Beirut 1961.
- NASR, Salim. The Crisis of Lebanese Capitalism, in: Merip Reports, 73 (1978), pp. 3-13.
- , Redrawing the Social Geography of Lebanon. Research report, Fletcher School of Diplomacy, Tufts University, Cambridge, Mass. 1988.
- NOTE sur la question libanaise, n.p. 1975.
- NOTE explicative sur la situation au Liban, n.p. 1976.
- PICARD, Elizabeth, From Community-Class to Patriotic Struggle. An Attempt at an Analysis of the Role and Significance of the Shi'a in the Lebanese Political System (1970-1984), Paper delivered at the MESA Conference, San Francisco 1984.
- RAPPORT de l'IRFED, Beirut and Paris 1962, Dokumente I-1-13, 38 and 36.
- RAPPORT analytique sur l'attitude des musulmans du Liban depuis le 13 avril 1975, n.p. 1976.
- REPUBLIQUE Française, Rapport sur la situation en Syrie et au Liban à la Commission de Tutelle de la Société des Nations, Paris 1926-1939 (table 3).
- RESUME mensuel des travaux de la Société des Nations, Vol. 10, No. 7, July 1930.
- SA'AD ED-DIN, Ibrahim, Anatomy of Egypt's Militant Islamic Groups, Paper presented at the Congress of the Middle East Studies Association, Washington, November 1980.
- SALAM, Nawaf, L'insurrection de 1958 au Liban, dissertation, University of Paris-Sorbonne, 1979.
- , The Agony of Lebanon: Scenarios and Solutions, Harvard University, Center for International Affairs, mimeographed, Cambridge 1982.
- , Prospects for Lebanon. An essay on political opportunities and constraints, Oxford 1987.
- SALIBI, Kamal S., Lebanon and the Middle Eastern Question, Oxford 1988.
- SCHEMEIL, Yves, Sociologie du système politique libanais, dissertation, University of Grenoble, 1976.
- SCHILLER, David Thomas, Entstehung und Verlauf des libanesischen Bürgerkrieges, diploma dissertation, Berlin 1978.
- SMITH, M.G., The Nature and Variety of Plural Units, Yale University, mimeographed, New Haven 1982.
- STOLDT, Jürgen, Das Scheitern einer politischen Modernisierung: Säkularisierungsinitiativen im Libanon 1920-1976, M.A. thesis, University of Freiburg im Breisgau 1986.
- TEMOIGNAGES vivants sur la crise qui traverse le Liban, n.p. 1975.
- UNION DES JEUNES EUROPEENS, Livre Blanc du conflit Armée-Forces Libanaises, Paris n.d.
- YOUNES, Riad, Die libanesische internationale Migrationsbewegung. Eine Literaturstudie, Freiburg im Breisgau 1976.

المصادر العربية

- البستاني، جول فؤاد، أقدار وتوقعات، بيروت ١٩٧٩.
- اتحاد قوى الشعب العامل، التعيش الإسلامي المسيحي. كيف وعلى أي أساس؟ بيروت ١٩٨١.
- تقي الدين، ص، التطور التاريخي للمشكلة اللبنانية، بيروت ١٩٧٧.
- جابر، ه، السلطة والتوازن في لبنان، في: شؤون فلسطينية، ٥١/٥٠، بيروت، لا تاريخ.
- الحافظ، ياسين، قراءة نقدية لبعض طروحات الحرب في لبنان. في: لبنان الديمقراطي العربي العلمي، العدد ٨، بيروت ١٩٨١.
- الحص، سليم، نافذة على المستقبل، بيروت ١٩٧٩.
- خالد، حسن (الشيخ)، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية. محاضر اجتماعات قمة عرمون أثناء الحرب الأهلية، بيروت ١٩٧٨.
- خليفة، عصام، في معترك القضية اللبنانية، بيروت ١٩٨٥.
- خليفة، نبيل، لبنان الجديد. دراسة علمية تتقد البرنامج المرحلي للأحزاب اليسارية في لبنان وتطرح البرنامج البديل لبناء لبنان الجديد كما تراه وتريدته الكتاب اللبنانية. بقلم محلل "العمل السياسي". منشورات دار العمل. بيروت ١٩٧٧.
- الخوري، بشارة، حقائق لبنانية. ٣ أجزاء. بيروت ١٩٦٠.
- شراره، وضاح، حروب الاستتاع. لبنان الحرب الأهلية الدائمة. بيروت ١٩٧٩.
- شراره، وضاح، السلم الأهلي البارد. لبنان: المجتمع والدولة (١٩٦٤ - ١٩٦٧). بيروت ١٩٨٠.
- الصلح، منح، المارونية السياسية، سيرة ذاتية. بيروت ١٩٧٨.
- طرابلسي، فوز، قضية لبنان الوطنية والديمقراطية. بيروت ١٩٧٨.
- عامل، مهدي، النظرية في الممارسة السياسية. بحث في أسباب الحرب الأهلية في لبنان بيروت ١٩٧٩.
- عطية، نجلا، لبنان المشكلة والمأساة، بيروت ١٩٧٧.
- عون، فؤاد، ويبقى الجيش هو الحل، بيروت ١٩٨٨.
- فارس، وليد، الفكر المسيحي اللبناني الديمقراطي في مواجهة أطروحات التعريب والتذويب. لام. ١٩٨٠.
- قَباني، عبد العزيز، لبنان وصيغة المأساة. بيروت ١٩٨٢.
- قَباني، خالد، المركزية ومسألة تطبيقها في لبنان. بيروت وباريس ١٩٨١.
- لحود، فؤاد، مأساة جيش لبنان. بيروت ١٩٧٦.
- مجنوب، محمد، مصير لبنان في مشاريع. بيروت ١٩٧٨.
- محسن، إبراهيم، الحرب وتجربة الحركة الوطنية اللبنانية. بيروت ١٩٨٣.
- مؤسسة الدراسات والأبحاث اللبنانية، لبنان الآخر. مؤتمر حول العننة والهوية العربية. بيروت ١٩٧٦.
- ناجي، أمين، لن نعيش نمينين. بيروت ١٩٧٩.
- نصر، ج، أ، محنة لبنان في ثورة اليسار. بيروت ١٩٧٧.
- نصر، نقولا، حرب لبنان ومداها. بيروت ١٩٧٧.
- يكن، فتحي، المسألة اللبنانية من منظور إسلامي. بيروت ١٩٧٩.

استمارة التحقيق ١٩٨١، ١٩٨٦، ١٩٨٧

- يقول رجل: "أفضل أن أشتغل كثيراً، أفتح مصلحة وأجازف لكي يكون لي حظّ التقدم وكسب المال الوفير".
- ويقول رجل آخر: "أفضل وظيفة ثابتة مع مدخول مضمون لكي لا أحمل دائماً همّ مستقبلي". هل توافق على الرأي الأول أم على الرأي الثاني؟
- بمن تثق؟
- بالأهل - بالجيران - بالزملاء - بربّ العمل - بالأصدقاء - لا أحد
- ما هو برأيك أهم عنصر للنجاح في الحياة بين العناصر التالية؟
- المجهود الفردي - التعلّم - الخبرة - العلاقات - الإرث (الورثة) - الحظّ - الشطارة
- تكاد كل المناطق اللبنانية أن تكون مختلطة. كل الأراضي اللبنانية هي ملك لكل اللبنانيين.
- إن أفضل حلّ لاجراج لبنان من المأزق الحالي هو علمنة شاملة للدولة وللمجتمع.
- رغم الأحداث الخطيرة جداً التي حصلت في الأشهر الأخيرة، أعتقد أن التعايش بين الطوائف لا يزال ممكناً.
- لولا التخلّلات الخارجية، كل نزاع في لبنان ينتهي دون غالب ولا مغلوب.
- من هو الرجل السياسي الذي تشعر أن أفكاره وتوجهاته هي الأقرب إليك؟
- ما هو البلد الذي يبدو لك الأقرب إلى البلد المثالي؟
- يستطيع من يرغب من اللبنانيين أن يختار الانتماء الى طائفة علمانية لها نفس حقوق الطوائف الأخرى (أحوال شخصية، تمثيل سياسي...)
- مهما فعل الأجراء لا يستطيعون شيئاً ضد سلطة أرباب العمل.
- قبل المباشرة بنشاط ما، يجب التأكد من أنه سينجح فعلاً.
- مهما يكن الحلّ السياسي يجب أن يبقى الاقتصاد اللبناني موحّداً.
- إذا قمنا بتغيير الأوضاع غالباً ما تصبح أسوأ.
- لا يمكن الإستغناء عن الخدمات التي يقدمها لبنان الى المنطقة. لقد ترسّخ دور لبنان بالرغم من الأزمة.
- يمكن حتى للناس البسطاء أن يتقدّموا إذا تعاونوا وتساعدوا.

- يجب تجنّب خلط الدين والسياسة.
- إنّ الأديان السماوية (المسيحية، الاسلام...) تؤمن بالله نفسه وتبشر بمبادئ أخلاقية واجتماعية متشابهة.
- خلال الأزمة، دبّرت المناطق أموراً بالاعتماد على نفسها. قد تكون اللامركزية الاقتصادية أمراً حسناً.
- قد يصبح التعايش بين الطوائف اللبنانية أسهل لو كان لكل مجموعة منطقة خاصة بها.
- مهما تكن رغباتنا، يبدو من المستحيل تطبيق العلمانية في لبنان. يشكل الانتماء الطائفي واقعاً يجب القبول به.
- الى أية فئة إجتماعية تظنّ أنّك تنتمي؟ (اختر فئة واحدة)
ملاك، تاجر، صناعي، مهنة حرة أو موظف كبير، موظف أو مستخدم عادي، حرفي، تاجر صغير، صاحب مصلحة صغير، فلاح مالك متوسط أو صغير، عامل صناعي، عامل في قطاع الخدمات، عامل زراعي أو شريك محاصص
- ما هي برأيك الفئة الأكثر نفوذاً في لبنان؟ (اختر فئة واحدة)
ملاكو الأراضي والبنائيات، الرؤساء الدينيين، أصحاب المصارف، الزعماء التجار، رؤساء الأحزاب، الصناعيون، الوزراء، القادة العسكريون
- لو سمحت لي الظروف، لكنت اخترت مهنة أخرى.
- من هو الرجل السياسي الذي تشعر أنّ أفكاره وتوجهاته هي الأبعد منك؟
- بشكل عام، أنا مرتاح لربة العمل الذي أعمل لديه.
- من الطبيعي أن يتمنى المرء معاشاً أفضل، لكن معاشي الحالي يبدو لي معقولاً.
- لو توفرت لي فرصة أو عرض جيّد، أسافر للعمل في أحد بلدان الخليج.
- مع الأسف، أظن أنني لا أملك حظاً كبيراً باحتلال مركز أفضل في عملي.
- لا أنوي الاستمرار كأجير الى الأبد، سوف أعمل، يوماً ما على حسابي.
- اذا كان زملائي آدميين ومتعاونين، لا يهمني الى أية فئة ينتمون.
- اذا كانت عائلتي في خلاف مع التيار المسيطر في طائفتي، أضمّن مع موقف عائلتي.
- أفضل ان يكون جيرانني من نفس الجماعة التي أنتمي اليها.
- أوّمن بحياة يعد الموت، حيث يكافأ الصالحون ويعاقب الشريريون.

- أحاول ان أعيش حياتي اليومية حسب تعاليم ديني.
- أذهب الى أماكن العبادة في أحيان كثيرة.
- أشعر أنني قريب من أبناء طائفتي سواء كانوا أغنياء أم فقراء.
- أستطيع ان أكون سعيدا وأتمتع بالحياة دون حاجة الى الايمان بالله.
- لا يستطيع شخص مثلي سوى القليل من أجل تحسين حياة الناس.
- عندما أتذكر ظروف معيشة أهلي، أعتقد أنني في وضع أفضل منهم بشكل ملحوظ.
- أخشى الا تكون ظروف معيشة أولادي بنفس مستوى معيشتي.
- عندما أنظر الى أهل الأحياء الراقية، أقول لنفسي انني أتمنى أن أعيش مثلهم وأظن أن لي الحق بذلك.
- عندما أفكر بمستقبلي، أشعر بالقلق وعدم الثقة.
- حتى لو لم يكن هناك تدخلات خارجية في شؤون لبنان فسيكون الوفاق صعب التحقيق ومن الممكن أن تتجمد النزاعات بين الأطراف الداخلية.
- تصوّر أنك ربحت مبلغا كبيرا من المال في اليانصيب الوطني. كيف ستصرف بهذا المال على الغالب؟ (اختر جوابا واحدا).
- أشتري أرضا أو منزلا
- أشتري سيارة وفرشا جديدا
- أفتح مصلحة على حسابي
- أوظف المبلغ في البنك بشروط جيدة.
- يجب ان يعود المؤمن الى أصوله الروحية والثقافية وأن يعمق مغزى انتمائه الديني.
- المحافظة على هويّة وخصائص طائفتي هي أهم من الإخلاص للبلد.
- يجب ان يوجّه الايمان والقيم الدينية حياة المجتمع.
- من المستحسن ألا يحدث خلاف بين أبناء الطائفة الواحدة.
- ان الانقطاع بين المناطق ليس طبيعيا وسوف يزول عند انتهاء الأزمة.
- الصديق الطيّب صديق طيّب أكان جورج أو محمد.
- بسبب طبيعة المجتمع اللبناني، يجب ان تجوز الخيارات السياسية الهامة على موافقة كل الطوائف الكبرى.
- لقد زادت الفروقات بين الفئات الاجتماعية منذ حرب ١٩٧٥.

- في لبنان توجد أقلية من الأثرياء يحتكرون الخيرات على حساب الأغلبية العظمى من الناس.
- تستطيع فئات تعيش في نفس البلد حتى ولو كانت شديدة الاختلاف من حيث الدين أو اللغة ان تقبل ببعضها البعض وأن تحترم حقوق بعضها البعض.
- في الأزمة الراهنة يجب ان يكون لكل لبناني قناعات وخيارات سياسية واضحة.
- لقد حصلت أحداث خطيرة جدا في الأشهر الأخيرة. أخاف ان يكون التعايش بين الطوائف قد أصبح صعبا جدا.
- لقد ولّى عصر السياسيين. ان القادة الجدد يمثلون الاتجاهات الحقيقية في البلاد ويتمتعون بفاعلية أكبر.
- يوجد بالفعل فروقات بين الطوائف في بلدنا، لكن يجب ألا يزعج بها في السياسة.
- لا يستطيع لبنان ان يملك سلطة قوية وموحدة إلا إذا شاركت الطوائف بالحكم من خلال ممثليها الحقيقيين.
- بالطبع هناك انقسامات سياسية وطائفية في البلاد. لكن الأهم يبقى الانقسام بين الأغنياء والفقراء.
- رغم كل الذي حصل، يستطيع اللبنانيون ان يتفاهموا فيما بينهم إذا توقفت القوى الخارجية عن التدخل في شؤوننا.
- سواء أعجبنا ذلك أم لا، ان فئات تختلف من حيث اللغة أو الدين أو اللون وتعيش في بلد واحد إما ان تسيطر أو يسيطر عليها.
- لا يستطيع لبنان أن يملك سلطة قوية وموحدة إلا إذا تمكنت الدولة من أن تتجاوز انقسامات الزعماء والتيارات الطائفية.
- إذا إبتعدت عن السياسة ترناح ويرناح ضميرك.
- السياسيون القدامى أفضل من الجيل الجديد، فهم يتميزون، على الأقل، بالتسامح والاعتدال والواقعية.
- أغلبية الناس في لبنان هم من متوسطي الحال ولا يوجد سوى القليل من الأغنياء وفئة غير واسعة من الفقراء.
- إن الذين يستعملون في السياسة الفروقات بين الطوائف، يقومون بذلك من أجل تغطية الفروقات الحقيقية بين الاغنياء والفقراء.
- إن وجود فئات ذات تقاليد مختلفة في بلد ما يشكل بالنسبة له مصدر إغناء وفائدة إجتماعية.

- يقول أحد الأشخاص:

لا يهمني إذا تزوجت ابنتي من شخص ينتمي الى دين آخر، طالما يحبّان بعضهما.
ويقول شخص آخر:

ان الزواج بين شخصين يختلفان بالدين ليس بالامر المستحسن وهو كثيرا ما يؤدي الى الفشل. لن
أوافق على زواج ابنتي مع شخص من دين آخر.
هل توافق مع الشخص الاول او مع الشخص الثاني.

- عندما تفكر بوضع لبنان، أذكر لنا بالنسبة لكل رأي هل تجده مقبولا او غير مقبول.
+ يجب ان تحكم الفئة الاقوى وعلى الفئات الاخرى ان تقبل بما تقرره الفئة الاولى.
+ يجب ان تحكم الفئة الاكثر عددا وعلى الفئات الاخرى ان تقبل بما تقرره الفئة الاكبر.
+ يجب ان تحكم فئة واحدة والفئات التي ترفض الانصياع عليها ان تغادر البلد.
+ يجب ان يحكم حزب واحد مفتوح للجميع بدون معارضة.
+ يصوّت الناس للحزب الذي يفضلون ويحكم الحزب أو الاحزاب الفائزة وتبقى الاحزاب
الاخرى في المعارضة.
+ يجب تقسيم البلد وتشكل كل جماعة دولتها.
ما هي برأيكم أفضل الآراء بالنسبة لبلدنا.

- ان قوة مختلف الطوائف تجعل من المستحيل على المدى الطويل أي تغيير أساسي في نظام
الحكم.

- على رغم المظاهر، ان تغييرا في نظام الحكم ممكن في مستقبل قريب.
- في وضعنا الراهن، ان قوة مختلف الطوائف تفرض ضرورة البحث عن تسوية والوصول الى
اتفاق.

- ان التضحيات والخسائر التي ستتكبدها طائفتي لا تستحق ان نكون ثمنا للانتصار.
- في الصراع المفتوح بين مختلف الطوائف في مجتمعنا سيكون الجميع خاسرون.
- ان قوة وتصميم جماعتنا سوف يؤمنان لنا تحقيق أهدافنا.

- هل توافق مع هذين القولين الشعبيين:
+ "انصر أخاك ظالما كان أم مظلوما"
+ "على قد بساطك مذ إجريك"

إحصاءات

- اليوم، الشهر، السنة

- السن: ١٥ - ٢٠، ٢١ - ٢٦، ٢٥ - ٣٦، ٤٥ - ٤٦، ٥٥ - ٥٦ وما فوق
- الطائفة: سني، شيعي، درزي، ماروني، روم أرثوذكس، روم كاثوليك، أرمن، طوائف مسيحية أخرى.
- الجنس: ذكر، أنثى
- الوضع العائلي: أعزب، متزوج، أرمل أو مطلق
- عدد الاولاد
- عدد الاشخاص الذين يعتمدون على مدخولك
- المعاش الشهري
- المداخيل الأخرى (الشهرية أو السنوية)
- مستوى التعليم: أمي، يقرأ ويكتب، شهادة ابتدائية، شهادة تكميلية (بريفيه)، بكالوريا أو ما يعادلها، شهادة جامعية
- المهنة: ملاك، تاجر، صناعي، مهنة حرّة أو موظف كبير، موظف أو مستخدم عادي، حرفي، تاجر صغير، صاحب مصلحة صغير، فلاح مالك متوسط أو صغير، عامل صناعي، عامل في قطاع الخدمات، عامل زراعي أو شريك محاصص
- مهنة الأب
- الأصل
- مكان السكن الحالي
- مكان العمل الحالي
- هل تملك؟
- منزلا، قطعة أرض
- الى أي قطاع تنتمي المؤسسة التي تعمل فيها الآن؟
- القطاع العام (الدولة) والمصالح المستقلة، الزراعة، الصناعة، البناء، التجارة، المصارف والتأمين، النقل، التعليم، الخدمات الأخرى
- ما هي الصحيفة أو الصحف التي تطلعها باستمرار؟
- النهار، السفير، العمل، الأتوار، الأوربان لوجور، الريفاي، النداء، الأحرار، اللواء، أمل

فهرس جغرافي

بمسوس ٧٤٦	أما ٧٣١
بشرى ١١٢، ٤٢٨	الأشرفية ٢٤٥، ٢٩٤، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٣١، ٣٦٥،
البصن ٢٤٧	٣٦٨، ٣٨١، ٥٣٦، ٥٥٠، ٥٦٣، ٥٧١،
بعيدا ١١٢، ٢٧٠، ٣١٥، ٣٢٤، ٤٢١، ٧٢٧، ٧٢٨،	٥٨٢، ٥٩٠، ٥٩٨، ٦٠٢، ٦٠٧، ٦٢٧،
٧٢٩، ٧٣١، ٧٣٣-٧٣٥، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٧١،	٦٣٤، ٦٤٧، ٧٣٢، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٨،
بعل محسن ٣٧٥	٧٤٩
بعلبك ٧٢، ١١٢، ١٦٨، ٢٤٧، ٣٤٥، ٤٢٨،	الأوزاعي ٧٠٠، راجع أيضا: الجناح
بعلبك - الهرمل ٥٤١، ٥٥١، ٥٥٩، ٥٧٢، ٥٨٠،	الأولي ٣٦٦
٥٩٣، ٥٩٨، ٦٠٢، ٦١٨، ٦٣٢، ٦٣٩،	إقليم التفاح ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٤٩
٦٤٧، ٧٦٥، ٧٦٧	إقليم الخروب ٣٦٧، ٣٧٠-٣٧١، ٣٨٢، ٤٢٢، ٤٢٨،
البقاع ٧٢، ٧٧، ١٦٧، ١٧٢، ٢١١، ٢١٢، ٢١٨،	إبدين ٢٩٤
٢٥٠، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨١،	البقاع الوسط والغربي ٥٤١، ٥٥١، ٥٧٢، ٦٠٨،
٣٠٢، ٣١٥، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٤٥، ٦٣٠،	٦٤٧، ٦٦٧، ٧٦٩، ٧٧٠،
٤٠١، ٣٢٣، ٣٢٤، ٤٢٧، ٤٨٤، ٥٣٣،	المدير ١١٧
٥٤٧، ٦٥٥، ٧٠١، ٧٠٨، ٧١١، ٧١٩،	انطلياس ٢٦٥، ٧٣١، ٧٣٤
٧٦٤، ٧٦٩	
بكركي ٢٢٤	الباروك ٢٢٠
بكتيا ٢٧٠-٢٧١، ٢٩٩، ٣٤٥	البترون ١١٢، ٢٩٥، ٤٢٤، ٤٢٨
بوفور ٣٠٢	بحمنون ٢٨١، ٣٥٠
بيت النين ٨٥، ٣٠٠	البيدوي ٢٤٧
بيت مري ٣٠٠	البربار ٣٦٧، ٧٠٠
بيت ملات ٢٦١	برج ابو حيدر، راجع: البسطا
بيروت، الضواحي الشرقية ٥٣٣، ٥٥٠، ٥٦٢، ٥٧١،	برج البراجنة ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٦٥، ٢٧٩، ٣٧٢-٣٧٣،
٥٨٢، ٥٩٢، ٦٠٧، ٦١٦-٦١٧، ٦٢٧، ٦٤٦،	٣٨٢-٣٨٣، ٣٨٩-٣٩٠، ٤٢٥، ٥٣٦،
٨٠، ٩٠، ٩٣، ٢١١، ٢١٥، ٢١٧،	٥٥٠، ٥٦٣، ٥٧١، ٥٨٢، ٥٩٣، ٦٠٩،
٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠-٢٥١، ٢٦١،	٦٤٧-٦٤٨، ٦٥٢
٣٢٦، ٣٤٥، ٣٦٢، ٣٦٨، ٣٧٣، ٣٨٤،	برج الشمالي ٢٤٧
٣٩٨، ٤١٤، ٤٢٤-٤٢٥، ٤٢٧، ٤٥٠،	البسطا ٥٣٦، ٥٥٠، ٥٦٣، ٥٧١، ٥٨٢، ٥٩٠، ٥٩٨،
٧٤٨، ٧٥٢، ٧٦٤، ٧٦٧، ٧٦٩	٦٠٢، ٦١٧ وما يليها، ٦٤٧

٧٣١ ، ٧٠١	بيروت الشرقية ١٦٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧٠ ، ٢٩٨-٢٩٧
الجيه ٢٦٦ ، ٧٠٠	٣٤٨ ، ٣٨٠-٣٨١ ، ٤١٥ ، ٤٢٥ ، ٥٣٣
حارة حريك ٢٥٨ ، ٤٢٥ ، ٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٦٣ ، ٥٧١	٥٤٧ ، ٥٦٣ ، ٧٣١ ، ٧٣٤ ، ٧٥٢ ، ٧٧٨
٥٨٢ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ، ٦٠٩-٦١٠ ، ٦٤٧	بيروت الغربية ١٦٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٤
٧٢٢ ، ٦٥٢	٢٣٢-٢٣٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٧٣-٣٧٤
الحازميّه ٢٦٥	٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤
حاصبيا ١١٢ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٦٩	٣٨٨ ، ٤٠٢ ، ٤١٤-٤١٦ ، ٤٢٥-٤٢٥ ، ٥٣٣
حالات ٧٣٢	٥٤٧ ، ٥٦٣ ، ٦٥٨ ، ٧٣٧ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦
الحدث ٧٤٦	٧٧٨ ، ٧٥٢
حرمون ٧٢	البيري ٣٥٠
حمّاقا ٧١١	تبّنين ٢١٧ ، ٧٦٨
الحمراء ٢٥٤ ، ٣٨٥ ، ٤٢٦	ترشيش ٢٧٠
حوش اللأمراء ٤٢٣	تعليبا ٢٦٥ ، ٤٢٣
حيّ السّلم، راجع: الجناح	تلّ الزّعتر ٢١٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥-٢٦٦ ، ٢٧٩-٢٧٩
خلده ٣٨٦ ، ٧٠٠	٢٨٠ ، ٧٢٢
الخيلام ٤٢٥	تلة المير ٢٧٨
الدامور ٢٦٦ ، ٣٢٢ ، ٤٢٢ ، ٥٢٠	جبل الدروز ٣٣٩
دكوانة ٢١٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥	جبل عامل ٩٢
دير العشائر ٢١٧	جبل لبنان ٧٦٤ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٧١
دير القمر ٨٥ ، ٢٥٠ ، ٢٧٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦٥	جبل ١١٢ ، ٢٥١ ، ٥٣٣ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ، ٥٧٢ ، ٥٨٢
رأس بيروت ٢٥٤ ، ٤٢٦ ، ٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٩	٥٨٧ ، ٦٠٨-٦٠٩ ، ٦١٧ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢
٥٩٠-٥٩١ ، ٥٩٣-٥٩٤ ، ٦٠١-٦٠٢	٦٤٧ ، ٧٥٣ ، ٧٦٩ ، ٧٧١
٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦٢٧ ، ٦٤٧ ، ٦٥٢ ، ٦٥٦-٦٥٥	جزين ١١٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٣٢٢ ، ٣٦٧
راشيا ١١٢ ، ٢١٢ ، ٤٢٨	٣٩٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ، ٥٥٨
الراشيدية ٢٤٧ ، ٣٨٤	٥٦٢ ، ٥٧٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢ ، ٦٠٩
رياق ٢٧٨	٦٢٧ ، ٦٤٧ ، ٧٧٠
زحلة ٧٢ ، ٨٥ ، ١١٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٣١٠	جسر الباشا ٢٤٨٩-٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٨
	الجناح ٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٦٣ ، ٥٧١ ، ٥٩٠ ، ٦٤٧-٦٤٨
	٦٥٢
	جونية ٨٤ ، ٢٤٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ ، ٣٢١ ، ٣٤٨ ، ٣٩٣

صربا ٧٤٩
 صليما ٢٨١
 صئين ٣١٢
 صور ٧٢، ١١٢، ٢٢١، ٢٤٧، ٢٥٨، ٣١٦، ٣٨٤،
 ٣٨٩، ٤٢٨، ٧٣٨، ٧٥٧، ٧٧٠
 صوفر ٢٧٦، ٣٨٦
 صيدا ٧٢، ٨٠، ٩٤، ١١٢، ١٧١، ٢١٤، ٢١٨،
 ٢٢١، ٢٤٧٩٢٤٨، ٢٥١، ٢٧٥، ٣٠٥،
 ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٦٦-٣٦٧، ٣٧٠،
 ٣٩٠، ٤١٤، ٤٢٠، ٤٢٨، ٤٥٠، ٤٨٢،
 ٥٤١، ٥٥١، ٥٦٣، ٥٧٢، ٥٨٠، ٥٨٧،
 ٥٩٢، ٦٠٨، ٦١٠، ٦١٨، ٦٢٧، ٦٤٦،
 ٧٣٦-٧٣٨، ٧٥٧، ٧٧٠
 ضبيته ٢٤٩، ٢٦٥، ٧٣١
 ضهر البيدر ٧١١
 طرابلس ٧٢، ٨٠، ٩٤، ١١٢، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٤٩،
 ٢٥٦-٢٥٧، ٢٦١، ٢٧٩، ٣١٥، ٣٦١،
 ٣٦٤، ٣٧٤، ٤١٨، ٤٢٧، ٤٥٠، ٥٤١، ٥٥١،
 ٥٥٩-٥٦٠، ٥٧٢، ٥٨٢، ٥٨٧، ٥٩٢،
 ٦٠٨-٦٠٩، ٦١٧-٦١٨، ٦٤٦، ٧٣٦-٧٣٨،
 ٧٦٩، ٧٦٧، ٧٣٨
 طريق الجديدة ٣٨٣، ٥٣٦، ٥٥٠، ٥٦٣، ٥٧١،
 ٥٩٠، ٥٩٤، ٦٠١-٦٠٢، ٦٠٨-٦٠٩،
 ٦١٨، ٦٤٧، ٦٥٢، ٦٥٥
 عاريا ٧٤٦
 عاليه ١١٢، ٢٥٠، ٢٦٤، ٢٨١، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٤٣،
 ٤٠١، ٣٤٣، ٤٠١، ٤٢٢، ٤٢٨، ٧٦٧،
 ٧٧١ راجع ايضا: الشوف
 العرقوب ٢١٠، ٢١٢، ٢١٥

٣١٢، ٣٧٤-٣٧٥، ٤٢٣، ٤٨٤، ٧١٩،
 ٧٢٧، ٧٦٤، ٧٦٧، ٧٧١، ٧٧٣
 زغرنا ١١٢، ١٦٣، ٢١٤، ٢٤٣، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٨٠،
 ٣٤٧، ٧٥٣، ٧٦٧، ٧٧٠، ٧٧٢ راجع
 ايضا: الكورة
 زقاق البلاط، راجع: البسطا.
 الزهراني ١١٢، ٢٨٤، ٣١٦، ٤٢٥
 سعدنايل ٤٢٤
 السعديات ٢٦٦
 سلعاتا ٧٠٠
 سنّ الفيل ٢٥٤، ٧٣٢
 سوق الغرب ٣٤٠، ٣٥١-٣٥٥، ٣٦٣، ٣٨٠،
 ٧٠٩، ٧٢٢
 شاتيل ٢٢١، ٢٥٠، ٢٥٣، ٣٣١، ٣٧٢، ٣٨١-٣٨٢،
 ٣٨٩-٣٩٠
 شتورا ٧٢، ٢٢١، ٢٨١، ٧٢٦
 شكا ٢٧٩، ٢٩٤، ٣٦٢
 الشوف ٧٩، ٨٢-٨٣، ١٠٨، ١١٢، ٢٥٠، ٢٨٩،
 ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤٢-٣٤٣،
 ٣٥١، ٣٥٨، ٣٧١، ٤٠١، ٤٢٠، ٤٢٢،
 ٥٣٣، ٥٣٦، ٥٤٧، ٥٥٩-٥٦٠، ٥٦٣،
 ٥٧٢، ٥٧٩، ٥٩٠-٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٨،
 ٦٠٢، ٦٠٨-٦٠٩، ٦٥٢، ٧٦٤، ٧٦٧، ٧٧١
 الشياح ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٩٢، ٣٠٣، ٣٥٢،
 ٣٨٨-٣٨٩، ٤٢٥، ٥٣٦، ٥٥٠، ٥٦٣،
 ٥٧١، ٥٨٢، ٥٩١، ٥٩٣، ٦٠٩، ٦٢٧،
 ٦٤٧
 صبرا ٢٤٩، ٢٥٤، ٣٣٢، ٢٧٢
 صربا ٧٣١

٥٥١، ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٧٢، ٥٨٧، ٥٩٠،
٥٩٣، ٥٩٨، ٦٠٨-٦٠٩، ٦٣٤-٦٣٥،
٦٢٧، ٦٣٢، ٦٣٩، ٦٤٧، ٦٥٦، ٧٣٢،
٧٣٤، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧١

كسليك ٢٩٠، ٣٦٥
كفر شوبا ٢٢١
كفر فالوس ٣٧٠
الكفور ٢٧٠
الكوره ١١٢، ٢٧٩، ٢٩٦، ٣٦٤، ٤٢٤، ٤٢٨، ٥٥٣
الكوره وزغرتا ٥٤١، ٥٥١، ٥٧٢، ٦٠٨، ٦١٠
٦١٧، ٦٢٧، ٦٣٢، ٦٤٧
كوكبا ٣٠٢

لبنان الجنوبي ٩٢، ١٣٥، ١٦٧، ٢٠٧، ٢٨٣-٢٨٤،
٣٠٢، ٣٠٦، ٣٢٧-٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٦،
٣٨٢، ٣٨٧-٣٨٩، ٣٩٩-٣٩٤، ٤١، ٤١٤-
٤١٥، ٤٢٨، ٤٤٩، ٥٤٧، ٦٣٢، ٧٣٧،
٧٥٢، ٧٦٠-٧٦٢، ٧٦٤، ٧٦٧، ٧٦٩،
٧٧٠، ٧٨٧

لبنان الشمالي ٢٩٣-٢٩٤، ٣٠٧، ٣٢٥، ٤٢٨، ٤٢٤،
٥٣٣، ٥٤٧، ٥٦٠، ٧٦٤، ٧٦٧، ٧٦٩

اللقوق ٤٢٨
اللويزة ٨٢
الليطاني ٧٢، ١٧٢، ٢٨٤، ٢٨٧، ٣١٦، ٧٦٢

المتن ١١٢، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨١، ٣٢٥، ٣٦٨، ٣٨٠،
٣٩٠، ٤٢٢، ٤٢٨، ٥٣٣، ٥٤١، ٥٤٧،
٥٥١، ٥٧٢، ٥٨٢، ٥٩١، ٦٠٨-٦٠٩،
٦١٧، ٦٢٧، ٦٣٦، ٦٤٦-٦٤٧، ٦٥٥،
٧٣٢، ٧٣٥، ٧٤٨، ٧٧١

المتين ٢٧٠
المختارة ٦٩٨

عرمون ٢٦٦
عكار ٧٢، ١١٢، ٢٠٥، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٧٦،
٤٠١، ٤٢٤، ٤٢٨، ٥٤١، ٥٥٠، ٥٥١،
٥٧٢، ٥٩٨، ٦٠٨، ٦١٢، ٦١٧، ٦٢٧،
٦٤٧، ٦٩٦

عمشيت ٧٣١
عنجر ١٤٢، ٧٤٧
عشيه (ال) ٢٨٥، ٤٢٥
عين اسد ٤٢٢
عين الحلوة ٢١١، ٢٤٩
عين الرمانة ٢٥٨، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٩٢، ٢٩٧-٢٩٩،
٣٠٢، ٣٠٩، ٧٣٢، ٧٣٣

عين ورقة ٨٢
عينطورة ٢٧٠
عيون السيمان ٢٧١

الغبيري، راجع: الشياح
الفاكهاني ٣١٤
فرن الشباك ٧٣١، راجع ايضا: بيروت الضواحي
الشرقية
الفياضيه ٢٧٠، ٢٩٢، ٣٣٠

القاع ٢٥٩، ٢٩٧، ٤٢٣
القيبات ٢٥١، ٢٧٦
القليعات (بلدة) ٧٣٢
القليعات (مطار) ٧٢٣، ٧٣٢
القطاري ٢٥٤، ٢٦٤
قنوبين ٨٢

الكحاله ٢١٤، ٢٦٤، ٣٥٠
الكرنتينا ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٦٥، ٣٧٩، ٧٣٢
كسروان ٧٧، ٨٢، ٨٦، ١١٢، ٥٣٣، ٥٤١، ٥٤٧

المنفون ٢٩٥

مرجعيون ١١٢، ٢٨٤-٢٨٥، ٣٠٢، ٤٢٥

المريجة ٣٥٢، ٤٢٦

المزرعة، راجع: المصيطبة

المسلخ ٢٥٤، ٢٦٥

المصنع ٢٦٩

المصيطبة ٥٣٦، ٥٥٠، ٥٦٣، ٥٧١، ٥٨٢، ٥٩٠

٥٩٨، ٦٠٨-٦٠٩، ٦١٧-٦١٨، ٦٤٧

مغدوشة ٣٨٤

ملكارت ٢١٩

ميسلون ٢٧

ميّه وميّه ٢٥٠، ٣٧٠، ٣٩٤

الناقورة ٣٩٣

النبطية ١١٢، ٢٤٧، ٣١٤، ٣١٦، ٤٢٨، ٥٤١، ٥٥١

٥٥٨، ٥٦١، ٥٦٧، ٥٧٢، ٥٩٨، ٦٠٨

٦١٨، ٦٢٧، ٦٣٢، ٦٤٧

النبعة ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٧٩، ٤٢٥، ٧٣٢

نهر البارد ٢٤٧

نهر الكلب ٧٣٢

نهر الموت ٧٤٦

الهرمل ١١٢، راجع ايضا: بعلبك - الهرمل

وادي ابو جميل ٣٤٧

ولول ٢٤٧

اليرزة ٢٦٩، ٣١٧، ٣٢٤، ٧٣٥، ٧٣٧

فهرس الأسماء

الأشقر، أسد ١٠٦	أحذب، عزيز ٢٦٩-٢٧٠
بارتو، فيلفرادو ٤٤٧	الأخوي، شريف ٧٧٨
باور، اوتو ٥٤	أرسلان، فيصل ٥١٨، ٧٧١
براشت، برتواد ٦٧٥، ٧٧٧، ٧٨٠	أرسلان، مجيد ٣٣٠
براون، دين ٢٧٤	أسد، حافظ ١٧٩، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٦٤، ٢٦٩، ٢٧١-٢٧٢
برتولي، كرينال ٢٦٤	٢٧٢، ٢٩٣، ٣٠٧، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦١
بركات، حليم ٦٦	٤٨٩، ٦٠٥، ٦٨٩-٦٩٠، ٧٠٨، ٧١٩
بري، نبيه ٣٠٥، ٣٢٠، ٣٤٥-٣٤٦، ٣٥٥، ٣٦٠	٧٨٧-٧٨٥
٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩٠-٣٩١	أسعد، كامل ١٥٣، ١٦٢، ٣٣٠، ٧٦٨، ٧٧٠
٦٠٩، ٦٢٥، ٦٩٨، ٧٠٠، ٧٢٥-٧٢٦	أسعد، مهى ٧٦٩
٧٣٧، ٧٥٠، ٧٦٧، ٧٧٠، ٧٧١	أكتون، (اللورد) ٧١
البستلي، أميل ١٦٢، ٢١١، ٤٧٤	الأمين، عبد الله ٧٥٠
البستلي، فواد ٢٤٣، ٢٩١	إذه، أميل ٩٨
بشاره، انطوان ٧٨٠	إذه، ريمون ١٠٨، ١٦٠، ١٦٤، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٤٦
بشير الثالث ٨٥	٢٦٣، ٢٧٤، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٥٦
بشير الثاني شهاب ٨١، ٨٤	٤٦٥، ٤٦٧، ٦٠٨، ٧٢٢-٧٢٣، ٧٧٢
بصير، انطوان ٣٤٣	إيتان، رافايال ٣٢٢
بطرس، فواد ٣١٣، ٤٤٩-٤٥٠، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٩٤	إبراهيم باشا ٨٤
بكرلوني، كريم ٣٧٦، ٣٧٩، ٦٩٠	الإبراهيمي، الأخضر ٧٠٧، ٧٢١
بن جديد، الشاذلي ٧١١، ٧٤٩	أبو إيلاد ١٧، ١٩٠، ٢٥٨، ٢٧١، ٤٩٤
بندر، ليونار ٦٦	أبو جهاد ١٩٠
بوش، جورج ٧٥٢	أبو جودة، ميشال ٥١٠-٥١١
بولس، جواد ٢٤٣	أبو رجيلي، خليل ٤١٦
بوز، فارس ٧٧١	أبو شقرا ٣٤٨
بيتس، روبرت بنتون ٢٠	أبو موسى ٢٧٠، ٣٦١، ٣٧١، ٣٩٠
بيريز، شيمون ٣٦٦	أبو نضال ٣٢٢
بيضون، أحمد ٦٦، ٧٦٢	أبي اللمع (أسرة) ٨٠
	أبي نادر، فواد ٢٦٣
	ارنر، موشي ٣٢٨، ٣٤٨، ٣٦٦

١٦١-١٦٣، ١٦٦-١٦٧، ١٧٧، ١٨٠-١٨١،

٢١١-٢١٣، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٤٥،

٢٥٨-٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧١-

٢٧٤-٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٩، ٣٩٦، ٤٥٣،

٤٥٥-٤٥٦، ٤٥٩-٤٦٠، ٤٨٠-٤٨٢،

٤٨٩، ٦٠٤، ٦٩١-٦٩٢، ٦٨٤، ٧٢٦، ٧٥٦

جنيلاط، وليد ٢٤٠، ٣٣٣، ٤١، ٣٤٣، ٣٤٩، ٣٥٥،

٣٦٠، ٣٦٧، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٦، ٣٩٠-

٣٩٢، ٤١٠، ٤٢٣، ٤٩٧-٤٩٨، ٥١٧-

٥١٨، ٦٠٤، ٦٠٩، ٦٢٥، ٦٣٩، ٦٨٩،

٦٩٨، ٧٠٠، ٧٢٥، ٧٤٤، ٧٥٠، ٧٥٢،

٧٥٣، ٧٥٦، ٧٦٢، ٧٦٤، ٧٦٧، ٧٧١،

جونسون، مايكل ٦٤

حافظ، زياد ٤٦٨

حافظ، ياسين ١٢٩

حاوي، جورج ٦٠٤

حبش، جورج ١٩١، ١٩٤، ٢١١، ٢١٧، ٢٣٨

حبيب، فيليب ٣١٢، ٣١٥، ٣٢٦-٣٢٧، ٣٣٥، ٣٣٨،

٣٤٧

حيقة، ايلي ٣٦٨، ٣٧٦-٣٧٩، ٣٨١، ٤١٣، ٦٨٧-

٦٨٨، ٦٩٨، ٧٣٤، ٧٥٠، ٧٥٧، ٧٥٨،

٧٦٧، ٧٧١

حتي، فيليب ٧٤١

حذاء، سعد ٢٨٣-٢٨٥، ٢٨٨، ٣٠٢، ٣٦٦

حذاء، غريغوار ٢٤١

حردان، أسعد ٧٥٠

الحريري، بهية ٧٦٧

الحريري، رفيق ٧٢٣، ٧٢٦، ٧٧٣-٧٧٥

حسين، الملك ١٨٨، ١٩٥، ٣٢٧، ٣٢٧

حسين، سلمى ٧٦٦

حسين، صدام ٧٤٣، ٧٥٣، ٧٨٨

الحسيني، حسين ٢٤٢، ٣٠٥، ٣٤٨، ٣٦٤، ٤٦٨،

البيطار، صلاح ١٠٦

بيغن، مناحيم ٢٨٦، ٢٩١، ٣٠٩، ٣١١، ٣٢٦، ٣٣١،

٦٨٦

بيكارد، اليزيات ٦٧

تشميران، مصطفى ٣٠٥

تقلا، فيليب ٢٦٠

التل، وصفي ٢٠٣

توننس، قريناند ٣١

تويني، غسان ٢٦٣

جبريل، احمد ١٩٤، ٢١٨

جديد، صلاح ٢٣٣

جريدني، بول أورد ملك لورن ٦٩٣، ٧٧٧

جعجع، سمير ٢٩٥، ٣٤٣، ٣٦٨-٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٦،

٣٧٩، ٥٠٦، ٥٢٣، ٦٠٤، ٦٩٦، ٧٢٩-

٧٣١، ٧٣٤، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٤٩-٧٥٢

جلود، عبد السلام ٢٧٥

الجميل، بشير ٢١٥، ٢٤٥، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٥، ٢٩٧،

٣٠٨، ٣١٣-٣١٥، ٣١٩-٣٢١، ٣٢٩-

٣٣١، ٣٣٨، ٣٦٩، ٤٧٤، ٥٢١-٥٢٢،

٥٩٨، ٦٠٤، ٦٩٤، ٧٢٤، ٧٢٦-٧٢٧

الجميل، أمين ٢٤٥، ٣٣٢-٣٣٥، ٣٤٦، ٣٥٢-٣٥٣،

٣٥٥، ٣٥٨، ٣٦٤-٣٦٥، ٣٦٧-٣٦٨،

٣٧١، ٣٨٣، ٣٨٦، ٣٩٠، ٥٩٨، ٦٠٤-

٦٠٥، ٦٨٢، ٦٩١، ٦٩٤، ٦٩٦، ٧٢٧،

٧٧٩

الجميل، بيار ١٥٣، ١٥٦-١٥٧، ١٧٩، ٢٠٨، ٢٢١،

٢٤٣-٢٤٤، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٧٨-٢٧٩،

٢٩٠، ٣٣٦، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٦٥، ٤٥٥،

٤٥٨، ٦٠٥

جنيلاط، كمال ١١١، ١٥١، ١٥٣-١٥٤، ١٥٧،

١٢٧، ١٢٩، ٦٦، كلود	٧٢٦، ٧٢٣، ٧١٤-٧١٣، ٦٩٩، ٦٩٥
لودين، حسن ٤٧٧	٧٧٠، ٧٦٧
لويتش، كارل ٧٧٧، ٢٣٠	الحصن، سليم ٢٨٣، ٢٨٩، ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٦، ٣٩٢،
دي غيرينغو، لويس ٣٠٠	٧٠٧-٧٠٦، ٦٩٩-٦٩٨، ٦٩٥، ٦٠٤
دي كويلار، بيريز ٧٠٤	٧٤٩-٧٢٨، ٧٣٢، ٧٣٥، ٧٤٣، ٧٤٩
ديب، روجيه ٧٥٥، ٧٥٢	٧٦٧، ٧٦٦، ٧٥٠
دينيو، فرانسوا ٧٠٤	الحصري، ساطع ١٨٨
رايبنوفيتش، اينتار ٦٧	حكيم، عدنان ٤٥٠، ٤٥٢
الرافعي، عبد المجيد ١٠٦، ٧١٣	حلو، شارل ١٠٩، ١٦١، ٢١١، ٤٥٤، ٥٠٤، ٧٢٥
رياط، لعمون ٢٦٣	حنش ٣١٠
رعد، إتمام ٤٥٦، ٤٥٩، ٤٩٩، ٥٠٠	حواشم، نايف ١٩٤
الرافعي، نور الدين ٢٥٨	الحويك، الياس ٩٢
رنتر، كارل ٥٤	خالد، حسن ٢٢٠، ٤٠٦، ٧٠٦، ٧٢٦
روندو، بيار ٧١	خالدي، وليد ٦٧
ريغن، رونالد ١٨٧، ٣٠٩، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٤	خادم، عبد الحليم ٢٦٢، ٢٦٦، ٣١٢، ٣٥١-٣٥٢،
٦٠٥، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٤	٤٩٠، ٦٩٠، ٦٩٦، ٧٢٦، ٧٦٧
ريك، اندريس ٦٧	الخطيب، أحمد ٢٦٨-٢٦٩
رينان، ارنست ٢٥	الخطيب، سامي ٦٩٨، ٧٥٨، ٧٦٧، ٧٧٠، ٧٧١
السادات، نور ٢٠٤، ٢٢١، ٢٨٦، ٣١٩	٧٧٣
ماسين، ميشال ٧٢٩	خلف، سمير ٦٦
مسالم، ليلي ٢٢٩	خلف، صلاح، راجع: ابو ايلا
السرطاري، عصام ٣٦١، ٤٧٦، ٥٠٨، ٥٠٩	الخميني، آية الله ٣٤٩، ٥٢٠، ٦٠٤-٦٠٥
سركيس، الياس ١٥٦، ١٦٢، ١٦٣، ٢٧٤، ٢٨٠-	الخوري، بشارة ٩٨-٩٩، ١٠٠، ١٢٢، ١٥٠، ٦٩٧
٣١٢، ٣٠٢، ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩٧	خوري، فؤاد ٦٦
٣٢٩، ٤٦٦، ٦٠٤، ٦٩٠، ٦٩٤، ٦٩٦	خوري، فكتور ٣٠٢
٧٢٢	خوري، نبيه ٧٦٨
سعادة، لظرون ١٠٥	دالبرانت، ريمون ١٣٥
سعادة، جورج ٧٥٥	داوود، دلوود ٣٨٩
سعد، مصطفى ٢٣٨، ٧٧٠	درزي ٧٧
سعد، معروف ٢١٤، ٢٢٢	دلؤل، محسن ٧٧١، ٧٧٣

٦٩٧، ٦٩٤، ٦٩٠، ٤٥٦-٤٥٥	سعود الفيصل ٧١٩، ٧٣٥
شولتز، جورج ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٨، ٣٤٨	سعيد، حنا ٢٦٢، ٢٦٨
شبحا، ميشال ٩٩، ١٠٣، ٢٠٩	سكاف، ايلي ٧٧١
شير، دايفد ٦٧	سكاف، جوزف ٧١٩
شير، فريدريك ٣٩٥، ٤٤٧	سلام، تمام ٧٦٧
الصالح، صبحي ٥٧٧	سلام، صائب ١٤٩، ١٥٣، ١٦١، ١٦٨، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٦٣، ٢٦٤، ٣١٨، ٣٢٧، ٣٢٩
الصدر، موسى ١١٥، ١٤٣، ١٤٤، ١٦٧، ١٧٩	٣٤٨، ٣٥٣، ٧٦٧
٢٢٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٧٩	سليم، محسن ٤٥٢
٣٠٤، ٣٠٥، ٤٠٦، ٤٥٣، ٤٩٦، ٦٠٤	سمنه، جورج ١١٧
صغير، نصر الله ٣٨٠، ٧٠٥، ٧١٤، ٧٢١، ٧٢٤	شارون، اريال ٢٣٢، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٧
٧٢٨	٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٨، ٦٨٠
صقر، إتيان ٤٧١	شاميل، إيف ٦٦، ١٢٤، ١٣٥، ١٦٥
الصلح، تقي الدين ٤٦١، ٤٦٢	شعبان، سعيد ٢٦١
الصلح، رشيد ٢٥٨، ٧٦٣، ٧٧١	شعيتو، ابراهيم ٤٦٦
الصلح، رياض ٩٩، ١٠٠، ١٠٥، ١٥٠، ١٥١	شكير، محمد ٣٩١، ٤٦٢-٤٦٣، ٤٩٣، ٧٢٦
الصلح، سامي ١٥١، ١٥٢، ١٥٣	شكري، أحمد ١٩١، ١٩٢
صليبي، كمال ٦٦، ٦٧، ٧٢، ٧٤، ٨٣	شكيب أفندي ٨٦
الضاهر، ميخائيل ٦٩٦-٦٩٧، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٥٦	الشمالي، فؤاد ٤٧٤، ٥٠٦، ٥١٠
طبار، رياض ٤٨٥، ٤٨٦	شمس الدين، محمد ٢٤٢، ٣٦٠، ٦١٢
الطحيني، فؤاد ٤٦٣	شمعون، داني ٣٢٢، ٧٤٧
طرابلسي، فوز ٤٧٠، ٥٠١	شمعون، نوري ٧٥٧، ٧٧٢
طلّاس، مصطفى ٧٥٨	شمعون، كميل ١٠٨، ١٤٧، ١٥١، ١٥٤-١٥٥، ١٦٠-١٦١، ٢٤٤، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٦٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠٩، ٣٥٣، ٣٦٠-٣٧٩، ٤٥٥، ٥٠٣، ٥٢٢، ٧٥٨، ٦٠٤
عبد الناصر، جمال ١٥٢، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٨	شموسي، رينيه ٦٧
١٩٧، ١٩٨، ٢٠٤، ٤٤٨، ٤٨٧، ٦٠٤، ٦٩٠	شهاب (أمراء آل) ٨٣
عبيد، جان ٧٥٨	شهاب، فؤاد ١٣١، ١٥١، ١٥٤-١٥٥، ١٥٧-١٥٨، ١٧١، ١٨١، ٢٠٨، ٢٧٢، ٣٩٦، ٤٤٨
عجوري، رينيه ١٠١، ٢٠٩	
عرب، عصام ٢٣٩	
عرفات، ياسر ١٩٠، ١٩٢، ٢٠٥، ٢١٣، ٢١٧	

فرنجية، روبر ٧٣٧
 فرنجية، سليمان ١٥٤-١٥٥، ١٦٢-١٦٣، ١٦٨-
 ١٦٩، ٢٠٩، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٤٥، ٢٦٦،
 ٢٦٩، ٢٩٠، ٢٩٢-٢٩٥، ٣٤٧، ٣٤٩،
 ٣٥٣، ٣٦٠، ٤١٠، ٤٥٥، ٤٦٣، ٤٦٦،
 ٥١٤، ٦٨١-٦٨٢، ٦٩٤-٦٩٥، ٧٠٠،
 ٧٠٥
 فرنجية، طوني ١٦٥، ٢١٤
 فروخ، عمر ٤٥١، ٤٥٨
 فريخ، موسى دي ٤٦٦
 فضل الله، حسين ٦٠٤-٦٠٥
 قولناي ٧٤١
 فيصل، الأمير ٢٦
 القادري، ناظم ٧١٢، ٧٢٦
 قاسم، الجنرال ١٨٩
 القذافي، معمر ٣٢٧، ٣٨٦
 قزم، جورج ١٨٤
 قسيس، ثريل ٢٤٤
 قصير، فكتور ٦٠٥
 قليلات، ابراهيم ٢٣٩، ٣٦٤
 كلترو، الجنرال ١٠٠
 كار، مالكولم ٣٥٥
 كارتر، جيمي ٢٨٥
 كافلنغ، فلهلم ٦٦، ٧٢
 كرامة، ايلي ٣٦٥، ٣٧٩
 كرامي، عمر ٧٧٠، ٧٧١
 كرامي، رشيد ١٥٤-١٥٥، ١٦٠-١٦٢، ١٦٨، ٢١١،
 ٢٤٦، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٩٤، ٣٤٧،
 ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٧،
 ٣٧١، ٣٧٤، ٣٨٠، ٣٩١-٣٩٢، ٤٤٩

٢٣٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٧٣-٢٧٤،
 ٢٨٥، ٣٢٧، ٣٦٠-٣٦٢، ٣٩٠، ٦٠٥،
 ٦٨٧، ٧٥٧-٧٥٩، ٧٨٧
 عزيز، جان ٤٩٧
 عسيران، عادل ٤٦٣-٤٦٤
 عفلق، ميشال ١٠٦
 علي، محمد ١٨٤
 عون، ميشال ٣٦٣، ٦٩٦-٦٩٨، ٧٠٠، ٧٠٣، ٧٠٥-
 ٧٠٦، ٧١٢، ٧٢١-٧٢٢، ٧٢٤-٧٣٢،
 ٧٣٤-٧٣٦، ٧٣٨، ٧٤٢-٧٤٨، ٧٥٠-
 ٧٥٢، ٧٥٨، ٧٦٠، ٧٦٦، ٧٧٢، ٧٧٣،
 ٧٨١
 غانم، اسكندر ٢١٨، ٢٦٢
 غانم، شكري ٩١
 غوريشوف، ميخائيل ٧٠٨
 غورو، الجنرال ٩٠
 غوريا، ولاد ر ٦٧
 قادال، جورج ٧٢٣
 قازس، بول ٧٣٢
 قالتاري، ميكا ٧٨٤
 فان دير بارغ، بيار ٣٢
 فانس، سايروس ٢٨٥
 فاير، ماكس ٣٠
 فاينبرغار، كليسيار ٣٥٤
 قتال، انطوان ٢٢٩
 فخر الدين الثاني ٨١-٨٢
 فرحات، البير ٤٦٩
 فرعون، هنري ٩٩-١٠٠، ١٠٢، ١٥٤، ٤٣٣، ٤٣٤،
 ٥١٤
 فرنجية سليمان طوني ٧٣٧، ٧٧١

معريس، انتطوان ٤٧١
معن، (امراء آل) ٨١
المعوشي، بولس بطرس ١٥٣
معوض، رينيه ٧٢٣-٧٢٦
مفتي الجمهورية، راجع: خالد، جسن
المقتم، فاروق ٢٣٨
مورفي، ريشارد ٦٩٥-٦٩٦
موسوي، حسين ٣٤٥
ناصر، راجع: عبد الناصر

نجار، ابراهيم ٤٧٢-٤٧٣، ٥٢٢
نصر، سليم ٦٦، ١١٦، ١٢٩، ١٣٧-١٣٩، ٤٨٤-
٤٨٥
نصر، مرلين ١٣٩
نعمان، بولس ٢٤٤، ٣٦٥، ٤٧٣
نقاش، جورج ١٤٩
نورثون، اوغست ريشارد ٦٦

هارتمان، كلاوس بيتر ١١٧-١١٨
هايف، الكسندر ٣١٠، ٣١١، ٣٢٠-٣٢٢، ٣٢٦، ٦٨٦
هراوي، الياس ٧٢٦-٧٢٩، ٧٣١-٧٣٥، ٧٤٣-٧٤٥،
٧٤٧-٧٥٢، ٧٥٧، ٧٦٠، ٧٦٢، ٧٧١، ٧٧٥
هنتفون، صموئيل ٣٣
هوتنغر، ارنولد ٣٧٨، ٧٠٥
هيمسون، مايكل ٦٤، ٧٧٨

ويزمان، غازار ٣٠٩
واكيم، نجاح ٢٣٩
الوزان، شفيق ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٣، ٣٤١
٣٤٢، ٣٥٣، ٣٥٥، ٦٠٢
اليافي، عبد الله ١٥٣، ١٥٤، ٢٦٣، ٢٦٤
يونس، منوال ٥٢٤، ٥٢٥

٤٥٠، ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٨٨، ٦٠٤، ٦٩٥،
٧٧٩
كلينتون، بيل ٧٧٠
كوادنت، وليم ٢٢٩
كودرنا، مايكل ٦٥
كوراني، حبيب ٧٨
كوسيفن، الكسي ٢٧٥
كوف دي مورفيل، موريس ٢٦٤
كوهر، فولفكانغ ٦٧
كوهن، هانس ٢٥
كيسنغر، هنري ١٨٣، ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤،
٢٣١، ٢٦٠، ٤٦٦، ٤٨٠

لامبروخ، غرهارد ٧١، ١٨٣، ٦٨٣
ليدي، محمود ٥٠٧
ليكي، بطرس ٩٩، ١٢٩، ١٣٤، ٤١٦
لحد، انتطوان ٣٦٦-٣٩٣، ٧٣١، ٧٣٨، ٧٦١
لحد، آميل ٧٢٩، ٧٣٢، ٧٤٥، ٧٤٩
لوبراني، اوري ٣٤٨
ليجيبهارت، ارند ٥٨
لينين، فلاديمير ٥٣، ٧١

ماركس، كارل ٣١، ٤١، ٢٩٠
مالك، شارل ١٥، ١٥٣، ١٥٥، ٢٤٣، ٤٧٣، ٥٤٢-
٥٤٣
مايلا، جوزف ٧١٧، ٧٨٤
متران، فرنسوا ٧٠٨، ٧١٠، ٧٥٢
محسن، زهير ١٩١، ٢٦٨
مخبير، البير ٧٢٣، ٧٦٣
المر، ميشال ٧٥٩
مرهج، يشاره ٧٧٣
مسعد، بولس ٨٦

فهرس الموضوعات

إتفاق القاهرة ١٦٢، ٢١٣، ٢٨٢، ٢٨٩، ٢٨٣، ٧٥٢	الأحرار، جريدة ٦١٢، ٦١٤
إتفاق دمشق بين الميليشيات ٣٧٥-٣٧٧، ٣٨١، ٧١٣، ٦٩٤، ٦٩١، ٦٨٦	أحزاب سياسية ١٠٣-١٠٥
إتفاق دمشق علم ٢٦٦ ١٩٧٦	الأردن ١٨٨، ١٩٤، ١٩٥، ٢٢٦، ٧٨٧
إتفاق سيناء (٢) ٢٢١، ٢٣٤، ٢٦٠	الأرمن ٧٥، ٧٦، ٨٣، ١٠٥، ١٠٨، ١٤١، ١٤٢، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٨، ٥٧٣، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٨٩، ٥٨٩، ٥٩٢، ٥٩٤، ٥٩٥، ٦١٢، ٦٤٨، ٦٣٢، ٦٢٩، ٦٢٧، ٦٢٥، ٦١٥
إتفاق ملكارت ٢١٩	الأشوريون ٧٥، ١١٨، ١١٩، ١٣٩
إجراء ٤٠٣، ٤٠٤	الأعيان ٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٨، ٩٣، ١٠٣، ١٠٨-
إجلاء منظمة التحرير من بيروت ٣٢٧، ٣٢٩	١١٠، ١٥٧، ٢٤٦، ١٦٨، ٤٨٨، ٤٩٩
إجلاء منظمة التحرير من طرابلس ٣٦٢	٥٦٤، ٥٢٠ راجع أيضا: الزعماء
إجمالي الناتج القومي ٤٣٤، ٧٦٢	أكراد ١٢٠، ١٣٢، ٢٥٢، ٢٥٦، ٣٧٣، ٣٨٥، ٤٢٤
إحصاء السكان ١١٦، ١١٧	أمراء الحرب ٧٨٣
إخوان مسلمون ١٩٦، ٢٠٠، ٣٠٦	أمل، ميليشيا حركة ١٦٧، ٢٤١، ٢٦١، ٣٠٤
إيرف ١٣١، ٤٥٠	٣٠٦، ٣١٦، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٤٥، ٣٤٦
إسرائيل ٧٣٧، ٧٤٣	٣٤٩، ٣٥١، ٣٦٤، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣
إسلاميون، أصوليون ١٩٦-١٩٨، ٥٠٤، ٦١٠	٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧
٦٢٤، ٦٢٨، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٨، ٦٤٩	٣٩٣، ٤٠٩، ٤٩٦، ٤٩٧، ٦٠٦، ٦١١
٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٨، ٧٣٧، ٧٦٧، ٧٧١	٦١٢، ٦١٤، ٧٣٦-٧٣٨، ٧٤٨، ٧٤٩
٧٨٧	٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٦، ٧٦٧، ٧٧٢، ٧٧٩
إلغاء الطائفية ٧٨٤	الأمم المتحدة ٢٣، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٣٦، ٢٨٨
الإمبراطورية العثمانية ٢٦، ٢٨، ٧٩، ٨٨، ٩١	٣٢٨، ٣١٠
١٨٥، ١٨٤، ٩٢	الأنوار، جريدة ٦١٢، ٦١٣
إمبراطورية آل هابسبورغ ٢٦، ٢٨، ٥٤	إثنية ٣٣، ٣٤، ٣٥
إمباريات طائفية ١٢٧، ١٢٨، ٤٦٤، ٤٦٨، ٤٧٠	الإتحاد السوفياتي ١٥٢، ١٨٤، ١٨٦، ٢٠١، ٢٢٤
إمباريات أجنبية ٨٣	٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٦، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٢٢
إنتاج التحرير ٨٩	٣٢٥، ٧٠٧، ٧٢٤، ٧٢٨، ٧٤٢
إنتخابات رئيس الجمهورية ١٥٨، ١٥٩، ٢٧٤	إتحاد العمال العام ٧٧٠، ٧٧١
٢٧٥، ٣٣٠، ٣٣٢، ٦٩٥، ٧٢٣، ٧٢٦	إتفاق لبناني إسرائيلي ١٩٨٣، ٣٣٧، ٣٤٧، ٣٤٨
٧٢٧	٣٧٥، ٣٩٢
إنتداب عصبة الأمم ٢٧، ٩٢، ٩٩	

٧٨٢، ٧١٦
 تعبئة سياسية ٣٨، ٥٨، ٦٠٠-٦٠٢
 تعداد السكان ٩٣، ٩٨، ١١٦، ١١٧، ١٥٢، ٣٧٧
 تقسيم ٥٥، ٢٦١، ٥٠٣، ٥١٩، ٥٢٠، ٦٣٧، ٦٣٨
 ٦٤٥-٣٤٣
 تمدين، نزوح من الريف ٣٥، ٣٦، ٤٧، ٥٩، ١٤٣
 تمويل الميليشيات ٤٠٨
 التنظيم، حركة ٢٤٣، ٤٧٤
 تهجير، مهجرون، ٤٠١، ٤٢١-٤٢٣، ٧٥١
 توافق، توفيق ٥٣، ١٠١، ١٧٤، ٢٢٦، ٦٣٨-٦٥٢
 ٦٧٢، ٦٧٦، ٦٩٢، ٦٩٣، ٧٨٨
 توافق إستراتيجي ٣١٩، ٣٢٦
 التوحيد، حركة ٣٦١، ٣٧٥
 ثورة ماء الورد ١٥١
 جامعة الدول العربية ١٨٧، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٨
 ٢٢١، ٢٧٨، ٢٨٢، ٣٧٢، ٦٩٩، ٧٠٣
 ٧٠٧، ٧٠٩
 جامعة الروح القدس في الكسليك ٢٩٠
 جامعة القديس يوسف ٨٨، ٤٥٣، ٧٦٦
 جامعة بيروت الاميريكية ١٨٨، ١٩١، ٤٥٣
 جامعة لاقال ٧٦٦
 جبهة الضرائب ٧٩، ٨٠
 جبهة التحرير العربية ١٩٤، ٢١٦، ٣٠٦، ٣١٦
 الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ١٩٤، ٢١٦
 ٢٣٥، ٢٥٧، ٤٧٩
 الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ١٩٤، ٢١٤، ٢١٦
 ٢٣٥، ٣٧١، ٣٧٢
 الجبهة اللبنانية ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٦٧، ٢٧٠
 ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩٥
 ٢٩٦، ٣١٠، ٧١٣

إهذه، حادثة ٢٩٤
 إيران ٢٠٠، ٣٧٢، ٣٨٨، ٦٢١-٦٢٣، ٦٢٥
 ٦٨٦، ٦٨٩، ٦٩٤
 ايلول الأسود ٢٠، ١٩٥، ٢١٥
 احزاب علوية ٧٥٦
 الاشتراكية العربية ١٨٩
 انتخابات تشريعية ١٥٠، ١٥٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ٧٤٥
 اوروبا الشرقية ٧٤٢
 ايطاليا ٣٢٧، ٣٥١، ٣٥٨
 البرلمان الاوروي ٧٧٠
 بروتالين ٢٢١، ٢٢٢
 بروتوكول الاسكندرية ١٥٠
 البطريك الماروني ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٥، ٧٣٥
 ٧٥٥، ٧٦٦
 بناء أمة ٢٨، ٣٠، ٣١، ٥٢
 بيزنطية ٧٤
 تحديث، حادثة ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٤٧، ٩٥، ١٤٦
 تحرك جغرافي ٥٤٢، ٥٤٣
 تحرك مهلي ٥٤٥، ٥٤٦
 تكين ٥٨٥، ٥٨٦
 تربية وثقافة ٤٧، ٨٢، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ١٢٦، ١٢٧
 ١٣١، ١٣٢، ١٥٢، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٥٣
 ٥٣٨-٥٤٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٧٠، ٥٧١
 تركيب وذي ٧١٦
 ترويكال العربية ٧٠٧-٧٠٩، ٧٢٦-٧٢٨، ٧٣٥
 ٧٤٢
 تضخم ٤٣٨، ٤٣٩
 تعاض ٣٢، ٤٩، ٥٦، ٥٨، ٦٢، ٦٥، ٦٥٤-٦٥٦
 ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦٤-٦٦٦، ٦٨٤، ٧١٤

الحزب الشيوعي، منظمة العمل الشيوعي
في لبنان، الحزب القومي السوري، اليسار
اللبناني

حركة ٢٤ أكتوبر ٢٢٨
حركة القومية العربية ١٨٨، ١٩٠
حركة المحرومين ١٦٧، ٢٤١
حرمان ثقافي رمزي ٤٧
حرمان نمبي ٤٥، ٥٥٧، ٥٧٠، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٩٥
٦٩٢
حروب إسرائيل عربية ١٤٨، ١٥٣، ١٨٨-١٩١
٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢٢١
الحزام الأمني الإسرائيلي ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٩٤، ٣٩٥
٧٣٦، ٧٦٢، ٧٧٠، ٧٨٧
حزب الاحرار، راجع ايضا شمعون، كميل: ١٠٨
١٦١، ٢٤٣، ٢٦٦
حزب البعث ١٠٦، ١٤٢، ١٨٨، ١٨٩، ٢١٦
٢٣٣، ٢٧٦، ٣٤٧، ٣٦١، ٥٠٠، ٧٥٠
٧٥٦، ٧٦٢، ٧٧١، ٧٨٦
حزب البعث العراقي ٧٧٣
الحزب التقدمي الاشتراكي ١٠٧، ١٦٦، ١٧٦
١٧٧، ٣٤٧، ٤٩٧، ٤٩٨، ٦٠٦، ٦٠٩-
٦١١، ٦٢٥، ٦٤٣، ٦٥٢، ٦٥٥، ٦٥٦
٦٥٨، ٧٤٨، ٧٥٢، ٧٥٤، ٧٥٦، ٧٥٧
٧٦٧، ٧٨٠
الحزب الديمقراطي العربي (الفرسان الحمر) ٣٧٢
٣٧٥
حزب الطاشناق ١٠٨، ٢٥٧
الحزب الشيوعي ١٠٤، ١٠٥، ١٤٣، ١٧٤، ٢١٦
٢١٧، ٢٥٩، ٣٧٤، ٣٨٤، ٦٩٨
الحزب القومي السوري ٩٨، ١٠٥، ١٥٤، ١٥٨
١٥٩، ٢٥٩، ٢٧٩، ٣٤٧، ٣٦١، ٣٧٥
٣٨٠، ٣٩٠، ٤٩٩، ٧٣٥، ٧٥٠، ٧٥٦

جرحي ٤١٧-٤١٨

جيش التحرير الفلسطيني ١٩١، ٢١٨، ٢٦٥، ٢٦٦
٢٧٠، ٢٧٦، ٣٠٢، ٣٦٢
جيش لبنان العربي ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٨٣
الجيش الاسرائيلي ٢١٠، ٢١١، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٣
٢٢٤، ٤١٤، ٤١٨، ٧٥٩
الجيش السوري ٢٣٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩
٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩١، ٣٠٣، ٣٠٧
٣١٧، ٣٢٢، ٣٧٥، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٩
٣٩٩٧، ٤١١، ٤١٨، ٧٠٢، ٧٠٤، ٧٠٩
٧١٩-٧٢٦، ٧٤٨، ٧٥٣-٧٦٠، ٧٦٣
الجيش اللبناني ٢٠٨، ٢٠٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٣
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٧٩
٢٨٤، ٢٩٢، ٣٠١، ٣٠٢، ٣١١
٣١٦، ٣٢٨، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٥
٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٧٨، ٣٧٩
٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٧، ٤١٨
٦٨٦، ٦٩٦، ٦٩٩، ٧٠١، ٧٢٩، ٧٣٠-
٧٣٤، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٥١-٧٦١

حراس الأرز ٢٤٣

حراس الثورة، البسدران ٣٤٥

حرب الاعلام ٣٧٤

حرب الخليج ١٨٦، ٢٠٠، ٣٠٦

حرب الشوارع ٤١٣

الحرب الأهلية ٢٢، ٤٩، ٥٦، ١٤٧، ١٥٤، ٢٣٠
٢٦٠، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٨٨
٦٦٤، ٦٧٤، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٩٢، ٧٠١

٧١٩

حركات السلام ٧٧٩-٧٨١

حركات طلابية ١٢٨، ١٤٥

الحركة الوطنية؛ راجع: الحزب التقدمي الاشتراكي،

دول كبرى ٦٤، ١٨٥، ٢٣١؛ راجع ايضا: الاتحاد

السوفياتي والولايات المتحدة

دولة الحزب الواحد ٦٣٧، ٦٣٩، ٦٤٣-٦٥٣

دومفيرا ١٢٢، ٧١٦

ديمقراطية الاكثرية ١٠١، ٣٤٧، ٣٨٨، ٥١٨-

٥٢٠، ٥٢٣، ٥٢٤، ٦٣٧، ٦٣٩، ٦٤٠،

٦٤٣-٦٥١، ٦٨٢، ٧١٣، ٧١٥، ٧٨٢

ديمقراطية التوافق ٧٨٢

نمّة، نظام الحماية ٢٠، ٢١، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٥٠٤،

٥٢٣

رؤساء الطوائف الدينية ١١٤

رئيس الجمهورية ١٠١، ١١٦، ١٢٢، ١٢٣، ٧١٦

رئيس الحكومة ٩٨، ١٠٤، ١٢٢، ٧١٦

رئيس مجلس النواب ٦٩٧، ٧١٦

الرابطة المارونية ١١٤

روسيا ٨٤، ١٨٧

روم ارثوذكس ٩٠، ١٠٥، ١٠٦، ١١٥، ١٤١،

١٧٤، ١٨٠، ٢٤٦، ٥٥٩، ٥٦٧، ٥٧٢،

٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٩، ٥٨٤، ٥٨٧، ٥٩٠،

٥٩٤، ٦٠٢، ٦١٢-٦١٨، ٦٢٢، ٦٢٣،

٦٢٥، ٦٢٧، ٦٢٩، ٦٣٤، ٦٣٩، ٦٤٨،

٦٥٨، ٦٧٨

روم كاثوليك ٩٠، ١١٥، ١٤١، ١٧٤، ١٨٠، ٢٤٦،

٢٩٧، ٥٥٩، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٦، ٥٧٧،

٥٧٩، ٥٨٧، ٥٩٠، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦٠٢،

٦١٢، ٦١٤، ٦٢٣، ٦٢٥، ٦٢٧، ٦٢٩،

٦٣٢، ٦٣٤، ٦٣٩، ٦٤٨، ٦٥٨

روما ٧٤

زراعة ١٣٥

٧٧١، ٧٦٧

حزب الله ٢٠٠، ٣٦٤، ٣٧٢، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩٣،

٤١٠، ٤٤٢، ٦٨٩، ٧٣٦، ٧٣٨-٧٣٦،

٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٢، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٧،

٧٧٠-٧٧٢، ٧٨٧

حزب الهنشاك ١٠٨

حزب رمفغار ١٠٨

حصار بيروت الغربية ٣٢٤، ٣٢٥

حكم ذاتي في جبل لبنان ٧٨، ٨١، ٨٥

حكومة الاتحاد الوطني ٧٣٥

حكومة الحريري ٧٧٨، ٧٨٤

حكومة تصريف اعمال ٦٩٥، ٦٩٧

حلف بغداد ١٥٢، ١٥٣، ١٨٧

"خط أحمر" ٢٧٤، ٣١٢، ٦٨٧، ٧٢٨، ٧٤٥

خطة ريغن ٣٢٧، ٣٣٧

"خطوط التماس" ٢٧٠، ٣٠٢، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٠،

٣٨٠، ٣٩٠، ٦٦٤

دخل الفرد ٤٣٩

الدروز ٢١، ٧٧، ٧٩، ٨٤، ٨٧، ١٠٨، ١١٥،

١٧٤، ٣٣٤، ٣٣٩-٣٤١، ٣٤٨، ٣٥٥،

٣٥٨، ٤٠٩، ٤٩٨، ٥٥٩، ٥٧٣-٥٧٤،

٥٧٦-٥٧٧، ٥٨٤، ٥٨٧، ٥٨٩، ٥٩٤،

٥٩٥، ٥٩٩-٦٠١، ٦١٢، ٦٢٢، ٦٢٥،

٦٢٧-٦٢٩، ٦٣٤، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤٨،

٦٥١، ٦٥٨-٦٥٦، ٧٣٨

الدستور اللبناني ٩٧

الدستور ٩٨

دمج، عملية ٤٣، ٤٤، ٤٧، ١٣٠، ١٣١، ٦٧٨،

٦٩٢

الدول الغربية ٧٨٨

دول خليجية ٧٨٤

سياسة اقتصادية ١٣٢، ١٣٣، ٤٥٦
سياسة الأمن اللينينية ٢٠٧-٢٠٩، ٤٥٩
سياسة التنمية، سياسة اجتماعية ١٥٦، ١٥٩، ١٦٩،
٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦٢، ٧١٩
الميطرة ٤٩، ٥٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٤٣-٦٥١
الشهوية، الشهابيون ١٦١، ١٨١، ٤٥٤، ٤٥٥،
٤٧٣، ٧٧٨
الشيعة ٢١، ٧٧، ٩٦، ١٠٥، ١٠٦، ١٣٩، ١٤١،
١٤٢، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤،
١٧٨، ١٨٠، ٢٠٨، ٢٢٠، ٢٤١، ٢٥٢،
٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٨٤، ٣٠٣-
٣٠٥، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٤،
٣٥٥، ٣٦٧، ٣٨٧، ٤٠٩، ٤٢٩، ٤٣٠،
٤٥٢، ٤٥٣، ٤٩٠، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٦٠،
٥٦٦، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٦، ٥٨٢-٥٨٤،
٥٨٧، ٥٩، ٥٩٢-٥٩٥، ٥٩٨، ٦٠١،
٦٠٣، ٦١٢-٦١٤، ٦١٥، ٦٢٢، ٦٢٣،
٦٢٥، ٦٢٩-٦٣٤، ٦٣٩، ٦٤٢،
٦٤٨، ٦٦٥، ٦٦٨، ٦٨٧، ٧١٣،
٧١٨، ٧٣٧، ٧٣٨
الصناعة ١٩١، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨، ٢٣٥،
٢٦٦، ٢٧٠
صحف ٦١٥-٦١٧
صناعة ٩٤، ١٣٦، ١٣٧، ٤٦٠
طائفية سياسية ٧٧٤
طبقات، نظام طبقي ٣١، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٣،
٤٦، ١٣١-١٣٣، ١٣٨-١٤٥،
١٧١، ١٧٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٩
طوائف لبنانية ٩٦، ١١١، ١١٣، ٤٠٥، ٤٠٦

زعاء ٩٩، ١٠٨-١١٠، ١١٤، ٥٩٦-٥٩٩، ٦٠٦،
٦٠٧، ٦٦٨
زواج مختلط ١١١، ١٧٧، ١٧٨، ٤٨٥، ٤٨٦،
٥٩٢، ٥٩٣
السعودية، المملكة العربية ١٨٥، ٢٢٦، ٢٦٤، ٢٩٢،
٣٠٠، ٣٤٨، ٧٠٣، ٧٠٧، ٧١٢، ٧٢٠،
٧٧٤، ٧٧٤
السفير، جريدة ٦١٢، ٦١٣
السنة ٢١، ٧٧، ١٠٧، ١٤٢/١٤، ١٦٨، ١٦٩،
١٧٣، ١٧٤، ١٧٧-١٨٠، ٢٠٧، ٢١٦،
٢٥٢، ٢٥٤، ٣٠٤، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٧٩،
٣٨٠، ٤٠٦، ٤٩٠-٤٩٣، ٥٢٤، ٥٧٣،
٥٧٤، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦١١-
٦١٣، ٦٢٣، ٦٢٥، ٦٢٧-٦٢٩، ٦٣٢،
٦٣٣، ٦٤٨، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٧٨، ٦٩٠،
٧١٣، ٧١٨، ٧١٩، ٧٤٤
السودان ٢٧٨
سوريا ١٨، ١٩، ٩٩، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٥، ١٨٥،
١٨٨، ١٨٩، ٢٠٤، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١،
٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٦٢، ٢٦٤،
٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٢، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٢٢،
٣٢٨، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٧٨،
٣٨٨، ٣٨٩، ٤٨٦، ٤٨٩، ٤٩٠، ٥٠٠،
٥٢٤، ٦٢٢، ٦٨٥، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩٦،
٦٩٨، ٧٠١، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٧،
٧٠٨، ٧١٠-٧١٢، ٧١٩، ٧٢٦-٧٢٨،
٧٣٤-٧٣٦، ٧٣٧، ٧٤٢، ٧٤٤، ٧٤٧،
٧٥١، ٧٥٤، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٦٣، ٧٦٦،
٧٧١-٧٧٥، ٧٨٣، ٧٨٦-٧٨٨
سويسرا ٦٢٣، ٦٢٤
سياحة ١٣٦

٧٣٣، ٧٣٤، ٧٤٣، ٧٤٥-٧٤٨، ٧٥٣-
٧٥٩، ٧٦٦، ٧٨١، ٧٨٣
فروقات إجتماعية ١٣٠-١٣٣، ٥٨٠-٥٨٢، ٦٦٧-
٦٦٩
فروقات في الدخل ١٣٣، ١٣٤، ١٧٥-١٧٧، ٤٥٦،
٤٧٣، ٤٧٤، ٦٧٨
فلسطينيون ١٩، ٢٢، ١٣٢، ١٥٨، ١٩٠-١٩٢،
٢٢٣، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧١،
٤٧٢، ٤٨٣، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٩٢، ٦٨٣،
٦٩٣، ٦٩٤، ٧٣٧، ٧٣٨
فلكيون ماركسيون ٥٤
قانون الانتخاب ٩٦، ١١٢، ١١٤، ٧٥٦، ٧٦٣،
٧٦٩
قتل على الهوية ٤٠٠
قتلى ٤١٧، ٤١٨
القطاع المصرفي ١٣٦
قمة المارتينيك ٧٥٢
قمة سورية لبنانية ٧٧٥، ٧٨٣
قوات السلام العربية في لبنان ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٩١،
٣٠٠
قوات متعددة الجنسيات ٣٢٧، ٣٣٣، ٣٥١، ٣٥٢،
٣٥٤، ٣٥٥، ٤١٨
قوات مسلحة فلسطينية ١٤٨، ١٥٨، ١٦٣-١٦٥،
١٦٦، ١٦٨، ١٨١، ١٩٢-١٩٤، ٢٠٩
٢١٤، ٢٢٦، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٩، ٢٨٢،
٢٨٣، ٣٠٣-٣٠٥
القوات اللبنانية، ميليشيات الكتائب، الميليشيات
المسيحية ٢٤٥، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٩٢، ٢٩٣،
٢٩٤، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٣٢، ٣٤٠، ٣٤٩،
٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٦، ٣٧٨،
٣٧٩، ٣٨٣، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٧، ٤١٨

توزيع السكان ١١٨، ١١٩؛ توزيع الدخل
٥٥٤-٥٥٥؛ توزيع مهني ٥٥٢
طوائف، تجمعات ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٥٦، ٥٩-٦١
عائلات كبيرة ١٠٩، ١١٠
عائلة: تضامن عائلي ٥٨٨-٥٩٠؛ مؤسسات عائلية
١٠٩؛ إتحادات عائلية ١١٠
عاشوراء ٣٤٤
عجز في الموازنة ٤٣٦، ٧٢٩، ٧٣٨
العراق ١٨٥، ٢٢٦، ٢٣٥، ٢٧٨، ٢٨٠، ٦٩٩،
٧٠٣، ٧٠٩، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٨٧، ٧٨٨
علماء ١٧٨
علمنة ٣٠، ١٧٦-١٧٨، ٦٢٦-٦٢٨، ٧١٧، ٧١٨
علمنة الدولة والمجتمع ٦٢٧-٦٢٩، ٦٣٤، ٦٣٥،
٦٤٢، ٦٤٣، ٦٧٠
علمنة سياسية ١٧٨، ٢٦٣، ٥٢٥
العلويون ١٨، ١٩٧، ٢٣٣، ٣١٥
العمل، جريدة ٦١٢، ٦١٣
عمليات الخطف ٤٠١، ٤٢٠
عمليات القصف ٣٩٨، ٣٩٩، ٤١٥
عين الرمانة، حادثة ٢٥٧
غزو غسرايلي ١٩٨٢ ٣١٩-٣٢١
الفاتيكان ٧٣٤، ٧٤٤، ٧٤٣
فتح ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٥، ٢١٤، ٢١٦، ٢٣٦، ٢٣٩،
٢٦٧، ٢٧٣، ٢٦٧
فدرالية، كنتنة ٣١٠، ٥٠٤، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٢٣،
٦٣٢، ٦٧١
فرنسا ٢٦، ٨٣، ٨٧، ٩٢، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٣١،
١٥٣، ٢٧٧، ٣٤٩، ٣٥٥، ٣٥٨، ٦٢١،
٦٩٨، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٩، ٧٢٤، ٧٢٨

مؤتمر جينيف للسلام ٢٠٤
 مؤتمر لوزان للمصالحة الوطنية ٣٦٠
 مؤتمر وطني في جنيف ٣٥٣
 مؤسسة الإغاثة السعودية ٧٦٦
 مؤسسة الحريري ٧٦٦
 الماركسية ٣٥، ٣٦، ٤٥٨، ٤٩٦
 ميذا شخصي ٥٤
 مجازر ٨٧، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٨٠، ٣٣١، ٣٣٦
 ٤٢١، ٤٣٠، ٣٧٢، ٣٥٠
 مجتمع منفي ١٧٥، ٦٢٨-٦٣٠
 مجتمعات تعددية ٩٧
 المجلس الشيعي الأعلى ١٤٣، ١٧٢، ٢٤١
 مجلس الروم الارثوذكس ١١٣
 مجلس الممثلين ٨٨
 مجلس النواب ٩٦، ١٠٨، ١١٢، ١١٣، ١٢١
 ٢١٣، ٢٩٣، ٣٤٨، ٣٩٢، ٤٠٦، ٤٩٥
 ٦٩٨، ٧٠٧، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٥، ٧٢١
 ٧٢٢، ٧٢٦، ٧٤٤، ٧٥١، ٧٥٦، ٧٥٧
 مجلس شيوخ ٧١٥
 مختيمات فلسطينية ١٩٠، ٢٠٩، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٦٤
 ٣٨٢، ٣٨٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٧٣٨، ٧٥٧
 ١٧٥٩
 المراهبون ٢٣٩، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٠٢، ٣٤٩، ٣٦٣
 ٣٦٤، ٤٩٢، ٤٩٥، ٥١٧
 المردة، ميليشيا فرنجية ٢٤٣، ٢٤٤، ٧٠٠
 المسألة الشرقية ٦٤
 المساواة ٨٨، ١٢٦، ٧١٥، ٧١٧، ٧١٨
 مسلموات ٦٢، ١٠٢، ٥١١، ٥١٢
 المسلمون اللبنانيون ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٢٤٦، ٢٤٤، ٦٦٤
 ٦٦٥، ٦٧٣
 المسيحيون اللبنانيون ٢٠، ٢٢، ٢٤٦، ٢٤٨، ٤٥١
 ٥٢٤، ٦٢٨، ٦٣٠، ٦٦٤-٦٦٦، ٦٧٣

٤٩٣، ٦٩٥، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٢١
 قوانين الاحوال الشخصية ٩٧
 القومية العربية ٢٦، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٦-١٩٨
 القومية اللبنانية ٧٤، ٨٩، ٩٩، ١٠٧، ١٤٩، ١٥٠
 ١٧٢، ١٧٩، ٤٤٩
 قومية سوريا الكبرى ٨٩، ٩١، ٩٨، ١٤٩
 الكتائب اللبنانية ٩٨، ١٠٠، ١٠٧، ١٠٨، ١٤٩
 ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٦١، ١٦٧، ١٧٥
 ١٧٩، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٤٣، ٢٥٧، ٢٧٢
 ٢٩٥، ٢٣١، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٨
 ٣٧١، ٣٩٩، ٧٣٠، ٧٤٨، ٧٥٠-٧٥٢
 ٧٥٧، ٧٥٧، ٧٦٧، ٧٧٩
 الكتلة الوطنية ٩٨، ١٠٨، ١٦١، ١٧٧، ٧٦٦
 كنتنة؛ راجع: قدر الية
 الكويت ٢٦٤، ٣٤٨، ٧٤٢، ٧٤٣
 لامركزية سياسية ٦٣٠-٦٣٢
 "لبنان الحر" ٣٠٢
 لبنان الصغير ٨٨
 لبنان الكبير ٩٢، ٩٤
 لجنة الحوار الوطني ٢٦٢، ٢٦٣
 لوريافي ٦١٢، ٦١٣
 اللوام جريدة ٦١٢، ٦١٣
 لوريون لو جور ٦١٢، ٦١٣
 ليبيا ٢٢٦، ٢٣٥
 الليطاني، عملية ٢٨٧
 "مجلس تنمية" القوات اللبنانية ٦٩٩
 مؤامرة، نظريات ٢٣١، ٤٦٥، ٤٨٦، ٦٨٩
 مؤتمر الطائف ٧١٢-٧٢١
 مؤتمر بيت الدين ٣٠٠، ٣١٢

٦١٦، ٦٢٣، ٦٢٥، ٦٢٧، ٦٢٩، ٦٣٢-
٦٣٤، ٦٤٨، ٦٥٦، ٦٥٨، ٦٧٨، ٦١٨،
٧٣٧
الموظفون ٩٧، ١٠١، ١٠٢، ١٢٤، ١٢٥، ٦٨١،
٧١٧
الميثاق الوطني ١٠٠-١٠٣، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٥،
١٦٩، ١٧٤، ١٨١، ٢٤٥، ٢٦١، ٢٦٤،
٢٩١، ٣١٠، ٣٩١، ٤٤٥، ٤٥٢، ٤٥٣،
٥١٤، ٥١٧، ٥١٨، ٦٧٦، ٦٧٩، ٦٩٧،
٧١٥، ٧١٧، ٧١٨
ميزان المنقوعات ٤٣٥، ٤٣٦
ميزان المنقوعات ٤٣٦
ميليشيا الدروز ٣٠٢، ٣٢٩، ٣٣٩-٣٤١، ٣٤٩-
٣٥٢، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٧٣، ٣٨٦-٣٨٤،
٤١٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٩، ٧١٢
ميليشيات حذّاد، جيش لبنان الجنوبي (لحد) ٣٣٥،
٣٦٦، ٣٧٠، ٣٩٣، ٦٨٧، ٧٣٦، ٧٣٨
ميليشيات منظمة التحرير الفلسطينية ١٠٧،
٣٠٣، ٣٦٤، ٥٦٢، ٦٩٠، ٧٢٠، ٧٣٥
٧٤٥، ٧٥١-٧٥٥، ٧٧٨
ميليشيل حبيقة ٧٣٥، ٧٣٧، ٧٤٨
النجّادة حزب ٩٨، ١٠٠، ١٠٨
النداء، جريدة ٦١٢، ٦١٣
نزاعات إجتماعية ١٤٢، ١٤٣، ١٦٥، ١٧١، ٤٥٦،
٤٦٩، ٤٧٠، ٤٨٤، ٦٨٠، ٦٨١
نزوح السكان حسب الانتماء الطائفي ٤٢٨
"تساء ضد الحرب" ٧٧٩
النسبة، نظام ٨٨، ١٠١، ١٠٣، ١١٥، ١١٦، ١٢٧،
١٤٤، ٣٧٧، ٧١٣، ٧١٥، ٧١٨
نظام المجلسين ٧١٥، ٧١٧
نظام شكيب أفندي ٨٦

٦٨٧
مشروع ايزنهاور ١٤٧
مصر ٨٣، ٨٤، ١٤٧، ١٥٥، ١٥٨، ١٨٥، ١٨٩،
٢٠٤، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٦٤، ٢٧٥
مصرف مركزي ٦٩٥، ٧٢٩، ٧٦٢
معاقون ٧٧٩
معاهدة الأخوة ٧٥٤-٧٥٦، ٧٦١، ٧٧٤
معاهدة كعب دغفد ٢٣٤، ٢٩٩، ٣١٩
معاهدة واستقاليا للسلام ٦٢
معركة الجبل ٢٧٠، ٢٧١، ٤١١
مفقودون ٤١٧-٤١٨
المقاصد ١١٤، ١٧٧
مقاطعة الانتخابات ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩
المكتب الثاني ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٧،
٢٠٨، ٢٣٩، ٢٥٨، ٤٥٤، ٤٥٥، ٦٩٨
ملكوتون؛ راجع: روم كاثوليك وروم ارثوذكس
المنظمة الشعبية الناصرية ٢٣٨، ٣٦٧، ٣٧٠
٧٣٨
منظمة التحرير الفلسطينية ١٩١، ٢١٢، ٢١٣،
٢١٨، ٢٣٦-٢٣٨، ٢٦٠، ٢٨٢، ٢٨٥،
٢٨٦، ٣٠٢، ٣١٤، ٣٦٠-٣٦٢، ٢٦٤،
٣٧٢-٣٧٠، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٨٤،
٤١٠، ٧٠٩، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٥٧، ٧٥٨-
٧٦٢، ٧٨٧
منظمة العمل الشيوعي في لبنان ١٠٤، ٢١٦، ٥٠١،
٥٠٢
الموارنة ٧٦، ٨٢-٨٧، ٩٢، ١٠٧، ١١٥، ١٤١،
١٧٣، ١٧٩، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٧٢، ٣٢١،
٤٠٦، ٤٩٦، ٤٩٩، ٥٠١، ٥٠٧، ٥٥٩،
٥٦٦، ٥٦٧، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٦، ٥٧٧،
٥٧٣، ٥٨٠، ٥٨٢، ٥٨٤، ٥٨٧، ٥٨٨،
٥٩٢، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٩، ٦١٢، ٦١٤

نقابات ١٣٢، ١٣٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٧١، ٦٨١،

٧٨، ٧٧٩

نقابة المحامين ٧٧٩

النمسا ٨٣، ٨٧، ٦٢١

نمور الاحرار ٢١٤، ٢٧٨، ٣٠٩، ٣١٠

النهار، جريدة ٦١٢، ٦١٣

هجرة، لبنانيو الخارج ٨٤، ١١٠، ١٢٠، ١٢١،

١٣٦، ٤٢٩-٤٣١، ٤٥٨، ٧٣٩، ٧٦٦

هرب، نازحون ٤٢١-٤٢٣، ٤٢٧-٤٢٩

"الهلال الخصيب" ١٠٥

وثيقة التفاهم الوطني (الترويكات) ٧١١، ٧١٢

وثيقة الطائف ٧١٤-٧١٧، ٧٢٣، ٧٣٤-٧٣٥،

٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٦، ٧٥١، ٧٥٧، ٧٦٠-

٧٦٣، ٧٦٤

وعي طائفي، هوية طائفية ٤٦، ٥٢، ٥٤، ٥٩٠

الولايات المتحدة ١٥٢، ١٥٥، ١٨٤، ٢٠١، ٢٠٢،

٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٧٤، ٢٨٦، ٣١١،

٣١٢، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٥٧-

٣٥٩، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٩٦، ٧٠٣، ٧٠٦،

٧٢١، ٧٢٤، ٧٢٨، ٧٤٣، ٧٥٢، ٧٧٤

اليسار اللبناني ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٦٣، ٢٦٧،

٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٣، ٣١٦، ٣١٧،

٦٠٦، ٦٠٩-٦١٢، ٦٤٠، ٦٤٢، ٦٤٩،

٦٥١، ٦٥٦، ٦٥٨، ٦٩٨

اليعاقبة (سريان ارثونكس) ٧٥، ١٣٩

يعقوبية ٥١-٥٣، ٥٩-٦١، ١٧٥

يونيفيل ٢٨٨، ٣٠١، ٣٩٣

كان الانتهاء من طبعه
في الاول من كانون الثاني ١٩٩٤
دار لحد خاطر للطباعة والنشر
ص.ب. : ١٦٦٠٢٠ بيروت
لبنان

**EURO-ARABISCHES STUDIENZENTRUM
PARIS**

THEODOR HANF

LIBANON - KOEXISTENZ IM KRIEG

Vom Staatszerfall zur Entstehung einer Nation

Aus dem Deutschen
von

MAURICE SALIBA